احمد عبد الغفور عطار

صقر الجزيرة

الطبعة الثالثة

١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

الطبعة الاولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

الطبعة الثانية

(طبعتان)

١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

الطبعة الثالثة

١٥ شعبان ١٣٩٢ هـ

٢٣ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٢ م

صقر الجزيرة

الجزء الأول

محمد بن عبد الوهاب

آل سعود

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

ها هوذا تاريخ زعيم عربي بحق لم يكن مشعبذا ولا طامعا ، بل دفعته حال الامة العربية الى أن يكون انبثاقة صادقة من صميمها الخالص ونطفتها النظيفة ليغير مجرى تاريخ العرب في العصر الحديث ، ويعيد لهم مجدهم المضيع .

تاريخ زعيم لا يكذب ولا يخادع ، زعيم عربي بنى مجده على الدين والاخلاق واعلاء كلمة الاسلام ، واعادة مجد العرب اليهم ، فبعد أن كانوا يعيشون حاشية في التاريخ المعاصر يستغنى عنها جعلها عبد العزيز في صميم التاريخ .

ها هوذا تاريخ زعيم حق ورث المجد كابرا عن كابر فأضاف الى التالد طريفا ، وأيقظ الحياة العقلية العربية والاسلامية ، وكان زعيما بانيا شيد حركته على الأخلاق والدين وجعلها غاية ووسيلة .

ليقرأ العرب في «صقر الجزيرة» سيرة زعيم عربي حق لم ير العرب مثله في ايمانه وصدقه وسلامة نيته وخلائقه المثلى وسياسته الحكيمة ، سيرة زعيم عربي كان له الفضل بعد الله في اقرار السلام في منطقة الشرق الاوسط العربي وجعلها منطقة تتطلع الى الحرية والاستقلال حتى نالته .

ليقرأ العرب والجيل الجديد تاريخ الزعيم العربي عبد العزيز بن سعود الذي غير مجرى العرب ، وحياة الامة العربية في كل مكان ، بل حياة الاسلام والمسلمين .

ليقرأوه حتى يروا « الزعامة » الصحيحة المبنية على المثل الانسانية التي تبني الضمير الحي النبيل ، وتتخذ الوسائل النظيفة الى الغايات المقدسة .

هنا تاريخ رجل بنى الامة العربية بعد أن تهدمت ، وأيقظها بعد أن أغفت مئات السنين ، ونفخ – بفضل الله – فيها الروح فتطلعت الى الحياة الحرة الكريمة ، ودفع بها إلى ميادين الشرف والحرية والكرامة ، بل دفع التاريخ العربي إلى الأمام أجيالا ، ولم تكن زعامته كهذه الزعامات القائمة على الباطل والخداع والتهريج والفسق والنهب والسلب وتخريب العقيدة والأخلاق والقيم الرفيعة ، بل زعامة قامت على نقيض ما نرى من زعامات لم ينل العرب منها الا الشر الوبيل والفرقة المدمرة والقلق الحاطم .

ولم يمت هذا الزعيم ، فهو حي بأعماله الجليلة المجيدة التي تجسدت في المملكة العربية السعودية التي بناها بيده وعقله وقلبه ، حي بأمته المسلمة المؤمنة ، حي بأبنائه البررة الكرام ، حي بابنه العظيم «فيصل» الذي حمل الراية في عهد أبيه وما زال يحملها ويقدم شعوب العرب وأمة الإسلام مجاهداً في سبيل الحق .

فإلى فيصل بن عبد العزيز قائد حركة الاسلام والعروبة في هذا العصر يُهدَى هذا الكتاب ، لأنه رمز العرب والمسلمين ، وعندما يهدى إليه يهدى إلى كل عربي وكل إنسان .

رحم الله عبد العزيز ، فلقد كان زعيم العرب الذي بنى لهم المجد الصحيح ، ومد الله في عمر «فيصل» ليكمل الصرح الذي بناه أبوه العظيم .

مكة : ١٢ ربيع الاول ١٣٩٢
٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٧٢

احمد عبد الغفور عطار

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه في الحقيقة الطبعة الرابعة ، لأن الطبعة الثانية كانت طبعتين : إحداهما على ورق ممتاز ، وكان كل جزء من الأجزاء الثلاثة على حدة ، والأخرى على ورق أخف وزنا ، ويضم ثلاثة الأجزاء غلاف واحد .

ولما كان عدد الصفحات فيهما واحدا ، ولم يكن هناك فارق الا في الورق وتقسيم الكتاب فقد عددت كلتا الطبعتين واحدة .

وهذه الطبعة تختلف عن الطبعات السابقة ، فهي تمتاز عليهن بالتنقيح والزيادة والصور التاريخية ، ومن بينها صور لم يسبق نشرها في أي مؤلّف عن صقر الجزيرة .

وإني لم أحابه ، وكل ما كتبته حق ، ولم أنتقص خصماً من خصومه على حسابه ، فهو في غير حاجة إلى أن يكمل بنقص الآخرين ، ويتم بانتزاع مزايـا سواه ، فهو سامق على السامقين ، ولا تخفى شخصيتَه شخصياتُ غيره من أقرانه ونظرائه العظماء ، بل لا تخطىء العين شخصيته البارزة بين تلك الشخصيات ، لأن لها خصائص وسمات تميزها عن غيرها في وضوح .

وأرجو أن أكون بطبع هذا الكتاب قد وفيت — بعض الوفاء — حق هذا الملك العظيم الذي بنى صرح مملكته على أساس الدين والأخلاق ، وقاد أمته إلى ما فيه خيرها وعزها ، وأعاد للاسلام عزته ، وللعرب كرامتهم المسلوبة المضيّعة ، كما

أرجو أن يجد الجيل الجديد في تاريخ هذا الحاكم العبقري العادل الرشيد الصالح المصلح ما يحيي له الأمل الذي قضى عليه الزعماء المزيفون المهرجون الألى أضاعوا الأمة العربية بحماقاتهم وسوء سياستهم وأفنهم وجهلهم فن الحكم والسياسة ما مكنوا لخصوم العروبة والاسلام من السيطرة على مقدراتهما ، وإفساد حياتهما العقلية والاقتصادية والسياسية والخلقية .

إن الجيل الجديد سيلقى في تاريخ زعيم العرب والمسلمين الأكبر عبد العزيز ابن عبدالرحمن الفيصل السعود كل ما يرجوه من المعاني الضخمة العظيمة في الزعيم المنشود .

وإذا كان الجيل الجديد فتح عينيه على «زعامات» زائفة قائمة على الكذب والتهريج والباطل والتضليل فإنه واجد حقاً «زعامة» آية في النظافة والمزايا الكريمة والخلائق الفاضلة والانسانية والعبقرية وسداد الرأي والعقل الراجح في خليفة عبد العزيز ابنه العبقري النابغة فيصل قائد حركة العروبة والاسلام في هذا العصر .

وإذا كان عبد العزيز قد توارى عن الحياة بموته فان كل مزاياه قد انتقلت إلى ابنه فيصل الذي أضاف إلى ما ورث جديدا من أعماله ومزاياه ، وطريفا يفوق تليده الكثير .

وإذا كنا نستنزل من الله عز وجل الرحمة ونرجوه المغفرة لعبد العزيز فإن العروبة والاسلام والانسانية تبتهل إلى الله أن يمد في عمر الملك فيصل بن عبدالعزيز ليكمل رسالته الخالدة ؛ فيعيد الى العرب والمسلمين - بمشيئة الله - ما أضاعه عليهم من قامروا بحقوقهم ، وغامروا بشرفهم وعروبتهم ودينهم من أولئك الزعماء والحكام الجهلة عبيد الشرق والغرب ممن جاءوا الى الحكم وهم لا يحسنون الا أن يكونوا عبيدا وخدما وأتباعا ، فأذلوا شعوبهم وأفقروها ، وكانوا سبب فقدان العرب عزتهم ، كما كانوا سبب تمكين اسرائيل واعطائها كل فرص الحياة والقوة والثبات .

بيروت: ٥ جمادي الأول ١٣٩٢ هـ — أحمد عبد الغفور عطار
١٦ تموز (يوليو) ١٩٧٢ م — مكة المكرمة

مقدمة الطبعة الثانية

صدر هذا الكتاب سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) ونفدت الطبعة الاولى سريعا ، وكان المطبوع منها في تلك الايام خمسة آلاف نسخة ، وزاد طلب القراء اياه ومحافل الادب والتاريخ والوزارات ، وبخاصة وزارة الخارجية السعودية ، ولكن لا وجود لنسخ عندي .

والناس يبحثون عن «زعيم» ويخترعون زعماء يجعلونهم رمزا لهم ، ونحن عندنـــا زعيم ولكن نسيناه ، ومات — رحمه الله — منذ أكثر من عشر سنوات فلم نصنع له شيئا ، كأنه لم يؤسس هذه البلاد على أساس الدين والأخلاق دون سائر البلدان، وكأنه لم يوحد الجزيرة التي كانت أقاليم منها كأنها في عهد الجاهلية والوثنية والفرقة ، وكأنه لم يجدد الدين ولم يحي سنة سيد المرسلين .

ماذا صنعنا له ؟!.

الحق ، لا شيء ، مع أن كل فرد في هذه البلاد يذكر جهاد ابن سعود من أجل هذه الامة والامة العربية والامم الاسلامية .

كان ابن سعود دوحة باسقة ممتدة الظلال كثيرة الثمرات ، وما من عربي ومسلم الا نعم بظله وثمره ، وأفاد من جهاده وعمله ، بل هو الزعيم العربي الوحيد الذي كان وراء كل حركة استقلالية وتحررية في العالم العربي والاسلامي ، يؤثرها على نفسه وشعبه بأطايب جهادهما وثمراتهما .

وعلى سبيل المثال حركة تونس الاستقلالية . من شجعها ؟ ومن أعانها بالمال والرأي السديد والتشجيع الحق والمساندة القوية ؟.

ان زعيم تونس الاكبر يعترف بهذا ، وأخبرني هو نفسه عندما كنت بتونس في جلسة خاصة معه برغبة من فخامته .

وكشف لي الرئيس وصحبه عن أشياء خافية من حياة عبد العزيز وأعماله .

وفي العام الماضي كنت مدعوا بدار السفارة التونسية بجدة ، دعاني صديقي الاستاذ المجاهد التونسي العظيم ربيب بورقيبة في الجهاد السيد محمد موسى الرويسي سفير تونس وكان عنده الاستاذ الكبير محمد المصمودي وزير الاخبار السابق بتونس ، وهو من أصدقائي التونسيين ، ولم يكن سواي وهما وزوج السيدالمصمودي على المائدة .

وحدثني المصمودي وهو من كبار أعوان بورقيبة ومن المجاهدين الاحرار تحت لوائه أن الرئيس بورقيبة كان في زيارة للملك عبد العزيز ، وكان المصمودي معه وغيرهما ، وقال لهم عبد العزيز :

« ان الحرية لا تؤخذ بالكلام وحده ، بل لا بد أن يقترن بالعمل ، وانني جندي معكم ، وأساند حركتكم بكل ما أستطيع سرا وعلنا ولا أبالي ، فأنا عون كل حركة خيرة يراد منها الخير لأي بلد عربي أو اسلامي .

وقال لي الاستاذ المصمودي : « ان كل من قابلناه من الزعماء كان يفت في عضدنا ويخذلنا تخذيلا الا الملك عبد العزيز رحمه الله ، فقد شجعنا وأمدنا بآرائه وتجاربه ودهائه في السياسة والحرب ، ودفع لزعيمنا المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة عشرة آلاف جنيه ذهبي للحركة الثورية التونسية التي حمل لواءها الرئيس بورقيبة».

وقال الاستاذ المصمودي : « ان الجنيه الذهبي في ذلك الوقت كان له شأن كبير ، وكان الجنيه يساوي شيئا كبيرا ويحقق آمالا كثيرة ، وكانت المملكه السعودية في حاجة الى كل جنيه من عشرة الآلاف ، فآثرنا على نفسه وبلاده وشعبه لأنه كان يرى العرب اخوة والمسلمين أشقاء له ».

وقال الاستاذ المصمودي : « وأعطى الملك عبد العزيز كل واحد منا خمسين جنيها منحة منه ، دفعناها للرئيس يتصرف فيها كما يرى ، فهو زعيمنا ، ونحن لا

نريد لأنفسنا نفعا خاصا ، علمنا زعيمنا ذلك وربانا عليه ، وأعاد لنا الزعيم بورقيبة خمسة جنيهات لكل منا للبركة والذكرى ، فقد كان عبد العزيز بطلا عظيما وسيدا كريما ووليا صالحا من أولياء الله ، وما تزال الجنيهات الخمسة عندي أحتفظ بها للذكرى والتاريخ ».

وقال الاستاذ المصمودي : « وعدنا مع زعيمنا بورقيبة ومعنا العون المادي العظيم وما زودنا من الآراء الى أعضاء الحركة ، وذكر الزعيم موقف عبد العزيز النبيل من حركة تونس وما دفعه كمعونة أولى ، وما كان الزعيم يستبد برأيه فسأل الآخرين آراءهم في معونة ابن سعود ، فرأى صالح بن يوسف أن توزع عشرة الآلاف من الجنيهات على أقطاب الحركة ليصلحوا بها حالهم ، فرفض بورقيبة وقال : ان ابن سعود — جزاه الله خيرا — وهب لنا هذا المال الكثير عونا لحركتنا ، وأنا لا أبيح ما كان من حق الشعب أن نستولي عليه ونتقاسمه ، ان ابن سعود « بركة » ولن أنفق قرشا مما وهبنا الا للحركة ، لنجع نحن من أجل خلاص الشعب ، ان ابن سعود قال لنا : انه قام بحركته غير طامع في مال وشبع ، بل قام بحركته لله وأنقذ شعبه وكان يجوع دائما ، لنجع نحن ونعمل للشعب ، معونة عبد العزيز يجب أن تنفق للحركة ».

وقال الاستاذ المصمودي : « ومن هنا بدأ الخلاف بين صالح بن يوسف حتى انتهى الى ما تعلمون ، وأنفق الزعيم بورقيبة معونة ابن سعود كلها في حركة تحرير تونس ، فبارك الله ونجح الزعيم وتم انقاذ تونس وتحريرها على يديه ، ولم نجد مقابلة من زعيم عربي أو حاكم أو ملك ما وجدنا من عبد العزيز رحمه الله ».

وقال لي بورقيبة نفسه عندما دعاني الى بيته المتواضع سنة ١٣٨١ ه :

« جئت الى عبد العزيز مشردا منفيا ، فوجدت لديه ما لم أجد لدى أي أحد، أخوة صادقة،وفضلا وكرما، وعونا جميلا. وتشجيعا يفوق الوصف، وجدني مشرداً فآواني ونصرني وأضافني ، وأشعل ضرام الامل والعزيمة في نفسي بما لقيت منه من العون المادي والادبي ، وكان الحاكم العربي الوحيد الذي لم يفت في عضدنا ، بل شجعنا وأيدنا ووقف معنا ، واني — والله — أذكره بالخير وأدعو له ، رحمه الله ».

وقال الرئيس بورقيبة : « وما زلت أذكر للامير فيصل مواقفه وأياديه علي عندما كنت مشردا مطاردا من الفرنسيين ولجأت الى بلادكم المقدسة ، فوجدت من الاخاء الصادق والعون والكرم ما خفف عني ما أجد من فرقة الوطن ، انكم الوحيدون الذين ساعدتمونا لوجه الله لا تريدون منا جزاء ولا شكورا ، ولئن مات عبد العزيز رحمه الله فأعماله لن تموت ، وجزاه الله خير الجزاء عما قدم لحركة تونس ولي » .

هذا موقف واحد لعبد العزيز نجهله نحن أبناء هذا الوطن ، لولا أن أزاح عنه الستار معالي الاستاذ المصمودي وفخامة الرئيس الحبيب بورقيبة ، واستأذنتهما في نشر ما تحدثا به فأذنا ورحبا بنشره لأنه حق ، واعلان شكر المحسن فريضة كما قالا ، ونشرت ما تحدثا به في جريدة «عكاظ» عندما كانت ملكا لي .

وحركة سوريا ولبنان وغيرها ، بل لما أهينت مصر في أيام الحرب الكبرى الثانية عندما هاجم اللورد كليرن قصر الملك بالدبابات لم يقف أحد مع مصر سواه ، ورد عنها الاهانة حتى اعتذر تشرشل للملك فاروق ، لأن عبد العزيز أقنع تشرشل أن ما عمل مع ملك مصر انما هو اهانة لشعبها .

وحدث هذا في مقابلة عبد العزيز لتشرشل في الفيوم صباح يوم السبت ٤ ربيع الاول سنة ١٣٦٤ هـ (١٧ فبراير سنة ١٩٤٥ م).

ولابن سعود يد كريمة وقوية في استقلال كل بلد عربي أو رد العدوان عنه أو تخفيف ويلات الاستعمار ، فوقف في وجه الظهير البربري في المغرب سنة ١٣٥٣ وما بعدها ، كما وقف في وجه الايطاليين في ليبيا عندما بلغت بهم الوحشية الى قذف المجاهد المسلم العظيم عمر المختار من الطائرة .

أما حركة الاسلام في كل أقطار الدنيا فالفضل فيها لله ثم لعبد العزيز ، كان يمدها بماله ورأيه حتى نجحت كل الحركات الاسلامية في آسيا وأفريقيا ، بل أعان حركة الاسلام في أوروبا وأمريكا حتى نجحت هي أيضا .

ولم ير التاريخ الحديث ملكا أو حاكما مسلما في ايمان عبد العزيز ، ويعلم الله

أنني أذكره فأحس بالفراغ الكبير الذي تركه في العالم الاسلامي لم يشغله أحد حتى الآن .

وكان — رحمه الله — لا يبالي أحدا ولا دولة في سبيل الله لأن الاسلام كان عميق الجذور في نفسه ، واستكباره على الدنيا جعلها تصغر في عينيه فلا تفتنه ، فكان لا يداهن في دين الله مهما كان الامر .

ففي سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٦ م) مات الملك جورج الخامس فنكست كل دول العالم أعلامها حدادا على وفاته ، وأبى الملك عبد العزيز أن ينكس علم بلاده لأن بها كلمة الشهادة : (لا اله الا الله محمد رسول الله) ولم يجامل ولم يخف ، بل أعلن ذلك على رءوس الاشهاد ، ولم ينكس علم بلادنا قط ، وحفظه الله بفضل عبده الصالح من التنكيس .

وقبيل وفاته علم أن الخمر ترد الى المملكة للسفراء والهيئات الدبلوماسية فتألم كثيرا ، فقد كان لا يعلم بذلك، واذ علم أصدر أمرا بمنع ورودها الى بلاده ، وغضب سفراء وممثلون وقناصل واحتجوا ، فلم يبال ، أطاع ربه وعصى من سواه ، وبقيت الخمرة ممنوعة، بل وردت بعد وفاته حقائب دبلوماسية وصناديق بها خمور فردت الى البلدان التي صدرت منها .

رحم الله عبد العزيز فقد كان عربيا مسلما مؤمنا فذا بين الحكام جميعا دون استثناء ، ولم يجيء من يشبهه حتى اليوم .

وكان عبد العزيز سياسيا عليما بالسياسة ، فقد كان بمجلسه في الرياض أيام الحرب وهو غاص بالناس من علية الامة ورجال العلم والقلم والسياسة والدين، ودار الحديث في الحرب ، فقال عبد العزيز : « ان الحلفاء سينتصرون » قالها في ثقة واطمئنان .

وقلنا له جميعا : أينتصرون ؟ هذا رومل على أبواب الاسكندرية ، والالمان منتصرون في جميع الميادين ، في البر ، وفي البحو ، وفي الجو .

فقال عبد العزيز : ولو ! .

«ولو» هذه لا تكفي . فنحن الذين زعمنا ان الالمان منتصرون وسينتصرون ويسودون العالم لسنا في حاجة الى دليل ، لأنهم كانوا منتصرين حقا ، ولا بد لكلمة «ولو» من برهان على الاقل .

وأقام عبد العزيز البرهان وقال : « ان الحلفاء سينتصرون ، وستكون نهاية الحرب نصرا لهم وهزيمة لهتلر والمحور ، ودليلي أن الحلفاء دخلوا الحرب وهم غير مستعدين لها ، دخلوها صغارا ضعافا كالوليد ، ودخلها الالمان وهم أقوياء كبارا . وسنة الحياة أن يكبر الصغير ويقوى الضعيف ، الوليد يدخل معركة الحياة صغيرا ضعيفا ، فيكبر ويقوى ، أما الكبير القوي فانه يأخذ في الضعف على مر السنين. ومن هذا المثل أدركت أن الحلفاء سيكسبون الحرب والالمان ومن معهم يخسرونها ».

وكنا جميعا غير متفقين مع الملك عبد العزيز في رأيه واستنتاجه ، وبعد تسعة شهور من هذا المجلس كتب أندريه موروا الفرنسي الذي يوصف بأنه يعلم عن السياسة البريطانية أكثر من الساسة الانجليز مقالا أو بحثا ترجمه الاستاذ أحمد الصاوي محمد ، وظهر له في كتاب طبع أيام الحركة ذكر فيه رأي موروا ، وهو لا يبعد عن رأي عبد العزيز ، بل هو رأيه سبقه به ، ولا علم لاندريه موروا به .

وكان عبد العزيز يريد بالحلفاء بريطانيا ، وقول موروا هو قول عبد العزيز ، ومنطقه منطقه ، واستنتاجه استنتاجه ، ومثله مثله ، وكأنما ترجم موروا رأي عبد العزيز ترجمة حرفية .

ورأي عبد العزيز لم ينشر ، فقد قيل في مجلسه ، ومن حضروه لم يذيعوه ، وأنا كنت أحدهم ، لأننا كنا واثقين من كسب الالمان للحرب ، فكيف ننشر رأيه الذي لم نوافقه عليه ؟.

ثم تأتي الايام فتصدق رأيه ، ويكسب الانجليز الحرب ويخسرهـــا الالمان .

والعجيب أن يلتقي رأي عبد العزيز واندريه موروا ، أو هكذا يبدو للنظرة الاولى ، ولكن لا عجب ، فكلاهما عبقري خبير في السياسة ، ولا بدع أن يلتقي عبقريان .

انما العجيب — حقا في الامر — أن رجل الصحراء الذي شغلته الحرب والفتن وتأسيس الملك وتصريف أمور الدولة عن التعمق في العلوم والتزود منها يلتقي مع رجل يعتبر من أكبر القراء والمفكرين في العالم .

وكان عبد العزيز ملهما في أعماله كلها ، ومن توفيق الله له في السياسة أنه لم يخسر أي قضية سياسية منذ انتزع حكم الرياض من آل الرشيد سنة ١٣١٩ هـ حتى توفي سنة ١٣٦٢ هـ لم يخسر قضية سياسية واحدة ، بل كسب كل قضاياه مع خصومه الاقوياء .

وقضية فلسطين لم يكن هو محاميها الوحيد ، ولم يكن مسيطرا عليها ومسئولا عنها مثل سيطرته على بلاده فلم تنجح ، لأن العرب لم يأخذوا برأيه فيها ، ولو أخذوا لما كان هناك كيان اسرائيلي قائم .

رأى عبد العزيز الذي عرف عنه وسمعناه منه غير مرة : أن ينفرد أهل فلسطين بالدفاع عنها ، وألا يشترك العرب رسميا في الحرب ، بل تقوم الدول العربية بمساعدة أهل فلسطين بالسلاح والمال والرجال متطوعين .

بل كان له رأي عظيم في الكيان الفلسطيني سمعته منه وحدثت به الحاج أمين الحسيني في لقاء لي معه فأيده وأعجب به ولكن بعد فوات الفرصة والاوان .

رأي عبد العزيز أن تقوم حكومة فلسطينية بمجرد ترك الانجليز للسلطة في الوقت الذي حددوه ، وكان يعلم حق العلم ان اسرائيل أعدت العدة لتسلم السلطة من الانجليز ، وانهم سيعلنون حكومتهم في اللحظة التي يترك الانجليز فيها السلطة ، ويطلبون الى الدول الاعتراف بها ، ورأى عبد العزيز أن يعلن الفلسطينيون حكومة فلسطين ويطلبوا الى الدول الاعتراف ، وتنهض هي تجاه اسرائيل ، ويكون الصراع بينهما ، وسينتهي بكسب العرب .

ولكن لم يؤخذ برأيه في المسألة الاولى وفي الثانية ، لم يترك أهل فلسطين يدافعون عن بلادهم ، ولم يُعلَن قيام حكومة فلسطين ، بل أخرج أهلها ليحل مكانهم

غيرهم في الدفاع ، وفرق بين الانسان يدافع عن نفسه وبين آخر يأتيه من بعيد للدفاع عن غيره .

بل انتهى الامر الى أن العرب أنفسهم قضوا على كيان فلسطين ، فبعد اعلان الهدنة بين اسرائيل والعرب كانت الحكومة السعودية معترفة بفلسطين ، حتى أن ادارة الجوازات كانت تكتب اسم «فلسطين» في حقل الاقطار بالجواز السعودي ، وعندي جواز مجدد برقم ٦٩٢ في ٢٠ — ٧ — ١٣٤٩ هـ من السفارة السعودية بالقاهرة كتب اسم «فلسطين» في حقل الاقطار .

وأردت زيارة القدس فغادرت دمشق اليه ، ولكن السلطات الاردنية في «الرمثا» منعت دخولي لأنه لا وجود لفلسطين ، ولم يكن بحقل الاقطار اسم الاردن ، فعدت الى دمشق وأضفته وسمح لي بالدخول .

ولا وجود لكيان فلسطين ، وكان عبد العزيز وحده هو الذي يعترف به ، فكانت ادارة الجوازات تكتب اسم فلسطين في حقل الاقطار .

واليوم يعودون الى بعض رأي عبد العزيز الذي أثبتت الحوادث أنه كان الرأي الصواب ، وكان أبعد من كل الحكام نظرا وأصفى فكرا وأعرف بما يجب أن يكون ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع .

ولو أخذ برأيه لما احتاج الامر الى ما يحتاج اليه اليوم من البذل ومن التضحيات والتبعات والخسائر الفادحة .

وضاعت فلسطين من أيدي أهلها لأن الرأي الذي رآه عبد العزيز لم يصادف هوى عند من كان بيدهم أمر قيادة فلسطين من حكام العرب وزعماء فلسطين .

والمتتبع لتاريخ العرب منذ سنة ١٣١٩ هـ حتى اليوم يدرك ان ما صنعه عبد العزيز وحده للعرب هو مفخرتهم وزينة تاريخهم .

ففي هذه الايام تنادي الدول العربية « الوحدة ! الوحدة » دون أن يصلوا الى ما

يحققها ، ولن يستطاع تحقيقها على أساس سليم ، وطريقة عبد العزيز هي الطريقة الصحيحة السليمة القويمة .

انه وحد نجدا شمالها وجنوبها والاحساء والحجاز وتهامة وعسير ونجران وحدة تامة كاملة شاملة ذابت فيها الفوارق حتى أصبح من مجموع هذه الاقطار قطر واحد ، كل سكانه إخوة ، كلهم سواء في الحقوق والواجبات .

ولم يكن طامعا في حكم متشبثا به اذا لم يرض عنه الشعب ، فعندما أعلن فيصل الدويش سلطان بن بجاد العصيان والتمرد والحرب على عبد العزيز بن سعود ظن أن الشعب لا يريده ، فدعا الى مؤتمر عام سنة ١٣٤٦ هـ وهذا نص كلماته مقتطفة من خطبته :

« أيها الاخوان ، أريد منكم أولا أن تنظروا — أولا — فيمن يتولى أمركم غيري ، وكونوا على يقين بأنني لم أقل هذا القول استخبارا ، لانني — ولله الحمد — لا أرى لأحد منكم منة علي في مقامي هذا ، بل المنة لله وحده ، ولست في شيء من مواقف الضعيف حتى أترك الأمر لمنازع بقوة ، ولا يحملني على هذا القول الا أمران : الاول ، محبة راحتي في ديني ودنياي . والثاني ، اني أعوذ بالله من أن أتولى قوما وهم لي كارهون ، واني أبرأ الى الله أن أخالف أمر الشرع في اتباع ما تجمعون عليه مما يؤيد شرع الله » .

وصاح الشعب : لا نريد غيرك ، لا نريد عنك بديلا !

ولم يكن عمل ابن سعود «استخبارا» كما قال ، لأنه أعطى عهد الله وميثاقه وبرأ الى الله من مخالفة أمر الشرع ، وتعهد بربه أن يكون المعارضون في أمان حتى قال ما نصه : « لكم أمان الله ، فان من يتكلم في هذا فهو آمن ، ولا أعاتبه لا آجلا ولا عاجلا ».

ولم يكفه هذا بل قال للعلماء وأهل العقد في قوة وصرامة : « اياكم أيها العلماء أن تكتموا شيئاً من الحق تبتغون بذلك مرضاة وجهي ، فمن كتم أمرا يعتقد

أنه يخالف الشرع فعليه من الله اللعنة ».

وليس بعد هذه الاقوال مجال للشك في رغبة ابن سعود في ترك الحكم اذا كان الشعب لا يريده ، فلما أجمعوا على أن يكون هو الحاكم أخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن ينقدوا شخصه وأعماله وولاته بكل صراحة ممكنة ، وأعطى العهد هو أيضا على نفسه أن يكون الناقد في أمان الله .

هذا ابن سعود الحاكم ، فأين في الحكام اليوم مثله ؟ لو أعطيت الشعوب العربية الحرية التي أعطاها ابن سعود شعبه في اختيار الحاكم بعد أن أعلن نزوله عن الحكم وقال له : انظروا فيمن يتولى أمركم غيري ، لو أعطيت الشعوب هذه الحرية من قبل الحكام باخلاص لخرج كثير منهم من الحكم .

وبقي ابن سعود حاكما نصف قرن وبضع سنوات لأنه كان زاهدا في السيطرة والتسلط ، محبا للعدل والخير والانصاف ، فتمسك به الشعب ورفض نزوله ورغبته في اختيار غيره .

وهذا التاريخ مع ضخامته لا يستوعب كل تاريخ عبد العزيز وأمجـــــاده وأعماله ، بل مجال القول فيها واسع كل السعة ، ولكنه بمثابة العنوان .

ولم أرد أن أضيف الى « صقر الجزيرة » في طبعته الاولى جديدا ، لأنني آثرت اعادة طبعه كما ألفته قبل عشرين سنة ،وكل ما صنعت في هذه الطبعة هو حذف العبارات الانشائية والفصلين الاخيرين وهما : « جناحا الصقر » و « القوادم » لأنني رأيت ألا ضرورة لهما ولتلك العبارات .

وان ما حملني على تأليف الكتاب قبل عشرين سنة هو الاعجاب بشخصية ابن سعود ، ودفعني — اليوم — الى اعادة طبعه الوفاء لهذا المسلم المؤمن العظيم الذي أسس هذه الدولة على قواعد الاخلاق الفاضلة والدين والحق والخير ، والوفاء لباني هذه الدولة وصانع تاريخها في وقت أصبح الجحود والنكران والنسيان سمة هذه الايـــــام .

وفي الوقت الذي نجد الامم والدول تحيي ذكر زعمائها وبناة مجدها وصانعي تاريخها ليكون في ذلك ما يدفعها الى الاستكثار من الخير والاستزادة من العمل الصالح ننسى نحن تاريخ من بنى لنا هذه الدولة وأعز الاسلام والعروبة ، ويتطاع كثير الى آفاق «زعامات» قامت على الزعمات لا الحق ، لأنهم لا يعلمون حقيقة تاريخ ابن سعود الحافل بالمجد والبطولة .

وهأنذا أعيد طبعة «صقر الجزيرة» ليرى الجيل العربي الجديد الذي وضع بينه وبين ماضيه ستار أو حاجز متين من الدعايات الضالة المضللة حتى لا تظهر الا زعمات في ثوب «الزعامات» ليرى الجيل العربي الجديد تاريخ ابن سعود الذي يعد بحق في هذا العصر موقظ العقلية العربية وصانع النهضة العربية وباني الوحدة العربية .

ولو لم يكن ابن سعود في تاريخ العرب المعاصر لما رأى العرب هذا النور الساطع ، ولا هذه النهضة التي تناولت الفكر والشعور والوجدان والعقل .

هوذا تاريخ زعيم حق ، أو بعض تاريخه ، ننشره للجيل العربي في كل مكان ليشهد حقيقة عظمة الزعيم الذي يبني زعامته على العمل الكبير الذي يراد منه خير العرب والاسلام والانسانية لا جر مغنم لشخصه أو مطمع يحققه لنفسه ، أملا في السيطرة والتحكم .

تاريخ زعيم لم يطمع قط في السيطرة من أجل الظهور على مسرح العروبة ليكون سيد الجميع ، بل رفعته خلائقه وكفاياته ومثله العليا الى قمة الزعامة ليكون خادم العرب والمسلمين فأنعم الله عليه وكان سيدهم جميعا .

تاريخ زعيم لم يفرض زعامته بالارهاب والحكم البوليسي ، بل فرضه الناس أنفسهم على أنفسهم لأنه كان أهلا للزعامة والحكم ، فمشى بهم في طريق مستقيم مأمون ، رفع مستواهم في الحضارة والمدنية والمعيشة ، ونمى مواردهم ، وجنبهم الكوارث ، وبدل خوفهم أمنا ، وفقرهم غنى ، وجهلهم علما ، وسقمهم عافية .

وجعل الصحراء تتحضر ، والقفر يخصب فيزهر ويثمر ، والامة كلها تتقدم ولا تشكو ظلما وتسلطا وفاقة وجوعا .

هذا هو الزعيم الحق الذي فقده العرب والمسلمون ، بل فقدته الانسانية لأنه كان نموذجها الرائع في دنيا البشر ، ولم يأت من يستطيع أن يشغل مكانه في التاريخ العربي والاسلامي المعاصر بالصحة لا الزيف ، بالحق لا الباطل ، بالايمان والعمل لا التضليل والتهريج ، بالحرية لا القهر والاستعباد .

هوذا تاريخ عبد العزيز بن سعود باني مجد العرب والمسلمين في العصر الحديث ومؤسس دولة الاسلام في العالم ، أو هو بعض تاريخه المشرق النظيف الصحيح الحق ، لا تاريخا مزيفا كاذبا تمليه الاهواء وتكتبه الاطماع والمصالح الخاصة .

ولعلي بما صنعت وأنفقت من جهد عظيم ومال كثير أكون مؤديا واجب الوفـــاء والذكر لعبد العزيز بن سعود ، رحمه الله وأسكنه الجنة وجزاه عن العرب والمسلمين خير الجزاء .

مكه : ٣٠ شعبان ١٣٨٣ هـ. احمد عبد الغفور عطار

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم
الدكتور محمد حسين هيكل باشا

هذا كتاب دون فيه الاستاذ أحمد عبد الغفور عطار سيرة صقر الجزيرة الملك عبد العزيز آل سعود عاهل المماكة العربية ، وقد أطلعني على أصوله ،فتلوت فيها من أعمال «نابليون العرب» طرفا جلت تفاصيله أمامي صورة هذا العاهل الذي تشرفت بلقائه غير مرة بالحجاز ومصر ، وبعد أن سمعت عنه من رجال الصحافة الاوروبية والامريكية ، وقدرت للاستاذ عطار هذا المجهود الصالح العظيم الذي بذله كيما يقف الناس على تاريخ الجزيرة العربية في حقبة تاريخيةمن أدقالحقب في حياة الشعوب العربية جميعا .

فهذه الشعوب العربية تبعث اليوم بعثا جديدا ، بعد أن بقيت قرونا حسوما مجهولة بين العالم ، لا يكاد أحد يعرف عن أيها أكثر مما يعرف عن «الربع الخالي» وقد بدأت هذه القرون المظلمة في حياة البلاد العربية بعد أن انتهى العهد العباسي ، وبعد أن تربع الاتراك على عرش بيزنطة (القسطنطينية) وبسطوا سلطانهم على البلاد العربية جميعا .

ومن ذلك العهد بدأت البلاد العربية كلها تتدهور شيئا فشيئا ، ولم يأن لها أن

تبعث الا حين دب فيها دبيب الفكرة العربية من جديد في أوائل هذا القرن العشرين .

من يومئذ بدأت الحياة تدب في أوصالها . وبدأ النشاط الفكري يعيد اليها المعاني السامية التي ترتفع بالامم ، وتدفعها الى التطلع للمجد ، ومن يومئذ سارت الشعوب العربية جميعا بخطى واسعة . تريد أن تستعيد المكانة القديمة التي كانت لها قبل أن تنحل أوصالها ، ويتولاها ما تولاها من سبات عميق .

والدولة العثمانية لا تحتمل أفدح التبعات فيما أصاب الشعوب العربية من انحلال ، وانما تقع أفدح التبعات على الشعوب العربية نفسها ، لأنها تسامحت في المقوم الاول لحياتها ، تسامحت في لغتها وأهملتها فانحطت الى درك لا أحسب أن لغة من اللغات الحية عرفت مثله في عصر من عصور التاريخ . واللغة هي وسيلةالتفاهم ، هي سلم الرقي وسبب التقدم في الامم التي تعنى بها وتديم تعهدها . فاذا انحطت اللغة انحط الشعب ، لأنه يهبط بحكم هذا الانحطاط الى أدنى مستوى من الحياة الانسانية . وذلك ما حدث حين نسيت الشعوب العربية لغتها العربية السليمة ، وعكفت على لغات غيرها هي لغات السادة الحاكمين .

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي بدأ رجال من أهل البلاد العربية يبعثون في لغتهم العربية حياة جديدة ، فقام الكتاب والادباء والشعراء في شتى الارجاء من هذه الامم التي وجهت حضارة العالم قرونا متوالية قبل انحلالها ، وجعلوا يتغنون بماضي بلادهم ، ويذكرون للابناء صنيع الاجداد ، كما جعلوا يذكرون ما في بلادهم من جمال ومن نعمة ومن سائر الاسباب التي تدفع الامم في سبيل الرقي .

ومن ذلك العهد بدأت في البلاد العربية نهضة طامحة ، غرضها أن تتسنم البلاد العربية من مراقي الحضارة الحديثة ما يؤهله لها ماضيها المجيد ، وثراؤها الطائل ، وملكات أبنائها المتوثبة الى أسباب العزة والمجد .

فلما قامت الحرب العالمية الاولى ونادى المنادون فيها بأنهم يريدون للعالم الحرية والسلام زاد اندفاع الشعوب العربية في سبيل نهضتها . وضاعفت هـذه الشعوب اندفاعها حين قضت تلك الحرب العالمية الاولى على الامبراطوريـة العثمانية وتضافرت العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية على تغذية هـذه النهضة .

أما وكتاب الاستاذ العطار يتحدث عن فترة من تاريخ البلاد العربية بعد يقظتها ، فهو جدير بالعناية والتأمل الطويل فيما وضعه من تطور الحوادث تطورا صاغه الملك ابن سعود بحكمة وحزم وحسن سياسة كان لها أثرها في اقرار السلام في شبه الجزيرة العربية ، وفي توجيه النهضة في تلك الارجاء توجيها صالحا ويبشر بخير النتائج .

فأنت ترى في هذا الكتاب كيف تغلب «صقر الجزيرة» على ما كان بين اليمن والمملكة العربية السعودية من خصومات أدت غير مرة الى القتال ، ثم انتهت الى اقرار حالة الاخاء والامن بين الملكين ، وبين الدولتين . وأنت ترى فيه كيف استطاع الملك عبد العزيز أن يقر علاقاته مع الدول الكبرى وفي مقدمتها بريطانيا وأمريكا على أساس من المودة وحسن التفاهم من غير أن يضيع على بلاده حقا . أو يحقق لطامع مطمعا .

وأنت ترى فيه ما قام به عاهل الجزيرة من اصلاح أحوالها ، وتوجيهها الى الاشتراك في الحياة العالمية العامة . أنت ترى هذا وغيره مفصلا تفصيلا دقيقا . تفصيلا دقيقا ، يهديك السبيل الى تعرف الطريق الذي رسمه العاهل العظيم لهذه البلاد التي كانت مجهولة حتى أمس في كل ما لا صلة له بمدنها الاسلاميـة المقدسة ، والتي أصبحت اليوم محط الانظار تقديرا للجهد السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي يبذل فيها .

سترى ذلك كله مفصلا في هذا الكتاب تفصيلا يجعلك تحيط بدقائقه وكأنك

حاضرها . فأسلوب الاستاذ أحمد عبد الغفور عطار أسلوب يجمع الي السهولة الصفاء ، ويتأثر بالحوادث حتى ليروى ما بعد عهده منها وكأنه حدث أمس ، وكأنك تطالعه في الصحف السيارة مع فارق التمحيص الذي يتاح للمؤرخ بقدر لا يتاح مثله للصحفي . وهذا الاسلوب الممتلىء بالحياة يدفعك لتمضي في مطالعة الكتاب ، فلا تقف منه حتى تبلغ آخره .

واني لأرجو أن تتاح للمؤلف فرصة تطوع له أن يتابع هذه البحوث الشيقة ، فيضيف الى المكتبة العربية الحديثة ما هي بحاجة له ، ويهيىء لمؤرخ المستقبل أسانيد يقيم عليها أساس النهضة العربية الحديثة .

القاهرة : ٦/٤/ ١٩٤٦ محمد حسين هيكل

مقدمة الطبعة الأولى

يغرب الناس في الخيال اذا ما كانوا أمام بطل من الابطال ، ويبالغون ويزيدون ويجسمون كل ما هو متصل به سواء أكان خيرا أم شرا ، لأنهم لا يريدون من البطل أن يكون انسانا بل فوق الانسان بشيء كثير ، ولو بدا لهم في أثوابه الحقيقية لوقفوا دهشين حائرين لأن الصورة التي كانت عنه في «لوحات الخيال» لا تتفق مع الصورة الهزيلة الصغيرة .

يقولون : ان غليوم — امبراطور المانيا السابق — أراد زيادة معسكر من المعسكرات ، فاستعد الجنود له وسأل أحدهم صديقه :

— أغليوم مثلنا في الصورة والخلقة ؟

— تماما .

— وجهه مثل وجهي ؟

— نعم .

— ويداه ؟

— نعم ، الا أن احداهما أقصر من الأخرى .

— أيمشي مثلما أمشي ويركب مثلما أركب ؟

– نعم في كل شيء بدون فرق .
– اذن ، لماذا نخافه ونحترمه ونطيعه ؟
– لأنه ملكنا .

ورأى الجندي السائل غليوم فاذا هو أمام رجل نحيف لم يملأ منظره عينيه ، ففجع في الصورة التي التقطها خياله لمليكه لأنه أبصر انسانا مثله .

والناس في مجموعهم لايخرجون عن هذا الجندي السائل الحائر ، فهم بطبيعتهم لا يحبون من الابطال أن ينزلوا الى دنيا الاحياء بل يودون لهم أن يكونوا في القمم العالية .

ونحن لا نريد أن نكون مثل هذا السائل نجعل من نترجم له من بناء الخيال ، ونقيم بينه وبين الانسان الصحيح سدا منيعا أو حجازا يحول دونه ، ولكن نحب اخراج صورة انسان نبض قلبه بالحياة وطرفت عينه على مشاكل الكون ولقي ما لقي الأحياء من بؤس وشقاء وخيبة وألم ومن مسرة واكتئاب وفرح وسعادة ، وسما إلى ذروة البطولة التي تندق دونها الاعناق .

وكان تاريخ الابطال – وهم موتى – مثار التناقض والشكوك في السير والشخصية ، لأن المؤرخ يصعب عليه بعد فوات الوقت ادراك الروايات الصحيحة ، ولهذا رأينا في التاريخ الاختلاف والتناقض وتعدد الروايات بين المؤرخين ، كما أن المتصل ببطل من الابطال يعرف من دقائقه وخوافيه ما لا يعرفه الابعدون ، فهو أحرى أن يصور الواقع والحق أكثر من أولئك الذين يعتمدون على التخمين والخيال والروايات المشكوك فيها في تواريخهم ، وقد توفر لي – في هذا التاريخ – من الاسباب ما جعلني أقدم هذا النموذج الصحيح بعد أن اعتمدت الواقع المشهود ، ووقفت على كثير مما ذكرت ، والأثر الذي أضعه الآن بين أيدي القراء هو نفسه يدل على قيمته من الوجهة التاريخية والفنية والادبية .

وابن سعود بطل عظيم حقاً . استطاع أن يصنع التاريخ صنعا ، وعني بكل ما ما تعنى به الامم المتمدنة ، فالعلوم والمعارف والمواصلات والمالية والاقتصاد والعمران

والدفاع والاوقاف والبلدية والصحة والامن العام أصبحت متقدمة الى حد بعيد ، وتمنى له أن ينهض بشعبه نهضة لها قيمتها العالمية .

ولست أنا بأول المعجبين بشخصية صقر الجزيرة ولا آخرهم ، بل كل من علم شيئاًمن تاريخه أكبر هذا البطل الذي خرج من الكويت بأربعين رجلا ثم شيد مملكة عظيمة لها شأنها في العالم وفي التاريخ العالمي أيضا ، غير أنني أستطيع أن أفخر على مواطني وعلى كتاب ترجمة حياته من غير المواطنين بأنني أول من ترجم له هذه الترجمة الدقيقة التي صورته فيهـــا على حقيقته ، ورسمت حدوده الطبيعية ، وأبنت معالمه ، وليس اعجابي بشخصيته وليدة هذه الايام ، فأنا عندما كنت طالبا وألفت « كتابي » عددته من عظماء الشرق وكتبت عنه كلمة تعبر عن رأيي فيه بصراحة وحق .

وكنت قد بدأت في تأليف هذا الكتاب منذ سبع سنوات ، وانتهيت من كتابة ثلاثمائة صفحة منه الا أن رحلاتي المتتابعة الى الاحساء والرياض والمدينة والطائف وينبع وجدة والقاهرة قد أضاعتها ولم تبق الا فصول معدودات نشر واحد منها في مجلة « النداء الاسلامي » بمكة سنة ١٣٥٧ هـ ثم رأيت هذا العصر قد أثرى بالزعماء وأشباه الزعماء وكتبت عنهم الاسفار الخالدة ، فأردت أن أضع كتابا عن زعيم أجمع العالم كله على أنه زعيم حق لا شبهة فيه ، واستعنت الله وأخذت في جمع «المعلومات» الصحيحة عنه حتى كان هذا الكتاب الذي أضعه الآن بين أيدي القراء .

مكة المكرمة : ٣٠/٤/١٣٦٤ هـ أحمد عبد الغفور عطار

مُحَمَّدُ بنُ عَبدِالوَهّابِ

عصر الإمام

كان عصر الامام بالنسبة لنجد عصراً جاهلياً ، فما أهل القرن الثاني عشر للهجرة على نجد إلا وهي غارقة في الجاهلية ، وانقلبت مرسحاً تمثل عليه ادوار الهمجية ، حيث اراقة الدماء وقتل النفوس التي حرم الله قتلها بغير الحق وحيث التناحر والجمود والفساد في كل شيء .

نعم ، الفساد في كل شيء ، وليس وقفاً على جانب من الحياة والمجتمع ، فالحياة الاقتصادية والتجارية والمالية والخلقية والدينية فاسدة ، ومرد هذا الفساد كله الى فساد الدين ، فلو صلح دينهم لصلحت أمور دنياهم .

وانزوى الدين في بقاع صغيرة ، وهي صدور من بقي من العلماء الصالحين الذين يفهمون الدين الصحيح ويعتنقونه .

أما السواد الأعظم فلم يفهم الدين إلا ما يزينه له هواه من الشرك والوثنية ، وانقلب الاسلام مجموعة من الوثنيات والبدع والخرافات تمكنت من نفسه ،وتأصلت في قلبه وفكره ، وصارت عقيدته ، فصرف من العبادات ما كان لله وحده لغيره ، وأشرك مع الله سواه .

يدعو الأوثان ويستغيث بها ويستعينها ، وينحر على الأحجار والصخور والأشجار ، اذ يعتقد فيها القدرة على النفع والضرر ، فيسترضيها بالدماء يتقرب اليهـــا .

ويبدو وكأن الزمن قد تأخر بنجد الى الوراء ووضعها في عصور الجاهلية تعمل أعمالها وتقتفي آثارها ، وأصبحت عاداتها وتقاليدها عادات الجاهلية وتقاليدها ، فكنت ترى النجدي يتطير ويتفاءل بالسوانح والبوارح ، ويستشير الكهان والعرافين ، حتى كثر خلفاء الأبلق السعدي عراف نجد المشهور في الجاهلية الذي يقول فيه عروة بن حزام :

جعلت لعرّاف اليمـــامة حكمه　　　وعراف نجد ان هما شفياني

ولا يعرف المنكرات إلا ما كان ضد شهواته ورغباته وما لا تميل اليه نفسه ، وما عدا ذلك حل له .

وقد ترى حلقات كحلقات قريش قبل الاسلام مبعثرة في رمال الصحراء يتحدث أفرادها بعضهم الى بعض عن غايتهم في الحياةونظرهم اليها في شيءمن النشوة والطرب ، وعن التجارة والزراعة ، وعن الرحلات وما شاهدوا فيها مــن العجائب والنوادر ، وعن الحروب ، وما كانت غايتهم في الحياة إلا غـــايــة حيوانية .

أما الدين فلم يكن ما جاء به محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، بل ما أمْلِيَ عليهم وعلى جماعاتهم وأهل بلدهم من الوثنيات والبدع والخرافات .

صار الدين مجموعة من الخرافات ترتدي سمات العبادة وأردية القداسة ، وطقوساً هي طقوس الوثنية .

فهو عند الغني ما ساعد على نمو المال ، وهو عند ذوي الجاه والسلطان ما كان عوناً على بسط النفوذ والمحال ، فكل فريق يتكيفه حسب فهمه ورغبته ومصلحته وهـــواه ، والسواد الأعظم يتبع كبراءه ويستظل تحت لوائهم طمعاً في الاحسان ونظرات العطف والعون .

ولم يكن نصيب شؤون الحياة الأخرى كنصيب الدين ، بل كان في هذا الجانب على ما به من النقص شيء كثير من الباطل والزيغ .

فالأخلاق العامة للقبيلة أو الأسرة أو الفرد لم تكن فاضلة ، وانعدمت في نفوس هؤلاء — ما عدا القليل — شيم العرب وفضائلهم التي فاخروا بها غيرهم من الأمم وهم في جاهليتهم .

ولقد ساد طبائع البدو الضاربين في الصحراء والقرى التي في نجد وكذلك الحاضرة الاضطراب والفوضى ، واستباحوا ما كان وفق ارادتهم ، فلا يحلون حراماً جاء الى مرامهم ، وما أكثر ما كانوا يثورون على الحق والفضيلة والخير لأنها تحول بينهم وبين تحقيق غاياتهم البغيضة وأطماعهم ، وانطلقت الحرية المجنونة — حرية الحيوان — وجرت بهم في ميدان الجهالة والضلال لا يقفها شيء ما دامت تسير في خرق رغيب ، حتى أصبح أهون ما على الفرد أن يسفك دم بريء طمعاً في عرض تافه من أعراض الحياة ، أو لأمر لا يقره الدين والخلق ، وطغت الحيوانية على النفس وعميت البصائر عن الهدى والحق .

ويرى سالك الصحراء أفراداً من البدو يكمنون في اللصاب والكهوف يقطعون السبيل على السفْر والقوافل ، ويقتلون الرجال والنساء ، ويلقون جثثهم على أديم الغبراء تلفحها الرمضاء والزمهرير ، ولا يحملون أنفسهم عناء دفنها ، كما يرى عصابات اللصوص والسفاكين يهاجمون القرى والمدن في غسق الليل ووضح النهار ، ينهبون ويسْبون ويقتلون ، ويخطفون الأطفال والرضعاء ليجعلوهم أرقاء . ولم يكن ثمة حاكم قوي يستطيع ضمان الراحة والطمأنينة والأمن للناس ، فيقطع دابر الاشرار والمفسدين . بل كان هؤلاء هم الحكام والامراء ، واذا لم يكونوا منهم فهم في الشر والباطل سواء .

ومن ذا يستطيع أن ينصح لهم باتباع طريق الحق أو يعظهم بترك الموبقات ؟

الامراء والحكام ، هؤلاء من جماعتهم ، وهم رؤساء البلاء والشر . العلماء المصلحون ؟ لم يبق غيرهم ، فهم كانوا يصبرون على الأذى في سبيل المصلحة العامة ويدعون الى الهدى بحرارة وصدق وحماسة ، ولكنهم ضعفاء ، وليس ثمة قوة تحميهم وتذود عنهم .

لذلك انكمشوا قليلاً ، غير أن الابالسة والارواح الشريرة أوحت الى المفسدين أن يحتنكوا فريق العلماء المرشدين عن آخرهم حتى يصفو لهم الجو ، ولا يكون من يذكرهم عذاب الله ويخيفهم عقابه الأليم ، فاغتالوا كثيراً من العلماء الأجلاء ، رحمهم الله .

ففي سنة ١١٩٦ هـ. قتل أهل القصيم رجال الدين القضاة والشيوخ والوعاظ والمرشدين ، واجتمع رؤوس الشر زعماء القصيم ذات مرة للتفكير في أمر العلماء ، ثم ارتأوا عقد مؤتمر يتداولون فيه النظر في أمر المصلحين من العلماء ، واستقر رأيهم على أن يبعثوا الى كل بلد يطلبون من أهله أن يختاروا واحداً منهم يمثلهم في المؤتمر العـــام .

وذات جمعة حضر الممثلون المندوبون الخبثاء وتفاوضوا في أمر العلماء الذين يقفون في وجوههم ويجبهونهم ويسفهون آراءهم ويستنكرون أعمالهم ، فمن قائل منهم بالنفي ، ومن قائل بالسجن أو يموتوا ، ومن قائل بالتعذيب الشديد .

لكن كل هذه الآراء لم تجد الموافقة ، فالنفي وحده أو السجن أو التعذيب لا يحقق ما يريدون .

وأخيراً استقر رأيهم على التخلص من العلماء بالقتل ، فيقوم كل بلد أو قرية بقتل علمائها في يوم واحد ، لأن ذلك أظهر للقوة ، وأدل على القدرة والبأس .

ومضى كل ممثل إلى قومه يحمل البشرى ، وفي اليوم المعين قام أهل كل بلد أو قرية بقتل علمائها الأجلاء ، قتل أهل مدينة « الخبراء » عالمهم الجليل منصوراً أبا الخيل يوم الجمعة في الطريق وهو ذاهب الى المسجد يؤم الناس للصلاة ، وقتلوا ثنيان أبا الخيل ، واستأصلوا العلماء جميعاً .

وقتل أهل بلد « الجناح » علماءهم وفتكوا بهم ، وممن قتلوا : عالم جليل مكفوف البصر ، ولم يكفهم قتاله بل صلبوه منكساً على رأسه إذ وضعوا الحبل في

رجليه وفيه رمق ، وفعلت كل مدينة أو قرية بعلمائها مثلما صنعت بلدتا الحبراء والجناح [١] .

واذا كان هذا ما فعلوه بالعلماء والصالحين تخلصاً منهم ، وليقترفوا آثامهم وجرائمهم في جو آمن فذلك دليل كاف على فساد الحياة ، وخبث النيات ، وسوء العمل .

وتاريخ ابن غنام المسمى « روضة الأفكار والافهام » حفل بذكر هذا الفساد الذي عمّ الحياة والناس ، وبخاصة فساد الحياة الدينية فساداً قضى على الاسلام .

ولكي نزود القارىء بصورة من الحياة الدينية التي انقلبت من الاسلام الى الشرك والوثنية ننقل من تاريخ ابن غنام بعض الحوادث وما تدل عليه بأسلوبنا حتى يقف على بشاعة الشرك الذي كان يسود نجد .

كان الناس في نجد والاحساء وغيرهما من بلدان الجزيرة غارقين في الشرك يتبعون ما زينت لهم الأهواء والشياطين ، وتركوا كتاب الله وسنة رسوله الأمين ، ولم يعبأوا بالدين الصحيح ، بل تنكروا له ، لأنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهم لا يريدون ذلك ، فنفوسهم شريرة ، وعقائدهم باطلة ، فعدلوا عن عبادة الله الى عبادة غيره ، فاستغاثوا بخلقه في النوازل والخطوب ، وطلبوا منهم الرزق وكشف الضر وجلب النفع ، واعتصموا بهم دون الله عز وجل .

واعتقدوا في الأشجار والأحجار ، وانها تضر وتنفع ، وعادوا الى حياة الجاهلية في المعتقد ، وصموا آذانهم عن نصح الصالحين والعلماء حتى ضاقوا بهم ، ثم تخلصوا منهم بالقتل ، وصفا الجو للشرك والوثنية ، ولم يعد الاسلام الا سماً ، أما منسماه فقد قضوا عليه .

كل شيء كان قد فسد بفساد الحياة الدينية ، فلا دين يمنع من الباطل ، ولا ضمير يهدي الى الرشد ، وأصبح الحكم للشيطان .

---

(١) راجع تاريخ نجد ، لابن بشر ، طبعة بغداد .

وهذه صور من صور الوثنية والشرك في عصر شيخ الاسلام الامام محمد بن عبد الوهاب .

كان في بليدة «الفدا» ذكر النخل المعروف بالفحّال ، يقصده الرجال والنساء ، ويفعلون عنده من المنكر ما يأباه الدين والذوق والعقل ، ويعملون بين يديه من أعمال العبادة ما لا يصح عمله الا لله وحده .

فالرجل المضيّق عليه في الرزق والمكروبُ والمريضُ يطلبون الى الفحال أن يوسع الرزق ويفرج الكرب ويشفي المرض .

والمرأة التي لم يتقدم اليها خاطب تتوسل اليه في خضوع وتقول له : يا فحل الفحول ، ارزقني زوجاً قبل الحول .

فاذا أتمت ابتهالها اليه انصرفت الى الشبان تغويهم ، فإذا تزوجت أحدهم خيل أن ذلك من عمل فحل الفحول .

كذلك قدسوا شجرة الطرفية تقديساً كبيراً ، فاذا ولدت المرأة ذكراً علقت عليها حبلاً أو قطعة من نسيج رجاء أن تطيل الطرفية عمره ، فكان الرائي إذا أبصرها لا يكاد يبصر الأغصان والأوراق والساق ، بل يظن الرائي أول وهلة أن ما يرى ليس الا كومة من الحبال وقطع النسيج لكثرتها .

وفي الدرعية جبل بسفحه غار كبير يزعم الجهلاء انه قبر حسناء تدعى «بنت الأمير» يحجون اليه ويستغيثون بها اعتقاداً منهم أن الفتاة من أولياء الله الصالحين ، وسبب هذا الاعتقاد الزائغ أن بنت الأمير خرجت ذات يوم تقضي حاجة ، ولما كانت بالقرب من الجبل أبصر بها نفر من الشبان فاستهواهم جمالها ، فاقتربوا منها يريدون أن يعبثوا بشرفها ولكن الفتاة صالحة تقية زاهدة تؤثر الموت على العار ، فدعت الله أن ينجيها من الفجرة الفاسقين ، وما أتمت دعاءها الصادق حتى انفلق في الجبل غار دخلت فيه واعتصمت به ، لأجل هذا دعاها الناس لتفرج عنهم الكرب ، ونسوا أن يدعوا الله الذي فرج عنها ، وانه هو الذي أجرى لها هذه الكرامة — اذا

صح الحادث — ولكن الحادثة مختلقة اخترعها دجال تضليلاً للعقول ، وابتزازاً للمال عن طريق السحت والشعوذة .

ويزعم المبطلون أن رجلاً بالخرج أعمى كان يقطع الخبار والقفاف سيراً على قدميه من بلده إلى الدرعية وغيرها ، والى أقاصي نجد من غير قائد ، ولا يتعب ولا يني ولا يصطدم بصخر أو شجر ولا يقع في هوة ، ولا يستطيع الحيوان المفترس الدنو منه ولا اللصوص ، فقد كان ذا مال لأنه كان يجمع الخراج والزكاة من الناس ، كما انه لا يتيه في الصحراء .

لماذا كل ذلك ؟

لأنه ولي من أولياء الله الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، حتى إذا مات عكفوا على قبره وعبدوه اعتقاداً منهم انه ولي ، وهذه من كرامته ، فلولا كرامته وولايته وصلاحه وتقواه لما استطاع أن يضرب في الصحراء من غير أن يضل أو يناله أذى أو ضرر .

وغير ذلك كثير يجد القارىء تفصيله في كتاب ابن غنام ، فالناس في كل بلد يحتفظون بأمكنة يقدسونها ، ومواضع وقبور ومساجد خاصة يجلونها ، ويحجون اليها ، ويطلبون منها ، ويستغيثون بها ، ويذبحون لها ، ويعكفون عليها ، وصرفوا العبادة الخاصة بالله كالذبح والنذور والتوكل والخشية والانابة لغير الله .

وأوجز ما يقال : ان نجداً قد اضطربت حياتها الدينية ايما اضطراب قبل ولادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وتسرب الفساد إلى صميمها ، وأصبحت بيئاتها وثنية موبوءة .

أما الحياة السياسية فكانت أشد فساداً ، لأن الحكم الاسلامي كان قد زال بزوال الدين وحلول الوثنية ، وصار الحكم «عشائرياً» لا يتوخى الحق والعدل .

وانفصلت البلدان والمدن والقرى بعضها عن بعض ، وكأن كل بلد أسرة ، وكل بلد أو عديد من البلدان تحت حكم حاكم يجهل شرع الله وقانون العدل ،

ولا يحكم الا بهواه وعقله ، وهو جاهل لا يعرف غير ما يعرف الجهول الجاني الغليظ ، مضافاً اليه القوة العمياء التي تحكم حكماً أهوج .

فالأمير أو الحاكم القوي يعتدي على من هو أضعف منه ويحاربه ، فيقتل النفوس البريئة ، ويخرب العمران ، ويسلب .

وكان في كل بلد قتال ، وفي كل مكان خوف ، وفي رأس كل حاكم جنون يدفعه الى الحرب ، حتى أصبحت نجد ميدان قتال ، أيان تذهب تر الرؤوس تتدحرج ، والسيوف تلمع .

وفي الحرب تسبى النساء وتباع الأعراض ، فيهجم الدنيء السافل على العاتكة الشريفة يهتك سترها ، ويقتل الأطفال ، وتمتد أيدي الدمار الى العمران ، فتتأخر الحياة وتتحطم الحضارة وتطغي الحيوانية المتوحشة على الانسانية النبيلة .

هذا مهاجم ، وذلك مدافع ، وهذا ثائر يطلب ترة ، وذلك قاطع طريق يرجو مغنماً ، وليس ثمة حاكم يقضي بين الناس بالعدل ، وينشر الأمن والطمأنينة ، ويعاقب الجاني ، لذلك أحس الامراء الصغار أن باب الفوضى مفتوح على مصراعيه فولجوه ، وأخذت نفوسهم تجمح في ميدان الفوضى لا يقفها شيء ، لأن الدين غير متبع ، ولأن الشهامة ماتت في القلوب الانادراً .

ففي الدرعية حاكم مستقل من آل سعود ، ويتبع الدرعية بعض القرى والضواحي ، وهي أكثر بلدان نجد عمراناً ، وأهلها أشد الناس شكيمة وبأساً واتحاداً ، وأميرها أرجح الامراء عقلاً وأعدلهم حكماً ، ومن أعظمهم شأناً .

وفي العيينة حاكم مستقل أيضاً من آل معمر ، ولكنه لم يكن كالأمير السعودي في قدرته وقوته وشجاعته ومكانته ، ومع ذلك كان أميراً عادلاً صالحاً .

وفي الرياض دهام بن دواس ، المنافق الدجال الظالم الغشوم ، الذي لا مبدأ له ولا عقيدة ، يستبيح الحرمات ، ويحل ما حرمه الله ، كان خادم عبد بقصر حاكم الرياض ، ثم وثب الى كرسي الحكم ، وفتك بالأبرياء ، وبطش أشد البطش .

غضب على امرأة فخاط فمها ، وسمع ان سجيناً قرض قيده بفمه ، فأحضره وأخذ يضربه على فمه بمطرقة حتى كسر بها أسنانه ، وعذب رجلاً بريئاً عذاباً لم يعهد في تاريخ البشرية ، قطع من فخذه قطعة وأمره بأن يأكلها ، فلما لم يقدم عذبه ، فلما لم يستطع ازدرادها شواها له ، وهكذا كانت جرائمه البشعة المجنونة .

دهام هذا يحكم الرياض ، والآخرون وان لم يكونوا في وحشيته وجنونه الا انهم كانوا جهلاء لا يعرفون غير القتل والسلب والنهب والحرب والعدوان إذا استثنينا آل سعود وآل معمر .

وكل حاكم يتحين الفرصة لينقض على جيرانه إذا وجد منهم ضعفاً أو غرة ، فكانت الحروب والفتن لا تهدأ .

وتبعت الحياة الاقتصادية والسياسية الدين في الفساد ، فسبل التجارة والاقتصاد ليست مأمونة ، فقطاع الطرق يقطعون كل طريق ، فلا يرون قافلة الا نهبوها ، ولا رجالاً يملكون بعض المتاع الا قتلوهم طمعاً فيه ، فوقف التجار عن التوريد والتصدير خوفاً على أموالهم ، واكتفوا بالتجارة في بلدانهم في أضيق الحدود و بما يشبه التهريب .

أما الزراعة فكانت مهددة ، والأراضي الخصبة الزراعية حولتها يد الأعداء بلقعاً ، وما كان يرد اليهم من «الأرزاق» المختلفة لم يكن منتظماً ، بل تبعاًللظروف والأحوال ، وقل أن ترد قافلة محملة بالبضائع والمؤن من غير حماة أشداء يقابلون القطاع والذؤبان بالسيف ، وكثيراً ما كان الحماة يُقتَلون بعد دفاع مجيد .

والفلاحون ينضمون إلى المحاربين فتهمل أراضيهم ومزروعاتهم فتتلف . إذ لا تجد الأيدي العاملة تعنى بها .

ان أمن الطريق ، واستقرار الحالة ، واستتباب النظام ، ونشر التعليم ، والحكم بين الناس بالعدل روح التجارة والاقتصاد ، فمتى انعدم كل هؤلاء انعدمت الحياة الاقتصادية ، ووقفت التجارة والكسب المشروع .

وفقدان الأمن والاستقرار والنظام والتعليم والعدل من نجد أدى الى فقدان التجارة وتبادل المنافع العامة ، ومن هنا عمت الفوضى والمجاعة والشياح ، وطلب الناس الخبز فاما لم يجدوه ميسوراً اتبعوا طريق القوة وشن الغارات واللصوصية ، ونهجوا منهج قطاع السبل والسفاكين ، فنهبوا وشايحوا من أجله حتى سادت الفوضى ، وساد الاضطراب .

انعدم الامن والنظام والاستقرار والتعليم والعدل من نجد ، لأن حكامهـــا جهلاء ، وانصرفوا الى القتال الدائم المتجدد ، ولم يفكروا في شؤون أمتهم ، ولم يقيموا الحكم الا على الظلم ، ولم يكن يعنون الا بشهواتهم ومطامعهم ، فساءت الأحوال ، وتأخرت الحياة في جميع نواحيها دون استثناء .

ولم تكن الناحية الخُلقية بنجوة عن الفساد ، فاذا ساء المعتقد وساد الظلم ساءت الأخلاق سوءاً تخطى الجاهلية التي كانت تحتفظ ببعض القيم الأخلاقية كحفظ الجوار ، والمروءة ، والشهامة .

والناحية العلمية تبعت نواحي الحياة الأخرى ، فلم تكن هناك مدارس ، والمساجد لم تعد آهلة بأهل العلم وطلابه ، والعلماء الصالحون مضطهدون ، ومن كانوا منهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر محاربين ، وقد قتل منهم عدد كبير للتخلص منهم .

ومع كل ذلك فان الله أراد خيراً بالعلم ، فحفظه وحفظ بعض العلماء ، فكانوا النور الذي يهدي إذا اشتد الظلام ، ولكن لم يكونوا الا آحاداً ، وكانوا قانعين بالعلم دون الدعوة .

وجملة القول : ان نجداً قد ساءت أحوالها كلها في القرن الثاني عشر ، حتى قيض الله لها شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب فأخرجها بفضل الله ورحمته من الظلمات الى النور ، وأعاد اليها الاسلام الحق الذي نقل نجداً من الشرك الى التوحيد ، ومن التأخر إلى التقدم ، ودفع بالانسان الى الحياة الكريمة الفاضلة .

الأصل

الأسرة الوهابية تنسب الى الشيخ عبد الوهاب والد شيخ الاسلام الشيخ محمد ، وكانت تعرف بآل مشرف أحد أجدادها ، ولما ظهر شيخ الاسلام الامام محمد بن عبد الوهاب غلبت نسبة الأسرة اليه فعرفت بآل الشيخ محمد ، وكل من جاءوا بعده عرفوا بآل الشيخ اختصاراً ، فاذا قيل : عمر آل الشيخ عرف الناس انه من سلالة شيخ الاسلام الامام محمد بن عبد الوهاب ، إلا أن اسم الوهابية هو الاسم الذي عرفت به هذه الأسرة الكريمة في خارج ديارها .

وأصول الشيخ محمد أصول كريمة ، فآل مشرف من فروع تميم ، وكانوا ذوي امتياز مشهود في بلدتهم والبلدان المجاورة .

ولم يكن امتيازهم إلا الامتياز الذي لا يمحى بموت صاحبه ، ذلك هو امتياز العلم والخلق .

وهذا الامتياز جعل لآل مشرف مكانة عالية في مجتمعات نجد ، وعرفت لهم قدرهم .

وشيخ الاسلام هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن يزيد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن علوي ابن وهيب .

وينتهون الى القبيلة العربية المشهورة تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وفي الياس يجتمع بنو تميم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسبه الشريف .

ولا حاجة بنا لذكر آباء الشيخ ، فذلك ذكر يطول ، ولهذا نكتفي بترجمة موجزة لجده سليمان وأبيه عبد الوهاب .

فجده سليمان كان أعلم أهل بلده (العيينة) وأفقههم ، وكان من أعلم علماء نجد البارزين ، وانتهت اليه الرئاسة في الفقه والحديث وأصولهما وعلوم القرآن والعربية .

وكانت ثقافته اسلامية ، وبرع في العلوم الاسلامية وبرز فيها أعظم تبريز ، وصار في عصره أحد الأئمة المرموقين في فقه الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه .

ومع تبريزه في الفقه الحنبلي كان عالماً في فقه المذاهب المشهورة ، ولكنه لم يكن ليفتي إلا على مذهب الامام أحمد الذي استوعبه .

كما لم يفته الاطلاع على المذاهب الأخرى كفقه الشيعة وعلم الكلام ليكون على علم ، وليبصر الناس بما في مذاهب الفرق من خروج وانحراف .

والى جانب علمه الغزير النافع كانت خلائقه وصفاته خلائق المسلم وصفات المؤمن ، وزينة صفاته التواضع ، وكان معروفاً بالشجاعة والكرم .

واتفق في حبه وقدره والاعجاب بخلقه وعلمه الحكام وأفراد الأمة ، فكان أثيراً عند حاكم العيينة الأمير عبدالله بن معمر ، وكان لا يبرم أمراً إلا بمشورة سليمان ورأيه ، وكان اليه مرد الحكم والقضاء والفتيا ، وكان الحاكم شديد الاكرام له والاعجاب به ، ويصحبه معه في بعض حروبه ، لأن في خروجه معه قوة للجيش وتحميساً له .

واذا كان الحاكم يعرف مكانة الشيخ سليمان ويقدره قدراً عظيماً فان أفراد الأمة كانوا مجمعين على حبه والتعلق به ، واذا حضر إليه خصمان يختصمان كان حكمه يرضيهما دون أن يحقد عليه المحكوم عليه ، اذ يعرف أن الشيخ بمثابة الأب له ، والابن لا يحقد على أبيه وان ظلمه ، ومعاذ الله أن يظلم الشيخ أحداً في الحكم والقضاء .

وتجاوزت شهرة سليمان مدينة « العيينة » فكانت الرسائل ترده من بلدان نجد وقراها تسأله وتستفتيه ، وكان طلاب العلم يفدون عليه في بلده يأخذون عنه العلم والمعرفة ، ويجدون لديه غذاء الروح والجسد ، فقد كان بيته وصدره مفتوحين لقاصديه ، وكان ينفق من ماله على طلاب العلم .

ومن هؤلاء من أصبحوا أعلاماً في مدنهم وقراهم ، مثل الشيخ العلامة أحمد بن محمد القصير وابنه الشيخ ابراهيم.

ومع اشتغاله بالتعليم والفتيا والقضاء الف بعض الرسائل والكتب في الفقه ، ومنها كتابه « تحفة الناسك في أحكام المناسك » وهو مطبوع بمصر سنة ١٣٥٤ ﻫ (١٩٣٠ م) .

وبلغ من تواضعه العلمي إتلافه كتابه الكبير الذي شرح فيه «الاقناع» تأليف العلامة أبي النجا موسى الحجاوي الصالحي عندما علم أن العلامة المدني الشيخ منصور البهوتي شرحه .

وتوفي الشيخ سليمان سنة ١٠٧٩ ﻫ. (١٦٦٨ م) بعد أن خلف أبناء لم يكن لهم شغل غير العلم ، وقد برز منهم اثنان ، هما : عبد الوهاب وابراهيم ، وكانا عالمين جايلين . غير أن عبد الوهاب — والد الامام شيخ الاسلام — كان أبرز وأعلم وأشهر ، ولم يترك مكان والده شاغراً ، بل ملأه بحق ، وانتهت اليه رئاسة القضاء والعلماء والفتيا .

وكان الشيخ عبد الوهاب وقوراً جليلاً مهيباً متواضعاً ، عالماً فاضلاً ، سلفي المعتقد ، حنبلي المذهب .

وبرز في الفقه والحديث والتفسير وعلوم القرآن والعربية ، وكان يلقي فيها دروساً على طلبة العلم بالمسجد وفي داره ، وأقبل الناس عليه اقبالاً عظيماً ، يتزودون من علمه وخلقه .

وللشيخ عبد الوهاب رسائل في الفقه وغيره ، كما أن له تأليفات في فقه الامام أحمد وفي التفسير .

والحق أن بيت سليمان كان بيت علم وفضل وخلق ، وكان بيتاً مشهوراً كفاء بيت الحاكم ان لم يرجح عليه ، بل كان يرجح عليه ، فقد كان الحاكم وآله من تلامذة بيت سليمان ، وأتباعه ، وما كان آل سليمان وسليمان تبعاً لأحد .

وهذا البيت الكريم المبارك هو بيت شيخ الاسلام الامام ، وزاده الله بركة ونماء وقوة بولادة الشيخ ودعوته . وهو بيت عربي أصيل في عراقته ومجده ، وأعظم من هذا أن يكون بيت العقيدة الصحيحة ، والدعوة الاسلامية المباركة ، ويكون البيت الذي شع منه النور في نجد ، ليعيد الضالين الى الهدى والرشد والصواب ، وما يزال الى يومنا يشع النور بفضل الله وكرمه .

واذا كانت أصول الشيخ زاكية طيبة فان فروعه كريمة أربت بفضل الله ثم بفضل شيخ الاسلام على الأصول بركة وخيراً وعملاً صالحاً .

الولادة والنشأة

في ذلك العصر الذي يشبه الجاهلية ولد في بيت آل مشرف بالعيينة مولود ذكر للشيخ عبد الوهاب بن سليمان ، وسمي « محمداً » رجاء أن تحمد عقباه .

ولد محمد سنة ١١١٥ هـ. (١٧٠٣م) من أب معروف المكانة ، في بيت علم وفضل ، مجمع على مزاياه الموروثة والمكتسبة ، وعلى خلائقه الفاضلة .

ونشأ الوليد في ذلك العصر بهذا البيت الكريم الذي حماه من آفات جاهلية عصره فنشأ تحت رعاية والديه نشأة صالحة ، حتى اذا بلغ سن التعلم تولى والده تعليمه ، وكان الابن نجيباً ذكياً منفتح الذهن صاحي الملكات ، فاستظهر القرآن في سن الطفولة وجوده وأحسن تلاوته .

ولم تكن ببلدته (العيينة) مدارس ، فكان الأطفال يتلقون العلم في كتاتيب .

أما محمد فكان في بيته غناء عن تلك الكتاتيب ، فحفظ القرآن واستظهره على يد أبيه العلامة الذي انتهت اليه رئاسة القضاء والفتيا والعلم ، وساعده ذكاؤه ونجابته وقوة ذاكرته على اختصار مراحل الدراسة ، فتزود في خلال بضع سنوات من القرآن وعلومه وعلوم العربية والدين ما كان غيره يتزوده في ضعف زمنه .

ولما تجاوز محمد سن الطفولة زاد شغفه بالعلم ، واستظهر أحاديث من

الصحيحين والأمهات ، وكلما تقدمت به السن تقدم في علمه ، وربا عقله .

وما كاد يتم العشرين من عمره حتى صار عالماً مرموقاً في بلده ، وبذّ العلماء فيه ، وكان الى جانب غزارة علمه قويّ الحجة دون أن يحمله غرور الشباب على التكبر والاستعلاء ، بل كان متواضعاً شديد الحياء ، وكان يعرف ان ما لديه من العلم قليل مع تضلعه فيه ، فكان طلبه إياه طلب العاشق الصابي .

ورأى ما لديه من علم يختلف عما لدى كثير من العلماء ، وتأمل قومه ومواطنيه فاذا الجهل يغشاهم بظلمته ، والبدع والخرافات والوثنيات خرجت بهم عن طريق الحق .

بل رأى منهم من يشركون مع الله غيره في العبادة ، فيذبحون لغير الله ، وينذرون لسواه ، ويتوسلون بالموتى ، ويصرفون أنواعاً من العبادة للاحجار والأولياء والموتى ، وطلبوا منهم ما لا يطلب إلا من الخالق الرازق سبحانه وتعالى ، وتبركوا بالأشجار .

وفسدت الحياة العقلية والدينية والاجتماعية ، فاذا كان الدين لديهم خرافات ووثنيات فالموبقات والظلم والنهب والسلب والقتل كانت شريعة متبعة . وكان حرياً بالعلماء أن ينكروا ما يرون من الباطل ، ولكنهم لم ينكروا ، فمنهم من كانوا هم والعامة سواء في المعتقد والمنزع ، ومنهم من كانوا ضعفاء لا يجهرون بكلمة الحق ، ولا يغيرون المنكر إلا بقلوبهم .

ولم يكن محمد من هؤلاء ، فعلمه مستقى من نبع الاسلام الصافي ومن مصادره الصحيحة ، وكان شجاعاً في الحق ، فلم يرض بالحياة التي يحياها بنو وطنه ، فنهض وحده ينكر ما يناقض الاسلام أو يخالفه من أقوال وأفعال وأخلاق ليست من هذا الدين الحق في شيء .

وحمله الانكار على مناقشة العلماء ونصحهم ، فمنهم من أجاب ومنهم من أخذته العزة بالاثم فعادى هذا الشاب المتحمس لدين الله . وعنف الجدل بينه

وبينهم ، وكان والده معه ، يؤيده في موقفه ومذهبه ، وقد يتناقش الوالد وولده ، ولكنه لم يكن نقاش عداء ، ولكنه النقاش الذي ينتهي الى الحق سالكاً اليـــه سبيله .

واعترف والده انه أفاد من ابنه كثيراً ، وكان يعجب بغزارة علمه ، وقوة منطقه ، وتحريه الحق والصواب ، وتوخيه الخير للناس ، وانتهاجه نهج السلف الصالح .

وتحرر محمد من ربقة البيئة الفاسدة ، وخرج على تقاليد قومه البالية ، واتجه أول ما اتجه الى العلماء وطلاب العلم ، فهم قادة الأمة ، وبدأ بهم رجاء أن ينهجوا منهج السلف .

واذا استطاع محمد أن يتحرر من الهوى فإن أكثر أولئك العلماء كانوا أسرى هواهم فلم يرضهم أن ينكر الجمود والتأخر ، وساءهم أن يحارب البدع التي غرقوا فيها ، ولا يرضون أن يستبدلوا بها ما يريد محمد .

وأخفق محمد في الوصول الى ما يريد من العلماء ، فرأى أن يبدأ الاصلاح من القمة ، لأنه مدرك أن العامة تبع للعلماء ، وأن العامة لا يقبلون منه ما يريد لهم العقيدة واستقامة الاتجاه ، ولم يجد لدعوته الجديدة انصاراً غير عدد قليل ، وكانت دعوته مثار سخط قرنائه العلماء الذين كانوا يسيطرون على العامة بتملقهم إياهم ، وارتزاقهم منهم ، واتفاقهم معهم في البدع .

وخرج النزاع من حدوده الضيقة ، ولم يعد بين محمد وفريق العلماء ، بل دخل فيه عبد الوهاب نفسه وكل آله وطلبته وأنصاره ، وعنف الى حد العداء السافر الذي يدفع الى اتخاذ القوة .

ورأى عبد الوهاب أن الصراع قد اشتد بين العلماء وبين ابنه ونفسه والأسرة الوهابية ، ورأى قوة الخصوم وسيطرتهم على العامة ، وأدرك ما يبيتونه له ولأسرته من

الشر ، وهو لا يريده ، فرأى ترك بلده ومن فيه من الأعداء رغبة في الخير وبعداً من الشر .

ولكن محمداً لم يكن على رأي أبيه ، بل أراد أن يقف في وجه الشر وأهله ، بل وقف في وجوههم بقوة وشجاعة ولم ينهزم أمامهم ، بل هم الذين انهزموا أمام دعوته وقوة حجته وغلبوا على أمرهم ، فتركوا ميدان المناظرة في الدين الى ميدان مقاومة الداعي بغير سلاح المنطق والبرهان .

وتشبث محمد برأيه ، وعزم على البقاء بالعيينة ، ووافق أن يرحل والده مع الأسرة الى حريملا ليكونوا بعيدين عما يبيته أعداؤهم .

وتريث عبد الوهاب فاذا العداوة تستفحل ، واذا مرض وبائي يحل بالعيينة ويفتك بكثير من سكانها ، فانتظر حتى خف الوباء ، ولكن العداء لم يخفّ ، فهاجر مع أسرته وأتباعه الى حريملا سنة ١١٣٩ هـ .

وخلت العيينة من أنصار محمد ، وبقي بها وحده ، فتحدوه بأباطيلهم واستفزازاتهم وبدعهم وعدائهم ، فتحداهم بصبره وشجاعته ، وخرج الى الجماهير يعرض عليهم دعوته الى الحق ، ويبصرهم بدين الله الذي أغرقه العلماء بالبدع والخرافات والشركيات ، وناظر خصومه علانية في المساجد والأسواق ، وكسب بعض الأنصار من الشباب ، ولكن تلقاء ذلك قويت جبهة المقاومة واتحد أفرادها للبطش بالداعي الشاب .

وكانت جبهة المقاومة تضم الرؤوساء والعلماء والعامة ، واستطاع علماء السوء أن يشوهوا دعوة الداعي وسمعته ، ويؤلبوا العامة عليه ، فركبوه بالسخرية ، وجبهوه بالسب ، وحاصروه ونبزوه ونبذوه ، وتعرض أنصاره من الشباب — وكانوا ندرة نادرة — للأذى فاحتمله عنهم وحده .

وأخيراً اتجهوا بالحقد والعداء اليه وحده ، فهو في رأيهم قد أفسد أولئك الشباب وخدعهم فاتبعوه ، وهم معذورون لأنهم ليسوا على شيء من العلم الذي يعلمونه .

واشتعلت العيينة بالحقد على محمد ، ونبا به المقام في بلده ، وخشي على أنصاره أن يتخطفهم الأذى ، فقرر مغادرة العيينة رجاء هدوء العاصفة المدمرة ، والعودة اليها عندما يقوى ساعده ، ويكثر أنصاره ، وتُفْهَم الدعوة فهماً صحيحاً .

ودع محمد أصحابه ، وودع العيينة بعد أن عزم على أن يبتعد عنها ، ويطفىء نيران الفتنة التي أشعلها الخصوم الأقوياء ، وغادر العيينة ...

حجّ البيت وزيارة المدينة

فكر محمد أين يقصد بعد أن قاومته العيينة وشنت عليه حرباً ضروساً ؟ واستعرض البلدان ، وكان أبوه مع الاسرة في حريملا ، ولا يريد أن ينقل المعركة اليها لئلا تضطرب حياة والده اضطرابها في العيينة واضطراره إلى مغادرتها .

وأخيراً ، رأى أن يقضي من سفره فريضة يجب على المسلم القادر اداؤها ، فقرر أن يقصد إلى مكة حرسها الله ، ويتزّود من علمائها ما يسعه أن يتزود من علمهم ، ويؤدي فريضة الحج .

ووصل محمد إلى البلد الأمين ، واجتمع بعلمائه وفقهائه ، وكانت مكة مزدحمة بهم في تلك الأيام ، كما كانت غاصة بعلماء المسلمين من مختلف الأقطار وفدوا إلى مكة للحج .

وعرض دعوته على العلماء ، وتعددت المجالس ، وأقيمت له حفلات وندوات . وناقشوه وناقشهم ، وكانت المناقشة بينهم تجري في جو يسوده الاخلاص والمودة ، وكان محمد بن عبد الوهاب سعيداً بما يلقى من الحفاوة والتكريم ، ومن المناقشة الهادئة الرصينة .

ولقي التأييد من علماء مكة فسره ذلك ، وقواه تشجيعهم اياه ، وحثهم له على الاستمرار في الدعوة والصبر على المكاره .

وأدى فريضة حجه ، وكان سعيداً كل السعادة بذلك وبما وجد من علماء مكة وعلماء الأقطار الاسلامية الوافدين للحج ، وعرفوا شخصية الداعي ودعوته ، فأكبروه .

وبعد أن أدى فريضة الحج سافر الى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وأسعده أن يكون بها عالم المجمعة الكبير الشيخ عبد الله بن ابراهيم بن سيف ، فما كاد يصل المدينة حتى أسرع إلى زيارته .

وفرح به ابن سيف ، وعلم منه ما لقي أبوه وهو نفسه بالعيينة من الأذى والاضطهاد ، وأكرمه وكرمه .

وزار علماء مهاجر رسول الله ، واحتفوا به كما احتفى به علماء مكة ، وعرض عليهم دعوته وعقيدته فأيدوه وشجعوه ، واستنكروا ما استنكر .

وانتهز محمد فرصة وجوده بين ظهراني علماء المدينة فأخذ منهم بعض العلم ، كما تلقى من الشيخ ابن سيف بعض العلوم كالفقه .

وطالت ملازمة محمد للشيخ ابن سيف والتردد على داره ، وكان على صلة وثيقة بالشيخ ابراهيم ابن الشيخ ابن سيف ، وهو عالم جليل كوالده ، ومؤلف كتاب « العذب الفائض في علم الفرائض ».

وكان ابن سيف على صلة عظيمة وقوية بعلامة المدينة الأكبر ومحدثها الأشهر وفقيهها الفاذ الشيخ محمد حياة السندي (١) ، وحدثه عن الداعية الجديد ، وأحضره اليه ذات مرة ، فأعجب بعلامة المدينة ايما اعجاب .

وقويت صلة الداعي بعلامة المدينة وتتلمذ عليه ، كما أخذ العلم من علماء

---

(١) هو الشيخ محمد بن حياة بن ابراهيم السندي ، ولد بالسند ، واقام بالمدينة المنورة وتوفي بها سنة ١١٦٣ هـ (١٧٥٠ م.) وله مؤلفات منها: مقدمة في العقائد، وشرح الترهيب والترغيب، وتحفة المحبين ، وهو شرح للاربعين النووية .

المدينة الاعلام ، مثل الشيخ علي الداغستاني واسماعيل العجلوني ، ومحمد العفالق ، وعبد اللطيف العفالق وغيرهم .

وتضلع محمد من العلم النافع من أولئك الاعلام ، وبخاصة من الشيخ السندي والشيخ ابن سيف .

وكانت البدع شائعة في العالم الاسلامي كله ، ولم تخلُ المدينة منها ، فكان يدعو الى الحق في اسلوب الحكمة والموعظة الحسنة .

وكان محمد ذات يوم تجاه قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فرأى جماعة عند الحجرة الشريفة يدعون ويستغيثون ويعملون ما يخالف ما جاء به محمد عليه صلوات الله وسلامه ، فأنكر عليهم في رفق ، وبصّرهم بالحق في وضوح ، وهنا رأى علامة المدينة الشيخ السندي مقبلاً اليه ، فاستقبله وبادره قائلاً : ما تقول في هؤلاء ؟

فأجابه الشيخ السندي : ﴿ انَّ هؤلاءِ مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ .

وشغل محمد نفسه مدة اقامته بالمدينة بالدعوة والعلم والتزود من المعرفة من العلماء الأكابر في علمهم وخلقهم وفضلهم ، وخير ما أفاده صلته بالشيخ ابن سيف ، فهو من أكابر العلماء وقد وهب نفسه للعلم وطلبه والتزود منه .

وذات يوم كان محمد في زيارة ابن سيف فقال له : أتحب أن ترى ما أعددت للمجمعة من سلاح ؟ فأجابه : نعم ، وقاده الى بهو كبير مليْ بالكتب ، وقال : هذا ما أعددناه للمجمعة ؟ فقال محمد : نِعْم ما أعددت .

وكان الشيخ ابن سيف شديد الاعجاب بمحمد بن عبد الوهاب وشديد البر به ، فقد أعجبه ذكاؤه وألمعيته وخلقه وتواضعه وعلمه وصبوته إلى المعرفة فزوده منها ، وأجازه عن طريقين : أحدهما عن طريق ابن مفلح عن شيخ الاسلام الامام ابن تيمية عن شمس الدين بن أبي عمر عن عمه موفق الدين بن قدامة عن

الشيخ عبد القادر الجيلاني عن القاضي ابي يعلى المرداوي عن ابن حامد عن الخلال عن الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم .

والثاني عن طريق محمد بن قيم الجوزية عن شيخه شيخ الاسلام الامام ابن تيمية عن شمس الدين نجل ابن ابي عمر عن عمه موفق الدين عن الشيخ عبد القادر شمس الدين نجل ابن ابي عمر عن عمه موفق الدين عن الشيخ عبد القادر الجيلاني عن ابي الوفاء بن عقيل عن القاضي ابي يعلى عن ابن حامد عن ابي بكر المرداوي عن الخلال عن الاثرم عن الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم .

وأجازه الشيخ عبدالله بن ابراهيم بن سيف أيضاً بكل ما في ثبت الشيخ عبد القادر الحنبلي شيخ مشايخ وقته قراءة وتعلماً وتعليماً : صحيح البخاري بسنده الى مؤلفه وصحيح مسلم وشروح كل منهما وسنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه ومؤلفات الدارمي كلها .

كل ذلك بسنده المتصل الى مؤلفه . ومسند الامام الشافعي وموطأ الامام مالك ، ومسند الامام أحمد ، ومسند الامام داود الطيالسي ، ومعاجم الطبراني ، وسلسلة العربية بسندها الى أبي الأسود الدؤلي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وبكتب النووي كلها ، ومؤلفات الحافظ ابن حجر العسقلاني ، وكتب القاضي عياض ، وكتب القراءات ، وكتاب القاموس في اللغة بالسند الى مؤلفه ، وكتاب للشيخ عبد القادر الجيلاني ، وكتب السيوطي ، وكتب فقه الحنابلة وأصولها بسلسلتها .

والحق أن رحلة الشيخ محمد الى مكة والمدينة — حرسهما الله — أفادته كثيراً ، فقد اطلع على حضارة البلدين المقدسين العريقين في الحضارة ، ووقف على حياة شعوب العالم الاسلامي ممثلة فيمن رآهم وقابلهم بهاتين المدينتين .

ولم تقف الفائدة على ذلك وحده ، بل عرف أكابر العلماء في عصره بمكة والمدينة ، وتلقى عنهم ما هو في حاجة اليه من العلم ، وزادت ثروته من التفسير

وسائر علوم الدين والعربية ، وصار من جراء ذلك عالماً حقاً أرْوَدَ له صعب العلم .

وبعد أن تزود من العلم رأى أن يعود الى نجد حيث الشرك والجاهلية يغشيانها ، وآلى على نفسه أن يثور على البدع والخرافات والشرك والأوثان ، وأن يقاوم المبطلين مهما كانوا ذوي نفوذ ، سواء كانوا علماء أم حكاماً .

وازداد محمد حماسة ، وامتلأت نفسه قوة وايماناً ، وودع أصحابه ومحبيه ومشايخه ، ودعوا له بالتوفيق والتسديد ، وغادر المدينة المنورة عائداً إلى نجد .

من المدينة إلى نجد

غادر محمد بن عبد الوهاب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فرحاً سعيداً ، فقد أفاد من رحلته الى الحجاز كثيراً ، فقد أدى فريضة الحج ، ثم زار مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتزود من علماء مكة والمدينة حرسهما الله بالعلم النافع ، والنصح المثمر والتأييد والتشجيع .

وعاد إلى نجد ، ولكن مقامه بها لم يطل ، فقد وجد من نفسه الرغبة في السفر إلى بعض البلدان العربية ، فرحل الى البصرة طلباً للعلم ونشراً للدعوة ، واتصل بعلمائها وأخذ عنهم وأخذوا عنه ، وتتلمذ على عالم البصرة الكبير الشيخ محمد المجموعي — من قرية المجموعة احدى قرى البصرة — وأخذ عنه بعض العلوم .

ورأى في البصرة مثل ما رأى في بلدان نجد من البدع والخرافات والوثنيات ، ورأى القبور مزدحمة بزوارها المبتدعين ، وعليها السرج المضيئة ، وكانوا يطوفون بها ويتمسحون ، ويطلبون الى الموتى ما لا يطلب الا من الله .

ولم يملك الشيخ غير النصح والوعظ والارشاد ، ولم يفد ذلك ، فأنكر عليهم برفق ، فقابلوا نصحه بالإعراض ثم آذوه وضربوه ، ولم يقف عدوانهم عند هـذا الحد ، بل أمعنوا في الأذى فضربوه ونهبوا ما كان معه من مال وكتب ومتاع ، وأخرجوه من البصرة في حمارة القيظ ليس عليه غير القميص والثوب ، حافي القدم

عاري الرأس ، وآذوا الشيخ المجموعي بسبب ايوائه الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وفي منتصف الطريق بين البصرة والزبير سقط الشيخ من الجهد الذي أصابه ، ودعا الله أن يفرج عنه ، فهو لم يعد يستطيع المشي ، وجف ريقه ، واشتد به الظمأ والجوع .

وبينما هو في كربه الذي أخذ يشتد ، ودعائه الذي يتصعد أقبل عليه أحد أهل الزبير على حماره واسمه « أبو حميدان » ورأى الشيخ مشرفاً على التلف والهلاك ، وأسرع اليه يسعفه ، وسقاه وأركبه حماره وأوصله إلى الزبير بعد أن عرف منه ما أصابه .

ولبث الشيخ في الزبير أياماً ، وأراد السفر الى الشام ، غير أن ما لديه من مال قد نهبه سفهاء البصرة ، فرأى أن يعود الى نجد ، وفي طريق عودته الى بلاده عرج على على الاحساء ، ونزل ضيفاً على الشيخ عبدالله بن محمد بن عبد اللطيف الاحسائي الشافعي .

وأقام بها مدة معززاً مكرماً ، واجتمع بعلماء الاحساء في منزل مضيفه وفي منازلهم ، وأعجبوا بدعوته السلفية ، ولقي منهم التأييد والتشجيع كما كان قد لقي من علماء مكة والمدينة .

ثم عاد الى حريملا حيث كان بها أبوه ، وفرح بعودته ، وعلم منه ما لقي في رحلته إلى البصرة ثم الزبير ثم الاحساء ، وأيده في دعوته ، وناصره ونصره وحماه ، وأذن له أن يستمر فيها .

وثار بين محمد وعلماء حريملا الجدل العنيف ، وقام العامة في صف العلماء المناوئين للدعوة ، ولكن خصومتهم لم تثن عزيمته التي كانت تشتد أبداً كلما عنفوا في الخصام .

وقد عرف العالم الاسلامي اساوباً في الخصام لا يقوم على الحق ، فاذا عجز العلماء الضعاف ذوو الهوى عن النقاش العلمي الحر اتخذوا أساوب اثارة العامة

وضمهم اليهم وتضايلهم واتهام خصومهم بالمروق من الدين رجاء قهر الدعاة وكسب النصر عليهم .

وسلاح هؤلاء الجهل والكذب والاتهام الباطل والغش والتدليس ، فاذا كانوا علماء وليسوا بجهلاء فانهم يكونون ممن قال الله فيهم : ﴿ وأضله الله على علم ﴾ .

وعندما يعجز هؤلاء العلماء يتخذون سلاح الباطل ، وهذا هو السلاح الذي شهروه على الشيخ محمد ودعوته .

غير أن الخصومة لم تتجاوز حرب الكلام احتراماً لوالد الشيخ محمد ، الا أن أباه توفي في سنة ١١٥٣ هـ فبقي في الميدان وحيداً ، ووجد خصومه الفرصة سانحة بموت أبيه فزادوا الحرب وقوداً .

ولم يستخذ الشيخ محمد ، فقد ثبته الله ، وحمل راية الدعوة ، وقابل عنف خصومه بالعناد والاصرار والثبات ، فأنكر على المبتدعين بدعهم ، واشتد في محاربة الوثنية والشرك وقهرهم بالحجة والدليل ، ولكنهم لم يكونوا ليصغوا لكلمة الحق .

فالداعية أنكر ما يشهد من الباطل ، واتخذ الكتاب والسنة برهانه ، وحمل بهما على العكوف على القبور ، وعلى طلب الموتى ما لا يطلب الا من الله عز وجل ، ولكنهم كانوا يردون عليه كما يرد المبتدعون على منكريهم : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على امة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ .

وتألبت قوى الشر على الشيخ ، واتفقت كلمتهم على حربه ، وكان في الميدان وحده يجابهها في عزيمة وايمان ، ولم يعرض أنصاره للأذى ، فهم كانوا ضعفاء ، وآثر أن يلاقي خصومه الأقوياء وحده ، ولم يكن له سلاح غير القرآن والحديث ، ولم تستطع قوى الشر قهره ، بل استمر في دعوته غير محتفل بالعلماء والرؤساء وأرباب السلطة والنفوذ .

المؤامرة على حياة الإمام

أثمرت دعوة محمد أولى ثمارها، اذ تبعه بعض الناس في حريملا ، ومن قبل عندما كان في العيينة تبعه بعض الشباب ، وفي مكة والمدينة له مؤيدون من كبار العلماء ومشجعون .

وأحدثت الدعوة دوياً في العيينة وحريملا والقرى المجاورة لهما ، وعرف الناس الداعي ، ومن لم يعرفه سمع به ، فاذا كان هناك أنصار فقد نهض له مناوئون أقوياء ، وكلما زادت الدعوة انتشاراً ولقيت أنصاراً ازدادت حركة المقاومة وتضاعف عدد محاربيه .

وأشدهم عداء ولدداً في الخصومة أهل حريملا ، فقد قابله معظمهم بالصد والرد والإعراض ، بل بالأذى الشديد ، بل أراد بعضهم التخلص منه ومن دعوته بقتله ، ولكن الله أنجاه منهم .

ولم يكن لحريملا أمير واحد يحكمها ، بل كان الحكم فيها لبطنين من آل رباع ، وهما مرجع الأمر والنهي ، وبأيديهما الحل والربط ، ولم يكونا على وفاق ، وليس لأحدهما على الآخر سلطان ، بل كانا في خصام دائم ، تغذيه الحوادث والوشايات ، وتشتعل نار الفتنة بينهما لأتفه الأسباب .

يقتل القاتل فيلجأ إلى أحد البطنين فيحميه ويستعد للقتال والدفاع ، ويضطر

ولي المقتول وذووه الى الاعتصام بالبطن الآخر ، فيحتدم بين البطنين الجدل ، ويؤدي بهما الى القتال وتحكيم السيف .

وما تهدأ بينهما فتنة الا لتشتعل في عقبها فتنة أخرى أشد ، ولم تخمد هذه النيران بينهما الا بعد استيلاء آل سعود على حريملا .

وانتشرت الفتن والفوضى في حريملا ، وقطع السبيل ، وعاش الناس فيها عيشة ذعر دائمة ، وزاد في ظلم الناس الأبرياء عبيد هذين البطنين الذين تمادوا في غيهم ، وكان سادتهم راضين بما يعملون ، ويشجعونهم على جرائمهم ويحمونهم ، وكان العبيد يعيثون في البلدة وأهلها فساداً ، وما ثم من يستطيع نصحهم .

ورأى الشيخ ما بين البطنين من تناحر وخصام ، ورأى جرائم عبيدهما التي تتجدد كل يوم فنصحهم جميعاً ، ولكن نصحه لم يجد طريقاً اليهم ، وأمن بعض الناس كامن في إخافة غيرهم ، وسعتهم في الرزق على حساب ما ينهبون ، وعجبوا من جرأة الشيخ محمد وتكرار نصحه ، وزادوا من ظلمهم الناس ، واشتد طغيانهم وبغيهم وأذاهم ، فاضطر أن يجبههم ، ثم اشتد تجبيهه اياهم ، ولكن الأنجاس المناكيد أصموا آذانهم ، وأضمروا للداعية كيداً .

واشتد النزاع بينهم وبين الشيخ محمد ، ولا شك أن سادتهم كانوا مع عبيدهم ، فهم كلاب الصيد ، هم وما يصطادون لسادتهم .

ولكن الشيخ لا يبالي أحداً في الحق ، فقرر أن يقف شرورهم ، ويطبق عليهم حكم الله فيحدهم ويقتص منهم ، ليمنع تعديهم على عباد الله ظلماً وبغياً اعتزازاً منهم بسادتهم وأنفسهم .

واشتد عجبهم من تجاوز الشيخ حده كما ظنوا ، فهم قد أهانوا الكبراء والعلماء ولم يجرؤ أحد منهم على المعارضة أو الاستنكار ، فكيف يجرؤ هذا الشيخ ابن عبد الوهاب على أن يعلن أنه سيحد هؤلاء العبيد الذين انقلبوا سادة وحكاماً .

واتفق العبيد فيما بينهم على التخلص من الشيخ ، وتآمروا على قتله، وما أهون القتل لديهم !

ومع القوة التي يتمتعون بها خافوا أن يقابلوا الشيخ في الطريق ويعتدوا عليه ، وخافوا أن يهاجموه في داره نهاراً ، فبيتوا أمرهم على قتلـــه غدراً وغيلة .

وذات ليلة مظلمة كظلمة وجوههم ونفوسهم خرجوا الى دار الشيخ يريدون قتله ، وبينما هم يتسلقون جدارها بصرت بهم قافلة من البدو دخلت المدينة في ذلك الوقت ، وأدركوا أن هؤلاء لصوص ، فصاحوا بهم وحملوا عليهم ، فهربوا يسابقون الريح .

وطرق البدو الباب على الشيخ وما كانوا يعرفون العبيد المجرمين ، وفتحه لهم ، فأخبروه بالحادث ، وحذروه فشكرهم ودعا لهم .

وفي الصباح علم الشيخ بالحادث وتآمر العبيد على قتله ، وفكر في الأمر ملياً ، وانتهى به التفكير الى ترك حريملا ، فليس هناك ما يدعوه الى الاقامة بها وسط فتن لا تهدأ وفوضى لا تنتهي .

واقامته بحريملا تعرض الدعوة وصاحبها للموت ، فمن الخير أن يغادرها رجاء أن تقوى الدعوة فتغير المنكر بالقوة .

وغادر حريملا الى العيينة .

العيينة تستقبل الداعية

كانت أخبار محمد قد سبقته الى العيينة . فعلم أميرها عثمان بن معمر بالدعوة الجديدة وصاحبها ، وما لقيه من عنت ومقاومة ، وسمع بحادث الاغتيال من قبل عبيد حريملا .

ولم يفته العلم برحلات الداعية الى مكة والمدينة وما لقي فيهما من حفاوة علمائها الأعلام .

وصلته أخبار الداعية التي انتشرت في القرى المجاورة لحريملا ، وكانت الأخبار متضاربة ، ولكن ما انتهى الى عثمان بن معمر كان في صالح الداعية ، وصف بما هو أهله من مكارم الأخــلاق والعم والدعوة الى الله وحده ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتحكيم الكتاب والسنة .

وكان عثمان بن معمر يرجو أن يتعاون مع الداعية ، فقد استطاع أن يسيطر على العيينة ويقيم فيها الأمن والعدل .

وحقق الله أمنية عثمان بمقدم صاحب الدعوة الى العيينة يقصده. وسره أن يكون المرغوب فيه من قبله قد وافاه وآثره فاستقبله استقبالاً حافلاً كريماً ، وأكرمه وأنزله بداره .

وتحدث الشيخ الى عثمان قائلاً : اني أرجو ان قمت بنصر لا إله إلا الله أن

يظهرك الله تعالى ، وتملك نجداً وأعرابها .

ورضي عثمان بما عرض عليه الشيخ ، وصادف مقاله هوى في نفسه ، فبايعه على النصر والتأييد ، وتبعه في دعوته ، واحتمل معه أعباءها وتبعاتها ، وأعانه بكل ما لديه من قدرة وقوة ، وقدره أعظم قدر ، وأعجب به كل الاعجاب ، وأحبه حباً صادقاً .

ولم يدخر عثمان شيئاً في تأييد الشيخ واعلان الحب له ، وأحب أن يقوي صلته به ويصاهره ، فعرض على الشيخ أن يزوجه عمته «الجوهرة» بنت عبدالله بن معمر ، ليكون في سمط أهله وعداد أسرته ، فقبل الشيخ شاكراً وقادراً لعثمان شعوره نحوه وتأييده اياه ، وفرح لهذه المصاهرة التي تكون من أسباب نصر الاسلام وتأييد الدعوة .

وأثمرت المصاهرة آثاراً طيبة سريعة . فقد وجد الداعي من الحاكم ما يقوي الدعوة وينشرها ، ووجد شريكة حياته امرأة عاقلة ذات دين وصلاح ، وأيدت زوجها كل التأييد ، وحملت ابن أخيها الحاكم عثمان بن معمر على أن يهب نفسه وكل ما لديه من قوة للدعوة والداعي .

ونهض ابن معمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحكّم شرع الله في بلاده ، وقضى على المظالم ، وقمع أهل الباطل .

ولم يمض على مصاهرة الشيخ ومقامه بالعيينة غير زمن قصير حتّى كان أهل العيينة أتباعاً وأنصاراً وعلى رأسهم الحاكم نفسه وكل أسرته .

ولما رأى أنصار الشيخ وأتباعه في حريملا والرياض . والدرعية مقام الشيخ الطيب بالعيينة ونهوض أميرها بنصره وتأييده أقبلوا على العيينة ليكونوا مع الشيخ ، ووجدوا منه ومن الحاكم أجمل العون والحفاوة .

وكانت العيينة مباءة لأشجار تعظم ، وأوثان تعبد ، وحل الشرك محل التوحيد ، وتولى الشيخ نفسه تعليم الناس أمور دينهم ، وتبصيرهم بالحق ؛ وقضى على البدع

والخرافات ، وأبان لهم ما كانوا فيه من الضلالة والشرك ، فأقلعوا عنهما ، وعرفوا التوحيد ، ولكنهم كانوا حديثي عهد بالاسلام الحق ، فأمر أتباعه بقطع الاشجار وحطم الأوثان فأزالوها .

أما أولئك الذين اهتدوا حديثاً فان كثيراً منهم لم يشتركوا في إزالة الاشجار والأوثان خوفاً منها ، ولأن شعور الهيبة منها لم يزل عنهم كل الازالة .

ومن ذلك أن شجرة عظيمة كان أهل العيينة يعظمونها ، ويعلقون عليها خرقاً وحبالاً ، ويأخذون من أفنانها وأوراقها للتبرك ، وكانت مقدسة ، ومع أن دعـــوة التوحيد عمت العيينة فان وجودها كان منظوراً اليه بشيء من التعظيم والهيبة ، وكان أثراً قائماً من آثار الشرك ، فقرر الشيخ اجتثاثها ليزيل وثناً معبوداً .

وذات صباح خرج الشيخ ومعه تسعون من أتباعه الخلص الى الشجرة . وأمرهم بقطعها . واشترك الشيخ نفسه في اجتثاثها وهو يتلو : ﴿ قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ﴾ تأسياً بسيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عندما تلا هذه الآية الشريفة وهو يحطم أصنام الجاهلية المنصوبة في الكعبـــة المعظمة .

وبينما الشيخ وأتباعه آخذون في اجتثاث هذه الشجرة الضخمة بالفؤوس وقف من كان في قلوبهم وهن من النساء والرجال دهشين ، ينظرون ما يصيبهم مـــن الأذى لاعتدائهم عليها ، واذ وجدوها تهوي الى الارض دون أن يصاب الموحدون بأذى أخذ الذهول منهم كل مأخذ .

وكان بمدينة «الجبيلة» قبة على القبر المنسوب الى زيدبن الخطاب رضي الله عنه يحج اليها الناس أفواجاً أفواجاً ، ويعكفون على القبر ويتمسحون به ويتمرغون في ثراه . فطلب الشيخ من الأمير عثمان أن يهدم القبة فأذن له بذلك . ولكن الشيخ رجا الأمير أن يكون معه ساعة الهدم لئلا يصده أهل « الجبيلة » أو يقتلوه دفاعاً عنها . اذ يعتقدون فيها كل خير وبركة ، ولولاها لما كانوا في رخاء وأهل المدن

الأخرى يعز على أحدهم أن يجد قوت يومه ميسوراً .

فسار عثمان بستمائة فارس في هيئة المستعد للقتال ، وأراد أولئك صده ولكنه هددهم بحرب يكونون وقودها ان لم يخلوا بينه وبين القبة ، فخافوا وتركوه معتقدين انها سوف تحمي نفسها .

وأمر الشيخ أتباعه بهدمها ، فلم يتقدم أحد ، وتهيبوا أن يمسوا القبة بسوء مخافة أن يصيبهم الضرر المحتوم ، فهذه قبة زيد رضي الله عنه ، وسرى الهمس فيما بينهم .

وهنا تقدم الشيخ وأخذ يهدم بيديه ، فلما رآه أتباعه معافى سليماً بفضل الله تكاثروا وهدموا القبة وسووها بالأرض .

وشارك الأمير عثمان بن معمر في هدم القبة ، ولولا وجوده وحمايته الشيخ واشتراكه في الهدم لحدثت حرب بين الشيخ وأهل الجبيلة وسدنة القبة وزوارها وحجاجها .

وكان عثمان سعيداً بنجاح الدعوة واقبال الناس عليها وعلى بلدته وتزاحم طلاب العلم عليها ، فاستقبلهم بحفاوة ، وأجرى عليهم الرزق . ليتفرغوا للعلم وطلبـــه .

وترامت هذه الأخبار الى سمع العرب في نجد فقصده طلاب العلم ورواد الحق ، فاشتهر أمره ، وبعد صوته ، وعظم شأنه .

وطهر الشيخ العيينة والقرى المجاورة لها والجبيلة من كل ما كان بها من أشجار وأحجار وقبب ، ورفع علم التوحيد على هذه الربوع التي سادتها الجاهلية والوثنية قرونـــاً .

التائبة

ساد شرع الله العيينة بعد أن طهرها الشيخ من الجاهلية والوثنية . ونعم الناس بعهد سعيد ، فالحكم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وحدود الله تطبق ، لا فرق بين الحاكم والمحكوم .

وأثر الشيخ بمواعظه ودعوته في الناس تأثيراً حسناً ، وسعدوا بما أنعم الله عليهم من نعمة الاسلام التي انبثقت منها كل النعم التي رفلوا فيها .

وذات يوم أتته امرأة ، وطلبت اليه أن يقيم عليها الحد ، واعترفت له بأنها ارتكبت الأثم ، وكانت على علم بالحد ، وهو الموت رجماً .

وكانت تقص قصة إثمها ودموعها تصدع فؤادها من هول ما اقترفت . وما أعد الله لمثلها من العذاب اذا لم تتطهر من الدنيا .

وعجب الشيخ من اعترافها ، ولم يشك في صدق هذا الاعتراف . فقد كان صوتها ودمعها يوحيان بأن الاثم وقع ، ويؤكدان أن رغبتها في التطهير صادقة .

وهذه « المثالية » في التضحية بالنفس رغبة في تطهيرها ، وفي الشعور ببشاعة الخطيئة النكراء ، والخوف من عقاب الله الذي لا ينجو منه غير التائبين لا تتكرر في تاريخ الانسان الا نادراً .

وهذه الحادثة نادرة تنظم في سمط الحوادث التي تعد على الاصابع .

ولا شك أن اندفاع هذه المرأة إلى الاعتراف بخطيئتها ، وإلحاحها في طلب تطهيرها بإقامة الحد عليها لم يكن الا أثراً من آثار دعوة الشيخ محمد ، فهو قد أيقظ ضمير الانسان المسلم ، وطهره بالقرآن ، وهذبه بالحديث ، وجب الاسلام ما قبله ، وتاب الخطاءون وعادوا الى ربهم صادقين نادمين تائبين قانتين .

ولكن هذه المرأة لم تقنع بالتوبة بين نفسها وربها ، ولو تابت لوجدت الله تواباً رحيماً ، وفهمت التوبة فهماً دفعها الى أن تجعل التوبة دافعاً الى الرغبة في التطهر عن طريق العقوبة المؤلمة تمحو اللذة المحرمة ، وفهمت أن التوبة من غير تضحية ومعاناة ومجاهدة للنفس الآثمة غير كاملة ، ولا تكمل الا بتطهير الجسد والشعور .

واذا كانت التوبة تمحو اثم الضمير الذي غفل عن حماية صاحبه من الاثم فان توبة الجسد والشعور يجب أن تتم عن طريق الآلام .

طلبت هذه المرأة من الشيخ أن يقيم عليها الحد ، واعترفت له بوقوعها في الاثم طواعية واختياراً ، وذكرت أنها تعرف نتيجة اعترافها .

ولم يشك الشيخ في سلامة عقلها التي برهنت عليها بشعورها الصادق بمخافة الله وإيمانها بما ادخر للتائبين والتائبات ، ومع هذا انصرف عنها الشيخ وهي تعترف له رجاء أن تنهض وتغادره ، ولكنها تشبثت بمكانها وكررت طلب اقامة الحد عليها .

وذكر الشيخ في مقامه هذا التائبة الجهنية واعترافها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموقفه الكريم منها ، فتأساه ، ووقف من المعترفة ذلك الموقف الكريم . فانصرف عنها الشيخ بوجهه ، فلما رآها مستمرة في بكائها الذي يفطر الاكباد وفي ترديد اعترافها وتشبثها بطلب اقامة الحد على نفسها قال لها : لعلك كنت مغصوبة؟

فأجابته في وضوح انها لم تغتصب ، بل اقترفت الاثم طائعة مختارة ، وفكر الشيخ ثم صرفها ، وطلب اليها أن تراجعه بعد أيام .

وعادت اليه بعد أيام ، وشعورها بالاثم جعل حياتها بشعة غاية في القذارة .

ورجت في إلحاح أن يطهرها بإقامة الحد .

فسألها الشيخ : لعلك كنت غائبة العقل ؟

فأجابته انها صحيحة العقل وما تزال !

وصرفها الشيخ للمرة الثانية ، ومضت على أن تعود بعد أيام ، وسأل الشيخ خلالها عنها وعن عقلها ، فعلم انها سيدة عاقلة رشيدة .

وبعد مضي أيام عادت اليه وقلبها يتصدع ، وطلبت اليه اقامة الحد فحياتها خلال الأيام الماضية كانت آلاماً لا تطاق ، وتؤثر لقاء ربها على هذه الحياة .

وأعاد الشيخ القول أربع مرات ، وهي ثابتة على ما قالت ، فشدت عليها ثيابها ، وأخرجت الى ميدان عام ، وكان أمير العيينة عثمان بن معمر والشيخ أول الراجمين .

غفر الله لها ، ورحمها رحمة واسعة .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما رجم التائبة الجهنية : « انها تابت توبة لو وزعت على سبعين لوسعتهم » . وعسى أن تكون هذه التائبة كأختها الجهنية في المثوبة وحسن الجزاء .

مغادرة العيينة

ترامت اخبار الشيخ ومساندة عثمان بن معمر امير اليعينة الى سمع العرب وبخاصة أمراء نجد والاحساء ، فتوجسوا خيفة من الحركة الجديدة التي تنذرهم كما حسبوا . ومنهم سليمان بن محمد الحميدي رئيس قبيلة بني خالد وأمير الأحساء الذي كان من الأمراء الأقوياء ذوي النفوذ على بعض أمراء المدن والقرى في نجد .

وكان بين أمير الاحساء وأمير العيينة صلات وثيقة ، ولأمير العيينة في الاحساء نخيل ، ولأمير الاحساء قوة ونفوذ يحسب حسابهما ، ولم يرقه تأييد ابن معمر لابن عبد الوهاب الذي أخذت حركته تشتد وتقوى وتنتشر ، فبعث الى ابن معمر يطلب اليه أن يخرج الشيخ من بلده أو يرسله اليه ، وعزز رسالته الاولى بأخرى .

ولم يصغ ابن معمر لطلب أمير الاحساء ، بل تجاهله ، وأطلع الشيخ على رسالتي أمير الاحساء فطمأنه . واذا ثورة على وجود الشيخ بالعيينة يقوم بها سليمان ابن شامس العنيزي رئيس قبائل بدو العيينة .

وكانت ثورته خطيرة ، فقد كتب الى رؤساء العيينة من بني تميم ينذرهم بما تستهدف له العيينة من خطر اذا استمرت في تأييد الشيخ ، ويخبرهم عن عزمه على مقاومة الشيخ واخراجه بالقوة ، وقد تنشب حرب لا مفر منها اذا ابى ، وسيحارب أنصاره مهما كانوا ومن كانوا .

وكانت الظروف كلها ضد الشيخ وابن معمر ، والتبعة كلها على الشيخ ، لأنه هو الذي ضم اليه ابن معمر واستنصره وجعله حامياً للدعوة ، ولم يكن في قدرة ابن معمر محاربة الثائرين وقد رأى كثير من أهل العيينة ينضمون اليهم خوفاً من العنيزي وأمير الاحساء ، ورعاية لمصالحهم ، وحماية لأنفسهم وأموالهم وبيوتهم .

واشتدت الثورة على الشيخ واستقرت على اخراج ابن عبد الوهاب عنوة ، فاذا أبى فالقتل مصيره ومصير الحماة والنصراء .

وعلم الشيخ بالثورة كما علمها ابن معمر ، واجتمع الثائرون وسلاحهم معهم ذات جمعة بمسجد العيينة ، ليخرجوا منه الى منزل الشيخ ، وعلم أخوه علي بن عبد الوهاب بالثورة وخاف على أخيه فقابل زعماء الثورة واتفق معهم على تسوية الأمر وتحقيق مطلبهم .

وأبلغ أخاه بالاتفاق ، ولم يكن له مفر إلا مغادرة العيينة ، وبينما هو يتهيأ للرحيل زاره عثمان بن معمر مودعاً ومعتذراً ، وسأله عن وجهته ، فلما علم انه قاصد الدرعية رضي ، لأن أميرها محمد بن سعود معروف بالقوة والتدين والصلاح ، والقدرة على حماية المستجير ، وبينه وبينه صلة رحم ومودة .

ويظهر ان اتفاقاً تم بين الشيخ الامام والامير عثمان بن معمر على أن يغادر العيينة الى بلد أكثر أمناً للداعي والدعوة ، حيث بها الأمير محمد بن سعود الكفء لأمير الاحساء في الحرب والقتال ، والقادر على مقاومة الثائرين .

وفي كتاب « عنوان المجد في تاريخ نجد » لابن بشر أن عثمان بن معمر تنكر للشيخ ، وهو ما لا يتفق مع واقع التاريخ الصحيح .

جاء في كتاب « عنوان المجد في تاريخ نجد » لابن بشر ج ١ ، ص ١٩ ، (الطبعة المصرية) :

« أرسل ابن معمر الى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ثانياً وقال ان سليمان (يعني

حاكم الاحساء) أمرنا بقتلك ولا نقدر على غضبه ولا مخالفة أمره لأنه لا طاقة لنا بحربه ، وليس من الشيم والمروءة أن نقتلك في بلادنا فشأنك ونفسك وخل بلادنا ، فأمر فارساً عنده يقال له الفريد وقال : اركب جوادك وسر بهذا الرجل الى ما يريد ، فقال الشيخ : اريد الدرعية . فركب الفارس جواده والشيخ يمشي راجلاً أمامه وليس معه إلا المروحة ، وذلك في غاية الصيف . فقال ابن معمر لفارسه : « اذا أنت وصلت الى أخيه يعقوب فاقتله عنده ». فسار الفارس والشيخ أمامه وهو لا يلتفت فلما همّ بقتله كفَّ الله عنه يده وأبطل كيده وقذف في قلبه الرعب حتى ما استطاع أن يمشي قدماً فحرف جواده وانصرف الى العيينة وقال لابن معمر : انه أصابني رعب عظيم حتى خفت على نفسي ، الخ ».

ان ما نسبه ابن بشر الى ابن معمر ينفيه واقع التاريخ ، فالذين عاصروا الشيخ محمداً أو كتبوا تاريخه في عهده لم يذكروا هذه الحادثة مما يدل على أنها غير واقعة ، اذ لو وقعت لأشار اليها جامعو سيرته وكاتبو تاريخه .

فالشيخ حسين بن غنام ، تلميذ الشيخ الامام ومؤلف تاريخ « روضة الافهام» الذي عني بسيرة الامام وتاريخه وحياته لم يذكر حادثة ابن معمر ، اذ لو كانت الحادثة صحيحة لكان ابن غنام أسبق الى العلم بها من ابن بشر المتأخر الذي لم ير الشيخ ولم يتتلمذ عليه ، بل جاء بعد وفاته بزمن .

وكل الكتب التاريخية التي سبقت تأليف ابن بشر والتي عنيت بذكر حياة الامام لم تشر الى هذه الحادثة من قريب أو بعيد ، بل إن ابن بشر نفسه رجع عن رواية هذه الحادثة وأبطلها ، مما يبرهن على إن موقف عثمان بن معمر لم يكن كما ذكر .

ففي كتاب « عنوان المجد » لابن بشر ، ج١ ، ص ١٥ طبعة مطبعة الشبندر ببغداد سنة ١٣٢٨ هـ التي أشرف على تصحيحها العلامة الشيخ محمد بن مانع ما نصه : « واعلم رحمك الله اني قد ذكرت في المبيضة الأولى أشياء نقلت لي عن عثمان بن معمر وفرسانه وأنه أمر بقتل الشيخ في الطريق وغير ذلك ، ثم تحقق

عندي أن ليس لها أصل بالكلية فطرحتها من المبيضة ».

فالرواية التي تفرد بذكرها الشيخ ابن بشر ونقلها عنه المؤرخون هو نفسه أبطلها في مبيضة تاريخه ، وهذا أبلغ دليل على أن ما نسبه الى عثمان ابن معمر لم يكن حقاً ، ولا يصح أن ينسب الى عثمان ما نسب اليه لأنه ــ بعد أن نجحت دعــوة الشيخ في الدرعية ــ ذهب اليه يرجوه أن يعود الى العيينة بعد زوال المخافة ، فاعتذر الشيخ بأن هذا ليس من حقه ، بل من حق مضيفه ومؤيده محمد بن سعود ، ومضى عثمان اليه فاعتذر وذكر حرصه على بقاء الشيخ لديه .

ولو كان ما نسب الى عثمان واقعاً لذكره محمد بن سعود بما حدث منه ، ولكن عدم ذكر شيء من ذلك يقيم الدليل على سلامة موقف عثمان وعدم حدوث ما نسب اليه .

بل جاء في غير موضع من تاريخ ابن بشر أن عثمان بن معمر تولى امرة بعض غزوات الشيخ وابن سعود ، فقد جاء في ص ٣٤ ما نصه : « وكان أمير الجميع في هذه الغزوة عثمان بن معمر ».

واذا دل كل هذا على بطلان ما نسبه ابن بشر في مسودة تاريخه الى عثمان بن معمر فان أقطع دليل على هذا البطلان ما ذكره هو نفسه في مبيضة تاريخه ان كل ما ذكر عن حوادث ابن معمر مع الشيخ مما يتصل بالتنكر له والرغبة في التخلص منه بالقتل انما هو غير واقع « وليس لها أصل بالكلية » كما يقول ابن بشر نفسه .

وبقاء عثمان بن معمر مخلصاً للشيخ ودعوته ، واشتراكه في الغزوات من أجل الدعوة ، ورضا الشيخ عنه رضاً تاماً حمله على أن يجعله قائداً عاماً أو أميراً على الجيش كله في بعض الغزوات برهان على أن ابن معمر لم يتنكر قط للشيخ ودعوته ، بل كان مخلصاً لهما ، ومغادرة الشيخ العيينة تمت ليكون بعيداً عن الأذى والضرر ، وليتنقل بالدعوة الى أرض آمنة .

وقد جاء في كتاب « روضة الافكار والافكام » لابن غنام ١ : ٣٠ ــ ٣١

(طبعة ابا بطين سنة ١٣٦٨) :

« ثم بعد ذلك عزم على المسير عنها والارتحال ، والاقامة بالعيينة فجد في الرحيل والانتقال ، وذلك بعد أن هدى الله تعالى عثمان بن معمر لقبول هذا الدين الذي أحياه ذو القلب المنور ، فدخل منه شيء في قلبه ، وأعلن عند جماعته وصحبه بتقريبه وحبه ، فحين وصل تلك البلد قام معه عثمان وقعد ، وساعده على ذلك واجتهد ، وأمر الناس له بالاتباع ، وعدم المشاققة والنزاع ، والزم الخاصة والعامة أن يمتثلوا أمره وكلامه ، ويسلكوا سبيل الاستقامة ، ويظهروا توقيره واكرامه ، فكان بعد ذلك الأمر والالزام ، وصدور ذلك الاعتناء التام ، وشدة الرغبة والاهتمام ، وابداء التعظيم له والاحتشام تسمع اقواله وتطاع ، وتملأ الصدور والأسماع ».

ويقول ابن غنام :

« لم يبق وثن في البلدان التي كانت تحت يد عثمان ، وشاع ذلك واستبان ، ونعم بذلك أهل الايمان ، وصلحوا حالاً من ذلك المكان ، وانتشر الحق من ذلك الأوان ، واشتهر الأمر وبان ، وسارت بذلك الركبان » الخ .

فموقف عثمان بن معمر من الحركة والدعوة موقف الصادق الأمين المجاهد المؤمن ، ونصره الشيخ نصر حق لا زيف فيه ، فقد أيد الدعوة والداعي بنفسه وماله وسلطانه وأسرته وكل قدراته حتى رأى نجاحها ، ولولا تأييده اياها بذلك كله لما استطاعت الدعوة أن تسود وتنتشر .

فاذا تعرضت الدعوة للخطر في المكان الذي انبعثت منه فان من الحكمة والزكانة والحزامة أن تنتقل الى مكان آخر أكثر أمناً .

ولهذا لا نجد ما يسوغ اتهامه بالتنكر للداعي ودعوته ، لأن ماضيه برهان على صدق جهاده وحسن بلائه وسلامة نيته، ثم ان علاقته بالشيخ كانت على ما هي

عليه بعد خروجه ، فبعد أن أمن على حكمه وامارته استمر في النصرة والتأييد ، وخاض غمار الحروب قائداً من أجل حماية الدعوة ونصر الداعي .

وما دام أن ابن بشر الذي وجه الاتهام قد نفاه فذلك هو الدليل على أن عثمان ابن معمر لم يقف من الدعوة والداعي إلا موقف النصير المخلص الذي يؤمن بصدق الدعوة التي كان من حملة لوائها ، بل كان أول من حمل لواءها ، وجاهد من أجلها حق الجهاد .

إلى الدّرعيّة

غادر الشيخ الامام العيينة الى الدرعية ، واحتاط لنفسه في دخولها ، ونزل ضيفاً لدى عبدالله بن سويلم الذي خشي على نفسه من نزوله لديه من أمير المدينـــة محمد بن سعود أن يعلم بنزول الوافد الجديد بداره — وهو الذي امتد نفوذه المدينة الديني في قلب جزيرة العرب مما أثار عليه غضب الرؤساء وسخط الحكام — فيصيبه ضرر .

توجس ابن سويلم الخيفة من نزول الشيخ عليه وفاتحه بما يساوره من الخوف فسكن الشيخ روعه ، الا أن ابن سويلم أظهر الرضا والطمأنينة ، ولكنه كان قلقاً يرجو أن يغادر الشيخ داره ليأمن على نفسه وأسرته وماله .

وما زال على ذلك مضطرباً قلقاً كأنه ينتظر البلاء القريب المحقق نزوله .

ومما زاده قلقاً واضطراباً أن أفراداً مصلحين من أهل الدرعية سمعوا بمجيء الشيخ محمد الى بلدهم ونزوله عند ابن سويلم فبادروا اليه ورحبوا به جد الترحيب ، وكانوا يترددون عليه زائرين ، غير أنهم لم يعلنوا الخبر خوفاً عليه وعلى أنفسهم .

وزيارتهم اياه كانت خفية في شيء كثير من الحيطة والخوف والحذر ، وأخذوا يدرسون على يديه ويتعلمون أصول الدين وتفسير القرآن الكريم .

وذات يوم فكر أحد تلاميذه في نقل خبر الشيخ الى أمير الدرعية محمد بن سعود ليكرم نزيلهم الجديد ويشمله بالرعاية والعناية ، ولكن هذا التلميذ البار تضعضعت عزيمته أمام رهبة الامارة ، وخاف أن يسيء الى شيخه من حيث يريد أن يحسن .

وبعد أيام تجدد في قلبه العزم ، واستشار رفاقه ممن يعهد فيه أصالة الرأي ، فأشاروا أن يذهبوا الى شقيق الأمير ويدعى « ثنيان » وكان رجلاً كفيفاً كثير الصلاح ، محباً للخير وأهله ، كما قرروا الذهاب الى زوج الأمير واسمها « موضى بنت أبي وهطان » من آل كثير ، وهي امرأة اشتهرت لدى قومها بالاحسان إلى طلبة العلم وعلماء الدين وسخاء نفسها ورجاحة عقلها ، وكانت من أعقل نساء العرب وأسدهن تفكيراً ، واذ ذهبوا الى زوج الأمير وشقيقه أَلْفَوْا منهما كل رضى وقبول ، وأبديا الوقوف عند حسن ظنهم بهما ، وأنهما سوف يخبران الأمير بخبر الشيخ ، ويرجوان منه رعايته وحمايته والعناية به .

وتحدثت الى الأمير زوجه وأخواه ثنيان الضرير ومشاري . وطلبوا اليه أن يعين الشيخ بكل ما يستطيعه فيما يدعو اليه .

ولم تكن الدرعية تجهل أمر الشيخ ، فقد كان أهلها وأميرها يعلمون بالدعـــوة الجديدة وصاحبها عندما كان في العيينة ، وكانوا على علم بما تم على يد الشيخ من اصلاح تناول العقيدة وشؤون الحياة العامة .

وأخبار الحركة الجديدة كانت قد انتشرت في بلدان العارض ونجد ، وروَّج لها الأنصار والخصوم على السواء ، والدرعية قريبة من العيينة ، فهي تعلم بالحركة وبصاحبها قبل غيرها من المدن .

فلما علم الأمير محمد بن سعود من زوجه وأخويه أن الداعي ببلده شعـــر بالارتياح . فهو نفسه سلفي العقيدة . فاذا آثر بلده زعيم الحركة السلفية فذاك من نعم الله عليه ، وأبدى لزوجه وأخويه شعور الارتياح ، ووعدهم بتحقيق ما رجوا ، وأراد أن يبعث اليه أحد رجاله ليصحبه اليه .

غير انهم رأوا أن يذهب هو اليه تكريماً للداعي ، واكراماً للعلم ، وتأييداً للدعوة ، واجلالاً لأهل العلم .

وصادف رأيهم هوى في نفسه ، فنهض محمد بن سعود مصطحباً معه بعض رجاله الى دار ابن سويلم ، واستأذنوا في دخولها فأذن لهم ، ورحب بهم ابن سويلم وأدخلهم على الشيخ ، فسلم عليه الأمير ورحب به وطمأنه وقال له : يا شيخ محمد ، ابشر ، وعلى الرحب والسعة ، ابشر بالعز والتمكين والمنعة ، ابشر ببلاد خير من بلادك .

فرد الشيخ تحية الأمير قائلاً : وأنا أبشرك بالعز والتمكين ، وهذه كلمة لا إله الا الله من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وهي كلمة التوحيد، وأول ما دعا اليه الرسل من أولهم إلى آخرهم .

وتحدث الشيخ ذاكراً ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما دعا اليه ، وما كان عليه أصحابه رضوان الله عليهم ، وما أمروا به وما نهوا عنه ، وما أعزهم الله به بالجهاد في سبيله ، وما أغناهم به من التأليف بين قلوبهم .

وأشرقت نفس الأمير بما سمع ، فلما رأى الشيخ ذلك تحدث اليه عن شيوع الشرك والباطل والظلم في نجد ، وضرورة إزالة الضلالة والبدع والشرك ، ونشر التوحيد والعلم ، والجهاد في سبيل الله ، واحياء سنة سيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ونزل حديث الشيخ من قلب الأمير برداً وسلاماً ، وفقه ما يريد ، وأدرك ما في التمسك بالدين الحق والجهاد الصادق من الخير في الدنيا والآخرة ، فقال محمد بن سعود : يا شيخ ، ان هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه ، وابشر بالنصرة لك ولما دعوت اليه ، وبالجهاد لمن خالف التوحيد ، ولكن أريد أن أشترط عليك اثنتين : نحن إذا قمنا في نصرتك والجهاد في سبيل الله وفتح الله لنا ولك البلدان

أخاف أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا ، والثانية ان لي على أهل الدرعية قانوناً آخذه منهم في وقت الثمار ، وأخاف أن تقول : لا تأخذ منهم شيئاً .

ولم يكن الشيخ في حاجة الى أن يفكر فيما اشترط الأمير ، فما يجيزه الاسلام يجيزه هو ، وما لا يجيزه فهو لا يجيزه ، ولم يمنعه موقفه وحاجته الى رضا الأمير من اعلان الحق الذي يؤمن به ، فأجابه إلى الاولى ، ولم يجبه إلى الثانية ، وقال له في وضوح :

« أما الاولى فابسط يدك ، الدم الدم والهدم الهدم !.

وأما الثانية ، فلعل الله يفتح لك الفتوحات فيعوضك الله من الغنائم ما هو خير من القانون » .

ومن مواقف شيخ الاسلام يَظْهَر حرصه على التمسك بالكتاب والسنة ، فهو لا يعطي من نفسه ما لا يملك ، ولا يبخل عما يملك ، فهو يملك أن يقيم مع أمير الدرعية ، ولكنه لا يملك أن يعطيه أموال الرعية بغير حق . كما يظهر تمسكه برسول الله صلى الله عليه وسلم حق التمسك ، حتى الأجوبة التي يجيب بها كلمات وجمل من أحاديثه عليه صلوات الله وسلامه ، فكلمته « الدم الدم والهدم الهدم » هي كلمة رسول الله في بيعة العقبة الثانية ، فعندما اجتمع الأنصار لمبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله ، ان بيننا وبين الرجال حبالاً ؛ وإنا قاطعوها — يعني اليهود — فهل عسيت إنْ فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فأجابه رسول الله مبتسماً : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، انا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » .

وكلمة « الدم الدم والهدم الهدم » قول معروف للعرب يقال عند المعاهدة والنصرة — ولكن رسول الله خلده باستعماله ، وأحيا محمد بن عبد الوهاب سنة

الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأن قال تلك الكلمة في إبانها ، وأعطى بها محمد بن سعود عهداً وفّاه له .

وفي ذلك المجلس تم بين الشيخ محمد والأمير محمد بن سعود العهد والميثاق على الدعوة إلى الله ، واحياء السنة المحمدية ، والجهاد في سبيله .

ودعا الشيخ للامير السعودي بالنصر والتمكين ما نصر الله ومكن في الأرض لكلمته وأعلاها ، وبأن يكون اماماً يجتمع عليه وعلى ذريته من بعده المسلمون ، واستجاب الله دعاء عبده الصالح ابن عبد الوهاب فاجتمع المسلمون على آل سعود ، وما زال كذلك بفضل الله .

وبايع محمد بن سعود الشيخ محمداً في ذلك المجلس على دين الله ورسوله ، والجهاد في سبيل الله ، وإقامة شريعة الاسلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وطلب إلى الشيخ أن ينهض معه ويصحبه ، فنهض معه ودخل الدرعية معززاً مكرماً ، ونزل بدار الأمير .

ومنذ حلول الشيخ بها بدأ دعوته ، ووجد من الأمير محمد بن سعود كل عون ، فقد جند نفسه وامارته للدعوة ، يأتمر بأمر الشيخ ، ويساعده في نشر التوحيد والثقافة الاسلامية بين الطبقات كلها .

وازدحم أهل الدرعية على الشيخ يتلقّوْن منه الاسلام الحق ، وتتلمذ عليه الأمير نفسه وأشقاؤه وكبراء الدرعية لا يفضلون عامة الناس في طلب المعرفة ، بل كانوا جميعاً اخوة متحابين ، وامّحت الفوارق ، محاها الاسلام ، واتجه الناس إلى الله ، يتلون كتابه ، ويتبعون ما جاء به الوحي المقدس كتاباً وسنة .

وازدحمت الدرعية بالوافدين اليها ، فقد أسرع اليها تلامذة الشيخ واحباؤه وأنصاره من العيينة وغيرها ، وهرع المضطهدون الذين اتبعوا الشيخ محمداً اليه ، وسرهم أن يعز الله إمامهم وييسر له مكاناً أميناً لاستقرار الدعوة ، وحاكماً مؤمناً

يهب نفسه لها ، ويسخر كل قواه لنصرها وحماية صاحبها .

ولو قدر لسائح غريب عن الدرعية زيارتها في زمن الشيخ لامتلكه الدهش حينما يغزو سمعه أصوات الناس وهم يقرأون ويدرسون ، بعضهم مجتمع في الندي ، وبعضهم في المسجد ، وبعضهم في البيوت ، ثم تجتمع تلك الأصوات وتتساوق كأنها نغمة واحدة ، ثم يرتد صداها فاذا البلدة تهتز ، وتهتز ، لأن دم الحياة والنشاط والقوة أخذ يجري في شرايينها .

وفي أيام يسيرة انتقلت الدرعية من حياة الجهالة والتأخر والظلمة إلى حياة باسمة مشرقة يزينها العلم النافع والأدب السامي ، أدب الاسلام يفيض جلالاً وسمواً ، أدب النفس العربية الأبية ينضح شهامة وعزة ، وعمرت المساجد بحلقات العلم ، وأحيا الطلبة شطراً من الليل في التلقي ، وشطراً من الليل في المراجعة والاستذكار حتى لتنتقل دندنتهم الى الآذان ألذّ سماعاً وأروع نغمة وأحب إلى النفس المؤمنة من غناء القيان والأوتار .

وإذا الدرعية بفضل الله ثم بفضل الشيخ كعبة يقصدها كل راغب في العلم ، وندي كبير يضم أجناساً شتى من مختلف البلدان ، وكلهم ينعم في عطف الأمير ورعايته ، وفي كنف الشيخ ودعوته .

وذاع صيت الشيخ في الأقطار المجاورة ، فحسده ذوو النفوس المريضة والباطلة ، ورموه بالكهانة والسحر والجهالة والادعاء الكاذب ، ورموه بالشعوذة والدجل ، وكفره بعضهم ، وزعموا أنه زنديق ، وركبوه بالهزء والسخرية وقالوا : انه ساحر كذاب .

كل ذلك والشيخ ينشر دعوته في اطمئنان وهدوء ، صابر على ما يأتيه منهم ، يجادلهم بالتي هي أحسن ، اتباعاً لطريقة القرآن والسنة ، يحمل منهم الأذى رجاة أن يهديهم الله الى الصراط المستقيم معتقداً أن المصلح الداعية مجبر على مقابلة

الناس بالصدر الرحب ، يتغاضى عن المساوىء الكثيرة يوجهونها اليه كالسهام أو أشد وقعاً ، اذ يعرف بحنكته كيف يحيل غضبهم وعنادهم إلى رضى وقبول ، وليس من الحكمة أن يقابل الانسان الشر بالشر متى أراد اطفاء نار الفتنة واجتذب الناس الى دعوته ، لاسيما وهم جاهلون لم يفهموا ـ بعدُ ـ مقاصده من دعوته .

ولقد تمكن الشيخ بما وهب من المنطق الصائب والتفكير المتزن واللين ودماثة الخلق وكرم الطبع أن يمهد لدعوته السلفية طريقاً سهلاً معبداً ، حتى ان كثيراً ممن عادوه وحسدوه أذعنوا له واعترفوا بأخطائهم لديه حين ألفَوْه صادق الايمان ماضي العزم لا يحفل بالصغائر ، ولشد ما أدهشهم صبره وحلمه العظيمان .

وكان محمد مثال الصبر والجلد ، وكلما ازداد أعداؤه تعنتاً وغضباً وأمعنوا في أذاه بتسفيه رأيه ورميه بما هو بريء منه ازداد تثبتاً ويقيناً بأن النصر له عليهم لاخلاصه فيما يدعو اليه ، فيلين لهم في الحديث ولا يغضب ولا يثور ، بل يريهم جانب البساطة والتواضع مما اضطرهم آخر الأمر الى الاعتراف بما كان منهم من خطأ ، والاعتذار عما بدر منهم .

وكان للشيخ شقيق يدعى سليمان ، وكان عالماً ، ولكن الحقد ران على قلبه وسافر الى المدينة المنورة ، وبث الدعاوة السيئة عن أخيه في الحجاز ، ثم ألف كتاباً يتهجم فيه عليه ، ويحط من قدره ويرميه بالفسولة والرعونة ، ومحمد يتودد اليه بألين الأقوال وأجمل الأفعال ، وينصح له بألا يقطع صلة الرحم ، ويراسله في كل فرصة تسنح ، يبين له مهيع الحقيقة ، ويرجوه أن يريع اليه ، فالرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل .

لكن سليمان أوجف في غوايته يكيد لأخيه ، ويلفق عليه الأكاذيب ويخترع الأباطيل ، وأخيراً هداه الله وأنار بصيرته ، فعاد الى الطريق المستقيم معتذراً إلى الشيخ محمد عما بدر منه ، معترفاً بأن كتابه الذي ألفه في الرد عليه لم يرد به وجه الحق ، بل أملاه الشقاق والذحول والحسد .

ولشد ما افرح محمدا عود أخيه اليه واهتداؤه الى الصواب فقابله وأظهر له سروره الجم وما يكنُّ له من الخير والحب .

هذا مثل واحد من معاملات الشيخ الطيبة للناس مما جعل أخاه وهو من اكبر خصومه – ان لم يكن أعداهم – يأتي اليه معتذراً مسترحماً .

وهناك أمثلة كثيرة ضربها الشيخ في النبل والفضيلة والعفو مما مكنه من أعدائه وجعلهم يلتفون حوله ويكونون رهن اشارته سامعين مطيعين .

ولقد تتابعت الوفود إلى الدرعية تأتي من أقطار العرب تبايع الشيخ على نصرته، وتتلقى منه أمور دينها على الوجه الأكمل ، ثم يرجع كل وفد الى مقره ينشر دعوة الامام .

واذ رأى أهل العيينة اقبال الناس عليه انتقل اليها كثير منهم ، لأنهم يجدون ما يصبون اليه لدى الشيخ ومحمد بن سعود من السعادة الوارفة والطمأنينة والحرية الدينية والفكرية والعلم .

ووفد إلى الدرعية الشيخ عثمان بن معمر أمير العيينة ومعه كبار أهلها ، وقابلوا الشيخ الامام وبايعوه على السمع والطاعة وعلى محاربة محاربيه ، ومسالمة مسالميه ، والوقوف معه في سبيل تأييد الدعوة ونشرها حتى الموت .

وتحدث ابن معمر الى صهره الشيخ الامام يرجوه أن يعود الى العيينة معه ؛ ولكن الشيخ اعتذر له ، فهو قد أعطى ابن سعود عهداً وموثقاً ، ولا يجمل به أن يترك نصيره ومضيفه ، وذكر له ان بوسعه أن يتحدث مع ابن سعود ، فالرأي في عودته موكول اليه .

وتحدث ابن معمر مع ابن سعود في شأن الشيخ ، ولكن ابن سعود اعتذر أيضاً ، وذكر له انه لا يمكن أن يقبل خروج الشيخ من الدرعية التي أكرمها الله

بمجيئه اليها ، واحيائه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدرعية وغيرها .

فعاد عثمان بن معمر الى بلده وهو من أشد أنصار الشيخ محمد ودعوته .

وبعد مدة قدم عثمان الى الدرعية لزيارة صهره الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وجدد العهد له بأن ينصره ، ويحكم كتاب الله وسنة رسوله ، ويعادي هو وجماعته كل من يعاديه الشيخ، وأن يخلصوا في العمل لله .

ومشت أمور ابن معمر على خير ، وذات جمعة وثب عليه بعض الناس وقتلوه بعد أن صلى الجمعة ، عليه رحمة الله .

وصل نبأ الحادث الى الشيخ محمد فبادر إلى العيينة خشية من حدوث ثورة داخلية جامحة ، فنظم فيها الامور ، ثم عاد بعد أن ولى عليها مشاري بن معمر شقيق عثمان القتيل ، وأمر أهلها بالطاعة له والانقياد لأمره ما لم يدع الى منكر أو بدعة ، وما لم يتجاهر بالسوء .

واكتظت الدرعية بطلاب العلم ورواد الحق ، وكان معظمهم رقيق الحال ليس لديه ما يكفيه للانفاق على نفسه فعرف الشيخ ذلك ، فاستدان آلاف الريالات لينفق منها على الوافدين فكفاهم مؤونة العمل والامتهان ليتفرقوا للعلم وحده ، فلا تتوزع أفكارهم مشاغل الحياة ، ووفّى ديونه من غنائم مدينة الرياض بعد فتحها .

واذ نبغ على يديه كثير من تلاميذه فرقهم في الأقاليم والبلدان يدعون الى الدين الصحيح واخلاص العبادة لله وحده لا شريك له .

بعث إلى مدن الحجاز وبوادي الشام والعراق ، وبعث الى الاحساء والكويت واليمن وعسير ، فأثمرت الدعوة وآتت اكلها مبكرة مما طمأن الشيخ وأثلج فؤاده .

إعلان الحرب على الدعوة

كثر أتباع الدعوة الجديدة في بلدان نجد والاحساء ، بل وجدت أتباعاً في البصرة وغيرها من بلدان العراق ، وكثرتهم تهدد سلطان الكبراء والحكام الذين نقلت اليهم أخبار الداعي وأخبار حركته التي تحارب البدع والخرافات والباطل والظلم والفساد فزاد من خوفهم أن تقضي الحركة الجديدة القوية على سلطانهم ونفوذهم .

وكان من أشد خصوم الحركة والدعوة : دهام بن دواس أمير الرياض ، وسليمان أمير الاحساء ، وبنو خالد ، وابن مفلق أمير القطيف ، وابن ثويني أمير البصرة .

ولم تقف الخصومة على الحكام بل حارب الدعوة كثير من علماء بلدان نجد ، ومن أعنفهم خصومة محمد بن سحيم النجدي وابنه ابراهيم .

وكان دهام بن دواس أشد خصوم الدعوة والاصلاح ، فحكمه مبني على الظلم والبطش والفساد ، واذا كان طابع بلاده الاسلام فان دهاماً كان عدواً للاسلام ، يحكم بغير ما أنزل الله ، فالعداء طبيعي بينه وبين دعوة محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود ، وقد طالت الحرب بينه وبين دعوة الاصلاح أكثر من ربع قرن .

ولم يكن دهام من أسرة كريمة ، بل كان خادماً لعبد يسمى «خميس» مملوك أمير الرياض زيد بن موسى أبي زرعة .

وكانت أخلاق دهام منكرة ، وكان أشقاؤه : عبدالله وتركي ومشلب وفهد مثله في فساد الخلق والخسة والدناءة والغدر .

وخدمت الظروف دهاماً ليصل الى الامارة ، فقد كان أمير الرياض زيد بن موسى حاكماً طيباً ، وكان له ابن عم مصاب في عقله يشاركه السكن ، وذات ليلة اغتال هذا المجنون ابن عمه الحاكم ، وبعد أن اغتاله أراد مغادرة غرفة القتيل فأبصر به مملوكه خميس ، ورأى سيده مقتولا ، فجرد سيفه وبطش بالقاتل وقتله .

ولما كان أبناء القتيل صغاراً فقد ولي العبد نفسه أميراً على الرياض ، زاعماً وصايته على أولاد سيده القتيل ، وانه سيرد اليهم حقوقهم متى بلغوا .

وكان خميس جاهلاً أرعن ، فلما صار حاكم الرياض المطلق أطلق لنفسه العنان ، ومكث في الحكم ثلاث سنوات فعل خلالها المنكرات وظلم الناس ، وانتشر بفساده الفساد حتى ضج أهل الرياض ، وتآمر أناس على التخلص منه باغتياله ، وشعر العبد بما دبر له فهرب الى «الحائر» ثم «منفوحة» حيث قتل على يد رجل من أهلها انتقاماً لوالده الذي قتله العبد خميس .

وشعرت الرياض بخلاصها من حكم العبد الأرعن الجهول ، واذا كرسي الحكم ينتقل الى آخر تجتمع فيه كل خلائق السوء ، الى دهام الذي كان خادماً للعبد خميس .

وكانت الحوادث على مرأى ومسمع من دهام بن دواس الذي كان من خدم القصر الحاكم المغلوب على أمره ، فأبناء زيد بن موسى صغار لا يحسنون الادارة

والحكم ، وابنه الأكبر ما يزال صغيراً ، ودهام خبيث ماكر ، وأكثر دهاء وتوحشاً من سيده العبد خميس ، فوثب الى كرسي الحكم عندما وجده خالياً من مغتصبه الذي قتل في منفوحة .

وحبس أبناء زيد في القصر وتولى الحكم ، مدعياً انه أولى بالامارة حتى يكبر الصغير ويكون أهلاً للحكم ، وعندئذ ينزل له عن الامارة ، وعلى أنه غير طامع فيها ، بل يحفظها لصاحبها الشرعي .

واتخذ من أمثاله من الخدم وسفلة الناس أنصاراً أغدق عليهم ، فكانوا عدته في ظلم الناس .

وكل خلائق دهام بن دواس خلائق دنيئة ، فهو خادمُ عبدٍ جهول خاسر ، وربي على عينه ويده ، فنشأ نشأة جمعت السوء كله في خلقه ونفسه وطباعـــه واتجاهه ، وانطلق الوحش الكامن في نفسه ، فبغى بغياً شديداً ، ومثل بالأبرياء أبشع تمثيل ، وقتل وعذب .

وحوادث دهام تدل على نفسيته اللئيمة المطبوعة على الاجرام والوحشية ، ولا تعرف الرحمة الى قلبه سبيلاً .

غضب ذات مرة على امرأة بريئة ، فأمر أن يخاط فمها .

وهذه الحادثة وحدها تكفي للحكم على شخصية دهام ، فهو مصاب بالسادية التي تدفع المصاب بها الى تعذيب الآخرين ، والتلذذ بما يصيبهم من الأذى والعذاب .

فالمرأة بريئة لا ذنب لها ، ولم تتخذ لسانها للنيل منه ، وليست في حاجة الى الذنب حتى ينزل بها العقاب ، فالمصاب بالسادية لا ينظر الى ضحيته ان كانت بريئة ، بل يقتنص الضحية اقتناصاً .

واذا صح أن المرأة نالته بلسانها فالحكم في ذلك معروف ، ولن يكون النيل أبشع من القذف ، وعقابه ثمانون جلدة ، فاذا لم يكن هناك قذف فالتعزير الذي لا يصل الى الحدود .

وخياطة فم انسان جريمة لا تغتفر ، وعقاب لم يرد في أي شرع ، وبخاصة شرع الله .

ولكن دهاماً مطبوع على الجريمة والضراوة والتوحش ، ولهذا خاط فم المرأة البريئة .

ولو كانت هذه الحادثة وحدها لكفت في الحكم على شخصية هذا الطاغية المتوحش ، فكيف وأشباهها كثيرة ؟ .

غضب على رجل فأحضر بين يديه موثقاً وقطع من فخذه بضعة ثم أمره بازدرادها نيئة فلم يستطع ، فضربه ضرباً مبرحاً ، وأخيراً أشير عليه بأن تشوى فربما استطاع ازدرادها ، وقدمت له ، فأكلها وهو يكاد يلفظ نفسه .

ورُمِيَ اليه سجين بأنه قرض القيد بأسنانه ، فجيء به مكبلاً ينتفض من الحمى وطلب مقمعة وأخذ يضرب بها أسنانه وهي تتساقط والرجل يصيح ويتلوي ، والدماء تسيل من فمه ومن أنفه ومن وجهه حتى سقط مغشياً على الأرض .

وبينما كان دهام — ذات مرة — يتناول قهوة الصباح في بيته رأى رجلاً صالحاً يدعو الله ، فأرسل زبانيته ليأتوا به ، وقطع لسانه بيده .

وحوادثه من هذا القبيل كثيرة لا تحصى ، فطالما ضرب الأبرياء ليطرب بأنينهم وآهاتهم وزفراتهم ، ويتسلى بهم وهم يتلوون من ألم الضرب المبرح ، بل طالما قتل الناس ليلهو بهم حينما يبصر رؤوسهم تتطاير .

ووثق دهام من قوته وثبوت دعائم امارته ، وكون له أنصاراً يشبهونه في صفاته

الساقطة والوحشية ، وأخذ يسيء الى الأمراء الصغار يقتلهم ويحتل بلدانهم ، ولكنه أحسن الصلة في الظاهر مع ابن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب خوفاً منهما .

لكنه في سنة ١١٥٩ هـ أراد أن يجرب قوته معهما ، فتوجه بجمع من بوادي الظفير إلى « منفوحة » وسرى ليلاً ، وفرق رجاله في مزارعها ونخيلها ، وأمرهم باطلاق الرصاص واحراق النخيل متى لاح لهم الفجر ، وذهب هو وجماعة معه الى داخل البلدة ونزلوا في بعض بيوتها وكمنوا فيها .

وطلع الفجر ، وخرج أهل منفوحة إلى المسجد للصلاة ، وما فرغوا إلا والرصاص يدوّي في الافق ، فهرع الناس كلهم إلى خارج المدينة حيث النخيل والبساتين يستطلعون الخبر ، فألفوا الغزاة السفلة يحرقون النخيل ويطلقون النار ، وليس لديهم بعد أنفسهم أعز من الزروع ، فعليها معيشتهم وتجارتهم ، ففزعوا إلى السلاح وبادروا إلى مقابلة الهاجمين ، وبينما هم في القتال خارج البلد سمعوا أزيز الرصاص بداخله ، وعلت أصوات النساء والأطفال يستنجدون ، فقد خرج دهام من معه من مكمنهم وأخذوا يقتلون كل من وجدوا سواء الشيخ والصبي والمرأة ، فأسرع الناس إلى حماية أهليهم ، وثبتهم الله فقاتلوا دهاماً ومن معه قتال المستميت ورُمِيَ جواد دهام برصاصة كان فيها حتفه ، وجرح هو نفسه جرحين بالغين ، وقُتل كثير من قواده أمثال : درع ، وخضير الصمعريين ، وهزمول الفضلي .

وسبب نقمة دهام على أهل منفوحة انهم استجابوا لدعوة الشيخ وأيدوه واتبعوه ، وعاهدوا ابن سعود معاهدة صادقة ، وإذ سمعا ما فعل دهام في حلفائهما استجابا لنداء الحق والواجب والعهد فنهضا وجمعا جيشاً عظيماً سار به محمد بن سعود لغزو الرياض فدخلها عنوة ، وفر دهام إلى قصره وتحصن به ، وكان لأخيه تركي بن دواس منزل بجانبه فاقتحمه ابن سعود ثم اقتحم دار ناصر بن معمر وعقر لهما ابلاً كثيرة ، ثم رجع بعد أن أعطى دهاماً درساً قاسياً .

من ذلك الحين أُعلن العداء بين أمير الرياض وأمير الدرعية وبدأت الحرب

الدينية السياسية ، وامتدت بينهما أعواماً كان النصر المؤزر في جانب الأخير منهمـــا .

ثم بعد الوقعة السابقة سار محمد بن سعود بأهل الدرعية ومعه عثمان بن معمر ومعه أهل العيينة يريدون الرياض فحدث بينهم وبين جيش دهام قتال شديد أسفر عن قتلى كثير من الطرفين ، وكان سبب هذه الواقعة أن دهاماً أغار على العمارية وقتل كبيرها عبدالله بن علي وعقر إبله وأفسد أرضه وزروعه ، وبينه وبين ابن سعود عهد وميثاق ، فجاء لنجدته وأخذ ثأره من دهام .

ولم تمض أيام يسيرة حتى كانت وقعة « الشياب » بين ابن سعود ودهام كان النصر فيها للأول ، وسميت بذلك لأن اثنين من آل شمس — وكانا شيخين — قتلا ، وحدثت الوقعة في موضع يسمى « الوشام » وهو جبـــل في ضاحية مـــن ضواحي الرياض ، وقتل فيها حمد بن علي ين ناصر أحد رجال دهام الأشداء .

ثم كانت وقعة العبيد ، وذلك أن محمد بن سعود جمع أهل الدرعية وعرقة ومن حولهم وسار بهم إلى الرياض ، وجعل كمينا في جرف « عبيان » ليقطع خط الرجعة على الأعداء ، ثم أغار على البلد وخرج اليه دهام بجماعته . وإذ حمي الوطيس بين الفريقين بادر الكمين فوضع السيف في رقاب الجيش الدهامي ، وقتل منه عدد عظيم أكثره عبيد ، فسميت الواقعة باسمهم .

ثم كانت وقعة « الشراك » وهو موضع في الرياض بين ابن سعود وابن دواس لم ينتصر أحد على أحد .

وفي سنة ١١٦١ هـ وقعت عدة وقائع بين ابن سعود ودهام في « البُنَيّـــــة » و « الحُرَيْزة » — وهما موضعان في الرياض — ووقعة « البطين » وهو موضع قريب ثرمدا من بلدان الوشم .

ثم تتابعت الحرب بين ابن سعود ودهام حتى وني الأخير منهما وطلب الصلح

فصولح ، غير انه عزز قوته ومون جيشه وتنبهت فيه غريزة الانتقام والغزو وشهوة القتل فنكث عهده وحارب ابن سعود فقابله بالمثل ، وأراه جانب القوة والاقتدار وهزمه في ميادين ووقائع كثيرة ، ومزق جيشه شر تمزيق ، فطلب الصلح فصولح ثم نقض وخرج ، فأدبه ابن سعود تأديباً صارماً ، فرام إلى طريق الحق عندما وجد انه كلما طلب الصلح من ابن سعود قبل ورضي ، وانه هو نفسه الذي يبدأ بالعداء وينكث العهود ، فبعث إلى الشيخ محمد والى أمير الدرعية خطاباً يبلغهما فيه أنه تائب توبة نصوحاً ، ويبايعهما مبايعة صادقة على كتاب الله وسنة رسوله والسمع والطاعة ، وانه يستغفر الله تعالى على ما اقترف من الذنوب والآثام ، وانه معهما في كل حين ، وأنه حرب على من حارباه ، وسلم لمن سالماه .

كاتب دهام ابن سعود والشيخ محمداً يخبرهما انه معهما في السلم والحرب ، والشدة والرخاء ، وانه مناصر لدعوتها ومجيب لندائهما في كل وقت ، فأرادا تجربة هذا المخادع وطلبا منه أن يرافقهما في الغزو ، فقدم دهام بجيش الرياض ونزل على ابن سعود فأكرم .

وفي ربيع سنة ١١٧٨ هـ. خرج ابن سعود ومعه دهام بأهل الرياض ، وسار الجميع إلى الحائر ، وهو حائر سبيع المعروف بين الرياض والخرج لحرب العجمان الذين استنجدوا بصاحب نجران السيد حسن بن هبة الله وقبيلتي الوعلة ويام فأنجدوهم وقدموا إلى الحائر وحاصروه وحاصروا من فيه ، وسمع عبد العزيز بن محمد بن سعود خبر محاصرتهم فبادر إلى قتالهم ، وكانت بين الفريقين حرب عنيفة انتصر فيها العجمان واندحر ابن سعود وقتل من جيشه اربعمائة رجل ، وأسر منهم مئتان وعشرون رجلاً .

لكن ابن سعود لم يغلب عن ضعف في رجاله أو ضعف في نفسه ، بل خانه دهام بن دواس الذي عاهده على أن يكون له نصيراً وعوناً ، فكان عليه مع العجمان حرباً ونكالاً ، وبسبب هذه الخيانة هزم ابن سعود وقتل رجاله .

وسمع الشيخ محمد بما حدث من دهام وخيانته لعهده ، وقيامه مع الأعداء في وجــه ابن سعود فغضب ، وأدرك أن دهامــاً ليس إلا منافقاً كذاباً ، إذا أنس من نفسه ضعفــاً بادر إلى المعاهدة والصداقــة ، وإذا أحس القوة المقدرة أسرع إلى الحرب والقتال ، حتى إذا أتاه ابن سعود مضطرب الفكر مشغول الخاطر كان أول ما قاله له بعد رده التحية قوله تعالى : ﴿ ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنوا وأنْتُم الأَعْلَوْنَ إن كنتم مؤمنــين . إن يَمْسَسْكم قَرْح فَقَدْ مس القوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وتلك الأيامُ نُداوِلُها بينَ الناسِ وليَعْلَم اللهُ الذين آمنوا ويَتّخِذَ منكمْ شُهَداء والله لا يحب الظالمين. ولِيُمحصَ اللهُ الذين آمنوا ويَمْحقَ الكافرين (١) ﴾ فكان خير عزاء له .

وكان لدى الفريقين أسرى ، ومن الفريقين قتلى ، ولكن قتلى الجيش السعودي وأسراه أكثر عدداً ، فبعث الشيخ وابن سعود فيصلاً بن سهيل شيخ الصفير إلى حسن هبة الله يسترضيانه وأطلقا ما لديهما من اسراه، وطلبا منه أن يطلق اسراهما مقابل اطلاقهما رجاله ، فذهب فيصل وأدى مهمته ثم رجع إلى الدرعية بالأسرى السعوديين .

وقصارى ما يقال : ان دهاماً كان عنيداً جباراً ، لا ينثني عن عزم إذا عقد عليه النية ، وابن سعود كان زعيماً دينياً وسياسياً ، عالماً بأساليب الحياة وما تحتاج إليه من المرونة والدهاء ، وكان مخلصاً في عقيدته وداعية إلى الحق لا يخاف أحداً في سبيل نصره ، وكانت شهامته تأبى أن يقبل من دهام المراوغة ، وكانت ديانته تترفع عن أعماله المنكرة ، ودفعت ابن سعود دوافع كثيرة لخوض غمار الحرب ضد دهام ، أولها الدين ثم الشرف والمروءة والعفة والحق والفضيلة ، لهذا كانت الخصومة الدائمة والقتال المستمر والحروب المتأججة لا تنطفىء ، وما انطفأت بينهما في مكان إلا واستعرت في مكان آخر أشد وأعظم ، وحدثت وقائع

---

(١) آل عمران : ١٣٩ – ١٤١ .

رهيبة بين ابن سعود ودهام ، وحسب القارىء أن يعلم أن عمر الحرب بينهما سبع وعشرون سنة ، ولولا أن دهاماً خرج هارباً على وجهه لما سكنت الحرب .

ويجمل بنا أن نذكر قصة هربه فهي طريفة ، فقد ذكر ابن بشر في تاريخه « عنوان المجد في تاريخ نجد » :

« في سنة ١١٨٧ هـ سار عبد العزيز بالجنود المنصورة وقصد الرياض ونازل أهلها أياماً عديدة ، وقتل من أهلها رجالاً كثيراً ، وقتل من غزو المسلمين اثنا عشر رجلاً ، منهم : عقيل بن ناصر ، وابن خفيقان ، وذلك في شهر صفر ، فلما انتصف ربيع الثاني تجهز عبد العزيز بمن معه من جيوش المسلمين غازياً إلى الرياض وخرج من الدرعية ، فلمـــا قرب من بلدة عرقة ، إذا البشير قد أقبل من الرياض يخبره ان دهام بن دواس خرج من الرياض هارباً ، فحث عبد العزيز السير اليها فقدمها بعد العصر ، فاذا هي خالية من أهلها إلا القليل ، وإذا دهام قد ألقى الله في قلبه الرعب فخرج منها بحرمه وعياله وأعوانه .

« وهذا شيء حدث عليه في يومه ذلك ، ولم يكن اعتقد ولا همّ به ولا خاف من أهلها خيانة ، بل كلهم صادقون معه ، ولا حصل عليه تضييق يلجئه الى ذلك ، والحرب بينه وبين المسلمين سجال ، له وعليه ، ولكن الله سبحانه جعلها آية لمن افتكر وعبرة لمن اعتبر .

« قيل : إنه قام فزعاً مرعوباً وركب خيله ونجائبه وحمل عليها نساءه وعياله ، وأهل الرياض لا يعلمون ، ولا بمثل ذلك يظنون ، فلما ظهر من قصره قال : يا أهل الرياض ، ان لي هنا مدة سنتين ، أُحارب ابن سعود ، والآن سئمت من الحرب وتركتها له ، فمن أراد أن يتبعني فليفعل ، والا فليجلس مكانه في البلد .

« ففر أهل الرياض في ساقته الرجال والنساء والأطفال لا يلوي أحد على

أحد ، هربوا على وجوههم الى البرية في السهباء قاصدين الخرج ، وذلك في فصل الصيف ، فهلك خلق كثير جوعاً وعطشاً .

« ذكر لي ان الرجل من أهل الرياض يأخذ الغرب ويجعل فيها ماء ويحمله على ظهره ، والغرب لا تمسك ماء ، والابل عنده ولا يركبها ، وتركوها خاوية على عروشها ، الطعام واللحم في القدور ، والسواقي واقفة في المناحي ، وأبواب المنازل لم تغلق ، وفي البلد من الأموال ما لا يحصى ، فلما دخل عبد العزيز الرياض وجدها خالية من أهلهـا إلا قليلاً ، فساروا في أثرهم يقتلون ويغنمون . ثم ان عبد العزيز جعل في البيوت ضباطاً يحفظون ما فيها ، وحاز جميع مـا في البلد من الأموال والسلاح والطعام والأمتعة وغير ذلك، وملك بيوتها ونخيلها الا قليلها ، وممن قتل في تلك الواقعة : عبد المحسن بن شاخص ، وصالح المشهوري ، وبراك بن حمدان ، ومحمد بن سليمان ، وكان قد أقام هذه الحرب نحواً من سبع وعشرين سنـــة .

وذكر ان القتلى بينهم في هذه المدة نحو أربعة آلاف رجل ، من أهل الرياض ألفان وثلاثمائة ، ومن المسلمين الف وسبعمائة ، وصارت هذه الواقعة يضرب بها المثل بعد ذلك في نجد كلها ».

وبعد خروج دهام استتب الأمر لابن سعود بالرياض، وأصبح حاكمها غير المنازع ، وبرز أتباع الدعوة وجندوا أنفسهم للدفاع عنها وتثبيت قواعد الأمن بها.

ولَشَدَّ ما دهش ابن سعود من كثرة ما وجد بقصر الحاكم من الأموال ، وما وجد في بيوت الذين فروا مع دهام ، فالذهب والفضة بدون حساب ، وكذلك الأنعام لا تحصى من كثرتها ، وعجب الناس من ضخامة ثروة دهام التي جمعها خلال حكمه .

وهذه الغنائم الكثيرة لم تطمع ابن سعود فيها ، فهو لم يُبقِ لنفسه شيئاً غير

السلاح وما يصلح للحرب ، ولم يأخذ لنفسه أو لأسرته ، بل دفعه إلى المسؤولين عن الدفاع .

أما الأموال والغنائم المختلفة الكثيرة فقد وزعها على المجاهدين ، ووفى منها ديون الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي استدانها لينفق على طلاب العلم الألي ازدحمت بهم الدرعية ، وبلغت هذه الديون بضع مئات الألوف من الريالات السعودية بحساب هذه الأيام .

ولو سلمت الدعوة من محاربة دهام إياها لربحت كثيراً ، فقد شغلها دهام بحروبه وفتنه واعتداءاته على اتباع الدعوة من أمراء المدن والقرى .

ويكفي أن نعلم أن قتلى أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بلغوا ألفاً وثلاثمئة مجاهد لنعلم عظم خسارة الدعوة ، وإن قتلى جيش دهام كانوا ألفين وسبعمئة محارب ، ولو وفى دهام لكان هؤلاء قوة للدعوة .

وكان بوسع الدعوة أن تختصر الزمن في الانتشار لو سلمت دهاماً الذي شغل الدعوة سبعاً وعشرين سنة .

وكان بوسعها أن يعظم انتصارها وانتشارها إذا سلمت من المناوئين والمحاربين الآخرين .

وهناك عدو لدود ناوأ الشيخ محمداً كثيراً ، ودس له ولابن سعود الدسائس ، وحاك لهما نسيج الوقيعة والغدر في طي الخفاء كما حاربهما علانية ، ذلك هو عريعر بن دجين أمير الاحساء ، فقد كان حرباً عواناً على اتباع محمد ، وقد حاربهم كثيراً وقتل من ظفر به بلا شفقة ولا رحمة ، وكان بجانب شجاعته داهية ماكراً ، متفتق الذهن ، عليماً بوسائل الدفاع والهجوم ، نمت فيه ملكتا الابتكار والانشاء نمواً حسناً .

رأى عريعر أن نفوذ الشيخ محمد أخذ ينتشر ، وقد وصلت دعوته إلى الاحساء ونفذت إلى قلوب بعض أهليها ، فتوجس خيفة ، ونهض ليقضي على الدعوة وهي ما تزال في المهد ، فحرب فريق لا يتجاوز عدده الخمسين وقتله أسهل من حرب شعب بأكمله ، اذن ، من الخير أن يخمد الدعوة الدينية بالحديد والنار ، فاستنفر القبائل فأتته سراعاً ، ومن جملة من وفد : ابن هزال زعيم عنزة ، فتوجه عريعر بجيش لجب ملأ السهل والجبل ، وسال في بطون الصحراء مجتازاً الدهناء ، وكلما مر بقبيلة في طريقه انضمت تحت لوائه طمعاً في الغنيمة وأخذاً للثأر وخوفاً من بأس الغازي الجبار ، وقد وفد عليه أهل الوشم وسدير — أعداء التوحيد — وسلكوا معه سبيله ودخلوا تحت إمرته .

وتحدث الناس بمسير هذا الجيش الكثيف وما معه من المعدات الحربية من مدافع وبنادق ، وما معه من المؤن ، واعتقدوا أن النصر حليفه ، وفرح المبطلون كثيراً ، فالجيش الجرار سوف يقضي على الشيخ وجماعته وابن سعود وجنده في سويعة من نهار ، ثم يصبحون حديثاً في أسمار .

أما المؤمنون شيعة الشيخ محمد فقد تألموا كثيراً ، ودعوا الله صادقين أن ينصر الذين ينصرونه ويخذل الباغين المعتدين .

وذات ليلة حط عريعر رحاله ونزل خارج الدرعية ، وأمر الجند بالاستراحة ، وكان لنزولهم دوي عظيم ، ونصبت الخيام ، وأوقدت النيران ، وقام الطهاة يعدون الطعام..

وكان منظراً عجيباً الى حد بعيد . فالعمل قائم على ساق وقدم ، والناس في لغط وضجيج ، وترى أصحاب كل خيمة مجتمعين يتحادثون في أمر رحلتهم وانتصارهم القريب. ويتحدثون عما اعتراهم في الطريق من الأهوال ، وعريعر مع وزرائه وقواده في سرادقه يكاد يطير من السرور ، فقد أيقن أن النصر له ، ولا تتوسط ذُكاء كبد السماء إلا وهم في داخل الدرعية ، بل لا بد أن يتناولوا الغداء في

الغداء في قصر ابن سعود بعد أن يلقوا عليه وعلى الشيخ محمد درساً قاسياً ثم يقتلوهما شر قتلة .

وتحدث عريعر الى رجاله حديث الزهو والغبطة ، واعتقد أنه سوف يغدو العاهل الكبير ، يحكم نجداً كلها ، ويقضي على أمرائها قضاء لا قيامة لهم بعده ، بل يصب الهلاك على نسائهم وذريتهم ويفنيهم عن بكرة أبيهم .

ونهض عريعر من منامه متثاقلاً ؛ ومضى الى الجنود يتفقد أحوالهم ، لعل منظرهم يطرد ما جثم عليه من استخذاء وتراخ ، ومشى ساعة شعر فيها بالراحة والاطمئنان ، ورتبهم ترتيباً حسناً ، وطوق الدرعية وحاصرها ، وأخذ يصوب قذائفه على السور ، والسور جاثم كالجبل لا يتأثر ، وأخذوا على عملهم شهراً كاملاً ، خسروا قتلى ، وأنفقوا الذخائر في غير جدوى ، وخشي أن يكون صمت ابن سعود هذه المدة نَظِرَةً الى نفاد مؤونة خصمه وذخائره ثم ينقض كالشهاب فيحرقهم جميعاً ، ويسهل عليه الاستيلاء على أعدائه .

قضى عريعر ليله ساهراً يفكر ، فقد حاصر الدرعية شهراً ، وأنفق المال الطائل والذخائر الحربية دون جدوى .

وليس ثمة طريق يتبعه في التنكيل بالدرعية ، ولم يحرز النصر الذي يعوضهما خسر فما العمل ؟

فكر في هذا طويلاً ، ولم يصل الى حل يرضيه ، فقد استغلقت أمامه أبواب الفكر والحيلة ، وتنكر له الدهاء والذكاء .

وأخيراً هداه تفكيره الى اختراع دراجة تشبه دبابة اليوم ، ثم صمم العزم على البدء في العمل السريع ، وفي الصباح جمع الصناع والعملة وأصدر أمره اليهم باعداد الحديد والنار والخشب ، وعمل صندوقاً كبيراً يسع عشرة رجال الى عشرين ، وجعل تحته أربع عجلات ، وهو يشبه صندوق السيارات الكبيرة الخاصة بالركاب ،

مريداً من اختراعه الدراجة نقب السور ، لأن ابن سعود جعل رجاله في أبراجه يرصدون الأعداء ليلاً ونهاراً ، فكل من دنا من جداره صوبوا عليه الرصاص وقتلوه ، فكانوا لا يستطيعون الدنو ، ولهذا اخترع دراجته .

ولقد أفلح في اختراعه الى حد ما ، وأراد أن يخترع مدفعاً ضخماً ، فأذاب الحديد ، وصبه في القالب ، وصنع المسامير ، غير أن الأجزاء تفككك بعضها عن بعض ولم تتماسك ، وأخفق في عمله ، لأن عملاً كهذا يحتاج الى الوقت الكثير والتفكير الدقيق ، والتجارب المتكررة ، وهو لم يتيسر له الوقت والتفكير والتجربة .

وأخيراً رجع عن الدرعية كي يؤوب مرة أخرى بعد أن يستجم ويستعد بالرجال والعتاد ، وبعث ابنه سعدوناً — وكان مثل أبيه ماكراً خبيثاً لدوداً في الخصومة — بجيش لجب ومعدات حربية كثيرة ، وسار الى اليمامة لينجد أهلها فيكونوا معه يداً واحدة على ابن سعود ، ولبث بها مدة ثم عاد صفر اليدين .

وفي سنة ١١٨٨ هـ سار عريعر بن دجين أمير الاحساء ومعه بنو خالد الى القصيم لاحتلال بريدة ، فطوقها بالحصار وشدد عليها حتى أخذها عنوة وأباح لجنوده أن يفعلوا ما يريدون من نهب وسلب وسبي وأذى ، وخرب بساتينها وأحرق دورها ، ثم غادرها ونزل الخابية — المكان المعروف قرب النبقية — وفيها وافته القبائل ، وخافه الناس لبطشه وجبروته ، وانقاد له بعضهم كرهاً وبعضهم طوعاً ، وبعد أن كثر عدد رجاله عزم على المسير الى الدرعية وتخريبها ، وبينا هو يتجهز للرحيل توفي فجأة في شهر ربيع الأول من هذه السنة فتضعضعت عزيمة الجيش واضمحلت قوته المعنوية ، فتفرق أفراده في الصحراء .

وتولى بعد موت عريعر ابنه بطين ، وأول ما عمل بعد توليه رجوعه الى الاحساء واستمالة قلوب الناس بالمال ، ففرق عليهم خزائن أبيه ، رجاء أن يتولى الامارة ويجعل ماله طريقاً اليها ، غير أن الاخفاق كان نصيبه ، فعجز عن القيام بأعباء القيادة ، فالذين هم تحت إمرته أخذوا مرتباتهم وتفرقوا ، وكل يسرق ما تصل اليه يده

من متاع الدنيا ثم يطلق ساقيه للريح ناجياً بنفسه ، ولفقدانه الحزم لم يستطع القبض على الأمور بيد من حديد كما كان والده الجبار .

وثمة أسباب أخرى أدت الى تلاشي نفوذه وانحلال سلطانه سريعاً ، وأهم تلك الأسباب أن اخوانه كانوا يوعزون للجند بالتفرق والنهب والفرار ، وفي النهاية اشتد الغيظ والحنق بأخويه سعدون ودجين فائتمرا به ليقتلاه ، وذات يوم كان في غرفته الخاصة فهجما عليه وخنقاه حتى فاضت روحه ، وولي بعده دجين وبقي أميراً مدة يسيرة ، ثم مات مسموماً على يد أخيه سعدون .

ولم تكن هذه الحركات التي أشرنا اليها هي كل الحركات التي قامت في وجه الدعوة للقضاء عليها وعلى صاحبها وحماتهما ، بل هناك حركات أخرى لم تكن في عنف حروب دهام وعريعر وابنه، ولكنها قامت في أوقات متقاربة مما جعل لها قوة تؤذي الدعوة كثيراً ، ولكن الله حمى الدعوة فمشت في خط سيرها الذي رسمه الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

واخفاق هذه الحركات ، وهزيمة محاربي الدعوة أكسباها قوة ، وفتحا لها الطريق الى القلوب، فانتشرت في نجد، واجتازت حدودها الى الحجاز والعراق ، فعرف عنها العلماء ما حملهم على تأييدها ، وان كانت القوى المضادة في نجد وغيرها من البلدان ما زالت تحارب الدعوة في ميادين كثيرة .

غير أن الدعوة ثبتت لخصومها ثباتاً أدهشهم ، فهم أقوى من حماة الدعوة ، ومع هذا لم يستطيعوا أن يقضوا عليها ، بل انتصرت الدعوة عليهم في ميدان الحرب وفي جميع الميادين انتصاراً مبيناً ، وشهدت الجزيرة تحولاً خطيراً في حياتها الدينية والعقلية والسياسية بفضل الله ثم بفضل دعوة شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب .

الحكم الوهّابي السّعودي

الحكم الوهابي أو السعودي لم يقم على نظام ابتدعه شيخ الاسلام أو محمد ابن سعود ، بل هو حكم الاسلام الذي فرضه الوحي ، وتوخى منه العدل والحق والخير والسعادة لبني الانسان .

وليس في الاسلام « رجل دين » ولا كهنوت ، فكل مسلم رجل دين ، وليس فيه فصل بين الدين والدولة ، أو المعبد والدنيا ، بل الاسلام دين ودولة ، وعلى هذا كان شيخ الاسلام رجل دين ودولـــة ، ولكنه لم يتولّ السلطة لأن محمد بن سعود كان صاحبها ، وأيده الامام فيها ، ورضي بأن يكون أميراً على المؤمنين في بلده ، وبايعه على الإمرة مبايعة اخلاص .

وكذلك كان الأمر في عهد الخلفاء الراشدين ، فتولى أبو بكر الأمر وكبار الصحابة مستشاروه ، وكذلك كان عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم .

فالشيخ محمد كان مستشار الحاكم ، وكان موجهه الى الخير ، ويفصل بين الناس في الخصومات ، ويقضي ويحكم في كل شيء ، يحكم في الخصومات بين الأفراد ، وفي العلاقات السياسية ، وفي المعاهدات بين الحكام ، لأنه كان أعلم بالدين والأحكام .

ولم يقتصر الشيخ في دعوته على التعليم والتربية والتوجيه والوعظ والارشاد ، بل شارك في الحكم وتأسيس الدولة على أقوى ما تكون المشاركة ، بل دعوته هي التي أسست الدولة القائمة على أساس الدين .

فالشيخ الامام مصلح ديني ، واجتماعي ، وزعيم سياسي ، والمصلح الديني في الاسلام ليس الذي يكون في عزلة عن المجتمع أو السياسة أو الحكم أو الدولة ، بل يتناول الاصلاح كل أسباب الحياة ومقوماتها ، فالمصلح الديني يصلح حياة الأمة ظاهرها وباطنها ، واصلاح الباطن هو اصلاح المعتقد .

وكان الامام محمد بن عبد الوهاب مصلحاً دينياً على هذا المعنى ، وكان بصيراً نافذ البصر في شؤون الحكم ، لأنه وقف على نظم الحكم في الاسلام وغير الاسلام ، وعرف الحكم الاسلامي الصحيح الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنشأه وأرسخ قواعده ، وتمسك به من بعده خلفاؤه الراشدون الأربعة ، ومن بعدهم عمر بن عبد العزيز ، وعرف حكم غير هؤلاء من الخلفاء والملوك معرفة ثاقبة .

ووقفته دراسة القرآن والسنة على أنظمة حكومات مختلفة سبقت الاسلام من جاهلية وغيرها .

واختار من كل ذلك أصح حكم اسلامي ، ألا وهو حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، وطبقه بقدر ما اتسع له عصره وقدرة الدولة التي بناهـــا .

وكان الوفاق بين الشيخ ومحمد بن سعود تاماً . ووجهات نظرهما واحدة ، وكان الشيخ يعين الحاكم بعلمه وآرائه ويريه نهج الاسلام في السياسة وشؤون الدولة ، والحاكم نفسه ما كان يعمل عملاً في الدولة إلا برأي الشيخ الذي كان يعلن الجهاد ، ويبعث الرسل والكتب الى الأمراء والحكام والعلماء والقضاة في البلدان الخارجة عن حكمه .

وما كانت الامارة السعودية لتدخل في الحروب التي خاضتها لولا دعوة الشيخ ، فآل سعود آمنوا بالدعوة وجندوا أنفسهم لها ، كما جندوا كل طاقاتهم ، وفدوها بدمائهم وأولادهم .

فالدعوة الوهابية قوامها الشيخ وآل سعود ، وكانوا قلباً واحداً ويداً واحدة في الحكم والسياسة والسلم والحرب ، فهم جميعاً حاربوا دهاماً بن دواس الذي حارب الدعوة وممثليها حرباً لا هوادة فيها .

وعاهد دهام الشيخ ونكث ، وجدد البيعة ثم خان ، وأخيراً قوتل دهام وانكسر سنة ١١٨٧ هـ. وهرب الى بلدة «الخرج» ومات بها .

وأعلن الشيخ الحرب على كل الحكام الذين وقفوا في وجه الدعوة الاسلامية الصحيحة .

ووفق الشيخ في دعوته وجهاده ، وقضى على ثورة الكبراء وخرج من حروبه مع الأمراء منتصراً ، حتى نشر علم التوحيد في نجد والاحساء ، بل رفرف على الجزيرة ، ودخلت الوهابية عسيراً ، ثم تربة والحرمة ، والقطيف ، وامتدت الى بعض بوادي الشام ومدنها ، ووجدت أتباعاً في العراق .

ولا شك أن الدعوة نجحت نجاحاً باهراً ، ولكن خصومها لم يناموا عنها أو يهادنوها ، فأخذ العلماء والحكام يشوهونها ويمسخونها ، ولكن أتباع الدعوة كانوا يقظين لهم ، يردون عليهم ، ويفندون زعماتهم .

ولكن الدولة الوهابية قامت على أسس راسخة ، ورأى الشيخ ثمار دعوته وانتشارها في الجزيرة ، وقيام دولة اسلامية في قلب جزيرة العرب ، ورأى ازدحام الدرعية بطلاب العلم من أبناء الجزيرة ، وبلغوا الآلاف ، فاضطر الى التفرغ لهم حتى يكونوا جيش الدعوة في السلم والحرب ، ويهيئهم للدعوة في البلدان العربية .

ونظام الحكم الذي اختاره شيخ الاسلام هو حكم الاسلام لا غير ، وطبقه في دقة وأمانة وعدل .

ولم تكن حاجة مجتمعه الى اجتهادات جديدة ، فلم يعرف من الحضارة الحديثة ما عرف بعد عصر الامام بقرن ونصف قرن ، فكانت الفروع تغطي كل حاجات المجتمع ومطالبه وحياته .

ولهذا لم يضف جديداً إلى الفروع التي ورثها عن السلف الصالح وأئمة مذاهب الفقه الاسلامي . بل تمسك بها ، وطبقها ، ونفذها في أمانة واخلاص .

والنظام الاسلامي في الحكم هو أحكم ما عرف الانسان من نظم وقوانين وأجمله وأفضله ، وأضمنه للعدالة والحق ، فهو دين طيب لا يرضى بغير الطيب في القول والعمل .

ولم يكن الامام الشيخ جاهلاً بنظم العالم القديم وقوانينه وشرائعه ، بل عرفها معرفة ثاقبة ، فالقرآن الكريم ذكر ألواناً منها ، فيها الصالح وفيها غير الصالح ، ولكن الاسلام جمع خير ما جاء في شرائع السابقين ، وحوى أفضل ما يحتاج اليه الفرد والجماعة والمجتمع والعالم من النظم والقوانين .

ولما كان كل مسلم رجل دين ، ومرد التفاضل بين المسلمين هو التقوى ، وإن التقوى غير مقصورة على الصلاة والحج والصوم والزكاة ، بل تشمل كل عمل صالح يقي من الاثم أو المؤاخذة ، ويدفع إلى ما صلح من الامور .

وليس نظام الاسلام في الحكم معقداً ، بل هو سمح سهل ، وفي غير حاجة إلى مجلدات ، وقد لخصه القرآن الكريم في بضع كلمات فقال تعالى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

ويقول الله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان ﴾١.

ويقول محمد صلى الله عليه وسلم : « البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب ، والاثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ».

والأمر بالمعروف ، أو العدل والاحسان ، أو البر هو النظام نفسه ، وهـو وصفه أيضاً ، فنظام الحكم في الاسلام معروف وعدل واحسان وبر ، وهو يأمر بذلك كله ، ويضمنه للحاكم والمحكوم على السواء ، ولا امتياز للحاكم .

وقواعد نظام الحكم ثلاث : الايمان بالله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهي تضمن طهارة القلب أو الضمير ، وطهارة الجوارح ، فالمعتقد صالح ، وقول اللسان صالح ، وعمل الجوارح صالح .

هذا ما يفرضه نظام الحكم في الاسلام ، وينهي عن نقائضه ، وهو الكفر ، وترك المعروف ، والأخذ بالمنكر .

وابن عبد الوهاب بنى حكومته وأسسها وشيدها على قواعد الاسلام الثلاث ، فدعا إلى الايمان بالله ايماناً حقاً يقضي بصرف العبادات كلها لله وحده ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

ورسالة رسل الله صلى الله عليه وسلم هي الدعوة إلى الاعتصام بهذه القواعد ، وبناء المجتمع وكل نظمه وقوانينه وتصرفاته عليها .

وإذا تعرض الايمان للفساد أو الخطر وجب على المسلم العالم الصالح أن ينهض للاصلاح ورد الخطر عن العقيدة .

وهذا ما صنعه الامام الشيخ ، فهو قد رأى مجتمعه فاسد العقيدة فقـام بالاصلاح .

ثم رأى العقيدة الصحيحة السليمة في خطر من المبتدعين والضالين والمضلين فنهض للدفاع عنها بأسلوب الاسلام نفسه ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكنهما تعرضتا مع العقيدة لحرب شنها عليها الحكام المبتدعون والعلماء الضالون والعامة المضللون ، فاضطر الامام لاتخاذ سلاح من حاربوه للدفاع عن العقيدة وأصحابها .

ونصر الله الامام المصلح ابن عبد الوهاب نصراً مبيناً ، وقامت دولة الاسلام التي شيدها على قواعده الصحيحة ، وأصبح هو امام هذه الدولة المسئول عن حمايتها ورعايتها .

وإذا كان الامام محمد بن عبد الوهاب هو صاحب الدعوة التي أسست حكم الاسلام في الدرعية ثم في نجد ، وأقامت دولته فان محمد بن سعود كان رأس الحكومة الاسلامية ، إذ بايعه الامام على ولاية الأمر ، والدعوة في فجرها ما تزال فكرة في أذهان بضعة نفر من المقتنعين بها .

وأبرز الشيخ ومحمد بن سعود الدعوة إلى الواقع بعد أن كانت فكرة ، وأقاما مجتمعاً اسلامياً ، وحكماً اسلامياً ، ودولة اسلامية .

ومات محمد بن سعود وخلفه ابنه عبد العزيز ، وكان قد تلقى العلم على يد المصلح الشيخ ، وتضلع منَ الدين والخلق ما يجعله صالحاً للولاية فبايعه الشيخ ، وشاركه في الحكم ، لأن كل الأحكام إسلامية ، والشيخ هو الذي اليه الحكم وفصل الخطاب فكان مع عبد العزيز قلباً واحداً ، ورأساً واحداً ، ويداً واحدة .

وازداد عدد الطلاب والمريدين وبلغوا مئات وآلافاً ، ولم يبق لدى الشيخ وقت يفيض عن حاجة أولئك المحتاجين الى العلم ، فترك الحكم لعبد العزيز ، وهو واثق من كفايته وقدرته على الاضطلاع بأعباء الحكم وتبعاته ، ومن عدله ، وحسن تصريفه الامور .

ولم يكن الشيخ في عزلة عن الحاكم ، ولا الحاكم في عزلة عن الشيخ ، بل

كانا على صلة دائمة وثيقة ، وما كان ليبرم عبد العزيز أمراً من أمور الدولة إلا بعد الرجوع إلى الشيخ الذي وجه اهتمامه إلى إعداد جيـــل الدعوة وتهيئة المئات مـــن الاتباع ليقوموا بنشرها ، وتهيئة الآلاف لحمايتها بعد موته .

وإعداد جيل الدعوة وتهيئة الدعاة والحماة يحتاجان من الشيخ الامام إلى التفرغ، فوكل الأمر إلى الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود الذي كان أهلاً للاضطلاع بهذه المهام .

ولم يشغل الشيخ تفرغه لجيل الدعوة يعلمهم ويربيهم بل كان يحكم ، ويُري تلامذته أسلوب الحكم ، ويفقههم في الدين عن طريق العلم والعمل ، ويطلعهم على الأحكام وأدلتها الشرعية ومصادرها حتى يكونوا على بصيرة تامة .

وإذا عرفنا واجب رئيس الدولة وعمله عرفنا أن الرئيس الفعلي كان الشيخ محمد ابن عبد الوهاب ، وكان الأمير محمد بن سعود راضيا كل الرضـــا بما يرى الشيخ ويفعل ، لأنه رآه أعلم منه بالدين ، وأعرف منه بأصول الحكم ، فرضي عن كـــل تصرفاته وأحكامه .

وواجب رئيس الدولة المسلم في دولة الاسلام قائم على القواعد الثلاث ، فهو مأمور بأن يكون مؤمناً ، ولا يجوز أن يتولى الكافرون المؤمنين . لأن الحاكم يجب أن يؤمن بالنظام الذي يؤمن به المحكومون ، حتى يكون الحاكم والمحكومون سواء في الحقوق والواجبات ، وأن يأمر بالمعروف ، وأن ينهي عن المنكر .

وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عهده لعمرو بن حزم عامله على اليمن فصل الخطاب في واجبات رئيس الدولة ، وهذا هو :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

« هذا بيان من الله ورسوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ .

« عهد من النبي محمد رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن .

« أمره بتقوى الله في أمره كله ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

« وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله .

« وأن يأمر الناس بالخير ويبشرهم به ، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه ، وينهي الناس ، فلا يمسّ القرآن انسان الا وهو طاهر .

« ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم .

« ويلين للناس في الحق ، ويشتد عليهم في الظلم ، فان الله كره الظلم ونهى عنه فقال : ﴿ الا لعنة الله على الظالمين﴾ .

« ويبشر الناس بالجنة وبعملها ، وينذر الناس النار وعملها .

« وينهي الناس أن يصلي أحد في ثوب واحد صغير الا أن يكون ثوباً يثني طرفيه على عاتقيه ، وينهي أن يحتبي أحد في ثوب يفضي بفرجه الى السماء .

« وينهي أن يعقص أحد شعر رأسه في قفاه .

« وينهي إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم إلى الله وحده لا شريك له ، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيف حتى يكون دعواهم الى الله وحده لا شريك له .

« ويأمر الناس بإسباغ الوضوء ، وجوههم وأيديهم إلى المرافق ، وأرجلهم إلى الكعبين ، ويمسحون برؤوسهم كما أمرهم الله .

« وأمر بالصلاة لوقتها ، واتمام الركوع والخشوع ، يغلس بالصبح ، ويهجر بالهاجرة حين تميل الشمس ، وصلاة العصر والشمس في الأرض ، والمغرب حين يقبل الليل ، ولا تؤخر حتى تبدو النجوم في السماء ، والعشاء أول الليل .

« وأمر بالسعي إلى الجمعة اذا تنودي لها ، والغسل عند الرواح اليها .

« وأمره أن يأخذ من المغانم خُمس الله .

« وما كتب على المؤمنين في الصدقة : من العقار عُشر ما سقت العين وسقت السماء ، وعلى ما سقى الغرب نصف العُشر .

« وفي كل عشر من الابل شاتان ، وفي كل عشرين أربع شياه .

« وفي كل أربعين من البقر بقرة ، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة .

« وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة ، فانها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة ، فمن زاد خيراً فهو خير له .

« وان من أسلم من يهودي أو نصراني اسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الاسلام فانه من المؤمنين ، له مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فانه لا يرد عنها ، وعلى كل حالم — ذكر أو انثى ، حر أو عبد — دينار وافٍ ، أو عرضه ثياباً .

« فمن أدى ذلك فان له ذمة الله وذمة رسوله .

ومن منع ذلك فانه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً ».

هذا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم حين ولاه اليمن ، وهو ليس خاصاً ، بل حكمه عام ، وكل والٍ على المسلمين مسئول عن هذا العهد .

فالوالي أو الخليفة أو الامام أو الحاكم أو الأمير أو الملك أو رئيس الدولة الاسلامية مسئول عن ذلك العهد ، وأول ما يجب عليه أن يتحلى بالتقوى ويأخذ نفسه قبل غيره بالحق ، فالتقوى صفاء القلب ونقاء الضمير وصحة المعتقد وقوة الايمان ، والحق هو ما ظهر من عمله ، حتى يتفق الباطن والظاهر في الصلاح .

ثم بعد صلاح ظاهر الحاكم وباطنه واجبه نحو الرعية أو الأمة أو الشعب ، وهو

أن يعدل في الحكم ، ويقضي بالعدل ، وأن يعلم الشعب أمور دينه ودنياه ، ويبين لهم ما لهم وما عليهم ، حتى لا يأخذهم في شيء دون أن يعلموا ، وحتى لا ينزع منهم حقوقهم بجهلهم إياها .

ولم يكتف الاسلام بذلك بل كلف الحاكم بأن يعامل الناس كل صغيرة وكبيرة حتى أدب اللباس واللياقة ، فلا يعقص شعره من خلف ، وألا يلبس ثوباً قصيراً غير ساتر .

وموجز القول : ان الحاكم يجب أن يكون مثلاً رفيعاً في الخلائق والمكرمات حتى يكون اسوة حسنة لمن يحكمهم .

فما نصيب محمد بن عبد الوهاب من هذا العهد النبوي العظيم ،ومامدى وفائه له وأخذه به ؟ وما خلائقه واتجاهاته ؟ .

الحق ، انه وفى بالعهود والعقود ،وفى بعهده لله بأن آمن بالله ورسوله ، ووفى لخلقه بأن أحسن الولاية عليهم حق الاحسان ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

قد ذكر الامام أبو يعلى [1] في كتابه « الأحكام السلطانية » عشرة شروط يجب أن تكون في الحاكم وهي :

آ — حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة .

٢ — تنفيذ الأحكام والفصل بالعدل .

٣ — حماية البيضة والذب عن الحوزة لكي ينصرف الناس الى أعمالهم آمنين

٤ — اقامة الحدود .

٥ — الاستعداد التام للدفاع ، واليقظة للعدو .

---

(١) هو محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي المتوفي ببغداد سنة ٤٥٨ هـ.

٦ ــ الجهاد في سبيل الله .

٧ ــ جباية الفيء والصدقات حسب ما فرض الله وأوجبه الشرع نصاً واجتهاداً دون تعسف .

٨ ــ تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير اسراف ولا تقصير في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

٩ ــ استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه اليهم من الأعمال ، ويكله اليهم من الأموال ، لتحفظ الأموال ، وتضبط الأعمال .

١٠ ــ أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفّح الأحوال ، ليهتم بسياسة الأمة ، وحراسة الملة ، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة ، فقد يخون الأمين ويغش الناصح ، وقد قال تعالى : ﴿ يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ﴾ فلم يقتصر سبحانه على التفويض دون المباشرة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

وهذه الشروط لم يخترعها الامام أبو يعلى ، بل أخذها من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لولاته ، وهو عهد أمر به الوحي المقدس الذي أريد منه أمن البشر .

والحكومات الصالحة تعمل لضمان الأمن وطرد الخوف بأنواعه ، وتزداد الحكومات الصالحة المسلمة عن كل حكومة صالحة بتكاليفها ، فالحكومة المسلمة تعبد الله وتضمن الأمن وتطرد الخوف .

يقول الله تعالى في محكم كتابه العزيز : ﴿ ليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ .

فالشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب نفسه موصوف بما يجب ان يتصف به

الحاكم المسلم ، فهو صالح في نفسه ، ويأخذ بالحق كما أمره الله ورسوله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويعلم الناس ويفقههم في الدين ، ويرعى شؤونهم حق الرعاية ، ويحمي دين الله على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة ، ويحكم بالعدل ، ويقيم الحدوه ، ويحرس الوطن والأمة والعقيدة ، ويستعد بالقوة دفاعاً عن المعتقد ورداً لعدوان المعتدين ، ويجاهد في سبيل الله حق الجهاد ويجبي الفيء والزكاة ، وينفقهما في الوجوه التي أمر الله ورسوله ان ينفقا فيها ، ويقـــر العطاء وما يستحق في بيت المال دون اسراف او اجحاف أو تقصير في وقته المحدد ، ويولي أمور المسلمين من صلح منهم في الحكم والقضاء ، ويقوم هو نفسه بمباشرة الاشراف عـــلى أمور الأمة وتصفح أحوالهـــا ومراقبة الولاة والقضاة وسيرهم في احكامهم في يقظة وحكمة وسداد .

واذا كانت تلك شروط الحاكم وتكاليفه فالامام محمد بن عبد الوهاب موفور الشروط وأهل للاضطلاع بتلك التكاليف .

وعلى ذلك كان هو الامام المتصرف في الحكم دون ان ينتزع السلطة من صاحبها الشرعي الامام ابن سعود ، ودون ان يكون هناك فصل بين الدين والدولة ، لان الاسلام دين تام يقوم على العبادة وعمل الدنيا ، وليس فيه كهنوت وكهـــان ورجال دين يتميزون عن الأمة بأنهم اداة الوصل بينهم وبين الله ، وان اليهم انتهاء تفسير الدين وفهم اسراره وحكمه وعباداته دون غيرهم ، وانه لا قدرة ولا سبيل إلى الله إلا السبيل الذي يمهده لهم رجال الدين .

والحكم الوهابي هو الحكم السعودي ، وكلاهما مسمى واحد ، وابن عبـــد الوهاب وابن سعود يد واحدة وقلب واحد ورأس واحد ، اتحدا عقيدة وعملا فكانت الوحدة بين الشخصيتين في حكم الناس بالعدل ، وتصريف أمورهم بالحق .

واذا كان الامام محمد بن عبد الوهاب قد اولى جيل الدعوة أكبر اهتمامـــه ليتسلموا منه الأمانة ويحملوا بعد موته أعباء الدعوة فان هذا الاهتمام لم يجعله في

عزلة عن ابن سعود ، ولم يجعل ابن سعود مستأثراً بالحكم دون الامام الشيخ ، بل كانا وحدة تعمل لاعلاء كلمة الله ، والحكم بين الناس بالعدل .

وهذه الوحدة بين ابن عبد الوهاب وابن سعود لم تنفصم قط في حياتهما وبقيت بعد موتهما قائمة بين الأسرتين ، لأن في وحدتهما قوة للاسلام وعزة للمسلمين .

وما تزال هذه الوحدة بين الأسرتين قائمة منذ كانت بين ابن عبد الوهاب وابن سعود حتى اليوم ، وكل من الأسرتين حريصة عليها ، رغبة منهما في المزيد من الخير للاسلام وأهله .

وفاة الإمام

منذ ان كان عمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب عشرين سنة بدأ الدعوة، ولكنه كان يدعو في حدود ضيقه ، بل ان بدء الدعوة كان في سن مبكرة وقبل العشرين ببضع سنوات ، ثم أخذت الدعوة تقوى وتشتد ، ووجدت انصاراً مخلصين ، ولكن الأعداء كثروا ، وكانوا ذوي نفوذ وأيد ، وغادر بلده إلى آخر ، حتى استقر في الدرعية حيث وجدت الدعوة قوة حكومية تسندها وتحمي الداعية وتساعده .

وفي بضع السنوات الأخيرة من حياته اطمأن الداعية إلى الدعوة وخط سيرها ، فقد رأى نجاحها وشيوع ذكرها في أقطار الجزيرة العربية بما فيها الشام والعراق ، كما عرفت الدعوة في مصر وتركيا .

وتفرغ الشيخ في بضع السنوات الأخيرة للدعوة وان لم يترك المشاركة في الحكم وتصريف امور الدولة الجديدة بما فيها الجيش ، واخذ يعد جيل الدعوة وحملتها ودعاتها وحماتها ، ويلقن آلاف الطلبة علوم الدين ، ويربيهم تربية اسلامية صالحة.

والحق ، ان الشيخ شهد ثمار دعوته وجهاده وجهوده فأبصر المجتمع الاسلامي الذي يريده ، وقد اسسه على مبادىء الاسلام ، وجعله مجتمعاً انسانياً فاضلا ، وكأن كل أفراده اسرة واحدة .

وشهد الشيخ آثار اصلاحه ، فانتقل البدو من حياة البادية الجاهلة إلى حياة الحاضرة ، ووفقه الله فأزال على يديه العداوة التي كانت بين أفراد الاسرة الواحدة والبلد الواحد والقطر الواحد ، واحل محلها الاخوة والمحبة ، لأنه هداهم إلى الاسلام الحق ، والاسلام يحيل الأعداء اخوة ، والجهل علماً ، والمرض صحة ، والفقــر غنى ، والخوف أمناً .

وعندما تفرغ للدعوة واعداد جيلها وحملتها ، وتزويد آلاف الطلاب بالثقافة الاسلامية كان الشيخ قد تجاوز السادسة والثمانين من عمره ، ولكنه كان صحيح الجسم والعقل والملكات ، واجهد نفسه كثيراً ، وواصل العمل ليله بنهاره ، ولم يخلد إلى الراحة والاستجمام بعد الجهاد الذي دام أكثر من سبعين عاماً .

ولو اخلد إلى الراحة في سنواته الأخيرة لكان من حقه ، ولكنه كان يجد الراحة كلها في مواصلة العمل الاسلامي العظيم ، وازداد نشاطه ، ولم يشك مرضاً يقعده قط .

وفي شوال سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩٢ م) أُصيب الشيخ بمرض اضطره إلى ملازمة بيته الذي لم يكن يخلو من طلبته الادنين واتباعه المقربين .

وفي آخر يوم من شهر ذي القعدة سنة ١٢٠٦ هـ . (٢٢ يونيه (حزيران) ١٧٩٢ م) صعدت روح الشيخ إلى بارئها بعد ان قام بيديه وقلبه وايمانه هذا الصرح الاسلامي الضخم ، وبعد ان انار نجداً والجزيرة العربية بدعوته العظيمة التي ما تزال تحيا حياة القوة والعز والتمكين حتى هذا اليوم بفضل الله .

وما كاد نبأ وفاته يعم الدرعية حتى عمها الحزن العميق ، فقد كان لها الأب الرحيم ، ولم يقتصر الحزن على الدرعية وحدها بل تجاوزها إلى القرى والمدن القريبة المجاورة ، وأسرع أهلها ليشاركوا أهل الدرعية .

وخرجت جنازة الشيخ إلى المسجد فالمقبرة يحف بها الآلاف من اتباعه وانصاره ومحبيه .

ثم شاع خبر موته في الجزيرة العربية فعمها الحزن على هذا الفقيد الفذ ، ورثاه اكابر العلماء ، ومنهم الامام المصلح العلامة محمد بن علي الشوكاني الزبيدي اليمني صاحب الكتب العظيمة التي منها : نيل الاوطار ، والدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد ، والقول المفيد في ابطال التقليد، وشرح الصدور بتحريم رفع القبور .

وقد جاء في رثائه قوله :

لقد مات طود العلم قطب رحى العلا
ومركز ادوار الفحول الأفاضل

امام الهدى ماحي الردى قامع العدى
ومروى الصدى من فيض علم ونائل

محمد ذو المجد الذي عز دركه
وجل مقاماً عن لحوق المطاول

لقد أشرقت نجد بنور ضيائه
وقام مقامات الهدى بالدلائل

ورثاه غير الامام الشوكاني ، وذكره العلماء بالخير ، وورثوا دعوته وورثوها .
مات محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وأسكنه الجنة .

مات مجدد الدين وشيخ الاسلام الامام العظيم بعد ان ترك الدعوة زاهرة مثمرة يستظل بها الملايين .

. مات وهو قرير العين ، فقد شهد نجاح دعوته وانتشارها واستظلال الملايين بها ، وخلاص نجد من الجاهلية .

· مات قرير العين بعد ان حقق الله أمنيته ، وبعد ان أعد لها من يحملونها ويجاهدون في سبيلها ، ويحمونها ، وينشرونها .

واذا كان ابن عبد الوهاب — رحمه الله — قد مات فان جسده هو الذي واراه القبر ، اما فضله فقد بقي حياً تتوارثه الأجيال ، ويحمل كل جيل عن سابقه علم الهدى ومنارة الحق .

وليس هؤلاء الذين يرثون دعوته وفضله اهله واحفاده وحسب ، فميراث الخير والحق ليس مقصوراً على الأصول أو الفروع ، بل ميراث الانسانية والمسلمين .

ولهذا رأينا الاباعد في جاوا والهند والصين وافريقية يحملون علم ابن عبد الوهاب ، ويجاهدون في الله حق الجهاد .

ومن هؤلاء الوارثين : السيد أحمد الباريلي زعيم الهند ومصلحها العظيم وامامها الحق الذي جاهد الكفر والكافرين الذين ارادوا محو الاسلام حتى وقع في ميدان الجهاد شهيداً في سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٣١ م) وبقي الاسلام حياً ترفرف اعلامه ، ويزداد على مر الأيام معتنقوه المؤمنون .

ومنهم : الشيخ أحمد بلو زعيم نيجيريا العظيم ومصلح افريقية الأعظم ، وامام المسلمين ، وعلامتهم ، رئيس وزراء نيجيريا الشمالية الذي كان قلعة من أكبر قلاع الاسلام في نيجيريا وافريقية ، والذي تآمرت عليه قوى الشر وقتلته هو وزوجه البارة في منزلهما يوم السبت ٢٤ رمضان المبارك سنة ١٣٨٥ هـ (١٥ يناير ١٩٦٦ م) .

مات الامام العظيم محمد بن عبد الوهاب وما تزال دعوته حية قوية ، لأنها دعوة الاسلام الحق .

مات منذ أكثر من قرن ونصف قرنين ، ولكن دعوته باقية ، وانصارها يكثرون في بقاع الأرض كلها ، فجزاه الله خير الجزاء ، وأكرم مثواه ، ورزقه رضاه ، واسكنه الجنة بفضله وكرمه ، انه اكرم الأكرمين .

أثر الدعوة الوهابية في العالم الإسلامي

العصر الذي عاش فيه محمد بن عبد الوهاب كان القرن الثاني عشر الهجري ، أو القرن الثامن عشر الميلادي ، وهو عصر من عصور النكبة العامة التي حلّت بالمسلمين في حريتهم ودينهم واقتصادهم وتجارتهم ، مع وجود دولة الخلافة في تركيا .

ومع ان الخلافة العثمانية كانت ملاذ المسلمين ، وعملت لهم وللاسلام ما فيه العز والمنعة إلا أن الضعف كان منبثاً في جهاز الحكم نفسه قبل ان يأتيها من أعداء الاسلام في روسيا القيصرية والغرب .

وتلاقت عوامل الهدم من الداخل والخارج ، فضعفت الخلافة الأسلامية التي بدأ فيها الضعف بعد قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وتولي الأمويين السلطة بعد مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه، وكرم وجهه .

ولا شك ان عصر ابن عبد الوهاب كان بالنسبة للمسلمين عصر التأخر والجمود والخمول وشيوع البدع والخرافات والوثنيات التي سيطرت على العقول ، عصر سيادة الغرب ، عصر ضعف المسلمين ، وتفرق كلمتهم .

وكل أقطار الاسلام كانت تغط في الجهل والبدع ، ولم يسلم الحجاز وأرض

الحرمين من الحمول والبدع ، وأنا أدركت آثار الخرافات والبدع الشائعة في مكة حرسها الله ، وقضى عليها صحو العقل الذي يعود الفضل فيه للدعوة الوهابية .

ورأى ابن عبد الوهاب ما حل بالمسلمين ، ورأى ما بنجد من الشرك والوثنية ، ولم تكن نجد خالية من العلماء ، بل كان فيها منهم عدد غير قليل في مدنها وقراها ، ولكنهم كانوا ضعفاء ، ومنهم من لم يفضلوا العامة في معتقداتهم الخرافية ، ومنهم من كانوا على بصيرة من أمرهم ، ولكنهم لم يكونوا شجعاناً ودعاة ، بل كانوا وعاظاً محدودي الأثر .

ولكن ابن عبد الوهاب لم يكن مثلهم ، فقد كان عالماً حقاً ، وكان سلفياً صادقاً في عقيدته ومنهجه ، وكان شجاعاً وداعية ، وليس العلماء ورثة الأنبياء في العلم وحده ، ولكن ميراث النبيين يتجلى في القيام بأعباء الدعوة والتبشير برسالاتهم ، واستقبال الأذى بعناد واصرار في سبيل هداية البشر .

وهكذا لقي محمد بن عبد الوهاب الأذى والنفي والتشريد ، وصابر وصبر حتى مكن الله له بقيام دولة اسلامية في نجد ، تطبيق شريعة الاسلام حق التطبيق ، وتعيد إلى الاسلام عزته ، وإلى المسلمين كرامتهم التي ضيعها الجهل .

وكان محمد داعية حقاً ، فأرسل الكتب إلى الحكام والعلماء يعرض عليهم دعوته ، ويطلب اليهم الاصلاح العام ، والقيام بتغيير المنكر ، ومحو البدع ، والاعتصام بالكتاب والسنة .

وقام هو نفسه بزيارة بعض الأقطار والمدن كالاحساء والعراق ومكة والمدينة .

وأرسل رسله إلى بعض البلدان ، يعرضون دعوته ، ويبينون حقيقتها ، وصحا العلماء على دوي دعوة ابن عبد الوهاب كما صحا الحكام والشعوب ، فمنهم من أيد ، ومنهم من قاوم وحارب .

والصحو الذي انبعث في الشعوب افادها ، فأنصار الدعوة افادوا من حيث اقرار الحق ، وخصومها افادوا لأن الدعوة دفعتهم إلى الدراسة والتحصيل وتوسعة نطاق اطلاعهم وثقافتهم ليقابلوا الدعوة الوهابية بردودهم عليها وعلى صاحبها واتباعه.

ولم يقتصر اثر الوهابية في الجزيرة العربية ، بل امتد هذا الأثر إلى العالم الاسلامي كله ، فالحرمان كانا في حماية الحكام الوهابين لفترات ، وكان حجاجهما الذين يفدون من مختلف ديار الاسلام يرون في أرض الحرمين نمطاً للحياة الاجتماعية الاسلامية جديداً لم يعهدوه في بلدانهم ، ولا في علمائهم ، ولا في حكامهم .

فالحياة الاجتماعية تسودها العدالة والاخلاق الكريمة والصفاء ، والعلماء سلفيون متمسكون بدينهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويغيرونه بالقلب واليد واللسان ، لا يخافون غير الله ، والحكام صالحون ، وهم والعلماء يد واحدة في الخير ، ولسان واحد في الدعوة إلى الله ، وقلب واحد في الخشية منه .

وكان بين الحجاج علماء وحكام ورجال فكر وثقافة وعلوم عصرية ، وأعجبهم الرجوع إلى الاسلام الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمبادرة إلى صلاة الجماعة ، واغلاق المتاجر قبيل أوقات الصلاة ، والتنزه عن الغش والتدليس في العقود والبيوع ، وصون اللسان عن السباب والفحش .

رأوا دولة الاسلام وأخلاق القرآن وآداب السنة فأعجبوا بها كل الأعجاب ، ونقلوا ما رأوا إلى شعوبهم وبلدانهم ، وتزود العلماء منهم بالدعوة ، ولما عادوا إلى بلدانهم نهضوا بأعبائها ، ولكنهم صدموا ، وقاومهم علماء أمثالهم ، وقاومهم الحكام ، لأن الحركة الاسلامية الجديدة تنذر الظالم ، ظلم العلماء والحكام ، وظلم التجار والموظفين ، الظلم بكل ضروبه .

واذا كان الدعاة قد اصطدموا مع الجور والفساد في السلطة والمعتقد فقد وجدوا اتباعاً ايضاً ، وايقظ الاصطدام النائمين فصحوا ، وصحت عقلياتهم .

وكل الدعاة وحركات الاصلاح الذين أعقبوا ابن عبد الوهاب تأثروا بـه . ونهوضهم يدين لهذا المصلح الأكبر الذي جدد شباب الاسلام في وقت بلغت شيخوخته حد الخرف والهذيان .

فأقطار الجزيرة العربية : نجد والاحساء ونجران وعسير واليمن والحجاز والعراق والشام تأثرت بحركة الامام المصلح تأثراً بالغاً ، وانطبعت العقليات في هذه الأقطار بطابع هذه الحركة من ناحية الدعوة الخالصة ومنهجها وتطبيقها في الحدود التي تتسع لهـم قدراتهم .

يقول صديقنا العقاد رحمه الله [1] :

« النهضة في مصر بدأت عند أوائل القرن التاسع عشر . ولكنها بدأت في الجزيرة العربية قبل ذلك بنحو ستين سنة بالدعوة الوهابية التي تنسب للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وبدأت نحو هذا الوقت في اليمن بدعوة الامام الشوكاني صاحب كتاب « نيل الأوطار » وكلاهما ينادي بالاصلاح على نهج واحد ، وهو العود إلى السنن القديم ورفض البدع والمستحدثات في غير هوادة .

« وانما تسامع الناس بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وظلت الدعوة الشوكانية مقصورة على قراءة كتب الفقة والحديث ، لأن الوهابيين اصطدموا بجنود الدولـة العثمانية في إبان حربها مع الدول الأوروبية التي اتفقت على تقسيمها ، ومثل هذا الاصطدام قد أودى بدولة علي بك الكبير في مصر ، فانتقض عليه أعوانه ، وتمكن منه حساده بعد محالفته لروسيا في حرب الخلافة العثمانية .

ولم تذهب صيحة ابن عبد الوهاب عبثاً في الجزيرة العربية ولا في أرجاء العالم

---

(١) الاسلام في القرن العشرين ، للعقاد ، ٨٥ – ٨٦ .

الاسلامي من مشرقه إلى مغربه ، فقد تبعه كثير من الحجاج وزوار الحجاز ، وسرت تعاليمه إلى الهند والعراق والسودان وغيرها من الأقطار النائية ، واعجب المسلمين ان سمعوا ان علة الهزائم التي تعاقبت عليهم انما هي في ترك الدين لا في الدين نفسه . وانهم خلقاء ان يستجدوا ما فاتهم من القوة والمنعة باجتناب البدع ، والعودة إلى دين السلف الصالح في جوهره ولبابه » .

ويقول العقاد [1] :

« سرعان ما ظهرت دعوة ابن عبد الوهاب بجزيرة العرب حتى تردد صداها في البنغال سنة ١٨٠٤ واتبعتها طائفة الفرائضية بنصوصها الحرفية ، فاعتبرت الهند دار حرب إلى ان تدين بحكم الشريعة ، ثم تردد صدى الدعوة الوهابية بعد ذلك بزعامة السيد أحمد الباريلي في البنجاب ، وأوجب على أتباعه حمل السلاح لمحاربة السيخيين ، وتقدمهم في القتال حتى قتل سنة ١٨٨١ [2] .

ونهض من بعده تلميذه كرامة علي فاتصل بطريقة الفرائضية ، وأفتى بأن البلاد الاسلامية تجب فيها صلاة الجمعة ، ولا تحسب من ديار الحرب وان كان الحكم فيها لغير المسلمين » .

والسيد أحمد الباريلي من أعظم المسلمين في الهند ، وقد ولد في قرية « راي باريلي » من قرى لكنو في أول يوم من المحرم سنة ١٢٠١ هـ . (١٧٨٦ م) وقاد حركة الجهاد ضد السيخ والانجليز ، وكان السيخ مع الانجليز المستعمرين الغاصبين .

وقاوم الانجليز حركة الاصلاح التي نهض بها السيد أحمد ، ولم يجدوا سبباً في إثارة العامة وبعض علماء السوء إلا ان السيد أحمد وهابي ، فحدثت الفرقة بين

---

(١) الاسلام في القرن العشرين ، صفحة ٦٩ .

(٢) استشهد السيد احمد في سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣١ م) وليست سنة ١٨٨١ كما جاء في كتاب الاستاذ العقاد ، وحج السيد احمد سنة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٢ م) .

صفوف المسلمين ، وأفاد اعداؤهم الانجليز والسيخ ، وقضوا على السيد أحمد وحركته الشابة الفتية ، مما ثبت أقدام الانجليز ، ومكن لقادتهم وجنودهم أن يقتلوا شعب الامارة الهندية تقتيلا ، لا فرق بين مسلم وهندوكي ، وان كانت النقمة والحقد أشد على المسلمين .

ولولا مقاومة الانجليز والسيخ للحركة الوهابية لنالت الهند خيراً كثيراً .

وفي البنغال نشطت الدعوة الوهابية في القرن التاسع عشر وبسببها دخل في الاسلام كثير من الناس في البنغال التي انتشر فيها دعاة الوهابية ، وقادوا حركة الاصلاح التي أسعدت الناس بالعدالة والصدق والأخوة الاسلامية .

ويقول السير ت . و . ارنولد في كتابه « الدعوة إلى الاسلام » صفحة ٢٣٩ من الطبعة العربية :

« وفي القرن التاسع عشر نشطت حركة الدعوة إلى الاسلام في البنغال نشاطاً ملحوظاً ، وأرسلت طوائف كثيرة ينتمي أصلها إلى تأثير الحركة الوهابية الاصلاحية ، دعاتهم يتنقلون في هذه المقاطعة ، يطهرون البلاد من بقايا العقائد الهندوكية القديمة ، ويوقظون الحماسة الدينية ، وينشرون العقيدة الاسلامية بين الكفار » .

وما تزال للحركة الوهابية في البنغال دعاة يفتقرون إلى المال ، ومع فقرهم فإنهم نشطون في الدعوة ، وعندما كنت في باكستان الشرقية في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩ هـ . (اغسطس ١٩٦٩ م) لقيت بعضهم ، وذكروا أنهم تتلمذوا على علماء من البنغال تلقوا علوم الدين على يد العلامتين الكبيرين الشيخ عبدالله والشيخ عمر ابني حسن ، حفيدي شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب .

والشيخ عبدالله بن حسن كان رئيس القضاة في الحجاز وتوفي سنة ١٣٧٨ هـ . (١٩٥٨ م) وهو من العلماء الصالحين الكرام ، وتلامذته من أبناء الأقطار

الاسلامية كثير ، وكان باراً بهم ، كثير العطف عليهم ، واولاده كرام صالحـون تولى اثنان منهم وزارة المعارف السعودية ، هما : عبد العزيز وحسن ، والأخير ما يزال وزيراً للمعارف حتى الآن .

واما الشيخ عمر بن حسن فهو الرئيس العام لهيئات الأمر بالمعروف في نجد والمنطقة الشرقية وخط التابلاين ، وله تلامذة كثيرون من أبناء الأقطار الاسلامية ، ورأيت بعضهم في الصين وباكستان ، وهو — مثل أخيه الكبير — كريم جواد بار بأولئك الطلاب ، وبيته وصدره مفتوحان ، وهو علامة مجاهد شديد الغيرة على الدين ، وأولاده أعوانه .

واذا كانت الحركة الوهابية في القرن التاسع عشر من اعظم اسباب انتشـار الاسلام في البنغال ورسوخه في اراضيها الشاسعة فان الحركة الوهابية الحاضرة نشطة في تبصير المسلمين بحقيقة الاسلام ، ولكن اصحابها فقراء ، ولو وجدوا العون المالي لأدوا للاسلام خدمات جد عظيمة .

وذكر لي داعية بنغالي وهابي تخريجاً لطيفاً لكلمة الوهابية ، فهو يقول : حقيقة ان الوهابية نسبة إلى ابن عبد الوهاب ، واذا كان الذين اتخذوها ارادوا النبز والتشويه ، الا ان الله جعلها حركة اسلامية مباركة ، وصارت اخيراً علماً على الوهابين انفسهم لله ولرسوله ، فالوهابية هم اتباع الامام محمد بن عبد الوهاب الذين وهبوا انفسهم للدعوة والجهاد .

ولم تقف آثار الدعوة الوهابية على القارة الهندية وحسب ، بل تجاوزتها إلى جاوا واقصى الجزر الهندية الشرقية التي عرفت الآن باندونيسيا ، ولكنها حوربت من الاستعمار الهولندي ، ومع ذلك انتشر الاسلام انتشاراً عظيماً .

يقول السير ارنولد [١] :

---

(١) في كتابه « الدعوة الى الاسلام » .

« في سنة ١٨٠٣ م رجع ثلاثة من جماعة الحاجي من مكة إلى وطنهم سومطرة ، وكانوا أثناء وجودهم في المدينة المقدسة قد تأثروا تأثراً عميقاً بالحركة الوهابية التي قامت لاصلاح الاسلام ، فأصبحوا الآن يتوقون الى أن يدخلوا مبادىء هذا الاصلاح بين مواطنيهم ، والى أن يبثوا فيهم حركة دينية أكثر صفاء وأشد غيرة .

« ومن ثم أخذوا في الدعوة إلى التشدد في التوحيد الذي تقول به الطائفةالوهابية ، وحرموا التوسل إلى الأولياء ، وشرب الخمر ، والميسر ، وسائر الأعمال التي تتعارض مع القرآن ، وجعلوا عدداً من بين اخوانهم في الدين والأهالي الوثنيين على سواء يدخل في مذهبهم .

« وأخيراً أعلنوا الجهاد على البتك ، ولكن الحركة فقدت صبغتها الأصلية وانحطت فأصبحت حرباً وحشية دامية ترمي الى الغزو ، وذلك بوقوع هذه الحركة في أيدي قوم لا وازع لهم يطمحون إلى الشهرة .

وفي سنة ١٨٢١ وقع هؤلاء الذين يطلق عليهم جماعة البدري في نزاع مع الحكومة الهولندية ، ولم تأت سنة ١٨٣٨ حتى سقط آخر معاقلهم وكسرت شوكتهم » .

ويقول قبل ذلك :

« ولم تجد الجهود النشيطة التي بذلتها اسرة بدري Padris المتعصبة لفرض الاسلام على البتك بحد السيف ، فخربوا بلادهم ، وقتلوا كثيراً منهم ، ولكن هذه الوسائل العنيفة لم تجذب أحداً إلى الاسلام ، على انه — عندما أخمدت الحكومة الهولندية حركة البدري وضمت إلى أملاكها الجزء الجنوبي من بلاد البتك — أخذ الاسلام ينتشر بالوسائل السلمية » .

وقد تولت الدعوة الوهابية ايقاظ همم المسلمين وعقولهم ، ودفعت إلى محاربة

البدع والخرافات في أسلوب بعيد عن العنف .

وعندما تولى الملك عبد العزيز حكم الحجاز سنة ١٣٤٢ هـ. بدأ آلاف من طلاب العلم من سومطرة وجاوا وجزر الهند الشرقية التي رزحت تحت الاستعمار الهولندي يفدون إلى مكة والمدينة حرسهما الله، ووجدوا من الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ حفيد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب المساعدة في تيسير الاقامة لهم حتى يتلقوا العلم في المسجد الحرام والمسجد النبوي وفي مدارس مكة والمدينة، ورحل بعضهم إلى الرياض — وان كان عددهم قليلاً — ووجدوا من الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ كل تكريم وحفاوة وعون جميل .

وعاد آلاف من هؤلاء وهم يحملون الدعوة الوهابية إلى بلادهم ، فجددوا نشاطها في تلك الجزر ، وأبعدوا عن الاسلام ما كان قد ألصق به من الخرافات والأساطير والبدع والوثنيات .

ولم يكن طلب العلم مقصوراً على الاندونيسيين وحدهم ، فقد وفد إلى مكة والمدينة آلاف من أبناء القارة الهندية وعشرات من الصين ومئات من مهاجري تركستان ومن كثير من البلدان يتلقون العلم في الحرمين الشريفين وفي الرياض من أحفاد الامام .

وفي افريقيا كان للدعوة الوهابية أثر بليغ ، ففي أواخر القرن الثامن عشر نشطت الدعوة الوهابية التي نهض بها افريقيون ، ونشروها في بعض بلدان القارة ، ودخل في الاسلام عدد كبير من أهل افريقيا .

وكان في افريقيا قبل الدعوة الوهابية مسلمون ، ولكنهم كانوا أقرب إلى النوم منهم إلى اليقظة ، فلما جاءتهم دعوة ابن عبد الوهاب بلغت الحماسة للدعوة إلى الاسلام ذروتها ، وقويت العزائم والهمم ونشطت الدعوة ، ودوّت الحركة دوياً شديداً ، حتى اذا كان القرن الثامن عشر مشرفاً على النهاية ظهر من قبائل

«الفلبي» داعية اسلامي كبير ، ومجاهد عظيم ، ومصلح مجدد ، هو الحاج الشيخ عثمان دنفديو .

وهذا المصلح العظيم جاء الى السودان ، ثم غادرها الى مكة المكرمة حاجاً ، وتشبع بالدعوة الوهابية التي أعجبته ، وزاد تعلقه بها انه رآها دعوة الى الاسلام الحق كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وعاد الشيخ عثمان إلى وطنه وشعبه ، ودعا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وحارب البدع والخرافات ، وأيقظ العقلية ، ونشر الاسلام على أوسع نطاق .

يقول السير ارنولد في كتابه « الدعوة إلى الاسلام » :

« وحول نهاية القرن الثامن عشر ظهر من بين الجماعة الفلبي رجل معروف يدعى الشيخ عثمان دنفديو ، عرف بأنه مصلح ديني وداع محارب ، وقد ذهب من السودان إلى مكة لاداء فريضة الحج ، فعاد من هناك مليئاً بالحماسة والغيرة من أجل الاصلاح والدعوة للاسلام ، وتأثر بمبادىء الوهابيين الذين كانت قوتهم آخذة في النماء في الوقت الذي زار فيه مكة ، وأنكر الصلاة على روح الميت ، وتعظيم من مات من الأولياء ، واستنكر المبالغة في تمجيد محمد نفسه ، وهاجم في نفس الوقت رذيلتين كانتا منتشرتين في السودان هما شرب الخمر وفساد الاخلاق .

« وحتى ذلك الوقت كانت جماعة الفلبي تتألف من عدة قبائل صغيرة متناثرة تحيا حياة الرعوية ، وقد دانت هذه الجماعة بالاسلام في وقت مبكر ، وكانت لا تزال حتى ذلك الحين قانعة بتأليف مستعمرات من الرعاة والزراع في مختلف بقاع السودان .

« وان ما لدينا من أخبارهم في مستهل القرن الثامن عشر ليصورهم لنا في صورة مسالمين نشيطين في أعمالهم .

« ويتحدث عنهم أحد الذين زاروا موطنهم على نهر الجمبيا سنة ١٧٣١ فيقول :

« في كل دولة أو بلد على كل من جانبي النهر توجد جماعة ذات بشرة سمراء يدعون الفولز – أي الفلبي – وهم يشبهون العرب ، ومعظمهم يتكلمون العربية ، لأنهم يتعلمونها في مدارسهم ، ولأن القرآن هو شريعتهم مكتوب بهذه اللغة ، وإلمامهم على وجه العموم أكثر بالعربية من إلمام أهل أوروبا باللاتينية ، اذ أن معظمهم يتكلمها مع أن لهم لغة غير مهذبة تسمى فولي ، ويعيشون قبائل أو عشائر ، ويبنون لأنفسهم مدناً ، ولا يخضعون لأي ملك من الملوك ، مع أنهم يعيشون في أراضي هؤلاء الملوك ، وذلك لأنهم كانوا إذا أسيء اليهم في قوم هم يعيشون بين ظهرانيهم هدموا مدنهم ، وارتحلوا الى قوم آخرين .

« ولهم رؤساء من أنفسهم يحكمونهم حكماً معتدلاً الى حد أن كل عمل تقوم به الحكومة يبدو وكأنه عمل الشعب أكثر من أن يكون عمل فرد من الأفراد .

« وهذا النوع من الحكومات يدار في سهولة ويسر ، لأن الأهالي أصحاب طبيعة هادئة ، ولأنهم تعلموا جيداً ما هو عدل وما هو حق ، حتى ان من يقترف الشر منهم يكون موضعاً لكره الجميع .

« وهذه الجماعة على جانب كبير من النشاط والاقتصاد ، يزرعون من القمح والقطن أكثر مما يفي بحاجتهم ، ويبيعونه بسعر معتدل ، ويشتهرون بالكرم إلى حد ان مواطنيهم يعتبرون ان من نعم الله عليهم أن يكون بجانبهم بلد من بلاد فولي .

« وفوق هذا أكسبهم سلوكهم حداً من الشهرة يجعل من العار أن يعاملهم أحد معاملة غير كريمة ، ومع أن إنسانيتهم تعم جميع الناس فشفقتهم بأبناء

جنسهم مضاعفة ، واذا علموا أن أي فرد من جماعتهم قد أُخِذ رقيقاً اتحد الفلبي جميعاً وحرروه .

« ولوفرة الغذاء عندهم لا يدعون أبداً واحداً منهم يقاسي الحاجة ، بل انهم يعولون المسن والأعمى والأعرج ، ويساوون بينهم وبين الآخرين ، وقلما يغضبون ، ولم أسمع مطلقاً واحداً منهم يسب الآخر ، ومع هذا فلم تكن وداعتهم صادرة عن حاجة الى الشجاعة ، إذ أنهم شجعان كأي شعب في أفريقيا .

« وهم مهرة جداً في استعمال أسلحتهم ، وكانوا يستخدمون أسلحة تتكون من الزغايات واليطغانات القصيرة والقوس والنشاب ، بل يستخدمون البنادق في بعض الأحيان .

« وهم مسلمون متمسكون بدينهم ، ومن النادر أن يشرب أحدهم الخمر أو أي مشروب أقوى تأثيراً من الماء .

« وقد وحد دنفديو هذه الجماعات المنفصلة المتناثرة في شتى أقاليم الحوصة ، وجعل منهم جماعة قوية .

« وفي سنة ١٨٠٢ حدثت أول ثورة في مملكة جوبر التي لا تزال على الوثنية والتي بسطت نفوذها على الشمال الأقصى من بلاد الحوصة ، وقد حاول ملك جوبر أن يعوق قوة الفلبي المتزايدة في بلاده فأدى ذلك الى أن رفع دنفديو علم الثورة ، وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوي لم يتعرض به للقبائل الوثنية وحدها ويفرض عليها عقيدة النبي ، بل تعرض أيضاً لولايات الحوصة الاسلامية ، فسقطت هـــذه الولايات واحدة بعد واحدة ، وأصبحت كل أراضي الحوصة تحت حكم دنفديو قبل وفاته سنة ١٨١٦ م ولا يزال قبره في سوكوتو Skoto مثابة تعظيم جموع كثيرة من زواره .

« وقد قسم دنفديو مملكته بين ولديه اللذين زادا في توسيع حدود بلاد الفلبي ،

وتعين مدينة « أدماوا » التي أسست سنة ١٨٣٧ على أنقاض عدة ممالك وثنية حدود فتوحاتهم تجاه الشرق .

« وكانت مدينة ألورن Alorin في بلاد يوروبا Yoruba التي تأسست في عهد دنفديو هي الحد الجنوبي الغربي لامبراطورية بول Pul وقد ظلت السيطرة على هذه البلاد طوال القرن التاسع عشر في أيدي الفلبي على تفاوت في التوفيق والنجاح في الحكم ، وظهروا بمظهر القسوة والتعصب في الدعوة الى الاسلام حتى قامت الادارة البريطانية في نيجيريا سنة ١٩٠٠ .

« وكان دخول القانون والنظام في نيجيريا في مصلحة الدعوة الى الاسلام ، كما كان الحال في جهات افريقية الأخرى التي أصبحت تحت الحكم الأوروبي ، فاستطاع مسلمو الحوصة الذين ينتسب بعضهم الى الطائفة التيجانية أن يتنقلوا في البلاد بحرية ، وأن ينفذوا الى القبائل الوثنية التي كانت حتى في ذلك الحين تمنع في تعصب وصلابة تطرق كل المؤثرات الاسلامية اليها ».

وأطلنا في نقل هذا الشاهد ليعلم القارىء أن الدعوة الوهابية التي بشر بها الشيخ عثمان دنفديو في افريقيا غيرت الحياة كلها لشعبه ولمن دخلوا في الاسلام من الوثنيين ، فكانوا مثلاً رائعاً في حسن الخلق والمعاملة الطيبة ، وأصبحوا انسانيين ، لأن الاسلام يجعل معتنقه انسانياً في شعوره نحو الانسانية .

وتوارث خلف الشيخ عثمان دنفديو الدعوة الاسلامية حتى انتهى الأمر الى الرئيس المجاهد العظيم العلامة أحمد بلو رئيس وزراء نيجيريا الشمالية الذي كان أحد حصون الاسلام وقلاعه ومناراته في افريقيا والعالم ، واغتاله أعداء الله يوم السبت ٢٤ رمضان المبارك ١٣٨٥ (١٥ يناير ١٩٦٦ م) بعد عودته الى بلاده من مكة المكرمة حرسها الله بأيام ، حيث كان قد قدم اليها لأداء نسك العمرة مع زوجه المسلمة المؤمنة التي كانت من أكبر دعاة الاسلام في نيجيريا وسائر افريقية .

وكان آل عثمان دنفديو نماذج اسلامية رائعة ، ومُثلاً انسانية عالية ، والاسلام يجعل من يعتنقه بايمان حق نموذجاً انسانياً عالياً .

والواقع أن دين الاسلام يقوِّم الضمير وجوارح الانسان كلها ، ويجعل اتباعه مثاليين في أخلاقهم .

وهؤلاء الوهابيون الافريقيون كانوا مثلاً رفيعاً للانسان الفاضل ، فهم شيدوا مجتمعاً فاضلاً ، ودفعهم دينهم الحق الى أن يعمروا الأرض ، ويهذبوا الخلق ، وينموا التجارة والاقتصاد ، ولم تصرفهم الدعوة والجهاد عن بناء المجتمع وتجارته واقتصاده على أسس قويمة ، وأن ينشئوا المدارس والمساجد ، ويكفلوا العجزة كفالة حسنة .

ويعيش هؤلاء العجزة في مستوى عيش القادرين الموسرين .

وهذا الأثر المحمود الذي أثرته الدعوة الوهابية يبرهن على أنها دعوة انسانية تقوم على الخير ، سواء أكانت في موطنها أم تغربت عنه .

ولو أن دولة اسلامية أيدت هذه الحركات الاسلامية التي أوجدتها الدعوة الوهابية ، وساعدتها بالمال وبالعلماء والمرشدين والفقهاء لغيرت حياة المسلمين في كل مكان .

وفي عصرنا الحديث اتسعت الدعوة الوهابية في الأقطار الاسلامية ولكن آثارها محدودة وضئيلة ، لأنها تقوم على جهود أفراد لا يملكون مالاً .

ورأيت في البلدان الاسلامية التي زرتها ، ورأيت أفراداً كثيرين من أبناء البلدان التي لم أزرها ، وأفراداً في البلدان الاوروبية من أتباع ابن عبد الوهاب ، يدعون بدعوته ، ولكنهم في حاجة الى المال ، مما جعل دعوتهم قليلة الاثمار .

وموجز القول : ان حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب اثرت في البلدان الاسلامية في آسيا وافريقيا تأثيراً حسناً ، وأيقظت العقلية العربية والاسلامية ، وحركت في شعوب الاسلام الأسباب والدوافع للعمل الجاد ، وأبانت حقيقة الاسلام كما أنزله الله على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم ، وطبقته بقدر ما وسعه الجهد ، واتسعت له القدرة ، وما تزال الحركة قائمة حتى اليوم ، ولكنهـــا بطيئة .

ولو تيسرت للحركة القوة والنشاط لآتت أكلها في جميع أقطار الاسلام .

آل سعود

آل مانع المريدي العنزي

في بلاد العرب أسر اشتهرت بخصائص ومزايا جعلتها بارزة ، وكانت لها بمثابة «العلامة الفارقة» التي تميز كل أسرة عن غيرها ، وأهلتها تلك المزايا لأن تكون لها السيادة والتبريز .

ولم تكن هذه المزايا طيبة وحميدة في عمومها ، وكذلك لم تكن سيئة ، بل جمعت بين الرديء والحسن من الصفات ، وإن كانت طبيعة البداوة والجهل بالدين جعلا أكثر تلك المزايا مائلة الى الهدم والتخريب .

وآل سعود من هذه الأسر التي بدأ ذكرها في القرن التاسع الهجري ، ولكنها لم تكن معروفة حينذاك بهذا الاسم ، ولم تكن معروفة قبله الا بأسماء أفراد كانوا شيوخاً بارزين في وسطهم الضيق المحدود .

وعندما عرفت هذه الأسرة بآل سعود بدأ نجمها في السطوع ، واستطاعت في بعض فترات التاريخ التي تقع بين القرن الثاني عشر الى أوائل القرن الرابع عشر

الهجري أن تكون من أبرز الأسر في جزيرة العرب ، ثم صارت أشهر أسرة على الاطلاق في عهد الملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية ثم عهد ابنه الملك فيصل .

وزاد من شهرتها دخول الحرمين الشريفين والحجاز في حكم الملك عبد العزيز ، وصار اسمه أبرز اسم عربي .

واذا كان آل سعود في ماضيهم من أشهر الاسر في نجد فان شهرتهم تجاوزت حدود نجد الى الجزيرة كلها ، ثم أصبح اسمهم مشهورا في العالم العربي والاسلامي ، حتى إذا ولي الملك عبد العزيز ثم ابنه الملك فيصل الحكم صار آل سعود أشهر أسرة عربية على الاطلاق في هذا العصر .

والفضل في هذه الشهرة للملك عبد العزيز وأولاده ، وهم خير آل سعود في الخلائق والصفات ، فعبد العزيز كان أعظم آل سعود ثم أعظم العرب طرا ، وورث أبناؤه صفاته فكانوا مثله في البروز والشهرة وبخاصة الملك فيصل — ملك العربية السعودية الحالي — الذي يرجح على كل أفراد الأسرة في جميع الخلائق الكريمة ، بل نستطيع أن نقول في ثقة : إن الملك فيصلاً أعظم عربي ومسلم في هذا العصر .

ولآل سعود سمات بارزة تميزهم عن الأسر العربية المشهورة ، ولا تخطئها فيهم في الماضي والحاضر ، وتلك السمات جعلتهم من أبرز الأسر الكريمة ومن أشهرها حتى انتهوا الى التفرد بالشهرة الواسعة .

والعلامة الفارقة للأسرة السعودية أن معدنها لا يصدأ ، بل يحتفظ بنفاسته في جميع الاحوال والظروف ، ولم تستطع القوى المعادية أن تذيب هذا المعدن الصلب ، في حين أن الأسر التي كانت أبرز منها وأقوى امحت وذهب ريحها وصدئت معادنها .

وفي بعض الفترات فقد البيت السعودي الحكم ، ولكن شرف الاسرة بقي حياً لم يزل بزوال الحكم ، لأن الشرف لم يكن مصدره الحكم والسلطان ، بل كان مصدره خصائص الأسرة وصفاتها التي اشتهرت بها .

وفي أيامنا اشتهر أفراد تسلطوا وحكموا ، ولكنهم كانوا مثل فقاعة الصابون ذات اللمعان الخاطف ، يصحب الفناء ميلادها ، وكذلك كانوا ، ثم أسدل النسيان عليهم ستاره ، حتى الاسماء امحت من ألسنة الناس ومن ذواكرهم .

أما آل سعود فقد احتفظوا بشخصيتهم وهم في أشد حالات التشرد والفقر ، تتقاذفهم الفلوات ، وفي الأسر والنفي ، وزال الآسرون وبقي آل سعود على مر الأيام أعلاماً بارزين .

وعلى مقربة من الذاكرة أسرة محمد علي في مصر ، وأسرة حميد الدين في اليمن ، وأسرة السنوسي في ليبيا والمهدي في السودان وغيرهم من الأسر لا نذكرهم الا ذكراتاريخيا ، وأما غير ذلك فلا ، فلقد نسيهم الناس وذابوا مع أنهم كانوا حكاما معروفين ذوي شهرة وبروز منذ سنوات .

وليس الأمر كذلك بالنسبة لآل سعود ، فالذاكرة لم تتخل عنهم قط وهم بعيدون عن الحكم ومشردون أو منفيون ، فقد كانت خصائصهم وصفاتهم تبرزهم ، فالامام عبد الرحمن — والد الملك عبد العزيز — فقد الحكم ، وصار مشردا تغلق في وجهه أبواب الاقطار فلا يجد إلا الصحراء، ومع هذا لم ينسه الناس، بل لم تنسه الحكومات الكبيرة الضخمة في عصره ، فقد اتصلت به الحكومة العثمانيةوفاوضته ، وهو لا حول ولا قوة ، بل لم يكن يجد نفقته الا بشق النفس .

وهذا برهان نفاسة معدن هذه الأسرة التي لم يفقدها شرفها وسمعتها فقدانُها الحكم ، ولم يخف ذكرها بعدُها عن السلطة .

ومنذ تأسيس إمارة آل سعود حتى اليوم وعزها باذخ مشهود في السلم والحرب ، والغنى والفقر ، وفي الحكم وفي غير الحكم .

وآل سعود من أشهر الأسر في الجزيرة العربية في الكرم والشجاعة والنبل ، وقد حافظوا على خصائصهم وخلائقهم وشخصيتهم في جميع الظروف والاحوال ، وبالرغم من استشراء الاحداث والكوارث فإنهم احتفظوا بمكانتهم ، ولم تضعضع الأهوال من قيمتهم المعنوية .

واذا رأينا في بعض فترات التاريخ فتورا وضعفا فليس مبعثهما فتور النفس وضعفها ، وانما هو أقرب الى أن يكون استجماما واستعدادا للوثوب والكفاح والعمل لاسترداد الحق المسلوب .

وإذا فقدت الأسرة السعودية الحكم في بعض الأحيان بسبب من الأسباب كقلة الأنصار أو فقدانهم أو لقوة الخصم فان تاريخ الاسرة يثبت أنها لم تفقد قط أصالتها وخصائصها .

وتنسب هذه الأسرة الى عميدها سعود حاكم الدرعية التي أسسها أسلافه في منتصف القرن التاسع الهجري ، وهم من بني بكر بن وائل من أشرف قبائل ربيعة ابن نزار بن معد بن عدنان .

وسعود — هذا — ابن محمد بن مقرن بن مرخان بن ابراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع المُرَيْدي الذي يتحدر منه آل سعود بجميع فروعهم ، وهم من قبيلة عنزة المعروفة .

وكان مانع من بلد «الدروع» قرب مدينة القطيف ، وبينه وبين ابن درع رئيس حَجْر اليمامة [1] والجِزعة صلات ود مصدرها ما بينهما من رحم ، وكانا

(١) في هذا المكان قامت مدينة «الرياض» عاصمة المملكة العربية السعودية واتسعت اتساعاً عظيماً حتى شملت قرى كثيرة .

من أبناء العمومة ، وكان ابن درع موسرا يملك أرضا شاسعة ، ومزارع وضياعا ، وكان يود أن يكون قريبه وصديقه مانع بجواره ، فاستقدمه ، فجاء إليه بأولاده وكل أفراد أسرته بعد أن باع كل ممتلكاته بالاحساء ، فاستقبله وأكرمه وأنزله من نفسه وبلده خير منزل ، وأقطعه من أراضيه الطيبة قطعتين عرفت احداهما بالمُلَيْبد والأخرى بغُصَيْبَة اللتين عرفتا فيما بعد بالدرعية .

وطاب لمانع المقام ، وكان ذا زكانة وهمة ، فاتجه الى الأرض الواسعة الموهوبة له فأحياها وحولها الى جنان خضر ومزارع وحقول ، وأخذت مساحتها تتسع وتحيا ، وأغرى مانع ذوي قرباه وعشيرته أن يشاركوه ما أكرمه الله به من النعيم ، فانتقلوا اليه وأشركهم في أراضيه ، وصارت قرية كبيرة أخذت على مر الأيام تتسع وتزدحم بالسكان .

ودانت الأرض وسكانها لمانع ، وصار شيخهم ، لأنه صاحب الفضل في تشييد هذه القرية التي سماها «الدرعية» احياء لاسم بلده الذي تركه بالأحساء .

ويمكن أن نستدل من عمل مانع على بعض خلائقه ، فهو قد كان انساناً لطيف المعشر كريما محبوبا ، وهذا ما دعا ابن درع الى استقدامه واقطاعه قطعتين كبيرتين من أرضه الواسعة ، ولم يكن مانع كزا ، فقد استقدم هو نفسه ذوي قرباه وأبناء عشيرته ، ووهب لهم ما هم في حاجة إليه من الأرض التي أحياها بجهده وماله .

ولا شك في أن مانعا كان ذا عقل راجح ، فقد أحيا الأرض إيما إحياء ، وعمرها بالمساكن التي بناها ، وعامل من استقدمهم أكرم معاملة جعلتهم يدينون له بالسمع والطاعة .

وكان قدوم مانع الى وطنه الجديد سنة ٨٥٠ هـ (١٤٤٦م) وتوفي سنة ٨٥٨هـ

(١٤٥٤م) وهذا يدل على همته العالية ، اذ استطاع خلال ثماني سنوات أن يشيد قرية كبيرة تزدحم بالسكان .

وبعد وفاة مانع آل الأمر الى ابنه ربيعة ، ولم يكن مثل أبيه مسالما ، بل كان على نقيض والده ، فكان مغواراً طامعاً في السيادة والسلطة وفيما تحت يد غيره ، فوسع أملاك أبيه بما انتزع من أملاك الآخرين ، فقد انتزع القرى المجاورة من أيدي رؤسائها وأهلها وضمها الى أملاكه ، وحارب آل يزيد جيرانه حربا لا رحمة فيها ، واستولى على ديارهم بعد حربهم وقتل من قتل منهم واجلاء الأحياء منهم .

وعلى يد ربيعة اتسعت الدرعية وصارت ذات نفوذ وقوة ، كما صارت امارة يُخشى بأسها ويذاد عن حماها ، وصار لها جيش قوي مرهوب السطوة .

وكان لربيعة ابن يسمى موسى ، كان أشد من أبيه أيْدا وطمعا وجرأة ، وكان مغامرا لا يهاب ، قليل الورع كثير الجرأة ، وخافه الرؤساء والناس ، وامتد صوته وعظمت شهرته حتى غطت شهرة أبيه الذي لم يعد يذكر بجانب أعماله وسيرته وبطولته .

ولم يرق لموسى أن تكون الامارة لأبيه فانتزعها منه ، وصار الحاكم بأمره وأبوه لا يملك من الأمر شيئاً ، بل انتزع منه كل شيء ، ولم يكفه ذلك ، بل أراد التخلص منه بقتله ، ولكنه لم يتمكن الا من جرحه جراحا بليغة كانت السبب في هربه الى أمير العُيَيْنَة حسن بن أحمد بن حسن بن طوق جد آل معمر الذي استقبله بترحاب وأكرم مثواه .

وبفرار ربيعة صفا الجو كل الصفاء لابنه موسى ، واشتدت مطامعه ، وهدد جيرانه ، وشدد النكير على آل يزيد ، وجمع لهم من قبيلته «المرُدْة» وأهل «الملقى» جمعا كبيرا توجه بهم الى آل يزيد في ديارهم في النعمية والوصيل ، وباغتهم

بهجوم عنيف قتل منهم ثمانين رجلا في ساعة المعركة الأولى التي كانت في الصباح .

ولم يستطع آل يزيد الثبات أمام هجمات موسى وقواته ، فتركوا قريتيهم الكبيرتين ومساكنهم وأموالهم ، وهربوا بعد أن تركوا في الميدان ثمانين قتيلا ، ومنذ ذلك اليوم امحى ذكرهم ولم تقم لهم قائمة حتى اليوم ، لأن ضربة موسى إياهم أفقدتهم كل شيء .

وفي عهد موسى صار لآل مانع ذكر مرفوع ، وحكم قوي مرهوب ، وصار موسى في عداد الأمراء الكبار الأقوياء ، واتسعت رقعة بلاده ، ولم تعد مقصورة على الدرعية وقرية النعمية والوصيل ، بل شملت الأراضي الواسعة التي كانت لآل يزيد حتى الجبيلة .

ثم توفي موسى بعد عمر قضاه في الحرب والكفاح والتأسيس تاركاً امارته الكبيرة لابنه ابراهيم الذي لم تطل أيامه وان كانت أيام استقرار بالنسبة لعهد أبيه المغامر الجريء ، ولم يقم ابراهيم بأي عدوان ، بل اشتغل بتعمير بلاده لأنه كان آمنا على بلاده من أي تهديد خارجي .

وتوفي ابراهيم ، وولي الحكم بعده ابنه مرخان ، ولم يكن أكبر اخوته ، إذ كان أخوه عبد الرحمن أكبر منه ، ثم سيف ، ثم عبدالله ، وكان مرخان أصغر هؤلاء ، ولا نعلم سبب اختياره دون إخوته الثلاثة الذين يكبرونه ، وإن كان التاريخ يذكر ان عبد الرحمن غادر الدرعية إلى ضرمة واستوطنها ، كما رحل سيف إلى « أبي الكباش » وأما عبدالله فذكره خافت .

ويجوز أن عبد الرحمن الابن الأكبر لابراهيم نزل عن حقه حين اتجه الى ضرمة ، ويجوز أن مرخان الابن الاصغر كان أثيرا لدى أبيه فآثره بوراثة الحكم بعده ، ومرخان هو جد آل سعود ، ومنه توارثوا الحكم ، أما إخوته فقد ذهب أحدهم وهو

عبدالله الى النسيان فلا يعرف عن سلالته الا اليسير ، وأما الفرعان الآخران فقد قتل بعضهما بعضاً ونزح الأحياء من الفرعين ولم يعد لمن بقي منهم أي ذكر ذي خطر .

وحافظ مرخان على ما ورث ، ولم يضف إليه جديدا حتى توفي تاركا الحكم لابنيه : ربيعة ومقرن ، وأداراه في حكمة ، وكانا على وفاق ، وإن كان ربيعة هو الحاكم الفعلي لأنه أكبر من مقرن ، وكان هو المعروف بأمير الدرعية ، فعندما حج الاخوان معا سنة ١٠٣٩ هـ (١٦٣٠م) كان ربيعة يشار اليه ويوصف بأنه أمير الدرعية ، فقد جاء في ابن بشر : « وفي سنة تسع وثلاثين والف حج مقرن وربيعة أمير الدرعية » .

وبعد حج الاخوين لا نعرف من تاريخ الدرعية والحكم فيها شيئاً ذا بال خلال خمس وعشرين سنة حيث يذكر التاريخ أن وطبان بن ربيعة قتل ابن عمه مرخان ابن مقرن سنة ١٠٦٥ هـ (١٦٥٥ م) ثم فر وطبان الى بلدة الزبير بالعراق .

ومن المحتمل أن يكون مرخان استولى على الحكم بطريقة من الطرق ، ويجوز أن ربيعه‌توفي فخلفه أخوه مقرن ، وبعد وفاة مقرن تولى ابنه مرخان ، ومكث في الحكم مدة فوثب عليه وطبان بن ربيعة وقتله سنة ١٠٦٥ .

وتولى ناصر بن محمد بن وطبان بن ربيعة بن مرخان حكم الدرعية ، ولا نعرف تاريخ توليه ، أكان بعد مقتل مرخان وفرار وطبان مباشرة أم بعد مدة ؟ ولكن المعلوم أنه قتل سنة ١٠٨٤ (١٦٧٣م) ويقال : إن لمحمد بن مقرن إصبعا في قتله ، لأنه تولى الحكم بعده وبقي فيه إلى أن توفي سنة ١١٠٦ (١٩٦٤) .

وولي الأمر ابراهيم بن وطبان ، ولم يدم له ، فقد قتل في السنة التي تولى فيها وهي سنة ١١٠٦ هـ على يد أخيه إدريس بن وطبان الذي قتل سنة ١١٠٧ هـ (١٩٦٥م) على يد سلطان بن حمد القبس .

ويظهر أن هذه الأحداث الخطيرة أدت الى ضعف البيت الحاكم فانتزع السلطة من هو غريب عنه .

ولا يعرف تاريخ توليه ، أجاء بعد مقتل ناصر مباشرة أم بفترة ؟ ولكن عدم الاشارة الى من خلف القتيل يدل على أن محمد بن مقرن ولي الحكم .

واشترك في بعض الوقائع ، ولكنه لم يكن صاحب الأمر والنهي ، بل كان أشبه بالتابع ، فقد بعث ابنه سعودا للقتال في صف ابن معمر .

يقول ابن بشر في سوابقه في حوادث سنة ١٠٩٦ :

« وفي سنة ست وتسعين وألف تولى عبدالله بن محمد بن حمد بن عبدالله بن حمد بن محمد بن حسن بن طوق بن معمر في بلد العيينة ، وصار له فيها شهرة عظيمة . وكبرت العيينة في زمنه وترفرفت ، وكثر أهلها ، وزادت عمارتها ، وحج أبوه محمد بن حمد هذه السنة ، وهذه السنة هي سنة المحيرس على أهل بلد حريملاء، وذلك أن عبدالله بن معمر المذكور سار إليها وسار معه سعود بن محمد صاحب الدرعية ، وجعل لهم كمينا ، فلما التقوا خرج عليهم الكمين ، فانهزم أهل حريملاء ، فقتل منهم عند الباب قريبا من ثلاثين رجلا ».

ولكن محمد بن مقرن اشترك هو نفسه في واقعة أخرى حدثت سنة ١٠٩٨ (١٦٨٦م) مع أهل حريملاء ، إذ اتفق معهم في التوجه إلى بلدة سدوس حيث قاموا بتخريب قصره وهدمه .

ومع أنه مكث في الحكم حوالي اثنتين وعشرين سنة فان تاريخه مجهول الا من هذين الحادثين الصغيرين .

وبعد وفاته سنة ١١٠٦ (١٦٩٤م) تولى الحكم ابراهيم بن وطبان ، ولكن ولايته كانت قصيرة ، فقد قُتِل في السنة التي تولى فيها ، وتذكر بعض المصادر

أن الذي قتله أخوه ادريس ، وفي ابن بشر أن قاتله يحيى بن سلامة أبا زرعة من آل زرعة من بني حنيفة .

ونحن نرجح أن القاتل أخوه إدريس ، لأن ابراهيم هذا قتل شقيقه مرخان غدرا في سنة ١١٠٦ هـ ، فانتقم منه إدريس ، وجلس على كرسي إمارة الدرعية ، ولكن ادريس قتل في سنة ١١٠٧ (١٦٩٥) على يد من يسمى سلطان بن حمد القبس .

ويظهر لي أن هذه الاحداث الخطيرة التي حدثت في البيت الحاكم قد أدت الى ضعفه الى حد أن ينتزع السلطة غريب مجهول لايعرف له أصل ولا نسب ، ألا وهو سلطان بن حمد القبس .

ويذكر بعض المتأخرين المعاصرين أن سلطانا هذا من بني خالد من الاحساء ، وهم لا يؤكدون من ذلك بل يسوقون القول مساق التخمين غير المقبول .

وسواء أصح هذا أم لم يصح فالأمر سواء ، فسلطان ليس من البيت الحاكم ، ولبث في الحكم من سنة ١١٠٧ الى سنة ١١٢٠ هـ (١٧٠٨م) حيث قتل ، ولم تذكر المصادر قاتله ، واكتفت بذكر مقتله وانتقال الولاية إلى أخيه المسمى عبدالله بن حمد القبس الذي لم يلبث في الولاية إلا نحو سنة ثم قتل سنة ١١٢١ (١٧٠٩م) .

وغير معروف أصل هذين الحاكمين ، ولم تذكر مصادر نجد عنهما غير ما ذكرنا ، وهو جدٌّ مقتضب ، ولم يعرف كيف وصلا الى الحكم .

ولئن كانا مجهولين وغريبين على الحكم الذي انتهيا إليه فليس من المعقول عقلا أن يأتيا إلى إمارة الدرعية فجأة ، ويتوليا السلطة عنوة ، ولا يمكن تفسير سكوت آل البيت الحاكم وأهل الدرعية الا بأمرين ، إما أن يكون سلطان بن حمد

القبس صاحب قوة كبيرة استطاع بها أن يقتل ادريس وينتزع منه السلطة ، ويكره أهل الدرعية على قبوله حاكما .

وهذا لم يروه أحد ، ومن الجائز أن يكون ، ولكنه يرده أن سلطان القبس لا تاريخ له قبل الحكم .

وإما أن يكون أهل الدرعية وبعض البيت الحاكم راضين عنه فقبلوا حكمه ، ولعل هذا هو المعقول ، لأنه حكم حوالي ثلاث عشرة سنة .

والذي نراه أن سلطان بن حمد وأخاه عبدالله كانا على صلة وثيقة بابراهيم وادريس ابني وطبان وأهل الدرعية ، وكانت لهما مكانة ونفوذ ، ولعل صلتهما كانت بابراهيم ، ولهذا وثب سلطان على ادريس وقتله انتقاما منه لابراهيم .

ولم تشر المصادر إلى قاتل سلطان ثم قاتل أخيه عبدالله، وبقتلهما عاد الحكم إلى أهله حيث تولاه موسى بن ربيعة بن وطبان سنة ١١٢٢ التي قتل فيها عبدالله بن حمد القبس .

ولعل أهل الدرعية لم يرضوا عن موسى في آخر أيام حكمه الذي دام احدى عشرة سنة فخلعوه في سنة ١١٣٢ هـ(١٧٢٠م) فلجأ الى العيينة ناجياً بنفسه ، وأقام بها حوالي سبع سنوات ثم قتل سنة ١١٣٩ هـ (١٧٢٧م) .

وكان نفوذ آل معمر أعظم من نفوذ آل مانع ، وزاد من قوة آل معمر ضعف آل مانع وما حدث فيهم من القتل على أيديهم أنفسهم ، وكانت الدرعية نفسها تحت سيطرتهم ، وكان آل مانع في سنواتهم الأخيرة تابعين لآل معمر كما يدل سياق بعض الحوادث .

وكان آل معمر أخوال سعود بن محمد بن مقرن الذي لم يرض منهم التكبر ، فقد لمس منهم الازورار ، ثم شعر بأنهم يزدرونه ، ولم يطق الصبر فرد عليهم ،

فصرحوا له بما في أنفسهم ونافروه وفخروا عليه بمدينتهم «الدرعية» وافتخروا بأنها قوية وحصينة ، ولا يستطيع أن ينالها مغير ، أو يتطاول عليها قوي مقتحم ، فرد عليهم بأن الحصون لا ترد عدوا وتحمي من وراءها ما لم يكونوا ذوي بأس شديد وقـــــوة . .

وذكر سعود في رده على آل معمّر أن القائد ذا الرأي الرشيد والشجاعة يستطيع اقتحام الحصون ويقتل من يحتمي بها ، فسخروا منه .

ولم يستطع سعود الصبر على ما لحقه من اهانة أخواله فغادرهم ، وطفق يجمع الرجال ويتزود بالمال والسلاح استعدادا لليوم الذي يدخل فيه الى بلده بقوة السيف ، ويثبت لآل معمر أن الحصون لا تحميهم .

وجاء اليوم الموعود ، وكان يوم عيد الأضحى ، فرأى سعود أن يستغله ، فجهز رجاله ، ومشى بهم الى الدرعية المحصنة وكل من بها مشغول بالعيد ، وفاجأ الناس بالهجوم الخاطف ، واحتل الدرعية عنوة ، واسترّد الامارة بالرغم من أخواله الذين أخرجهم منها ، وأثبت لهم أن الحصون لا تحمي من يحتمون بها إذا لم يكونوا أبطالا أقوياء .

ومضى آل معمر الى مدينتهم الثانية «العيينة» وأما سعود فقد تفتق ذهنه عن اصلاحات جديدة أهمها التمهيد للأسرة السعودية أن تحكم من بعده .

ولم يكن لسعود سلطة مبسوطة على غير الدرعية التي خلصها من آل معمر واستقل بها ، وفخر سعود أن آل سعود ينتسبون إليه ، وحسبه هذا .

وقد مر بالقارىء أن سعودا هذا اشترك في عهد أبيه محمد بن مقرن في ضرب أهل حريملا عندما هاجمها عبدالله بن محمد آل معمر أمير العيينة سنة ١٠٩٦ ولم يكن سعود في هذه الواقعة الا تابعا لابن معمر .

وغير معروف تاريخ بدء ولايته ، وان كان معروفا أنه توفي ليلة عيد الفطر سنة ١١٣٧ (١٧٢٥م) .

ولم يتول الحكم ابنه محمد ولا أحد أشقائه ، بل تولاه أكبر من في الأسرة وهو زيد بن مرخان بن وطبان ، ولعل شيخوخته أثرت فيه فكان ضعيفا واهنا ، ولم يكن من ذوي الرأي مما أطمع فيه أحد أحفاد أخ له هو مقرن بن محمد بن مقرن ، فانتزع من زيد الامارة دون أن يجد من أحد مقاومة واعتراضا .

ولم يرض من زيد الاعتكاف في منزله والبعد عن الناس الا صلاة الجماعة التي كان يحرص على ادائها في المسجد ، وأراد التخلص منه ، فبعث اليه يستزيره رجاء أن يأنس ببعض آرائه .

وأدرك زيد أن في هذه الزيارة شرا ، ولم يغب عنه أن مقرناً يكيد له ، فبعث إليه يبدي له شكوكه ويشترط للزيارة ضمان محمد بن سعود ومقرن بن عبدالله بن مقرن فرضي ، ومضى زيد بصحبتهما ومعهم بعض رجالهم الى قصر الامارة حيث استقبلهم الأمير مقرن .

ورأى الزائرون الغدر المبيت لزيد ، وأبصروا حالة غير طبيعية فلم ينتظروا المفاجأة بل ابتدروا سيوفهم ، ووثب الضامنان على الداعي الذي أذهله وثوبهما عليه فألقى نفسه من فرجة فتتبعاه فاذا هو يسرع الى مكان صغير يريد أن يحتمي به ، فاذا هما يسرعان إليه ويقتلانه ، ويعيدان زيدا الى الحكم ، وكان مقتل مقرن وإعادة زيد في سنة ١١٣٩ (١٧٢٦م).

ويظهر أن الدرعية لم تكن حالتها المالية حسنة ، فطمع زيد ومن معه في أموال العيينة وقرروا نهبها ، فهي لا تستطيع أن تقف في وجههم بسبب الوباء الذي أفنى أكثر أهلها وفي طليعتهم أمير العيينة عبدالله بن محمد آل معمر ، ولم يكن خلفه محمد قويا .

وحشد زيد بن مرخان آل كثير ومن سبيع وغيرهم ، ومضوا الى العيينة حتى اذا كانوا بمكان يسمى «عقربا» على مقربة من العيينة بعث أميرها محمد المعروف بخرفاش إلى زيد يعلمه أنه لا ضرورة للقتال والسلب ، فما يريده من المال تحت أمره بدون قتال ، وكل ما يريده أن يقدم اليه مع من يشاء من رجاله للمفاوضة التي يؤمن بأنها منتهية الى ما يرضي ، وخير له أن يستأثر بما يرغب فيه وحده إذ لا ينفعه نهب رجال البادية العيينة .

ورضي زيد بعرض خرفاش، واختار أربعين رجلا فيهم محمد بن سعود، صحبوه الى خرفاش الذي استقبلهم أحسن استقبال ، حتى اذا أخذوا مجالسهم برز رجال خرفاش ببنادقهم وأطلقوا على زيد رصاصتين كان فيهما حتفه ، وفر محمد بن سعود ومن معه إلى غرفة بقصر إمارة العيينة وتحصنوا بها ، يقاومون من يقصدونهم بسوء ، ويدافعون عن أنفسهم حتى الموت .

ولكن «خرفاش» أمنهم ، فلم يثقوا به وبأمانه ، وقد اشترطوا عليه أن يصدر لهم الامان من عمته «الجوهرة بنت عبدالله بن معمر» فأعطتهم أمانها ، فخرجوا وعادوا إلى الدرعية وتولى محمد بن سعود حكمها .

وإذا كان البيت الذي عرف فيما بعد بالبيت السعودي نسبة إلى سعود الذي ولي حكم الدرعية الى سنة ١١٣٧ فان ولاية محمد بن سعود بداية العهد السعودي المشرق الذي خرج عن العزلة إلى محيط أوسع لتتحول الامارة الى ما يشبه الملك العادل ، ويستبدل بنظام الحكم القبلي الذي كان متبعا نظاما آخر جديدا كل الجدة في نجد وكثير من أقطار الجزيرة العربية .

إن عهد محمد بن سعود نقطة التحول الكبرى في قلب الجزيرة ثم في الجزيرة ، وبعده بدأ نجم آل سعود في السطوع ، ولم يخب قط حتى وهم خارج الحكم .

واذا كنا بدأنا تاريخ آل سعود بمن سبق أن ترجمنا لهم حياتهم وسيرهم فسبب

ذلك أنهم أسلاف آل سعود القريبون .

ويبدأ التاريخ السعودي بمحمد بن سعود الذي أخرجته الدعوة العظيمة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب من العزلة والضيق والقبلية الى عالم أوسع .

ولا شك أن الحكم السعودي تغير كل التغيير ، فلم يعد حكما قبليا ولا حكما قائما على السلطة وحسب ، بل اتجه اتجاها جديدا ، فقد صار دعوة إلى الحق والخير والانسانية ، وذلك بفضل الله ثم بفضل الامام المجدد العظيم محمد بن عبد الوهاب .

مُحَمَّدُ بْنُ سُعُود

١١٣٩ – ١١٧٩ هـ
١٧٢٦ – ١٧٦٥ م

إذا كان سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان رأس البيت السعودي وجد آل سعود نسبة اليه فان ابنه محمدا هو أول حاكم سعودي خرج بالحكم من نظامه القبلي الى حكم جديد كل الجدة بالنسبة لنجد ولغير نجد ، ففي عهده وبفضله بعد فضل الله ثم فضل شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب تحول الحكم القبلي إلى حكم اسلامي صحيح .

وبعد أن كان الحكم قائما على الرأي غير السديد ، وعلى الهوى والجهل والسيف والقوة الجائرة صار حكما أساسه الكتاب والسنة ، ولم يعد للهوى سلطان ، لأن الاسلام الحق قضى عليه ، وجعل الحاكم مقيدا بالقرآن فلا حكم إلا له ، لأن الحكم لله وحده ، والحاكم نفسه محكوم بما جاء عن الله سبحانه وتعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، فاذا تمسك بشرع الله فهو الامين عليه ، وإلا أقصي عن الحكم .

وكان محمد بن سعود – من بدأ به التغيير الذي أيقظ العقلية العربية ثم الاسلامية – رجلا نادرا بين آل سعود المعاصرين له ، فقد كان أكملهم خلقاً ، وأتمهم

مكارم ، وأعظمهم زكانة وفهما ووعيا ، وأبعدهم عن البغي والفساد والظلم ، وكان ذا خلائق انسانية فاضلة .

وكان إلى جانب زكانته وحسن أخلاقه وكثرة مزاياه الطيبة محبوبا من الناس ، فهو لا يعتدي على حقوقهم وكراماتهم وحرياتهم ، بل يحميها لهم ، ويعدل بينهم في الحكم ، وينصف المظلوم .

وكان استعداده الطبيعي الذي فطر عليه للخير يؤهله لما سيضطلع به من المهام الكبيرة التي تؤدي إلى اصلاح الراعي والرعية ، فهو في نفسه نظيف ، وكذلك في أخلاقه وأعماله وأقواله ، وشغل نفسه بالعلم ، وتزود منه خير الزاد حتى أصبح متفتح القلب والعقل ، وصار في عداد العلماء مما طوع له أن يحكم عن بصيرة ووعي وإدراك .

وإلى جانب هذه الخلائق الفاضلة والمزايا النادرة بالنسبة لحكام نجد كان سياسيا ، ولكنه لم يكن يفهم السياسة على أنها الكذب والختل والمراوغة ، بل كان يفهمها فهما اسلاميا ، فالسياسة صدق ومعروف واحسان .

ومن توفيق الله له أنه استعان في الحكم أناسا صالحين مثله ، فلم يضع أحدا في عمل يجد بين رعيته من هو خير منه ، ولم يؤثر عنه أنه تصرف تصرفا لا يليق بالمسلم الصالح ، أو استغل قوته للأذى ، لأنه كان يسير على نهج مستقيم من الدين ، مستضيئاً بهدي الكتاب والسنة .

وفي عهده قويت الإمارة واستقامت أمورها ، فلا وجود للهوى الذي كان يحكم الناس ، فقد قضى محمد بن سعود على الظلم كله ، فنعمت الرعية أو سكان الدرعية بعهد لا عهد لها به من قبل، وانبثق عن العدل والأمن الخيرُ والرخاء ، فنشطت التجارة ، وازدحمت الاسواق والمساجد وبيوت العلم ، ونفذ شرع الله الذي أدى الى حياة فاضلة كريمة اجتذبت غير أهل الدرعية إليها .

وقد ذاع عن محمد ونظام حكمه وعدله الحبر الطيب في نجد وما كان عليه من الأخلاق الكريمة والعطف على الناس ، والاحسان على ذوي الحاجات والعلماء فقصده الناس ، ووجدوا في امارة محمد بن سعود الأمن والحرية والعدل .

وكان ممن قصده الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي غادر العيينة في ظروف صعبة كانت أكبر منه ومن والي العيينة عثمان بن معمر ، ورأى أن الدرعية دار أمنه فقصدها رجاة أن يجد فيها ما يرجو من الأمن على نفسه وعلى الدعوة التي يقوم بها ، وما يرجو من النصر من الأمير السعودي الذي يستطيع أن يحمي الداعي والدعوة وينصره على أعداء التوحيد وأهل الشرك .

ولئن كان الشيخ الداعية آمنا من محمد بن سعود إلا أنه آثر الحكمة والتريث في الاتصال ، فلم يمض اليه ، ولم يعلن مجيئه اليه ، فنزل لدى تلميذه وصديقه عبدالله بن سويلم ، وبقي بداره مستخفياً لا يخرج للناس كما كان في العيينة ، وآثر أن يبقى في الخفاء لئلا يسبب لحاكم الدرعية ما سبب وجوده لحاكم العيينة من متاعب ومضارَّ فوق احتماله .

وكان خصوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الحكام والزعماء وشيوخ القبائل والبوادي من الكثرة والقوة ما لا قبل لمن يقصده بحمايته ، ولا قدرة له برد العدوان عنه ، وكان الشيخ يعلم ذلك حق العلم ، فآثر التريث والاختفاء حتى يجد الجو الآمن فيخرج للحاكم وللناس .

وكان ابن سويلم يشعر بشيء غير قليل من المخافة والحرج ، فهو لا يعلم موقف الحاكم السعودي من الدعوة والداعي ، وزاد من خوفه وحرجه أن تلامذة للشيخ بالدرعية كانوا يتتبعون أخباره ، فعلموا بمغادرته العيينة وتوجهه إلى بلدهم الدرعية ، وهداهم البحث عنه إلى منزل ابن سويلم حيث وجدوا به شيخهم فسلموا عليه ورحبوا به ، وأخذوا يترددون عليه كل يوم .

ولم يكن اختفاء الشيخ يرضي طلبته ، ولكنهم لم يجرءوا على اعلان أمــره فكتموه الا طالبا من طلبته رأى أن ينقل خبر شيخه الى بيت الحكم والامارة ، وكان على صلة بشقيق الحاكم المسمى «ثنيان» وأخبره بوجود الشيخ في الدرعية ، ولما أنس منه الرضا والراحة ذكر له أنه نزيل ابن سويلم X

وأثر الطالب في ثنيان الذي كان واقفاً على سيرة الشيخ ودعوته وما أثمرت من خير وأعقبت من ثورة الحكام البغاة الجاهلين ، ووعد بأن يكون له عونا في إكرام الوافد الجديد ما طمأن الطالب على مستقبل شيخه .

وانتهى الخبر إلى السيدة الجليلة « موضى بنت أبي وهطان » زوج حاكم الدرعية محمد بن سعود ، وهي امرأة لها من رجاحة العقل وسماحة النفس وحسن الخلق وحب العلم وأهله ما مكن لها في نفوس الناس القدر والاحترام وفي قلب زوجها الحب والاعجاب .

ونقلت هذه الزوج البارة العاقلة خبر الشيخ الى زوجها ، ولعل ثنيان هو الذي كان ناقل خبر الشيخ الى زوجة أخيه ، وغير بعيد أنهما اتفقا على نقله من قبلها الى الحاكم الذي كان يحب زوجه ويصغي اليها ، ويعرف فضلها وخلائقها وصلاحها ، فما كان يتجهم لها ، بل يرضى منها بالنصح والتوجيه ، لأنه لم يجد منها غير الخير وتمام العقل .

نقلت هذه السيدة الفاضلة خبر الشيخ الى زوجها في أسلوب حكيم ، وأثارت في نفسه عواطف النبل والفضيلة والشهامة وحب العلم وقدر أهله ، ولمست منه موضع الشمم والاباء ما دعا الامير السعودي الى أن يشتاق الى رؤية الوافد الجديد ليكرمه ويوفيه حقه من العون والتبجيل .

وكانت مقابلة لطيفة بين الامير والشيخ أعقبت صلة ود وشيجة ، اذ كان بين نفسيهما تجاوب روحي أحس صداه كل منهما في أعمق أعماق قلبه .

وتعاهدا معاهدة اسلامية على توحيد الكلمة، وتقرير المصير[1] ، وجعل الحكم حكماً إسلامياً صحيحا في كل شيء ، ونصر الدين ، وقمع الباطل ، وحرب الكافر والمرتد والباغي والمبتدع والضال ما استطاعا ، ومن ثم أخذا في تطهير الداخل من المبتدعين وارشاد الناس الى الهدى عن طريق الوجدان والضمير والاقنــــاع بالمنطق .

واستطاع الاثنان من تكوين قوة وايجاد جيش ، ووفقا لجمع بعض زعمـــاء القبائل حولهما ، فناهضهما كثير من أمراء العرب .

قام دهام بن دواس أمير الرياض بغزوات وحروب كان له النصر في بعضها والخذلان في أكثرها ، ولكنه ثبت لحرب محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب أكثر من ربع قرن ، ولو لم يلق الله الرعب في قلبه وخرج من الرياض طوع ارادته خوفا مما سيلحق به متوهما أن العذاب أمامه لدامت الحرب أكثر مما دامت .

حارب دهام كل أمير سعودي وكل داع إلى الخير والحق والفضيلة ، وطوع له النصر التفاف كثير من القبائل حوله للقضاء على النفوذ الديني والسلطان السياسي اللذين أخذا يمدان جرانهما على البلدان والبوادي ، وهذا خطر جد عظيم على الامراء والناس ممن يعيشون من الباطل ، لأنه يحد من بغيهم واستبدادهم ويقيد أعمالهم وتصرفاتهم .

قام أمير الرياض من جهة ، ونهض عريعر أمير الاحساء من جهة ثانية ، وثار حسن بن هبة الله أمير نجران من جهة ثالثة ، وأخذ الاول يناوىء الامارة السعودية فيغزوها في عقر دارها ، وينتصر ـ أحيانا ـ انتصارا غير مذكور ، ويمنى بالفشل والاخفاق والخسران في أكثر الاحايين وجمع بين الاخيرين عهد وميثاق لاتحاد

---

(١) تفصيل العهد والمقابلة في فصل « الى الدرعية » صفحة ٨١ - ٨٣ من هذا الكتاب .

مصيرهما وهدفهما وذلك سنة ١١٧٨ هـ (١٧٦٥م) وعهدهما أشبه بالاتفاق العسكري في الوقت الحاضر ، وخرجا بعد الاتفاق الى القتال والحرب اظهارا للقوة واستعمارا للبلدان وتعزيزا لمحور الاحساء ونجران ، ورغبة في القضاء على الدعوة الاسلامية في الدرعية ، فالقضاء عليها — في رأيهما — قضاء على قوة صغيرة ان لم يخمدا أنفاسها وهي في مهدها فلا بد أن تتضخم وتتركز فيتحطمان على صخرتها العاتية ، فاتفقا على غزو الدرعية الآن الامام والشيخ محمدا تمكنا من رد أمير نجران بعقد صلح معه ، فاضطرت القبائل الموالية وذوات العهد معه مرغمة الى الرجوع اذ وجدت حليفها قد أخلى الميدان وترك القتال .

أما دهام فقد كان خصما عنيدا للامام والشيخ ، ففي سنة ١١٦٠ هـ سار بجمع عظيم من البادية والحاضرة واتجه الى الدرعية ورتب رجاله وجعل له كمينا ثم هجم على البلد فخرج اليه أهله وهزموه وأمعن في الفرار وتبعه أولئك وقتلوا من قتلوا ، وبينما هم في اقتفاء آثار الفارين وفلول المنهزمين هرع اليهم الكمين ووضعوا فيهم السيف ورجع الفارون يقتلون أهل الدرعية ، وانجلت الموقعة عن قتل : فيصل وسعود ابني محمد .

وفي السنة التي تلتها حدثت واقعة « البنية » — محل في الرياض — وذلك أن محمد بن سعود بعث تحت قيادة ابنه عبد العزيز جيشاً من أهل الدرعية وضرمة وحريملا وبرفقته عثمان بن معمر أمير العيينة بجيش من رعيته وجعله القائد العام للجيش ، وغزوا الرياض واحتلوا محلتي : مقرن وصباح ، غير أنهم انهزموا أخيرا وقتل منهم خمسة وعشرون وكلهم من حريملا ، وقتل بعض أهل الرياض وجرح منهم كثير .

رجع عبد العزيز وعثمان برجالهما الى الدرعية مهزومين ، وأخبرا محمدا بما حدث فلم يفت في عضده الخذلان بل ازداد قوة وحماسة ، وآلى على نفسه ليرجعن الكرة مرة أخرى ، فجمع في هذه السنة نفسها جيشا وسار به عبد العزيز والقائد

العام عثمان بن معمر – أيضا – ونزلا مكانا يسمى « الحريزة » في محلة صباح بالرياض فكانت بين المتحاربين ساعة هول وقتال انجلت عن قتلى من الجيش السعودي يبلغ عددهم أضعاف القتلى من رجال الرياض .

لكن ابن محمد لم تخضد شوكته ، لذلك أعاد الكرة وسار بأولئك الرجال وما يزال عثمان القائد العام ونزلوا «ثرمدا» من بلدان الوشم في عماية الليل ونظموا لهم كميناً من الأبطال الأشداء وأغاروا على البلد، فخرج عليهم أهله والتحمت الحرب بينهم فأسرع الكمين الى هؤلاء وأخذوهم على غرة فهربوا الى قصر «الحريص» وكان خارج البلد فتحصنوا فيه بعد أن تركوا في الميدان سبعين قتيلا .

وطلب عبد العزيز من عثمان – القائد العام للجيش – أن يهاجم البلد لخلوه من المحاربين ليسعهم احتلاله عنوة ، فلم يرض بذلك رحمة بأهله ، فلما رجع أخبر أباه والشيخ محمدا بما كان فعتبا على عثمان ، وكان في نفسيهما منه شيء ، فأراد عثمان أن يثبت اخلاصه فخرج وخرج معه عبد العزيز الى ثرمدا ، ولكن لم يقع قتال فأفسدا الزروع ثم سارا الى بلدة « ثادق » وتمكنا من ستة رجال من أهله وقتلاهم ثم رجعا ووجدا في طريقهما أنعاما لهم أخذاها فيئا .

وفي سنة ١١٦٢ هـ توجه محمد بن سعود الى الرياض ونزل «الحبونية» – وهي مزرعة نخيل – عند الفجر ، فخرج اليه أهلها ، ووقع قتال بالرصاص بين الفريقين ، وقتل من أعدائه سبعة رجال .

مضت سنة واحدة أو ما دونها ولم يحدث قتال بين أمير الدرعية وأمير الرياض ، غير أن الاخير ما زال ممعنا في دسه وكيده وتعبئة رجاله للانتقام والثأر ، فسار محمد في سنة ١١٦٣ هـ بجيشه القوي وفيه أبطال كماة اشتهروا بالشجاعة والفروسية ونزلوا «المروة» ونشب فيها القتال بين الفريقين ، وانتصر على أهل الرياض انتصارا مبينا .

وفي الوقت نفسه توجه عبد العزيز بن محمد إلى ثرمدا وقائد جيشه مشارى بن عثمان بن معمر ، فنقل خبر مسيرهما الى أهله فاستعدوا للقتال واستنجدوا بأهل بلدتي « أثيثة » و « مراة » وذات صباح هاجم السعوديون ثرمدا وقتلوا خمسة وعشرين ولم يقتل أحد من جيش عبد العزيز .

وكان من عادة الامير السعودي أن يغزو كل سنة مرة أو اثنتين أو ثلاثا ، ويجاهد في سبيل الله كثيرا ، ولا يبالي الصعاب تعترض طريقه ما دام في ذلك رضا الله ، فما تكاد تبزغ شمس السنة الجديدة الا ويستعد للغزو والزحف ، ولقد رأى القارىء في ثلاث سنوات متتابعة مهاجمة الرياض وغزوها .

وفي مطلع سنة ١١٦٤ هـ أرسل محمد بن سعود جيشا لقتال الرياض ، فدخل البلد واقتتل مع المدافعين في الاسواق قتالا شديدا ، ولكن المهاجمين انخذلوا لأن أهل الرياض رجالا ونساء وأطفالا تحصنوا بالبيوت وقذفوا أولئك بالحجارة والسهام وتمكنوا من النصر .

وكان بين أمير « ضرمة » ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن وأمير الدرعية عهد وميثاق ، عاهد الاول الثاني على السمع والطاعة واتباع ما جاء بكتاب الله وسنة رسوله ، ولكن ابراهيم نقض العهد وتنكر وقتل ثلاثة من العلماء هم : عمر الفقيه ، ورشيد العزاري ، وابن عيسى ، وهؤلاء هم دعاة الاصلاح وحماة الدين وناشرو العلم في ضرمة ، قتلهم لأنهم كانوا يقفون في وجه ظلمه ويحمون الشعب من عسفه .

وكان الشيخ العزاري أخا لآل سيف من أمهم فأضمروا الشر لابراهيم وتحينوا الفرص للثأر منه ، ومضت أربعة أشهر على قتل أولئك العلماء ، وآل سيف لا يبدون أي اعتراض ، وبينا ابراهيم ذات يوم في مجلسه ومعه ابناه : هبدان ، وسلطان وفريق من العلماء وآل سيف اذ بهؤلاء ينقضون على الامير وابنيه ويمسكون بهم ويقتلونهم قصاصا بثلاثة العلماء ، ومن المصادفة أن يكون وقت خروج نساء العلماء القتلى من العدة هو وقت دخول نساء الامير وابنيه في العدة .

وبقيت ضرمة بغير أمير ، ووصل الخبر الى الامير السعودي فولى عليها عبدالله ابن عبد الرحمن الريدي ، وأمره أن يسير على نهج الدين الصحيح ، وأمر أهل البلدة بالطاعة له والالتفاف حوله .

وفي سنة ١١٦٥ هـ نهض أناس من أهل حريملا ومعهم قاضيها سليمان بن عبد الوهاب ونقضوا عهدهم مع ابن سعود واستعدوا لحربه ، ولكن أميرها لم ينقض ولم يخن ، وثبت على مبدئه وعهده ، فأجمعوا أمرهم على اجلائه من البلد واجلاء شيعته معه ، فخرج الامير محمد بن مبارك يرافقه أخوه عثمان وبعض رجاله منهم مبارك ابن عدوان وتوجهوا الى الدرعية ، ونزلوا ضيوفا على أميرها فأكرمهم ايما اكرام .

ومضت الايام دراكا وأمير حريملا مكرم ، وانه لكذلك إذ اتاه وفد من قبيلته آل حمد وفاوضه في الامر وقال له : ان قبيلتك تأسف على ما بدر منها وتطلب عفوك ثم قدومك اليها وتعاهدك على نصرتك ، ولن ينالك مكروه .

وخدع الامير بمقالة الوفد واستأذن مضيفه ثم سار الى بلده ، واذ دخل داره هجمت عليه قبيلة آل راشد ومعها أهل حريملا وحصروهم فيها وقتلوا الامير وفتكوا بثمانية منهم وهرب مبارك بن عدوان الى الدرعية فرارا بدينه ونفسه ، واستنجد بأمير الدرعية لتأديب الخونة الذين قتلوا أميرهم وبطانته غدرا .

عرف آل راشد سوء ما فعلوا وندموا على قتل الامير ومن معه ، وحاروا في الامر ولم يستطيعوا تلافي الخطر المحدق بهم ، فأخذوا يحصنون المدينة للدفاع ، وجهزوا جيشا يحميهم عند الطوارىء ، فبنوا السور وأصلحوا البيوت ورموا الحصون ، وتأهبوا للحرب التي ستنشب لا محالة .

ولقد تحقق ظنهم وما كان يدور بخلدهم ، فجهز محمد بن سعود جيشا مع ابنه عبد العزيز ، وجعل القائد العام مباركا بن عدوان ليكون قتاله شديدا ، لأنه

موتور يريد أخذ الثأر ، فوقعت مناوشات ووقائع بينه وبين آل راشد كان النصر في معظمها بجانب مبارك .

ورأى محمد بن سعود أن هذه المناوشات لا تجديه نفعا، وهي – وان ضمنت له الهيبة في نفوس الاعداء – تحمله نفقات الدفاع والقتال وفقدان الامن واضطراب النظام وسيادة الفوضى ، وفي هذا ضرر يلحق بكيان الامة ، وليس بنافع قتل الحية وترك ذنبها ، بل الحكمة قتلها وسحق ذنبها ، لذلك رأى أن يجهز جيشا قويا فيهاجم حريملا ويحتلها ، وجعل قيادته لابنه عبد العزيز ، فسار حتى نزل ليلا في شرقي البلد ورتب جنده ترتيبا حسنا يدل على براعته في القيادة ، فجعل كمينين : كمينا تحت قيادته وتوارى به في شعيب «عويجا» وكمينا في مثني رجل تحت إمرة مبارك بن عدوان اندس في « الجزيع » وانفلق عمود الصباح وألقت ذكاء أضواءها وركبت « الهجانة » وتقدم فريق منهم صوب البلد فخرج من فيه مقاتلا ومدافعا ، فتراجع فريق الهجانة الى الوراء موهما العدو أنه انهزم ليقتفي أثره ، وألقى بعض متاعه من ظهور الابل تضليلا ، ليعتقدوا أنهم فارون وألقوا المتاع تخفيفا .

واذ رأى ذلك أهل حريملا أسرعوا خلف السعوديين وتوغلوا في مواضعهم وابتعدوا عن المدينة ، فأسرع اليهم الكمين الاول ، ثم خرج الكمين الثاني واستقبل الاعداء وقطع عليهم خط الرجعة فلم يستطيعوا العود إلى المدينة ، وتفرقوا في الصحراء ، واختبأ بعضهم في الكهوف واللصاب ، وصعد بعضهم قمم الجبال ، وانتهى القتال بهزيمتهم .

ولكن أمير ضرمة « محمد بن عبدالله » أراد أن يصنع معروفا مع عبد العزيز ، فانتهز الفرصة واقتحم المدينة وأناخ في « الحويش » ونادى بالامان ، وبعث إلى عبد العزيز يبشره بالفتح ، فأقبل واستولى على البلد كله ، وأعلن الامان فيه للجميع

إلا من أحدث حدثا ، وولى مباركا بن عدوان الامارة وآب الى الدرعية وكان ذلك لسبع خلون من جمادي الآخرة سنة ١١٦٨ هـ .

وسمة عهد محمد بن سعود سمة اسلامية خالصة ، فالكلمات والمصطلحات والعادات والأزياء للرجال والنساء والألقاب والأسماء تحولت الى اسلامية ، فلقب الحاكم قد تغير ، فصار الامام بعد أن كان الأمير أو الشيخ ، وتبع ذلك تغير عام في الحياة التي كانوا يحيونها .

والدرعية والقرى والبلدان التي طبعتها الدعوة الجديدة بطابعها تغير نظام الحياة فيها تغيرا عظيما ، فالمساجد لم تعد أمكنة لاداء الصلاة وحسب ثم تغلق أبوابها ، بل صارت مفتحة الأبواب ، وانقلبت الى مدارس مزدحمة بطلاب العلم والعلماء ، والبيع والشراء والمعاملات جميعها تحولت إلى شرعية ، فلا غش ولا كذب ولا تدليس ولا غرر ولا ربا .

ونفذ شرع الله ، وأقيمت الحدود ، وأديت الصلوات جماعة ، ولم تقتصر على البالغين ، بل كان الاطفال يؤدونها جماعة .

والثروة لم تعد دولة بين الأغنياء ، بل كانت متداولة بين الجميع ، وذاب الحقد والفوارق بين الطبقات ، وصار الجميع إخوة مسلمين ، لا يتكبر الغنى ولا يحتكر ولا يسلب أرزاق الفقراء ، ولا يحقد الفقير ، لأن الأخ الصالح لا يحقد على أخيه الصالح .

وكل هذا بفضل الله ثم بفضل الدعوة الجديدة التي أخلص لها الحاكم السعودي وحماها ونشرها بكل قوته ومواهبه ، ولم يبال في سبيلها نفسه وولده ، فنصره الله نصرا عزيزا .

وشغلت حروب الدعوة محمد بن سعود ، ولم تكن حروبا عدوانية ابتغاء الكسب المادي ، بل كانت لنصر الاسلام وإعلاء كلمة الله ، ولم تكن حروبه هي

وحدها المصطبغة بالصبغة الدينية ، بل كان ما في الحياة مصبوغا بها .

وعاد الاسلام بفضل الله دينا ودولة ، وسوقا ومسجدا ، وعرف حاكم الدرعية محمد بن سعود بالإمام ليتفق لقبه مع الدعوة الاسلامية ، فلم يعد أميرا ولا شيخا ، إذ كان اللقب الرسمي للحاكم الشيخ أو « الشيوخ » بصيغة الجمع ، ولكنه يطلق على الفرد ، وإذا كان لقب «الشيوخ» باقيا في ألسنة الناس حتى عهد قريب يطلقونه على الحاكم الأعلى فإن لقب الإمام كان الغالب .

ولما كانت الحياة في نجد أقرب الى الشرك فان الدعوة قامت لمحوه وإحلال التوحيد محله ، ووفقت الدعوة المباركة لما أراده الشيخ محمد بن عبد الوهاب والامام محمد بن سعود ، وتغيرت الاسماء ، فلم يعد الذين غيرتهم الدعوة يطلقون على الحرب اسم الحرب ، بل عبروا عنها بالجهاد ، واستعملوا كلمة الغزوة والفتح والفتوح والمسلمين بدل الوقعة والنصر ، وعرفوا أنفسهم بالمسلمين ، ولهذا نجد في كتب ابن بشر وغيره يذكرون جماعة الشيخ بالمسلمين واعداءهم بالمشركين ، لأنهم كانوا ينظرون الى غير أنفسهم نظرهم إلى مرتدين أو مشركين .

ولئن كان في تسمية من حاربوهم بالمشركين ما لا يتفق مع الدعوة الحق فان من الحق والتحرج والتأثم التنزه عن هذا الاطلاق .

ويستدل من هذه الاسماء والصفات تغير العقلية البدوية ، فهي قد أحيت الكلمات الاسلامية والتي جدت في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم واستعملتها في شيء من الاسراف الذي أنكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه ، فهو لم يسمهم مشركين .

وبعد حكم دام أربعين عاما ترك الدولة الاسلامية قرير العين لابنه وولي عهده الامام عبد العزيز ، وتوفي عن عمر بلغ السبعين ، إذ توفي سنة ١١٧١ (١٧٦٥م) رحمه الله .

عبد العزيز بن محمد

١١٧٩ — ١٢١٨ هـ
١٧٦٦ — ١٨٠٣ م

توفي مؤسس الامارة السعودية بعد حكم دام أربعين سنة ، فقام بالامر بعده ابنه الاكبر عبد العزيز سنة ١١٧٩ ومن صفاته الحميدة التي طوعت له النفوس ومزجت حبه بالمهج تقشفه وعنايته بالجوهر ،أما المظاهر فهي زائلة لا تحتاج الى عناية أو اهتمام يطغي على عنايته واهتمامه بالجوهر الثمين .

من أجل هذا كان قليل العناية بالطعام والشراب واللباس وتنويعها ، يكتفي منها بما يبعد الجوع ويطفىء الاوار ويستر الجسد، متواضعا لا يميل الى الظهور أمام الرعية بأبهة الحكم وترف الامارة ، وأصبح كل همه في الحياة عملا صالحا يقابل به الله من اصلاح وتطهير ونشر للدين في كل بقعة يستطيع أن ينشر فيها، وأمن للطريق ، وضرب على أيدي الربلاء [1] وفرض العقوبات المادية والمالية والبدنية عليهم تأديبا لهم وزجرا ، فخاف البدو من صرامته العادلة ، ولم يتمكنوا من

---

(١) الربيل : اللص يغزو القوم وحده .

الفساد في أرض الله ، فارتقت البلاد تجاريا واقتصاديا في أيامه ما مهد السبيل لمن بعده من الحكام .

ومن سجاياه النبيلة : اكرامه العلماء ، ومحبة الرعية في وقت كان العلماء فيه موضع السخرية والهزء والأذى ، والشعب نهبا للحكام ، معطيا كل انسان حقه ، ناظرا الى الجميع نظرة العطف والشفقة والتقدير ، وزاد في تعظيم الشيخ الامام ابن عبد الوهاب الزعيم الديني والمصلح الكبير وقدره أسوة بأبيه الراحل ، حتى كان هو والشيخ يدا واحدة في ادارة الاعمال واعلاء كلمة الله ، وحذا الامير حذو أبيه في الغزو ، فلم ين عن قتال المناهضين من القبائل الخارجة على الدين والمارقين منه ، وقتال أمراء البلدان الذين حادوا عن الطريقة السلفية وناصروا الخرافات والاوهـــــام .

مات محمد سنة ١١٧٩ — كما ذكرنا — وتولى بعده ابنه عبد العزيز ، غير أنه لم تشغله المصيبة في أبيه ، بل شغل نفسه بذكر الله والجهاد في سبيله ، فما كادت هذه السنة تمضي حتى أطل العام الجديد فبدأ الجهاد يدفعه اليه قلب عامر بالايمان ، فخرج عبد العزيز الى ثرمدا يسري ليلا ويرتاح نهارا ، لأن الوقت كان صيفا يذيب حره المخ ، حتى وصل البلد وأغار عليه فخرج أهله يدافعون ، وما مضت ساعة حتى جالت الخيل في الميدان وغم العثير الفرسان فلا يرى أحد أحدا .

كانت ساعة رهيبة انكشفت عن انتصار عبد العزيز وقتل اثنين من رجاله ، وترك اعداؤه في ساحة الحرب عشرين قتيلا ، منهم : امام البلد .

واذ قفل عبد العزيز راجعا صادفه في طريقه فرسان لابن دواس اختفوا وراء أكمة هربا وخوفا ، وكاد يمر من غير ان يشعر بهم لولا أن خيولهم أخـــذت في التصهال كأنما تشي بهم وتشير إلى مكمنهم فسار اليهم عبد العزيز برجاله والتحم بهم فهربوا بعد أن قتل عديد منهم .

وفي هذه السنة ايضا سار عبد العزيز إلى الرياض لتأديب أميرها وأهلها حينما لمس منهم العداء وايذاء السلفيين من جماعة الشيخ محمد فقاتلهم ولم يظفر منهم الا بأربعة رجال قتلهم وسط المعمعة ولم يستشهد من رجاله غير واحد .

وصمم المنهزمون على الموت والانتقام من سعود مهما كلفهم الأمر ، حتى ان مسلط بن مطلق الجربا قائد قوات البوادي اقسم ان يوطىء فرسه سرادق سعود في « العدوة » وجاءوا بإبل كثير تزيد على عشرة آلاف ربطوا بعضها ببعض بالحبال حتى تكوّن منها حاجز حصين .

وبينما سعود في العدوة يقسم ما غنمه على جنوده فاجأوهم بالابل المربوطة تساق اليهم ، فنهض السعوديون لاعدائهم وعلى رأسهم سعود ، واشتبكوا معهم في قتال ضار رهيب ، وبينا هم يتقاتلون كان مسلط بن مطلق الجربا قائد قوات البوادي يطير بفرسه يريد سرادق سعود برا بقسمه ، فاذا السعوديون يتخطفونه بسيوفهم وهو مرخ عنان فرسه ووجهته السرادق وإذا سعودي يضربه بعود فيلقيه من فرسه ، فتنهال عليه السيوف وترديه قتيلا ، وتنتهي المعركة بهزيمة اعداء السعوديين هزيمة ماحقة ، تاركين ما معهم غنيمة بلغ منها عدد الابل أحد عشر ألفاً والغنم مئة ألف .

وانتهت سنة ١٢٠٥ بانتصار مبين للسعوديين ، وتلتها سنة ١٢٠٦ بانتصارات عظيمة أحرزوها ، ففي شهر جمادى الأولى منها خرج سعود بجيشه المنصور إلى القطيف واحتلها كما احتل قراها الكبيرة القوية بعد قتال ، فقد حاصر « سيهات » التي صبرت وصابرت ، حتى اضطر السعوديون إلى تسور سورها وأخذوها عنوة وغنموا ما بها من أموال لا تحصى ، واحتلوا القرية الكبيرة المسماة « عنك » بعد معركة خسر فيها أعداؤهم خمسمئة قتيل .

وانتصر السعوديون في حربهم هذه ، وكانت سنة ١٢٠٦ على السعوديين سنة خير ، فقد حماهم الله من الشريف غالب الذي عاد بجيشه بعد أن كان قد جند

جنوده لضرب الدرعية في سنة ١٢٠٥ كما رد كيد اعدائهم إلى انفسهم، واستطاع السعوديون أن يتحدوا الخارجين عليهم وكل أعدائهم ، ويعلنوا عليهم الحرب ، وينتصروا على أعدائهم الأكثر منهم عددا وعدة .

ولكن أمراً عظيماً حدث أصاب السعوديين بذهول ، فقد مات امام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في آخر يوم من شهر ذي الحجة من سنة ١٢٠٦ بعد ان شاهد الدعوة قد آتت أكلها ، ورأى أهلها منصورين ، ولكن الأمة شعرت بخسارة فادحة اذ اختفى عنها امامها الذي هداهم الله به .

واذا كانت فجيعة الأمة في الشيخ لا تعوض فان آل سعود وبخاصة الامامين : عبد العزيز وابنه سعودا كانوا أشد شعورا بعظم الفاجعة ، فقد فقدوا من كان سبب مجدهم وعزتهم ، ومن جمعهم على كلمة التوحيد ، ولكن الشيخ علمهم أن يرجعوا إلى الله في كل مصاب جلل ، فرجعوا اليه تالين قوله تعالى: ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ .

ولكن المصاب لم يشغلهم عن الدعوة وخصومها الذين شجعهم موت امامها على الاستعداد والتهيؤ لضربها في قاعدتها بالدرعية حيث الحماة المغاوير ، ولم ينتظروا ان يهاجمهم الأعداء بل خرجوا اليهم وهم في منازلهم وبلدانهم وقراهم وحصونهم ، فاشتبكوا خلال سنة ١٢٠٧ في حروب مع اعدائهم ، وكان النصر في جانبهم في أكثر المعارك الفاصلة .

وفي سنة ١٢٠٥ تعرضت الدعوة وحماتها لخطر غاية في الشدة، فبعد ان انتصرت في هذه السنة نفسها على مناوئيها اقبلت من الحجاز قوة ضخمة خرجت من مكة حرسها الله تقصد نجدا ، وهي القوة التي هيأها وجهزها شريف مكة غالب بن مساعد ، وجعلها بقيادة أخيه الشريف عبد العزيز .

ويذكر ابن بشر ان تعداد هذه القوة بلغت عشرة آلاف وتزيد، تصحبها مدفعية

قوامها أكثر من عشرين مدفعاً ، ووجهتها الدرعية حيث منطلق الدعوة وقاعدتها ، وانضمت اليها قبائل كثيرة في نجد كمطير ، كما انضمت اليها بوادي الحجاز ، ويقول ابن بشر في وصف اثر هذا الجيش العرمرم في نفوس الناس في حوادث سنة ١٢٠٦ :

« فلما رأوا أن الأمر جاء من الأشراف أيقنوا بالهلكة للمسلمين والاتلاف ، وارتد كثير من العربان ، وراسله أناس من أهل البلدان منهم حسين الدويش رئيس مطير وعربانه، وتبين لأهل الباطل دخان، وأكثرهم نقض العهد وخان، وارتد معه كثير من قحطان ، فأقبلت تلك العساكر والجنود ، وسار معهم كثير من بوادي الحجاز وعربان شمر ومطير وغيرهم ، فملأوا السهل والجبل ، وصار في قلوب المسلمين منهم وجل » .

وحدثت بين هذه القوة والسعوديين مناوشات ، ولم تصل قوة الشريف إلى الدرعية ، بل عسكرت في ارض السر ، وقرر الشريف غالب امير مكة ان يقود القوة بنفسه ، فخرج من مكة بجيش جرار ، ومعه سبعة مدافع ، ولقي أخاه في أرض السر ، وسار الشريفان إلى «الشعرا» التي تقع في عالية نجد شرقي جبل ثهلان وحاصراها ، ولكنها لم تستسلم لهما مع دوام الحصار اكثر من شهر ، فتركاها وقررا العودة إلى الحجاز دون ان يشتبكا مع النجديين ممن تبعوا الشيخ محمد بن عبد الوهاب في معارك كبيرة .

وأعتقد ان الشريف غالبا لم يكن يقصد الحرب ، بل اراد بث الرعب في السعوديين وتقوية خصومهم من النجديين الذين دخلوا في الدعوة وهم غير مؤمنين بها ، واثارتهم هم وغيرهم على السعوديين ، وقد وفق الشريف غالب لما قصد له ، فقد خرج على الدعوة كثير ممن دانوا بها .

وعاد الشريف إلى وطنه بعد ان انتهت مهمته هذه ، وتخلف من انضموا اليه

من قبائل نجد واكثر رجالها من قبائل شمر وقبائل مطير ، ونزلوا الماء المعروف باسم « العدوة » قرب حائل .

وعلمت الدرعية بعودة الشريف غالب وجنوده وتخلف من انضموا اليه من القبائل النجدية فقررت تأديب هؤلاء ، فخرج اليهم سعود بن عبد العزيز بجنوده ولقوا أعداءهم في المكان الذي نزلوه ، واشتبكوا معهم في معركة عنيفة في آخر شهر ذي الحجة سنة ١٢٠٥ ﻫ وانتهت بانتصار السعوديين انتصارا مؤزرا ، واغتنامهم غنائم كثيرة ، فقد استولوا على ما كان مع العدو من أثاث وامتعة وابل وغنم .

ولكن هؤلاء المنهزمين صمموا على الانتقام من سعود والسعوديين فاستنفروا القبائل ومن لم يحضروا هذه المعركة الضارية ان ينضموا اليهم لحرب السعوديين ، فلبوا وتجمعوا ، وكتبوا إلى سعود يتحدونه ويطلبون اليه الحرب ، فقابل تحديهم بان تحداهم ولبث حيث ينتظرهم كما توعدوه .

وفي سنة ١٢٠٨ ﻫ تمكن من غزو الأحساء وفتحها ونشر الدين الصحيح في ربوعها ، وأباد سلطة بني خالد فيها .

وقبل القضاء على نفوذ بني خالد وفتح الأحساء تمكن من دهام بن دواس الذي عاهد ثم نقض ثم أعان المفسدين ، ووعد ثم أخلف ، واظهر للدين واهله وعلمائه عداوة علنية . وقام هو نفسه على الدين ، فكانت بينه وبين امراء آل سعود وقائع متعددة دامت سبعة وعشرين عاما انتهت بموته في « الدلم » من بلاد الخرج سنة ١١٧٨ ﻫ وولاية عبد العزيز على الرياض .

ولم يكن بين آل سعود وآل السعدون (أمراء العراق) وئام ووفاق اذ رأوا أن ابن سعود قد وسع رقعة ملكه ودانت له نجد فامتدت من ناحية الغرب إلى عسير ، ومن الجنوب إلى عمان ، فكانت الغارات بينهما دائمة ، يبدأ السعوديون تارة بالنزاع والمهاجمة وتارة أخرى يبدأ السعدونيون، وكانت النتيجة انتصار الاولين، وتطلع الأمير

السعودي ببصره إلى حدود العراق كأن له في ضمها إلى أملاكه أملا جد عظيم ، ما جعل سليمان باشا وإلى بغداد يرسل قوة من قبائل مختلفة من بني خالد ومطير والظفير ومن تطوع من البصرة والزبير ، وكانت فيها قوة منظمة ، وجعل القائد على الجميع « ثويني السعدون » تخضيدا لشوكة عبد العزيز السعود — وذلك بأمر الباب العالي — فالتقى الجيش السعودي بخصمه وتقاتلا في « الحفر »وانجلت الموقعة بقتل ثويـــني وتضعضعت قوة جنده وانهزم ممعنا في الفرار ، وتفرق في القفار ، فتبعه السعوديون حتى وصلوا السماوة ونهبوا أموالها وما عثروا عليه من النعم!.

ولما يئس الوالي من الانتصار على ابن سعود رأى ان يلحق به الأذى والاهانة والتنكيل ، فأوعز إلى رجاله أن يقطعوا الطريق على قوافل الحجاج المسافرة تحت حماية الأمير السعودي ، وأخذوا يقطعون السبيل على كل عابر ، وداهمت قبيلـــة « الخزاعل » الشيعية قافلة من تلك القوافل فنهبت أموالها وسبت ما استطاعت وقتلت بعض الرجـــال ، واذ ترامى الخبر إلى سمع ابن سعود بعث ابنه سعودا كي يؤدب الوالي « سليمان باشا » ويعطيه درسا في الجزاء والانتقام ، ويريه كيف يحمي الامام المسلم العربي من يحتمي به أو يجيره ، ويذود عنه بنفسه ، فتوجه سعود وكان شجاعا حازم الرأي حسن السياسة والقيادة إلى العراق ودخل « كربلاء » وحطم فيها كثيرا من معالم الشرك والبدع ، فحدث بين جنده وبين رجال المدينة الشيعيين قتال في الأسواق والطريق ذبح فيه من هذا الفريق عدد عظيم ، وبعثرت جثث القتلى على الأديم ، ثم مضى سعود إلى « النجف » فصدته عنها المياه الغزيرة فعاد .

ولقد كان من توفيق الله لابن سعود دحر قوات الشريف غالب تحت قيادة أخيه عبد المعين فاغتاظ الشريف وجمع القوات مرة أخرى ولم شعثها وقادها بنفسه ثم رجع غير منهزم ولكنه تكلف نفقات السفر ووعثاءه فامتلأ غضباً ومنع النجديين من الحج متهما اياهم بالخروج عن الدين وأنهم وهابيون ، وزعم ان الوهابية مذهب جديد خطر لا يتفق والاسلام في الأصول والفروع ، وشوه سمعتهم بأكاذيبه

واختلاقاته ، بيد ان الحـــالة اضطرت الشريف غالبا إلى الصلح مــع ابن سعود ، فأذن للنجديين بحج بيت الله الحرام بعدئذ .

ففي سنة ١٢١٤ هـ حج سعود برجاله ودخل « أم القرى » بدون ان يهريق دما ، وحج في سنة ١٢١٥ هـ أيضا [١] ، ثم حج في سنة ١٢١٨ هـ ودخل مكة بجيــوشه وأعطى أهلها الأمان وفرق عليهم الأموال وكسا الكعبة المعظمة كما كساها من قبل ، أما الشريف غالب فقد هرب إلى جدة مع أسرته ثم استرد مكة بعد مغادرة سعود اياها .

وبعد وقعة « كربلاء » وفد على الأمام عبد العزيز رجل من الشيعة يلبس اردية « الدروشة » وتظاهر بالصلاح والتقوى ولازم المسجد .

وأثار سلوك الدرويش وهيئته الشك في نفوس بعض الناس ، غير ان الامام أمرهم ألا يسيئوا اليه وقد أظهر التدين والصلاح ، ولم تبد منه اساءة توجب الأخذ ، فكان يعطيه من ماله ما يستعين به على الأنفاق كي ينقطع للعبادة ويتسنى له أن يواصلها ، ولكن باطن « الدرويش » كان مملوءا حقدا وضغينة وسوءا ، وبقدر ما تظاهر به من الصلاح كان يبطن أضعافه من الخبث والمكر ، فهو شيعي جاهــل قدم الدرعية وتظاهر بما تظاهر به بغية الوصول إلى غايته ألاوهي الانتقام من الامام الذي غزا نجله الصالح « كربلاء » وهدم معالم الشرك والبدع فيها ، وقتل من أهلها عددا عظيما ، لهذه الغاية تظاهر بالصلاح وقدم الدرعية .

واذ كان الأمام عبد العزيز ذات يوم بمسجد « الطريف » يؤدي صلاة العصر

---

(١) وفيها حج العالم الالماني « الريخ جسبار زتسن » Ulrick Jasper Seetxen متنكراً في زي درويش وتسمى « موسى » وتمكن من دخول مكة وصعود عرفـات ، ومحادثة سعود ، وأبدى اعجابه بالوهابيين والامام ، ثم قتل قرب « تعز » من بلاد اليمن على يد اناس ارتابوا فيه ففقدت مؤلفاته القيمة عن رحلته الى البلاد العربية .

العصر بالصف الأول غارقا في عبادته غير دار بما هو مقدر له في عالم الغيب ، وانه لكذلك اذ استل الدرويش خنجرا لمع بريقه في الأعين واختفى في جسم الامام في سرعة البرق ، فكان في ذلك حتفه ، وحين رأى الدرويش بعض الذين جاءوا المسجد متأخرين للصلاة ولم يحرموا بها بعد ملتفين حوله يريدون الفتك به جزاء اعتدائه أغمد الخنجر في صدره وسقط على الأرض يتضرج في دمه ، وقيل: إن القوم أمسكوا به وقتلوه قصاصا (١) .

وكان قتل الامام رحمه الله تعالى في ١٨ رجب وقيل: في ١٠ رجب، سنة ١٢١٨ (١٨٠٣) بعد عمر طويل يقدر بست وثمانين سنة قضاها في الجهاد والكفاح .

وكان قتله فجيعة كبرى على المسلمين لأنهم فقدوا بطلا من أبطالهم المعدودين وان كان خلفه ابنه سعود بطلا مقداما ، فلا يكفي عمله وحده ، لان في اجتماعهما قوة عظمى ، فسعود كان القائد الحربي الذي يقود الجيوش ويمضي إلى الحرب وأبوه عبد العزيز يمده ، وكأنه يحفظ مؤخرته .

(١) في تاريخ ابن بشر : ان الرجل برك على عبد الله اخى الامام عبد العزيز ليقتله فتصارعا فصرعه عبد الله وضربه بالسيف ، وتكاثر الناس عليه فقتلوه ، وقتل الامام وهو ساجد اذ وثب عليه من الصف الثالث ، وفي تاريخ ابن بشر ايضاً : أن القاتل رجل كردي اسمه عثمان من أهل العمادية قرب الموصل .

سعود بن عبد العزيز

١٢١٨ — ١٢٢٩ هـ

١٨٠٣ — ١٨١٤ م

كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب عضوا عاملا ، بيده دفة الأمر ، وكان له من خلقه وعلمه ودينه وأدبه واخلاصه ما يعصمه عن الهوى ، فلم يكن يسير وراء مطمع من نشب وعقار ، وماذا يريد من حطام الدنيا وهو ثائر عليه ، وقانع منه بالكفاف .

من أجل هذا أصبحت له الكلمة النافذة المسموعة ، لا يلقي الكلمة الا والقلوب تتلقاها بالاجلال والقبول والتعظيم ، اذ عرف الناس منه الطهر والنزاهة والسمو وما يدعو اليه من الفضيلة والخير ، واذ أبدى رأيه للآمام عبد العزيز بولاية العهد لابنه سعود واعلان البيعة وأخذها له من الرعية في حياته ألفى قبولا ورضا منه ومن الناس ، وكان ذلك قبيل وفاته بستة عشر عاما .

فسعود ابنه هو الوارث الشرعي للامارة لانه أكبر أنجاله الذكور ، ولما امتاز به من الصفات الكريمة ، فكان قوي النفس ، ثابت الجنان ، يخاف القوي الظالم

بطشه وجبروته اذ كان لا يرحم باغيا ولا يوقر طاغيا ، ولا تثنيه عن أمر – اذا عزم – خطورته ومشاقه ما دام قد توكل على الله بعد العزيمة .

يضاف إلى كل هذا صفاء النية والذهن والسريرة مع سلامة المنطق وبراعة الحذق وسعة الحيلة وفرط الذكاء وغزارة العلم ، فسرعان ما يقهر الخصم لسانه بما يفيض عليه من الحجج القاطعة ، كما يقهره في ميدان القتال بالخطط يبدعها تفكيره الصائب ، وتنفي عنها الخطأ تجاربه التي طوعت له الصواب وأظهرت له الزيف والصحيح.

ويضاف إلى هذا قوة العقيدة ونصر الله وتقديس الدين وتفان في الجهاد وغيرة على الفضيلة ، وكان دائم الجهاد متصل الغزو ، يؤدب العربان الخارجين عن الشرع ، وينير السبل بما ينشر من الامن والطمأنينة والدين ، ووقف دون رأيه وعقيدته مجاهدا بكل ما يستطيع .

وكان سعود من طلاب العلم المخلصين ، حتى صار من العلماء العاملين ، وأخذ من كل عالم الفن الذي برز فيه حتى تضلع في العلوم وصار يذكر فيها ، فالغزوات المتتابعة لم تصرفه عن طلب العلم وتلقيه أو تلهه عن الثقافة وتحصيلها ، بل كان يعطي كلا من العلم والجهاد ما يستحق من الاهتمام ، ففي غزواته كان يقضي ساعات راحته في التعليم والتحصيل والاستفادة من رجال الجيش ، اذ كان فيهم الأديب والشاعر والناثر والعالم والمنظم الحربي ، وكان عالما في التوحيد ، والفقه وأصوله ، والحديث والتفسير ، بصيرا بحل المسائل الشرعية ، وله ذكاء غريب نادر ، فمن هنا كانت أخلاقه وسجاياه وحياته بعيدة عن التكلف والأبهة .

أما كرمه فحدث عنه ولا حرج ! كان مضيفه غاصا بالضيوف ، يبلغ تعدادهم خمسمئة فرد وأكثر كل يوم ، يكسوهم ويطعمهم ويسقيهم ، ووفود القبائل ترده يوميا ، ومن اكباره للعلم وإجلاله للعلماء والطلاب خصص لهم في قصره غرفا ينزلونها .

ولهذه الصفات السامية كان أثيرا عند والده ، محبوبا من الناس ، ومــع لين عريكته كــان شديدا على من يخرج على هدى الاسلام قاسيا في معاملتهم ، لا تأخذه بهم شفقة ولا يقبل فيهم شفاعة شفيع .

قيل : انه زج في السجن بعض زعماء قبيلة « مطير » لجرائم اقترفوها ، وأقبل اليه وفد من أمرائها يستعطفه ويرجوه في اطلاقهم والعفو عنهم ، فوجد في كلامهم شيئا من العزة بالاثم ، والافتخار به ، فأمر أحد غلمانه بقتل السجناء والاتيــان برؤوسهم بعد أن يضعها في طست ، ثم قدمه اليهم ووضعه الى الخوان فأكلوا وشربوا وهم ينظرون إلى رؤوس بني عمهم ، ولم يستطيعوا أن يحركوا شفاههم بكلمة ، اذ عقد الحق لسانهم ، وملكت الرهبة قلوبهم ، فماذا يقولون ؟ وبماذا يتحدثون ؟ أليسوا قد جوزوا بما فعلوا ؟! .

بمثل هذه الصرامة استطاع ضبط الأمور وتسييرها في مسالكها ، فمن ذا بعد أن يرى رؤوس الزعماء ملقاة على الطست ولم تقبل فيهم شفاعة الأمراء – أبنــاء عمهم – يجرؤ على الدنو من حظيرة الجريمة ، وما عمل سعود هو العمل الناجع للمعتدين من البدو ، فهؤلاء لا يخشون الا الحسام والقوة ، وبمثل ما عمل يسعد الناس بالامن ويسير كل منهم في سبيله .

وكان في سعود دهاء السياسي وقوة الجبار ومنطق الحكيم ، وهذه الصفات هي التي طوعت له النصر في ميدان الحرب والانتصار على المصريين والأتراك وفتح الحجاز وامتداد ملكه من بادية الشام شمالا إلى أطراف عسير واليمن ونجران جنوبا ، ومن أسياف الفرات في العراق العربي والخليج الفارسي شرقاً منتهيا بالبحر الأحمر غربا .

وهو وحده فتح معظم الأمصار بقوة ساعده وهدي تفكيره وحزم قيادته وحسن سياسته ، ففي سنة ١٢١٨ هـ دخل الحجاز فاتحا – أيام أبيه – وأصبح بيده زمام

الأمر فيه ، وولى الشريف عبد المعين أميرا على مكة ، وجعله تابعا له في الحكم يسير على الطريقة السلفية يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر بدلا عن الشريف غالب أميرها من قبل الدولة العثمانية .

وبعث الامام سعود رسالة إلى السلطان سليم هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« من سعود بن عبد العزيز السعود إلى سليم

« اما بعد ، فقد دخلت مكة في اليوم الرابع من محرم سنة ١٢١٨ وأمنت أهلها مع أرواحهم واموالهم بعدما هدمت ما هناك من اشياء وثنية ، والغيت الضرائب إلا ما كان منها حقا ، واثبت القاضي الذي وليته أنت طبقا للشرع ، فعليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى هذا البلد المقدس ، فإن ذلك ليس من الدين في شيء ، وعليك رحمة الله وبركاته .

الواثق بالله المعبود

سعود

وحينما سافر سعود من مكة إلى نجد ثار غالب وحارب عبد المعين واسترد مكة منه ، وبسط نفوذه عليها ، وطرد ما بقي بها من القوة التابعة لأمير نجد ، ومن هذا اليوم بلغ التنافس بين شريف مكة وأمير نجد أشده حتى اضطر إلى حشد جيش قوي قدم به إلى الحجاز لفتحه مرة ثانية ، وتم له ذلك سنة ١٢٢١ وثبت فيه قواعد حكمه وبنى صرحه على أساس مكين لا تزعزعه العواصف الثائرة ، ولكنه أبقى غالبا على كرسي الامارة وبين له سبيل الحكم الذي يسير عليه ، فتظاهر الشريف غالب بقبول نصحه ، وثار على القباب وهدمها ، ولم يلبث

في مركزه الا بعد أن أعطى العهد لوالي نجد على أن يطبق حـــدود الله على الناس بدون تمييز ، لا يفلت العظيم من الجزاء والعقـــاب لعظمته ويوقعه على الضعيف لضعفه ، وأن يمنع شرب الدخان وتناوله في الأسواق وعرضه في الدكاكين للبيع والشراء ، وتحريم الملابس الحريرية والذهب على الرجال .

سار غالب على هذا الأسلوب اضطرارا خشية من القوة لئلاتنتزع منه الآمارة ، ولكنـــه في الباطن كان يمهد السبيل لنفسه وينصب الشباك ليوقع فيها خصمه ويتخلص منه ، فكاتب محمد علي باشا بمصر ، وبعث إلى الآستانة يخبر السلطان سليما أن سعودا سوف يسير وفق برنامجه الذي رسم لاحتلال الشام وانتزاعه منه ، ولقد صدق السلطان الخبر اذ رأى من قبل مطامع سعود واحتلاله بعض البلـــدان الشاميه وغزوه القرى التابعة له ، وظن أنه لا يقنع بما احتل بل يطمع في المزيد من البلدان .

والذي جعل السلطان يؤكد التصديق رسالة سعود إليه واحتلاله الحجـــاز احتلالا عاما ، وفي هذا اهانة له وخطر على الحكومة ذات الحول والطول ، ولا يدعها تتفاخر بحمايتها الحرمين الشريفين ، فخشيت أن يتجه المسلمون نحو الحامي الجديد الباسل ويلتفوا حوله .

وبرم السلطان بابن سعود وما عمل في الحجاز وبخاصة هدم قباب قبور الصالحين وهي في رأيه رمز الاكبار والخلود وعنوان لاعمالهم الجليلة ، كما برم بانكاره البدع انكارا فيه قسوة وغلظة .

ففي سنة ١٢٢٢ هـ كتب الى محمد علي باشا أن يلي الحجاز ويتولى اخراج الوهابيين منه لعلمه بقوة شكيمته وسموّ همته وطموحه ، ولبى الطلب ، ولم يقم من فوره اذ لم يكن بعد قد قضى على المماليك قضاء لا قيامة لهم بعده ، فنهض

بعد أربع سنين – أي في سنة ١٢٢٦ هـ – بعد أن قضى على المماليك في وقعة القلعة [١] .

واستوثق من شريف مكة ومناصرته له ، وأعد حملة يبلغ تعداد أفرادها ثمانية آلاف من الجنس الالباني تحت قيادة ابنه طوسون ، وفيهم ممن كانوا في جيش نابليون بونابرت ، ورحّلها عن طريق البحر الاحمر بالاسطول الذي هيأه لنقلهم الى بلاد العرب ، وهبطت ينبع ، وبعد أن استراحت بها توجهت صوب المدينة ، فلما سمع عبد العزيز بمسيرها سيّر جيشا عظيما يبلغ ثمانية عشر ألف رجل بقيادة ابنه عبدالله ، وأوقع عدوه في كمين بموضع يقال له «الخيف» بوادي الصفراء ، ولم ينتصر أحد الفريقين على الآخر انتصارا ظاهرا ، فعمد السعوديون الى الخدعة ، وكمن في «الجديدة» لوقوعها في طريق ضيقة ، ولا بد أن تعبرها الحملة المصرية ، وما كادت تعبرها وتأتي على نصفها حتى انقض الكامنون وأعملوا فيها السيف ، وقبض

---

(١) وقعة القلعة : آخر الوقائع بين محمد على باشا ومماليك مصر ، اذ كان يخشى على نفسه وامرته وامارته من هؤلاء ، فبعد معارك معدودة فكر ان يكون معهم على وئام ، فبعث إليهم حسن الارناءوطي باشا ليتفاهم معهم ويعدهم بأن يمنحهم ضياعهم العامرة فلم يرضوا .

واخيراً استطاع محمد علي ان يخدع شاهين بك زعيم المماليك بإعطائه الاراضي الواقعة على ضفاف النيل من الجيزة الى بني سويف ، وعقد الصلح بينهما وخضع المماليك حينما رأوا زعيمهم راضياً .

وفي سنة ١٢٢٦ هـ جهز محمد علي الجيش لحرب الوهابيين وجعل قيادته بيد ابنه طوسن باشا ، واراد أن يصيب عصفورين بحجر واحد ، فأعلن أن تسيير ابنه بدون موكب حط من كرامته فيجب ان يقيم الاحتفال ويسيره في موكب عظيم ، ويمنحه وسام الشرف السلطاني امام الجمهور ، وتآمر مع حسن باشا وحارمي باب القلعة التي يقام فيها الاحتفال : ابراهيم آغا وصالح قوج . وفي اليوم الموعود سار الموكب الفخم وجعل ترتيب المماليك في وسطه ، واذ دخلوا القلعة وضع الجيش المصري التركي الالباني السيف فيهم وفتك بهم فتكاً ذريعاً ، ولم ينج احد ممن كانوا في القلعة ، وقتل فيها شاهين زعيمهم .

وبينما تجري هذه الحوادث في القاهرة ارسل محمد علي الى جميع « المديريات » وامرها ان تثور على المماليك وتفتك بهم ، وقدر قتلاهم بألف رجل ، وذهب ريحهم ولم يبق لهم اي اثر إلا ما بنوا وعمروا .

ملاك الموت خمسة آلاف روح من الجيش المصري ، ولم ينج من الحملة سوى ثلاثة آلاف رجل أمعنوا في الفرار، ولم يقفهم غير البحر في ينبع، ومنها تفرق بعضهم وامتطى من بقي البحر هاربا .

وكسب السعوديون كل ما كان لدى طوسون من خيام وصناديق ملأى بالرصاص والنقود والذخيرة والارزاق والملابس ، وكسبوا المدافع ولكنهم خسروا خمسمئة قتيل .

وسمع محمد علي بالهزيمة فامتلأ قلبه غيظا وحقدا، ورام أن يبطش بزعيم الالبانيين «صالح قوج» لولا أن له صنيعة عظمى سابقة في حادث القلعة (التي ذكرناها قبلُ في الهامش) وانما لم يستطع ابقاءه في مصر فنفاه عنها بعد أن منحه الحباء الكثير .

ولم يفت انكسار الالبانيين في عضد محمد علي، بل زاد في عزيمته قوة ومضاء، وفي روحه توثبا ، فبعث الى ابنه مددا جما عن طريق «القصير» في سنة ١٢٢٧ ه فتقوى به واتجه نحو المدينة بعد أن انضم الى جيشه قبائل جهينة وحرب ، وحاصرها حصارا شديدا حدث في أثنائه قتال رهيب بين السعوديين والمصريين أدى الى انكسار السعوديين ، ومات منهم أربعة آلاف بالوباء والمرض ورصاص البنادق وقنابل المدافع فتقلص ظلهم منها تدريجيا .

ولقد قادت طوسون نشوة الانتصار الى مكة مندفعا فلم يقاومه شريف مكة لضعفه ولقوة الغازي ، وسلم اليه مقاليد الامور ومفاتيح الكعبة والحجرة الكريمة ، فبعثها الى أبيه ، وهذا بعثها الى السلطان سليم مع كتاب يبشره فيه بدخول الحرمين تحت حمايته واستظلالهما بظله الوريف ، مما ملأ قلبه بشرا وأفعمه فرحا .

ولما استتب الامر لطوسون في مكة سار مقتفيا أثر السعوديين حتى وصل

تربة ، وفيها هزم طوسون وتمزق جيشه شر تمزيق مما شجع سعودا على الكر على المدينة وتهديدها .

ووصل نبأ انكسار طوسون وهزيمته المنكرة الى أبيه فغضب غضبا شديداً ، وجمع جيشا قويا مزودا بكامل العدة والبزة وسار بنفسه الى الحجاز ، فحج وأدى نسكه مصمما على الغزو والقتال بعد رجوع الوافدين من بيت الله الحرام الى أوطانهم ، وفي هذه الاثناء قبض على الشريف غالب وأرسله الى الاستانة اذ سمع عنه انه لا مبدأ له يثبت عليه ، وفيها قتل المسكين !!.

* * *

وفي سنة ١٢٢٩ هـ توفي بطل نجد وإمامها وزعيم العرب الذي روع الترك ودوخ الالبان وأفهمهم معنى البطولة والشجاعة .

توفي «سعود» الملقب بالكبير لما أتى من الاعمال الكبيرة الخالدة في الدرعية قرير العين ولما أدى من خدمات للاسلام وللعرب .

مات قرير العين ، بعد أن شهد صروح العظمة والمجد والقوة أشادها بقوة ساعده تتعالى الى الفضاء ، وقد بلغت ذروة سامقة على يديه لم تبلغها من قبل .

وفي عهد سعود أخذت بلاده شكل الدولة ، فلم تعد إمارة صغيرة ، بل اتسعت حتى شملت أقطارا ، ولم تعد الحروب التي خاضتها صغيرة ومحلية ، بل أخذت شكل الحرب الكبيرة ، ويكفي أن تنهض الدولة العثمانية التي كانت من أكبر دول العالم لمحاربة الدولة السعودية ، وتجند لحربها أضخم قوة شهدتها الجزيرة إبان الحكم العثماني .

رحم الله سعودا ، فقد أعلى كلمة الله بحق .

عَبْدُاللهِ بْن سُعُود الكَبِير

١٢٢٩ — ١٢٣٤ هـ

١٨١٣ — ١٨١٨ م

توفي سعود الكبير فتولى ابنه عبدالله الامارة، وكان مستنير الذهن مشرق الفكر متصفا بالامانة والروية في أموره، لينا سهلا، تحمل له البادية ودها لصفاته الكريمة كما تتعلق به الحاضرة لحكمه الرشيد .

لم يكن عبدالله شجاعا في طبقة آل سعود ، ولكن انتسابه اليهم كان يولد فيه قوة وحماسة تجعلانه يقدم الى ميدان القتال في شيء من الجرأة التي تدفع اليه الجندي طائعا أو كارها ، فاستطاع أن يثبت للمصريين بضع سنوات تتقهقر في خلالها البلاد والامة الى الوراء .

وأخذت أجزاء الدولة العربية بموت سعود الكبير تتفكك ، وأخذ روحهـا القوي الوثاب يضعف، فلم يكن خلفه ماهرا في القيادة حازما في الادارة، وأول وهن أصاب الدولة في زمن عبدالله انحلال أواصر القربى وانقسام الاسرة ، وبدأ عهده بسلسلة من النزاع في داخل البيت الحاكم بينه وبين عمه عبدالله بن عبد العزيز ، فقد طمع العم في ابن أخيه حين رأى اللين والهوادة ، وأحب أن ينزعه من الحكم

ويتربع بمفرده لا ينازعه أحد ، زاعما أنها ارثه الشرعي ، فهو ابن المؤسس الأول محمد بن سعود ، فهو أولى بميراثه من غيره ، وهذا الزعم غير صحيح ، اذ تـــولى سعود الكبير في حياة أعمامه وهم سكوت لا يبدي أحد منهم اعتراضا ، بل كانت أنفسهم راضية به .

وليس قيام عبدالله بن عبد العزيز على ابن أخيه طلبا لحق شرعي مفقود منه ، وانما كان طمعا فيه ، فقد أبصره ضعيف الارادة فأراد أن يزاحمه على الكرسي ويرميه من فوقه حتى يكون له وحـــده ، فيستولي على البلاد ويشبع غريزة التسلط وحب الرئاسة ، ولو كان ثمن الاشباع قتل نفس بريئة ، قتل نفس ابن أخيه .

ولكن الله أعان ابن الأخ على عمه فانتصر عليه وصفا له الجو من ناحيته ، غير أن الكدر أخذ يأتيه من ناحية أخرى فتسرب الوهن إلى قلب حكومته ، وبدأت عناصر القوة والوحدة تنحل وتضمحل ! وبدأ المرتزقة يلقون شباكهم في المياه العكرة التماسا للصيد ، وجلهم من النجديين المغلوبين على أمرهم والمضروب على أيديهم ، فبعثوا إلى محمد علي باشا يشرحون له الحال وما وصلت اليه البلاد من الضعف والتفكك ، ويعدونه أن يكونوا معه في صفه متى قدم اليهم ، فسنحت الفرصة لمحمد علي — وهو الطامع في حكـــم العرب وتكوين امبراطورية — فرأى أن يبادر اليها ويجني منها ثمارها .

ولضعف عبدالله لم يستطع القضاء على الفتن والثورات ، بـــل لم يستطع أن يثبت لها ويدور معها ويلف ما جعل طوسون باشا — وهو ضعيف مثل عبدالله — يجرؤ فيتقدم متوغلا في نجد ، ويحتل بلدة « الرس » ولكنه وقف عندها ومعه قواته لا يستطيع أن يتقدمها .

وقف القائدان لا يستطيع كل منهما أن يبدأ زميله بالقتال ، واضطر عبدالله إلى طرق أبواب المفاوضة علها تجديه نفعا وتنقذه مما هو فيه من ضيق وكرب ،

وعقد مع طوسون سنة ١١٣٠ صلحا كان بمثابة هدنة بين الفريقين ربح منها المصريون ربحا عظيما ، فتمكنوا من استجماع القوة ومعاودة الكرة .

ويخطىء حكماء نجد ومؤرخوها عبدالله في عقده الصلح لانه سمح للمصريين بالخروج من الضيق ، ولولاه لقضي عليهم في أقرب وقت ، فقد أوشكت ذخائرهم أن تنفد ، ولفحت حمارة القيظ اجسامهم ولا طاقة لهم بحر الصحراء وحرجفه وسعاره ، وانتشرت بينهم الاوبئة الفتاكة فمات كثير منهم وكثير من دوابهم ، ولولا الصلح لما قضي على الحكم السعودي وكتب عليه الفناء سريعا كما سيذكر بعد .

ورجع طوسون بعد الهدنة أو الصلح إلى مصر بأمر من أبيه وحدثه بما كان ، ثم توفي بالاسكندرية ، فجهز محمد علي جيشا قويا عقد رايته لابنه ابراهيم باشا وذلك في شوال سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٥م) .

رحل ابراهيم من القاهرة إلى قنا عن طريق النيل ثم سافر إلى القصير على ظهور الابل ، وركب البحر الاحمر منه إلى ينبع ، ثم إلى المدينة ودخلها من غير مقاومة ، وزار مسجد الرسول والروضة والبقيع وقبا وأحدا وكل مآثر المدينة تبركا ثم توجه إلى « الحناكية » — وتبعد عن المدينة ثلاثين فرسخا — وعسكر بها ، وأخذ يرصد ما يستجد من الحوادث ، ويفكر فيما يصلح من الوسائل للغزو وحوز النصر بأرخص ثمن ، فرمى الذهب للبدو حتى خلب عقولهم بريقه واستل قلوبهم رنينه . وخدع غانما بن مضيان أحد رؤساء قبيلة حرب فانضم تحت لواء ابراهيم باشا بألف رجل من رجاله الشجعان كاملي البزة ، ثم تهافتت اليه قبيلتا عتيبة ومطير على رنين الذهب ولمعانه .

ولبث في الحناكية ستة أشهر يغري العربان ويستغويهم ، ثم سار بجيشه الكثيف ومعه القبائل ميمما نجدا ، وأقبل على الرس وظنها تسلم له بدون مقاومة كما سلمت من قبل لأخيه طوسون ، ولكنها لم تسلم هذه المرة وثبتت له وأذاقته لباس الشدة ، فقد دافع عنها الرجال والنساء دفاعا مجيدا ، وقتل في الهجمة الاولى من رجال ابراهيم

ثمانمئة رجل ، فبعث يطلب النجدة من المدينة المنورة فسالت عليه ، وضيق خناق الحصار على الرس ثم افتتحها صلحا بعد ثلاثة شهور ونصف شهر ، وفتك بزعمائها ، وقيل : انه قتل أميرها محمد بن مزروع ، ثم أخذت المدن والبلدان والقرى النجدية تسقط في يد ابراهيم : سقطت عنيزة فبريدة ، فبقية مدن القصيم فالوشم ، ولكن « شقرا » أهم بلدان الوشم لم تسلم الا بحرب ، وفتح فيها مستشفى للمرضى من رجاله ، ولم يسمح لغيرهم بأن يعالج فيه ، وتلك غلطة وقع فيها ابراهيم وكان الاحرى به ألا يقع فيها .

وهكذا سلمت بلدان الوشم كلها من غير عناء غير شقرا وغير « ضرمة » التي أبت التسليم الا بعد قتال رهيب ، والا بعد أن نصب ابراهيم مدافعه الضخمة على قمم الجبال وصوبها إلى المدينة ، وتمكن من تقويض السور فاندفعت الجيوش كالسيل إلى الداخل تنهب وتقتل وتغدر ، تقول للرجل المعتصم بداره : انزل ولك الامان ! فاذا نزل فتكوا به .

وأتى الجيش المصري على العامر فتركه خرابا ، ثم مال إلى وادي حنيفة ماراً بالعيينة ومنها إلى الجبيلة وأغذ السير منها حتى وصل « الدرعية » في جمادى الثانية سنة ١٢٣٣ ه (ابريل سنة ١٨١٨ م) وحاصرها حصارا شديدا لم يجعل لاهلها منفذا ، ومضت خمسة شهور والدرعية ثابته ، ولم يقع بين العرب وابراهيم باشا الا قتال لم يخرج عن المناوشات والاستطلاع ، وأخذت الارزاق تقل ، والزاد ينقص ، والذخيرة تنفد بالنسبة إلى السعوديين ، وابراهيم باشا لا يغفل عن المراقبة وتعزيز مركزه وجيشه فسالت عليه المؤن والذخائر سيلا من القصيم والبصرة ، ومن مصر .

ولم يكن ابراهيم من الافراد الذين يتكلون على ما لديهم من الأسلحة والعدة والرجال فيتوانون عن العمل ، بل واصل السعي وبذل الجهود الجبارة في تذليل العقبات ، وصار شغله الشاغل التفكير في فتح الدرعية العاصية ، فأخذ في تهديم أسوارها والقاء الرعب في قلوب أهلها بالقنابل التي تزعجهم ليلا ونهارا .

وفي هذه الأثناء انفجر مخزن الذخيرة الحربية فامتد اللهيب إلى جميعها والتهمها فلم يترك منها شيئا ، وفوق ذلك التهمت النيران مخازن التموين والأرزاق.

غير أن ابراهيم شجاع قوي ، فلم يهن عزمه ولم تتضعضع قواه ، وقال لطبيبه الافرنسي : خسرنا كل شيء الا هذا القلب والسيف !.

الواقع ما قال ابراهيم ، فقد خسر كل شيء الا قلبه وسيفه ، ولو لم يكن بطلا مقداما لانثنى عزمه حينما رأى معدات الحرب طعمة للنيران ولا يبقى منها شيء ، ولكن شجاعته وما يرى في نفسه من العظمة والأيد وما جبل عليه من الصفات التي تودع في نفوس الاقوياء من الرجال جعلته يتضعضع أو يخون أو يخور ، فالعظيم اذا امتحن زاد صبره وتضاعفت قوة قلبه .

رأى ابراهيم احتراق معداته فأخذ يداور العدو ويناوشه حتى وصله المدد الوفير فاشتد ساعده وصمم على مهاجمة الدرعية مهما كلفه الأمر ، فوالى الهجوم والتخريب واطلاق القنابل والرصاص فهدم المساكن والمساجد ، فأسرع أهل الدرعية إلى أميرهم عبدالله وطلبوا منه أن يضع حدا لما هم فيه ويخلصهم منه ، فاضطر عبدالله إلى أن يخرج إلى ابراهيم باشا ويسلمه نفسه بلا قيد ولا شرط ، وذلك في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة سنة **١٢٣٣** هـ فأكرمه وبعثه مع أربعمئة من رجاله إلى والده بمصر ، وبالغ محمد علي في اكرامه ، ثم أرسله إلى الاستانة ومعه بعض رجاله ، فأمر الباب العالي بقتله ، فطوف بالاسواق مقيدا ليرى الترك رئيس الوهابية الذي يعدونه خارجا على الأسلام ، ثم قتل في ميدان أياصوفيا ، واما من رافقوه فقد قتلوا في ميادين أخرى .

ولقد أسهب المؤرخ النجدي ابن بشر في سرد الوقائع التي حدثت بين الجيشين : المصري والسعودي ليرجع اليه من أراد الاطلاع ومن ذلك : أن الشيخ

أحمد بن رشيد الحنبلي المدني كان لدى عبدالله بن سعود ، فقبض عليه ابراهيم باشا فأمر بضربه وتعذيبه وقلع أسنانه . وذكر الأستاذ أمين الريحاني في كتابه « تاريخ نجد » ان ابراهيم باشا ندم على فعله كما نقل عن المؤرخ الفرنسي « هوجارت » .

تركي بن عبد الله بن محمد

١٢٣٦ – ١٢٤٦ هـ

١٨٢٠ – ١٨٣٠ م

بعد أن دمر ابراهيم باشا الدرعية وسوى معالمها بالارض ، ولم يجعل فيها ما ينتفع به من منزل أو نخيل أو آبار أو عيون توجه إلى مصر سنة١٢٣٤هـ (١٨١٩م) مصطحبا معه أفرادا من آل سعود وبعض زعماء نجد، وولى عليها قائدا يدعى « اسماعيل باشا » ثم رحل هذا إلى مصر موليا مكانه « خالـــد باشا » وكان جباراً قـــاسيا بطاشا أذاق النجديين ألوان العذاب والذل فانتشرت الفوضى ، وقطعـــت الطريق ، ونهب السفْر ، وكثرت الغارات ، فكل من آنس من نفسه القوة عدا على الضعيف ينهبه ، وكل من عضه الجوع هب كالمجنون يدفعه بالسلب ، فلا يتورع في قتل نفس حرم الله قتلها بغير حق من أجل لقمة يسد بها السغب ، وأمسى الناس أوابد ضارية يفترس القوي منها الضعيف ، لا قائد يقودها إلى الخير ، ولا سلطان للفضيلة عليهم ، ولا رادع من دين أو من خلق .

وفي تلك الحال السيئة نهض محمد بن مشاري من آل معمر وكان خاله سعود ابن عبد العزيز يطالب بكرسي الامارة طامعا فيه رجاة أن تعينه الظروف التي واتته

فتمكن من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من قلب الجزيرة وهي : العارض ، وسدير ، والوشم ، والقصيم ، ولكنه لم يكن حازما حكيما ، فلم تطل مدة حكمه ولم يمتع بالامارة الا أياما ثم أفل نجمه وصوحت زهرة حياته .

وبينا ابن معمر منهمك في تثبيت قواعد امارته قدم الجيش التركي تحت قيادة « عبوش أغا » وما كاد يصل عنيزة حتى بادره ابن معمر بخطاب ورسول ينبئه بأنه مطيع الباب العالي وتحت أمره ، فرجع عبوش من حيث جاء اذ انقضت مهمته شاكرا الله على أن لم يشتبك مع العرب في قتال .

وخرج على ابن معمر : مشاري بن سعود الكبير – وهو أحد الزعماء الفارين من مصر – وممن نفاهم ابراهيم باشا اليها تخلصا منه ، ونازع ابن معمر لانه يرى أنه أحق منه بالحكم ، ولكنه قبض على مشاري بن سعود وسلمه الترك تقربا منهم فسجنوه ، ثم مات في السجن .

وكان تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود الكبير متنقلا في نجد هربا من ابراهيم باشا لئلا يقتله أو ينفيه كآل سعود ، وبعد نزاع وقتال بين تركي وابن معمر كتب النصر للاول وقبض على ابن معمر وقتله بابن عمه فصفا له الجو ولكن إلى حين .

وبتولي تركي انتقلت الامارة من سلالة عبد العزيز بن محمـــد إلى سلالة أخيه عبدالله بن محمد ، ومـــا زالت فيها إلى يومنا هـــذا ، ويجدر بنا أن نشير إلى أن هذا هو مؤسس الامارة السعودية في دورها الثاني بعد أن سقطت وقتل عبدالله بن سعود.

واستطاع تركي بخلائقه الكبيرة أن يجعل اسم آلسعود حيا في نفوس العرب، ولو لم ينجح في تشييد صرح الدولة السعودية كما نجح سعود الكبير ، فالأعداء قد أحاطوا به من كل جانب ، وشغلوا حياته وتفكيره ، فهو – دائما – مهاجم أو مدافع ، اما انتزاعا لارض اغتصبت منه ، واما دفاعا عن رقعة تحت يده يخشى أن تفلت منه ، وماذا يستطيع أن يصنع وخصومه التفوا به ؟ وماذا يستطيع أن يعمل

وقد فشا الفساد والسطو والقتل في رابعة النهار أكثر منه في جنح الليل .

وفي سنة ١٢٣٥ هـ غادر تركي الرياض هاربا من ا لاتراك الذين حاصروها ، وفي الوقت نفسه ثائرا عليهم معلنا أن العرب أولى من غيرهم بحكم أنفسهم ، ومضى يجمع الكلمة ويوحد الصفوف ويقضي على المنازعات الداخلية حتى استولى على العارض بعد أن نازع الترك الذين تعينهم قبيلتا شمر ومطير ، وأما هو فعضده الوحيد القوي ابنه الأمام فيصل ، وكان في مصر وأقام فيها إلى سنة ١٣٤٢ هـ .

ثم غزا الأحساء والقطيف وفتحهما ، وتمكن من بعض البوادي وأدخل كثيرا من القرى والمدن تحت حكمه ، وقد جعل « الرياض » عاصمة امارته بعد أن استردها مـــن الأتراك وعمرها وبنى في قصرها الخاص أجنحة وأبراجا وحصنها بالاسوار .

واذ رأى زعماء القبائل أن نفوذ تركي في ازدياد ، وأن نجدا خضعت له أقبلوا اليه وانضموا تحت لوائه ، فانعقد بينه وبين زعيم شمر وأمير حائل صالح بن علي صلح ربح منه توطيد أركان حكمه في القصيم .

وفي سنة ١٢٤٩ هـ خامرت مشاري بن عبد الرحمن فكرة اغتيال خاله الامام تركي والاستيلاء على الحكم ، ثم نفذ فكرته في جرأة وحماقة ، وبوساطة خادم له اسمه ابراهيم بن حمزة اغتيل الأمام تركي عقب خروجه من المسجد بعد صلاة الجمعة ، قتله الخادم وهو على أبواب المسجد يقرأ رسالة سلمه اياها أحد الناس ، وكان مشاري بن عبد الرحمن في المسجد ، فخرج شاهرا سيفه ، وتوعد الناس فلم يبدوا أي مقاومة ، وكان اغتيال الأمام تركي في يوم الجمعة آخر ذي الحجة سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) .

وكان فيصل بن تركي ابن القتيل في أطراف القطيف ، ومعه جيش لجب يؤدب

به العصاة المارقين ، فوصله نبأ قتل أبيه على يد مشاري بن سعود فأغذ السير راجعا إلى الرياض يطالب بدم أبيه المقتول ظلما وعدوانا .

وطال عليه الطريق فما ينطوي كأنما يخيل اليه أن الرياض تبعد عنه كلما دنـــا منها ! .

اغتيل أبوه ، ولكن فيصلا اغتاله الالم وبرح به ، فهو يود أن يكون بين يدي قاتل أبيه وجها لوجه لينتقم منه ويسقيه الكأس التي سقى بها .

وفي الحادي عشر من صفر سنة ١٢٥٠ ﻫ وصل الرياض وحاصرها ، وطوق القصر الذي ينزله مشاري بن سعود بالجند وأمرهم ألا يغفلوا عنه طرفة عين .

وكان مع فيصل « عبدالله بن علي بن رشيد » — جد أمراء آل رشيد — وكان مخلصا لفيصل وأبيه ، واقتحم القصر من الأبراج مع عديد من رجاله وقتل مشاري ، فدخل الجميع مهللين مكبرين ، وانتقم فيصل ، فقد قتل قاتل أبيه .

قتل مشاري في القصر مع ستة من رجاله ليلة الخميس ١١ صفر ١٣٤٥ بعد أن حكم أربعين يومـــا .

فيصل بن تركي

١٢٥٨ – ١٢٨٢ هـ

١٨٤٢ – ١٨٦٥ م

سمح الوجه ، قمحي اللون ، ذو عينين واسعتين فيهما بريق الذكاء والفطنة ، أما قامته فقصيرة ليس فيها ما يعيب ، وقد زاده الله بسطة في الجسم ، أما خلقه فحسن نبيل ، فيه لين عريكة ، ورقة شمائل ، متواضع حتى ليشعر جليسه بتواضعه ، فهو يحادث في ابتسام ، ويعطي في أريحية ، ويسير بتواضع ، ويحكم بما أنزل الله ، كثير العطف والحنان ، يرثى للبؤساء والفقراء ويساعدهم ويشاطرهم أحزانهم وسرورهم .

ولما ثبت دعائم حكم آل سعود فتح دارا للايتام وأثثها ووقف عليها رجالا يعنون بشؤونهم ، ورتب لهم ما يحتاجون اليه من طعام وشراب ولباس ، يزورهم الفينة بعد الفينة ، ويجلس اليهم ويتحدث معهم وهم ينظرون اليه كأنه والدهم الشفيق ، فكان أنسهم ، وكان أحب الساعات اليهم الساعة التي يزورهم فيها ، وكان قرما شجاعا ذا غيرة على الدين ورعا تقيا .

والدار التي أنشأها الامام فيصل هي أول دار للايتام أسست في قلب بلاد

العرب ، فلم يحدثنا التاريخ عن دار أيتام انشئت في قلب الجزيرة قبل دار فيصل ابن تركي هذه .

وكان فيصل من المنقولين إلى مصر ، وقد أقام بها ثمانية عشر عاما ثم رجع منها فارا إلى أبيه ، وأخذ يقود الجيوش ، وبعد أن اغتيل والده وقتل الجاني أصبح أميرا على نجد والأحساء والقطيف وبعض قرى الحجاز ، ورأى محمد على نفوذ آل سعود أخذ يبرز من جديد فسير قوة تحت قيادة « خورشيد باشا » وعززه بخالد بن سعود أحد المنقولين بعد أن وثق منه ورأى ما يطمئنه إلى اخلاصه ، وسبب ارساله مع خورشيد الأمل في أن يستميل الناس اليه ويدعو للحكم المصري مبينا مـــا فيه من منافع وطيبات .

ودنا خورشيد باشا من الرياض فسمع به الأمام فيصل ورحل إلى الدلم في بلاد الخرج ، فوقعت بين الفريقين حرب راح ضحيتها كثير من رجالهما ، وسئم الجميع القتال لأنهم كانوا يتحاربون في شهر رمضان وكثير منهم صائم ، فرأى فيصل ما يذوق رجاله من الشدة ففكر أن يفتديهم بنفسه ويضحي بها من أجلهم ، فعرض على خورشيد أن يسلمه نفسه مشترطا عليه أن يصفح عن الوطنيين ويؤمن أرواحهم وأموالهم ، فان قبل ما اشترط سلم ! والا فالميدان لا يزال رحيبا ، والبواتر ما تزال في الاكف .

وقبل القائد المصري شروط فيصل ، فسلم اليه نفسه في الثالث والعشرين من رمضان سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) وأرسله إلى مصر مع ابنيه : عبدالله ومحمد ، وشقيقه جلوى وابن أخيه عبدالله بن ابراهيم بن عبدالله .

وبمغادرة فيصل الرياض قامت الثورات الداخلية واصبحت الحرب شبه أهلية طمعا في الحكم ، وكانت كذلك في أيام فيصل ، غير أنها بمغادرته اتخذت صبغة أخرى ، فخالد بن سعود تعينه قوات الترك والمصريين من جهة ، وعبدالله بن ثنيان

ابن ابراهيم بن ثنيان بن سعود من جهة أخرى تعينه القوات النجدية ، اذ يريد هذا استقلال البلاد استقلالا تاما لا دخل لاجنبي فيها ، فهو يقاتل عن حماه قتال المستميت لا يبالي ان غلا الثمن .

أمـــا خالد فقد ربي في بلاط محمد علي بين أحضان النعيم والترف ، وامتزج حبه لوالي مصر بدمه وروحه ، وقد عاش عنده عيشة البذخ والترف والحضارة ، ثم انتدب للعمل مع خورشيد باشا لثقة محمد علي فيه ، ثم أصبح أميرا على نجد من قبله ، ولكن سيره في الحكم لم يصادف هوى في قلوب النجديين ، فخالد بن سعود مترف متعاظم ، أخذت منه المخيلة كل مأخذ ، يسير في الحكم على نهج مصري لا يرضي المحافظين من أهل نجد ، فنفروا منه وقاوموه سنتين ثم خلعوه ففر إلى الأحساء ثم إلى القطيف ثم إلى الكويت ، ثم إلى مكة حيث مات بها ، وقيل : مات في جدة سنة ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) .

أما ابن ثنيان فقد استتب له الأمر بعد فرار خصمه ، وصار الحاكم المطلق ، وكانت صفات الأستبداد تغلب عليه في أسلوب الحكم ، وأراد أن يملأ خزائنه ففرض على الرعية ضرائب أثقلت كواهلها فلم تطق صبرا عليها ، ونفرت من حكمه الظالم ، ولكن — لصرامته وقوته — لم تستطع أن تخلعه كما خلعت خالدا من قبل ، وصممت منتظرة ما يقضي الله به ، فاذا خبر قدوم فيصل يملأ أرجاء نجد .

لقد فر فيصل من مصر مرة ثانية ، وقيل : ان عباس باشا الأول سهل له طريق الفرار ، لأنه كان معجبا بشخصيته الفذة .

وصل نجدا فالتف حوله الأنصار ، فزحف بهم فيصل إلى عنيزة مقر « ابن ثنيان » فهزمه والتف حول فيصل رجالها ، فهم كانوا ينتظرون ساعة الخلاص من ربقة العبودية والذل .

يمم ابن ثنيان صوب الرياض ودخلها ، فلم يمهله فيصل فقد كان في اثره

وحاصره فيها حتى استسلم له فعفا عنه ، ولكنه مات بعد مدة بمرض ألزمه الفراش .

وطفق فيصل يسترد ممتلكاته شيئا فشيئا حتى امتدت سلطته إلى الأحساء والقطيف والعارض والقصيم والجبيل ووادي الدواسر وعسير وأطراف الحجاز ، كما أن البحرين ومسقط وسواحل عمان كانت تدفع اليه ضرائب فرضها على أمرائها على شرط أن يكونوا مستقلين في الحكم ويحميهم متى اعتدي عليهم ، وكذلك جعل عنيزة مستقلة تحت سلطة أميرها زامل في شؤونها الداخلية .

وفي أيام فيصل قدم الرحالة بلجريف من قبل نابليون الثالث ، كما جاء من قبلُ سلفه باديا الأسباني الذي تنكر وسمى نفسه « علي بك العباسي » .

وكان بلجريف [1] في مبدأ حياته نصرانيا ثم انقلب يسوعيا ثم صار سياسيا ثم أمسى ملحدا ، ويدعى في سوريا « ميخائيل » وقد رافقه في هذه الرحلة رجل من زحلة بلبنان انقلب بعد رجوعه كاهنا ثم استحال مطرانا ثم صار بطريركا على الروم الكاثوليك وهو « بطرس الجريجيري » المشهور ، والقصد من رحلة بلجريف سياسي.

وبلغت الدولة السعودية في عهد فيصل مبلغا طيبا ، ولكنها لم تعش طويلا ، كأنها كانت ظلا له ، فما كاد يودع الحياة حتى أخذت الدولة تتقلص .

وتوفي فيصل في الحادي والعشرين من رجب سنة ١٢٨٢ هـ (١١ ديسمبر سنة ١٨٦٥ م) وجاء في دائرة المعارف الأسلامية بمادة « ابن سعود » ان فيصلا توفي بالكوليرا في الثالث عشر من رجب عام ١٢٨٢ هـ (٢ ديسمبر سنة ١٨٦٥م).

---

(١) وليم جيفورد بلجريف بن فرنسيس بلجريف : هو الرحالة الانجليزي المشهور الذي كان في شبابه ضابطاً في الجيش الهندي ، ودرس اللغة العربية بالهند، وصادفت رغبة بلجريف في زيارة البلاد العربية حاجة نابوليون الثالث امبراطور فرنسا الى من يكشف له خبر الجزيرة، ويشتري له خيولاً عربية لجنوده ، فاختير بلجريف ، ورحل الى نجد ومكث بها ما بين سنتي ١٢٧٩ و١٢٨٠ هـ (١٨٦٢ — ١٨٦٣ م) متنكراً في زي تاجر سوري

حكم يزول

كان فيصل – رحمه الله – حكيما متزنا في أموره وتصرفاته ، ولما رأى ولديه : عبدالله وسعوداً في تناحر وخصام ، وأن كـلا منهما يبدي للآخـر جفاء وقسوة في المعاملة والحديث ، وشطن الاساءة لا ينقطع بينهما ، والعداء قد استحكم وتأصل فلا يمكن نزعه من القلوب الا اذا انتزعت هي معه ، ومحال هذا ارتأى أن يباعد بينهما ويوجه كلا منهما وجهة غير الآخر ، لعل الفراق يزيل شيئا من الخصومة والجفوة ، وجعل عبدالله وليا للعهد لانه أكبر أولاده ولما امتاز به من الخلائـق الكريمة .

غير أن ذلك لم يفد ، فالعداء يشتعل كلما مر يوم ، حتى اذا اخترمته المنون استقل محمد بالمنطقة الشمالية ، واستقل سعود بالخرج والأفلاج ، وبقي الابنان (الثالث والرابع) وهما عبدالله وعبد الرحمن بالرياض ، وهؤلاء هـم أبناء فيصل – رحمه الله – فلما انقسموا ضعفت الحكومة وتمرد العربان ، وخرجت كل قبيلة عن حدودها تسطو وتنهب بعد أن كانت في عهد فيصل لا تستطيع شيئا من ذلك ، ولم لا تخرج وهذا القصر الحاكم يتداعى ؟ فلتنهض القبائل فقد آن الاوان لاخذ الثأر وطلب الكسب .

غادر سعود الرياض عقب وفاة والده متجها شطر القبائل باحثا عن الانصار يحارب بهم أخاه ، فألفى من قبائل العجمان وبنى خالد عونا ونصرا ، ونهضوا لمساعدته ومقصدهم استرداد سلطتهم المفقودة في الاحساء ، فقد كانوا أصحاب النفوذ فيها قبل ان يقضي عليه فيصل ، فقد سنحت الفرصة الآن فليهتبلوها .

ومضى زعيم العجمان راكان بن حثلين – وكان مهيبا عند قومه ، محترما لدى غيرهم ، وكان إلى جانب شجاعته وفروسيته شاعرا حكيما ، وكان مشهورا بالدهاء وسداد الرأي – إلى أمير البحرين وبنى مرة وعقد معهم حلفا ، ثم سار إلى الاحساء حتى تمكن من احتلال الهفوف عاصمتها ، ولم يستطع أميرها أحمد السديري الدفاع فحوصر ثم غلب ، فأسرع عبد الله لنجدته حينما سمع بانهزامه وسقوط الاحساء في يد العجمان ، ولكن وصله النبأ وهو في منتصف الطريق ، فتفقد قوته فوجدها لا تضمن له الفوز لقلة العدد ، وهو لم يستطع التجنيد لأنه أقبل مسرعا ، ولكنه رغم ذلك كله لا يريد أن يرجع دون قتال ، فقسم قوته وأمر كل قسم بالسير في طريق ، وأن يكون الملتقى بالماء المسمى « جودة » ففيه قوة العدو الرئيسية، ومتى تم له القضاء عليها تمكن من استرجاع الاحساء بسهولة ، الا أن العدو عرف « الخطة المرسومة » فاستعد للقتال ، وامتد على العيون الجارية على مسافات بعيدة ، وما كادت قوات عبد الله المقسمة تشرف على « جودة » حتى التحمت مع العجمان في معركة حامية الوطيس ، وغلبت على أمرها، وأسفرت النتيجة عن قتل الفي رجل من جنود عبدالله، وكسرت شوكته ايما كسر .

وذهب إلى عنيزة واستنجد بأميرها زامل السليم فلم ينجده خشية من سعود ، فمضى إلى محمد بن رشيد أمير حائل فلم يجد لديه مقالا حسنا ، فقصد قبيلة مطير يستنصر زعيمها سلطان الدويش ، وقبيلة سبيع يطلب مساعدة رئيسها عساف أبي اثنين ، فوجد منهما الرضا والعون .

ولما تم لعبد الله تاليب قبائل مطير وسبيع واستمالتها استعدادا للطوارىء بعث عبد العزيز أبا بطين إلى والي بغداد مدحت باشا يستعينه على أخيه في الحرب التي بينهما ، فرأى مدحت أن الزمن في جانبه والوقت حان لاسترداد الاحساء من آل سعود ، فنهض من توه وبعث إلى ناصر السعدون باشا زعيم قبائل المنتفق ، كما بعث إلى عبد الله بن صباح أمير الكويت يستنصرهما وجعل القيادة العامة بيد نافذ باشا .

وفي سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) احتلت القوات التركية الاحساء وانتزعتها من يد آل سعود وأطلقت عليه اسم « ولاية نجد » .

أما سعود فقد أخفق في استرجاع ما فقد منه ، وخانه أصحابه وفروا عنه .

وأما عبد الله فقد قفل راجعا من الاحساء إلى الرياض ، ودخلها آمنا بدون مقاومة ، ورحب به أهلها ، غير أن سعودا لم يمهله بل توجه إلى الرياض ولقي أخاه في مكان يسمى « الجزعة » وقهره واقتحم البلدة ونهب سكانها ، فمضى عبد الله يجمع الرجال ، والتقى الاخوان مرة أخرى في « البرة » ولكن عبد الله انهزم فرجع إلى الاحساء .

ثم نشب القتال بين الترك وسعود في موضع يقال له «الحويرة» وكُسر سعود ، فترك الترك وذهب إلى الداخل يطهره من الفساد ويجمع حوله الجيوش ، فانتصر في الدلم ، ثم قاتل أهل ضرمة وانتصر عليهم ، وكذلك طاوعته حريملا ، وأخيرا ضعف شأنه حتى قام عليه رجال عتيبة تحت إمرة زعيمهم مسلط بن ربيعان بأعمال النهب والسلب ، فنهبوا الجانب الغربي من الرياض ، فخرج اليهم سعود وتقاتل رجاله ورجال مسلط قتالا شديدا ذهب ضحيته كثير من المخلصين لسعود ، وأصيب هو نفسه بجرح بليغ ألزمه الفراش مدة ، وكان ينغر عليه ويتنعر منه الدم فمات من أثره سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م) .

وبموت سعود صفا الجو بعض الصفاء لعبد الله ، ورجع إلى الرياض فوجد فيها أخاه الصغير عبد الرحمن أميرا عليها ، فكبر عليه ذلك ، ولكن هذا كان على جانب عظيم من الزكانة والحكمة والنبل ، فنزل لأخيه الكبير احتراما له وقطعا لاشطان الفتن والثورات ، وما كاد يستقر عبد الله في الحكم حتى قام عليه أبناء أخيه سعود واستطاعوا — بعد مناوشات — أن يقبضوا عليه فألقوه في غياهب السجن ، غير أن محمد بن رشيد أمير حائل قدم إلى الرياض وأخرجه من سجنه بقوة ساعده وصحبه إلى حائل ، وجعل عبد الرحمن واليا عليها من قبله وذلك سنة ١٣٠٦ ﻫ ثم طلبه وجعله مع أخيه وولى مكانه سالم السبهان ، ثم عزله لاحتجاج أهل الرياض عليه لأن سالما جار وظلم ، وأقام بدله فهاد بن رخيص الشمري ، وبذلك لم يبق لآل سعود حكم أو نفوذ غير الاسم الكبير ، وأفل نجمهم .

ثم بعد سنوات ترك ابن رشيد الحرية لعبد الله بن فيصل في العودة إلى وطنه الرياض . ولم يأذن ابن الرشيد الا بعد أن وثق من أن الأمير السعودي عاجز عن القيام بعمل عدائي ، فهو مريض دنا أجله ، ولم يستطع المقام في الرياض الا يوما واحدا ، وقيل : نصف شهر ، ثم توفي في السادس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٧ ﻫ (١٨٨٩ م) .

وكان ابن الرشيد قد عزل سالما السبهان وولى مكانه فهاد بن رخيص للسبب الذي ذكرنا ، ولكن اختلافا حدث بين عبد الرحمن وأمير حائل أدى إلى اعادة المعزول وعزل المولى تنكيلا بأهل الرياض وتظاهرا بالايد والاقتدار ، وأمر سالما بالفتك بآل سعود كلهم ، لكن هؤلاء علموا بالنبأ فاحتاطوا للأمر ، واذ قدم السبهاني ورجاله أخذوا على غرة ، وقتل بعضهم وأسر بعضهم ، وبقي عبد الرحمن حاكما بالرياض قويا ، فبعث اليه أهل القصيم حينما سمعوا بعمله وبطولته أنهم معه وأنهم يعينونه بما يملكون ، وذلك لان ابن الرشيد لم يحسن السياسة معهم فأضمروا له الشر ، فاتحدت وجهتهم مع وجهة عبد الرحمن فصار هدف

الجميع واحدا ، فاتفقوا معه عليه ، ووردت أخباره ابن الرشيد فلم يطق صبرا واغتاظ ونهض للاخذ بثأر عامله ، وبينما هو يجتاز القصيم ثبت له أهلها ومنعوه عن السير ، فخدعهم ووعدهم بخيرات « الخوة » وبوادي مطير ، ففسحوا له الطريق ونكثوا عهد ابن سعود .

وأحاط ابن الرشيد وجيشه بمدينة الرياض وحاصروها حصارا شديدا أربعين صباحا فلم يفز منها بطائل ، ولم يُجْده الحصار ، فاستعمل الحيلة وبعث إلى أهلها يدعوهم إلى الصلح ، فبعث عبد الرحمن شقيقه « محمدا » وابنه عبد العزيز (مؤسس المملكة العربية السعودية) وكان عمره لا يتجاوز الثامنة ، والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف من آل الشيخ .

وتفاوض الفريقان ، وبعد أخذ ورد اتفقا على ما يأتي :

١ ــ اطلاق سالم السبهان من الاسر .

٢ ــ أن تكون امارة العارض للامام عبد الرحمن بن فيصل .

ولم يطلب محمد بن رشيد الصلح الا عجزا عن اقتحام المدينة ليفكر في طريقة ذات جدوى .

وما كاد يرجع ابن الرشيد إلى حائل حتى خرج اليه كبار أهل القصيم يسألونه البر بما وعد ، ويذكرونه به ، فتناسى ، ثم ماطل وسوف حتى أضجرهم وأحفظهم ، فذهبوا إلى قومهم وأنبأوهم بما كان فنهضوا كلهم يطلبون انجاز الوعد بالسيف ، فهو الحكم العدل لدى البدو ان عز عليهم أمر ، فالتقوا بابن الرشيد بالقرعا وهزموه ، فعمد إلى الحيلة ــ وهي سياسته الوحيدة ــ وتظاهر بالانكسار والهزيمة ، ورجع القهقرى كالهارب المجد ، فظن أهل القصيم ان ابن الرشيد هزم هزيمة منكرة فطاروا خلفه ، واذا الجيش الرشيدي يحيط بالعدو من كل جانب ويضع فيه السيف حتى قتل ألف رجل منهم وفيهم : أمير عنيزة « زامل

السليم » وأخذ « حسن بن مهنا » أمير بريدة وحبس في حائل ومات في سجنه ، وذلك في سنة ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م) وكانت الموقعة بمحل يسمى « المليداء » وبها سميت .

وكان عبد الرحمن قد جمع جموعه وسار بهم لمساعدة أهل القصيم الا أن أخبار هزيمتهم وردته فارتد ولم يأت الرياض ، بل ذهب إلى قطر ، ثم ذهب إلى الاحساء ، وكان بها المتصرف عاكف باشا فأوعزت اليه الحكومة العثمانية أن يفاوض الأمير السعودي .

فبعث عاكف باشا الدكتور زخور عازار اللبناني للمفاوضة ، فكان أول اجتماع لهما على عين « النجا » قرب المبرز ، ومما عرض الدكتور على الامام عبد الرحمن ما يأتي :

١ ــ أن يكون الامير على الرياض .

٢ ــ أن يكون تحت ولاية الحكومة العثمانية وحمايتها .

٣ ــ ألا يتولى الامارة إلا بعد اعترافه بسيادة الباب العالي .

٤ ــ اذا اعترف بسيادة الباب العالي وجب عليه أن يدفع شيئا من المال كالخراج اعلانا للخضوع والاعتراف .

٥ ــ أن تتعهد الدولة العثمانية بحمايته واعطائه المال والسلاح .

لكن الامام عبد الرحمن بن فيصل رفض هذه الشروط باباء وشمم ، اذ رأى من الخيانة أن يركن إلى أجنبي وأن يقبل المساعدة التي تقيده وتقيد بلاده ، فغادر الاحساء من تلقاء نفسه إلى الكويت ، لكن حاكمها محمدا الصباح لم يأذن له بالدخول فعرج على البادية .

ثم توجه إلى قطر فأذن له بالاقامة فيها فسكنها شهرين ، ثم أذن أمير الكويت للامام عبد الرحمن أن يقيم ببلاده ، فأقام فيها سنوات ضيفا عزيزا على الحكومة التركية .

وانتهى آل سعود من الحكم الذي خسروه ، وصاروا مشردين تتقاذفهم الفلوات ، أو لاجئين في بلد غير بلدهم ، ينتظرون يوم العودة إلى الوطن واستعادة الحكم .

واذا كانوا قد اختفوا من مسرح الحكم فانهم لم يختفوا عن مرسح السياسة ، وما كان لهم أن يختفوا ، ولو أرادوا لما استطاعوا الاختفاء ، لأن سمعتهم وذكرهم ومكانتهم تأبى إلا أن تجعلهم بارزين .

الجزء الثاني

- الطفولة والنشأة
- إلى الكويت
- فتح الرياض
- الحكم لله ثم لابن سعود
- ابن سعود ومبارك
- ابن سعود والكويت بعد مبارك
- بطلان يصطرعان
- ابن مهنا وأبو الخيل
- ظلم ذوي القربى
- فتح الأحساء
- الصحراء تتحضر
- معارك تربة

الطفولة والنشأة

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بمدينة الرياض في التاسع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١٢٩٧ هـ (ديسمبر سنة ١٨٨٠ م) ولد في الساعات الأخيرة من السنة الهجرية التي توشك أن تنتهي ، فاستقبله أبواه وآل سعود بحفاوة وترحاب .

ولما بلغ الخامسة بدأ يدرس على الطريقة القديمة اذ لم تكن بنجد مدرسة ، فكان يتلقى العلم على أيدي مشائخ ، وحفظ بعض آي الذكر الحكيم .

ولما أخذت الحياة تتقدم به بدأ يحس أنه من أسرة غير عادية ، من أسرة ذات نفوذ وسلطان ، اذ كان يرى قصر أبيه مزدحما دائما بزواره من مختلف طبقات الامة ، حتى اذا بلغ العاشرة أدرك أن أباه وأسرته تصارع قوى كبيرة .

ولما بلغ الحادية عشرة رحل مع أبيه وأسرته إلى قطر ، ثم إلى الاحساء ثم إلى الكويت حيث استقر بهم المقام .

وفي الكويت بدأ أبوه يفكر في بلاده التي غادرها مجبرا ، وصار منزله بالكويت

ملتقى الانصار ، وكان عبد العزيز يرى ويسمع ما يدور في مجلس أبيه ، وبدأ يفهم الاحداث على حقيقتها لأنه بلغ السادسة عشرة ، وأحس بالآلام المبرحة من الوضع الذي فيه أبوه وأسرته .

انه ألم الاب ورثه الابن ونشأ عليه ، بل ألم الاسرة تحدر إلى فرد منها ، ألم العضو من جراء مصيبة الجسد ، فقد كان أبوه الشهم سليل الحكام العادلين وفرعا من أولئك الامجاد السالفين دعاة التوحيد وحماة الدين في أول أمره ببلده بين أهله وأحبائه ، ثم هجرهم ومضى إلى الاحساء فالكويت على مقربة من نسيم نجد وطنه ومسقط رأسه يستنشقه في الصباح الباكر الجميل تحمله الصبا الوسني ، وفي الليل الشمال أو الجنوب ، ملتذا به معللا نفسه بالآمال العذاب يحققها ما دامت تحمل قدماه الجسد ، وينبض قلبه الخفاق بالحياة .

وقع اختيار الامام عبد الرحمن على هذين القطرين اذ جعلهما مستقره ومقامه ليسهل عليه اذا حانت الفرصة السانحة أن يريع إلى وطنه ينقذه من أيدي الطغاة الظالمين وينتزعه من براثن الموت أو يموت هو دونه مجاهدا في سبيل الوطن ، والموت في هذا الموطن النبيل شرف عظيم .

رأى ابن سعود أباه يتحدث إلى رجاله وأصدقائه عن بلاده وما ترك فيها وما تركت فيه ، ويذكرها في تأثر ووله ، ويذكر حوادثها وأخبارها ويحن اليها فأنصت وسمع كل ذلك وفهم بعض الفهم ، وأحس ما يضطرب في وجدان أبيه وما يتغلغل في سويداء فؤاده واشتدت به الآلام المبرحة المضنية ! .

ان كان أبوه عبد الرحمن يرقب الفرصة تسنح له فينقض كالشهاب على حكام بلاده الطغاة ومنتزعي السلطة من ذويها فهو أجدر من ينهج نهج أبيه ويتأثر خطاه ويكون حربا على خصومه ، ويفدي أمته ووطنه اللذين يحتاجان إلى مثله ومثل والده كي يكون إنقاذه من براثن الذؤبان على أيديهما .

ولد عبد العزيز في بيئة جمعت ألوانا من الحياة شتى ، فالوطنيون متخلقون بالصفات الكريمة العربية لم يفسدها البغي والظلم ، وجماع هذه الصفات : البساطة والسذاجة المحمودتان ، أما الحكام فقد كانوا ينظرون إلى أولئك نظرات الازدراء والتحقير ، ظلموهم ونهبوهم وهم صابرون على البلوى في ألم وغيظ ، وانتفخوا بالعظمة الكاذبة والسلطة الغاشمة ، فالوطنيون والحكام الجائرون الدخلاء على طرفي نقيض .

ولئن جمعت بينهم اللغة والدين والجوار فقد باعدت بينهم الغايات والنظر إلى الحياة ، ومع هذا فالدين عند الحكام لم يكن متبعا كل الاتباع ، هو في صميمه يحرم الظلم والطغيان وهؤلاء أباحوهما للمصلحة التي تقتنص عن طريق الظلم والاثم .

من أجل هذه الفوارق احتفظ الوطنيون بخلقهم النبيل ، واعتزلوا في بيئتهم الاولى ابتعادا عن الأهواء والأفعال المرذولة تعصف بالأخلاق الكريمة ، فلم يستطيعوا أن يضيفوا إلى فضائلهم فضائل جديدة نظرا للضيق والحجر عليهم من قبل الهيئة المتسلطة الجبارة .

أما أسرته فهي أشرف أسرة عرفت في نجد بمكارم الاخلاق ومحاسن الشيم ، بيدها مقاليد الحكم من قبل قرنين ، ولم يزل باقيا إلى هذه الفترة من الزمن التي غادر فيها الامام الامارة وتوجه إلى الكويت تحفزا للوثوب واستجماما للقوة ، فالحكم ان لم يكن بيد آل سعود الا أن ولاء أهل الرياض لهم ، وما اشتهرت به من سداد الرأي ورجاحة العقل وسماحة النفس وصدق العزيمة والاستعداد الفطري للقيادة مكن لها في القلوب جد التمكين حبا واكبارا ، فالامام عبد الرحمن والد عبد العزيز قوي الشكيمة أبي النفس وطني الروح ، وفي خلقه شيء من الصراحة المتزنة لم تفقده العطف والرفق ، فهو يبسم للضعيف ويقسو على الظالم ، ولم تكن هذه الصراحة الا في الحق وفي الخير وفي الفضيلة لأجل الحق والخير والفضيلة .

وأما أم عبد العزيز فمن سدير ، ونساء هذا البطن مشهورات بالجمال والذكاء ورقة الطبع وحسن الخلق والتقوى ، مع جرأة لا تنافي الانوثة ، كما اشتهر رجالها بصباحة الوجوه وفتنة الطلعة وحب الخير والشجاعة .

فهذه الأم الكريمة في نسبها وخلقها قد ورثت خير الصفات كما اكتسبت من أخلاق البيئة أفضلها فجمعت بين الوراثة والاكتساب حتى أصبحت امرأة كاملة مشرقة الرأي كبيرة العقل كثيرة الاناة والتفكير في مهام الامور ، هدتها تجاربها للحياة وروضتها مشاركة زوجها الآلام والمصائب في سبيل الوطن والدين ، وكانت تقوم بتربية أبنائها تربية اسلامية عربية خير قيام .

ولقد كانت معجبة — جد الاعجاب — بابنها عبد العزيز وسجاياه ، تتفرس فيه فترى مخائل النجابة وامارات الزعامة وسيماء البطولة تلوح في تقاطيع وجهه وهو في سني الطفولة .

والعادة في امرأة مثل هذه زوجة أمير وابنة أماجد زعماء ألا تهتم بغير الزينة ، وإلا بنفسها وتترك بيتها وتدبيره بيد الخدم والعبيد يفعلون ما يريدون ، وتكل أمر تربية أبنائها إلى الحوادم ، وهذا ما نشاهده في الأسر الكبيرة والطبقة الراقية ، وإلى هذا النوع من التربية يرجع انحلال الاخلاق .

ولكن والدة عبد العزيز لم تفعل مثل هذا ، ولم يشغلها عن تدبير المنزل وتربية الابناء شاغل من زينة أو عناية بالنفس خاصة ، لهذا كانت تربية عبد العزيز فريدة المثال تسير على مسلك قويم بعيد عن كل ما فيه زيف او اعوجاج .

ولقد كان الامام عبد الرحمن وزوجه — والدة عبد العزيز — كريمين إلى حد بعيد لا يبقيان على ما تحت يدهما من مال ونعَم .

من هنا جمع عبد العزيز الفضيلتين : ورث عن أبيه صفات الرجولة الكاملة

كما ورث عن أبيه وأمه صفات الاناة والروية والاريحية ، وبالطبع قد اكتسب صفات البيئة والرحلات والاحتكاك بمختلف الناس ، كما تحدرت اليه صفات بالوراثة .

وطفولة ابن سعود لم تكن عادية ، فأدوار حياة البطل العظيم وحلقاتها مفعمة بالبطولة والقوة ، فقد كان يتزعم أترابه الأطفال ويأمرهم فيطيعون ، حتى اذا بلغ الخامسة من عمره بعثه أبوه إلى مدرسة الرياض يتلقى علوم الشريعة فيها ، ولكنه وجد السير فيها بطيئا متعثرا ، ووجد مستوى تفكيره ودرجة ادراكه ارفع من مستوى تلاميذها ودرجات ادراكهم ، فخرج منها وأخذ يدرس على العلماء : الفقه والتوحيد والتفسير والتاريخ والآداب ، حتى حذق منها شيئاً كثيرا ، وأصبحت معارفه التي وعاها وهو في هذه السن تضارع من يتقدمونه سنا من الفتيان ، ولو وزن عقله لرجح على عقول الشباب المتعلمين اذ ذاك .

ولا نكران في أن يبز عبد العزيز أقرانه الأذكياء ويسبقهم بمراحل طويلة واسعة لن يستطيعوا أن يحاذوه إلا إذا قطعوها وثبا وهم لا شك لن يستطيعوا ما دام هو عبقريا وهم عاديون أو فوق العاديين بقليل .

إلى الكويت

غادر الامام عبد الرحمن الرياض مضطرا خشية من السلطة الغاشمة اذ بيتت له ولأسرته الشر والحرّب ، غادرها في جنح الليل فرقا على أولاده الصغار ومعه نساؤه خشية أن يسيء اليهم وحوش بشرية لا تعرف الحدود والواجبات .

ونزل الامام بأسرته لدى قبيلة من العجمان ثم تركها ووفد على قوم من بني مرة خرجوا من الربع الخالي ينتجعون الكلأ والمرعى متتبعين الغيث ، وبقي نزيلا عندهم بضعة شهور .

وبنو مرة — هؤلاء — جفاة الطباع قساة القلوب ، واذ رأى الامام الا صبر له ولأسرته على هذا النوع من الحياة لما فيه من الشدة والقسوة تركهم وسار إلى الكويت.

مكث عبد العزيز مع أبيه في الدوّ لدى بني مرة حتى ألف التقشف وراض نفسه له . وعود نفسه وجسمه الصبر على المشاق واحتمال الصعاب . من حمارة القيظ وصبارة الشتاء ، والأعاصير الهوج من حرجف وسعار ، والجوع والنقص في الاموال والثمرات .

ولقد أفاد عبد العزيز من عشرته لبني مرة ، فتعلم أنواع القتال ، وحذق أساليب الحرب من كر وفر وهجوم وختل ، فقد اشترك في غزواتهم ، ووقف في صفهم محاربا حتى ألف الخشونة في الحياة والصبر على الجوع . والاكتفاء بالحفنة ، وعرف مسالك الصحراء ومجاهلها ومتيهاتها ومواقع الماء وما يصلح للمأوى ، وازداد خبرة بنفوس رجال القبائل وفهما لرغباتهم وميولهم .

ولقد أثر جو الصحراء الصاحي في عبد العزيز ، فأصبح قوي البنية مفتول الساعد غالي العظم شجاعا مقداما صبورا على الشدة ، واستطاع الامام عبد الرحمن أن يستميل قلوبهم ويؤلبهم ضد خصومه ويقيمهم حاجزا حصينا بينه وبينهم . ولكنه نفر منهم أو من المقام بينهم لغلظة في طباعهم .

وعلى سيف الخليج الفارسي نزل الامام وأسرته وسكنوا منزلا أشبه الكوخ ، فيه حجرات لا تتجاوز الأربع ، لعل احداها كانت للاستقبال وثانيتها للطهو ، والثالثة والرابعة خاصتان بهم ، وفي غرفة الاستقبال مدفأ يصطلون به شتاء ، وفيه موقد يصنعون فيه القهوة والشاي ، ولم يكن المنزل مفروشا بالرياش والبسط مزودا بالأثاث والأمتعة التي تليق به ، لأن الامام كان في هذه الآونة فقيرا ، فعاش في شيء من الضيق والعوز ، فأمواله بالرياض ، ولم يستطع عند مغادرته اياها أن يأخذ منها شيئا يذكر ، وأكلت النفقة ما أخذ في طريقه حتى اذا وصل الكويت صفرت يداه ، ولم يبق معه شيء من المال فازدادت حاله رقة وسوءا .

ولكن الامام تعود صنوف الحياة الكثيرة ، فلبس النعمة الناعمة كما ارتدى الخشونة الخشنة ، فلم تتأثر نفسه من أجل نفسه ، وانما كان تأثره على أبنائه الصغار لم يتعودوا الكاربة ، وقد حمله حاضر حياته الى أن يذكر بلهنية عيشه في الرياض ، ويقيس منزله الصغير المتواضع بالكويت على قصره الواسع الكبير بالرياض .

لم يكن تألمه لامواله وخدمه فحسب ولكنه كان أكثر من ظلم الحاكم مواطنيه.

ان البون شاسع بين حياة الرياض وحياته الجديدة في الكويت ، ولكنها أخف وطأة من حياته مع بني مرة .

في هذه الاثناء فاوضه الاتراك في الرجوع الى بلاده ومحاربة ابن الرشيد على أن تمده الحكومة التركية بكل ما يحتاج اليه من مال وعتاد ورجال فرفض الامام النبيل بإباء أن يكون آلة في يد غيره يسيرها حسب رغبته وإن يكن في ذلك ربحه المادي .

وما كان الامام عبد الرحمن قط أسيرا للمادة وآلة بيد أحد ، فكيف ومن يفاوضه غير عربي يريد أن يستخدمه في تنفيذ سياسته يؤمن بنقيضها ؟ .

ولهذا رفض الامام النبيل أن يكون في صف الاجنبي ضد وطنه ومواطنيه شركائه في اللغة والوطن والدم ، برغم محاولة الترك — كثيرا — استغلال نفوذ الامام عبد الرحمن الادبي ، ولكن محاولاتهم ذهبت مع الريح .

وحضر عبد العزيز المفاوضات بين والده المحنك والترك ، وأدرك أهداف أبيه وأهداف مفاوضيه .

وشهد وهو في الخامسة عشرة من عمره غير هذا بباصرته وبصيرته ، شهد التنافس بل الصراع في الكويت بين أقوى الدول الاوربية ، فالجرمان والانجليز في نزاع ناشب من أجل البترول ، كل منهما يريد أن يكون صاحب الامتياز في المنطقة الغنية . وكان الجرمان في عمل مستمر ومفاوضة متصلة ملحة مع الترك ليمدوا السكك الحديدية تحقيقا لحلم الامبراطور غليوم في تمهيد غزو الشرق ومزاحمة انجلترا في أسواقه وبحاره ، واستعدادا لتعكير الصفو عليها في الهند .

وفي الوقت نفسه كان الروس يحاولون أن يجعلوا الكويت محطة من محطات الفحم ، فبذل الكونت كابنست الروسي كل جهوده في مد السكك الحديدية ليصل بين الخليج الفارسي والبحر الابيض المتوسط ، ولكنه أخفق ، وبالرغم من هذا الاخفاق نشب بين الروس والالمان نزاع وتنافس .

لم تترك كل دولة من هذه الدول ما لديها من وسائل واغراء الا واستعانت به لاستمالة أمير الكويت ، ولكن أمير الكويت كان يفاوض كل دولة على حدة ويعدها ويمنيها وما يعدها الا غرورا وكذبا .

قال الانجليز وقال الالمان وقال الروس ، ولكن الشيخ مباركا حاكم الكويت ينظر من كثب ضاحكا مستهزئا حفيا عن كل دقيق وجليل ! ويُرِي ولده عبد العزيز – كما كان يدعي – تقلبات السياسة وأحابيلها وما ينجم عنها من الخصومة والشقاق بين الحكومات ، ويقفه على ما يدور بين الدول من أجل المصلحة والوسائل التي اتبعها في تفريق كلماتها وايقاعها في الورطات ، وجعل البأس بينها شديدا اضعافا لقواهم حتى يسود عليها بعد أن يضرب بعضها ببعض وهو آمن بعيد عن الاذى ، فتعلم عبد العزيز كثيرا من المبادىءالسياسية وحذق لغتها المرنة ووسائلها الغريبة وأساليبها المتنوعة ، وتسنى له الاتصال بممثلي الدول والتحدث اليهم والاحتكاك بهم ، فانكشف له الزيف والصحيح ، والرديء والجيد ، وعرف الحلول الصحيحة لكثير من المشاكل ، ومن ثم تدرج في طريق الكمال ، وكانت عبقريته الباكرة الناضجة تعينه أجمل العون على ادراك الامور ادراكا صحيحا وفهمها فهما جيدا .

تنافست الدول الثلاث الكبرى يصافح مندوبوها حاكم الكويت بيدين : احداهما بها الوعد المرموق والذهب والمال والجاه والسلطان والحياة الدنيا ، وفي الاخرى وعيد ملفوف وتهديد مستور يشار اليه بهما والشيخ مبارك يمطل ويسوف ، والالمان يريدون الاسراع ، والروس مضطربون خشية من أولئك وغيرهم ، والانجليز ينقدون عروض الفريقين ويفسدون خططهما ، ويمعنون في الاغراء ، ويرقبون الحالة من طرف خفي لا تفوتهم اللمحة الخاطفة مما يدور بين مبارك والالمان والروس .

وسئم الالمان من مفاوضة مبارك والتوسل اليه بشتى المغريات ، وهم يعلمون أن مباركا لم يقفز إلى كرسي الحكم الا بعد أن اعتلى جثتين هما جثتا أخويه اللذين

اغتالهما ، ولم تعترف به – بعد – السلطنة في تركيا ، فالأجدر بهم أن يتوسلوا بها ، فإما أن يقبل عروضهم ويفسح المجال لحلفائها الالمان أو يكون عرضة للعزل والتنكيل .

ورأى مبارك النذُر وشام البرق يلمح من بعيد ، وعرف ما ينوي الالمان والترك ولا طاقة له بهما ، ففكر في أمره ، أيلقي بنفسه بين أحضان الروس وهم قوم ليس بينهم وبين العرب صلات ودية ، بل هم غرباء عنهم ولا شك ، فالرأي أن يدعهم ويتجه الى جانب آخر .

لم يبق الا الانجليز وهم قريبون منه ، ولهم قدم راسخة في بلاد الشرق ، ولهم سوق تجارية في بلاد العرب ، وولاء وصداقة مع حكامها ، فألقى بنفسه اليهم فتلقوه بأحضانهم .

مضت خمسة عشر عاما من سني عبد العزيز دراكا ، وكلما مر عام تفتحت أمامه الابواب والسبل ويتراءى له المستقبل في طياته الآلام والاحلام ، يبسم لهذه تارة ويتألم لتلك أخرى ، لكن جانب الالم طغى على نفسه ، واذ رأى الحقيقة المجردة ظهرت له بثوبها الشفاف اشتد تفكيره وشغل فراغ أوقاته بالتقدير والحساب ، وتأثر تأثرا بما كان يدور بين والده والترك من مفاوضات ، وما يدور من أحاديث الوطنية بينه وبين رؤساء القبائل الموالية وزعماء الكويت ، فعرف نفسه وموقعها من النفوس الاخرى معرفة جيدة فوخزته الآلام ، وأخذ يحاسب نفسه حسابا قاسيا ، واذ بلغ به الالم مبلغه فاتح أباه بخلجات فؤاده وما يتغلغل في أعمق أعماقه من خواطر وشجون نحو بلاده ، وعدم احتماله البعد عنها وآلامه لهذا النأي المر ، ولئن كان هذا وحده لهان الامر وسهل ، فالمرء – كثيرا – ما يتغرب عن بلاده بيد أنه لا يقتله الاسى ويضنيه البعاد ، ويألف غير بلاده على مرور الزمن اذا كثرت غنيته به ، انما

بلاده وأمته تذوقان طعم العلقم ، أتراه يحتسي كؤوس الشهد وهما كذلك ؟ ما العمل وليس له حول ولا قوة ؟..

اذا لم يكن في وسعه أن ينتزع الحق ويمحق الباطل فلا أقل من أن يضع بعض أحمال همومه وما يضطلع من الآلام بالشكاة والتحدث الى أبيه الشيخ الوقور وقد جرب الحياة وعركها وتعمق في فهمها ، ويأخذ عنه دروسا في الوطنية ومبادىء الحرية ويهتدي بثاقب فكره .

فاتح أباه بما يعتلج في نفسه ، فعرف أبوه أن الغرس شارف الايناع وسوف ينتج زهرة تتفتح عن كمها لتملأ الارجاء عطرا فتأخذ بالالباب والابصار ، وتوجه اليه مهتما بتربيته تربية اسلامية حقة ، يتعهده بنفسه ويلقنه المبادىء القائمة على الحق والفضيلة والنبل وهدى البصيرة ، مذكرا اياه مجد آبائه وأجداده ، ومن جملة ما لقن : ان الموت خير من العيش الذليل ولو كان صاحبه في نعمة وارفة ، والعيش تحت ظلاله والاستكانة اليه شر من الموت .

وفرح الابن لهذه المبادىء يتلقاها عن أبيه وطابت نفسه لهذه الدروس يتعلمها منه ، فرح لأنه آنس من نفسه الاستعداد للقيام بالاعمال المجيدة الجليلة المنتظرة منه ، واعتقد أنه كفء لها الا يكن في حاضره ففي المستقبل الداني .

وفرح أبوه لأن البذرة التي ألقاها في قلب ابنه العبقري وتعهدها قد ظهرت وريقاتها تستنشق الهواء وتتجلى للنور ، وأخذت في النمو ثم أثمرت وآتت أكلها الاولى ، وطعمها ينبىء بما فيها من خير وفير في المستقبل القريب أو البعيد .

وانه لكذلك والحياة تخطو به وثبا دراكا شارف على السابعة عشرة ، واذ أكان قوي الساعد طيب البنية سليمها غالي العظم نبت نباتا حسنا ، وأصبح يرى وكأنه فوق الخامسة والعشرين ، ومن تلك السن المبكرة قام بأعباء الحياة والمسئوليات خير قيام كما يقوم الكبار وهو ما دون العشرين .

ولم يكن في هذا السن متهورا ، بل كان هادىء الطبع متزنا ووقورا ، وكان المثل الرفيع للشاب المسلم الصالح التقي العفيف ، لم يترك صلاة الجماعة بل كان حريصاً على ادائها في المسجد ، وكان يصوم منذ العاشرة ، وكان يُظَنّ به البله لوقاره وهدوئه وكثرة صمته ، فاذا تكلم فالمنطق الخالب ، والإيجاز المحكم ، والرشد والزكانة وسعة الذهن وكبر العقل وصحة التفكير .

فتح الرياض

بلغ ابن السعود العشرين أو كاد ، وازدادت آلامه أيما ازدياد ، واشتدت حماسته ، فلم يجد بدا من التصريح لوالده بأن ساعة العمل قد أزفت فلا بد من النهوض ، حتى لقد شعر في نفسه بالقدرة على مناجزة الخصم وطلب الحق الصراح جهرا وانتزاعه انتزاعا ، فمضى الى والده عبد الرحمن يستأذنه في الذهاب لتحقيق الاماني وتخليص أمته الرازحة تحت نير الظلم والعبودية ، وتحرير بلاده التي تئن تحت صخور الذل والخسف تصيح مستنجدة بأبنائها البررة ✦

✦ تردد الوالد — وهو المجرب المحنك — في أول الامر لعلمه أن ما معه من المال والرجال لا يضمن الفوز ولو أن ابنه في نفسه القوية جيش لجب . وقيامه في هذا الوقت يلفت نظر عدوه اليه والى أنصاره ورجاله فيعمل على ابادتهم بعد أن يأخذ الحيطة والحذر منهم ، وبذلك تفوت الفرص .

لكن الابن الطامح المتوثب صمم العزم على انفاذ ارادته محتجا بأنه ما أقدم على هذا الامر الخطير الا وقد وضع نصب عينيه الموت ، ثم وضع الخطط التي يسير عليها ، فان رجع سالما فذلك لطف من الله وفضل ، والا فلا راد لقضائه — ويقضي

الله أمرا كان مفعولا — ومحتجا بأن خصمه في شغل عنه في آونته هذه بعدو عنيد جبار ، وليس في استطاعته تفريق قوته ، فليهتبل الفرصة وقد واتته أو تتلاشى فيصعب ايجادها ، وقل أن يسمح الزمن بمثلها .

تردد الوالد حتى اذا رأى من ابنه العزم المصمم والتوكل على الله والقسم بأنه ليحققن ما يتمنى ما دام ينبض قلبه بالحياة أذن له وبذل له النصائح والوصايا الغالية ليقود الامور قيادة حازمة ، وأوضح له الطريق اللاحب الى الغاية في غير عناء ، وبين له ما يحتاج اليه المحارب والقائد والرئيس ، ثم نفحه ما كان لديه من مال ، ودعا له بخير .

وبعد أن حصل عبد العزيز على اذن أبيه أخذ يجمع بتاته [1] وما يحتاج اليه هو ومن معه من مؤونة وسلاح ، وإذ رأى أن ما معه لا يقوم بحاجته طلب الى الشيخ مبارك الصباح أن يساعده بجيش يغزو به الرياض وينتزعها من آل الرشيد ، وذكر له أن سيره إلى الرياض ومحاربته جيش ابن الرشيد بها يشغله ويضعفه ويشتت ذهنه وجيشه ، ويضطره الى أن يحارب في جبهتين : الجبهة التي يفتحها هو نفسه ، والأخرى التي يتهيأ مبارك لفتحها .

وعندما طلب عبد العزيز الى مبارك أن يساعده كان قد أعد جيشاً عظيماً لمحاربة ابن الرشيد ، وكان يتهيأ للسير به إليه ، فاستصوب رأي عبد العزيز ولبى طلبه ، وأعطاه ألف محارب سار بهم من موضع يسمى «الشوكة» وكان ذلك في سنة ١٣١٨ ﻫ وعمر عبد العزيز عشرون سنة .

نهض عبد العزيز يسترد حقه المسلوب قائدا هذا الجيش ، ومضى نحو غايته ، ولم يقف سيره الحثيث الا في الرياض ، فقد دخلها ظافرا ، واحتلها كلها ، وفرح أهلها بعودته ، ودانوا له بالسمع والطاعة ما عدا ذلك الحصن المنيع ذي الأبراج

---

(١) البتات : ما يجمعه المسافر من زاد ونحوه .

الأربعة تعتصم به حامية ابن الرشيد يقف في وجه عبد العزيز وقفة التحدي ، ولم يستطع عبد العزيز أن يفتحه أو يقتحمه على ما أبدى من المهارة وصنوف الحذق والحيلة ، ثم ضيق عليه الحصار مدة ، ولكن الحصن بقي على تحديه ، فالحامية آمنة ، لديها من الذخائر والمؤن والسلاح والطعام ما يكفيها شهورا ، وفي خلال ذلك يأتي ابن الرشيد يخلص حاميته ويسترد الرياض ، فأبت الحامية أن تجيب بغير التحدي وإطلاق الرصاص من الابراج والكوى على كل من يدنو من الحصن الحصين .

وكاد الأمر يتم لعبد العزيز في الرياض كلها ، وكاد الحصن يقع في يده إذ أراد أن يخترق ناحية من جداره ، وبينما هو يتخذ لاقتحام الحصن عدته وردته الأنباء بانتصار خصمه القوي ابن الرشيد على الشيخ مبارك الصباح في وقعة «الصريف» انتصارا باهرا ، فحسب عبد العزيز حسابه بدقة فرأى من الخير ترك الرياض والعودة الى والده بالكويت ريثما يعد العدة ، ويعيد الكرة .

فابن الرشيد قد ظفر بابن الصباح جد الظفر وصفا له الجو ، ومن غير شك أنه آت بجنده الكثير المزود بأضخم الاساحة وأفتكها ، ويجمع في طريقه من القبائل ما يصادف ، والنصر أدعى له عليه ، فالرياض لم يزل قلبها حصينا قويا بحامية ابن الرشيد المعتصمة بحصنها الحصين ، وما معه من القوة والعتاد يسير بالنسبة لقوة خصمه وعتاده ، ومن المسلم أن ينتصر القوي ، فخير له أن يحقن دماء رجاله ويعود الى أهله ويدع الرياض حتى يستجم قوة تمكنه من الفوز ، ويستعد أكثر ليكون النصر المؤزر أملك له ، وتركها وقفل راجعا من حيث جاء وقلبه أعمر ما يكون بالايمان بنصره القريب ، وانه سوف يتم له تخليص أمته وبلاده من الجور .

قفز عبد العزيز الى كرسي الامارة ثم غادره ، فأي نفع جره لنفسه من كل ما لقي من العناء ، وما بذل من الجهود ، وما أنفق من الاموال ، وما ركب من قفاف وخبار ، وما واصل من سير وسرى بالليل والنهار ، وما احتمل من حر الصحراء

المحرق كالنار ، وما حمل جنده من النصب والأين أياما وليالي ؟ فلما بلغ بعض ما أدركه تركه من حيث جاء لنبأة يسمعها عن خصمه وانتصاره !.

وهب أن خصمه قصده فلم يهرب من مواجهته ومنازلته ؟ واي ربح له فيما عمل ؟ .

هذا ما أخذه عليه الشامتون وبعض قصار النظر ، وما هم على صواب .

وقد ربح عبد العزيز من غزوة الرياض وفتحه اياها وبقائه بها بضعة شهور ثم مغادرته لها ربحا وفيرا ، فقد أتيحت له مقابلة مواطنيه وأصحابه وكثير من أهله ، كما اتيح له تجديد العهد معهم بالعون والمساعدة متى آب اليهم ، كما تمكن من أن ينفخ في نفوسهم روح الحمية والنشاط ويذكي فيها نار الحماسة ويملأها قوة وايمانا ، ويعاهد كبار أهل الرياض وزعماء القبائل فيها الموالين لآل سعود — وهم كثير — على ما فيه خيرهم وفلاحهم .

والربح الاوفر من فتحه الرياض ثم تركه اياها ورجعته من حيث جاء جس نبض ابن الرشيد واختبار قوته الحربية التي يعتمد عليها في القتال ، وامتحان وسائل الدفاع التي يستعملها لحماية نفسه وصيانه ممتلكاته ، ورسم الخطة القوية يتبعها في الغزو متى عاود الكرة ، ومعرفة الافراد والاسر والقبائل المشايعة له أو المناصرة لعدوه ، وفي الوقت نفسه خدعة لابن الرشيد لئلا يطلبه ويسعى الى هلاكه اذ هو رقيق الحال قليل العتاد ، وعدوه يفوقه بما لديه من الاسلحة والذخائر الحربية عشرات المرات فيقضي على حركته الناشئة التي دبت فيها الحياة القضاء الاخير .

ولكن اظهار الخوف من العدو القوي من جانب عبد العزيز ومغادرته الرياض لمجرد نبأ يصله بانتصار خصمه والفرار لذلك يجعله في مأمن من تتبعه آثاره ، لعلمه أن ابن الرشيد مفقود المرونة السياسية والتفكير في الامور والاوضاع من شتى نواحيها ،

ولم يوهب الدهاء المطلوب في السياسي والقائد ، ولعلمه أن ابن الرشيد اذا أتى الرياض ودخلها بدون قتال ولم يجده فيها أو في أطرافها ظن في نفسه القوة التي أرغمت المحتل على الهرب ، وفسر الحوادث بظاهر معناها فلا يعود يفكر فيه وفي كر الغزو فيطمئن .

وهذا تفكير عميق من عبد العزيز ورأي آية في السداد والحكمة والدهاء ، وفهم صادق للحوادث ومعرفة للطريق الذي تسير فيه .

فتفكير عبد العزيز في مغادرة الرياض تفكير صحيح ، تفكير قائد ذي حُنْكة ودراية وعبقرية .

وقد صدق ظن ابن سعود فقد فسر ابن الرشيد ذهاب خصمه وقناعته من الغنيمة بالاياب بأنه قد غلب على أمره ، وحسبه هربه من بلده الذي فتح واسراعه في الفرار بمن معه من الرجال ، وتركه وشأنه ولم يعره اهتمامه في باديء الامر ، الا أنه انقلب في أواخر أيامه فريسة هموم يبيت متململا على فراش من قتاد مؤلل يفكر في مصيره ومصير امارته إن تغلب عليه عدوه ، وخدم الحظ خصمه اللدد في الخصومة ، واستسلم للهواجس وأقضت مضجعه وسلبته هناءة الحياة ولذة العيش ومتعة الحكم كما يأتي ذلك في موضعه من هذا الكتاب .

* * *

مضى عام لغزاة عبد العزيز بن سعود الرياض ، وهو في خلاله ينظم الامور ويرتبها مرتقبا بفارغ صبر ذلك اليوم الذي يدخل فيه الرياض سامق الذرى يتسلم عرش آبائه الصيد ، ويطهر نجدا من الجراثيم التي تؤذيها في الصميم ، وهو في ذلك قاق مضطرب لأنه خلق للقيادة ، فالبطل الزعيم لا يرتاح في حياته لأنه يعيش لغيره ، فان رأى الخير دانيا منحه غيره ، وكذلك ما لذ له واستمتع به شارك فيه الناس ، وطالما يؤثر غيره على نفسه وأهله ولو كانت بهم خصاصة .

وأطلت سنة ١٣١٩ هـ فعاود القلق ابن سعود كما عاوده الحنين الى صبا نجد، ودعاه القلب بل نادته طبيعته الى النهوض والسعي والأخذ بأسباب المهمة التي أعد من أجلها ، ومن كان له مثل طبيعته وطلابه لا يرتاح أبدا ، يساوره القلق دائما حتى يبلغ ما يريد ، وما يريد الا المجد ، ولا يتمنى غير الكمال .

وما كاد يبزغ هلال هذا العام حتى تحركت في نفس ابن سعود القوى الكمينة وأخذت جذوة الوطنية تتقد وتتضرم في روحه القلقة المتبرمة بالواقع المكروب فخامرته فكرة اعادة الكرة على الرياض للمرة الثانية والجلوس على كرسي الامارة جلسة متمكنة لا يزحزحه عنه شيء ، وعسى الله أن يسهل له أمر فتحها فينقذ بلاده وأمته، فطلب الى الشيخ مبارك الصباح أن يعينه كما أعان في الاول، ولكن مباركا لم يكن واثقا من النصر يحرزه هذا الشاب بمن معه من الرجال في مناوأته لابن الرشيد، وهو نفسه قد اندحر بقواته العظيمة أمام هجماته ، فعسير عليه أن يجازف بجنده وذخائره وعليهما يعتمد في الدفاع ، وقد ذاق في المرة الاولى مرارة الهزيمة ، وليس من الحكمة أن يذوقها مرة أخرى .

وكيف يرد طلب هذا الشاب الناهض الطموح وقد ساعده في الغزو الاول بشيء كثير ولا يقف عند حسن ظنه ، اذن، لا بد من اجابة طلبه بشيء يسير ، ومنحه مثتي ريال وثلاثين بندقية وأربعين ذلولا وقليلا من الزاد .

واستأذن والده والشيخ مباركا وخرج الى الصحراء يقود أربعين بعيرا عليهـا بعض آل سعود ومن يوالونهم، يقوده الامل الباسم الكبير يملأ قلب هذا البطل يجازف بحياته — أخطر مجازفة — والايمان بالنتيجة ترضيه يدفعه الى التقدم في ميدان العمل الذي يريد ، لا يحفل بحمارة القيظ المحرقة وبرد ليل الصحراء وبعد الشقة وما يسبب من الآلام المضنية ، انما الغاية التي يعمل من أجلها أنسته ما يحيط بها من أشواك ومشاق ، وأنسته المكاره ، بل أنسته نفسه، ولم يعد يفكر الا في بلاده والوسائل التي توصله اليها ، وكانت الاحلام تطيف بذهنه في عنف ! وبدت له أشباح الهول مخيفة في ظلام المستقبل ! .

ولكن ابن سعود قوي الايمان كبير القلب عظيم النفس ، فلن يعرف الخوف اليه سبيلا ، اذ هو أقوى وأصلب من المرداة [1] في مواطن التضحية والحروب !.

أيخاف ابن سعود وترتعد فرائصه من تلك الاشباح تتراءى له في ظلمات الغيب ؟.

كلا ، ليقدم ، وليكن بعد ما يكون ! موت أو حياة ليس غير ، فلم الخوف ؟.

وبدت له الاهوال والمخاطر في أبشع صورها ولاحت له من بينها طيوف المجد تجللها هالات العظمة والخلود ، هالات الفرحة بالنصر .

هاهوذا ابن سعود في الصحراء يقطعها مستظلا بالادواح الباسقة ذوات الاشواك الابرية ناشرا عباءته يتقي بها لظى الشمس الغاضبة مع رفاقه كأنها الخيمة ،ويتناولون القهوة والشاي ، ويتحادثون مطمئنين كل الاطمئنان ، فإذا أقبل الليل هرعوا مهطعين الى الكهوف الكبيرة في الجبال يعتصمون بها من الليل .

اولئك هم يوقدون النار طلبا للدفء والحرارة أو الطهي ، وابن سعود لا يفضلهم في مظاهر الامور شيئا ، يعمل عملهم ، وينفخ بفيه على الحطب يوقده لرجاله ، وطالما سهر وهم نائمون ، فاذا استيقظ أحدهم فجأة ألفاه منتبها يحرسهم — بعدالله— فيطلبون اليه أن ينام ، ويطلب اليهم أن يتركوه ، فاذا ألحوا عليه أجابهم : دعوني يا صحاب وناموا ، وان طالب المجد لا ينام حتى يدركه أو يدركه الموت ، وطالما يركب رجاله ويؤثر المشي بغية راحتهم .

يطوي المراحل حافيا اضراما لجذوة الحمية والنشاط في أنفس رجاله حتى يصبروا ويجلدوا .

---

(١) المرداة : صخرة تكسر بها الصخور .

خرج ابن سعود يقود أربعين بعيرا ومعه تلك النقود اليسيرة والبنادق القليلة ، وضرب في الصحراء يختلف الى القبائل التي في طريقه يستنصرها .

من هو ابن سعود ؟ أليس ابن عبد الرحمن من آل سعود من آل مقرن ؟ أليس من سلالة عريقة في الحسب والنسب ؟ أليس هو البطـــل العظيم يطالب بحق سليب : بمجد الآباء ، بكرسي الامارة المغصوب ، ودأب في انقاذ أمتــه وبلاده ؟ بلى ، هذا بعض خصائصه ، فلا بد أن تأتيه القبائل مؤازرة !.

أتته العجمان شراذم شراذم ودخلت تحت طاعته وسارت معه أنى يسير ، حرب على من حارب وسلم لمن سالم ! كما انضمت قبائل سبيع وبني مـــــرة والسهول وقبائل أخرى نصرة لهذا البطل الجديد وابتغاء الفيء والكسب وعرض الحياة الدنيا ، فما وصل « حرض » حتى بلغ جيشه ألفا وخمسمئة ، فقوي بهم واعتزوا به ، ومضى يشن الغارة على القبائل المجاورة الموالية لخصمه كمطير والدواسر وقحطان، مضعفا من شأنها حاطما قواها ، ولقد حالفه التوفيق وآزره النصر ، وأفاء الله عليه الغنائم متسردة كثيرة .

وكان من توفيق الله لابن سعود انتصاره في كل مهاجماته وغاراته على القبائل المناصرة لابن الرشيد ، وظل يناوئها زمنا يختبر الاحوال ويتنطس الانباء ثم يؤوب الى الاحساء جاعلا من الغنائم التي نفله الله اياها من القبائل المغزوة ذخيرةلهولجنده ليتسنى له المضي الى غايته والتجهيز لفتح الرياض .

* * *

ترامت أنباء ابن سعود وما عمل في القبائل الى سمع متبوعها ابن الرشيد فتنبه له وأخذ في اتخاذ أسباب القضاء عليه ، فطلب من الاتراك أن يقفوا في وجه خصمه ، ويغلقوا أمامه أبواب الاحساء ، وألا يسمحوا له بالمقام فيها أو التردد عليها أو التمون منهـــــا .

أما الاتراك فلبوا دعوة حليفهم ابن الرشيد ، وصحوا الى هذا الذي ينافس تابعهم السيادة ويغزو قبائله في غير هوادة فمنعوه وأغلقوا في وجهه أبواب الاحساء فلا يستطيع اجتياز حدودها .

وبزغ نجم ابن سعود وسطع ضوء سعده ، واتجهت الانظار اليه ، وأسمعت حوادثه من كان بأطراف الشام والحجاز والعراق وتركيا ، وشغل الامراء هذا المتمردُ الخارج على أمير نجد الشمري .

ولكن كاد نجمه أن يأفل ، فما ادخره من المؤن والزاد قد نفد ، وما كان معه من جيش تجمع من البدو الطامعين في الغنيمة والربح قد تفرق عنه وفر حينما رأى المنهل العذب ناضبا ، وما الجدوى من الغنية بأرض جديبة تبخل على روّادها بالحياة ؟ .

فر جيش ابن سعود فكاد نجمه يأفل اذ لم يبق معه غير أولئك الذين خرج بهم من قبل – وعددهم أربعون رجلا – وصارحهم بحالته وما في نفسه ، فبايعوه على نصرته وأن يكونوا تبعا له أو يأتيهم الموت .

ومن العجيب أن تفرقَ هذا الجيش لم يفت في عضده ولم يؤثر في نفسه ، ولو كان هذا الامر مع غيره لما استطاع أن يعيش ، بل يذوب الطموح الى السيادة اذا وجد نفسه بين قلة من الرجال !.

انما هو عبد العزيز ، البطل الغلاب ، ولن يحطم قواه تفرق جيشه فهو في نفسه العظيمة جيش غلاب !.

هنا آلى على نفسه ليغزون الرياض بهؤلاء الاربعين – صفوة رجاله وأحبائه – ويفتحنها أو يموت ميتة الشرف والكرامة ! فالى متى تظل بلاده وأمته تتناولان كؤوس العلقم المرة ؟ فليشرب من هذه الكؤوس ويشاركهم مذاق الظلم والشدة

والشقاء أو يسقيهم كؤوس الهناءة والحرية دهاقا ، ويخلصهم من الأغلال والقيود التي أدمت أيديهم وأرجلهم .

وعاد الى أبيه بالكويت يستشيره ، فأشار أن يرجىء ما عزم عليه ، وأخذ يريه خطورة ما يقدم عليه ، ونصح له الشيخ مبارك بأن يدع هذا الامر ولا يلقي بنفسه الى التهلكة لأن فيه الردى الصائل ، فهو نفسه أشد منه قوة وأعظم أيدا لم يستطع حرب ابن الرشيد ، وغلب على أمره وانهزم وقتل معظم جيشه وزهرة رجاله ، لكن ابن سعود شاب قوي الايمان بالله عظيم الثقة بنفسه ، وله ارادة حديدية فلا يثنيه عن عزمه قول قائل ، فأصر على حرب ابن الرشيد ، وليكن ما يكون ، وقال عبد العزيز لمبارك : الموت أن أبخل بنفسي وأتوارى عن ميادين الشرف سأحارب ولو كنت وحدي ! .

وأصر البطل على رأيه وما انثنت قناة عزمه ، فأذن له أبوه ودعا له بخير وزوده بنصائحه يهديه الى آمن السبل وأقومها .

وغادر ابن سعود أباه على بركة الله متجها صوب الرياض ، فاذا احتلها سهل عليه أن يجمع الجيش الذي يعينه على احتلال نجد كلها ، ويجعلها حصنه اذ فيها أتباعه ومريدوه ، وكل أهلها يحمل لآل سعود خير العواطف ، فهي أولى بالاحتلال قبل غيرها .

وأغذّ السير حتى اذا قرب منها بحث عن طريق الهجوم ووسائل الاحتلال حتى يقتحم الحصن الذي تعتصم به حامية ابن الرشيد،ويقضي على نفوذه قضاء لا تقوم له قائمة بعد .

بحث عن كل أمر له مساس بخطته بحثا دقيقا ، وقدر لذلك ما شاء له ذهنه الخصب النير أن يقدر مستضيئاً بهدي قلبه الملهم ، وآراء ذوي الرأي والزكانة من رجاله ، وانتهوا الى البداءة بالطاغية يجز رأسه ويراق دمه وبالحصن يهاجمونه

ويقتحمونه فيلحبّون بسيوفهم من رجال الحامية من يقاوم ولا يعنو ، فاذا وسعهم ذلك كان من السهل عليهم احتلال المدينة ويتم له الامر كما يروم .

هذه خطة الغزو ، وهي محكمة تضمن النصر بثمن بخس ، ولقد نجحوا بها وانتصروا على خصومهم ، فهذا الحصن المنيع تعتصم به حامية ابن الرشيد وأميرها «عجلان» اذا كربهم حادث أو حزبهم أمر ، وهو الذي عاق استيلاءهم في المرة الاولى على الرياض كلها ، فليبدأوا به ويقتحموه حين يفتح بابه في الصباح !.

فأمير الحامية هو الرأس ، والحصن القلب ، ومتى تم القضاء على أحدهما ، خارت قوى الآخر ، ومتى تم القضاء على كليهما سقط الجسم لا محالة .

أخذ ابن سعود يستطلع آراء رجاله الاربعين فردا فردا ولم يعلنهم بأمر الهجوم وخطته ، ولا بما انتهى اليه اجتماع زعمائهم وكتم ذلك عنهم تتبعا للأثر «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» واستطلع آراءهم لعله يجد فيها رأيا يستعين به على أمره والا فحسبه أن يرفع مكانتهم بالشورى ، وأنه أراهم منزلتهم عنده وأفهمهم أنه لا يستبد برأيه ، وكتمانه كان عن حكمة قصد اليها قصدا ، فهذه خطة يجدر أن يظللها الكتمان ليتم ما يريد كما يريد .

ثم كتم عن جميع رجاله — وعن الأقرباء منهم أيضا — الزمان الذي يبدأ فيه الغزو ، والمكان الذي ينزله ويبدأ منه ، والخطة التي يمشون عليها ، لا استبدادا منه فقد أعلمهم برغبته جملة ولم يفصحها تفصيلا ، فالسر الذي يضيق عنه صدر صاحبه مفضوح لدى الناس ، لأن صدر غيره عن سره أضيق .

ولم يك ابن سعود قليل الثقة برجاله الخصيصين فيكتم الامر عنهم ، بل كان يراهم كنفسه ويثق بهم كل الثقة ويطمئن اليهم كل الاطمئنان ، ولكنه احتاط للامر فكتم لئلا تخرج بأحدهم نشوة الفرح بالظفر المنتظر يلوح لهم قريبا فيلقي بكلمة فتشيع فيفسد الامر ، كتم ليكونوا تبعا له في كل دق وجليل لئلا يستبق

بعض من معه الى القبض على ساعة الفوز احتكارا لفخاره، وربما حدث من التسابق شيء لم يكن في الحسبان !.

مضى ابن سعود بذلك الجمع الضئيل عددا ، القوي ايمانا بالله ثم بالنصر المؤزر يهبهم الله اياه فتتهلل وجوههم وتستبشر نفوسهم وتفيض أفئدتهم هناءة وبشرا ، يتحدث بعضهم الى بعض عن الرياض وأحوالها وأهاليها ويهطعون في السير وقلوبهم أسرع منهم سيرا ، فكأنهم بخيالهم السافر يتجولون في أسواقهـــا ودروبها ، أو حدائقها بين النخل المتطاول في الفضاء وبين السرو ، ولو وسعهم أن يطيروا اليها لما قصروا وجمجموا ، بل ابلهم التي يمتطونها تزف في سيرها تحث الخطى كأن صدى النشوة الهامس في قلوب الراكبين رددته نفوس هذه الحيوانات، أو كأن تيار الفرح والغبطة سرى من نفوسهم إلى نفوسها .

أخذ القوم في السرى ، واختفى القمر مسرعا الى مقره ، اذ كانت الليلة الرابعة من شهر شوال سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١م) وكانت سوداء قاتمة لا يُرَى من النور الا خيوط فضية لامعة تطرف بها النجوم ، والبرد قارس ، فالفصل فصل الشتاء ، ونجد مرتفعة عن سطح البحر كثيرا ، والريح لا تقف عن الصراخ الجهير .

والابطال الذين كانوا معه هم :

١ ــ محمد بن عبد الرحمن الفيصل السعود ، شقيق البطل عبد العزيز .
٢ ــ فهد بن جلوى السعود .
٣ ــ عبد العزيز بن جلوى السعود .
٤ ــ عبدالله بن جلوى السعود .
٥ ــ عبد العزيز بن مساعد بن جلوى السعود .
٦ ــ عبد العزيز بن عبدالله بن تركي .
٧ ــ فهد بن ابراهيم المشاري .

٨ – عبدالله بن صنيتان

٩ – ناصر بن سعود الفرحان .

١٠ – سعود بن ناصر بن سعود الفرحان .

١١ – فهد بن معمر .

١٢ – مسلم بن مجفل السبيعي .

١٣ – حزام العجالين الدوسري .

١٤ – فلاح بن شنار الدوسري .

١٥ – ابراهيم النفيسي

١٦ – منصور بن محمد بن حمزة

١٧ – صالح بن سبعان

١٨ – منصور بن فريج

١٩ – يوسف بن مشخص

٢٠ – عبدالله بن خنيزان

٢١ – سعيد بن بيشان

٢٢ – مسعود المبروك .

٢٣ – عبد اللطيف المعشوق

٢٤ – محمد المعشوق

٢٥ – فهيد المعشوق

٢٦ – سعد بن بخيت

٢٧ – فرحان السعود

٢٨ – ناصر بن شامان

٢٩ – مطلق بن عجيان

٣٠ – مطلق المغربي

٣١ – فهد بن الوبير الشامري

٣٢ – عبدالله بن عسكر

٣٣ – محمد بن هزاع

٣٤ – ماجد بن مرعيد السبيعي

٣٥ – زيد بن زيد

٣٦ – عبدالله الهزاني

٣٧ – محمد بن شعيل

٣٨ – عبدالله بن عبيد

٣٩ – سطام ابا الخيل المطيري

٤٠ – عبدالله بن جريس

٤١ – فيروز العبد العزيز

٤٢ – معضد بن خرصان الشامري

٤٣ – سبعان

والثلاثة الزائدون على الاربعين هم عبيد عبدالعزيز وآل سعود مثل سبعان وفيروز ولم يدخلوا في الاحصاء عندما ذكر أن عدد من كانوا مع عبد العزيز أربعين .

دنا ابن سعود ورجاله الفدائيون الابطال من الرياض ، ولم يبق بينهم وبينها غير سويعات ، حتّى إذا كان بينهم وبينها مسيرة ساعة ونصف ساعة للراجل اختاروا منزلا مباركا اسمه «ضلع الشعيب» أناخوا فيه جمالهم المنهوكة ، ولم يكن في حالهم ما يريب ، فقد كانوا طبيعيين .

وكانت الليلة مظلمة من ليالي الشتاء الطويلة الباردة ، فأسرع ابن سعود إلى الحطب يشعله ، ثم تناولوا عشاءهم ، ثم احتسوا القهوة .

وبعد أن أخذوا بعض الراحة نهض عبد العزيز وبدأ في تنفيذ خطته ، فقد أبقى عند متاعهم ورواحلهم ثلاثة من الابطال هم : مسلم بن مجفل السبيعي ، وعبد اللطيف المعشوق [1] ، ومعضد بن خرصان الشامري ، وقال لهم : إذا ارتفعت الشمس ولم يأتكم خبرنا فعودوا الى الكويت وكونوا رسل النعي الى أبي ، وإذا أكرمنا الله بالنصر فسأرسل اليكم فارسا يلوح لكم بثوبه إشارة الى الظفر وتأتوننا .

ثم انتدب فارسين مشهورين هما : سطام أبا الخيل المطيري وعبدالله بن جريس أن يسبقاه ويكشفا الطريق ، وألا يبعدا عنه كثيراً ، وسار بالباقين وراءهما ، حتى إذا دنوا من أطراف الرياض استقبلتهم نواعيرها التي لا تمل من الغناء والتطريب ليل نهار ، وهي منبثة حوالي الرياض في بساتينها ، وأول مـــا يقصدها الزائر تستقبله النواعير بغنائها الجميل .

وشعر ابن سعود بالراحة وكاد قلبه يطفر من السرور ينبجس من وراء الغيب ، فاذا بلغ أسوار الرياض التي هدمها ابن الرشيد بسبب غزوة ابن سعود الأولى أبقى ثلاثة وثلاثين رجلا فيهم سطام المطيري وابن جريس ، وتركهم تحت إمرة أخيه الفارس المغوار محمد ، وأمرهم أن ينتظروا أمره ، ومضى عبد العزيز بسبعة الباقين وهم : فهد بن جلوى ، وعبدالله بن جلوى ، وعبد العزيز بن جلوى ، وعبد العزيز بن مساعد بن جلوى ، وناصر بن سعود ، واثنين من خدمه هما : المعشوق وسبعان .

أبقى الثلاثة والثلاثين ، واصطحب السبعة لئلا يشك العسس في أمرهم اذا رأوهم كثيرا أو يدفعهم الفضول الى الحديث معهم فاحصين فتضيع الفرصة ، وربما عدموا الحياة اذا ما افتضح الامر، أما وهم سبعة متفرقون متقاربون فلاشبهة ولا غرابة ، فليمضوا الى عملهم وهم أشد ما يكونون هدوءا واطمئنانا ورباطة جأش وقوة جنان .

* * *

---

(١) حامل راية عبد العزيز في هذه المعركة .

كان المتولي على الرياض من قبل آل الرشيد مولى من مواليهم اسمه « عجلان ابن محمد العجلان» من حائل ، وهو كسادته قوي شديد لا يطاق بأسه ولا يحتمل جبروته ، شجاع يحصى على الاصابع أقرانه حينما يعد الشجعان والابطال ، وكان غشوما ، اختير للجلوس على كرسي امارة الرياض ليُري أهلها بأس الحكام وبطشهم ، ويذيقهم ألوان القهر والذل ، قاصدا من ذلك ادخال الرعب الى قلوبهم وقتل احساسهم الحي ، فأهان عزيزهم ، وأفقر غنيهم ، وأحال مغانيهم المأهولة بلاقع حتى لا تقوم لهم قائمة تمكنهم من استعادة الحكم وتخليص بلادهم من آل الرشيد .

وقد نكل ابن الرشيد حين استولى على الرياض بأهلها تنكيلا شديدا أقل ما فيه أنه حرق نخيلهم الذي لا يحصى عدده ، وهدم دورهم وفعل الافاعيل ، ما أوغر صدورهم عليه وملأها حقدا وغيظا ، وأبقى حصنا واحدا لحاميته تعتصم به في الشدائد والكروب ، ومن مضاعفة التنكيل بهم تولية عجلان الغشوم عليهم .

وسكن عجلان أمام الحصن وفيه زوجه ، واعتاد البيات لديها ، وقد يبيت في الحصن – نادرا – كما اعتاد في الصباح قبيل الشروق أن يرتاض في الفناء ما بين دار زوجه وحصنه حيث تقوم مرابض خيوله ، ثم يمضي اليها يتناول قهوة الصباح لدى زوجه ثم يمضي الى «ديوان» الامارة ينظر في الشؤون .

مضى ابن سعود في حذر يتسلل الى هذا السكن ظنا منه أن طلبته فيه كما هي عادته ، ولكن حسن حظ عجلان حال دون منامه على فراش زوجه في دارها هذه الليلة ، بل قضاها في الحصن ونام به .

ومن يدري أن حظ ابن سعود أحسن من حظ عجلان ؟ فلنتتبعهما حتى النهاية ، فالامور بخواتيمها .

والحق والقوة لا يعرفان حظا ، ولا يتكل عليه الا ذوو الاماني المنتحرة ، أما

القوي صاحب الحق فيوجد الحظ ، وابن سعود صاحب حق ، ويرى أنه ما دام كذلك فلن تهزمه قوة مادية ظالمة ، وما انخذل ذو حق أبدا .

كيف يتسنى له الدخول مع سبعة الرجال الذين معه الى بيت زوج عجلان ؟ وأي طريق يسلكون للوصول اليه ؟.

كان بجانب هذا البيت سكن فلاح من أهل الرياض اسمه «جويسر» فطرق عبد العزيز بابه ، ولكن من فيه لم يجيبوا لاغراقهم في النوم ولشدة البرد وهبوب الرياح ، بيد أن الطارق لم ييأس ، فوالى الطرق ثم قرعه قرعا وأردف قائلا :

— نحن من رجال الامير عجلان نريد شراء أبقار منك للمضيف فاخرج الينا .

فأجيب بصوت كسرت من حدته الحواجز ولكنه صوت امرأة :

— اذهب من هنا فليس في البيت بغي ، أنت تريد الفساد .

— لا والله .

— أهذا وقت البيع والشراء ؟ أبعد منتصف الليل تطوف بالحي طواف من يريد سوءا ، وتزعم الشراء والبيع ! اذهب من هنا يا رجل .

— أريد صاحب هذا البيت ، وليأتني حالا فاذا لم يخرج فأخشى أن يقتله الامير صباح الغد .

وبعد إلحاح احتد أوله ولان آخره خرج صاحب الدار محوقلا ووقف أمام الرتاج في وجوم ووضع يده « الجاسية » [1] عليه في خوف وأخذ يسأل نفسه : أيفتحه ؟ ماذا في الامر ؟ لا شيء ! ! وجذب «اللزاز» [2] فاذا الباب يفتح

---

(١) جسأت يده : نملت وخدرت .

(٢) اللزاز (بكسر اللام) خشبة يشد بها الباب .

ويخرج الفلاح حانقاً يتفجر من الغيظ ، ولما تبين الطارق عرفه وارتمى عليه يحتضنه ويقبله فرحا مسرورا ، وعلى الجلبة التي حدثت خرج من في الدار حين سمعوا اسم عبد العزيز يذكر وارتموا عليه مبتهجين يهتفون : عمنا عبد العزيز ! عمنا ابن عبد الرحمن ! فطلب إليهم الصمت والهدوء .

وأنست المغامرة عبد العزيز أن يأخذ الحيطة لنفسه ، ونسي أن يستوثق من جويسر وأهله ، كما نسي أن يحبسهم في إحدى الغرف ويحكم اغلاق بابهـــا عليهم ، ونسي أن يضع حارساً يرقبهم ، فتركهم أحراراً في بيتهم ، ولولا لطف الله لكان في وسع جويسر أن ينم عليهم فيتقرب إلى الحاكم عجلان ويحصل منه على مكافأة سخية ، ولكن الله سلم .

ثم خرج عبد العزيز الى فناء الدار يفحصه ويفحص سبيله الى دار زوج عجلان ، فرأى أن بينه وبينها دارا يجب أن يجتازها ، فتسلق جدارها وولجها ، وبينما هو يفحص الغرف وجد باحداها اثنين يغطان في النوم فلفهما في فراشهما لفا محكما وثيقا وحملهما الى غرفة أخرى وأغلق عليهما الباب .

وهنا بعث الى أخيه محمد يدعوه بالاسراع في المجيء مع رجاله ، فأتوه متسللين في صمت مطبق ووقفوا ينتظرون أمره .

وبدا لعبد العزيز أن يتسلق جدار الدار التي احتلها الى دار عجلان رجاة أن يجده فيها فيقضي عليه ويتم الامر بسلام لا يريق فيه دما غير دم الباغي .

وكان ابن سعود ورجاله الأربعون في دار زوج عجلان ، ووقف الزعيم لحظات يتسمع نبأة ما تصدر من مكان ، ولكنه وجد الرياض كلها في سكون كسكون المقبرة يخيم عليها الظلام ، لا تسمع الا الاعاصير تهزج بدويها المفزع الراعب ورجاله يعملون عمله ويأتون حركاته ، اذا وقف وقفوا وراءه ، وان مشى

احتذوه ، فهمس عبد العزيز في أذن أخيه محمد : أظن هذا المضجع ، ومشى اليه في حذر فألفى به اثنين .

هنا الطريدة ، هنا عجلان مع زوجه ، الى الفناء يا عجلان !.

وأشعل عبد العزيز شمعة فرأى الاثنين في وضوح ، ليس عجلان وامرأته ، انما هي وامرأة أخرى ، كانت أختها .

أيقظهما في رفق فجلستا في شجاعة وثبات وقال لهما :

— لا تثريب عليكما اذا لم تأتيا بحركة أو تصيحا ، اصمتا اذا أردتما السلامة ، ولا حرج عليكما .

ونظرت زوج عجلان وكانت تعرف عبد العزيز معرفة وثيقة ، فآل سعود مواليها ، ونهضت في دهشة :

— عبد العزيز ، عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود ؟ .

— نعم .

— متى أتيت ؟ ما تبغي ؟ .

— أبغي ؟ .

— يا لك من مجازف ! متى أتيت وما تبغي؟.

— الآن ، اسمعي ، لعل من الخير أن نترك الحديث في الشؤون الخاصة إلى الغد ! أين عجلان ؟ .

— هه ! عجلان ؟ ماذا تصنع به ؟ .

— لا شيء ! أين هو ؟ .

— في الحصن (وأشارت اليه وهو أمام دارها) .

— صدق ؟

ـ اي بالله .

ـ متى يخرج من الحصن ؟ .

ـ غدا قبيل الشروق بلحظات .

ـ خير ان شاء الله .

ـ يا عبد العزيز ، أنت تعلم أنني من آل سعود ، ويدهم علي ، وأنا مولاتهم ، فما يرضيك يرضيني ، وما أكره الا ما تكرهون ، انك أحب الي من كل شمرى حتى زوجي ، وأنا أعلم أن ابن الرشيد وولاته ساموا من العذاب البئيس ما لا يطاق وأذاقونا الامرين .

ـ حسن ، ان شاء الله سوف نرفع رؤوسنا فخرا بعد ان نمحو آثار الطغاة ! .

ـ أنت تعلم يا عبد العزيز بأس زوجي وعرامه وقسوته ، وأخشى عليك منه ، فانج بنفسك .

ـ الله ناصرنا ، وعليه اتكالنا ، وما دمنا معتصمين بحبله فلن يرينا مكروها ولن يخذلنا .

وأخذت زوج عجلان تعلن ولاءها وصدق حبها لاولياء نعمتها « آل سعود » وطفقت تحدثه وتبرهن على وفائها لقومها ، وقالت له : يسعدها ان يقتل كل شمرى ما عدا زوجها عجلان .

أنصت عبد العزيز إلى حديثها وسمع أقوالها وطمأنها هي وأختها وطلب اليهما التزام الصمت والهدوء ، ثم جمع النسوة كلهن وحشرهن في غرفة من غرف الدار ، وأوصد عليهن الباب ، وجلس هو وأنصاره الأربعون في بيت عدوه الالد ، لا شيء يحرسهم غير الله عز وجل ، وغير عين الرحمة بالذين يعانون الآلام ، ويتقلبون في الخسف والجور والهوان ، ولا يرحمهم عدوهم .

جلس الجميع يتحدث بعضهم إلى بعض في همس وخفوت ، بعضهم وجل مرتعب يلقي بباصرته نحو أبراج الحصن الاربعة الشاهقة في السماء .

ماذا يكون نصيب هؤلاء الرجال وقائدهم لو شعرت بهم الحامية المعتصمة بالحصن النائمة في الابراج المشيدة وعددها كثير ؟! لا شيء سوى الموت الزؤام يدهمهم في غير رحمة أو هوادة ، فهم أعداء ألداء ، ولو كان هذا وحده لكفى ، ولكنهم أعداء ينزلون بيت أميرها عجلان ! .

الموت ! هذا ما ينتظره الغازون ، فليستقبلهم ان أراد ليلا أو نهارا ، فالأمر سواء ، أما الحياة فآخر ما يطيف بأذهان الفدائيين .

جلس الاربعون ، بعضهم مرتاع هلع ، وبعضهم غريق في الفكر يمتطي متن الخيال ، وعبد العزيز يطمئنهم : اما الموت بعز ! والموت في سبيل المجد حياة خير من حياة تقضى في أحضان الذل والضيم ! واما الحياة الحرة التي يتمناها الاحرار والابطال .

* * *

مضى أكثر من نصف الليل ، وهدأ كل شيء ، والمدينة في وجوم عميق وصمت رهيب ! فكانت تبدو وكأنها وسط بحر من المداد الاسود لولا النجوم تطرف بين الفينة والفينة في صمت رهيب .

وقفت الأعاصير المجنونة عن الهبوب والتصدية ، وكان الكون كله صامتا يسترق العين إلى الفدائيين ، لولا مواء الهررة وثؤاج الضأن وخوار البقر وتصهال الخيل من الحصن كأنها تعين الغزاة الفاتحين فتغطي همساتهم لئلا يشعر بهم أحد غير من شعر .

ثم أمر عبد العزيز رجاله بأن يتناولوا من الطعام ما يشتهون ، وقام — هو

نفسه – يصنع لهم القهوة وينفخ على النار يحشها : كلوا ايها الأبطال ! لا تجبنوا في طلب حقكم المسلوب ! هذه صفائح التمر والدبس تناولوا منها ما تريدون ! فاما ان يكون ذلك أول ما تطعمون في بلادكم تحت ظلال الحق والحرية ! واما أن يكون آخر طعامنا في هذه الحياة تتجاهل أقدار الرجال ! أيها الأبطال ، ان عشنا عشنا كراما ، وان متنا متنا شهداء ، أنا أولكم في اقتحام لجة الموت العنيفة ! واني سأكون آخركم في اقتسام الغنائم والاسلاب ! .

أيها الأ بطال المغاوير ، سنضيف إلى كتاب البطولة صفحات جديدة مشرقة خالدة إن شاء الله . فاصبروا أيها الابطال .

بهذا الكلام الشعري الجميل وبكثير غيره خاطب الزعيم رجاله ، فأذكى في قلوبهم الحمية وزادها اشتعالا ثباته وقوته وعزمه على القتال في سبيل عقيدته التي يراها الحق كل الحق ، وفي سبيل مبدئه الذي يراه خير المبادىء القويمة الفاضلة ، وانه – والحق – أسبقهم إلى الموت وأولهم في مواطن الصراع والفناء ، وآخر من يطلب الغنيمة ، والحق ، أنه لا يريد غير غنيمة الانتصار والفوز بالحرية ! .

تناول الأبطال طعامهم وشرابهم وأخذوا مضاجعهم يريحون جنوبهم وقلوبهم يستجمون القوى والنشاط استعدادا للمجازفة بأثمن ما لديهم ، بأعمارهم ، بحياتهم ، انها رهينة هذه المجازفة ! فلندعهم نائمين ريثما يوقظهم الفجر ! .

* * *

لم نسمع بمثل هذه المجازفات الخطيرة في التاريخ الا قليلا نادرا ، وندر أن نرى مجازفة خطيرة كالتي نحن بصددها ، فأحد الخصمين يأتي إلى الآخر في بيته وهو محاط بالحراس والقوى الكبيرة المسلحة من رجال وعتاد وينزل فيه ، وتطاوعه نفسه على أن يطعم ويشرب ، ويقوم إلى الشاي والقهوة يصنعهما في فرح وابتهاج ،

ويصنع الآصية [1] والمجيع [2] ، ويبدي من الجرأة كل لون ، ولا يحفل بشيء لايمانه القوي وثباته الراسخ ، ولا يفت في عضده عدم وجود خصمه الذي اراد حيث كان يأمل ويظن فيخور وينثني عزمه ، وفوق هذا يأخذ كل مخشف [3] فراشه لينام ويرتاح حتّى يوقظه الفجر ! .

انها بطولة نادرة ! انها مخاطرة تفوق كل مخاطرة ! تلك البطولة وهذه المخاطرة ما أبدى ابن سعود في تحقيق أمنيته ، وجعل العنان في يد بصيرته الملهمة وعقله الرزين طلبا للنجاح ورغبة في الفوز ! .

* * *

أعلن المؤذن لصلاة الفجر يقطع بصوته الجهوري صمت الليل ، يهيب بالناس : الصلاة خير من النوم ، فأيقظ عبد العزيز رجاله لاداء فرائض الله .

صلى بهم الصبح قارئا في ركعتين سورتين من قصار السور بصوته الهادىء ذى النغمة الجميلة حتى ليكاد السامع يعد حروفه ، ثم دعا الله عز وجل وكاد يسقط من خشيته لربه — وهذه عادته في كل حين حتّى ليسمع له نشيج بعد كل صلاة وفي كل دعاء اعترافا لله بالعبودية وخوفا منه ورغبة فيه — حتّى اذا أتم صلاته ودعاءه وتلاوة شيء من آي الذكر الحكيم أخذ في الحديث مع أصحابه ، واليأس والفشل والهلع آخر ما يمر بذهنه ، وخرجت الطير من وكناتها تزقزق ابتهاجا بالفجر واستقبالا لعالم النور البهي ، والحمائم البيض الوادعة أصبحت هاتفة بألحان الحب والهيام ، واستيقظت الكائنات من سباتها العميق ، وخرج الناس إلى مصالحهم ومضى كل إلى عمله الصباحي .

---

(١) الآصية : دقيق يعجن بلبن وتمر .
(٢) المجيع : التمر باللبن .
(٣) المِخشَف : الرجل الجرىء الذى يسير ليلا .

وبينا أولئك الغزاة على هذا الحال أرسلت ذكاء خيوطها الذهبية اللامعة إلى أبراج الحصن فلثمتها وكسيت من ضوئها العسجدي رداء أصفر رائعا ، فعرفوا أن ساعة العمل أزفت ، وان لحظة الصفر ستبدأ بعـــد لحظات فليكونوا على أهبـــة الاستعداد .

قام عبد العزيز وأخذ يتأهب هو ورجاله يستعدون للفريسة الطاغية تقع بين أيديهم فينقضون عليها انقضاض الشهاب الراصد يحرقونه جزاء بغيه وطغيانه ، وسل الجميع السيوف الماضية يسيل منها الموت ويلمع على صفحاتها بريق الفناء والأنذار ، ووقفوا مرتبين منظمين خلف باب بيت زوج عجلان الكبير المعد للدخول والخروج وهو قبالة باب الحصن حتى يهاجموه مقتحمين عند فتحه ، يفصل بينهما ممر طويل اتخذ مربضا لخيل الأمير، تعود أن يمتع عينيه بمنظرها ويرتاض فيه، ثم يمضي الى بيت زوجه ليتناول معها قهوة الصباح والافطار ، ثم يمضي الى عمله ! .

اليوم ٤ شوال سنة ١٣١٩ هـ .

في آخر وهنة من الليل وأول لحظات النهار فتح حارس الحصن خوخة صغيرة في بابه الكبير ، وهي كنافذة صغيرة تكون في أحد مصراعيه لايستطيع الانسان تخطيها دخولا أو خروجا الا بعد أن يجمع نفسه ويصعد عن الارض مقدار ذراع ونصف ذراع ، حينئذ يتسنى له التخطي في شيء من الصعوبة والمشقة ، أما الباب الكبير للحصن فهو موصد دائما لا يفتح الا في أوقات خاصة ، والا نادرا .

خرج الأمير عجلان – عامل ابن الرشيد – من تلك الخوخة كالعادة التي تعودها يرتاض في مرابض الخيل يمتع النظر بمنظرها الرائع ، بعضها صافن[1] عجباً ، وبعضها صاهل كبرا ، وينصت لتصهالها الحبيب الى الابطال، ويربت على ظهرها

(١) الصافن : الجواد يقف على ثلاث كبرا.

مزهوا معجبا بنفسه وبما هو فيه من سلطان وقوة ، ويمشي الهوينا في تيه ومخيلة، يرمي بنظراته إلى الأبواب دون قصد ! وهو لاه ساه عما خبأ له القدر خلف الباب الذي يحتمي به في الكوارث والملمات من فناء عاجل محقق لا يمهله غير دقائق معدودات ثم يكون من سكان القبور .

لاه ساه بأن الحصن الذي بناه ليعتصم به سيكون َفناؤه في ِفنائه، وفي بهوه يلقي مصرعه .

وقف عبد العزيز خلف باب بيت عجلان ، والسيف مصلت في يمينه ينتظر خصمه الطاغي ليذيقه كأس المنون وهو لاه مزهو بنفسه فتسيل روحه على حده مع قطرات دمه ! .

ونظر عبد العزيز من خصاص الباب يرقب خصمه وهو سادر يمشي الهوينـا متبخترا ، فلما رآه قافلا انقض عليه كالشهاب والبتار يلمع على حديه برق الفناء مريدا عدوه وتبعه خمسة عشر بطلا فيهم شقيقه البهمة [1] محمد وابن عمـه الجريء عبدالله بن جلوى كالأسد الجائعة تطير خلف الفريسة ، فما كاد عجلان يبصر السيف في يد الجبار ومعه أولئك الجبابرة من خلفه يقصدونه حتى أسرع في العدومذعورا مرعوبا من مفاجأتهم دهشا من خروجهم من بيت زوجه جاهلا حقيقة الأمر وكيف باتوا فيه أو وصلوا اليه وهو غير شاعر بهم ! .

وجرى عجلان يمزع مزعا [2] يريد خوخة باب الحصن ، وكاد يتخطاها لولا أن أسرع اليه عبد العزيز كالبرق وأمسك برجليه وقد دخل معظم جسمه الاالقدمين فعاجله — ابن جلوى — بحربة يتطاير منها شرر التوى والفناء ولكنها أخطأته ونفذت في الباب الضخم ونشبت فيه ، فجذبها جذبة قوية فكسرت ذؤابة الحربة فيه من

---

(١) البهمة : الشجاع الذي بلغ في الشجاعة المرتبة العليا .

(٢) مزع : أسرع في العدو .

قوة ساعد الرامي ، وما يزال باقيا من ذلك التاريخ حتى أيامنا هذه رمزا على ذكر الجهاد الوطني ! .

لكن عجلان وهو القوي الشديد جذب قدميه من يد عبد العزيز ورفسه في جنبه الأيمن رفسة لم يحس بها ، ونفذ كالسهم إلى الداخل ، وحب الحياة بعث فيه قوة عظيمة تمكن بها من الأفلات ، وصاح في رجال الحامية فصعدوا على صوته وعلى هذه الجلبة إلى أبراج الحصن وسطحه يمطرون الغزاة المهاجمين وابلا من الرصاص من خروت [1] الجدار وكواها المبنية للدفاع صدا للغزاة ، وتمكنوا من قتل اثنين وجرح أربعة جراحا خفيفة .

ومن لطف الله ومعونة القدر للغازين أن لم يكن لاعمالهم ضجيج وصياح غير مبادلة اطلاق النار والناس لاهون بأمورهم كما التهت الحامية باطلاق الرصاص والاشتغال بالدفاع عن الصياح طلبا للنجدة والعون .

جذب عجلان قدميه من يد عبد العزيز القوية وتمكن من الافلات ،وأخطأته حربة ابن جلوى فاذا هو في الداخل ، لكن ابن جلوى وهو المسدد الرمي لايخطيء الهدف في كل مرة كيف يخطيء هدفه هذه المرة وهي أولى بالاصابة وقد أرسل الحربة بعد أن رضي عنها ؟! .

غضب تلك الغضبة العظيمة فنسي فيها نفسه وما حوله من زمان ومكـــان ، وصوب النظر إلى العدو الظالم الذي سامهم الخسف والعذاب ، وراعه إفلاتـــه وتمكنه من جذب قدميه من يد ابن عمه وخطاء الحربة اياه ، فأسرع خلفه يتأثر خطاه قابضا على مسدسه وفي يده الأخرى السيف المصطرد [2] ، وقد آلى على نفسه أن يميت أو يموت ! فليقدم وليفد بلاده وأمته بروحه ولينصر الحق ،فاقتحم

---

(١) الخروت : الثقوب الصغيرة .
(٢) المصطرد : الحنق الشديد الغيظ .

ابن جلوي الخوخة ومعه عبد العزيز يقصدان عجلان ، وأطلق ابن جلوي الرصاصة الأولى في سبيل وطنه من يده التي قل أن تخطىء المرمى فأصابت عجلان فارتمى على الأرض بدهليز الحصن يتضرج في دمه ثم أجهزا عليه بالسيف وجعلاه كومة من اللحم يتهافت عليها الذباب .

وزأر ابن سعود بالباقين فبادروا يقتحمون الحصن وارادوا الحرس ، وتفرقوا في الحصن والأبراج يقتلون رجال الحامية وقد سالت دماؤهم على باب الحصن الكبير ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم وقد رأيتها منذ ست وثلاثين سنة عندما زرت الرياض لأول مرة سنة ١٣٥٦ .

وتحصن عشرون منهم بأحد الأبراج ثم أخذوا أسرى وضربت أعناقهم لم ينج منهم إلا اثنان طلبا الأمان ولم يبديا مقاومة ، وسلما السلاح فأمنا وسلما ، اذ كان دأب الفاتح الجديد ألا يقتل الا من قاوم وقاتل وحمل السلاح ، أما من كان بريئا من كل هذا أو كان كذلك ثم دخل تحت راية الطاعة والأمان فهو معصوم الدم والمال ، وعبد العزيز في هذه الحادثة لم يقتل الا من استحق القتل .

كان هذا العمل كله في سويعة ، بل اقل من سويعة قبض فيها الفاتحون على زمام الحصن وما فيه من ذخائر واموال لا تحصى .

ولم ينسه هذا النصر ربه ، فاتجه في ساعته التي من الله عليه فيها بالفتح إلى ربه داعيا مصليا شاكرا أنعمه التي لا يحصيها صيرف روضت أعداده ، ثم بعث مناديه في البلد يعلن الناس الخبر وحقيقة الأمر ، وكان جهوري الصوت جريئا ، فوقف على دكة عالية في السوق وصاح : الحكم لله ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود .

« الحكم لله ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود » أحلم أم حقيقة ؟! .

ما هذا النبأ الذي يطير بجناحين من نور ؟ ان كان حقيقة فما أعظم ابتهاج أهل الرياض وما أعظم فرحهم !.

وقفت الرياض من أقصاها إلى أقصاها ساكنة تستمع للمنادى البشير يرسل الصيحات العالية دراكا فيصل إلى آذان أهلها وهم في ذهول لهذه المفاجأة الغريبة ما كان ينتظرها أحد منهم، فملك القلوب فرح عظيم لهذا النبأ وفاض على صفحات الوجوه بائتلاق البسمات على الشفاه من البشر، وسالت العواطف بالسرور من نضح الهناءة، وأقبلت الثبات [1] الكظة نحو البشير تحوطه كالهالة وتسأل : أي شيء هذا ؟ أحقيقة أم حلم جميل طاف بالرياض اليوم بعد سني الكدح والنصب.

انا والله ننتظر الساعة التي ينزاح عن صدورنا كابوس حكم ابن الرشيد فتتنفس الصعداء ارتياحا واطمئنانا ! أين عبد العزيز نهنئه بهذا الفوز ونهنيء أنفسنا به بين يديه؟ فقد أنقذنا من التوى والذل والعذاب، وخلصنا من أيدي الطغاة الظالمين.

أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ويتخاطفون قبل التهاني بعيد الفطر المبارك عقب وداعهم لشهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ورحمة، وبهذا النصر أحرزه البطل بان رفع عنهم الاعباء الثقال بحد سيفه البتار وبقوة قلبه الجبار ! أقبل بعضهم على بعض فرحين مهللين سعداء، فلقد قضوا ثلاثة أيام العيد في شقاء وألم من ظلم عجلان الذى لم يحترم عواطف المسلمين ولم يقدس حرمة أيام العيد السعيد الديني جعله الله مباركا يفيض بالخير والبهجة والراحة لعبادة المؤمنين، فحملهم عجلان في أول ساعة منه ما لا يطاق حمله ظلما وعدوانا امعانا في التنكيل بهم، وذلك أمره لرجاله بأن يأخذوا من أهل الرياض ثلاثين ألف ريال يضاف الى المكوس المفروضة جزاء لهم وعقابا لانهم برموا بحكمه.

وحق لاهل الرياض أن يعلنوا السرور والابتهاج، ويقبل بعضهم على بعض

---

(١) الثبات جماعات الناس.

مهنئين بخلاصهم على يد رجل منهم انتزع الحق انتزاعاً من قبضة الظالم وأرداه قتيلا

وسرى الخبر الى النساء في البيوت والخدور والى أطراف الرياض في لحظات يسيرة ، وتسارع الناس للسلام على المنقذ الاكبر متجهين نحو القصر الذى نزل ، بل نحو الحصن الذى فتح فاضحى روض السعادة ومنبع الخير بعد أن كان مقر الجبروت وعرين الطغيان ومباءة البغي والفساد ، وقد كانوا ـ من قبل ـ لا يجرءون على السير قربه أو الدنو منه فيقتلون .

وتوجه الناس للسلام على المنقذ الاكبر وهم في نشوة ما تُغالب من الواقع المشهود ، فاذا ما رأوه ترامو عليه متسابقين يطبعون القبل الحرى على خديه ووجنتيه وجبينه ، وكلما سلم رهط مضى ليتقدم غيره وهكذا ليأخـــذ المسلم مكانه والقهوة العربية تدار عليهم .

وقف ابن سعود بقامته الطويلة الفارعة ينظر الى وجوههم المشرقة بعينين يشع منهما ضياء الحق والجلال ، وعلى ثغره ابتسامة الظفر يستقبل وفود المهنئين وهم يبايعون على السمع والطاعة ، وأنهم سلم لمن سالم وحرب على من حارب ، وليعمل بهم ما يريد فانهم خاضعون لامره راضون بحكمه سامعون مطيعون ولو طلب اليهم أن يخوضوا البحر .

وابتهج ابن سعود بهذا التآزر والتضامن بين قومه ، وسر لوجوده اياهم على مـــا تركهم عليه من الحب والوفاء والاخلاص والصدق ، وخطبهم خطبة بليغة حضهم فيها على الخير والصـــلاح والصبر والا يقتلوا أحداً من أعدائه جاء مستسلما ، والا يؤذوه ولا يؤذوا النساء ، وألا يكشفوا عن حرمتهن تشفيا وانتقـــاما اذ لادخل لهن في هذه الامور ﴿ ولاتزر وازرة وزر أخرى ﴾ وغير ذلك من النصائح الثمينة أسداها اليهم ، لانه عرف أن الناس موتورون من آل الرشيد وكل من ينتسب اليهم أو يشايعهم ، فلئلا يصل بهم الحنق والغيظ المشتعلان الى حد يخرجهم عن

المعقول فينزلون على الاعداء ضرباً ويميلون عليهم ميلة واحدة لا يفلتون منهم أحدا.

من أجل هذا نصح لهم بترك القتل والاذى وانتهاك الحرمات وسفك الدماء بغير الحق ، اذ لو وسع أهل الرياض أن يلحبوا آل الرشيد وأمراءهم وأشياعهم إرْباً إرْباً لما زهدوا وتورعوا تشفياً منهم وانتقاماً .

وصنيع ابن سعود هذا آية في كرم الصفح ونبل الضمير والاحسان ، فهو قد قبض على زمام الامر باقتحامه الحصن والاستيلاء عليه وقتل الطاغية والسفهاء المنتسبين اليه لاقدامهم على اطلاق النار وقتلهم الفاتحين قتلوا جزاء عملهم فلا حاجة له بسفك دم من لم يشترك في المناوأة بقول أو عمل ، ومن لم يشترك بشيء من هذا فهو آمن بعيد عن السوء ، أو من اشترك ثم ثاب الى رشده وتاب عن غيـــه فهو آمن .

وما كاد هذا الخبر يصل الى سمع المنتسبين الى ابن الرشيد وآله وجنوده ورجاله حتى أسرعوا يهنئونه معلنين له الولاء اذ قابلهم بالحسنى ، وما ثم حسنى أروع وأسمى من أن يعفو عنهم وهو قادر عليهم ، فدماؤهم وحياتهم هبة من هبـــات عبد العزيز ، أتى هؤلاء وبايعوه على السمع والطاعة .

أعداؤه الالداء الذين لو ظفروا به لما تأخروا عن القضاء عليه يؤمنهم على حياتهم ويعفو عفوا عاما شاملا عن كل من جاء منهم سامعا مطيعاً ؟ ما أنبل عبد العزيز وما أعظم خلقه ! ! .

لكن هذا الفاتح الغلاب النبيل وهو ابن عبد الرحمن الامام العادل الصالح ذى الاخلاق الفاضلة التي أرغمت العدى على احترامه لا بد أن يرث صفاتـــه الكريمة ، وقبل أن يسير الى فتح الرياض أوصاه أبوه بالصفح عن المسيء والاحسان الى المحسن !.

ان ابن سعود رجل جد حليم ليس بالمتعنت السفاك ولا بالحقود المصطرد

فما دام ان الله قد ملكه البلاد ومكنه من تخليص بلدته ومن الله عليه بالفتح ومكنه من عدوه فليصفح عنه صفحا ، وليقابله بما في طبيعته وأخلاقه من نبل وفضل وطيبة ، تاركا صفات الانسان الدنيا جانباً ، فضرب بذلك مثلا ـ خير مثل ـ يشرق نوره على الناس في السمو بالنفس الانسانية السمو الذى يتطلع اليه عظماء الانسانية النبلاء وأولياؤها الصالحون ولا يكادون يبلغونه الا نادراً ، ولقد جعل عبد العزيز كل صفة سامية نصب عينه في كل أدوار حياته .

استسلمت الرياض كلها لعبد العزيز ، وبايعته على السمع والطاعة ، وفرحت بتوليته أيما فرح ، ولبست أردية البشر وسرى فيها روح البهجة والسعد .

خرج الناس الى الاسواق في يوم الفتح الاغر المشهود وظاهرت فيها . ومشت جموعهم في الشوارع تعلن سرورها وابتهاجها بهذا اليوم التاريخي المجيد ، نالت فيه الحرية واقامت شعارها على هامات الابطال المستشهدين ! وعرفت فيه معنى الحياة اذ لا قيمة لها ما دامت الحرية مسلوبة ! فلتردد أناشيدها ولتعزف على قيثارة القلوب نغماتها ! .

هاهم أولاء الشعراء المنشدون يعلون أكتاف الشعب المبتهج ينشدون القوافي ومن خلفهم ومن بين أيديهم وعن شمائلهم وعن أيمانهم يردد أفراد الشعب في حماسة وقوة فيذهب دوي هذا الترديد الى السماء ثم يحور صدى قوياً عنيفاً يخيل اليهم أن الارض والبيوت تشاركهم ما يعملون .

وما أسعد الشعب المهضوم المستعبد يتحرر من القيود والاصفاد، وينطلق من غياهب السدود الى عالم النور، ويستردحريته على يد زعيم من أفراده المشهورين بالفضل فيعدل في الحكم ويؤدى للدين والحق والحرية واجباتها ويمشي على السنة القويمة آمرا بما أمر الله ناهيا عما نهى عنه !.

وما أسعد الزعيم الذى هو من صميم الشعب يقدر له عمله ويلتف به ويفديه !.

ان يوم ٤ شوال هو أسعد يوم في حياة كل نجدي ، لانه يوم الحرية والاستقلال والنور يذكره في اجلال واكبار ! بل يجب أن يكون يوم ٤ شوال ذكرى للعرب جميعاً ، لانه كان انطلاقة العرب الاولى الصحيحة في هذا العصر .

وأصبحت الرياض وأمست وظلت وباتت على هذا وأهلها ينحرون الجمال بما فيها الافال والعشار والاغنام والابقار والخراف ، وسالت دماء الانعام القانية على الغبراء كالماء من كثرة ما نُحر منها فشقت فيها خطوطاً ومجاري .

ان كل امرىءفي الرياض ذبح اما جملا أو بقرا أو خروفا ، حتّى الفقير المعدم لم يحرم نفسه هذا العيد فعمل المستحيل حتّى ذبـــح وشارك مواطنيه السرور والبهجة بيوم الحرية .

وأقبل وفود البدو ورؤساؤهم من كل حدب وصوب حين سمعوا خبر الزعيم ونصره ووصلت اليهم البشرى يقصدون الرياض لتهنئة الزعيم البطل واعلان الولاء والطاعة له ، فما كاد المؤذن يؤذن لصلاة الظهر حتّى اكتظت البلدة ، فلو القيت ابرة عـــلى الارض لما أصابت الا إنسانا ، ومدت الموائد في البيوت والاسواق والمساجد ، وطعمت الجموع التي لا عداد لها ، وبدوا وكأنهم أفراد أسرة واحدة ، الشيخ الوقور بجانب الطفل الصغير ، والشاب المفتول مع الكهل الفاني ، والغني يزامل الفقير ، ترفرف عليهم ملائكة الرحمة باجنحة الصفاء والمودة والبشر ، فنسوا كل الفوارق ، بل لا فوارق بينهم ، فهم قوم تجمعهم اللغة والدين والوطـــن والاماني والآمال المشتركة .

وفي الليل أوقدت النيران أمام البيوت وفي الميادين للطهي وللدفء قرى للضيوف الوافدين ، وأضاءت المدينة كلها الشموع والمشاعل ، وعلت الاصوات بالاغاني والاناشيد بين دق الطبول وتصفيق الاكف .

وأوجز ما يقال : ان الرياض لم تشهد يوماً كهذا اليوم ولا ليلة كهذه الليلة من قبل في تاريخها حتّى يومنا هذا .

أما عبد العزيز وقد أحرز النصر والتف القوم حوله والمدينة ألقت اليه أمرها وفرحت به هذا الفرح العظيم واستقبله أهلها هذا الاستقبال فلينظر في الشؤون الهامة الخطيرة وليفحص الامور وليسبر الاغوار ، فهنالك الخصم الكبير ابن الرشيد ولن يصبر عليه ، فليستعد له ، فمن الثابت أن ينهض ابن الرشيد لاسترداد الرياض من يده والدفاع عن ممتلكاته كيلا يبسط عليها ابن سعود ظل سلطانه .

حسب ابن سعود حسابه الدقيق وفحص شؤونه بثاقب فكره ، فارتأى أن يسرع في إعادة بناء سور الرياض الذي هدمه ابن الرشيد ، وترميم ما تقوض منه ، واصلاح جدر الحصن المتداعية من بعض الجوانب حتّى تستطيع الرياض من الدفاع عن نفسها اذا هوجمت ، وتعتصم بالسور اذا لم تستطع مواجهة العدو .

هنا أمر عبد العزيز بالاسراع في بناء السور ، فتطوع الناس من مختلف طبقات الشعب ، واشترك أفراده في البناء ، وبذلوا النكيثة [1] في اعادة السور قوياً مكيناً .

كانوا يقضون النهار كله وشطرا من الليل في العمل ، فلم تمض عليهم اربعة أسابيع حتّى انتهى العمل وعاد السور كأشد ما يكون واقوى .

وقبض عبد العزيز على الامور كلها بيد من حديد في بلده الذى خرج منه هو واسرته كالطريد وبقي منفياً بعيداً عنه احدى عشرة سنة ثم عاد اليه رافع الرأس ساطع الجبين، وانتشله من وهدة تردى في قرارتها بسبب حكامه الغاصبين الظلمة، وفحص كل ما عثر عليه من الاوراق ودفاتر الحسابات ورد الى الناس ما أخذ منهم بدون حق ، فامتلأت قلوب الجميع بشرا وفرحا بهذا العهد الجديد الذي بشر بالخير والحرية .

---

(١) النكيثة : اقصى الجهد .

وسمعت القرى المجاورة للرياض فأتت إلى عبد العزيز تبايعه ، وتتابعت الوفود من القبائل تعلن خضوعها وولاءها طماعية في احسانه ورغبة في حكمه العادل ، فحقق لكل من قصده أمله ورده مسرورا ، كما كتبت اليه قبائل شتى تعلن ولاءها له سرا .

ولقد لهج المشاة والركبان — حضرا وبدوا — بصنيع ابن سعود وما فطر عليه من نبل ومروءة ووفاء ، وأذاعت بما لقيت منه من الكرم والاحسان .

الآن وقد تم له فتح الرياض وسارت فيها الأمور سيرا حسنا ، وليست الرياض كل أمله الباسم ، فابن سعود خلق لكي يؤدي واجبه العظيم ألا وهو النهوض بالعرب واعادة العزة إلى العروبة ، والاستماتة في الدفاع عن الحقوق المسلوبة واستردادها من يد الغاصبين ، حتى اذا تم له تطهير الداخل من المفسدين وشفاء القلب من الأسقام وجه همه إلى الخارج معلنا للملأ أجمع أن العرب شعب حي يريد أن يعيش كما عاش سلفه الصالح في عز ومنعة ، وأن يكون سراجا منيرا يهتدى به الناس ما دام دينهم الاسلام خير دين لهداية البشر .

اذن ، وهذه مهمته فقد بقي عليه تحقيق معظمها فلينهض وليؤد الامانة الملقاة على عاتقه متخيراً من الطرق ما كان سهلا مأمون العاقبة ليصل الى أهدافه ، فيعيد الى الامة العربية ماضيها المجيد ، وينير التاريخ الانساني بأعماله المجيدة ، ويضرب المثل الاعلى في الرجولة والنبل والاخلاق الفاضلة الكريمة والحكم الصالح الرشيد .

الحكم لله ثم لابن سعود

بعد أن انتهى عبد العزيز من فتح الرياض واحتلالها وتحريرها من آل الرشيد ، وبعد أن أرسخ قواعد حكم آل سعود كتب إلى أبيه الامام عبد الرحمن يبشره ، ويشرح له في رسالته ماحدث بدقة وتفصيل ، وبعد أن أغلق الرسالة عنّ له أن يرسل أحد من شاركوا في الفتح ليكون أبلغ من الرسالة المكتوبة ، فاختار ناصر بن سعود ليكون رسالته الحية إلى والده وإلى الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت.

وطوى ناصر الطريق من الرياض إلى الكويت طيا ، وكان في طريقه يمر بقبائل يبشرهم بالفتح ، فيستقبل بعضها الخبر في سرور ، وبعضها في تحفظ ، ولكنها جميعها كانت تستقبل خبر الفتح بالصورة التي حدث بشيء كثير من الدهشة وان كانوا لا يستغربون من عبد العزيز بطولته وشجاعته وجرأته .

ووصل ناصر بن سعود الكويت واتجه إلى منزل الامام عبد الرحمن وأخبره بالفتح ؛ وحدثه عن كل شيء ، وعلمت أم عبد العزيز فسرها ما سمعت ، ثم أخبر ناصر من كانوا من آل سعود بمنزل الإمام ، فأسعدهم جميعا ما سمعوا ، وسرهم أن الحكم عاد إلى أهله ، وهنأوا ناصرا .

وسرى الخبر في الكويت ، ولم يصدق الناس ما حدث ، وظنوا أن في الأمر مبالغة .

ولم يصدق مبارك الصباح أمير الكويت ما سمع من أنباء عبد العزيز ، واعتقد أن فيه اسرافا في المبالغة ، وله العذر ، فما حدث فوق التصديق ، إذ لا يعقل أن ينتزع حكم الرياض من آل الرشيد بأربعين رجلا ، وفي الرياض عجلان البطل الشجاع الذي يعد من أعظم الشجعان والفرسان ، ومعه من المغاوير مئات من شمر ومن غيرهم يحمون حكم ابن رشيد .

ولم يكن مبارك شاذا في استغرابه وشكوكه ، بل كان الناس مثله ، ومع هذا هنأ مبارك الإمام عبد الرحمن بانتصار ابنه الذي كان يدعي سياسة وخداعا أنه ابنه ، وأقبل النجديون المقيمون بالكويت او ممن كانوا فيها إلى عبد الرحمن يهنئونه ، ويرجون لعبد العزيز مزيدا من الانتصار والتوفيق .

وأعد عبد الرحمن عدة السفر الخفيف ، وترك بعض أهله بالكويت وغادرها ببعضهم ووجهته الرياض ، وأغذ السير حتى وصلها في أيام معدودات ، وكان في طريقه يأخذ البيعة لابنه من القبائل التي يمر بها ، ويستنفر زعماءها ليكونوا مع ابنه فيما يجد من الحوادث ، لأنه مدرك ان ابن الرشيد لن يدعه ولن يترك آل سعود ، فهو سيد نجد التي تأتمر بأمره ، والترك يحمونه ، وحكام بعض الأقطار العربية المجاورة قد يقفون من ابنه موقفا غير ودي ، وقد يعين بعضهم ابن الرشيد .

وقد لقي الإمام عبد الرحمن بعض العرب العائدين من الرياض فأخبروه أن ابنه مسيطر على الوضع فيها وفي القرى المجاورة ، وان انصاره وانصار آل سعود قد كثروا وتجمعوا ، وأنهم هم وأهل الرياض قد أصبحوا جنده ، ووفدت اليه قبائل ضربت خيامها في أطراف الرياض وبايعته على الموت .

ووصل الإمام إلى الرياض فاذا هي شعلة من الحماسة ، وما كاد يبصره الناس حتى تجمعوا في طريقه إلى القصر حتى انتهى اليه ، فاذا عبدالعزيز يسرع إلى والده يستقبله بسرور ، وينحني على يده لثما ، ويمشي خلفه إلى البهو الكبير ، ويجلسه في صدره ، ويقف عبد العزيز بين يدي أبيه في خشوع ، ثم يجلس تحت ركبته .

وسر عمل الابن أباه ، فهنأه وحياه ، ورد الأبن التحية ، وعزا فضل النجاح الى الله ثم الى أبيه ، فنصائحه وخططه وتجاربه هي التي قادته إلى النصر بعد الله .

وقضى الجميع ليلتهم في سرور ، وفي الصباح وفد الوافدون وملأوا رحـاب القصر ، فاستقبلهم الإمام وابناؤه ومن فتحوا الرياض ، فاذا الناس يتجهون إلى عبدالعزيز فيصرفهم إلى أبيه بحكمة ورشاد .

ويستأذن الإمام الحاضرين ويمضي الى بيته بالرياض الذي كان قد تركه عندما غادرها إلى الكويت ، وفي صباح اليوم الثاني من قدومه ذهب اليه ابنه محمد ليكون في صحبته إلى قصر الإمارة ، وأبلغه أن عبد العزيز أرسله اليه ليعلمه أنه في انتظاره بالقصر ليسلمه الأمانة ، ليسلمه الحكم ، فهو صاحبه الشرعي ، أما عبد العزيز فما كان إلا قائدا يقود رجال والده ، ويأتمر بأمره ، وها هي ذي مهمته انتهت بحضوره ليدع له الحكم ، ويعود إلى ما كان عليه من الخضوع والسمع والطاعـة وانتظار ما يأمر .

فأسرع الإمام إلى القصر ودخل مكان الحكم والامارة والسلطة ، وبين يديه عبد العزيز واخوته وابناء عمومته والفاتحون الأبطال وشيوخ القبائل وعلية أهل الرياض وعلى رأسهم العلماء ، وأجلس عبد العزيز أباه في صدر المجلس وعلى يمينه ويساره العلماء ، ثم اتخذ لنفسه مكانا بعدهم ، وازدحم المكان على سعته بالحاضرين فوقف الإمام عبد الرحمن وخطبهم خطبة بليغة مؤثرة .

إنه حمد الله واثنى عليه ثناء هو له أهل ، ونصح الأمة ونفسه بتقوى الله ، واوضح لهم جميعا نظام الحكم ، وما ثم غير الكتاب وسنة سيد الخلق محمد صلى عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين وصحابته المكرمين رضوان الله عليهم أجمعين ، وأما آل سعود فهم خدم الشريعة الغراء السمحة .

ثم نصح ابنه عبد العزيز واعوانه ، وامرهم بتقوى الله في السر والعلن ، والعدل في كل شيء ، وقال الإمام في صراحة لابنه عبد العزيز :

« اسمع يا عبد العزيز ، إن العدل اساس الملك ، والله عز وجل يأمر به ، وقال في كتابه العزيز : ﴿ ان الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ ولو كان الذي أخذت مكانه عادلا لما استطعت أن تأخذه ، فظلمه هو الذي أبعده عنه ، فاذا اردت أن تلحق به فاترك العدل ، واذا اردت أن تبقى فاحرص على العدل ، واياك والظلم ، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، والظلم في الدنيا يقود إلى الهلاك .

وادرك عبد العزيز أن نصح الامام له ترشيحه للحكم وابعاد نفسه عنه ، فوقف وحمدالله واثنى عليه ثم حيا والده بما يستحقه من ابنه البار المطيع ، وأعلن للحاضرين جميعا : أن الحكم اليوم لله ثم لعبد الرحمن الفيصل السعود ، هو امام المسلمين .

ثم قال عبد العزيز : أما أنا فما كنت إلا جنديا ، ونجاحي في المهمة التي اخترتموني لها إنما كان بفضل الله ثم بفضل ما زودتموني به من النصح والارشاد وخطة الحرب ، وما لي من فضل غير السمع والطاعة وتنفيذ ما امرتموني به ، فالأمر لله ثم لكم من قبل ومن بعد ، وان الأمانة التي وكلتم الي الاضطلاع بها قدحفظتها ، وهأنذا اسلمكم إياها ، وأعود إلى مكاني جنديا بين جنودكم . وأبتهل إلى الله أن يمد في عمركم ويؤيدكم بروح منه وينصركم نصرا عزيزا .

ومضى إلى ابيه ، وقبل رأسه ثم يمناه ، وجلس عند موضع قدميه ، فامتدت يد الأب إلى ابنه واقامه وقال له : إذا كنت قد قصدت من استدعائي من الكويت إلى الرياض ان اتولى الحكم فأنا عائد إلى الكويت ، واذا اصررت فأناخارج الآن من الرياض ، واحب أن أقول لك : إن الله سبحانه وتعالى قد أكرم المسلمين بك ، وخلص أهلك وبني قومك على يديك ، واعاد بجهادك إلى آل سعود كرامتهم ، فأنت وحدك الذي تضطلع بأمانة الحكم ، وأكرر نصيحتي لك بتقوى الله ، وان تعدل في الرعية وتسهر على مصالح الأمة ، وان تعلي دائما كلمة الله .

واصر عبد العزيز على أنه لن يلي الحكم ، وقال : إن الحكم لله ثم للامام عبد الرحمن ، وقد بايعته الأمة بالامامة ، وبين الموجودين من بايعوه عندما كان أمير

الرياض وحاكمها وامامها مرتين ، ولولا إيثاره حقن دماء المسلمين ورغبته في السلم لما ترك الحكم ، فالحكم للامام عبدالرحمن ، لأن البيعة له في أعناق المسلمين ما زالت قائمة ، وأنا لم أكن إلا جنديا من جنوده ، وكما قلت : أعود إلى مكاني من صفوف جنده أتلقى منه أوامره .

ورد عليه الإمام قائلا : هذا لن يكون ، وليس امامي إلا مغادرة الرياض ، والدعاء لك بالتوفيق والتسديد .

وهكذا كان الوالد وابنه على طرفي نقيض ، ورأى العلماء خلافهما ، فتدخلوا ، وقالوا : يا عبد العزيز ، حق الوالد على ولده السمع والطاعة ، وقالوا للأمام عبد الرحمن : الحق ما قال عبد العزيز ، فأنت الإمام الشرعي ، وأنت والد عبد العزيز ، فأنت رئيسه وآمره ورئيس أهل نجد وإمامهم.

فرد عليهم الإمام : أنا أبوه ، وما دام الأمر أمري فإني آمر أن يكون هو الحاكم ، والإمارة له ، وأنا آمره بقبول ما رأيت .

وانفض المؤتمر على أن يجتمع الحاضرون وغيرهم في المسجد الكبير بالرياض بعد أن يصلوا الجمعة ، وهناك يكون القرار النهائي .

وازدحم المسجد الكبير وضاق بالمصلين على سعته ، وبعد خطبة الجمعة التي تحدث فيها امام المسجد عن إمامة المسلمين والبيعة وحقوقها أدوا الصلاة ثم عقدوا المؤتمر ، وتحدث العلماء وشيوخ القبائل والزعماء ، واذا كل من الأب والأبن عند رأيه .

وتصدى للموقف العلماء ، واستقر رأيهم على تأييد الأب ، وبخاصة وقد أعلن نزوله عن الحكم والأمر لابنه عبد العزيز الذي يشهد له بالصلاح والتقوى ، وبمخافة الله ، وبالقدرة على الأضطلاع بحكم المسلمين ، وحفظ حقوقهم ، وقال الإمام عبد الرحمن مقالة بهرت أهل الفضل ، وكانت كلمة الفصل .

قال عبد الرحمن : إن عبد العزيز ابني ، وأنا أعرف الناس بمزاياه ، فهو — والله— أهل لأن يحكم ، فالله عز وجل قد أصلح له ظاهره وباطنه ، وايده بروحه ، وقواه بعزته ، فهو قوي وأهل لحفظ دين الله على الأصول التي أجمع سلف الأمة عليها ، وحمايته اياه ، والذب عنه ، والحكم بين الناس بالعدل ، واقامة الحدود ، وتنفيذ الأحكام ، واليقظة للأعداء وأهل البدع والمفاسد ، والجهاد في سبيل الله ، واشهد لله أن عبد العزيز من الصالحين ، وأنا أسألكم بالله : أما قلته في وصفه حق؟ وهتف الجميع : حق .

وقال العلماء كلمتهم ، وايدوا الإمام عبد الرحمن في مقالته ، ونهضوا إلى عبد العزيز يبايعونه ، وتبعهم الناس ومن بينهم الإمام عبد الرحمن .

وبعد أن انتهوا من البيعة قال عبد العزيز : اما وان أبي وانتم جميعا قد ألزمتموني بهذه البيعة فأنا اشترط لقبولها ثلاثة شروط .

الأول : أن يكون والدي رقيبا على كل أعمالي وأقوالي ، يرشدني إلى ما فيه خير الأمة ، ويردعني عن كل ما يراه ضارا بمصالحها ، وان يحاسبني حسابا عسيرا عن كل خطأ أقع فيه بقصد أو بغير قصد .

الثاني : أن يقوّم كل فرد وبخاصة العلماء كل اعوجاج فيّ .

الثالث : أن يكون الجميع عونا لي فيما يكون فيه صلاح الأمة وخيرها .

وبعد عبد العزيز وقف الإمام عبد الرحمن وختم هذا المؤتمر العام بقوله : يا عبد العزيز ، أنصحك بتقوى الله في السر والعلن ، واذكر ذلك اليوم الذي لاينفعك فيه مال ولا بنون ولا والد ولا أم ، واتق الله وخفه في عباده ، فالله أشد غيرة على عباده منك على ولدك ، وباشر امورك بنفسك ، وكن أمينا على حق الله وحق عباده ، وتصفّح أحوالهم ، واجعل همك بعد الله في حراسة دينه ، وسياسة الرعية ، ولاتتكل

على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة ، فأنت محاسب عن كل فرد في الأمة سواء أكان واليا أم من العامة ، وساعة عدل خير من ألف شهر عبادة ، واعلم أن الأمين قد يخون ، والناصح قد يغش ، والقاضي قد يظلم ، وتذكر أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ﴾ ولم يقتصر جل جلاله على التفويض دون المباشرة ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

ثم قال : أيها الناس ، إني داع فأمنوا . اللهم أعز دينك الذي ارتضيت لعبادك ، اللهم أيد إمام المسلمين عبد العزيز ووفقه لما تحب وترضى ، اللهم هيء لنا جميعا من أمرنا رشدا .

وتأثر الناس بخطبة الإمام عبد الرحمن ، وبكوا ، وكان أشدهم بكاء عبدالعزيز نفسه ، وانتهى المؤتمر التاريخي بولايته وإجماع البيعة له .

وقد مر بي في بعض المؤلفات عن عبد العزيز ذكر الخلاف الذي كان ناشبا بينه وبين أبيه بسبب إصرار كل منهما على بيعة الآخر ، وذهب إلى أن من الناس من يفكرون أن موقف عبد العزيز مناورة منه اراد منها نزول الإمام عبد الرحمن عن البيعة التي بويع بها قبل أن يولد عبد العزيز ، وأن تكون البيعة له عامة ، ثم نفى من ذكر ذلك عن عبد العزيز أن يكون قد اراد المناورة التي تنتهي بالبيعة الاجماعية .

وأنا أرى أنه لا ضرورة لكل ذلك ، ولا لذكر ما تخيل القول فيه من تخيله ، فمعروف عن عبد العزيز الصدق والوفاء والبر بوالديه ، فقد انتهى إلى أن يكون ملكا عظيما تجتمع في ملكه أقطار وحدها بجهده ، ومع هذا كان يقف من أبيه وهو في هذا الملك الضخم موقف الصبي بين يدي والده ، وكان يرجع اليه في كل امر يحزنه أو يكربه يلتمس منه الرأي .

وعندما قامت فتنة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد سنة ١٣٤٥ هـ ظن

عبد العزيز أن الشعب برم بحكمه ولا يريده ، فدعا إلى مؤتمر عام في الرياض ، وأعلن عن استعداده للنزول عن الحكم إذا كان الشعب لا يريده ، وسأل الناس بربهم ألا يقولوا غير الحق .

فعبد العزيز لا يناور ولا يخدع ، واذا جاز أن يناور البعيد أو القريب فلن يجوز بحال أن يناور أباه ، واذا كان تاريخ عبد العزيز مبرأ نقيا من التضليل والكذب والخداع والمناورات القائمة على التدليس والغش مع أعدائه فان من المقطوع به ألا يكون ذلك مع أبيه .

ولهذا أرى ذكر المناورة المتخيلة ثم التعقيب بالرد القوي مما لا يجوز على أي حال ، فما ذكر أحد أن عبد العزيز اتخذ سبيل المناورة عندما أصر على أن يكون الحكم لأبيه ، لأن الذين يعرفون سيرته وخلائقه يعرفون أن عبد العزيز كان من أبر الأبناء بوالديهم ، وكان مثلا رائعا في خلائقه وصفاته ، ومن أبعد الناس والحكام عن السياسة التي يبيح شرعها ما تحرمه شريعة الأخلاق .

ابن سعود ومبارك

ولد الشيخ مبارك بن صباح سنة ١٢٦٩ هـ (١٨٤٤م) في الكويت ، وهو الابن الثالث لأبيه ، وأكبر إخوته الشيخ محمد ثم الشيخ جراح ، وتلقى علوم الدين على يد مدرس خاص ، ولم تكن هذه العلوم التي تلقاها إلا يسيرة لا تزيد على المرحلة الابتدائية ، ومع ضآلة معلوماته كان ألمعيا شديد الذكاء ، ذا عقل نير .

ولما بلغ العاشرة كان يتدرب على ركوب الخيل وإطلاق النار حتى صار من أبرع الفرسان والرماة ، وكان يصيب هدفه ولا يخطئه ، وفي الخامسة عشرة كان بارزا في مجتمعه، وكان أذكى من أخويه ، وإن كانا أكثر منه صلاحا .

وكان مبارك طويل القامة ، أسمر اللون ، أدعج العينين ، أوهز ، قليل اللحم ، قوي البنيان ، وثيق التركيب .

وأما خلائقه فهي خلائق الرجل الوامثة الماكر المتقلب، وله فقه في السياسة والمصالح جعله لا يبالي في سبيل مصالحه الدين والأخلاق ، واذا تعارضت مصلحته مع الدين والخلق آثرها عليهما لا يحفل باعتراض المعترضين ونقد الناقدين ، مستبد غشوم لا تعرف الرحمة والانسانية إلى قلبه سبيلا ، صلب الارادة فلا يرده راد عن أمر عزم على إتيانه ، طموح طامع كان يحلم بالسيادة على البلدان المجاورة ،

كثير التقلب ، قليل الأناة ، جم الرياء ، شديد القسوة والطغيان ، شجاع مقدام وجريء .

وكان رقيق الدين ، محبا للهو والانس والطرب ، وعندما تولى إمارة الكويت كان قصره على شاطىء البحر مزدحما بالغواني والراقصات من حسان ايـــــران والخليج ، وكان لديه عديد من الراقصات السوريات والمصريات واللبنانيات ، ولياليه الخمر بشعة داعرة ، وكان مفتونا بالكاعب والكأس .

ولم تصرفه لذاته ومتعه عن الامارة ، فكان يقظا واعيا لا يترك من أمرها شيئا مهما صغر ، وعندما ينتهي من عمله بالنهار يطلق لغرائزه العنان ، ويقضي شطراً من ليله مع الغواني ، ويحييه بالطرب والموسيقى والغناء .

ويذكر بعض من كتبوا في سيرته أنه كان شديد الغيرة فكان يحرم على أبناء إمارته اللهو والطرب ، ويطبق شرع الله على من يرتكبون المحرمات ، فيجلد من يرتكب الاثم مع النساء ، ويقيم الحد على السكران .

وليس ذلك عن غيرة منه على الدين ، وحماية للأخلاق ، فما كان مبارك من الذين يحرصون على شرع الله ، بل كان جبارا في انتهاك الحرمات ، ولم يحرم على الناس الفواحش لأن الله حرمها ، بل دفعته أنانيته الى أن يحرم على غيره ما أحله لنفسه ، فهو يبيح لنفسه أن يستمتع بالمرأة والخمر ويمنـــع الآخرين من الاستمتاع بهما ، لأنه حاكم وأمير وشيخ ، فما يباح له لا يباح لغيره ثم النفاق .

وقبل أن يثب الى الحكم بقتل أخويه كان ينفق بسخاء على ملذاته ومطامعه ، وكان يمهد الطريق لنفسه الى الحكم ، فوجد من أخويه الكبيرين الحاكمين : محمد وجراح الشدة معه ، فكانا لا يعطيانه من المال ما يطلبه ، وما كانا يعطيانه إلا بقدر معلوم لا يتسع لأن يسخو في الانفاق على آثامه فحقد عليهما .

وكان حيواني الطبع بعيدا عن الانسانية ، متحجر القلب فظا غليظا ، دميم اللسان يجبه من لا يحبه أو يرضى عنه بما لا يصدر إلا من ذوي الأخلاق الكريهة ، شديد القسوة لا حد ولا نهاية لها ، فكان يدمر كل القيم الانسانية الرفيعة إذا وقفت في وجهه أو اعترضت سبيله المعوج .

عارضه شقيقاه الحاكمان محمد وجراح ونصحاه رجاء أن يهتدي ويستقيم ، فأضمر لهما الحقد والكراهية والبغضاء ، وصمم أن يغدر بهما ويستولي على أموالهما وإمارتهما ، لأن في ذلك ضمانا لآرابه ومشتهياته .

وكان الاخوة الثلاثة شركاء في الإرث ، ولم يأكلا حقه وإن كانا يقتصدان في إعطائه ما يطلب ، وما كان لطلبه حد ، فهما يستحيان ، وهو لا يستحي ، ووسط علية أهل الكويت الى أخويه محمد وجراح غير مرة ، ولما وجد من أخويه الحرص على خلقه من الفساد والاقتصاد فيما يعطيانه من المال قرر أن يتخلص منهما بأبشع جريمة عرفها تاريخ الانسان والجرائم .

وأعجله الى تنفيذ جريمته أن أخاه الشيخ جراحا المسئول عن المال وصرفه مضى الى سوق الكويت وأعلن للتجار أنه سيعطيهم كل ما أخذه منهم أخوه مبارك من قروض ومن أشياء غير النقد إلى يوم الاعلان ، وأما بعد هذا فلن يحاسبهم بقرش مما يأخذ .

وعلم مبارك باعلان أخيه جراح ، وعرف أن محمدا وجراحا متفقان في سياستهما فقرر أن يقتلهما .

وهما على حق كل الحق ، فمبارك يأخذ من التجار قروضا ينفقها على لياليه الحمر وراقصاته وغوانيه ، ومن حق الأخ الكبير أن يربي إخوته الصغار على الأخلاق الكريمة ، ويراقب أعمالهم وتصرفاتهم ، فما كان منها غير متفق مع الدين والأخلاق منعه .

ولكن مباركا كان سفيها فأوغر صدره موقف أخويه الكبيرين منه ، فاجتمع في ليلة ٢٥ ذي القعدة سنة ١٣١٣ هـ (١٧ مايو ١٨٩٦م) بولديه جابر وسالم وعبيده وخدمه ورجاله وقرروا مباغتة محمد وجراح قبيل صلاة الفجر .

وفي الموعد المحدد خرج مبارك ومن معه وكلهم يحمل السلاح ، واتجه مبارك وبعض عبيده الى غرفة نوم أخيه الكبير الشيخ محمد ، ومضى جابر بن مبارك ببعض الرجال إلى غرفة نوم عمه الشيخ جراح ، وبقي سالم وآخرون في بهو القصر للحراسة وحماية المجرمين .

وكان كل من بالقصر نائمين إلا الشيخ صباح ابن الشيخ محمد فهو الوحيد الذي استيقظ واتخذ سبيله الى المسجد ، إذ كان من عادته أن يصحو في الثلث الأخير من الليل ويمضي الى المسجد .

وتسلل مبارك بمن معه الى غرفة نوم الشيخ محمد فوجده نائما ، فأشعل النور ووكزه بفوهة بندقيته فصحا مذعورا ، ورأى الشر في وجه أخيه الصغير مبارك ، وبندقيته مصوبة إليه ، فتوسل إليه أن يدعه، وأخذ يرجوه ويسترضيه ويستعطفه دون جدوى ، ولما رأى أن توسله لا ينفع اتجه الى الله ، وتلا الشهادة ، وعندما قال: حسبي الله انطلقت رصاصة من بندقية مبارك كان فيها موت محمد رحمه الله .

وأما جابر بن مبارك فذهب مع رجاله المسلحين إلى غرفة عمه جراح فأبصروه نائما ومعه زوجه ، فأيقظهما جابر بعنف ، فوثب جراح على جابر ، وأسرعت زوجه لتساعده وكادا يغلبانه لولا تدخل أعوانه البغاة الغادرين ، فتغلبوا عليهما ، وأطلق جابر على عمه بضع رصاصات من بندقيته قضت عليه .

وصحا من بالقصر فاذا دم القتيلين مهراق ، وهرع من فيه فرأوا الجثتين مضرجتين، وشغلهم الحادث عن كل شيء، واعولت النساء والأطفال، وأحاط

بالقتيلين أولادهما ، وكان لمحمد خمسة أبناء ذكور هم : صباح وسعود وعذبي وخالد وعلي ، ولجراح ابن واحد هو حمود .

واشتغل من بالقصر بتجهيز الشهيدين ، في حين أن القاتل مبارك الصباح مضى إلى ديوان الامارة وأرسل الى كبار أهل الكويت والتجار وكبار الموظفين والعلماء فحضروا ، وعندما اكتملوا التهمهم مبارك بعينيه الوقحتين تقدحان باللهب والجبروت ، وكان بعضهم قد علموا بالحادث الأليم وبعضهم لم يعلموا به .

وكانت السيوف في أيدي رجال مبارك والبنادق ، ونعى اليهم أخويه ، واعترف بأنه قتلهما لأنهما أصرا على الباطل والظلم ، وإن القتل مصير كل ظالم وكل من ينبض قلبه بالرحمة على الظالمين ، وذكر لهم أن قضاء الله نافذ ، ولا راد لقضائه ، وأن ما حمله على قتلهما هو فعلهما ، فهما قتلا نفسيهما بظلمهما وإصرارهما على الظلم .

وبعد أن تحدث في عزم وغضب صمت دقائق فاذا الرعب يملأ نفوس الحاضرين ، ونهضوا إليه يبايعونه على السمع والطاعة ، واعترفوا بأنه الحاكم الشرعي للكويت ؛ ولا حق لأحد غيره في الإمارة .

وبعد أن أخذ البيعة من الحاضرين ورأى خضوعهم وعدهم بأن يحكم بالحق ، وأن يخلص للرعية ، ويحمي بلاده من كل معتد سواءاً كان العدوان من الخارج أم كان من الداخل ، وطلب إليهم أن يعينوه في الحكم .

وهنا كان الوقت قد قارب الظهر ، فاستأذن بالخروج تاركا ابنيه جابر وسالم ، ومضى إلى قصره يستجم قواه ويلتمس الراحة بعد أن فعل ما فعل .

وبعد صلاة العصر عاد مبارك الى القصر ، فازدحم بالناس الذين أقبلوا للمبايعة ، وبعث مبارك الى أولاد القتيلين فحضروا ، فاستقبلهم في لطف ،

وأظهر لهم المودة والعطف ، ووعدهم بأن يكون مكان أبيهما ، وهدد كل خارج بالموت ، فبايعوه مكرهين ، وأعلنوا أنهم سيكونون أبناءه ، ولن يجد منهم إلا خيرا.

هذا هو مبارك الصباح ، لا يبالي الدين والخلق ، وكل عمل يحقق له مأربا يأتيه ولو كان فيه غضب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وهرب أبناء القتيلين الى البصرة حيث سبق اليها خالهم يوسف بن عبدالله آل ابراهيم فرارا بنفسه من مبارك الذي بيّت له ما بيت لأخويه ، ولكن الله سلمه ، لأنه لم يكن بالقصر ليلة الحادث ، فنجا ، وهرب إلى البصرة التي كان يملك بها مزارع كبيرة .

والحق ، أن يوسف الابراهيم كان وفيا للشهيدين وأولادهما ، فقد وقف حياته وكل أمواله الطائلة في سبيل الثأر من مبارك ، وبذل كل شيء حتى ينتقم منه ، ولكن الشيخ مباركا كان يقظا ليوسف الابراهيم، فاذا استنصر بوالي البصرة استنصر مبارك بمن هو أكبر منه ، فاذا لجأ الى القنصل البريطاني في البصرة لجأ مبارك إلى من هو أكبر منه ، وهكذا نشب الصراع وعنف واشتد بين مبارك من جهةويوسف الابراهيم وأولاد الشهيدين من جهة أخرى .

وما يكاد ينجح مسعى هؤلاء وخطتهم حتى يتصدى مباركبإفسادهما ، ولم ييأس كلا الطرفين ، وإن كان مضجع مبارك مقضوضا بسبب خصومه .

وعلى سبيل المثال : لجأ أولاد القتيلين الى القنصل البريطاني بالبصرة وقدموا له «عريضة» فصلوا فيها ما حدث من عمهم مبارك الصباح ، واغتصابه حكم الكويت ، وذكروا له أنهم مستعدون لتنفيذ ما تريد الحكومة البريطانية إذا ساعدتهم في التغلب على مبارك وتسلمهم حكم الكويت .

وكانت مطامع بريطانيا غير خافية في الكويت بخاصة وفي إمارات الخليج بعامة ، وما كاد أولاد القتيلين يلجأون الى القنصل البريطاني حتى أسرع إلى

تأييدهم ، وتبنى قضيتهم ، وكتب بموضوعهم لسفير بريطانيا في الآستانة ،وطلب إليه أن يبذل جهوده لدى الحكومة العثمانية المسئولة عن الكويت بحكم تبعيتها للباب العالي رجاء انصاف أبناء القتيلين من عمهم مبارك الذي قتل أبويهم غدرا ، وانتزع منهما الحكم واغتصبه لنفسه كما اغتصب كل أموالهما .

وذكر القنصل للسفير أن هذه الفرصة ذهبية بالنسبة لبريطانيا ، إذ تفتح لهما بابا يفضي الى الكويت وبسط نفوذها عليها ، كما ذكر له أن وجود مبارك على الحكم لا يضمن المصالح البريطانية في الخليج .

وعلم مبارك بنصرة القنصل البريطاني في البصرة لأولاد أخيه ، وخشي أن تخرج قضية الكويت من حدودها الضيقة إلى أن تنقلب قضية سياسيةدوليةبين الدول الكبيرة فتصطدم بريطانيا والحكومة العثمانية ، وحينئذ يخسر مبارك سواء أكان النصر لبريطانيا أم للحكومة العثمانية .

ولجأ مبارك الى الانجليز أنفسهم ، فذهب إلى بوشهر لمقابلة المعتمد السياسي البريطاني فيها ، وبحث معه انشاء علاقات مع بريطانيا ، وأجرى معه مفاوضات شملت وضع الكويت بنظامها الحالي .

ولم يكن المعتمد البريطاني ينتظر حدوث هذه المفاجأة كما لم يكن ينتظرها المسؤولون البريطانيون في هذه المنطقة أن يلجأ إليهم أمراء الخليج أو بعضهم، بل سعوا إليهم فلم يوفق مسعاهم لتحقيق مطامعهم ، بل وجدوا الأبواب مغلقةفي وجوههم ، إذ كانوا مع الحكومة العثمانية دولة الخلافة الاسلامية ، وما كانوا يبيحون لأنفسهم نصر أعدائها عليها ، فقد كانوا يرون حكومات الغرب حكومات كافرة لأنها لا تدين بالاسلام .

وعندما لجأ حاكم الكويت للمعتمد استقبله بترحاب ، فقد فتح باب جزيرة العرب في وجه الانجليز ، فتحه لهم مبارك بلجوئه الى المعتمد البريطاني في بوشهر

واسمه الكولونيل مالكولم جُـدميد ، وأسرع إلى طمأنة الشيخ مبارك ، وأعلمه أن بريطانيا لم تعترف قط بالسيادة الكاملة للحكومة العثمانية على إمارات الخليج العربية .

وهذا معناه أن حاكم الكويت مستقل ، وبلده غير داخل في السيـــادة العثمانية ، وإن من حقه أن يفاوض من يشاء لأنه حر وبلده مستقل .

وزاد المعتمد في طمأنة مبارك ، فوعده بالمساعدة والتأييد الفعليين ، وألا طاقة لأحد بتهديده ، وأعلن له أن حكومته مستعدة لبسط حمايتها على الكويت عند الحاجة والاقتضاء .

وعاد مبارك الى الكويت سعيدا مطمئنا لنجاح مسعاه ، فالمعتمد البريطاني لم يكتف بالقول ، فقد كتب لنائب الملك في الهند يخبره بأمر الشيخ مبارك وبما تم بينهما من حديث ، وطلب الى نائب الملك أن يبدي اهتمامه ، وأبان له أن مساعدة الحكومة البريطانية للكويت ضرورة لا بد منها لأسباب منها حفظ التوازن السياسي في الخليج .

وكان السياسيون والمسئولون البريطانيون يدركون «أهمية» الخليج ، وبخاصة إمارة الكويت ، وكان نائب الملك يدرك ذلك ويعمل له دون أن يجد فرصة أو منفذا ، وها هي ذي الفرصة تتاح ، والباب يفتح ، فكتب نائب الملك إلى الحكومة العثمانية ينبئها بأن حكومته مستعدة لمساعدة الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت وحمايته .

ومع أن الشيخ مباركا فتح للانجليز الباب فإنه لم يكن قاطعا صلته بالحكومة العثمانية ، بل حافظ على الوفاء لها والولاء لخليفة المسلمين العثماني ، ووقف عند هذا الحد من علاقته ببريطانيا ، ووكل تقويتها إلى الظروف التي لا يعرف ما تكون عليه في المستقبل ، ولكنه حاول انهاء الخلاف الشاجر بينه وبين يوسف

الابراهيم ، ووسط لذلك بعض البارزين من الرجال ، ولكن يوسف أبى ، وأولاد الشهيدين تبع له .

وبعد مناورات بين مبارك ويوسف الابراهيم استطاع يوسف أن يوغر صدر الدولة العثمانية على مبارك وبدا أنه سينتصر ، ولكن ، هيهات ! فمبارك هو الخصم ، ومن مواهبه : القدرة على التخلص من أي شبكة تريد أن تصطاده ، ولن ينثني عزمه مهما كانت قوى الخصوم .

رأت الحكومة العثمانية أن تصرف مبارك أو تصرفاته تثير قلقها ، فقضية الكويت قد تضخمت الى حد لا يمكن السكوت عليه ، فأبناء الشيخ محمد والشيخ جراح لم يتوانوا عن شغل الحكومة العثمانية وولاتها ومتصرفيها في البصرة وبغداد بقضيتهم العادلة ، وعلا استصراخهم ، وكثر طلبهم العادل بانصافهم ، وتدخل — بسبب مبارك — المسئولون البريطانيون ، فقد لجأ إليهم كل من الطرفين المتنازعين ، وما كان هذا ليحدث لولا تصرفات مبارك .

وقلقت الحكومة العثمانية على مصير الكويت ، ولم يفتها أن وجود مبارك سبب القلق ، وزاد من استيائها وسخطها عليه محاربته لابن الرشيد الذي يتبعها في إخلاص، وأدركت الخطر الناجم من بقاء مبارك على إمارة الكويت، فرأت التخلص منه — أولا — ثم النظر فيما بعد فيما يجب أن تتصرف معه ، وأصدرت أمرها بأن يتوجه مبارك الى الآستانة لتسلم زمام منصبه عضوا في مجلس شورى الدولة ، والا فله الحرية في سكنى البلد الذي يختاره ، وعندئذ توظف له الدولة مئة وخمسين جنيها عثمانيا راتبا شهريا ، وإذا لم يقبل أحد هذين الأمرين فلا مفر من اتخاذ القوة معه لاخراجه من الكويت .

وتولى مصطفى نوري باشا والي البصرة إبلاغ مبارك الأمر السلطاني في رسالة بعثها إليه ، وطلب منه الجواب ، ولا حرج على مبارك ، فهو قادر على أن يلبس لكل حالة لبوسها ، فكتب الجواب الى نوري باشا ويتضمن ولاءه للخليفة الأعظم

وحكومته ، وإنه هو وأسلافه أبلوا أحسن البلاء في خدمة الدولة العلية ، وثبتوا قواعدها في هذه المنطقة ، وحافظ على ضمان الولاء الشخصي وولاء الرعية للحكومة العثمانية التي يحرص على السمع والطاعة لها ، وتنفيذ أوامرها ، والعمل على كسب رضاها ، ولم يصدر منه ما يوجب نفيه عن بلاده بعد طول الخدمة الصادقة والولاء الحق والإخلاص ، ويرجو أن ينظر إليه بعين العطف والرحمة والعدل ،وأن يشفع له إخلاصه للدولة الخ .

ولم يكن مبارك جاهلا بأن أي رجاء يراد منه تغيير الأمر العالي لا يجد الرضا والقبول ، ولا يغير من الأمر شيئاً ، فهو واجب التنفيذ طوعاً أو كرها ، بل كان يعلم ذلك ، ولكنه أراد أن يراوغ كسبا للوقت حتى يمهد لنفسه طريق الحل الذي سيسلكه ، كما أن مصطفى نوري لم يكن غافلا عن نيات مبارك وأهدافه ، وكان مدركا أنه يماطل ويسوف ليكون لديه الوقت الكافي ليجد المخرج مما فيه ، فقرر اتخاذ القوة ، وأرسل البارجة العثمانية المسماة «زحاف» الموكولة اليها حراسة الشواطىء الخاضعة للحكومة العثمانية ، وفيها رجاله المسئولين من عسكريين ومدنيين ، ويقدموا لمبارك برقية الآستانة ، فان وافق وإلا أخرج بالقوة .

ورست البارجة في الكويت في شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٨٩٨ م (١٣١٩هـ) وقابل الوفد مباركا وأخذا يتفاوضان ، ومبارك يراوغ ويمكر ، ويسترحم ويستعطف ، وبأسلوب آية في الحكمة واللين أبان لأعضاء الوفد ما ينجم من اتخاذ العنف من عواقب وخيمة لا ترضي الباب العالي .

وبينما هو يراوغ ويبدي جانب اللين واليسر والسهولة أرسل رسالة عاجلة الى المعتمد البريطاني في بوشهر حملها أحد رجاله الأمناء وهو علي بن عبدان ، وأمره أن تصل الرسالة الى يد المعتمد نفسه .

ولبث ينتظر جواب رسالته وهو آمن إلى أن الجواب في مصلحته ، فأخذ يفاوض ببراعة لم تقطع أمل أعضاء الوفد الذين لم يكونوا في مستوى مكر مبارك

ودهائه ، فهو قد أدرك أن المكيدة دبرت له ، ونصفها مكشوف ونصفها الآخر مستور كما صرح هو نفسه لبعض خواصه ، وهو لن يسلم نفسه ، فلا فرق بينه -إذا ذهب إلى الآستانة بطوعه- وبين الباحث عن حتفه بظلفه، ولا رغبة له في عضوية مجلس شورى الدولة، ولن يستبدل بإمارته أي منصب، وأما أن يختار أي بلد غير الكويت ويدع إمارتها فلن يكون ما دام حيا، ولن يخدعه الترك، ولن يكون فريسة لهم ، وكيف يُخدَع مبارك وهو مضرب المثل في الخداع والمراوغة والتضليل .

وقرأ المعتمد رسالة مبارك فاذا هو يطلب إليه حماية بريطانيا وتدخلها السريع قبل فوات الأوان بارسال بارجة حربية ترد على البارجة العثمانية ، وتحميه وتحمي الكويت .

ولم يكن المعتمد في حاجة إلى أن يذكر مبارك له السرعة في الانقاذ والحماية ، فقد كان ينتظر هذه الفرصة ، فأسرع المعتمد الى بعث بارجة حربية زود قائدها بما يجب أن يقول ويفعل ، ورست البارجة البريطانية ، ونزل ربانها ومضى الى مبارك واتفق معه على المسرحية التي ستمثل ، وكان ذلك في يناير ١٨٩٩ م .

وبينا مبارك مجتمع بالوفد المفاوض دخل قائد البارجة البريطاني ولم يسلم ، وفوجيء الأعضاء بدخوله ، وما كادوا ينظرون اليه حتى قال لهم في جفوة غليظة : إن الحكومة البريطانية لا تسمح للشيخ مبارك بمفاوضتكم ، وإني أطلب إليكم مغادرة الكويت الآن ، وإلا فسأضطر الى إطلاق النار على بارجتكم وإغراقها بمن فيها ...

ولم يقتصر القائد البريطاني على هذا الانذار ، بل وجه إلى أعضاء الوفد كلمات نابية ، وعبارات السخرية المرة والتهكم اللاذع .

وغادر الوفد المجلس مشيعاً بنظرات الشماتة من مبارك وبنظرات الازدراء من

القائد البريطاني ، واتجه أعضاؤها الى بارجتهم وغادروا مياه الكويت التي خرجت من دولة الخلافة إلى حماية بريطانيا .

وقد دون مبارك مشاعره في رسالة بعثها إلى صديقه العزيز الشيخ خزعل شيخ المحمرة جاء في ملحقها ما نصه :

« أخي متعنا الله بحياتك ودام أنسنا بسرور خاطرك وطولة عمرك .

« عن مجيء الجماعة معهم صورة تلغراف يقولون جاي من اسطنبول ومآله (أنت يـ مبارك عيّناك أعضاء في مجلس الشورى في الآستانة أم تسكن في الممالك المجاورة بالمعاش الكافي التام مع الراحة) وأهل البيض [1] منعونا عن الجواب واجتمعوا الاثنين [2] الذين جو [3] ني محلكم يكون نعطيهم الجواب وحضر أهل البيض وقال لهم : مبارك ما يعطي الجواب وأنا مانعه عن الجواب وعن الاتفاق بكم ورحوا[4] لا تقعدون ، وقام يحكي عليهم حكي واجد[5] يتهزأ بهم ، ومع هذا نحن قد كتبنا لبوشهر نريدتوثيق جواب وجاناخطين[6] فيهما كفايةواطمئنان خاطر ، وأنا بحضور راعي البيض لما جيء [7] الاثنين إلى محلك [8] أنا قلت لهم : هذا ما نعني عن رد الجواب لكم والاتفاق معكم ، ومن بعد كل كلامي لهم توجه لهم بالكلام » .

---

(١) أهل البيض : يقصد بهم الانجليز .

(٢) الاثنين : يقصد بها الوفـــد وكانا الاميرالآي نجيب بك شقيق مصطفى نوري باشا والي البصرة ، والسيد رجب النقيب .

(٣) جو : جاءوا

(٤) رحو : روحوا : اي اذهبوا .

(٥) واجد : كثير.

(٦) خطين : رسالتين .

(٧) جيء : جاء .

(٨) الى محلك ، وسبق في اول الرسالة « في محلكم » والمقصود هو مبارك ، ولما كان يرى الشيخ خزعلا صديقه اعتبر المحل محله لأنهما بمثابة الواحد .

وهكذا بسطت الحكومة البريطانية حمايتها على الكويت بطلب حاكمها مبارك الصباح ، وتمت هذه الحماية في ٢٣ يناير ١٨٩٩ م .

ولئن خلصته الحماية البريطانية من مخاوفه وقلقه ونفيه وثبتته على كرسي حكم الكويت فان مخاوفه من يوسف الابراهيم ما تزال ، فهو –إن نجا من الحكومة العثمانية بسبب الحماية البريطانية – غير ناج من القبائل المعادية له ومن خصمه ابن الرشيد ، وما دام يوسف الابراهيم حيا فلن يرتاح باله ، لأنه يعرف ثباته على المبدأ ، وعناده واصراره على الانتقام ، ولن يتركه .

ولم يكن أحد من الناس يحب مباركا لما عرف من الخلائق المقيتة الا الذين ينالون من نفحاته ، فلديه المال الكثير يشتري به الاقلام والضمائر ، وما أكثرهم بين حملة الأقلام والعلماء والصحفيين ومالكي الصحف ، وبين من تولوا الدفاع عن جرائمه عندما استطاع يوسف الابراهيم أن يجعل قضية أخوي مبارك الشهيدين قضية دينية وسياسية وانسانية ، وذلك عندما خرج بها من الادارات الرسمية إلى الصحافة .

وتصدت صحف للدفاع عن مبارك والرد على خصومه من آل الشهيدين ، ومنها مجلة : « المنار » لصاحبها محمد رشيد رضا ، ومجلة « العمران » لصاحبها عبد المسيح انطاكي ، وقد شهد هذان الصحفيان لمبارك وزكياه أعظم تزكية .

ولا شك أن مباركاً تمكن بمساعدة الانكليز من أن يثب بالكويت الى الامام وثبات ، ويدخل الى بلاده بعض مظاهر الحضارة الغربية ، وكان من آماله أن تكون بلاده قطعة من أوربا ، لا في الطيبات فحسب بل في العادات الغربية التي لا تتفق مع شيم العرب وشرع الاسلام ، فقد روى عن الشيخ مبارك أنه كان يحيي لياليه بالقيان والراقصات ، وأمعن في العربدة والاباحية حتى ضجت رعيته حينما استباح حرمة شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ورحمة ، كما ضجت

من ضرائبه الفادحة المفروضة عليها ، يأخذها قسرا لينفقها على ملاهيه وعلى لياليه الحمر وملذاته ، وعلى شراء الضمائر والذمم .

ولسنا بسبيل البحث في الكويت أو حياة الشيخ مبارك الصباح إلا بالقدر المتصل بعلاقاته مع ابن سعود ، مع ذكر شخصية مبارك وعلاماته الفارقة،وما عرف به من المكر والغش والكذب والتدليس والخداع ، فهو يدعو ابن سعود : «ولدي» في حضوره وغيبته في رسائله إليه ، وابن سعود يقبل منه ، ويصبر على خداعه ، لأنه مؤمن أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والمكر السيء لا يحيق إلا بأهله ، ولأن الله أرشده الى طريق النجاة من أحابيل مبارك الذي كان دائما خاسرا في صفقاته مع ابن سعود .

ولم يؤثر قط عن ابن سعود أنه تنكر لمبارك أو ذكره بسوء ، بل كان في جميع أحواله يذكر أياديه عليه ، ومع أنه ردها إليه أضعافا مضاعفة فإنه كان في ظاهره وباطنه مخلصا له ، ومع أن مباركا أساء إليه اساءات بالغة فإنه لم يبح لنفسه أن يقابله بمثلها ، بل لم يعرف قط عن ابن سعود أن أساء إلى أحد أو اتخذ مع انسان الكذب والغش والتدليس ، لأن الله فطره على أنبل الخلائق وأكرم الصفات ، وكل تاريخه يثبت أنه نموذج رائع وجميل في المزايا والخلائق والصفات .

وهذا ما دعاه الى أن يقابل شرور مبارك بالخير الذي فطر عليه ، ولكن مباركا تمادى في غيه لأنه مفطور على السوء .

يزعم مبارك أن عبد العزيز بن‌سعود ولده ويكتب الى‌ابن الرشيد أنه «صديقه» ويستعدي كلا منهما على الآخر ، ويثيره عليه ، وساء مباركا نجاح عبد العزيز ابن سعود وانتصاره على عبد العزيز بن رشيد ، وخشي من اتساع نفوذ ابن سعود ، فقد دانت له نجد ، وستدين له غيرها ، وساءه أكثر أن ابن سعود أصدر أمره بأن يصحب القوافل النجدية التي كانت تمتار من الكويت وتتهرب من الرسوم

المفروضة عليها ممثلون له يستوفونها منها وهي في الكويت ، لأن في هذا التصرف من قبل ابن سعود اعتداء على سلطته .

ورأى أن يضرب مباركٌ ابن سعود وينتقم منه فكتب الى عبد العزيز بن متعب الرشيد ، يبدي له الود ، ويطلب اليه التفاوض لاقامة جبهة ضد ابن سعود ، ورجاه أن يبعث اليه خالد باشا العون شيخ الزبير ليمثله في المفاوضة ، لأنه من أصدق أصدقاء ابن الرشيد ومن المقربين والمؤتمنين لديه .

ووافق ابن الرشيد ، وفي منتصف سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥م) زار خالد باشا الكويت منتدبا من قبل عبد العزيز بن رشيد ، وقابل مباركا ، واتفق معه اتفاقا سريا يقضي بوقوف مبارك على الحياد إذا اشتبك ابن سعود مع ابن الرشيد في حرب ، وأن يساعد مباركٌ ابن الرشيد ، وأن يخذل أنصار ابن سعود نفسه، وأن يضايقه على قدر المستطاع .

وأفاد ابن الرشيد من هذا الاتفاق أكثر من مبارك ، بل كانت الفائدة له دون مبارك الذي ما كاد يمضي الاتفاق حتى بدأ بتنفيذ شروطه ، فبعث إلى قبائل نجد وعشائرها رسله ، ويعلن لهم أنه قد تخلى عن عبد العزيز بن سعود ، ولم يعد يؤيده ، ويثيرهم على ابن سعود ، ويدفعهم الى عصيانه والثورة عليه ، وأخذ يغذي الحركات الناقمة على ابن سعود ، ويشجع ابن الرشيد على حرب ابن سعود ، ويعده ويمنيه .

ويشاء الله أن يقتل عبد العزيز بن متعب الرشيد في روضة مهنا يوم ١٨ صفر ١٣٢٤ هـ (١٣ إبريل ١٩٠٦) بعد بضعة شهور من الاتفاق المبرم بينه وبين مبارك ، ويسر مبارك سرورا عظيما بمقتل ابن الرشيد ، لأن في زواله عن المسرح قوة له ، وما انتصر عليه ابن سعود الا بثمن فادح ، فمبارك رابح ، فخصمه ابن الرشيد زال من الوجود ، وعبد العزيز قد ضعف ، ولن يتركه مبارك الذي تمادى في مكره .

ويشاء الله أن يفتضح مبارك لدى الخصمين ابن سعود وابن رشيد بغلطة وقع فيها سكرتير مبارك وهو عبد العزيز العتيقي ، إذ كتب رسالتين ، وجه إحداهما لابن سعود ، والأخرى لمتعب بن عبد العزيز بن رشيد ، ولكن السكرتير غلط ، فوضع رسالة ابن رشيد في ظرف ابن سعود ، ورسالة ابن سعود في ظرف ابن رشيد .

وتناول ابن سعود الرسالة فدهش أعظم الدهش من فعل مبارك ، إنه يهنىء متعب بن عبد العزيز الرشيد بولاية الحكم ، ويؤيده ، ويسانده ، ويقول فيها ما نصه

« إني متكدر جداً من أعمال ابن السعود ، وقد جرت الأمور في نجد على غير ما أشتهي ، أما الآن فأنا وإياكم عليه ، والكويت وحائل شقيقتان ، ومصلحة البلدين واحدة ، ولكم مني ما تشاءون من المساعدات ، وأرجو أن يكون على يدكم الفوز وتخلص نجد من سلطة الوهابيين التي تخشاها الكويت بقدر ما تخشاها أمراء حائل » .

ولم يكن خلق مبارك غريبا على عبد العزيز ، ولكنه لم يكن يتصور أن تصل السفالة بأحد الى هذا الحد ، ولم يثر عند تسلمه الرسالة ، بل ابتسم وكتم الأمر واحتاط له ، فقد ضبط الجاني بجنايته ، ولا سبيل الى الانكار أو العذر ، ومع هذا لم ينبس ببنت شفة ، بل كتم الأمر وبقي على صلته بمبارك .

غير أن ابن سعود حرص على أن يطلع على رسالة مبارك إليه ، والتي ذهبت خطأ إلى متعب الرشيد ، فكتب اليه ابن سعود رسالة يذكر له فيها مكر الشيخ مبارك ، ورغبته بل عمله للايقاع بينهما ، ويحذره من أحابيله ، ودعاه الى الصلح والهدنة ، وأرسل إليه رسالة مبارك .

وتلقى ابن رشيد رسالة مبارك فبلغ منه الدهش أبعد مدى ، وعجب من خلق

مبارك وبذاءة لسانه فقد جاء في رسالته لابن سعود التي وضعت خطأً في ظرف ابن رشيد ما نصه :

« اولدي ، يا ولدي ، أنا معك في كل حال وحين ، قواك الله وتولاك ، لا تترك هذا الكلب فحل الشول ، ولا تدعه يستريح ، ولا تصالحه ، وأنا أبوك ، مستعد لمساعدتك في كل ما تريد ، وإن الفرصة أصبحت مواتية للقضاء على حكم آل الرشيد في نجد نهائيا وذلك بعد مقتل عبد العزيز الرشيد المحارب العنيد ، وأنا ذلك الرجل الذي لا يتغير بمرور الأيام ، وأن الكويت والرياض بلد واحد ، فواصل حرب الرشيد وأنا وراءك أشد أزرك ولا أدخر وسعا في مساعدتك ».

وتسلم متعب الرشيد رسالة ابن سعود إليه ومعها رسالة مبارك التي ذهبت خطأً إلى ابن سعود ، وأدرك مكر مبارك ، ووافق على ما جاء برسالة ابن سعود واتفقا على ما عرضه ابن سعود من صلح وهدنة ، واستتب السلام بين الرياض وحائل ، ولكن لم يدم ، فقد وثب سلطان بن حمود العبد الرشيد على متعب وقتله واستولى على الحكم في ٢١ ذي القعدة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦م) .

ولم يتخل مبارك في معاملته لعبد العزيز عن المكر والخداع والايقاع به والاثارة عليه ، لأنه لا يستطيع مغالبة طبعه ، ولم يكتف بالتآمر عليه في السر ، فاذا رأى الاعلان أجلب للنفع أعلن العداء ، وفي كلتا الحالتين لا يعرف غير الشر والغدر والخيانة ونكث العهود وخلف الوعود .

فمبارك رأى نهاية عبد العزيز بن متعب الرشيد ، ثم مقتل ابنه متعب الرشيد على يد سلطان الحمود واستيلاءه على الحكم فتودد اليه وشجعه على حرب ابن سعود والثبات له ، وليقدم له الدليل على أنه معه بعث الى عبد العزيز بن سعود برسالة جافية شديدة اللهجة يأمره فيها بكبرياء وشموخ أن يرد منهوبات سلطان الرشيد إليه وإلا فسيعلن عليه الحرب .

واستغرب ابن سعود هذه اللهجة ، وعجب من انتصاره السافر لسلطان الحمود الرشيد ، وعدائه لمن يدعوه «ولدي» .

ولا علاقة لابن سعود وسلطان بهذه المنهوبات التي يذكرها مبارك في رسالته لابن سعود ، فالمنهوبات لم تنهب من سلطان ، ولكنها من بعض عشائر العراق ، والذي قام بالنهب علي الضويحي رئيس إحدى قبائل الظفير ، ولا يخفى كل ذلك على مبارك ، ولكنه أراد من رسالته العنيفة الى ابن سعود التي يؤذنه فيها بإعلان الحرب عليه اذا لم يرد المنهوبات أن يعلم سلطان أن مباركا معه ضد ابن سعود الذي كان مشتبكا معه في حرب .

وتاريخ هذه الرسالة سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧م) وبعد إرسالها بأسابيع قتل سلطان على يد أخيه سعود الحمود الرشيد في جمادي الآخرة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧م) فأراد أن يتلافى أثر رسالته العنيفة فكتب إليه رسالة يدفعه فيها الى الاستمرار في حرب سلطان ، متظاهرا بأنه لا يعلم عن مقتله لتكون رسالته الثانية أوقع في نفس ابن سعود الذي كان على علم بنيات مبارك وغاياته ، فقد جاء فيها ما نصه :

« إني لك دائما يا ولدي عبد العزيز ، أنا أبوك وعونك وعضدك ، ولم أصالح ابن الرشيد إلا لأخدع الترك ، وإني مستعد أن أمدك بما تحتاج إليه من المال والرجال ، المال مالك يا ولدي ، والحلال حلالك الخ ».

وكتب ابن سعود رسالتين الى مبارك ، الأولى جواب على كتاب مبارك الذي آذنه فيه بالحرب ، ومضمون الجواب الاعتذار لمبارك ، ويرد عليه في أدب رفيع بأنه لا يمكن أن يتورط في حرب معه ، لأن الابن البار لا يحارب والده مهما كانت الدوافع والأسباب ، والثانية جوابه على رسالة مبارك الثانية ، يشكره فيها على أبوته واستعداده لمساعدته بالمال والرجال ، ويذكر له أنه في سعة منهما بفضل الله ، وبخاصة بعد أن جعله الله حاكم نجد العام المطلق ، وإنه متشوق اليه ، ويرجو له

المزيد من الصحة والعافية ، ويختم له الرسالة بأنه ما يزال الولد البار بوالده مبارك ، ويبدي له إعجابه به ، وإكباره إياه ، وأنهى الرسالة ببيت بشار بن برد المشهور :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

ومن خلائق عبد العزيز بن سعود التنزه عن الحقد والضغينة وبخاصة مع من لهم فضل عليه ، ولهذا لم تستطع أفعال مبارك المنكرة ودسائسه أن تزرع الحقد في نفس عبد العزيز الصافية ، فاذا رجا لمبارك المزيد من الصحة والعافية فهو يرجوهما له صادقا مخلصا من صميم فؤاده ، وان كان يرجو له مع ذلك الرشد والهداية .

ولم تكن خطة مبارك مع محبيه وأصدقائه وجيرانه الامراء العرب خطة التحريش والتآمر والدسائس والاثارة والمكر والغدر وحسب ، بل كانت هذه الخطة خطته مع الدول الكبيرة كذلك ، يستقبل الانكليز — قبل بسط حمايتهم على الكويت — ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم الا غرورا ، ويستقبل الالمان ويبتسم لهم ويزعم أنه صديقهم ، ويستقبل الروس ويقول لهم : انه لن يغدر بهم وهو لهم موال كريم ، وملأ أكفهم جميعا بالآمال ، ولولا حظ الانكليز السعيد لما خطبوا إلى حماية الكويت من الترك أصحاب النفوذ عليها ، ولو كانت ألمانيا أو روسيا قريبة من الكويت قرب الانكليز لكانت هي الحامية ، ولكنه حظ الانكليز ! .

مصادفات عجيبة تمهد لبريطانيا السبيل حتى تتسنم الذرى الرفيعة في غير تعب ولا خسارة ، وتمتلك الكنوز والبلدان بخطبة من أهلها ! فيا له من حظ نادر عجيب ! .

وفي الفصل الذي كتبناه تحت عنوان : « الى الكويت » اشارة الى أن الامام عبد الرحمن — والد ابن سعود — هبط الكويت لاجئا ، وكانت بينه وبين شيخها مبارك صلة ود واخاء ، وكان ابن سعود غلاما يتردد على مبارك ، ويختلف إلى مجالسه الرسمية ويحضر مفاوضاته ، ومبارك يعجب بذكائه وعبقريته ، ويريه

السياسة في أثوابها الشفافة ، ويبصِّره بها ويفقهه في لغتها وعلومها ليكسب اعجاب ابن سعود ، ويظهر أمامه بمظهر السياسي الداهية .

ومن دأب ابن سعود ذكر الجميل ، ومبارك صنعه مع أبيه ومعه وآواهما في بلاده ، فهو أشد ما يكون ذكرا لما صنع من جميل ، وتغاضيا عما يفعل من مكروه ، ولن ينساه وقد ابتسم له الحظ وصافحته يمناه ، لن ينسى عونه اياه بالمال والرجال على ابن الرشيد حينما اقتحم الرياض للمرة الاولى ومكث فيها بضعة شهور ثم تركها الى رجعة ، ثم أعانه للمرة الثانية بشيء من النقود والجمال والبنادق ، فافتتح الرياض للمرة الثانية وأسس فيها الملك الراسخ .

طبيعي أن يذكر هذه اليد من مبارك الذي لم يمدها اليه حبا فيه ، ولكنه أراد اضعاف ابن الرشيد حتى لا يعتز ويقوى ، وأقام ابن سعود يشغب عليه ليشغله عن الكويت .

فابن الرشيد هاجم الكويت من قبل ، ولكنه ارتد ، ومبارك موتور منه لخسارته في وقعة الصريف المشهورة في نجد — وسيأتي ذكرها — وسببها كما يقول المطلعون على سياسة ذلك الزمن أو أسبابها لأنها ليست وليدة سبب واحد بل وليدة عديد من الأسباب أهمها : صعوده امارة الكويت على جثتي أخويه ، وثورة أبنائهما واستنجادهم بأمراء العرب وتركيا يطلبون القصاص من القاتل ، ونهض معهم خالهم يوسف آل ابراهيم كبير تجار اللؤلؤ في زمنه وأعظمهم ثراء وأكثرهم جاها ، يستنصر الحكومات العربية ويطلب منها أن تثور على الباغي .

مضى يوسف إلى الحجاز يستنجد بالشريف حسين ، والى حائل يستغيث بمحمد بن الرشيد ، والى البصرة يوغر صدر ولاتها ، ورجع بالوعود فلم يقتنع بذلك ، وأسرع الى أمير قطر قاسم بن ثاني يرجوه العون ، فدله على محمد بن رشيد ، وبعثه اليه مع كتاب توصية منه اليه ، يغريه باحتلال الكويت ، ولكنه لم يثر ، واكتفى بوعد يوسف وتسريبه .

غير أن يوسف لم ينهزم ولم يفت في عضده جواب محمد ، وأخذ يستجدي فكره الحيل حتى ينتقم من قاتل صهريه : محمد وجراح ، فأنفق أموالاً طائلة في سبيل ذلك حتى اذا ولي عبد العزيز بن متعب بن الرشيد امارة حائل بعد موت محمد أسرع اليه ومعه غالب بن محمد آل صباح وأغرياه بحرب مبارك واحتلال البلد الذي حكمه بدون رضا أهله وبعد قتل حاكمه الشرعي ، وتمكنا من اغرائه حتى نهض ابن الرشيد يناوىء مباركا ويزعجه بالسرايا التي يبعثها لايذاء الكويت وتعكير صفو أميرها ، يروز قوته حتى يستعد له استعدادا عظيما .

ولم يك مبارك غافيا غافلا عما يصنع يوسف وأبناء أخويه ، بل عرف جلية الامر ، وبعث برسله الى بغداد يطلب الى الدولة أن تعينه لأنه يحبها ويفديها بدمه — كما يزعم — ولن يرضى بها بديلا ، وسبقه يوسف الى التقرب من الدولة واستثارها ضد مبارك .

حارت الدولة في أمرها ثم سيرت خمسة طوابير من بغداد لتأديب مبارك ، ولكن الطريق منها الى الكويت طال وامتد حتى لم يستطع الجيش قطعه الا في ستة أشهر ، ولم يصل الى الكويت بعد ، وانما ختم المطاف بالزبير ، والقصد من هذا التأخير أن ترضي الطرفين ، تجيب أولياء القتيلين أنها قامت بواجبها فسيرت جيشا لحرب القاتل ، وتجيب القاتل بأن جيشها لن يمسه بسوء ولن ينتهي الطريق حتى يصل اليه أو الى بلاده ، وقد اتخذت التدابير فليطمئن ، وصادت الدولة عصفورين بحجر ، وإن كانت في آخر المطاف أصدرت أمرها بنفي مبارك من الكويت كما مر في هذا الفصل .

ولم يبق أمام مبارك إلا ابن الرشيد ، وأراد أن يصفي حسابه معه ، ولكنه يعلم أن خصمه هذا ليس هينا ، فهو أشجع من عرفت الجزيرة من الأبطال ، ولديه جيش جرار مزود بالأسلحة الحديثة والرشاشات والمدافع .

وكانت قبيلة شمر التابعة لابن الرشيد تتعرض الكويت وقوافلها ، وتغزو أطراف

الكويت وتقتل وتغنم ، وقطعت الطريق على الكويت مما أضر بتجارتها واقتصادها وسمعة حاكمها .

وامتلأ مبارك سخطا ، ولم يكف ابن الرشيد اعتداء عشائره على الكويت ، بل آوى يوسف الابراهيم المطالب بالثأر من مبارك ووعده بالانتقام ، فرأى مبارك أن يناوش ابن الرشيد ويستعد لحربه .

وفي ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠١م) أعد جيشا سيره بقيادة أخيه حمود الصباح وابنه سالم المبارك لمهاجمة إحدى قبائل شمر الضاربة بمكان يسمى « الرخيمة » وحدثت بين الجانبين معركة حامية انتهت بانتصار الكويتيين على شمر ، واغتنامهم آلاف الرءوس من الإبل والغنم ، عدا الأموال .

وفرح مبارك بهذا النصر المؤزر ، وكتب لبعض أصدقائه ومنهم الشيخ خزعل يبشرهم ، ويتوعد ابن الرشيد ، فأجابه خزعل يهنئه ثم يطلب إليه أن يستعد ، فابن الرشيد لن يتركه ، وسينتقم ، وأرسل إليه أسلحة مختلفة بينها مدفعان .

وقرر مبارك الهجوم لا الدفاع ، قرر أن يمضي الى ابن الرشيد في عرينه وحماه ، وأخذ يعد العدة للقاء المرتقب ، وجعل «الجهرة» مكانا لاجتماع جيوشه ، وأما الجيش الذي حارب في الرخيمة فبقي على الحدود بين نجد والكويت ، وفي هذه الأثناء وقع حادثان هامان ، فقد كانت قافلة كبيرة لقبيلة شمر في طريقها الى السماوة ، فعلم بها مبارك ، فأغذ السير اليها رجاء الاستيلاء عليها ، ولكنها سبقته فلم يدركها .

وأما الحادثة الثانية مباغتة الجيش الذي يقوده أخوه حمود وابنه سالم لجيش ابن الرشيد الذي اختار النزول — وكان الوقت ليلا — بمكان قرب مكان جيش الكويت دون أن يعلم به جيش ابن الرشيد ، فهاجمه الجيش الكويتي دون أن يكون جيش ابن الرشيد مستعدا ، فقد كانت مقدمته هي التي وصلت وأخذت تنزل حمولها

وأثقالها ، فكانت المباغتة التي انتهت بخسائر جسيمة أصابت ابن الرشيد ، وكانت هذه الحادثة في ٢ رجب سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠٠م) .

وعلم ابن الرشيد بما حدث ، وكان قدومه لمهاجمة الكويت ، فلما وقع على مقدمة جيشه ما وقع قرر أن يرجىء الهجوم على الكويت ، وأن يبدأ قبله بمهاجمة آل السعدون وقبائل المنتفق الذين أغاروا في أواخر جمادي الآخرة سنة ١٣١٨ هـ على عشائر ابن الرشيد ، وقصدهم بجيشه وضرب آل السعدون وعشائرهم ضربة عنيفة، وغنم الرشيديون كثيراً من أموال خصومهم وأنعامهم .

وكتب سعدون باشا أبو عجيمي لمبارك يعلمه بما أصابه من ابن الرشيد ، فأجابه مبارك بأنه يعد العدة لحرب ابن الرشيد ، وأنه جعل الجهرة مكانا لاجتماع الجيوش، وانضموا جميعاً إلى جيش مبارك .

ودعا مبارك القبائل لتشترك معه في الحرب التي يعد لها ، فجاءته قبائل الظفير ومطير والعجمان وسبيع والسهول وبنو مرّة وبنو هاجر والعوازم وآل سليم أمراء عنيزة وآل مهنا أمراء بريدة وعتيبة والرولة .

ولما تكامل اجتماع الجيوش في الجهرة تولى قيادتها مبارك نفسه ، وكان معه الامام عبد الرحمن وابنه عبد العزيز ، وبلغ عدد هذا الجيش عشرة آلاف فارس ، وثلاثين الف محارب من القبائل ، وهو — ولا شك — جيش ضخم جرار بالنسبة لحرب التي سيخوضها .

وفي الوقت الذي تكامل الجيش واستعد مبارك لمغادرته كتب الى ابن الرشيد يعرض عليه الصلح بوساطة رسل بعثهم إليه ، وبعث سرا الى قبائل شمر يعدهم ويمنيهم ويخذّلهم تخذيلا ويثيرهم على ابن الرشيد .

وتولى مبارك قيادة الجيش ، وأصدر أمره للجيش الذي يقوده أخوه حمود وابنه

سالم بالمسير الى السماوة عن طريق «جريشان» وسار مبارك بجيشه الذي يقوده في يوم ١٠ رجب سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠٠م) متخذا طريقه الى ما بين الزبير والخميسية ، واجتمع بهذا المكان الجيشان : جيش مبارك ، والجيش الذي مع أخيه وابنه ، ووقف الجيشان في مكانهما ، لأن حكومة البصرة لم تسمح لهما بالمرور ، وبعد مفاوضات سمحت بمرور حمود الصباح والامام عبد الرحمن ببعض الجيش خلف ابن الرشيد الذي ترك السماوة حين وصل خصومه إلى «عين صيدا» وانحدر جنوبا تفاديا من الالتحام بجيش أكثر من جيشه عددا وأعظم عدة ، وما زال ينحدر حتى بلغ «الطرفية» التي تبعد عن بريدة خمسة فراسخ .

وأما مبارك فقد سار بمن معه من الجيش الى نجد ، واجتاز الصُّمّان والدهناء ونزل بمكان يسمى «الشوكة» وانتقل منها عبد العزيز بن سعود الى الرياض بألف محارب فهاجمها واحتلها إلا الحصن الذي احتمت به حامية ابن الرشيد بقيادة عبد الرحمن بن ضبعان والي الرياض من قبل ابن الرشيد .

ومضى مبارك ببقية الجيش يغزو القرى والمدن النجدية مدينة بعد أخرى ، فغزا مدينة عنيزة وحاصرها ثلاثة أيام ثم دخلها صلحا ، وسلمت له ، فأمّر عليها ابن زامل من آل سليم . واعتقل أميرها من قبل ابن الرشيد .

ثم اتجه مبارك إلى بريدة التي ثبتت للحصار الخانق سبعة أيام ، ثم سلمت صلحا ، ودخلها مبارك ، وولى إمارتها ناصر بن حسن أبا الخيل ، وسجن والي ابن الرشيد .

وبعد أن استولى على هذه المدن الكبيرة وغيرها كتب مبارك الى ابنه يبشره بالفتح في رسالة مؤرخة في ٢٠ شعبان ١٣١٨ وها هو ذا نصها :

« إلى ولدنا جابر سلمه الله تعالى :

« بعده قد فتحنا نجد دون قتال ، ورتبنا فيها من قبلنا على بلدة عنيزة عينا ابن

زامل ، وعلى بلدة بريدة ناصر بن شيخ حسن أبا الخيل ، وبعد ذلك قصدنا التوجه إلى بلدة حائل وجبل آل رشيد ، ولا فيها سوى حمود العبيد ، وهو رجل عاجز ، وقد أخذه الكبر ، وليس عنده قوة لمقاومتنا ، وبقوة الباري ان الله ينصرنا عليه ، ونرميه في بير عميه .

وهذا ما جرى وقد بينا لكم ، وأرسلوا لنا أربعين بعير اسلحة مع جبخانة ، ولا تكونوا بأدنى فكر ، حيث إننا إن شاء الله المستقبل خير من الماضي » .

ولكن الرسالة لم تصل إلى جابر المبارك ، لأن الرسول وقع في يد سالم بن طوالة شيخ عشيرة السلالي من شمر ، وفتشه فعثّر على رسالة مبارك ، فبعثه هو والرسالة الى عبد العزيز الرشيد في «الحسجى» الذي كان ينزله ، فما كاد يطلع على الرسالة حتى استنفر القبائل الموالية له وكتب إليهم أن يلقوه في مكان يسمى «عين ابن فهد » .

وفي بضعة أيام اجتمعت قبائل شمر والأعراب في المكان المحدد ، فانتقل بجيشه الذي معه والذين انضموا إليه الى مكان يعرف باسم « فيلة الأسياح »ويفصل بينها وبين الصريف تل ، وكان في الصريف مبارك وجيشه .

وكانت خطة مبارك من احتلال المدن والقرى التابعة لابن الرشيد واحتلال ابن سعود للرياض أن يبعثّر جهود ابن الرشيد ويضطره إلى توزيع قواته المحاربة فلا يكون معه غير قوة صغيرة يسهل قهرها .

بيد أن ابن الرشيد كان يقظا ، فلم يبعثّر قواته ، بل آثر أن تكون معه ليضرب جيش مبارك ضربة قاضية لا تقوم بعدها له قائمة ، كما أنه لم يرهقها بمعركة حاسمة ، في حين أن جيش مبارك المنتصر الذي احتل كثيراً من القرى والمدن كان مرهقا ، لأنه قطع المسافات الشاسعة دراكا ، ولم يستجم قواه ، ولم يصب من الراحة ما يعيد إليه نشاطه .

ويجب أن نذكر أن هذه المعركة أظهرت بطولة ابن الرشيد النادرة وإدلاله بشجاعته الفاذة ، فهو لم يُدر المعركة من خيمة وسط حراس أقوياء ، بل قذف بنفسه قبل أي أحد من أبطال جيشه ، وميز نفسه عن غيره ، وكان جيشه قليل العدد والعدة بالنسبة لجيش خصمه ، وكان يبتعد عن لقائه ، ولكنه قابل التحدي بتحدٍّ أشد فتصدى له .

وفي فجر يوم ١٧ ذي القعدة سنة ١٣١٨ هـ (١٧ مارس ١٩٠١م) رأى بعض أفراد جيشه وقادته يصنعون القهوة ، وحثهم على بدء المعركة ، فاستمهلوه أن يتناولوا قهوتهم ، فقال لهم : ويحكم ، إن أباريق قهوة أعدائكم على النار ، فحاربوهم وتناولوها ، فقلبوها ، وتحمسوا للقتال ، وبرز الأبطال المغاوير على خيولهم ، فمنعهم ، وارتدى ثوبا أحمر واعتم عمامة حمراء ، وأرسل ذؤابتيها القصيرتين على كتفيه ، وميز نفسه عن كل جيشه وقادته ليعرفه الاحباء والاعداء على السواء ، وخطب الجند وحثهم على الصبر والجرأة في القتال .

ثم لكز فرسه فإذا هي تطير يتبعه الفرسان الصناديد ، وصعدوا التل الذي يفصل المعسكرين ، وهجموا على جيش مبارك الذي كان مستعدا كل الاستعداد ، وأمطروا المهاجمين وابلا من الرصاص والقذائف ، وتجالد الجيشان وحمي الوطيس ، وتلاحم الصناديد ، ودخل الرشيديون في وسط معسكر مبارك فلم يعد لغير السيف مجال .

وكادت الهزيمة تلحق بالرشيديين ، وتضعضعوا لكثرة أعدائهم ، فاذا ابن متعب يصيح صيحته الراعبة ، ويقذف بنفسه في المعمعة ، ويطير بفرسه فاذا هو في وسط أعدائه يضرب بسيفه في كل اتجاه ، فاذا أعداؤه يسبقون الريح هربا خوفاً منه ، ويلحقه رجاله ، وتشتد المعركة وتعنف الى الغاية التي لا شدة وراءها .

وبينما ابن متعب في طليعة المحاربين وفي وجه الحرب أصابت رصاصة جواده

فقتلته ، فسقط ابن متعب بسقوطه ، فاذا السيوف تظلله تكاد تصيبه ، ولكنـه يذودها بسيفه ، وينهض على قدميه ، ويضرب أحد فرسان عدوه ويلقيه ويطفر على فرسه ، ويقاتل قتالا رهيبا .

وكانت الدنيا غائمة ، والبرد شديدا ، والامطار غزيرة ، ومع هذا كان أبطال الجيشين يقاتلون قتالا يشيب منه الوليد ، ومضت ثلاث ساعات دون أن يكون الغلبة لأحد الجيشين على الآخر ، وكان جيش ابن مبارك أضعاف جيش ابن الرشيد .

وهنا صرخ ابن متعب الصرخة المدوية بجيشه فجددت فيهم القوة والحماسة والشجاعة ، فاذا قادة الجيش الرشيدي وأفراده يهاجمون الكويتيين وأنصارهم في وسط مخيماتهم ، ويزلزلونهم ، فينهزمون هزيمة نكراء ، ويفرون لا يقفهم شيء ، ورأى مبارك الهزيمة قد حلت بجيشه وأبصر ابن متعب على جواد أبيض ومعه راية حربه وفرقة العبيد يقصدون سرادقه الذي كان يحميه المئات من الابطال ، فملأه الرعب ، وقفز على ظهر فرسه ومعه السعدون وبعض رؤساء القبائل وطاروا ناجين بأنفسهم ، تاركين كل ما معهم ، وانتهت المعركة بانتصار ابن متعب الرشيد انتصاراً عظيما ، وبهزيمة مبارك وجيوشه هزيمة غاية في النكر .

خسر مبارك كل ما معه من أموال وأسلحة وأمتعة وأرزاق وأنعام ، وكانت من الكثرة بحيث لم يستطع المحصون إحصاءها ، وأما قتلى جيش مبارك في الميدان فأكثر من ستة آلاف قتيل، عدا القتلى خارج ميدان المعركة ، وعدا الأسرى الذين قتلهم ابن الرشيد ، وعدا الجرحى الألى أجهز عليهم .

وبلغ الحقد بابن متعب أن سير سرايا تتبع المنهزمين والفارين من جيش مبارك ، وتأسر من يستطيعون أسرهم ، وتقتل من يقاوم ، فعادت السرايا بمئات الأسرى الذين قتلهم ابن الرشيد .

ولبث ابن الرشيد بالطرفية أيام يجمع الغنائم التي لا تحصى ، ووزع على أفراد جيشه فنال كل فرد ما لاقبل له بحمله ، ووزع عليهم النقود التي عثر عليها بمخيم مبارك .

أما مبارك فقد قضى ليلة ليلاء من الخوف والذعر والبرد والمطر ، وكان معه سلطان الدويش والسعدون باشا ومن نجا من آله ، ووصلوا في الصباح إلى مدينة «الزلفى» فلم يسمح لهم أهلها بالدخول خوفاً من ابن الرشيد ، فتركوها وقضوا يومهم في الخلاء ، وهكذا قضوا بضعة أيام وهم في كرب كارب .

ووصلت أنباء الهزيمة إلى الكويت فعمها الحزن والكآبة ، وكانوا يظنون أن مباركا قتل ، لولا أن رأوه يدخل الكويت فاذا البكاء والنواح .

رجع مبارك مخذولا ينعي قرابته وجنده ويستعد للحرب من جديد ، فلعله يستطيع اعادة مجده المضيع بهذه الهزيمة ، ويكفكف من غلواء ابن الرشيد الذي أصبح سيد نجد كلها دون منازع ذي بال ، وارتد ابن سعود تاركا الرياض الى رجعة ، لأن خصمه انتصر انتصارا باهرا ، وسيقصده ولا طاقة له بحربه .

وأطمع النصر ابن الرشيد في مبارك فأسرع الى الكويت ونزل الجهرة التي تبعد خمسة فراسخ عن العاصمة (الكويت) يستعد للهجوم العام ، ولكن وجود البارجة الحربية البريطانية بمياه الكويت طمأن مباركا وشجعه على الزحف الى الجهرة ، وتفتق ذهن قائد البارجة الحربية عن حيلة بارعة مسلية ، فقد أطلق في الليل أسهما نارية قوية الضوء ملأت السماء . فذعر ابن الرشيد ومن معه وغادروا الجهرة عائدين الى نجد ، ورجع مبارك الى امارته مسرورا يتهالك ضحكا من هذه اللعبة الممتعة التي أجبرت خصمه على التراجع بعد أن كان على مقربة من الكويت .

وبعد أيام من هذا الحادث خرج ابن سعود من الكويت منفوحا من شيخها بمئتي ريال وأربعين ذلولا وثلاثين بندقية وبعض الزاد يناوىء ابن الرشيد في ممتلكاته

حتى قدم الرياض واحتلها ذلك الاحتلال المدهش الرائع العجيب ، وأصبح ذا مكانة في نجد ، وقوي ساعده وطفق في السطوع ، ويده تنتزع المدن القريبة من الرياض من يد ابن الرشيد .

ومع إخلاص ابن سعود لمبارك ، وانتقامه له من خصمه فإنه لم ينج من مكائده ومكره ؛ ولكنه لم يقابل أفعاله المنكرة الا بالصفح والجميل ، وكل ما عمل أنه احتاط لنفسه دون أن يؤذيه .

واتجه عبد العزيز الى مصالحه وشؤون دولته الجديدة ، ولم يمض عليه وقت كبير حتى وصل اليه خطاب من والده الشيخ مبارك — ذلك الثعلب — يستغيث ويهتف باسمه ويسترحمه ويطلب اليه ألا يكون جوابه الا هو نفسه ، فقد خذله من كانوا معه وتركوه وحده في الميدان يتلقى الضربة التي يراها وشيكة الوقوع على أم رأسه : « أغثني يا ولدي عبد العزيز ، فقد عز النصير ، وتنكر الصديق » .

اجتمع بالبصرة الشيخ مبارك وطالب النقيب والشيخ خزعل ابن مرداو أمير المحمرة بعد الانقلاب العثماني وارتقاء حزب الاتحاد والترقي مناصب الحكم في دار الخلافة ، ومعهم جماعة من العرب وتفاوضوا فيما بينهم ، واتفقوا على المناداة باستقلال العراق ، والعزم على اخراج الاتحاديين وتولية أحدهم عليها ، وكان مبارك من الطامعين في العراق أو في جزء منه — على الاقل — واتفقوا على الدفاع والحرب اذا ما اعتدت عليهم دولة من الدول .

غير أن حكومة الاتحاد لم تمهل من اجتمعوا فبددت شملهم ، واتجهت الى أقواهم وهو الشيخ مبارك الذي خان أولياء أمره وقتل أخويه ، ومد الى خصوم حكومة الاتحاد يده ، وانتدبت سعدون باشا رئيس عشائر المنتفق في العراق الى أن ينهض بتأديب مبارك والتنكيل به والقبض عليه ، وزودته بجيش وأسلحة ومال .

وتفرق الانصار ، وبقي الشيخ مبارك وحده في بحر من الاخطار ، ينظر يمنة

ويسرة فلا يجد نصيرا ، وأخيرا ذكر « ولده » ابن سعود فبعث اليه مستنجدامسترحما في ندائه ، ويطلب اليه أن يسرع في القدوم اليه للدفاع عن نفس والده وبلاده .

ولم يجد ابن سعود بدا من الانجاد ، فأسرع اليه ومعه بعض رؤساء أركان حربه وقواده وألفى مباركا قد جمع جنوده ولم يأت بعمل انتظارا لابن سعود .

اجتمع زعيم نجد بشيخ الكويت ، وتفاوضا ، فقال ابن سعود ناصحا مشيرا : « ليس بيننا وبين السعدون خلاف حقيقي يوجب الحرب ، واني أرى مسالمته ، والمسألة طفيفة ، فدعني أقم بوساطة الصلح بينك وبينه » .

فكمد لون مبارك وفر من وجهه الدم الذي جرى في عروقه بقدوم نصيره الوحيد بكلامه الذي اشتم منه الخذلان وقال له في تأثر بالغ : أيرضيك يا ولدي أن يهان أبوك ! .

فأجابه : لا والله ، ولك ما تريد ، اني ملب نداءك قائم بما تريد ان شاءالله ، غير انني أرجو والدي أن ينظرني لاستنفر نجدا ، فليس معي الآن غير مئتين ، ومن المجازفة التي لا نجاح فيها الا بخارقة مقاتلة السعدون وهو في جيشه المنظم المزود بخير الاسلحة وأجودها ، فانظر ماذا ترى ؟ .

فرد مبارك : ان لدي الجيش الكافي ، والكويت لم يفتقر من الرجال ، وفي وسعي أن أجند منها ما أريد ، وأما أنت – يا ولدي – فما أريدك الا للقيادة العامة .

فقال عبد العزيز : اذا قمت بالتجنيد فالسعدون قريب منا يعلم ما يجري لدينا ، فالرأي أن نبعد عنه لنحول دون علمه بأخبارنا وحركاتنا ، ومن الرأي أيضا أن ترسل قوة صغيرة مع أحد أبنائك يتربص السعدون ، فاذا تفرق من معه وهم من رجال القبائل والرعاة والبدو استقبالا للربيع الذي أهل هلاله هاجمه وقهره .

فأبى مبارك ، وبعد أن جند ما استطاع أمّر عليه ابنه وغادر الكويت مصطحبا معه ابن سعود ورجاله ، وبلغ عدد جيشهما سبعة آلاف ، وعرض لهما على الضويحي – حليف ابن سعود – وأظهر استعداده للوساطة بين المتنازعين بالصلح ، فرضي ابن سعود عن الفكرة وحاول اقناع جابر الذي احتدم غيظه فتساقطت من فمه الكلمات كالقذائف : « ما عهدتك جبانا يا عبد العزيز » فتقطب وجه عبد العزيز وقال في تهكم : سترى يا جابر أين موضع الجبن في غد .

ومشى السعدون باشا بجيشه القوي للالتحام بعدوه في معركة فاصلة تنهي الحرب وتنهك الخصم ،وعلم ابن سعودبما يبيت السعدون فطاب الى جابر أن يقدم البدو للهجوم ليأمنوا خيانتهم وهربهم ، ويتأخر الجيش النظامي في الهجوم لأنه آمن جانبه وضامن اخلاصه ، فأبى جابر الا الهجوم العام يشترك فيه البدو والحضر ، وأخفقت محاولات ابن سعود ولم ينجح في حديثه مع جابر ، فمال إلى أخيه الصغير سعد وهمس في أذنه : لا أنتظر لهذا الجيش الا الهزيمة ، فقائده مستبد لا يقبل الرأي ولم يجد فيه النصح فهو مكثور [1] مقهور ، انه أجهل الناس بفن قيادة الجيوش وكسب المعارك ، فالأولى أن ننحاز الى جهة ونقف موقف دفاع فقط ، وما أظن النجاح مصافحا جيشا هذا شأن رئيسه . وانحاز ومعه شقيقه سعد ، فجاءهما جابر متوسلا وقال لهما : نحن وأنتم اخوة ، والاخ لا يحجم في مواطن الحرب عن نصرة أخيه .

فاشترك ابن سعود وجيشه وأخوه في الحرب ، وقد سبقته خيالة ابن الصباح في الهجوم على خيالة السعدون ، وما كادت الخيل تجول جولتها حتى مُزّق فرسان الصباح شر ممزق ، ووقعت الدبرة [2] على جيش جابر ، وتفرق من سلم منه ، وأحاط السعدونيون بابن سعود وأخيه ومعهما عشرة فرسان من رجالهما الصيد

---

(١) المكثور : من كثر عليه الناس فغلبوه .

(٢) الدبرة ، بفتح الدال : الهزيمة .

المغاوير ، وكادوا يؤخذون لولا أنهم انتزعوا السيوف وانقضوا على الاعداء ضربا وتقتيلا حتى شقوا لأنفسهم طريقاً للنجاة من الموت ، إلا أن الأعداء تكاثروا عليهم ، ومع أن سعد بن عبد الرحمن – شقيق عبد العزيز – كان صغيراً فإنه أبدى شجاعة أذهلت الشجعان ، فقد أحاطوا به ، فدافع عن نفسه بعد أن قتل المحيطين به وفك الحصار عن أخيه عبد العزيز وعشرة الفرسان الذين كانوا معه ، إذ فاجأهم عندما رأى أخاه ومن معه بين يدي الموت ، فركب بفرسه خيولهم ونزل عليهم كالصاعقة حتى شقوا للمرة الثانية طريقاً سلكوه ، ونجوا بأنفسهم ولاذوا بالصحراء .

وغنم السعدنيون كل ما كان مع جيش ابن الصباح من مال وعتاد وذخيرة ومؤن بغير جهد أو مشقة حتى سميت هذه الوقعة تهكما «وقعة هدية» كأن ابن الصباح قدم الاموال الطائلة والعتاد الكثير هدية الى السعدون، وقد وقعت هذه الواقعة في صباح غرة جمادي الآخرة سنة ١٣٢٨هـ (١٠ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٠م).

والتقى ابن سعود مباركا وهدأ أعصابه الثائرة وقال له : « الحرب سجال ، فان كانوا هم رجالا فنحن رجال ، ولا تأس ، واصبر ، فسننتقم » ولكن مباركا أخذ يتأوه [١] ، وزاد في حرج موقفه وألمه استئذان ابن سعود في السير الى بلاده ، لأن ابن الرشيد أخذ يهاجم نجدا منتهزا فرصة غيابه .

وحار مبارك ، فأصدقاؤه فروا ونفضوا أيديهم منه ، وهذا «ولده» يستأذنه في المسير فما حيلته ؛ قال لعبد العزيز وصوته يتقطع من الاسى والالم: «اذا رميتني يا ولدي اليوم وأنا مهيض محطوم فمن الذي يعينني ؟ ليس لدي أحد غيرك ينهض بي ، أنا والدك يا عبد العزيز ، ولي عليك حق المساعدة ، البلد بلدك ، وله عليك حق الدفاع عنه مهما كلفك ، ابق عندي ولا تخرج مع الجيش ، ابق عندي ، فبقاؤك

---

(٣) كان تأثير هذه الحادثة على مبارك شديداً .

يشد عزمي ويقويني ويسليني ، لا تمكن العدو مني يا ولدي يا عبد العزيز ، لا ترحل ، أقم عندي ثلاثة أشهر ثم امض حيث شئت ، ان رحيلك يطمع العدو فيّ ، أفترضى أن يتمكن مني عدوي ؟ ».

فاستحيا ابن سعود ورضي بالمقام على مضض ، واطمأن مبارك ورد اليه روحه المريض ودمه الهارب .

غير أن أمرا حدث عكر الصفو بين الوالد والولد، وهو أن قبيلة مطير اعتدت على قحطان وسبيع التابعين لابن سعود النازلين في حدود الكويت ، فرام تأديب مطير ، وكتب الى مبارك مستأذناً فبعث اليه الجواب بالرفض وفيه : يا عبد العزيز ، أما كان الاجدر بك أن تعينني على قحطان وسبيع وهما من قبائلي العاصية ، ثم لم يطق المكوث فذهب الى المعسكر واجتمع بعبد العزيز وقال له غاضبا : أظنك يا ابن سعود قد اشتقت الى أهلك ، فأمسك ابن سعود لجام غضبه وقال ببرود : نعم .

وشمل المعسكر صمت عميق ، وأطرق من فيه فتسلل مبارك ، وجمع ابن سعود ما تيسر من قوته وهجم بها على العظيم والمكحول من قرى حائل وأخذ الحميداني من كبراء مطير كما أخذ معه قبائل من حرب وغيرها ، ثم رجع ابن سعود الى بلاده وفي نفس كل منهما شيء ، واشتغل كل منهما بمصالحه .

وغادر ابن سعود نجدا الى الاحساء يؤدب بعض قبائلها ، وبينا هو في عمله نزل اليه وفد من مبارك وذلولان وخطاب جاء فيه :

« ولدي

« اني مرسل اليك ذلولي، وقد كنت أركبهما الى الغزو ، وأنا الآن عاجز عن الركوب والمغازي ! أنا والدك يا عبد العزيز ، والذلولان اللذان شهدا الغزوات

والمعارك هما لك يا ولدي ، وهما يطلبان اليك أن تأخذ بثأر والدك من ابن السعدون » .

فاعتذر بمشاكله الداخلية وحاجة بلاده اليه في هذه الظروف القاسية التي ثار عليه فيها الحسين في الغرب وابن الرشيد في الشمال ، والقبائل في الشرق والجنوب ، والمفسدون في الداخل ، والحوادث تترى في كل مكان ، واللهب تنبعث ألسنته الطويلة في كل أرض ، فما يطيق أن يمد يده الى أحد ، بل هو في حاجة الى من يعينه .

ولكن مباركا لم يقتنع بمعاذيره ولم يتركه بدون أن يشغله بكتب الاستغاثه والتوسل والبكاء ، ومما كتب اليه في احدى رسائله :

« ولدي عبد العزيز

أنا أصيح وأناديك وأنت يا ولدي المحبوب الوحيد تصم أذنك ، أبمثل ذلك يُعَامل الوالد ؟ أتهاجرني في يوم شدتي فيساعد هجرك اياي العدو علي ؟! اسمعني يا ولدي عبد العزيز ! اسمعني أصيح وأنادي ! » .

والرسالة كلها على هذا النمط ، بكاء وعويل ، وتوسل واستغاثة واستصراخ في أسلوب ساذج مؤثر ، فتأثر ابن سعود ، وكان بالرغم من عرامه وصرامته عظيم النخوة عظيم المروءة فلم يستطع أن يصبر ويترك من يزعم أنه «والده» طعمة للسعدون وحمود بن سويط اللذين اتفقا على تمزيق امارة مبارك ، فجمع رجاله وتوجه اليه يخلصه مما فيه .

وخرج ابن سعود ومعه سلمان الحمودي وعلى الخليفة من آل صباح يقودون جيشاً يبلغ ستة آلاف ، وتوجهوا الى الحفر حتى يستعدوا فيه ويمضوا للانتقام من السعدون وابن سويط ، لكن من توفيق الله لابن سعود حدث بين السعدون وأتباعه وبين ابن

سويط نزاع سياسي أدى الى امتشاق الحسام ، وتحكيم السيف ، وانشق كل منهما عن الآخر .

فأتيحت الفرصة الذهبية لابن سعود للقضاء على السعدون وعلى ابن سويط متفردين انتقاما منهما لمبارك (والده) غير أن مباركا أسرع ببعث كتاب الى ابن سويط يخبره فيه أن ابن سعود زاحف عليه بجيش لجب ، وهو لا شك قاض عليه اذا لم يأخذ الحيطة لنفسه ، وأمره بالانتباه واليقظة ! .

وعلم ابن سعود بتغير مبارك وعجب من ذلك شديد العجب ، فليس ابن سويط عدوا له ، ولكنه عدو لمبارك وحده وقاهره ومؤذيه ، وجاء للانتقام منه له ، وللاخذ بثأره ، فلم يخبره بما يريد ؟ أيريد التقرب من عدوه بتضحية صديقه ونصيره ومنجده ؟ انه لمكر جديد لم يعهده من قبل ! أيصل مبارك الى هذا الحضيض ؟! غريب ؟! أهكذا يقابل الجميل ؟ يدافع عنه ويحميه فيأتي من خلفه ويطعنه ؟ حتى أنت يا بروتس [1] ، عجبا لمبارك المتقلب المخاتل ! .

وعلم الجيش فثار وماج وتضرم حنقه وامتلأ قلبه بالوغم [1] والغيظ وصاح في وجه ابن سعود : يا عبد العزيز رخص لنا نهاجم الكويت ، ليس ابن سويط عدوك ، بل مبارك عدوك وعدو ابن سويط ويخبره بنياتك نحوه ليكون على حذر منك ! ما هذا الخلق ؟ اسمح لنا نطأ بخيولنا امارته ، رخص لنا بمهاجمة الكويت ، فلنسيلن الدماء في أسواقها ، لا تكن حليما بمن مكر بك وبنا ، ان حلمك وحياءك أطمعاه فيك ! يا له من خبيث ! .

---

(١) بروتس: هو صديق قيصر الرومان، وقد تآمر عليه كبار الدولة وانتدبوا بروتس أصدق أصدقاء الملك لاغتياله ، فلما تمكن منه وكان الملك الآمن المطمئن أمام بروتس باغته بطعنة من خنجره ، فالتفت قيصر وقال بحزن واسف : حتى انت يا بروتس ! فكانت مثلا على غدر الاصدقاء .

(٢) الوغم : الحقد الثابت في القلب .

وتصايح الجند واعتزموا على مهاجمة الكويت والتنكيل بابن صباح ، ووقفوا ذلك على اذن ابن سعود ، فأبى وقال : نحن قمنا بواجبنا ، أما هو – أيها الاخوان– فليعمل ما يريد ، فان عليه وزر فعله ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله !.

وتلا ابن سويط كتاب مبارك وملكته الغرابة من مسلكه الشائن ، وأهمله وأسرع الى ابن سعود يطلب اليه الصفح ، فعفا عنه ، وأصبحا صديقين بسبب كتاب مبارك ، ورب ضارة نافعة ! .

ولم يرد ابن سعود أن يرجع خائبا فتظن به الظنون، فركض الى بلاد السعدون يريدالاشتباك به، وأخذ يتقدم في السير حتى نزل «كابدة» –ماء فيالطريق الى البصرة – ولقي بها أغناما كثيرة للسعدون ، فأخذها غنيمة باردة ، وما زال مغذا في سيره حتى ورد «سفوان» – ماء في الطريق الى البصرة أيضا – وأقام به فأتاه وفد من والي البصرة وسكان الزبير يرحبون به ويجاملونه ليرجع ، فعرف ابن سعود مقصدهم وأمر جنده ألا يعبثوا ولا يقاتلوا الا بأمره .

وورده في سفوان عبد العزيز بن الحسن رسولا من مبارك يبلغه تحيته ورغبته ، وما رغبته الا أن يهاجم «ولده» رعاة عصوه ولم يدفعوا ما عليهم من ضرائب ، ويذكر له تلاعبهم « بالجنسية » فهم يوما بالعراق ومن العراق ، ويوما الى الكويت ومن الكويت ، ويتأرجحون بين بين فرارا من الضرائب ، فان طلبوا من العراق زعموا أنهم من الكويت وفروا اليه ، وان طلبوا من الكويت ادعوا أنهم من العراق ، وكيف يدفع عراقي الضريبة الى حاكم الكويت ؟ لهذا يرجوه أن يقتلهم أو يسلبهم أغنامهم وأسلحتهم ويؤدبهم تأديبا قويا حتى لا يتلاعبوا « بالجنسية والتبعية » .

فلم يحرك ابن سعود ساكنا لأنه علم « السر » علم مكر مبارك الذي يريد أن يوقع بين « ولده » – كما يزعم – وحكومة العراق العداوة والبغضاء أكثر مما هو واقع ، وينتقم من كليهما معا ، وهو – بعدُ – الرابحُ ان خسر أحدهما الحرب .

وغادر سمُوان الى الكويت فلم يرض من معه دخولها الا محاربين انتقاما ممن يمكر بهم ، ولكن عبد العزيز أبى ذلك ودخل بهم حدود الكويت دخول الصديق ونزل بالجهرة ، فأسرع اليه والده مبارك يسلم على «ولده» ويعتذر له .

وكان سلام ، وكان اعتذار تطويه السرعة والايجاز ، وكان رد على التحية وقبول الاعتذار من ابن سعود ، ثم كان صمت عميق وفراق .

وبالرغم من فضائح مبارك وعلم ابن سعود بمكائده فقد كان ابن سعود كثير الحياء ، لا يجبه مباركا ولا يلومه ، ولكنه يحذره ويحتاط ، لعلمه أنه لن يتخلى عن خليقته مهما لامه أو نصحه ، ولن يصلح الدهر نفسه الأمارة بالسوء المطبوعة على المكر والغش والكذب والخداع .

ومضى ابن سعود الى الجبيل سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٣ — ١٩١٤م) لتأديب بعض القبائل العاصية ، وليقوم بجولة تفتيشية على الاحساء .

وأرادت انكلترا أن تتقرب من المسيطر على غرب الخليج الفارسي صونا لمصالحها في الهند ، كما غيرت تركيا نظرها وأرادت — هي أيضا — أن تحسن الصلة به ، وعلم مبارك بالأمر فبعث الى ابن سعود رسالة يخبره أن وفدا تركيا برئاسة طالب النقيب يريد مقابلته ، ويرى أن يكون الاجتماع بالكويت لئلا يخدعه هؤلاء القوم ، ويجب أن تكون المفاوضات بحضوره ليجنبه مواقع الزلل .

فسار عبد العزيز ونزل «الصبيحية» على بعد يوم من الكويت وأعلم «والده» بنزوله ، ووصل اليه كتاب من المعتمد الانكليزي يستأذنه فيه في الاجتماع به ، ويطلب اليه تعيين المكان الذي يجب أن يكون فيه الاجتماع ، فذكر له «ملح» فهرع المعتمد اليه .

وقبيل بدء الاجتماع ناول سائق سيارة المعتمد كتابا سريا من مبارك الى ابن

سعود يقول له فيه : « يا ولدي ، كن معه صلبا ، ولا تمكنه من شيء ، ولا تعطه الجواب النهائي » فأجاب ابن سعود المعتمد بأنه ينيب عنه مباركا في المفاوضات ، فرجع المعتمد كما جاء .

استدبر عبد العزيز المعتمد واستقبل في اليوم الثاني وفد الترك برئاسة طالب النقيب ، فأسرع مبارك الى بعث كتاب الى ابن سعود يقول له فيه : « احذرك من هؤلاء الكذابين المكارين الخداعين ، كن صلبا معهم يا ولدي ولا تمكنهم من شيء ، ولا تصدق ما يقولون ، انهم كذابون خداعون » .

قرأ الرسالة وعنده جابر ابن الشيخ مبارك وأطلعه على كتاب أبيه ثم قال : « يحذرني من الانكليز ويحذرني من الترك ، وهل في امكاني أن أحارب الانكليز والاتراك ؟ » فأجابه جابر : إن والدك الشيخ مبارك يريد مصلحتك .

واجتمع الوفد بابن سعود وحضر الجلسة جابر ابن الشيخ مبارك وبعض رجاله فتكلم ابن سعود : الاتراك كذابون خداعون ، وأنا لا أركن اليهم في المفاوضات ، واذا كنتم تبغون مصالحتي فدونكم والدي مبارك وهو الواسطة بيني وبينكم ، ولست قابلا غير ذلك .

وجم الحضور فلا كلام ولا جواب ، وانفض الاجتماع بعد لحظات ، وغضب الوفد ، وثار طالب ، وطار خبر الاجتماع الى مبارك فرقص من الانتصار ، وشرب نخب اخفاق الوفد وهزيمته ، لأنه لم يكن له شرف رئاسته ، وفرح من مغاضبة كل فريق الآخر ، وعرف جيدا أن ابن سعود خادع بكلامه ، وأن طالبا ذو مزاج عصبي سريع الغضب .

وكتب الى مبارك أحد شهود الجلسة – ألا وهو ابنه – بالتفصيل عما حدث .

وفي المساء عندما هدأ كل شيء وأغفى القوم ما عدا الحراس اجتمع ابن سعود وحده بالوفد ولم يكن معهم ابن مبارك ولا أذياله، وأرى طالبا خطاب مبارك، فتهانف [1] الحضور وابتسموا ساخرين، وتم الاتفاق على ولاء ابن سعود للترك على أن يمدوه بالمال والسلاح.

ويرجع الوفد الى الكويت متظاهرا بالغضب، ولم يخبر مباركا بما حدث في الجلسة الأخرى السرية، فقال مبارك في كبرياء: «نصحتكم فما انتصحتم، قلت لكم أن الرجل سفيه عيار، ولا يملك قياده أحد غيري» فأمن طالب ومن معه على كلامه وغادروا الكويت الى العراق.

وبعد أيام اجتمع مبارك بوالي البصرة سليمان كمالي باشا والشيخ خزعل بن مرداو وطالب النقيب على مأدبة أقامها عبد الوهاب آل قرطاس تكريما للوفد فتكلم الاول شامتا: «ألم أقل لكم انكم لا تفلحون الا اذا انتدبتموني أنا للتوسط بينكم وبين ابن سعود، وما طلبت ذلك الا لامرين: أولا: لأقوم بخدمة الحكومة التركية، وثانيا: لأستر على ابن سعود، لأن السفيه لا يعقل ما يقول».

فقال الوالي: رأيك هو الصواب، ولكن الامر انفرط.

وقال طالب: لو كان معنا الشيخ مبارك لما فشلنا فهو أعرف بابن سعود.

وبعد أسبوع من هذا الاجتماع تلتمى سليمان كمالي باشا برقية من الآستانة بالموافقة على مؤتمر الصبيحية وأمر بشكر ابن سعود وتقديم «النيشان» العثماني الاول له.

فطار طالب بالبرقية الى الشيخ مبارك — وكان بالفيلية — وبشره بموافقة الآستانة على مؤتمر الصبيحية وتصديقها على الاتفاق، وتبسم طالب والسخرية

---

(١) تهانف: ضحك في سخرية.

المرة ترتسم على وجهه وعيناه تقولان له في استهزاء : قضي الامر ولم تنجح محاولتك يا شيخ ! ! .

وشعر مبارك بالخيبة والفجيعة وانكشاف أمره للطرفين فبعث الى ابن سعود رسوله عبد العزيز بن الحسن يعتب عليه في كتم أمر الاتفاق عليه وهو «والده» الذي يود له الخير والجدوى ويرجو له التوفيق والتسديد .

فتلقى من ابن سعود جوابا جاء فيه :

« والدي مبارك

اني ابنك ، وقد أهنت نفسي في القدوم من الجبيل الى الكويت ، وما ذلك الا حبا بك وعملا برأيك ، ولكن كيف أستطيع أن أرضي والدي وهو يأمرني بألا أتفق مع الانكليز وألا أتفق مع الترك ؟ فاذا بين لي حضرة الوالد الطريق الثالث فسأسلكه راضيا شاكرا ، ولكني أسأل والدي كيف استحسن ذلك الكلام على مائدة ابن قرطاس ! » .

فسقط في يد مبارك ولكنه كان « كسيفا » كما يقول الحجازيون فيمن لا يستحي فكتب الى ابن سعود معتذرا .

« يا ولدي

لا تصدق أكاذيب اللعين طالب ، وأؤكد يا ولدي أني أريد أن أتظاهر أمام الاتراك بالبعد عنك والجفاء لأدرك لك الغاية التي تنشدها » .

فأجابه : « الحمد لله ، ان الأمور كانت على ما يرام ، فليهنأ الوالد بعز ولده والسلام » وهكذا كان ابن سعود قابضا على طرفي القوس وبيده السهم ولكن لا

يصمي به مقتل من يزعم كذبا أنه «والده» وهو شر الاعداء .

ولعل قائلا يقول : لماذا يجيب ابن سعود مباركا كلما ناداه وهو يعرف أنه يريد به الشر ؟ ألا يسعه أن يتنكر له ويؤدبه أو يعنفه ليقف عنه مكره واساءته ؟ لماذا يحرص ابن سعود على رضا مبارك ؟ والى متى يطيق حيله المكشوفة ؟ .

وليس الجواب بالعسير اذا عرف القارىء نفسية ابن سعود وحياءه ونبله وشرفه وطيب سريرته وصفاء نيته وبساطة أخلاقه وسموها وذكر جميل مبارك وضيافته اياه وأسرته حينما كانت الصحراء تتقاذفهم والأمراء متنكرين لهم ! .

ثم ماذا يضير ابن سعود اذا اتبع مبارك معه خطة الدسيسة والمكر والغش ؟ انه لن يضير الا نفسه وعليه وزر مكره ، وقد رأينا مباركا وحده هو الذي يدفع ضريبة المكر والختل ، يدفعها كلها وابن سعود يتسلمها في غير كد يذكر .

وما زال ابن سعود يوالي مباركا الجميل ، وليكن بعد ما يكون ، فلن يصيبه الا ما كتب الله ، وحسبه أن يلجأ اليه مبارك عندما تحدق به المصائب ، وليتنكر له سرا — أو جهرا — اذا دفعها عنه ، فالأمر سيان .

وأما مبارك فقد شعر بوخز على ما صنع ، وأعتقد أن استغفاره « ولده » قد محا ذنوبه السابقة ، فكتب اليه يخبره أن العجمان قد نهبوا مواشي عشائر تابعة له ويرجو أن يعمل على رد ما نهبوا .

فبعث ابن سعود ابن عمه ناصرا إلى مبارك بكتاب يقول له فيه :

« يا مبارك

لست يا مبارك بصديق صدوق ، وقد نالني من العجمان أكثر مما نالك ، فصبرت وتجملت ! ونحن الآن في وقت القيظ ، ولا نتمكن من شدته أن نسير

بجيش الى ديرة العجمان ، والأمر الثاني هو أني في ريب من صلح ابن الرشيد ، فأخشى نكث العهد اذا أنا غادرت نجدا ، ودخلت في حرب مع العجمان ، والأمر الثالث نفقات هذه الحروب ، وقد تكاثرث عليّ فضاقت في سبيلها الأسباب ، والأمر الرابع يا حضرة الوالد هو أني أخشى أن يلجأ العجمان اليك بعد الحرب فتنقلب عليّ كما فعلت يوم سعدون والظفير ، ومن رأيي على كل حال أن نؤجل المسألة الى فصل الشتاء » .

ولم يكتب قط الى الشيخ مبارك كتابا كهذا في شدة لهجته ، يبين له خيانته وميله مع الأعداء اذا ما قارب منزل النصر ، غير أن الشيخ كما قلنا « كسيف وصفيق » ، فأرسل اليه زاعما أن الأمر لا يحتمل التأجيل ، ويرجو ملحا رد المنهوبات مهما كان الأمر .

فأجابه بأن القيظ يصهر الأبدان ويلفح الوجوه ، ولا طاقة للجيش بالحرب في حمارّة القيظ ، ورد المنهوب لا يمكن الا بحرب ، والحرب تحتاج الى مال ورجال ، فان رضي الشيخ بأن يعطيه عهد الله وميثاقه بأن يمده بهما ، وأن يكون مخلصا معه فلا يتغير عليه ولا يستقبل العجمان أو يعينهم اذا ما ظهر عليهم ، وألا يتوسط بينه وبينهم بالصلح حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا فسيفكر في طلبه .

وأعطى مبارك عهد الله وميثاقه وقبل شروطه ، فنهض ابن سعود بمن معه وعرج على الأحساء واقتفى أثر العجمان المنحدرين الى قطر والمعسكرين بكنزان ، وظن الجيش السعودي أنه مباغت عدوه في حين أن حركاته وسكناته كانت تنقل اليهم أخبارها ، ففقدت المفاجأة روحها وقوتها وأثرها لانها أصبحت شيئا منظورا مرتقبا .

ونزل ابن سعود بليل ورأى جنوده النخيل فظنوها بيوت شعر فأمطروها الرصاص المنهمر حتى كاد ينفد ما كان معهم منه ، وفاجأهم العجمان مفاجأة خاطفة من ثلاث جهات وهجموا عليهم هجوما عنيفا قاسيا ، أوقع في صفوفهم

الاضطراب ، وتفرق شمل السعوديين ، وسقطت رايتهم ، وأراد العجمان آل سعود.

وما كادت الراية السعودية تسقط حتى أسرع البطل سعد بن عبد الرحمن — شقيق عبد العزيز — إلى الراية ورفعها عالية من جديد ، فاذا المنهزمون من السعوديين يعودون عندما يرون رايتهم الساقطة قد ارتفعت خفاقة ، وناولها سعد أحد رجاله وطار بفرسه إلى أخيه عبدالعزيز وأخيه محمد ، فاذا هما بين عشرات العجمان أحاطوا بهما ، وهما يدافعان ، وتكسرت في أيديهما بضعة سيوف استبدلا بها غيرها .

وما كاد سعد يرى أخويه في تلك الحال حتى نسي نفسه وكل شيء ، ووقف كل همه في أخويه ، واندفع كالقذيفة في يده سيفه وهو يصيح : الله اكبر ، الله اكبر ، وهجم على أولئك العجمان الأقوياء الشجعان ، ومزق منهم من مزق بسيفه ، وفرق منهم من أصابه الفرق .

ولكن سعدا — فتى الفتيان وزينة آل سعود ومفخرة فتيان العرب في زمنه — دفع حياته ثمنا للدفاع عن أخويه البطلين : عبد العزيز ومحمد ، واستشهد في المعركة بعد أن قتل العشرات من الأعداء .

وانتهت المعركة بهزيمة السعوديين ومقتل كثير منهم ، وكاد عبد العزيز وشقيقه محمد يقتلان مع شقيقهما سعد لولا لطف الله ثم استماتتهما في القتال والدفاع عن نفسيهما ، ولكن ، أصيب عبد العزيز بجراح بليغة ، ونزف منه دم كثير ، كما أصيب محمد ببعض الجراح .

وأعظم خسارة خسرها عبد العزيز شقيقه الشاب العظيم سعد الذي كان يعول عليه كثيرا في الحرب فيصحبه معه ، فقد كان بطلا مقداما لا يهاب ، وإلى جانب بطولته الخارقة كان ميمون النقيبة حتى قبيل وفاته ، ومن هذا اليمن نجاة عبدالعزيز ومحمد بسبب اختراقه السور البشري الذي أقامه العجمان من أجسادهم وسيوفهم البتارة ليقضوا على عبد العزيز ومحمد ، دون أن يبالوا بالتضحيات مهما عظمت ،

لأن موتهما هو الغنم الذي نشده العجمان من حصارهما وسط ذلك السور البشري الذي هدم جداره سعد حتى سقط شهيدا .

وأصيب سعد بأكثر من ثلاثين إصابة بين طعنه رمح وضربة سيف ، كما وجد برأسه وصدره بعض الثقوب من أثر الرصاص .

رحم الله سعدا ، لقد بكاه عبد العزيز وكل آل سعود ، أما أبوه الامام عبد الرحمن فقد استرجع [1] عندما بلغه النعي ، وصبر احتسابا ، وان كان نعيه أثر فيه زمنا ، فقد كان أحب اولاده اليه .

وانتصر العجمان نصرا عظيما ، وفر ابن سعود ومن نجوا معه إلى الهفوف ، وتحصنوا من العجمان الألى تتبعوهم للقضاء عليهم .

وحاصر العجمان الهفوف عاقدين العزم على قتل عبد العزيز الذي بعث أخاه محمدا إلى أبيه الإمام عبد الرحمن يطلب اليه النجدة السريعة ، وما كادت قبائل نجد تسمع بانتصار العجمان على عبد العزيز وحصاره في الهفوف وقتل سعد حتى أسرعت بجموعها إلى الإمـــام عبد الرحمن الذي سيرهم إلى الهفوف تحت قيادة ابنه محمد .

وكتب ابن سعود لمبارك يطلب اليه المدد العاجل ، فلم يجب ، فعزز رسوله الأول بثان وثالث ، وذكره بالعهد والميثاق ، وذكر له أن محاصرة العجمان له لن تطول ، وأن معركته معهم ليست الفاصلة ، وأن هزيمته لم تكن القاضية ، فهو بحول الله وقوته سينتصر ، فاذا لم يوف بعهده ويبر بميثاقه فما ذلك بضائره ، لأن الله لا يخلف الميعاد ، ومدده واصل اليه بين ساعة وأخرى .

---

(١) الاسترجاع : تلاوة قول الله سبحانه وتعالى : [إنا لله وإنا اليه راجعون] ويتلوه المسلم المؤمن عندما تصيبه مصيبة .

وأحرج مبارك ، وبعث اليه ابنه سالما مع خمسين ومئة من الحضر ومئتين من البدو ، ولم يكن بعثه اياهم نجدة صحيحة لابن سعود ، بل أراد أن يرضيه ظاهرا، ويؤيد بهم العجمان في حقيقة الأمر ، وليكونوا بمثابة الطعم حيث يخرجون ابن سعود إلى العجمان رجاء الفتك به ، وسيخرج معهم ابن سعود لأنهم مدده كما يظن، وعندئذ يتاح للعجمان أن يصطادوه بوساطة الطعم الذي وضعه مبارك في شباكه .

ويشاء الله أن يصل محمد بن عبد الرحمن بمن معه من قبائل نجد في الوقت الذي يصل فيه سالم بن مبارك مع من معه ، فتقهقر العجمان وفكوا الحصار خوفا من المدد الذي جاء من الرياض ، واتجهوا جنوب الكويت طلبا للنجاة من السعوديين .

فأمر ابن سعود أخاه محمدا وسالما بن مبارك بمطاردة الخصوم حتى أدركوهم وهم يكادون يسقطون لغوبا ونصبا ، وتضرمت الحرب بين الفريقين ودنا محمد بن عبد الرحمن من النصر حتى كاد أن يكون في يده ، وعندما أراد أن يطبق كفه على النصر وقع ما غير مجرى الحادث تغييرا كبيرا ، ألا وهو انضمام سالم بن مبارك إلى العجمان لقتال من جاءوا لنصرة أبيه وتلبية الرجاء المكرر ، وانعكست الآية، فانتصر المخذول وانخذل المنصور بسبب الخيانة .

وانفجر محمد غيظا وحنقا وكتب إلى أخيه عبد العزيز يستأذنه في حرب الكويتيين الخونة والعجمان ، فكتب اليه : «لا تفعل ، كيف نكون حلفاء في أول النهار وأعداء في آخر النهار ، فنكون ملومين أمام الناس لأنهم لا يعرفون حقيقة الأمر فيتحدثون عنا بما نكره ؟ اصبر » .

وكتب ابن سعود إلى مبارك يخبره بخيانة ابنه سالم عند اللحظة الأخيرة ما غير مجرى القتال ، ولولا أنه يذكر أيادي مبارك السابقة ويحترمه ويقدره لكان له مع سالم شأن غير المسالمة ! .

فأجابه مبارك (الثعلب الماكر) بأنه لم يرد منه قتال العجمان واجلاءهم عن ديارهم ، بل أراد أن ترد المنهوبات ، فالتبعة عليه لأنه « المتورط » .

كتب اليه ذلك في وقاحة وتبجح ، ولم يستح من الله ومن الناس .

وما أطاق ابن سعود تلاوة الكتاب كله سخطا وغضبا ، أيصدق أن مباركا يفعل هذا ؟ نعم ، انه خطه وتوقيعه ! انه يفعل ! .

أخذ ابن سعود ينتفض جردان مغيظا يتلهب ، ثم أخذ يردد في غير وعي منه لفدح الحادث : ﴿ اياك نعبد واياك نستعين ﴾ صبرنا على مبارك صبرا جميلا ، واحتملنا منه شيئا كثيرا ، وفادينا من أجله بالمال والرجال ، وما نحن — والله — بصابرين إلى الأبد ! ! اياك نعبد واياك نستعين ، اياك نعبد واياك نستعين ! .

وعلم بعد ذلك ما زاد النار وقودا أن مباركا بعث رسالة إلى ابنه سالم ووقعت في يد العجمان يقول له فيها : « أرسلتك مراقبا لا مقاتلا ، اذا غلبهم ابن سعودفنحن معهم يا ولدي ، واذا هم غلبوه فلا تردهم عنه ، ولا تساعدهم عليه » .

أطرق ابن سعود مفكرا حيران لا يدري ما حمل مباركا على هذه اللعبة التي لا يقدم عليها امرؤ ملتاث مألوق ، لن يقدم عليها الا طامل (١) مسلوب الضمير ، ومبارك عند ابن سعود غير ذلك وان كان ثعلبا .

تحمل حر الصحراء الذي يذيب الجسم ويشعله من أجل مبارك وحده ! وقتل أخوه الصغير المرموق سعد من أجل مبارك ! وجرح هو نفسه وخسر رجاله من أجل مبارك ! .

لماذا صنع ما صنع وهو غاية في القبح والمقت ؟ وماذا يريد منه ؟ أهو عدوه؟

(١) الطامل : الفاسد .

كلا ، انما هو ولده كما يزعم لسانه الكذوب ، ولكن عمله يجهر بأنه أكثر من عدو ! وابن سعود لم يسىء اليه قط ، بل أحسن اليه . فلماذا يسيء اليه ؟ ولماذا يأمر ابنه بألا يرد أعداءه عنه ان غلبوه ؟ أيريد أن يغلب ويهزم ؟! لماذا ؟ قال التاريخ : ان مباركا كان يطمع في الاستيلاء على الأحساء ، فاذا اشتبك العجمان وابن سعود — حاكم الأحساء — وخسر وطاردوه — وقد علموا ميلهم اليهم — عرج إلى الأحساء ينتزعها من ابن سعود مستعينا بهم عليه ، ثم يقتسم مع العجمان خيرات الأحساء .

ما نحن — والله — بصابرين إلى الأبد !.

هذه هتفة ابن سعود وقد ملكه الغضب ، وكان أخوه محمد أشد حردا منه ولن تنطفىء النار من صدره الا اذا احتل الكويت وقهر مباركا وألقى عليه الدرس الذي لن ينساه أبدا ، والا اذا انتقم لأخويه ، سعد الشهيد ، وعبد العزيز الجريح ، وإلا اذا انتقم لنصره المضيع .

أما الجيش ورؤساؤه فقد صرخوا بصوت واحد : إلى الكويت ، إلى الكويت ! واشتعلوا حماسة وحمية ، وجن جنونهم ، وانطلق عنادهم ، ولن يسكنوا الا اذا انتقموا من الخونة الذين أوقعوهم في التوى المشبوب ، وأصروا كل الإصرار على غزو الكويت وحطم رأس مبارك .

ولم يجد ابن سعود بدا من غزو العجمان وآل الصباح وبلادهم انتقاما وتشفيا ، ولن يدع لهم مجالا للعبث والخيانة مرة ثانية ، فأرقل في السير وانضم إلى أخيه في المحرم سنة ١٣٣٤ هـ (نوفمبر سنة ١٩١٥ م) يستعد للرحيل والغزو ، فقد صمم على قتال مبارك ومباغتته بالهجوم .

ولكن أمرا جديدا وقع — فجأة — غير مجرى التاريخ — تاريخ الكويت كله — وحال دون الغزو ، وانما أشفى الغلة وأزال الذحل وقضى على البغضاء في أنفس

الجيش والقــادة بالرغم منهم جميعا ، وساد في المعسكر صمت رهيب ثم دعــاء واستسلام ! .

أي أمر هذا الذي غير مجرى التاريخ ، ونزع الذحل والبغضاء من القلوب !.

كلمة واحدة تعلق بها كل ذلك ! كلمة واحدة لفظها رسول ابن سعودالقادم من الكويت ، كلمة واحدة تنطوي فيها العداوات وتمحي بها ولو بعد حين ! قال الرسول القادم في شيء لا يمكن أن يسمى حزنا ولا سرورا ولا شماتة ولا رضا ، وانما هو مزيج من كل ذلك وغير ذلك ! قال : مات مبارك الصباح ! والبقاء لله ! .

فهمس ابن سعود والمعسكر : ﴿ انا لله وانا اليه راجعون ﴾ .

وصدق ابن سعود فلم يصبر على أعمال مبارك إلى الأبد ، ، بل لم يصبر الا أياما معدودات وارتاح منه ، ولكنه قال في أسى ووجوم : مات ؟ يرحمه الله ! يرحمه الله .

وكانت وفاة مبارك ليلة ٢١ محرم سنة ١٣٣٤ هـ (٢٩ نوفمبر ١٩١٥ م) .

ابن سعود والكويت بعد مبارك

كان ابن سعود قد قرر مهاجمة الكويت بعد أن رأى خيانة الشيخ مبارك وغدره ومكره ودسائسه المتكررة المتجددة ، وعزمه الدائم على التنكيل بابن سعود واثـارة خصومه عليه ، وإمدادهم بالمال والسلاح لضربه ، ولكن موت الشيخ مبارك بدل الموقف ، فقد سكت غضب ابن سعود ، وآثر الصفح على العقوبة ، واستنزل الرحمة من الله على مبارك .

ولم يكتف بذلك ، فأيده بتعزية حاكم الكويت الجديد الشيخ جابر بـن مبارك ، وتمنى له التوفيق والسداد ، ولشعب الكويت كل خير ، ونصح له أن يختط لسياسته طريقا غير طريق أبيه .

ورأى ابن سعود – بعد أن أرسل إلى جابر كتاب التعزية – أن يمضي اليـه بنفسه ويعزيه ويؤيده ، وقوبل بما هو أهله من الحفاوة والتكريم ، وعرض عليه أن يقف معه ، ثم غادره وهو يأمل أن يبدأ مع الكويت عهدا جديدا طيبا ، وقـد تحسنت العلاقات بين البلدين والحاكمين .

ومن آثار هذا التحسن أن ابن سعود وافق على معاهدة العقير بينه وبين الحكومة البريطانية بعد أقل من شهر من تولية جابر ، وتعهد ابن سعود فيها بما نصه :

« يتعهد ابن سعود كما تعهد آباؤه من قبل بأن يتحاشى الاعتداء على الكويت والبحرين ومشايخ قطر وسواحل عمان المشمولة بحماية الحكومة البريطانية ولها صلات عهدية مع الحكومة المذكورة والا يتدخل في شؤونها وتحدد حدود هذه الأقطار فيما بعد » .

وكان يرأس الجانب البريطاني السير برسي كوكس ، وتاريخ توقيع معاهدة العقير واعتبارها نافذة من يوم ١٨ صفر ١٣٣٤ هـ (٢٦ ديسمبر ١٩١٥ م) .

وظن ابن سعود أن هذا التعهد الرسمي بينه وبين الحكومة البريطانية يحمل الكويت على قدره وضمان الأمن له ولبلده وشعبه ، فطلب إلى شيخ الكويت جابر ابن مبارك أن يسلمه العجمان الألى اتخذوا الكويت ملجأ لهم بعد أن حاربوه وقتلوا أخاه سعدا وكادوا يقتلونه هو نفسه وأخاه محمدا .

وذكر له أن العجمان نهبوا اموال أهل الأحساء ونقلوها إلى الكويت ، وأخذوا يبيعونها في سوقها آمنين مطمئنين ، ويرجو أن تسلم هذه المنهوبات إلى الحكومة السعودية لتردها إلى أصحابها ، ولكن الشيخ جابرا لم يحفل بطلب ابن سعود ، بل أهمله ، فاضطر أن يكتب إلى السير برسي كوكس المعتمد السياسي البريطاني في الخليج الذي ابرم معه معاهدة العقير ، يشرح له مطلبه من شيخ الكويت وهو تسليم العجمان أو إخراجهم من الكويت ، ويذكر له اهماله طلبه ، ولا يصح أن يكون هو مكفوف اليد بموجب تعهده وتكون يد شيخ الكويت مطلقة ، ووجود العجمان في الكويت مصدر خطر وقلق بالنسبة للحكومة السعودية .

وأدرك السير برسي كوكس أن طلب ابن سعود حق ، وان اغفاله يعطيه الحق في التخلي عن تعهده ، بل هو لا يتخلى عن تعهده لأنه لا يعتدي على الكويت اذا دخلها بجيوشه لمعاقبة العجمان ، لأن من حقه أن يدافع عن شعبه وبلاده بالطرق التي يقتضيها الدفاع ، ولا ملام عليه ، بل اللوم على الكويت التي حمت أعداءه

ويسرت لهم سبل الحاق الضرر بابن سعود ، فكتب كوكس للشيخ جابر يأمره باخراج العجمان فأخرجهم على مضض ، وحقد على ابن سعود الذي انتصر في موقفه هذا .

واتفق جابر شيخ الكويت مع ابن الرشيد الأمير سعود بن عبد العزيز الرشيد خصم ابن سعود ، وتحسنت علاقة الكويت بحائل ، وفي هذا ضرر على ابن سعود وإقلاق لراحته وتهديده في أرضه وتمكين خصمه ، ولكنه لم يبد أي اعتراض على جابر ، واستمر في الاخلاص له ، إلا أن جابرا كان يعمل على اساءة العلاقات بينه وبين ابن سعود ، فلم يعد يحفل بأي طلب عادل أو حق صحيح لابن سعود .

ومن ذلك أن التجار النجديين كانوا يردون الكويت ، ويشترون من أسواقها البضائع والأرزاق ، ويصدرونها إلى بوادي نجد وقراها ومدنها ، دون أن يستطيع ابن سعود أن يستوفي رسم الدخول على تلك البضائع ، ورأى أن تستوفى من تجار نجد وهم في الكويت قبل أن يغادروها ، فهي بلدة واحدة يمكن حصر ما يصدر منها ، ولا يمكن حصر تلك الأموال والبضائع بعد مغادرة الكويت إلى نجد الواسعة الشاسعة .

ولم يهتم شيخ الكويت بطلب ابن سعود ، بل عمل ما يؤذي مصالحه فاضطر إلى أن يرجع إلى السير برسي كوكس ويعرض عليه الأمر رجاء حماية العلاقات بين الكويت ونجد من التدهور ، فكتب كوكس إلى الميجر هملتن المعتمد البريطاني في الكويت يطلب اليه عرض طلب ابن سعود على الشيخ جابر ، فتلقى هملتن من جابر هذه الرسالة المؤرخة في ١٤ رمضان سنة ١٣٣٤ هـ :

« من جابر المبارك الصباح حاكم الكويت إلى حضرة الأفخم عالي الجاه المحب العزيز ميجر . آر . آی . إيه . هملتن بولتكل اجنت الدولة البهية القيصرية الأنجليزية بالكويت ، دام محروسا .

« غب السؤال عن خاطركم العزيز دمتم بخير وسرور هو أن يد الوداد أخذت كتابكم المؤرخ ١٣ رمضان ١٣٣٤ وفهمت جميع عباراته مع صورة التحرير الواصل لجنابكم من حضرة المفخم سر برسى كاكس المشتمل على مظمون (مضمون) تعريف ابن سعود لحضرة سعادة المشار اليه بخصوص رسومات الأموال الذي [١] راجعة إلى نجـــد .

« فلا يخفى حضرتكم أن جميع الأموال التي تارد (ترد) طرفنا لا يوجد فيها اسم نجد قطعا بل جميع الحمولات باسم الكويت مخصوص ، وأهالي نجد الذي[١] يحدرون إلى طرفنا يأخذون جميع اشيائهم من تجار الكويت ، وغالبهم يشيلـــون (أي يحملون) أموال بطريق السعي لحساب تجار الكويت . وهذا طريق ماشي من قديم الزمان ، وباسم نجد ما يارد (يرد) أموال .

« فاذا حضرتكم العالية تلاحظون منفيسات الحمولة يثبت لديكم ، وعلاوة على ذلك لا يمكننا أن نغير حال [١] من رسومات طرفنا خلاف العادة الجارية من قديم الزمان فيكون معلوم حضرتكم لو يصير طريق اسم طرانسيت بطرفنا يحصل ضرر كلي في رسوماتنا من وجوه ، فلهذا لا يسعنا أن نغير حال [١] ولا نعطي طريق الاسم طرانسيت من طرفنا ، وابن سعود إذا صاير له الآن فكر يجعل اسم [١] إلى تجار نجد فعنده بنادر مخصوصة .

« فأرجو من حضرتكم عرض الكيفية لحضرة سر برسى كاكس مع تقـــديم احترّاماتنا الفائقة ، واني أؤمل أن نكون دائما ملحوظين بعين عنايته ورعايته كمـــا سبق .

هذا ودمتم محروسين » .

---

(١) كذا في الاصل .

ومع تهرب شيخ الكويت عن الحق والواجب فان ابن سعود لم يقابل جفوته بمثلها، ولم يحقد عليه لما أصابه من خسائر، بل ترك الأمر إلى وقت يعيد فيهالبحث مع شيخ الكويت نفسه او بوساطة دولة الحماية البريطانية .

وتلقى ابن سعود دعوة من السير برسي كوكس بالشخوص إلى الكويت لحضور مؤتمر يضم شيخ الكويت والشيخ خزعل أمير المحمرة وبعض رؤساء القبائل، وحدد له يوم ٢٦ محرم ١٣٣٥ هـ (٢٣ نوفمبر ١٩١٦ م) وانعقد المؤتمر بقصر الصيف بالكويت ، وافتتحه برسي كوكس بكلمة حيا فيها الحاضرين على تلبيتهم الدعوة، ثم ذكر الحرب التي تخوضها بريطانيا وحلفاؤها ضد المانيا وتركيا ، وحرص بريطانيا على تحرر العرب من تركيا واستقلال أقطارهم منها .

ثم وجه كلمته إلى عبد العزيز بن سعود ورجاه أن يبدي رأيه فيما قال وفيما يسعه هو أن يقدم للحلفاء في حربهم التي عنفت واتسعت ميادينها ، وابدى ابن سعود رأيه بأن العرب يريدون الحرية والاستقلال ، ولكنهم يعارضون أي ضرب من التبعية لدولة أخرى، فهم لن يستقلوا عن تركيا ليكونوا مستعمرين لدولة مهما كان السبب ، وذكر ابن سعود أن بريطانيا إذا أرادت صداقة العرب فالعرب يرحبون وهو منهم .

فسر برسي كوكس كلام ابن سعود ، وبحث في المؤتمر موضوع الخلافة الاسلامية وعودتها من الترك إلى أهلها الأصلاء وهم العرب ، ثم قال كوكس : ان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تستحسن أن يسند منصب الخلافة الإسلامية لعبد العزيز بن سعود ، وحكومة جلالة ملك بريطانيا تساعد على تحقيق هذا الأمر .

وايد الحاضرون السير برسي كوكس في مقالته هذه كما أيدوا استحسان الحكومة البريطانية ومساعدتها في تحقيق اسناد منصب الخلافة الأسلامية إلى عبد العزيز بن

سعود الذي كان صامتا خلال الحديث المتبادل بين الأعضاء في موضوع جعل ابن سعود خليفة المسلمين ، فلما انتهوا نهض ابن سعود وقال : إن الخلافة الأسلامية لا رجاء لي فيها ولا رأي ، ولا أرى أحدا أجدر بها من الشريف الحسين بن علي شريف مكة .

وكان ابن سعود أكبر الأعضاء من حكام العرب ورؤساء قبائلها قدرا ومكانة ، وأعظمهم نفوذا ، وأسدهم رأيا ، وكأن المؤتمر كان بينه وبين الحكومة البريطانية التي كرمته بتقليده وسام « نجمة الهند » ولم ينله غيره إلا شيخ الكويت جابر المبارك لاخلاصه لبريطانيا ، وأبرق كلاهما برقية مشتركة وقعها كل من ابن سعود وجابر موجهة منهما إلى اللورد شلمسفورد نائب الملك في الهند وحاكمها العام يشكرانه على ذلك الوسام الذي منحاه .

واتاح المؤتمر لابن سعود أن يبحث في إيجاز مشاكل الكويت ونجد ، وانتهى إلى الصفاء مع الشيخ جابر ، إلا أن المنية اخترمته في يوم ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٣٥ هـ (٧ فبراير ١٩١٧ م) وحل محله في الحكم أخوه الشيخ سالم المبارك .

ومع أن ابن سعود لم يكن يجهل حقد سالم عليه وانقباض نفسه منه ، وضيقه الشديد به فانه بعث اليه يعزيه في أخيه سالم ، ويهنئه من صميم قلبه ، ويرجوأن يكون عهده عهد وفاق وسلام ومودة بين الكويت ونجد ، وأن يكونا أخوين .

إلا أن سالما لم يقابل ود ابن سعود الا بالجفـــاء والقطيعة والكراهية والبغضاء ، ولم يكن ذلك حادثاً على سالم ، فهو يكره ابن سعود منذ أيام أبيه مبارك ، ولم تتح له الظروف أن يجابهه بكراهيته وعدائه ، لأنه لم يكن له من الأمر شيء ، فلما انتقل الحكم الى أخيه جابر كان حريصاً على أن تكون علاقته بابن سعود حسنة ، الا أن سالماً أفسدها ، لأنه كان مستشار أخيه ، فلما كتب ابن سعود الى جابر يرجوه تسليمه العجمان

واخراجهم من الكويت وافق ، الا أن سالماً غيره ، وحمله علـى ايواء العجمان وحمايتهم فحماهم .

وسبب العداء والحقد أن عبد العزيز كان ذا رأي سديد ، وموصوفاً بالحكمة والرشاد والعبقرية ، فكان مبارك يدنيه منه ، ويستشيره ، ولما لم يكن سالم من ذوي الرأي والرشاد أغفله أبوه مبارك ، فحقد على ابن سعود الذي لم تكن له يد في إبعاد مبارك ابنه سالما .

ومما زاد في حقد سالم أن الحكومة البريطانية أهدت والده بندقية حديثة الصنع قدمها له ضابط بريطاني أنيب في تقديمها لمبارك ، فقدمها اليه ومجلسه حافـل بالناس بينهم ابنه سالم وعبد العزيز بن سعود قبل أن يحتل الرياض ، وأعجـب الحاضرون بالبندقية وتطلعوا اليها ، وبعد أن غادر الضابط الانجليزي المجلس عرض مبارك على عبد العزيز البندقية ففحصها بسرعة ثم أعادها إلى مبارك قائلا : إنه جدير بها ، لأن هذه البندقية لا تصلح إلا له ، فهي لا تعمل الا في يد توفيها حقها في ساحة الحرب ، ويد مبارك توفيها هذا الحق .

وتناولت الأيدي البندقية ثم عادت إلى مبارك الذي فحص الحاضرين بعينيه ثم اتجه إلى ابن سعود وقال له : يدك وحدك التي تعطي حق هذه البندقية ، فهي هدية مني لك ، وناوله اياها ، فشكر له حسن ظنه ، وانفض المجلس ، وإذا سالم يسرع خطاه إلى ابن سعود ويستوقفه ، ويأخذ منه البندقية ويفحصها ، ثم يقول له : لقد أخطأ أبي عندما أعطاك البندقية ، ولو أنصف لما آثرك بها عليّ ، فيدي أقدر وأوفى .

ونظر اليه عبد العزيز نظرة زجر ، واستعاد منه البندقية وقال له : إن أبـاك أعرف منك بالناس ، وما آثرني عليك إلا وهو يعلم قدري ومكانتي ويدي وقلبي ، وعلى أي حال لم يخطىء ابوك .

واثرت هذه الحادثة في نفس سالم وزرعت في قلبه الحقد الذي تأصل ، فلما ولي الحكم وجد الفرصة لينتقم من عبد العزيز ، وبادره بالشر وافسد ما بين الكويت ونجد من العلاقات التي تحسنت في أخريات أيام جابر .

واول ما صنع سالم بعد توليه الحكم أن عبس في وجوه شيوخ نجد وتجارها الذين كانوا يترددون عليه ، فأغفلوه من حسابهم ، ولم يعودوا يزورونه ، وقابلوا اعراضه بإعراض ، فانتقم من تجار نجد بتعسير معاملاتهم التجارية في الكويت ، واوعز إلى تجار الكويت وأهلها أن يسيئوا إلى النجديين وبخاصة التجار ، فاذا النجديون لا يلقون الا العسر والمهانة والتحقير ، وعلموا أن سبب كل ذلك الشيخ سالم ، فهم يلقون منه ومن الكويتيين كل أذى وسوء ، فما كان من النجديين التجار والمترددين على الكويت إلا أن ينالوا من سالم نفسه وهاجموه بعنف ، وتطور الهجوم على الشيخ سالم إلى اتهامه بالكفر والانحلال والمروق من الدين ، والخروج على الأخلاق.

واستبد الحقد بسالم فكان يتجنى على شخص ابن سعود ، ويبهته ويكذب عليه ويتهمه حتى خرج عن حده فأعلن الحرب على الوهابية والوهابيين ، واتهمهم بالكفر والتوحش ، وجرد عليهم حملة من العلماء والوعاظ وأئمة المساجد ، يخطبون ويندون بالوهابية والنجديين ، وصاروا يخطبون في المساجد ، ويعقدون المؤتمرات والأندية لمهاجمة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ودعوته واتباعه وكل الذين اعتنقوا دعوته ، ووصفوهم بشر ما يوصف المارقون ، ومقصد سالم تشويه سمعة عبد العزيز والنجديين .

وأصحب هذه الحملة الشديدة بمدّ يده إلى آل الرشيد وتأييدهم ونصرهم ، وإثارتهم على ابن سعود .

ولم يكن بد من الحرب ، فقد كانت الحدود غير معينة بين الكويت ونجد ،

وكان سالم يرى أن حدود الكويت تمتد إلى نقاط هي من صميم بلاد ابن سعود ، ويضاف إلى كل هذه المخالفات التي أثارها حشد قواته المسلحة لضرب الوهابية والوهابيين ، واستعد لذلك ، وأخذ يشهر بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ابشع تشهير ، ويطعن ابن سعود في معتقده ، وأخذ يستفز النجديين شر استفزاز ، وراى سالم ان يثير في وجه ابن سعود الغبار فأخذ يكتب إلى المسئولين البريطانيين يندد بابن سعود ويتهمه .

وعندما كان الكولونيل هملتن موفدا من الحكومة البريطانية إلى ابن سعود قابل السير برسي كوكس ليتلقى منه تعليماته ، فمضى هملتن إلى بغداد حيث كان كوكس مندوبا ساميا وقابله وتلقى منه التعليمات ، وسار إلى الكويت حيث قابله الشيخ سالم وشكا اليه ابن سعود ، ومن الموضوعات التي عرضها عليه ان ابن سعود يطلب ابعاد العجمان عن الكويت ، وانه لا حق له في هذا الطلب ، وان ابن سعود أخذ من قبيلة العوازم التابعين للكويت الرسوم أو الزكاة ، ولا حق له في ذلك .

وبينا كان هملتن في طريقه جدّ لدى كوكس جديد ، حيث انتدب المستر سنت جون فلبي ليحل محل هملتن في الرياض ، وأصحبه برسالة منه إلى هملتن يخبره بأسباب هذا التغيير ، ويخبره أن يكون عضوا تحت رئاسة فلبي في وفده ، وإلا العودة إلى عمله بالرياض .

واختار هملتن العودة وطلب إلى فلبي أن يدع له التفاوض مع ابن سعود فيما يتعلق بالخلاف بين الكويت ونجد قبل مغادرته الرياض فسمح له .

وتم الاجتماع بين ابن سعود وهملتن بحضور فلبي ، وبحثت دعاوى الشيخ

سالم ، ومنها : طلب ابن سعود أن يجلو العجمان أعداؤه من الكويت ، وهو لا يريد إجلاءهم بعد أن منحهم حق الإقامة ، واقتنع بضرورة خروج العجمان من الكويت ، ووعد بذلك .

ثم بحث موضوع العوازم فذكر ابن سعود أن جباية الزكاة منهم لم تكن بأمره ، وعزا الجباية إلى خطأ الموظفين ، فليست قبيلة العوازم كلها تابعة للكويت ، واصلها من نجد ، ومضى قسم منها إلى الكويت ثم عاد إلى نجد .

وكان هملتن مأخوذا بشخصية عبد العزيز ومزاياه وخلائقه ، ووقف على الفارق الكبير بينه وبين سالم ، ومع هذا رجا ابن سعود أن يزوده برسالة منه إلى سالم يحملها معه عند عودته إلى الكويت ، فوافق ، ولبى طلبه ، واعطاه الرسالة ، وغادر الرياض إلى الكويت فوصلها في ربيع الأول ١٣٣٥ هـ (يناير ١٩١٧ م) ولما زاره الشيخ سالم ذكر له ما اسفر عنه البحث في الموضوعات التي تشغله ،وطلب اليه أن يجلو العجمان ، فوافق ، ثم سلمه رسالة ابن سعود ، فكتب جوابها الذي ننشره بنصه — وتاريخه ١٧ ربيع الأول ١٣٣٦ — :

« من سالم المبارك الصباح حاكم الكويت

« إلى جناب الأجل الأكرم الأفخم حميد الشيم الأخ المكرم عبد العزيز العبد الرحمن الفيصل المحترم ، دام مجده وعلاه

« بعد مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته مع السؤال عن تلك الذات حميد الصفات وعن أخيك لله الحمد في خير وسرور ، جعلكم الله كذلك .

« بعد ، في أبرك ساعة أخذنا بيد المسرة كتابكم العزيز المؤرخ ٢٠ صفر

١٣٣٦ تلوناه مسرورين حيث أعرب عن بشرى سلامتكم الغالية ، وما ابديتم فيه من إظهار المحبة والاتحاد فلا شك بذلك ، ربنا يديم هذه الحالة المرضية مـدى السنين فقد يسر الله وصول محب الجميع كرتل هملتن في ١٣ شهر الحالي بكمال الصحة والعافية ، وإني صرت مسرورا حيث شاهدت من سعادته غاية الممنونية والسرور جدا ، فنشكر جنابكم ، وهذا هو المراد لأن المومى اليه محب ودود ، ونواياه خير وصلاح للجميع .

«فقد أخبرني بخصوص المذاكرة التي جرت بينكما وعن زكاة العوازم، وأن اسباب زكاتهم وقعت من سوء تفاهم العمال .

« فيا أخي ، زكاة العوازم ما لها أهمية ، إنما الشيء الذي يجري خلاف العوايد القديمة نستنكره ونشره [1] عليكم فيه ، والا يا أخي نحن وانتم عضو واحد مشتركين بالحال والمال والرعية ، ولا فرق بين الطرفين ، واللازم على الجميع بذل العناية التامة لكل ما يؤيد رضا الحكومة البريطانية المعظمة ، والامل ان شاء الله تشاهد من أخيك كل ما يسر خاطرك ، وحالا عمدنا محب الجميع فارس الوقيان لخدمتك لأجل إزالة الشك من خاطرك العزيز ، وتقوية روابط المحبة والاتحاد .

هذا ما لزم ، نرجو إبلاغ سلامنا حضرة الوالد المفخم والاخوان والأولاد ، ومنا الولد أحمد واخوانه يسلمون ، ولا تقاطعنا أخبار سلامتكم السارة مع ما يبدو من لازم ممنونين ، ودمتم محروسين » .

وكان لهذه الرسالة أثر طيب في نفس ابن سعود ، فهو لا يضمر للكويت إلا كل خير ، لشيخها ــ أيا كان ــ وإلا المودة والصفاء ؛ وزاد من سروره انه تلقى من سالم رسالة أخرى ــ تاريخها ١٧ جمادى الأولى ١٣٣٦ وها هي ذى الرسالة :

---

(١) نشره (بلغة نجد العامية): نعتب .

« من سالم المبارك الصباح حاكم الكويت

« إلى حضرة حميد الشيم الأجل الأمجد الأفخم الأخ المكرم الشيخ عبد العزيز العبد الرحمن الفيصل ، دام عزه .

« بعد مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته مع السؤال عن تلك الذات الجامعة لمحاسن الصفات .

« وعن أخيك من فضل الله في خير وسرور ، جعلكم الله كذلك ، في أبرك ساعة أخذنا بيد المسرة كتابكم العزيز المؤرخ في ١٠ ربيع ثاني ١٣٣٦ صحبة محب الجميع فارس الوقيان ، تلوناه مسرورين بدوام سلامتكم ، وشاكرين محبتكم ، من خصوص اكبـــار العوازم وصلوا كما ذكرتم ، فهذا المأمول مـــن جنابكم ، ربنا لا يعدمنا بقاكم ، ويديم حالة الوداد والاتحاد مدى السنين .

« من طرف العجمان يا أجزم وأعتقد أن الذي ما يرضيكم ما أرظى (أرضى) منه ولا أقبله في شيء يمس خاطركم العزيز ويخل في سياسة الطرفين ، فالذي يسر خاطركم لا شك أجريه مع الممنونية ، ولا تكونون في أدنى فكر ، فعن هؤلاء أجرينا اللازم على مقتضى نضركم (نظركم) ولا بد خدامكم عبد العزيز الربيعي ومسند بن سيحان يفيدون جنابكم بالكيفية ، وإن شاء الله ما تشاهدونه من أخيكم إلا ما يسركم ويكمد عدونا وعدوكم بحول الله وقوته ، فأرجو إزالة الشك من خاطركم العزيز بالصورة القطعية .

« فارس افادنا فيما أوصيتموه ، وما شاهده من إظهار نواياكم الخيرية ومحبتكم القلبية . نسأله تعالى دوام هذه الحالة المرظية (المرضية) وأن يوفق الجميع لما تحمد عقباه بمنه وكرمه .

هذا والمأمول دوام المحبة والاتحاد مع إبلاغ سلامنا حضرة الوالد المفخم والاخوان

والأولاد الكرام ، ومنا الولد أحمد وأخوانه يسلمون ، ولا تقاطعنا أخبار سلامتكم السارة مع ما يلزم ودمتم محروسين » .

وتبودلت بين سالم وابن سعود رسائل زاخرة بالعواطف النبيلة ، وبالعهود والمواثيق والوعود ، ويكفي أن شيخ الكويت يقول لعبد العزيز بن سعود في رسالة كتبها اليه في ٧ جمادي الآخرة ١٣٣٦ :

« ويا أخي ، إعتقدْ بالله أننا ما نقبل شيء [١] يخالف رضاكم العزيز ويخل في سياسة الطرفين من كل الوجوه ، وإن الكويت والرياظ (الرياض) واحد ، والكل تحت أمركم . وأنا يا أخيك احسبني كسيف بيدكم وقدام وجهكم في كل مهمة » .

ورسالة سالم هذه لم تجعله سيفا بيد ابن سعود ، بل جعلت ابن سعود سيفا بيد سالم ، وفي وسع أعدى أعداء ابن سعود أن يملكه باللطف ومكارم الأخلاق ما لم يكن في ذلك سخط الله .

ومع أن خروج العجمان من الكويت كان بجهد الانجليز إلا أن ابن سعود عده في حسنات سالم ، ورجا أن يبدأ عهد مجيد زاهر في تاريخ العلاقات بين نجد والكويت . ولكن سالما لم يكن صافي الود ، وما أبداه في رسائله كان مجبرا عليه ، وإلا لو كانت الحرية طوعه لتغير الأسلوب .

وعندما نقل السير برسي كوكس إلى طهران ، وخلفه السير أرنولد ولسن في منصبه الذي كان فيه مر بالكويت ، ووصلها مساء يوم الأثنين ١١ ذي القعدة ١٣٣٦ (١٩ أغسطس ١٩١٨).

---

(١) كذا في الاصل .

وفي صباح يوم الثلاثاء ١٢ ذي القعدة ١٣٣٦ زار الشيخ سالم السير برسي كوكس وشكا اليه ابن سعود ، واتهمه بأنه يوالي الاعتداء على الكويت وأهلها وقبائلها وحقوقها وعلى حدودها ، وأنه لا يبالي في سبيل مصالحه ومطامعه ، وطلب منه أن يقفه عند حده .

ولكن السير برسي كوكس لم يحفل بدعاواه ، بل أمره بأن يعمل على كسب صداقة ابن سعود ، والفوز برضاه ، والبعد عن مصادقة خصومه وبخاصة آل الرشيد ، وأن يحرص كل الحرص على تحسين علاقته به .

فتظاهر الشيخ سالم بالسمع والطاعة ؛ وفي نفسه الحقد القديم والجديد على ابن سعود ، وزاد من اشعال نيران حقده انتصار ابن سعود في تربة على جيش الملك حسين ، فأخذ يهاجم ابن سعود ، ويتهمه بالعمل على توسعة بلاده بالعدوان على أراضي غيره ، وكثرت تصريحاته في مجالسه ضد ابن سعود والنيل منه ، بل أخذ يتحداه ، ويؤيد آل الرشيد علانية ، ويرجو لهم النصر ، ويمهد له أسبابه ،واعتدى على ارض سعودية وهي «بلبول» حيث أراد أن يبني بها حصونا .

وكتب اليه ابن سعود كتابا رقيقا يقول له فيها : إن بلبول ليست من أراضي الكويت ؛ وانما هي من أراضي القطيف ، ويرجوه ألا يعمل فيها شيئاً ، ولكن سالما كان يبحث عن الشر ويغني له ، وأجاب ابن سعود على عتابه الرقيق في كتابه المهذب بكتاب جاف الاسلوب ، يدعي فيه أن «بلبول» من الكويت ، وأن دعواه لا صحة لها ولا مسوغ .

واضطر ابن سعود أن يكتب الى المسئول البريطاني فوقف سالم عن تنفيذ ما كان قد قرره ، ولكنه كان يبحث عن الشغب ، فما كاد يسمع أن تريحيب بن شقير نزل مع جماعة الاخوان في مكان يسمى « قرية » [1] وبنى بها «هجرة» من

---

(١) ينطقها البدو جرية .

الهجر التي كان الاخوان يبنونها في نجد ، وهي قرى آهلة بالسكان ، أراد منها ابن سعود تحضير البدو وتمدينهم حتى غضب سالم ، وبعث الى تريحيب ينذره ويهدده ويأمره بالكف عما يعمل ، فلم يبال تريحيب إنذار سالم وقال لرسوله : لن نكف عن شيء مما نعمل إلا إذا أمرنا إمامنا عبد العزيز بن سعود .

ولم يتمالك الشيخ سالم نفسه من الغضب ، ولجأ إلى المعتمد البريطاني بالكويت وأخبره بما حدث ، وذكر له أن وجود الاخوان في قرية تهديد للكويت ، وقرية من صميم الكويت — مع أن قرية لمطير القبيلة النجدية من قديم — وطلب إليه أن يتصل بالمندوب السامي البريطاني ، فأبرق المعتمد للمندوب السامي في ٥ شعبان ١٣٣٨هـ (٢٣ إبريل ١٩٢٠) يخبره أن الشيخ سالما شكا إليه رسميا أن ابن شقير شيخ مطير — كما جاء في البرقية — عمل بيوتا في قرية ونزل مع رجاله بها ، مع أن قرية داخلة في حدود الكويت ، وهو يرجو الحكومة البريطانية أن تقف ابن شقير حبيا عما يعمل ، وتصدر أمرا بألا يتكرر مثل هذا الحادث في حدود الكويت .

ولم يجب المندوب السامي على البرقية بشيء مع أن مرسلها قد كتب في أعلاها كلمة «ضروري» فعُززت بثانية بتاريخ ١٠ شعبان ١٣٣٨ ثم بثالثة في ١٤ شعبان ١٣٣٨ (٢ مايو ١٩٢٠) دون جواب ، فالمندوب السامي يعلم من أخلاق الشيخ سالم ما يمنعه من تصديقه ، ويعرف حبه للشغب ، فأغفل دعاواه ولم يسمع لها .

وتأذى سالم من هذا الإغفال فأراد أن يصفي حسابه مع ابن سعود بنفسه ، فأمر قائد قواته المسلحة البرية دعيج بن سلمان بن صباح الفاضل بأن يسير على رأس جيش من الفرسان والمشاة الى مكان قرب قرية ، ويعسكر به ، وقصد من ذلك إرهاب تريحيب الذي أسرع بالكتابة إلى فيصل الدويش يخبره بقدوم جيش كويتي الى قرب قرية ، ويطلب اليه أن يمده ، فأمده بألفي محارب من أقوى المحاربين الاخوان نزلوا بموضع يسمى «الحَمَض» تجاه الموضع الذي عسكر به جيش الكويت .

وكان جيش الكويت مغرورا يتحدى ، والاخوان السعوديون لم يتوانوا في مقابلة ذلك التحدي بتحد أشد ، فوقعت الواقعة في صباح يوم ٢٨ شعبان ١٣٣٨ (أول يونيه (حزيران) ١٩٢٠ م) حيث بدأ الاخوان بهجوم خاطف كاسح على الكويتيين الذين استماتوا في الدفاع عن أنفسهم ، وكان مع الجيش عبدالله الجابر الصباح ، وقد دافع هو ودعيج دفاعا انتحاريا ، وهزم جيش الكويت ، ولم ينج عبدالله الجابر ودعيج إلا بخارقة ، وغنم الاخوان [١] كل ما كان مع الكويتيين .

وسبق نبأ الهزيمة المنهزمين الى الكويت ، فلما عاد دعيج ومن نجوا كان أهل القرى قد غادروا قراهم وأخلوها خوفا من الاخوان ، وثار الشيخ سالم وأدرك أن الخطر سيدهمه ، فأسرع الى بناء سور للكويت وحصنها ، وأعد جيشا قويا استعدادا لما قد سيحدث .

وأعلم سالم المعتمد البريطاني بما حدث ، وادعى له أن القوات السعودية هي المعتدية ، فما كان من المعتمد الا أن يذهب هو نفسه الى بغداد ويقابل المندوب السامي البريطاني السير أرنولد ولسن الذي لم يأبه ببرقيات الكويت الثلاث ، ولما أعلمه المعتمد لم يثر ، فقد كان يعرف أخلاق ابن سعود ويعجب به ويقدره ، وأمر أن يحسن شيخ الكويت سياسته مع عبد العزيز ، ويجري معه مفاوضة سلمية ، وأرسل إليه رسالة تتضمن ذلك حملها المعتمد ، وزاد فيها أن الحكومة البريطانية مهتمة بتثبيت الحدود بين نجد والكويت .

وحسب تعليمات السير أرنولد ولسن طلب المعتمد البريطاني من شيخ الكويت أن يجري مفاوضات سلمية مع ابن سعود ، واستقر رأيهما على بعث وفد كويتي الى الرياض ، فسافر الوفد في شهر رمضان ١٣٣٨ مصحوبا برسالة من سالم الى ابن سعود لم تخل من جفاف ، ويذكر له فضل آبائه وأجداده على آباء ابن سعود وأجداده .

---

(١) لقب اتباع شيخ الإسلام الامام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله .

ووصل الوفد الى الرياض ، واستقبله ابن سعود بالحفاوة والترحاب ، وقال له : أما فضل آباء الشيخ سالم وأجداده على آبائي وأجدادي فحق ، وأنا أعترف أن فضلهم علي أنا نفسي أيضاً ، وأما حدود الكويت فتنتهي الى مكاني هذا الذي أنا فيه إذا كان الأمر أمر محبة وأخوة وفضل ، أما إذا كان الأمر للعدل فما ادعى فيه الشيخ سالم من أراضينا أنها للكويت ليس بحق ، وأسلمهم كتابا بهذا المعنى .

وعاد الوفد ومعه ناصر بن فرحان السعود مبعوثا بالكتاب الى سالم ، وعاد ناصر الى الرياض يحمل رسالة جاء في ملحقها : « أما طلبكم تنازلنا عن العشائر وألا نخرج من الكويت جيشا مقاتلا فهذا مع كونه إجحافا بحقنا ما كنا نتصوره من حضرتكم وهو مخل بشرفنا الذي كنا على يقين من حرصكم على المحافظة عليه ، وأما ما نهبه الدويش فلا نعذركم في عدم أدائه ، وأنتم تعلمون أنه من المعتدين » .

وعلم ابن سعود قبل ورود هذه الرسالة إليه أن الشيخ [illegible] يجهز جيشا لغزو القبائل النجدية التي تقطن الأراضي القريبة من الكويت [illegible] ابن سعود أن الجيش الكويتي سيغادر الكويت الى الجهرة تحديا لقوات ابن [illegible] ، وعلم أن الشيخ سالما يتهدد ويتوعد بالثأر لقتلى موقعة الحمض ، وأخبره ناصر بن فرحان السعود أنه كان بمجلس سالم فقص عليه أحد رجال قبائل شمر التابعة لابن رشيد أن ابن الرشيد انتصر على جيش ابن سعود في وقعة «الشعيبة» مع أن الانتصار للسعوديين ، فأعلن سروره عندما افتخر الرشيدي بانتصار جيش ابن الرشيد على جيش ابن سعود .

وفي هذه الحالة وصل الوفد الكويتي الثاني الى الرياض في ٢٨ شوال ١٣٣٨ (١٤ يوليو ١٩٢٠م) وكان ابن سعود قد أمر فيصل الدويش أن يسير بقواته إلى قرية استعداداً للطوارىء ، وردا على شيخ الكويت اعداده لجيش قوي مسلح سيغادر الكويت الى الجهرة .

ولم تكن مقابلة ابن سعود لوفد الكويت الثاني مثل مقابلته وفدها الأول ، بل قال لعضوي الوفد كلاما قاسيا ، وهاجم سالما بعنف ، ونقده نقدا لاذعا بحق ، ثم ختم حديثه معهما بقوله: « عودا إلى سالم وأخبراه بأنه ليس بيني وبينه الا الحرب » .

وكلمة ابن سعود هذه انبثاقة غضب الحليم الصبور ، فقد نفدت كل وسائل السلم والمودة والعطف مع الشيخ سالم الذي ركب رأسه وأمعن في تحدي ابن سعود واستفزازه والتجني عليه بغير حق .

وكان سالم متهورا فيه رعونة وغرور ، وكل تصرفاته برهان على ذلك ، فهو قد زج بالكويت في خصومات وفتن وحروب ومشاكل أضرت بها حكومة وشعبا ، وقد أراد أن يسيء العلاقات بين بريطانيا وابن سعود ، ولكنه أخفق ، وعرف المسئولون البريطانيون رعونة سالم فلم يسمعوا له دعاواه الباطلة ضد ابن سعود ، وما كان منها حقا لم يبادروا إلى الأخذ بناصره، لأن كفة ابن سعود هي الراجحة عندهم دائماً ، فهو ذو رجولة وشمم وصدق ، ولا يخاطب الرجال العظماء إلا بالتجلة والتكريم .

وشعر الشيخ سالم بعدم رضا بريطانيا عنه ، وعدم رضا شعب الكويت عنه أيضاً ، ولكنه أثار الحمية الوطنية في الكويتيين وخوفهم من عدوان فيصل الدويش والاخوان التابعين لابن سعود الذين قاموا معه ، واستعدت الكويت كلها للحرب ، وصمم الشيخ على محاربة ابن سعود ، فجند جيشا كثيرا وقويا ، وجعل نفسه القائد ، وأخذ يكمل العدة والتموين حتى يغادر الكويت الى الجهرة ، ليكون في في وجه القوات السعودية التي يقودها فيصل الدويش ، والتي عسكرت في الصبيحية .

وكان لابن سعود معتمد نجدي في الكويت هو عبدالله بن أحمد النفيسي ، ورأى هذا الاستعداد العسكري الضخم ، وخاف على نفسه فقرر أن يغادر

الكويت ويعود الى الرياض ، فلم يسمح له حاكم الكويت ، وأخيراً سمح لـــــه بالخروج بعد أن أخبره أن ابن سعود يريده ، فخرج منها بعد يوم ٢٠ ذي الحجة ١٣٣٨ .

وانقطعت العلاقات تقريباً بين نجد والكويت ، وساءت العلاقات الى حد بعيد بين ابن سعود وسالم ، واجتمعت قوات الدويش وتريحيب ، وأرسل ابن سعود مددا للدويش ، وأمره ألا يبدأ بالقتال .

وخرج الشيخ سالم إلى الجهرة وحصنها ونزل بحصنها المنيع المعروف بالقصر الأحمر ، واستعد للقتال ، وقبيل هذا الخروج كتب الى سعود بن عبد العزيز الرشيد يطلب إليه النجدة السريعة ، فبعث إليه أحد أبطال شمر المغاوير وأحد رؤسائهم ، وهو ضاري بن برغش بن طوالة مع رجاله الأبطال ، فوصلوا الجهرة .

وكان فرسان جيش الكويت أكثر عددا من فرسان القوات السعودية ،وجيش الكويت محصنا والقوات السعودية مكشوفة .

وكان الشيخ سالم قد بعث بقسم من الجيش الكويتي بقيادة دعيج الفاضل قائد القوات البرية الكويتية المسلحة وضاري بن طوالة مع رجاله الفرسان الى «قرية» لضرب الاخوان المعسكرين بها ، وأمرهما بمباغتتهم ، وعلم الاخوان فاستعدوا ، فعادوا إلى الجهرة دون قتال .

وفي صباح يوم الأحد ٢٦ محرم ١٣٣٩ (١٠ اكتوبر ١٩٢٠) رد الاخوان بقيادة فيصل الدويش على خروج دعيج وضاري بأن زحفوا على الجهرة نفسها ، وبدأت المعركة بين الاخوان المهاجمين والكويتيين المحصنين ، وأمطر هؤلاء أولئك من حصونهم المنيعة وابلا من الرصاص انهمر على الاخوان وقتل منهم كثيرا ، ولكنهم لم يتراجعوا ، بل تقدموا في عناد وشجاعة وبطولة نادرة .

ولم يشترك كل فرق الاخوان في هذا القتال الرهيب ، بل فرقة واحدة ، ثم برزت بعدها تأييدا لها فرقة الارطاوية فرقة فيصل الدويش كالمردة ، وتلقاهم الكويتيون بنار صبوها عليهم صبا ، وهنا أحاطت القوات السعودية بالجهرة وفتحوا فيها ميادين الحرب فواجه الفرسان الكويتيون فرسان الاخوان ، وأبدى كل من الجانبين صبرا وعنادا وشجاعة ، ولكن الاخوان كانوا أشجع ، وتلقوا السيوف والنيران بصدورهم ، وأجبروا الكويتيين على التضعضع وترك أماكنهم التي حل بها السعوديون ، ثم لما اشتد ضغطهم انهزم الكويتيون فاذا الشيخ سالم يبرز مع عبيده ورجاله المدججين بالسلاح ، واشتركوا في المعركة الضارية ، إلا أن هجوم الاخوان البالغ في العنف والجبروت هزم سالما وجيشه ، وفر سالم لا يلوي على شيء حتى دخل القصر الأحمر واعتصم مع الناجين .

وانتهت المعركة بهزيمة الكويتيين هزيمة منكرة ، وقتل من رؤسائهم جابر العبدالله الصباح ، وسرت الفوضى في الكويتيين ، ولم يعد أحد يعرف أحدا ، ولم يجدوا سبيلا الى الحصن ، فالجهرة قد سقطت في يد الاخوان ، وتفرق جيش الكويت بعد أن تمزق وغلب ، تفرقوا في الخلاء ، وبعضهم قصد البحر ، وقصد كثيرون الكويت نفسها ، ومنهم ضاري بن طوالة الذي دافع بشجاعة نادرةالمثال ، فقد كان قائد سلاح الفرسان في جيش الكويت ، وأبلى أعظم البلاء ، إلا أنه لم يستطع بفرسانه الشجعان أن يثبت أمام سلاح الفرسان السعودي ، فانكسر ضاري وتبدد شمل سلاح فرسانه بعد أن سقط أكثره قتيلا في ميدان المعركة ، وتتبع الفرسان السعوديون ضاري بن طوالة ، ولكنه طار بفرسه فتركوه ، ولم يرد رأسه غير الكويت التي وصلها منهوكا مهزوما .

وحوصر الشيخ سالم في الحصن المنيع المسمى القصر الأحمر ، وضيق الاخوان الحصار وقارب الزاد أن ينفد ، ولم يبق من الماء الا يسير ، وجاع المحاصرون ، وأرسل سالم الى الكويت يطلب المدد ، وبدأت بين الجانبين مفاوضات ، وفي

خلالها وصلت سفن كويتية ، وهاجمها الاخوان ، واستولوا عليها ، وغنموا ما كانت تحمل من زاد وأسلحة ومال .

وأوفد الدويش وفدا الى القصر الأحمر للمفاوضة . وحمل الوفد ورقة تحوي شروط التسليم وانهاء القتال ، فتسلمها سالم وتظاهر بالموافقة بعد درسها ، وطلب فك الحصار عن الجهرة وعودة القوات السعودية الى آبار الصبيحية ، ثم البدء في المفاوضة ، ووافق فيصل الدويش ، وعاد بقواته الى الصبيحية ، وغادر سالم ومن معه الجهرة الى الكويت ، وتغير الموقف ، لأن سالما لجأ الى البريطانيين وطلب اليهم حمايته وحماية بلده ، فتدخلوا وهم مقتنعون بأن ابن سعود لن يصدر منه أي اعتداء ، وأن ما حدث في الحصن والجهرة لم يكن بأمره .

وتدخل السير برسي كوكس بوجهة نظره وهي إخلاء ابن سعود من مسئولية ما حدث من الاخوان ، فأمر ابن سعود فيصل الدويش ومن معه بترك الصبيحية فعادوا الى أوطانهم .

ومن المؤسف أن يكون موقف سالم هذا الموقف اللئيم ، فهو المسئول عن كل ما حدث ، وكان يستفز ابن سعود ويتحرش بقواته ، ويبالغ مسرفا في الاساءة إليه ، ولا يبالي .

ولم يكن ابن سعود قط طامعا في الكويت التي كانت مصدر خطر متجدد عليه ، وكان البريطانيون برمين ضائقين بسياسة الكويت التي ينتهجها حكامها ، وقد كانت سبباً لإحراجهم ، وكانوا يرون أن إسقاط آل الصباح عن كرسي الحكم في الكويت أضمن للاستقرار والسلام ، وأشير من قبل البريطانيين إلى ترشيح ابن سعود لحكم الكويت غير مرة ، وعرض حكم الكويت على أصدق أصدقائها الشيخ خزعل فلم يوافق .

وأخفق الشيخ خزعل في إصلاح الشيخ سالم ، وأخفقت كل محاولاته في

ثَنْي سالم عن ميوله ومراميه الباطلة حتى اضطر الى الصمت عنه ، ولكن الشيخ خزعلا لم يستطع أن يقف جهوده وهو يرى الكويت معرضة لأخطار جسيمة ، فكتب إليه رسالة اب الى ابنه ينصحه ، ومما جاء فيها قوله :

« إياك يا ولدي من سماع أقوال المغرضين والوقوع في شراكهم ، وابتعد عن القتال مع فيصل الدويش قبل مراجعة ابن السعود والسعي لمرضاته ، فإنه خير لك من سواه ، لأنه عربي مثلك ، دمه دمك ، ولحمه لحمك ، وإن كنت في حاجة إلى الرجال أو السلاح أو المال فإني أوعزت الى عبدك سلطان في القصبة أن يمدك بما تحتاجه ، وسيصلك أحد رجاله المسمى عبد الرحيم ، بيّن له ما تشاء وما تجده لازما لمحافظة بلدك الى حين وصول الجواب من ابن السعود » .

ووصلت رسالة خزعل بعد هزيمة سالم في الجهرة، وأجابه بما حدث، وأخبره بالمفاوضة الجارية مع فيصل الدويش .

ولما علم خزعل بهزيمة سالم قلق عليه وعلى الكويت ، لأنه هو الذي يدفع ابن السعود المسالم إلى امتشاق الحسام دفاعا عن نفسه عندما يجد تحديات سالم تدنو منه حتى تكاد تلمس عنقه ، وابن سعود غير ملوم اذا دافع ، وان سالما هو المسئول عن تعريض حكم آل الصباح للكويت للخطر ، وبين خزعل وآل صباح صلة أشد من النسب ، وهو من الاوفياء الصادقين ، وأوفى صديق وأصدق حبيب وأبر والد لهم ، ورأى أن عرش الكويت في خطر لا محالة من وقوعه ، فلا بد أن يحميه ويدفع عنه ما يتعرض له ، فصمم العزم على زيارة السير برسى كوكس المندوب السامي البريطاني في العراق ، وفعلا مضى إلى بغداد وقابله في شهر صفر سنة ١٣٣٩ وجعل الحديث معه وقفا على الكويت وشيخها ، ورجاه أن يهتم بتسوية الخلاف بين الكويت وحاكمها ونجد وسيدها ، فأجابه السير برسي كوكس بقوله :

« ليس لدينا متسع من الوقت ندعه للكويت ، فنحن مشغولون بالعراق وأحداثه المعقدة الكثيرة ، ويجب ألا نشغل أنفسنا بغير العراق، وأنت لا تجهل الشيخ سالما ، وتعرف أنه وعر الطبع فائل الرأي ، يصم أذنيه عن نصح من يمحضونه النصح ، أما وأنك قد جئت إلي فإنني عارض عليك أمرا فيه خير الكويت ، وأرجو ألا يجد مناك الأمر الذي أعرضه عليك غير الرضا والقبول ، فما رأيك أن تتسلم حكم الكويت أو يتسلمه أحد أولادك وتريحنا من سالم ، وأننا نؤيد هذا الأمر وصممنا العزم على إجرائه ؟ » .

وما كاد الشيخ خزعل يسمع العرض الأخير من برسي كوكس حتى ابتقع لونه وأصيب في أعز أمانيه وهو أن يبقى عرش الكويت لآل صباح وقال :

« يا سير برسي كوكس ، أرجو أن تصغي لقولي بما عرف عنك من سداد الرأي ونفاذ البصيرة ، أتريد مني أن أقبل بتنحية آل مبارك عن حكم الكويت ؟ أأرضى أن أكون أنا الذي يتسلمه ويُقْصَوْن عنه؟ لا ، والله، لن يكون ذلك ! ثم ، أتظن أنك جئت بشيء جديد تدعوني إليه ؟ ان وجود آل مبارك على حكم الكويت معناه أني أنا الحاكم الفعلي لها ، اذ لا فرق بيني وبينهم ، وانهم كأعز أولادي علي ، ولا أفرط فيهم ولا في بلدهم ، وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، بل يتجاوزه إلى أكثر منه ، ووالله ، لو طلبوا إلي أن يقاسموني ما تحت يدي من الملك لأسعدني ذلك وأنجزته وأنا جد سعيد احتفاظا بأخوتي لمبارك ، وإنك لا تنكر علي هذا الوفاء ، ولو كان هذا القول صادرا من غيرك لشكوناه اليك ، فكيف اذا كنت أنت القائل ؟ وأنت تعلم أني أنا وآل مبارك نفس واحدة وبيت واحد ، وما يصيبهم يصيبني خيرا أو شرا » .

ورد السير برسي كوكس قائلاً :

« قد أكون متجاوزا فيما عرضت عليك فاعذرني ، وأصارحك القول في

أمر أكثر واقعية ، تعلم — يا شيخ — ان من سياسة الحكومة البريطانية عدم التفضيل بين أصدقائها أو على الاصح بين حلفائها الا بقدر ما تتوسمه فيهم من الزكانة والكفاية ، واعتقد أنك متفق معي أن الفرق عظيم بين ابن سعود وبين سالم من حيث هذه المزايا ، فابن سعود كبير في كل شيء ، كبير في عقله وإدراكه ، كبير بآرائه ومزاياه ، وأما سالم فلا يدانيه في شيء من ذلك ، ويجعل كل اعتماده علينا ، ويرمي بثقله في كل الملمات على عاتقنا . ومن الخير للحكومة البريطانية وللعرب أن يكون تركيز الاعتماد على ابن سعود في ادارة هذه الأطراف ، وأن يكون سالم وأمثاله تحت حمايته وحكمه ، فيحقق للبلاد المجد والسعادة ، وإن آل الصباح لا يستنكرون استيلاءه على بلادهم بعد أن يتم الاستيلاء بالتدريج » .

ولم يتمالك الشيخ خزعل نفسه وهو يصغي إلى آخر كلامه ، وأدرك أن النية مبيتة على التخلص من سالم وآل صباح ، ولا شك أن ابن سعود أعظم في كل شيء وأقدر ، ولكنه لن يطمع في بلد أحد ، وأن بلده نفسه لن يحكمه اذا كان كارهه ، ولشد ما آلمه أن تفكر الحكومة البريطانية في استبدال غير آل الصباح بهم ، فرد على برسي كوكس بقوله :

« إنك جانبت الصواب في هذا أيضا ، لأن ابن السعود يرفض تسلم الكويت إذا عرضتموه عليه ، ويأبى مثلي تنحية آل الصباح ، وان الكويت ونجد والمحمرة كلها بلد واحد ، وحكامها متحدون يدا واحدة ، ولا يطمع أحدهم في بلد الآخر ، واني أنا وابن السعود متفقان على سياسة واحدة هي المحافظة على بيت مبارك ، وان ابن السعود ينتظر الوقت الذي يظهر فيه عطفه على آل الصباح ، والآن أكثر من أي وقت مضى ، وسيسعى لتوسيع الكويت وإعلاء شأنها ، لأنه سندها في الحاضر والمستقبل كما كان في الماضي ، وانه على استعداد أيضا ليبرهن لكم على صداقته لآل الصباح وحسن نيته نحو الكويت ، وفي الامكان عقد صلح شريف بين سالم وابن السعود ، وان ما بين الطرفين ليس من الأزمات

التي لا سبيل لحلها ، وليس هناك من الأسباب ما يحمل على الظن بأن ابن السعود لا يقبل التفاهم مع الكويت ، وعلى فرض أسوأ الاحتمالات بأن ابن السعود يرفض التفاهم فليس هناك ما يدعو الحكومة البريطانية الى أن تتخلى عن الكويت في أيام محنتها وتترك القيام على رعاية آل مبارك ، وهذا أمر مخالف لما هو معقود بينكم وبينهم من المعاهدات والاتفاقيات .

ومع كل هذا لم يستطع الشيخ خزعل أن يظفر بكلمة طيبة عن سالم ، وأسقط في يده ، وآلمه أن يخفق في وساطته ، وخشي أن يجر إخفاقه إلى كارثة تحل بآل الصباح فأراد أن يبذل محاولة جديدة تحفظ بيت مبارك من السقوط ، فعرض على السير برسي كوكس أن يقوم بالوساطة بين ابن سعود وسالم لعقد صلح شريف بينهما ، وألا يتم أي اتفاق الا بعد عرضه عليه .

ورأى برسي كوكس أن يجامل الشيخ خزعلا فوافق على وساطته بشرط ألا تتطرق مفاوضات الصلح للحدود بين البلدين ، ويترك تعيين الحدود للحكومة البريطانية ، فوافق الشيخ خزعل ، وشكر له ، وغادره وهو مسرور بهذه النتيجة التي انتهى اليها ، وأخبر سالما باتفاقه مع السير برسي كوكس ، وكتب اليه ينصحه بأن يكف عن معاداة ابن سعود ، ويدعوه إلى مصافاته ، فهو خير له من أولئك المفسدين الذين يعكرون ما بينه وبين ابن سعود .

ولان جانب الشيخ سالم ، وخشي أن تودي به خشونته فوافق ، وأُعِد الوفد المسافر للرياض بموافقة المعتمد البريطاني في الكويت والسير برسي كوكس ، وكان من أعضائه: الشيخ جاسب ابن الشيخ خزعل، والشيخ أحمد الجابر الصباح ، وأُعلِم ابن سعود بذلك كله فرحب ايما ترحيب .

وغادر الوفد الكويت إلى نجد في يوم الثلاثاء ٢٩ جمادي الأولى ١٣٣٩ (٨ فبراير ١٩٢١) عن طريق الكويت فالأحساء ، وفي يوم الثلاثاء ٢١ جمادي

الآخرة ١٣٣٩ استقبله الأمير فيصل بن عبد العزيز نائبا عن أبيه ، ومضى مع أعضائه إلى « حفر العج » حيث كان ابن سعود .

وتم بين الوفد وابن سعود الاجتماع الأول ، فرحب بهم أجمل ترحيب ، ثم وجه حديثه إلى الشيخ جاسب ابن الشيخ خزعل وقال : إني الآن مستعد للنزول عن كل حق لي ولو أدى إلى أن أتخلى عن الرياض إكراما لقدومك وتحقيقا لرغبة والدك .

ثم كان الاجتماع الآخر ، وجرت المفاوضات في جو أخوي ، وانطوت مسافات الخلف ، وكان موقف ابن سعود موقفا آية في الكرم والنبل ، فقد ترك للشيخ جاسب والشيخ أحمد الجابر الصباح ومن معهما أن يضعوا الشروط التي ترضي الكويت ، واجتمع الوفد بالأمير فيصل بن عبد العزيز ووضعوا مواد الاتفاق ومضوا بالعقد إلى ابن سعود ، فأعلمهم أنه موافق عليه دون أن يقرأه ما دام وفد الكويت هو الذي وضعه ورضي عنه ، فتركوا له العقد ومضوا إلى سرادقاتهم على موعد اللقاء ضحى الغد الموافق يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٣٩ (٣ مارس ١٩٢١) للتوقيع عليه .

وفي الضحى كان الوفد الكويتي في السرادق المعد للشيخ جاسب ، وإذا أحدهم يرى ابن سعود مقبلا اليه ، فيهرعون إلى استقباله ، وبعد أن أخذ مجلسه بينهم عزاهم وبخاصة الشيخ أحمد الجابر الصباح بوفاة الشيخ سالم بعد مغرب يوم الأربعاء ١٥ جمادى الآخرة ١٣٣٩ (٢٣ فبراير ١٩٢١) .

ثم هنأ ابن سعود الشيخ أحمد الجابر الصباح بتوليه الحكم ، وقال له : «أما وأن الأمر قد صار إليك فان كل ما بيننا قد تغير ، فلا حاجة إلى الاتفاقية والشروط والحذر والاحتياط ، وأنا أقول في صدق وإخلاص لا يخفيان عليك : لك السلطة على جميع رعاياي ، ولك الحرية أن تعمل ما تشاء ، ولك عهد الله

وميثاقه بذلك علي ، وها هي ذي الشروط أمزقها ولا ضرورة لها ، فالأمر لك في بلدي » .

وتأكيدا من ابن سعود لما قاله أمر أحد رجاله بالشخوص إلى الكويت بادية وحاضرة واعلان عهده في ربوعها وأسواقها ، وطلب إلى الشيخ أحمد الجابر الصباح أن يرسل أحد رجاله في صحبة رسوله لاداء المهمة التي كلف بها .

وأرسل إلى الاخوان الذين معه وفيهم من حضروا معركة الحضن وحرب الجهرة مناديه ينادي فيهم على مشهد من الشيخ أحمد الجابر ، إن نجدا والكويت بلد واحد ، وان أسواقهما مفتوحة للجميع ، ولا مانع من السفر إلى الكويت لمن يشاء ، وحذر الاخوان وكل رعاياه من التعدي على أي أحد ينتسب إلى آل الصباح ، وتوعد المعتدي مهما كان شأنه بأقصى العقوبة .

وسر الشيخ أحمد الجابر من كرم ابن سعود وموقفه الذي لا يقفه غيره ، وكما كان موت الشيخ مبارك الصباح سببا في تغيير موقف ابن سعود الذي كان قد صمم العزم على غزو الكويت تأديبا لمبارك فإن موت الشيخ سالم غير موقفه أيضا ، فعفا ابن سعود وصفح ، ومد كلتا يديه إلى شيخ الكويت الجديد الذي امتلأ قلبه سرورا ، وكتب رسالة إلى الشيخ خزعل الذي كان أصل السبب الذي أفضى إلى كل هذا التوفيق .

ورسالة الشيخ أحمد تحمل تاريخ **٢٣** جمادى الآخرة **١٣٣٩** ، وهذا نصها :

« حضرة حميد السجايا والشيم عالي الهمم الأجل الافخم سيدي العم سردار أقدس الشيخ خزعل خان المفخم دام وجوده واقباله آمين

« بعد تقديم السلام وواجب الاحترام لمقامكم السامي ، والسؤال عن صحة وجودكم المسعود نسأل الله أنكم في صحة وسرور ، بعده بلغنا خبر انتقال

المرحوم العم الشيخ سالم إلى رحمة الله في أجله الموعود ونحن عند الامام ، فهذا شأن الدنيا ، كل من عليها فان ، نسأل الله أن يتغمده في رحمته ويسكنه فسيح جنته ، ولعلمنا بمودتكم إلى هذه العائلة حررنا هذه العريظة (العريضة) بداعي التعزية ، نسأل الله ألا يكدر لكم خاطر[1] ، ونحن ما فقدنا احد[1] ودولتكم في الوجود ، نسأل الله أن يديمكم للجميع ، وأن يوفقنا لرضاء الباري جل شأنه ، وإلى حسن خدمتكم ، هذا والرجاء دوام محبتكم مع إبلاغ سلامنا الأخ الشيخ عبد الحميد وإخوانه ، ومنا الأخ الشيخ جاسب يقبل أياديكم ، والمولى يحفظكم » .

وبعد هذه الرسالة « ملحق » بذيلها هذا نصه :

« سيدي ، دام الله وجوده

« من جهة الصلح تذاكرنا قبل ورود خبر وفاة المرحوم الشيخ سالم ، وأخرنا المذاكرة إلى يوم الخميس ٢٣ شهر جماد الثاني ١٣٣٩ وفي صباح اليوم المعين ورد لنا كتاب من قنصل البحرين يخبر عن وفاة المرحوم ، نحن جالسين في صيوان الأخ الشيخ جاسب واذا في الامام بنفسه مقبل علينا وأخبرنا عن وفاة المرحوم ، وفي الوقت الذي أخبرنا تم الصلح بين الطرفين على موجب ما تحبون ، والامام أمر في ارسال معتمد إلى الاحساء والتمطيف وجميع البادية يعرفهم بخصوص الصلح ، وكذلك أمر أحد خدامه يتوجه لبلدكم الكويت مع أحد من خدامك ، والأمور من فضل الله على ما تحبون . وان شاء الله بكرة نهار الجمعة متوجهين إلى الاحساء ، وبوصولنا البحرين إن شاء الله نتيل[2] ، الله يديم لنا وجودكم » .

---

(١) كذا في الأصل .

(٢) نتيل ، بلهجة نجد والكويت وبواديهما بمعنى نبرق .

ولم يحدث بعد ذلك سوء تفاهم ذو خطر على العلاقات النجدية الكويتية ، بل صارت العلاقات بين البلدين حسنة إلى حد بعيد ، وعينت الحدود بينهما ، وكان عبد العزيز صادقا في كلامه ، وفيا بعهوده ومواثيقه ، فكان يرعى الكويت ويغار عليها ، وينظر إلى آل الصباح نظره إلى آل سعود .

بطلان يصطرعان

كان آل سعود هم الحكام في نجد كلها ، وآل الرشيد عمالا لهم ، وأول من تولى من هؤلاء - كما ذكرنا - عبد الله بن علي بن رشيد ، ولاه الامام فيصل امارة حائل سنة ١٢٤٦ هـ ، ولانتسابهم إلى رشيد هذا عرفوا بآل رشيد ، ولقد شتهروا بالقوة والبطولة والكرم والشجاعة ، وبقوا عمالا لابن سعود ، ثم خرجوا عليهم ، وانتزعوا السيادة منهم ، وأصبحوا بعدها حكام نجد كلها ، شمالها وجنوبها ، حائلها وعارضها وقصيمها ، وبذلك دان لهم قلب جزيرة العرب ، وامتد سلطانهم إلى سنة ١٣٤١ هـ .

وبدت في أسرة الرشيد ظاهرة غريبة هي قطع الرحم ، فقد وضعوا السيف في أفراد أسرتهم طيلة زمن الحكم ، لا يتورع الاخ عن قتل أخيه او أبناء أخيه .

وعندما نهض ابن سعود واحتل الرياض للمرة الثانية وأخذ يسترد مجد آبائه المسلوب كان عبد العزيز بن متعب حاكم نجد كلها ، وكان فارسا شجاعا غلابا عارما ، فيه قوة الاعصار ، وصلابة الصخر ، وجبروت المردة ، وعناد النمر ، وبطش الأسد ، وتروى له أقاصيص لا يكاد يصدقها العقل لغرابتها

كأنها خيال أو أسطورة تعيد إلى الاذهان ذكرى أبطال الالياذة والاوذيسا ، أو أبطال ألف ليلة وليلة ، تدل على شجاعته الفذة النادرة .

وكان إلى جانب كل ذلك مغرورا متكبرا متهورا سيء السياسة ، فائل الرأي ، فقيد الزكانة ، يريد أن يقضي كل حاجاته بالقوة والعنف ، ولهذا قادته قوته العمياء إلى هاوية تردى فيها سريعا ، ولو ساوى جوده وشجاعته وقوته ما كان لدى خصمه ابن سعود من رجاحة العقل وسماحة النفس وصحة الملكات وسداد الرأي لكان في حربه وقتاله من الغالبين ، ولكان له في المحافل السياسية الدولية شأن مذكور كما لخصمه الآن .

كان في خيمته بالصحراء وأمامه شيوخ البدو يكلمهم في الغزو وأمره والاستعداد له وشعر بلذع في ظهره فلم يتحرك ، بل تجلد ، ولما انصرف عنه القوم دعا بعبده وكشف عن ظهره ، ففر الخادم خوفا ، فمد ابن متعب يده وأمسك بعقرب كبيرة ورمى بها خارج الخيمة وطلب رمادا حارا ذره على موضع اللسب ، وانتهى كل شيء ! .

وتدل هذه الحادثة على صلفه وجلده وعرامه، فلم يطق أن يظهر أمام قومه وقادة جنده بمظهر ظن فيه ضعفا وما به شيء منه ، ولم يبـــال السم ولم يعن باخراجه ، كأنه خشي أن يسقط من حالق ، والواقع أنه لا شيء مما يظن ابن متعب ، ولكنه مولع بالقوة ناقم على الضعف والضعفاء .

وسيرى القارىء في هذا الفصل بعض حوادثه التي تصرخ بتمجيد القوة وتزرى بالضعف ، فهو أول ما تولى بعث إلى المدن والقرى يعلم أهلها بتوليه ، ويذكر لهم متوعدا مهددا انه ليس كمن يعهدون من الامراء ، وأنه لا يرحم الصغير ولا يوقر الكبير ، وسوف يحصد من تحدثه نفسه بسوء حصدا ، وكل من سولت له نفسه الظهور ببدعة جديدة فلا جزاء له الا الموت العاجل ، وليس له إلا

وهذه الكلمة وحدها كافية للدلالة على نفس هذا الجبار المريد ، فالحافر كناية عن الخيل ، والخيل أداة الحرب والقتال ، وصنع الكافر : السلاح والنار ، وهما أداة الفتك والتدمير ! ولا يهتف باسم القوة هذا الهتاف الصارخ الا من كان يحبها حب تقديس .

وكلتا هاتين القوتين : القوة الطاغية المتوثبة والعظمة المنتفخة الملتهبة تميز صاحبها وتجعله معلما بينا مرهوبا ، وابن متعب بطبيعته متميز عن غيره بشخصيته الفذة الواضحة المعالم البينة الحدود ، فكل عمل له أو كلام أو خليقة تتفجر بالعنف والشدة هذا التفجر الشديد هي من ابن متعب بدون حاجة إلى دليل أو مشير ، لأنها تدل عليه ولو لم يذكر اسمه ، فهي تبينه متى أضيفت اليها البيئة والجنس وبعض المعالم التي تميزه .

وسواء أضيفت أو لم تضف فلن تنمحي شخصيته في أخرى ولو تشابهت الشخصيات التي تتميز بالقوة والجبروت ، فهنالك فوارق عظيمة ودقيقة لا يمكن أن تخفى ، وان خفيت على غير ذوي البصائر النافذة فالدليل اليها هذا التطبيل والتهويل والارعاد .

وبنيان ابن متعب — كما يقول واصفوه — بنيان مكين كأنه قطعة من حديد ، وهو أصبح أزهر (١) ، بعيد ما بين الجنبين ، شثن (٢) الكفين ، قوي الساعد ، مفتول العضل مستدقه ، أشم الانف ، أشدق (٣) ، أدعج العينين ، ربعة ، ذو لحية خفيفة تزينه وتزيد في وضاءة وجهه ، وشارب ينتهي طرفاه بذؤابة تشبه السيف أو الخنجر ، كثير الطيب ، نظيف الملابس ، يغلو في انتقائها ، فصيح القول ، جهوري الصوت ، كثير الغضب ، مقطب الوجه ، مرهوب النظرة .

---

(١) الأزهر : المشرق الوجه .
(٢) الشثن : الخشن .
(٣) الاشدق : البليغ المفوه .

« الحافر وصنع الكافر » — على حد تعبيره — وما صنع الكافر غير السلاح والنار ، والحافر كناية عن الخيل .

وما كاد هذا التهديد والوعيد والارعاد يصل اليهم حتى فهموا نفسية الوالي الجديد وصلفه وغروره بقوته وادلاله بشجاعته وعرامه ، وأنه لا يتأخر عن أخذهم بالشدة والعنف ، وأيقنوا أن ما قال سيتبعه العمل .

طبيعي وقد أذاع ابن الرشيد في الامصار بلاغه أن يحتاط الناس ويتجنبوا الشبهات وحماها ، ويحذروا أتفه الامور التي تمكنه منهم لئلا يقعوا في يديه فيحاسبهم حسابا عسيرا دقيقا .

وأعاد ببلاغه الشديد اللهجة وخطابه المتضرم لهبا إلى الاذهان ذكرى الحجاج ابن يوسف الثقفي ، بل أن هذا الجبار القاسي وابن رشيد لينتظمان في سلك ولا يختلفان في مجال استعمال القوة والظلم والجبروت ، وإن كان الحجاج لا ندّ له في الظلم .

وان بنيان ابن متعب المكين النابض بالحيوية والقوة ما كان ليستريح إلى الهدوء والسكينة والاناة والسلام ، فهو خدن كفاح وجلاد وصدام ، وبغير هذا لن تطيب له الحياة ، ولن يحلو في فمه مذاقها .

وقد بلغت قوته الجسمية مبلغا عظيما ، وزاد في تضخيمها مزاجه العصبي الثائر ومرور الأيام السود التي تثير فيه الغضب وتشعله ايما اشعال .

ومفتاح شخصية ابن متعب القوة العارمة التي اليها مرد كل صفاته وأعماله ، فكل صفة خِلْقية أو خُلُقية فيه ، وكل عمل من أعماله ، وكل كلمة من كلماته دليل على ذلك المفتاح ، وإن هذا المفتاح يرينا صفاته كلها التي يمكن ردها إلى القوة العارمة المجنونة .

فمن كلماته : « الحافر وصنع الكافر » وهو ما أعده لكل امرىء ظُن به ،

وهذه صفات الرجل القوي المكين ، تدل على أنه كان يرى نفسه أعظم الرجال وأقواهم ، يُدِل عليهم بأخلاقه العارمة ، ويتطاول عليهم بصفاته القوية ، بالبنيان المكين ، بالجمال الغضبان – ان صح أن الجمال يغضب – بالكرم والسخاء ، بالملابس النظيفة الغالية ، بالعقال المقصب اللامع .

فنظافة الملابس ليست ذات بال إلى الحد الذي تكون كل هم صاحبها ، ولكنها عند ابن متعب لها مدلولها الخاص وذات بال ألف مرة ، لأنها مظهر من مظاهر الوفرة والقوة والغنى والعظمة ، وليس في دولته من يسعه أن يكون مثله حتى في هذه الناحية ، اذ لا يطيق غيره هذا التكلف .

وليست الملابس الغالية عنده للزينة أو الحلية ولكنها للظهور والتعاظم والسموق ، فهي هنا – كما قلنا – مظهر الوفرة والغنى والقوة ، وما الوفرة والغنى الا ضرب من القوة .

وشاربه المنتهي طرفاه بذؤابتين يدل على أن كل شيء فيه ينبوع قوة أو رمز على عنف ، فذوقه لم يعجبه الا أن ينتهي طرفا شاربه بما يشبه ذؤابة السيف ، وذؤابة السيف أحد رموز القوة ، وهو أحب أن يبدو شاربه هكذا ليدل كل ما فيه أو له علاقة به على القوة .

وبالجملة فبنيان ابن متعب مكين مرصوص ، وعضلاته قوية شديدة ، وحركته خفيفة بالرغم من امتلاء جسده امتلاء لا افراط فيه ، وكل ما فيه ينبض بالحياة والقوة نبضا عنيفا ، ولكن ذهبت قواه سدى من غير جدوى ، كالعاصفة تدمر ولا تعمر .

وادلاله بالوفرة والغنى أركبه متن الغرور حتى استصغر شأن خصومه ولم يعبأ بهم ولم يزنهم وزنا صحيحا ، لأنه كان يعتقد ان النصر والغلبة له ، وأن كل قوة في جزيرة العرب مهما بلغت لا يمكن أن تقهره ، فنام عنهم وأعطاهم

الفرص حتى قويت سواعدهم وغلبوه ، ولو كان ذا زكانة ما استخف بخصومه مهما كانوا من الضآلة والهوان والضعف .

فابن سعود رجح عليه بالرأي والحيلة والدهاء والاعتصام بربه ودينه ، وبالسخاء والكرم والاريحية والتواضع وحسن السريرة ولين العريكة والبعد عن الغرور والحماقة والكبرياء ، وهي صفات حرم ابن متعب أكثرها ، وكان نصيب عدوه منها نصيبا موفورا ، وابن سعود متواضع يستشير من دونه ، وصلته بمن معه صلة حب وولاء ، وابن متعب متكبر مغرور مستبد ، ومن معه كالعبيد المسخرين للسيد البطاش ، وابن سعود يستعظم من عدوه أصغر القوى فيستعد له استعدادا ، وابن متعب يستهين بعدوه ولو كان معه القوى كلها ، فمن ذلك : ان ابن سعود احتل الرياض ذلك الاحتلال الغريب المدهش وابن الرشيد في الحفر — حيث أتاه نبأ خصمه — هادىء مطمئن ، وكل ما عمل أن قال في صلف ومخيلة : لو نفضت عباءتي لتطاير ابن سعود فرقا ، من هذا حتى نهتم به ؟! أرنبة في جحرها وأهلها مقيمون ! .

ولكن ابن سعود لم يكن « أرنبة في جحر ... » وانما كان أسدا في عرين يلتف به الاسود والاشبال .

ثم بعث ابن متعب عديدا من السرايا لقتال عبد العزيز بن سعود واحتلال الرياض ، فآبت مكسورة ممزقة شر تمزيق .

يرى أن جيشه ينكسر ، ويرى أن قوته بدأت تضعف حتى أنه لم يستطع اصطياد من سماه « أرنبة في جحر » ثم يفكر في توسيع ملكه بأن يستعمر الكويت و يدخلها تحت يده .

لماذا ؟ لأنه انتصر على حاكمها مبارك الصباح انتصارا باهرا في وقعة الصريف ، وأنزل به وبجنده الخسائر التي لا تقدر لكثرتها وفدحها ، وقد نكل — ابن

متعب — بمن ظفر ، وقتل كثيرا من الناس الذين أظهروا الولاء لابن سعود ، واقتفى آثار المنهزمين ، ووضع فيهم « صنع الكافر » وترك جثث القتلى الذين أخمدهم الأنفاس على أديم الغبراء، يدحرجها كالكرة سموم الصحراء .

فلا غرو وقد انتصر هذا النصر المؤزر على حاكم الكويت ان يطمع في احتلال بلاده وضمها إلى ممتلكاته ، ولكن الاقدام على احتلال قطر كالكويت فيه العدة والعدد ، وحاكمه غني جد الغنى يحتاج إلى قوات كبيرة تضمن له الفوز التام ، فارتأى أن يكتب إلى الترك — وهو يد من أيديهم بجزيرة العرب — أن يعينوه بالمال والعتاد ، لعلمه أنهم لن يخيبوا ظنه .

وأقام بالحفر مدة يتبادل خلالها الرسائل مع الترك في هذا الشأن متعلقا بخيوط الاحلام غير ناظر إلى ابن سعود وأعماله ، رجاة أن يتم أمر الكويت بالاحتلال فيتوجه بعدئذ إلى هذا الذي تجرأ فاحتل الرياض وقتل أميرها ، ولا يحتاج في ارجاعها تحت حوزته الا إلى أن ينفض عباءته فيتطاير المحتل وجيوشه ، ثم يدخل البلدة ظافرا وقد دانت له نجد والكويت ! .

وبينما كان ابن متعب غارقا في أحلامه أخذ ابن سعود يغزو القبائل ويشن عليها الغارات وينتزع المدن حتى تمكن من احتلال الحوطة والحرج والافلاج والحريق ووادي الدواسر ، وتمكن من الاستيلاء على القرى الواقعة في هذه المقاطعات ، وقام دعاته ببث الدعاية له والهتاف باسمه في بلدان نجد الشمالية (حائل والقصيم) فكتبت اليه سرا تعلن الطاعة والانضمام اليه متى جاءها ، حتى اذا صحا ابن متعب من أحلامه ألفى ممتلكاته تحت يد عدوه ، ووجد أن القبائل قد انضمت إلى خصمه ووالته ، فندم حين لا ينفع الندم ! .

مثل ابن متعب في موقفه وأمانيه لاحتلال الكويت ، القطر البعيد عنه ، القوي بما فيه من المعدات والذخائر ، والمحمي من الانجليز ، في حين احتلال

خصمه نصف ممتلكاته وأخذه في أسباب احتلال النصف الآخر كمثل جحا الذي باع نصف داره ثم باع نصفها الآخر ليشتري النصف الأول ، حتى تكون الدار كلها خالصة له من دون الناس .

كذلك ابن متعب ترك ما تحت يده يفلت منه شيئا فشيئا ليضم الكويت إلى ممتلكاته ! ! ولم ين في بعث الرسائل إلى الترك يطلب منهم العون ، ويرجو أن يكونوا سنده في الملمات ، ولكن هؤلاء لم يجيبوا الا بالمطال والتسويف ، واكتفوا بوعده .

ومكث ابن متعب ينتظر انجاز الوعد والحنق ينفجر في صدره ، فمناجزه ابن سعود يمتد سلطانه شمالا وجنوبا ، وتملكه اليأس القاتم فمضى إلى حائل يجمع الجيوش لحرب عدوه الذي استهان به في الأول وزعم أنه « أرنبة في جحرها وأهلها مقيمون » وزعم أن عباءته اذا انتفضت أطرافها طار في الهواء .

منعه ذلك العدو الذي استهان به الرقاد ، وبدأ يحسب له ألف حساب ، وهذا جزاء من يغتر بقوته ويستهين بعدوه .

وغادر ابن متعب الحفر متجها نحو حائل يجمع الجيوش الجرارة ليقضي على هذا المنافس الذي استشرى داؤه واستفحل شره ، ولكنه لم يدخلها ، لأنه أقسم على نفسه بأن حائل حرام عليه أو يقضي على ابن سعود وأتباعه والشرذمة التي اتبعته على ضلال ! .

ويسُر له جمع الجيوش فأوفض بها إلى الحفر يقطع الميرة والمدد عن الرياض ، لأنه لم ينجح في حصارها ، وأخفق في الالتحام بعدوه .

لكن ابن سعود — وهو الحاذق العبقري — رأى ان الاصوب والاسدّ مواجهة ابن متعب للقتال وتصفية الحساب ، فاذا تم له القضاء عليه ضمن لنفسه السيادة

واتيان القبائل خاضعة فأخذ في التجهز له ، وبعد أن رتب الامور ونظمها خرج بجيشه ونزل « الخرج » وعسكر بها ، وعمد إلى الحيلة والمكيدة ، فأعلن أنه لا طاقة له بحرب — الآن — وانحدر إلى الجنوب كالهارب الوجل ، لأنه يعلم أن ابن الرشيد ضعيف السياسة والرأي ، وسيقصد الرياض اذا سمع نبأ هربه منتهزا فرصة غيابه وفراره ، ليسهل عليه أخذ عدوه بغتة .

ولقد صدق الواقع ظن ابن سعود ، فما كان من ابن الرشيد — بعد أن بلغه انحدار خصمه إلى الجنوب — الا الايفاض إلى الرياض ، غير أنه آثر النزول بموضع يسمى « بنبان » بينه وبين الرياض ستة فراسخ يتأهب لمهاجمتها ، وأصدر الأوامر اللازمة إلى عسكره ورتب المدفعية والمشاة والركبان والهجانة ، وبينا هو منهمك في الترتيب والاستعداد وصلت أخباره إلى ابن سعود نقلها اليه جواسيسه المنبثون في كل مكان .

فأغذ ابن سعود السير ليلتحم بخصمه واضطره إلى مغادرة بنبان والرجوع إلى الحفر ، ولم يقم بالحفر بل مضى مغيرا على القبائل الكويتية ، واستطاع أن يخضع بعضها ويأخذ أموالها ، ثم توجه إلى الكويت لاحتلالها بعد أن يئس من الرياض ، فبعث مبارك الصباح إلى ابن سعود يطلب منه النجدة والعون على — عدو الطرفين — ابن متعب ، فخرج ابن سعود في عشرة آلاف محارب ميمما الكويت ، والتقى مباركا يقود جيشا جرارا ، واتحد الجيشان ومشيا يقصدان ابن متعب ، ولكن هذا تركهم وترك الكويت وتوجه تلقاء الرياض منتهزا الفرصة وهاجمها ، وكان بها الامام عبد الرحمن — والد عبد العزيز — فخف بأهلها وثبتوا للهاجم وقاتلوه قتالا شديدا اضطره إلى الرجوع .

وسمع ابن سعود بالخبر فأسرع في العود من الكويت مصطحبا معه بقية أسرته ، متصلا بالقبائل التي تصادفه في طريقه فتدخل في طاعته ، وما تكاد تسمع بمروره من أرضها الا وتسرع اليه تستقبله في حفاوة وتنضم إلى جيوشه ،

فما وصل بلده الا بعد أن دانت له نجد الجنوبية كلها و بعض بلاد نجد الشمالية .

واستجم القوى في الرياض ثم اتجه صوب شمال نجد يريد انتزاع ما تحت يد ابن متعب من بلاد نجد الشمالية ، فاشتبك البطلان في قتال عنيف كتب النصر فيها للأمير السعودي حيث استولى على عنيزة وبريدة وأطرافهما والقرى التي في ضواحيهما ، وبعد ذلك استولى على القصيم كله ، وبذلك دخلت نجد — ما عدا حائل وجبل شَمّر — تحت سلطته .

وبقي ابن متعب بجيشه المثخن جراحة — وقد فني معظمه وتفرق بعضه في أقاصي الشمال — قرب حائل ولم يدخلها برا بيمينه ، ودأب يجمع ما يقدر على جمعه من الجيوش من قبيلة شمر وغيرها ليقامر بآخر سهم في كنانته ، ويستعد لوقعة البكيرية وما يتبعها ، فبعث إلى الترك يستمدهم فأمدوه بأحد عشر طابورا وأربعة عشر مدفعا من طراز ألماني جيد وأسلحة كثيرة وذخائر حربية لا عدد لها ومؤنا ونقودا كثيرة مختلفة .

واستقبل ابن متعب الجيوش التركية استقبالا فخما ، وطفر فؤاده من السرور وقوي ساعده ، واجتمعت اليه القبائل وتهافتت عليه العربان طمعا في الغنيمة ، وسار بعسكره الكثيف كالرمل في يلب [1] الحديد يسيلون في الصحراء ، ونزل بقرية من قرى القصيم — بين بريدة والرس — تسمى « البكيرية » .

نزل البكيرية وهو أشد ما يكون فرحا وعافية ، ونظر إلى هذا العدد الضخم وقد استكمل العدة والسلاح ، ونظر إلى كثرة الذخائر والمؤن فأنغض [2] برأسه معجبا مغرورا ، يتبادل الحديث مع كبار رجاله ويقول فخورا : ان هذه القوى التي نقودها ستمكننا من ابن سعود ، وامساكه بتلابيبه .

---

(١) يلب الحديد : خالص الحديد .
(٢) انغض : حرك .

ونزل ابن متعب البكيرية معجبا بكثرة جنده ومعداته الحربية الفنية التي أمده الترك بها حالما بالنصر المؤزر يتراءى له كالسراب ، يبني صروح الخيال والأوهام ، فيملأ السرور قلبه ويفيض سناه على وجهه ويبتسم ابتسامة الظفر يحرزه قريبا .

أما ابن سعود فرجل واقعي ، ولئن كان يعتقد أن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، فمن المنطق المعقول أن يطلبه باذلا فيه أقصى الجهد وأضخمه ، مستعدا بالقوة وبرباط الخيل يرهب عدوه ، فلن يكون النصر حليف المتواكل المغرور ، وأسرع إلى تجنيد الجيش ، واستطاع بما وهب من الرزانة والمكانة والاجلال في النفوس أن يجمع قوة تستطيع أن تنازل قوى الخصم ، بل ما كاد يذيع في الناس مقصده حتى امتلأ السهل والجبل من المتطوعين ، منهم من يرى الواجب المقدس يدعوه فيلبي النداء .

أليس ابن سعود يريد قتال ابن متعب الجبار الطاغية الذي شرد بهم وأغطش عليهم النهار ووتر خيارهم وظلم فيهم وبغى ؟ بلى ، لهم ثأر عنده ، وكلهم موتور حردان ، والعربي اذا تحركت في نفسه عاطفة الأخذ بالثأر نسي كل شيء ، وهذه فرصة المنى والربح لن تتاح له دائما ، افتُتْرَك وقد أتاحها ابن سعود ؟.

كلا ، فقمين بهم أن ينهضوا مبادرين إلى الانضواء تحت لوائه أخذا بالثأر ، وارواء لغريزته العطشى إلى الدماء ! وهم بعد ليسوا ظالمين ، انما هو الحق ينصرونه ويعلون شأنه .

وخلال أيام معدودات اجتمع لدى ابن سعود قوة كبيرة توجه بها الى ملاقاة العدو في «البكيرية» غرة ربيع الآخر سنة ١٣٢٢ هـ وتقاتل الفريقان قتالا عنيفا ، وتفرق معظمهما وثبت البعض ثباتا ، وسالت الدماء القانية على الارض سيلا ، فلا

يرى المرء الا رؤوساً تتطاير عن جسومها ، والكماة من الجانبين يقعون فريسة الحسام ، وإلا السيوف البواتر يبدو لمعانها كالبروق، والا تصهال الخيول العربية العتاق ووغي الابطال كأنهما الصواعق والرعود ، وانجلت الموقعة عن تساوي كفتي المتحاربين في خسارة النفوس والنشب ، ووقعت الهزيمة عليهما معا ، بيد أن الرجحان بدا يسيرا طفيفا في كفة ابن سعود ! .

طبيعي ، وقد انكسر الجيشان أن يقفا عن القتال ريثما يجبران الكسر ، ويكملان النقص ، فمضى ابن سعود الى عنيزة واستقبل بها استقبالا مهيبا رائعا ، وثمة أتته الجموع الكثيرة من قبائل عتيبة ومطير وبواديها وحواضرها وبلغت بضعة آلاف الابطال ، وبايعته على النصرة حتى اليقين .

ودعا أهل عنيزة وبريدة يجدد معهم العهد والولاء ، فعاهدوه على النصر والتمكين أو يحكم الله ، ثم غادرهما الى حيث ينزل خصمه ، وأتى البكيرية فلم يجده ، وألفى بها المعسكر والذخائر والمؤن ! ! .

أما ابن الرشيد فقد مضى الى «الخبراء» وهي تحت سلطة ابن سعود يريد الاستيلاء عليها لقربها منه ، وضيق الخناق وحاصرها حصارا شديدا ، وسلط عليها المدافع الضخمة ، وأمطرها وابلا من الرصاص والقنابل ، ولكن أهلها جلدوا في الدفاع واستماتوا في الذود عن أنفسهم وعن مدينتهم ، موقنين أن ابن الرشيد متى فاز بهم قتلهم صبرا ، واذا سلموا فالذل لا شك نازل بهم ، وسيقتلون وتسبى نساؤهم وذراريهم وأموالهم ، فالرأي أن يموتوا أعزاء كراما تحت ظل القنا وخفق البنود ، فالموت تحت ظلال السيف خير من الحياة فوق بساط الذل والمهانة ، وأيقنوا أن ابن سعود لا بد آت الى نصرتهم فثبتوا أمام العدو .

وبينا ابن الرشيد يمني نفسه بالخبراء وأن فتحها أدنى اليه من شراك نعله ترامى اليه نبأ قدوم ابن سعود بجيش عظيم الى البكيرية ومهاجمته اياها وبها كل حياته

التي إن قضي عليها فلا بد أن يفقد أنفاسه الاخيرة ، بها الجيش ! وبها المعدات ، وبها المدد والميرة اللذان وصلاه من الترك ، فبعث سلطان بن حمود الرشيد علـــى رأس سرية وأمره بأن يغذّ السير ، وألا يرتاح الا بالبكيرية ، ويثبت لابن سعود ويجادله ، والتقى الجيشان للمرة الثانية في هذا الميدان وأبديا من القوة والاستماتة والبأس ما يفوق الوصف ، وأخيراً اندحر سلطان وجيشه شر اندحار ، ولم يستطع الثبات أمام رصاص عدوه وجلاده وصدماته ففر لا يلوى على شيء !.

ودخل ابن سعود البكيرية ظافرا منصورا واستولى عليها ، وكانت بها حامية لابن الرشيد وضع فيها السيف فأفنى جلهم ونجا من نجا بنفسه ولم تبد القرية مقاومة لهذا الفاتح الجديد ، بل استقبله وخرج اليه أهلها — وهم كثير العدد — وأبدوا الخضوع له ، وذكروا له أنهم كانوا ينتظرون هذه الساعة السعيدة اذ يمتد عليهم ظل العدل والطمأنينة الوارف لينعموا بالحياة والنعمة بعد مذاق العلقم المر !.

ثم ترك ابن سعود البكيرية وتتبع بجيشه المنصور فلول المنهزمين الذين لم يقفهم سوى معسكر ابن الرشيد في الخبراء ، وهجم على الجميـــع بخيله ورجله وشد عليهم شدة رجل واحد ، فانهزم ابن الرشيد وتضعضع جنده وفر تاركا الخبراء وعلى ميدانها قتلاه وأسراه مقرنين في الاصفاد ، وقصد مدينة الرس فنزل في جنوبها بموضع يسمى « الشنانة » وأسرع الى محاصرتها بغية الاستيلاء عليها ، وعمل كل ما في وسعه لكي يحتمي بها ويتقي هجمات خصمه ، ولكن محاولاته الكثيرة ذهبت ادراج الرياح ، وفي النهاية أصلاها مدافعه ورشاشاته وشدد عليها ، والمدينة تزداد بطولة وقوة وثورة وعنادا ، وأقسمت ألا تفتح بابها وفيها رجل ، وأخذت تقاتل في صبر وعناد عجيبين ، ولما رأت أن أميرها — من قبل ابن سعود — قتل جنت جنونـــا ووقفت في وجه العدو كالطود لا يزلزله شيء ، وآثرت الفناء المطبق على التسليم ، وفاقت الرس في دفاعها الخبراء .

وأسرع ابن سعود الى الرس ودخلها وتحصن بها ، وتضرم القتال من جديد بين

الفريقين ، ومضت ثلاثة شهور والقتال مستعرة ناره ، مشتدة نائرته ، مستشرية شروره ، والفريقان مستبسلان في القتال والمقاومة لم تنثن قناة أحدهما .

وبينا هما في الحرب أقبل الربيع وهطلت الامطارفاهتزت الارض واشرقت بنور ربها ، وابتسمت نجد وهب صباها العليل يحمل أعطار الشيخ والقيصوم والرند، فحنَّ البدو في الجيشين الى أوطانهم وذكروا أولادهم وأهليهم فملوا الحرب ، لان الربيع زمن الكد والسعي والزرع ، فان شغلوه بالحرب فماذا يقتاتون عندما ينصرف عنهم الربيع وهو الفصل الوحيد الشهير بسخائه ، الفائض جوده .

الربيع أقبل وفي طياته الخير والنعماء أكثر من الاعوام السابقة، وأمد الحرب اللعينة قد طال ، والاوبئة والامراض أخذت تفتك بهم فتكا لا صبر لهم على أهوالها ، ومعظم الجيشين بدو ينتجعون الكلأ ويتتبعون مساقط الغيث ويهللون للربيع ، وأمر معيشتهم وقف عليه ، فهم يريدون المضي الى شؤونهم يسيمون الابل والانغام ويزرعون ، واذا انتهوا منها ومضى هذا الفصل الكريم أتوا يحملون السلاح للقتال في الفصول الاخرى البخيلة بالخصب والنماء .

وشعر ابن سعود بما يدور في جيشه من حديث الربيع والمرعى والحنين الى الاوطان، وبالتذمر يروح ويغدو بين البدو ، فخشي ألا يطاع بسؤالهم ما لا يستطاع ، وأعلن جيشه أنه مصالح ابن الرشيد اذا رضي ليمضي كل الى عمله في هذا الربيع المبسام ، فركضت الفرحة في قلوب البدو المترقبين نهاية الحرب ، وانتظروا نتيجة الصلح بين العاهلين .

ولم يزايل ابن سعود موقفه من الجيش الملتف به ، بل ما زال قائما كالطود الاشم ، وفحص الحضور ثم نادى صديقا له بينهم : يا فهد الرشودي ، فأسرع اليه فهد مجيباً: نعم يا طويل العمر ، فصاح ابن سعود بصوته الجهوري أمام جنده: امض يا فهد الرشودي الى ابن الرشيد وصالحه على أن يرجع كل منا هذا الفصل ،

أو صالحه على ما يريد، فالربيع قد أقبل، وكلا الجيشين فيه بدو يرومون انتجاع الكلأ وفلاحة الارض طلبا للزرع فالحصاد .

قال ذلك ابن سعود أمام الجند تطمينا لهم ، وبعث رسوله الى ابن الرشيـــد مريدا اثارة جيشه من جديد حين يسمع جوابه لعلمه بغرور عدوه وصلفه وعناده ومريدا التقرب من جيش خصمه وبذر الفتنة فيه ، يريهم أنه يعمل لصالحهم أكثر من أميرهم نفسه ، ولعلهم يتململون مـــن معاملة ابن الرشيد ، ولعلهـــم يتمردون !.

مضى فهد الرشودي الى ابن الرشيد وأبدى له ما جاء بـــه من أمر الصلح بينه وبين ابن سعود ، فما كان من ابن متعب الا أن قال في صلف وكبرياء أمام جنده: من يبغى حكم نجد فلا يتضجر! وهل يصالح من بيده قوة الدولة؟ لا والله ، لا صلح قبل أن أضرب بريدة وعنيزة والرياض ضربة لا تنساها مدى الدهر ، وأنتم يا أهل القصيم لا يغرنكم ابن سعود ، لا يغرنكم شاب طائش يبغى الدراهم ليأخذها لامه الفقيرة، والله،لن أدع ابن سعود ورجاله حتى أحصدهم، فهم ربيعنا ، ما أتيت بهذه العدة وهذا العدد لاعود ، اذهب واخبر ابن سعود بأن ليس له عندي جواب غير « الحافر وصنع الكافر » غير هذا السيف ، وهزه في وجه فهد ، فعاد أدراجه مغيظا محنقا يكاد يتفجر مما سمع ، فلو وسعه أن يحمل على ابن الرشيد ويقتله لما تعرد في تلك الساعة ، ووقف بين يدي ابن سعود وافراده يتطلعون ويصغون لما يقول وصاح فهد بأعلى صوته : مضيت الى ابن متعب وكلمته في أمر الصلح فوجدت مثلنـــا معه كمثل الصديان يرجو في السراب ماء ، وفي النار برودة، ليس لكم عند ابن متعب الا الحافر وصنع الكافر، وستكونون أنتم أيها الجند نتاج « ربيعه » قد آن أوان حصدكم ، ومـــا أراه الا كفرعون مصر يقتل رجالكم ويسبى نساءكم ويستعبد شبابكم ان تولى عليكم ، فانظروا ما ترون ، لقد بلغ السيل الزبى ! .

وما كادوا يسمعون كلام فهد حتى ثاروا واستشاطوا غضباً، وسرت الحمية والقوة في نفوسهم ، وتصايحوا مقررين المهاجمة والقتال ، وليضحوا بهذا الربيع في سبيل أوطانهم فهي أعز عليهم من اي شيء ، وتبايعوا على الصبر والموت ، ونهض ابن سعود يرتب جنوده — وهم في غمرات الحماسة والحمية — استعدادا للقضاء على عدوه ، ونهض ابن الرشيد يستعد للرحيل الى حائل نزولا على رغبة قبيلة شمر ، اذ هددته بتركه اذا لم يرحل بعد أن خسر رجاله ونفوذه وحصدتهم الحرب .

ما أضيق تفكير ابن الرشيد وأشد رعونته ! يدع الصلح الشريف الذى ضمن له الرحيل مطمئنا آمنا مرفوع الذرى حين دعي اليه ليرحل رحيل المنهزم ، كان في وسعه — لو قبل الصلح — أن يمضي إلى حائل معززا مكرما مرفوع الرأس ، ويجهز جيشه ويستعد ، ولكنه أضاع الفرصة الى الابد .

ولو كان على شيء من الدهاء والسياسة الرشيدة لكشف حيلة خصمه أو لجنح الى السلم ، ثم يتجهز للقتال من جديد متى رأى جنوده كاملي العدة والعدد ، ولاستطاع أن يحرز شيئا من النصر ويحتفظ بتوازنه ويعوض خسارته الجسيمة ، مما جعل جنود أعدائه يستهينون به ويستخفون ، ويتحمسون للقتال ، وهذه الغلطة أودت بابن الرشيد وبحكومته وبرجاله .

وصل الى ابن سعود نبأ استعداد خصمه للرحيل تحت ستار الظلام الى وجهة غير معروفة اجابة لرغبة قبيلة شمر ، فاستعد ورتب الجند ونظم الصفوف واعطى قواده خطط الحرب وطلب اليهم أن يشدوا على العدو شدة رجل واحد ويحيطوا به ويمطروه وابل الرصاص في عماية الفجر حين يكون بعضه غارقا في النوم وبعضه يتجهز للرحيل ، وبذلك يحال بينه وبين الرحيل ويضطرونه الى القتال ، وامر قواده أن يحاربوا حربا خاطفة لا يدع للعدو مجالا للفرار أو القتال ، وأن يباغتوه ويوقعوا في صفوفه الاضطراب والفوضى .

وما كاد الليل يمضى الا أقله حتى نهض ابن سعود وقواده وجنده يقصدون العدو وهجموا عليه في عماية الصبح وهو غافل سادر ، وحاربوا حربا خاطفة مما أوقع الحيرة والدهشة والاضطراب في صف العدو الذى بادر الى السلاح يذب عن نفسه ، وأطلق بعضه ساقيه للريح هربا ، حتى اذا بزغت ذكاء اشتدت الحرب واستشرى الطعن والكفاح ، ودام القتال الى أفولها ، وقتل من جنود ابن الرشيد عدد غير قليل ، كما ترك في الميدان أسرى وقتلى وأمتعة وذخائر لا تحصى ! وانفصل الفريقان .

لكن ابن الرشيد صمم على الرحيل ، وقبائله قد رحلت وقطعت مسافة بعيدة وبقي — هو — يخادع السعوديين حتى لا يتأثروه وجيشه ، وأمر بنصب الخيام وايقاد النيران كأنه عدل عن الرحيل ، وترك بعض رجاله تضليلا وتمويها ، في حين استعداد جيش الترك للرحيل والفرار ومغادرة الشنانة ، وغادرها ابن الرشيد مغذا في السير ترافقه قوة كبيرة وأتى « الجوعى » وعزم على احتلالها ومهاجمة حامية ابن سعود المعتصمة بقصر ابن عقيل ، وفي الحامية بعض آل سعود ، وقد وردتهم الميرة والمدد ، وتحصنوا كلهم بالقصر ، فسلط ابن الرشيد مدافعه عليه وامطره القنابل والمفرقعات ولم ينل منه شيئاً ، فلم يفت ذلك في عضده ووالى الضرب وقذف القنابل حتى تصدع جانب منه ، فأخلوه الى الجانب الآخر يدافعون ، ويقابلون العدو بالمثل .

أما ابن سعود فما علم برحيل ابن الرشيد حتى هب وأهاب برجاله أن يمسكوا بأيديهم ساعة الظفر فيهجموا على بقايا جند العدو في سواد الليل ، وفعلا حمل كل فرد منهم سلاحه وامتطى الخيالة خيولهم واندفعوا كالسيل وانقضوا كالشهب على الجيش التركي وجيش القبائل وقطعوا عليهم خط الرجعة ، ولكنهم أظهروا الجلد وقاتلوا قتال الجبابرة الابطال .

وانجلت الموقعة عن هزيمة الترك ومن معهم ، ولم يطب لابن سعود المقام ،

بل استعد لتعقب خصمه وانجاد حاميته بالجوعى ، وانهاك خصمه بالمباغتة، غير أن جيشه حارب أياما ولم يأخذ من الراحة ما يعيد اليه ما أنفق من قـــوة ، فكيف يأمرهم بالرحيل والمقام شر أي شر ؟ ان توانيه يعطى ابن الرشيد فــرصة ذهبية ويفوت عليه المباغتة ويخشى أن يحتل الحصن .

لا بد من الرحيل ولو كان ارهاق جيشه ، ونادى بالرحيل ومشى أمام جنوده الى الجوعى ، وخلع نعليه وحملهما بيديه وترك ناقته لغيره يركبها ، وأعلمهم أنـــه مستمر في الزحف غير مبال التعب ، فأضرم في الجيش نار الحمية وطلبوا اليه أن يركب وأنهم معه ولو مشى بهم الى البحر يخوضه ، فأبي الا المشي ، وأدرك الجوعى – وهي تبعد عن الرس سبعة فراسخ – ودخلها في الساعة السابعة ليلا – أي بعد منتصف الليل – ومضى برجالـــه إلى الحصن يستجم القوى .

لم تجد ابن رشيد قنابله التي سلطها على قصر ابن عقيل ، وألفى خصمه قـــد لحق به ولا طاقة له بحربه ، فأمر الجيش بالرحيل ، وقام رجاله يربطون أمتعتهـــم ويحملونها البغال والحمير والجمال ، كل ذلك وابن سعود يرقب حركة خصمه ، فما أمهله غير ساعة وأرسل الى قواده بأن يكونوا متهيئين للمباغتة والهجوم دراكا على العـــدو .

وما وصل ابن الرشيد ومعه الجيش النظامي التركي وادي الرمه الا وخيل السعوديين تمور مور الجراد وتغير عليهم وتطأ بعضهم ، ورأى ابن الرشيد الا مفر من القتال ، فنزل في هذا الوادي وجند الجند واستعد استعدادا عظيما لا مثيل له .

وفي اليوم الثامن عشر من رجب سنة ١٣٢٢ هـ أصبح الجيش السعودي قبالة جيش ابن الرشيد ، والتحمت الحرب بينهما كأشد ما تكون الحرب ، وهـــامات الابطال ورؤوس الكماة غذاؤها ووقودها ، وأبدى الرشيديون شجاعة فائقة وصبروا

وجلدوا ووقفوا دون حياضهم يذودون ، وكاد الظفر يحالفهم ، وكادوا ينتصرون على ابن سعود لولا أن قذف هذا بنفسه ومعه كتيبة من عسكره تتبعه بين أمكنة الاعداء، ورمى نفسه وسط المعمعة ووطىء خيامهم ، وجالت بين ممراتها الخيل ، والسعوديون عليها يضربون يمينا وشمالا حتى تحطمت أسياف معدودات في يد البطل ابن سعود في هجمته القوية ، وهرب جيش ابن الرشيد تاركا كل متاعه وسلاحه يتبعه الجيش التركي النظامي ممعنا في الفرار خوفا من أن يحتنك عن آخره ، وبقي ابن الرشيد يخوض معمعان الحرب الزبون مع أتباعه الشمريين وكلهم يجالد ويقاتل قتال المستميت .

ولما رأى ابن الرشيد نفسه محاطا بالاعداء وكأن الاسياف فوق رأسه ظلة من الغمام ، وأنصاره ممعنون في الهرب لم يجد بدا من أن يولي الادبار منهزما لاحقا بجيشه المهزوم الصديع ، ولم يستطع أن يحتمل معداته الحربية والذخائر والمؤن وينقذها من يد أعدائه .

وخلا الميدان الحربي للسعوديين فوجدوا خيام الاعداء منصوبة كما هي ملأى بالزاد وانواع الاطعمة ، ووجدوا قدورهم على النار قد نضج ما بها ، ودلالهم [1] وأباريقهم على الموقد وبها القهوة والشاي ، والفناجين مصفوفة على الصحون المرمرية كأنهم أعدوها لهم ، فمدوا الموائد وطعموا الطعام واحتسوا القهوة والشاي ، وقضوا ليلتهم يجمعون الاسلاب ، وأمضوا النهار الثاني يجمعون ، وهكذا اشتغلوا بجمع الغنائم والاسلاب عشرة أيام ، فوجدوا ما لا يحصى عدده ، وجدوا مدافع وقنابل وأسلحة ومعدات حربية وصناديق كثيرة مملوءة بالرصاص والنقود والملابس ، ووجدوا من الجمال ألوفا مؤلفة مما دهش له ابن السعود .

رأى هذه الاموال والذخائر والمعدات وكثرتها التي كانت تحت حوزة ابن الرشيد

---

(١) الدلال، جمع دلة بفتح الدال وتشديد اللام المفتوحة: وعاء القهوة بعامية الحجاز ونجد.

ومع هذا يغلب ولديه جيش منظم مدرب أحسن تدريب ، حقا ، ان النصر بيـد الله يؤتيه من يشاء من عباده .

ليس النصر حليف القوة المادية الكبيرة فحسب ، بل حليف النفوس القوية ، بل حليف أقوياء الايمان والعقيدة والمبدأ ، حيث تتحطم أمامها قوى الباطل مهما عظمت ، ان رجل الحق الواحد في وسعه أن يغلب اثنين بأمر من عند الله ، بل في وسعه أن يقابل عشرة ، فصاحب الحق يقاتل الحق بجانبه حتى يهزم الخصم ! .

اشتغل السعوديون عشرة أيام يجمعون ما ترك العدو وعبد العزيز متوجه إلى ربه بقلبه وروحه يشكره على منته الجسام — لا سيما هذا النصر قد أحرزه مع ضعف حيلته وعظم خصمه وقوته — ثم خرج إلى قومه فرأى الاسلاب كالتلال ووجد الجمال قد ملأت الصحراء ، وقسمها جميعاً على رجاله ، فخص كل فارس عشرون بعيرا ومئة وخمسون جنيها ذهبا ، عدا الخيام والقدور والثياب وأكياس الارز والسكر والشاي والبن وغير ذلك مما طمأنهم من جهة معائشهم ، وعوضهم الله ربيعا عاجلا جنوا فيه أطيب الثمرات وأحلاها .

فرق ابن السعود الغنائم والاسلاب ، ولم يؤثر نفسه بشيء منها ، فهو قبيل فتح الرياض ذكر لرجاله أنه أولهم في ميدان القتال والردى وآخرهم في اقتسام الغنائم ، ولا شأن له الا بغنائم النصر والفرح به ، أما غنائم المادة فقد نزل عن حقه ونصيبه فيها لرجاله .

ولقد ألح عليه جيشه أن يستأثر بالنفائس مما غنموا ، فما رضي أن يتناول إبرة منها يخص بها نفسه ، وذكر أن ما أفاه الله عليه وما سيفيء لن يأخذ منه زنة شعرة لنفسه أو لاسرته ، بل كله لرجاله المحاربين جزاء لهم على تضحياتهم وقيامهم معه .

وكذلك كان في جميع غزواته وحروبه ما مكن لنفسه جدّ التمكين في قلوبهم بهذه العفة وهذا الزهد ما جعلهم يكبرونه اذ عرفوا أن لعاب عبد العزيز لا يسيل

لمرأى الغنيمة أو المادة ، انما هو رجل يحارب عن عقيدته ، ويجاهد لمبدئه القويم ، فاشتد تعلقهم به وحبهم له .

وكانت كل هذه الوقائع بين ابن سعود وابن متعب الرشيد في أماكن مختلفة ، ولكنها حلقات متصلة في سلسلة ، كل حلقة تجذب الأخرى وهكذا ، وأطلقت عليها « وقعة البكيرية » ، ولقد كسب منها ابن سعود مكاسب جمة ، بل كسب العرب وان لم يشتركوا في القتال مع ابن سعود ، ومن تلك المكاسب القضاء على قوة ابن الرشيد الحربية ، والقضاء على النفوذ التركي في قلب جزيرة العرب قضاء مبرما لم تقم له قائمة بعده ، ومن المكاسب : اعلان ابن سعود عن وجود قوة يقظة تقف في وجه النفوذ الاجنبي بحيث لا تدعه يتسرب إلى قلب الجزيرة من جديد ، وأعطى الملأ في الخارج صورة رائعة للوطنية والعروبة ما كان فاتحة عهد جديد لنهضة العرب تبعتها نهضتهم في السنين الاخيرة .

وضعفت قوة ابن متعب بعد هذه الوقائع وخضدت شوكته ، والقوة النظامية التركية قد تفرقت أيدي سبأ ، بعضها أقام بالقصيم ، وبعضها اتجه إلى الحجاز والكويت والعراق ، والمعدات والذخائر والمؤن غنمها خصمه ، وأتباعهم أبادهم السيف والامراض والاوبئة ، لكل هذا تسرب الوهن الى قلبه الجبار وأيقن بالهلاك وتضعضعت قوته ، فمضى يجوب ما بين بلدان القصيم وقراها ، وقد تقع بينه وبين خصمه غارات يتساجلون فيها .

وفي سنة ١٣٢٤ بعد وقعة البكيرية بشهور يمم ابن متعب أطراف بريدة بقوته الضئيلة ونزل روضة « مهنا » وهي مرعى خصيب ممرع تسيم فيه الابل والأنعام كما يقصدها فقراء القصيم والمعوزون يأخذون الاعشاب والحشائش يرتزقون ببيعها في المدن والقرى ، حتى اذا نزلها ابن الرشيد — وهو ممتلىء غيظا وحنقا من توالي الهزائم عليه وخسائره الفادحة في الحرب ، وتمكن عدوه منه — وجد بها أربعين كهلا فانيا من البؤساء الفقراء العاجزين ، ومع بعضهم اطفال لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من

عمره ، أتوها كعادتهم يحصدون الحشائش ويبيعونها وينفقون ثمنها على أنفسهم ، وكانوا من أهل القصيم ، والقصيم قد دخلت تحت يد ابن سعود ، وناصره أهلها وبايعوه على الطاعة والموت ، فله عندها ثأر وهو من أهلها موتور ، فلم لا ينتقم لنفسه ويتشفى من أهل القصيم بقتل هؤلاء الاربعين الابرياء ؟.

أمر رجاله أن يأتوه بهم ووقفوا بين يديه وبيد كل منهم منجله يحصد به والمكتل يضع فيه الحشائش ، وقد عرف هؤلاء المساكين مصائرهم من معاملات رجال ابن متعب القاسية وأذاهم اياهم فوجموا ، كما انتفض بعضهم هلعا ، وأجهشت الاطفال بالبكاء والتوسلات اذ رأوا تلماع السيف في يد ابن متعب الجبار الطاغية .

لم يلن ابن متعب لبكاء الاطفال ، ولم يرق قلبه لادمعهم فيدع هؤلاء الكهول رحمة بهم وبصغارهم ، ولم تمنعه شيمته العربية ، ولم يذكر مبادىء الدين وما يأمر به من الخير والفضيلة والرحمة ، وطغت ثورته وغمت عقله فلم يدر ما يفعل ! .

أتى بالاربعين الطاعنين في السن ورصهم على أبعاد متساوية وجز رءوسهم ضاحكا لاهيا يسمع أناتهم وبكاءهم فيزداد قسوة وصلفا ، وقتل أولئك الأطفال الابرياء ، واذ أتى دور شيخ بيض الدهر مفرقه وتيقن أنه لا محالة قتيل نظر إلى ابن متعب بعينين مكدودتين ودمعة حزن واشفاق تنحدر على وجنته المتجعدة وأمسك بطفله وقال : أيها الامير ، افعل بي ما تريد وابق على هذا الصبي ، فان وراءنا أيامي لا يعولهن غيرنا ! فما كان جوابه الا رأس الطفل يتدحرج على الأعشاب .

رأى الشيخ ما حل بفلذة كبده ، ولكنه عاجز أحنت ظهره أعباء السنين ، ووهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا ، فما كان منه الا أن انبجست عيناه الغائرتان بالعبرات الحارة وتحركت شفتاه الضامرتان بألفاظ تمتم بها ، فجذبه السفاك من تلابيبه جذبة قوية ظن منها ان نفسه انتزعت منه انتزاعا وهوى بالسيف على عنقه فسقط على الأرض ودمه يسيل عليها .

وهذه أبيات رائعة نظمها الأستاذ خالد بن محمد الفرج في ملحمته مدونا هذا الحادث البشع الفظيع . قال :

يقطعون الحشيش عدما ووهنا
روضـة ينسبونـها لمهنـا
شهدت هـول عبرة ذات معنى
ترعب المعشرين : انساوجنـا
جاءهـا أربعـون شيخا مسنـا
فأتاها ابن متعب حيـث أفـنى   تلكم الابريـا مـن الاوزار
لم يراقب حجاج هذا الزمـان
مـا أتـاه بالبغـي والعـدوان
فدوى فعلـه بكـل مكان
بينمـا خصمه بكـل زمـان
يتصدى للصفح عن كل جـاني
وبهذا قد نال أقصى الامـاني   وانتهى أمـر ذاك بالادبـار

* * *

ترامت أنباء ابن متعب وما عمل في روضة مهنا بأولئك الكهول والأطفال إلى القبائل العربية الضاربة في الصحراء وفي المدن والقرى فاهتزت فرقا وثارت كلها لهذا الفعل النكير ، حتى أن جماعة من رجال ابن متعب فرت عنه وغادرته إلى خصمه حينما رأت فعله ، لأن الدين الحنيف ، ولأن الشيمة العربية ، ولأن الانسانية النبيلة تأبى ما أتاه ابن متعب ، وألفوا أيديهم قصيرة وقوتهم ضئيلة لا يستطيعون تغيير المنكر والشر ، ففروا بأنفسهم كيلا يكونوا على مقربة من الظالم ينظرون أعماله الوحشية ولا يستطيعون نصحه أو منعه .

أما القبائل والمدن المختلفة والحضر والبادية فقد قامت وقعدت واختبطت حين سمعت بمذبحة ابن الرشيد ، بمذبحة الروضة ، أو « مقتلة حواشيش » كما يسمي البدو، ورن دويها في الآفاق ورددت صداه جزيرة العرب كلها، وبعثت إلى ابن سعود تطلب اليه أن ينقذ العروبة والجزيرة من الطاغية ابن متعب فوعدهم، خيرا !! .

أما السفاك فبعد أن قتلهم صبرا ولم يلن قلبه لتوسلات الشيخ حين توسل بابقاء طفله كي يعول الايامى واليتامى المخلفين ، ولم يرق لدمعات هذا الطفل الصغير تساقط حبيباتها على خديه اقض الله مضجعه فلم يلتذ بنوم من يومه هذا حتى يوم مصرعه .

بينا يرى نائما اذا هو يهب فزعا صائحا كأنما يتراءى له الشيخ والطفل والشهداء في أيديهم البواتر والرماح يسددونها إلى مقتله ، أو يخزونه بالابر ، أو يضعونه في سفود ثم يضعونه على جاحم يتضرم .

مكث على هذا الحال سنة كاملة يتعذب قلبه وروحه جد التعذيب ، لا يذوق لذة النوم ولا يجد شهوة الطعام كأنما الشيخ ووليده يتراءيان له كل لحظة من لحظات يقظته أو منامه . وكأن كل ما يرى أمامه يذكره بالحادث الأليم ! .

ومرت أيام سنة ١٣٢٣ وشهورها سردا كلمح البصر وابن الرشيد يتجول خلالها قرب بريدة وعنيزة والقصيم يذرع ما بينها جيئة وذهابا ، وابن سعود يتنطس أخبار خصمه وحركاته وسكناته بجواسيسه المبعثرين في كل مكان .

وفي سنة ١٣٢٤ ﻫ خرج ابن سعود ومعه ألف وستمائة رجل يتتبع خصمه ويقتفي آثاره في الرمال والصحراء ، وبينا ابن سعود في القرى القصيمية وردته الأخبار بأن طلبته على قرب منه نازلا بالثوير ، فأسرع اليها ، ولم يجده بها ،

ولقي آثاره وتبين منها أنه ارتحل قبيل ساعات فنزلها ابن سعود يستجم القوى ويريح جنده بعد أن أرسل عيونه تسبقه للبحث عن عدوه ومنزله .

أما ابن متعب فأسرع مدلجا برجاله وظل سائرا طيلة يومه إلى غروب ذكاء ، ونزل روضة مهنا حيث قتل الأربعين كهلا ، ولم يسعه أن يغادرها لأن الأعاصير كانت مجنونة كأنما انطلقت من عقال ، والمطر كأنه بحر انقلب من السماء فاضطر إلى النزول بروضة مهنا .

بقي ابن متعب بالروضة كرها فلا سبيل إلى مغادرتها فليبق منتظرا مصيره ! .

وصلت عيون ابن سعود تنقل اليه خبر العدو ومنزله ، فأسرع بالجيش يمطو في السير يقصد روضة مهنا التي نزل بها رجاء أن يأخذه على غرة ، فذلك أضمن للنصر قبل أن يرحل عنها فيطول الأمر ، واذا استطاع أن يقتله في الروضة كان استهلالا حسنا حيث يقتص من القاتل في البقعة التي أسال فيها دم أولئك الابرياء .

وفي ليلة الثامن عشر من صفر سنة ١٣٢٤ هـ بعد انتصافها ، والسماء كما وصفنا والأرض وحلة دحضة بصرت عيون ابن متعب بمقدمات جيش ابن سعود فأخبرته ، ولم يتمكن من الفرار لحيال غضب السماء والأرض دون فراره ، فاستعد للقتال وأمر الجند بالحرب ورتبهم ! بيد أن الجيش السعودي الظامىء إلى الانتقام والثأر لأولئك الشهداء المساكين ، المتلهف إلى القتال لم يدع فرصة للعدو يتجهز فيها فهجم عليه في ظلام الليل وتقاتلا قتالا عنيفا اشتد بأسه واختلط الحابل بالنابل . ولم يعرف الشجاع الباسل من الجبان الخامل ، ولم ير الا تلماع السيوف في أيدي المقاتلين ، ولا يسمع الا صليلها ووقوع الهامات وتطاير الرءوس منها .

وجال ابن متعب في الميدان كالجمل الاورق لا يرى احدا الا جز رأسه في

طرفة عين وارداه قتيلاً يتنعر بدمه على الغبراء ، ولو كان الوقت نهارا وتمكنوا من احصاء قتلاه لبلغوا كثيرا ، ولم يكن ابن سعود أقل منه ان لم يفقه ، وصار كلاهما يبحث عن خصمه ليرديه وأفراد الجيشين غارقون في الضرب والطعن والقتل .

وكان يحمل راية ابن متعب أحد الشمريين الشجعان من أهل حائل ويدعى « عبد الله الفريخ» اشتهر ببطولته وقوة جلاده، وراية السعوديين بيد بطل من أبطال الرياض يسمى « ابن مطرف » وكان قد هجم هجمة قوية على جناح الجيش الرشيدي وتبعه فرسان ابن سعود حتى ضعضعوه ومزقوه وقتلوا معظمه تقتيلا ، وبصر ابن متعب وهو على متن جواده براية السعوديين فظنها رايته وأوفض اليها صائحا : من هنا يا لفريخ ؟ من هنا يا لفريخ ؟ .

فما أجابه السعوديون الا بالطلقات النارية سددوها في مقتله . فسقط من جواده يتضرج في دمه ، وأقبل أحدهم وانتزع رأسه من بين كتفيه برمحه ورفعه في الفضاء معلنا قتله ليكف قومه عن الحرب عندما يرون أميرهم وقائدهم قتيلا ، ثم بعث برأسه إلى القصيم لينظر أهلها مصرع الباغي الذي قتل الابرياء وكيف دارت عليه الدوائر ، وكان قتله في الثامن عشر من صفر سنة ١٣٢٤ هـ (١٣ ابريل ١٩٠٦ م) .

ومن المصادفات العجيبة أن يموت ابن الرشيد في الموضع الذي قتل فيه أولئك الابرياء الكهول ، وارتمى جسمه فوق الصعيد الذي حصدهم فيه ، وكذلك جزاء الظالمين ! .

وبقتله صفا الجو لابن سعود وأصبح سيد نجد شمالها وجنوبها ، ولكنه حسب لأبناء ابن متعب وأهله ورجاله أن يثوروا طلبا لثأر سيدهم ، فأعد الجنود ورتب الامور ووضعها في مواضعها استعدادا للحوادث والمباغتات ، وبث في النواحي والاطراف العيون والارصاد تأتيه بالأخبار .

ابن مهنّا وأبو الخيل

بعد أن استولى ابن سعود على الرياض وانتصر على آل الرشيد وقتل عميدهم ابن متعب زاد أعداؤه حينما رأوا نجمه آخذا في السطوع واللألأة ، فمبارك « الوالد » صار شرا من العدو ، والحسين غير مرتاح إلى أعمال ابن سعود ، بل أمسى قلقا يفكر فيه ، وهذا صالح الحسن ، وهذا أبو الخيل في بريدة يخونانه بعد أن ولاهما عليها ، وهناك الهزازنة ، وهناك العرائف ، وثمة آل الرشيد ، وهناك حشد عظيم من الخصوم ، وفي كل مكان فتنة تشتعل ، فماذا يعمل وهو في دور التأسيس؟

أما مبارك فقد أمنه في الظاهر ، ولن يستطيع أن يحاربه علنا ، فهو لا يدأب يؤلب عليه أعداءه ، ويوغر الصدور عليه سرا ، وما دام مبارك لا يحاربه علنا فهو محذوف من « قائمة » الاعداء المحاربين الذين يحملون في وجهه السلاح .

وأما الحسين فبعيد عنه ، ولا خشية عليه منه ، فايمهله إلى الوقت المناسب ، فلعله يستطيع تصفية الحساب معه على خير وجه أو على شر وجه ، والخيرة فيما يختار الله .

وآل الرشيد قد ضُربوا الضربة القاضية الأليمة بموت عميدهم الشجاع المخوف

المرهوب ، وسيحتاجون إلى زمن لجمع الجموع وحشد الجنود ، فليرجىء أمرهم أو ليسرعوا اليه فالأمر سيان .

والهزازنة والعرائف أعداء ، ولكنهم ليسوا أقوياء ولا أحزاب لهم ، ولكنهم لن يغيبوا عن باله ، بل هم في خاطره ، وسينثني اليهم بالمعروف لأنهم ذوو قرباه ، اذن فليبدأ بمن قرب من الاعداء ، فذلك أولى له وأحسن .

كان ابن سعود قد أقام صالحا الحسن من آل مهنا أميرا على بريدة ، ثم توجس منه شرا ، فلم يرد أن يأخذه بظن ولو كان ظنه هنا أوكد من اليقين ، فتركه حتى يوثقه بالادلة ويرهقه بالبراهين ولا يدع له مجالا للانكار حينما يضبطه « متلبسا بجرمه » وما أكثر نصحه له فلم يفد معه النصح ، ويتظاهر له بالولاء والاخلاص ويبطن البغضاء والعداوة ، وطفق في السر ينصب الشباك لابن سعود ، ويختط لنفسه طريقا يبعده عنه ويجعله حرا في بلدته بريدة .

ورأى صالحٌ الترك سادة الجزيرة وهم حكامها فتقرب اليهم ، وعلم ابن سعود بمقصده ، ورآه متبعا طريقة الشيخ مبارك الملتوية ، فهو يمد يمناه لابن سعود ، ومن الخلف يمد اليسرى إلى ابن الرشيد يصافحه ، ويميل بفمه إلى الترك هامسا في أذنهم أنه يحبهم وأنه معهم ، فلم يوفق إلى ارضاء أحد تمام الارضاء .

وعرف ابن سعود مكره وانكشف له أمره ، وكان ببريدة حينئذ فرحل عنها وتركه بها من غير أن يسر اليه بكلمة ، وتغابى عن مسلكه المعيب، وأراد ابن سعود من ذلك أن يكله إلى ابن الرشيد الطامع في استرداد بريدة ، واذا بعُد ابن سعود عنها فسيهاجمها ابن الرشيد المثخن جراحا وسيحارب صالحا ، وفي ذلك تأديب له ، فمن العبث أن يدفع عنهم الشر ان زحف عليهم ، وفارقهم إلى الرياض ثم إلى قطر ينجد أميرها قاسما بن ثاني .

وقد صدقت الأيام القريبة ظنه ، فما كاد ابن الرشيد يرى أن عدوه الأكبر

قد رحل إلى قطر حتى سنحت له الفرصة السعيدة باسترجاع القصيم ، فقطر بعيدة ، والذهاب اليها والاياب منها على جناح السرعة يقتضيان أياما كثيرة ، وهو مستطيع في خلالها أن يسترجع القصيم ، فماذا يؤخره عن تنفيذ مشروعه وهو يعلم أن القوات القصيمية ضئيلة لا يسعها رد عدوانه ؟ وبعث صالحا العذل وحسنا العساف بجيش إلى الرس فاحتلوه بعد مناوشة قصيرة ! .

وخاف أهل القصيم بغتة الهجوم عليهم فخرجوا لملاقاة جيش ابن الرشيد ونزلوا « الشقة » وأسرع اليهم عربان من القصيم أيضا يؤيدون مواطنيهم ، غير أن ابن الرشيد ثقفهم وقتلهم جميعا ، وقتل معظم من اعتصم بالشقة .

وحار أهل القصيم ، وخاف صالح الحسن ، فابن الرشيد لا محالة آت اليهم ومنكل بهم ، ولا تغني الشفاعة عنده ولا يجدى الاستسلام ، وليس هو كابن سعود الحليم الكريم ! فرأى صالح أن يركنوا إلى ابن سعود ويطلبوا اليه العون وليس غيره بأقدر منه على رد عدوان ابن الرشيد ، وذهب وفد من أهل بريدة والقصيم إلى الرياض وقابلوا عاهلها الذي قدم منذ أيام من قطر ، واستسلموا له ، وعاهدوه على الطاعة والاخلاص ، وطلبوا اليه أن يخلصهم مما هم فيه من الضيق والكرب والمحنة والعذاب ، فعفا عنهم وردهم مكرمين ، ووعدهم بالخير العميم .

ودارت مناوشات بين ابن الرشيد وابن سعود ولم يشتبكا في معركة فاصلة ، ثم رجع إلى الرياض وجمع قوة كبيرة توجه بها إلى القصيم ودخل بريدة ، وعلم أن صالحا يتودد إلى ابن الرشيد سرا ، فلم يحرك ابن سعود ساكنا ، واصطحب معه صالحا وجماعة من بريدة ونزل الاسياح — وهي عيون تقع على الشرق من بريدة وتبعد عنها أربعين ميلا — فشعر من صالح بتغير بالرغم من مظهر الولاء الذي يصطنعه ، وانتقل إلى « الزلفى » — وهي تبعد عن الاسياح خمسين ميلا إلى الجنوب — ثم غادرها إلى « البنجية » وعسكر بها .

الا أن صالحا لم يطب له المقام فألح في الاستئذان حتى أذن له ابن سعود

فرجع إلى بريدة مسرورا ، فقد أيقن أن ابن الرشيد سيقضي على خصمه الذي نازعه ملك نجد ، أما هو ففي نجوة من الاذى لأنه تودد إلى ابن الرشيد .

غير أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن ، فقد قضى ابن سعود على ابن الرشيد في روضة مهنا وقتله كما بينا ذلك في فصل غير هذا ، فانكسر القدح في يد صالح ، بل رأى أن في القدح بقية من الرحيق فليرشفها ، لا ، ان بها شيئا من الرحيق فليشرب وليغن طربا .

هنا الترك ، هنا صدقي باشا القائد التركي المعسكر في « الشيحية » وهو قوي ، وجنده مدربون مزودون بالأسلحة الحربية الحديثة ، ومن ابن سعود بالنسبة إلى صدقي ؟ إنه لا شيء ! فليركض خلفه ، وليتفق معه .

واتفق معه على أن يسلمه بريدة ، فعلم ابن سعود بما عزم عليه صالح فأسرع اليها واحتلها ، فاحتفل به أهلها احتفالا عظيما وشكا كبارهم صالحا ، وأوضحوا له سريرته ، وطلبوا اليه أن يعزله وألا يتركه في بريدة ، وطلبوا أن يمحو أثره منها ، فلم يجد بدا من انفاذ رغباتهم وقبض عليه ونفاه الى الرياض ليكون على مقربة منه ، بعيدا عن الفتن والقلاقل ، وامّر مكانه ابن عمه محمدا أبا الخيل آل عبدالله .

وقفل ابن سعود راجعا الى اتمام مشروعه وتصفية حسابه مع آل الرشيد ، ومضت عليه أيام وشهور وهو دائب مجد لا يفتر ، واستطاع بمهارته وعبقريته أن يباعد بين ابن الرشيد وبعض قواد الترك ورحلهم الى بلدانهم ، وأتاه من أبلغه أن فيصلا الدويش ونابغا بن هذال وهما من أتباعه قد تحالفا مع أبي الخيل وابن الرشيد على حربه ، ولم يصدق ابن سعود الخبر كل التصديق ، ولم يكذبه كل التكذيب ، فهو على بعد ساعات من بريدة ، وهو يريد أن يبيت فيها الليلة لدى زوجه التي بها ، وبعث الى أحد رجاله فيها وهو محمد بن صالح بن شلهوب يخبره بقدومه

ويأمره أن يخبر أهله ، وغادر ابن سعود الجيش في الليل وحيدا الى بريدة ، غير أنه قابل في طريقه رسول شلهوب وألقى اليه بأن عامله محمدا أبا الخيل قد تغير موقفه وأغلق الحصن واستعد للنزال ضده ، فرجع الرسول الى بريدة بعد أن أدى رسالته ، وقفل ابن سعود راجعا مغيظا محنقا وأدركه المطر ، فلم يدر أين يأوي ويعتصم ! وأبصر على البعد كوخا فمضى إليه واستضاف من به وكانوا عجوزا شمطاء وكهلا ملتاث العقل ، وصبية نائمين ، وكلهم فقراء ، وأمضى ليلته بين شيخ يهذي ويثرثر ، وأطفال يبكون ، وعقلاء يتصايحون .

غص الكوخ بمن فيه ، فأصحابه عشرة ، ومعهم جديان ومعزة ، ولم يجد ابن سعود مكانا ، ولم يرد أن يضايق هؤلاء المساكين البؤساء ، فقبع على حصير بال قرب الباب ، وضم ذراعيه الى صدره وأخذ يرأرىء الى العجوز التي تصنع القهوة لضيفها الذي لا تعرفه وان كان يبدو من الوجهاء الأغنياء بعباءته المطرزة بالقصب ، وبثوبه الابيض . وبصماده الصوفي .

وزاد المطر هطلا ، والريح هبوبا وانطلاقا ، وتدفق السيل صاخبا مزمجرا ، وزاد الليل رهبة هذا الظلام الدامس الذي تشقه أسياف البرق ، فيرى السحب سوداً مملوءة بالمياه المنهمرة من السماء كأنما تفجر منها بحر عظيم .

وتقاطر الماء من سقف الكوخ ثم سال منه وابتل من فيه ، وكان نصيب ابن سعود أكثر من غيره ، فقفز الجديان الى كتفه ، وماءت المعزة ولاذت بـه تتقى البرد والمطر ، وأخذ ينتفض من البرد ، فاشتعل غيظه على أبي الخيل ، فهو الذي أذاقه كل هذا ! .

وقضى ابن سعود ليلة لا تمحى من ذاكرته ذاق فيها السهر والتعب ، وفجع في أمل منّى نفسه به ففاته الى أجل ، وبوغت بخيانة أبي الخيل، ولكنه استسلم لله فهو المعز وهو المذل .

وقف المطر مع الفجر ، فذهب الى أصحابه بثيابه المبللة يعصرها من الماء ، وأشرقت الشمس وجلس يتدفأ بها وبالجمر ، ويحتسى القهوة واللبن ، ثم أمــر جيشه بالمسير الى بريدة ، ودخلها هو ومن معه ومضى الى الحصن فألفاه مغلقا فطرق بابه ، فلم يجبه أحدا ! فقرعه دراكا ، فسئل من داخله فأجاب : أنا ابن‌سعود، وفتح الباب فولجه فصافحه رجال الحصن ، ونادوا أبا الخيل فقابله وهو ينتفض فرقا ، فقال ابن سعود : ماذا بك ؟ قبح الله وجهك ، ولم يدر ما يقول ، وأخيرا زعم أنه مخلص وفي أمين ، وأن الناس كذبوا عليه فيما نقلوا اليه ، وأدرك ابن سعود حقيقة أمر ابي الخيل ، ولكنه أجل حسابه الى الوقت المناسب .

وغادر ابن سعود بريدة بعد أن أخذ العهد من أهلها ومن أبي الخيل نفسه متجها الى رؤساء مطير يسوي حسابه معهم ، وما ترك أولئك الا مضطرا ليتفرغ لهؤلاء .

ثم رجع ابن سعود الى بريدة يستشير زعماءها وأميرها أبا الخيل في غزو أعدائه الجدد : فيصل الدويش ، وابن هذال ، فأشاروا عليه بالتريث والتمهل .

وضبط جواسيس ابن سعود رجلا ارتابوا فيه فقتلوه ، وبعد تفتيشه وجدوا عنده رسالة من أبي الخيل الى ابن الرشيد يخبره فيها بالعمل معه ضد ابن سعود ، ولمــا فوجىء أبو الخيل بالأمر أنكر وأقسم أنه بريء ، وليس ثمة بينة ، فالخط غير خطه ، والامضاء ليس بامضائه ، ولكن من المؤكد أن الكتاب كتابه ، وان تكن البينة معدومة ، لأنها الرسول القتيل ، فعفا عنه ابن سعود من جديد ، وأخذ الله خلفا وعوضــا .

وما كاد يؤدب الدويش عند المجمعة التي كانت اذ ذاك معادية لابن سعود ومن معه تأديبا قويا : قتل خيارهم وسلب أموالهم وغنم ما معهم وجرح الدويش نفسه حتى لاذ بالفرار ، واذ رجع الى الرياض أتته الاخبار بخيانة أبي الخيل واعلانه العصيان ، وانضمامه الى ابن الرشيد حتى أنه استقبله ببريدة .

ونصح ابن سليم أمير عنيزة أبا الحيل فلم يفد فيه نصحه ، وحاول معه كثيرا فأخفق ، وأمعن أبو الحيل في غوايته وأعلن أكثر من ذي قبل العصيان والتمرد ، واستعد لحرب ابن سعود .

وألفى ابن سعود نفسه أمام أمر واقع لا مفر منه ، فقد رأى أبا الحيل يستقل وينضم الى ابن الرشيد ، فما نفع الصبر ؟ وما لزوم الأناة وقد صار من أمر أبي الحيل ما صار ، فمضى ابن سعود وعسكر في البكيرية وبعث الى أهل بريـــدة رسولا ، فوعده بعض كبارهم أن يكونوا معه وطلبوا منه أن يخبر ابن سعود بالقدوم اليهم سرا ، وعينوا له مكانا بعيدا عن المدينة يلتقون فيه .

ومضى ابن سعود في الموعد المضروب فلم يجد أحدا غير الريح ، ثم بعث اليه أولئك الكبراء – كبراء بريدة – الرسالة الاولى فانتظرهم ، ولم يجئه أحد منهم ، ثم صنعوا معه للمرة الثالثة ما صنعوه في المرتين السابقتين فرجع يفكر في الامر .

وترك ابن سعود جيشه في البكيرية ومضى الى عنيزة يستنشق الاخبار فوردته رسالة فحواها أن أهل بريدة في هذه المرة سيوفون بالوعد وسيهاجمون معه أميرهم أبا الحيل ، فوعدهم أنه سيأتي اليهم مع غروب شمس يوم حدده لهم فليكونوا على استعداد لمقابلته وتنفيذ الخطة المرسومة ، فرجع من توه الى المعسكر ووصله مرهقا متعبا فلم يسترح ، بل أمر الجيش بالمسير ، ونزل مع غروب الشمس في ضواحي بريدة فلم يجد أحدا ، فابتسم ابن سعود من مكر الناس ونكثهم للعهود وخلفهم للوعود ابتسامة سخط ، وشر البلية ما يضحك ، ولكنه صمم على مهاجمة بريدة والتنكيل بأبي الحيل ومن معه سرا وجهرا ، واستعد للامر استعدادا قويا .

وبينما هو يفكر في ذلك رأى في الظلام أشباحا تقصده في صمت وهرولة ، فاستقبلها فاذا هم عشرة من أصدقائه من أهل بريدة أتوه خفية ليقابلوه ويضعوا أنفسهم تحت تصرفه وخدمته ورهن اشارته ، وبعد حديث مهموس قصير رجعوا الى المدينة بسلام قبل أذان العشاء بلحظات ، وراح كل الى عمله المنوط به .

أذن العشاء ومضى عليه دقائق ، فنهض من رجال ابن سعود الشجعان ثلاثمائة فارس ، وهمس في أذن قائدهم : الى بريدة ، واذا هم ينهبون الارض نهبـــا .

وأقبلوا على بابها المغلق فاذا هو يفتح على مصراعيه ويقتحمه الفرسانالصناديد في لمح البصر في هدوء ويحتلون المساكن المجاورة للحصن يعتصم به أبو الخيل ، ودهش الناس وقد كانوا بالمساجد مستغرقين في الصلاة .

ووقف ابن سعود نفسه على الباب وبعث خمسمائة فارس لاحتلالالابراج ، فمضوا الى مهمتهم واحتلوها ، ثم انثنى الى من معه وخطبهم خطبة موجزةونصحهم بالتزام الهدوء والسكينة ، وأمرهم بالاستعداد للقتال ، وأبان لهم عملهم فقال لهم : لا تحاربوا الا من حاربكم ، ومن سالمكم فسالموه ، ومنعهم عن دخول البيوت ، وحذرهم من ايذاء النساء ، فمن دنا منهن بسوء فلا ياومن الا نفسه ، ويده قوية على كل من آذاهن .

ثم صاح : «الله أكبر» وانطلق الى داخل بريدة ، فاذا أهلها خارجون من المساجد وفوجئوا بالفاتحين فهربوا وتفرقوا ، واذا صيحات الحرب والويل والقتال تتفجر في كل مكان ، وأقبل جنود أبي الخيل تدفع الجيوش السعودية ، ودوى الرصاص وملأ أزيزه جو المدينة ، ومضى الليل كله في القتال ، وما كاد الفجر يتبلج نوره حتى كان رجال ابن سعود أصحاب الصولة والسيادة في بريدة كلها ما عدا الحصن الذي يعتصم به أبو الخيل .

وأسرع الى الفاتح العظيم رؤساء بريدة يرجون منه العفو العام ، فعفا عنهم بشرط أن يلقوا السلاح ويقدموه اليه ، فألقوه وقدموا اليه كل ما كان عندهم من أسلحة وذخائر .

أما أبو الخيل فقد بقي في حصنه محصورا يوما وليلة لم تغمض عينه ، والفزع

يفتك في قلبه ولبه ، فلم يطق ما هو فيه من ضيق وكرب ، وطلب الامان من ابن سعود فأمنه على حياته وسلم نفسه في العشرين من ربيع الاول سنة ١٣٢٦ هـ(٢٣ مايو سنة ١٩٠٨ م) .

وبالغ ابن سعود في الصفح عن أبي الخيل وخيره في المقام أو الرحيل ، فاختار السفر ، وغادره الى العراق وولى بريدة أحمد بن محمد بن أحمد السديري وغادرها ابن سعود الى أعماله الأخرى .

ظُلم ذوِي القُربى

الهزازنة والعرائف من عنزة ، فهم أقارب ابن سعود ، أما الهزازنة فعن بعد ، أما العرائف فأبناء سعود بن فيصل ، وهم على هذا يعدون أقرباء أدنين ، وقد شقوا عصا الطاعة وخرجوا على ابن سعود وحاربوه .

أما الهزازنة فهم آل هزان من عنزة ، وكانوا حكام الحريق ، فثارت في المدينة فتنة قتل فيها بعضهم ، فبعث الامام عبد الرحمن — والد ابن سعود — الى الحريق رجالا قبضوا على القاتلين ، وسلموهم الى أولياء القتلى — وهم آل هزان — ليقتصوا منهم ، ثم رجعوا بعد أداء المهمة .

غير أن الهزازنة تحمسوا وثاروا بفتنة جديدة واعتدوا على آل ختلان وقتلوا منهم شيخين جليلين زعموا أنهما اشتركا في قتل من قتل منهم ، فغضب عبد الرحمن لهذا الظلم ، كان الحق لهم من قبل فأعطاهم اياه على رغم كل أحد ، واليوم قد أذنبوا وأجرموا فيجب أن يأخذ الحق منهم مهما كان الامر ، ولن يترك آل هزان وقد أزهقوا روحين بريئين .

وكان ابنه عبد العزيز — في هذه الاثناء — راجعا من الشمال متجها الى الرياض

فاستقبله رسول أبيه وبلغه أن ينثني الى الحريق ، فقد أشعل فيها آل هزان الفتنة ، فرجا ابن سعود أباه أن يأذن له بدخول الرياض يومين يقابله خلالهما ويقضي بعض أغراضه فيها فأذن له .

وتشاور الاب والابن فيما يجب اتخاذه حيال الفتنة المتضرمة نيرانها بالحريق ، ثم انطلق عبد العزيز الى الحريق في اليوم الثالث مغذا السير ومعه فرسانه وجنوده وحاصروها ، وطلبوا الى آل هزان أن ينزلوا على حكم الله ورسوله فيما صدر منهم ، فأبوا وتمردوا على ابن سعود وخلعوا عنهم حكمه واعتصموا بحصن حصين ، ولم تفد معهم المحاولات السلمية .

ومضى شهر على الحصار والهزازنة ما انفكوا عاصين خارجين ، وابن سعود ينصحهم ويحذرهم عاقبة البغي والطغيان ، ويطلب اليهم أن يقبلوا كتاب الله وسنة رسوله ، ولكنهم رفضوا حتّى مضت الايام وانطوى الشهر الثاني ، ففهم ابن سعود ألا فائدة في الامر ، وهذا الحصار يأكل عليه وقته وهو محتاج اليه جد الحاجة ، فشق نفقا يبلغ طوله خمسين متراً وأكثر قليلا ، وهدد آل هزان بنسف الحصن ومن فيه ، فضحكوا من هذه « التهويشة » التي يريد ابن سعود أن يفزعهم بها .

ولم يجد ابن سعود وسيلة لاقناعهم ، انهم لا يصدقون أن النفق انتهى الى الحصن الذي يعتصمون به ، فهل ينسفه وينسفهم ؟ وما الجدوى من ذلك ؟ إنهم — حينئذ — لا يسعهم التصديق لانهم سيكونون في عالم الاموات .

وبعث اليهم رسولا يخبرهم بما عزم ، فاما أن يستسلموا له واما أن يخلوا الحصن من نسائهم ومن أطفالهم حتى يستطيع الى نسفه سبيلا ، ولن يحيد ابن سعود عن قصده اذا رفضوا شروطه وهو — لا ريب — مدمره وناسفه ، فليخلوا الحصن من النساء والاطفال ، والا فهم مسئولون عنهم أمام الله ثم أمام الناس والتاريخ .

وبان لهم أن ما ظنوه « تهويشة » ليس الا حقيقةمشهودة، فهاهو ذا النفق ، وها هم أولاء الجنود يشتغلون في شحن البارود لاشعاله !.

إن بينهم وبين الهلاك ساعات ، ولكن بينهم وبين الحياة خطوة ، وسلموه أنفسهم ورجع بهم الى الرياض ، وانتهت بذلك فتنة الحريق في نهايـــة سنـــة ١٣٢٧ هـ (١٩١٠) لتبدأ فتنة « العرائف » الذين جاء بهم ماجد بن حمود الرشيد الى الحرب في عنيزة وكانوا في الوقت نفسه أسرى آل الرشيد فخلصهم ابن سعود واكرمهم وأنزلهم منزلا حسنا ، غير أنهم حسدوا عبد العزيز على إمارته ونفسوا عليه سلطانه القوي ، وطمعوا في الحكم ليكون لهم ما لابن سعود اليوم ، فاخذوا يعملون سرا لتحقيق مآربهم ، ويثيرون عليه من يستطيعون من القبائل، ثم أعلنوا الانشقاق وفروا الى الاحساء ونزلوا عند أخوالهم العجمان ، وأخذوا يغيرون على القبائل بين نجد والكويت .

أما الهزازنة فقد نالوا عفوابن سعود ووسعهم احسانه فردهم الى بلادهم الحريق والحوطة مكرمين معززين ، ونفحهم الاموال والامتعة ليكونوا على وفاق معه ، وليخلصوا له المودة ، ولكنهم استدبروا بره ومعروفه وتطاولوا على احسانه وحكمه ، فقد جاء « العرائف» الى الخرج لان لهم بها أنصارا واتباعا وأرادوا الاستيلاء عليها ، إلا أن اميرها من قبل ابن سعود واسمه فهد بن المعمر طاردهم وأجلاهم ، فيمموا شطر الحريق والحوطة ، فرحب بهم الهزازنة ، نعم رحب الهزازنة بآل سعود الثائرين على عبد العزيز الذى شملهم ببره وخيره ، ووحدوا كلمتهم وتعاهدوا على قتال ابن سعود حتى النهاية واستعدوا لذلك .

ووصل خبرهم – تفصيلا – الى ابن سعود فلم يجد بدآ من ان يقصدهم ، فمشى اليهم ومعه أخوه الصغير سعد بن عبد الرحمن ، وحاصروا الحريق ، الا

أن العرائف شقوا الطريق لانفسهم بخيولهم وفروا الى الحوطة ، غير أنهم لم يستطيعوا أن يدخلوها فسلكوا الطريق الى الافلاج ودخلوها ، ولكن أميرها من قبل ابن سعود أخرجهم منها ، كما سلك سعود بن عبدالله (أحد العرائف الثائرين) وعبد العزيز الهزاني أحد الفارين من الحريق في فتنة الهزازنة الاولى وهاجموا السيح — أحد بلدان الافلاج — ولم يعنموا بما جرى في الحريق ، فأسرهم أحمد السديرى عامل ابن سعود على ليلى — عاصمة الافلاج — وألقاهم في السجن .

أما ابن سعود فقد احتل الحريق واصطحب معه الهزازنة البغاة وأغذ في السير ونزل « نعام » — قرية بين الحريق والحوطة — واستشار كبار رجاله فأشاروا عليه بمهاجمة الحوطة غير أن ابن سعود أجابهم بأنه لا يستطيع أن يرى خراب بلدين من بلاده ، واستعد أن يمنح أهل الحوطة الامان ان جاءوه مستغفرين تائبين ، وان فتحوا له المدينة يدخلها بجيوشه ، وأقبل أهلها كما تمنى نادمين راجين عفوه ، فعفا عنهم ، ثم طار الى الافلاج ، وبينما كان في الطريق اليها اعترضه رســول السديرى يخبره ان « العرائف » وصلوا السيح ثم هربوا منها تاركين ما معهم من مال ومتاع وذخائر وقد غنمها ، وأنه زج بسعود بن عبدالله (احد العرائف) وبالهزازنة الذين معه في السجن ، فمضى ابن سعود الى ليلى من توه وأطلق سعودا (ابن عمه) من السجن ومنحه الحرية في أن يقطن أي بلد أراد .

غير أن سعودا فكر في الامر مليا فرأى المقام عند عبد العزيز خيرا من مقامه في أي مكان ، وأين يجد حاكما نبيلا كابن سعود الذي عفا عنه ووهبه حريته وأكرمه بالرغم من خروجه وتمرده ؟.

وأمر بالهزازنة وعلى رأسهم عبد العزيز الهزاني فقتلهم بأعمالهم ليضع حدا للشغب والفتن الداخلية ، وكان ذلك سنة ١٣٢٨ ﻫ .

أما العرائف الباقون فقد رحلوا الى مكة ونزلوا ضيوفا على الشريف الحسين الذي أكرمهم وقربهم من نفسه رجاء أن يفيد منهم في أعماله التي ينوى أن يقوم بها ضد ابن سعود ، كما فر أحد العرائف الى الاحساء يستنصر البادية ويبحث عن الانصار ، غير أن ابن سعود أمن بعد هذه المناوشات الفتن الداخلية القريبة منه ، وأخذ يستعد لأعمال أخرى .

فتح الأحساء

قضى ابن سعود في البكيرية والواقعة التي بعدها على نفوذ الترك في قلب الجزيرة العربية وحطم قواهم تحطيما شديدا ، ومع هذا بقي الترك في الاحساء يعلنون أن نجدا ولاية تركية ، فنهض — بعد أن قضى على الفتن الداخلية — إلى تخليص الأحساء من الترك حتى لا يجرءوا بعدئذ على الادعاء بالباطل أو الزعم بأن نجدا ولاية تركية ، وأن ابن سعود ليس الا عاملا من عمالهم .

ولقد حكم الترك الاحساء سنوات طويلة ، لكن هذا الاقليم المشهور بالخصب وجودة مزروعاته وكثرتها وغزارة ما فيها من العيون القريبة من سطح الارض ما أطلق عليه اسم الاحساء لم يفد شيئاً في زمن حكمهم ، وظلت خيراته كمينة في تربتها الخصبة تنتظر الايدي العاملة فلا تجدها .

ولو كان الامر مقصورا على هذا لهان الامر ، وانما أضيف إلى هذا الشر شر آخر مستطير ، ألا وهو انتشار الاضطراب وجثوم القلق على كل صدر ، وسريان الخوف بين طبقات الشعب ، فلا نظام يتبع يضمن للناس الطمأنينة والراحة والأمن ،

ويكفل لهم المناعة ، ولا حق الا للقوي والقوة ، وهما شريكا الحاكم في الحكم ، بل أصبح الحاكم ألعوبة لا يرهب جانبه ولا تحترم أحكامه ما جرأ البدو على قطع الطريق ونهب أموال التجار والقوافل المحملة أموالا وبضائع ، وقتل أصحابها أو المرافقين لها أو المحافظين عليها ، وبذلك انقطعت السبل ووقفت حركة التجارة صادرة أو واردة ، وغلت أسعار الطعام والملابس ، وبدأت الفاقة تحتل جيوب الناس وخزائنهم ، وسطا الفقراء على المخازن والدور يسرقون وينهبون ليأكلوا ، ووقعت المشادة من ذلك بين الطبقات ، لا رادع يردعهم ولا قوة حاكم تقف الاضطراب وتصد الفساد وتحفظ الحقوق.

ما هذه الحكومة التي لا تستطيع أن ترد الحق الى صاحبه ؟ وما هذه الحكومة التي تخنع لقوة أفراد من الشعب يعيثون فيه فسادا ؟ ! .

يسطو المجرم على منزل من المنازل ثم يأتي بالمسروق يباع جهرا في السوق تحت نظر صاحبه ولا يقدر على استرجاعه بالطرق الشرعية والقانونية اذ لا يجد من يرفع اليه الأمر ليعيد اليه حقه المسلوب ، وتجرأت قبائل العجمان حتى صار لها الامر والنهي بدون حق ، واستطاعت أن تنفذ أمورها وتعمل ما تريد دون أن تحاسب من قبل أحد حتى تمكنت من أن تكون هي الحاكمة المطلقة في الاحساء .

أما الولاة من قبل الترك فلا سلطة لهم على الناس ، بل ذهبوا يتوددون الى العجمان يعينونهم على أعمالهم الاثيمة المنكرة من سلب ونهب وقتل وضرب ، فقويت شوكتهم وصار الولاة الاتراك آلات تحركها أصابع العجمان .

ومن هنا يتضح لنا فشل السياسة التركية التي جعلت مفكري العرب ينقمون على الاتراك ويندون بسياستهم ، فبأسبابهم تأخرت الاحساء في مختلف شؤون حياتها الاقتصادية والعمرانية والخلقية والعلمية والسياسية .

وبالجملة كانت الاحساء ميدانا فسيحا للصوص والطرارين والسفاكين ، وأهلها

كالغنم أمام الذئب يفتك بها وهي لا تستطيع دفاعا أو نجاة الا بالفرار من وجهه .

ومن المؤلم أن يكون الباب العالي على علم بهذه الحال الخبيثة ولا يمد يد الانسانية للعون والانقاذ ، بل يترك الحبل على الغارب مكتفيا بالولاة وهم شر من اللصوص والسفاكين لحمايتهم هؤلاء ومساعدتهم حتى كانوا يتحكمون في ممتلكات المرء وعرضه ودمه ! ويتدخلون في كل شؤونه ، ما ملأ صدور الاحسائيين الحنق والغيظ والتبرم بالحكم التركي وتطلعوا الى جارتهم نجد فألفوها ناعمة البال يظللها جناح الامن والهدوء بسطه عليها منقذها الاكبر عبد العزيز بن سعود ، فتمنوا لبلدهم ما تنعم به هذه الجارة الشقيقة وتمنوا أن يكون مثلها .

وأحس ابن سعود بمشاعر أهل الاحساء وأدرك أنهم يتمنون العودة إلى الحكم السعودي ، فقد اتصل به مندوبون عن أهلها يرجون أن يخلصهم من الترك والعجمان ، فهو مطمئن اذا غزا الاحساء إنقاذا لها ولأهلها من نير الترك والعجمان أن يجد الطريق الى نفوسهم سهلا معبدا ، والهيئة الحاكمة ضعيفة لا يمكنها أن تثبت اذا حزبها أمر عسير .

وبقي العجمان وهم أشداء قساة جبابرة محاربون ، ولهم مصالح طائلة بالاحساء تقضى بسهولة ويسر في ظلال الهيئة الحاكمة فلا يريدون عنها بديلا ، وسيقاتلون قتال المستميت دفاعا عن تلك المصالح كل من أراد القضاء على الهيئة الحاكمة واحتلال الاحساء .

فاذا طمع في الاحساء طامع وجب ألا يصطدم بالعجمان ، بل يجب أن يتجنب الاصطدام بهم ليتسنى له أن يقتحمها بدون مشقة أو تكلف ، وكذلك فعل ابن سعود .

صمم العزم على القضاء على نفوذ الترك وسلطتهم يريهم بأس العرب وإباءهم ، ويجيب جمال باشا السفاح وتهديده اياه جواب الرشيد لنقفور .

لقد كان جمال والي بغداد في أول امره يتودد إلى ابن سعود ويجامله كثيرا ويسترضيه، وكتب اليه عديدا من المرات يطلب اليه أن يبعث مندوبا للمفاوضة، ويذكر له أن الترك لن تجور عليه في الطلب ، وستلبي طلبه وتقبل شروطه .

فبعث عبد العزيز أحد رجاله الممتازين بالحنكة والحكمة والدهاء هو أحمد بن ثنيان (توفي بالرياض سنة ١٣٢٣ ﻫ) الى بغداد للتحادث مع جمال باشا ، غير أن وصول ابن ثنيان — من حسن حظ ابن سعود — كان في وقت بعد فيه صوت ابن الرشيد وعلا ذكره وصفقت بشهرته دجلة والفرات ، فانساق جمال إلى ابن الرشيد وحضنه وقال لابن ثنيان : « ابن سعود لا يعرف مقامه ، وقد غره أن صفح عنه المشير فيضي باشا ، فاذا كان لا يقبل ما تطلبه الحكومة فان في امكاني أن اخترق بلاد نجد من الشمال إلى الجنوب بطابورين ، بطابورين لا غير » .

فعجب ابن ثنيان من تنكر جمال ، فهو الذي طلب من ابن سعود مندوبا ، ولما جاءه قابله بما يكره ! لماذا ؟ لان ابن الرشيد سطع نجمه سطعا قويا كالمصباح حينما ينفد زيته ويكاد ينطفيء ، فانخدع جمال وأرضى ابن الرشيد باغضاب ابن سعود .

ورجع ابن ثنيان مغيظا محنقا من مقابلة جمال وسخفه ونزقه وأخبر ابن سعود بأن جمالا قد قلب ظهر المجن وسخر به وقابله بازدراء ، وأن جمالا يستطيع اختراق نجد بطابورين .

فطمأنه عبد العزيز وقال له : سترى كيف نؤدب جمالا ! انتظر يا بن ثنيان ! ليخترق بطابوريه نجدا .

وكتب ابن سعود الى جمال باشا السفاح كتاب تهديد بوساطة وكيله في العراق عبد اللطيف باشا المنديل يقول له فيه : « قلتم : انكم تستطيعون بطابورين أن

تخترقوا نجدا من الشمال الى الجنوب ، ونحن نقول : سنقصر لكم الطريق وذلك قريب ان شاء الله » .

وكتب الى وكيله عبد اللطيف ألا يعترف بأنه تابعه ومندوبه وليزعم أنه «عثماني» لانه يخشى عليه من الاتراك أن يؤذوه ، لكن عبد اللطيف أبى ذلك ، وتشبث بأنه نجدي تابع لابن سعود ، وقال للاتراك متهكما : قد جهلتم قدر هذا الرجل ، وهاهوذا الآن يعرفكم بنفسه ؟.

وأخذ ابن سعود يفكر في وسيلة ناجعة للانتقام من جمال والترك ، فالطيبة والكرم ومبادلة الرسائل في هذا الشأن غير مجدية ، وحسبها أن تكون حبرا على ورق ، ولكن الجواب معلق بحد الحسام ، فيجيب جمالا بالعمل .

ومضى بعدد من جيشه وثق فيه أن النصر سيحالفه بإذن الله ، وأسرع إلى الاحساء يفتحها بحد السيف — مفتاح الممالك والامصار — بعد أن أبعد العجمان عنها بحيلة وصرفهم إلى الشمال أمنا من شرهم لئلا يصطدم بهم فلا يتم العمل الذي يريد وتضيع الفرصة السانحة .

خرج ابن سعود بجيشه من الرياض في ربيع سنة ١٣٣١ هـ متجها صوب الشرق كاتما مراميه عن كل أحد ، وطفق فى طريقه يؤدب قبائل العربان كيلا يرتاب فيه الترك أو غيرهم حتى يظنوا أنهم ليسوا المقصودين بخروجه ، وانما خرج لتأديب القبائل العاصية الضاربة في صحراء نجد ، ولم يشعر الاتراك الا وابن سعود في الخفس ، ينزله ويشن الغارة على بني مرة ويخضعها ، فبعثوا اليه يسألونه عن مقصده من هذا المجيء والنزول بالخفس ، أيريد غزو الاحساء وقتال الترك أم ماذا ؟ .

فنفى ابن سعود مخاوفهم من جهته وزعم لهم أنه لم يأت الا لتموين الجيش ، وأوهمهم بأنه يهم بالرجوع من حيث جاء ورجع وحده الى الرياض تاركا جنوده بالخفس يوهم الترك بأنه لا يريدهم بسوء ، وحين وصوله عاصمة بلاده قابله

انكليزي يدعى جيرارد ليتشمان (Col Cerard Leachman) زعم له انه رجل علم وقدم إلى قلب الجزيرة مريدا البحوث الجغرافية ، ورجاه أن يساعده فيما جاء من أجله ، فأجابه بأن قدومه على هذه الصورة مريب ، وكان الاحرى بـه أن يصطحب معه توصية من الحكومة البريطانية تبين شخصيته حتى يسعه أن يعينه .

فدفع ليتشمان بأن العرب قوم كرام وهو طالب عـالم ، وأمله ألا يضيق كرمهم به وهو الباحث النزيه الذي لا يريد غير العلم .

إلا أن عبد العزيز ارتاب فيه وخشي أن يكون ليتشمان عينا من عيون الاتراك فأراد أن يستخدمه في أعماله ومصالحه بدون أن يعلم ليتشمان نفسه ، فذكر له أن خير من يعينه على مبتغاه الترك ، واستعد أن يكتب له خطاب توصية الى متصرف الاحساء التركي ، وكتب له خطابا جاء فيه : « ان هذا الرجل مجهول لدينا وهو واصل اليكم ، فلكم فيما يبتغي الرأي الموفق ان شاء الله » .

وقصد ابن سعود من هذا أن يمضي الانكليزي إلى الترك ، فان كان عينا لهم فقد عرف حقيقته ورد جاسوسهم اليهم ، والا فحسبه أنه دفعه اليهم ، فان أعانوه فلا ضير عليه ، والا فليأذنوا أنفسهم بنقده وحملته ، وقصد مجاملة الترك وطمأنتهم .

ورحل جيرارد ليتشمان الى الاحساء ، ثم عين مستشارا في حكومة العراق ومكث بها حتى قتله خميس بن ضاوي المحمودي من قبيلة زويع بين فالوجة وبغدادانتقاما منه في سنة ١٣٣٨ هـ (١٢ أغسطس سنة ١٩٢٠ م) .

وطمأن الترك رجوع عبد العزيز الى الرياض ، بيد أنه ما كان منه الا أن أدلج يحث الخطى ويمطو في السير حتى قرب من الاحساء ونزل على عين ماء من عيونها تسمى عين نجم .

ولم يكن لابن سعود بالاحساء أنصار يعرفهم سوى وكلائـه أبناء القصيبي

ويوسف بن سويلم ، فطلب اليهم أن يبينوا له المكان الذي يصلح منه الهجوم على الكوت ، فأخبروه بذلك وزادوا أن الهجوم عسير لعلو السور وكثرة الحـــرس ويقظتهم ، فلم يثن ذلك من عزمه ، وكتب اليهم بأنه مصمم العزم على الهجوم الليلة مهما كلفه الامر ، وسينصره الله ويسلس له قياد كل صعب عسير فليطمئنوا.

ونظم الجيش ورتبه لئلا يتسرب اليه الاضطراب حين الغزو والهجوم ، واختار ستمائة من رجاله، وكلهم من الحاضرة .

وفي الساعة الثالثة من ليلة ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣م) خطب رجاله خطبة بليغة قال لهم فيها :

« يا رجال التوحيد ،

اننا هاجمون الليلة على الترك في الكوت ، واننا منتصرون باذن الله ، امشوا صما بكمـــا إلى مهمتكم ، لا تضجوا ، واذا كلمكم أحد فلا تجيبوه حتى وان ضربتم بالبنادق ونحن في الطريق، ولا تضربوا ، أما وقد صرتم في الكوت فحاربوا من حاربكم ووالوا من والاكم ، ولكن البيوت لا تدخلوها ، والنساء لا تدنـــو منهن » .

وسار بهم على أقدامهم تحت جنح الليل سيرا هادئا لا ضجيج فيه ولا ضوضاء، ومشوا صامتين لا تحس منهم ركزا لئلا يشعر بهم أحد ، ومعهم الحبال وجذوع النخل ، ونزلوا الناحية الغربية من السور وقسمهم ثلاث فرق : أمر الاولى منها أن تسير إلى الباب الجنوبي فتقضي على الحراس وتستولي على الباب وما يليه ، وأمـــر الثانية أن تسير إلى بيت المتصرف لعله يكون فيه فتأسره ، وأمر الثالثة أن تتفرق في أبراج السور .

وعملوا من الجذوع والحبال سلالم ارتقى عليها بعض الجيش ، وما انتبه الحراس

الا واشباح تتحرك فوق السور فنادوا أصحابها مستفسرين فلم يجيبوا ، بل أخذت الاشباح تنزل إلى داخل المدينة ، وأقبلت جموع تتخطى السور ، فعلا الضجيج والصخب من الحراس وسريا في البلدة ونواحيها ، فخشي الترك وأسرعوا إلى التحصن تاركين المراكز وأقسام الأمن العام طلبا للنجاة ، فالمهاجمون غير معروفين وعماية الليل تسترهم عن الانظار ، فخير للترك أن يتحصنوا صونا لانفسهم من الهلاك حتى يعرفوهم فيعملون ما يرون صالحا حينئذ .

أما الاهلون فوقعوا في حيرة من أمرهم واضطربوا لهذا الضجيج يعلو إلى السماء ، واستعد كل فرد بآلة دفاعه من سيف أو رمح أو بندقية أو مسدس ليرد به الشر إن هوجم في عقر داره وأغلق أبوابها .

ولقد كان الاهلون في الشهور الاخيرة — قبيل هذا الهجوم — كثيري الخوف على حياتهم من الربلاء[1] الفاتكين ، فقل أن يبيت أحدهم ولا يتوسد آلة تصلح للدفاع يصد بها من يسطو عليه وعلى داره .

وبعد أن تسنى للهاجمين تخطي السور واجتياف[2] المدينة في سويعة من الليل ، وكان الظلام مخيما عليها لا ترى الا الكواكب في السماء ترسل اللمح مضيئا في الظلام ، وتسنى لهم الاستيلاء على المراكز القريبة منهم ، وبعد أن اجتمعوا بمكان واحد والسيوف مصلتة في أيديهم والبنادق والمسدسات مجهزة بالرصاص أرسل ابن سعود مناديا يعلن نبأ وصوله واحتلاله المدينة وان الحكم لله ثم له .

ومضى المنادي يهتف في جوف الظلام اذ بقي من عمر الليل سويعات وملأ الاسواق والشوارع الخالية صوته : الحكم لله ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، والامان لكل من لم يبد مقاومة أو يعتد على الفاتحين .

---

(١) الربلاء : جمع ربيل ، وهو اللص يغزو القوم وحده .
(٢) اجتاف المدينة : دخل في جوفها .

رددت المدينة كلها في هدأة الليل صدى صوت المنادي الجهوري يشقه شقا، واستبشر أهلوها اذ بلغوا أمانيهم وتحققت أحلامهم ، ولكن الليل يصدهم، ولا يعرفون منزل عبد العزيز حتى يذهبوا اليه ، فبقوا في بيوتهم حتى اذا أعلن المؤذن لصلاة الفجر خرج الرجال والفتيان الى المساجد ، وبعد أن تبين الخيط الاسود من الخيط الابيض سال الناس في الاسواق منحدرين الى مقر الفاتح الجديد تعلو وجوههم أضواء السعادة والحبور وعلى ثغورهم تأتلق الفرحة استبشارا بطالع عهد جديد خلصوا فيه من الظلم وحطموا القيود ودخلوا عليه مهنئين معلنين الطاعة ، وما أطلت الشمس الا والجموع تفد أرسالا أرسالا الى مكان الفاتح العظيم ، واكتظت أسواق المدينة وأزقتها بالأهلين وهم يصيحون يعلنون الابتهاج والفرح يرددون الهتافات العالية بحياة المنقذ عبد العزيز ، وكان يوما أغر مشهودا في الاحساء ، انه يوم الحرية والاستقلال .

أما الاتراك فأسرعوا الى الحصون يعتصمون بها من الهاجم صونا لأرواحهم من أن تزهق في ظلمة الليل البهيم، ودخلوا حصني « الهفوف » و « الكوت » وما جاورهما من البيوت المنيعة كما دخل المتصرف — حاكم الاحساء — في طليعتهم ، وأمر باطلاق القنابل على البلدة افزاعا للغزاة واظهارا لقوتهم الحربية الكمينة في الحصون .

والحقيقة أن الهفوف كان منيعا قويا ، فيه من الزاد والمؤونة والسلاح الشيء الكثير ما جعل الترك والجيش التركي مطمئنين بعض الاطمئنان فأبوا التسليم، وأمطروا بقنابلهم الفتاكة المدينة ، ولكنها لم تؤذ أحدا ، فقد طاشت كلها ، ومع ما لديهم من القوة الكبيرة والمؤن الكثيرة تسرب الخوف الى نفوسهم فضعضعت قوتهم المعنوية ، ويخيل اليهم اذا ما أخذوا مضاجعهم أن الهاجمين اقتحموا الحصن عليهم كما اقتحموا المدينة من قبل فيقضون الليل قلقين ساهرين لئلا يحدق بهم الخطر الداهم ، ومن اشتداد الفزع بهم أنهم اذا بصروا ليلا بشبح يطيف قربهم أمطروه القنابل والرصاص .

وأراد جيش ابن سعود الهجوم على الحصن الذي يعتصم به الترك واقتحامه مهما كلفه من المشاق وابادتهم عن آخرهم ، وكذلك أراد أهل الاحساء انتقاما منهم وتشفيا لما كان من أعمالهم القبيحة وسياستهم الخرقـاء وظلمهم اياهم ، لكن ابن سعود لا يريد أن يريق قطرة دم الا اذا اضطر الى ذلك بحق مسوغ .

وبينا هو يفكر في الامر اذ قبض أحد جنوده على ضابط تركي عجوز وأرادوا تمزيقه ، ولكن ابن سعود أمر ألا يريقوا دما أبدا الا بعد درايته وحكمه وامره ، وأمره فوق ارادتهم ، وله من الاجلال والاحترام ما يحملهم على الخضوع ويرغبهم في الطاعة ، فمضوا بالضابط التركي دون أن يؤذوه أو يسيئوا اليه ويحطوا من كرامته الى عبد العزيز فقابله بما عهد فيه من الشمم العربي والنبل والخير وهدأ روعـه وأكرمه ، وجعل منه رسولا الى قومه وبعثه الى المتصرف كي ينبئه بأن عبد العزيز قد صمم العزم على مهاجمة الحصن ومعه الجيش وأهل الاحساء كلهم في هذه الليلة وسيدعونه قاعا صفصفا اذا لم يسلم ، واذا قبل التسليم فسيرحله الى حيث يريد مع جنوده بدون أذى ، فالمتصرف مخير بين المهاجمة أو التسليم فيحقن دماء قومه وجنده ودمه أيضا ، وله هو وجنده والترك جميعا الامان ، ولا يمسون بسوء ، وفوق ذلك يكرمون .

ومضى الضابط التركي الى المتصرف يحمل اليه ما جاء به ودخل الحصن وأخبره بمعاملة عبد العزيز الحسنة اياه واكرامه له وعطفه عليه ، ثم ذكر له ما جاء به من أمر التسليم أو الهجوم في ليلته هذه، واستشاره المتصرف فنصح له الضابط التركي العجوز بالتسليم صلحا قبل التسليم عنوة احتفاظا بالارواح والكرامة .

واستقر رأي المتصرف على الصلح والسلم وحقن الدماء ومغادرة الاحساء مع الاسر التركية والجنود الترك .

طبيعي وقد سلم المتصرف وطلب الامان أن يقابله عبد العزيز بما هو أهل ،

وعزم المتصرف على الرحيل فاستأذن فأذن له ومعه الجند والاسر التركية ، وسمح لهم أن يأخذوا أموالهم وكل ما يخصهم وما يملكون من أمتعة ، ومن كمال عبد العزيز ونبله أنه سمح للجنود الاتراك بأخذ كل معداتهم وذخائرهم الحربية وسلاحهم ، وقال للمتصرف : اننا نقدر الجندي العثماني ونحترمه ونجل أنفسنا عن اهانته بنزع سلاحه ، لا أنزع سلاحه اكراما للعثمانيين واحتراما للجندي العثماني الباسل .

فشكره المتصرف على هذا السمو في النبل والكمال وفي حسن المعاملة ومضى يصحب قافلة عظيمة محملة — عدا الجند والناس — بالذخائر والمعدات والزاد ، وخشي المتصرف من قطاع السبل وعصابات اللصوص أن يعتدوا عليه وعلى من معه وما يصحب ، وهؤلاء لا شيء يحول دون غايتهم ، فطمأنه عبد العزيز بأن الفلاة أكثر أمنا من المدن في عهده ، وبعث معه أحد رجاله وهو أحمد بن ثنيان يحرسهم الى أن وصلوا « العقير » سالمين ، ومنها أركبهم السفن الى البحر .

وجرت أمور الاحساء على أحسن ما يرام وعبد العزيز يقوم بشؤون الاصلاح من تعمير الخراب وزرع الاراضي التي عبثت بها يد الاهمال فالنسيان فالموت في زمن الترك ، وجهز حملة قوية برئاسة عبد الرحمن بن عبدالله بن سويلم وسيرها لاحتلال القطيف فوردته الاخبار باحتلالها اياه بدون مقاومة تذكر واجلاء الترك عنها ، ولم يبق لهم بها أثر ، وجعل عبد الرحمن أميرا على بلد القطيف .

ووصل الجيش التركي وعلى رأسه المتصرف ومعهما الاسر التركية إلى البحرين بسلام مستعدين للسفر إلى العراق بعد أن عفا عنهم عبد العزيز وأمنهم وأذن لهم أن يصحبوا معهم كل أثاثهم ومتاعهم ، ولم ينزع سلاح الجندي العثماني احتراما له واكراما للعثمانيين ، وشمل جميع هؤلاء بعطفه ورعايته .

ولكن المتصرف تناسي صنيع ابن سعود وأتى يسترد الاحساء منه عنوة بالقوة والسلاح ، وذلك أنه حين وصوله البحرين ليسافر منها الى العراق أتاه أحد المتسببين الى الوكالة البريطانية والمقربين من حكومة البحرين وعتب عليه أن يسلم ويخضع

من غير مقاومة ، فلعله ان قاوم ينتصر على ابن سعود ويدحره ، وبين له خطأه في العمل الذي أتى ، ثم نصح له بأن يعود ويقاتل ، وزين له ذلك فربما ينتصر ، بل ينتصر حقا .

وخدع المتصرف بزخرف القول وعاد يقصد العقير كي يسترجعها من ايدي ابن سعود ، وجهز نفسه وجنده وأخذ احدى السفن الراسية في سواحل البحريـــن وكانت لآل بسام ، كما أخذوا سفنا أخرى ورحلوا عليها ووصلوا العقير وفيها حامية ابن سعود متحصنة بمراكزها ، وعلى غرة منها أتى المتصرف ومعه الجنود واحتلـــوا مركزا صغيرا وهو كل ما قدروا على احتلاله ورفعوا عليه أعلامهم وما شعرت بهم الحامية الا وأصلتهم نارا حامية من أفواه بنادقها السريعة ، وهرب المتصرف وجنوده تاركين أموالهم ومتاعهم وذخائرهم غنيمة باردة للعرب كمـــا تركوا ثلاثين قتيلا ، واستردت الحامية مركزها المحتل ، ولم تصب بسوء .

وما وصل الخبر الى ابن سعود حتى هب كالبرق ومعه جنده يقصدون العقير لتأديب أولئك الذين كفروا بالنعمة وعادوا الى البغي فكانوا ظالمين .

وفي الصباح وصل ابن سعود العقير فرأى الماء قد عاد الى مجراه ، وألفى الحامية رافعةلواء النصروالفخار فهنأ رئيسها وهنأها مكبرا فيهم الشجاعة والبطولة ، وعفا عن الاسرى الاتراك ولم يحاسبهم على ما ارتكبوا من الاثم والفساد والتجرؤ على الحامية السعودية ولم ينتقم منهم بل صفح عنهم وقابلهم بما قابلهم به من قبلُ ، وردهم من حيث جاءوا بعد أن جهزهم في السفن ومونهم ورد اليهم ما غنمت الحامية منهم .

وضرب ابن سعود للترك مثلا أعلى للشيمة العربية وحسن الخلق وكرم الصفح ، ولو نكل بهم وقتلهم لكان له العذر ، اذ أنه أخذهم بذنوبهم وجازاهم من جنس العمل ، واذا لم تأب مروءة المتصرف ومروءة الجيش التركي مقابلة الحسنى بالخبث والسوء فان مروءة العرب وعلى الاخص في شخص كشخص ابن سعود تأبى أشد

الاباء من الاقدام على الاساءة الى المحسن أو قطع صلة الاحسان عن الانسان ، وهـــذا بعض خصائص النفس العربية نفخر بها نحن العرب على بقية الاجناس الاخرى .

وكتب ابن سعود الى الشيخ عيسى آل خليفة أمير البحرين والى الوكيل السياسي البريطاني يعتب عليهما ما بدا منهما ، ومما جاء في خطابه : « أيليق بكم تحريض العدو علينا ونحن أصدقاؤكم ، فاذا كنتم لا تتلافون مثل هذه الاعمال وتمنعونها فالتبعة فيما قد يعقبها هي عليكم » .

وتلقى الجواب بأن حكومة البحرين والوكالة لا تعلمان شيئا عن الحادث ،وكل ما في الأمر أنهما أعدتا السفن وأركبتا المتصرف ومن معه ليسافروا الى البصرة ، فلعلهم انفتلوا الى العقير حماقة منهم .

ولم يكن هذا الدفاع حقا ، فحكومة البحرين والوكالة خشيتا أن تمتد سلطة ابن سعود على الخليج فأرادتا أن تحدا منها بالايعاز الى المتصرف بالرجوع رجاة أن ينتصر ويسترد الاحساء ، ولكنه دفاع من حكومة البحرين والوكالة البريطانية .

واذ دان لابن سعود الاحساء كما دانت من قبلها نجد أصبح الحاكم المطلق في قلب الجزيرة وشرقها ، وبسياسته ودهائه أخذ يضم الممالك العربية تحت كنفـــه فخاف امراء العرب على ممتلكاتهم من عبد العزيز أن يحتلها وهم لا قبل لهم بمقاومته وحربه ، فأخذ بعضهم يحوك نسيج الدسائس خفية ، يظهر الولاء ويضمر الخبث والبغضاء حتى أداله الله عليه ونصر جنده .

وبعد أن تمكن ابن سعود من نجد وقتل خصمه ابن الرشيد ثم تمكن من الاستيلاء على الاحساء تعدد خصمه وكثروا وتغير عليه أصدقاؤه الامراء خشية منه ورهبا ، وفي الفصول الآتية شيء من ذلك .

وبعد مضيّ سنة على احتلال ابن سعود الاحساء كان الترك قد رضوا بالامر

الواقع ، فهم لم يستطيعوا إعادتها إلى حظيرتهم ، ورأوا أن الظروف الدولية تقتضي أن يكون لهم نفوذ على الخليج العربي ، ولا قبل لهم بتحقيق ذلك ، فرأوا أن يجعلوا ابن سعود واليا من قبلهم على الاحساء ونجد ، وبذلك يضمنون تحقيق ما يريدون ، وطلبت الحكومة التركية من واليها على البصرة وحاكمها سليمان شفيق باشا ابن علي كمالي أن يتصل بابن سعود لتحقيق ما أملته .

واتصل الوالي بابن سعود فبعث مندوبه الى البصرة حيث تمت بينهما المفاوضة التي انتهت بعقد معاهدة وقعها والي البصرة التركي ، وبقي توقيع ابن سعود ، لأن مندوبه لم يكن مفوضا منه على التوقيع .

وكانت المعاهدة ضمن مجموعة الوثائق السرية لحكومة الهند ، وقد عثر عليها الانجليز في اضبارات حكومة البصرة بعد استولوا عليها سنة ١٣٣٢ (١٩١٤)عندما نشبت الحرب .

ويظهر أن المعاهدة لم يتسلمها ابن سعود ، فهي قد أعدت في ١٥ مايو ١٩١٤ كما جاء في المعاهدة ، وأعلنت الحرب في ٢٨ يونيو ١٩١٤ ويرى أمين سعيد في كتابه «تاريخ الدولة السعودية» ٢ : ٦٠ أن المعاهدة مشروع اتفاق أعده سليمان شفيق باشا وارسله إلى ابن سعود ليوقعه ويعيده اليه ، فاستبقاه لديه ولم يعده ، ويستدل على هذا بأن الوالي التركي وقعه ولم يوقعه ابن سعود .

ونحن نرى أن المعاهدة حدثت ، وتم التوقيع عليها من الجانب التركي وحده ، ولم ترسل إلى ابن سعود بدليل عدم وجود نسخة أخرى بين الوثائق السعودية كما جاء فيما ذكره الاستاذ أمين سعيد .

وإعلان الحرب هو الذي حال دون توقيعها فبقي الاصل لدى الوالي التركي ، ولو أن المعاهدة انتهت إلى يد ابن سعود بعد إعلان الحرب لما وقعها ، لأنها ورقة خاسرة بالنسبة له .

فابن سعود لـــن يفيد من المعاهدة ، وإني لأدهش من مندوبه الذي رضي بمعاهدة أو بمشروع معاهدة يضع ابن‌سعود تحت حكم الترك بعد ان حرر الأحساء منه ، وكيف يرضى بأن يكون تابعا لهم وهو لم يكنه قط؟ وأبوه الإمام عبد الرحمن لم يرض بذلك وهو مشرد لا يجد موطنا .

ومن الجائز أن والي البصرة التركي أعد المعاهدة بالاتفاق مع مندوب ابن سعود، ولكن الظروف الدولية حالت دون دراستها من قبل ابن سعود ، فبقيت ممثلة لوجهة النظر التركية وحدها ، لأنها تحمل توقيع ممثل الترك دون توقيع الطرف الآخر وهو الجانب السعودي .

وعلى أي حال نرى نشرها هنا مناسبا ولو للتاريخ ، وهاهوذا نصها :

٤ رجب سنة ١٣٣٢ الموافق ١٥ مايو سنة ١٩١٤

والي ولاية البصرة سليمان شفيق بن علي كمالي

المادة الأولى – جرى توقيع وثيقة هذه المعاهدة بين سليمان شفيق باشا والي البصرة وحاكمها والذي يتمتع بسلطة خاصة بموجب الإدارة الشاهانية، وبين صاحب السعادة عبد العزيز باشا آل سعود والي نجد وحاكمها ، وتعتمد الحكومة الشاهانيةعلى هذه المعاهدة التي تتألف من ١٢ مادة ، والتي تشرح شؤونا سرية ورد ذكرها في الفرمان (المرسوم) الشاهاني المؤرخ في . . . . وتتعلق بولاية نجد ، وسيكون نـــص هذه المعاهدة سرياً ومعولاً عليه .

المادة ٢ – ستظل ولاية نجد بناء على ما جاء في المرسوم الشاهاني في عهدة عبد العزيز باشا آل سعود ، طالما بقي حياً .

وبناء على المرسوم السلطاني ، ستؤول ولاية نجد من بعده الى انجاله واحفاده بشرط أن يكون مخلصاً للحكومة العثمانية .

المادة ٣ — سيعين الوالي والحاكم المذكور (اي ابن سعود) موظفاً عسكرياً فنياً يقيم في اي مكان يرغبه الاول ، وللوالي المذكور ان يستعين بالضباط الاتراك اذا رأى ذلك لازماً وضرورياً ، لأجل استخدامهم في التدريب الفني الرئيسي للقوات المحلية ، ويتوقف عدد هؤلاء الضباط على ما يختاره ويراه .

المادة ٤ — يرابط عدد من الجند ورجال البوليس في موانيء مثل القطيف والعقير وغيرهما حسبما يراه الوالي المذكور مناسباً .

المادة ٥ — تراعى الحقوق الدولية للحكومات عند ممارسة جميع الشؤون المتعلقة بالجمارك والضرائب ، وتجري ادارة هذه الشؤون طبقاً لمبادىء الحكومة التركية وتحت اشراف الوالي المذكور .

المادة ٦ — الى أن تصل موارد الايرادات الى درجة من الكفاية تسد احتياجات الولاية والمصروفات المحلية ، والتنظيمات العسكرية حسبما تقتضيه الظروف السائدة وأحوال نجد العادية فان أي نقص في الميزانية سيؤخذ من ايراد الجمارك والبريد والبرق والمواني ، وفي حالة حصول وفر في الميزانية فيجب ارساله مع تقرير الى حكومة الآستانة .

واذا كان الايراد المحلي كافياً لسد جميع المصروفات فان الدخل العائد من البريد والبرق والجمارك سيعاد الى الدوائر ذات الاختصاص ، وفيما يتعلق بالدخل المحلي غير الدخل المذكور أعلاه ، فاذا وجد وفر من هذا الدخل فيرسل قسم منه بمقدار عشرة بالمئة الى خزينة الدولة .

المادة ٧ — ترفع الراية التركية على جميع مباني الحكومة والمرافق المهمة على الساحل وفي البر وعلى جميع السفن التابعة لنجد .

المادة ٨ — تجري مراسلات مع وزارة البحرية لأجل الحصول على التجهيزات العادية من الاجهزة والذخيرة .

المادة ٩ — ليس للوالي والحاكم المذكور أن يتدخل فيما يتعلق بالشؤون الخارجية والمعاهدات الدولية ، أو منح الامتيازات للأجانب .

المادة ١٠ — تجري جميع مراسلات الوالي مباشرة مع وزارتي الداخلية والبحرية دون أي وساطة .

المادة ١١ — ستقام مراكز للبريد في ولاية نجد لتسهيل الاتصال وتوضع الترتيبات لارسال البريد الى الاماكن الضرورية بطريقة مناسبة ، وتوضع الطوابع التركية على جميع التحارير والطرود .

المادة ١٢ — اذا اضطرت الحكومة العثمانية — لا سمح الله — لمحاربة دولة أجنبية ، أو اذا وقع اضطراب داخلي في أي ولاية وطلبت الحكومة من الوالي المذكور أن يهيء قوة للتعاون مع قيادتها الخاصة وجب على الوالي أن يهيىء قوة كافية مع مؤنها وذخيرتها ، وأن يستجيب للطلب في الحال وحسبما تسمح به قوته ومقدرته .

الصحراء تتحضر

البدو في كل زمان ومكان مجبولون على انتجاع منابت الكلأ ، وتتبع مساقط الغيث ، فهم اليوم في الشرق ، وغدا في الغرب ، وبعد غد في الشمال ، وهكذا في رحلة دائمة ما ينتهون الا ليبدأوا ، وما يستدبرون أرضا الا ليستقبلوا أخرى ، وبين الاقامة والظعن تسفك دماء ، وتنهب أموال ، وتشتعل فتن ، وتضرى حروب ، والقوي يسطو على الضعيف لا يمنعه دين أو خلق أو ضمير ، فالدين ليس دين ابن عبدالله السمح الطيب بل أمسى مجموعة من الخرافات والبدع والاباطيل لا تؤثر في القلب لأنها زائفة فاجرة ، والخلق فاسد لا مناعة فيه تذود الشرور ، ولا خصب فيه حتى ينمو الخير والفضيلة والحق ، والضمير مخنوق الصوت لا يسمع ، بل يضيع ركزه بين الصخب والضجيج .

والبدوي في الجزيرة لا موطن له غير بلاد العرب كلها ، فموطنه حيث تخضر الأرض وينبت العشب وتخصب التربة ويسيل الماء ، فاذا نوزع فيما احتل وملك حارب ودافع ، وإلا فما له غير الرحيل يسطو على أرض غيره ان كانت فيه بقية من أيد وجلاد أو يختار له أرضا تصلح له .

ورخصت عند البدو القيم الغالية والمثل العالية ، بل صار في عرفهم الشر

والاحتدام والقتال مثلا رفيعا ، فهم يتفاخرون في المجتمعات بعدد قتلاهم وجرحاهم وأسراهم وبما نهبوا ، فالقوة هي كل شيء عندهم ، والقوي القوي من زاد قتلاه وكثرت منهوباته وتعددت غزواته .

فاذا كانوا غير أوفياء للارض التي يولدون فيها ، وكانوا يجهلون الدين ويستهينون بالأخلاق الفاضلة فهم — ولا شك — يستهينون بكل حاكم ويخرجون على كل سلطان ، لأن في اتباع الدين ، وفي السكنى بأرض واحدة ، وفي الثبات بمنزل واحد ، وفي الطاعة لأمير حدا من قوتهم ووقفا لشرورهم فهم أشد ما يكونون ضيقا بما يخيل اليهم أنه قيد وحد .

وهم اليوم مع ابن سعود وفي جنوده يحاربون ابن الرشيد ، وغدا مع هذا على ابن سعود ، لأن المنفعة رائدهم من القتال ، وأي منفعة؟ المال ، والسلاح ، والغنيمة والكسب ، أما المبادىء فلا يفهمونها ، مع ابن سعود حتى يأخذوا منه الدراهم والسلاح ثم يفرون الى ابن الرشيد فيأخذون منه أيضاً ثم يفرون الى الشريف وهكذا ، فهم طلاب «عيش» ولا قيمة عندهم للوسائل النبيلة من بيع وشراء وتجارة وفلاحة ، بل هذه تسير ببطء ، وهم لا يطيقونه بل لا يحبون من الحركة والعمل المجدي السريع إلا ما يحرمه الإسلام .

وطالما نهبوا معسكر من يتبعون وينصرون ! نهبوا ابن سعود وفروا ، ثم جاءوا اليه ثم خانوا ، وهكذا عملهم على الدوام ، بل ينهبون اليوم نجدا ثم يطيرون الى العراق ، وينهبون العراق ثم يفرون الى الشام ، وينهبون الشام ثم يلوذون بالصحراء ، هذه طباعهم ومن ذا يغالب طبعه ؟ .

فكيف يمسكهم وهم بدو رحّل لا يرضون بغير هذه الحرية المجنونة ولو أعطاهم الذهب والفضة ؟ .

توسل ابن سعود بالدين ، واستطاع أن يؤثر فيهم فاستجابوا لصوته ، وأدوا

الفروض كالصلاة والصوم والحج ، وتركوا المحرمات من قتل ونهب ، واستقامت أمورهم .

هاجروا من الضلال الى الهدى ، ومن الظلام الى النور ، وتحررت أفكارهم وعقائدهم ، ولكنهم ما لبثوا رحلا لا يطيب لهم أن يغنوا بأرض مهما سخت وجادت ، ولكنه حاول معهم التجربة الثانية فأسس لقبيلة مطير « هجرة » سماها « الأرطاوية » نسبة الى الارطي ، والارطي شجر له ثمر كالعناب ، وسمي الموضع بذلك لكثرة الآراط بها ، وساعد ابن سعود بالمال والرجال فبنى البيوت ومسح الارض وأقام المساجد ووزع الدور على رجال القبيلة فأقاموا — في أول الأمر — متبرمين ، غير أن الوعاظ والمرشدين وأئمة المساجد من رجال ابن سعود استطاعوا ان ينتزعوا من قلوبهم القلق ، وأغروهم بالاقامة حتى استطابوها ، غير أنهم كانوا في أيام السلم عالة على « السلطان » لا عمل لهم غير الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصلاة والعبادة ، أما العمل للدنيا وللعمران فما كانوا يطيقونه .

وجاء دور المرشدين للمرة الثانية وكانوا على بينة من أمر هؤلاء البدو الذين اجتذبتهم الارض اجتذابا قويا ، وأمسكهم الموطن الجديد ، وأفهموهم أن الدين يأمر بالعمل ، فنبي الله داود عليه الصلاة والسلام — كما روى نبينا عليه الصلاة والسلام — كان يأكل من عمل يده ، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعمل في التجارة لحساب خديجة ، وكان يرعى غنم قومه قبل التجارة ، وكان في الصحابة أغنياء موسرون كأبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وغيرهم ، وقال سيدنا عمر رضي الله عنه : أرى الرجل فيعجبني فأسأل : أله حرفة ؟ فان قالوا : لا ، سقط من عيني .

وما دام الدين يأمر بالعمل فهم أسرع ما يكونون الى الطاعة والخضوع ، فانطلقوا الى الرفش والمحراث يشقون الارض للزراعة ، وانطلق بعضهم الى البناء والعمران ، وبعضهم الى الشراء والبيع ، وهكذا توزعوا الاعمال فيما بينهم وساروا

فيها سيرا حسنا ، فنجحوا وفازوا لأنهم كانوا أمناء رحماء وذاقوا لأول مرة لذة « التحضر » والحضارة وحلاوة الاستقرار .

وبذلك انقلبوا متحضرين ، فيهم التاجر والبناء والصائغ والعطار والقصاب والبدال ، وفيهم الشرطي الذي يقوم بالأمن الداخلي ، وفيهم الحرس والمدرسون والطلبة ، وانتقلوا من البداوة الى الحضارة ، ومن الجهل المطبق الى رحاب العلم ، ومن النهب والسلب الى التجارة والكسب الحلال ، وخضعوا للنظام فأطاعوا السلطان ، وأحبوا الوطن ، وعنوا بتربية الاطفال وتعليمهم ، وحرروا الفكر ، وكل ذلك بفضل عبقرية ابن سعود وحكمته ، وهم اليوم يشهدون تلك البقاع المقفرة قد استحالت جنانا وفراديس ومغاني ، ويلمسون الفارق العظيم بين الماضي المثقل بالمنكرات والآثام والموبقات والحاضر الزاهي بأفضل الأعمال ، فلا نهب ولا ظلم ولا بغي ولاقتال .

ورأى بدو القبائل الأخرى رفاهية مطير بالارطاوية ما أغرى زعيمهم فيصلا الدويش بسكنها أن يطلبوا تأسيس «هجر» لهم على غرار هجرة الارطاوية أسوة بقبيلة مطير ، فأجاب طلبهم وأعانهم على البناء والتأسيس بالمال وبالرجال .

فكان لقبائل مطير أكثر من عشرين هجرة أهمها : الارطاوية ، ومليح ، وضرية ، ومبايض ، والعمار ، وبلغ عدد سكانها قرابة أربعين ألفا .

وأما هجر الدواسر وأهمها : مشيرقة والوسيطة ، وبها سبعة آلاف تقريباً .

وهجر الروقة : الصوح ، وساجر ، وعرجا ، وعسيلة ، ونفي ، وسكانها أربعة عشر ألفـــا .

وهجر برقة : عروة ، والسنام ، والروضة ، وسكانها ثمانية آلاف .

وهجر الغطغط يبلغ سكانها خمسة عشر ألفا .

وتبلغ هجر العجمان أكثر من عشر وأهمها : المصدار ، وحنيذ ، والصحاف ، وتعدادها خمسة عشر ألف نسمة .

وهجر حرب نجد وهي كثيرة أشهرها : دخنة ، والبرود ، والفوارة ، والقرين ، والشبيكية ، والدليمية ، وحليفة ، وسكانها قرابة ثلاثين الف نسمة .

وهجر العوازم : تاج ، والحسي ، والعتيق ، وسكانها عشرة آلاف نسمة .

وهجر بني مرة ومنها : الشباك ، وأبيرق ، وسكانها عشرة آلاف نسمة .

ولشمر أكثر من عشرين هجرة وأشهرها : الاجفر ، والعظيم ، والحفير ، والحية ، والفيضة ، وأم القلبان ، وخريفط ، والمصاع ، والمرير ، ويبلغ سكانها خمسين ألف نسمة .

والهجرة هنا أرض يختطها الحاكم للبدو ويقطعهم اياها للسكنى والعمارة حتى تكون كالقرى والمدن الثابتة ، ومعنى الهجرة الانتقال من أرض الى أرض ، أما في الاسلام فالانتقال من بلد الشرك الى بلد الاسلام ، ويجوز هنا حمل المعنى على الاصطلاح اللغوي ، فقد نقل هؤلاء البدو الى أرض يستوطنونها بأسرهم تكون لهم بمثابة المدن للمتحضرين ! .

ويستطيع ابن سعود أن يجند في أي وقت شاء أكثر من مئة ألف رجل من هذه الهجر التي يمونها .

واستطاع ابن سعود بعد تأسيس هذا الهجر أن يضبط البدو ويقضي على غرائز الشر والجريمة فيهم وأمّن السبيل ، ونشطت التجارة ، وزادت ثروة البلاد ، اذ لم يعودوا ربلاء ينهبون ويسطون ، ولم يعودوا يقتتلون على المرعى ، ولا يتضاربون على المورد ، فلا دم يسيل ، ولا عنق يندق ، ولا رأس يطيح .

وألفوا مظاهر الحضارة ، وعرفوا قيمة العلم ، فلم تعد الدراجة « عربة ابليس » ولا السيارة «مركبة الشيطان» ولم يعد التلفون واللاسلكي والراديو مساكن العفاريت يسترقون السمع وينقلون الحديث من باطنها ، فأبناؤهم الآن يركبون الدراجة ، وهم ونساؤهم يركبون السيارة ، ويتكلمون في التليفون، ويطيرون الاخبار باللاسلكي ، وينصتون الى الراديو بشغف ، ويعرفون مواقع البلدان ، كما يعرفون فوائد هذه الآلات التي سهلت لهم كثيرا من أمور حياتهم ، كما وجدوا في بعضها المسلاة والمنفعة .

معارك تربة

ليس العداء بين السعوديين والشرفاء حديث العهد ، بل نشأ مع الدعوة التي قام بها محمد بن عبد الوهاب والدولة السعودية الأولى ، فلقد حدثت وقائع دامية بين حكام نجد والحجاز كان النصر سجالا بين الفريقين ، وان حكام مكة من الشرفاء ساعدوا محمد علي باشا حينما سير ابنيه طوسون باشا وابراهيم باشا لحرب السعوديين واقتحما عليهم بلدانهم وخربا العمران فيها ووضعا السيف فيهم تقتيلا وتجريحا .

وفي كل مناسبة تتلع الذحول والضغائن بأعناقها من مراقدها فيتحرش أحدا الفريقين بالآخر .

وما كاد الحسين بن علي يدخل مكة سنة ١٣٢٦ ﻫ واليا عليها حتى أرسل بصره الى نجد ، فقد كان حاميها الجديد أو بطلها الذي غيّر مجرى الحياة والتاريخ هنالك في بضع سنوات يدوي ذكره ، ومن أولى من الحسين بمراقبته وأدرى بمـا يستهدف له لو تركه ؟ فهو يبصر الدعوة الوهابية تجتاز حدود بلاده الى القلوب والاذهان فيستجيب لها كثير من الناس ومن رعاياه .

ولم يكن الوئام سائدا بين الحسين وابن سعود كما يجب أن يكون بين حاكمين لقطرين شقيقين ، فالأول خاف على نفسه وملكه من شوكة الثاني أن تطول ، فأخذ يكيد له ويحوك نسيج الدسائس في الخفاء لايقاعه في الهوة التي حفرها له بدهائه

وحيلته ، فمد يد المعونة لابن الرشيد وفتح خزائنه له ليقضي على ابن سعود – خصم الاثنين – ولكن ابن سعود عاجل عدوه القريب فقضى عليه وعلى نفوذه القضاء الأخير ، واشتدت الخصومة بين العاهلين بعد أن كانت أولى معارك تربة ، وأخذت في دور عملي ما جعل ابن سعود يفتتح الحجاز وينتزع ملك خصمه في سهولة ويسر ، مع أن عبد العزيز حين أن عرض عليه المندوب السامي لبريطانيا في العراق السير برسي كوكس في مؤتمر العقير الخلافة لم يرض بذلك وأبى خشية من تفرق كلمة المسلمين ، لأنه عرف نفسية الحسين ورغبته فيها ولم يرد أن يكون هدفا له .

بل أشار عليه بأن الحسين أحق بالخلافة لانتسابه الى بيت النبوة ولوجود الحرمين تحت يده ، ولم يرفع للذحول القديمة وزنا ، ولم ينظر الى الخصومة الناشبة بينهما وترك كل أمر من ذلك جانبا ، فاتجه نظر الانكليز الى الحسين اتجاها قويا ، فهو حليفهم الاكبر في جزيرة العرب وفاوضوه في الخلافة حتى قضى عليها أحرار تركيا بعد طردهم الخليفة فقبل الحسين أن يكون خليفة المسلمين .

وبعثت انكلترا مندوبها السير مكماهون لتوقيع المعاهدة بينها وبين الحسين ، وبناء على موادها سيكون خليفة المسلمين وملك العرب الاكبر ، كما فهم ، وهذه المعاهدة هي «مقررات النهضة العربية الكبرى » التي قام بها الحسين وأنجاله الكرام.

ونحن لا ننكر أن الحسين بقيامه ضد الترك وتضحيات أبنائه كونوا للعروبة مجدا جديدا ، ونهضوا بها نهضة مباركة ، وأيقظوها من سباتها العميق ، ولكنه أخطأ في توجيه دفة السياسة والحكم الى شاطىء السلامة والامان بعد أن صار ملكا ، وعجيب من الحسين الشجاع الداهية الذي فاوض كتشنر واستورز ومكماهون ببراعة وحذق ومهارة ، وخطط وحده للثورة على الترك بعقل ودهاء وعبقرية ، ونجا من مكر ولاة الترك الذين كانوا معه ولديهم قوة حربية ضخمة بالنسبة له أن يفتقد صفاته ومزاياه هذه في موقفه من ابن سعود ، ولو وفق توفيق ابن سعود لكان حقا ملك العرب الاكبر .

ونجم عن الخصومات السياسية والاختلاف بين العاهلين سلسلة من الوقائع التي كانت آخر حلقاتها فتح الحجاز ، وموقعة تربة من أولى تلك الحلقات .

ففي سنة ١٣٢٩ هـ جهز الحسين أول حملة الى تربة وقادها بنفسه واصطحب معه ابنيه عليا وفيصلا ، وسار الى تربة لتأديبها وتطويعها حتى يقضي على نفوذ عاهل نجد الذي بدأ ينشط من عقاله على الحدود .

وكان مع الحسين في هذه الحملة جنود أقوياء من بيشة وعقيل كانوا يؤلفون فرسانه ، كما رافقه أبو العلا شيخ «العصماء» احدى عشائر عتيبة ، كما كان معه عديد من رؤساء القبائل وشيوخها .

وسار بهذا الجمع الحاشد الى الخرمة وهاجم قبيلة قحطان ، ولكنهم صبروا وقاوموه بهجوم مضاد حتى وصلهم مدد ابن سعود تحت قيادة أحد إخوته وهو «سعد» ولكن الحسين استطاع أن يزحزحهم عن مواضعهم ويهزمهم شر هزيمة .

وخان بعض البدو وأمسكوا سعدا وقدموه الى الحسين فأسره ، وخضعت له القبائل الضاربة هنالك وهي عتيبة والبقوم ومطير ، وتغلغل في نجد حتى وصل إلى القصيم .

وتوسط محمد بن حميد للصلح بين زعيم نجد وملك الحجاز فوفق على ألا يتعرض الاول لسبيع ومطير والبقوم التي تنزل الحدود ولا للقبائل الداخلة في المناطق الحجازية ويطلق الثاني أسيره ، وكتب ابن سعود على نفسه عهدا افتدى به أخاه سعدا ، وهذا نص الشروط التي اشترطها ابن سعود على نفسه في عهده للحسين :

١ — عدم التعرض لعتيبة كافة بحال من الأحوال من تنزيل أو ترحيل أو كل ما يحسب ويعد من التعرض لهم من زكاة أو خلافه .

٢ — عدم أخذ الباج (المكس) منهم بأي صورة كانت من أي قرية أمدوها ، وإذا وقع منهم ما يخالف يخبر عنه .

٣ – طاعة أمير مكة في كل ما يأمر به حسبما تقتضيه حقوق ومنافع الدولة العلية .

٤ – القصيم ، وهو بريدة وتوابعها على خيرة أهله ، إن جاءت مضبطة منهم بأنهم يختارون إمارة الأمير عبد العزيز بن سعود هذا التعهد يبقون تحت يـده ويدفعون ثلاثة آلاف مجيدي سنويا باسم الخزينة العامرة السلطانية بمكة المكرمة ، وإن لم يجيء منهم مضبطة يعين أميرهم برضاهم ، ويدفعون المبلغ المذكور على كل حال ، وموعد المضبطة يمتد الى آخر شوال .

هذا ما تقرر وتعهد بإنفاذه ابن سعود، وكتب وأمضاه وختمه واشهد على نفسه كبار قومه وهم : محمد بن عبد الرحمن السعود ، وسعد بن عبد الرحمن السعود ، والشيخ عبدالله بن عبد اللطيف ، ومحمد بن سعود ابن عيسى ، وعبدالله بن ابراهيم العسكر .

ثم نشبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ، وانضم الحسين الى الحلفاء واشترك فيها منهمكا في قتال الترك شمال بلاد العرب وفي الحجاز ، واستغرق في الحرب تاركا مسألة ابن سعود معلقة لأنه لا خطر له ، في حين أن ابن سعود جرد دعاته الدينيين وسيرهم الى القبائل فركزوا حبه في قلوبهم ووجهوا أنظارهم اليه ، ورجعت الصلة الروحية بين ابن سعود وهؤلاء الذين انقطعت صلاتهم بالحسين ، ونهضوا بالدعاوة له ، وأصبحوا أنصاره وأشياعه وبايعه كثير منهم .

وانتهز ابن سعود تلك الفرصة فبعث الى الحسين وفدا يرجوه تحديد الحدود بين الاقليمين ، ويطلب اليه الاعتراف بنجد وحقوقها ومصالحها ، فأجابه بأن ما هو عليه فهو له .

ورجع الوفد بهذا الجواب الذي لا جدوى منه وفيه الجدوى أيضا ، فيه اعتراف ، ولكنه اعتراف غامض لا يكاد يبين منه شيء ، رجع ولكنه معزز مكرم ، فقد حل

رجاله ضيوفا على الامير عبدالله بن الحسين وهو يحاصر الطائف والترك فيه .

ثم تحسنت العلاقات بين الحسين وابن سعود حتى أن التجارة كانت متبادلة بين نجد والحجاز ، ولم يغلق في وجه النجديين باب الحج ، وخيل الى بعض المصلحين أن الحالة قد تغيرت عن السابق ، وأن الصلات بين الحاكمين ستزداد وثوقا .

وبعث الحسين الى ابن سعود في سنة ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ – ١٩١٧م) بصرة فيها خمسة آلاف جنيه ثم أتبعها في العام الذي يليه بثلاث تحوى الواحدة منها خمسة آلاف جنيه أيضا ، ولم يصحبها بخطاب منه يبين له السبب الذي من أجله بعث اليه المال عديدا من المرات ، وكل ما كان عند ابن سعود من علم عنها كلمة حاملها اليه وهي : «من جلالة الملك» فوقع في حيرة من الامر ولم يدر السبب ، فالصرر النقدية متوالية ، بعضها يتبع بعضا بدون كلام ، ويتسلمها وهو حائر في أمرها .

أهي رشوة تسكن أعصاب ابن سعود حتى لا يثور على الحسين وهو منهمك في محاربة الترك مع الحلفاء ؟ أم هي مساعدة منه له حتى يعينه بالرجال ؟ ولكن لماذا لم يصحب هذه الصرر برسائل تكشف أسباب بعثها ؟ .

لم يجد الجواب وحار في الامر ، ولم يجد بدا من اعلان أمته بالواقع ويأخذ رأيها فيه فلعله يهتدى الى ما غابت عنه حقيقته ، وكتب الى كبار الرجال وعقد مجلسا هاما حضره كثير من الناس فيهم الامام عبد الرحمن ، ورئيس قضاته الشيخ عبدالله ابن عبد اللطيف آل الشيخ وخطبهم وأوضح لهم الحقيقة ومما قال :

« اذا كان القصد من ارسال هذا الذهب المساعدة في الحرب فالقصد محقق ، لأني أمرت أهل نجد خصوصا أهل القصيم وعتيبة وحرب بمساعدة الشريف ، وأمرتهم كذلك ألا يتعدى أحد منهم على من أراد أن ينضم الى جيش الحجاز » .

فرد عليه والده الامام عبد الرحمن قائلا :

« لو كان الشريف يقصد المساعدة فقط لكتب الينا بذلك ، ولست أرى في قصده غير الخوف من أن نغتنم فرصة قيامه على الترك فنحمل عليه ، فأراد من ارسال الذهب تسكيننا » .

وأيده الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف ، وانضم اليهما كثير ، وانقسم المجلس ، فزادت حيرة عاهل نجد ، ولم يدر ماذا يعمل ؟ أيرد ذهب الحسين اليه فيستقبل سخطه ويكون السبب في تعكير جو الصفاء ؟ أيبقيه لديه ؟ ليس هذا بالمستطاع حتى يعرف حقيقته ! فرأى بعد تفكير أن يسأل مرسلها نفسه فلعله يفصح عن الحقيقة وكتب اليه يسأله بكتاب هذا موجزه :

« يا حضرة والدي ، اننا واياك في هذه الحرب ، وثمرتها لنا ولك ، فقد مشت عرباننا وعشائرنا عملا بأوامرنا الى مساعدتكم ، ولكني أبغي أكثر من ذلك ، واني مستعد أن أرسل اليك أحد إخوتي أو أولادي ليحارب مع أولادكم ، وفي ذلك الفوز الاكبر ان شاء الله ، قد يكون حدث بيننا و بينكم سوء تفاهم في الماضي فلا بد اذن من التفاهم والتأمينات ، وذلك بأن تحدد الحدود بيننا وبينكم فتزول الشكوك وتتضاعف من أهل نجد المساعدة » وسأله عن الذهب .

فعجب الحسين من خطاب ابن سعود وعده تطاولا وحماقة ، فغضب عليه وسخط ، وهدده في جريدة القبلة وأخذ يسخر به وأجاب ابن سعود جوابا شديد اللهجة ، ويذكر ابن سعود نفسه أن الحسين قال له فيه : « اما أنك سكران يا بن سعود واما أنك مجنون ، أفلا تعلم لأي أمر قمنا وأي غرض نبغي ...» .

فأشفق ابن سعود أن يقدم على عمل يغضب منه الانكليز ، فالحرب الكبرى قائمة تتضرم ، والالمان والترك يحاربون الانكليز والحلفاء ، والحسين مع الانكليز ، وهؤلاء يحيطون بشبه الجزيرة من كل مكان وبيدهم مفاتيحها ، وسيحاربون كل

من أراد الحسين بسوء دفاعا عن مصالحهم المقترنة بمصالح الحسين ، فرأى من الأوفق أن يكتب الى الوكيل البريطاني السير برسي كوكس ويطلب اليه الاجتماع من أجل مسألة هامة لا تحتمل التأجيل ، فأجابه كوكس وقدم الى العقير واجتمع الاثنان وقرأ الوكيل البريطاني خطاب الحسين فأجاب ابن سعود مطمئنا : « لا تكترث به ، نحن ضامنون استقلالك ونتعهد بألا يعتدي عليك الشريف أو غيره ، وأنت تعلم أن أي حركة على الشريف اليوم هي علينا ومساعدة لأعدائنا وأعدائك ».

فلم يرض ابن سعود عن جواب كوكس الا بشرطين : أولهما ألا يتدخل الحسين في شؤون نجد ، وثانيهما ألا يتكلم باسم العرب كلهم ، لأنه ليس المسئول عنهم جميعا .

فهدأ الحال بين الفريقين ، ولكن المصادفات لم ترض بالصفاء حتى عكرته ، ولكن لا على يد ابن سعود ولا يدالحسين بل يدثالث توسط بينهما ، وسيأتي تفصيل ذلك .

وكانت الامارة في الخرمة وتوابعها من القرى لآل لؤي من الشرفاء العبادلة – قبيلة الحسين– وكان الامير عليها في عهدالحسين خالد بن لؤي وذلك في سنة ١٣٢٧ هـ وكان ممن يثق به ويعتمد عليه ، فكانت الصلة بين الملك وعامله قوية لا تنفصم عراها ، بل كانت تتجدد في السنة الواحدة عديدا من المرات ، يهبط خالد الى مكة فيقابل الحسين مسلما عارضا عليه الامور آخذا منه «التعليمات» ثم يقفل راجعا منفوحا بالاعطيات .

ووافاه الامر بأن يكون مع ابنه عبدالله في حصار الطائف فأطاع ، وسلم الطائف فهبط الى مكة مع الامير القائد ، ولم يطل به المقام فسار مع الامير عبدالله وجيشه الى الحناكية بشرق المدينة لقتال الترك ، فانتهوا وانحدروا الى العيس وعتموا به زمنا .

وحدث في العيس ما لم يكن في الحسبان ، وكأنما كتب في هذه البقعة أول سطر من سطور هزيمة الحسين وزوال ملكه .

حدث حادث أحد طرفيه خالد بن لؤي ، وأما الطرف الثاني فالأقوال عنه شتى ، يقول بعض الرواة : ان عبدالله بن الحسين لطم خالدا ، وانما الرواية الصحيحة أن فاجر بن شليويح أحد شيوخ قبيلة الرقة – عتيبة نجد – لطم خالدا ، فاعتقل عبدالله المعتدي ثم أطلقه بعد أيام ، ولم يرض خالد بهذا الجزاء ينال خصمه ، فأسرها في نفسه ، وظن أن الامير عبدالله يعين عليه المعتدي ، في حين أنه لا شيء من هذا ، ولكن المصادفات أخذت تعمل عملها وبدأت تنسج خيوط مستقبل الجزيرة .

فهنا حادث يسير ، رئيس يلطم شريفا ، فيقتص من الرئيس ويحبس أياما ، وهي أقصى ما يحكم به أشد القضاة ، ولكن الشريف لو رضي لما نامت المصادفات. فهي أملت على خالد أن يسر الضغينة ويعمل على الانتقام ، فقد أصبح خصمه «القاضي» كما ظن .

واستأذن خالد في الرحيل فأذن له الامير عبدالله ولم يصغ لصوت ناصحه الشريف شاكر بن زيد بن فواز الذي طلب اليه ألا يأذن لخالد ، وألح عليه وأراه مغبة الامر ، لأن الاهانة التي لحقت خالدا لا يغسلها هذا الاعتقال ، هذا الجزاء اليسير كما يفهم خالد، وهو ان لم ينتصف من خصمه أو يقتص لهمنه فسينتقض لا محالة، فأجابه الامير جواب المدل بشجاعته وفروسيته : من هذا حتى أخشاه، ليمض حيث شاء !.

وبالرغم من استخفافه فقد أمر خالدا أن يهبط مكة ويقابل الملك فيها ،ولكن خالدا تظاهر بالقبول وإطاعة الامر وغادر العيس مغيظا محنقا وقلبه يتضرم حقدا وبغضا ، وآلى على نفسه لينتقمن لنفسه ، وليجعلن خصومه أحدوثة الناس ، وعرج

من رابغ الى تربة ، وأعلم كبار قومه وزعماء عشيرته بما لقي من اهانة بالغة ، واستثار حماستهم وغضبهم ، حتى أجابوه مجمعين أنهم معه فيما يريد أن يفعل ، وأنهم مطيعو أمره وغير مخالفيه ولو طلب اليهم خوض الحرب .

وانهم لكذلك وردتهم أنباء انتصارات الامير عبدالله والامير علي ، واحتلال المدينة واغتنام ذخائر الترك ومعداتهم الحربية ، فحصن البلدة وكتب الى ابن سعود يعلمه جلية الخبر ، ودأب على تقوية الصلات بينه وبينه حتى يجد من يعتصم به ان أراده الحسين بسوء ، والحسين ــ لا محالة ــ ناويه بشر مستطير ، وطفق دائبا على نشر الدعوة لابن سعود وضبط القبائل له .

وعلم الملك حسين ببعض جهود خالد وأعماله فارتاب فيه وبعث اليه يطلب منه الحضور الى مكة فاعتذر ، وبعث اليه للمرة الثانية والثالثة وخالد يختلق المعاذير .

وعين الملك قاضيا لتربة وتوجه اليها ونزل ضيفا على خالد فاستقبله واحتفل به وأكرمه وبعد شهر أعاده الى مكة ومعه خطاب الى الشيخ عبد الله سراج رئيس الحكومة في الحجاز وقاضي قضاته يزعم له فيه : ان القاضي يحب الجدل والنقاش ، ولا يصلح لتربة ، ولهذا أعاده ــ والقاضي المسكين لا يعلم مضمون ما يحمل ــ وعلم الحسين به وعلم منه ما يعمل خالد من الدعوة لابن سعود .

فكتب الى خالد يطلب منه أن يأتيه لأمور هامة ، فأبى لأنه يعلم انه ان خدع هذه المرة ومضى الى الحسين فلن يعود أبدا ، فثنى الحسين وعزز بثالث والجواب من خالد الرفض ، ثم أجابه : بأنه مستقل بإمارته ولا يستطيع أن يلبي طلبه ، لأنه غير تابعه في الحكم والسلطان ، فثار الحسين وجهز قوة قوامها خمسمائة جندي تحت قيادة الشريف حمود بن زيد بن فواز وزوده برشاشين ومدفعين جبليين ، وكان لخالد عيونه فأبلغته بمسير الحملة فكمن لها حتى اذا دنت من الخرمة خرج عليها وأبادها وغنم معداتها .

فجهز الملك قوة أخرى ملاكها ألف رجل وأربعة رشاشات ومدفعان جبليان ، فكمن لها خالد ومعه رجال من سبيع والدواسر ، وهاجمها قرب الصبح وفتك بها وغنم جميع ما لديها من أسلحة وذخائر ومؤونة .

وترامت أنباء النصر في المرتين الى القبائل المحيطة بتربة والخرمة فانضمت اليه وقويت شوكته بها ، ورتب جنوده ورجاله واستعد لاستقبال ما يجد من الحوادث ، لأن الحسين لن يصمت ويقف ، بل علم أنه دائب على التجنيد والتجهيز .

وسير الحسين حملة قوية يبلغ تعداد رجالها ٢٥٠٠ بقيادة الشريف شاكر بن زيد ، وسلك بها طريق مران — من طريق نجد — تحاشيا من الوقوع في كمين ، فاستقبلها خالد بهجوم مفاجىء عنيف حتى بدد شمل الحملة وهرب معظم رجالها ، كل بسلاحه ، فرجع شاكر وحيدا يستقبل لوم سيده وتقريعه .

فأحرق الحسين الأُرَّم غيظا وصاح في القبائل واستنفرها وجند منها ٤٠٠٠ محارب وزودهم خير تزويد ، وأمر عليهم صهره الشريف عبدالله باشا ، وأصحبه بشاكر ، وأمرهم بالمسير الى حضن واللبث فيه حتى يأتيهم أمره .

وأقام الجيش بحضن ففشت بينه الامراض وعصفت بكثير منه ، ومن بقي — بعد الموت — كان عليلا منهوك القوى .

واما الامير عبدالله فما كاد يفتح المدينة ويدخلها حتى كتب الى ابن سعود يخبره باستيلاء الجيش الهاشمي عليها ، وأن الامر قد استتب لابيه في جزيرة العرب بعد اخراجه الترك ، ولم يبق سوى شراذم للاشرار والخوارج ، ولا يحتاج القضاء عليهم الى عناء ، وسوف يأخذ في قطع دابرهم — ويعنى بالاشرار والخوارج أهل تربة والخرمة وأميرهم — وهذا نص ما كتب الى ابن سعود في ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٣٧ هـ :

« الى حضرة المحترم المكرم الامير عبد العزيز بن سعود الفيصل؛ وبعد، فاني

أحمد الله اليك الذى لا إ آله الا هو ، وأصلي وأسلم على خاتم الانبياء والمرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، ثم أخبرك بأن الله فتح لنا أبواب مدينة خير البرية ، وان حاميتها قد أسرت ، واستولينا على جميع ما فيها من السلاح الثقيل والخفيف وجميع الاملاك والآلات والادوات العائدة للحكومة الغابرة ، كما أن فخرى باشا قد اعتقل في بئر درويش ، وأما العساكر فقد بادرنا بنقلهم الى بلادهم ، ولا يخفى على مدارككم بأنه لم يبق والحالة هذه شاغل ما يشغل حكومة صاحب الجلالة أدامه الله وأيده عن الالتفات لاصلاح داخليتها وشؤونها والتنكيل بمن يسعى للافساد والتخريب من العشائر التابعة لها ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

ولم يعمل ابن سعود شيئا غير كتاب بعثه اليه يذكر فيه سروره بافتتاح المدينة ويهنئه بالفتح ، ويرجو له الهناءة ويرجوه أن يجنح الى التفاهم في أمر العشائر ، فذلك أجدى من الاحتكام الى السيف ، ويؤكد له ميله الى السلم وحبه اياه وتقديره لحكومة جلالة والده .

فأجابه الامير عبدالله في ٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٧ هـ بما يأتي :

« إلى جناب سامي الرحاب الشهم الاوحد والهمام الامجد الامير عبد العزيز ابن عبد الرحمن الفيصل السعود سلمه الله .

« اني منكف [١] ان شاء الله تعالى الى الوطن في الاسبوع القادم لاكون بخدمة صاحب الجلالة الهاشمية أدام الله نصره ، واني أرجو أن تبلغوا سلامى الى معالى والدكم الجليل والانجال والاخوان الكرام ، ومن لدينا حضرة صاحب السمو الملكي سيدى الامير علي نصره الله يهديكم جزيل السلام » .

ومع هذا الخطاب خطاب آخر من جلالة والده الحسين لم يخرج معناه عن

(١) منكف ، في لغة البادية بمعنى راجع .

خطاب الامير عبدالله نفسه ومعه « ملحق خير » من سموه جاء فيه :

« اني أخوكم الصادق ، ومستعد لمساعدتكم بما تأمرون ، ولا يجوز أن يفرق بينكم وبين والدى أمور البادية التي لا أهمية لها ، وكيف يمكن أن يحدث خلاف بين رجلين كبيرين بخصوص تربة والخرمة والبادية ؟ ها أنا متوجه الى مكة فأرجوكم أن ترسلوا أحد رجالكم وان ارتأيتم أن يكون أحد أنجالكم فذلك أولى ، وأنا كفيل النجاح بحسم الخلاف والاتفاق مع سيدي الوالد » .

غير أن ابن سعود علم من مصدر ثقة أن الجيوش الهاشمية سائرة الى تربة ، وبأن الكتب التي وردته من الحسين وابنه لم تكن الا قيدا لخطاه وتصرفاته وكف يديه فلا يكون مستعدا للمعركة ، بل يفاجأ بها مفاجأة غير منتظرة ، فلا يجد ما يعمله لوقف العدوان ، ويكون أمام أمر لا مناص منه ولا راد له ، وكيف يرد ما وقع ؟ فكتب الى بريطانيا كتابا بوساطة مندوبها في العراق يخبرها بما وصل اليه من أنباء صحيحة لا يصل الشك اليها بحال من الاحوال ، فتلقى الجواب بأن نيات الحسين نحوه ليست كما بلغ من الوشاة ، فهي إلا تكن حسنة — فعلى الاقل — غير سيئة .

ولم يقنع ابن سعود بالجواب فكتب مرة ثانية يشرح الامر ، ولكنه أجيب بما أجيب به من قبل ، فكتب للمرة الثالثة الى بريطانيا يخبرها أن الامير عبدالله سار بجيشه قاصدا تربة ، وهذا عمـــل عدائي لا يمكن الصبر عليه ، ولكنه قوبل بالصمت فلم يجد بدا من الاستعداد وتمكين تربة والخرمة من الدفاع اذا ما هوجمتا وبعث عينا له تستطلع الاخبار وترصد حركات الامير عبدالله ، فان ترك «عشيرة» ورجع الى مكة فهو صادق فيما كتب ، والا فما أخبر به ابن سعود حق لا شبهة فيه ، والحرب واقعة في ميادين تربة والخرمة بين أهليها والجيوش الهاشمية .

وعلم ابن سعود بخطاب عبدالله بن الحسين المرسل الى ابن عمه الشريف عبد الله بن محمد وكان بالخرمة في ٢رجب سنة ١٣٣٧ هـ يقول فيه :

« بعد السلام ورحمة الله وبركاته ، كتابكم رفق عائض بن جوير وصل وعلم مضمونه ، وعيال مهزى الصغار نوخوا البارح على صاحب الجلالة وأخبرونا بالكون عليهم وكسرة الوهابية ، ولا شك أن العرب اذا صدقوا اللقاء كسروا المغير عليهم ، وحسب الرغبة أمر صاحب الجلالة بانقـــاذ ابن مهزى ، واخترنا مائتين من الجعدة مع غالب بن عنيبر يمشون غدا أو بعده إن شاء الله ، أمير الخرمة السيد غازى الحارث مع السطوة في البلاد الآن ، فبعد وصولي بالقوة الكافية اليكم نردها بما تستحقه ، والتوفيق بيد الله ، هذا ما لزم ودمتم ونحن على ممشى في هذين اليومين » .

فاهتم ابن سعود به كثيرا وكتب الى عبدالله كتابا مطولا جاء فيه :

« قد تحقق عندي خلاف ما أخبرتني به سابقا أي أنك عائد الى مكة المكرمة ، والظاهر أنك مهاجم تربة والخرمة ، وذلك مخالف لمـــا أبديتموه للعالم الاسلامي عموما والعربي خصوصا ، واعلم رعاك الله أن أهل نجد لا يخذلون إخوتهم ، وأن الحياة في سبيل الدفاع عنهم ليست بشيء ، نعم ، وان عاقبة البغي وخيمة ، خير لك أن تعود الى عشيرة وأنا أرسل اليك أحد أولادي أو إخوتي للمفاوضة فتتم الامور على ما يرغب الفريقان إن شاء الله » .

وثار الامير عبدالله لهذه اللهجة التي خوطب بها ممن يراه رئيس عشائر ليس الا ، وكيف يطيقها وهو يذكر مهددا : « خير لك أن تعود الى عشيرة » وان لم يعد فما يفعل ابن سعود! إنه قوي غلاب ، فليكتب له ما يكتب الاقوياء الغالبون الباسلون .

وكتب هذا الخطاب الى ابن سعود في ٢٣ شعبان سنة ١٣٣٧ هـ :

« من عبدالله ابن أمير المؤمنين الحسين بن علي الى حضرة أمير نجد ورئيس عشائرها عبد العزيز بن سعود دامت كرامته .

« وصلني خط الجناب الموقر المؤرخ ١٠ شعبان فتلوته وفهمته ، ولم أجد فيه ما استغربته واستعذبته . تقول : اني بينما أكتب اليك مسالما أجر الاطواب على المسلمين ، وان مظهري هذا أثار ثائر الناس علينا ، وانك — دامت مدتك — خرجت فزعا الى أن يأتيك مني الجواب واليك به ينطق بلسان صاحب الشوكة والدي وحكومته .

أولا — أظن أن صاحب الشوكة سيد الجميع يرحب بكل من يطلب كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويحيي ما أحيا الكتاب والسنة ، ويميت ما أمات الكتاب والسنة ، لان هذا دأبه ودأب أجداده منه الى صفوة الخلق عليه ســلام الله .

ثانيا — لا أذكر أن أحدا منا وقع على كتاب ذكر فيه أنك أو أحد آل مقرن من الخوارج ، أو أنكم لستم من ملة الرسول .

ثالثا — كل من شق عصا الطاعة من رعايا صاحب الشوكة وعثا في الارض فسادا يستحق التأديب شرعا شخصا واحدا كان أو ألف شخص .

رابعا — اعلم وتيقن أن نيتنا نحوك ونحو أهل نجد خير وسلام .

خامسا — أما قولك : ان الناس جميعا نفروا لحربنا اناثهم قبل رجالهم فأذكرك الله تعالى ، فان جاءونا (أي عرب برقة والرقة الذين أنذرهم) بنية حسنة فنحن لهم وهم لنا يا عبد العزيز قبل أن ينزل أجدادك بنجد ، وان بغوا فلكل باغ مصرع ، وان الله مع الصابرين .

سادسا — تأمرني بالرجوع إلى ديرتنا من أرض هي لابي وجدي ، ومتى كنت تمنع الناس عن ديرتهم ؟ جزيت خيرا ! ولكن هل تذكر أن رجلا من قريش ثم من بني عبد مناف ، ثم من بني هاشم جده الرسول وعلي بن أبي طالب يقعقع له بالشنان ، ويروع بمثل هذه الاقاويل ؟.

سابعا – تقول : اني لو التمس رجلا في نجد يرجح الحياة على الموت في سبيل الله لما أجده ، فكان الاوفق لهم اذن أن يأتونا ويجاهدوا الاتراك معنا عن بيت الله ومسجد رسوله حتى ينال الشهادة منهم من كتب لهم ، ثم بعد ذلك تردون يمنا [1] النظر .

ثامنا – أخبرتك في كتابي بفتح المدينة المنورة بأنني متوجه الى الوطن لتأديب العصاة ، وسألتك هل أنت على عهدي بك أم تغيرت نيتك فجاءتني نجاجيبك[2] بجواب منك فيه الميل الى التقرب والمسالمة ، فرجوت خيرا وعززته بالجواب الثاني ، فجاءنا في كتابك لى ومثله لوالدى ولاخي ملؤها المودة المؤكدة باليمين ، وكل ذلك محفوظ ، فما حملك الآن على تغيير لهجتك ؟ أمن أجل أننا نؤدب رعايانا ونصلح ما فسد في قبائلنا ؟!.

تاسعا – ان كنت تنوي الخير للمسلمين كما زعمت فاردد الذين أمرتهم ببيع مواشيهم وبنيت لهم الدور ، وأخل أنت مكانك الذي وصلت اليه وانحر[3] ديرتك ، ولك علي ألا أمس أحدا من أهل نجد بسوء .

اني مرسل اليك كتابي مع أحد نجاجيبك وهو (القسماني) وأبقيت الآخر ليأتيك بخطاب صاحب الشوكة والدى والسلام » . ٢٣ شعبان سنة ١٣٣٧ ه

القائد العام للجيوش الشرقية الهاشمية
ختم (الامير عبدالله)

ويحسن بنا أن نعود الى الوراء قليلا ليسعنا أن نذكر أن الأمير عبدالله – بعد

---

(١) يمنا ، بتشديد الميم معناها نحونا بلغة بدو الحجاز.
(٢) النجاجيب : الرسل بلغة بدو الحجاز ونجد .
(٣) انحر : اقصد ، بلغة البادية .

احتلال المدينة المنورة ــ استطاع أن يضبط شؤونها ويرتبها ليغادرها بجيشه ومعه ما غنم من فخري باشا حتى يخضع من وسوس له الشيطان بالعصيان .

غادر المدينة ونزل «عشيرة» وفيها اجتمع بوالده، وعقد بها مؤتمرا كان قوامه الملك والامير وعبدالله باشا ــ قائد الحملة الذي هرع بها الى العشيرة لحضور المؤتمر ــ وشاكر بن زيد وهزاع وشرف بن راجح أمير الطائف ، والشرفاء من آل ناصر وبني الحارث .

وبينا المؤتمر معقود بين أقطاب شرفاء الحجاز علم المعتمد البريطاني بمقصد الحسين فبعث اليه خطابا مع «سكرتيره» حسين أفندي روحى فأجابه بصوت جهوري سمعه الحضور وبعض الجنود : « امض ، وقل لهم : اننا لا نسمح لاحد بالتدخل في شؤوننا ، ولنا الحق في أن نفعل ما نريد » .

وانتهى المؤتمر «الحربي» على تسيير الحملة الى الشرق لتأديب العصاة ، ويقال : انها أمرت باحتلال الرياض ــ اذا استطاعت ــ وقوامها كما ذكر في بعض المصادر :

١٠٠٠٠ جندي بدوي .
٢٠٠٠ جندي نظامي .
٢٠ مدفعا جبليا وهاوتزر .
٢٥ رشاش .

وهذا عدا البنادق والرصاص والسيوف والرماح[١] .

سارت الحملة بمعداتها الكاملة صوب تربة ، ولكنها نزلت « حضنا » وجعلته مركزها الحصين ، ومنه بدأت في تأديب القبائل الخارجة على الحكومة الهاشمية واستمالة زعماء العشائر والقبائل .

---

(١) ثبت أن هذه الارقام مبالغ فيها .

ومن المصادفات العجيبة أن يتحرك جيش الامير عبدالله من العشيرة متجهـا صوب الشرق وفي الوقت نفسه يتحرك سلطان بن بجاد على رأس حملة يبلغ تعداد رجالها ١٢٠٠ محارب من قبل ابن سعود متجها نحو الغرب ليتضام الى خالد بن لؤي دفاعا عن تربة والخرمة حتى يأتيهما بنفسه بعد أن يجمع جيشا قويا .

ونزل سلطان عند خالد وسار كلاهما الى تربة لصد المهاجم والدفاع عنها ، وأغذ في السير لعلمه أن البلدة عزلاء مفتوحة ليس بها ما يحميها ، ونزل ماء يسمى « القرنين » يبعد عن تربة عشرين ميلا تأهبا للقتال المرتقب .

وأقام الامير عبد الله بحضن قرابة شهر ، ثم أقام بالبديع اجتنابا للمعـارك الفاصلة ابقاء على جيشه ، وتصيدا لقوى العدو المتفرقة ، ولكن رسائل أبيه وردتـه بالسير الى تربة واحتلالها ، فأشار على أبيه بالاناة وترك ذلك ولو الى حين ، ودار بين الامير ووالده حديث طويل أصر فيه الوالد (الحسين) على أن يسير الى تربة ويحتلها مهما كلفه ذلك ، فلم يكن له مفر من السير اليها ، واحتال على اجتيافها حتى لا يتكبد خسائر فادحة ، فبعث رجالا من البقوم من مشايعيه ورجاله الى البلدة ليدخلوها ، فالباب غير مغلق في وجوههم ، وليست الريبة تحوم حولهم لان قبيلتهم بها ، فهم بلا شك داخلون بدون قتال .

ومضى البقوم ودخلـوا تربة متظاهرين بالعداء للحسين وابنه ، وكأنما أتـوا للانضمام الى قبيلتهم ذودا عن البلد ، وتفرقوا فيه وفي قلاعه .

وما كـاد الامير عبد الله يقبل على تربة حتى هبت قبيلة البقوم الى منازلته ، ولكن من شايعه منهم ، ولكن رجال « الطابور الخامس » ثاروا وأعلنوا ولاءهـم للحسين ، وفتحوا الابواب واحتلوا القلاع ، وتمكن عبد الله من دخول تربة في ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٧ هـ دون أن يخسر النفس والنفيس ، ومع هذا قاومه بعض أهل تربة فقتل جزاء مقاومته ، كما فتك بعض الجيش المهاجم ببعض النجديين الذين بها وا ستصفوا أموالهم .

وأرسل الى القبائل الضاربة قرب تربة يتوعدها ان لم تأته مذعنة طائعة ، ولقد فعل التهديد فعله في بعض النفوس فأتاه رؤساء بعض القبائل خاضعين مستسلمين رهبا من أن يفتك بهم وقدموا الطاعة .

ومن هذه الكتب كتاب بعثه يوم دخوله تربة – أي في ٢٤ شعبان سنة ١٣٣٧– الى فيحان بن صامل هذا نصه :

« من عبد الله ابن أمير المؤمنين الحسين بن علي الى المكرم فيحان بن صامل .

أما بعد فاني أحمد الله اليكم ، ثم أخبرك بأنا وفقنا الباري سبحانه وتعالى فأطفأ نار الخارجة التي في تربة ومزقناها كل ممزق ، وضربنا أعناق أرباب الزيغ والنفاق ومن جملتهم : الطعامة وابن مسيب نزيل قريتكم ، وان هذه الفتنة التي أثارها خالد بن منصور بلا لازم ينعاه أو حق يطلبه وأدخلكم فيها نأمركم بتركها والاسراع بالركوب الينا وكف كافة سبيع أهل رنية بدو وحضر عن الاستمرار فيه ونأمركم بجلب شيوخ « الزكور » معكم الينا في ست ليالي للائتمان من سطوتنا ، وان لم تفعلوا فسأميل ميمنة البيرق المنصور عليكم مستعينا بالله تعالى ، مستنجدا عظيم قدرته ، ولا تكتم انذارى هذا عن صغير وكبير لاني سأسألك عنه حين لا تنفعك الندامة ، والسلام على من اتبع الهدى » .

وكتب الامير عبد الله رسائل كثيرة شديدة اللهجة الى القرى والرؤساء ، وقلما كتب الى أهل رنية كتابا بعثه الى ماضي بن قاعد ومحمد أبرق نفيش جاء فيه :

« ما خفي عليكم ما حل بتربة من ذبح الرجال وتدمير المال ، بعد أن طغى أهلها وبغوا ، وأنتم يا أهل رنية بدوا وحضرا ، إن ما كفيتم طوارفكم وركبتم الي في ست ليال مع شريفكم والا بحزمتكم حزم السلم ، وطردتكم طردغرائب البل[1] ، وعاقلكم يعلم جاهلكم ، ولولا مشارى بن ناصر وغازى بن محمد لكان صباحي يسبق خطابي اليكم ، والسلام على من اتبع الهدى » .

---

(١) البل : الإبل ، بلغة البادية .

وكان في هذه الاثناء رسول ابن سعود لدى الامير عبد الله قدم اليه برسالة من ابن سعود فوجهه وقال : امض الى سيدك واخبره بما ترى وبما رأيت ، واخبر ابن لؤي والشرذمة التي اتبعته من شرار الخوارج وأرذالهم وقل لهم : انا سوف نأتي اليهم وليستقروا في أماكنهم ولا يحملوا أنفسهم مشقة الزحف الينا ، ولا يظنوا أننا قانعون بالحرمة لا نتعداها ، سنصوم رمضان بالحرمة ونقضي عيد الاضحى في كنوت الاحساء بعد أن نذيق هؤلاء السفهاء العذاب الاليم ، ونستميهم كؤوس الموت والدمار والفناء ، وذلك بعض ما يستحقون من جزاء .

ويذكر بعض الرواة أن الرسول لم يكن واحدا بل كان «وفدا» يبلغ ثمانية رجال ، ولما سيرهم الامير الى ابن سعود أعطاهم رسالته اليه يطمئنه فيها ويعده بالخير ويمنيه بالصلح والوئام .

وكلتا الروايتين غير غريبة ولا تناقض فيها ، فليس المقصود من ذكرها الا اثبات وجود رسول من ابن سعود (أو وفد) بمخيم الامير عبدالله ابن الحسين وتوجهه الى حاكم نجد والاحساء .

ولم يرض بمغادرة رسول ابن سعود — قبل الالتحام بخالد — كل رؤساء جيش الامير من شرفاء وغيرهم ، حتى أن الجنرال حلمي باشا ومعاونه صبري باشا — وكانا قائدا الجيش النظامي — وحامد باشا الوادى ، وابراهيم بك الراوى ومعهم القواد العرب نصحوا الامير باعتقال رسل ابن سعود لأنهم — من الواضح — عيونه وجواسيسه ، وقد علموا في بضعة الايام التي أقاموها أسرار الجيش الهاشمي جميعها وسيبلغونها خصومه ، كما عرفوا مواضع الضعف وموطن القوة وارتسمت في أذهانهم منازله ومراكزه ، فما بالى أقوالهم ونصائحهم .

وأتاه بعد براح الرسول (أو الرسل) بدوي يخبره أن « القوم » على مقربة منهم وقد استعدوا للموت ، وخالد وسلطان قائدا الجيش سيبغتانه الليلة ،

لأن الرسل الذين غادروه الى ابن سعود أتوا خالدا بعد الظهر جادعين أنوف نوقهم محولين رحالها شاقين جيوبهم صائحين بأعلى أصواتهم بما بلَّغوا من عبارات التهديد والوعيد ، ووقع منظرهم وقولهم من ابن لؤي كالصارد المؤلل [1] حتى استشاط غضبا وقال لسلطان : يا سلطان ، ما العمل ؟ أندعه حتى يهاجمنا ؟ فأجابه : الرأي عندك يا بن لؤي !.

وأخذا في التشاور مع كبار رجالهما ، فمن قائل بالصبر أو يأتيهم ابن سعود كما وعد ، إذ لا طاقة لهم بقتال العدو القوي ، وليس من الزكانة أن يقاتل المرء عدوا والفوز بعيد عنه أو مشكوك فيه ، ومن الرعونة أن يرمي الانسان نفسه وسط جيش لجب كامل العدة شاكي السلاح وهو بالنسبة اليه أعزل ، وبعضهم يرى الصلح خيرا ، وأخيرا قرروا الهجوم في جنح الليل ومباغتة العدو .

وجاء بدوي إلى الأمير عبد الله وقال له : إن القوم اجمعوا أمرهم على مهاجمتكم بالليل ومباغتتكم وأنتم غارقون في لذيذ منامكم والفتك بكم أو تستأصلوا عن آخركم .

وأخذ يسرد على الامير الحقيقة التي وقعت ، ولكن الامير — كما يقول بعض الرواة — أمر بقتله محتجا بأنه عين من عيون الأعداء جاء يخذل عنهم غير سامع نصيحة قواده ورجاله الذين أشاروا عليه بابقائه ثم الاستعداد للطوارىء ، ولكنه أعدمه ، وقيل — وهو الصواب — : إنه لم يسمع له ولم يصدقه وأهمله .

واقترح الجنرال حلمي باشا أن يتأهب ويجعل تربة مركز قيادتــه

---

(١) الصارد : السهم الذي لا يخطىء ، والمؤلل : الحاد .

ويعتصم بها . ويرتب الجيش ، ويعد المدافع والرشاشات ، ويبث الارصاد والعيون ، فلم يصغ لاقواله واقتراحه ورأيه ، ودفع كلامه بأن خالدا أو ابن سعود لن يستطيع مهاجمته ولديه هذه القوة الكبيرة ، وترك كل شيء على حاله ، واستغرق الجيش الهاشمي كله في النوم .

أما خالد فقد قسم جيشه ثلاث فرق : أولاها تحت قيادته لمهاجمة مخيم الامير عبدالله نفسه ، والثانية بقيادة سلطان بن بجاد لمهاجمة الجيش النظامي ، والثالثة فرقة الخيالة وعملها أن تمتد على الخطوط الخلفية من وراء مخيم الامير لقطع خط الرجعة عليه .

وأمر خالد الجيش بالمسير قبل أن تغرب شمس الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ١٣٣٧ هـ وهو اليوم الذي أبلغه فيه الرسول خبر الجيش الهاشمي .

مشى خالد يقود رجاله منحدرا بهم الى تربة ، وبعد منتصف الليل هجمت فرقة سلطان هجمة قوية على الجيش النظامي وسلطت عليه نيران البنادق فأفنته عن آخره ، كما اقتحم خالد وجنوده مخيم الامير عبدالله ونزلوا في الجيش الهاشمي ضربا وقتلا ، وهنا نهض الامير مذعورا وبادر الى فرسه وسلاحه يصد الهاجمين ولا سبيل ، وكيف يستطيع أن يفرق بين جيشه وبين خصومه ، فأخذ يضرب يمينا وشمالا .

ولقد دافع دفاع الابطال المغاوير ولكنه بوغت وفني رجاله تحت سيوف الاعداء ، ورأى أنهم تكاتوا عليه وطوقوه ، والخيالة ثار عثيرهم من خلفه ورجاله قد طحنتهم الحرب برحاها الثقيلة وهم يتتبعونه ليقتلوه ويلحقوه بموتى رجاله أو يأسروه ، وهو فرد ليس معه الا بعض رجاله لا يزيد عدده على العشرين ، فمهما يكن من القوة والشجاعة والبطولة فلن يستطيع أن يثبت أكثر مما ثبت ، والموت يرقص أمامه ، فلا سبيل

الا الفرار فنجا ومعه العشرون بعد أن أصيبت فرسه برصاصة كان فيها حتفها فاستبدل بها ناقة ، وقتل قائده الجنرال حلمي باشا ، وأصيب صبري باشا وحامد باشا الوادي بجراح بليغة .

وبعد أن طلع الصباح وجد خالد بقايا الجيش الهاشمي تعتصم بقصر حصين فاقتحمه وفتك بها ، وسقط في ميدان تربة خمسة آلاف قتيل .

* * *

تم كل هذا وابن سعود في « الخرمة » لأنه سمع بالحملة التي جهزها الحسين فنهض من الرياض ونزل اللصة على ثلاث مراحل من تربة ليكون مددا لخالد عند الحاجة ، فلما ارتحل خالد من الخرمة الى تربة غادر ابن سعود اللصة الى الخرمة ونزل بها ليكون دانيا منه ينجده ان طلب .

ومكث ابن سعود منتظرا نتيجة المعركة خائفا أن يُحصَد رجال خالد لعلمه أنهم ليسوا على استعداد تام لمنازلة العدو القوي ، وفوق ذلك فهم في فاقة الى السلاح ، ولا طاقة لهم بالجيش الهاشمي الزاحف المزود بالآلات الفتاكة ، والقوة التي سيرها مع سلطان لا يطمئن الى انتصارها .

لبث أياما على مضض ومعه اثنا عشر ألف مقاتل ، ثم توجه الى تربة ليتولى بنفسه الدفاع ، وبينما هو في الطريق وقد دنا منها وافاه رسول خالد يبشره بما حدث تفصيلا ، وأخبره أن الموقعة انتهت وقد مضت عليها بضعة أيام ، وعدد القتلى من الجيش الهاشمي خمسة آلاف ، فاكتأب ابن سعود جد الاكتئاب لما سمع وأطرق برأسه حيران أسفا ، ثم نهض من وقته ومعه رجاله يغذون السير حتى أتوا تربة .

ما رأى عبد العزيز تلك الجثث البشرية قد جيفت واصفار لونها بعد

أن انكمشت جلودها الا وسبقته دموع الاسى والاشفاق وقال في تأثر : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم !.

ثم أمر بدفن القتلى ، ومضى يتفقد الاسلاب والغنائم ، فرأى فيها معدات العثمانيين الحربية وذخائرهم الكثيرة التي غنمها الامير عبدالله من فخري باشا منذ بضعة شهور ، كما رأى معدات الجيش الهاشمي فاستولى عليها وقسم الغنائم — ما عدا الاسلحة — على الجيش ، فنال كل فرد شيئا كثيرا .

من غير شك وقد أبيدت قوة عظيمة كاملة عن آخرها من قوات الحسين التي يعتمد عليها أن يثور ثورة جامحة ، ويتحين الفرص لأخذ الثأر ومحو العار ، ولو قدر لذلك العدد الضخم الكبير أن يعيش مع انكساره وهزيمته لما توانى الحسين عن العمل للانتقام والكيل لأعدائه بما كالوا له ، فكيف وقد ذهبت تلك القوة العظيمة ؟ فكيف وقد امحى فخار النصر أحرزه على الجيش التركي الباسل الذي مدحه نابليون بهذه الهزيمة الشنعاء ؟!.

ما أعظم ما خسر الحسين في موقعة تربة ! خسر الرجال الكثير ، والقوى الحربية الفنية ، ولولا لطف الله بابنه ولولا ما أبدى من مهارة فائقة في النجاة بنفسه لكان ضمن أولئك الموتى .

وأفدح الخسائر أن تتلاشى قوة الحسين المعنوية ، وفقد بفقدها أضخم آماله ، وصار عرضة لاستخفاف حكام العرب ، وهان أمره على ابن سعود وابن لؤي وابن بجاد ، وأراد أن يعوض هذه الخسارة ففتح الخزائن وسمح بالمال والعتاد لامراء آل الرشيد ليأخذوا ثأره وثأرهم ويناجزوا عدوهم وعدوه ، فهم أعرف بمقاتل الخصم ، ولكنهم غلبوا واستولى ابن سعود على امارتهم في حائل .

وخسر الحسين أسهمه في هذه المرة أيضا ، ولكنه حاول أن يربح فصد مسلمي نجد عن فريضة الحج ، وطفق يكتب في جريدة القبلة – لسان حال الحكومة العربية الهاشمية – افتتاحيات ومقالات مسهبة في الحط من شأن ابن سعود ما ملأ صدور أتباعه غيظا وحنقا ، وقد وسع شقة الخلاف منع الحج بين عاهل نجد والحسين ، وأضحى من العسير سيادة التفاهم الودي بينهما .

أمر ابن سعود بدفن القتلى من الجيش الهاشمي وقسم الغنائم والاسلاب واستولى على المعدات الحربية ونصح لخالد بالتريث والاناة ، ونصح اهل تربة بالتزام الهدوء والسكينة .

وبينا هو بمجلسه بعد مضي أيام معدودات على المعركة سمع هتاف أفراد من الجيش السعودي يعلنون النصر ، ودفعت ببعضهم الحمية والحماسة ونشوة الفوز والطمع في الغنيمة أن يتنادوا فيما بينهم بالهجوم على الطائف ومحاربة الحسين الى النهاية ، ولكن ابن سعود رأى في اقدامه على الغزو والمضي في سبيله شيئا غير قليل من الحرج فتريث وتأنى ، لان له في شمال نجد عدوا ألد خصومة وأشد من الحسين ، لا يأمن جانبه ولا يطمئن الى الصلح بينه وبينه ، فان اشتبك مع الحسين في حرب حقيقية فان انتقاض عدوه بشمال نجد واقع دون شك ، هذا العدو هو ابن الرشيد الموتور منه .

اذا طهر قلب الجزيرة تطهيرا تاما وقضى على الثورات الجامحة القريبة منه الكثيرة أخطارها فان لديه الزمن الكافي للتوجه الى الحسين والتفرغ له، ولعل هذا كان السبب في أن يرخي ابن سعود الحبل كلما رتأه[1] الحسين .

---

(١) رتأ الحبل : شده .

ووصلت فلول المنهزمين الطائف في ٢٨ شعبان سنة ١٣٣٧ هـ ونشرت أخبار الهزيمة وتناقلتها الالسن والمجالس والمراسلات ، فدب الذعر والهلع في القلوب ، وبات أهل الطائف والمصطافون في قلق متجدد ، وخافوا أن يقتحم « المدينة » [1] الوهابيون – كما كانوا يسمون أهل نجد – الطائف فرحل من استطاع الرحيل ، وكان في طليعة الراحلين أسرة الملك وكبار رجال الحكومة .

ولم يرض الحسين بهذه الحال وخشي مغبة الامر إن تراخى فأسرع ببعث وزير حربيته محمود القيسوني باشا الى الطائف ومعه خمسمائة جندي للدفاع ، ولم يقنع بهذا « الاجراء السريع » بل خاطب رئيس حكومته الشيخ عبدالله سراج وطلب اليه الرأي في هذه المحنة فلم يجد لديه الا الرأي الحازم ألا وهو متابعة الحرب ودفع الغزاة دفعا لا هوادة فيه والدفاع عن كل شبر من الحجاز .

ووقع الحسين في حيرة من أمره ، وطلب الى رئيس حكومته أن يتصل بسفير بريطانيا بجدة المستر بولارد ويرجوه أن يتدخل في المشكلة الجديدة ويرد ابن سعود عن حدود الحجاز ، فوعده السفير بالسعي بعد أن قال له : أردنا أن نتدخل في الامر من قبل فأبيتم .

واتصل السفير بلندن وجاءه الامر بابلاغ ابن سعود أن يعود الى الرياض ، فكتب الرد واسلمه الشيخ محمد الطويل – ناظر الجمارك – ليبعثه الى الحسين بمكة ليرسله هذا الى ابن سعود وذلك في الثاني عشر من رمضان سنة ١٣٣٧ هـ ووصل خطاب السفير البريطاني في ظهر ١٥ رمضان سنة ١٣٣٧ هـ وفيه ما يأتي :

---

(١) المدينة ، بضم الميم وفتح الدال مع التشديد وكسر الياء المشددة .

« أمرتني حكومة جلالة الملك أن أبلغكم بأن تعودوا الى نجد حالما يصل الى يدكم كتابي هذا وتتركوا تربة والخرمة منطقة غير مملوكة حتى مفاوضات عقد الصلح وتحديد الحدود ، واذا أبيتم الرجوع بعد الاطلاع على هذا الكتاب فحكومة جلالة الملك تعد كل معاهدة بينكم وبينها ملغية ، وتتخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية ، وبالعكس فهي تقدر عملكم اذا عدتم ، وتعتبر أنكم قمتم بحقوق الود والولاء وأخذتم بنصائحها الودية لانها تعد الجميع أصدقاء لها ، وهي تأسف أشد الاسف لما وقع بين أصدقائها سواء أكان النصر في جانبكم أو في جانب الحسين » .

وما انتهى ابن سعود من تلاوة خطاب السفير البريطاني الا وهـو ينادي في قومه بالرحيل ويتأهب هو نفسه لمغادرة تربة والخرمة الى نجد ، ورد على السفير ، وأسلم الرسول الرد ، وبارح تربة ميمما نجدا ، حرصا منه على علاقته الودية الطيبة مع بريطانيا .

وهذه رواية الملك عبدالله بن الحسين لموقعة تربة ، أنقلها عن مذكراته (الطبعة الخامسة) وقد نشر فيها بعنوان « معركة تربة » وهاهي ذي رواية جلالته :

« وتلقيت أمرا بالقدوم بالجيش الشرقي إلى الطائف للعمل على تأديب الشريف خالد بن لؤي بوادى الخرما ، وكان خالد هذا قد اعتنق المذهب الوهابي ، وطرد قاضي الخرما الشرعي ، وقتل الابرياء ، كما قتل الشريف بعيجان – وهو أخوه من أمه وأبيه – لأنه لم يطعه على فساده ، ثم أخذ يغير على من لم يدخل في هذا المذهب من العشائر التابعة للمملكة الهاشمية الحجازية .

« وكان والدى قد وجه الشريف حمود بن زيد على رأس قوة إلى الحرما ، فلم يفلح في مهمته ، ثم بعثه مرة أخرى فعاد جريحا مغلوبا ، فأمددته وأنا بوادي العيص بقوة كافية بقيادة الشريف شاكر بن زيد ، فذهب بها ، وبعد تلكؤ بمرّان توجه إلى الحرما ونزل بشرقيها في الوادى نفسه ، فهوجم وهو في منزله وغلب أيضا ، فجهز والدى قوة أخرى وبعث بها مع الشريف شاكر والشريف عبدالله باشا بن محمد بن عبد الله ابن عون ، فبقيت هذه القوة بحضن ولم تنجز شيئا .

« والواقع انني كنت أرى عدم الدخول في معركة من هذا النوع في ذلك الوقت ، فالناس سئموا الحرب ، والجنود المستأجرون امتلأت جيوبهم ولم تعد لديهم رغبة فى جلاد .

« فاستأذنت بأنى أحب القدوم إلى عشيرة — وهي ماء شمال الطائف — لأبعث بالأثقال وما لا لزوم له من أسلحة ثقيلة إلى الطائف واتشرف بلثم اليد الملكية ، فوافق رحمه الله على ذلك ، ولما وصلنا إلى عشيرة وجدناه بها ، فأقمنا ثلاث ليال حاولت فيها صرف جلالته عن متابعة هذه الخطة ، وأن يسمح باستدعاء الأميرين عبدالله بن محمد وشاكر بن زيد .

« وقد جاء إلى عشيرة في معية جلالته حسين افندى روحى (كاتم سر المعتمد البريطاني بجدة) فاختلى بى وقال لى : إن بريطانيا نصحت بعدم متابعة الحرب ضد الوهابيين ، وأنها ترى مقابلة الدعاية بمثلها ، وأنها تعلم أن بيد الوهابيين قوى نشيطة متعصبة ينبغي إخماد نارها بالحكمة ، وإن ما وقع على الشريف حمود فى المرتين السابقتين وعلى الشريف شاكر فى المرة الاخيرة فيه الكفاية ؛ وان جلالة الملك له من المسائل فى البلاد العربية كالشام والعراق ما ينبغي ان ينصرف لها دون غيرها .

« ولقد كنت أعرف مغزى تبليغاته . وتذكرت ما كان قاله لى الصدر الاعظم إبراهيم حقى باشا من أن أرجو والدى — وهو يومئذ شريف مكة — أن يترك المسألة الوهابية وألا يساعد سعود بن عبد العزيز بن سعــود العرافة على ابن عمـــه عبد العزيز بن سعود ، لأن الحكومة البريطانية احتجت لدى الباب العالى فى هذا الشأن .

« وكتبت كتابا إلى أمير نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعــود — جلالة الملك عبد العزيز فيما بعد — أخبرته فيه بما تم من نصرفى المدينة المنورة ، وبانقضاء حكم الاتراك على البلاد ، واخبرته باننى أمرت بالسفر حالا إلى الحجاز لتأديب الشريف خالد بن لؤي الذى خرج عن الطاعة ، وانه ليس من قصد سوى هذا ، وأكدت له فى كتابى صدق سعيى لتوطيد الصداقة بينه وبين والدى ، وأن ليس للعرب من فائدة فى التنافر والتناحر .

« ولكنني — وفي الوقت نفسه — صارحت جلالة الملك والدى بلزوم تأخير هذه الحركة زيادة فى التبصر وتمحيص الامر ، فأجابنى رحمه الله بجواب عرفت منه عزمه ، إذ قال لى : « يجب عليك ان تتوجه إلى الخرما للقضاء على هذه الحركة الفسادية ، وان معك من القوة ما لو قاتلت به كل العرب لتغلبت عليهم » .

« ولو علم جلالته حقيقة ما أعرف لكان من الرأي على غير هــذا ، فإن قتال العرب ليس كقتال الترك ، لأن الاتراك أهل ثقل فى الحركات وابطاء ، ولا وسائل نقلية لهم ، فكنا نهاجمهم متى شئنا وننجو منهــم متى خفنا ، لسعة حركاتنا ولكوننا فى بلادنا ، والجندي الوهابي حريص على الجنة حسب عقيدته انه إذا قتل دخلها .

« ثم انني في محاولة ثانية – وكأني انظر الى مصارع القوم – اختليت به رحمه الله ، وعرضت عليه رأيي في العدول عن أمره ، فغضب غضبا شديداً وقال : هذا رأي أم عصيان ؟ فقلت : أعوذ بالله من المعصية والعصيان ، ولكنها النصيحة ، فانني عالم بروحية الفريقين ؛ فقال : اذن، ان لم تفعل ما آمرك به فأنا متخل عن الملك ، فاستعذت بالله وقلت : انني فداء لكم ولرغبتكم . وانني ذاهب حسب ارادتكم ؛ واضفت : سأصدع بالأمر وأسأل الله لجندكم الظفر ولنفسي الشهادة .

« فعاد رحمه الله الى مكة ، وتوجهت بالقوة التي معي الى البديع – ماء عذب في سفح جبل البقوم – وبعثت الى الاميرين عبدالله بن محمد وشاكر بن زيد بان يتركا محلهما وينزلا بالبديع .

« وبعد يومين نزلت البديع ، ولكم احببت لقاء العدو به ، لأنه مركز منيع لا يؤتى الا من وجه واحد ، وانني متى تحصنت به وبثثت السرايا وقطعت النخيل وأخذت المعاويد – وهي دواب للسقايا – اضطررت الاعداء الى الجلاء أو التسليم ، وانه اذا اجتمع الوهابيون وقصدوني به فان الدفاع يكون به أهون وانا متحصن وعلى الماء ، ومهاجمونا يمنعهم من البقاء الظمأ .

« وفيما انا هناك أتحقق عن حالة العدو ، واذا أمر سام يردني وفيه انه اذا لم ننفذ ما أُمرنا به فستكون التبعة علينا وانه لن ترسل ذخيرة للعسكر بعد وصول الامر بثمانية أيام ، فعلمت الرغبة الأكيدة وقررت تنفيذ الأمر .

« وبعد التشاور مع من أعتقد إخلاصه من الرؤساء رجحت الاستيلاء على مدينة تربة وحصنها المعروف برمادان ، وهو الذى ضربت فيه القوة المصرية في حركة الوهابيين الاولين وأُتِيَ على آخرها .

« وتحركت بالجيش صباحاً وأمسيت بالقرب منها ، وفي اليوم التالي تلقيت كتابا من الأمير عبد العزيز آل سعود يقول فيه :

« بلغني انك جئت تجر الاطواب والعساكر تريدنا بنجد وحنا ما عندنا بنجد الا الرمث نتظلل به حنا وعولاتنا . فانت أعلم ان اهل نجد كافة جاءوك يمشون مرتهم تسبق رجالهم من أقصاهم فى الشمال وأدناهم فى الجنوب ، وانا خرجت ونزلت الصخة وعليه فأنت انكف لديرتك فان فعلت فأنا امنع الاخوان ، وان لم تفعل فبصرك بنفسك » .

« فبعثت اليه بالجواب التالي مع رسوله :

« انني تلقيت كتابك واستغربت ما رأيت من تفاوت بينه وبين كتابك الاول ، فالتهديدات فى الكتاب الاخير لا تتناسب مع ايمان الصداقة والمحبة فى كتابك الاول . وأما ما ذكرت من اناس جاءوا يقصدوني المرأة تسبق الرجل ، فمن هم هؤلاء ؟ فان كانوا عتيبة فنحن وهم من عهد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد ظئره حليمة السعدية الى اليوم ، من ذلك العهد وهم جيراننا ورعايانا ، فان صدقت فيما قلت واصابونا فلا فضل لك فى ذلك فالغالب هم ، وان قدرنا الله عليهم واصبناهم فوالله لا تجد عليهم ولا تحزن ولا ينقصونك ، وأما طلبك مني الرجوع فهذا لا يليق بان يكتب الي به ، وأنا لا يقعقع لى بالشنان ، فخابر ان شئت ولي الامر بمكة ، وانا مستمر فى عملى متوكل على الله » .

« ثم مضت أيام واذا جموع الوهابية تصل الى الخرما وتجتازها الينا ، وقد اغارت خيلهم على سرحنا ، وتقابل الخيلان وقدر الله فطردوا .

« وبعد ليال ثلاث جاءوا بمجموعهم يجرون الحجر والشوك : عشائر

مطير الدويش ومن معه ، وعشائر حرب أهل نجد ، وعشائر عتيبة وعلى رأسها سلطان بن بجاد الملقب بسلطان الدين ، وعشائر الدواسر ، وعشائر قحطان ، وكافة سبيع أهل نجد والسهول ، وسبيع أهل الوديان — يزاحمون الخمسة والعشرين الفاً ، وكانت القوى التي معى من حيث قوة النار لا بأس بها ، وأما العدد فكان الجند النظامي خمسمائة ، والجند من أهل الحجاز والأرهاط المكتوبة ثمانمائة وخمسين .

« فصبحونا بالحرما وكانت الملحمة ، حيث استشهد من الاشراف ثلاثة وخمسون فى صفنا ، ولم ينج من النظاميين الا ثلاثة ضباط هـم الاميرالاي صبرى بك والقـائد ابراهيم الراوى والقائد حامد الوادى ، والذى سلم من القوة العربية الحجازية مائة وخمسون رجلا ، أما هم فلم يبلغوا منا ما أرادوا إلا بعد أن حصدوا حصدا ، وكان قتلاهم فوق السبعة آلاف ، وكانت نجاتى معجزة من المعجزات .

ولقد عـدت بعد الهزيمة فى تربة وبعد القتل المريع الذى أردى الألوف وأنا أرى ما سينجم من استفحال الأمر على بلادنا ، وكنت نصحت لوالدى فى أن يترك أمر شرقي الحجاز الى فرصة يكون استعد فيها بجند نظامي مسلح تسليحا جيدا ، فلم أفلح فى نصائحى ، وكان ما أراده الله » .

الجزء الثالث

- حكومة حائل
- ال عائض
- ابن سعود والحرب الأولى وثورة الحسين
- في الحرب الكبرى الأولى
- ابن سعود والحسين
- ابن سعود والعروش الهاشمية

حكومة حائل

ان الصراع الرهيب الذي بين آل سعود وآل رشيد أدى إلى تصدع امارة هؤلاء وتداعى بنائها ، لان من كان يتولى الحكم منهم لم يكن كفؤا لابن سعود في صحة الملكات وقوة التفكير ورجاحة العقل وحيوية الذهن وابتسام الحظ ، بل كان السيف يقطع رحم افراد آل رشيد حتى تدهورت روح حكومتهم المعنوية ، ولم تعد قوية كما كانت في زمن محمد بن الرشيد وعبد العزيز بن متعب .

واستطاعت الرياض ان تزحم حائل وتنزع منها السيادة وحصرتها في رقعة صغيرة من الارض .

وكانت الخصومة والبغضاء والتناحر بين افراد أسرة الرشيد أعظم سبب في تعجيل انهيار دولتهم ، ومن كان منهم ذا خبرة وزكانة وحسن حظ أودى به ذوو قرباه طمعا في الامارة ، وكانوا بذلك يعينون خصمهم على الفوز بهم .

وفقدت حائل كل نفوذها ، وأخذت تسرع إلى الهاوية حتى تولى أمرها سعود بن عبد العزيز بن متعب ، فلم يستطع أن يخطو بها إلى الامام الا قليلا ، فقد كان صغيراً وتولى بالنيابة عنه أخواله آل سبهان ، ثم تولى هو نفسه ، ولكن حائل ما كانت لتنهض من كبوتها الا على يد رجل واحد غير سعود وغير آل سبهان ، ذلك هو ابن سعود وحده .

وكان سعود من امراء آل الرشيد الافذاذ ، وتفاءل به سكان جبل شمر لما رأوا منــه من حزم وطيبة قلب وحسن ادارة مع حداثة سنه وتوليه الامر وهو مدبر .

وما كاد يتولى الحكم حتى بعث اليه الملك الحسين بن علي كتاب مورد يظهر له فيه استعداده لمعونته بالذخائر والاسلحة والاموال ليحارب ابن سعود عدوهما ، وكان سعود اذ ذاك على صلح مع خصمه ، ولكنه قد واتته الفرصة وقام الحسين بن علي يعينه فليهتبلها اعتقاداً منه بأن النصر سيحالفه ، فنقض العهد وأعلن فساد ذلك الصلح وبطلانه وأخذ في ترتيب الامــر وتدبيره ، غير أن رجاله نصحوا له أن يتدرع بالاناة والروية ، وأن يبقى على صلحه مع ابن سعود ذاكرين له وفاءه وشرفه ، لكن القصر الحاكم رأى وجوب انتهاز هذه الفرصة واعلان الحرب على حكومة الرياض وحاكمها انتقاما منه وأخذاً بثأر سيده القتيل بروضة مهنا ، فأصر سعود على رأيه ، ولكن قومه ابوا متابعته وهددوه بالتخلي عنه اذا أقدم على اثارة الفتنة بين الحكومتين من جديد وقد نامت بدون سبب معقول ، وافهمه أحــد حكمائهم أنهم له تابعون في السراء والضراء ، ومعه على الاخضر واليابس ، وسامعون مطيعون ، والحكمة والرأي الاسد ألا يلقوا بأنفسهم إلى التهلكــة ويحفروا قبورهم بأيديهم ، واذا دعا الواجب لنقض الصلح ولأعظم مــن نقض الصلح فهــم لا يتأخرون ، وسيهبون كالريح يتسابقون إلى ميدان الكفاح تحت قيادته ! .

وقنع سعود بما قيل له وندم على فعله فأرسل إلى عبد العزيز بن سعود يعتذر اليه ويطلب تجديد الصلح مرة ثانية على الشروط التي بينهما ، فرضي وقبل العذر ، وجدد الصلح على ما سبق الاتفاق عليه ، ورجعت المياه إلى مجاريها ، وفي الوقت نفسه بعث سعود إلى الحسين يعتذر اليه أنه لا يستطيع في هذه الظروف مناجزة خصمه ، وسيختار الوقت الملائم فيعلمه ليأخذ معونته ويحارب عدو الطرفين .

قبل ابن سعود العذر مع علمه أن الصلح الجديد مثل سابقه لا قيمة له عند خصمه، فمتى وجد مسلكاً إلى نقضه سلكه دون أن يحفل بالعهد ، وما جرأه اليوم على الاقدام على عدم المبالاة بالميثاق وعلى الضرب به عرض الحائط سيجرئه فيما بعد ، ، ولولا ممانعة عقلاء قومه ونصحهم له لمزق العهد ولعادت الحرب بين الفريقين تزين الابطال والرجال إلى الفناء ، ولكن ، لماذا قبل ابن سعود أن يصالح الخصم من جديد وهو يعلم خبيئة نفسه ويعلم منه الغدر بالمواثيق ؟ أكان قبوله مكرا وخداعا ؟ أضعافاً وخداعاً ؟

لا هذا ولا ذاك ! وانما اراد ابن سعود أن يقابل خصمه بما يستحق من الجزاء ، واذ رآه جنح للسلم واعتذر عن خطيئته مال إلى السلم أيضاً ، لئلا يلام اذا أخذ خصمه بالقوة وهو نادم معتذر مائل إلى الصلح من جديد ، والآية الكريمة تقول : ﴿ وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ وابن سعود في الوقت نفسه يعلم أن خصمه لن يستطيع الوفاء ولن يتم له البقاء ، لانه رأى أن أسرة الرشيد قد ابتليت بأن يقتل بعضها بعضاً ، فلم يتعب نفسه وينفق المال للانتقام والتأديب ؟ ليطمئن باله وليتركهم لانفسهم ، ثم ان ابن سعود علم أن أهل حائل وزعماءها أبوا أن يقفوا مع سعود اذا نقض العهد ، فهو يثبت لهم نبله ويجتذبهم بهذا الصنيع .

وانهما لكذلك — أي سعود الرشيد وابن سعود — اذ وردتهما الانباء

بوقوع الشقاق والخلاف بين أهل الجوف ونوري الشعلان ، واستنجد هذا بابن سعود يستنصره على أعدائه ، فاعتذر اليه ولم ينجده لئلا يخل بشرط من شروط معاهدة الصلح ، وأرسل أهل الجوف إلى سعود بن الرشيد يستنجدون به على نوري الشعلان فأسرع اليهم وقاتل عدوهم حتى دحره ، وبذلك أعاد الجوف إلى حائل وأصبح أميرا عليها ، ورجع إلى حائل سعيدا فرحا باتساع رقعة ملكه ، وأخذته نشوة الفوز وأراح نفسه من عناء الحروب ، وأباح لها المتعة البريئة .

وخرج سعود ذات يوم بعد الظهر وكان صائماً يقضي يوما أفطره إلى موضع يسمى « الغبران » واصطحب معه مولاه سليمان العنبر ودرعان وراشد الحسين والذعيت وسلامة الفريح ومهدي مملوك عبد العزيز المتعب وهو يكنى « أبا شرين » وعبدالله بن متعب الرشيد وكان غلاما ، وأدركهم في الطريق عبدالله بن طلال ومملوكه ابراهيم المهوس ، ولم يكن مع الامير ورجاله غير سلاح الصيد ، وأما ابن طلال والمهوس فكانا مسلحين .

جلس سعود على صخرة بسفح الغبران وعن يمينه سليمان وعن يساره ابن طلال متأخرين عنه ، والمهوس على مقربة من سيده ، وأما الباقون فقد تفرقوا هنا وهناك ، ما عدا عبدالله بن متعب فقد اعتمد فخذ سليمان العنبر وجلس عن يمينه ، وأما الذعيت فقد بقي معهم وأخذ الهدف ونصبه بعيداً ومكث قريباً منه يصلحه ان أصيب ، وبيد سليمان «المجهر» يرقب الهدف ، وصوب سعود بندقيته وأصاب الهدف بدقة واحكام فصاح سليمان هاتفاً بحياته ، واستأذن ابن طلال من سعود في الرمي ، فأذن له ، وأصاب الهدف أيضاً ، فهتف سليمان له ، ثم صوب سعود بندقيته إلى الهدف واتجه سليمان بمجهره مراقباً ، وابن طلال يصوب فوهة بندقيته إلى الهدف أيضاً ، وفي اللحظة التي أصاب فيها سعود هدفه كان هو نفسه هدف ابن طلال الذي وجه فوهة بندقيته إلى رأس سعود وأصابته ، فقد أخترقت رأسه

رصاصة ابن طلال وسقط في عب سليمان فالتفت اليه وضمه قائلا : خير ! خير ، ظنا منه أن البندقية رفسته ، ورفعه فاذا الدم يتفجر من رأسه ومن عنقه .

وقذف ابن طلال سليمان العنبر بست رصاصات أصابت ثلاث جنبه فاخترقته وثلاث قدمه ، فتظاهر بالموت واستلقى فوق عبدالله بن متعب ووقاه بجسمه كيلا يصاب ، وقفز القاتل الى صهوة جواده ووثب خادمه الى ظهر فرسه وأخذا يسابقان الريح الى البلدة .

وحار الذعيت في أمر الطلقات ، فهاهوذا الهدف ما يزال قائما في مكانه ودوي الرصاص في أذنه ، ولكن أين الرصاص ؟.

وصعد الربوة فرأى سعودا ملقى وبجانبه سليمان فأسرع اليهما سائلاً ، فرفع سليمان رأسه وصاح فيه : قتلوا سيدك ، أدرك ابن طلال ! اقتله! اني مصاب ، أسرع .

فقفز الذعيت الى جواده وطار به خلف القاتل ومملوكه وأطلق عليهم النار فلم يصابا .

ومشى سليمان فى لغوب معتمـــدا على ابن متعب الصغير ، ورأى «مهدي» فصاح فيه : أدرك ابن طلال وعبده فقد قتلا سعودا .

لم يصنع مهدي شيئا سوى أن قبع في مكانه وصوب بندقيته الى ابن طلال فاذا هو يصيبه في قدمه ، فيتدحرج من جواده الطائر ويسرع اليه الذعيت ويجهز عليه ، ثم أدار مهدي الفوهة الى المهوس فاذا هو ملقى على الارض في لمح البصر ، ويقضى عليه الذعيت .

واجتمع سليمان والذعيت ومهدي ودرعان وسلامة الفريح ومعهما ابن

متعب وأتوا بسعود وبكوا عليه ، فنهض سليمان وكان صاحب الكلمة فيهم وقال : أترون البكاء مجديا الآن ، لا ، قتلتم المجرمين المعتدين ، فانظروا في مستقبلنا ومستقبل حائل .

فقال الذعيت : ما رأيك أنت ؟.

قال سليمان : الرأي !.

وصمت لحظات يفكر ثم قال : أخشى أن يكون عمل ابن طلال نتيجة مؤامرة خطيرة لقلب الحكم في حائل ، فشقيقه محمد بن طلال بها ، ولعله احتل قصر الامارة وأخذ البيعة ، وأري أن يمضي أحدكم الى المدينة سرا ويكشف الامر ، فان كان ابن طلال قد انتزع الحكم هربنا من وجهه بابن متعب حتى اذا قوي ساعدنا عدنا إلى حائل لنسترد الامارة .

ووافق الجميع على رأي سليمان العنبر وانتدبوا الذعيت ، ولبثوا مكانهم منتظرين يتدبرون الامر حتى رجع اليهم وأخبرهم ألا شيء في البلد ، والناس لا يعلمون عن الحادث شيئا .

فرجعوا الى حائل يشيعون جنازة القتيل المأسوف على شبابه ، ونصبوا عبدالله بن متعب أميرا عليها ، وكان قتل سعود في سنة ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠).

قتل سعود – ظلما – فقام بعده ابن أخيه عبدالله بن متعب بن عبد العزيز ، وسيرته ومظاهر حياته ونفسيته تشبه عمه ، وكان لين الجانب بالنسبة الى أفراد آل رشيد وما فطروا عليه من الصرامة والعرام والقوة ، وعمل اول ما تولى أن كتب الى ابن سعود يخبره بتربعه على عرش امارة حائل والجوف بعد قتل عمه ، ويطلب منه تجديد الصلح واطالة مدة المهادنة رجاء أن يتجهز أثناءها – في طي الخفاء – فيسهل عليه القضاء على حكومة الرياض بالأسلحة التركية التي تسلمها أسلافه ، وبعد أن يجمع

القبائل الموالية له ، وبعد أن يثير على ابن سعود القبائل الموالية له ، ومساعدة الشريف الحسين الذي وعد عمه قبيل موته بأن يمد اليه يد العون بكل ما يحتاج اليه من مال وسلاح ليحارب عدوه وعدو آل الرشيد وينتقم منـــه شر انتقام .

ولكن ابن سعود أدرك أن تجديد الصلح بينه وبين آل الرشيد معناه الاعتراف من جانبه بنفوذ الحسين ونفوذ الايدي الاجنبية في نجد . لان الوالي الجديد صغير السن والامر كله الى غيره ، ورأى – فوق ذلك – أن الصلح لا يجدى الطرفين ولا يسرى مفعوله ، فابن الرشيد سيمزق الوثيقة وينقض العهد متى آنس من نفسه القـــوة ، ولكنه لضعفه وحداثة عهده بالامارة رغب في تجديد الصلح ذى الشروط الاولى التي تضمنتها معاهدة سعود الرشيد وابن سعود .

وفي تجديد الصلح نفع ابن الرشيد ، لانه يعطيه الفرصة ليجمع قواه المبددة ويشب وثبة الاسد من غيله ، ويعطيه الفرصة لتسلم مساعدات الحسين ! وفي التجديد ضرر على ابن سعود لان خصمه سيقوى عليه بما يصل اليه من مال وسلاح .

فمـــا الحل ؟ وكيف يستطاع التوفيق بين الفريقين وهما على طرفي نقيض ، الحرب ؟ كلا ، فكلا الفريقين لا يريد الحرب الآن عـــلى الاقل ، وليست بالحل المفيد ! وليست بالحل الوحيد ، فما الرأي ؟.

ارتأى ابن سعود قبول الصلح لا تجديد الصلح القديم بشروط جديدة اشترطها على ابن الرشيد لسلامة البلاد النجدية واستقلالها عن الاجانب أو المنتسبين الى الاجانب ، وبغيرها لا يمكن القضاء على نفوذ كل أجنبي ، وشروط ابن سعود هي :

١ ــ بقاء آل الرشيد في الحكم .

٢ ــ استقلالهم التام في جميع الشؤون الداخلية المتعلقة بشمر وحائل.

٣ ــ عدم السماح لهم بمعاملة دولة أجنبية أو عقد معاهدة معها، أو الاتصال بها .

٤ ــ الرجوع الى حكومة الرياض فيما يتعلق بالشؤون الخارجيــة جميعها .

٥ ــ تعهد حكومة الرياض بضمان حكومة حائل والقيام بالدفاع عنها اذا هوجمت ، وحمايتها من المعتدين .

واغتبطت قبائل شمر وأهل حائل بهذه الشروط ورضوا بجملتها ، وصادفت هوى في أنفسهم ، ووجدوا فيها راحتهم من الكــد الناصب وطمأنينتهم المفقودة بعد هذا القلق والاين بسبب الحروب التي خاضوها من قبل والحروب التي يجبرون عليها في المستقبل اذا رفضت شروط ابن سعود ، وبقبولهم اياها سوف تنطفىء تلك النيران المتأججة بين آل الرشيد وأتباعهم وآل سعود وأشياعهم ــ وقودها الرجال والاموال والثمرات ــ وكلما مرت الايام زاد وقودها ، وقد مضى عليها قرابة قرن وهي تتلهــب وتضطرم ! وبقبولهم اياها تموت الضغائن والذحول التي توارثها الابناء عن الآباء ، وسيعودون إخوة مسلمين كما جعلهم الاسلام .

ولكن قصر الاماره رأى في الشروط قيودا وسدودا ، وأقل ما فيهــا يحط بكرامته ويجعله مستعمرا بعد أن كان مستقلا يدير شؤون البــلاد الداخلية والخارجية لا يشاركه أحد ، وليست الشروط الثلاثة الاخيرة الا أغلالا في عنق حكومة حائل ، فرفض القصر بكبرياء وصلف ، وأجاب

في لهجة قاسية : إن حريته في ادارة شؤون الحكومة والبلاد لن ينزل عنها مثقال ذرة لاحد مهما كان ، وسيدبر نفسه بنفسه ، ويسير على النهج الذى يرتضيه ، والسياسة التي ترضيه .

ومن ثم اتسعت شقة الخلاف بين الحكومتين فبادرتا الى النسيف يفصل بينهما ، ومضت كلتا الحكومتين تستعد وتتجهز .

أما عبد العزيز فقد أذاع بعزمه على غزو آل الرشيد واحتلال حائل ، وأتته الجموع متطوعة للعمل تحت راية زعيمها وبلغ تعداد من نهضـوا للغزو عشرة آلاف محارب ، فسار بهذا العدد الضخم حتى وصل القصيم ونزل بها ، وسير منها قوتين : احداهما بقيادة شقيقه محمد بن عبد الرحمن ووجهها الى حائل ، وأمره بمهاجمتها وتطويقها وحصارها وقطع كل اتصال لها بالمدن والقرى ليسهل عليه احتلال المدينة ، والثانية أمر عليها ابنـه سعودا — وكان شابا لم يبلغ العشرين — وأمره أن يمضي الى شمر ويأتيها فى عقر دارها ، ويتخير وقتا ملائما للهجوم غرة حتى لا يترك لها فرصة للتعبئة والاستعداد .

وبقي عبد العزيز بن سعود فى القصيم يحفظ التوازن ويعبىء المـدد ، ومضت القوتان تحت امرة ذينيك القائدين الى ما انتدبتا اليه ، وعمـل القائدان بوصية الزعيم ، فمضى سعود الى شمر يقاتلها ، وزحف محمد بجيشه الكثيف وطوق حائل وحاصرها حصارا شديدا ، وسلط عليهـا النيران ليل نهار .

وحار عبدالله بن متعب الرشيد وسدت فى وجهه الطرق ، وعجـز القصر الحاكم عن الوصول الى حل يرضى الطرفين ، كما أتى أهل حائل الى أميرها ابن متعب يطلبون اليه أن يعمل ما فيه خلاصهم ، فبعث الى

ابن سعود يجيبه الى ما طلب سابقا ويعلمه قبول الصلح على الشروط التي اشترطها .

لكن ابن سعود رأى أن ابن الرشيد لم يخضع لمطالبه الا تحت تأثير الضغط ، ومتى زال عاد يعلن العداء فلم يقبل منه ، وخيره بين الحرب أو التسليم بلا قيد ولا شرط ، فاختار الحرب ورفض التسليم باباء، فبتبيت الجيوش السعودية بقيادة محمد محاصرة حائل ، ثم توحدت القيادة العامـة وأصبحت في يد سعود بن عبد العزيز ، وانتقل محمد الى شقيقه .

واشتد الحصار بحائل وضاق أهلها لنفاد الارزاق وانقطاع الطرق ، فبدأت المجاعة في البلاد ، ووقع الناس في كرب عظيم ، ولم يكن عبد الله أقل منهم ضيقا وكربا ، وتملكه اليأس الشديد ، غير أنه قـام في النهاية يقامر بأغلى ما لديه : بحياته ، وصمم على الدفاع والقتال حتى الموت ، ولن يسلم بلاده للعدو ما دام فيه نفس يتردد .

وسرت الحمية منه الى أهل حائل فأصروا على عدم التسليم ، وطفق ينظم الامور استعدادا للقتال ، وفيما هو كذلك اذ قدم من الجوف ابن عمه محمد بن طلال زاعما أنه قادم الى حائل للدفاع عنها ويشارك ابن عمه الجهاد ، وأظهر له الود كما تظاهر أمامه بالخضوع والاستكانة ، ولكن عبدالله ظن أن قدوم ابن طلال الى حائل في هذه الظروف انتهاز الفرصة والوثوب الى الامارة ، ولن يستطيع الا بقتله ، ولن يزهد فيه — كما فعل أخوه عبدالله بن طلال قاتل سعود بن عبد العزيز بن رشيد — فاحتاط للامر ووضع الحراس من مماليكه الذين يثق بهم ، ومع هذه الحيطة بقي مسهدا قلقا مضطربا ، العدو أمامه يحاصر المدينة ، وابن عمه محمد بن طلال عدو آخر يتربص به ينتهز غفلته ليقتله . والعدو المحاصر بينـه وبينه أسوار وأبراج لا يستطيع تخطيها ، وأما ابن عمه فكيف السبيل الى

اتقائه وهو داخل المدينة ومنزله قرب منزله ، وربما غافل الحراس وفتك به أو سلط عليه أناسا غيره ، وأخذ يفكر في ابن طلال .

وجمع عزمه وقوته وألقى بابن طلال في السجن ، الا أن العبيد أطلقوه وأحضروا كبار رجال حائل وقربوا ما بينهما وأصلحوا ذات بينهما وتعاهدا على الدفاع عن بلادهما ، فمضى ابن طلال يجمع قبيلة شمر استعدادا للمعارك القادمة .

غير أن عبدالله بن متعب رأى من الخير لنفسه أن يلتجىء الى العدو العاقل ويسلم نفسه اليه ويدع مدينة حائل الى أهلها يحمونها ولا يسلمها برا بقسمه ، اذ آلى على نفسه أنه لن يسلمها وفيه نفس يتردد ، وسيجد عند عدوه السلام والغنم اذا ذهب اليه طائعا ، أما اذا مكث في المدينة فسيعيش مهددا من ابن عمه ، وهو لا يريد أن يسفك دمه ، فليبارحها ؛ واتفق مع خواصه على مغادرة البلدة واتعدوا على اللقاء خارجها .

والتقى الامير الرشيدي وخواصه وهم : درعان ، والذعيت ، وعبدالله آل بجاد ، وصقيه (مملوك الامير) بسليمان العنبر وابنه غاطي في الموعد فجرا ، ومشوا يريدون ابن سعود ، وكلهم يمشي على قدميه ، وعلم أهل حائل في الضحى بأمر الهاربين ، فقرروا اللحاق بهم وردهم الى المدينة ، ولكنهم تركوهم — أخيرا — وكتبوا الى محمد بن طلال فتوجه الى حائل ودخلها وتولى الامارة وقد سعت اليه من نفسها .

ولم يكن مع الهاربين زاد ولا ماء ، فاشتد بهم العطش والجوع ، ودخل عليهم العشاء ولم يصيبوا منهما شيئا ، والطريق مظلم غير لمح النجوم ، واستبد بهم التعب فقال أحدهم — وكان يعرف هذه الاماكن —: ان هنا بئرا خلف تلك التلول . فمشوا حتى أتوا ووجدوا عليها بدوا كثيرا

من جيوش ابن سعود يستمون ، وسألوهم عن مقر « أميرهم » فدلهم أحدهم عليه ، وما كانوا يعلمون أن هؤلاء آل الرشيد وأشياعهم ، ولو علموا فتكوا بهم ، فهؤلاء بدو أجلاف غلاظ دأبهم الفتك والضراوة . وأهون ما عليهم سفك الدم .

واستقبلهم الامير خير استقبال وأنزلهم في خير موضع ، وبعث الى الامير سعود بن عبد العزيز وكان القائد العام للجيوش السعودية يبشره بوصول ابن متعب ورجاله ، فبعث اليه أن أكرمهم وأضفهم وبلغهم التحية ، فان رغبوا السعي اليه من توهم فليركبهم والا فليأخذ رأيهم ، وألا يقصر في ارضائهم وتكريمهم .

ورأى ابن متعب ومن معه أن يبيتوا ليلتهم بموضعهم فهم في لغوب وتعب ، وقرروا أن يمضوا الى سعود صباحا .

وزادت ضجة البدو واجتمعوا حول آل الرشيد يرددون صيحات الضراوة يريدون أن يفتكوا بهم ، فخرج اليهم أميرهم ووبخهم وطردهم وأفهمهم أنهم « مسلمون » يوحدون الله ، وأنهم أصبحوا صبيان التوحيد اخوان من أطاع الله ، ودخلوا في طاعة ابن سعود .

ومضوا من الفجر الى الامير سعود بن عبد العزيز وكان نازلا بموضع يسمى « بقعة » فاستقبلهم استقبالا فخما وأحسن اليهم وأكرمهم وآنسهم ، وبعد أن أقاموا أياما رجع بهم سعود الى الرياض وقد سبقته اليها والى أبيه الانباء كلها ، واستقبلهم ابن سعود وأنزلهم منزلا حسنا وجعلهم من خاصته .

وباستسلام ابن متعب تولى الامارة محمد بن طلال ، وأخذ يشغب على ابن سعود الذي دانت له نجد كلها ، والحق أن محمد بن طلال كان حازما قويا بعيد المرمى ، شجاعا مقداما شديد الايد والصلابة ، فيه

صفات من عبد العزيز بن متعب الرشيد القتيل بروضة مهنا ، وليس فى أمراء آل الرشيد الذين جلسوا على كرسي الحكم من يشبه هذين الاميرين في الشجاعة والقوة والبطولة ، وكان محمد بن طلال أعقل وأحصف ، ولكن :

ما حيلة الرامي اذا التقت العدى
وأراد رمي السهم فانقطع الوتر

كذلك فقد تولى محمد بن طلال والامر مدبر جد الادبار ، البناء واهي الاساس لا يطيق الثقل الذى عليــه ، ولا يستطيع تداركه قبل الانهيار ، ويحتاج الى زمن طويل لاعادة البناء كما كان ، وخصمه لا يعطيه الفرصة ولا يمكنه من البناء .

وبالرغم من كل هذا لم يفت في عضد محمد بن طلال ، بل وقف يدافع عن امارته بكل ما وهب من قوة وجلاد حتى أخذ ، ولو تولى الامر وفيه بعض الرجاء لكان له شأن كبير فى الانشاء والتجديد .

وما كاد سعود يرحل عن حائل ويفك الحصار عنها حتى تنفس ابن طلال الصعداء وبادر الى تجنيد الجيش وقاد جحفلا عظيما يسترد بعض ما اقتطع من بلاده ويؤدب القبائل وينكل بها لولائها لابن سعود ، وسار اليها يهاجمها ويقتحم المدن والبوادي ووضع عصا الترحــال فى الجثامية — وهي على بعد يسير من حائل — ونزلها بجيشه وعسكر بها يتجهز من جديد لحرب جديدة مع آل سعود ، ليكون على مقربة من عاصمة بلاده يلجأ اليها ساعة الخطر ويتحصن بها عند الحوازب .

ولقد ترامت أنباؤه الى ابن سعود فبعث فيصل الدويش أحد شجعان

العرب الاشداء على رأس سرية قوية ليحارب حتى يأتيه بنفسه على رأس جنده .

ومضى فيصل والتقى ابن طلال في النيصية وتقاتلا قتالا شديدا لم ينتصر فيه فريق على الآخر وتعادلت كفتا الخصمين ، واستمرت المناوشات مدة .

وعلى حين فجأة لم يشعر فيصل الدويش الا وابن طلال ينسحب الى النيصية يتحصن بها ، ولم يكن انسحابه عن هزيمة ، انما فكر في الامر دقيقا فوجد ان التحصن أجدر به ، فقد أنبأته عيونه أن جيشا قام من الرياض يتجه صوب الشمال وعليه عبد العزيز نفسه ، فخشي أن يقف سدا بينه وبين عاصمته ويقطع عليه خط الرجعة اليها ، فيقع حينئذ فى الورطة التى لا بد أن تودي بحياته وحياة رجاله ، ففيصل تجاهه ، وسيكون عبد العزيز من ورائه ، فلا يفلت منهما مهما حاول ، لهذا قفل راجعا الى النيصية[1] وتحصن بها خشية من أن يكون محاصرا بين جيشين يقضيان عليه ، الا أن ابن سعود فاجأ ابن طلال فى أول المحرم سنة ١٣٤٠ هـ وضربه ضربة اضطر من أجلها الى التقهقر والتحصن بجبل أجا ، ثم التراجع الى حائل ، فى حين أن ابن سعود تقدم بجيشه وحاصر حائل وضواحيها وحصونها الخارجية ، ووحد القيادة تحت امرته وأصدر أمره الى قواد الجيش بتطويق حائل من جميع جهاتها ، وقطع الطرق عنها لئلا تتلقى المدد من الميرة والذخيرة فيسهل الاستيلاء عليها تحت تأثير هذا الضغط الشديد بدون مقاومة تذكر ، وذلك أكبر العوامل لانهاء الحرب بين الفريقين ، ويقصر أمد النزاع الذي دام طويلا ، ويضمن الفوز النهائي للقوات السعودية فى وقت جد قصير ، كما يقضى على حكومة الرشيد بالفناء .

---

(١) النيصة : مكان أكثر مناعة من الجنامية ، وتبعد مسيرة ساعة من حائل للراجل .

وقام عبد العزيز نفسه يباشر القتال ، فركز مدافعه على تل مرتفع تخويفا للعدو ويطلق قذائفها على السور أحيانا ، ثم رتب قواته وجهزها ليهاجم البلدة هجوما عنيفا وأحاط بجميع جوانبها بالمدافع لهدم السور وضرب المدينة ، وبعث الى أهلها قبل ذلك ينذرهم ويريهم ما انتوى ، فاما التسليم يعصمون به دماءهم وأموالهم ولا يصابون بسوء ، واما أن يوطنوا أنفسهم على الموت ، وسيمطر المدينة بالقنابل والرصاص ، ولايبقى بها أحدا ، وهاهوذا قد استعد للعمل ، وليس بعد الانذار الا التنكيل ، فلينظروا الى مصائرهم ! ومن أنذر فقد أعذر .

واجتمع كبار رجال حائل وذهبوا الى ابن طلال يشرحون له الامر فلم يرض أن ينزل لخصمه ، وأصر على الكفاح والذياد فاشتد غضبهم عليه حين رأوا اصراره ونفروا منه ، ولكن لا حول لهم ولا قوة ، وقد قبض على الامر بيد من حديد ، فلا طاقة لهم عليه ، ووصل الهمس الى أذن ابن طلال أن العامة قد أخذ بعضهم يثور طلبا للخبز ، وأظهر الاستياء والنفور ، وغير بعيد أن العامة تريد الخضوع للمهاجم ابقاء على الانفس والاموال والثمرات ، وخشي أن تسري هذه العدوى الى الجميع فيقع فى الورطة التي حسب لها من قبل ، وأراد أن يتدارك الامر بصلح شريف يضمن بقاءه حاكما على الجبل .

ولكن ابن سعود لن يقبل الصلح ، اذ أصبحت ساعة النصر قريبة منه على قيد رمية سهم ، فقبوله الصلح اضاعة عمل سنوات وتبديد جهود جبارة ، فوجود حكومة حائل تحت سلطة آل الرشيد دوام النزاع واستمراره في نجد ، وبقاؤها بأي نوع كان ولو فى أضيق الحدود علم على أن النزاع لم ينته بعد ، وشبح الحرب مندس فى ظلمات الغيب والمستقبل ، وسيظهر يوما فلا يكتفى بالقاء الرعب فى القلوب ، بل سينتزع الارواح ،

وبذلك تزداد المهمة تعقيدا ، وتغلق أبواب الحلول أمامه ، ويقتضيه جهدا آخر جبارا للعمل من جديد .

وان هذا الظفر باحتلال حائل على قاب قوسين أو أدنى ، وهو محقق ، وبذلك ستكون نجد كلها : شمالها وجنوبها وعارضها وقصيمها وحائل وتوابع كل منها تحت سيطرة رجل واحد يرفرف عليها علم الوحدة السعودي ، ويقضى على الثورات والفتن الداخلية قضاء تاما ، فمن السفه أن تضيع هذه الفرصة الذهبية التي وقع عليها بعد حروب قاسية مهلكة ، والتى دفع من أجلها أغلى الاثمان : جماجم الابطال ، كما ذهب ضمن ثمنها بعض آل سعود ، فليس من الحكمة قبول الصلح بعد أن دفع ثمن النصر المبين .

حار ابن طلال ويئس ، ولقد ضاقت به السبل حين ألفى خصمه لا يلين ورفض وساطة السير برسى كوكس فى الصلح بينهما ، والعامة قد قامت قيامتها ولا تستطيع الصبر على الجوع والنقص فى الاموال والانفس والثمرات أكثر مما صبرت ، والى متى تبقى محاصرة بين هذه الاسوار تقطع عنها أعناق السبل ، وماذا تصنع حكومة حائل المحاصرة وهي ترى ابن سعود قد استولى على الحصون الخارجية ؟.

وبعد انتصار ابن سعود في النيصية وتقدمه الى الوسيطة ـ بين أجا وحائل ـ وحصاره الشديد لها لم يجد أصدقاء ابن طلال سبيلا للخلاص الا الصلح مع ابن سعود ، ونصحوا له وعلى رأسهم ابراهيم السالم السبهان وحمد الشويعر بأن ينقذ نفسه وعاصمته ورعيته من البلاء المحدق ، فلم يرض اذ كان في حالة نفسية مضطربة لا يجدى معها التفاهم ، فاضطر ابراهيم وحمد الى أن يكتبا الى ابن سعود ويخبراه بما كان وبما عزما عليه ، وطلبا منه قوة تأتيهما في «الزبارة» ليتسلمها وتستعد منها لفتح حائل ،

فبادر ببعث قوة قوامها ألفا رجل تحت قيادة عبد العزيز بن تركي وسعود الكبير — ابن عـــم ابن سعود — وسلطان بن بجاد فاستقبلت بالزبارة وعسكرت بها .

وشوهد ابن طلال في الصباح في أزمة نفسية حادة لا يستطيع معها ضبط النفس وفهم الحقيقة ووعي الكلام ، وكان مختليا بعبد العزيز بن ابراهيم[1] فنصح له بالاستسلام اذ لم تعد لديه قوة تمكنه من الدفاع وصون الحقوق ، وكان نقاش حاد بين ابن ابراهيم وابن طلال انتهى بأن قال ابن طلال لزميله : اكتب الى ابن سعود بما تريد وأنا أوقعه ، فقال له : ومع من تبعث ؟ قال : معك ، فقال ابن ابراهيم : اذا كنت أنا نفسي الرسول فلا حاجة الى الكتاب ، وطلب اليه خاتمه المنقوش عليه اسمــه ليكون شاهدا على التفويض ، فأعطاه اياه ونصح له بأن يثبت على ما عزما عليه وألا يستسلم للمفسدين ، وبارحه الى ابن سعود ، واتصل بالقوة التي بالزبارة وبابراهيم السبهان وحمد الشويعر وأخبرهما بما جرى فاستبشرا .

ومضى ابن ابراهيم الى ابن سعود واجتمع به وأخذ يفاوضه ووفق لمـــا انتدب لـــه ، واتفقا على أن يعفو ابن سعود عن ابن طلال وأسرتـــه وأصحابه ورجال حكومته وكل رعيته وآل الرشيد وأتباعه ومماليكه وكـــل خصم وصديق في معيتهم وعن المحارب وغير المحارب عفوا شاملا ، وأن

---

(١) عبد العزيز بن ابرهيم : احد رجال ابن سعود البارزين وقد تولى سنة ١٣٤١ هـ امـارة عسير وأبها وواديها ، وكانت القلاقل والثورات بها فأخمدها بجزمه وصلب قناته ، وقضى على الفتن حتى خافه البدو ، وأمسى اسمه كالهول يهتز له جبابرة البدو هلعاً وخوفاً ، ثم تولى سنة ١٣٤٣ هـ امارة الطائف بعد احتلال السعوديين لها ببضعة أشهر ، فضبط بها الامور وبالقرى المجاورة لها ثم نقل الى المدينة ليتولى امارتها ، وأمن الطريق بينها وبين مكة ، ثم غادرها الى مكة حيث أصبح عضواً في مجلس الوكلاء ، ثم توفي بالقاهرة من مرض عضال في سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦م) وهو من الرجال الدهاة الكرماء .

يترك ما مضى ، وألا يلتفت الى الوراء ، وأن يسلم ابن طلال وآل الرشيد أنفسهم الى ابن سعود ويرضوا بالعيش معه وبالمقام في الرياض معززين مكرمين .

وبعد الاتفاق على شروط التسليم طلب ابن سعود من ابراهيم أن يريه ما يخوله التفويض التام عن ابن طلال وما يضمن انفاذ الشروط فأراه الخاتم فقنع ، وأمر ابن سعود عبد العزيز بن مساعد بن جلوى أن يرافق عبد العزيز بن ابراهيم لانفاذ شروط التسليم ، ومضيا الى ابن طلال وأفهماه نتيجة البحث والمفاوضة فأقر مندوبه على ما صنع وأسلم نفسه الى ابن مساعد الذي قدم به وبأسرته وبرفاقه الى ابن سعود .

ودخل ابن سعود حائل بين الهتاف والترحيب ، ومكث بها من يوم التسليم وهو يوم ٢٩ صفر سنة ١٣٤٠ الى شهر ربيع الاول ينظم خلالهما شؤونها، واستشار أهلها فيمن يولى عليهم ، فطلبوا أن يكون من أبنائه أو أقربائه فأجابهم : « لست آمن أن أولي عليكم أحدا منا ، فالجراح القديمة لم تندمل بعد ، ففوضوا اليه الامر فيمن يولى ، فولى عليهم ابراهيم السبهان — من بني عم آل الرشيد ووزرائهم — وأمرهم أن يطيعوه ويخضعوا له ما لم يأمر بمعصية الخالق ، ثم قفل راجعا الى الرياض ومعه أسرة الرشيد كلها وأنزلها خير المنازل ، ورتب لها المخصصات الشهرية وعطف عليها وصاهرها .

وقد اجتمعت بآخر وال من آل الرشيد وهو محمد بن طلال فسألته عن حياته في ظل ابن سعود فاذا هو مغتبط مسرور يقول : هذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، ان عبد العزيز لعظيم عظيم ، وما أسعدنا بالحياة في رعايته ، ولم نذق طعم الحياة السعيدة إلا في كنفه !.

آل عائض

كتب الله لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن تنتشر في نجد كلها بعد أن لقيت من المقاومة أشدها وأعنفها ، وامتدت من نجد الى بعض البلدان العربية ومن ضمنها عسير ، وتأصلت في نفوس أهلها جذور مذهب السلف الذي دعا اليه الشيخ ، ومن ذلك اليوم حملوا في صميم قلوبهم له ولحكام نجد أصدق الولاء والاكبار ، وانضموا تحت لوائهم .

ويقول الريحاني في كتابه تاريخ نجد : « وعندما أمر سعود الكبير في هذه الجبال رجلا يدعى ابن مجثّل كان عائض جد الاسرة من الرعاة ، ثم جاءت الجنود المصرية وجاء محمد علي بنفسه يقود الحملة على أهل عسير فكان آل يزيد من المتقدمين المستبسلين في القتال ، وكان عائض بطل آل يزيد فأمره ابن مجثل مكانه ، وكتب الى ابن سعود يوصيه به فأثبته في الامارة ، ثم خلفه بعد وفاته ابنه محمد — محمد الفاتح — الذي بسط سيادة آل عائض فيما دون السراة من البلدان ، فوصل شرقا الى بيشة ، وشمالا الى حدود الحجاز ، وجنوبا بغرب الى «المخا» في تهامة » .

ويذكر ابن بشر أن عليا بن مجثل ولي امارة عسير سنة ١٢٤٥ هـ ومن بعده تبدأ امارة آل عائض ، فما ذكره الريحاني خطأ ، لأن سعود الكبير توفي سنة ١٢٢٩ هـ أي قبل ولاية ابن مجثل بحوالي ست عشرة سنة .

والذي كان معاصرا لسعود من أمراء عسير هو عبد الوهاب بن عامر الشهير بأبي نقطة الذي كان واليها عندما فتح سعود الحجاز ، وسعود فتح الحجاز مرتين ، الأولى في عهد أبيه عبد العزيز سنة ١٢١٨ هـ والثانية في سنة ١٢٢١ هـ — وليس بذى بال العلم بأنه كان والي عسير في المرة الأولى والثانية — ولكن المهم أن نعرف أن معاصره هو « أبو نقطة » الذي حارب الشريف غالبا أمير الحجاز والشريف حمودا شريف « أبو عريش » خصم آل سعود ، فغير بعيد أن يكون أبو نقطة هو عامل سعود أو حليفه أو صديقه .

وتوفي أبو نقطة سنة ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩ م) وتولى بعده ابن عمه طامي بن شعيب ، ولكنه لم يدم في امارته فقد خانه أمير صبيا حسن بن خـالد وأسلمه الى الجنود المصريين تزلفا اليهم فنفوه الى مصر حيث صلب بها .

وفي سنة ١٢٤٥ هـ تولى علي بن مجثل الامارة ، وابن مجثل من أتباع آل سعود وعمالهم ، وكان يرفع اليهم كل ما يحدث ويتلقى منهـم « الاوامر » التي يجب اتباعها ، فلما هاجمته القوات المصرية نهض يدفعها ويحمى البلاد منها ، ونهضت معه قبائل عسير تعينه ، وأبلى فيها بطلها المعلم عائض بن مرعي اليزيدي بلاء حسنا في كل المعارك ما جعل ابن مجثل يعجب به ويقدره ويحبه ، ولم ينس صنيعه فأوصى اليه بالامارة وكتب الى آل سعود يخبرهم ببلائه وبطولته ويوصيهم به خيرا ، فأيدوه في الامارة وطلبوا منه أن يحكم بما في كتاب الله وسنة رسوله ، وأخذ

يبعث الزكاة الى آل سعود ، وبقي تابعا مخلصا لهم ، حتى اذا اندلع لهيب الحرب في نجد وحدثت وقائع الدرعية المشهورة استقل بالأمر ، اذ بترت الحرب الصلات بينهما ، ولولاها لبقي تحت حكم آل سعود .

وعائض من آل أبي سراح فخذ من آل يزيد من بطن مغيد من قبيلة عسير ، وكان كما قلنا بطلا مغوارا دافع عن بلاده وخطا بها الى شاطىء السلامة والامن ، وحمل أعباء الامارة بعد استقلالها وانفصالها من آل سعود بسبب الحرب الناشبة بينهم وبين جيوش محمد علي باشا بدون أن ينوء بها .

ولم تطل مدته بعد الاستقلال الذاتي في الحكم اذ عاجله الحمام فعهد الى ابنه « محمد » فتولى الأمر وأبها مضطربة لم تستقر على نظام وأساس ، فقد كان عهد محمد عائض عهد تأسيس ولم تطل مدته حتى يركز الامور ويقرر ما يريد ، ولكن محمدا تسلم « الارث » فنماه ، فقد كان على جانب عظيم من الحزم والقوة والطموح الى المجد ، خبيرا بشؤون البلاد وأساليب الحكم مدبرا عاقلا ، فأول ما عمل بعد توليته أن قضى على الفساد والاضطراب في بلاده . وسن القوانين للشعب والحكومة ليسيرا عليها ضمانا للراحة والطمأنينة ، وثبت قواعد امارة آل عائض تثبيتا مكينا ، ولما آنس من نفسه القدرة قام على رأس الجيش الذي نظمه في أقصر وقت وبسط نفوذه على البلاد المجاورة والقريبة منه ، فتمكن من الاستيلاء على سائر عسير والسراة ، وغامد وزهران من الحجاز وما حولهما من القرى ، كما استولى على تهامتي عسير واليمن ، فازدهرت عسير ايما ازدهار ، وتمتع أهلها في عهده بالهناءة والرخاء والاستقرار .

ولكن طموح محمد لم يرض الدولة العلية بل أسخطها ، واعتبرت عمله تحديا لها وتطاولا عليها ، فكيف يجرؤ على التوسع على حسابها ويبسط

ظله على تهامتي عسير واليمن وغامد وزهران من الحجاز ، وكل هذه الاقطار تحت سيادتها فجردت حملة قوية عام ١٢٥٨ ﻫ تحت قيادة رديف باشا وأحمد مختار باشا ووجهتها الى عسير لترد هذا الجامح عن عدوه ، وتقف أمانيه ، وتحد من سلطانه ، وحاصرت الحملة أبها .

غير أن الشريف ابن عون توسط بين الترك وابن عائض حقنا للدماء وتزلفا الى السلطان عبد العزيز على ألا تعتدي الدولة على سلامة ابن عائض وأسرته وماله وجميع ممتلكاته ، وعلى أن تمنحهم الدولة مرتبات شهرية تلقاء أن يسلم ابن عائض بلاده للدولة تتصرف فيها .

وصدر أمر الساطان بذلك الى رديف باشا ووصله « الفرمان » وجيوشه تحاصر أبها ، فاستسلم محمد بن عائض لأحمد مختار باشا الذي بعث به الى رديف باشا .

وكان رديف كما يظهر من فعله بابن عائض أرعن سفاكا جاهلا ، فما كان منه الا أن قتل ابن عائض غير عابىء بأمر السلطان وغير محتفل بالعهد الذي أعطاه بالامان .

ولشد ما أسف أهل عسير على موت أميرهم الحازم العادل وبكوه كثيرا وخضعوا للدولة بالرغم عنهم وهم أشد ما يكونون كراهية لمن أورثهم الشقاء وأفقدهم الحرية والاستقلال بقتل أميرهم العظيم .

وجعلت الدولة من عسير متصرفية مركزها أبها واهتمت بها كثيرا ووضعت فيها قوات كبيرة .

ونفر آل عائض الباقون من الترك واعتزلوهم مرتقبين الفرص ليثوروا بالمغتصبين وينتقموا منهم لسيدهم القتيل ظلما وغدرا ، ولكن الترك عندما

حوصروا من قبل محمد علي الادريسي في أبها وسدت في وجوههم منافذها ولم يجدوا فيها سبيلا الى الخروج وخافوا من ثورة آل عائض تودد اليهم المتصرف سليمان شفيق كمالى باشا وقربهم منه وجعلهم شركاء في ادارة البلاد ، وعين حسنا ابن علي بن محمد بن عائض معاونا له .

ثم أنقذت أبها من الحصار بمساعدة الشريف الحسين بن علي بعد عام ، وسافر سليمان الى العراق وخلفه محيي الدين باشا ، وما زال حسن يعاونه ، والعلم العثماني يخفق فوق ربوع عسير الى أن نشبت الحرب الكبرى فاحتاجت تركيا الى جنودها وأرسلت الى من بعسير أن يقدموا اليها ، فصفا الجو لأميرها فاستقل بها ، ولما أن رأى نفسه الحاكم المطلق الوحيد يتصرف في الشؤون كيف يشاء لا رقيب عليه أخذته عزة الامارة وكبرياء السلطة ، فانصرف عن ادارة الحكومة الى اشباع شهواته من متع الحياة ولذات الدنيا ، وزين له غروره الاستبداد بالرعية فطغى عليهم وجار ، فنصحوا له بالاستقامة في السير والاعتدال في أمره والقصد من أعماله والعدل في الحكم ، فما كان منه الا الامعان في شهواته وطغيانه ، بل ازداد عما كان عليه من قبل حينما رأى مراقبة أعيان رعيته له ومحاسبتهم اياه ، ولما ضاقوا به وبأعماله بعثوا الى ابن سعود يشرحون الحال ويطلبون اليه ان يعينهم وينقذهم فلم يعودوا يطيقون ظلم الحاكم وصلفه وغوايته ، فهو (ابن سعود) مرجعهم الأعلى دون غيره من الحكام العرب .

ويحسن بنا أن نقف هنا ونسأل : لماذا لم يرفع العسيريون شكواهم الا الى ابن سعود ويؤثروه دون الامراء والملوك الآخرين ؟ لماذا لم يلجأ العسيريون الى الحسين في الحجاز أو امام اليمن وهو أقرب من نجد وحاكمها ؟ ألانه قوي ؟ يمكن أن يكون هذا ، ولكنه وحده لا يكفى لأن يكون دليلا ، فالحسين قوي أيضا ، بل أقوى من ابن سعود

وأظهر ، وبلاده أدنى الى عسير من نجد ، فما السبب في ايثارهم ابن سعود ؟.

هناك اعتبار آخر دعاهم الى ايثاره على الحسين وغيره ، هذا الاعتبار أنهم كانوا يرون أن مؤسس امارة بلادهم الاول عائض آل يزيد كان تبعا لحاكم نجد يرجع اليه في المشاكل والمهام ويدفع اليه الخراج والزكاة ، وهو وشعبه كانا من المعتنقين لمذهب السلف الذي نهض به ابن عبد الوهاب ، فتوارث أهل عسير عن سلفهم الولاء لآل سعود والاعتراف بهم كأولياء لأمورهم ، بل كانوا يرون حاكم نجد هو حاكمهم الشرعي ، فمن المسلم ألا يرجعوا إلا اليه في كل شئونهم ؟.

وصلت شكاة أهل عسير الى عبد العزيز بن سعود فانتدب وفدا من العلماء وبعثه الى أمير أبها ، ومضى الى مهمته غير أنه ما كاد يصرح بما جاء به لدى الامير وينصح له باتباع طريق الارشاد وأن يكبح من جماح شهواته التي أطلق لها العنان وأن يعدل في الحكم ويحرص على مصالح الرعية والبلاد حتى ثار ثائره ، وعد ذلك تدخلا من ابن سعود في شئون بلاده ومسا من كرامة استقلالها واهانة لحاكمها المطلق ، ورد أعضاء الوفد ردا قبيحا بعد أن قسا عليهم في القول ، وطلب اليهم أن يبلغوا ابن سعود انه ان لم يترك التدخل في شئون قبائل عسير فسيحتل بلده .

فما كان من ابن سعود الا أن سير حملة قوية من ألفي مجند تحت قيادة ابن عمه عبد العزيز بن مساعد بن جلوى الى أبها في شعبان ١٣٣٨ ونصح له أن يأتي أميرها حسنا ويقول له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، ولعله يرجع عن غيه ، وألا يبدأ القتال الا اذا أخفق في الوسائل السلمية ، وأراه الخطة التي يسير عليها حينئذ .

واذ سمع حسن بالحملة الموجهة اليه جهز جيشه للحرب وعسكر في

« حجلة » وفيها تلاقى الجيش العسيري بالجيش النجدي ، وثبت كل منهما للآخر ، بيد أن ابن جلوى فاق خصمه في ادارة دفة المعركة وكان أزكن منه في القيادة وفن الحرب فأحكم تدبيره وهجم على فرسان حسن هجمة قوية عنيفة ، كما انقضت كتيبة من عسكر ابن جلوى على حامل راية العسيرين ومن حوله وأثخنوهم ضربا وقتلا ، فلم يستطع ابن عائض وجيوشه المقاومة فانهزموا شر هزيمة ، وفر الامير حسن وابن عمه محمد وتبعهما من الفرسان ورجال الجيش من نجا من القتل وولوا مدبرين ممعنين في الفرار ، وغنم السعوديون كثيرا ودخلوا أبها فاتحين منصورين فاستقبلهم اهلها بالترحاب والشكر لله على تخليصه من حكم الامير الجائر على يد رجل ابن سعود .

ثم توجه ابن جلوى الى القرى وجبال عسير فاستولى عليها بدون مقاومة تذكر .

واذ رأى حسن وابن عمه أن البلاد قد سلمت أيقنا أن أرض عسير ضيقة بهما ما داما خارجين على ابن سعود فرجعا الى ابن جلوى يعلنان الطاعة والخضوع ، فاصطحبهما معه في عودته الى الرياض ونزلا على ابن سعود فهدأ روعهما وأحسن اليهما .

ولقد لقي الاميران من عاهل نجد من الصنيع والاكرام ما أنساهما امارتهما الضائعة وما كانا فيه من بلهنية ورخاء ، وبعد أن استقر بهما المقام عرض على حسن بن عائض أن يرجع الى بلاده عسير ويتقلد امارتها ويعود الى ما كان في سالف عزه ومجده ، وذكره بما كان بين سلفه وأسلافه وقال له : ما تخلينا عنكم يا أهل عائض ، وعندما سأل الترك الشريف عبدالله بن عون أن يهاجمكم وينكل بكم وأرسل الشريف يستنجد عمي الامام عبدالله أجابه : ابن عائض رجل منا فكيف نساعدك عليه ؟.

فاعتذر حسن بأن بينه وبين قبائل عسير أحقادا دفينة في الصـــدور تغلي كالبركان يخشى على نفسه أن ينفجر اذا ولي أمرهم من جديد ، ثم خيره بين الاقامة في الرياض أو الاياب الى عسير ، فاختار الرجوع اليها على أن يكون مساعدا لعامل ابن سعود ، وعاهده هو ومحمد على الطاعة والخضوع . ورجعا الى عسير بعد أن أغدق عليهما ابن سعود العطايا الجزيلة ويبلغ النقد منها ٦٥٠٠٠ ريال فرنسي ، وخصص لهما ولافراد أسرتهمـــا المرتبات الشهرية الضخمة .

وأقاما عند أمير أبها السعودي وهو شويش الضويحي ، الا أنهما بيتا الشر وبدآ بالشغب ، فطلبا من ابن سعود عزله فعزله وأمر مكانه عبدالله ابن سويلم ، ثم طلبا عزله فعزله وبعث فهد العقيلي ، الا أن هذا العمل من جانبهما كان تمهيدا للثورة فقد استأذنا في السفر الى بلدتهما «حرملة» للاتيان بأسرهما منها ورحلا اليها ، غير أنهما حينما دخلاها نسيا جميل ابن سعود وجحدا هذه النعمة ويد مسديها اليهما واجتويا الامن والراحـــة والهدوء ، ونسيا ما لقيا من الاكرام وجميل الصفح وحسن المعاملة وأعلنا عصيانهما وتمردهما وخرجا على حكومة الرياض ، واستعانا بعطايا ابن سعود وخيراته على تجهيز جيش قوي زحفا به على أبها واحتلاها بعد أن قاومهما أميرها فهد العقيلي ، ثم انثنى لضعفه وقلة رجاله أمام صدمات خصمه وأخذ أسيراً أمام خميس مشيط .

وهنا رأى الحسين فرصة سانحة للانتقام من ابن سعود فبعث إلى « شهران » وقبائل عسير يأمرها بالعصيان ويهيب بها أن تستقل ببلادها وأراضيها وتكون حرة تحكم نفسها بنفسها ، وأن تلتف حول أميرها الوطني « ابن عائض » وتقف في صفه للدفاع عن الوطن ، وأعلن استعداده لامدادها بما تحتاج اليه من سلاح ومال ورجال — اذا احتاج الامر — وفعلا أمد حسنا بشيء كثير من المال والسلاح ووعده بأن

يمده بالرجال اذا دعت الضرورة الملحة ، فازدادت قوة حسن وابن عمه محمد – الذي انضم اليه بعد القضاء على سيادة ابن سعود وأسر عامله – وقويت شوكتهما اذ وجدا الحسين يمد يده اليهما ويعينهما أجمل العون فثارا في البلاد وتملكاها وبثا في القرى الدعاوة السيئة ضد عاهل نجد .

ولئن تمكن حسن ومحمد من بسط سلطتهما على اقليم عسير واخضاع اهلها في الظاهر فلن يتمكنا من اخضاع أنفسهم فانهم يضمرون في أعمق أعماقها الولاء لآل سعود ، وهم لم يخضعوا الا رهبا تحت تأثير القوة والضغط صونا لأرواحهم من أن تزهق .

أما ابن سعود فقد سير قوة حربية عظيمة تزيد على عشرة آلاف مقاتل كاملة العدة والبزة وجعل قيادتها في يد ابنه الثاني « فيصل » وكان فتى مقداما لم يبلغ العشرين ، ولكنه بالرغم من حداثة سنه كان في طليعة الابطال المغاوير ، وكان قائدا حازما ماهرا في فنون الحرب قل نظيره ، فهو كوالده عبقري ملهم ، ما جعل أباه ينيبه عن نفسه في الامور الجسام ، ومن الطريف أن نذكر أن فيصلا يعد بحق بطلا غلابا لم يغلب قط في معركة من المعارك ، فهو من يوم أن عرف حمل السلاح واطلاق القذيفة – قنبلة أو رصاصة – واللعب بالسيف والرقص على الخيل لم يقف عن معونة والده ، وما قاد جيشا الا انتصر ، وما شادّه عدو الا غلبه ، وما اتجه الى أمر عظيم الا تفتح بين يديه مغلقه وذل له صعبه .

سار فيصل بهذا الجيش القوي في شوال سنة ١٣٤٠ هـ باثا عيونه قبله تستطلع أنباء آل عائض وحركاتهم ليأخذهم على غرة ، فنُقل اليه حينما وصل رنية من وادى سبيع أن قوات من بنى شهر المحالفة لشريف

مكة وآل عائض هاجمت أطراف بيشة التابعة لابن سعود فأسرع اليها مجردا احدى كتائبه من الفرسان لحقت ببني شهر وفتكت بمئتين منهم ، وفر الباقون ، وتبدد شملهم وتفرقوا في القرى والبلدان فزعين ينشرون ما رأوا ، وأخذوا يبالغون ، فكأنهم أعانوا السعوديين اذ سبقتهم أخبارهم التي حطمت قوة حاكم عسير المعنوية حطما ، وقام الذعر يلعب بين الناس ، وتزيدهم الانباء المختلفة خوفا على خوفهم وقلقا على قلقهم .

الجيش السعودي في بلاد شهران ! تقدم ... احتل ... قتل ... أسر ... انه منتصر ... فتك بالاعداء ، انه لا يغلب !..

وأخذت هذه الاخبار تطوي الزمان والمكان الى القلوب وتنتشر كالبرق بين الناس وتؤثر فيهم تأثيرا سيئا ، حتى أن الامير حسن بن عائض نفسه تقهقر من خميس مشيط حيث كان مرابطا بها الى « حجلة » واستعد بها للقتال ، غير أن فيصلا تتبعه وضربه ضربة في غير مقتل فأسرع في الفرار ، واندحر أمام هجمات البطل الغلاب الذي أخذ يحتل القرى المبعثرة هنا وهناك في طريقه الى ابن عائض ، وكان مشهدا عجيبا غريبا في المدن والقرى ، يدخلها عائض صباحا فيخليها بعد ساعات ليدخلها فيصل آمنا سالما في المساء .

وما زال ابن عائض في هزيمته وفراره لا يلوى على شيء حتى انتهى به التسيار الى بلدته « حرملة » وتحصن بها وآلى على نفسه هو ومن معه أن ليدافعن حتى الموت ، فما بعد « حرملة » حرمة وحياة !.

أما فيصل وجنوده فلم يردهم عن التقدم راد ، فمضوا مندفعين كالسيل العرم حتى وصلوا ضواحي أبها في صفر سنة ١٣٤١ هـ ووجدوا الطريق خاليا الى أبها نفسها فدخلوها ولم يجدوا بها أحدا غير النساء والاطفال ، أما الرجال فقد فروا منها فرار الطير راعتها الديم .

وليس بأبها ختام المطاف ، بل يجب أن يكون القبض على الثوار ، بل ابن عائض نفسه خاتمة المطاف ، وهو قد تحصن ببلدته « حرملة » التي تستعصي على الغزاة والفاتحين ، فما يأتي أحد اليها الا ارتد خائبا ان لم يرتد مدحورا ، وما دانت لأحد من غير أهلها، ولم يرتقها عدو ، ولم يعرف مسالكها الخفية القعساء الا صديق ، فهي معقل جد حصين منيع لا يدين لأشجع الشجعان ، فالترك — وغيرهم — وقد وقفوا عند سنموح « حرملة » حائرين لا سبيل لهم الى القمة حيث تربض البلدة ، وأي انسان يستطيع أن يرتقي جبلا لا سبيل الى ارتقائه ؟.

وقف الترك حائرين ترتد أطرافهم حسيرة كلما رموا بها الى البلدة القائمة على قمة الجبل المنيع ، وملكتهم الدهشة من مناعتها وقوتها وامحاء السبل اليها حتى تفتتت جهودهم الجبارة وسقطوا من اللغوب والأين ! وكيف تقتحم بلدة منيعة جد منيعة ولها منافذ معدودة لا يعلمها الا أهلوها وهم حريصون الى حد بعيد على كتمان أسرارها التي يباح بكل سر الا سرها ، وليست مناعتها طبيعية فحسب ، بل تضاف اليها المناعة الحادثة التي أوجدتها اليد الماهرة فلم تدع منفذا لمنتقم عنيد !.

أيمضي فيصل كما مضى الترك ويخفق كما أخفقوا ؟ الجواب عند فيصل نفسه ، فهو شاب قوي منصور ميمون النقيبة لم ينهزم قط ، فكيف يرضى بأن يهزم اليوم أمام مناعة « حرملة » ؟.

كلا ، لن ينهزم ، لا صعب أمام البطل الذي لا يهن ولا يضعف ، وستبوح حرملة بالسر بالرغم من سادتها ومناعتها لفيصل وحده دون غزاتها السابقين ، وليكن أول فاتح لها .

الى الامام واني في طليعة الرعيل الاول ! هذه كلمة فيصل لجنوده الابطال ، ولعب بالسيف وفرسه يرقص تحته وخلفه الابطال يهتفون فرحين

لأنهم سيفتحون ما استعصى فتحه على الترك وغير الترك ، سيفتحون حرملة المنيعة !.

هؤلاء جنود فيصل أمام حرملة ! هؤلاء جنود فيصل يحاصرون حرملة! انهم يضربونها بشدة ، ولكنها وقفت كالعملاق الجبار تدفعهم دفعا ، واستمات آل عائض في الذود عنها واستبسل السعوديون في الحصار والهجوم حتى أخذوها عنوة واستولوا على جميع ما فيها من مخلفات العدو ، ولكنهم لم يجدوا بها أحدا ، فقد أمعن آل عائض ومن في « حرملة » في الفرار وتركوا حصنهم المكين آسفين نادمين ، وتفرق شملهم ، ومن كرم فيصل ونبله أن عفا عمن قبض عليهم من آل عائض وأحسن اليهم وجعلهم في مكان يليق بمن عفا وبمن عُفِيَ عنهم .

ومضى محمد بن عائض الى القنفذة هاربا ثم لجأ الى الحسين يستعينه ، فبعث معه جيشا يقوده الشريف عبدالله بن حمزة الفعرومعه مئتان من الجيش النظامي تحت قيادة الملازم حمدى بك وزودهم بمدافع ورشاشات ، وقدموا الى عسير واشتبكوا برهط من الجنود السعودية ذهب الى تهامة لحرب الشريف فلم يستطع الثبات فتقهقر الى أبها سريعا وأولئك خلفه يريدون اللحاق به .

وفرح الشريف عبدالله الفعر بهذا النصر ومشى الى عسير ، ولكنه اختلف مع زميله حمدى بك ، حيث خط كل منهما خطة لم تعجب الآخر ، وما زالا في نقاش وجدل وكل منهما متعصب لرأيه حتى انقاد حمدى بك عن غير رضى ولا قناعة ، ولكنه كان مضطرا ، فالشريف هو القائد العام المسئول عن الحملة ولا مفر لحمدى من طاعته لأنه تحت إمرته وقيادته .

وأخذ حمدى يحذر الشريف عبدالله الفعر من خطته ويريه عيوبها

ويدله على الطريق الامين ، ولكنه لم يعبأ به ، واستكبر الشريف استكبارا ، وعند عنادا ومضى سائرا على خطته غير ناظر الى نصائح حمدى وتحذيره .

وكانت عيون فيصل تنقل اليه مسير الشريف وحركاته وسكناته ولم تخف عنه خافية من أعماله وخطته ، فقسم رجاله وأمرهم أن يكمنوا له في طريقه ويأخذوه غرة ، فما كاد الشريف عبدالله الفعر يطأ أطراف عسير وبقي بينه وبين أبها مراحل حتى أوقعوه في كمين وقتلوا رجالـــه ومزقوهم شر تمزيق وشتتوا بقاياهم في الجبال والبطاح ، وهرب الشريف مع نفر من رجاله فيهم حمدى — ولم ينج غيرهم — ونزلوا « بارق » يستريحون ، ولكن جنود فيصل أسرعت خلفهم لئلا يعطى الاعداء فرصة تمكنهم من الراحة ، فهربوا من بارق الى القنفذة وما استراحوا الا بمكة اذ واصلوا سيرهم ليل نهار خوفا من أن يؤخذوا غرة .

أما فيصل — البطل الغلاب المنتصر — فقد استولى على عسير كلها ونظم فيها الشؤون وسير الاعمال سيرا حسنا ، وولى عليها أحد رجاله وهو سعد بن عفيصان ، وأبقى معه خمسمئة من رجاله وقفل راجعا الى نجد بعد أن قضى على آل عائض وامارتهم قضاء لا قيامة لهم بعده ودخل الرياض سامق الذري ساطع الجبين في الحادى والعشرين من جمادى الاولى سنة ١٣٤١ هـ (٨ يناير ١٩٢٣ م) يستقبل تهاني المهنئين .

وبقي الاميران حسن ومحمد آل عائض مشردين كأنما لفظتهما الدنيا واجتوتهما الارض فما يجدان عليها مكانا ينزلان به ، واشتد بهما الضيق والكرب فاتصلا بالحسين فأمدهما بقوة مزودة بالأسلحة والمدافع وأمر عامله على القنفذة الشريف عبدالله بن حمزة الفعر أن يجند أهل تهامة ويبعثهم اليهما ، واستطاعا بمساعدة الشريف أن يجهزا جيشا زحفا به الى أبها ، الا أن ابن سعود كان يقظا عالما بحركتهما فأمد ابن عفيصان بشيخ قبيلة

عبيدة قحطان واسمه «مترك بن شفلوت» والتحمت القوات السعودية بقوات آل عائض ودحرتها وفر حسن ومحمد ، ثم توفي ابن عفيصان سنة ١٣٤٢هـ فبعث ابن سعود أحد رجاله الحازمين وهـــو عبد العزيز بن ابراهيم إلى عسير ، وبعث قوة من الاخوان لتأديب بني شهر العاصين المتمردين ، ونجح كل منهما في عمله ، فذلك دخل أبها وضبط أمورها ، وقوة الاخوان هزمت بني شهر واحتلت بلادهم « تنومة » عنوة ثم رجعت الى نجد بعد تفرق بني شهر الفارين الى آل عائض الذين أخذوا يستعدون للكفاح .

ووصل نبأ تجمع الثوار ومسيرهم الى ابن ابراهيم فاستعد لهم ، وبعث قوة تحتل « عقبة تيه » التي تبعد عن أبها مسيرة خمس ساعات ، وتمتاز بموقعها الحربي ، ونزل آل عائض بجيشهم «محايل» التى تبعد خمس ساعات عن « تيه » الا أنهم أدركوا أنهم ليسوا أكفاء لهذه القوة التى تعسكر في عقبة « تيه » وأيقنوا أنهم لا يستطيعون الثبات أمامها واجتيازها الى أبها ، بل عرفوا أن ابن ابراهيم — أمير أبها الجديد — حازم لا هوادة عنده ، فخافوا بطشه ، وبعثوا اليه يطلبون الصلح فوافقهم على طلبهم ، واشترط عليهم أن يكونوا تحت تصرف ابن سعود ، فسلموا أنفسهم الى ابن ابراهيم ، ثم طلبهم ابن سعود ، فبعثهم ابن ابراهيم معززين مكرمين .

ولقد قابلهم ابن سعود مقابلة حسنة وشملهم بعفوه وبره وكرمه ، وشعر حسن ومحمد بشيء كثير من الحرج على سوء أعمالهما واعتذرا نادمين ، فطمأنهما ومنحهما المال الجزيل ، وأكرمهما أعظم الاكرام ، وجعلهما من بطانته ورفقته الادنين .

ابن سعود والحرب الأولى وثورة الحسين

انطلقت الرصاصة الأولى على ولي عهد النمسا في سراجيفو بصربيا سنة ١٩١٤ م فثارت دول الوسط ، وأعلنت الحرب بين الدول الاوربية الكبرى: ألمانيا وحلفاؤها النمسا والمجر وايطاليا من جهة ، وبريطانيا وامبراطوريتها الضخمة القوية وفرنسا ومستعمراتها وروسيا من جهة أخرى ، ثم انضمت ايطاليا الى الحلفاء كما انضمت أمريكا ، وأخذت الدول الصغرى تنضم الى الحلفاء ، كما حالفت تركيا ألمانيا وخاضت الحرب بجانب حليفتها القوية ، وبدخول تركيا الحرب دخلت معها الاقطار العربية : الشام والحجاز واليمن وعسير وغيرها من البلدان التي كانت تابعة لها .

ورقص شيطان الحرب بأقدامه الجبارة الثقيلة على أمم الارض فدكها ، وبقيت دول على الحياد ، أما العرب فكما أشرنا دخلوا الحرب بجانب تركيا ، لأن أمراءها عمال الخليفة العثماني وأمراؤه ، أما ابن سعود فلم نكن تابعا للاتراك ، بل كان بعيدا عن سلطتهم وان كان يوليهم البر والعطف والتقدير .

وفوجىء ابن سعود بالحرب الكبرى ، فوقف حروبه ضد أعدائه ليزن الأمور ويعرف الحقيقة حتى يكون على بينة من أمره .

وبات قلقا كثير التفكير والهموم ، فهو لا يدري والحرب في بداءتها الى أي المعسكرين ينضم ، وأي الفريقين يؤيد ؟ فهو في تفاهم مع الترك ، وبينه وبين بريطانيا العظمى صداقة ، فان كان الانكليز مسيطرين من جهة الخليج الفارسي فالترك ما يزالون في الشمال والغرب وفي قلب الجزيرة ذوى نفوذ وصولة ، فكيف يوفق بين أمرين هما أشد ما يكونان تناقضا ودقة وخطرا ؟ أينضم الى الترك ويغضب الانكليز وهم أصدقاؤه ؟! أينضم الى الانكليز وها هم أولاء الترك ذوو النفوذ ، وفوق هذا فقد توددوا اليه ؟ .

لا حل الا أن يقف على الحياد ريثما تنقشع الغيـــوم الكثيفة قليلا قليلا ، وليتفرج على ما يمثل على المسرح من بعيد لئلا يلحقه أذى ، فالمسألة خطرة ليست بالمسائل الفردية ، والغلطة فيها لا تودى بفرد ، بل هي مسألة الامـــة ، وهو المسئول عنها ، فغلطته تؤذى الامة كلهـــا فليتريث ، وليدرع بالاناة ، والايام المقبلة القريبة ستكشف القناع .

غير أن نفسه الحرة آلمها أن تخوض الامـــم الحرب طلبا للسيـــادة والاستعمار وتحقيق الأطماع ويبقى العرب في سباتهم فلا ينهضون ولا يهتبلون هذه الفرصة النادرة التى اشتبك فيها أعظم دول العالم في حرب لا يعلم أحد ما نتيجتها ومن الرابح فيها ، وأراد ابن سعود أن يعمل فى هذه الحرب عملا مجيدا فيسترد العرب ما فقدوه ، ويقرروا مصيرهـــم ويحكموا أنفسهم ، ولا يستطيع هو وحده مهما حاول أن يضمن للعرب السيادة والاستقلال ، فكتب الى الشريف حسين بوصفه حاكم الحجاز وله نفوذ فى العراق والشام ، وكتب لابن الرشيد ، وكتب للامام يحيى ، والى الشيخ مبارك ، فلم يجد ما يسره ، فالحسين ويحيى صمتا ، وابن الرشيد أعلن في صراحة تامة ونية صادقة وعزم ماض أنه مع الترك ولن يتخلى عنهم مهما كان الامر ، ولن يعمل شيئا يضر بمصالحهم ، بل هو يحافظ

عليها بما يستطيع وان يفرط فيها .

وأجاب مبارك الصباح جوابا بعيدا عن مقصد ابن سعود ، فطلب اليه أن يأتيه الى الكويت لان اللورد هاردنج حاكم الهند قادم الى البصرة ، فمن الحسن له أن يسرع الى الكويت للمفاوضة .

وأسف ابن سعود على هذه الحال التي انتهت بأمراء العرب ، وآلمه ألا تتحد الكلمة وتتجمع الصفوف ويقف الجميع كالبنيان المرصوص ، كما آلمه أن تخفق دعوته النبيلة التي أراد منها مجد الاسلام وعز العروبة ووحدة الصف والكلمة اخفاقا شنيعا ، ولبث حيران في أمره يفكر في العمل .

وبينا هو كذلك فوجيء بالرسل ، الترك يبعثون اليه صديقه الحميم السيد طالب النقيب للمفاوضة ، والانكليز يرسلون الكابتن شيكسبير المعتمد السياسي لبريطانيا في الكويت ، ومبارك يطلب أن يقدم اليه للمفاوضة ويستغل قدوم هاردنج ، فلعله مستطيع الوصول الى نتيجة ترضيه ، ومبارك مع الانكليز ويعمل لهم ، فهو وشكسبير يعملان لغاية واحدة ، وقدم وفد تركي من المدينة أيضا وعلى رأسه صديقه محمود شكرى الالوسي .

كل منهم يطلب اليه أن ينهي الصفقة معه ويطمئنه بأنه سيربح كثيرا ، وليس ابن سعود بالطامع المستريب ، ولا بالارعن المخدوع ، ولا بالجاهل الغبي ، بل هو مطلع على خفايا السياسة ، وخلا بكل من أتاه وأقنعه .

خلا بالالوسي وقال له في أدب وصراحة : الانكليز قد احتلوا البصرة ولهم في الكويت نفوذ عظيم فكيف يعاديهم وهم على وفاق معه ، فرجع الالوسي .

أما السيد طالب النقيب فقد احتُلت بلدته « البصرة » ولا يستطيع

الرجوع اليها وفيها أسرته ومصالحه ، فتوسط له عند الانكليز ، فسمحوا له بالرجوع فرجع ، وانتهى من وفادته ورسالته .

أما شكسبير فقد لازم ابن سعود ولم يفارقه ، فقد كان مفوضا من قبل حكومة بريطانيا تفويضا عاما في أن يتفق مع ابن سعود ويبرم معه معاهدة في صالح الطرفين ، فبقي عنده ولم يغادره كما غادره الالوسي وطالب النقيب .

ولم يخل ابن سعود من متاعبه ، فهو محاط بأعداء ينتسبون إلى الترك ، فابن الرشيد في الشمال ، وهو يد الترك ، والحسين في الغرب وهو معهم أيضا في الظاهر ، والامام كذلك ، والانكليز من الشرق ، وهو على ما يشبه الحياد ، لا مع الحلفاء ولا مع ألمانيا وتركيا ، فوقفت تجارة نجد ، وكسدت فيها السوق وارتفعت الاسعار .

وابن الرشيد يد الترك في قلب الجزيرة ، ويستطيع أن يعرقل أعمال الانكليز المقبلة في شمال الجزيرة ، والترك قد أمدوه بالمال والسلاح والرجال ، وجردوه للقضاء على ابن سعود ، فهو فى الضمن خصم بريطانيا ، لانه يعمل على توسيع نفوذ الترك وتثبيته فى قلب الجزيرة ، ويهم الانكليز أن يقضوا على ابن الرشيد ، لأن فى ذلك قضاء على نفوذ تركيا أيضا .

وعندما اشتدت الحرب لم يجد ابن سعود بدا من إعلان موقفه ، وهو تأييد الانكليز ضد تركيا ، وأيد الحسين في ثورته ، ودعا الحكام والزعماء والعرب إلى تأييدها .

ونهض دهاقنة السياسة البريطانية للعمل ، وهم دهاة يعرفون كيف يغرون الملوك ويخدعون الزعماء والشعوب ، ويتقنون المكر والخداع والتضليل ، ويجيدون المؤامرات ووضع خطط الانقلابات والثورة ، ويملكون من المال ما يشترون به الحكام ، ومن السلاح ما يقضون به على الحركات المناوئة

لهم ، ومن أساليب السياسة ما يكتب لخططهم النجاح ، ويعرفون لكل عمل وقته المناسب .

وتوزع أولئك الدهاقنة في البلاد العربية وغير العربية ليعمل كل منهم في المنطقة المحددة له ليطهرها من الاعداء ، ويركز فيها نفوذ حكومته ، ويعمل لصالح بريطانيا العظمى .

وكانوا يعرفون أن حاكم الحرمين هو صاحب السلطة الروحية على كل المسلمين ، وله النفوذ الأدبي عليهم ، واذا احسن استخدامه واستغلاله فان النفع الذي يعود على بريطانيا وحلفائها سيكون عظيما .

وفي حربهم مع الحكومة العثمانية دولة الخلافة الاسلامية يجب أن يعزفوا على قيثارة الدين ، فالمسلمون وحكامهم لن يحاربوا مع الصليبيين اعداء الاسلام دولة الاسلام الكبرى العثمانية .

إذن ، لا بد أن يحاربوا الدين بالدين ، ويجعلوا مكة عاصمة الاسلام الروحية الكبرى وقبلة المسلمين جميعا قاعدة انطلاق الثورة على دولة الخلافة ، وعندما يرى المسلمون قبلتهم تحارب الاتراك بحجة استرداد مكة للخلافة التي هي حقها فسيسرعون إلى لواء مكة ويخضعون لحامله .

والحسين بن علي تجتمع فيه صفات ومزايا تجعله أهلا لقيادة الثورة العربية على الترك ، فهو عربي أصيل ، وبيته أعلى بيت عى الاطلاق عند العرب والمسلمين ، فهو من آل بيت محمد عليه صلوات الله وسلامه ، وحاكم مكة ، وخادم المسجد الحرام ، وحامى الكعبة المشرفة قبلة كل مسلم ، وإلى جانب هذه المزايا نظيف اليد واللسان والقلب ، وذو همة عالية وطموح عظيم ، ويمتاز بخلائق فاضلة ، فهو ذو خلق كريم فاضل ، وعلم واسع ، ومتواضع سمح سهل ، وشجاع جريء ، وسياسي فطن .

وهذا ما دعا الانكليز إلى أن يستغلوه ويفيدوا من جهوده في قهر أعدائهم الترك واخضاع العرب وبلادهم لنفوذهم السياسي والاقتصادي والتجاري ، وبذلوا أعظم جهودهم ومواهبهم وقدراتهم وسياستهم في قلب الحسين على الترك وضمه إلى صفوفهم .

واتصل اللورد كتشنر — مندوب بريطانيا في مصر — بالشريف الحسين في بدء الحرب فتردد ، واخفق كتشنر في استمالة الحسين واثارته على تركيا ليدخل معهم الحرب ضدها ، لأن في انضمامه إلى الانكليز مروقا من الدين عند عامة المسلمين وكثير من خاصتهم ، فتركيا دولة الخلافة الاسلامية ، وسلطانها خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، فالخروج عليه عصيان لولي الأمر الذي هو عصيان لله ولرسوله .

ولم يكن الحسين من البلاهة والغفلة بحيث يثير على نفسه العالم الاسلامي دون أن يكون لديه مسوغات الثورة على دولة الخلافة ، المسوغات التى يقتنع بصحتها المسلمون وفيهم أهل مكة والمدينة — حرسهما الله — وسكان الحجاز .

وخلف السير آرثر مكماهون اللورد كتشنر فوصل من جهود سلفه ما انقطع ، واتصل بالحسين ، ولكنه تردد في الاستجابة له ، وأطال التفكير في الموقف الذي يجب أن يتخذه ، فهو لم يكن راضيا عن الترك الذين أذلوا العرب ، وغمطوهم حقوقهم الطبيعية والشرعية ، وجعلوا لغتهم الأعجمية غالبة على لغة القرآن والحديث ، وانتهجوا سياسة سيادة الطورانية على جميع القوميات وفي طليعتها القومية العربية .

ولكن عدم الرضا ليس كافيا لإقناع العالم الاسلامي المعتز بدولة الخلافة ، وإن مسلمى القارة الهندية بزعمائها المسلمين ومثقفيها الكبار لن

يرضوا على من يثور على دولة الخلافة ، لأن الثورة عليها ثورة على الخلافة التي تظل رايتها كل مسلم ، وغيرهم مثلهم في العقيدة والشعور .

ولم يرد الحسين أن يكون أول خارج على دولة الخلافة ، إلا أن جمعية الاتحاد والترقي التي ينتسب اليها انور باشا وجمال باشا ومدحت باشا وطلعت باشا وزملاؤهم أول من ضربوا الخلافة والخليفة ومهدوابتصرفاتهم لثورة العرب ، وأعضاء هذه الجمعية قد اغتصبوا السلطة الشرعية من الخليفة وصاروا هم الحكام .

ومع هذا الانقلاب الذي انتهى بسيطرة الاتحاديين على الدولة فقد تم تعيين الحسين واليا على مكة من قبل السلطان عبد الحميد الذي لم يكن قد فقد نفوذه بعدُ ، فقد كان الانقلابيون في أول عهدهم ، وما زال للسلطان شيء من النفوذ والسلطة .

وكان التعيين بطلب من الحسين نفسه اذ قدم مذكرة يبين فيها حقه في ولاية مكة ، ويذكر حججه الصحيحة ، ووافق السلطان وتم التعيين .

وكان الحسين على علم بنيات أقطاب الاتحاديين الذين هم على ذروة السلطة ، وكان يعرف مواهبهم وميولهم وسياستهم وأصولهم ، وكان على ثقة أنهم لا يفهمون الاسلام ، وما داموا استبدلوا ببعض أصوله ونظمه نظم الغرب فان أزمة الاسلام ستكون شديدة على أيديهم ، غير أن وجود الخلافة كان باعثا على الطمأنينة إلى حد غير بعيد .

ولم يكن الاتحاديون راضين عن تعيينه ، ولكنهم لم يعارضوا ، لأنهم لم يريدوا أن يوقدوا نار معركة ضد السلطان في تعيين يسعهم تغييره في المستقبل ، ولأنهم كانوا يتوسمون في أنفسهم القدرة على اجتذاب الحسين نحوهم ، وأن يكون آلة بيدهم ، وإن كانوا قد توجسوا بعض الخيفة من

تعيينه ، إذ كانوا يعلمون طموحه وقوة شخصيته وحزمه ودهاءه .

ومع كل ذلك أجاز الاتحاديون تعيينه ، وهنأوه ، ورجوا له التوفيق ، وأن يكون الحاكم الدستوري في الحجاز ، وأن يتقيد بالدستور ، وتظاهر الحسين بشيء من الرضا ، ولكنه — مع دهائه — لم يكذب ، بل قال في براعة ومهارة : إنه سيكون مخلصا للدولة والملة ، ولن يعمل الا ما فيه الخير حسب اجتهاده وبقدر كل طاقاته ، وسيعمل ما فيه رضا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ولما تهيأ الحسين للتوجه إلى مكة زار السلطان مودعا ، وخلا به خلوة شعر فيها السلطان براحة نفسية ، فبث الحسين شكواه ومخاوفه من هؤلاء الاتحاديين وخطرهم على الدولة والخلافة ، وأيده الحسين في مخاوفه ، ورثا لحال الخليفة وقال له : إن الحجاز سيكون مواليا لك ، ولن يتخلى عنك ، فأنت صاحب السلطة الشرعي .

ثم ذكر الحسين لعبد الحميد ورجاه أن يقصد الحجاز اذا ما شعر بشيء من القلق والمخافة ، وعندئذ سيقوم الحسين بالثأر للخليفة وضرب رقاب العصاة المتمردين .

ونظر عبد الحميد الى الحسين نظرة ملؤها الشكر ، ودمعت عيناه وقال : لم يحن الوقت ، ثم ودع بعضهما بعضا وداعاً مؤثراً وكريماً .

وعندما تهيأ الحسين لمغادرة تركيا كان الصدر الأعظم كامل باشا في الميناء لتوديعه ، وأسلمه مذكرة تؤكد له أن إمارة الحجاز مرتبطة بالسلطان نفسه مباشرة ، وأن اعلان الدستور لا يؤثر في حقوق الامارة التقليدية ، وأن صلة أمير مكة والحكومة ستبقى على أساس التعامل القديم .

وكتب الاتحاديون في تركيا إلى الاتحاديين بالحجاز أن يستقبلوا الحسين

بالحفاوة ، ويجعلوا صلتهم به قوية ، ويبدأوا مقابلتهم الأولى له بتذكيره بالدستور ، وحثه على التقيد والعمل به ، لأنه هو الذي يضمن للبلاد الرقي والتقدم ، ويدفعها الى الحضارة ، كما أن الدستور هو الذي يضمن الحقوق ويحمي الحرية .

وما كاد الحسين يصل الى جدة في أول أسبوع من شهر ذي القعدة سنة ١٣٢٨ (٣ ديسمبر – كانون الأول – سنة ١٩٠٨) حتى وجد علية الحجازيين وكبار أهل مكة وجدة والقضاة والعلماء والمفتين ورؤساء الادارات وكبار الضباط من الحجازيين والترك والأشراف في استقباله ، ووجد الميناء غاصا بأفراد الأمة من عامة الناس ، ورحب به الجميع أعظم ترحيب ، وانبرى أحد الاتحاديين قبل غيره بخطبة القاها ، ووصف فيها الحسين بأنه « الأمير الدستوري » ثم توالى الخطباء الذين أعلنوا فرحتهم بالحسين المسلم المؤمن الذي أعده الله لحراسة بيته المعظم وبلده الأمين .

وكان وفد الاتحاديين قد تقدم الناس كما سبق خطيبه غيره ، ولم يعجب الحسين هذه المظاهرة كما أساءه أن يشيد الخطيب بالدستور والاتحاديين وحركتهم ويغفل حكم الله والقرآن والحديث ، ويتبجح بالدستور ويطلب الاعتصام به ، ويصفه بما يجب أن يوصف به كتاب الله ، بل أغضبت الحسين خطبة الاتحادي الدستوري ، فانبرى له الحسين بالرد ، وذكر له وللمستقبلين جميعاً أنه يتسلم حقه الموروث من أسلافه ، وأن الشريف أبا نمي لم يبايع السلطان سليم الأول إلا على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن تكون البلاد متمتعة باستقلالها الداخلي .

وأعلن الحسين بكل قوة أن الحكم للكتاب والسنة ، ودستورنا القرآن ، وتناول بعنف من يقولون : إن الدستور قرآننا ، واتهمهم بالكفر ، لأنهم رفعوا الدستور الذى وضعه بشر الى مقام القرآن الذى لا يمكن أن يصعد إلى مقامه الأعلى أي كتاب .

ثم وضح سياسته وشرعته في حكم البلاد ، ووعد بأن ينفذ شرع الله على كل أحد ، وما ثم تمييز بين الناس ، كلهم سواء ، والأكرم الأعز هو الأتقى ، ولن يقبل بظلم ولا يرضى بطغيان أحد على أحد ، وأنه لن يتكل في الحكم بعد الله الا على نفسه ، وبابه مفتوح لجميع الناس في جميع الأوقات .

ثم أمر الناس أن ينصرفوا إلى أعمالهم ، وأن ينزعوا إلى ما فيه الخير .

وسرّ الناس بخطبة الحسين ، ولكن الاتحاديين سخطوا منها ، لأنه رد عليهم في عنف ، وجبههم بقسوة ، واستكبر على الدستور الذى جاء به الاتحاديون ، ولكن الحسين لم يبالهم .

وكانت لجمعية الاتحاد والترقي فروع في مدن الحجاز مثل مكة والمدينة وجدة والطائف ، ولم يكن بين أعضائها عرب ، بل كانوا من أجناس الشعوب الاسلامية من ترك وتتار وفرس وافغان ممن قصدوا الى الحرمين للعبادة وآثروهما على أوطانهم .

وكان الاتحاديون ذوى سلطة في الحجاز ، وخطبة الحسين حصرتهم وأنذرتهم وأرتهم أن السلطة له فتضاءلوا حتى ذهب ريحهم بذبول فروعهم وظلمة أنديتهم التي أغلقت من تلقاء نفسها أبوابها .

وعندما ولي الحسين كان قد بلغ الخامسة والخمسين ،فهو من مواليد ١٢٧١ هـ (١٨٥٣ م) وكان أمله الذي عاش من أجله أن يستقل الحجاز .

وعندما ولي الحسين إمارة مكة وانتهى إليه أمر البوادي كان يعمل لتحقيق حلمه في السيطرة على الحجاز كله دون أن يفكر في الانسلاخ من الدولة الأم ، ولم يفت الاتحاديين ذلك ، وخافوا أن يزداد خطره، وعندما دخلت تركيا الحرب رأى الاتحاديون ضرورة إزاحة الحسين ، لأنهم أدركوا أن الفرصة قد أتيحت

للحسين فبعثوا إليه وهيب باشا ، ولكن الحسين كان على علم بدسائس الاتحاديين ، وكان شديد اليقظة لهم ولخططهم ، فوهيب كان يتحين الفرصة ليقبض على الحسين ، والحسين كان يخطط لاستقلال الحجاز استقلالا ذاتيا دون الانقطاع عن الدولة الأم .

واشتراك الحكومة العثمانية في الحرب بجانب المانيا والنمسا والمجر وضع على عاتقها تبعات ضخمة ، وأعلنت في العالم العربي والاسلامي الجهاد المقدس على بريطانيا وحليفاتها ، وتحركت الشعوب العربية والاسلامية مع الخلافة ، وتريث الحسين ولكنه كان يسير على خط سيرها .

واختير لقيادة العرب وحكمهم قائد جبار هو جمال باشا الذي كان وزيرا للحربية ، وكان من أعظم كبار قادة الاتحاديين ، واتخذ دمشق قاعدة حكمه ، ووصل إليها في ٢١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٤ (١٣٣٣ ﻫ) وأرسل الى الحسين يطلب إليه أن يجند أكبر عدد يستطيعه من المجاهدين المتطوعين ، فلبى الطلب وأرسل من استطاع إلى جمعهم ، ووالى الارسال ، ولكنه كان يرقب بيقظة وحذر تصرفات جمال باشا الشاذة الارهابية وإسرافه في الجور والجبروت والشدة ، وبلغ من حيطة الحسين أنه لم يسمح للمتطوعين أن يتجاوزوا المدينة ، بل جعلها مكان تجمّع المتطوعين .

ويجب أن نشير إلى موقع الحجاز الجغرافي ، فهو في منطقة قاحلة في عمومه ، واعتماد سكانه على ما يرد إليهم من الحبوب ومختلف أنواع الأرزاق من الهند ومصر الواقعتين تحت الاستعمار البريطاني .

وما كادت الحرب تنشب بين تركيا والانجليز حتى بادر الانجليز بضرب حصار شديد على الموانىء الحجازية وبخاصة جدة ، فانقطعت الارزاق عن الحجاز ، ونفد ما كان منها في مستودعات التجار والحكومة

ولدى الأسر ، وارتفعت الأسعار ، ومع الارتفاع الفاحش لم يكن لدى النهازين ما يبيعونه ، وباع بعض الناس بيوتهم تلقاء بضعة أكياس من الأرز أو الحنطة أو الشعير أو الدخن .

والحسين نفسه لم يكن في بيته شيء فشارك الشعب في هذه الضائقة الخانقة ، ولم يعد له ولأسرته من طعام غير الدخن مدة سنتين تقريبا .

وبذل الحسين جهودا جبارة لاستيراد الحبوب فوفق لاستيراد الدخن من اليمن عن طريق البر وبعض السفن الشراعية ، ولكن ذلك لم يوف بحاجة الناس ، وكتب الحسين الى تركيا يعلمها بأزمة الارزاق في الحجاز ، وأن سكانه لا يجدون ما يأكلون ، فاعتذرت بظروف الحرب .

واشتد الكرب على المكيين وأهل الحجاز قاطبة ، وصار موقف الحسين حرجا عندهم ، ومع ما بذل من جهود فان ما كان يرد من دخن اليمن لم يكن وافيا إلا بجزء يسير من حاجة الناس ، فاختصروا « وجبات » الأكل ، ومع هذا عم الجوع جميع الطبقات ، وعجزت الحكومة التركية عن فك الحصار الذى ضربه الانجليز ، واشتد سخط الحجازيين على تركيا التي ورطت نفسها في حرب بسبب قصر نظر الاتحاديين قبل أن تفكر في مصائر من تحكمهم .

ونتيجة لصلات مكماهون بالحسين أذن الانجليز للسفن الحجازية الشراعية بنقل المواد الغذائية وبخاصة الحنطة من الموانىء المصرية ، فخفف ذلك من الضائقة قليلا ، لأن هذه السفن كانت قليلة العدد .

وكان للحرمين الشريفين أوقاف عظيمة في مصر ، وتجمعت منها آلاف الأطنان من الحبوب في مصر ، فنقل الانجليز ببعض سفنهم تلك المواد الى جدة ، إلا أن السلطات التركية حجزتها واستولت عليها ، فقد ظن

المسئولون الاتراك شتى الظنون في المساعدة الانجليزية ، وحسبوا أن هنـــاك صلات سرية بين الحسين والانجليز كان بسببها وصول الارزاق الى الحجاز .

وعلم جمال بذلك فاستاء وسخط ، وكان فيصل بن الحسين بدمشق ، وأعلمه جمال بسخطه فكتب فيصل رسالة خاصة سريعة إلى أبيه يقول له فيها : « الحكومة متشوشة من وصول الأرزاق الأخيرة الى جدة ، وهـــم متعجبون من فسح الانجليز للارزاق المذكورة » .

ولما رأى الانجليز أن المسئولين الأتراك في جدة قد استولوا على الارزاق وحولوها إلى جنودهم دون أفراد الأمة قطعوها مدة كما جاء في منشورهم الذي وزعوه بالطائرة على المدن الحجازية ، ثم سمحوا من جديد بوصول الارزاق .

وهذه — ولا شك — يد للحسين . فقد كان وصول الارزاق ثم تدفقها بسبب مخابراته مع مكماهون الذي رأى أن قطعها عن الشعب الحجازي ليس في مصلحة البريطانيين ، بل إن قطعها سيدفع الحجازيين والعرب الى النقمة على الانجليز ، وسيدفع مسلمي الهند ومصر وغيرهما إلى الحقد عليهم .

وتلقاء مساعدة الانجليز في مسألة المواد الغذائية وعدهم الحسين بألا يؤيد دعوة الحكومة التركية المسلمين في كل مكان إلى الجهاد المقدس ضد بريطانيا وحلفائها .

والاتحاديون شعروا بأن الحسين غير مخلص لهم ، وساورتهم الشكوك فيه . ولكن رسائله اليهم ، وتردد أنبائه عليهم ، وقيام الحسين بجمع المتطوعين وتصريحاته بأنه مع الخلافة جعلتهم في حيرة من الأمر ، وليس

لديهم ما يوثقون به الحسين ويدينونه ، بل لديهم ما يدل على سلامـــة موقفه ، إلا أن جانب سخط الاتحاديين كاد يغلب جانب الرضا .

ومضت الأسابيع والشهور ومخاوف الاتحاديين وشكوكهم نحو الحسين تزداد حتى ساءت العلاقات بينه وبين جمال باشا الذى شغلته الأحداث التي كثرت واستفحلت ، وكان تردد أنباء الحسين عليه وورود رسائله إليه يزيد من حيرته حتى انجلى لديه موقف الحسين .

ولعل مجيء جمال باشا الى المدينة المنورة في صحبة أنور باشا وزير الحربية وفيصل بن الحسين كان القصد منه القضاء على الشريف الحسين ، فقد وصلوا الى المدينة في شهر ربيع الثاني ١٣٣٤ (فبراير (شباط) ١٩١٦) وبعث أنور الى الحسين أن يشخص الى المدينة للتشاور ، وأدرك أن في الأمر مكيدة ، فاعتذر له ، ولكنه أهدى إليهما سيفين مع تحيته ، وعاد القائدان التركيان الى دمشق .

ولولا نبل فيصل بن الحسين وأخلاق الفروسية التي كان يتحلى بها لكان قتل أنور وجمالا ، فقد اقترح عليه بعض رجاله قتلهما وقتل والي المدينة واحتلالها ، ولكنه أبى ، لأن فيصلا أكبر من أن يقتل ضيوفه .

واستطاع الحسين أن يخدع القائدين عندما وصلا المدينة ودعواه فاعتذر ، ولم يستطيعا الذهاب إلى مكة لأنها كانت في قبضة الحسين ، ولديه جيش قوي من القبائل ، وأهل مكة معه بقلوبهم وأيديهم ، ويجوز أنهما لم يشخصا إلى مكة لبعد المسافة .

والشيء المهم أن الحكومة التركية لم تعلم بشيء من صلات الحسين ببريطانيا التي كانت في ستر شديد ، وعن مفاوضاته مع مكماهون التي كانت تجرى في أشد ما يكون من السر والكتمان ، كما أنها لم تعلم

بشيء من محادثات فيصل بن الحسين والسوريين وهو في دمشق وتحت مراقبة جمال باشا واستخباراته .

ومن المصادفات أن الوقت الذي كان فيه أنور وجمال بالمدينة المنورة كان الحسين قد تلقى الرسالة الرابعة من مكماهون التي كانت بتاريخ ٢٥ ربيع الأول ١٣٣٤ (٢٨ فبراير (شباط) ١٩١٦) .

ومنذ عودة أنور وجمال من المدينة بدأت النذر والغيوم الداكنة في سماء العلاقات التركية العربية ، ومع أن الشريف فيصلا بالشام فان الحسين كان يبدو في تحركاته وتصرفاته شيء غير يسير مما يشبه التمرد والعصيان ، فبعد أن وصل أنور باشا إلى استانبول أرسل إلى الحسين برقية في أواخر شهر ربيع الآخر ١٣٣٤ (أوائل مارس (آذار) ١٩١٦) يطلب إليه فيها أن يعلن من مكة المكرمة باسم الخليفة الجهاد المقدس ، ويدعو أمم الاسلام إليه ضد الانجليز وحلفائهم الروس والفرنسيين .

وقد سبق هذه البرقية رسائل وبرقيات كان الحسين يداور في الجواب بعد التراخي فيه ، فلما تلقى برقية أنور هذه لم يجد بدا من الجواب الصريح ، وكان الحسين في موقف القوي الثابت ، فقد استوثق ابنه فيصل من أحرار سوريا على تأييد ثورة الحسين اذا أعلنت والمشاركة فيها ، كما اتفق مع الانجليز على الثورة دون أن يحدد لهم موعد إعلانها ، ويشاء الله أن تصل إلى يديه برقية أنور مع أنباء من الشام تذكر المزيد من اعتقالات الأحرار والزعماء وسوقهم الى المحكمة العسكرية ليكونوا الرعيل الثاني من الشهداء بعد الرعيل الأول الذي أعدم أفراده في ساحة البرج في ٢١ أغسطس (آب) ١٩١٥ .

وصلت برقية أنور الى الحسين في وقت وصول أنباء ارهاب جمال فصمم العزم على المواجهة المكشوفة ، ولم يبال أن ابنه فيصلا في دمشق ويكاد يكون

في قبضة جمال باشا وابنه ، الأكبر عليا في المدينة مع المتطوعين ، ورضي أن يضحي بهما في سبيل سلامة الرعيل الثاني من الشهداء وانقاذهم من الموت الذى حكم به عليه جمال قبل أن تنتهي المحكمة العسكرية بعاليه في لبنان من النظر في التهم الموجهة اليهم، وأرسل جواب برقية أنور إليه والى الصدر الأعظم بتاريخ ١٢ جمادى الأولى ١٣٣٤ (١٦ مارس (آذار) ١٩١٦).

وهذه برقية الحسين الجوابية :

« إن خروج الدولة العلية منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولاسيما العرب ، والجانب الأهم من ميادين القتال في بلادهم ، وتأييدهم لها قلباً وقالبا في نضالها ، ويلوح لي أن ارضاء الشعب العربي يتوقف على مداواة قلبه الذي جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهم سياسية مختلفة ، والقبض عليهم ، ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتي :

« ١ — إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين .

« ٢ — إنالة سوريا ما تطلبه من نظام لا مركزي ، وكذلك العراق .

« ٣ — جعل إمارة مكة وراثية في أولادي ، واعتبار الشرافة معترفاً لها بحقها الموروث والمتفق عليه في عهد السلطان سليم .

« فاذا قبلت هذه المطالب فإن الأمة العربية تقوم بواجبها عن إخلاص ، وأتعهد أنا بحشد القبائل العربية للجهاد بقيادة أبنائى في ميداني العراق وفلسطين ، كما أن على الدولة التأثير على ابن رشيد لينضم الى الجهاد .

وإذا لم تقبل هذه المطالب فأرجوكم ألا تنتظروا منى الاشتراك في

حرب كنت نصحت بألا تثار ولا تشق ، وسأكتفي بالدعاء للدولة بالنصر والظفر » .

وتلقى الحسين جواب برقيته هذه من الصدر الأعظم وأنور ، ونصه :

« وصلت برقيتكم الهاشمية القائلة : إن احراز النصر يكـون باشتراك جميع أبناء الأمة قلبا وقالبا ، ولما كان طلب اعلان العفو عن بعض المتهمين وتطبيق نظام اللامركزية في سوريا واستبقاء إمارة مكة في شخصكم السامي وفي أولادكم خارجا عن اختصاص سيادتكم فالاستمرار في طلبه ليس من مصلحتكم في شيء ، وأننا نبلغكم أنه لا بد أن ينال الموقوفون عقابهم ، كما أن حقوق سيادة ملجأ الخلافة ستبقى في الحجاز على ما كانت عليه قبلا وكما هي في جميع الممالك الشاهانية ، ونلح عليكم بأن تستدعوا ولدكم علي الموجود في المدينة إلى مكة فورا ، وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بإرسالهم الى دمشق ليكونوا بقيادة ولدكم فيصل بك ، وبديهي أنه سيظل ضيفا على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب ، وان لم تنفذوا هذا فالنتيجة بحقكم لا تكون مسرة » .

وفهم الحسين من هذه البرقية أن ابنه فيصلا أسير في ثوب ضيف على الجيش الرابع بدمشق ، فلم يضعف ، وكتب للصدر الأعظم وأنور باشا رد برقيتهم بالبرقية التالية :

« ليس لي ما أقوله سوى النصيحة الأخيرة في برقيتي ، وبها ضمان انحياز العرب الى صفوفكم بقلوبهم ، أما ابني فيصل فلم أبعثه إليكم ، وأنا أعتقد أني أراه مرة أخرى ، فافعلوا ما شئتم » .

ورأت الحكومة التركية في استانبول أن التشدد مع الحسين يفقدها إياه

ويدفعه إلى الانضمام إلى أعدائهم ، فرأوا التلطف معه ، فبعث الصدر الاعظم اليه بهذه البرقية :

« بعـد التأمل رأينا شكر سيادتكم على أجوبتكـم ، فاذا بعثتم بالمجاهدين فقد اشعرنا جمال باشا ليذاكر نجلكم الشريف فيصل بك فيما يتعلق بالمجرمين السياسيين » .

وفعلا تمت المذاكرة بين جمال وفيصل في شأن المتهمين السياسيين دون أن تنتهي إلى ما يرجو الحسين ، واكتفى فيصل بنصح جمـال بأن يكون كريما في معاملتهم سخيا في الرأفة .

وأما الحسين فقد أجاب الصدر الأعظم بهذه البرقية :

« إنني ممتن على تلطفكم بالجواب ، أما المجاهدون فقد أصروا على عدم السفر إلا إذا حضر فيصل ليأخذهم ، فان كانت الرغبة حقيقيـة فابعثوا به ليستصحبهم » .

وأراد الحسين أن يستنقذ ابنه فيصلا بما أبرق به ، فتلقى هذه البرقية من الصدر الأعظم .

« سيتوجه الشريف فيصل بك الى المدينة ليستصحب المجاهدين ويعود بهم الى الشام ، وانا لنرجو أن تسترجعوا نجلكم الشريف علي بك مـن المدينة المنورة الى مكة المكرمة لعدم امتزاجه مع المحافظ » .

وأجابه الشريف برقيا بقوله :

« عند وصول الشريف فيصل بك سيترك الشريف علي بك المدينة المنورة » .

وبينما كان الحسين ينتظر ما تخبئه الايام القادمة من مفاجآت بالنسبة لابنه فيصل بدمشق وابنه علي بالمدينة كان جمال قد أحضر فيصلا إلى مجلسه وأخـذ يحاسبه على مسلك أبيه في الاسابيع الأخيرة وهو يرد في شجاعة وحكمة ، وبحث جمال مع فيصل المسائل الآتية :

١ ـ برقية أبيه لأنور التي وصل الى جمال موجزها ، تلك البرقية التي يطلب فيها العفو عن المتهمين السياسيين وأن تكون إمارة مكة فيـه وفي ذريته ، وتطبيق نظام اللامركزية بسوريا والعراق .

٢ ـ شغب الشريف علي مع محافظ المدينة التركي .

٣ ـ عدم ارسال المجاهدين العرب الذين وعد الحسين بارسالهم ولم يرسلهم بعد أن جمعهم بالمدينة تحت قيادة الشريف علي .

ولكن الشريف فيصلا وفق الى تهدئة جمال وإسكات غضبه ، وانتهى المجلس بينهما على أن ينصح فيصل أباه وأخاه ، ووعده بألا يصدر منهما ومنه غير الخير .

ومع أن جمالا قد شعر بشيء من الرضا من كلام فيصل الا أن موجز برقية الحسين الذى بعثه إليه أنور باشا ما زال يقلقه ، والموجـز هو :

« إذا كنت حقاً ترغب في التزامى جانب الهدوء والسكينة فينبغي الاعتراف باستقلالى في سائر الحجاز من تبوك الى مكة وجعلى أميراً وراثيا فيها ، كما ينبغى العدول عن محاكمة العرب المتهمين ، واعلان العفو العام في سوريا والعراق ».

وثارت أعصاب جمال فكتب الى الحسين برقية شديدة اللهجة حادة الأسلوب ، لم تخل من التهديد والتوبيخ ، وها هو ذا نصها :

« لقد نمي الي خبر برقيتك الى أنور باشا ، فأنت تطلب أن تكون الامارة وراثية في أسرتك ، وأن يمنح أشخاص عديدون العفو الشاهاني بعد أن قامت البراهين على خيانتهم للوطن والملة ، وليس من المستطاع إجابة هذا الطلب الثاني وإلا ادى إلى ضرر شديد في مسألة لها تعلق وارتباط بالمصلحة العامة ، فإن الحكومة التي تصفح عن الخونة خليقة بأن يتهمها الجمهور بالضعف ، بل قد يغرى ذلك الصفح كثيراً من الناس بالخيانة وطعن الدولة والملة طعنة نجلاء ، فلو عرفت محتويات الوثائق التي ظهرت في المحكمة لرأيت الى أي حد من الخيانة قد تسفل اليه أولئك المتهمون .

« أما فيما يختص بجعل الإمارة وراثية في أسرتك فإني يخيل إلي — وأظنك تسامحني في ذلك الرأي — أن الفرصة ليست مناسبة للمطالبة بذلك الطلب ، فإننا في وقت الحرب الذى تتعرض فيه كل قوى الانسان العقلية والجسمية لأشد العناء والنصب . أراك تعترف معي بأن الإعراب عن مثل تلك الرغبات من شخص يشغل مركز إمام وفي أهم بقعة من بقاع الدولة العثمانية ، بقعة هي أكثر تعرضا للأخطار عما عداها لا بد له أن يكون له أسوأ وقع في نفوس الجمهور .

« والذي أعتقده أنه ما كان ينبغى لك أن تطلب مثل ذلك الطلب حتى لو كان لك الحق في طلبه ، فإن موارد الأمة بأسرها ينبغى أن تحشد اليوم لغرض واحد لا ثاني له وهو إحراز النصر النهائي .

« ويجب أيضاً أن نلفت نظرك الى الوجهة التالية من وجهات النظر للمسألة وهي أننا نفرض جدلا أن الحكومة لبت طلبك لمجرد الرغبة في الابتعاد بك عن المشاغبة في هذه الأوقات العصيبة التي تقطعها ، وفرضنا

أيضاً أن النصر كان في النهاية حليفنا فما الذي يمنع الحكومة أن تعاملك بمنتهى الشدة حين تضع الحرب أوزارها ؟ .

إن الرجال الذين يكونون الحكومة الحاضرة والذين جرءوا على القيام في وجه عبد الحميد ضد استبداده لن يصفحوا عمن يتجرءون على شل أيديهم في هذه الحرب التي دخلوها لمصلحة العالم الاسلامي إلخ ».

وهذه الشدة التي اتخذها جمال في رسالته الى الحسين دفعته دفعا إلى أن يرد عليه ردا غاية في الشدة ، ويجيبه عليها جوابا عمليا ، ويبدل تردده مع الانجليز إقبالا عليهم ، وهو مجبر على هذا الموقف ، فشرق لجزيرة واقع تحت النفوذ البريطاني ، وكذلك الخليج ، وقلب الجزيرة والاحساء على صلة حسنة بهم ، وفي جنوب الجزيرة اتفق الادريسي معهم وجند جيشه لحرب الاتراك وخاض المعارك ضدهم ، وعدن تحت الاحتلال البريطاني ، وكذلك مصر والسودان ، وإن الجزيرة العربية كلها واقعة في تموينها تحت رحمة البريطانيين وحلفائهم وأساطيلهم .

وأول رد رده الحسين على جمال باشا برقية أرسلها الى الصدر الأعظم طلعت بك وقال له فيها :

« إني لا أعلم أي الرجلين يصدق ؟ أهذا السياسي الذي نتعامل معه مباشرة ولطالما أظهر لي المجاملة والود (يقصد به أنور باشا) ام ذلك الذي يستعمل معي ألفاظا جارحة مهينة (يقصد جمال باشا) فإني أرى نفسي مضطرا إلى قطع العلاقات معكم حتى تجاب مطالبي التي طلبتها من أنور باشا » .

وأرسل الحسين إلى جمال باشا برقية أشد من لهجة كتابه ، فقد بلغه أنه نفذ حكم الاعدام في زعماء العرب الأحرار ببيروت في ٢١ أغسطس

(م ٣٣)

(آب) ١٩١٥ (١٣٣٤هـ) وبالشام في ٦ مايو (أيار) ١٩١٦ (١٣٣٤هـ) وسجن كثيراً منهم ، وشتت أسرهم وشرد أطفالهم ، واستصفى كل أموالهم وممتلكاتهم .

ولم يطق الحسين الصبر على هذه الوحشية التي أثارته فأرسل إلى جمال برقية شديدة اللهجة أعنف من رسالته إليه ، وأعلن له فيها بأنه قطع علاقاته بالترك .

وكان الشريف علي أكبر أبناء الحسين بأطراف المدينة المنورة – على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم – ومعه الآلاف من المتطوعين الحجازيين تهيأوا للسفر إلى فلسطين ، وأمره أبوه بالعودة الى مكة المكرمة ، وأبلغه سبب هذا الاجراء .

وكتب الشريف علي كتابا الى فخرى باشا والى المدينة جاء فيه :

« بناء على الأوامر الصادرة من أبى سيقف نقل المتطوعين الى فلسطين ، ولهذا عقدت النية على العودة بالمجاهدين الى مكة بدلا من ضياع الوقت هنا ، وإنى آسف لاضطراري للرحيل بدون أن أودعك ، فالمرجو قبول عذرى »

وقام الحسين بإجراء آخر أعلن فيه قطع علاقاته بتركيا وتحديه لجمال باشا ، فكتب إليه وإلى طلعت باشا كتاباً ختمه بقوله :

« إني أعتذر عن عدم استطاعتي الاشتراك فى الحملة على القناة إلى أن تجاب الطلبات التى طلبتها سابقاً » .

وهذه الاجراءات التى اتخذها الحسين كانت أولى الهزائم التي أصابت تركيا والاتحاديين ، فقد تخلى عن تركيا أعظم حاكم عربي ، بل تنكر لها وثار عليها .

وللتاريخ نذكر أن الحسين كان الحاكم العربي الوحيد الذى وقف فى وجه جمال وتركيا هذا الموقف الصلب بسبب إعدامهما أحرار العرب ، ولولا حماقة جمال بإعدامهم هؤلاء الأحرار لما وقف الحسين موقفه ، ولكان من الجائز أن يتساهل في مطالبه الأخرى ، ومما زاده عنادا وبغضا للاتحاديين خروجهم على الاسلام بنقض بعض أركانه وأصوله ، وسلبهم السلطة من خليفة المسلمين .

وعندما اتسع الخلاف بينه وبين الترك أجبر على أن يفاوض الانجليز الذين كانوا على علم به ، فهم قد رأوا أن المشادة قد عنفت بين الحسين والترك فى الرسائل فيما بينهم ، ثم تطورت الى تلك الأعمال التي أضرت بتركيا أبلغ الضرر ، وأخرج الحجاز من الامبراطورية التركية ، وكان خروجه اضعافا لها من الناحية العسكرية والحربية والإعلامية والروحية .

وسنحت الفرصة للانجليز فعاودوا الاتصال بوساطة السير آرثر مكماهون ، وأخذ يغريه ويمنيه ويغدق الوعود حتى لان جانب الحسين ، فسافر إليه بعدئذ المستر ستورس ، والكولونيل هوجارت ، والكولونيل لورنس ، وأراد الانجليز أن يبرهنوا للحجازيين أنهم يودون له الخير ، ويجاملونهم ويتوددون اليهم . ووزعوا منشورا ألقوه بالطائرات على المدن والقرى الحجازية ما عدا مكة والمدينة المقدستين لم يوزع فيهما المنشور بالطائرة ، بل وزعت بوساطة رعايا بريطانيا من الحجاج والمجاورين ، ووزعوه أيضا على نطاق واسع فى الجزيرة العربية .

والمنشور هو هذا :

« إلى سكان بلاد العرب

« قد علمتم تماما أننا معاشر الانجليز لم نخض غمار هذه الحرب

الطاحنة ضد ألمانيا إلا لأنها اعتدت على الممالك الصغيرة المتاخمة لها ، وهاجمتها بغير ما ذنب ، مع أن ألمانيا نفسها قد كفلت ضمان استقلال تلك الممالك بشتى العهود والمواثيق الأكيدة .

« ولا يغيب عنكم أن ألمانيا اكتنفتها الأخطار وأحاطت بها الازمات فاحتالت بدهائها على الحكومة التركية لتأخذ بناصرها وتشد أزرها ، وقد استطاعت أن تصل إلى مآربها بفضل المبالغ الطائلة من المال والأماني الكاذبة ، وكانت ترمى بذلك الى الحصول على أمر بالجهاد من سلطان تركيا ضدنا وضد حلفائنا ، لأن رايتنا تظلل الملايين العديدة من المسلمين الذى انضم الى جيوشنا الآلاف المؤلفة منهم ، وأصبحوا يحاربون معنا ضد ألمانيا جنباً الى جنب ، وهي ترجو من وراء ذلك أن ينقلب المسلمون ، ويكونوا علينا لا لنا .

« ولا ريب فى أن كل مسلم صميم ملأت العقيدة الاسلامية قلبه يربأ بنفسه أن يُستخف بعقيدته ، ويكون ألعوبة في يد دولة أجنبية تجعله قرباناً على مذابح مطامعها الأشعبية .

« وليس رعايا بريطانيا العظمى وفرنسا والروسيا وحليفاتها وحدهم قد أظهروا آيات الإخلاص والولاء بإرسال زهرة شبابهم لمساعدتنا في ميادين القتال ضد تركيا وفي غيرها ، بل إن الطبقة الرشيدة من الأتراك سخطت على سوء سلوك تركيا إلى هذا الحد .

« ولعل بينكم من يتساءل عن نوايانا بعد أن قطعنا جذوة هذه الحرب ، فلدفع الالتباس نصرح لكم بما يأتي :

« إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وأمبراطور الهند قررت أنه عند انتهاء الحرب ستجعل من بين شرائط الصلح ومواده الرئيسية أن تكون

شبه جزيرة العرب والاراضي المقدسة التى فيها مستقلة ، وألا يُضَم شبر منها إلى أراضينا أو أراضى أي دولة أخرى ، ومعنى ذلك أن استقلال بلادكم وتمتعها بالحرية أصبح محققا لا ريب فيه ، وأن هذه الكفالات ستجعل بفضل الله تعالى شبه جزيرة العرب ترفل فى ثياب الحرية ، وتستعيد رقيها القديم ونضرتها الأولى .

« بربكم أفلا يكفيكم ذلك ؟.

« لقد صرح لنا بعض مشائخ العربان رغبتهم في التخلص من يد الأتراك ، وبعضهم يشد اليوم أزر جيوشنا بحد سيوفهم .

« أما الذين يرغبون فينا منكم ، ويخافون المجاهرة بما فى نفوسهم فإليهم نسوق حديثنا هذا :

« لا يداخلكم من جانبنا شك وترقبوا سنوح الفرصة المناسبة ، فهي آتية لا ريب فيها ، وعندها تخلعون عنكم رداء الظلم ، وتنفضون عن كاهلكم غبار الاستبداد ، وإنا لا نألو جهدا في مدّ يد المساعدة إليكم ، كما أننا نعدكم وعدا صادقا ستصيرون بحول الله وقوته أمة متمتعة بكل معانى الاستقلال .

« أنتم على شوق إلى معرفة نوايانا من جهة دينكم الكريم ، ألا فاعلموا أن الديانة الاسلامية قد احترمتها الانجليز أجل الاحترام ، وأكبرتها كل إكبار ، والتاريخ أكبر شاهد على صدق ما نقول ، وما فتئنا لهذا السبب نمدّ يد المساعدة لسلطان تركيا ، ونزيد آصرة الألفة والود بيننا وبينه تمكينا .

« وأما الآن وقد حمله بعض وزرائه على نكران كل جميل صنعناه به

وعلى مناوأتنا بعد طول الصداقة بيننا وبينه فليس عليه الا أن يرضخ لمشيئتهم ، ويقبل عاقبة ما كان .

« ولكن سياستنا سياسة الاحترام والصداقة للاسلام والمسلمين لن يتطرق لها أدنى تغير ، وإن أقرب برهان على ما ذكرنا هو رغبتنا فى مساعدة سكان الأراضي الحجازية بمقادير من الحبوب ، ولكن ضباط الألمان والاتراك صادروا هذه المقادير حال وصولها جدة ، وألجأونا إلى عدم متابعة إرسال الحبوب لأعدائنا ليسدوا ما بهم من ألم المسغبة ، فى حين أن الفقراء خماص البطون يتضورون من الجوع .

« وبالرغم من كل هذه الصعوبات فالحكومة الانجليزية — بعد ما سمعت بما يتكبده الحجاج وسكان بلاد العرب الأبرياء من آلام الجوع لندرة المأكولات — فقد حركتها عوامل الشفقة السرمدية نحو العرب أجمع ، فقررت التصريح لجلب المأكولات إلى جدة عن طريق البحر .

فليتأكد العرب أنفسهم أن هذه المؤن الغذائية هي قوت لهم ولعائلاتهم ، وليجتهدوا في منع مصادرتها من هؤلاء الذين يعملون على نقيض القواعد المتبعة إبان الحروب ، ويخطفون لقمة الجائع من فمه ».

ووسع الانجليز نطاق جهودهم لاستمالة العرب والحسين وغيره من الحكام ، ولكنهم كانوا حريصين على الحسين قبل غيره ، فكل زعماء العرب وحكامهم قد أشاروا إلى الحسين ، وابن سعود الذى كان فى النصف الشرقي من الجزيرة أكبر حاكم يذكر للسير برسى كوكس عندما عرض عليه الخلافة أنه ليس من أحد أجدر بالخلافة من الحسين بن علي .

فالانجليز بعثوا رسلهم وكتبهم إليه ، فاستجاب لهم الحسين بعد

تردد طويل ، لأنه لم يجد لدى الاتحاديين ما كان يصبو إليه من إعطاء العرب حقوقهم ، بل وجد منهم — وهم في تلك الظروف الصعبة العصيبة — الإمعان في سلب الحقوق ، والاسراف في الاذلال ، والاصرار على ضرب العرب واعدام أحرارهم ومفكريهم وزعمائهم .

وتلقاء هذه الأعمال لم يجد الحسين مناصا من عزمه على مقاومة الأتراك وقطع علاقاته معهم ، ووضع يده في يد أعدائهم بعد أن وحد بينهم وبينه الهدف الواحد ، ووجد منهم العون والعهد والوعد بمساعدته على تحرير العرب وأوطانهم .

وتبودلت بين الحسين والحكومة البريطانية ممثلة في نائب مليكها بمصر السير آرثر هنري مكماهون ، وهي خمس رسائل بعثها الحسين إليه وتلقى منه أجوبتها ، وكان الحسين — رحمه الله وأسكنه الجنة — يدعوها « مقررات النهضة » وهي كما دعاها لو أن الانجليز وفوا بما جاء فيها ، ولكنهم غدروا به وبالعرب جميعاً ، وما يزالون .

ولما كان لهذه الرسائل أهمية تاريخية فقد رأينا أن نثبتها في هذا المكان — فهو موضعها — للتاريخ والحساب .

وأول ما كتب الحسين مذكرة بعثها الى مكماهون بوساطة ابنه عبدالله الذى أرسلها مع رسالة منه اليه مرسلة الى رونالدستورس الذي كان يشغل منصب السكرتير الشرقي بدار الاعتماد البريطاني بمصر ، وها هي ذى رسالة عبدالله بن الحسين .

« ٢ رمضان سنة ١٣٣٣

« ١٤ يوليو (تموز) ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله

« أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتي الودية واحتراماتى ، وأرجو أن تعملوا كل ما في وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه ، المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية .

وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم ولحكومتكم أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا لأنه بأجمعه ميال الى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة .

ثم يجب ألا تتعبوا أنفسكم بارسال الطيارات أو رجال الحرب لإلقاء المناشير ، وإذاعة الشائعات كما كنتم تفعلون من قبل ، لأن القضية قد قررت الآن .

وإني لأرجوكم هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضي المقدسة (مكة والمدينة) التي أوقف إرسالها منذ العام الماضي .

وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا العام والعام الفائت سيكون له أثر فعال فى توطيد مصالحنا المشتركة ، وأعتقد أن هذا يكفي لإقناع رجل ذكي مثلك ، أطال الله بقاءكم .

حاشية — أرجو ألا تزعجوا أنفسكم بإرسال أي رسالة قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا ، خلا الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه ...

ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا ، كما نرجو أن تعطوه بطاقة منكم ليسهل عليه الوصول اليكم عندما نجد حاجة لذلك .

والرسول موثوق به » .

وأما مذكرة الحسين فهذا نصها :

مكة : ٢ رمضان ١٣٣٣

١٤ يوليو (تموز) ١٩١٥

« لما كان العرب بأجمعهم دون استثناء قد قرروا في الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة ، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظريا وعمليا بأيديهم ، ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا من أن مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول الى أمانيهم المشروعة وهي الأماني المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم .

ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى بالنظر لمركزها الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانية .

انه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربي انه من المناسب ان يسأل الحكومة البريطانية اذا كانت ترى من المناسب ان تصادق بواسطة مندوبيها او ممثليها على الاقتراحات الاساسية الآتية :

أولا — ان تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين — ادنه حتى الخليج الفارسي شمالا ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً ، يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي — ومن البحر الاحمر ، والبحر المتوسط حتى سينا غرباً .

على ان توافق انكلترا ايضاً على اعلان خليفة عربي على المسلمين .

ثانياً — تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترا فى كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية ، اذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

ثالثاً — تتعاون الحكومتان الانكليزية والعربية في مجابهة كل قوة تهاجم احد الفريقين ، وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية ، وتأميناً لأفضلية انكلترا الاقتصادية فيها ، على ان يكون هذا التعاون في كل شيء ، في القوة العسكرية ، والبحرية ، والجوية .

رابعاً — اذا تعدى احد الفريقين على بلد ما ونشب بينه وبينها عراك وقتال فعلى الفريق الآخر ان يلزم الحياد ، على ان هذا الفريق المتعدي اذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين ان يجتمعا معاً وان يتفقا على الشروط .

خامساً — مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة ، واذا شاء احد الفريقين تجديدها عليه ان يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام .

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق — والحمد لله — على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الامر ، فهو يرجو الحكومة البريطانية ان تجيبه سلباً او ايجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح . واذا انقضت هذه المدة ولم يتلق من الحكومة جواباً فانه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء .

وفوق هذا فاننا نحن عائلة الشريف نعتبر انفسنا — اذا لم يصل الجواب — أحرارا في القول والعمل من كل التصريحات والوعود التى قدمناها بواسطة

علي افندي [1] .

وأجاب مكماهون الحسين بهذه الرسالة :

« القاهرة : ١٩ شوال ١٣٣٣

٣٠ اغسطس (آب) ١٩١٥

« إلى السيد الحسيب النسيب ، سلالة الأشراف ، وتاج الفخار ، وفرع الشجرة المحمدية ، والدوحة القرشية الأحمدية ، صاحب المقام الرفيع ، والمكانة السامية ، السيد الشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع ، أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين ، عمت بركته الناس أجمعين .

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص ، وشريف الشعور والإحساسات نحو الإنجليز ، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم على رأي واحد ، وأن مصالح العرب هي نفس مصالح الأنجليز ، والعكس بالعكس ، ولهذه النسبة فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر التي وصلت سيادتكم عن يد علي أفندي ، وهي التي كان موضحاً بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عن إعلانها ، وإنا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة

---

(١) هو مصري كان على صلة وثيقة بستورس، وموثوقا به ، وقد ارسله ستورس باول رسالة بعثها الى عبدالله بن الحسين ، وجعل مهمته سرية ، وأمره ان يكون عادياً ويحضر مجلس عبدالله كأي زائر عادي ويسلمه الرسالة ، ووصل مكة المكرمة في شهر اكتوبر (تشرين الثاني) سنة ١٩١٤ وأدى مهمته .

إلى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة ، وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم ، فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها ، وصرف للأوقات سدى في مثل هذه التفاصيل ، في حالة أن الحرب دائرة رحاها ، ولأن الأتراك أيضاً لا يزالون محتلين لأغلب تلك الجهات احتلالا فعلياً ، وعلى الأخص ما علمناه وهو ما يدهش ويحزن أن فريقاً من العرب القاطنين في تلك الجهات نفسها قد غفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التي ليس أعظم منها ، وبدل إقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مدّ يد المساعدة إلى الألمان ، نعم مد يد المساعدة لذلك السلاب النهاب الجديد وهو الألمان ، وذلك الظالم العسوف وهو الأتراك .

مع ذلك فانا على كمال الاستعداد لأن نرسل إلى ساحة دولة السيد الجليل وللبلاد العربية المقدسة والعرب الكرام من الحبوب والصدقات المقررة في البلاد المصرية ، وستصل بمجرد إشارة من سيادتكم ، وفي المكان الذى تعينوه ، وقد عملنا الترتيبات اللازمة بمساعدة رسولكم في جميع سفراته إلينا ، ونحن على الدوام معكم قلباً وقالباً ، مستنشقين رائحة مودتكم الزكية ومستوثقين بعرى محبتكم الخالصة ، سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا .

وفي الختام أرفع إلى تلك السدة العليا كامل تحياتي وسلامي وفائق احترامي .

المخلص
السير آرثر مكماهون
نائب جلالة الملك

واجاب الحسين بهذه الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣
٩ سبتمبر (إيلول) سنة ١٩١٥

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر ، سلمه الله

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ في ١٩ شوال وطالعته بكل احترام واعتبار رغم شعوري بغموضه وبرودته فيما يتعلق بنقطتنا الاساسية ؛ اعني نقطة الحدود .

وارى من الضروري أن اؤكد لسعادتكم اخلاصنا نحو بريطانيا العظمى واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشؤون وفي اي شكل ، وفي أية ظروف ، ويجب أن أؤكد لكم ايضاً أن مصالح أتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم .

ويعذرني فخامة المندوب اذا قلت بصراحة : ان « البرودة » و « التردد » اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود ، وقوله: إن البحث في هذه الشئون انما هو اضاعة للوقت ، وان تلك الاراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها ؛ ويعذرني فخامته اذا قلت : ان هذا كله يدل على عدم الرضا ، او على النفور او على شيء من هذا القبيل فان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود ، وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد .

وهذا ما جعل الشعب يعتقد انه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة ، ويعلقون عليها كل الآمال وهي بريطانية العظمى .

واذا أجمع هؤلاء على ذلك فإنما يجمعون عليه في سبيل الصالح المشترك وهم يرون انه من الضروري جداً أن يتم تنظيم الاراضي المجزأة ، ليعرفوا على اي اساس يؤسسون حياتهم كي لا تعارضهم انكلترا او إحدى حليفاتها

في هذا الموضوع مما يؤدى الى نتيجة معاكسة ، الامر الذى حرمه الله .

وفوق هذا فان العرب لم يطلبوا — في تلك الحدود — مناطق يقطنها شعب اجنبي ، بل هي عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها .

اما الخلافة فان الله يرضى عنها ، وبسر الناس بها .

وانا على ثقة يا صاحب الفخامة ، انكم لا تشكون قط بأني لست انا شخصياً الذي يطالب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا ، بل هي مقترحات شعب بأسره ، يعتقد بأنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية .

او ليس هذا صحيحاً يا فخامة الوزير ؟.

وبالاختصار فاننا ثابتون في اخلاصنا نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا — كما قيل — او غاضبين .

اما ما يتعلق في قولكم بأن قسماً من شعبنا لا يزال يبذل جهده في سبيل تأمين مصالح الاتراك ، فلا اظن ان هذا يبرر « البرودة » و« التردد » اللذين شعرت بهما في كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود ، الموضوع الذى لا اعتقد ان رجلا مثلكم ثاقب الرأي ينكر انه ضروري لحياتنا الادبية والمادية .

وانا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة الاسلامية في كل عمل اقوم به ، وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة ، واني سأستمر في هذا الى ان يأمر الله في غير ذلك .

وأود هنا يا صاحب الفخامة ان اؤكد لكم بصراحة أن كل الشعب — ومن جملته هؤلاء الذين تقولون انهم يعملون لصالح تركيا والمانيا

ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم او رفضكم قضية الحدود ، وقضية المحافظة على ديانتهم ، وحمايتهم من كل أذى او خطر .

وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها في هذا الموضوع فما عليها الا أن تعلمنا به وأن تدلنا على الطريق التي يجب أن نسلكها .

ولذلك نرى أن من واجبنا أن نؤكد لكم اننا سنطلب إليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها .

ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم الى أن خطتنا هي آمن على مصالح انكلترا من خطة انكلترا على مصالحنا ، ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران في المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها .

وفوق هذا فان الشعب البيروتي لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء ، وقد يضطرونا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضرة .

وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة .

وأنا أصرح بهذا رغم أني أعتقد وأؤمن بالتعهدات التي قطعتموها في كتابكم .

ويستطيع معالي الوزير وحكومته أن يثقا كل الثقة بأننا لا نزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التي عرفها مستر ستورس منذ عامين .

ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التي تناسب موقفنا ، وخاصة فيما

يتعلق بالحركة التي أضحت قريبة والتي يدفعها الينا القدر بسرعة ووضوح ، لنكون حجة ــ نحن والذين يرون رأينا ــ في العمل ضد تركيا ودون أن نتعرض للوم والنقد .

وأعتقد أن قولكم : « بأن بريطانيا لا تحثكم ولا تدفعكم للإسراع في حركتكم مخافة أن يؤدي هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم » لا يحتاج إلى ايضاح إلا فيما يتعلق بمطالبكم بالأسلحة والذخائر .

أعتقد الآن أن في هذا الكفاية » .

ورد مكماهون بهذه الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

القاهرة : في يوم الاثنين ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣

٢٤ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٥

إلى فرع الدوحة المحمدية ، وسلالة النسل النبوي ، الحسيب النسيب ، دولة صاحب المقام الرفيع ، الأمير المعظم ، السيد الشريف ابن الشريف ، أمير مكة المكرمة ، صاحب السدة العليا ، جعله الله حرزاً منيعاً للإسلام والمسلمين بعونه تعالى آمين . وهو دولة الأمير الجليل الشريف حسين بن علي ، أعلى الله مقامه .

قد تلقيت بيد الاحتفاء والسرور رقيمكم الكريم ، المؤرخ بتاريخ ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ ، وبه من عباراتكم الودية المحضة وإخلاصكم ما أورثني رضاء وحبوراً .

إني متأسف أنكم استنتجتم من عبارة كتابي السابق أني قابلت مسألة

الحدود والتخوم بالتردد والفتور ، فإن ذلك لم يكن القصد من كتابى قط ، ولكني رأيت حينئذ أن الفرصة لم تكن قد حانت للبحث بعد في ذلك الموضوع بصورة نهائية .

ومع ذلك فقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل الحيوية المستعجلة ، فلذا فانى قد أسرعت في إبلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم ، وإني بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنهـــا التصريحات الآتية التى لا أشك في أنكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول .

إن ولايتيْ مَـرْسِين واسكندرونة ، وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام ، وحمص ، وحماة ، وحلب ، لا يمكن أن يقال إنها عربية محضة ، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة مع هذا التعديل ، وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب ، نحن نقبل تلك الحدود .

وأما من خصوص الأقاليم التي تضمها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا فإنى مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية : وأجيب على كتابكم بما يأتي :

(١) إنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب ، وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الأقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة .

(٢) إن بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي ، وتعترف بوجوب منع التعدي عليها .

(٣) وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها ،

وتساعدهم على إيجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الأقاليم المختلفة .

(٤) هذا وإن المفهوم أن العرب قد قرروا طلب نصائح وإرشادات بريطانيا العظمى وحدها ، وأن المستشارين والموظفين الأورباويين اللازمين لتشكيل هيئة إدارية قويمة يكونون من الإنجليز .

(٥) أما من خصوص ولايتيْ بغداد والبصرة ، فإن العرب تعترف بأن مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير إدارية مخصوصة لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي ، وزيادة خير سكانها ، وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة .

وإني متيقن أن هذا التصريح يؤكد لدولتكم بدون أقل ارتياب ميل بريطانيا العظمى نحو رغائب أصحابها العرب ، وتنتهي بعقد محالفة دائمة ثابتة معهم ، ويكون من نتائجها المستعجلة طرد الأتراك من بلاد العرب ، وتحرير الشعوب العربية من نير الأتراك الذي أثقل كاهلهم السنين الطوال .

ولقد اقتصرت في كتابي هذا على المسائل الحيوية ذات الأهميـــة الكبرى ، وإن كان هناك مسائل في خطاباتكم لم تذكر هنا فسنعود إلى البحث فيها في وقت مناسب في المستقبل .

ولقد تلقيت بمزيد من السرور والرضى خبر وصول الكسوة الشريفة وما معها من الصدقات بالسلامة ، وإنها بفضل إرشاداتكم الساميةوتدابيركم المحكمة قد أنزلت إلى البر بلا تعب ولا ضرر ، رغماً عن الأخطار والمصاعب التي سببتها هذه الحرب المحزنة .

ونرجو الحق سبحانه وتعالى أن يعجل بالصلح الدائم والحرية لأهل العالم .

إني مرسل خطابي هذا مع رسولكم النبيل الأمين الشيخ محمد بن عارف بن عريفان ، وسيعرض على مسامعكم بعض المسائل المفيدة التي هي في الدرجة الثانية من الأهمية ، ولم أذكرها في كتابي هذا .

وفي الختام أبث دولة الشريف ذا الحسب المنيف ، والأمير الجليل كامل تحيتي وخالص مودتي ، وأعرب عن محبتي له ولجميع أفراد أسرته الكريمة ، راجياً من ذي الجلال أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير العالم وصالح الشعوب ، إن بيده مفاتيح الأمر والغيب يحركها كيف يشاء ، ونسأله تعالى حسن الختام والسلام .

نائب جلالة الملك

السير آرثر مكماهون

وما أن تسلم الحسين رسالة مكماهون السابقة حتى بادر إلى الرد عليها بهذه الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة المكرمة : ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٣

٥ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩١٥

إلى معالي الشهم الهمام ، ذي الأصالة والرياسة ، الوزير الخطير ، وفقه الله لمرضاته .

بملء الإيناس تلقينا مرسوكم الموقر الصادر ، وأحللناه محل التبجيل ، وعلى مؤداه نجيب الشهامة .

أولا — تسهيلا للوفاق وخدمة للاسلامية فرارا مما يكلفها المشاق والإحن ولما لحكومة بريطانيا العظمى من الصفات والمزايا الممتازة لدينا يترك الإلحاح

في إدخال ولايات مرسين وأضنة في أقسام المملكة العربية . وأما ولايتي حلب وبيروت وسواحلهما فهي ولايات عربية محضة ، ولا فرق بين العربي المسيحي والمسلم ، فإنهما ابنا جد واحد ، ولتقوم فيهم منا معاشر المسلمين ما سلكه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أحكام الدين الاسلامي ومن تبعه من الخلفاء بأن يعاملوا المسيحيين كمعاملتهم لأنفسهم بقولهم : «لهم ما لنا وعايهم ما علينا » علاوة على امتيازاتهم وبما تراه المصلحة العامة وتحكم به .

ثانياً – حيث إن الولايات العراقية هي من أجزاء المملكة العربية المحضة ، بل هي مقر حكوماتها على عهد علي بن أبى طالب كرم الله وجهه ثم على عهد عموم الخلفاء من بعده ، وبها قامت مدنية العرب وأول ما اختطوه من المدن والأمصار واستفحلت دولهم فلها لدى العرب أقصاهم وأدناهم القيمة الثمينة والآثار التي لا تنسى ، فلا يمكننا إرضاء الأمة العربية وارضاخها لترك ذلك الشرف ، ولكن تسهيلاً للوفاق سيما والمحاذير التي أشرتم اليهـــا في المادة الخامسة من رقيمكم آنف الذكر محفوظيتهـــا وصيانتها من طبقة وضرورة ما نحن فيه وحيازة ما نريد التوصل اليه ، فان أهم ما في هذا هي صيانة تلك الحقوق الممزوجة بحقوقنا بصورة كأنها الجوهر الفرد يمكننا الرضا بترك الجهات التي هي الآن تحت الاشغـــــال البريطاني [1] الى مدة يسيرة ، البحث فيما يقبل عن قدرها دون أن يلحق حقوق الجانبين مضرة أو خلل ، سيما العربية بالنسبة لأمر مرافقها ومنابعها الاقتصادية الحياتية ، وأن يدفع للمملكة العربية في مدة الاشغال المقدار المناسب من المال لضرورة ترتكبه كل مملكة حديثة الوجود ، مع احترامنا

---

(١) كانت القوات البريطانية في ذلك الحين تحتل مدينة البصرة وولايتها ، وكانت ترحف على طاق كسرى .

لوفاقاتكم المشار عليها مع مشايخ تلك الجهات ، وبالأخص ما كان منها جوهرياً .

ثالثاً – رغبتكم في الاسراع بالحركة نرى فيه من الفوائد بقدر ما نرى فيه من المحاذير ، أوله خشية لوم الاسلامية كما سبق الجاهل عن حقائق الحالة بأنا شققنا عصاها وأبدنا قواها ، الثانى المقام تركيا معاضدتها جميع معانى قوى جرمانيا لجهلنا عما اذا حصل وهن احدى دول الائتلاف وأوجبها على صلح دول الاتفاق ، فكيف تكون خطة بريطانيا العظمى وحلفائها لئلا تكون الأمة العربية أمام تركيا وحلفائها معاً اذ لا يهمنا ما اذا كنا والعثمانية رأساً لرأس .

وعلى هذا فضروري ملاحظة هذه الأوجه ، ولا سيما عقد صلح اشتركنا في حربه بصورة غير رسمية يخول للمتصالحين البحث فيه عن شئوننا .

رابعاً – إن الامة العربية تعتقد يقيناً أن العثمانية عند وضع أوزار الحرب سيوجهون كل أعمالهم فيما يغضب العرب ويغتصب حقوقهم المادية والمعنوية وذهاب شعارهم واحسابهم واخضاعهم بكل معانى الاخضاع مع بقائها تحت النفوذ الالماني فهم عازمون على حربهم حتى لا يبقى لنا باقية وما يرى فينا الآن من التأنى فقد سبق بيان علته .

خامساً – متى علمت العرب أن حكومة بريطانيا وحلفائهم لايتركونهم عند الصلح على حالهم أمام تركيا وجرمانيا وانهم يدافعون عنهم ويعاضدونهم ويدافعون عنهم الدفاع الفعلي فالدخول في الحرب من الساعة لا شك أنه مما يوافق المصالح العربية .

سادساً – افادتنا السابقة الصادرة بتاريخ ٢٨ شوال ١٣٣٣ تغنى عن

اعادة القول في المادة الثالثة والرابعة من مرسومكم هذا الموقر في خصوصات الهيئات الحاكمة والمشاورين والموظفين سيما وقد صرحتم يا حضرة الشهم بأنكم لا تتدخلون في أمور الداخلية .

سابعاً – وصول الجواب الصريح القطعي في أقرب زمن على ما ذكر أعلاه من الطلبات ، إذ أنّا استعملنا كل ما يقربنا إليكم من التساهل الجدي الذى لا يراد به حقيقة جوهرية فانّا نعلم أن نصيبنا من هذه الحروب اما سعادة تضمن للعرب الحياة التى تناسب تاريخهم أوالاضمحلال في سبيلها ، ولولا ما رأيتم ورأيت ما في عزمهم لاختّرت العزلة فى شواهق السراة ، ولكن أبوا علي يا عزيزي أعزك الباري بمرضاته الا أن يقودوني الى هذا الموقف .

ودم غانماً سالماً بما نحبه وتريده » .

وأجاب مكماهون الحسين بالرسالة الآتية

بسم الله الرحمن الرحيم

القاهرة : ٩ صفر سنة ١٣٣٤
١٣ ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩١٥

إلى صاحب الاصالة والرفعة وشرف المحتد ، سلالة بيت النبوة والحسب الطاهر والنسب الفاخر ، دولة الشريف المعظم السيد حسين بن علي أمير مكة المكرمة ، قبلة الإسلام والمسلمين ، أدامه الله في رفعة وعلاء ، وبعد :

فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ وسرني

ما رأيت فيه من قبولكم إخراج ولايتي مرسين وأضنة من حدود البلاد العربية .

وقد تلقيت أيضاً بمزيد السرور والرضا تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من السادة الخلفاء الأولين ، التعاليم التي تضمن حقوق كل الأديان وامتيازاتها على السواء .

هذا وفي قولكم : إن العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعاً أن هذا يشمل جميع البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية ، لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء .

أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامة ، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيهما ، فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق ، وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب .

إن حكومة بريطانيا العظمى كما سبقت فأخبرتكم مستعدة لأن تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها إلى المملكة العربية ، ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة كما رسمتم ، على أن صيانة هذه المصالح كما يجب تستلزم نظراً أدق وأتم مما تسمح به الحالة الحاضرة ، والسرعة التي تجرى بها هذه المفاوضات ، وإننا نستصوب تماما رغبتكم في اتخاذ الحذر ، ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم ، ولكننا في الوقت نفسه نرى من الضروري جدا أن تبذلوا مجهوداتكم في جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة ، وأن تحثوهم على ألا يمدوا يد المساعدة إلى أعدائنا بأي وجه كان ، فإنهم

على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لإسعاف غرضنا عندما يجيء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته .

وفي هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت لى أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية ، وخلاصها من سلطة الأتراك والألمان .

هذا وعربون على صدق نيتنا ، ولأجل مساعدتكم على مجهوداتكم في غايتنا المشتركة فإني مرسل مع رسولكم مبلغ عشرين ألف جنيه ، وأقدم في الختام عاطر التحيات القلبية ، وخالص التسليمات الودية مع مراسم الإجلال والتعظيم المشمولين بروابط الألفة والمحبة الصرفة لمقام دولتكم السامي . ولأفراد أسرتكم المكرمة مع فائق الاحترام ؟

المخلص

نائب جلالة الملك بمصر

السير آرثر هنرى مكماهون

وأجاب الحسين على رسالة مكماهون السابقة بهذه الرسالة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة : في ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤

١ يناير (كانون الثاني) ١٩١٦

معالى الوزير الخطير الشهم الهمام

بأنامل الإجلال والتوقير تلقينا رقيميكم ٩ صفر الجاري برفق حاملها ،

وعلمت مضمونيهما ، وأدخلا علينا من الانشراح والارتياح ما لا مزيد لازالتهما وما يختلج بصدري ، ألا وهو وقوف حضرتك بعد وصول أحمد شريف وحظوته بالجناب [1] بأن كلما أتينا به في الحال والشأن ليس بنا شيء عن عواطف شخصية أو ما هو في معناها مما لا يعقل ، وأنها قرارات ورغائب أقوام ، وإنا لسنا إلا مبلغين أو منفذين لها بصفتنا التى ألزمونا بها اذ هذا عندى من أهم ما يجب وقوف شهامة الجناب عليه وعلمه به .

أما ما جاء بالمحررات الموقرة فيما يتعلق بالعراق من أمر التعويض مدة الاشغال فلزيادة ايضاح وقول بريطانيا العظمى بصفاتنا في القول والعمل في المادة والمعنى واعلامها بأكيد اطمئناننا باعتماد حكومتها المفخمة نترك أمر تقدير مبلغه لمدارك حكمتها ونصفتها .

أما الجهات الشمالية وسواحلها فما كان في الامكان من تعديل أتينا به في رقيمنا السابق .

هذا ، وما ذاك إلا للحرص على الامنيات المرغوب حصولها بمشيئة الله تبارك وتعالى .

وعن هذا الحس والرغبة التي ألزمتنا بملاحظة اجتناب ما ربما انه يمس حلف بريطانيا العظمى لفرنسا واتفاقهما إبان هذه الحروب والنوازل إلا أننا مع هذا نرى من الفرائض التى ينبغي لشهامة الوزير صاحب الرياسة أن يتقنها بأن عند أول فرصة تضع فيها أوزار هذه الحروب سنطالبكم بما نغض الطرف عنه اليوم لفرنسا في بيروت وسواحلها ، ولا أرى لزوما بأن نحيطكم بما في هذا أيضاً من تأمين المنافع البريطانية

(١) ورد الاسم فى بعض المصادر على انه محمد شريف الفاروقي .

وصيانة حقوقها هو أهم وأكبر مما يعود الينا ، وأن لا بد من هذا على أي حالة كانت ليتم للعظمة البريطانية أن ترى اخصاءها في البهجة والرونق التى تهم أن تراهم فيه ، سيما وأن جوارهم لنا سيكون جرثومة للمشاكل والمناقشات التى لا يمكن معها استقرار الحالة ، عدا أن البيروتيين بصورة قطعية لا يقبلون هذا الانفصال ويلجئونا على حالات جديدة تهم وتشغل بريطانيا بصورة لا تكون بأقل من اشتغالنا الحالي بالنظر لما نعتقده ونتيقنه من اشتراك المنفعة ووحدتها وحدها وهي الداعية الوحيدة لعدم التفاتنـــا لسواكم في المخابرات .

وعليه يستحيل إمكان أي تساهل يكسب فرنسا أو سواها شبراً من أراضى تلك الجهات ، أصبح بهذا مع اعتماد لكل جوارحى اعتماداً يرثه الحي منا بعد الميت بتصريحاتكم التى ختمتم بها رقيمكم الموقر .

وعليه فليعتقد جناب الوزير الخطير ولتعتقد بريطانيا الكبرى أنا على العزم الذي أشير اليه ويعلمه منا جناب الاريب الكامل استورس منذ عامين ، ولا نناظر فيه إلا الفرص المناسبة لأحوالنا ، وأخصها داعيته ووسيلته التى اقترب وقتها مما تسوقه الأقدار إلينا بكل سرعة ووضوح لتكون حجة لنا ، وعن رأينا على الاعتراضات والمسئوليات المقدرة وفي تصريحاتكم بقولكم : « وإنا لسنا نريد أن ندفعكم الى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم » يغنى عن زيادة الايضاح ما عدا طلب ما نرى لزومه عند الحاجة من الأسلحة وذخائرها الحربية وما هو في معناها .

وأكتفى بهذا القدر عن إشغال شهامتكم بتقديم وافر احتشاماتى وجزيل توقيراتى لمقام المقر الموقر » .

ورد مكماهون على هذه الرسالة بالرسالة الآتية :

القاهرة في ٢٥ ربيع الأول سنة ١٣٣٤
٣٠ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩١٦

تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ في ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق به واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية .

واننا لنقدر حق التقدير الدوافع التي تقودكم في هذه القضية الهامة ونعرف جيداً أنكم تعملون في صالح العرب ، وانكم لا ترمون إلى شيء — في عملكم — غير صالحهم وحريتهم .

وقد عنيت عناية خاصة بملاحظاتكم بشأن ولاية بغداد ، وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الأعداء ، ونصل إلى التسويات السلمية .

أما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم في تجنب كل ما من شأنه الاساءة إلى تحالف انكلترا وفرنسا وسررت جداً بابداء مثل هذه الرغبة .

وأظنكم تعرفون جيداً اننا مقررون قراراً نهائياً بألا نسمح بأي تدخل — مهما قل شأنه — في اتفاقنا المشترك في ايصال هذه الحرب إلى الفوز ، ثم متى انتهت الحرب فإن صداقة فرنسا وانكلترا ستقوى وتشتد ، وهما اللتان بذلتا الدماء الانكليزية والفرنسية جنباً إلى جنب في سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات .

والآن وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا في الدفاع عن الحقوق وتعمل معنا في سبيل هذه القضية الهامة فإننا لنرجو الله ان تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد صداقة دائمة تعود على الجميع بالسرور والغبطة .

وقد سررنا بدءاً للحركة التي تقومون بها لإقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا ، والكف عن مساعدة أعدائنا ، ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير أوسع من هذه ».

ورد الحسين على مكماهون بهذه الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة : في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤
١٨ فبراير (شباط) ١٩١٦

إلى حضرة ذو الاصالة ، فخامة نائب جلالة الملك ؛ دام مرعياً

بعد ، فبأيدي التوقير والاحتشام تلقينا رقيم الفخامة المؤرخ ٢٥ ربيع الأول ، وان مضامينه ادخلت علينا مزيد الارتياح والسرور لحصول التفاهم المطلوب والتقارب المرغوب ، أسأل الله ان يسهل المقاصد وينجح المساعي ، ومن الايضاحات الآتية نفهم الفخامة الاعمال الجارية والاسباب المقتضية :

أولاً — قد اعلمنا فخامتكم بأنّا بعثنا بأحد انجالنا إلى الشام ليرأس ما يقتضي عمله هناك ، ولقد ظفرنا منه بتقرير مفصل يفيد به أن اعتسافات الحكومة هناك لم تبق من الاشخاص الذين نعتمد عليهم في الأمر سوى ان كانوا من الجند على اختلاف مراتبهم ام ممن لم يكونوا من ذلك الصنف الا القليل مما كان في الدرجة التالية ، وانه ينتظر وصول القوات المعلن بقدومها من مواقع مختلفة اخصها من اهالي البلاد وما جاورها من الاقطار العربية كحلب وجنوب الموصل ، المشاع بأن عددها ما ينوف عن المائة ألف على ما يزعمون ، وأنه لا بد يؤمل ان كانت الاكثرية من القوّة المذكورة من العرب فهو عازم على اجراء

الحركة والقيام بهم ، وان كان العكس يعنى الاكثرية من الاتراك وسواهم فسيناظر تقدمهم نحو الترعة وعند اشتباك الحرب حركته بهم عندما يريدون .

ثانياً – عزمنا على إرسال نجلنا الكبير إلى المدينة المنورة بقوة كافية ليكون ردءاً لاخيه الذى بالشام ولكل احتمال واستيلائه على الخط الحديد وما هو في معنى ذلك مما تظهره الشئون .

وهذا هو المبدأ للحركة الاساسية المكتفين في مبادئها بما جندناه برسم المحافظة على راحة داخلية البلاد وبأهل الحجاز أهل المركز فقط لاسباب يطول شرحها :

(أولاً) تعسر إحضار لوازمهم بصورة تجعل المشروع في حيز الكتمان ، مع عدم الضرورة على ذلك وسهولة جلب الإمدادات عند الحاجة ، هذا خلاصة ما رغبتم في الجواب عليه والاستفهام عنه ، وفي ظني ان فيه الكفاية واتخاذه اساساً وقياساً في أعمالنا امام كل التبدلات والطوارىء التي يظهرها سير الحالة .

بقي علينا بيان ما نحتاجه والحالة هذه هو :

أولاً – مبلغ خمسين ألف جنيه ذهباً لمشاهرة القوات المجندة ونحوها مما ضرورته تغنى عن بيانه .

فالرجاء إحضاره بوجه السرعة الممكنة .

الثاني – إحضار عشرين ألف كيس أرز ، وخمسة عشر ألف دقيق ، وثلاثة آلاف شعير ، ومائة وخمسين كيس بن قهوة ، ومثلها سكر ، ومقدار خمسة آلاف بندقية من الطراز الجديد وما تحتاجه النسبة

لها من المرميات ، وأيضاً مقدار مائة صندوق من النوع المرسل منه مرميتين طيه ، ومن مرميات بواريد مارتن هنري وبارودات غرا ؛ أعني بواريد معمل سانت آتين الافرنسية لاستعمال هذين الصنفين في بواريد أي بندقيات قبائلنا ، ولا بأس من جعل لكل نوعهما خمسمائة صندوق .

الثالث – إنّا استنسبنا مركز سوقيات هذه المواد المرغوبة يكن بور سودان .

الرابع – بالنظر لكون المواد الغذائية واللوازمات الحربية الموضحة أعلاه لا حاجة لنا بها الا عند ابتداء الحركة وسنبلغكم اياها بصورة رسمية تبقى في الموضع المذكور ، وعند الحاجة اليها يبلّغ أمير الجهة المذكورة وقائدها بالمواقع التي يقتضي سوقها اليها والوسائط التي سيكونون حاملين الوثائق بتسليمها اياهم .

الخامس – النقود المطلوبة يقتضي ارسالها في الحال إلى أمير بور سودان ، وسيرده من طرفنا معتمد يتسلمها اما دفعة أو دفعتين على حسب استطاعته ، وهذه علامة اعتماد الرجل ⊤.

السادس – مندوبنا في قبض المبالغ المذكورة سيتوجه إلى بور سودان بعد ثلاثة أسابيع ، يعني يكون وصوله اليها في ٥ من جماد الأول حامل كتاب منا باسم الخواجة الياس أفندى ، وأنه يصرف له بموجبه ما لديه من ايجارات أملاكنا والامضاء صراحة باسمنا ، غير اننا معودينه يسأل عن قائد الموقع وأميره ، فأنتم تخبروهم عن ذلك الشخص وبمراجعته يجري له ما يقتضي من صرف ما لديهم بشرط الا يبحثوا معه في أي موضوع كان مؤكدين غاية التأكيد في عدم المظاهرة له وكتمان أمره ومعاملته في الظاهر بأنه لا شيء ، لا يظن ان ثقتنا للشخص الأخير

من اعتماد الأول حامله هذا لا بل لعدم ضياع الوقت لتعييننا له خدمة في جهة ثانية ، مع تكرر رجائنا بعدم اركابه وابعاثه في بابور أو في شيء من هذه الرسميات فان وسائطه كافية .

السابع – مندوبنا حامل هذا أكدنا عليه بالاكتفاء بايصال هذا ، وأظن أن مأموريته في هذا الدور تمت حيث إن الحالة عُلِمَت أساساتها وفروعها فلا حاجة في بعث شخص آخر ، إذ أن اللزوم للمخابرة يكون منا ولا سيما أن مندوبنا الأخير سيردكم بعد ثلاثة أسابيع يمكن في ظرفها إفادتنا بما يلزم له الحال ، والا يعامل في الصورة الظاهرة إلا معاملة بسيطة .

الثامن – تتعهد الحكومة البريطانية العظمى قبول هذه المصاريف الحربية بموجب الدفاتر التي تقدم إليها ببيان الوجهة التى صرفت فيها .

وبالختام أهديكم أشواقى التى لا تعد ، واحتشامي الذى ليس له حد » .

وأسرع السير مكماهون برد جواب رسالة الحسين السالفة بهذه الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

القاهرة : في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤
١٠ مارس (آذار) ١٩١٦

إلى ساحة ذلك المقام الرفيع ، ذى الحسب الطاهر والنسب الفاخر ، قبلة الإسلام والمسلمين ، معدن الشرف ، وطيب المحتد ، سلالة

مهبط الوحي المحمدي ، الشريف ابن الشريف ، صاحب الدولة ، السيد الشريف حسين بن علي ، أمير مكة المعظم ، زاده الله رفعة وعلاء آمين .

بعد ما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحتشام ، وتقديم خالص التحية والسلام ، وشرح عوامل الألفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية ، أرفع إلى دولة الأمير المعظم أننا تلقينا رقيمكم المؤرخ ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ من يد رسولكم الأمين ، وقد سررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوونها ، وإنها لموافقة في الأحوال الحاضرة ، وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تصادق عليها . وقد يسرني أن أخبركم بأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبكم ، وأن كل شيء رغبتم الإسراع فيه وفي إرساله فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا ، والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة وتبقى في بور سودان تحت أمركم لحين ابتداء الحركة ، وإبلاغنا إياها بصورة رسمية (كما ذكرتم) ، وبالمواقع التي يقتضي سوقها إليها والوسائط التي يكونون حاملين الوثائق بتسليمها إياهم .

إن كل التعليمات التي وردت في محرركم قد أعلمنا بها محافظ بور سودان وهو سيجريها حسب رغبتكم ، وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لإرسال رسولكم حامل خطابكم الأخير إلى جيزان حتى يؤدي مأموريته التي نسأل الله أن يكللها بالنجاح وحسن النتائج ، وسيعود إلى بور سودان وبعدها يصلكم بحراسة الله ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله .

وننتهز الفرصة لنوضح لدولتكم في خطابنا هذا ما ربما لم يكن واضحاً لديكم ، أو ما عساه ينتج سوء تفاهم ، ألا وهو أنه يوجد

بعض المراكز أو النقط المعسكرة فيها بعض العساكر التركية على سواحل بلاد العرب يقال إنهم يجاهرون بالعداء لنا ، والذين هم يعملون على ضرر مصالحنا الحربية البحرية في البحر الأحمر ، وعليه نرى أنه من الضروري أن نأخذ التدابير الفعالة ضدهم ، ولكننا قد أصدرنا الأوامر القطعية أنه يجب على جميع بوارجنا أن تفرق بين عساكر الأتراك الذين يبدأون بالعداء وبين العرب الأبرياء الذين يسكنون تلك الجهات ، لأننا لا نقدم للعرب أجمع إلا كل عاطفة ودية .

وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكون على بينة من الأمر إذا بلغكم خبر مكذوب عن الأسباب التي تضطرنا إلى أي عمل من هذا القبيل ، وقد بلغتنا إشاعات مؤداها أن أعداءنا الألداء باذلون جهدهم في أعمال السفن ليبثوا بها الألغام في البحر الأحمر ولإلحاق الأضرار بمصالحنا في ذلك البحر ، وإنا نرجوكم سرعة إخبارنا إذا تحقق ذلك لديكم ، وقد بلغنا أن ابن الرشيد قد باع للأتراك عدداً عظيماً من الجمال ، وقد أرسلت إلى دمشق الشام ، ونؤمل أن تستعملوا كل ما لكم من التأثير عليه حتى يكف عن ذلك ، واذا صمم على ما هو عايه أمكنكم عمل الترتيب مع العربان الساكنين بينه وبين سوريا أن يقبضوا على الجمال حال سيرها ، ولا شك أن في ذلك صالحاً لمصلحتنا المتبادلة .

وقد يسرني أن أبلغ دولتكم أن العربان الذين ضلوا السبيل تحت قيادة السيد أحمد السنوسي ، وهم الذين أصبحوا ضحية دسائس الألمان والأتراك قد ابتدأوا يعرفون خطأهم ، وهم يأتون إلينا وحداناً وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد إلينا ، والحمد لله قد هزمنا القوات التي جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا ، قد أخذت العرب تبصر الغش والخديعة التي حاقت بهم ، وإن لسقوط أرضروم من يد الأتراك وكثرة انهزاماتهم

في بلاد القوقاز تأثيراً عظيماً وهو في مصلحتنا المتبادلة ، وخطوة عظيمة في سبيل الأمر الذى نعمل له وإياكم .

ونسأل الله عز وجل أن يكلل مساعيكم بتاج النجاح والفلاح ، وأن يمهد لكم في كامل أعمالكم أحسن السبل والمناهج ، وفي الختام اقدم لدولتكم ولكامل أفراد أسرتكم الشريفة عظيم الاحترامات وكامل ضروب المودة والإخلاص مع المحبة التى لا يزعزها كر العصور ومرور الأيام .

كتبه المخلص
السير أرثر هنرى مكماهون
نائب جلالة الملك بمصر

هذه الرسائل المتبادلة بين الحسين ومكماهون هي « مقررات النهضة » كما دعاها الحسين ، وهو على حق ، وقد كانت حركته وثورته إيذانا بمولد عهد جديد للعرب ؛ ومهما أراد اليساريون الإقلال من شأنها أو التهوين من آثارها أو اتهامها زورا او بهتانا فإن التاريخ الصحيح يدون للحسين مفخرة لا تمحى .

ولا شك أن ثورة الحسين كانت من أسباب نصر الحلفاء على خصومهم ، ويكفي أن نورد رأي اثنين من الحلفاء ممن كانت الثورة العظيمة الناجحة على مرأى ومسمع منهما .

أما الأول فهو الجنرال بريمون رأس البعثة العسكرية الفرنسية في الحجاز ، ويقول : « إن الحملة التركية الألمانية على اليمن كانت بحيث تعرض الحلفاء إلى خطر عظيم ، ولو نجحت الخطة لسدت البحر الأحمر وفتحت المحيط الهندي أمام العمليات الحربية الألمانية ، لكن ثورة الحجاز عطلت تلك الحملة لحسن الحظ ، وبذلك قدمت من غير ريب

خدمة جلى لقضية الحلفاء [1] » .

ويقول الدكتور د.ج. هوجارث الباحث المشهور الذي عمل بالمكتب العربي بالقاهرة سنوات الحرب في صحيفة The Century (العصر) يوليو (تموز) ١٩٢٠ :

« لو لم تؤد الثورة شيئاً سوى تعطيلها للزحف المشترك الذى قام به الترك والألمان نحو جنوب بلاد العرب عام ١٩١٦ لكان لها في أعناقنا من الجميل ما لا يفي به كل ما قدمناه لهما حتّى اليوم » [1] .

ولخص الحسين من مكاتبات مكماهون ما سماه البنود الخمسة التى تشبث بها بعد الحرب ، واحتج بها على بريطانيا التي لم توف له بالتزاماتها وعهودها ووعودها ومواثيقها ، بل غدرت به وبالعرب شر غدر مما أدى إلى كل الكوارث التى يعانيها العرب والمسلمون في جميع أقطارهم حتى اليوم .

وها هي ذي البنود الخمسة :

البند الاول

تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معانى الاستقلال في داخليتها وخارجيتها ، وتكون حدودها شرقا خليج فارس ، ومن الغرب بحر القلزم (البحر الأحمر) والحدود المصرية والبحر الأبيض ، وشمالا حدود ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة إلى مصبها في بحر فارس ، ما عدا مستعمرة عدن

---

(١) يقظة العرب ، تأليف جورج انطونيوس ، الترجمة العربية ، صفحة ٣٨٠ .

فانها خارجة عن هذه الحدود ، وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التى أجرتها بريطانيا العظمى مع أي شخص كان من العرب العرب في داخل هذه الحدود بأنها تحل محلها في رعاية وصيانة حقوق تلك الاتفاقيات مع أربابها أمراء كانوا أم كانوا من الأفراد .

البند الثاني

تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أي تدخل كان بأي صورة كانت في داخليتها وبسلامة حدودها البرية والبحرية من أي تعدّ أيا كان شكله ، حتّى لو وقعت فتنة داخلية من دسائس الاعداء أو حسد بعض الامراء تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع تلك الفتنة ، وهذه المساعدة من الفتن والثورات الداخلية تكون مدتها محدودة ، أي إلى حين تتم للحكومة العربية تنظيماتها المادية .

البند الثالث

تكون ولاية البصرة تحت مشارفة بريطانيا العظمى إلى أن تتم للحكومة الجديدة المذكورة تنظيماتها المادية ، ويعين من جانب بريطانيا العظمى في مقابل تلك المشارفة مبلغ من المال يراعى فيه حالة الحكومة العربية .

البند الرابع

تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاج إليه ربيبتها الحكومة العربية من الاسلحة والذخائر والمال مدة الحرب .

البند الخامس

تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين أو من نقطة مناسبة في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن بلاد ليست مستعدة لها .

* * *

وبعد خمسة أشهر من آخر مكاتبة تلقاها الحسين من مكماهون أعلن الثورة على الترك فجر يوم السبت التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤هـ (٥ يونيو — حزيران — سنة ١٩١٦ م) وقادها هو نفسه بشجاعة ومهارة وحذق .

وكان للترك حامية قوية بمكة تنزل بقلعة جياد القائمة على جبل يشرف على مكة كلها والطرق التي تفضي إليها .

وظن القائد التركي ان الثورة قامت على يد اناس ليس للحسين دخل فيها ، فاتصل القائد التركي بالحسين تلفونيا يبلغه باندلاع نار الثورة ظناً منه أنه لا يعلم عنها شيئاً ، وقال له : أرجو أن تقوموا بإخماد الثورة بكل ما لديكم من جهود وقدرة وقوة ، ورد عليه قائلا : سأبذل كل ما في وسعى من أجل الثورة .

وحوصرت الحامية التركية ولم تدرك أن الحسين قائدها إلا بعد ثلاثة أيام ، واشترك كل أهل مكة وضواحيها في الثورة ، واخليت مساكن كثيرة من سكانها لئلا يتعرضوا لنيران المدفعية التركية ، وكان بين المشتركين والدى وأخي الاكبر الذى كان ضابطاً في جيش الحسين .

وتعرض سكان جبل الكعبة للمدفعية التركية ، كما أن الترك قذفوا الناس بالمسجد الحرام بنيران حامية شديدة ، وكان الحرم غاصاً بالحجاج إذ كانوا يفدون إلى مكة من جمادى الأولى .

وانهالت القنابل على المسجد الحرام ، ووقعت قنبلة فوق الحجر الاسود بذراع ونصف ذراع ، والثانية على بعد ثلاثة اذرع ، فاحترقت من نيرانهما كسوة الكعبة المشرفة ، وأصابت ثالثة مقام ابراهيم ، فثار الآلاف ممن كانوا في المسجد من أهلين وحجاج ، وفتح أناس من مكة باب الكعبة وصعدوا إلى سطحها ليتمكنوا من اخماد النيران .

وقتل كثير من الناس في وسط المسجد ومنهم أناس كانوا يصلون ، كما قتل بعض الطائفين .

وكان القناصة الاتراك من قلعتهم الحصينة ومن مراكزهم في وسط مكة يصيدون الناس ، كما كانت الرشاشات تمطرهم بوابل منهمر من الرصاص ، وكانت القلعة محصنة عالية لا تنال ، فكان من بها يصيبون ولا يصابون .

وبلغ من شجاعة الحسين – كما روى والدى وغيره من معاصريه – أنه كان أبرز الشجعان في مواجهة الترك ونيرانهم ، وأصيب قصره بالقذائف ومع هذا لم يغادره لا هو ولا أفراد أسرته .

ووزع الحسين منشوراً على الشعب الحجازي وعلى شعوب الأمة العربية والاسلامية في يوم ٢٥ شعبان ١٣٣٤هـ (٢١ يونيو (حزيران) ١٩١٦م) وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة المكرمة

٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤

٢١ يونيو (حزيران) سنة ١٩١٦

هذا منشورنا العام إلى كافة إخواننا المسلمين .

﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ .

كل يعلم أن أول من اعترف بالدولة العلية من حكام المسلمين وأمرائهم أمراء مكة المكرمة رغبة منهم في جمع كلمة المسلمين ، وتحكيماً لعرى جامعتهم ، لتمسك سلاطينها من آل عثمان العظام — طاب ثراهم وجعل الله دار الخلد مثواهم — بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه ، وتفانيهم في إنفاذ أحكامهما .

ولنفس تلك الغاية السامية الرفيعة لا يزال الأمراء المشار إليهم محافظين عليها فانى حملت بالعرب على العرب سنة ١٣٢٧ الف وثلثمائة وتسعة وعشرين لفك حصار ابها محافظة لشرف الدولة .

وفي السنة التي أعقبتها جرت عين هذه الحركة تحت قيادة احد ابنائي [١] ، إلى غير ذلك مما هو في هذا المعنى كما هو مشهور ومعهود إلى ان نشأت في الدولة جمعية الاتحاد ، وتوصلت إلى قبض إدارتها وكافة شؤونها بما كانت نتيجة انتقاصها من الممالك ما قوض عظمتها مما عرفه افراد العالم وخصوصا خوضهم بهـا غمرات الحرب الحاضرة ، وايقافهم اياها اليوم من موقف الهلكة التي لا تحتاج لبيان .

كل هذا لمحض غايات معلومة تأبى احساساتنا البحث فيها ، وتستدعى تفطر قلوب مسلمي المعمورة أسى وحزناً على دولة الاسلام ، وتمزيق ما بقي من سكان ممالكها بلا تفرقة بين مسلمهم وذميهم ، فريق منهم بالصلب وانواع الاعدام ، والآخر باجلائه عن وطنه على الصورة المعهودة والحالة المشهودة ، علاوة على ما أصيبوا به في أموالهم وانفسهم من آفات الحرب ولا سيما هذه الحرب الاخيرة التي كان للارض

---

(١) هو الامير فيصل بن الحسين .

المقدسة النصيب الاعظم كما يعلم مختصراً من اضطرار العموم حتى الدرجة الثانية من الاهالي على بيع أبواب دورهم ودواليبهم واخشاب سقفها بعد بيعهم لكافة موجوداتهم وذلك للحصول على سد الرمق .

كل هذا وكأن جمعية الاتحاد لم تره كافياً لغرضها كما يظهر من تجاوزها على احلال الرابطة الوحيدة بين السلطنة السنية العثمانية وكافة مسلمي المعمورة ألا وهي التمسك بالكتاب والسنة ، فقد وصفت احد صحفها الموسومة (بالاجتهاد) الصادرة في دار السلطنة السنية سيرة النبي صلوات الله عليه وسلامه بشر السير ، نسأل الله العافية .

وهذا بمرأى ومسمع من وزير الدولة الاعظم وشيخ إسلامها وسائر علمائها ووزرائها وأعيان رجالها ، وشفعت هذه الجرأة بلغو قوله تعالى : ﴿ للذكر مثل حظ الانثيين ﴾ فساوتهما في الميراث ، وعززتها بالطامة الكبرى وهي هدم احد اركان الاسلام الخمسة ، وهو صوم رمضان بالامر بالفطر على الجند المقيم بالمدينة المنورة او بمكة المكرمة او الشام مثلاً بدعوى أن زميله الجندي الآخر يقاتِل في حدود الروس .

ولفقت لهذا أقاويل لمعارضة قوله تعالى صراحة : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر ﴾ إلى غير ذلك مما يمس اساسات الاسلامية في الاقدامات المشتهرة صراحة احكام مرتكبها بعد ان ضربت على يد شوكة السلطان المعظم وسلبته حق الاقتدار على انتخاب رئيس كتاب ما بين سلطنته الشريفة او رئيس خاصته المبجلة المنيعة ، فضلاً عن النظر في أمور المسلمين ومصالح البلاد والعباد ، وما في هذا من اسقاطهم لشروط الخلافة المطالبين بها المسلمين وجوب البراءة منها والحالة هذه مما لا مشاحة فيه .

مع هذا فما زلنا نتأول حتى ظهر الخفاء ، وانكشف الغطاء ،

واتضح بأن الدولة اصبحت في يد أنور باشا وجمال باشا وطلعت بك يحكمون فيها بما يشاءون ويفعلون بها ما يريدون ، وابسط دليل على صحة هذا ما ورد أخيراً لقاضى محكمة مكة الشرعية بألا يحكم إلا بالشهادة التى تحررت في محكمته وبين يديه ، ولا يلتفت للشهادة التى يكتبها المسلمون فيما بينهم ، غير مبالين بما في آية البقرة .

هذا كله من جهة ، ومن أخرى صلبهم في آن واحد للواحد والعشرين رجلاً من عظماء أفاضل المسلمين وكبراء نوابغ العرب ، عدا من صلبوا من قبل ، وهم : الامير عمر الجزائري ، والامير عارف الشهابي ، وشفيق بك المؤيد ، وشكرى بك العسلي ، وعبد الوهاب ، وتوفيق بك البساط ، وعبد الحميد الزهراوي ، وعبد الغني العريسي . ورفاقهم المعلومون .

ولا ريب أنه يصعب حتى على ذوي القلوب القاسية إزهاق نفوس مثل هذا العدد في آن واحد ، ولو كانوا من بهائم الانعام .

وهب اننا التمسنا لهم عذراً ، وانتحلنا لهم مسوغاً من قبل هؤلاء الافاضل فما المسوغ لنفي عائلتهم البائسة البريئة من كل ذنب وفيها من الاطفال والشيوخ وربات الخدور مما تتفطر لهم القلوب وتذهب الانفس حسرات عليهم ، وإذاقتهم أنواع العذاب فوق ما قد أجْرِعوه من سم المصيبة باتلاف عميدهم الذى خربت بفقده منازلهم والله تعالى يقول : ﴿ ولا تزر وازرة وزر اخرى ﴾ .

واذا انتحلنا لهذه مسوغاً ايضاً فمن الذى يسوغ لهم مصادرة املاكهم واموالهم التى يأوون اليها ويتعيشون بها بعد أن قضوا على عزيزهم ، وسلبوا من أيديهم أسباب عزهم .

وإذا تغاضينا عن هذا كله أيضاً وقلنا : ربما كان لهم مسوغ اليه فكيف يمكن ان ننتحل مسوغاً لجرأتهم على قبر الأمير الأبر والمجاهد التقي الزاهد مولانا الشريف عبد القادر الجزائري الحسيني واهانته وتحقيره.

هذا ما أبدوه من الأعمال اتينا به مختصراً ، تاركين الحكم فيه للعالم الانساني عموماً والعالم الاسلامي خصوصاً ، وحسبنا برهاناً على ما تكنه صدورهم نحو الدين والعرب رميهم للبيت العتيق الذي أضافته العزة الاحدية لذاتها السبحانية في قوله تعالى : ﴿ وطهر بيتي للطائفين ﴾ وهي قبلة المسلمين وكعبة الموحدين بقنبلتين من قنابل مدافعهم (بحصن جياد) أثناء قيام البلاد بالمطالبة باستقلالها ، وقعت احداها فوق الحجر الاسود بنحو ذراع ونصف ، والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع ، والتهبت بنارها أستار البيت حتى هرع الالوف من المسلمين لاطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب ، واضطرهم الحال إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهيب .

وما انتهى أمرهم بهذا حتى عززوا الاثنين بثالثة في مقام ابراهيم ، عدا ما وقع منها في بقية المسجد الذي اتخذوه هدفهم الوحيد في غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص ، وما زالوا يقتلون الثلاثة والاربعة في نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد القرب من البيت .

وفي هذا من الاستخفاف والازدراء بالبيت وتعظيمه وحرمته ما نترك القول والحكم ايضاً لعموم المسلمين في مشارق الارض ومغاربها .

نعم ، نترك الحكم في هذا الاستخفاف والازدراء للعالم الاسلامي ، ولكنا لا نترك كياننا الديني والقومي ألعوبة في ايدى الاتحاديين وقد يسر الله للبلاد نهضتها ، كما وفقها بحوله وقوته لأخذ استقلالها وتكليل مساعيها بالفوز والنجاح بعد أن خربت على أيدى موظفيها

ورجال حاميتها ، فاستقلت فعلاً ، وانفصلت عن البلاد التي لا تزال تئن تحت سلطة المتقلبين من الاتحاديين انفصالاً تاماً مطلقاً بكل معاني الاستقلال الذي لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجي ، جاعلة غايتها ومبادئها نصرة دين الاسلام ، والسعي لاعلاء شأن المسلمين ، وقائمة في كل اعمالها على أساس احكام الشرع الشريف الذي لا يكون لنا مرجع سواه ، ولا مستند إلا إياه في سائر الاحكام وكافة أصول القضاء وفروعه ، مع استعدادها لقبول كل ما ينطبق على أصول الدين ويلائم شعائره من انواع فنون الترقي الحديث واسباب النهضة الصحيحة ، باذلة كل ما في الجهد والطاقة لاعزاز العلم وتعميمه بين الناس على اختلاف الطبقات ، وعلى حسب الحاجة والاستعداد .

هذا ما قد قمنا به لأداء الواجب الديني علينا راجين من كافة اخواننا المسلمين في مشارق الارض ومغاربها أن يؤيدوا كذلك ما يرونه واجباً لنا عليهم بالنسبة لتحكيم روابط الاخاء الاسلامي ، رافعين أكف الضراعة لرب الأرباب ، متوسلين برسول الملك الوهاب ان يتولانا بالتوفيق ، ويمدنا بالهداية إلى ما فيه خير الاسلام والمسلمين ، والاعتماد على الله العلي الكبير ، وهو حسبنا ونعم النصير .

في ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤

شريف مكة وأميرها

الحسين بن علي

وفي ضحى يوم الثلاثاء ٤ رمضان المبارك سقطت الحامية التركية مع قلعتها الحصينة في يد الحسين بعد قتال غاية في العنف والشدة ، وصار الحسين سيد الموقف كله في مكة وضواحيها والبوادى ، وغنم أسلحة وذخائر كثيرة .

ولكن للترك قوى كبيرة في جدة والطائف والمدينة ، ومراكز في

ساحل البحر الأحمر مثل رابغ وينبع والوجه .

ودافع الاتراك أقوى دفاع ، وثبتوا في الحرب ، وابدوا كل ضروب الشجاعة والبسالة والبطولة ، وعنف القتال بينهم وبين الحجازيين وأخذت القرى والمدن تسقط في أيدي قوات الحسين : سقطت مدينة الطائف في يد الشريف عبد الله بن الحسين ، مع أن قوة الشريف كانت ضئيلة بالنسبة للحامية التركية ، ولكن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء .

وسقطت مدينة جدة بعد قتال رهيب ، ثم سقطت قرى الساحل ، وعلم الحسين أن بعثة عسكرية ألمانية برئاسة البارون فون ستوتزنجن قد وصلت إلى ينبع في طريقها إلى جنوب الجزيرة ، ولم يغب عليه أن القصد من مجيء البعثة الألمانية هو تعيين مراكز عسكرية تهدد أسطول بريطانيا والحلفاء ، وتقطع عليه الطريق ، وايجاد نفوذ لألمانيا في البحر الأحمر والبحر العربي والهندي ، واحتلال عدن .

واذا اتيح للألمان أن يصلوا إلى سواحل جنوب الجزيرة لكان طبيعياً تهديد السفن الحربية والمدنية التابعة للحلفاء ، واحتلال بوغاز باب المندب يقطع على الانجليز طريق الهند إلى مصر ، ويجعل الصلة سهلة بين الأراضى التي تكون تحت نفوذ الألمان في الجزيرة ومستعمراتهم في افريقيا ، ويسهل لهم اشعال نيران الثورة في ارتريا والحبشة ودول إفريقية أخرى ، وتأييد الملا الشيخ محمد بن عبدالله زعيم الصومال الذى بدأ حربه للاستعمار منذ سنة ١٩٠١ ولم تنته إلا في سنة ١٩٢٠ .

وما كاد يصل إلى علم الحسين خبر وصول البعثة العسكرية الالمانية الى ينبع حتى استعد لاحتلال ينبع وضرب البعثة ، لأنه يعلم خطر وجودها على حركته الثورية ، فأرسل جيشاً من الهجانة تسانده كتيبة من جيش الحجاز النظامي المدرب تدريباً حسناً ، وكل أفراد هذه الكتيبة من أبناء

مكة والحجاز المغاوير الاشداء الشجعان ، فهاجموا الحامية التركية في ينبع ومعها البعثة الألمانية ، وقتل ثلاثة من ضباطها ، فاضطر البارون ومن نجا معه إلى الهرب ، وسلكوا طريق الشمال بعد أن حطموا معداتهم وجهاز اللاسلكي ، ووصلوا إلى جمال باشا بدمشق ، وسقطت ينبع .

وبهذه الهزيمة تبدد حلم الألمان في البحر الأحمر ، ونجحت الثورة نجاحاً أذهل الانجليز والترك والألمان ، فقد سقط الحجاز في يد الحسين ، وأخفقت دعوة الترك المسلمين إلى الجهاد المقدس بالمنشور الذى أعلنه الحسين ونشره على أوسع نطاق ،

وساء المسلمين ضرب الاتراك للمسجد الحرام والكعبة المشرفة والحجر الأسود بالقنابل ، ونقموا عليهم عدوانهم على أقدس بقاع الأرض ، وأيدوا ثورة الحسين ، وإن كان كثير من مسلمي القارة الهندية نقموا على الحسين ، ولكن ، لا خطر منهم على ثورته .

واذا كانت ثورته قد قضت على كثير من خطط الترك والألمان العسكرية والحربية فان منشور الحسين الذى ضرب دعوة الجهاد التركية في الصميم كان نظير أعماله الحربية بل أعظم منها ، فبعد أن كانت دعوة تركيا للجهاد ضد أعدائها أصبحت الدعوة ضد تركيا بسبب منشور الحسين الذى استنفر المسلمين إلى القيام بالثورة على تركيا .

وقد عبر جمال باشا عن نقمته الناقمة التى لا حد لها على الشريف الحسين بسبب منشوره أكثر من سخطه عليه بسبب ثورته ، عبر عن غضبه ونقمته في خطبته النارية التي ألقاها بدمشق في حفلة التكريم التى أقامها لرئيس مجلس الشورى العثماني ، ونشرته جريدة « الشرق » بعددها الصادر في ٢٣ يناير (كانون الثاني) ١٩١٧ .

ومما قاله بنصه :

« من المؤسف أن امرأ دنيئاً قد عطل الجهاد المقدس في صميم الأرض الاسلامية المقدسة حين حالف القوى المسيحية التى تسعى إلى ابتزاز العالم الاسلامي ، واستلاب القسطنطينية عاصمته .

« أما ذلك الفرد الخسيس الذي دفعته القحة لأن ينسب نفسه إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه فقد اضطر الدولة العثمانية إلى أن توجه قوى كان الحق أن توجه لتهزم البريطانيين في القناة وتحتل القاهرة .

« ان هذا الخائن لم يقم بما قام به إلا خدمة للبريطانيين .

ولكن ذلك كله لن يحول بين الاسلام والنصر النهائي أو يوقف جنودنا ، اولئك الأبطال الذين حموا القسطنطينية ، ودون اجتياز القناة واستئصال البريطانيين ، وجزّ رأس ذلك الدجال في مكة » .

وظهرت الصحف التركية وكلها تهاجم الحسين هجوماً غاية في العنف ، وتتوعده بالقتل عندما يظفر به الترك ، وتدعو الحجازيين والعرب على الثورة عليه لأنه أيد الكفرة ضد الاسلام والخلافة .

وكانت أخبار انتصارات الحسين على الحاميات التركية تصل الحكومة العثمانية وقادة الترك فتشعل غضبهم عليه ، ويزدادون في قذفه بالسباب الفاحش ، والحسين لا يرد عليهم إلا بالعمل الناجح والقول العف .

وفقد الأتراك أملهم في العودة إلى الحجاز ، كما لم يستطيعوا أن يتبجحوا بأنهم حماة الحرمين الشريفين بعد أن انتزعهما الحسين منهم .

وكانت الصدمة عنيفة للقيادة التركية في سوريا ، فقد رأت أن

خططها العسكرية لغزو قناة السويس قد باءت بالإخفاق ، ولا سبيل اليها بعد أن ثار الحسين الذي كان منوطاً به حشد جيش من المتطوعين الحجازيين ليتجه إلى القناة .

وأصابت ثورة الحسين القيادة التركية في سوريا والحكومة العثمانية بذهول وهزيمة نكراء ، وأربكتهم الضربات المفاجئة التى وجهها الحسين إليهم ، وأصيب الألمان أنفسهم بخيبة أمل ، فهم كانوا يعتقدون أن انضمام تركيا اليهم في الحرب واعلانها الجهاد المقدس ضد الكفرة سيشعل نيران الثورة في المستعمرات البريطانية والفرنسية في آسيا وافريقيا ، وسيمنع المسلمين في هذه المستعمرات من الانخراط في جيش الحلفاء ، وسيكونون ضدهم .

ولكن منشور الحسين قضى على دعوة الجهاد التركية ، وبجهوده وحركته وثورته أمنت طرق الهند والبحر الأحمر الى أوربا ، وأصبح أسطول الانجليز وحلفائهم في مأمن من الغواصات الألمانية .

وقطع الطريق بثورة الحسين على الحاميات التركية في جنوب جزيرة العرب ، وأصبحت في عزلة تامة عن القيادة التركية العليا ، وانقطعت عنها كل طرق التموين والاتصال بها ما عجّل بحلول الكارثة على هذه الحاميات .

وفي جنوب الجزيرة اتصل الانجليز وعلى رأسهم الماجور جنرال شو المعتمد السياسي البريطاني في عدن بالسيد محمد علي الادريسي عاهل عسير ، وأخذوا يفاوضونه حتى وفق شو إلى عقد معاهدة بينه وبين الادريسي ، شو باسم الحكومة البريطانية ، وتصديق هاردنج حاكم الهند العام ، والسيد مصطفى ابن السيد عبد المتعال الادريسي بالنيابة عن محمد علي ، ووقع عليها يوم الجمعة ١٥ جمادي الآخرة سنة ١٣٣٣هـ (٣٠

ابريل – نيسان ١٩١٥ م) .

وها هي ذي المعاهدة :

« ١ – إن هذه المعاهدة التي هي معاهدة صداقة وولاء قد وقع عليها الماجور جنرال شو المعتمد في عدن باسم حكومة بريطانيا العظمى والسيد مصطفى ابن السيد عبد المتعال باسم حضرة السيد محمد بن علي بن أحمد ابن إدريس – السيد الادريسي وأمير جبا وأطرافها – .

« ٢ – المقصد من هذه المعاهدة هو إعلان الحرب على الأتراك ، وتوطيد عرى الصداقة ما بين حكومة بريطانيا والسيد الادريسي المذكور آنفا وأعضاء قبيلته .

« ٣ – الإدريسي يتعهد بقتال الترك ، وأنه سيجتهد لطردهم من مواقعهم في اليمن ، وأن يتعقبهم ، وله أن يوسع أراضيه على حساب الأتراك .

« ٤ – عمل السيد الأساسي يتجه ضد الترك فقط ، ويمتنع عن كل حركة عدائية ضد الامام يحيى ، ما دام هذا لا يضع يده بيد الأتراك .

« ٥ – تتعهد الحكومة البريطانية بالمحافظة على أراضي السيد الإدريسي من كل اعتداء يقع من قبل أي عدو كان على السواحل ، وبضمانة استقلاله في أراضيه الخاصة ، وباستعمال كل الوسائط السياسية عند ختام الحرب في سبيل تأليف مطالب السيد الإدريسي مع الإمام يحيى أو أي خصم آخر .

« ٦ – إن الحكومة البريطانية لا تقصد توسيع أراضيها في غرب البلاد العربية ، ولكنها تتمنى بصورة صريحة أن ترى رؤساء العرب في

حالة سليمة وأخوية ، كل منهم في منطقته ، وكلٌ موال للحكومة البريطانية .

« ٧ — إنه كدليل على تقدير الحكومة البريطانية للأعمال التي سيقوم بها السيد الإدريسي فهي ستعاونه بالمال والمؤونة ، وتستمر على معاونته طول الحرب ، وستكون هذه المعاونة متناسبة مع ما يقوم به السيدالادريسي من الأعمال .

« ٨ — تسمح الحكومة البريطانية للإدريسي أثناء الحصار البحري المضروب على سواحل تركيا في البحر الأحمر أن يتاجر مع عدن وسواحلها وهي تضمن استمرار هذه الحالة ما دام العلاقات حسنة موجودة بين الطرفين .

٩ — تكون هذه المعاهدة نافذة المفعول على إثر موافقة الحكومة الهندية عليها » .

« ملحق : تعطى جزيرة فرسان للإدريسي منعا لمطالب ايطاليا » .

* * *

وبعد أسبوعين من توقيع هذه المعاهدة بملحقها قام الادريسي — في شهر رجب ١٣٣٣ (مايو ١٩١٥ م) — بإعلان الحرب على القوات التركية ، واستطاع أن يجند اثني عشر ألف محارب .

ووفق الادريسي بجيشه القوي لدحر القوات التركية والحيلولة دونها ودون مهاجمة القوة البريطانية في عدن ، وبذلك أمن الانجليز وحلفاؤهم على سفنهم العسكرية والمدنية وطرق ملاحتهم في هذا الجانب .

وكان السيد الإدريسي أول حاكم عربي يعلن الحرب على الاتراك لمصلحة الحلفاء وبخاصة الانجليز .

اما الامام يحيى امام اليمن فلم يكن ذا شأن يحسب له حساب في الحرب الدائرة بين الترك والانجليز ، فبلاده – بعد معاهدة الإدريسي وبريطانيا – لم تعد ذات خطر ، فشمال اليمن مع الانجليز ، وجنوبها تحت الاحتلال البريطاني ، والانجليز يسيطرون على البحر الأحمر .

ومع هذا كلف الانجليز الكولونيل جاكوب المساعد الأول للمعتمد البريطاني في عدن أن يبحث مع الامام يحيى بشكل غير رسمي مسألة انضمامه إليهم ، فأوفد الامام وفدا من قبله على أن تكون المفاوضة غير رسمية ، وسافر الوفد إلى عدن ، وفي الاجتماع الأول أعلن مندوب الامام يحيى أن اليمن مرتبطة مع تركيا ولا يمكن أن تتخلى عنها أو تنضم إلى خصومها ، وكان هذا الاجتماع في شهر صفر سنة ١٣٣٣ هـ (يناير كانون الثاني – ١٩١٥) .

ولما رأى الانجليز موقف الامام تركوه دون أن يمسوه أو يعارضوه ، لأنهم رأوا أن موقفه لن يضر بمصالحهم في الحرب .

وبعد ثورة الحسين الناجحة التي لقيت التأييد من ابن سعود ومن كل حكام الجزيرة وشيوخ عربانها تغير الموقف كله في الجزيرة العربية لصالح الانجليز والحلفاء ، وموقف الامام يحيى عاهل اليمن لا يعتبر شذوذا على القاعدة ، فهو – وان يكن مع الترك – لم يعارض الثورة العربية ، ولم يناوىء من أعلنوا الحرب على تركيا مثل السيد الادريسي الذي كان يجاوره ، ولا يعد الامام يحيى حليفا قويا للترك ، فهم قد انقطعوا عنه وعن جنودهم في اليمن ، فاحتمل عن الحكومة العثمانية صرف مرتبات الجنود والموظفين الترك من خزينته الخاصة .

ولم يبق للترك في الجزيرة العربية يد قوية غير ابن الرشيد الذى أمدوه بالمال الطائل والسلاح الكثير والرجال .

ولكن الثورة العربية الكبرى التي قام بها الحسين دعت امام اليمن وابن الرشيد إلى التفكير في مصيرهما بعد ما حدث للترك ما حدث ، وإلى تصحيح ما يمكن تصحيحه من مواقفهما ، ولكن موقفهما من الترك لم يتغير ، وابن الرشيد وحده الذي كان يحارب خصوم الترك أو أحد خصومهم ألا وهو ابن سعود .

وانبرى ابن الرشيد لابن سعود يريد أن يضربه الضربة القاصمة ليعيد نجدا والاحساء الى حظيرة الترك ، وتقابل الخصمان العنيدان في مكان يسمى « جراب » وانتهت المعركة بينهما بدون هزيمة أو نصر لأحدهما ، غير أن ابن سعود خسر أحد المسئولين البريطانيين وهو الكابتن ج . ر. شكسبير) أحد الموظفين السياسيين في حكومة الهند التي أوفدته الى ابن سعود بعد أن أصبح المعتمد السياسي البريطاني في الكويت ، وقد رافقه في هذه الحرب التي انتهت بمقتله برصاصة طائشة في المعركة ، وذلك في اليوم السابع من شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٣ (٢٤ يناير — كانون الثاني — ١٩١٥م).

ولم يسأم الانكليز أو يقنطوا ، فـان مـات شكسبير فهناك برسي كوكس ، وهناك من دهاقنة الامبراطورية كثير ، فاتصل كوكس بابن سعود الذي رأى من مصلحته أن يوالي بريطانيا ، فلعله مفيد منها ، بل مفيد منها كثيرا ، فهو سينهض في وجه ابن الرشيد ، وسيعرقل مساعي تركيا ، وسيقضي عليها في قلب الجزيرة ، وهذا ما يقصده الانكليز ، فهم لا شك ممدوه بالمال والسلاح وبكل ما يحتاج اليه .

وأبرمت في الأيام الأولى من شهر يناير (كانون الثاني) سنة ١٩١٥ م بين ابن سعود والحكومة البريطانية بوساطة كوكس معاهدة جائرة قال عنهـا الاستاذ حافظ وهبه في كتابه « جزيرة العرب » : « في هذه المعاهدة تجلى قصر نظر مستشاري ابن سعود بما يجرى في العالم والاستفادة من الفرص ،

على أن هذا الخطأ قد أصلح بمعاهدة جدة سنة ١٩٢٧ م حيث اعترف له بالاستقلال التام وبمخابرة الدول والاتفاق معها حسبما تمليه مصلحة بلاده بعد ما كان محروما من هذا الحق في معاهدة القطيف » .

وها هي ذي المعاهدة ننقلها هنا للتدوين التاريخي :

« بين الحكومة البريطانية من جهة ، وبين عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود أمير نجد والاحساء والقطيف وجبيل وجميع المدن والمرافىء التابعة لهذه المقاطعات من جهة أخرى .

« الحكومة البريطانية باسمها ، وعبد العزيز باسمه وباسم ورثته وأخلافه ورجال عشيرته ، عينت الحكومة البريطانية الكولونيل السير برسي كوكس معتمدها في سواحل خليج العجم مفوضا لأجل أن يعقد معاهدة مع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود ضمن المقصد الآتي :

« توطيد وتوكيد الصداقة الموجودة بين الطرفين منذ زمن طويل، وتأييد منافعهما المتقابلة : ان الكولونيل السير برسى كوكس وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود المعروف بابن السعود اتفقا وتعاقدا على المواد الآتية :

أولا ــ إن الحكومة البريطانية تعترف وتقبل بأن نجد والاحساء والقطيف وجبيل وملحقاتها التي تعين هنا والمرافىء التابعة لها على سواحل خليج العجم كل هذه المقاطعات تابعة للامير ابن سعود وآبائه من قبل ، وهي تعترف بابن سعود حاكما مستقلا على هذه الاراضي ورئيسا مطلقا على جميع القبائل الموجودة فيها ، وتعترف لأولاده وأعقابه الوارثين من بعده على أن يكون خليفته منتخبا من قبل الأمير الحاكم ، وألا يكون مخاصما لانكلترا بوجه من الوجوه ، أي أنه يجب ألا يكون ضد المبادىء التي قبلت في المعاهدة هذه .

ثانيا – اذا تجاوزت احدى الدول على أراضي ابن سعود أو أعقابه من بعده دون اعلام الحكومة البريطانية ودون أن تمنح الوقت المناسب للمخابرة مع ابن سعود لأجل تسوية الخلاف فالحكومة البريطانية تعاون ابن سعود ضد هذه الحكومة ، وفي مثل هذه الظروف يمكن للحكومة البريطانية بمساعدة ابن سعود أن تتخذ تدابير شديدة لأجل محافظة وحماية منافعه .

رابعا – يتعهد ابن سعود بصورة قطعية ألا يتخلى ولا يبيع ولا يرهن ولا بصورة من الصور ولا يقبل بترك قطعة أو التخلي عن الاراضي التى ذكرت آنفا ، ولا يمنح امتيازا في تلك الاراضي لدولة أجنبية أو لتبعية دول أجنبية دون رضا الحكومة البريطانية ، وأنه يتبع نصائحها التي لا تضر بمصالحه .

خامسا – يتعهد ابن سعود بأن يبقي الطرق المؤدية الى الاماكن المقدسة مفتوحة ، وأن يحافظ على الحجاج أثناء ذهابهم الى الاماكن المقدسة ورجوعهم منها .

سادسا – يتعهد ابن سعود كما تعهد والده من قبل أن يمتنع عن كل تجاوز وتداخل في أرض الكويت والبحرين وأراضي مشايخ قطر وعمان وسواحلها وكل المشائخ الموجودين تحت حماية انجلترا والذين لهم معاهدات معها .

سابعا – الحكومة البريطانية وابن سعود يتفقان فيما بعد بمعاهدة على التفصيلات التي تتعلق بهذه المعاهدة » .

وماذا نعلق عليها وقد نسخت والحمد لله بسلامة نية ابن سعود ، غير أن مستشاريه الذين وقعوا على المعاهدة كانوا قصار نظر حقا ، وقد ظنوا أن تعهد بريطانيا بسلامة أراضي ابن سعود والاعتراف بها له ولورثته من

بعده هو كل شيء . وما دروا عن الحماية التى بسطتها بريطانيا عليه ، فهو ممنوع من الاتصال بأي دولة كانت ، واذا اعتدي على أراضيه فيجب اشعار الحكومة البريطانية ، فهي المرجع كأنها « ولي الأمر » ولكن ذهب ريح هذه المعاهدة الجائرة ، فهي الى جانب مساوئها وشناعتهـــا ركيكة التعبير مخنوقة الاداء مشحونة بالأغاليط ، وهي — لهذا — مكروهة من العربية والعرب .

وبعد هذه المعاهدة صارت بلاد العرب كلها ضد الترك ما عدا ابن الرشيد الذي لم يزل مخلصا لهم وهم مخلصون له يعطونه كل ما يريد من المال والسلاح والعتاد ، وكان الحسين أكبر حليف عربي لبريطانيا فكانت رهن اشارته ، لا يطلب الشيء الا وهو عنده ، وبذل كل جهوده في سبيل نهضة العرب وافادتهم من هذه الحرب ، ولم يدخر وسعا في ذلك ، فخشي أن يعرقل ابن الرشيد سير أعماله الحربية ، فبعث الانكليز المستر فلبي الى ابن سعود ليشغل ابن الرشيد ويحاربه، وأمدوه بالمال والسلاح .

وكان ابن سعود يخشى مطامع الحسين فاجتمع ببرسى كوكس وأبدى له مخاوفه فطمأنه وطلب اليه ألا يقوم بأي حركة عدائية ضد الحسين ، فمن حارب الحسين فكأنه حارب الانكليز ، ولكن كوكس تعهد له بسلامة أراضيه ، وأن الحسين لن يطمع فيها ولن يتكلم باسم العرب جميعا ، وما زال ابن سعود مخلصا لبريطانيا ، وبريطانيا تمده بالمـــال والسلاح ، وأخذ يحارب ابن الرشيد حتى وصل حائل سنة ١٣٣٧ هـ (١٩١٨) ولكنه رجع منها الى الرياض ليستعد للقضاء عليه القضاء الأخير.

في الحرب الكبرى الأولى

انتهت الحرب الكبرى وابن سعود منتصر في ميادين حربه ، أما هزائمه فلم تكن معارك فاصلة تغير مجرى القتال والتاريخ ، فأعداؤه ان انتصروا فانتصارهم محدود إلى أجل ، ويكر ابن سعود فينتزعه من خصومه ثم يرهقهم بالمفاجآت والصراع والإثخان ، ويتتبعهم حتى يسد في وجوههم المنافذ والطرق ، واستطاع بعبقريته أن يخرج من الحروب ظافرا ، وأصبح أمير مقاطعة الاحساء كما أصبح حاكم حائل بعد أن قضى على آل الرشيد قضاء تاما ، وبذلك أصبح صقر نجد المرموق ، يُرهَب بأسه ، ويُخشى جنابه ، ويذاد عن حماه .

أما بريطانيا فلم تكن تنظر اليه نظرة الاكبار والاعجاب ، فساسة لندن ما كانوا ليعلموا حقيقة ابن سعود وعظمته ، بل كانت شهرة الحسين بن علي مغطية كل زعيم عربي ، فهو وحده الذى دوّت باسمه صحف الشرق والغرب ، وهو وحده الذى نازع البريطانيين وصرخ فى وجههم صرخاته القوية يطالب بحق العرب وحقه من الحلفاء الذين وعدوه وخانوه وغدروا به فلحق الغدر العرب جميعا والمسلمين .

حتى أن لورنس شعر في أعماق نفسه بوخز متتابع حينما تقاسم الحلفاء بلاد العرب ، ومنحوا الحسين الحجاز وحده ، وأمروا ابنه عبدالله على شرق الاردن ، وملكوا فيصلا العراق ، وما استطاع لورنس أن يتحمل كلمة التاريخ القاسية العادلة فيه فلم تطب له الحياة خشية أن يظن التاريخ أنه غرر بالعرب وخدعهم وغشهم ، فأعلن سخطه واتصل بأقطاب مؤتمر الصلح وهم أصدقاؤه : لويد جورج وكليمنصو وويلسن ، ولم يفد منهم شيئا .

أما ويلسن الطيب فقد غادر أوربا حانقا يائسا مطعونا كما طعن لورنس ، وبقي لويد جورج وكليمنصو سيدي الموقف في العالم ، فصنعا ما يريدان ، ولم ينصتا لصوت الحق والانسانية .

حتى أن لورنس لم يستطع كتمان سخطه على حكومته أمام الملك جورج الخامس حينما أراد تقديم وسام له قدرا لخدماته ، فقال لورنس في كآبة وحزن ونقمة وسخط : أآخذ وساما على العمل الشائن الذي قمت به في بلاد العرب ؟ أيشرفني وسام على التغرير بالشعب العربي الصديق الناهض ، وسلبه حريته واستقلاله ، وتمزيق بلاده .

وخرج العرب من الحرب منهوكين مغلوبين ، وفجعوا في أحلامهم وأمانيهم ، فلم تتحقق مطالبهم ، ولم يبلغوا أمانيهم ، كما أن الحسين خرج من الحرب بصفقة المغبون ، ولم يستطع السير مع السياسة البريطانية ، وتعكر الجو بينه وبين انكلترا ، فاتجه الى العمل وحده ، ورمى ببصره نحو نجد فاذا هي تتحفز للوثوب .

أما ابن سعود فلم يخسر شيئا ، ولم يكن ربحه وفيرا ، بل كان ربحه أنه استطاع بعد الحرب الكبرى أن يسود نجدا كلها من شمالها الى جنوبها ، وغدا الحاكم الفاذ فيها دون منازع ، فاتجه الى بلاده يقويها

ويعمرها ويحمي حدودها وثغورها ، وأخذ فترة « استراحة » يستجم فيها القوى للعمل من جديد ، لأن قلبه أخذ يحدثه بأن أمورا خطيرة ستحدث له ، فليستعد لها وليكن على أهبة الاستقبال لكل ما تفاجئه به الحياة ، فهو ليس بالخاسر على الاستعداد ان انتهت الامور كلها بسلام ، كما أنه عني بشأن البدو الرحل فأمسكهم وحبب اليهم الاوطان ، وقضى على غرائز التوحش والضراوة فيهم ، وبنى لهم « الهجر » كما ذكرنا في فصل سابق ، وأخذ يدأب في عمران بلاده والعناية بشؤونها الداخلية .

ثم كانت معارك تربة التي انتهت بهزيمة الجيش الهاشمي شر هزيمة ، ومزق أسوأ تمزيق في سنة ١٣٣٧ هـ والتي كانت كمقدمات لغزو الحجاز .

ثم عنّ لابن سعود أن يكسب من الخلاف القائم بين الحسين وبريطانيا ، فالحسين طامع فيه ، وطالما ألب عليه آل الرشيد وقبائل عسير وآل صباح ، وأراد أن يضربه ضربة لا يفيق منها ، ولا يسعه دفعها ، وحينئذ سيمنى بالخذلان ، كما أن الانكليز لم يتخلوا بعد عن الحسين ، فهم ما يزالون يذكرون له أياديه ، فبعث عبد العزيز ابنه فيصلا مع أحمد بن ثنيان الى لندن ، وكان فيصل في السادسة عشرة من عمره غير انهما لم يقابلا هنالك مقابلة حسنة تليق بمقامهما ، حتى أن اللورد كرزون وزير الخارجية قدم لفيصل بعض الحلوى لأنه رآه غلاما ، وحادثه محادثة لا تخرج عن محادثة وزير لغلام ، وأغضبت هذه المعاملة فيصلا ورجع من لندن ناقما ، وكان ذلك سنة ١٩١٩ م .

وفهم ابن سعود من هذا الحادث أن لندن تجهل قوته وتؤثر عليه خصمه الحسين ، وتقوى عزمه وتطلق له يده يبطش بها بمن أراد ، فصارح المستر سنت جون فلبي بما في نفسه ، وأفهمه أن بريطانيا أساءت اليه كثيرا ، غير أن حكومة الهند البريطانية كانت خلاف لندن في فهم

ابن سعود ، فهي معه وتؤثره وتؤيده لأنها علمت أنه الغد المرتجى ، فهو أولى بالتقدير والاحترام ، وبذلك اعتدلت كفة السياسة البريطانية ، ففثأ غضب ابن سعود ، غير أن هذا ما زال في حيرة من الأمر ، فالحسين يسيء اليه كثيرا ولم تنفع وساطة بريطانيا في الصلح بينهما بالرغم من جهودها ، ثم منع الحسين النجديين من الحج ، وكان عمله مثار سخط منهم فقد اشتعلت في قلوبهم نيران الغيظ والحنق ، وسرى في نجد كلها خبر ذلك فاستيقظت الاحقاد النائمة ، وبعث الشر من جديد .

كيف يرضون بالامتناع عن الحج وهو ركن من أركـــان الاسلام ؟! ان هذا منكر فكيف يسكتون عليه ، انهم غير راضين به على كل مسلم ومسلمة مهما تباعدت الأوطان واختلفت الأجناس ، ويريدون الحج وليسوا ضعافا ، فالسكوت جبن واثم عظيم لأنهم أقوياء ويستطيعون أن يغيروا المنكر باليد .

وثار النجديون وهرعوا الى ابن سعود ساخطين ناقمين ، وطلبوا اليه أن يسمح لهم بالحج بالرغم من الحسين ، فمنعهم وأقنعهم بالتريث والاناة ، وان المفاوضة دائرة بين الحسين وبينه بوساطة الانكليز .

ومضت سنة وثانية فثالثة فلم يطق أحد منهم الصبر ورجعوا اليه فطلب اليهم الصبر ونصحهم بالهدوء والسكينة وألا يقوموا بأي عمل ، فان قاموا فسيقلبون الموقف كله ، فيكون عليه بعد أن كان له .

ولابن سعود عند أتباعه احترام عظيم ، فلم يخالفوا له أمرا ، وتركوه ومضوا الى أمورهم ينتظرون النتيجة ، فهم يعلمون أن ابن سعود مخلص لهم ولا يلعب بهم ولا يخدعهم، وهو ولي الأمر، فتركوا الأمر له ريثما يعالجه في المهلة التي أخذها منهم .

ثم رجعوا اليه في سنة ١٣٤٢ هـ وهم أشد ما يكونون سخطا ونقمة

وثورة ، وطلبوا من ابن سعود أن يضع حدا لأعمال الحسين ، ولا يطيقون الصبر أكثر مما صبروا ، فإما أن يسمح لهم فيحجوا كما يستطيعون — وهم يستطيعون — إلى البيت سبيلا ، وإما أن يقوم على رأسهم فيحجون معه .

ووجد نفسه أمام أمر لا مفر منه ، ومن أراد أن يطاع فليسأل ما يستطاع ، والآن ما يسعه الا أن يدعو الى اجتماع عام يأخذ فيه رأي الامة كلها ، لأن المسألة لها لا له ، فهي الممنوعة من الحج ، وقد أخفق في التفاهم مع الحسين ، وأخفق الانكليز في الوساطة ، فيجب أن تقول الامة كلمتها الاخيرة .

واجتمع في الرياض من كل بلد ومن كل مقاطعة ممثلون ، وامتلأت بالوافدين ونصبت الخيام في البطاح لأن البيوت لم تعد تسع من يفدون اليها ، وهرعت القبائل برؤسائها ودهاتها الى الرياض ليشتركوا في هذا المؤتمر العام .

وفي اليوم المحدد اجتمع في أحد قصور آل سعود الكبيرة الرحبة آلاف النجديين ، وترأس الجمع الامام عبد الرحمن بن فيصل — والد ابن سعود — وألقى كلمة الافتتاح ، وهي لا تعدو حمد الله والثناء عليه ثم الصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخبرهم بأن رسالتهم بطلب الحج قد وردته فأحالها الى ابنه عبد العزيز ليرى رأيه فيها ، وها هوذا ماثل أمامهم فليسألوه ، وليناقشوه .

فوقف الخطباء يسألون عبد العزيز ويناقشونه : ماذا أعددت يا عبد العزيز للحج ؛ أنت ولي الأمر فأنت مسئول عن حج المسلمين في نجد .

فأجابهم في بساطة مهدئا من ثورتهم وقال لهم : ان كل شيء رهين بوقته ، فلن يسبق ما تأخر مهما حاول الانسان ، ولن يتأخر ما كتب له

السبق ، فكيف لهم بالحج والطريق مخوفة ، والسبيل لهم غير مأمون الآن ، وطلب اليهم ألا ييأسوا وألا يثوروا ، فلكل ليل نهار مهما طال .

غير أن هذه الجموع المحتشدة ما أتت الى المؤتمر لتتخدر أعصابها ثم ترجع ، لا تريد الا كلمة واحدة : نعم أو لا ، ففي الحالة الاولى يحجون بسلام ، والا فسيحجون بالحسام ، فمن يقدم على منعهم فليتقدم فإن له السيف أو يقضي الله أمرا كان مفعولا ! .

بل قال سلطان بن بجاد : اننا نريد الحج ولا نستطيع أن نصبر أكثر مما صبرنا ، لقد نفد الصبر ! ولا نطيق ترك ركن من أركـــان الاسلام مع أننا قديرون على أدائه طوعا أو كرها ، ومتى كانت مكة ملكا لأحد ، ولا يجوز لحاكم أن يصد مسلما عن حج بيت الله الحرام ، نريد أن نحج يا عبد العزيز ، فان منعنا الشريف الحسين فهذي السيوف في الاغماد تمتشقها حتى ندخل مكة ، واذا رأيت من المصلحة — أيها الامام — تأجيل الحج في هذا العام فلا يمكن أن نصبر على الظلم في الحجاز ، يجب أن نخلص الحجاز بأي ثمن كان ، يجب تطهير بيت الله الحرام .

فسرت موجة قوية من الحماسة والحمية والشجاعة في نفوس الحاضرين من كلمات سلطان بن بجاد ، وتكلم كل من أراد بحرية وصراحة ، واتفق الحضور على غزو الحجاز ومحاربة الحسين والحج بالرغم منه ، وقالوا : انهم لن يحيدوا عن ذلك ، وأيدوا كلام سلطان .

فوقف ابن سعود ودوى في البهو الرحيب صوته الجهوري قائلا : أيها الاخوان، الحج أمر ديني ، ومقطع القول فيه عند علمائنا ، فهم أعرف بما يجب ، وها هم أولاء معنا فليتكلموا .

فارتجل سعد بن عتيق أحد العلماء الاجلاء وقال : ان الحج من أركان الاسلام ، ومسلمو نجد – والحمد لله – يستطيعون أن يؤدوا هذا الركن على الوجه الأتم بالرضا أو بالقوة ، ولكن من أصول الشريعة النظر الى المصالح والمفاسد، فالأمر الذي قد يؤدى الى ضرر أو مفسدة يُدفَع، فهل هناك مفسدة أو مضرة تنجم من الترخيص لمسلمي نجد بالذهاب الى بيت الله ؟ ذلك ما نريد أن نقف عليه من الواقفين على السياسة .

فأجاب ابن سعود بأنه لن يحارب من سالمه ، ولن يخون من عاهده ، وانه سيوالي من يواليه ، ولكن شريف مكة يبغض أهل نجد بدون حق ، وقد ورث عن أسلافه الشرفاء بغض نجد والنجديين ، وبالرغم من كل جهوده فقد أخفقت مساعيه السلمية اخفاقاً عظيماً ، بل طالما رجا الحسين أن يجعل علاقة نجد بالحجاز علاقة طيبة ، ويكون كالوالد للجميع ، ولكنه لم يحتفل بكل ذلك ، بل كلما دنا منه بعد ، وكلما لان تجافى ، حتى لم يبق أي أمل في الاصلاح والسلام ما دام الحسين مصمم العزم على معاملة النجديين هذه المعاملة القاسية ، بل منعهم من أداء فريضة الحج ، لا أمل ، بل الامور تزداد كل يوم سوءا وتعقيدا ، وما يظن ان الصبر يكفل لهم رضا الحسين ، بل يعتقد أن الخطة التي اتبعها معه لن تنيله الحق ولن تجديه فتيلا .

لم يعد في الخطط السلمية أي نفع ! لقد حبطت كل المساعي ، ولم يبق باب للسلام لم يطرق بعد ! فما العمل ؟ لا جواب الا اقتحـــام الحجاز .

ومع هذا اختتم ابن سعود المؤتمر بقوله : أيها الإخوان ، يجب علينا أن نعرف للحسين مكانته ، ونعترف له بفضله وجهوده من أجل العرب ، وإني أود أن يأذن لى بالشخوص اليه فأقبل يده ، وما أكثر ما كتبت

إليه وذكرت له في كتبي أن رضاه عندي مقدم على رضا والدى عبد الرحمن ! ولكن الحسين – هداه الله وايانا – انصرف عني وتنكر لنا ، وأرجو أن يوفقه الله لما يحب ويرضى ، ثم أود أن أعلمكم أن مكة حرام منذ خلقها الله ، لم تحل الا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار ، ثم رجعت الى حرمتها كما كانت ، لم تحل لأحد قبله ، ولا تحل لأحد بعده ، والحج فريضة تسقط بعدم توفر بعض شروطها ، ولا يجوز أن نجعل الحج ذريعة الى انتهاك حرمة مكة زادها الله شرفا وتعظيما ، وإلى سفك الدماء ، ويجب عليكم وعلي أن نؤثر الخير والسلام ، فلعل الله يجعل بعد عسر يسرا .

وسرى ما دار بالمؤتمر العام كالبرق الى البوادى والقرى والمدن ، فأسرع الناس أفواجا أفواجا الى الرياض واستبشروا أعظم البشرى وفرحوا كل الفرح ، فسوف يحجون هذا العام ان سلما وان حربا ، وتطوعوا للعمل ، فان كانوا من قبل يدافعون عن الدنيا فهم اليوم يغارون من أجل الدين ، وان كان العمل محتاجا الى الجهاد والقتال فهم رجال شدة وبأس وجلاد ، وان انتهى بسلام فذلك فضل من الله ولطف بعباده .

كل ذلك بالرياض والحسين غافل عما جرى ويجرى هنالك .

وكان موقف ابن سعود كريما ، وحكّم الأناة والعقل فلم يتسرع في الاستجابة لصوت الحرب الذى أطلقه قادة جيشه وزعماء قبائله والموالون له من رؤساء قبائل الحجاز ، وآثر أن يمعن فى السلم حتى تنفد كل وسائله وأسبابه ، ولن يمتشق السيف يصلته على الحسين الا بعد أن يجد سيوفه تكاد تصيبه ، وحينئذ يمتشقه دفاعا ، ولن يوجهه اليه .

وبهذا الشعور الطيب كان ابن سعود يعامل الحسين وينظر اليه ويأسى على ما حدث فى تربة وغير تربة ، ولم تجد ابن سعود مع الحسين

رسائله المفعمة بالإخلاص والولاء ورسله اليه لينظر اليه نظره إلى ابن من أبنائه ، ، بل بلغ الأمر بابن سعود إلى حد أنه كان يقول له في رسائله « سيدنا » و « أنا خادمك » ولكن الحسين — رحمه الله ورحم ابـــن سعود — أصمّ أذنيه عن كل نداء يصله من ابن سعود .

وما دمنا قد وصلنا إلى هذا الحد من الكلام فيجب أن نرجـــع إلى الوراء قليلا ، ونستعرض العلاقة بين الشرفاء وآل سعود ، ثم بين الشريف الحسين وابن سعود ، حتى نصل إلى هذا التطور الجديد ، ليكون القارىء على علم بالماضى والحاضر للعلاقة بين الشرفاء والسعوديين ، فذلك أعون على فهم ما سيقع من الحوادث .

ابن سعود والحسين

قلنا في الفصل الذى كتبناه عن معارك تربة : ليس العداء بين السعوديين والشرفاء حديث عهد ، بل نشأ مع الدعوة الوهابية التى قام بها محمد بن عبد الوهاب والدولة السعودية الاولى ، فلقد وقعت حوادث دامية بين حكام نجد والحجاز كان النصر فيها سجالا بين الفريقين ، حتى أن حكام مكة من الشرفاء ساعدوا محمد على باشا حينما سير ابنيه : طوسون باشا وابراهيم باشا لحرب السعوديين واقتحما عليهم بلدانهم وخربا العمران فيها ووضعا السيف فيهم تقتيلا وتجريحا .

وفي كل مناسبة تتلع الذحول والضغائن بأعناقها من مراقدها فيتحرش أحد الفريقين بالآخر .

وكان صوت الشرفاء مدويا في كل مكان ، ولهم نفوذ قوي في البلدان الاسلامية ، وهم من آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم حكام مكة ، وعلى هذا يرون أنفسهم أجدر الناس بحكم العرب والقضاء على كل من يحاول السيادة على الحجاز من غيرهم .

أما آل سعود فكانوا يرون أنفسهم أكفاء لهم مع الاعتراف بما لآل

البيت من حق القدر والولاء والتكريم ، وكانوا شديدى التمسك بالدين فكرهم الناس وكرهوا انبعاثهم ، حتى أن دار السلطنة التركية لم تكن بالراضية عنهم فجردت عليهم محمد على باشا ورمتهم بهذا الداهية فأذاقهم الشدة والبأس كما شرحنا في الفصول التى كتبناها في أول الكتاب عن آل سعود .

غير أن أمراء آل سعود كانوا على جانب عظيم من التواضع والزكانة والاحترام لآل البيت وحكام مكة ، فبعث عبد العزيز بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٨٥ هـ أحد علماء نجد وهو الشيخ عبد العزيز بن عبدالله الحصين بهدايا الى أمير مكة الشريف أحمد بن سعيد ليطلعه على معتقدات نجد وعلى حقيقة « الوهابية » التى فهم الناس عنها ما لا يستقيم مع منطقها السليم ودعوتها السلفية الصحيحة ، وأصحباه بكتاب من عبد العزيز بن سعود ، هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« المعروض عليك أدام الله فضل نعمه عليك ، حضرة الشريف أحمد ابن الشريف سعيد ، أعزه الله في الدارين ، وأعز به دين جده سيد الثقلين .

« إن الكتاب لما وصل الى الخادم وتأمل ما فيه من الكلام الحسن رفع يديه بالدعاء الى الله بتأييد الشريف لمّا كان قصده نصر الشريعةالمحمدية ومن تبعها ، وعداوة من خرج عنها .

« وهذا هو الواجب على ولاة الأمور .

« ولما طلبتم من ناحيتنا طالب علم امتثلنا الأمر ؛ وهو واصل إليكم ،

ويحضر في مجلس الشريف ــ أعزه الله تعالى ــ هو وعلماء مكة ، فإن اجتمعوا فالحمد لله على ذلك ، وإن اختلفوا حضر الشريف كتبهم وكتب الحنابلة .

« والواجب على كل منا ومنهم أن يقصد بعلمه وجه الله ونصر رسوله كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ الى قوله تعالى : ﴿ لتؤمنن به ولتنصرنه) فإذا كان الله سبحانه قد أخذ الميثاق على الأنبياء إن أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم على الإيمان به ونصرته ، فكيف بنا يا أمته ، فلا بد من الإيمان به ، ولا بد من نصرته ، ولا يكفى أحدهما عن الآخر ، وأحقّ الناس بذلك وأولاهم أهل البيت الذي بعثه الله منهم وشرفهم على أهل الأرض به ، وأحق أهل البيت بذلك من كان من ذريته صلى الله عليه وسلم . وغير ذلك يعلم الشريف أعزه الله أن غلمانك من جملة الخدام ، ثم أنتم في حفظ الله وحسن رعايته » .

واحتفى الشريف بالشيخ الحصين ، وانعقد بحضرته مجلس البحث الذي حضره علماء مكة حرسها الله وحرسنا وإياهم ، وكان على رأسهم العلامة الشيخ يحيى بن صالح الحنفي ، والعلامة الشيخ عبد الوهاب بن حسن التركي مفتي السلطان ، والعلامة الشيخ عبد الغني بن هلال ، وحُدِّد البحث في ثلاث مسائل ، وهن :

الأولى : ما نسب إلى الوهابيين من تكفير عموم المسلمين .

الثانية : هدم القباب المقامة على القبور .

الثالثة : إنكار دعوة الصالحين للشفاعة كأن يقال : يا سيدى ، يا أبا بكر اشفع لي .

ورد الشيخ الحصين بأن ما نسب إلى الوهابيين من تكفير عموم المسلمين

مكذوب عليهم ، فهم لا يكفِّرون مسلماً ، وليس في كتبهم شيء من ذلك .

وأما هدم القباب المقامة على قبور الصالحين فهو حق ، وليس لدى علماء مكة الاعلام شك في ذلك ، فهو وراد في الكتب .

وأما دعوة الصالحين وطلب الشفاعة منهم والاستعانة بهم في النوازل فقد نص عليه الأئمة العلماء وقرروا أنه من الشرك الذى فعله القدماء ، ولا يجادل في جواز ذلك إلا ملحد أو جاهل .

وأُحْضِرت كتب الحنابلة التي يتقيد بها الوهابيون فإذا هي صحيحة ، وليس بها غير الحق، وما فيها من العقيدة يتفق مع مذهب الامام الأعظم أبي حنيفة .

وبعد مذاكرة طويلة انتهى علماء مكة إلى أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حق ، وما لدى الوهابيين لا يخالف شرع الله سبحانه وتعالى، وليس في عقائد أهل نجد ما يخالف الاسلام .

ولبث الشيخ الحصين بمكة حرسها الله أياما كان خلالها موضع العطف من الشريف والتكريم من علماء مكة ، وعاد مسروراً يلهج بالثناء على الشريف وعلى العلماء الكرام الأعلام .

ثم تولى حكم مكة الشريف غالب ابن الشريف مساعد سنة ١٢٠٢ ﻫ فرأى أن يستطلع الدعوة الجديدة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقد قيل فيها الكثير مما لا يرضى ، قيل : إن الوهابية مروق عن دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فبعث الشريف غالب إلى عبد العزيز بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب يسألهما عن هذه الدعوة الجديدة ، فرأيا

ارسال القاضي العالم الشيخ عبد العزيز بن عبدالله الحصين ، لأنه سبق له زيارة مكة والتباحث مع أكابر علمائها ، فوصل مكة سنة ١٢٠٤ ومعه كتاب من الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى علماء مكة ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد بن عبد الوهاب إلى العلماء الأعلام في بلد الله الحرام ، نصر الله بهم دين سيد الأمام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، وتابعي الأئمة الأعلام .

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، وبعد : جرى علينا من الفتنة ما بلغكم وبلغ غيركم ، وسببه هدم بنيان في أرضنا على قبور الصالحين ، ومع هذا نهيناهم عن دعوة الصالحين ، وأمرناهم بإخلاص الدعاء لله ، فلما أظهرنا هذه المسألة مع ما ذكرنا من أن هدم البنيان على القبور كبر على العامة وعاضدهم بعض من يدعي العلم لأسباب لا تخفى على مثلكم ، أعظمها اتباع الهوى ، مع أسباب أخر ، فما شاعوا عنا أنا نسبُّ الصالحين ، وأنا لسنا على جادة العلماء ، ورفعوا الأمر إلى المشرق والمغرب ، فأشاعوا عنا أشياء يستحي العاقل من ذكرها . وأنا أخبركم بما نحن عليه بسبب أن مثلكم ما يروج عليه الكذب على الناس ، متظاهرين بمذهبهم عند الخاص والعام ، فنحن ولله الحمد متبعون لا مبتدعون على مذهب الإمام أحمد بن حنبل .

« وتعلمون — أعزكم الله — أن المطاع في كثير من البلدان لا يتبين بالعمل بهاتين المسألتين ، إنها تكبر على العامة الذين درجوا وآباؤهم على ضد ذلك ، وأنتم تعلمون — رحمكم الله — أنه في ولاية الشريف أحمد ابن سعيد وصل إليكم الشيخ عبد العزيز بن عبدالله وأشرفتم أنتم على ما

عندنا بعدما أحضروا كتب الحنابلة التي عندنا عمدة كالتحفة ، والنهايةعند الشافعية .

« فلما طلب منا الشريف غالب — أعزه الله ونصره — امتثلنا ، وهو إليكم واصل ، فإن كانت المسألة إجماعا فلا كلام ، وإن كانت مسألة اجتهاد فمعلومكم أنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد ، فمن عمل بمذهبه في محل ولايته لا يُنكَر عليه .

وأنا أشهد الله وملائكته وأشهدكم أني على دين الله ورسوله ، وإني متبع لأهل العلم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ».

ولما وصل الشيخ الحصين قابل الشريف وأسلمه رسالة الشيخ محمد إلى علماء مكة ، فلما قرأها الشريف بتأمل رأى أن ما بها الحق ، فأكرمه ، واحتفى به ، ويذكر مؤرخو نجد — ومنهم ابن بشر في حوادث سنة ١٢٠٤ — أن الشريف طلب علماء مكة لمناظرة العالم النجدي فأبوا ، ثم أغروا الشريف على الوهابية ، وأفهموه عن طمع السعوديين في انتزاع حكم بلاده « فارتعش قلبه وطار » .

والكلمة الأخيرة نص ما في ابن بشر ، ولعل علماء مكة ذكروا للشريف مطامع الحركة الجديدة التي اتسعت وهددت الجيران ، وذكروا له العنف الذى اتسمت به الحركة في بعض اتجاهاتها مثل هدم قباب قبور الصالحين ، وقطع الأشجار الوثنية ، ومحاربة من دافعوا عنها .

والحق ، أن الحركة الجديدة لم تكن في حسابها حرب الأشراف حكام مكة ، بل كانت الحركة تواليهم ، وزعيماها ابن عبد الوهاب وابن سعود حرصا دائما على كسب ودهم ، وكانا يقدران آل البيت حق القدر ، ويدينان لهم بالولاء ، ويرجوان منهم الخير للاسلام .

ورسالة ابن سعود للشريف أحمد بن سعيد ورسالة ابن عبد الوهاب للشريف غالب تدلان على صدق ولائهما وحبهما وإكبارهما لآل البيت وبخاصة حكام مكة من الشرفاء .

ولكن توسع الحركة الوهابية أخاف شريف مكة ، فجهز الشريف غالب جيشا قوامه عشرة آلاف وأكثر ، وزوده بعشرين مدفعا ، وجعل أخاه الشريف عبد العزيز بن مساعد قائد الجيش العام ، فسار في سنة ١٢٠٥ الى نجد ومقصدهم الدرعية حيث قاعدة الحركة الجديدة ومنطلقها ، ثم البلدان الأخرى التي دخلت في دعوة ابن عبد الوهاب .

وأحدث سير هذا الجيش اللجب ذعرا في نجد ، حتى أن ابن بشر يقول في حوادث سنة ١٢٠٥ : « لما رأوا أن الأمر جاء من الأشراف ، أيقنوا بالهلكة للمسلمين والإتلاف ، وارتد كثير من العربان ، وراسله أناس من أهل البلدان ، منهم : حسين الدويش رئيس مطير وعربانه ، وتبين لأهل الباطل دخان ، وأكثرهم نقض العهد وخان ، وارتد معه كثير من قحطان ، فأقبلت تلك العساكر والجنود ، وسار معهم كثير من بوادي الحجاز وعربان شمر ومطير وغيرهم ، فملأوا السهل والجبل ، وصار في قلوب المسلمين منهم وجل » .

واستنفرت الدرعية بلدان نجد وقراها وبواديها فنفرت جموعها لملاقاة جيش الشريف عبد العزيز بن مساعد ، ووقعت مناوشات لا قيمة لها حربيا ، ولكن جيش الشريف أوقع الذعر في نجد .

ورأى الشريف غالب أن يمضي هو نفسه إلى أخيه لغزو نجد ، فجهز جيشا من مكة وغيرها ، وخرج هو نفسه في شهر شعبان سنة ١٢٠٥ ومعه سبعة مدافع ، وقصد أخاه واجتمع به فى أرض « السر » وفيها توحدت القيادة والجيشان وسار الشريفان الى « الشّعْرَا » .

وكان خروج جيش الشريف كما يفهم من عمله إخافة نجد والدعوة الجديدة التي قام بها شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ، وإخراج من دخلوا في الدعوة من سلطانها ، وإثارتهم عليها ، وضرب النجديين بعضهم ببعض .

وقد وفق غالب لما صمد له ، وعاد بجيشه إلى مكة تاركا في نجد خلاف أهلها فيما بينهم بسببه ، فاشتعلت نار الحرب بين السعوديين وغيرهم ، وقتل من هؤلاء وهؤلاء كثير .

والقبائل النجدية التي انضمت الى الشريف والقرى التي خرجت عن ابن سعود على الدعوة وأيدت جيش الحجاز وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام السعوديين بعد عودة الشريف غالب ، فخاضوا فيما بينهم معارك قتل فيها عديد من الرؤساء ومئات من أفراد المحاربين ، ولم تنطفىء نار الفتن بعد اشتعالها ، وتوارث الخلف عن السلف الأحقاد .

ونجحت سياسة الشريف غالب في إحداث الفتن والحروب بنجدبين حكام قراها ومدنها وقبائلها .

وذكر مؤرخو الحجاز ومنهم السيد أحمد زيني دحلان أحد كبار علماء مكة الأعلام وغيرهم : أن السعوديين كانوا يتوددون لحكام مكة الشرفاء وأن عبد العزيز بن سعود بعث الى شريف مكة عديدا من المرات يطلب اليه التفاهم ويرجوه الاذن له ولمسلمي نجد بالحج فمنعهم محتجا بأنهم « وهابيون » والوهابية مذهب خطر يغاير الاسلام ، بل ذُكِر أن وفدا من علماء نجد دخل مكة للمفاوضة والبحث طلبا للحق وحده ، ولكنه اعتقل في أيام الشريف مسعود الذى استكتب العلماء وثيقة بكفر الوهابيين حتى اذا تولى الشريف سرور سنة ١١٨٦ هـ بعث اليه الامير السعودي كتابا يرجوه أن يأذن له ولمن معه بالحج ، فاشترط عليه أن يدفع كل فرد مبلغا كما

يدفع العجم ، ويزيد عليهم بأن يدفع مئة من الجياد ، فصبر ابن سعود حتى تولى الشريف غالب فكتب اليه فكان كأسلافه وشدد في الجواب .

ويستخلص من كل هذا أن الشرفاء ما كان ينظرون الى الوهابية نظرة عطف أو رضا ، بل هاجموها وهاجموا دعاتها وحماتها بالنقد والتجريح والتهم ، وشنوا الغارة عليهم ، ولم يتركوا فرصة للنيل منهم إلا انتهزوها ، ونهض الناس جميعا لمحاربتهم ، ففي العراق صرحوا بكفر الوهابيين ، وفي الشام كذلك ، وفي مصر ، وفي الحجاز ، وفي دار السلطنة نفسها .

وزاد الخلاف بين السعوديين والشرفاء ، ولم يكن وقفا على السياسة ، بل تجاوزها إلى أن الشرفاء اتهموا السعوديين بالمروق من الدين ، واتسعت الشقة فلم يعد هناك أمل في الإصلاح بين الفريقين ، ولم تقف المعارك بين الحجاز ونجد ، فقبائلهما تتقاتل دون انقطاع ، وثار السعوديون لأنهم طعنوا في عقيدتهم ودينهم ، واتهموا بأنهم غير مسلمين ، ومنعوا من الحج ، غير أن عبد العزيز بن سعود لم يرد أن يهاجم مكة ويحج بالسعوديين على رغم شريف مكة مخافة غضب الحكومة العثمانية التي تحكم الحجاز ، فهو لا طاقة له بحربها .

ولكنه مع ذلك قام ابن سعود في شهر ذي العقدة سنة ١٢٠٩ بهجوم على تربة ، وحاصرها وقتل بعض أهلها ثم عاد إلى الدرعية ، وما علم الشريف غالب حاكم مكة بذلك حتى جند جيشا بعثه بقيادة الشريف فهيد بن عبدالله الى نجد ليثأر من السعوديين ، ومضى الشريف إلى « ماسل » الماء المعروف بعالية نجد حيث اشتبك في حرب مع قبيلة قحطان ، وانتهت بهزيمة القحطانيين هزيمة نكراء وانتصار الشريف انتصارا مبينا ، فقد غنموا ثلاثة آلاف ناقة .

ووجه الشريف غالب جيشا آخر بقيادة الشريف ناصر بن يحيى الذي

نزل على ماء بعالية نجد يسمى « الجمانية » حيث كانت جيوش السعوديين ، وحدثت معركة عظيمة خسر فيها الجانبان قتلى وجرحى كثيرين .

وهكذا كانت الفتن والحروب دائمة الاشتعال لا تهدأ ، ومرد ذلك الى خلاف الحكام .

وفي سنة ١٢١١ تلقى عبد العزيز بن محمد بن سعود رسالة من الشريف غالب يطلب إليه فيها أن يرسل وفدا وهابيا إلى مكة للمناظرة ، فاستجاب ابن سعود وأرسل وفدا من كبار علماء الدرعية برئاسة علامتها الكبير الفقيه الشيخ حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر .

وحمد هذا من تلامذة شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ، وانتهى به علمه وفضله وتمام خلقه وعقله إلى أن يكون أحد قضاة الدرعية ورئيس الوفد ، وقد استقبل أعضاؤه من الشريف غالب استقبالا كريما ، وكانوا ضيوفه مدة إقامتهم بمكة حرسها الله ، وانعقد بحضرة الشريف مجلس المناظرة التى انتهت إلى القناعة بأن ما لديهم من العقيدة والدين هو الحق .

ومع هذه السفارات العلمية لم تصلح الحال بين السعوديون والشرفاء ، فكانت الحروب مستمرة بينهم ، فقد خرج الشريف غالب في شهر شوال سنة ١٢١٢ إلى رنية وضربها ضربا شديدا وقتل من أهلها ، ثم سار إلى بيشة وفعل بها الأفاعيل ، وغنم من البلدين كثيرا ، ثم غادرهما بعد قطع النخيل وإتلاف المزروعات ، ثم قصد الخُرمة مزهوا بالنصر الذي أحرزه ، ولكنه لم يجد سبيلا الى النصر ، فقد تجمع بها جيش ابن سعود واشتبكوا مع الشريف في معركة خسر فيها أكثر جيشه وكل ما كان معه من أموال وأسلحة وذهب ، وتم بين السعوديين والشريف الصلح

والهدنة والسماح بالحج للنجديين ، فحج في سنة ١٢١٣ عدد غير كثير منهم ، كما حج علي وابراهيم ابنا الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

ومضت بضع سنوات تحسنت العلاقات بين حاكم نجد وشريف مكة ، فحج سعود بن عبد العزيز بأهل نجد والأحساء ، واجتمع سعود بغالب ، ولقي سعود من الشريف ما هو أهله من القدر والتكريم .

وحج سعود للمرة الثانية سنة ١٢١٥ مع أهل نجد حضرا وبادية وكذلك الأحساء ، ولم يحدث في كلتا الحجتين ما يعكر صفو العلاقات الطيبة ، بل قابل الشريف غالب الامام سعودا أجمل مقابلة ، وعاد من الحج النجدي على خير حال .

ولكن ذلك لم يدم ، ففي سنة ١٣١٧ حدث خلاف بين الشريف غالب ووزيره عثمان بن عبد الرحمن المضايفي وخرج مغاضبا لسيده ونزل العبيلاء بعد أن شخص إلى عبد العزيز بن محمد بن سعود وبايعه على السمع والطاعة ، وبعد أن أعلمه بما جرى بينه وبين الشريف ، ولقي منه التأييد .

وخرج إليه الشريف وجرت بينه وبين المضايفي في العبيلاء قتال انتصر فيه الشريف وعاد الى الطائف دون أن يقضي على المضايفي الذى استطاع أن يجمع كثيرا من القبائل الموالية لابن سعود ، ويمضى بتلك الجموع الى الطائف لمحاربة الشريف الذي فوجىء بهؤلاء ، فاستعد لحربهم ، ولما رأى كثرتهم غادر الطائف إلى مكة ليعود إليهم بجيش يستطيع أن يقاوم أعداءه الذين هاجموا الطائف بعد مغادرة الشريف ، وأثخن المضايفي في أهل الطائف المسالمين تقتيلا .

ويقول ابن بشر في حوادث سنة ١٢١٧ ما نصه :

« ودخله (أي الطائف) عثمان ومن معه من الجموع ، وفتحه الله لهم عنوة بغير قتال ، وقتلوا من أهله في الأسواق والبيوت ، فقتل منهم عدة مئتين ، وأخذوا من البلد من الأموال الأثمان والأمتاع والسلاح والقماش والجواهر والسلع الثمينة ما لا يحيط به الحصر ولا يدركه العد ، وضبط عثمان البلد وسلمت له جميع نواحيه وبواديه ، وجمعوا له الأخماس وبعثوها الى عبد العزيز ، فقرر ولاية عثمان للطائف ، واستعمله أميرا عليها وعلى الحجاز » .

وهذه المذبحة التي حدثت بالطائف كارثة تدمغ المضايفي بالعار والخزي ، فقد اعتدى على أبرياء عصم الله دماءهم وأموالهم ، وامتلأت بضحاياه طرق الطائف وأسواقها ، ونهب هو ومن معه من البدو دكاكين الناس والتجار واستصفوا ما بها من النقود والمصوغات والجواهر ، وانتهكوا حرمة البيوت فدخلوها عنوة وقتلوا أهلها شر قتلة ونهبوا ما بها من الأموال .

ووصلت أنباء مذبحة الطائف إلى أهل مكة فانتشر بينهم الذعر ، وكان الوقت وقت حج ، وهي مزدحمة بوفود بيت الله الحرام ، واستعد الجنود المصاحبون لبعثات الحج المصرية والشامية والجنود الذين كانوا مع سلطان مسقط للدفاع عن مكة إذا أراد مهاجمتها المضايفي ومن معه .

وقدم سعود بن عبد العزيز من نجد بجيش كثير الى الطائف ، ونزل بالسيل الكبير — محطٍّ بين مكة والطائف في منتصف الطريق — وفيه هرع إليه البدو الراغبون دائما في القتل والنهب والسلب .

ولم يكن في عزم سعود التجني على مكة حرسها الله ومهاجمتها ، بل أراد أن يدخلها معتمرا ، فقد فاته الحج ، وبينما هو في السيل الكبير كانت أخباره قد انتهت إلى مكة ، فاجتمع الشريف غالب بكبار أهل مكة للتشاور معهم فيما يعملون ، والجنود المصريون والشاميون وجنود

سلطان مسقط قد عادوا إلى أوطانهم ، ورأوا أن يترك الشريف غالب إمارة مكة لأخيه الشريف عبد المعين بن مساعد ، وأن يغادرها إلى جدة ويتحصن بها ويستعد للقتال إذا تتبعه السعوديون إليها ، وأن يمضي بعض علماء مكة إلى الإمام سعود بن عبد العزيز للتفاهم معه في دخوله بلد الله الحرام ، وأن يحصلوا منه على أمانه .

وسافر وفد من علماء مكة فيهم الشيخ محمد طاهر سنبل ، والشيخ عبد الحفيظ العجيمي ، والسيد محمد بن محسن العطاس ، والسيد المرغني إلى سعود بن عبد العزيز الذي كان مخيمه ومعسكره بالسيل ، فاستقبلهم أحسن استقبال وكرّم وفادتهم ، واتفقوا معه على دخول البلد الأمين معتمرين بحق الاعتمار ، وأن يعترف بإمارة الشريف عبد المعين ، وأن يكتب كتاب أمان ، فرضي بذلك .

وعاد وفد العلماء إلى مكة واطمأن أهلها وحملوا معهم كتاب الأمان ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من سعود بن عبد العزيز إلى كافة أهل مكة والعلماء والأغوات وقاضي السلطان .

« السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فأنتم جيران بيت الله ، وسكان حرمه ، آمنون بأمنه ، إنما ندعوكم لدين الله ورسوله ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ وأنتم في أمان الله ثم أمان أمير المسلمين سعود بن عبد العزيز ، وأميركم عبد المعين بن مساعد فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله ، والسلام » .

وابتداء كتاب الأمان بكلمة « السلام على من اتبع الهدى » غير لائق ، فالمأثور في كل كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مـا وجهه إلى غير المسلمين كان يفتتحه بتلك الكلمة ، أما جميع كتبه الى المسلمين فمفتتحة بجملة « سلام الله عليكم » أو « السلام عليكم » .

ولما كان كتاب الأمان موجها الى مسلمين شرفهم الله بجوار بيته المعظم فكان من أدب الاسلام أن يفتتح بغير تلك التحية التى لايُحيّا بها إلا غير المسلمين .

وعلى أي حال حمل الوفد كتاب الأمان وسبق إلى مكة قبل دخول الإمام سعود بن عبد العزيز ، فقد عاد الوفد صباح الجمعة ٧ محرم ١٢١٨ وصعد مفتى المالكية الشيخ عباس مالكي الى المنبر بالمسجد الحرام وقرأ كتاب الامان الموجه من سعود بن عبد العزيز .

وعندما انتصف نهار يوم السبت ٨ محرم ١٢١٨ دخل ابن سعود بجيشه وفيهم بعض آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وكلهم بملابس الاحرام ، وكانوا جميعاً آية في الطاعة وحسن الأدب ، وبعد أن طافوا وسعوا مضوا الى المحصّب ونزلوا به حيث أعد لنزولهم ، وكان الشريف عبد المعين وأهل مكة وفي طليعتهم مفتي مكة الشيخ عبد الملك القاعي قد أعدوا موائد الغداء لضيوفهم السعوديين في بستان الشريف غالب .

وبعد أن تناولوا الغداء ألقى الامام ابن سعود خطبة شرح فيها معتقد السعوديين ودعوة شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ، وحث على التمسك بالدين الذى جاء به محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

وكان هذا اللقاء بين علماء مكة والسعوديين كريما طيبا في الظاهر ، وأما في الباطن فما كانوا راضين بما فرض عليهم من الفروض مثل تدريس

كتاب « كشف الشبهات » للشيخ محمد بن عبد الوهاب في المسجد الحرام ، وما وافقوا على ذلك إلا خوفاً .

وبعد أن أقام ابن سعود بمكة غادرها إلى جدة ليحارب الشريف غالبا الذى تحصن بجدة للدفاع عنها ، وحاصرها ابن سعود ، ولم يستطع أن ينال منها فاضطر الى العودة إلى نجد .

واتسعت المملكة السعودية في عهد الامام عبد العزيز بن محمد بن سعود الذى قتل في مسجد الطريف بالدرعية وهو يصلى العصر بها على يد كردي اسمه عثمان في أواخر شهر رجب سنة ١٢١٨ وزادت رقعتها في عهد خلفه سعود قليلا ، وصارت المملكة السعودية في هذا العهد تشمل نجدا ، وامتدت إلى حدود العراق ومشارف الشام ؛ وكانت الأحساء من أقاليم هذه المملكة التي سيطرت دعوتها على بعض بوادي الحجاز .

وحج سعود غير مرة ، وبقي الحجاز تحت حكم آل سعود حتى سنة ١٢٢٩ هـ وكان الأشراف حكام مكة خلال مدة الحكم السعودي تحت نفوذ آل سعود . وما كانوا يضمرون لهم غير الحقد والبغض بسبب ما بينهم من الخلاف السياسي ، وأشد منه الخلاف العقائدي ، فقد كان الناس ينظرون الى السعوديين نظرتهم إلى الخارجين على الاسلام ، وكانوا يعتقدون أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوة خارجة على الدين الاسلامي ، ولم يكن الأشراف والمكيون والحجازيون وحدهم هم الذين ينظرون الى الوهابية والوهابيين هذه النظرة ، بل كان العالم الاسلامي ينظر إليهم هذه النظرة الكريهة الممقوتة .

وإذا كان حكام مكة من الأشراف خضعوا للنفوذ السعودي فهم كانوا في حقيقتهم يكرهون السعوديين لما بينهم من خلاف عقائدي .

ومن المؤسف أن يكون هذا الخلاف الذي لا مسوغ له ، فعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هي عقيدة السلف الصالح أهل السنةوالجماعة، وهي عقيدة أهل مكة، لا فرق بين العقيدتين لأنهما عقيدة الاسلام الحق، ولكن عين السخط ما كانت لترى في دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب إلا ما هو باطل .

ومع أن آل سعود وآل الشيخ بذلوا كل جهودهم لتكون علاقتهم بحكام مكة وعلمائها قائمة على الأخوة الصحيحة فانهم أخفقوا في محاولتهم الطيبة .

وما زال الخلاف قائما بين الشرفاء وآل سعود حتى إذا تولى الشريف الحسين بن علي إمارة مكة سنة ١٣٢٦ استبشر العرب بعهد جديد ، فقد افتتح الحسين عهده بأخلاق السلف الصالح ، وكان هو نفسه عالما جليلا ، وذا خلق عظيم ، وذكاء خارق ، ورغبة صادقة في الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل كان يحكم بهما ، وكان شديد التواضع، ولين الجانب ، بعيدا عن التكبر والترف، ويعيش في بيته عيش أهل التقوى والصلاح ، وكانت مائدته متواضعة كنفسه .

وما كان الحسين – رحمه الله – يضمر لآل سعود شراً كأسلافه ، بل كان يعمل على أن تكون علاقته بهم وبغيرهم حسنة ، فقد رأى انتقال نفوذ الخلافة إلى أيدى الاتحاديين الذين لا يبالون الاسلام ، وانتزعوا السلطة من الخلافة والخليفة ، وكان الحسين على علم تام بضعف أقطاب الاتحاديين : طلعت وأنور وجمال على إدارة الحكم ونصيبهم من الوعي السياسي ، ورأى سياسة هؤلاء التي يراد منها « تتريك » العرب ومحو قوميتهم ، فعمل على أن تكون علاقته حسنة بآل سعود وكل حكام العرب لأن الوقوف في وجه الاتحاديين يقضي بوحدة كلمة العرب ووحدة صفوفهم ، دون أن يكون في حساب الحسين فكرة الانفصال عن دولة الخلافة ، لأنه يريد بإخلاص وفهم قيام دولة إسلامية كبيرة .

ولو اتبع الحسين منهاج سياسته هذه لنجح في أعماله وصلاته بابن سعود ، غير أنه تغير بعد أن انتصر على الترك وصار ملكا ، وظن أن حكام العرب وعلى رأسهم عبد العزيز بن سعود سيخضعون له ، ورأى أن من حقه رئاستهم ، لأنه هو الذى حرر العرب من نفوذ الترك ، وهو رائد النهضة العربية الكبرى والثورة الناجحة ، فلما لم يجد منهم «التبعية» التي أرادها نقم عليهم ، وإن عدم قدره اياهم القدر الصحيح أضاع الفرص عليه ، كما عرقلت جهوده وسير أعماله التي وثب إليها وثبا ، ولم يأخذ في كثير من وثباته بالحكمة والأناة والصبر والدهاء ما جعله يفقد السيطرة على ظروفه فكان أن خسر مكاسبه ورأس ماله .

وكان ابن سعود أول خصم في وجهه — كما يراه — يجب القضاء عليه ، وملأه غيظا تفلت تربة والخرمة الى حظيرة خصمه ، فخرج بجيشه سنة ١٣٢٨ هـ الى حدود الحجاز يؤدب بعض قبائل عتيبة العاصية وانتهى في سيره الى الشعرا — احدى قرى نجد على مقربة من حدود الحجاز — ثم رجع لان له مشاغل تمنعه من غزو نجد والتوغل فيها ، الا أنه اسر سعد بن عبد الرحمن (شقيق ابن سعود) بخيانة بعض رجال عتيبة ، واعتقله ثم أطلقه بوساطة خالد بن لؤي بعد أن أذعن ابن سعود مضطرا لمطالب اشترطها عليه ، وكتب للحسين ما يريد .

وكانت مشاكل ابن سعود الداخلية تقربه من الحسين ويود — لاجلها — أن يكون معه على وفاق تام فبعث اليه في ١٨ رمضان سنة ١٣٢٨ هـ — بعد أن تفاهم معه وأطلق أخوه سعد — أحد أفراد أسرته بهدية من جياد الخيل وبكتاب هذا نصه :

حضرة جناب الاجل الافخم ، يمين الشيم ، أمير مكة المكرم ، سيدنا الشريف حسين باشا ابن علي دام مجده وعلاه آمين

بعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر ، لا زلتم بكمال الصحة والسرور حايزين الاوصاف الحميدة .

أحوالنا من كرم الله جميلة ، وتقدم لسعادتكم قبل هذا كتاب نرجو أنه وصل وأنتم مسرورين .

ثم نعرض لدولتكم العزيز أنـــه بموجب شفقتكم وعلو هممكم وأنظاركم العالية قدمنا أخينا عبد العزيز بن عبدالله السعود لموجب خدمتكم ، وأحببنا المصاوغة معه لموجب التبرك بأقدامـــكم ، وأرسلنا معه الصقلاوية والحمدانى وكحيلان (أسماء أسر للخيول الاصيلة في نجـــد) ولا والله قصدنا في ارسالها لانكم بحاجتها ، ولا شك في غايتنا نبى[1] نقـــرب أنفسنا منكم فاننا هنا حاسبين أنفسنا من خواصكم ولله ثم لكم ، والا هديتنا لحضرتكم رءوسنا وما تحت أيدينا ، ولكنها هي صوغـــة للاولاد الكرام .

وحررنا هذا الكتاب لموجب التعرض لخدمتكم وما يبدو منه اللازم ، والا أمرك علينا تام على كل حال ، وما تفعلونه معنا وتحطون أنظاركم علينا تجدونه ان شاء الله مضاعفا بالخدمات والسمع والطاعة .

هذا ما لزم تعريفه ، والولد برسم الخدمة ، مع ابلاغ السلام حضرة الاخوان السادات الكرام علي وفيصل وزيد ، ومن عندنا الاولاد محمد وسعود وكافة السعود يسلمون ، ودمتم محروسين .

١٨ رمضان سنة ١٣٢٨

خادم الدولة والمملة والوطن
أمير نجد ورئيس عشائرها
عبد العزيز السعود (ختم)

---

(١) نبى ، اختصار كلمة نبغى .

فابن سعود كان يعرف مقامه ــ وهو في حالته تلك ــ وما كان متعاظما مغرورا يحب الالقاب ويتطاول على من كان أرفع منه منصبا وأعظم بروزا ، فهو يعرف للحسين قدره ، وينظر اليه نظرة الابن الى أبيه، فهو يقول له في صراحة وسذاجة وبساطة انه خادمه وانه في خدمته ويسعى لرضاه، بل قال له في خطاب آخر انه ابنه وخادمه ومملوك فضله ، بل كان يكتب اليه كتاب ابن الى أب وتابع لمتبوع ، وكان يهمه الى حد بعيد أن ينال رضاه ويظفر بعطفه ، وما أدل على ذلك من كتاب آخر بعثه اليه في الخامس عشر من شوال سنة ١٣٢٨ هـ وهو يدل دلالة قوية واضحة على حرص ابن سعود على رضا الشريف وعطفه ، ويدل على ان ابن سعود كان يوقره ويجله ويسعى الى مرضاته بكل ما يستطيع وهاهوذا كتابه بنصه :

حضرة جناب الاجل الافخم ، بهي الشيم ، أمير مكة المكرم ، سيدنا الشريف الحسين باشا ابن السيد علي ، دام مجده وعلاه آمين .

بعد اهداء مزيد السلام التام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام ، مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر ، لا زلتم بكمال الصحة ووافر السرور ، حائزين الاوصاف الحميدة .

أحوالنا من كرم الله جميلة ، بأشرف وقت أخذنا مشرفكم المكرم ، فسرنا ما تضمنه من صحة أحوالكم واعتدال أوقاتكم ، وما عرف جنابكم كان لدى ابنكم معلوم ، خصوصا ما عرف جنابكم من جهة عتيبة والقصيم وأنهم يلقون اليكم بالاكاذيب التي ليس لها حقيقة ، ويتظلمون عند حضرتكم ، فنحن نقول عما قالوا : سبحانك هذا بهتان عظيم ، فأما من جهة نظركم علينا وعليهم فهذا هو شأن مثلكم ، وهو مقامكم العزيز .

ونحن متيقنين أننا حنا [1] بأنفسنا أقرب منهم ومن غيرهم ، فنحن نمتثل لموجب رضا الله ثم لخدمة سعادتكم ، مع انى ما والله أعلم عن أحد من أهل نجد يطلب مثقال حبة من خردل من ظلم إلا إن كانوا عدو ضعيف جانى و بلجنايته سبب ، وقول العدو ما يؤخذ في عدوه ، والا أدام الله وجودكم نجد يوم جيته ما فيه من جميع مأموريته أحد ، كلهـــا مناصيب لابن الرشيد ، وولانا الله عليه بهداية الله ثم بهدايتكم ، وأمّرنا كل [2] في منصبه ، فمنهم من أطاع واستقر وإلى الآن بمكانه، ومنهم من ظلم الرعية وبنا غدر وأعاننا الله عليه وأحسنا فيه .

فالآن ابنكم وخادمكم ومملوك فضلكم ، ثانى نفسه ، سامع مطيع لله ثم لحضرتكم لأدنى واحد من أهل القصيم أو من عتيبة يدعى عــلي بأدنى شيء من ظلم فكما تأمرون أفعل امتثالا لامر الله ثم لامركم ، وجميع ما زوروه على حضرتكم دواء الكذب المقابلة ، فان كنت المجرم فأنا تحت أمركم ، كما تأمرون أفعل ، ومصطبر لإدبكم ، فان كانوا هم الكاذبين وتحقق عند جنابكم ذلك فنحن قد دمحنا لهم [3] من الزلات أكثر ، وحقنا على جنابكم أن تكونوا على حذر من أقوال الغاشين للاسلام والمسلمين .

وأنا والله وبالله وتالله ان رضاكم وامتثال خدمتكم عندى اعز مـــن رضا عبد الرحمن وخدمته .

ثم أنا معطيكم عهد الله وأمان الله أنى ولدك سامع مطيع ما أخلف

---

(١) حنا ، بمعنى « نحن » بلغة نجد .

(٢) كل ، المقصود : كلا .

(٣) دمحنا ، بمعنى « عفونا » بلغة نجد .

شوفتك [١] في جميع أمر [٢] ، وانا تحت أمركم ، ان كان تريدون المقابلة بينى وبين المزورين في أي وقت تبونه [٣] أحضر ، فان كان تحبونه من بعيد فالمراجعة بيننا ، ونحن تحت تدبير الله ثم تدبيركم ، وانما لا يزوّرون على حضرتكم أنى مستغزى أهل نجد قصدى محاربتكم أو مكابرتكم ، لا والله ، لا والله ، لا والله ، إنى ما استغزيتهم الا لموجب بنى خينا [٤] ، وبعض الفساد الّى ما يخفى جنابكم ، ولا يقطع عقلكم أن قدومى بهذا المحل قصدي محاربة أو أمر يغضب خواطركم ، لا ، إنما هو تقرب لخدمتكم ، وعن البعد الذى يحصل به الاتحاد للاعداء ويزورون أعظم مما زوروا سابق [٦] ، واجبنا تعجيل الطارش [٧] لموجب رد جوابكم العزيز ، ونحن بانتظار تدبير الله ثم تدبيركم ، وتحت الأمر .

هذا ما لزم ، والرجاء ابلاغ سلامنا الاخوان السادات الكرام ، ومن عندنا أولادكم محمد وسعود وكافة السعود يقبلون أياديكم ودمتم محروسين .
١٥ شوال سنة ١٣٢٨ هـ .

خادم الدولة والملة والوطن
أمير نجد ورئيس عشائرها
عبد العزيز السعود

---

(١) شوفتك : نظرك .
(٢) أمر ، أى أمرى .
(٣) تبونه ، أى تبغونه
(٤) خيّنا : إخواننا
(٥) إلّى : الذى .
(٦) سابق : سابقا .
(٧) الطارش : الرسول .

وبعث ابن سعود الى الحسين كتابا ثالثا في الثاني والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ١٣٣٠ ه وهذا نصه :

« اطلعنا على تحرير عطوفتكم لحضرة سيدى الوالد المحرر في ٢١صفر سنة ١٣٣٠ ه وقد سرنا سلامتكم وبما أشرتم من اجتناب كل ما يخالف مراضي سماحتكم العادلة ، فالله المطلع أنني أسعى اليها ، وانى حريص لاستجلاب مراضيكم ، لان من أخص آمالنا وأقصى مرامنا رضاكـــم ، وبالعكس نحن محرومون من التفاتكم حتى نال منا الاشقياء المفسدون الذين لا غاية لهم الا النهب والسلب ، واقلاق الراحة واحداث الفتن ، فاعتقدوا اننا لم نخالف مراضيكم ، ولم نقصر في ابراز الصداقة والمودة والمحسوبية لحضرتكم في جميع مساعينا .

ونرجو من لطفكم بأن لا تكونوا فى فكر من جهتنا ابدا ، ولا تخرجوا من دائرة المحبة والصداقة ، ولنا أمل بالله أن تكونوا واسطة قوية بيننا وبين متبوعنا الحكومة الشورية ، وتعرضوا اخلاصنا وخدماتنا الصادرة في مرضاة دولتنا الدستورية ، وتروني حاضرا استعدادا مع عموم أهل نجد لكل ما تكلفوننا وتأمروننا به ، أفدي السدة العثمانية بعزيز روحي » .

فابن سعود ــ كما تدل رسائله ــ كان جد حريص على إرضاء الحسين ، فهو يؤثره على ابيه بالرضا والخدمة ، لان اباه يحتمله ان أخطأ عن غير قصد ، أما الحسين فلا ، فهو يحرص على أن يكون خادما مخلصا له وابنا بارا به لا يخرج عن طوعه ، بل كان ينظر اليه كأنه ولي أمره ، فلما رفع بعض أهل القصيم وبعض من عتيبة شكاواهم الى الحسين وتظلموا اليه من ابن سعود أجابه بأنه مطيع لامره ، ويرجوه أن يحقق هو نفسه ، فان قنع بظلمه للمدعين فهو تحت حكمه ورحمته وتدبيره ، فيرجوه ألا ينصت لمن يكذبون عليه ، واستعد لان يقدم اليه ــ ان رغب ــ ويحاكم بحضور الخصوم .

وأوردنا هذه الرسائل الثلاث للتاريخ ، وليعلم القارىء مبلغ احترام ابن سعود للشريف الحسين والاذعان له ، فهو لا يريد عنه بديلا ، بل كانت أوضاع بلاده وأوضاع الحكم فيها تقربه منه كثيرا وتضطره الى التفاهم معه والخضوع له ، فابن سعود في دور التأسيس ، وفوق هذا يحب ان يسالم جيرانه ويكون على وفاق معهم وبخاصة أمير مكة ، ويقال : ان غالب باشا والى مكة التركي بعث الى ابن سعود يعرض عليه إمارة مكة حينما أوجس خيفة من الحسين وخاف من انقلابه الذى بادرته بوادره فأبى وأجابه بأنه هو والحسين يد واحدة ، لان قبوله عرض الاتراك الذى اضطروا اليه سيجعله تابعا لهم وهو قد حرر نجدا والاحساء من نفوذهم وقضى عليه ، ويجعل مركزه حرجا وخطرا ، اذ لن يرضى الحسين بذلك ، وسيحارب كل من حاول ان يشاركه الحكم او ينتزعه منه ، وكل من يناوىء الحسين في تلك الظروف يعرض نفسه لعداء بريطانيا ، وابن سعود أعقل من أن يدفعها لتقف منه موقف العداء ، بل هو الحريص على صداقتها ، ولن يثيرها عليه وهو الذى حرص على ارضائها وتنمية صلاته الطيبة بها .

كيف يقبل عرض غالب باشا وهو ما زال في نجد نفسها يواجه قوى شديدة تناوئه ، وتهدده أخطار الأعداء دون انقطاع ؟ .

بل كان ابن سعود شديد الحرص على رضا الحسين ، وقد سبق أن عرض على ابن سعود من قبل الحكومة البريطانية منصب الخلافة الاسلامية بوساطة السير برسى كوكس في مؤتمر الكويت فقال : ليس أحد أحق بالخلافة من الحسين ، وأيده أعضاء المؤتمر كما أيدته بريطانيا .

وسواء أكان عرض بريطانيا الخلافة عليه عن حسن نيته أم كان استطلاعا لما في نفسه فان حكمة ابن سعود قد أرضتها ، لانها كانت تريد أن يكون الحسين صاحب الخلافة ينتزعها من بني عثمان .

وكان ابن سعود يود من صميم قلبه أن تتفق السياسة العربية وتتحد كلمتها في هذه الحرب ، لأن في ذلك ربح العرب ، فكتب الى حكام العرب يهيب بهم من أجل توحيد الكلمة ولمّ الشعث ، وبلغ من حرصه على تحقيق مأمله ان تجرد عن شعور العداء لابن رشيد ، فكتب اليه ضمن من كتب اليهم ، وبديهي أن يكون الحسين أول من يكتب اليه ويأخذ رأيه ، كما كتب الى عدوه اللدود ابن رشيد ، وقال لهم في كتابه : « أرى — وقد وقعت الحرب — أن نجتمع للمذاكرة عسى أن نتفق على ما ينقذ العرب من اهوالها ، أو نتحالف مع دولة من الدول لصون حقوقنا وتعزيز مصالحنا » .

وأجابه ابن رشيد انه مع الدولة العثمانية يحارب من حاربت ، ويسالم من سالمت .

وأما مبارك الصباح فرد عليه يدعوه أن يتصل بحكومة الهند ويفاوضها .

وأما الحسين فقد طلب الى عبد العزيز أن يرسل مندوبا عنه ليقابل مندوبه وهو ابنه الشريف عبدالله ، فاجتمعا على الحدود بين الحجاز ونجد ، وتباحثا في بعض الامور ثم افترقا .

ولم يكن في جواب أحد تحقيق رجاء ابن سعود ، فلما قام الحسين بثورته رأى ابن سعود أن الفرصة سانحة لتوحيد الكلمة ، فكتب الى ابن رشيد ومبارك والحسين يقول لهم في رسالته : إن الانجليز يتعهدون لنا إذا نحن قاتلنا الترك وأجليناهم عن بلاد العرب أن يتركوها لنا .

فأجاب مبارك : « إن في ميناء الكويت باخرة بريطانية ، فاحضر وقابل ربانها وأنا معك على ما تتفقان عليه » .

وأما ابن الرشيد فرد عليه بعنف وقال له في رسالته إليه : « إن انور

باشا قد أرسل إلي عشرة آلاف بندقية ، وبعد أن أكسرها عليك وعلى أتباعك أفكر في الصلح معك والقيام على الترك ».

ولم يجب الحسين ابن سعود ، لأنه كان مشغولاً بالإعداد للثورة التي لم يبق على إعلانها إلا أيام وأسابيع ، فلعله أرجأ الجواب الى أوانه ، فعدم الجواب لم يكن استصغارا منه لشأنه ، بل لأن الحسين كان مشغولا ، فبعد أن أعلن الثورة كتب له وأعانه بشيء من المال ، كتب له رسالة بتاريخ ٢٥ شوال سنة ١٣٣٤ (٢٥ أغسطس (آب) ١٩١٦ وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الأجل الأمجد الأمير عبد العزيز السعود

« بعد السلام ورحمة الله وبركاته :

مرسل إليكم مع حامله عبدالله بن حميضان صرتين باطنهما ألف وخمسمائة جنيه تستلموها منه . ولما ذكر تحرر في ٢٥ شوال ١٣٣٤ ».

شريف مكة وأميرها
ختم
الحسين بن علي

وتحت الرسالة حاشية هذا نصها :

« ثم إن بعض من يقع منهم من الجنايات ما يوجب بعدهم عن أقطارنا سيما عتيبة ، يردون قراياكم وأنتم تعلمونهم ، وهذا مما يوجب علينا الخلاف فالرجاء كما تكرر ذلك منا غير مرة القبض عليهم وتعريفهم بأن ذلك منا ، ولا تتعذر بعدم العلم ، فإنك تعلمهم قبل أن نعلم بهم » .

وتلقى عبد العزيز رسالة من الأمير عبدالله بن الحسين ، حاملةتاريخ ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٣٤ (٢٨ سبتمبر (تشرين الأول) ١٩١٦) وبها بعد البسملة هذه الديباجة :

« من عبدالله ابن أمير مكة وشريفها الحسين بن علي إلى حضرة الشهم الأوحد ، والهمام الأمجد ، الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ، سلمه الله »

وفيها : « أرجو البارى أن الأخ الامام وكافة من يعز عليه بحال الصحة » .

ويختمها بقوله :

« وأملى أن حضرة الأخ الامام يناله الأجر في الاشتراك بهذا الجهاد الديني الذي لم يسبق له مثيل في سني الاسلام الأخيرة ، فإن دعاوى المجانبة والتوحش قد أزالها البارى بفضله ، وانني ضامن لحضرة الأخ الإمام كل مطاليبه فيما ينوبه ، وعلى ذلك وجهى وعهد الله ، ومني السلام على حضرة الوالد الموقر والإخوة والأنجال الكرام » .

ويظهر من جواب عبد العزيز أنه تلقى من الشريف عبدالله بن الحسين رسالة قبل هذه الرسالة التي ذكرنا بعض فقراتها قبل سطور ، ولعلها وردت ابن سعود في أيام متقاربة ، فأجاب عليهمـــا جوابا واحدا في رسالته التى بعثها الى عبدالله في ١٥ ذي الحجة ١٣٣٤ (١٤ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٦) وأصحبها برسالة تسمى « ملحق خير » أو « لاحق خير » إذ كان من عادة تلك الأيام أن يكتب مع الرسالة رسالة أخرى في ذيلها أو في ورقة منفصلة تحت عنوان « ملحق خير » أو « لاحق خير » ويعتبر الملحق ذا شأن خطير أكثر من الرسالة ، ولذلك أفرد وحده .

ونص « ملحق » عبد العزيز هو :

« لاحق خير إن شاء الله

« أخي ، سلمك الله ، ذكرتم حضرتكم في كتاب ابن ثِعْلِي وفي آخر كتابكم المبشر بصحتكم عن انتصاركم الذى هو غاية مرامنا ، بل هو إن شاء الله عزّ للإسلام وكافة العرب .

« أما كتابكم الأول فَتَعَرْف أخي أنه ما يَحْرص على الزين ويبعد عن مداخل الشرّ إلا رَجّال يدوّر الزين ويحب الاتفاق مع صفـــاء القلوب .

« وأما المغمّص الذي يطالع في مصالح نفسه فهو الغاشّ . وأنا والله العظيم ما ذكرت لكم جميع ما ذكرت إلا لأجل الاتفاق وقلع الشبه . وبحول الله العاملُ عمل الخير يظهر عليه ، والعامل ضده يطيح به .

« وأما ما ذكر حضرتكم في الكتاب الآخر من حثكم على الجهاد ، فتعرف أخي أن كل إنسان فيه حمية دين وعربية أنه يجتهد في جهاد الأتراك وحلفاهم ، لأن اليوم والله ، ما أخبر عدوّ للاسلام والعرب غيرهم .

« وأنا مثل ما ذكرت لحضرتكم عن الجهاد أنه متعين علينا ولا شك . أنا قد عرّفت حضرة سيدنا وسيد الجميع ، والآن أعرض لحضرتكم سبب عدم المباشرة لذلك :

« ما يخفى حضرتكم الحمد لله ، اليوم اتسع ما أعطانا الله ، وهو بالاسم لنا ، وبالحقيقة نحن وهو لكم ، ممالكنا وعرباننا والحمد لله كثير ، وشرّهم بينهم كثير أيضاً ، كل جهة فيها عدوّ . والله العظيم ، إن

أخيكم على كثر ما أعطانا الله مجدّ ومجتهد في جهاد رعيته لدورة الراحة والطمأنينة لهم ، وكيف البعد عنهم وتركهم ينهب بعضهم البعض ؟ ولا يصلحون إلا بقوّة تكون حاضرة عندهم لتأديب المخالف ودورة راحتهم .

« وأيضاً لا بد من قوة تقابل ابن رشيد بأطراف القصيم ، وبعد ذلك ، حنا ممشانا نبي [٢] يصير نفعنا وضرنا واحد ، وإذا ما حصل حكية تفرح الصديق وتضر العدو إن شاء الله . وذلك ما يحصل إلاّ بقوة واستعداد .

« ولا هو خافيكم حال أخيكم وداخله وخارجه . ولا تحسب جوابي هذا دورة عذر أو طمع ، لا ورب البيت والذى بعث محمدا بالحق ، إنما هو عجز ! وهو الحقيقة .

« أما إذا ترون مساعدة لنا سواء من سيادتكم أو من المعلومين نضبط بها داخليتنا ونتهقوا [٢] بها على الجهاد على حضرتكم ، فذلك هـــو المطلوب .

« فإن كان الأمر يشق عليكم ، فبحول الله نبذل جدنا واجتهادنا فيما يذهب عدوّ الجميع ابن رشيد وغيره ، ويكون مساعدة لحضرتكم .

« وأنا اليوم خشيت يلحقني شك أنني مراقب لغيركم . لا والله ، بل إن عداوة ضدكم لي أزود ، عاجل وآجل .

أيضاً جميع الدبش [٤] الذى للترك بطرفنا أخذناه ، ونبهنا على جميع أهل

---

(١) حنا ، بلغة نجد العامية : نحن

(٢) نبى ، مختصر « نبغى » .

(٣) ونتهقوا : نتقوّى .

(٤) الدبش : الرواحل والمواشي .

نجد بقطع العلائق عن أطراف الشام والمدينة ، ونبهنا على حرب يقطعون الأرفاق [1] حتى ولو يجيهم أحد من أهل نجد يأخذونه ، ولا بد إن شاء الله يبلغكم ذلك من غير كتابي هذا . فأما معاهدة حضرتكم لأخيكم فلا والله عندي بها شك ، وأنا بعد ، معاهدكم بالله اللي يأمن بـه الخائف أني معكم بالقلب والحيل والقوة ، ما أذخر عنكم جميع ما أقدر ، ولا أعذركم لا على القريب ولا على البعيد إلا أمر يخل عليّ ديني أو مصلحة أراها أراجع بها حضرتكم . والله شاهد وكفيل . حرر في ١٥ ذي الحجة ١٣٣٤ » .

وتلقى ابن سعود من الشريف فيصل بن الحسين الرسالة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

جناب المكرم الأعز الأحشم الأخ الأعز الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ، دام بقاه .

بعد السلام التام عليكم ورحمة الله وبركاته : نعرفكم من خصوصنا حنا [2] والأتراك على محاربنا السابقة ، والقصيم يأتي منه مسابل [3] للمدينة المنورة ، وحنا [2] حاصرنا المدينة من الشرق وباقي النواحي ، فالمطلوب تنبهو على أهل القصيم وكافة دياركم عن مسابلة [3] المدينة ، وإن جامنهم [4] أحد بعد ذلك فلا يلوم [5] ، إلا نفسه . حبينا إخباركم بذلك

(١) الارفاق : المرافقين .
(٢) حنا (بعامية نجد والحجاز البدوية) : نحن .
(٣) المسابل (بعامية نجد والحجاز البدوية) : التجار ، والمسابلة : المتاجرة .
(٤) جا : جاء .
(٥) هكذا بالاصل ، وصوابه « يلم » لأنه مجزوم بلا الناهية .

لنخرج بمعذرة . هذا ما لزم والله يرعاكم وإيانا .

١٢ محرم ٣٥ بن شريف مكة وملك العرب
(١٠ نوفمبر — تشرين الثانى١٩١٦) التوقيع : فيصل بن حسين

وأرسل الحسين رسالة تاريخها ١٨ محرم سنة ١٣٣٥ (١٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٦) وجعل لقبه في أسفلها قبل توقيعه « ملك البلاد العربية وشريف مكة وأميرها » ومعها ورقة تحمل « ملحق خير » هذا نصه :

« المطلوب من أبى تركي ثباته على حسن الظن ، فأنا إن شاء الله أصدق له من نفسه ، والمولى على ذلك رقيب ، والله ، إن هذه هي الظاهرة والباطنة ، وإن لم تكن كذلك فنبرأ من الله ورسوله ، ولا والله القصدُ من هذا إلا راحة خاطرك واشتغالك بالنوايب الحقيقية وتفرغك لها . هذه هي البلغة والقصد ، وحسبي على ذلك عالم الغيب والشهادة ، ومرسل إليك مع حامله صرة جعلناها للاستعانة على النوايب تفيدنا بوصولها ، والصرة داخلها ألف جنيه ، ولا مؤاخذة فإن الحالة معلومة ، وما بغيتو من بندق وحتّى ولو مدافع عرفونا ويجيك مطلوبك بتيسير الله » .

ورسالة الحسين — هذه — تدل على أنه أراد أن يبدأ مع ابن سعود عهداً جديداً حسناً ، وقَسَمُ كل منهما للآخر برهان صدق النية والعزيمة من كليهما ، ويمين الحسين صدق ، وبراءته من الله ورسوله إذا لم يكن ظاهره وباطنه سواء مبنية على أنه لن يقبلها ولو كان هناك كل مجد الدنيا ، فالحسين معروف بصحة معتقده وقوة إيمانه وصلاحه وتقواه .

وكذلك ابن سعود الذى كان يرى الحسين والدا وسيد الجميع

وسيده ، وأن ما تحت يده هو في حقيقته ملك الحسين ، وكان يتمنى أن يقدم على الحسين في مكة ويقبل يديه .

ولو ان ما خلف من علاقتهما بُنِيَ على هذا الأساس من الإخلاص والولاء ودام لأصبح العرب – بفضل الله ثم بفضل ذلك – قوة عظيمة ، ولكن ذلك لم يدم ، وأعتقد أن مفسدين أفسدوا ما بينهما فكان ما أصاب العرب إلى يومهم هذا ، وإلا فإن الأسباب التى أدت الى الخلاف حتى تفاقم لا يمكن أن يبنى عليه ما حدث ، كما أن تسوية الخلاف في الخُرْمة وتربة أهما من نجد أو من الحجاز وفي فتن القبائل والعشائر لم تكن مستحيلة ، ولكن قضاء الله نافذ ولا راد له .

ويؤكد رغبة الحسين في مصافاة ابن سعود والتعاون معه هذه الرسالة التي بعثها اليه فى ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٥ (آخر مارس ١٩١٧) :

« سلالة الأماجد الشهم الهمام الأمير الخطير عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود .

« بعدُ ، السلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته: في أهنأ وقت قدم علينا الشيخ مساعد مصحوبا بكتبكم الكريمة والذلولين والفرس المرسلين برفقهم ، وتلقينا الجميع بالابتهاج والمسرة مما علم من دوام صحتكم واستقرار رفاهكم ، أسبل الله على الجميع سوابغ نعمه ، وإن سألتم عنا فإننا نحمد الله بنعمة وعافية ، والعيال تَعلَّمَ لكم أخبارهم من الصحيفة التى تطبع في البلاد ، نسأله لنا وإياك التوفيق لكل ما يكسبنا رضاه ، ويقربنا من رحمته .

« أشار لنا مساعد معتمدكم المومي إليه بقدومكم إلى بريدة ، ومنزل تركي ومحمد بن عبد الرحمن حفظهم الله ووفقهم لما فيه صلاح البلاد والعباد ، وجعلها مساعي مشكورة وأعمال مبرورة .

« والسلاح مطلوبكم لولا الحاجة لبعثناه برفقه وهو والم [1] على ما يردنا منكم من زمل [2] .

« ورأينا أن نبين لكم ما يجلب إلى أصحابنا ويساق من شقراء وعنيزة من طعام وما هو في معنى ذلك بصورة علنية وسرية ، وبأدنى تأمل من شهامتكم يظهر لكم ذلك ، ولا يكون أبلغ من هذا إعانة لأصحابنا .

« وبخصوص ابن رشيد فهو قاومنا ، وما أدرى لو تكاون [3] هو وطارفة [4] من جند ولدك زيد [5] ولكن ، يذكرون لنا أن بعدُ ردد جيشه ونزل في ماء سحره غربي حائل ، وجيشه ما يتعدى الخمس ، جاته [6] ركايب ، وكِنـَّه [7] هوَّن [8] ولا نظن إلا أنه مونس ببيرق تركي بن عبد العزيز [9] ، الله يحفظه .

والأمور بيد الله سبحانه وتعالى ، يحكم ما يشاء ، ويفعل ما يريد . والله يحفظك ويرعاك ، ولما ذكر تحرر ٤ جمادى الآخرة ١٣٣٥ .

شريف مكة وأميرها

وملك البلاد العربية

(التوقيع)

حسين

---

(١) وَالم : جاهز ومهيأ .

(٢) زمل (بلغة بدو الحجاز ونجد) : ركائب .

(٣) تكاون (بلغة بدو الحجاز ونجد) : تحارب .

(٤) طارفة (بلغة بدو الحجاز ونجد) : جماعة .

(٥) ولدك زيد ، هو زيد بن الحسين ، ولكن من المحبة والتقدير أن ينسب المخاطِب ولده للمخاطَب تكريماً له .

(٦) جاته : جاءته . (٧) كِنـَّه : كأنه .

(٨) هوَّنَ : تراجع .

(٩) هذا اقتراح من الحسين على ابن سعود ، ذكره وكأنه قد تحقق .

وإذا كانت هذه الرسالة والرسالة السابقة تدل على رغبة الحسين الأكيدة في مصافاة ابن سعود فان مشاعر ابن سعود كانت أعظم، فهو لم يثر على ما جاء بكتاب فيصل وبهاتين الرسالتين من لقب الشريف الذي جاء بآخر ثلاث الرسائل وهو « ملك البلاد العربية » بدليل كتابه الذى بعثه الى الحسين في ١٥ رجب سنة ١٣٣٥ (١٠ مايو ١٩١٧) الذى سنذكره فيما بعد .

فابن سعود قابل تحية الحسين بخير منها ، ومودته بمودة أعظم ، وما كان يرى في الحسين إلا أبا ، وما كان يرى ذلك نفاقا منه ، وكان لا يكتفي بأن يقول له : والدنا ، بل يؤكد ذلك بقوله : سيدنا وسيد الجميع .

وإذا كان ابن سعود لم يثر على الحسين لوصفه نفسه بأنه « ملك البلاد العربية » فإن الحسين لم يثر أيضاً على ابن سعود لإغفاله هذا اللقب العظيم الذي يحرص عليه الحسين ، ففى رسائله الجوابية لم يذكر هــذا اللقب ، وإنما كان يكتفي بلقب « أمير مكة وشريفها » وهذا دليل على حسن نياتهما .

وها هوذا نص كتاب عبد العزيز :

بسم الله الرحمن الرحيم

« لجناب الأجل الأمجد ، ذو المكارم العلية والشيم المرضية ، سليل السلالة الطاهرة الهاشمية ، حضرة سمو الفخامة والسيادة ، أمير مكة المكرمة وشريفها ، سيدنا ووالدنا المكرم ، الشريف حسين بن علي المفخم ، حرسه رب البرية ، وبلغه أمانيه الخيرية .

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام . أعرض احترامات لأعتابكم الهاشمية ، ورد إلينا بالشرف محرركم السامي المؤرخ جمادي الثانية ١٣٣٥ هـ وبما عرّف حضرتكم كان لدى ابنكم معلوم .

« بخصوص قدوم خادمكم مساعد بن سويلم عليكم ، ما أبديتموه بحق ابنكم ومملوك فضلكم فذلك من حسن ألطافكم العزيزة وشيمكم الهاشمية النبيلة ، وابنكم كثير ممنون متشكر من حضرتكم ، ولكم مزيد الفضل والشكر ، سابق ولاحق ، فالله تعالى لا يعدمنا بقاكم ولا يحرمنا رضاكم .

« وأما ما عرّفتم من جهة ابن رشيد ، ومنزله ورجوعه عن مقاصده ، فهو حسب المسموع كما عرف حضرتكم ، أما أخبار ابنكم ، فمعلوم جنابكم أنني ما كلفت نفسي وتجاوزت الحساير الذى [(١)] لا تخفى حضرتكم بجميع جنودنا والمقابلة لهذا الرجل ابن رشيد وحزبه الذين أخربوا شرفهم وحميتهم العربية ببيع دينهم ومذهبهم مع هذه الدولة الملعونة إلا لقصد أن لا يتجاوزوا على شيء من آمالهم الفاسدة ، والحمد لله كانت الأمور على المطلوب .

« من مدة وابنكم يراوز الفرصة فيهم ، ولم يحصل لنا ذلك ، لأنهم التجأوا الى جبل سلمى ، باديتهم وحاضرتهم ، وهالأيام ذكر لنا : ابن رشيد نازل السَّبْعان — قرية من قرى حايل — كأنها متوسعة عن الجبل نصف ساعة — وعَدَيْنا عليهم ، قصدنا مراوزة ابن رشيد ، فلما وردنا الجفر — ماء من مياه الجبل — عرضوا لنا العجمان مقدمين قدامهم سبور ، ورأونا ، وهجّوا ، زَبَنوا [(٢)] ابن رشيد ، وشدّ ابن رشيد

---

(١) كذا في الأصل ، والصواب : التي .

(٢) زبنوا : لجأوا ، بعامية نجد .

والعجمان ونزلوا رَمّان وأجأ . والآن نراوز الفرصة بهم ، نرجو من الله التوفيق والمعونة ، لأن المواقع المذكورة جبال وعرة ، ولا نتمكن منهم إلا أن يَظْهرون (١) بالسعة ، وإن ما ظَهَروا فهم محجورين وذاهبين إن شاء الله .

« القصد بذلك يثبت عند حضرتكم معلوم أننا إن شاء الله لم نزل ملاحظين للمصالح العايدة للجميع ، وإننا إن شاء الله لكم ومنكم في كافة الأحوال وقريب إن شاء الله تأتيكم منا البشائر بما يسر خاطركم .

هذا ما لزم بيانه ، والبارى يحفظكم محروسين ، والسلام ١٧ رجب ١٣٣٥ » .

ولقد نادى الحسين بنفسه ملكا على البلاد العربية ، ولم يعارض أحد من حكام العرب في الظاهر ، ومنهم ابن سعود ، لأن لهجة الحسين الطيبة في رسائله إليه وما ظهر من حسن النية مع الحياء الذى كان يتعامل به مع الحسين جعله غير معارض ، ولكنه لم يعلن الموافقة ، فقد كان يكتفى في رسائله للحسين بأنه « أمير مكة وشريفها » ويغفل اللقب الآخر.

وأحرج الانجليز والحلفاء ، ولم يكن في مقدورهم الاعتراف به ملكا على البلاد العربية ، فتفادوه الى الاعتراف به ملكا على الحجاز .

ولكن الحسين كان يتكلم باسم العرب ، ومفاوضاته مع مكماهون كانت باسم العرب ، وكذلك الاتفاقات التى تنص عليها مراسلاتهما ، ولم يعترض البريطانيون على ذلك ، لأن الدولة العربية التي كان الحسين يريد قيامها كانت في عالم الغيب .

---

(١) كذا بالاصل ، وصوابها : يظهروا .

والبريطانيون كانوا راضين بان يتكلم الحسين باسم العرب ، ولكن، ليس معنى ذلك أنه حاكم على أقطارهم ، وأن حكامها تبع له وتحت أمره ، ودعت الحكومة البريطانية الحسين لحضور مؤتمر الصلح ليرعى مصالح العرب ، فاللورد أللنبي أرسل إلى وزارة الحربية البريطانية في شهر صفر ١٣٣٧ (نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٨) وهو الشهر الذي وقع في الحادي عشر منه الهدنة بين ألمانيا والحلفاء برقية قال فيها : « إنه من المهم أن توجه الدعوة إلى الملك حسين كي يرسل ممثلا له يرعى المصالح العربية في مؤتمر السلم [1] » .

وحضر فيصل بن الحسين مندوبا عنه مؤتمر السلم ، وكان يتحدث باسم العرب ويرعى مصالحهم التي غدر بها الانجليز والحلفاء .

ولم يكن ابن سعود من الطامعين ولا المؤذين ، فلم يعارض تمثيل الحسين للعرب ، ولم يثر أية مشاكل للحسين تضعف جانبه في المجال السياسي والدولي ، بل عرض عليه من قبل الترك حكم الحجاز فأبى ، فقد كتب اليه فخري باشا – بعد أن انتهت الحرب وإن كان فخري لم يسلم – الكتاب الآتي .

باسم الله وحده

عن المدينة المنورة

١٧ أيلول ٣٤

* حضرة صاحب السعادة والى نجد وقائدها الأمير عبد العزيز باشا السعودي المحترم ، أدام الله إقباله .

---

(١) الحركة العربية لسليمان موسى ، صفحة ٤١٥ .

إن الكتاب الذى أرسلناه طي هذا تأخر لأننا لم نجد نجابا [١] أمينا .

قد استبشرنا بأن المطاوعين[٢] الساكنين فى وادى خورما[٣] أخذلوا[٤] عونة[٥] العاصى حسين ، وبأن حضرتكم لأجل فتح طريق مكة للاسلام واداء فريضة الحج قد وصلتم الى بريدة فأبارك لكم عن صميم الفؤاد باسم الإسلامية تجاه هذه الحركة الجليلة الواقعة على العاصى حسين .

ابين لجنابكم إذا قبلتم معاونتنا بالاسلحة والجبخانة والمدافع والرشاشات والمصارف [١] اللازمة فإننا حاضرون .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته [٢] .

قائد الحملة السفرية الحجازية

فريق

(التوقيع) فخرى

وكان مع فخرى اثنا عشر ألف جندي تركي ، ولكنه هو وهم كانوا محاصرين من قبل قوات الشريف الحسين تحت قيادة ابنه الشريف عبدالله، ومع أن الهدنة قد وقعت بين ألمانيا والحلفاء فى ١١ نوفمبر (تشرين الثانى)

---

(١) نجاب : رسول .

(٢) المطاوعين : يقصد الاخوان الذين كان شعارهم : إخوان من أطاع الله ، وأهل خرمة قد تطوعوا على هذا المعنى .

(٣) أخذلوا : خذلوا .

(٤) عونة : أعوان .

(٥) المصارف : النفقات .

(٦) في أعلى الرسالة كتب التاريخ هكذا : ١٧ أيلول ٣٤ وهذا التاريخ هو التاريخ الرومي ، وبينه وبين التاريخ الهجري سنتان ، فتكون السنة سنة ١٣٣٦ هجرية ، ووافق شهر شوال ، ويوافق يوليو (تموز) ١٩١٨ .

١٩١٨ (٧ صفر ١٣٣٧) فان فخرى باشا رفض التسليم الا اذا جاءه أمر السلطان ، وفعلا ، لم يسلم حتى جاءه الأمر فسلم في ١٠ يناير سنة ١٩١٩ (ربيع الأول ١٣٣٧) أي بعد الهدنة بتسعة أشهر تقريبا .

وكانت رسالة فخرى باشا الى ابن سعود قبل تسليمه بأكثر من سنة ، ولكن ابن سعود لم يرد أن يقف فى وجه الحسين ، بل كان شديد الحرص على رضاه ، ولهذا أغفل الجواب ، مع أنه كان فى وسعه أن يقصد المدينة المنورة ويفك الحصار عن فخرى ، ويوحد جيشه مع جنوده الاتراك ويضرب القوات الهاشمية .

وتلقى ابن سعود من الامير عبدالله رسالة مؤرخة فى ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٣٧ بعد تسليم فخرى مباشرة يبشره بالفتح ، وتسلم الشريف تهنئة ابن سعود ، ورجاه أن تتوثق بينهما الصلات الحسنة .

ولكن جدّ جديد ، فقد تأكد لدى ابن سعود أن الشريف عبد الله بن الحسين متوجه الى الخرمة وتربة ليضرب الاخوان التابعين لابن سعود ، فاستعد لكل الاحتمالات ، ولا ضرورة لاعادة ما حدث بعد أن تقدم ذكره فى فصل « معارك تربة » التى انتهت بكارثة الجيش الهاشمي على يد السعوديين .

ثم تلبد جو العلاقات بينهما بغيوم كثيرة تنذر بروقها بشر مستطير ، وكاد كل منهما يتهم الآخر ويلقى عليه تبعات الحوادث التى تزيد من إشعال نار الفتن ، وتدخل الانجليز بين صديقيهم ، وكانوا — دون شك — يغلبون جانب الحسين ويدخرون له من الود والقدر أكثر مما يدخرون لابن سعود ، وكان ابن سعود يعرف هذا ولا اعتراض له عليه إلا إذا كان وراءه سلب حقوقه وإهانة كرامته .

توسطت بريطانيا بينهما فوفقت الى حد بعض التوفيق ، إلا أن حوادث

وقعت أثارت سخط الحسين ، فهاهي ذى الدعوة الوهابية تغزو قبائل الحجاز من سبيع وعتيبة ، ورؤساء قبائل الحجاز يميلون أعناق مطيهم شطر الرياض، وهاهي ذي رسائل ابن سعود الكثيرة اليهم في يد الملك الحسين زاخرة بالدعوة إلى التمسك بالدين ، والنصيحة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتصريح بأن نجدا لا تريد إلا إعلاء كلمة الله ونشر الدين ، وإحياء سنة سيد المرسلين ، وكل ذلك من وسائل الاغراء والتشويق يتبعها أمير نجد ليمسك بزمام من يكتب اليهم داعيا ناصحا مذكرا .

ولم يفت الحسين الحاذق الفهيم أن ابن سعود يدخل المعركة بنظام جديد تنبثق من الدعوة الوهابية وبالعصبية القبلية ، وليس لدى الحسين شيء من ذلك ، ولهذا اعتقد أن عمل ابن سعود تدخل منه فى شؤون الحجاز، وما لابن سعود وقبائل الحجاز ؟ يستقبل زعماءها ورجالها ويأخذ منهم البيعة لنفسه؟ وما له بنصح قوم ليسوا اتباعه؟ بل لماذا يتصل بهم ويكتب اليهم .

والحق ، أن ابن سعود دخل معركته مع الحسين بنظام جديد وحد أتباعه ، ذلك النظام القائم على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولا شك أنها دعوة الاسلام الحق ، وتفترق عما شاع فى العالم الاسلامي من بدع وخرافات ووثنيات دخلت فى الدين وهو براء منها ، ولم يكن لدى الحسين نظام جديد مثل الذى عند ابن سعود ، كما أن الحسين لم تكن له عصبية مثل ما لابن سعود الذى يغضب لغضبه عشرات الألوف، وبمجرد إشارة منه تتجمع عشرات الألوف تحت لوائه ، ولم يكن لدى الحسين شيء من ذلك .

ثم كان ما ذكرناه فى الفصل الذى كتبناه عن معارك تربة التى انتهت بهزيمة الجيش الهاشمي هزيمة نكراء ، ووقوف الانجليز فى صف الحسين وطلبهم من ابن سعود أن يترك تربة ويعود الى نجد .

ورجع ابن سعود من تربة الى الرياض في يوم ١٥ رمضان سنة ١٣٣٧ ﻫ وهو اليوم الذى تسلم فيه خطاب السفير البريطاني بجدة بعد أن مر على المعركة عشرون يوما ، وقدرته الحكومة البريطانية على قبولها نصحها ومحافظته على صداقتها وتنفيذه رغبتها وعودته الى وطنه دون أن يثير شغبا .

واتصل بها من نجد وطلب اليها أن تضع حدا لهذه المشاكل التى يشب ضرامها بين الفينة والفينة وفي الحدود فيصلي به الفريقان : المعتدى والمعتدى عليه ، وهذه المشاكل تقلقه فلا تدعه يتفرغ لادارة شؤون بلاده ، فاما أن يقولوا كلمة الحق واما أن يبعدوا عن الميدان ليستطيع أن ينتقش شوكه بيده ، فكتب نائب الملك بمصر خطابا الى الحسين وجهه اليه في ٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ م (١٢ صفر ١٣٣٨) جاء فيه :

« ان حكومة جلالة ملك بريطانيا نظرا الى عنايتها بمصالح العرب الجوهرية تقف ازاء اشتعال الحرب في جزيرة العرب موقف القلق المضطرب خصوصا لكون حدوث ذلك يؤثر على القرارات السياسية التى سيتفق عليها قريبا .

« ثم انه لا يجب أن يخامر جلالتكم أقل ريب في وفاء الحكومة البريطانية نحوكم التى يتحتم عليها عدم اتخاذ جانب ابن سعود أو غيره فيما يضر بمصالح جلالتكم ، غير أن جلالتكم لا تجهلون شروط المعاهدة الحالية بين الحكومة البريطانية وابن سعود الضامنة حقوقه داخل حدود بلاده ، الا أنها بلغته بصفة رسمية أنها تنظر الى كل عمل يأتى به خارج بلاده بعين السخط ، بل رفضت طلبه زيادة الذخائر والمهمات الحربية ، زد على هذا أنها طلبت منه ايقاف الحركات العدائية ضد ابن رشيد صديق الاتراك الذي كان قد شرع بها بناء على طلب الحكومة البريطانية نفسها .

« انني لا أذكر هذا الا لغرض ايقاف جلالتكم على حقيقة الحال ، ولكي تقدروا حق التقدير البواعث التى حملت الحكومة البريطانية على الاشارة لجلالتكم بالوقوف عند حد معلوم فيما يتعاق بمسألة الخرمة وغيرها من شؤون القبائل ، ونظرا الى ما سبق ذكره ، وما تكرر وروده في كتب جلالتكم يصعب علي تصديق الخبر الذى جاءنى ؛ وهو أن جلالتكم رغبتم في قطع العلاقات الودية مع ابن سعود مما يكنى فيه بارجاع رسوله ورفضكم كتبه .

انني أرجوكم أعظم الرجاء أن تجتهدوا لمنع كل البواعث الجوهرية التى تؤدى الى سوء التفاهم مع الأمير المشار اليه بشأن سياستكم نحوه فانه وان كان أقل درجة من جلالتكم وأضعف موارد لا ينكر أنه ذو تأثير وأهمية فى السياسة العربية » .

ويستنتج من هذا الخطاب احتفال بريطانيا بالملك الحسين احتفـالا عظيما ، فهي ترجوه وتلح في الرجاء - أعظم الرجاء - وتريه أنه هو العظيم الكبير ، وفوق هذا تقدره كل القدر ، وتحرص على مودته كل الحرص ، ولو لم يتسرع الحسين في مخاصمة بريطانيا ، وتوسل الى غاياته بالاناة وسعة الحيلة لاستطاع أن ينال مبتغاه .

وعاد الى البلدين الهدوء والسكينة بعد كتاب نائب الملك ، وتبادل أمير نجـد وملك الحجاز كتبا ودية الا أن ما في القلوب في القلوب ، ثـم استيقظت الضغائن بالحوادث التى اندلعت نارها من جديد بين قبائل نجد وقبائل الحجاز من جراء الاختلاف بين المعتقدات ، وتعصبت كل قبيلة لمعتقدها فنجم عن التعصب الاحتكاك فالقتال .

ولم يدم الصفاء بين ابن سعود والحسين الا أشهرا معدودات ، ثم عاد النزاع كأشد ما يكون بينهما ، واشتعل غضب الحسين فمنع النجديين من

الحج سنة ١٣٣٨ هـ (١٩٢١ م) وأغلق في وجوههم أبواب الحجاز ، فتدخلت الحكومة البريطانية وكانت في جانب الحسين ، وبعثت خطابا الى ابن سعود ، وطلبت منه أن يمنع الحوادث التي تثار على الحدود ، ورجت الحسين رجاء حارا أن يأذن بالحج لمن يرغب من مسلمي نجد أسوة بالمسلمين في جميع الاقطار .

ولكن الحسين أبى أن يظهر بمظهر السمع لنصائح بريطانيا ليري خصمه جانب التعالي والايد فسكت ثم أذن في سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م) فأقبل وفود بيت الله الحرام من النجديين تحت امرة مساعد بن سويلم ، وأدوا فرائضهم في هدوء ثم رجعوا في سلام وأمان ، ولم يثر بين الحسين وابن سعود ما يفسد العلاقة الجديدة .

بل كان ابن سعود ينتهز كل فرصة للتقرب من الحسين ، فما كاد يأذن بالحج حتى بعث الى ابنه الامير علي خطابا مطولا جاء فيه :

« لما رأيت تفضل صاحب الجلالة الوالد المعظم ببذل عنايته بالرخصة بالسماح لاهالى نجد بأداء فريضة الحج حيث برهن على حسن عواطفه واظهار فضيلته أحببنا أن نرخص لبعض رعايانا لزيارة بيت الله الحرام بصحبة خادمكم مساعد بن سويلم ، فاتخذت هذه خير وسيلة وأعظم فرصة لاهدي حضرتكم جزيل السلام ، ولاعبر لسموكم عن عظيم اشتياقي وخالص نواياي لتجديد عهود الصداقة ، وتمكين الصلات الحسنة والمناسبات الودية المشتركة التى تربط القطرين الاسلاميين غير ملتفتين الى ما قدر الله رغم ارادتنا أن يقع فيما مضى بين الطرفين من الحوادث التي طالما أوجبت لتأسفاتي وكدرى ... الخ » .

ولم يرض الحسين خطاب ابن سعود لان قوله — في رأيه — يناقض فعله ، فهو يهتف في كل مناسبة أنه يحب السلام ويود رضاه ويحرص على

عطفه في حين أنه احتل خيبر وتيماء وغيرهما ، وأخذ يتوسع في الجزيرة على حساب الأمراء الصغار كما قضى على الفتن في نجد وشمالها ، ومحا دولة ابن الرشيد ، كل هذا انذار صريح بدنو الخطر ، اذ لم يبق بعد فتوحاته الا الحجاز ، بل أغرى بعض قبائله فأطاعه ورجع اليه ، بل طالب بتربة والخرمة وهما — في نظره — من صميم الحجاز ، فكيف يوفق بين قوله وعمله المتناقضين ؟.

ولم يطق الحسين أعمال ابن سعود فأعاد مرة أخرى منع رعاياه من الحج ، فتقدمت الحكومة البريطانية من جديد الى الحسين وأخذت ترجوه وتلح في الرجاء أن يفتح باب الحج لمسلمي نجد ، ودارت رسائل كثيرة بين معتمدها في جدة جرافتي سميث وبينه ، وبين المعتمد والشيخ فؤاد الخطيب وكيل خارجية الحسين ، ولكنه وقف دون رأيه ثم لان بعض اللين وسمح بأن يحج النجديون ، ولكن ، يجب أن يبين عددهم ، ثم نادى بأن يكون العدد محدودا لا يقبل الزيادة ، ثم طلب أن يأتوا عن طريق البحر كبقية المسلمين .

وهكذا أخذ يتشدد في الطلبات ويقسو في لهجة كتابته الى بريطانيا ويتهمها بمحاباة خصمه ، كما طفق خصمه يتصل ببريطانيا عن طريق المندوب السامي بالعراق ، ويطلب اليها أن تضع حدا لعناد الشريف واصراره على رغباته غير المشروعة ، لانه لا يمكن تحديد عدد الحجاج النجديين ، وما داموا قد حجوا في سنة ١٣٣٨ هـ ولم يحدث منهم ما يرنق الصفو فليس من الرأي وضع العراقيل أمامهم .

وسعت بريطانيا في سبيل التوفيق بين المتخاصمين ، وكانت حريصة على أن يعود الصفاء بينهما ، فالحسين في المقام الاول ، فهو حليفها المرموق وصديقها الموموق ، وابن سعود له شأن في السياسة العربية فيجب ألا يغفل أمره ، وبريطانيا مرتبطة معه برباط الصداقة والولاء ، ولا ترضى

بالتخلي ليصطرع اللذان برهنا على مودتهما لها ، بل لن تتخلى الا حين يقضي اليأس على آخر خيط من خيوط الرجاء ، وما دام هنالك بصيص أمل فهي لن تدخر وسعا في العمل لاصلاح ذات البين بين الطرفين ، فتوسلت الى الحسين أن يأذن بالحج ويبرم معاهدة مع ابن سعود كالمعاهدة التي بين نجد والعراق ، فاشترط أنه لا يسمح بالحج في هذه السنة (أي سنة ١٣٤٠ هـ (سنة ١٩٢٣ م) الا اذا تم جلاؤه عن الجوف ورنية وبيشة وتربة والخرمة وكل بلد اغتصبه ، واشترط للمعاهدة أن يعود الى الحدود التى كانت من قبل، واذا رفض هذين الشرطين فليقدم وليتسلم البلاد، لان الغرض الذى يسعى اليه هو « خدمة البلاد » .

غير أن بريطانيا لم تيأس – كعادتها – من جواب حليفها الحسين الذي يقطر حنقا ، وينم عن عدم رضاه عنها ، فاخذت تبذل المزيد من جهودها بعد أن غدرت به رجاء أن تكسب رضاه ، وما انفكت تعمل بجد واخلاص على ازالة أسباب الجفاء والخلاف ، وتغريه بالاتفاق بكل وسيلة ممكنة حتى استطاعت أن تقرب بين ابن سعود وبين الحسين وابنائه ، لان من صالح بريطانيا أن يسود الهدوء والوفاق بين الممالك العربية اراحة لخاطرها وخاطر من تربطها بهم صلات ودية ، فهي لها بالعراق – حيث يحكم الملك فيصل بن الحسين – وفي شرق الاردن – حيث يحكم الامير عبد الله بن الحسين – مركز خاص يستدعي انبساط الصفاء والهدوء على الجزيرة وما ونت عن الدعوة ، وعزمت على عقد مؤتمر في الكويت تحت رئاسة الكولونيل نوكس رئيس المعتمدين في الكويت وخليج فارس ، غير أن المدعوين من الحجاز والعراق وشرق الاردن ونجد تأخروا .

وكان نوكس يهمه أن يتم الوفاق على يديه فيكون له فخار التوفيق بين خصوم عجز عنه دهاقنة بريطانيا من قبله مثل برسي كوكس ، بل كان يهمه أن يتم سريعا ، فأيام « اعتماده » آذنت بالانقضاء ويحال قريبا على

المعاش ، فخشي أن يزرع هو ويكون الحصاد لغيره ، فكتب الى ابن سعود يدعوه الى حضور المؤتمر ، كما كتب الى حكام الحجاز والعراق وشرق الاردن ، فاعتذر ابن سعود بالمرض – وكان مريضا حقا مرضا خطيرا – غير أن نوكس ظن أن اعتذاره مفتعل لئلا يشترك في المؤتمر ، فبعث اليه خطابا آخرا تسلمه ابن سعود وكان قد تماثل للشفاء فأجابه بقبول الدعوة واشتراطه بألا يشترك مندوبو أي بلد مع مندوبي البلد الآخر كل بلد على حدة وقبل نوكس .

فبعث ابن سعود مندوبيه الى الكويت ورحل – هو نفسه – الى الاحساء ليكون على مقربة من المؤتمر ويتلقى أخبار المفاوضات أولا فأولا ، ويطمئن على سيرها .

وانعقد المؤتمر في الكويت باجتماع مندوبي نجد والعراق وشرق الاردن ، أما مندوبو الحجاز فقد تخلوا ولم يحضر من يمثله فيه .

وعقدت أولى جلسات المؤتمر في ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٤٢ هـ (١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٣ م) بين وفد نجد ووفد العراق ، ودارت بينهما مفاوضات ومناقشات استغرقت خمس جلسات ، وانتهت بالاتفاق على بضع مواد لتسوية مشاكل الحدود ، وكتبت صيغته ، كما وافق الفريقان عليها ، وعند التوقيع عليه من مندوبي العراق طلب أن يضاف اليه أن هذه المعاهدة لا تكون نافذة الا اذا تم الاتفاق بين نجد والحجاز .

ولعل هذا كان ممكنا لو لم يتخلف مندوبو الحجاز عن الحضور ، أما وقد تخلفوا ، فمعنى هذا أن تبقى المعاهدة معلقة بهذا الشرط حتى يحضروا ويفاوضوا وفد نجد ليعرف ما لديه ، فأبرق نوكس – رئيس المؤتمر – الى حكومته بلندن بأنه لا يمكن أن يسوي الخلاف الناجم بين هذه الاقطار ما لم يحضر وفد الحجاز .

ثم أجل المؤتمر الى ٨ يناير سنة ١٩٢٤ م ليمضي كل من الوفدين الى حكومته ويحيطها علماً بما حدث ويستشيرها فيما اختلف فيه من المسائل استعدادا للدورة القادمة .

أما وفد شرق الاردن فقد اشتط وطلب اخلاء الجوف وسكاكة ووادي السرحان وما يتبعها والحاقها بشرق الاردن ، لان ذلك « ضرورة حيوية » لمواصلاتها مع العراق ، وطلب أيضا اخلاء تربة والخرمة وبيشة وخيبر وكل الاراضي الحجازية التي احتلتها نجد ، وجعل الحدود بين الحجاز ونجد الصحراء القاحلة .

ولم يستطع وفد نجد قبول هذه الشروط ، ورأى نوكس أن يفض المؤتمر استعدادا للدورة الثانية على أن يقصد كل وفد في طلباته ويجعل نصب عينيه الاصلاح والخير ، وحاولت بريطانيا كثيرا مع الحسين ورجته أن يبعث مندوب الحجاز الى الكويت لحضور الدورة الثانية فوافق بعد لأي على بعث ابنه الامير زيد ، واشترط أن يبعث ابن سعود أحد أبنائه ،فأبى ابن سعود وأجاب بأنه واثق من مندوبيه ولا ضرورة لتغييرهم .

وانعقدت الدورة الثانية للمؤتمر ولم يحضر وفد الحجاز ولا وفد العراق ، بل لم يحضر الا وفد نجد ومندوبو شرق الاردن ، وأصر هؤلاء على مطالبهم التي ذكروها في الدورة الاولى ، ولم يوافق وفد نجد فانفض المؤتمر ،وراح كل فريق يفكر فيما يجب أن يعمل للمستقبل القريب .

أما ابن سعود فلم يخسر شيئا ، فان انفض مؤتمر الكويت فقد انعقد في الرياض مؤتمر عام حضره ممثلوا نجد من جميع الطبقات لاتخاذ مايجب اتخاذه حيال جبهة الشرفاء (الحجاز والعراق وشرق الاردن) المتحدة في موقفها .

ابن سعود والعروش الهاشمية

كان الانجليز حريصين على إرضاء الملك الحسين بعد أن غدروا بـه وبالاماني العربية في اتفاقية سايكس — بيكو ، وحاولوا أن يكون الحسين على وفاق مع ابن سعود الذي شعر بموقف القوة من جراء انتصاراته التي أدت إلى أن يمتلك أعظم قوة في الجزيرة العربية .

وأنكى مـا كان يقلق الحسين جـَرْح كرامته ، فقد انقلب قريبـه الشريف خالد بن لؤي عليه ، وانضم إلى ابن سعود ، واعتنق الدعوة الوهابية، واستطاع أن يجعل سكان تربة والخرمة وقرى أخرى من « الإخوان » الوهابيين ، وينقل ولاءهم من الحسين إلى ابن سعود .

وبذل الحسين جهوده لدى الانجليز كي يحملوا ابن سعود على ترك نفوذه الروحي في تلك القرى ، ولكنه لم يوفق ، فقد وقفوا موقفا اشبه بالحياد واختلف الساسة البريطانيون ، فوزارة الخارجية البريطانية مع الحسين ،وحكومة الهند المسئولة عن سياسة العراق والكويت ونجد وعسير مع ابن سعود .

ولم ترد الحكومة البريطانية أن تضغط على ابن سعود لحساب الحسين مع عدم تخليها عن الحسين حليفها الأكبر ، وانثالت الاحداث عليها ،

فالعرب سخطوا على غدرها واقتسامها مع فرنسا أرضا عربية ، وثار السوريون كما ثار الاردنيون ، ولجأوا إلى الحسين يرجونه ارسال بعض أبنائه لقيادة الثورة ضد الانجليز والفرنسيين .

ولم يخف على ابن سعود ما يدور في تلك السياسة البريطانية وفي برامجها التي بدأت تنفذه في العالم العربي ، وكان على علم بأن بريطانيا تود أن ترضي الحسين فتجعل أبناءه ملوكا على البلدان التي وقعت تحت انتدابها وسيطرتها مثل العراق وشرقي الاردن بعد أن نُزع عرش سوريا من فيصل بعد المناداة به ملكا عليها من قبل الفرنسيين .

ولم تشغل ابن سعود داخليته عن التنبه لوضعه الذى سيكون فيه ، ألا وهو الوقوع بين العروش الهاشمية في الحجاز والعراق والاردن ، ولكن لم ينشأ — بعد — عرش العراق وعرش الاردن ، إلا أن ما يلوح في أفق السياسة البريطانية يوحي بذلك ، ففيصل بن الحسين في لندن ، وعبدالله بن الحسين غادر مكة والحجاز إلى شرقي الأردن .

وكان العراقيون قد صمموا على أن يكون أحد أبناء الحسين ملكا على العراق ، وقد أرسلوا في سنة ١٩١٨ (١٣٣٨) مضابط إلى فيصل بن الحسين جاء فيها المطالبة باستقلال العراق تحت « ملوكية أحد أنجال الحسين » وطلبوا اليه عرضها على مؤتمر السلم .

ولم ترض الادارة البريطانية بحركة الأحرار في العراق واتجاههم هذا فقاومتهم ، وزجت بكثير منهم في السجون ، ولكنهم أصروا على مطالبهم الوطنية ، فلم تر الحكومة البريطانية بدا من تغيير سياستها ، لأن الثورة العراقية كانت ثابتة ومستعدة للتضحية ، فرأت أن تلتقي بها في منتصف الطريق ، ثم حدث أن دخل الفرنسيون دمشق وهددوا فيصلا ، فاتجهت انظار الحكومة البريطانية اليه فيما يتعلق بالعراق .

وكانت هناك أسباب جعلت بريطانيا تفكر في فيصل والعراق وربط موضوعيهما بعضهما ببعض ، ومن هذه الاسباب :

أولا — أن الثورة العراقية لم تتراجع ، وأن زعماءها أصروا على أن يكون العراق مستقلا تحت حكم أحد أبناء الحسين .

وثانيا — في أواخر مارس (آذار) ١٩٢٠ م (١٣٣٩ هـ) أبلغ نـــوري السعيد أحد المسئولين في وزارة الخارجية أن العراقيين في بغداد والموصل أنابوا عنهم ستة أفراد في قضية العراق وهم : فيصل بن الحسين ، وجعفـــر العسكري ، وناجي السويدي ، ومولود مخلص ، وياسين الهاشمي ، وعلي جودت .

وثالثا — أن فيصلا كان القائد الوحيد بين قادة العرب الذى ظل على صلة مباشرة بالمسئولين البريطانيين في مصر وسورية منذ احتلال العقبة في منتصف سنة ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م) وحتّى دخول الجنرال غورو دمشق ، وكان فيصل موضع الاحترام من الانجليز .

ورابعا — شعور البريطانيين بالاثم أو شعور بعض كبار السياسيين والمسئولين البريطانيين بالاثم ، فقد أدركوا وشعروا أنهم غدروا بالملك حسين وأولاده ، وشاركوا الفرنسيين في جريرة القضاء على دولة فيصل السورية .

ورأى بعض الساسة والمسئولين البريطانيين التكفير عن آثامهم فابرق آرنولد ولسن حاكم العراق إلى حكومة الهند التي كانت المسئولة يسألها عما إذا كان من الممكن لحكومة صاحب الجلالة البريطانية أن تنظر في احتمال عرض عرش العراق على فيصل ، وكانت برقية ولسن برقم ٩٢٤٩ وتاريخ ٣١ يوليـــو (تموز) سنة ١٩٢٠ (١٣٣٩ هـ) .

وكان اللورد كرزون وزير الخارجية البريطانية قد أبرق لآرنولد ولسن

يوم ٣٠ يوليو ١٩٢٠ يسأله رأيه في استقدام الشريف فيصل بن الحسين إلى العراق ليرأس دولته ، وعما إذا كان وصوله إلى بغداد يحل المشكلة العراقية .

وكان اللورد كرزون يحمل مشاعر طيبة نحو الاشراف وعلى رأسهم فيصل ، وشعر بإثم الجرائر البريطانية ضد حليفهم العربي الأكبر الحسين فاراد أن يكفر عن تلك الآثام ، وقرر أن يرضي فيصلا ، ولكن هناك أخاه عبدالله بن الحسين الذي نادى به المؤتمر العراقي في دمشق ملكا على العراق ، فكيف ينزع منه ما كان له ويعطاه أخاه فيصلا ؟ .

مشاكل معقدة ، فالثورة العراقية التى نشبت في صيف سنة ١٩٢٠ (أواخر سنة ١٣٣٨ هـ) نجحت ، وهي امتداد للثورة العربية الكبرى التى قام بها الحسين ، والعراقيون لا يقبلون بديلا عن آل الحسين ، ولكن ليس تمليك فيصل عرش العراق بدل عبدالله مما لا يمكن حله .

ونعود إلى برقية كرزون إلى ولسن الذي رد عليه بهذا الجواب :

« تنص برقيتكم المؤرخة في ٣٠ يوليو سنة ١٩٢٠ على أن الأمير فيصلا قد اجلي إلى درعا في منطقة النفوذ البريطاني[١] بناء على أمر الفرنسيين ، ويرى من في بغداد ان ذلك يعني أحد أمرين : فإما أن يكون الامير في طريق عودته إلى الحجاز ، أو أنه ينوى البقاء في الجزء السوري المشمول بالنفوذ البريطاني ، فاذا بقي في درعا واستمر على الادعاء بعرش سورية فإنه سيجمع حوله عدداً من موظفيه السابقين فيكون مصدر ازعاج دائم للفرنسيين ، اما اذا تنازل عن مطالبه في سورية وطالب بزعامة فلسطين فقط فان وجوده فيها سيخلق المتاعب لفرنسا ويجعلنا في موقف صعب جداً ، فهل لحكومة جلالة الملك ان تفكر في اسناد امارة العراق اليه ؟ .

---

(١) لم تكن درعاً في منطقة النفوذ البريطاني ، بل كانت في منطقة النفوذ الفرنسي .

«ان الاعتراضات التي جاءت هنا بصدد ايجاد الامارة تتجمع مبدئياً حول عدم وجود الشخصية المناسبة لها ، وكنا نعتبر فيصلا مهيئا لعــرش سورية ، وما من شيء سمعته خلال الاشهر القليلة الماضية غير رأي في عدم اهلية الأمير عبدالله ، كما ان خبرتنا في بغداد خلال بضعة الاسابيع الاخيرة دلت بوضوح على عدم وجود مرشح يستطيع أن يحوز على تأييــد يمكنه من القيام بمهمته .

«ان فيصلا هو الوحيد بين زعماء العرب الذى يدرك المشكلات العملية في ادارة حكومة متمدنة بموجب الطرق والاساليب الغربية ، وانه لا يخطىء في التقدير بأن المساعدة الاجنبية امر حيوي لاستمرار وجود دولة عربية ، كما انه يدرك الخطر الناجم عن الاعتماد على جيش عربي ، فاذا قدمنا اليه امانة العراق فاننا لا نسترجع مكانتنا في نظر العالم العربي فقط ، ولكننا قد ننجح إلى حد كبير في القضاء على التهمة التى توجه الينا بخيانتنا لفيصل ولأهل هذه البلاد .

فاذا عزمت حكومة صاحب الجلالة الملك على انقاص نفقاتها في هذه البلاد انقاصاً محسوساً فإن ذلك لا يتحقق بصورة اتم الا بواسطة فيصل دون اي ملوك آخرين» .

وقد صادف رد ولسن هوى في نفس اللورد كرزون ، وشجعه عــلى التصميم على مشروعه ، والأخــذ بأسباب تنفيذه ، فبدأ خطوته الاولى باستطلاع رأي الحكومة الفرنسية ففاتحها في ٨ أغسطس (آب) ١٩٢٠ في أمر تنصيب فيصل على عرش العراق ، فاذا حكومة فرنسا تعترض بعنف ، وقدمت في يوم ١٧ أغسطس ١٩٢١ مذكرة إلى كرزون تبين أسبــاب اعتراضها ، وتفصح عن استيائها الشديد ، وهاجمت فيصلا وذكرت — فيما ذكرت — من أسباب استيائها واعتراضها ما يأتى :

١ — إن وجوده في العراق مصدر خطر على مركزها في سورية .

٢ — وإن فيصلا مسئول عن الدماء الفرنسية التي أهرقت على أرض سورية .

ورأى الفرنسيون أن يوغروا صدر كرزون والمسئولين البريطانيين على فيصل فزعموا في مذكرة رسمية أن فيصلا «أثناء الفترة التي قضاها على رأس الحكم في دمشق طلب في السر من الحكومة الفرنسية أن تتعاون معه في العمل ضد الاحتلال الانجليزي للعراق» .

وظن الفرنسيون أن نميمتهم هذه ستجد أذنا صاغية من اللورد كرزون الذى لم يعرها أي اهتمام ، ودل الفرنسيون على سذاجة في التفكير بهذه النميمة المختلقة التي أكدوها غير مرة ليفسدوا ما بين فيصل وبريطانيا من تقارب.

بل اشتط الفرنسيون في نقمتهم على فيصل ، ونقموا على الانجليز دعوتهم إياه لزيارة بريطانيا ، وهددوها بأن هذه الزيارة ستسيء إلى العلاقات بين الدولتين الصديقتين ، وعارضت الحكومة الفرنسية بشدة هذه الدعوة ، وحاولت أن تحول دونها ، ولكن كرزون أعلن في رباطة جأش أن الزيارة المرتقبة قد أجلت أكثر مما يحتمل ، وسيزور فيصل بريطانيا حتما .

وآخر قذيفة قذفتها فرنسا لتحول دون زيارة فيصل زعم الجنرال غورو في يناير ١٩٢١ أنه «كان قد اجتمع بفيصل اجتماعا طويلا عرض عليه خلاله أن يطرد الانجليز من فلسطين والموصل إذا زودته فرنسا بالسلاح والمال ، بل أنه عرض أن يأتي الفرنسيون وراء القوات العربية عندما تنجح في طرد القوات الانجليزية » .

ولكن هذا الزعم لم يجد لدى كرزون أي قبول أيضاً ، بل رده بصراحة ، ولم يصدقه ، ودافع عن الشريف فيصل ، وجامل كرزون فرنسا إذ كذب غورو

بأدب فعزا اتهامه لفيصل إلى سوء الترجمة بين غورو وفيصل .

ومما يذكر للتاريخ أن فيصل بن الحسين لم يصرفه التلويح له بعرش العراق عن الصراحة في وجه الانحليز والفرنسيين على السواء ، فقد ذكر فيصل في بيان له ألقاه عنه جبرائيل حداد باشا في يوم ١٠ مارس ١٩٢١ أمام الوفدين البريطاني والفرنسي ، وجاء فيه :

« إن العرب حاربوا إلى جانب الحلفاء لتحقيق الوحدة والاستقلال ، ولكن بعد انتهاء الحرب تبينوا أنهم لم يكسبوا الاستقلال ، وخسروا إلى جانب ذلك الوحدة النوعية التى كانوا يتمتعون بها ، وإنه إذا لم يتحقق للعرب هذان الهدفان : الوحدة والاستقلال فلن يتوطد السلم في بلاد العرب » .

وهذا اتهام خطير من فيصل للحلفاء ، ولكنه حق وواقع ، وإن من العدل والانصاف أن يذكر في مزاياه أنه لم يبال عرش العراق ولا أي نفع يصله ، ولهذا تدرع بشجاعته المعروفة ولم يتراجع عما يعتقد ويرى في الحلفاء .

واشتد الصراع بين انجلترا وفرنسا بسبب فيصل وترشيحه لعرش العراق ، وعنفت المشادة بين حكومتيهما ورئيسي وزرائهما ، وزاد من المشادة مـا أشيع من ترشيح عبدالله بن الحسين لمنصب إمارة شرقي الاردن .

وكان فيصل يصر على حضور مؤتمر الحلفاء المنعقد في لندن يوم ٢٢ فبراير ١٩٢١ الذى يحضره مندوبو بريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان ، وكان مقررا أن يحضره وفد تركي ، فبعث برسالته إلى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا قبل انعقاد المؤتمر بيوم واحد ، وتلا لويد جورج رسالة فيصل على أعضاء المؤتمر وقال : إنه يرى دعوة فيصل لحضور المؤتمر وعرض القضية العربية .

ولكن مسيو بريان رئيس وزراء فرنسا اعترض على دعوة فيصل، واتهمه بأنه غدر بالفرنسيين في سورية ، وحمله المسئولية المباشرة عن سفك دماء الجنود الفرنسيين .

وكان لويد جورج معارضا رأي بريان فقال : إن الممثلين الفرنسيين لا يستطيعون الجلوس مع فيصل في غرفة واحدة ، وأن الرأي العام الفرنسي لا يقبل مطلقا أن يتقابل وجها لوجه مع فيصل بعد كل ما حدث .

ولو كان فيصل حاضرا لرد على بريان مزاعمه وفندها تفنيدا ، إلا أن لويد جورج رد على مسيو بريان قائلا ما نصه الحرفي مترجما :

« إن فيصلا اثناء الحرب كلها كان الحليف الثابت المكين للبريطانيين ، ومن المحتمل ان الجنرال اللنبي ما كان يستطيع أن يحرز ذلك الانتصار الباهر الذى احرزه لولا فيصل ، ثم لولا فيصل لما كان ذلك الانتصار تاما بكل ما أدى اليه من نتائج كان من جملتها احتلال الفرنسيين لسورية .

ومع هذا المنطق السليم الحق لم يتزحزح بريان عن موقفه ضد فيصل ، فقد اجاب بأنه لا يعترض على تسوية المسألة العربية ، وإنما يعترض على فيصل شخصيا .

ولئلا يتسع مجال الخلاف بين انجلترا وفرنسا تم الاتفاق على أن يحضر من يمثل فيصلا ، فحضر عنه جبرائيل حداد باشا ومعه بيان فيصل الذي سبقت الاشارة اليه ، وحدثت بينه وبين بريان مشادة دلت على أن الحكومة الفرنسية مصممة على الوقوف ضد فيصل الى النهاية ، والحيلولة بينه وبين عرش العراق .

وانتهى المؤتمر دون الوصول الى تسوية في موضوع فيصل ، إلا أن الحكومة البريطانية كانت مصممة على أن يكون فيصل ملكا للعراق وعبد الله بن الحسين اميرا على شرق الأردن .

ولم ييأس الفرنسيون ، فقد بذلوا جهودهم في حرمان فيصل وعبدالله من عرش العراق والأردن ، وقام السفير الفرنسي في لندن بزيارة للورد كرزون يوم ٢٣ مارس ١٩٢١ وسأله عن حقيقة الاشاعات التي تقول : إن فيصلا سيكون ملكا على العراق ، وأن عبدالله بن الحسين سيكون اميرا على شرقي الأردن ، فأجابه كرزون مبتدئا بعبدالله وقال له : ان عبدالله لم يأت «بتحريض منا أو بعلمنا ، وقد كرسنا جميع جهودنا منذ وصوله لمنعه من القيام بأعمل العداء ضد فرنسا ... ولقد ضغطنا أشد الضغط على الملك حسين عن طريق فيصل لوقف كل نشاط من هذا النوع ... إنني لا أدري أيوافق عبدالله على أن يكون أميرا على شرقي الأردن ؟ أو ما هي أطماعه ؟ وبما أنه هناك فإن من العسير التخلص منه .

وأصر السفير على اعتراضه ضد تولى فيصل عرش العراق ، وحاول مثل غيره من المسئولين الفرنسيين أن يستعدي البريطانيين عليه ويثيرهم عليه فقال : إن فيصلا لم يكن متآمرا على الفرنسيين وحدهم ، بل تآمر على البريطانيين أيضا «لقد عرض على الجنرال غورو في محادثاته معه أن ينحاز الى جانب الفرنسيين ضد الانجليز ، وأن يعطي الفرنسيين مقابل مساعدتهم له امتيازا باستثمار نفط الموصل» .

ولم يكن كرزون مستعداً لسماع أي طعن في فيصل ؛ ولم يشأ أن يكون تكذيبه لزعم غورو صريحا فاتخذ اللباقة وقال له : ربما أخطأ غورو الفهم فهم مقصد فيصل بسبب خطأ في الترجمة .

فرد عليه السفير الفرنسي : الحديث بين غورو وفيصل كان بالفرنسية التي يتقنها فيصل إتقانا جيدا .

وخرج كرزون من هذا الحوار إلى أسلوب الصراحة فقال : أن بريطانيا تواجه في العراق مصاعب كبيرة كتلك التي واجهتها فرنسا في قيلقيا وسورية ، ولذلك تعتزم بريطانيا إعطاء العراقيين الفرصة لانشاء حكومة لهم يختارون أنفسهم الانسان الذي يريدونه ، ولا تملك بريطانيا إلاقبوله .

وبعد أيام من هذه المقابلة تأكد للسفير الفرنسي أن بريطانيا عازمة على تنصيب فيصل ملكا على العراق وعبدالله على الأردن فعاد الى كرزون في يوم ٦ إبريل ١٩٢١ وأكد له اعتراض حكومته على فيصل وعبدالله ، وقال — في شيء من التهديد المبطن بالعتاب : إن الفرنسيين سيعتقدون أن بريطانيا ساعدت خصميهم ، فهما عدوا فرنسا ، وان الفرنسيين لن يغتفروا لفيصل أنه سفك دماء الفرنسيين .

ورد عليه كرزون : إن بريطانيا لن يسعها أن ترفض فيصلا إذا اختاره العراقيون ، وان بريطانيا عملت كل ما في وسعها لئلا يلحق أي ضرر بالمصالح الفرنسية .

ومن المؤسف حقا موقف الحكومة الفرنسية ضد فيصل الذى كان من نتائج قيامه مع الحلفاء انتصار اللنبي الذي أدى بفرنسا الى سورية كما قال لويد جورج ، ولعل موقف ساسة فرنسا من فيصل حمل الجنرال الفرنسي بريموند أن يقول في كتابه « الحجاز في الحرب العالمية » :

« ينبغي لنا أن نعترف بأن في فرنسا عددا كبيرا من الرجال الذين ينقصهم الفهم والعدل اللذان يتحلى بهما الأمير فيصل » .

والجنرال بريموند يقرر حقيقة تاريخية تدل على نبله ، ويزكي فيصلا ويشهد له ضد قومه وفيهم أولئك الساسة الفرنسيون الذين وقفوا في وجه فيصل وكانوا خاطئين ظلمة ، وكانوا إلى جانب ذلك ممن لا يفهمون .

وجابه فيصل في مؤتمرات الصلح والسلم والحلفاء والعشرة الكبار قوى تحاربه بعنف ، وكانت فرنسا هي التى تتآمر عليه ، وقد هيأت وفوداً لضرب المسألة العربية في الصميم واحراج فيصل والرد عليه من قبل عرب.

ففي مؤتمر العشرة الكبار الذي انعقد بمقر وزارة الخارجية الفرنسية بباريس في ١٣ فبراير ١٩٢١ برئاسة الرئيس ولسن الامريكي حدث شيء رط فرنسا ، ويظهر أن فرنسا كانت أعدت تمثيلية ، فبينما المؤتمر منعقد ودخل وفد سمى نفسه الوفد السوري برئاسة شكري غانم مؤسس اللجنة السورية المركزية كما وصف ، واعضاء الوفد هم : الدكتور توفيق فارحي (يهودي) وأنيس شحاده (من الروم الارثوذكس) والدكتور جورج سمنه (من الروم الكاثوليك) وجميل مكرزل (ماروني) وجميل مردم (مسلم) .

وعندما دخلوا استقبلهم كليمنصو بحفاوة ، وقدم أعضاءه ، ثم طلب الى رئيس الوفد شكري غانم أن يلقي بيانه ، وبدأه زاعما أنه يتكلم باسم جماعة تزيد على مليون شخص ، ثم قال : هناك عدد ضئيل من الأمم التي عانت ما عاناه الشعب السوري .

ثم أخذ شكري غانم يتجنى على الحجاز وفيصل ومكة حرسها الله وقال : إننا لا نريد أن يكون تحرير سورية على يد أهل الحجاز ،ونعارض أن يتكلم فيصل « ممثل الحجاز » باسم جميع « الناطقين باللغة العربية » وباسم « سورية » .

ثم تابع القول وقال : « إن دمشق تبعد عن مكة بما لا يقل عن

ألف وخمسمئة كيلومتر ، فأية صلات روحية وتقارب ذهني تربط بين طبيعة السوري والحجازي ، بين البدو وأهل الحضر ؟ وهل هناك غالبية من العنصر العربي من شأنها أن تعلل أو تبرر مثل هذه الفكرة ؟ إنضم سورية الى الجزيرة العربية هو افتئات صارخ على قدسية الأرض التي أنبتت هذا الشعب وعلى تاريخه » .

ثم قال : ولكن مهما يكن من أمر فان سورية تشعر بالحاجة إلى العون الأجنبي ، فهل بعد أن فصمتم العرى التي تربطنا ترفضون مدّ يد العون لنا كي نخطو الخطوات الأولى ؟ كلا ، إنكم تأبون أن تنهضوا بنا إلى العلا ، ثم تتركوننا نتهادى إلى ركام قيودنا ».

وقال : « أيها السادة ، إن مصلحتنا ومنطقنا يدفعان بنا إلى الاعتراف بأننا نحتاج إلى تعاون مع جهة أجنبية » .

ثم قال : « إن من الأفضل منطقياً أن تعين الدول العظمى على ما تتحلى به من حكمة وفطنة دولة من بينها مؤهلة لتحقيق هذه الرسالة النبيلة ، ألا وهي معونة بلد صغير لينهض بنفسه ، ولتُعوِّد عيون أبنائه ضوء الحرية » .

وأفصح شكري غانم عن الدولة المرغوبة ، ولم تكن غير فرنسا التي أعدت التمثيلية وجعلت أعضاء الوفد أبطالها وعلى رأسهم شكري غانم فقد قال :

« حتى وان اختلف رأيي ورأي زملائي عن رأي الناس الذين نمثلهم فإننا نؤمن أن واجبنا تأدية الرسالة الواضحة المنوطة بنا وهي أن نلتمس منكم — يا أصحاب السيادة — بناء على معطيات الوثائق التي سنرفعها إليكم أن تكون دولة فرنسا هي الدولة التي سيوكل إليها أمر إنشاء دولة

سورية فدرالية متكاملة مستقلة ، وإن فرنسا في نظرنا هي الدولة الوحيدة المؤهلة لإنجاز ما نصبو إليه ، إنها ستكون المرشدة التي تتكلم لغة نفهمها ، والتي ستوحدنا في مصيرنا المشترك ، وفرنسا ستكون الحكم الذي إذا تقاضينا عنده فإن كل سوء ظن يزول ، وكل نزاع يُفض » .

وعندما كان يلقي شكري غانم بيانه الذي أملّ السامعين إذ استغرق إلقاء بيانه مع ترجمته ساعتين ونصف ساعة ناول أحد أعضاء الوفد الامريكي – وهو الأستاذ وسترمان – الرئيس ولسن وريقة صغيرة جاء فيها أن هذا الرجل – أي شكري غانم – عاش الخمس والثلاثين سنة الأخيرة من حياته بعيدا عن سوريا ، وإن قضى معظم حياته في فرنسا ، وكانت الرسالة وحدها كافية لحمل الرئيس ولسون على الاستخفاف برئيس الوفد السوري وعدم الاهتمام بأقواله ، ثم بلغ من اشمئزاز الرئيس بالخطيب السوري (المأجور) أن تركه يخطب وغادره الى الجانب الآخر من بهو الاجتماع وأخذ يسرح بصره من النافذة ويداه في جيبي معطفه علامة البرم والضيق والاستهتار مما جعل كليمنصو يسر في أذن رئيس وزراء خارجيته المسيو بيشون : لماذا جئت بهذا الرجل إلى هنا ؟ فأجابه : لم أكن أعلم أنه سيعالج الأمر على هذا النحو .

وكان بيان شكري غانم فضيحة مكشوفة شعر معها كليمنصو بالخزي والحرج ، ولكنها لم تصرفهم عن التمثيلية الأخرى التي أعدتها وزارة الخارجية الفرنسية ، فبعد يومين من هذه الفضيحة أي في يوم ١٥ فبراير ١٩٢١ كان مؤتمر العشرة الكبار منعقداً في اجتماعه الثانى بمقر وزارة الخارجية الفرنسية بمكتب المسيو بيشون ، وبينا هو منعقد دخل وفد قيل : إنه الوفد اللبناني برئاسة داود عمون ، وألقى بيانا جاء فيه :

« نحن ندرك أنه ليس في استطاعة هذا البلد ولا سيما في الفترة الأولى

من استقلاله أن يستغل موارده من دون عون خارجي ، كما أننا ندرك أنه بلد يفتقر إلى الوسائل المالية وإلى المستشارين الفنيين ، ولذا سعت حكومتنا إلى التعاون مع الدول العظمى ، وهناك دولة واحدة فقط في بالنا وهى الدولة الفرنسية ، وان مبادئها الحرة وتقاليدها القديمة والمنافع التي كان لبنان يحصل عليها في الأزمنة العسيرة ، والحضارة التي عملت على نشرها في كل مكان جعلت منها دولة تحتل في نظر اللبنانيين مرتبة مرموقة ، وعليه فإن مجلس الإدارة في لبنان – هذا المجلس الذى يعبر بصدق وأمان عن الرأي العام في البلد – قد قرر بالاجماع أن يطلب التعاون مع فرنسا » .

وأضيفت هذه اللعبة الى الفضيحة السابقة ، ولكن فرنسا مصممة على حرب فيصل وعبدالله وإقصائهما من عرشي العراق والأردن ولم يكفها أنها أقصت فيصلا عن عرش سورية الذي بايعه أهلها بأن يكون ملكا عليهم ، وكان لبنان داخلا في البيعة ، وكانت فرنسا وبريطانيا وغيرها تعلم أن اللبنانيين نادوا بفيصل ملكا ، فعندما كان فيصل يقوم بجولة في المدن الشامية كان يستقبل استقبالا منقطع النظير ، وكان الجميع ينظرون إليه على أنه رمز أملهم الذي تجسد فيه ، وأنهم لن يرضوا إلا به ، ولما وصل الى بيروت اجتمع البيروتيون وزحموا مركبته التى تجرها الخيول ، وبلغ من حماستهم وحبهم لفيصل أنهم حلوا حبال المركبـــة عن الخيول ووضعوا أنفسهم مكانها ، وأخذوا يجرونها في شوارع بيروت ، وكانوا يهتفون : لا سلطان الا فيصل .

وعندما كان تشرشل في مصر عقد مؤتمراً برئاسته حضره المندوبـــان الساميان لبريطانيا في العراق وفلسطين كما حضره كبار المسئولين العسكريين والمدنيين مع من صحبوا تشرشل من الخبراء السياسيين ، وتقرر في ذلك المؤتمر مبدئيا مسألة العراق وترشيح فيصل لعرشه على ألا يفرض على الشعب، بل يجب أن يؤخذ رأيه ، ومسألة سورية التي فرغ من وقوعها تحت

الانتداب الفرنسي ، وفلسطين تحت الإدارة البريطانية مباشرة ، وشرقي الأردن تحت الانتداب البريطاني بحيث يكون ذلك متفقاً مع مبدأ الاعتراف باستقلال العرب ومعاضدته .

ولقد بويع فيصل بأن يكون ملكا على سورية بترشيح شعبها وزعمائه ، وعندما نودي بفيصل ملكا على سورية رشح عبدالله لعرش العراق ونودي به من قبل زعماء عراقيين ملكا عليهم ، ولكن أُقْصِي فيصل من سورية وعرشها على يد جيوش فرنسا ، ولما رشح فيصل من قبل بريطانيا للعراق أبى لأسباب منها : سبق ترشيح أخيه عبدالله للعراق ؛ ولكن عبدالله أيد أخاه لعرش العراق وانسحب هو نفسه ، فقد أبرق قبيل وصول فيصل للعراق ــ وذلك في ١١ يونيو (حزيران) ١٩٢١ (١٣٤١ هـ) إلى عديد من الزعماء العراقيين قائلا : « إنني أعتبر أخي فيصل مثل نفسى ، ونحن متفقان كل الاتفاق ، وانسحابى ليس إلا لخدمة مصالح جميع الأطراف ».

وموقف كلا الاخوين : عبدالله وفيصل دل على أخلاق رفيعة مثالية ، وإن كانت كفة عبدالله أرجح .

ومع أن موضوع العراق وعرشه بحثا في لندن ، إلا أن مؤتمر تشرشل بحثهما من جديد ، ولعله أريد من البحث توكيد الترشيح ، لأن من حضروا المؤتمر استعرضوا أسماء بعض الشخصيات مثل السلطان عبد العزيز بن سعود ، والسيد طالب النقيب ، والشيخ خزعل خان شيخ المحمرة ، وأغا خان، ونقيب الأشراف في العراق ، وقد أبرق تشرشل في ١٨ مارس (آذار) ١٩٢١ إلى لويد جورج يقول له : إن أحدا من المطالبين الآخرين بعرش العراق لا يقدم أملا بانشاء حكومة عربية فعالة تستطيع أن تخفف من التزاماتنا العسكرية ، فلو اختير ابن سعود لأغرق البلاد كلها في اضطراب مذهبي عنيف ، أما السيد طالب النقيب فهو رجل ذو صفات غير

حميدة ، وهو لا يمكن الوثوق به ، بينما يترنح نقيب الأشراف ببغداد على حافة القبر ، ولا يخامرنا أي شك أن النظام الهاشمي يقدم فرصة أفضل بكثير من هؤلاء .

ومع كل جهود فرنسا التي بذلتها في إقصاء فيصل عن عرش العراق صار ملكا شرعيا على العراق برغبة أهله ، وباستفتاء صحيح أجرته حكومة العراق التي تعد أول حكومة وطنية تألفت في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٠ (١٣٣٩ هـ) برئاسة نقيب الأشراف السيد عبد الرحمن الكيلاني .

وفي يوم ١١ يوليو (تموز) ١٩٢١ م (١٣٤٠ هـ) قرر مجلس الوزراء برئاسة السيد الكيلاني المناداة بالأمير فيصل ملكا على العراق .

ثم وضع الأمر بيد الشعب ، وجرى استفتاؤه في ذلك القرار ، فكانت نتيجة التصويت ٩٧ ٪ بالموافقة على قرار المناداة بفيصل ملكا على العراق .

وكان فيصل قد وصل الى بغداد يوم ٢٩ يونيو (حزيران) ١٩٢١ (١٣٣٩ هـ) قادما من جدة عن طريق البصرة .

وبعد أن ظهرت نتيجة الاستفتاء أقيم احتفال شعبي كبير في بغداد يوم ٢٨ ذي الحجة ١٣٣٩ هـ (٢٣ أغسطس (آب) ١٩٢١ وتم فيه تنصيب فيصل ملكا على العراق ، وبايعه شعبه .

وأما عبدالله بن الحسين فقد كان في مكة المكرمة معتزلا السياسة للخلاف بينه وبين والده الملك حسين الذى نجم بسبب هزيمة الجيش الهاشمي في تربة ، إذ ضرب ضربة قاضية على يد جيش الاخوان الوهابيين السعوديين ، وكانت أخبار الأحداث في سورية والأردن تصل الحسين وابنه عبدالله دراكا ، واشتد الغليان في الشام الذي قسمه الاستعمار البريطاني

والفرنسي إلى أربعة أقطار هي : سورية ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين ، وبخاصة بعد سفر فيصل الى أوربا لحضور مؤتمر السلم ممثلا للعرب .

ورأى عبدالله أن يسافر إلى الأردن ليقود حركة الأحرار ضدالاستعمار ، فاستأذن والده الحسين فأذن له ، وأعطاه بضعة آلاف من الجنيهات الذهبية وجعل تحت إمرته حوالي ثلاثمئة جندي ، وغادر عبدالله مكة المكرمة إلى المدينة المنورة حرسهما الله حيث استقله القطار مع جنده الى معان فوصلها في ١١ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ هـ (٢١ نوفمبر ١٩٢٠) وكانت معان جزءا من الحجاز وتابعة له . وجعلها قاعدة له ومنطلقا .

وما كاد السوريون واللبنانيون والاردنيون والفلسطينيون يسمعون بمجيئه الى عمان حتى هرع اليه زعماؤهم ، وأحيط الأمير العظيم بالتكريم ، ورأوا فيه رمز أمانيهم ، وعرّفهم عبدالله أنه قدم إلى هذه الديار ليقود المعركة نيابة عن عن أخيه فيصل .

وازدحمت معان بالوافدين ، وأصبح لدى عبدالله جيش من البدو والقبائل ، وجيش نظامي صغير الحجم ولكنه يتفجر بالحماسة والاخلاص ، وكلهم ينتظر الساعة التى تبدأ فيها المعركة مع الاستعماريين الفرنسيين الانجليز .

وبعد وصول الأمير عبدالله إلى معان وازدحامها بالوافدين أصدر منشورا وألهب شعور الحماسة والوطنية في جماهير الشعب السوري وفي لبنان والاردن وفلسطين ، فقد قال لهم عبدالله بأسلوبه الرصين المؤثر : إنه جاء اليهم بعدما توالت عليه الدعوات وأصمت آذانه الصرخات ، وأنه جاء ليشارك السوريين قتال المعتدين الفرنسيين ، وأنه سيعمل معهم لتحرير سورية من يد الاستعمار الفرنسي وإنقاذها منه وطرده منها .

وقد اجتمع لدى الأمير عبدالله زعماء سوريون وفلسطينيون وأردنيون ولبنانيون كما اجتمعت لديه القبائل مع رؤسائها ، وكلهم مستعدون لقتال الفرنسيين .

وراز الأمير قوته العسكرية والمالية فلم يجد ما معه يقوم بحاجته أو بعضها ، فمقاتلة الفرنسيين تحتاج الى استعداد ، وما معه من الرجال لا يكفى ، وأكثر من معه من الحجازيين الذين قدموا معه ، وهؤلاء لن يكلفوا عبدالله شيئا ، فهم جاءوا معه احتسابا ، وصاروا حرسه الخاص ، ولكنهم سيخوضون المعركة ضد الفرنسيين ولو لم يكن معهم أحد ، وهؤلاء وغيرهم في حاجة إلى السلاح والتموين ، وليس مع عبدالله ما يكفى من المال ، فكل ما معه قليل بالنسبة لحاجة الجيش ، فقد أعطاه أبوه حوالى سبعة آلاف جنيه ، وأحضر عبد الله معه كل ما كان يملكه بالحجاز ، واقترض من بعض أصدقائه المكيين مواطنيه ، كما اقترض من بعض شيوخ القبائل مثل عودة أبي تايه ، وليس له مورد ، وعبدالله كريم سخي متلاف .

ومع هذا النقص صمم العزم على مناوأة فرنسا وانجلترا ، وقام عبدالله بنشاط كبير واسع ، فقد كتب رسائل الى حوران وغيرها يحضهم على الثورة على فرنسا ، ووصلت رسائل من رسائله الى يد السلطات الفرنسية الحاكمة في سورية فأقلقهم مجيء عبدالله الى شرقي الأردن كما أقلق الانجليز أيضا ، وخشي الفرنسيون في سورية والانجليز في فلسطين من حدوث فتن وقلاقل ليسوا مستعدين لها ، وإذا أرادوا مجابهتها فالفرنسيون في حاجة الى عشرين الف مقاتل ، وكذلك الانجليز ، وكل ذلك يحملهم نفقات يعسر عليهم احتمالها ، ويكبدهم خسائر في الأرواح ، فلجأ الفرنسيون الى الانجليز ، وارتبكت سلطات فرنسا وبريطانيا في سورية وفلسطين من وصول عبدالله الى معان ، وازداد قلقها .

ولنعرف مدى مخاوف هذه السلطات نذكر أن وصول الأمير عبدالله الى معان كان يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٠ ، وفي يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٢٠ بعث هربرت صموئيل برقية الى اللورد كرزون يخبره بوصول الأمير عبدالله إلى معان ، وفي اليوم الثانى أرسل كرزون برقية يقول له فيها : « إن رسائل بالنيابة عن عبدالله أرسلت الى حوران تدعو الأهلين الى الثورة ضد الفرنسيين ، وقد صدرت التعليمات لضباطي بأن يثنوا الناس فى شرق الاردن عن الانضمام لأي حركة من هذا النوع ، ولكن ، بما أننا لا نملك قوات عسكرية في المنطقة فاننا لا نستطيع القيام بعمل مؤثر ».

وأخبر كرزون فيصلا بما جاء في برقية صموئيل ، وطلب إليه أن يبرق إلى أبيه لوقف الحركة التي يقوم بها عبدالله ، وفي يوم ٤ ديسمبر ١٩٢٠ (١٣٣٩هـ) استقبل الملك جورج فيصلا وطلب اليه أن يطلب الى أبيه أن يقف كل حركة عدائية لفرنسا في جنوب سورية ، وأبرق فيصل برقيتين بتاريخ ٥ ديسمبر و١٣ ديسمبر ١٩٢٠ يطمئن فيهما أباه بأن « الوضعية حسنة جداً » ويبلغه أن يصدر أمره بوقف الحركات المعادية لفرنسا ، ويذكر له فيهما أن ذلك « مهم جدا بالنسبة للمفاوضات التي يمكن أن أجريها مع الحكومة البريطانية » .

وفي هذه الأثناء صدر بيان بريطاني وزع في شرق الأردن فحواه : أن الحكومة البريطانية ستعارض بشدة أى حركة يقوم بها الجيش العربي ضد الافرنسيين .

وهربرت صموئيل عدو العرب أراد أن يزيد في سخط الحكومة البريطانية فأسرع بابلاغ كرزون أن وراء حركة الجيش العربي خططا وتعليمات من البلشفيك .

وأسرف هربرت صموئيل في تحريض كرزون على الأمير عبدالله بن الحسين

وعلى اتخاذ إجراء مشدد ضده وبخاصة بعد أن وصل الشريف علي بن الحسين الحارثي ومعه بعض الجيش الهاشمي المكون أفراده من الحجازيين إلى عمان كطليعة لجيش الأمير عبدالله ، ويحذر صموئيل في كتابه لكرزون من وخامة العواقب إذا أعلن عبدالله حكومة هاشمية ، فرد عليه كرزون أن الملك حسينا سيؤكد على ابنه بعدم القيام بأي حركة ضد الحلفاء .

وأنيط حل القضية العربية في سورية وشرق الأردن والعراق بوزيـــر المستعمرات البريطانية ونستون تشرشل الذي قدم إلى الاسكندرية يوم ٩ مارس (آذار) ١٩٢١ (١٣٤١ هـ) ومعه وفد من الساسة البريطانيين والخبراء بالجزيرة العربية ، ومنذ وصول تشرشل الى القاهرة وهو يجرى المباحثات في القضية العربية المعقدة .

وبينا الأمر كذلك اتخذت الترتيبات من قبل هيئات كثيرة لدخول الأمير عبدالله شرقي الأردن ، وعلم صموئيل بذلك ، كما رأى نشاط الشريف علي الحارثي في عمان والسلط على نطاق واسع أثمر وحدة الصف العربي واجتماع كلمة الزعماء الاردنيين وغيرهم على تأييد الأمير عبدالله والوقوف معه ، وأقلقه كل ذلك فأبرق الى وزارة المستعمرات يشرح لها ذلك ، ويبدى لها مخاوفه من قدوم عبدالله إلى معان ، ذلك القدوم الذي مهد له الشريف علي الحارثي بقدومه الى عمان ، ويطلب منع قدوم عبدالله الى عمان .

ولكن وزارة المستعمرات لم تكن على رأي صموئيل الضالع مع الصهيونية ، وردت عليه بأنها لا ترى ما يراه ، وتطلب إليه أن ينتدب حاكم القدس رونالد ستورس ليكون في استقبال الأمير عبدالله نيابة عن حكومة فلسطين .

واستجاب الأمير عبدالله لطلب زعماء الأردن وسكانه فقدم إلى عمان في يوم ٢ مارس (آذار) ١٩٢١ (١٣٤١ هـ)

وكان صموئيل قد تلقى قبل وصول الأمير عبدالله بن الحسين الى عمان بثلاثة أيام أمراً من وزارة الخارجية البريطانية مضمونه أن يبلغ الأمير بأن تشرشل يرغب في مقابلته بالقدس، ويوم وصول الأمير عبدالله الى عمان بعث إليه صموئيل رسالة منه بهذا المضمون .

ووصل تشرشل إلى القدس ، ودعا عبدالله للاجتماع به ، فحضر ، وعقدت ثلاثة اجتماعات حضرها من الجانب البريطاني : تشرشل ،ولورنس وعقدت ثلاث اجتماعات حضرها من الجانب البريطاني : تشرشل، ولورنس وهربرت صموئيل وغيرهم ، ومن الجانب العربي الأمير عبدالله وعونى عبد الهادى أحد رجاله المقربين إليه ، وكانت هذه الاجتماعات الثلاثة قد عقدت فيما بين ٢٨ و٢٩ مارس (آذار) ١٩٢١ (رجب ١٣٤٠ هـ) .

وتطور البحث بين الأمير عبدالله وتشرشل وصموئيل وغيرهما من أعضاء الجانب البريطاني — ما عدا لورنس الذي كان مع عبدالله والأشراف دائما — الى الجدل في موضوع فلسطين .

ولما أصر تشرشل على وجوب تَولِّي بريطانيا ادارة فلسطين بصورة مباشرة لتستطيع تنفيذ صك انتدابها رد عليه الأمير عبدالله في حذق ومنطق وبراعة في أسلوب الاستفهام الإنكاري قائلا : أتريد بريطانيا أن تنشىء مملكة يهودية إلى الغرب من نهر الأردن وتطرد السكان العرب منها .

ثم وجه القول إلى تشرشل : إن قرارات الحلفاء التى تشير إليها ليست فوق مستوى التحدي ! ويبدو أن الحلفاء يعتقدون أن الناس يمكن أن يقلعوا ثم يعاد غرسهم كالأشجار ! .

ولكن الانجليز كانوا مصممين على أن تكون فلسطين تحت إدارة بريطانيا ليتسنى لها تنفيذ وعد بلفور ، وتهيئة فلسطين لتكون على المدى

مملكة يهودية ، ولهذا لم تكن على استعداد لاعتناق الحق واجرائه ، فأخفق عبدالله كما أخفق العرب جميعاً .

وما كان الانجليز ليقبلوا بأن يكون فيصل على العراق وعبدالله على الأردن إلا بعد أن رأوا ثورة العراقيين واستعداد الأردن للثورة وبعد المقاومة العنيفة التي أبداها العرب في العراق والأردن ضد الادارة البريطانية المباشرة .

وإذا كان البريطانيون قد رضوا مكرهين على ذلك فان عبدالله وأخاه فيصلا وأباه الحسين لم يرضوا بما قسم لهم إلا على أساس أن ذلك بداية تحقيق الأماني العربية ستتبعها في المستقبل خطوات تحقيق ما بقي منها .

وإذا كان فيصل قد جاء إلى العراق ملكا بطلب أهله برغم مقاومة فرنسا فإن الأمير عبدالله قد أصبح حاكم شرقي الأردن قبل رضا بريطانيا وبرغم محاربة هربرت صموئيل ، لأن الشعب الأردني هو الذى تشبث برغبته في أن يكون عبدالله حاكمه الشرعي فكان ، ولولا أن وجوده حاكما يبرد الغليان الذي يعيشه العرب في الاردن لما رضيت به .

وبعد صراع رهيب امتد سنوات بعد الحرب نشأ عرشان هاشميان أضيفا إلى عرش الحجاز .

ولم يكن الحسين ملك الحجاز راضيا عن الأحداث التى أدت إلى نشوء عرشين يجلس عليهما ابناه فيصل وعبدالله إلا رضا المضطر ، فهو كان طامعا في أن يكون ملك البلاد العربية كما نادى بذلك لنفسه ، وكان يحلم بأن يكون حكام العرب الآخرون تحت نفوذه وسيطرته ، ولكن الانجليز غدروا به ونكثوا عهودهم معه أبشع نكث عرفه تاريخ العهود والمواثيق .

وتغير الحسين — رحمه الله — بعد هذه الفجائع في أمانيه وآماله ،

وأثر ذلك في أعصابه وحكمته واتزانه ومرونته السياسية ودهائه ، فلم يعد ذلك الحكيم المتأنى الذي يحذر من العواقب ويحتاط للمستقبل ، ولا يخطو إلا على أرض ثابتة .

تغير كل ذلك ، فسارت سياسته مع ابن سعود الذى كان من أمنياته الفوز برضا الحسين ورضا أبنائه سياسة معادية .

وبينا تجرى الأحداث التي كانت تمهد لمجيء فيصل الى عرش العراق وعبدالله إلى الأردن كان ابن سعود على شيء غير يسير من العلم بتلك الأحداث ، فلم يقطع على الهاشميين خط سيرهم ، ولم يعارض مجيء فيصل وعبدالله الى العراق والأردن ، ولم يؤثر عن ابن سعود أنه نبس ببنت شفة ، بل لاذ بالصمت ، وفوق ذلك لم يقم بأي نشاط مضاد لنشاط فيصل وعبدالله .

وهذا ولا شك موقف كريم من ابن سعود ، فهو لا ينسى ما يظهر له الشريف الحسين وما يخفي ، ومع هذا ساعد بصمته وعـدم معارضته على وجود عرشين هاشميين جديـدين ، ولكنـه لم يكن غافلا عن المتاعب التي ستنشأ من ظهورهما ، وإذا كان ابن سعود آثر الصمت وعدم المعارضة فإنه لم يكن راضيا عما حدث ، فقد صار خطر تهديده أكبر ، وإذا كان وجود عرش واحد وهو عرش الحسين بالحجاز مصدر خطر عليه فان وجود عرشين آخرين سيزيد من هذا الخطر ، لأنه وقع بين فكي « كماشة » لن ينجو منهما إلا بتضحيات هو في حاجة إليها .

ولا شك أن وجود سياستين بريطانيتين في الجزيرة العربية قد أدى إلى المزيد من الخلاف بين ابن سعود والهاشميين ، فنجد والخليج والامارات والعراق وعدن وعسير تقع تحت نفوذ حكومة الهند السياسي ، ويقع الحجاز ومصر تحت النفوذ السياسي للمندوب السامي البريطاني في مصر .

وكان كل جانب من الجانبين البريطانيين يؤيد من كان تحت منطقة نفوذه ، فحكومة الهند تؤيد ابن سعود وتحارب الحسين ، ودار الاعتماد البريطاني في مصر تؤيد الحسين ، ولكنها لا تحارب ابن سعود .

يضاف إلى ذلك الفارق بين شخصية ابن سعود وشخصية الحسين ، فابن سعود يتخذ لأهدافه ومراميه أسلوب الحكمة وبعد النظر والسياسة البارعة ، والحسين على نقيض ذلك بعد انتصاره على الترك .

وقيام العرشين الجديدين الهاشميين تجسيم وتضخيم لخطر الهاشمية على السعودية ، ولهذا — عندما أبلغه السير برسي كوكس المندوب السامي في العراق باعتلاء فيصل عرش العراق ، وأنه يرجو أن ينزل ذلك من نفسه منزل القبول والرضا — رد عليه بأنه مسرور بما يريده العراق لفيصل ، ولكنه يرجو ألا يكون في ذلك اجحاف بنجد وخطر على مصالحها .

وزادت تبعات ابن سعود ، فهو مطلوب منه أن يوزع يقظته على ثلاث جهات ، ويجوز أن يحارب في ثلاث جبهات : العراق ، وشرق الاردن ، والحجاز ، وهناك جبهات غير هذه في الداخل والخارج تقتضيه اليقظة البالغة والاستعداد الذى هو فوق طاقته .

وطبيعي أن الملك فيصلا كان يحقد على ابن سعود ، ولا ينسى ما أصاب جيش والده الحسين الذي كان أخوه عبدالله يقوده من هزيمة منكرة في تربة على أيدى الجيش السعودي ، فكان وجوده في العراق فرصة للثأر والانتقام من ابن سعود إذا استطاع اليهما سبيلا .

وقبائل العراق الضاربة على الحدود فيما بين نجد والعراق كانت تعلم ما بين ابن سعود والهاشميين من عداء مستحكم ، وكانت الدعاية تملأ العراق ضد ابن سعود ، وتذكر أن مذهبه الديني المعروف بالوهابية مذهب خارج

على الاسلام ، وأعيد بعث الماضي بصورة منفرة ، فنشر على نطاق واسع كل السعة أن الوهابيين هاجموا كربلاء والنجف ، ونهبوا ما بهما ، كما قتلوا الأبرياء من أطفال ونساء وشيوخ ، وقامت الشيعة في العراق بحملة دعائية واسعة ضد السعوديين والوهابيين عامة وعبد العزيز بن سعود خاصة .

وكان الملك فيصل راضياً عن هذه الدعاية ، وسرته تعبئة الشعور العام في العراق ضد ابن سعود ، وكان يود أن ينتقم منه ويثأر لأبيه وأخيه لو استطاع .

يقول توفيق السويدي في كتابه « مذكراتي » المطبوع سنة ١٩٦٩ بيروت الطبعة الأولى ، صفحة ١١٣ — ١١٤ :

« كان الشعور العام في العراق بسبب وجود الملك فيصل كملك فيه من جهة ، ومن جهة أخرى الدعاية التي نشرت هنا وهناك ضد الوهابيين يظهر بصورة مناهضة شديدة لابن السعود ، فأصبحت العشائر العراقية مهددة بقوات العشائر السعودية ، وقد تفاقمت الحالة الى درجة بات معها الاصطدام ووقوع الحرب بين البلدين ممكنا ، وقد مرت أزمة شديدة في الداخل ، متأثرة بهذه الحالة الطارئة ، فان الملك فيصل كان متأثراً بما أصاب والده وأخاه من الخلاف مع ابن السعود وضياع ملكهما ، وكان متحفزا لإنجادهما بكل وسيلة بواسطة العراق ، لكن الحكومة العراقية وهي في بدء تأسيسها وبالنظر لوجود الجيش البريطاني فيها لم تكن قادرة على أن تحصل على قوة مسلحة منظمة تحقق الغرض ، كما أن الحكومة البريطانية لم تكن لتسمح بوقوع هذا الاصطدام بين العراق وابن السعود .

« ومن يدرى ؟ ربما كانت — وهذا الأرجح — مرتاحة إلى أن يتسلم قيادة الجزيرة ابن سعود الذي أثبت أنه كفء أكثر من غيره لتأمين الأمن وفي بلاد تتحكم فيها البداوة أكثر من الحضارة .

وقــد أبدت بريطانيا رأيها في الموقف بأنها لا تسمح بوقوع أمر كهذا ، واتصلت بدورها بابن السعود موصية إياه بطول البال وعدم الاستفزاز للعراق ، لكن الأمر مع الملك فيصل كان متفاقماً إلى حد أنه كاد أن يعلن الحرب على ابن السعود ، بينما الوزارة التي كانت قائمة يومئذ لم تكن تشاركه في هذه السياسة لاعتقادها أن أمرا كهذا قد يؤدي إلى ضعضعة العراق وهو في بدء قيامه كدولة تحتاج الى التنظيم أكثر من القتال ، وبتضييق الانجليز وتوسطاتهم المتكررة لدى ابن السعود حصل الاتفاق على أن تعرض المشاكل ما بينهم وبين العراق في مؤتمر يجتمع فيه ممثلوه وممثلو العراق وممثل انجلترا » .

وبعد تولى فيصل عرش العراق بدأت المناوشات بين حدوده وحدود ابن سعود ، فكانت قبائل كل منهما تغير على قبائل الآخر ، ولم تكن القبائل السعودية في غاراتها على حدود العراق وقبائله تقصد بها الرد على فيصل وحده ، بل كانت تقصد إلى جانب ذلك الرد على بريطانيا التي لم تأخذ في حسابها مصالح نجد .

وكانت غارات « الاخوان » السعوديين غاية في العنف ولو كانت الغارة صغيرة ، وطابع هؤلاء الاخوان الشدة والقسوة ، وأية ضربة منهم كانت موجعة ، وتعددت غاراتهم على القبائل العراقية وحدود العراق ، ولم يكن رد هذه القبائل في عنف هجمات الإخوان .

وفي ليلة ١٢ مارس (آذار) ١٩٢٢ (٢٣ رجب ١٣٤١ هـ) وقعت غارة بلغت من القسوة والعنف المدى البعيد ، فقد شن الاخوان غارة على القبائل العراقية ذهب ضحيتها كثير من أفرادها ، وغنم السعوديون كثيراً من مواشيهم وأموالهم ، واضطروهم إلى الفرار ، وكانت الواقعة في مكان يسمى « أبو دغار » ولم يكن قد مضى على تولى فيصل عرش العراق غير سبعة أشهر .

وأدت هذه الحادثة إلى سخط العراق ، ولم يكن الانجليز راضين عنها ، وان مثل هذه الغارات قد تخرج عن نطاقها القبلي الى صدام مسلح بين الحكومة العراقية والحكومة السعودية ، وقد تشتعل الجزيرة بحرب يشترك فيها أكثر أقطارها ، ويدخل فيها حتماً الحجاز وشرقي الأردن مع العراق ، كما تدخلها نجد ، ومن الجائز أن تدخلها أقطار أخرى ، وليس ذلك في مصلحة أحد من هذه الأطراف وبخاصة الانجليز الذين يريدون سيادة الاستقرار في المنطقة العربية لضمان مصالحهم التى يهددها الخلاف المسلح .

وهذا ما دفع المندوب السامى البريطاني السير برسي كوكس إلى أن يبعث في يوم ١٦ مارس (آذار) ١٩٢٢ (١٣٤١ ﻫ) بمذكرة الى ابن سعود سلمت الى وكيله بالبحرين ، وهذا نصها :

« دعتني الأحوال منذ أكثر من سنة إلى أن أحتج لدى عظمتكم بخصوص الحركات العدائية التي بدرت من فيصل الدويش أحد أنصاركم وقوات الاخوان الملتفة حوله والتى كانت تهدد الزبير يومئذ ، ولم يرتد عنها إلا بعد التهديد بضربه بالقنابل ، وقد تكرر هذا العمل منذ بضعة أسابيع على حدود العراق الجنوبية التي أصبحت في اضطراب وقلق مستمرين من جراء تهديدات الاخوان بالقيام بغزوات ضد عشائر العراق ، وأبرقت لعظمتكم يوم ٧ مارس الجارى عن طريق البحرين ، حاثاً إياكم على وضع حد لأعماله الضارة التى لا أتصور أنها نائلة رضاكم ، نظراً الى المفاوضات التى كانت جارية بيننا .

« والآن أخبركم أن قوة كبيرة من الاخوان عددها بين الالفين والثلاثة آلاف هجمت بقيادة فيصل الدويش وضيدان بن هذلان [1] وسلمان المنديل وخلف الجايد وغيرهم على بعض رجال القبائل العراقية وهم يرعون المواشي حول « ابي دغار » وبعد أن قتلوا عدداً كبيراً من الرجال وسلبوا كميات من

---

(١) هو ضيدان بن حثلين وليس ابن هذلان .

الجمال والماشية تقدموا الى الشقراء وهاجموا قوة شرطة الهجانة العراقية التي كانت مجتمعة هنالك ، وحدث هذا كله من غير سبب موجب أو مهيج كما يظهر .

« وعندما تلقيت هذه الاخبار أرسلت بعض الطائرات للاستكشاف ومواصلتي بأخبار حركات الاخوان ، وزودتها بأوامر صريحة بألا تقوم بهجوم بدون مراجعتي في الأمر مراجعة أخرى إلا اذا بادرها الاخوان بالهجوم بلا سبب موجب .

« واكتشفت هذه الطائرات مواقع الاخوان يوم ١٤ منه ، وكانوا على مقربة من بحيرة « أبولية » فاستقبلها الاخوان بنار حامية من بنادقهم ، فلم يبق للطائرات من سبيل سوى الاجابة بالمثل ومعاقبتهم ، وقد قامت بذلك فعلاً .

« والآن ، رغم ما بلغني هو أن عظمتكم كنتم ترسلون الذخائر الى « الحفر » لأجل قوات ابن الدويش فاني لا أقدر أن اعتقد اعتماداً على المراسلات الودية المستمرة بيننا بأن تجاوز ابن الدويش على أراضي العراق حصل بمعرفتكم أو موافقتكم .

« وإني أحثكم على إبلاغي في الحال أن هنالك ما يبرر اعتقادي هذا ، وانكم ستعاقبونهم على ما قاموا به من العمل المنكر ، وتردون المواشي المنهوبة من الزياد وغيرهم من عشائر العراق وتعوضونها عمن قتل من الرجال .

وعلى كل حال فاني أخشى أن هذه الحادثة تدل على أن زمام فيصل الدويش وأتباعه ليس مقبوضاً عليه من قبلكم بصورة فعالة ، كما أخشى أن يكون لها وقع سيء لدى حكومة صاحب الجلالة البريطانية » .

وأجابه ابن سعود على برقيته في يوم ٢٩ مارس (آذار) ١٩٢٢ (١٣٤١ هـ) عن طريق المعتمد البريطاني في البحرين بالبرقية الآتية :

« وصلتني برقيتكم بخصوص فيصل الدويش ، يظهر أن المسألة كما هي تقولون ، ولم يكن لى سابق علم بشيء قبل ورود برقيتكم ، وأكاد أشك بصحة الخبر ، كنت قبل قيامهم أرسلت لهم خبراً في « اكليخ » لكي يرجعوا ، فارتدوا الى مقربة من الحفر ، وكان ذلك آخر ما سمعت من أخبارهم ، ان وقع الخبر أشد تأثيراً عليّ منه عليكم .

« اني متكدر ولم أكن أتوقعه ، لا يمكنني التصور أن الاخوان هجموا بلا سبب ، إلا أنه لا يمكن الاجابة قبل الحصول على التفاصيل ، مع ذلك فاني متأسف للغاية .

« أشكركم لأنكم لم تدعوا سبيلاً في نفسكم للشك في حسن نيـة صديقكم . ليس من المحتمل أن يكون زمام أمورهم قد أفلت مـن يدي .

« وأرجوكم ألا تتصوروا امكان حدوث شيء من قبل هذه المسألة التي نتجت عن شيء من سوء التفاهم الذي كثيراً ما يحصل بين البدو .

وتأكدوا انى لن أتأخر عن معاقبة كل من تقع عليه تبعة في هذا الامر ، وعن بذل الجهد لمنع وقوع تعديات أخرى » .

واتصل ابن سعود بفيصل الدويش والاخوان ، وأمرهم بوقف كل عمل عدائي على الحدود العراقية ، وأنذرهم ، فأطاعوا ، ولم يقع ما يثير ، وعلم برسي كوكس بالهدوء الذي أعقب جواب ابن سعود له ، ورأى أن يتلافى ما سيقع من الحوادث على الحدود بين نجد والعراق في المستقبل ،

وأراد أن يقضي على كل خلاف بين القطرين ، وذلك بتسوية سلمية لا تدع مجالا لحدوث فتن تسيء الى الدولتين فيما ينشأ بينهما من علاقات طيبة ، فكتب بذلك لابن سعود يستطلعه رأيه ، وابن سعود راغب كل الرغبة في حسن الجوار والعلاقات الحسنة مع الجيران الاشقاء ، ولهـذا وافق .

ورأى برسى كوكس أن يعقد المؤتمر في أرض غير عراقية وغير نجدية ، واختار لعقده أرضا محايدة ، واقترح أن يعقد المؤتمر في « المحمرة » وهي ميناء إيراني ، ووافق ابن سعود ، ثم تلقى برقية من برسي كوكس (المندوب السامي البريطاني) مصدرها بغداد في اليوم الثالث من إبريل (نيسان) ١٩٢٢ (١٣٤١ هـ) هذا نصها :

« نظرا للظروف الحاضرة فقد خُوِّلت من قبل حكومة بريطانيا وحكومة العراق بأن أبلغكم بأنه لما كان من المنتظر عقد معاهدة تحدد الحدود الفاصلة بين العراق ونجد ، والتي ستعين بعد مفاوضة ممثلين من الطرفين في هذا الموضوع وجد أنه من الضروري لحفظ السلام اتخاذ حدود مؤقتة من غير مساس بالمفاوضات العتيدة ، وعليه يجب اخبار قبائل الطرفين بذلك وافهامهم موقفهم .

« إني أبين أن الخط الفاصل الذى يحترمه الفريقان يبتدىء من « خرجة » الواقعة على « البطن » وعلى مسافة ٤٠ ميلاً شرقي شمالي « الحفر » ومن هناك يسير غرباً تاركاً الحفر لكم ، و« الدليمية » و « الوقبة » للعراق ، ومن هنالك يسير الى الشمال الغربي الى جهة « جال البطن » تاركاً « الرخمة » و « زبلة » لكم ، و « الحجية » للعراق ، والحدود حينئذ تتصل من هناك بجال البطن في نقطة واقعة جنوبي « جبل المضمان » مباشرة ، ومن هناك يسير غرباً بين « لفيه » و « لوكان » ، ثم خلال السير

في جنوبي « لفيه » ويمر في « فيجان البويطه » و « ختام الرعن » و « قريط الضمران » حتى « مغير » ومن هناك يسير على خط مستقيم الى جهـة سكاكه .

« أما بخصوص آبار هذال فمن المعروف لديكم أنها كانت عائدة سابقاً الى « العمارات » الذين حفروا البئر في لوكا ، ولكن بما أنه اعترف في السنين الأخيرة بأن الآبار تخص شمر فقد تركت لكم .

« هذه هي الحدود التي طلبت الى الحكومتين قبولها بصورة موقتة ، وفي الختام اطلب اليكم باحترام :

« ١ — أن تستدعي فيصل الدويش وابن معمر وابن فهيد إليكم ، وأن تبقوهم عندكم في الوقت الحاضر .

« ٢ — أن تستدعوا الى الجهة التي بجانبكم من الخط جميع أتباعكم والقبائل التي هي الآن في هذا الجانب من الخط .

« ٣ — توصوا رعاياكم بأنهم اذا اجتازوا هذه الحدود الموقتة قبل أن تنتهي المفاوضات بشأنها تلقي تبعة ذلك على عاتقهم .

ولقد طلبت في الوقت نفسه الى الحكومة العراقية أن تنبه شيوخها في هذا المعنى لكي يسود السلام ويتوطد الأمن » .

وتلقى برقية أخرى من برسي كوكس تذكر له أن الاخوان هاجموا موضعا قرب السماوة .

فأجابه ابن سعود على كلتا البرقيتين عن طريق المعتمد البريطاني في البحرين مكررا أسفه لما قام به الأخوان بقيادة فيصل الدويش في الحادثة

الأولى التي أثارت سخط المندوب السامي البريطاني ببغداد ، ثم جاء في برقية ابن سعود الجوابية ما نصه :

« وأما بشأن الحادثة الثانية التي أشرتم إليها والتي وقعت قرب السماوة فهي ليست من وقائع الاخوان ، وانما هي من غزوات البدو » .

وذكر ابن سعود في برقيته أنه أصدر أوامره الشديدة للاخوان بمنع حدوث أي عدوان ، وأكد رغبته في السلم مع عبارات ودية .

وأما عن الحدود فقد جاء في برقيته ما نصه :

« وأما بالنظر الى مسألة الحدود المقترحة فإني وإن كنت لا أرغب في مخالفة الحكومة البريطانية الا أنني أشعر بأن مطالب حكومة العراق لم تنصفني ، فأرجو أن تقدروا والحكومة العراقية ضرورة تجنب أي عمل من شأنه أن يحدث أشياء في الظروف الخطيرة ، وأطلب تأجيل تشييد المخافر على الحدود حتى يتم الاتفاق بهذا الشأن » .

واتُّفق على موعد المؤتمر ، وحضره عن ابن سعود مندوبه أحمد بن ثنيان ، وعن الملك فيصل مندوبه صبيح نشأت ، وعن الحكومة البريطانية المستر بورديلا السكرتير الخاص للمندوب السامي البريطاني في العراق ، وعقدوا أول اجتماع لهم في يوم ٥ رمضان المبارك ١٣٤٠ (٣ مايو (أيار) ١٩٢٢) وكان بصحبة المندوب السعودي مذكرة توضح حق نجد ، وتضمنت ثلاث بنود وهي :

الأول — انقسمت دولة آل سعود عند ما انهارت الى قسمين : قسم بيد الترك ، وآخر بيد ابن الرشيد ، وأحيا السلطان عبد العزيز الدولة ، واستعاد ملك آبائه وأجداده ، فاستولى على نجد وأخذ القصيم من يد ابن

الرشيد وهزم الترك وطردهم من الأحساء والقطيف ، ولا يزال يطالب بما تبقى من أملاك أجداده شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوبا .

الثاني — ان عشيرة الظفير التي تقطن اليوم الشامية بالعراق كانت في الماضي من رعايا آل سعود . والعمارات والرولا فخذان من أفخاذ عشيرة عنزة ، وكانوا يسكنون نجداً ، وخصوصاً القصيم ، ومشايخهم بنو هذال وبنو شعلان هم أبناء عم السعوديين ومن رعاياهم .

الثالث — احترم الانكليز عند احتلالهم العراق حدوده السابقة، وكانت الدولة العثمانية تحترمها كالحدود الشرقية مع ايران ، والحدود الجنوبية مع الكويت ، واعترفوا أيضاً بالحالات الموجودة والقواعد المرعية ، طبقاً لما كان الترك يعلمونه ، فاعترفوا بحكام العرب المجاورين للعراق وفي مقدمتهم آل الرشيد ، وحيث إن سلطان نجد استولى على امارة آل الرشيد وأدخل في ملكه وحوزته جميع ما كان لتلك الإمارة من بدو وحضر فان من حقه أن يطالب باعادة من تسرب من أبناء تلك الامارة الى العراق ، وفي المقدمة العمارات والظفير » .

ويظهر أن كلا المندوبين لم يكن متشددا ، وكان راغبا في السلم والعلاقات الطيبة ، وانتهوا من مؤتمرهم في اليوم السابع من رمضان ١٣٤٠ ولم يستغرق منهم غير يومين ، وانتهوا إلى وضع اتفاقية هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

نظراً لوجوب تأمين الوداد ، وتأسيس حسن المناسبات بين حكومتي العراق ونجد ، نحن الواضعون الإمضاء تحت هذه القرارات المندوبين المعينين من قبل جلالة الملك فيصل الاول ملك العراق ، وعظمة سلطان نجد وتوابعها عبد العزيز بن السعود ، وفخامة المندوب السامي لحكومة بريطانيا في

العراق الميجر جنرال السر ب . ز . كوكس لوضع معاهدة ما بين الحكومة العراقية والحكومة النجدية ، اتفقنا على المواد الآتية :

المادة الاولى — (أ) إن العشائر التى هي تحت اسم عشائر المنتفق والظفير والعمارات فهم راجعون الى حكومة العراق ، وأما الحكومتان ونعني بهما العراق ونجد فتتعهدان مقابلا أن تمنعا تعديات عشائرهما على الطرف الآخر ، ويكون الطرفان مكلفين بتأديب عشائرهما ، وإذا الأحوال لا تساعدهما للتأديب فالحكومتان تتذاكران لاتخاذ تدابير مشتركة طبقاً لحسن المناسبات فيما بينهما .

(ب) — حسب الاعتراض الوارد من قبل حكومة نجد على الحدود التي طلبها المندوب عن حكومة العراق نقرر الاساس الآتى :

انه نظراً الى قرار (أ) بأن عشائر المنتفق والظفير والعمارات يرجعون الى العراق وشمر نجد الى نجد ، والآبار والأراضى التي كانت مستعملة من القديم من قبل عشائر العراق هي للعراق ، والآبار والأراضى التي هي مستعملة من القديم من قبل شمر نجد هي لنجد ، ولأجل تبيين هذه الآبار والاراضي وسن الحدود على هذا الاساس حصل الاتفاق بتشكيل لجنة مركبة من أهل الخبرة لكل حكومة شخصان ، تحت رئاسة أحدرجال الحكومة البريطانية المنتخب من قبل المندوب السامي ، وتجتمع اللجنة في بغداد لسن الحدود القطعية ، والطرفان يتقبلانها بدون اعتراض .

المادة الثانية — الحكومتان نعني بهما العراق ونجد ، تتعهدان بتأمين طريق الحج ومحافظة الحجاج الكرام من كل تعدٍّ ما داموا في داخل حدودها كما تعهدت حكومة سلطان نجد لحكومة بريطانيا في المادة الثالثة من معاهدتهما .

المادة الثالثة — (أ) اتفقت الحكومتان على أن تكون المبادلات التجارية سالمة من جميع التعرضات ، ويعامل تجار الطرفين كالتجار الاهلين .

(ب) تكون محصولات بلاد نجد الطبيعية والصناعية المستوردة الى العراق ، وكذلك محصولات العراق الطبيعية والصناعية المصدرة الى نجد تابعة لعين المعاملات التى تجرى على محصولات البلاد المتحابة وذلك فيما يخص رسوم الواردات والصادرات ، وكذلك فيما يخص رسوم الايرادات والصادرات ورسم المرور (ترانزيت) ورسم التصدير ثانيا وباقي معاملات الجمرك .

(ج) إن الدولتين لهما الحق في فرض رسوم اضافية على الجمرك وضرائب محلية ، وضرائب فرعية جديدة أخرى غير موجودة في الوقت الحاضر على شرط أن تكون على نسبة ما يفرض على صادرات البلاد المتحابة ، وكل حكومة تعطى معلومات الى الأخرى بالقوانين التي تسنها في هذا الخصوص .

المادة الرابعة — اتفقت الحكومتان بحرية التجول في ممالك الطرفين بقصد التجارة أو الزيارة بشرط أن يكونوا حاملين لوثائق الباسبورت (جواز) من قبل حكومتهم ، وكل حكومة لازم تعطي الأخرى معلومات عن القوانين التى تسنها بهذا الخصوص .

المادة الخامسة — كل عشيرة من عشائر أحد الطرفين إذا قطنوا في أراضي الطرف الآخر مجبورة أن تكون خاضعة للرسوم المرعية .

المادة السادسة — اذا حصل — لا سمح الله — جفاء بين إحدى الحكومتين وحكومة بريطانيا تكون هذه المعاهدة منفسخة .

وقعنا بتوقيعنا على هذه المعاهدة يوم الجمعة ٧ رمضان المبارك سنة

١٣٤٠ ، ٥ مايو سنة ١٩٢٢ ، والموفق هو الله .

لاحقة :

١ - ان هذه المعاهدة لا تكون معمولاً بها إلا بعد التصديق عليها من قبل ملك العراق ، وسلطان نجد ، والمندوب السامي البريطاني .

٢ - يتعهد مندوب نجد بأنه الى نتيجة قرار اللجنة التى ستعقد في بغداد لا يتجاوز أحد من عشائر نجد على عشائر العراق .

وعندما اطلع ابن سعود على هذه « الاتفاقية » أبى إقرارها لأسباب ، منها : ان ما بها إجحاف بحق نجد ، وأن مندوبه تجاوز حدّ ما أعطي من « صلاحيات » وأن مندوبه وقع قبل أن يطلعه على الاتفاقية وقبل استئذانه ، وأن الاتفاق لم ينص على إعادة العشائر النجدية النازحة الى العراق وهي : العمارات وبعض قبائل شمر .

واقترح ابن سعود عقد مؤتمر يحضره هو نفسه ، ويتباحث مع برسي كوكس بصفة كونه السلطة الوحيدة المختصة بتمثيل العراق في المفاوضات السياسية مع الدول الأخرى ، وذكر ابن سعود في اقتراحه حرصه على صداقة بريطانيا ، ووفاءه لها ، وبذله جهوده المثمرة إبان الحرب في مصلحتها ، وعتب على صديقه كوكس أن تجازيه حكومة بريطانيا على ذلك بإقامة دول لخصومه على حدوده .

وحدد يوم عقد المؤتمر وأن يكون مكانه في العقير ، وسبق ابن سعود إليه ينتظر المندوب السامي البريطاني الذى قدم العقير يوم ١٢ ربيع الأول ١٣٤١ (٢ ديسمبر ١٩٢٢) مصطحبا معه صبيح نشأت مندوب الحكومـــة

العراقية ، والميجر مود المعتمد البريطاني في البحرين ، وعبدالله المضايفي الممثل الشخصي للملك فيصل يحمل معه رسالة من جلالته إلى جلالة السلطان عبد العزيز بن سعود ، يعبر فيها عن أصدق مشاعر الود لأخيه عبد العزيز ، ويذكر رغبته في انشاء أحسن العلاقات وأوثق الصلات ، وفهد بن هذال زعيم قبيلة العمارات التي يطالب ابن سعود بعودتها من العراق إلى نجد موطنها الأصلي ، كما صحب المندوب السامي عديد من الموظفين والسكرتيرين .

واستقبل ابن سعود المندوب البريطاني استقبالا وديا رائعا ، وما كاد يرى فهد بن هذال مع الوفد حتى تقبض لمرآه ، وظن أن في حضوره أمراً قد لا يرضيه ، ولكنه تمالك نفسه ، وعقد المؤتمر بحضور المندوب وكل من معه ، وافتتحه ابن سعود بكلمة رحب فيها بهم جميعا ، ورجا أن ينتهي المؤتمر إلى خير ، ثم قال :

« يا حضرة المندوب

« لا ندرى ماذا تخفى من المقاصد ، ولكننا نرجو منها الخير ، وإن ما نعلمه علم اليقين أن العشائر – وخصوصاً عشائر العراق – لا ترتاح الى وجود حكومة قوية شديدة الساعد ، لأن الحكومة اذا كانت قوية تضربهم وتؤدبهم فيتأدبون ، أما اذا كانت ضعيفة فتسترضيهم كما هو الحال اليوم .

« العشائر يا حضرة المندوب لا يفهمون الا السيف ، وإلا فهم يركبون على ظهر الحكومة ويسوقونها والبلاد الى مهاوى الخراب ، أشهروا السيف يرتدعوا ويتأدبوا ، أغمدوا السيف ينهبوا ويقتلوا ويتقاضوا الخوة ». (١)

---

(١) الخوّة : (بفتح الخاء وتشديد الواو المفتوحة): الأتاوة .

وما كاد الحاضرون يسمعون خطبة ابن سعود القصيرة الموجزة هذه حتى اعتراهم الوجوم ، فقد كان في أسلوبها شيء من الخشونة ، ولكن ابن سعود استطاع أن يردهم الى حالتهم الطبيعية حتى ساد جو المؤتمر بعض المرح ، إذ قال ابن سعود لفهد بن هذال : أليس كذلك يا فهد ، ثم ابتسم ابن سعود وأردف : يا فهد ، [1] حنا نعرف بعضنا ، وضحك الجميع .

وانتهت الجلسة بعد بحث بعض المسائل ، ثم تعددت الجلسات ، وكان بعضها عاما وعلنيا يحضره كل أعضاء الجانبين ، وبعضها سريا وخاصا بين ابن سعود وكوكس ، وانتهى المؤتمر بتوقيع بروتوكولين ملحقين باتفاقية العقير التي كان ابن سعود قد رفضها ، وبالملحقين زالت أسباب الرفض ، وفيما يأتي نص الملحقين :

« ان هذا البرتوكول لتحديد الحدود بين الحكومتين العراقية والنجدية ، وهو ملحق بالاتفاق المعقود بتاريخ ٧ رمضان المبارك سنة ١٣٤٠ الموافق ٥ مايو سنة ١٩٢٢ .

المادة الاولى — (أ) الحدود من الشرق تبتدىء من نقطة التصاق وادي العوجة مع البطن ، ومن هذه المنطقة تبتدىء حدود المملكة النجدية على خط مستقيم الى البئر المسماة « الوقية » يترك الوقية والدليمية شمالي هذا الخط ، ومن الوقية شمالاً بغرب الى بئر الغاب .

(ب) — ابتداء من النقطة الآنف ذكرها ، أعني التصاق وادى العوجه

---

(١) حنـّا : نحن ، بعامية البدو .

مع البطن تمتد حدود العراق على خط مستقيم شمالاً بغرب الى الاصفر تاركاً اياها جنوبي هذا الخط ، ومن هناك يمتد الخط غرباً بجنوب على خط مستقيم الى أن يتصل بحدود نجد في بئر الغاب .

(ج) — الشكل المعين المرسوم بين النقاط المحدودة آنفاً والذى يحتوي على النقاط جميعاً يبقى على الحياد ومشتركا بين الحكومتين العراقية والنجدية اللتين تحوزان جميع الحقوق المتساوية والمقاصد داخل هذه المنطقة المحايدة .

(د) — من بئر الغاب تمتد الحدود بين الحكومتين شمالاً بغرب إلى بركة « الجمجمية » ومن هنالك تتجه شمالاً الى بئر العقبة ثم قصر تميمة ، ومن هناك تمتد الى الغرب على خط مستقيم يمر بين وسط جاك البطن الى بئر ليفية ثم بئر المناعية ، ومنه الى جديدة عرعر ، ومنه الى مكور ، ومن مكور الى جبل عنزان الواقع في جوار نقطة تقاطع دائرة العرض ٣٢ شرقي دائرة الطول ٣٩ شمالي حيث تتم الحدود العراقية — النجدية .

المادة الثانية — بما أن كثيراً من الآبار دخلت داخل الحدود العراقية وبقيت الجهة النجدية مجردة منها تتعهد الحكومة العراقية ألا تتعرض لعشائر المملكة النجدية القاطنة على أطراف الحدود اذا اقتضت الأحوال أن يردوا الآبار المجاورة لهم في الاراضي العراقية اذا كانت هذه الآبار هي أقرب الآبار الموجودة داخل الحدود النجدية .

المادة الثالثة — تتعهد الحكومتان كل من قبلها ألا تستخدم الماء والآبار الموجودة على أطراف الحدود لأي غرض حربي كوضع قلاع عليها، وألا تبقي الجنود في أطرافها .

المادة الرابعة — لقد اتفق مندوبو حكومتي الطرفين على ما تقرر في

مواد هذا البروتوكول ووقعوه في بندر العقير يوم ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٤١ الموافق ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢ والله الموفق.

ووقعوا أيضاً هذا الاتفاق :

أ ـ بما أن حكومتي العراق ونجد قد اتفقتا على تقرير الحدود بينهما ، فهما تتعهدان الواحدة إلى الأخرى ألا يتعرضا لأي فخذ أو عشيرة خارجة عن حدود الطرفين ، ولم تكن تابعة لحكومة إحداهما اذا أرادت الانحياز إلى احدى الحكومتين والدخول تحت سيادتها .

(ب) ـ بما أن الرسوم العينية النظامية عند الحكومتين معترف بها اعترافاً متبادلاً فجميع الأموال التي تصدر من بلاد الطرفين أو تدخل فيها أو تمر في أراضيها تابعة لتلك القوانين المرسومة ، فعليه الحكومتان تقرران أن تعملا معاً في جميع ما لديهم من الوسائط بأن يقطعوا عوائد العشائر بأخذ « الخاوة » .

ج ـ لقد اتفق مندوبو حكومتي الطرفين المفوضين على ما تقرر أعلاه ، في مواد هذا البروتوكول ويوقعون عليه أدناه في بندر العقير في يوم ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٤١ الموافق ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢ والله الموفق.

ومع كل هذه الاتفاقيات والبروتوكولات فان العلاقة بين نجد والعراق لم تتحسن ، وإذا بدا في بعض الأوقات أنها حسنة فذلك في الظاهر ، فحالة الهدوء ـ أحياناً ـ على الحدود لا تفسر بحسن العلاقة والجوار ، فالملك فيصل شديد السخط والحقد على ابن سعود ، ويظن أن ابن سعود يؤمن حدوده مع العراق ويوثقه بالمعاهدات حتى يأمن جانبه ، وبذلك تبقى

جبهة أبي فيصل لابن سعود حتى يتفرد بها ويضربها ثم يفترسها .

وعندما كانت جيوش ابن سعود تهدد الحجاز كان الإخوان يهددون حدود العراق ، ويقومون بحركات عدائية ضدها ، فرأى الانجليز أن يخطو خطوة حاسمة لإنهاء مشكلة الحدود بين العراق ونجد .

ومع أن للهاشميين عروشاً ثلاثة ، إلا أن قوة ابن سعود كانت أعظم من قوات تلك العروش ، ففيصل لا يستطيع أن يعلن الحرب على نجد ليخفف ضغط ابن سعود على العرش الهاشمي بالحجاز — الذي نزل عنه أبوه الحسين لأخيه علي بن الحسين — ورأى ابن سعود مسيطراً على الحجاز كله ما عدا جدة التي يتحصن بها الملك علي ، وليست له مملكة إلا هذه المدينة الصغيرة التي لم يمنع ابن سعود من اقتحامها واحتلالها إلا وجود السفارات والقنصليات الأجنبية ، وشرقي الأردن — وان كان أكثر حرية من الملك فيصل — لا يستطيع أن يجند قوات مسلحة من البدو تقف في وجه قوات ابن سعود .

ولقد سطع نجم ابن سعود في سماء الجزيرة ، وصار أكبر حاكم فيها تمتد مملكته من شرقها الى غربها ، وفي وسعها أن تهدد عرش العراق وعرش الاردن لولا وجود الانجليز وحمايتهم اياهما ، واقترحوا عقد مؤتمر من جديد بين ابن سعود والعراق ممثلا في السير جلبرت كلايتون مندوبا عن الحكومة البريطانية التي كانت تتولى سياسة العراق الخارجية ، ووافق ابن سعود على عقده ، وتم الاتفاق على أن يكون في قرية تسمى « بحرة » بين مكة المكرمة وجدة .

وهذا انتصار لابن سعود ، فهو يعقد المؤتمر المقترح في أرض كانت

للهاشميين وسقطت في يده ، وأُعلم أن كلايتون هو المسئول وحده عن العمل ، وسيرافقه خبير عراقي ملحق ببعثته ، ووقع الاختيار على توفيق السويدي ليمثل العراق دون أن يكون له حق العمل .

يقول توفيق السويدي في كتابه « مذكراتي » صفحة ١١٤ — ١٢٣ :
« لقد وجدت الحكومة البريطانية التى تشترك في المسئولية عن صيانة الأمن الخارجي في العراق من المناسب أن تنتهي هذه الخصومات وتوضع لها حدود معقولة ، ومن أهمها : منع الغزوات ، وتنظيم انتقال العشائر العراقية والنجدية ، وما يحصل من جراء ذلك من خصومات بينها بسبب المراعي وغير ذلك ، فشجعت العراق على بناء مخافر شرطة على طول الحدود العراقية السعودية ، فقامت قيامة ابن سعود واعتبر هذا العمل تهديدا له فهجمت بعض قواته على العمال المشتغلين في إنشاء تلك المخافر ، وضربت كذلك بعض الأبنية مما زاد في اشتعال الخلاف وتفاقمه ، ولتبرير الأمر رأت بريطانيا والعراق إرسال من يستطيع إفهام ابن سعود أن هذه المخافر ليست موجهة ضده ، بل هي ضوابط لأمن الصحراء ، فانتدبت الجنرال « سيركلبرت كلايتون » ليحاول إقناع ابن سعود بضرورة الموافقة على هذه المخافر ، وليزيل مخاوفه عن انشائها ، فسافر الجنرال كلايتون من لندن ، وطلب من الحكومة العراقية أن تنتدب ممثلا عنها ليكون متصلا بالجنرال كلايتون ، على أن تكون مسئولية العمل على الجنرال وحده ، أما من يرافقه فيكون خبيرا ومتصلا به لتقديم المعلومات اللازمة له عند الاقتضاء .

« وقد وقع الاختيار علي ، وانتدبتني الحكومة لأكون خبيرا ملحقاً ببعثة الجنرال كلايتون الى ابن السعود ، وسافرت في أيلول ١٩٢٥ بالطائرة ، وهي نفس الطائرة التى أقلتني قبل ثلاث سنوات من بغداد الى القاهرة ...

« وقد كان مقررا أن ألتقي بالجنرال كلايتون في القاهرة ، وهكذا صار ، ووجدت معه شابا اسمه جورج انطونيوس ، كان قد استصحبه سكرتيرا له ، وجورج انطونيوس أصله من اللاذقية ، وسكن أهله في فلسطين حيث ترعرع فيها ودرس ، وكانت دراسته عالية وممتازة ، وأكمل تحصيله العالي في اكسفورد ، ثم رجع الى فلسطين وتوظف في حكومـة فلسطين بمديرية المعارف حيث كان مفتشا فيها ، وبالنظر لما امتاز به من معرفة وثقافة عالية ولغة انجليزية قوية فقد قدره الجنرال كلايتون وكان يومئذ سكرتيرا عاما لحكومة فلسطين ، أي بمثابة رئيس حكومة لها ، ولما انسحب الجنرال متقاعدا وطلب إليه أن يذهب بمهمة إلى ابن السعود رأى أن يصطحب جورج لمعلوماته الواسعة وخبرته بالشؤون العربية ونباهته »

ويقول السويدي : « أتانا إلى الباخرة حاكم جدة محمد علي رضا ، وعند وصولنا الى الشاطىء ركبنا السيارة وذهبنا توا الى القنصلية البريطانية فيها ، حيث وجدنا فيها من وسائل الراحة ما يساعد على الإقامة مدة قصيرة ، وكان المقرر أن نذهب من جدة الى المحل الذى نجتمع فيه بابن السعود ، لأن مهمة الجنرال كلايتون كانت المفاوضة مع ابن السعود في مسألة مخافر الشرطة في الصحراء ، وكان ابن السعود بعد ما استولى على مكة قد تقدم إلى جدة ووقف على أبوابها ، لأن مقاومة الملك علي قد أوقفته موقتاً هناك .

« فكان يجب حينئذ أن نتخابر مع ابن سعود بواسطة القنصليةالبريطانية حتى نحدد موعدا للسفر والوصول الى المحل الذي يرتئيه ، ولما طـالت المخابرات واستغرقت أكثر من ثلاثة أيام اضطررت بناء على إلحاح الملك علي أن أنزل ضيفا عليه في دار خاصة ، وبقي كلايتون في القنصلية البريطانية .

« كانت حالة الملك علي حرجة للغاية ، فهو قد أضاع مدن الحجاز ولم يحتفظ إلا بجدة ، وكان يحتاج الى الانفاق وليس لديه ما يسد ذلك من المال ، فكان يضطر الى مراجعة والده الذى نفي إلى قبرص ليمده بما يحتاج إليه من ذلك ، وهذا أمر كان لا يتيسر دائما له أو لوالده ، حتى أنه اضطر أن يراجع الملك فيصل ليستعين بما يرسله إليه من أموال ، ولكن الاعتقاد السائد كان أنه لا بد للملك علي من أن يرحل عن جدة ويترك البلاد لابن السعود الذى كانت له قوة لا تقاس بها قوة الملك علي ، والظاهر أن ما أوقف الملك ابن السعود على أبواب جدة هـم الانجليز ليمكنوا الملك علي من أن يجد مخرجا لنفسه يحل به مشكلته .

« وبعد أن بقينا في جدة خمسة عشر يوماً تم في خلالها الترتيب كي نسافر من هناك الى محل « الخنادق » التي يستحكم فيها الجنود المدافعون عن جدة ، ثم الى الجبهة المقابلة حيث تستقبلنا سلطات ابن السعود العسكرية ، وهكذا فعلنا .

« وصلنا إلى مكان اسمه « أم القرون» وهو يقع على طريق جدة — مكة ، ولكنه ينحرف عن الطريق مسافة بحيث لا يراه من في الطريق بالنظر المجرد ، وهناك وجدنا خياما عديدة فيها كل ما يؤمن الراحة ، وكانوا قد أعدوا خياما للمنام وللاستراحة وللجلوس وللطعام سوداء من الشعر ، لكن خيامنا كانت من القماش الأبيض المتقن الصنع .

« وبعد أن استرحنا قليلا أخبروا الجنرال باستعداد ابن السعود لاستقباله، فذهب مع جورج انطونيوس ، ولم أطلع بالتفصيل على ما دار بينهما ،

وبعد ساعات أخبروني أن الإمام يرغب في مقابلتي وهو مستعد لاستقبالي فذهبت اليه ، وكانت أول مقابلة بيننا .

« كان احتفاء ابن السعود بي حارا وكبيرا ، وقد ذكر لي انه قد قضى شبابه في البصرة والكويت ، فهو يعرف العراق جيدا ، وأول من ذكره عائلة الألوسي ثم عائلة السويدي ، وقال بأنه لا يعرف والدي شخصياً بل أنه يكتفي من حين لآخر بالمكاتبة معه في بعض المناسبات ، وأعرب عن ارتياحه لرؤيتي باعتباري من عائلة السويدي .

« وكان من عادة ابن السعود أن يسترسل في الحديث استرسالا لا يدع للمخاطب أن يستوفي البحث معه ، ومع ذلك تمكنت من أن أبدي له نظرية العراق بخصوص المشاكل التي تحدث دائما بيننا والمنازعات بين عشائرنا ، والأضرار التي تحصل ، وأننا نريد اتفاقا معه يزيل جميع أسباب الجفاء ، وأضفت قائلا : إن هذه المهمة وإن تكن قد عهد بها إلى الجنرال كلايتون بصفته ممثل الحكومة البريطانية ، ولكن الحكومة العراقية تنتدبني لأكون برفقته حتى أتمكن من إبداء رأيها بصورة تطمئن جلالتكم في الخصومات القائمة ، ولما شعرت بعدم اطمئنانه لأن واحدا من العائلة الهاشمية يرأس الدولة في العراق ، وأن النزاع الدائم بينه وبين الملك حسين قد يؤدي الى التشاحن بينه وبين العراق نفسه لوجود الملك فيصل ملكا فيه طمأنته بأن العراق لا يشبه بإدارته الحجاز ولا نجد ، حيث الأمر الفصل في هذه البلاد لا يعود للملك ، لأن العراق فيه حكومة نيابية يقوم أشخاص كثيرون بمهامها كالوزراء والزعماء ، ومهمة الملك في العراق هي أن يترأس الدولة ويشرف على أعمالها ، ولكنه ليس هو الكل في الحكومة ،

فيجب أن يطمئنّ جلالته من هذه الجهة .

« ثم أخبرته بأن العراق لا يشعر بضغينة وعداوة لشخصه أو لبلاده ، بل يعتبر ما حدث أمرا يخص العائلتين : الهاشمية والسعودية ، وليس للعراق علاقة به سوى الشعور بضرورة انتهائه بما يصون كرامة الفريقين .

« وبعد أن تداولنا بعض المواضيع الطفيفة التى لا تحضرنى تماما تفاصيلها الآن ، ولكن جلها كان يتضمن إعرابه عن محبته للعراق واحترامه لمن فيه ، وسياسته الموجهة نحو التفاهم مع العراق وغير ذلك من الأمور .

« وفي اليوم التالى اجتمعنا في خيمة الشيخ فؤاد حمزة ، وكان فيها الشيخ يوسف ياسين ووظيفته الرسمية كاتب الملك الخاص ، والمحرر لجريدة « أم القرى » أما فؤاد حمزة فكان وكيلا للخارجية ينوب عن وزير الخارجية السيد عبدالله الدملوجي [1] الذي كان غائبا في مصر ، وثالثهما كان الشيخ حافظ وهبه .

« وبعد المداولة الطويلة والملامة والعتاب والمشادّة بينهم وبين جورج أنطونيوس الذى كان قديرا جداً في أصول المناقشة والمحاورة توصلنا الى وضع اتفاقية سميت باتفاقية « بحرة » مع أننا نسكن في محل يسمى « أم القرون » وعندما سألنا : لماذا لم يختاروا الاسم الآخر قالوا : إنهم يتشاءمون من هذا

---

(١) لم يكن الدكتور عبدالله الدملوجي وزيراً للخارجية ، وفي الوقت الذى كان الاستاذ توفيق السويدي في الوفد الذى صحب كلايتون كان الدملوجي « مدير الشؤون الخارجية » ولم تصبح الخارجية السعودية وزارة الا في سنة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) وصار الامير فيصل بن عبد العزيز وزيرها ، فكان أول وزير للخارجية السعودية .

الاسم ، وبما أن « بحرة » وهي قرية صغيرة بجواره فقد أرادوا أن يطلق اسمها على هذه الاتفاقية .

وبعد مراجعة النصوص جرى توقيعها ... » .

وهاهوذا نص اتفاقية بحرة :

اتفاقية بحرة

نظراً للمعاهدة المعقودة بين حكومتي العراق ونجد ابتغاء تأمين الصلات الحسنة بينهما والمعروفة بمعاهدة المحمرة التي وقعت في اليوم السابع من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٤٠ ه الموافق ٥ مايو سنة ١٩٢٢ م ، ونظراً للبروتوكولين المعروفين بالبروتوكول رقم ١ والبروتوكول رقم ٢ اللذين اضيفا الى معاهدة المحمرة المذكورة أعلاه والموقع عليهما في العقير في اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الثانى المبارك سنة ١٣٤١ الموافق ٢ ديسمبر ١٩٢٢ ونظراً لإبرام المعاهدة والبروتوكولين المذكورين آنفاً طبقاً للعادة من قبل حكومتي العراق ونجد .

ونظراً لما تعهدت به كل من حكومتي العراق ونجد في المادة الأولى من معاهدة المحمرة المذكورة بأن يمنع كل منهما عشائره عن التعدى على عشائر الحكومة الأخرى وأن يعاقب كل من الحكومتين من يتعدى من العشائر التابعة للحكومة الأخرى أن تتذاكر الحكومتان اذا حالت الظروف دون قيام احداهما بالتأديب اللائق في امكان اتخاذ تدابير مشتركة طبقاً للصلات الحسنة السائدة بينهما ، ونظراً لاعتقاد حكومة صاحب الجلالة

البريطانية والحكومتين المذكورتين بأنه يحسن بهاتين الحكومتين حرصاً على الصداقة وحسن الصلات بين العراق ونجد وضع اتفاقية بخصوص بعض المسائل المعلقة بينهما .

نحن الموقعين أدناه سلطان نجد وملحقاتها عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود والسر جلبرت كلايتون المندوب المفوض من قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية والمخول بأن ينوب عن الحكومة العراقية في الاتفاق والتوقيع قد اتفقنا على المواد الآتية :

المادة الأولى ــ تعترف كل من دولتي العراق ونجد أن الغزو من قبل العشائر القاطنة في أراضيهما على أراضي الدولة الأخرى اعتداء يستلزم عقاب مرتكبيه عقاباً صارماً من قبل الحكومة التابعة لها ، وأن رئيس العشيرة المعتدية يعد مسؤولاً .

المادة الثانية : ــ (أ) تؤلف محكمة خاصة بالاتفاق بين حكومتي العراق ونجد تلتئم من حين الى آخر للنظر في تفاصيل أي تعد يقع وراء حدود الدولتين ولإحصاء الاضرار والخسائر وتعيين المسؤولين ويكون تأليف هذه المحكمة من عدد متساوٍ من ممثلي حكومتي العراق ونجد وتعهد رآستها الى شخص آخر من غير الممثلين المذكورين تتفق على اختياره الحكومتان ، وتكون قرارات هذه المحكمة قطعية ونافذة .

بعد تعيين المسئولية وتحقيق الاضرار والخسائر الناشئة عن الغزو واصدار المحكمة قرارها بذلك تقوم الحكومة التابع لها المحكوم عليه بتنفيذ القرار المذكور وفقاً لعادات العشائر وبمعاقبة المحكوم عليه كما جاء في المادة الاولى من هذه الاتفاقية .

المادة الثالثة — لا يجوز لعشائر احدى الحكومتين اجتياز حدود الحكومة الأخرى الا بعد الحصول على رخصة من حكومتها وبعد موافقة الحكومة الأخرى مع العلم أنه لا يحق لاحدى الحكومتين أن تمتنع عن اعطاء الرخصة أو الموافقة إذا كان السبب في انتقال العشيرة لداعي المرعى عملاً بمبدأ حرية الرعي .

المادة الرابعة — تتعهد حكومتا نجد والعراق بأن تقفا بكل ما لديهما من الوسائل — غير الطرد واستعمال القوة — في سبيل انتقال كل عشيرة أو فخذ من أحد القطرين الى الآخر الا اذا جرى هذا الانتقال بمعرفة حكومتهم ورضاها وتتعهد الحكومتان بأن تمتنعا عن تقديم الهدايا أيا كان نوعها للملتجئين من البلاد التابعة للحكومة الأخرى ، وبأن تنظر بعين السخط على كل شخص من رعاياهما يسعى لاستجلاب العشائر التابعين للحكومة الأخرى أو تشجيعها على الانتقال من بلادها الى البلاد الأخرى .

المادة الخامسة — ليس لحكومتي العراق ونجد أن تتفاوضا مع رؤساء وشيوخ عشائر الدولة الأخرى في الأمور الرسمية أو السياسية .

المادة السادسة — لا يجوز لقوات العراق ونجد أن تتجاوز حدود بعضها البعض بقصد تعقيب المجرمين الا برضى الحكومتين .

المادة السابعة — لا يجوز لشيوخ العشائر الذين لهم صفة رسمية أو لهم رايات تدل على أنهم قواد لقوات مسلحة أن يظهروا راياتهم في أراضي الدول الأخرى .

المادة الثامنة — إذا طلبت احدى الحكومتين من عشائرها النازلة في أراضي الدولة الأخرى تجريدات مسلحة فالعشائر المذكورة أحرار في تلبية

دعوة حكومتهم على أن يرحلوا بعائلاتهم وأموالهم بكل سكينة .

المادة التاسعة — اذا انتقلت عشيرة من أراضي احدى الحكومتين الى الاراضي التابعة للحكومة الأخرى وشنت الغارات بعد انتقالها من البلاد التي كانت تقطن فيها يحق للحكومة التي تقيم العشيرة في أراضيها أن تأخذ منها ضمانات كافية حتى لا يتكرر منها مثل هذا الاعتداء وتكون هذه الضمانات عرضة للمصادرة ، ذلك عدا العقاب المنصوص عليه في المادة الأولى، وعدا ما قد تفرضه المحكمة المنصوص عليها في المادة الثالثة من هذه الاتفاقية .

المادة العاشرة — تتعهد حكومتا العراق ونجد بأن تقوما بمذاكرات ودية لعقد اتفاقية خاصة بشأن تسليم المجرمين طبقاً للعادات المرعية بين الدول المتحابة وذلك في مدة لا تتجاوز السنة اعتباراً من تاريخ التصديق على هذه المعاهدة من قبل حكومة العراق .

المادة الحادية عشرة — النص العربي هو النص الرسمي الذى يرجع اليه في تفسير مواد هذه الاتفاقية .

المادة الثانية عشرة — تعرف هذه الاتفاقية باتفاقية بحرة .

وقعت هذه الاتفاقية في مخيم بحرة في الرابع عشر من شهر ربيع الثانى ١٣٤٤ الموافق أول نوفمبر سنة ١٩٢٥ .

وكان المظنون أن اتفاقية بحرة قد تضمن الهدوء والاستقرار على الحدود النجدية العراقية ، وتخطو بالقطرين الى السلم وحسن العلاقات والجوار ، ولكن كل الوساطات والاتفاقيات والمعاهدات لم تستطع انتزاع ما في قلوب

الهاشميين والسعوديين . فالهاشميون يرون ابن سعود غاصبا معتديا انتزع منهم حقوقهم وعرشهم في الحجاز ، وقضى على جهود الحسين عميد الأسرة الهاشمية وهدم آماله وقوض أمانيه باستيلائه على الحجاز كله ، واجبار الحسين ثم من بعده اكراه الملك علي على النزول رسميا عن عرش الحجاز ، ومغادرتهما إياه الواحد تلو الآخر إلى خارج بلادهما ، ولم يكف ابن سعود كل ذلك فبدأ بسلسلة من التحرش والاعتداء على العرشين الهاشميين الجديدين ، وبخاصة العراق .

ومن الحوادث التي أغضبت ابن سعود الذي أصبح الحاكم الأقوى في الجزيرة إنشاء حكومة العراق بعض المخافر في الحدود وبخاصة مخفر الشرطة في المكان المسمى « البصيّة » قرب حدود نجد ، واعتبر ابن سعود بناء هذا المخفر خرقا للمادة الثالثة من اتفاقية العقير ، وتهديدا خطيرا لنجد ، وعدوانا على سيادتها ، فبعث باحتجاج شديد وجهه الى المندوب السامي البريطاني في بغداد بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩٢٧ (١٧ ربيع الاول ١٣٤٦) وطلب إليه هدم هذا المخفر وإزالته ، ولما لم يجد جوابا عزز كتابه الأول بآخر يحمل الطلب نفسه ، وذلك في شهر اكتوبر ١٩٢٧ .

واضطر المندوب السامي الى الرد فكتب على لسان الحكومة العراقية يذكر لابن سعود أن المخفر مقام على أرض عراقية في داخل حدود العراق ، ويبعد عن حدود نجد بمسافة خمسة وسبعين ميلا ، وأن المادة الثالثة من اتفاقية العقير لا تشمله ، ومفهوم هذا الرد أنه لاحق لحكومة نجد في الاحتجاج كما لا حق لها في الاعتراض .

والرسائل المتبادلة بين ابن سعود والمسئولين البريطانيين تظهر الى أى حد بلغ سخط ابن سعود ، وما تلقاه منهم من ردود لم يكن ليقتنع بها .

ولم يكن من مصلحة ابن سعود ولا من مصلحة العراق والانجليز حدوث

فتن واصطدام على الحدود ، لأن ذلك يتيح للبدو فرصا لقطع الطريق ، والإخلال بالأمن ، والعبث بالناس وحقوقهم ، ولأنه يدفع الإخوان الى الثأر والانتقام ، وهذا يؤدى الى مضاعفة سوء التفاهم والعلاقات بين الأطراف المعنية .

وها هي ذي الرسائل المتبادلة بين ابن سعود والمسئولين البريطانيين نثبتها للتاريخ :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالعزيز بن عبد الرحمن الفيصل إلى صاحب الفخامة المندوب السامي البريطاني في العراق :

التحية والاحترام . وبعد ، فقد وصل إلينا أن بعض طيارات مـن العراق تحوم فوق أطراف ديارنا ، وعلى عرباننا ، وبعضها ينزل فيوسط الأرض ثم يطير ، وأن بعض السيارات الأوتومبيلات تسير أيضا في بعض المناطق المحايدة ، وفي أطراف الحدود ، وتعلمون فخامتكم أن أهم ما يهمنا هـو المحافظة على حسن العلاقات بين الحكومتين ، ونكره كل ما يوجب أي سبب لتعكير الصفو ، وأن الطيارات في مطارها ، والسيارات في مسيرها لا تمر على بادية تستنكر ذلك ، فأخشى أن يمر بجاهل من الجهال لا يعرف شيئـا من شأنهم فأرجـو أن تصدروا أوامركم على الموظفين وغير الموظفين أن يجتنبوا الطرق الداخلية في حدودنا ، صيانة لهم وللعلاقات الودية بين الفريقين أن يصيبها أي تعكير لا نريده ولا نرضاه .

وتقبلوا فائق احتراماتي .

١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٤٦

عدد ١٢٧ سنة ١٩٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

في ١٧ نوفمبر ١٩٢٧ موافق جمادى الأولى سنة ١٣٤٦

من ميجر برث باليوز دولة بريطانيا العظمى في البحرين

إلى حضرة صاحب الجلالة ملك الحجاز وملحقاتها ، الإمام عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ، المعظم .

بعد التحية ، وتقديم ما يليق لجلالتكم من الاحترام .

لقد أمرني باليوز خليج فارس في أبو شهر أن أقدم لجلالتكم الرسالة الآتية من فخامة المعتمد السامى في العراق (نمرة ٥٧٢ المؤرخة في ٢٩ تشرين الأول ١٩٢٧ موافق ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٤٦ المبرق بها من بغداد إلى جدة ، والمرسلة صورتها له لتقديمها لجلالتكم ، وهي :

وصلني كتابكم المؤرخ (٥ أيلول) فتعجبت حيث احتججتم على بناء نقطة « بصية » من قبل حكومة العراق .

تبعد « بصية » خمسين ميلا عن المنطقة المحايدة ، وخمسة وسبعين ميلا عن الحدود النجدية ، لذلك من الواضح أن المادة الثالثة من ملحق « العقير » لا تشمل هذه المسألة ، ولكن الظاهر أن جلالتكم وصلتكم أخبار مبالغ فيها كثيرا عن صفة هذه النقطة التي يتكون حرسها من خمسة عشر شرطيا من الهجانة ، وهؤلاء الشرطة كان تعيينهم هناك من كانون الأول ١٩٢٦ ، ولكن لم يبن لهم مكان لسكناهم ووقايتهم إلا من وقت قريب ، وسأقدم بالبريد لإطلاع جلالتكم على صورة هذا المنزل ، مأخوذا بالطيارة .

ليس من وجود النقطة ضرر ما ، إنما هي لمنع الغزو على الحدود ، لما فيه من الفائدة المشتركة التي تعود على العراق ونجد . وقد أوضح هذا (مستر بورد لن) في كتابه الوارد من جلالتكم ، ولكن يجوز أنه أرسل لجلالتكم المؤرخ ١٧ آب موقع نقطة الغور هو ٣٧ ميلا جنوب غربي الديوانية ليس الناصرية كما جاء خطأ في ذلك الكتاب ، لا صحة أبدا لما يشاع من أن حكومة العراق تنوي مد خطوط حديدية إلى « البصية » أو تقوم بحركات عسكرية كما يشير اليــه جلالتكم ، ولتكن جلالتكم مطمئنا بأن حكومة صاحب الجلالة البريطانية لا تقبل أبدا أن ينقض العراق ما عليه في المعاهدة من التعهدات ».

انتهت الرسالة

هذا ودمتم باحترام .

ميجر (سي جي برث) باليوز دولة بريطانيا العظمى في البحرين (عدد م / ٣/ ٢٧ في ١٣ شعبان سنة ١٣٤٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل ، إلى سعادة (الميجر سير .ل.برث) باليوز دولة بريطانيا العظمى في البحرين .

« التحية والاحترام .

وبعد ، فأرجو منكم أن توصلوا بأسرع ما يمكن لسعادة الكولونيل رئيس الخليج الفارسي ليقدم للحكومــة البريطانية بمجموع الجهــود والمصاعب التي نلاقيها بأسباب أعمال حكومة العراق ، وفي المــدة الأخيرة بعد أن اضطررنا الدويش للرجوع إلى دياره ، وبعد أن ضيقنا عليه جميع أنواع التضييق ، وأقنعنا أهل نجد أننا سنحل الخلافات التي

وقعت بسبب أعمال حكومة العراق بطريق المفاوضات السلمية ، وحملناهم على استنكار أعمال الدويش ، وقوطع الدويش وحوصر من كل جهة ، ولم يبق من أنواع التأديب التي لم نعملها معه إلا تسيير حملة عليه ، وهذه لم نؤخرها إلا انتظارا لما ستأتى به المخابرات والمفاوضات من نتيجة البحث في مسألة المجرمين ؛ لأنا لا نأمن من فرار الدويش إلى العراق ، وقبول حكومة العراق ، فبعد أن وصلنا لهذه النتائج بفضل ما بذلناه من الجهود واستتب الأمن لم نشعر إلا بالطيارات تنذر قومنا في ديارنا بأنهم سيكونون عرضة لنيران الطيارات ، ثم لم نشعر بعد ذلك إلا بأن الطيارات تجاوزت حدودنا ، وضربت في ديارنا ، لذلك كان لهذا الحادث أثره العظيم في نجد بعد ذلك الهدوء الذى ساد البلاد ، فقد هاج عمل موظفي العراق بضربهم لديارنا سائر أهل نجد ، وأوجد في نجد حالة لا نستطيع أن نقدر ما ينتج عنها ، وإنا نلقى تبعة كل ما حدث ويحدث من الحوادث على عاتق أولئك الموظفين الذين أتوا فعلتهم الشنعاء النكراء بغير تبصر بالعواقب ، ولذلك نحتج بشدة على ما يأتي :

(١) على تعدى الطيارات حدودنا ، وإلقائها إنذارات على عرباننا .

(٢) على اعتداء الطيارات على الآمنين من رعايانا في ديارنا مما لا يقره قانون دولي ، وليس هناك أي سبب موجب يجبر عليه ، وأحب أن يتأكد للحكومة البريطانية أن هذا أبلغ سهم أصيبت به العلاقات الودية بين نجد والعراق ، وأن نتيجة التهييج الذى حصل في نجد مما نخشى أن يولد حوادث جساما من بعده لسنا بمسئولين عن شيء منها ، وإنما يسأل عنها من اعتدى من غير سبب ، وحرك الفتنة بعد سكونها ،

هذا ما نرجو منكم إيصاله بأسرع ما يمكن .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

(عدد م / ٣ / ٢٧ — ١٦ رمضان سنة ١٣٤٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل ، إلى سعادة (الميجرسير .ل.برث) باليوز دولة بريطانيا في البحرين :

التحية والاحترام :

وبعد : فقد تلقينا كتابكم المؤرخ (٥ رمضان عدد ٨٤) المتضمن البرقية الواردة لحضرتكم من سعادة رئيس الخليج الفارسى لتقدموها إلينا ، فأرجو منكم أن ترسلوا بالسرعة لسعادة رئيس خليج فارس ليقدم للحكومة البريطانية بأسرع واسطة جوابنا التالى على تلك البرقية :

«إننى آسف لما وصلت اليه الحالة الحاضرة بسبب توالى نقض من في العراق لعهودنا ، ويظهر أنه حتى هذه الساعة لم تدرك حقيقة الشكوى التى نشكوها ، ولا نزال نرى إعراضا عن جوهر المسائل التى عرضناها على الحكومة البريطانية بصدد الموقف الحاضر ، وإنا نجمل هنا ما سبق في صدد ملاحظاتنا على ما ورد في جواب الحكومة البريطانية الأخير ، فنقول :

(١) إن « مطير » لم تكن كلها المذنبة ، وإنه غير مسلم به أن الدويش خرج عن الطاعة ، أو أنه أعلن العصيان علينا ، والحقيقة أن الدويش مع نفر من « مطير » أتوا في العراق أعمالا ليست بأمرنا ، ولا نقرهم عليها ، أما الدويش في أراضينا فهو تحت أمرنا وقهرنا في كل وقت وحين .

(٢) تطلب منا الحكومة البريطانية تأكيدا باتخاذنا للاجراءات لمقاصة الدويش ومنع الغارات ، ومن العجب أن هذا الطلب يأتينا مجددا في

حين قد أكدنا للحكومة البريطانية اتخاذنا لهذه الإجراءات قبل اعتداء من في العراق بطيارات الحكومة البريطانية على أراضينا ، وذلك في كتبنا السابقة التي نرجو مراجعتها ، وقد وقفت الاعتداءات على أثر تلك الإجراءات ، وكان من نتيجة مساعينا ضد الدويش أن اضطر مرغما للامتناع عن الغزوات ، والجلوس في بلده ، ثم قوطع من كافه أهل نجد ، وحوصر من قبل الحكومة ، حيث منعت الأرزاق عنه ، واضطر أخيرا لمكاتبة أمير الكويت ليتفق معه على فتح طرق التجارة للكويت ، ولم نضرب الدويش الضربة الأخيرة لاقتصاص كل شيء منه إلاانتظارا للمفاوضات كما بينا ، ورغم كل هذه الإجراءات التي علمت بها الحكومة البريطانية في وقتها لم يتوقف من في العراق عن إنفاذ الهوى الذى لعب في نفوسهم لحسم المشاكل بالتي هي أحسن ، بل تعدوا وأتوا من منكر الأعمال التى يقشعر لها قلب الإنسانية ، فضربوا عنزة وحربا وشمر في حدودنا الشمالية الغربية ، وضربوا غيرهم في حدودنا الشرقية الشمالية ، وكل الذين ضربوا لا ذنب لهم .

(٣) إن المبدأ الذى تكرر في الكتاب الأخير ، والذى جاء في بعض الكتب السابقة ، وهو القاضى من قبل الحكومة البريطانية بمشروعية مطاردة أو مجازاة رعايا نجد داخل أراضى نجد من قبل موظفى العراق وأي جهة في العالم غير نجدية ، من أجل أي جرم اقترفه النجديون ، إن هذا مبدأ لا يقره قانون دولي ، وتمنعه معاهدة بحرة ومعاهدة جدة ، وهو مبدأ لا يمكن أن أسلم بمشروعيته بوجه من الوجوه ، وأعتبره في أي ساعة يعمل ولأي سبب كان اعتداء على استقلال نجد ، وخرقا لحرمة الحقوق الدولية ، ونقضا للمعاهدات بيننا ،وأحتج عليه بشدة في كل وقت وحين .

(٤) لقد أسفنا للغارة الأخيرة التي كانت في جهة «الجويشان» واسفنا لما وصل إلى علمنا أن عصابات قوية من متطرفى النجديين على الحدود ،

ممن أصابهم أذى الطيارات بغير سابق ذنب أتوه توجهوا جهات العراق، ولا نعلم الجهة التى قصدوها ، لأننا اضطررنا بعد إنذار الطيارات وإقدامها على ضرب أراضينا ، وضربها لجندنا الذى كان يحرس الحدود أن نأمر برجوع جنود الحرس من الحدود ، إذ يصعب عليّ أن أرى جندي يشتبك في معارك مع جند الطيران البريطاني ، وبعد أن سحبنا جندنا من مناطق الحدود قلت المعلومات التى لدينا عن الأعمال التى تقوم بها القبائل في تلك الأطراف .

(٥) لقد طلبت الحكومة البريطانية أن نأخذ المسئولية على عاتقنا لتمتنع عن إجراءاتها ، لقد أخبرنا الحكومة من قبل أننا مستعدون لتحمل تلك المسئولية من حماية حدود العراق بشروط ثلاثة نكررها هنا ، ونزيد عليها شرطا رابعا دعت اليه الحالة التى نتجت من سوء التصرف الأخير :

أولا – أن يحترم بروتوكول « العقير » فيهدم القصر المشئوم في « بصية » ولا يبنى غيره على الحدود .

ثانيا – أن نتعاهد مع العراق أن لا يؤوي أحد الفريقين مجرما لاجئا من بلاد الفريق الآخر .

ثالثا – أن يمنع اختلاط الموظفين بعربا ننا ، ودعوتهم للفرار والفساد .

رابعا – أن تقوم الحكومة البريطانية فتوجه المسئولية عن الأعمال التي وقعت على حدود العراق إلى المسببين لها ، وتحملهم تبعة ما صنعوا ، فبغير الحصول على هذه المطالب الأربعة لا أرى سبيلا للوصول إلى توقيف الهياج الحاصل .

ومن مراجعة جميع ما كتبناه وشرحناه للحكومة البريطانية عن حقيقة

الموقف يتبين جليا أن ما نقترحه هو الدواء الناجع لما وصلنا اليه ، وهو الذى تقضي به الحقوق والعهود .

(٦) أما أن حسم هذه الأمور بطريق المفاوضة مع سعادة رئيس الخليج الفارسي يكون أكثر فائدة من المراسلة فذلك مما نوافق عليه ، وإنه إذا لم يكن مانع من قبل سعادة رئيس الخليج من الاجتماع ، ولو في حين عدم التمكن من القبض على العصابات التى خرجت من المتطرفين فإننا على استعداد لتعيين المكان والوقت الذي يمكن الاجتماع فيه لحل المشكل الحاضر .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

ولكن هذه الرسائل لم تنته الى نتيجة ترضي ابن سعود ، ولم يقتنع بأجوبة المسئولين البريطانيين حتّى استقر رأي الحكومة البريطانية على اعادة النظر ، وتصفية المشاكل بين ابن سعود والهاشميين ، إذ لم يبق غير العراق والأردن ، فعرش الهاشميين في الحجاز قد انتزعه ابن سعود منهم ، واعترفت به الدول ملكا على الحجاز ، وقررت تشكيل وفد لبحث مصادر الخلاف وإزالة كل أسبابه ما وسعها الجهد ، واختير أعضاء الوفد من الانجليز العاملين في العراق ، وقوامه السير جلبرت كلايتون (رئيسا) وكرنواليس مستشار وزارة الداخلية العراقية ، والميجر جلوب باشا ضابط الحدود في بادية العراق .

ولم يكن الوفد معكلفا بتسوية الخلاف فيما بين نجد والعراق ، بل كانت مهمته أيضا تحديد الحدود بين إمارة شرقي الأردن والحجاز ، وإزالة أسباب الخلاف بين الأمير عبدالله بن الحسين والملك عبد العزيز .

ووصل الوفد إلى جدة يوم ٦ ذى القعدة ١٣٤٦ (٢٨ مايو ١٩٢٨) واجتمع أعضاؤه بالملك عبد العزيز فصرح لهم بأنه لن يرضى باقامة المخافر

على الحدود فيما بين نجد والعراق ، ووجوب هدم مخفر البصية ، ثم تعددت الاجتماعات بين الوفد البريطاني وممثلي الحكومة السعودية دون أن تنتهي المفاوضات الى نتيجة ، وبذلك أخفق المؤتمر ، فرأى الانجليز أن يجمعوا بين عاهلي نجد والعراق : فيصل وعبد العزيز ، ووفقوا ، وفي فصل غير هذا بعنوان « ملكان يلتقيان » خبر اجتماعهما وثماره .

وإذا أخفق المؤتمر بالنسبة للعلاقات بين نجد والعراق فان الجانب الذي يخص الحجاز والأردن لم يخفق ، ولكن اشتغال الملك ابن سعود بالحجاج اضطر المؤتمر للتأجيل الى وقت آخر .

وفي شهر ربيع الأول ١٣٤٤ هـ (ديسمبر ١٩٢٩) عاد السير جلبرت كلايتون الى جدة حيث اجتمع بالملك ابن سعود لبحث مشاكل الحدود بين مملكته وإمارة شرقي الأردن ، وكان المؤتمر يعقد في مكان يسمى « حداء » يقع بين مكة وجدة ، وأقرب الى مكة وانتهى بما سمي اتفاقية حداء ، وهذا نصها :

اتفاقيـــة حـــداء

« نظراً للعلاقات الودية السائدة بين الحكومة البريطانية من جهة وسلطنة نجد وملحقاتها من جهة أخرى ، ونظراً لرغبتهما في تعيين الحدود بين نجد وشرقي الاردن وتسوية بعض المسائل المتعلقة بذلك اختارت الحكومة البريطانية السر جلبرت كليتن وعينته مندوباً مفوضاً عنها لعقد اتفاقية في هذا الشأن مع السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود وقد تعاقدوا على المواد الآتية :

المادة الأولى — يبتدىء الحد بين نجد وشرقي الاردن في الجهة الشمالية

الشرقية من نقطة تقاطع دائرة الطول ٣٩ (شرقي) ودائرة العرض ٣٢ (شمالي) حيث تنتهي الحدود بين العراق ونجد ، ويمتد على خط مستقيم الى نقطة تقاطع دائرة الطول ٣٧ (شرقي) بدائرة العرض ٣١,٢٥ (شمالي) ثم يمتد من هذه النقطة على خط مستقيم الى نقطة تقاطع دائرة الطول ٣٨ (شرقي) بدائرة العرض ٣٠ (شمالي) تاركاً ما برز من أطراف وادي السرحان لنجد ثم يتبع دائرة الطول ٣٨ (شرقي) الى نقطة تقاطعها بدائرة العرض ٣٩,٣٥ (شمالي) أما الخارطة التي يرجع اليها في هذه الاتفاقية فهي الخارطة المعروفة بالدولية (آسيا مقياس واحد على مليون) .

المادة الثانية — تتعهد حكومة نجد بألا تقيم أي حصن في «كاف» وألا تستعملها والمنطقة التي في جوارها كنقطة عسكرية .

أما اذا رأت حاجة في حين من الأحيان الى اتخاذ تدابير استثنائية بجوار الحدود للمحافظة على الأمن أو لأي غرض آخر يستوجب حشد القوات العسكرية المسلحة فتتعهد بأن تخبر الحكومة البريطانية بذلك في أقرب وقت ، وعلاوة على ذلك تتعهد بأن تمنع قواتها من التعدى على أراضي شرق الاردن بكل ما لديها من الوسائل .

المادة الثالثة — منعاً لسوء التفاهم الذي قد يحصل في الحوادث التي تقع قرب الحدود ، وتوثيقاً لعرى الثقة المتبادلة بين الطرفين والتعاون الكلي بين حكومة بريطانيا وحكومة نجد ، يتفق الطرفان على القيام بمذاكرات متواصلة بين المعتمد البريطاني في شرقي الاردن أو مندوبه وبين حاكم وادى السرحان .

المادة الرابعة — تتعهد حكومة نجد بصيانة جميع الحقوق التي يتمتع بها في وادى السرحان القبائل غير التابعة لنجد سواء كانت حقوق الرعي أو السكن أو الملكية أو ما يشبه ذلك من الحقوق الثابتة بشرط أن تخضع

تلك القبائل ما دامت نازلة ضمن حدود نجد للقوانين الداخلية التي لا تمس هذه الحقوق ، وتعامل حكومة شرقي الاردن نفس المعاملة رعايا نجد المتمتعين بحقوق ثابتة في شرقي الاردن شبيهة بالحقوق المذكورة .

المادة الخامسة – تعترف كل من نجد وشرقي الاردن ان الغزو من قبل العشائر القاطنة في اراضيهما على اراضى الحكومة الاخرى اعتداء يستلزم عقاب مرتكبيه عقاباً صارماً من قبل الحكومة التابعة لها ، وان رئيس العشيرة المعتدية يعد مسؤولا .

المادة السادسة – (أ) – تؤلف محكمة خاصة بين حكومتي نجد وشرقي الاردن ، تلتئم من حين الى آخر للنظر في تفاصيل اي تعد يقع من وراء الحدود ولاحصاء الاضرار والخسائر وتعيين المسؤولية ، ويكون تأليف هذه المحكمة من عدد متساو من ممثلى حكومة نجد وشرقي الاردن ، وتعهد رئاستها الى شخص آخر من غير الممثلين المذكورين تتفق على اختياره الحكومتان وتكون قرارات المحكمة قطعية ونافذة .

(ب) – بعد تعيين المسؤولية وتحقيق الاضرار والخسائر الناشئة عن الغزو واصدار المحكمة قرارها بذلك تتولى الحكومة التابع لها المحكوم عليه بتنفيذ القرار المذكور وفقاً لعادات العشائر وبمعاقبة المحكوم عليه كما جاء في المادة الخامسة من هذه الاتفاقية .

المادة السابعة – لا يجوز لعشائر احدى الحكومتين اجتياز حدود الحكومة الاخرى إلا بعد الحصول على رخصة من حكومتها ، وبعد موافقة الحكومة الاخرى ، مع العلم انه لا يحق لاحدى الحكومتين ان تمتنع عن اعطاء الرخصة او الموافقة اذا كان السبب في انتقال العشيرة لرعي المرعى عملا بمبدأ حرية الرعي .

المادة الثامنة — تتعهد حكومتا نجد وشرقي الاردن بأن تقفا بكل ما لديهما من الوسائل غير الطرد واستعمال القوة في سبيل انتقال كل عشيرة او فخذ من احد القطرين الى الآخر الا اذا جرى هذا الانتقال بمعرفة حكومته ورضاها ، وتتعهد الحكومتان ان تمتنعا عن تقديم الهدايا اياً كان نوعها للملتجئين من البلاد التابعة للحكومة الاخرى ، وبأن تنظرا بعين السخط الى كل شخص من رعاياهما يسعى لاستجلاب العشائر التابعة للحكومة الاخرى او تشجيعها على الانتقال من بلاده الى البلاد الاخرى .

المادة التاسعة — ليس لحكومتي نجد وشرقي الاردن ان تتفاوضا مع رؤساء وشيوخ عشائر الحكومة الاخرى في الامور الرسمية او السياسية .

المادة العاشرة — لا يجوز لحكومتي نجد وشرقي الاردن ان تتجاوزا حدود بعضها البعض بقصد تعقيب المجرمين الا برضى الحكومتين .

المادة الحادية عشرة — لا يجوز لشيوخ العشائر الذين لهم صفة رسمية او لهم رايات تدل على انهم قواد قوات مسلحة ان يظهروا راياتهم في اراضي الحكومة الاخرى .

المادة الثانية عشرة — على كل من حكومتي نجد وشرقي الاردن ان تمنح حرية المرور لجميع الحجاج والمسافرين بشرط ان تخضع هؤلاء للقوانين الخاصة بالسفر والحج المرعية في نجد وشرقي الاردن ، وعلى كل من هاتين الحكومتين ان تخبر الحكومة الاخرى بأي قانون قد تسنه بهذا الخصوص .

المادة الثالثة عشرة — تتعهد حكومة صاحب الجلالة البريطانية أن تضمن حرية المرور في كل حين للتجار من رعايا نجد لقضاء تجارتهم بين نجد وسورية ذهاباً واياباً ، وان تحصل على الاعفاء من الضرائب الجمركية وغيرها لجميع الاموال التي تجتاز منطقة الانتداب في مرورها من نجد الى سورية

او من سورية الى نجد ؛ على ان يخضع التجار وقوافلهم لما قد يلزم من التفتيش الجمركي ، وان يكونوا حاملين وثيقة من حكومتهم تشهد انهم تجار حقيقيون ، ويشترط ان تتبع القوافل التجارية ذات الاموال المحملة طرقاً معروفة سيتفق عليها فيما بعد لدخول منطقة الانتداب والخروج منها ، مع العلم ان هذه القيود لا تسرى على القوافل التجارية التى تقتصر تجارتها على الابل والحيوانات ؛ ولا على العشائر التى تنتقل بمقتضى المواد السابقة من هذه الاتفاقية ، وتتعهد حكومة بريطانيا بأن تحصل على غير ذلك من التسهيلات الممكنة للتجار من رعايا نجد المارين بنقطة انتدابها .

المادة الرابعة عشرة — تبقى هذه الاتفاقية نافذة ما دامت حكومة بريطانيا مكلفة بالانتداب على شرق الاردن .

المادة الخامسة عشرة — وقعت هذه الاتفاقية باللغتين الانكليزية والعربية ، ووقع كلا الطرفين المتعاقدين نسختين من النص العربي ونسختين من النص الانكليزي ، ويكون للنصين قيمة رسمية واحدة ، ولكن اذا وقع اختلاف بين النصين في تفسير مادة من مواد هذه الاتفاقية فيرجع الى النص الانكليزي .

المادة السادسة عشرة — تعرف هذه الاتفاقية باتفاقية حداء .

وقعت هذه الاتفاقية في حداء في الخامس عشر من شهر ربيع الثانى سنة ١٣٤٤ الموافق ٢ نوفمبر ١٩٢٩ .

الجزء الرابع

- فكرة غزو الحجاز
- إلى الطائف
- معارك الهدى
- قالوا: اعتزل
- الإخوان بمكة
- حكومة مرتجلة
- إني مسافر لرفع المظالم
- في الطريق
- ادخلوها بسلام
- أنا منكم وأنتم مني
- أريد رجالاً
- غصن الزيتون
- إلى الحرب
- مصفحات دون كيشوت
- مفاوضات للصلح
- وفود ومساعي
- إلى قبرص
- المدينة المنورة
- الحج إلى بيت الله
- علي يتنازل
- ملك الحجاز
- حكم الحجاز والعالم الإسلامي ومؤتمره

فكرة غزو الحجاز

كانت القوات السعودية أو القوات التابعة لابن سعود والتي يرأسها خالد بن منصور بن لؤي وسلطان بن بجاد قد احتلت تربة والخرمة بعد المعركة التي خسر فيها الحسين خير رجاله من قواد وجنود كما خسر ذخائره ومعداته في سنة ١٣٣٧ﻫ وكأنه ما غنم ما كان لدى الاتراك من مال وسلاح الا ليقدمه إلى ابن سعود في تربة « هدية في منديل » كما يقول الحجازيون لمن يجد الشيء بدون كد ولا تعب ، فابن سعود قد ربح شيئاً كثيراً من المعدات الحربية التي هو بحاجة اليها بغير ثمن يذكر ، بل خسر الحسين في هذه المعركة ما لا يستطيع جمعه واعداده الا في سنوات ، خسر — عدا المعدات الحربية — خمسة آلاف قتيل ، ولم ينج من جيشه الا ابنه مع نفر ضئيل ، بل خسر — أيضاً — نفوذه وهيبته ، وكانت هذه الضربة موجهة إلى الحسين في الصميم ، وقضت على القوة التي يهدد بها كل من عارضه في سياسته من الامراء ، ولم يوفق إلى حشد قوة تضارعها حتى يوم نزوله عن العرش .

وكان النصر الذي أحرزه ابن سعود من معارك تربة مؤزرا مبينا ، والغنائم لا تحصى ، وكان نصيب كل فرد من أتباع ابن لؤي وسلطان موفورا ماهيج فيهم غريزة الطمع وطلبوا الزيادة من الغنائم والكسب في معركة أخرى فنادوا بالهجوم

على الطائف واحتلاله ، غير أن ابن سعود منعهم ولبث في تربة أياما يجس النبض ، لانه يعلم جيداً أن الانكليز مع الحسين ، فاذا احتل الطائف فقد تشوب صداقته لهم شوائب تضره ، وتعرض علاقاته بهم لنقيض ما يحرص عليه ، وقد يسوء موقفه الحسن معهم فيربح الحسين ويخسر هو نفسه في ساعة حمق ما جمعه منذ سنين طويلة ، وليس هو بالأحمق الذي يرتكب الغلطة التي لا يمكن تلافيها أو اصلاحها ، فوقف في مكانه بتربة ينتظر ما ستفاجئه به الايام القريبة ، ثم لديه — بعد ذلك — الوقت الكافى للعمل الذى يريد تحقيقه .

وكأن ابن سعود كان ملهما فيما ظن ، فما كاد ينتصف شهر رمضان سنة ١٣٣٧ ه أي بعد مرور عشرين يوما على المعركة حتى ورده خطاب من المعتمد البريطاني بجدة على لسان حكومته يصرح له بأنه اذا لم يبارح تربة الى نجد فان الحكومة البريطانية تعتبر كل معاهدة بينه وبينها « ملغاة » لا عمل لها ، وسيعرض — ان لم يبارح — صداقته بها للزوال ، أما اذا بارح فستحفظ له هذه اليد ولن تنساها ، فغادر ابن سعود تربة الى الرياض — كما ذكرنا في الفصل الذى عقدناه على معارك تربة — وبذلك برهن على تقديره للمواثيق ووفائه بالعهود .

الا ان الحسين لم يكن كابن سعود في التفكير ، بل كان يطلب قضاء كل أمر بسرعة دون أن ينظر الى خطر الوثوب والى العواقب في حين ابن سعود — وهو ربيب الصحراء — كان يأخذ الاشياء في سهولة ويسر وأناة ، وعمل على تحسين سمعته في العالم العربي والاسلامي على قدر مستطاعه فأعلن نتائج مؤتمر الكويت ليطلع الناس على ما كان بينه وبين الشرفاء من مواقف ، وعلى عداوتهم له بدون مسوغ .

بل أغضب الحسين المصريين سنة١٩٢٢م(١٣٤٠ه) ورجع المحمل المصري من جدة ، ويكفي هذا وحده لايغار صدورهم عليه ، فهاجمته صحفهم وانتقدته نقدا لاذعا ، وأخذت تندد به وباسلافه الشرفاء ، ونبشوا الماضي

واستخرجوا منه ما كان مدفونا في التاريخ من أعمال الشريف عون وما كان يعمل مما عدد بعضه محمد لبيب البتانوبي في كتابه « الرحلة الحجازية » بل ثار الشعب المصري ، لأن للمحمل قداسته عنده ، فما هو الا الكسوة الشريفة لبيت الله ، وهذا فخر لمصر كلها دون سائر الاقطار الاسلامية ، فالكسوة تنسج فيها على يد أبنائها ، فلما رجع من جدة اعتبرت مصر أن ذلك اهانة لها ولم تطق السكوت عليها فثارت ثورتها الجامحة .

ولم يرض المصريين أن يكون الحسين خليفة المسلمين جميعا وأمير المؤمنين ، وزاد ذلك من خصومتهم له .

ولم يكن ذلك كله مما أخذ عليه ، بل كانت إلى جانبه سلسلة من الاخطار ، منها أن علاقته ببريطانيا قد اعتراها شيء من الجفاء والفتور ، بل تبدلت الصداقة بينه وبينها بعداء وبغضاء ، فاختلف على المعاهدة ولم يوقعها الى ان خرج من الحجاز ، واختلف على البعثات الطبية .

وثارت الهند على أعمال الحسين لانها اتهمته بسوء معاملته لحجاجها ، وصرحت صحفها مندّدة به ، واشارت الى فقدان الامن في البلاد المقدسة حتى أن كثيرا من رعاياها ذهب ضحية الذؤبان وقطاع الطريق من قبائل حرب المنتشرة في الطريق بين مكة والمدينة ، وذكرت ان الحسين بين أمرين لا ثالث لهما ؛ اما أن يكون ناقما على قطاع الطرق أو راضيا ، فان كان ناقما على أعمالهم ولم يستطع أن يضرب على أيدى المفسدين فهو ضعيف عاجز ، فيجب أن يعتزل الامر لغيره ، واما أن يكون راضيا وهنا البلاء الاعظم ، ولن يصلح للحكم في خير بقعة من يرضى بأعمال المجرمين السفاكين .

وكان أكثر مسلمى الهند ينظرون إلى تركيا نظرة احترام وتقديس لأنها

دار الخلافة – في نظرهم – وطاعة الخليفة فرض عين ، وكل من يخرج على الخليفة عاص يجب أن يحارب ، والحسين قد أعلن الثورة عليها وحاربها بالسيف والقلم في كل ميدان ، فهو باغ على الخليفة خارج عما دخلت فيه الامة الاسلامية – كما يرى بعض علماء الهند وكثير من مسلميها – وانتقده بعضهم أنه حارب الخلافة وأيد دولة الكفر .

ولكننا لا نرى هذا الرأي ، فتركيا قامت على الخلافة قبل غيرها ، بل انهارت الخلافة الا الاسم ، بل أصبح باسم الخليفة ترتكب كل المظالم ، فالحسين – رحمه الله – قام بحق في وجه الترك دفاعا عن العروبة والاسلام فجزاه الله خيرا ، وليذكر من يؤاخذون الحسين على ثورته على الترك أن الترك قد قضوا على العروبة في حماها : في مكة وفي المدينة ، ثم قتلوا زعماء العرب واستبدوا أشنع استبداد ، فقام الحسين يرد عدوان الترك ويحرر العرب .

وبينما كان مؤتمر الكويت منعقدا كان الشريف حسين وأبناؤه وانصارهم ودعاتهم يقومون بدعاية واسعة لأفكارهم التي دخلوا بها المؤتمر ، ولولا شخصية ابن سعود القوية المتماسكة وشخصية ابنه فيصل لفقد السعوديون سوق الدعاية التي كان الهاشميون يسيطرون عليها ، ولم يكن لدى ابن سعود إدارة دعاية كالتي يمتلكها الهاشميون .

وكان فيصل بن عبد العزيز في الأحساء ووردته صحف مصر وسوريا والعراق وفيها دعاية لمصلحة الشريف الحسين وابنائه الحاكمين ضد ابن سعود ، وبين ما نشر في هذه الصحف حديث للملك الحسين نشرته جريدة «المقطم» القاهرية بعددها الصادر في يوم ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٢ (٢٧ يناير « كانون الثاني » ١٩٢٤ م) عرض فيه بسلطان نجد وطعنه بسبب موقفه من القضية العربية ، ورأى فيصل أن يرد على الملك الحسين ، فكتب ردا بعثه إلى جريدة «الأهرام» القاهرية التي نشرته بعددها الصادر

في ١٨ مارس (آذار) ١٩٢٤ (شعبان ١٣٤٢) .

وجاء في الرد المنشور بعنوان « للحقيقة والتاريخ » إبداء أسفه لجرأة بعض المسئولين على الاختلاف وتسوية الحقائق ، وهذا نص رد فيصل [١] :

« لقد سعى سلطان نجد في الحرب العالمية وبعدها لبناء الوحدة ، فأرسل الكتب العديدة والرسل إلى ابن رشيد ، وملك الحجاز ، وأميري عسير والكويت . ولكن ملك الحجاز قابل الدعوة بالاستهزاء ، بل سعى لنقض بنيانها بما كان يبثه من الفتن والدسائس في عسير وغيرها . وكتبه المرسلة منه إلى آل عايض وآل الرشيد محفوظة لدينا .

« وماذا يقولون في الكتب التي أرسلها سلطان نجد مع مساعد بن سويلم إلى ملك الحجاز وأولاده ؟ تلك الكتب التي نُشِرت في الصحف في حينها [٢] ، والتي نَشرت جريدة المقطم قسماً منها ؛ ألا تنطق تلك الكتب بما تنطوى عليه جوانح سلطان نجد وميله الشريف إلى التصافى مع وجيرانه والاتحاد معهم ؟ .

« هل علموا أن ملك الحجاز لم يسمح لأولاده بإجابة سلطان نجد ، تخطى حدود اللباقة بأن جعل جوابه إلى آل سعود كافةً ، لا إلى الجالس على عرش نجد ؟ .

---

(١) ادعى الشيخ وهبه في كتابه « خمسون عاما في جزيرة العرب (المطبوع سنة ١٣٨٠ / ١٩٦٠) بصفحة ٥٦ ما نصه : « أخذت أهيء الجو بمنشورات حماسية تحمل اسم الأمير فيصل حملت فيها على الملك حسين » ويقول : « فكان لهذه المنشورات دوي عظيم في الهند ومصر وسائر أنحاء العالم الاسلامي » وكل ذلك دعوى عريضة ، فالمنشورات والردود الموقعة من فيصل لم تكن من تهيئة حافظ وهبه ، بل من كلام فيصل وانشائه ، وبعد ذلك يراجع ما يراد نشره من قبل سكرتاريته التي فيها علماء لاصلاح الغلط اللغوي إذا وقع فيه ، ولكن حافظ وهبه دعاوى غير صحيحة .

(٢) نشرنا في بعض الفصول السابقة الكتب التي أشار إليها فيصل .

« هل هذه الأعمال مما يقرب زمن الاتحاد العربي ؟ وهل بمثل هذه السياسة تُجتذب قلوب أمراء العرب ؟ .

« يصرّح ملك الحجاز بأنه خاطب سلطان نجد في أنه مستعد للتنازل عن عرشه وتسليم زمام الأمر إلى من يستطيع أن يقود العرب إلى طريق النجاة والسلامة ، وهذا أمر لا أساس له بالمرة ، بل الواقع يخالفه تمام المخالفة . نعم إن ملك الحجاز قد يصرح أمام بعض الجماهير بمثل هذه التصريحات للتمويه على البسطاء .

« إن ملك الحجاز يحاول أن يتولى الزعامة غير المقيّدة في جزيرة العرب كلها ، وأن يستذلّ أمراء العرب ، ويقتطع بلادهم ، ويتدخلّ في شؤونهم الداخلية ، وهذا ما لا يمكن أن يوافقه عليه أحد .

« وإن مكاتبات ملك الحجاز إلى أهل القصيم وحثّه إياهم على نقض ولائهم لسلطانهم لدليل بيّن على ما يخفيه وينويه لسلطان نجد وبلاده .

« إن تحت يدنا من الكتب والرسائل التي وجدت في « تُرَبَة » وفي « الخُرمة » و « عَسِير » ما يفيد أن ملك الحجاز وولده عبدالله لا يسعيان إلاّ لشهواتهما ومصالحهما ، ولو أدى ذلك إلى هدم بناء العرب ، وإننا نمسك عن نشرها الآن ، وإن سمح لنا ملك الحجاز بنشرها نشرناها ، وهنالك يعلم العالم الإسلامي والعربي تلك الجنايات والدسائس التي يقوم بها هؤلاء القوم الذين اتخذوا الصياح وقلب الحقائق ديدناً لهم .

« وسيعلمون أيّ الفريقين جنى على أمته العربية ووحدتها ، وأيهم سبّب هذا الانقسام ، وألقى النفرة بين الأمراء ، وأشعل نيران الفتن والحروب بينهم ؟ .

نعم ، سيعلمون أن سلطان نجد لم يكن في جميع مواقفه إلاّ مدافعاً

عن نفسه وبلاده وشرفه ، وأنه كان – ولا يزال – راغباً من صميم فؤاده في إنشاء « الوحدة العربية » على أساس يجعل للعرب قوّة ومكانة تليق بتاريخهم المجيد » .

فيصل بن عبد العزيز آل سعود

الاحساء : ٢٠ رجب ١٣٤٢
٢٦ فبراير ١٩٢٤

ولم يكتف فيصل برده هذا في الأهرام فوزع منشورات تحمل رأي السعوديين في التهم التي وجهها إليهم الملك الحسين وردهم عليها ، وقد وزعت على نطاق واسع ، واستطاع فيصل أن يكسب الموقف لصالح أبيه في العالم الاسلامي ، كما أن أنصار السعوديين في العالم العربي قد استطاعوا أن يكسبوا إلى جانبهم أنصارا جددا .

وخطة فيصل التي اتخذها في الرد على دعاية الحسين والدفاع عن السعودية والوهابية قد نجحت ، فقد كتب علامة الشام محمد كردعلي في مجلة « المقتطف » بحثا عظيما في « الوهابية » وأعاد نشره في كتابه « القديم والحديث » الذي طبع في مصر ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) ومما قال كرد علي :

« وما ابن عبد الوهاب إلا داعية مصلح هداهم من الضلال ،وساقهم إلى الدين السمح ، وإذا بدت شدة من بعضهم فهي ناشئة عن نشأة البادية ، وقلما رأينا شعبا من أهل الاسلام يغلب عليه التدين والصدق والاخلاص مثل هؤلاء القوم ، وقد اختبرنا عامتهم وخاصتهم سنين طويلة فلم نرهم حادوا عن الاسلام قيد غلوة » .

وكان الهاشميون قد ركزوا في أذهان الناس في العالم العربي والاسلامي أن الوهابية مذهب خارج على الاسلام ، وأن الوهابيين متوحشون يكفِّرون

كل من عداهم ، وابن سعود وجيشه هم هؤلاء الوهابيون المتوحشون القساة .

وكانت مهمة فيصل شاقة وعسيرة ، فهو يحارب الدعاية الهاشمية في عديد من الميادين ، في السياسة ، وفي الدين ، وفي الاجتماع ، فالوهابية منذ بدأت دعوتها وهي تحارب من الحكومات والعلماء ، وما زالت الحرب معلنة ، والخصومة بين السعوديين والهاشميين جعلت هؤلاء ينبشون الماضي ويستخرجون دفائنه وينشرونها لينفروا الأمم والشعوب من ابن سعود زعيم الوهابية والوهابيين حتى استطاعوا أن يحملوا الناس على بغضهم وكراهيتهم ، وأن يعادوهم أشد العداء ، إذ اتخذوا سلاح الدين في قهر السعوديين الوهابيين .

وكان الجانب الديني في مهمة فيصل بن عبد العزيز أشق وأعسر من الجوانب السياسية والعسكرية ، فالفكرة عن الوهابية والوهابيين غاية في السوء ، ولكن فيصلا نجح في اتخاذ دعاية مضادة تكشف حقيقة الوهابية وأنها هي دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الوهابيين حماة هذا الدين وحراسه ، وما ابن سعود الا مسلم حق .

وكما نجح فيصل في ميدان الدعاية الدينية نجح في الدعاية السياسية ، وأخذت صحف في مصر وغيرها تنشر الحقائق عن الدعوة الوهابية وما يسمى المذهب الوهابي ، فقد تصدت مجلة « المنار » في القاهرة لصاحبها محمد رشيد رضا للدفاع عن الوهابية ونقد الشريف الحسين كما انبرت صحف وعلماء وكتاب جندهم فيصل للدفاع ولتقرير الحقيقة عن الوهابية .

كل هذا كان ينهض به فيصل ومؤتمر الكويت منعقد ، فلما أخفق اتجه إلى الناحية السياسية وقام بنشاط عظيم أثمر تخطئة الحسين وأبنائه في سياستهم التي ذهب فيصل إلى أنها سياسة لا يراد منها جمع صفوف

العرب ، بل يراد منها السيطرة عليهم ودفعهم لخدمة مصالح الهـــاشميين وحدهم .

وكان أسف بريطانيا بالغا من إخفاق مؤتمر الكويت لأنها أبصرت جهودها السلمية قد أهدرها حليفها الحسين في حين أن ابن سعود ظهر بمظهر المسالم النبيل المحافظ على مودتها فاحترمته وقدرته ، وأخذت الحوادث تباعد بين الملك الحسين وبريطانيا بقدر ما كانت تقرب ابن سعود منها .

وقلق ابن سعود من إخفاق مؤتمر الكويت ، ورأى نفسه محاصرا بين جبهة الشرفاء ، والخطر محدقا به ، فإن لم يتداركه قبل الاستشراء تفاقم الشر واتسع الخرق على الراتق فيعجز حينئذ على القيام بعمل مفيد ، فالاستعداد للخطر قبل وقوعه ومداهمته ودفعه خير من الانتظار والاغفاء .

ولئن أخفق مؤتمر الكويت وعودة المندوبين الى أقطارهم في ٩ إبريل ١٩٢٣ (رمضان ١٣٤٣) فلن يخفق مؤتمر الرياض الذي انعقد بحضور آلاف من مدن نجد وقراها وهجرها وبواديها ومن بعض قرى الحجاز وعسير التابعة لابن سعود وبحضور بعض شيوخ تربة والخرمة ، ولن ينقض ما أبرم فيه ، وسينفذ كل ما قرر به ما دام الحق رائده .

وقد زعم بعض المؤرخين الذين دونوا تاريخ عبد العزيز بن سعود أن القرار التاريخي الهام الذي اتخذ في مؤتمر الرياض كان قرار غزو الحجاز وفتحه والاستيلاء عليه ، وقد ذهبت مذهبهم عندما ألفت هذا الكتاب ، لأنني أظن أن ذلك الزعم صحيح ، ووقعت فيما وقعوا وقلت ما نصه :

« انعقد المؤتمر وختم بقرار عظيم هو غزو الحجاز وتخليصه من الحسين وفتح باب الحج للنجديين بالسيف ، ووضع حد لسياسة الحسين البعيدة

عن القصد والاعتدال ، غير أن ابن سعود الحكيم المجرب الملهم لم يرد أن يبدأ في تنفيذ قرار المؤتمر وتريث فيه ، لأن موسم الحج قد بدأ، فالمؤتمر قد انعقد في ذي القعدة سنة ١٣٤٢ هـ والحجاز حينئذ مكتظ بالوافدين ، فمهاجمته في هذا الشهر أو الشهر الذي يليه تعرض الغزاة الفاتحين لنقمة العالم الاسلامي وخصومة بريطانيا وفرنسا وهولندا وغيرها من الدول الاوربية التي لها رعايا مسلمون ، فالحرب لا تعرف وافدا أو غير وافد ، فاذا أوذي أحد من الحجاج احتجت حكومته ، وفي ذلك عرقلة للاعمال واحباط للمشروع الذي لا يريد ابن سعود أن يقف في سبيله ما يمنع تنفيذه اذا بدىء به حسب الخطة التي رسمها هو نفسه .

« ثم لم يقنع بالارجاء ، بل هداه تفكيره الى أبعد من ذلك فاحتاط للأمر ورأى من الخير أن يهاجم الحجاز بعد سفر الحجـــاج ويحتل الطائف وتنتظر فيه الجيوش ، لتكشف الحوادث التي تبدأ من حدود الحجاز حتى تنتهي الى الطائف علاقة الحسين بالدول والحكومات ، فان كانت قوية لم يكلف نفسه عناء كبيرا في الرجوع ، واذا وقفت على الحياد أمر جيشه بالتقدم وأسرع هو نفسه من الرياض الى مكة يتسلم القيادة العامة ويدير دفة الحرب ويقف على سيرها وعلى التطورات بنفسه، لأن الحجاز غير البلدان التي غزاها ابن سعود ، ففيه سفراء الدول الاجنبية وقناصلها ، ويجب أن يصون رعاياهم ، ويجب ألا يصطدم بهم ان أراد لعمله النجاح .

«وان الايام تكشف لنا بعد نظر ابن سعود وحكمته وعبقريته وكفاءته الحربية والسياسية ، فهو قد مهد للغزو منذ زمن لانه عرف نفسية خصمه وعرامه وعناده تمهيدا سيضطر الحسين نفسه ويستفزه للحرب والقتال ، دون أن يثير بريطانيا والدول المرتبطة مصالحها بالحجاز ، في الوقت الذي يعبىء الحسين باستفزازه قلوب النجديين سخطا ويملؤها كراهية ومقتا ، ويحملهم

على أن يهبوا في وجهه هبة رجل واحد ، غير أن سبق الحوادث ليس من سجية القائد الكبير ، بل التمهيد للافادة منها قبل وقوعها والسيطرة عليها ثم الخروج منها بالظفر طلابه ومقصده .

«ان ابن سعود عبقري حقا ، ولولا عبقريته لما هداه عقله إلى هذا التفكير البعيد ، وإلى هذا الحساب الدقيق ، فهو قد أحكم الخطة ومهد المقدمات وقدر النتائج وأقام الدرجات إلى القمة التي بها غايته ، فاذا حان الوقت المناسب صعد الدرجة الاولى ، فاذا لم يجد ما يمنع خطا إلى الثانية ثم إلى الثالثة ، فاذا ألفى السبيل إلى القمة أمينا قطع الدرجات الباقيات طَفْرا اليها ، وأدرك غايته المنشودة في يسر وسهولة .

عبأ كل ما يحتاج اليه الغزو من قوى وجهود وجنود انتظارا لليوم الموعود ، فلننتظر مع المنتظرين حتى يحين » .

كنت أعتقد هذا فلم أغير شيئا منه في طبعة «صقر الجزيرة» الثانية ، وتركته كما كان في الطبعة الأولى ، فلما عزمت على هذه الطبعة جدّ لدي من العلم ما يختلف عما كنت أعتقد ، وحق عليّ أن أصحح الخطأ الذي وقع فيه المؤرخون وجاريتهم فيه .

وصواب الأمر أن ابن سعود لم تكن لديه فكرة غزو الحجاز ، ولهذا لم يخطط تنفيذها ، ولم يدر بخلده قط أن ينتزع من الحسين عرشه ويتربع عليه بعد طرده هو وأبنائه من الحجاز ، فقد كان ابن سعود يرى الحسين والده وسيده وسيد الجميع كما كان يصفه في رسائله اليه .

وقد القيت فكرة غزو الحجاز بمؤتمر الرياض من قبل بعض زعماء القبائل الألى حضروه ، ودعوا إلى ذلك بحماسة وبشيء غير قليل من الرعونة بسبب منع الحسين النجديين من الحج ، ولكن ابن سعود جبههم

ورد عليهم بعنف ، فهو لن يجرد السيف على والده الملك الحسين اعتداء وابتداء ، ولن يجرده دفاعا عن نفسه وشرفه وكرامته وحكومته وبلاده وأمته إلا بعد نفـــاد كل وسائل السلم والمودة ، وإذا اضطر إلى دفع سيوف الحسين المصلتة عليه فإنه لن يحقد عليه ، وسيصبر على شدة الحسين ومناوراته وبغضه إياه ما دام هناك مجال للصبر .

وتصحيح الخطأ الذي وقع فيه المؤرخون يجيء ممن يملكه حقا ، ذلك هو الملك فيصل الذي كان على علم بما جرى في مؤتمر الرياض ، ووقف على كل الاحداث والتطورات التي سبقت فتح الحجاز حـــتى انتهت اليه .

ولقد سعدت بمقابلة الملك فيصل بالطائف في صباح يوم السبت ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٩٢ (١ يوليو ١٩٧٢ م) وأعلمته أنني عازم على إعادة طبع كتابي « صقر الجزيرة » وجاء بحث فكرة غزو الحجاز وتخطيط الملك عبد العزيز للغرو قبل وقوعه ، فنفى جلالته أن يكون هناك خطة لغزو الحجاز وإعداد لتنفيذ الخطة ، بل جاءت الأحداث دراكا ، وانتهت بفتح الحجاز مصادفة ، وقال جلالته :

«إن الملك عبد العزيز لم تكن لديه فكرة غزو الحجاز ، وما دار بخلده أن يقوم به في يوم من الأيام ، ومراجعة الأحداث التي سبقت مجيء الملك عبد العزيز إلى الحجاز تثبت أن الامر تم مصادفة دون أن يكون هناك تهيئة وإعداد ، ودون أن يكون لدى الملك عبد العزيز أو أحد منا فكرة سابقة ، ففتح الحجاز وليد مصادفة محضة ، وكان فتحه مفاجأة غير منتظرة ، ولكن الاحداث التي وقعت أدت إلى هذا الفتح » وأكبر دليل على ذلك أن الملك عبد العزيز لم يكن يفكر في غزو الحجاز وفتحه والاستيلاء عليه أنه ترك الكلمة الأخيرة للعالم الاسلامي في أمر الحجاز ومستقبله ، ولكن الحجاز تشبث به ، وشعبه بايعه بحرية تامة ، وطلب

اليه أن يكون حاكمه الشرعي » .

وهذا كله حق ، فقد كان الملك علي بن الحسين قد بعث برقية إلى السلطان عبد العزيز بن سعود يطلب اليه الصلح ، فأجابه بهذه البرقية :

« ٩ ربيع الثاني ١٣٤٣

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل إلى الشريف علي بن الحسين

« تعلمون أن الحرمين الشريفين ليسا ملكا لاحد ، ولكن الأشراف وعلى الأخص والدكم قد اعتبر الحجاز ملكا خاصا ، ولقد عانى المسلمون جميعا وأهل نجد خاصة الأمرّين من سوء معاملته .

نحن لا نريد الا تحرير المسلمين للحجاز ، وللعالم الاسلامي الكلمة الأخيرة في أمر الحجاز ومستقبله ، فان أردت السلامة فاترك الأمر للمسلمين ، والله يسدد خطانا ويؤيد دينه ويعلي كلمته » .

والخلاف بين الحسين وابن سعود على الخرمة وتربة ، فكلاهما يدعى أنهما تابعتان له ، وكل يحتج بحجج ، ولكنهما كانتا خارجتين عن سلطة الحسين ، ودانتا لابن سعود ، وأهلهما صاروا وهابيين ، وخلعوا عن أنفسهم طاعة الحسين وبايعوا ابن سعود على السمع والطاعة ، ولما أراد الشريف عبدالله بن الحسين ضرب تربة والخرمة في سنة ١٣٣٧ وكانتا تابعتين لابن سعود ، واستنجد أهلهما الذين بايعوه فأنجدهما دون أن يحضر هو نفسه .

وإذا كان ابن سعود خائفا من قبل من الحسين لادعائه أنه ملك البلاد العربية فقد انتهت مخاوفه ، فلم يعد الا «ملك الحجاز» وليس غير ،

وزال الخطر منه كل الزوال بعد هزيمة جيشه الماحقة في تربة ، وابن سعود يعلم كل ذلك ، وكل الذي يريده منه أن يسمح للنجديين بالحج دون أي قيد أو شرط .

وإذا كنا على أساس الواقع وأحداثه ننفي وجود تخطيط وفكرة سابقة عند ابن سعود لغزو الحجاز فان هناك دعاوى جاءت من الشيخ حافظ وهبة في كتابه «خمسون عاما في جزيرة العرب» صدر في سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠) بعد وفاة الملك عبد العزيز بثماني سنوات .

وهذه الدعاوي ينسب فيها حافظ وهبة إلى نفسه كل نجاح عبد العزيز قبيل فتح الحجاز وبعده حتى انتقل إلى رحمة الله في غرة ربيع الأول سنة ١٣٧٣ ويصوره في دعاواه صورة غير صحيحة ولا تتفق مع حقيقة عبد العزيز وواقعه .

يقول حافظ وهبة في صفحة ٥٥ — ٦٦ من كتابه « خمسون عاما في جزيرة العرب » ما نصه :

«وكان الجو السياسي ملائما لابن سعود من جميع النواحي ؛ فإن إعلان الملك حسين الخلافة ، أغضب مسلمي الهند ومصر ، وأكثرية العالم الإسلامي ، فالخلافة تحتاج إلى من يحمي حوزة المسلمين ، ويدافع عن مصالحهم ، والملك حسين رحمه الله أضعف من أن يحمي نفسه ، وقد أثبتت الحوادث ذلك . وكان الملك حسين يقف موقفا تجاه فلسطين لا يرضي بريطانيا ، فعلى من يعتمد ؟ إنه كان يعتمد على أخيلة لم تحققها الأيام .

« لذلك أشرت على الملك عبد العزيز أن يضرب ضربته بالإخوان النجديين سيوف الإسلام ، ولكن ابن سعود لم ينس إنذار البريطانيين له

في سنة ١٩١٩ بعد قضائه على جيش الملك حسين في « تربة » ، والذي كان يقوده الشريف عبدالله (الملك عبدالله) ولكني شرحت لجلالته الظروف التي تحيط بالملك حسين في ذلك الوقت ، وهي تختلف اختلافا بينا عنها في سنة ١٩١٩ ، ففي هذه السنة كان حليفا مطواعا لبريطانيا ، وفي سنة ١٩٢٤ أصبح مناوئا .

«لقد كان ابن سعود متهيبا أكثر منه مترددا ، وأنا أستحثه على انتهاز هذه الفرصة ، والفرص لا يجود بها الزمن أكثر من مرة . إنه لم يكن يصدق أنه سيستولى على الحجاز ، ولم يكن يصدق أن الملك حسينا ضعيف بالدرجة التي كنت أصورها له ، ولكنه اقتنع أخيرا بأن يهجم على الطائف ، فإذا استولى عليها جعلها نقطة مساومة بينه وبين الملك حسين ، فأخذت أهيء الجو بمنشورات حماسية ، تحمل اسم الأمير فيصل ، حملت فيها على الملك حسين في إعلانه الخلافة بدون استشارة المسلمين ، وهو ليس بالرجل الذى يقوى على تحمل أعباء الخلافة ، فكان لهذه المنشورات دويّ في الهند ومصر ، وسائر أنحاء العالم الإسلامي. وكذلك أهبت بالمسلمين أن يقوموا في وجه الملك حسين الذي لم يستطع في تلك السنة حماية الحجاج ، وأن يضعوا حدا لادعاء الأشراف حكم الحجاز ، فالحجاز للمسلمين عامة ، ولا يحق لحاكم الحجاز أن يمنع مسلما من أداء فريضة الحج ، وزيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، أما الاستبداد الذى يقوم به الملك حسين في حكم الحجاز فإنه يجافى روح الإسلام ، وفي الوقت نفسه نشرنا « كتابا أخضر » لأول مرة في التاريخ الحديث للبلاد العربية ، ولا شك أن هذه الدعاية الواسعة مع الأثر السيء الذى تركه إعلان الملك حسين نفسه خليفة للمسلمين بدون موافقة المسلمين ، كل هذه العوامل كان لها أثرها الحسن في موقف ابن سعود تجاه الملك حسين » .

ويقول حافظ :

«انتهز سلطان نجد (ابن سعود) فرصة زيارة رؤساء العشائر في عيـد الأضحى سنة ١٣٤٢ ، ولا سيما عتيبة ، وأشراف الحرمة ، وسواها من البلاد المتاخمة للحجاز ، فأمرهم بالاستعداد لغزو الطائف ، والوقوف عنده ، لعل الملك حسينا يرجع إلى رشده ، ولكن الإخوان دخلوا الطائف ومكة فاتحين ، بدون أن يجدوا عقبة في سبيلهم ، بيد أنهم في دخولهم الطائف أعملوا السيف في رقاب كثير من الأبرياء ، كما أعملوا يد النهب والسلب في كثير من أموال الناس ، فاتخذ الأشراف من ذلك وسيلة للدعاية ضد «سلطان نجد» فتلقيت وأنا في الأحساء كثيرا من البرقيات من جمعية الخلافة الهندية وسواها من الجمعيات الإسلامية الهندية ، وأكثرها يربطني بزعمائها رابطة أخوة وصداقة متينة ، فأجبتهم بأن ما وصلهم من الأخبار لا يخلو من مبالغة ، كما أن الحكومة مستعدة لتعويض كل من أصابه ضرر من الإخوان في أثناء فتحهم الطائف ، وبذلك سكنت العاصفة التي أراد الأشراف إثارتها ضد سلطان نجد» .

ويقول حافظ وهبة :

«وعندما وصلت الينا الاخبار عن دخول الاخوان مكة ، وقد كان دخول مكة خارجا عن الخطة المرسومة لهم أخبرت الملك عبد العزيز أن الواجب يقضي عليه — أولا — بمنع الإخوان من الهجوم على جدة خشية أن يقع في جدة ما وقع في الطائف فتكون العاقبة وخيمة ، وأن الواجب يقضي عليه بأن يسافر حالا إلى الحجاز ليشرف بنفسه على الحالة هنالك، وليعرف الناس بنفسه ، وليطمئن الحجازيين ويزيل من نفوسهم الأثـر السيء من مأساة الطائف » .

ويقول حافظ :

«غادر ابن سعود الرياض في ١٣ ربيع الثاني ١٣٤٣ الموافق ١١ نوفمبر ١٩٢٤ على رأس جيش من الحضر ، من خيرة المحاربين ، يبلغ عددهم نحو خمسة آلاف مقاتل ، فقطعنا الطريق من الرياض إلى مكة في ٢٣ يوما ، وكانت تلك الأيام من أسعد الأيام في حياتي . كانت تذكرنا بالحياة الأولى التي كان يحياها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، كنا نقضي أوقاتنا : إما في قراءة القرآن ، أو دراسة البخاري أو مسلم ، أو سيرة ابن هشام ، وكان كل ذلك يتم ونحن نقطع الطريق على ظهور الإبل .

«وفي يوم من أيام رحلتنا ، وكنا نأخذ قسطا من الراحة ، أنا وزميلي الدكتور عبدالله الدملوجي ، إذا برسول من «السلطان ابن سعود» يدعونا إلى خيمته ، فقلنا : خير ، إن شاء الله ، لقد وصلت الينا الصحف من العراق ، تنبيء بسقوط وزارة العمال ، وتأليف البريطانيين المحافظين للوزارة الجديدة ، برياسة « مستر بلدوين » وبالطبع هذا لا يعنينا ، ولكن زميلا من زملائنا أخبر «سلطان نجد» بالخبر ، وأخبره أن المحافظين سيكون أول عمل من أعمالهم المحافظة على الأشراف ، وأن تصريحاتي السابقة بأن الحكومة النجدية مستعدة لتعويض كل من أصابه ضرر في الطائف ، ستوقع نجدا في ارتباك سياسي ومالي ، لا يعلم مداه الا الله ، كما فعلت الحكومة البريطانية مع مصر بعد مقتل السردار .

«لقد هال السلطان هذا التفسير ، وعظمته بالرغم من كبر عقله ووزنه للأمور لا يعرف شيئا عن المحافظين أو العمال أو الأحرار ، كل ما يعرفه أن البريطانيين هددوه في سنة ١٩١٩ بعد الاستيلاء على «تربة» ، وبعد أن ضرب جيش الشريف الحسين ، وكان يقوده الأمير عبدالله (الملك عبدالله بعد ذلك) ضربة لم تقم له بعدها قائمة ، فهو في الواقع جيش من المرتزقة ، لا تجمعهم عقيدة ، ولا دفاع عن هدف قومي .

«أجبنا دعوة السلطان ، فوجدناه واجما مغموما ، فسألنا عظمته : هل لديكم من أخبار هامة ؟ فأخبرته : ليس هنالك من أخبار سوى سقوط وزارة العمال ، وقيام وزارة من المحافظين . فقال على الفور : هـل للمحافظين تأثير في موقفنا ؟ وهل يؤيدون الاشراف ؟ فقلت له : يا مولاي ، إن الإنجليز في سياستهم الخارجية لا تختلف أحزابهم ، إن أحزابهم قد تختلف في شئونهم الداخلية وحدها : فقال : لقد أخبرني زميلكم (فلان) [1] أن المحافظين سيكونون ضدنا . فقلت : إن هذا غير صحيح بالمرة ، وسترى عظمتكم في المستقبل القريب أن المحافظين في موقفهم لا يختلفون عن العمال . إنكم تذكرون أن سعد زغلول باشا كان يعتقد أن « رمزي ماكدنالد » زعيم حزب العمال سيحل معه قضية مصر ، على فلجان [2] من القهوة ، ولكن «سعد زغلول» وجد «رمزي ماكدنالد» لا يختلف عن «كرزن أو ملنر» . إن الذين يضعون السياسة البريطانية دائمون ، والأحزاب على اختلافها تنفذ ما يضعه الموظفون الدائمون . نعم إن وزير الخارجية أو رئيس الحكومة قد يضع توجيها أو شيئا من التعديل للسياسة المرسومة ، ولكنهم قلما يغيرون تغييرا تاما ، تلك السياسة التي يضعها الموظفون الدائمون ، فهي سياسة مبنية على دراسة وافية من لجان واقفة على سياسة العالم . فقال عظمته : هل أنت متحقق مما تقول ؟ فقلت كل التحقق .

«وحينما قرأت في محياه بوادر من الشك والتردد قلت له : يامولاي ،

---

(١) لقد كان من دأب هذا الزميل بلبلة أفكار السلطان عبد العزيز ، لقد بلبل أفكاره قبل ذلك لنشر الكتاب الأخضر (والكتاب المذكور لا يحوى سوى مراسلات بين الإنكليز والملك عبد العزيز والملك حسين) ، وبلبل أفكاره عندما أبرقت لجماعة الخلافة الهندية عن مأساة الطائف ، كما أشرت إلى ذلك آنفاً .

(٢) في « تاج العروس شرح القاموس : فلج : الفلج بالكسر : مكيال . قال : قلت ومن هنا يؤخذ قولهم للظرف المعد لشرب القهوة وغيرها : فنجان . والعامة تقول : فلجان ، وفنجال ولا يصحان اه. يقول مؤلف « صقر الجزيرة » : التعليقان الماران من حافظ وهبه .

إذا كنت في شك من أمرك فخير لك أن ترجع إلى بلدك ؛ وإن كنت واثقا بالله الذى وعد المؤمنين الظفر والتأييد ، فسر في طريقك ولا تتردد . لا تشغل بالك يامولاي بهذه الشكوك . إن بريطانيا لا يهمها إلا المحافظة على رعاياها ومصالحها ، وسيان عندها الشريف حسين أو ابن سعود . لقد كانت لها آمال كبيرة في الملك حسين ، فأنذرتك في سنة ١٩١٩ أما الآن فقد تغيرت الحال ، وخابت جميع آمالها فيه ، فسر على بركة الله ، ولا تتردد ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ فقال : توكلنا على الله ، ولعنة الله على فلان (زميلنا) الذي بلبل أفكارى واسلمنى إلى الشك والتردد .

«وبعد أربعة أيام من هذه الحادثة وصل الينا بريد الحجاز يحمل كتبا من قناصل الدول جميعا يعلنون فيها حياد دولهم في الحرب القائمة في الحجاز ، ويحملون الفريقين مسئولية ما يقع على رعاياهم من ضرر أو تعد ، فكان لهذا البريد وقع حسن وبشارة خير للمستقبل .

وتحقق السلطان (ابن سعود) أن الحوادث تتطور بجانبه ، وأن كل شيء يتوقف على حكمته وكبح شكيمة الإخوان النجديين » .

هذا مثل من دعاوى حافظ وهبة يظهر عبد العزيز بن سعود في ثوب غير ثوبه ، وكأن حافظ وهبه هو المخطط الاول لفكرة غزو الحجاز ، وهو الذى يدفع ابن سعود دفعا ، ويزيل عنه تهيبه وتردده ويبدلهما فيه شجاعة وإقداما ، بل يقول له : « سر » و « لا تتردد » فيسير ولا يتردد.

وإذا رجعنا إلى كتاب حافظ وهبة الذى أصدره سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) وأصدر طبعته الرابعة الأخيرة في جمادى الآخرة سنة ١٣٨١ (نوفمبر ١٩٦١) وجدنا فيه الحقائق دون الدعاوى الباطلة ، واسم كتابه هذا هو « جزيرة العرب في القرن العشرين » .

وها هي ذى روايته في هذا الكتاب في فصل بعنوان «غزوة الحجاز والمؤتمر الاسلامي ، كيف نشأت فكرة الغزوة ؟» .

«لم يكن لجلالة الملك ابن سعود أي فكرة عن غزو الحجاز وفتحه حتى سنة ١٩٢٣ م أولا : لأنه لم يكن واثقا تمام الوثوق بإمكان تغلب قواته على الحجاز ، وثانيا : لأنه لم يكن واثقا من موقف الحكومة البريطانية ، ويحق له أن يحسب لموقفها الف حساب ، فهي التى أرغمته على ترك الحجاز والرجوع إلى نجد سنة ١٩١٩ م بعد ضرب القوات الشريفية في تربة ، وقد كان في إمكان قواته في ذلك الوقت أن تتقدم وتستولي على الطائف ومكة لولا إنذار انجلترا له بأنها تعتبر تقدمه في الحجاز عملا عدائيا موجها ضدها .

«من سنة ١٩٢٢ م رأينا علاقات الملك حسين تسوء مع المصريين ، فرجع المحمل من جدة ، كما ساءت بينه وبين الانجليز والهنود على شتى المسائل : على المعاهدة ، والبعثات الطبية ، وسوء معاملة الحجاج الهنود ، مع عجزه عن تأمين الطريق بين مكة والمدينة ، ومما لا شك فيه أن فريقا كبيرا من مسلمي الهند ومصر لم ينظروا نظرة استحسان لقيام الشريف حسين ضد الاتراك ، ولهذا فانهم قابلوا إعلان الملك حسين نفسه خليفة سنة ١٩٢٤ م في فلسطين إثر الغاء الخلافة التركية بالاستياء الشديد.

«كانت نجد حتى سنة ١٩٢٣ م تكاد تكون في عزلة تامة عن العالم ، وقد أتاح لها الملك حسين الفرص فهل تتركها تفلت من يدها ، لقد تمكن مستشارو السلطان عبد العزيز من إقناعه بفائدة الاتصال بالعالم الخارجي ، وكنت في المقدمة ، فبدأ بارسال برقية منه إلى جلالة الملك فؤاد يهنئه بافتتاح أول برلمان مصري ثم بأحد الأعياد ، وأعلن الأمير فيصل في منشوراته كلها موقف نجد إزاء مسألة الخلافة وإزاء بعض المسائل العربية كالاتحاد العربي ، واتصلت الهيئات الاسلامية في الهند بسلطان نجد

فتم التفاهم على الأغراض الاسلامية العامة ، والجميع متفقون على الاستياء من حالة الحجاز وسوء النظام السائد فيه .

«أخذت كتب التأييد تترى من سائر المدن الاسلامية ، وقوى الصلة بين نجد ومصر أن جلالة الملك عبد العزيز شارك علماء مصر في موقفهم حيال مسألة الخلافة وحلها في مؤتمر يعقد في مصر ، فاكتسبت نجد قوة أدبية لا تنكر .

«فشل الانجليز في محاولتهم تصفية المشاكل بين ابن سعود والاشراف في مؤتمر الكويت ، وكان المسئول الأول عن هذا الفشل الملك حسين ، وخرج ابن السعود من المعركة ظافرا ، لأنه كان متواضعا في مطالبه على خلاف الاشراف فإنهم كانوا مغالين ، ولو أن الاشراف انتصروا على ابن السعود في الحرب وأملوا عليه من الشروط لم تكن شروطهم أشد قسوة مما اشترطوا ، فكيف وهو حتى هذه الساعة لم يهزم له جيش ، والبلاد التي يطالب بها الملك حسين ويدعى ملكيتها لا تزال بيده ، وضعت نجد لأول مرة الكتاب الأخضر وشرحت فيه المسائل المختلف عليها وما يطالب به الحجاز وشرق الاردن والعراق ليكون الموضوع كله أمام العالم الاسلامي والعربي ، وكانت خطوة موفقة اكتسب بها السلطان عبد العزيز عطف عقلاء العرب والمسلمين ، ولكنه لم يصغ إلى ما أشار به مستشاروه من الهجوم على الحجاز ولو لتصفية الخلاف مع الملك حسين لاعتبارات كثيرة .

«خرج السلطان من مؤتمر الكويت وهو موقن بأن الاشراف لايريدون به خيرا ، وأنهم لا يألون جهدا في خلق المشاكل له ولبلاده ، ولكنه قنع أخيرا بفكرة الهجوم على الطائف والاستيلاء عليه فقط ليساوم الملك حسينا عليه ، فلعل الرجل يعدل عن غطرسته ، وتقرر أن يكون ذلك بعد رجوع الحجاج إلى ديارهم دفعا لما قد يحدث من المشاكل ، وسينجلي موقف الملك حسين وموقف الحكومة البريطانية بعد احتلال الطائف .

«لقد كنت موقنا بان الإخوان سيتغلبون على قوة الشريف ، وموقنا بان انكلترا ستقف موقف الحياد ، لأن سياسة ابن السعود إزاءها كانت سياسة مجاملة تامة وودية للغاية بعكس سياسة الملك حسين .

«جاء عيد الاضحى وقدم رؤساء الإخوان — أهل الحرمة وعتيبة وأهل الغطغط — وغيرهم من قادة الإخوان للمعايدة على ولي أمرهم ، وانتهز هو هذه الفرصة وعرض عليهم مسألة غزو الحجاز فهشوا وبشوا للمشروع ، لأنهم سيطهرون بيت الله من البدع ، وينشرون دين الله الصحيح ، ولأنهم سيغنمون الأموال وقد ذاقوا حلاوتها في تربة كما سيغنمون أجر الجهاد من الله ، وقد وضعت خلاصة عما دار في المؤتمر من الأحاديث ، وأرسلت إلى جميع الصحف العربية والهندية فكان لها صدى استحسان .

«ترك الإخوان الرياض إلى بلدانهم ليستعدوا للجهاد : جهاد الملك حسين ، وما أسهل استعدادهم للغزو ، وهل يحتاج الامر الا الى الناقة والبندقية والزاد والذخيرة ؟ لم ينتصف شهر المحرم سنة ١٣٤٣ حتى بدأ الإخوان بمناوشاتهم مع بادية الحجاز ، وأكثرها ناقم على الملك حسين ، ثم أخذوا يتقدمون وجيوش الملك حسين لا تقف في وجوههم حتى استولوا على الطائف في ٥ صفر ١٣٤٣ ثم وقفوا ينتظرون أمر مولاهم ، ولقد حاول الملك حسين أن يستغل الحوادث التى وقعت في الطائف ضد خصمه في تنفير العالم الاسلامي ، ولكنه فشل في ذلك ، ومرت الحادثة بدون أن يكون لها أثر عظيم في نفوس المسلمين ، وبرنامج ابن سعود خلاب يجتذب النفوس ، ويتفق مع الروح الطيبة التى يتمناها عقلاء المسلمين لمهبط الوحي .

« إن برنامجه أنه لا يريد الفتح ولا علوا في الارض ولا فسادا ، وكل ما يريده هو طرد الأشراف وتطهير بيت الله ومهبط وحيه من ظلمهم

وتحكمهم ، وأن مكة للمسلمين عامة ، وأنه سينزل على رغبة العالم الاسلامي في ذلك كله .

« ظــل الإخوان في الطائف أمر إمامهم ، وليس هناك سيارات أو تلغراف بين الطائف والرياض ، والمواصلة الوحيدة هي الجمل ، والمسافــة ذهابا وإيابا لا تقل عن ٢٥ يوما . إذن ، يجب أن ينتظر الإخوان هذه المدة وسلطانهم قد شدد عليهم ألا يتجاوزوا الطائف ، وإلا فهو يبرأ إلى الله منهم ، أي أنهم سيكونون عاصين في عملهم ، ولا داعي إلى ذلك ، فالغنائم التي استولوا عليها تحتاج إلى وقت لتقسيمها بينهم بالعدل .

« جمع الملك حسين آخر ما لديه من جنود وجهزهم بآخر ما لديه من الأسلحة وسيرهم إلى الطائف لضرب الإخوان وطردهم منها ، وهنا كانت معركة الهدى التي انقض الإخوان على جنود الملك حسين وهزموهم هزيمة منكرة ، واستولوا على جميع ما كان لديهم من مال وسلاح .

« وهنا رأى الملك حسين أنه لم يبق له مقام في مكة ، فاستعد للرحيل منها وتنازل عن الملك لولده علي بعد أن أخلوا مكة ونقلوا كل ما يمكن نقله ، ثم دخــل الإخوان مكة صلحا لا حربا ، فدخلوها خاشعين ، وتولى الشريف خالد بن لؤي إمارة مكة ، ولقد صدق المثل : « كمــا تدين تدان » فكما سلط الشريف حسين على الاتراك وبيوتهم فأعملــوا فيها يد النهب والسلب كذلك سلط الله عليه الإخوان فقاموا بنفس الرواية التي مثلت مع الاتراك ما عدا القتل ، فان يدهم لم تمتد إلى قتل أحد في مكة .

«وبعد فتح مكة أرسلت الدول التي لها ممثلون في جدة مذكــرة إلى الطرفين المتحاربين يذكرونهما برعاياهم وحسن معاملتهم ، ويحملونهمـــا تبعة ما يقع عليهم من الأضرار ، وأنهم جميعا سيقفون موقف الحياد في

النزاع بين الفريقين ، فكانت هذه المذكرة أحسن بشرى للملك الذى كان يساوره بعض القلق ، فعجل بالسفر إلى الحجاز ليتولى بنفسه استصفاء الحجاز وليحول دون تكرار مأساة الطائف ، ولم يكن هنالك ما يمنع الإخوان من الاستيلاء على جدة لولا ما أمرهم به إمامهم ، فكانت هذه خير فرصة للشريف علي حصن فيها جدة ، وحشد فيها القوات العسكرية التي جمعها من فلسطين وشرقي الاردن ما جعلها تقاوم نحو سنة .

«غادر السلطان عبد العزيز الرياض في ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٤٣ — ١١ نوفمبر ١٩٢٤ ، فودعه أهلها وعلماؤها وكبار أعيانها ، وقد ودع أهلها بهذه الكلمات الخالدة التي نشرتها الصحف في حينها ، واعتبرها العالم الاسلامي عهدا جديدا لبلد الله الحرام :

«إني مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها ، بل لرفع المظالم والمغارم التى أرهقت كاهل عباد الله ، إنى مسافر إلى مهبط الوحي لنبسط أحكام الشريعة ، ونؤيد أحكامها ، فبعد الآن لا يكون سلطان في مكة الا للشرع ، وجميع الرؤوس يجب أن تطأطىء للشريعة ، إن مكة للمسلمين كافة ، فأمر إدارتها وتنظيمها يجب أن يكون طبق رغائب العالم الاسلامي ،

«إننا سنجتمع بوفود العالم الاسلامي هناك ، وسنتبادل معهم الرأي في كل الوسائل التى تجعل بيت الله بعيدا عن الشهوات السياسية ، وتحفظ راحة قاصدى حرم الله .

«وقد وصل إلى مكة المكرمة في ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣ — ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٤ فدخلها دخول العبد الخاضع والمسلم الخاشع ، لا الملك الفاتح ، ولا الجبار المتكبر ، فكان وصوله إلى مكة أكبر مصدر للطمأنينة ، وأكبر مواساة للجروح الكليمة التي تركتها قسوة الإخوان في الطائف » .

هذه رواية حافظ الصحيحة وإن لم تخل من بعض الهنات ، فاذا عورضت بروايته الأخيرة المتاخرة بدت كل رواية وكأنها لراو غير الآخر ، ففي روايته الاخيرة دعاوى ظاهرة البطلان ، فهو ينسب لنفسه كل فضل ، وكأن ابن سعود معطل التفكير محدود الذهن مظلم البصيرة خواف متردد خوار ضعيف ، وكأنه تابع موهون القوى .

ومن المؤسف أن يدعي حافظ وهبة أمجاد ابن سعود بعد موته ، ويسلبه مفاخره وعبقريته ليبدو عبقرياً وما هو بشيء من ذلك ، فنحن نعرف طاقته وثقافته وعلمه ، ولهذا لا تجوز علينا دعاواه ، وكلنا نعرف أنه «جامد» الذهن ، ولكن الذين لا يعرفونه الا من كتابه الأخير يعتقدون أن ما زعمه لنفسه من المفاخر والامجاد والعبقرية حق .

وقد ترجم حافظ كتابه إلى الانجليزية بقلم صديقه السيد محمود رياض ازاده ، الذي قال عنه في المقدمة : «حمل عني عبء ترجمة الكتاب إلى للغة الانجليزية ، لأنه من الذين يجيدون معرفة هذه اللغة وآدابها إجادة تامة ، وغرضي من هذه الترجمة أن يطلع العالم الغربي على أطراف من سيرة الملك العظيم الراحل عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ، ومبلغ ما حققته المملكة العربية السعودية في عصره من التقدم والرقي» .

وضلل كتابه الناس ، فعندما توفي حافظ وهبة رثته جريدة التيمس اللندنية بكلمة جاء فيها أن حافظ وهبة شريك الملك عبد العزيز في فتح الحجاز ، وما قالت التيمس ما قالته إلا اعتمادا على كتاب حافظ .

ولو كان حافظ وهبة عبقريا إلى هذا الحد الذى وصف به نفسه حتى كان يوجه عبد العزيز ويرشده ويصنع له الخطط فأين ذهبت عبقريته بعد موت ابن سعود ؟ .

لقد عاش حافظ بعد موت ابن سعود حوالي خمس عشرة سنة أو أزيد ، فلم نجد له ما يدل على ذهنية حية وملكات قوية ، فأين ذهبت تلك العبقرية التى كان من ثمارها فتح الحجاز ؟ .

هنا أذكر يوسف ياسين الذى كان على صلة أوثق بالملك عبد العزيز ، فقد تحدث ذات مرة عن ابن سعود وعن مستشاريه فقال : نحن نعيش فكريا وسياسيا بعبقرية عبد العزيز ، وإذا استشارنا في أمر فليس معناه أننا نرجح عليه عقلا ورأيا ، وعندما تفاجأ المملكة بقضية سياسية ويغمرنا جميعا ومعنا الملك عبد العزيز ظلام حالك فلا نجد طريقنا ونقع في حيرة لا مخرج منها نجد المخرج والنور والطريق لدى الملك عبد العزيز ، ولا غرابة فهو عبقري ملهم وذكي ومجرب ، ونحن من العاديين .

وقال يوسف ياسين : إذا رأيتم أحدنا وفق في مهمة سياسية أو سفارة أو قضية فليس مرد ذلك إلى مزية فينا ، بل الفضل كله بعد الله إلى عبقرية عبد العزيز ، نحن «بوسطجية» نحمل عبقريته ولا فضل لنا .

ولم يقل يوسف ما قال الا بعد موت الملك عبد العزيز بسنوات ، وقريب من هذا سمعته من الشيخ فؤاد حمزة .

ومن يعرفون حافظ وهبة ويوسف ياسين وفؤاد حمزة يعرفون أن حافظ وهبة لا يذكر مع هذين ولا يأتي معهما في صف واحد ، بل يتخلف عنهما كثيرا ، ويزداد فضلهما أنهما صادقان وهو مدع وغير صادق .

الى الطائف

أهل هلال المحرم من سنة ١٣٤٣ هـ وأخذ حجاج بيت الله الحرام يغادرون الحجاز الى أوطانهم ، وفي العاشر منه خلا من أكثر الوافـدين فحان الوقت الموعود للغزو ، واجتمعت الجيوش بالرياض واستعدت لـه أكمل استعداد ، كما أن جيشاً آخر سعوديا تجمع بتربة تحفزا للوثوب ، ما أقعده الا انتظار أمر ابن سعود ، وقبيل أن ينتصف المحرم تلقى خالد بن لؤى — وكان بتربة — امر الغزو وخطته من الرياض ، فبارحها ومعه ستة عشر لواء ، على كل لواء أمير .

وهذه الالوية الستة عشر مع أسماء أمرائها :

١ — لواء أهل تربة والخرمة وأميرهم خالد بن منصور بن لؤي ، وقد عينه ابن سعود أميرا على الحملة كلها ، ووكل اليه النظر في المصالح العامة في البلاد التي تفتح بيد الجيش السعودي .

٢ — لواء الغطغط مع أميرهم سلطان بن بجاد ، وجعله ابن سعود القائد العام للقوات الزاحفة الى الطائف .

٣ ـ لواء أهل ساجر بيد أميرهم عقاب بن يحيي .

٤ ـ لواء أهل عرو مع رئيسهم جهجاه بن حميد .

٥ ـ لواء أهل عسيلة وأميرهم نافل بن طويق .

٦ ـ لواء أهل هجرة الارطاوي مع زعيمها قعدان بن دويش .

٧ ـ لواء أهل العمار مع عبد المحسن بن حسين .

٨ ـ لواء سكان رنية مع قائدهم وشيخهم فيحان بن صامل .

٩ ـ لواء أهل الردينية وأميرهم عبدالله بن صعمر .

١٠ ـ لواء أهل عرجا وأميرهم ذعار بن الزميع .

١١ ـ لواء الرين العليا بيد حزام بن عمر .

١٢ ـ لواء الرين السفلى بيد هذال بن سعيدان .

١٣ ـ لواء أهل النصف وأميرهم معيد بن عبود .

١٤ ـ لواء أهل صبحا وأميرهم حزام الحميداني .

١٥ ـ لواء أهل حلبان وأميرهم ماجد بن حميد .

١٦ ـ لواء أهل الروضة وأميرهم هذال بن فهد .

واجتاز هذا الجيش حدود الحجاز واحتل أول ما احتل قلعة كلاخ ، ثم احتل الاخيضر ، فانضم اليه بعض الشرفاء من بني الحارث ورجال

من ثقيف ، وبلغ عدد الجيش كله ثلاثة آلاف مقاتل ، وأخذوا يحتلون القرى ويقاتلون القبائل التى تمتشق الحسام للدفاع حتى أشرفت على الحوية [1] صباح السبت غرة صفر سنة ١٣٤٣ هـ (سبتمبر سنة ١٩٢٤ م) .

وما كان أحد بمكة أو بالطائف يعلم أمر هذا الغزو المباغت ، بل ما علمت الحكومة الهاشمية الا حينما دخل الجيش السعودي الحوية فأصدر صبرى باشا وزير حربية الشريف حسين أمره بالدفاع ، فخرج من حامية الطائف أربعمئة جندي نظامي كاملو العدة ومعهم المدافع الجبلية الضخمة والمدافع الرشاشة واتجهوا الى الحوية لرد الغزاة الذين اشتهروا باسم « الاخوان » وكان بين الفريقين معركة حامية الوطيس أمطر فيها الجيش الهاشمي خصمه قنابل ورصاصا كالمطر سبع ساعات دراكا ، الا أن الاخوان شدوا عزائمهم ووحدوا صفوفهم وانقضوا على الجيش الهاشمي ، فقابلهم بهجوم مضاد عنيف ، وضغطت المدفعية السريعة على جناحيهم ضغطا شديدا وزحزحتهم عن الاماكن التي تقدموا اليها وأعطت الجنود الفرصة الكافية للتقهقر الى الوراء تدريجا والانسحاب من ميدان الحوية بانتظام للثبات في موضع آخر أحسن ملاءمة من الموضع الحالي .

واحتل الجيش الهاشمي الربى والهضاب الرابضة على جنبات الطائف خارج السور وركز المدافع القوية وزود الرماة بالقنابل والرصاص ، وبث الكشافة في الطريق للاستطلاع ، وحصن المراكز تحصينا قويا ، ووضع في الخط الامامي من جانبي الطريق جيشا من البدو .

وزحف ابن بجاد وخالد بجيشهما فأصلتهم المدافع نارا حامية ، وارهقهم البدو التابعون للجيش الهاشمي فلم يستطيعوا التقدم ، ودامت المعركة

---

(١) الحوية : تبعد عن الطائف خمسة وعشرين كيلومترا .

ثلاثة أيام بلياليها ابتداء من يوم الاثنين ٣ صفر حتى عصر الاربعاء ٥ صفر ، وكاد النصر يحالف الجيش الهاشمي لولا أن البدو الذين كانوا معه في الصفوف الامامية خانوا وانضموا الى الاخوان حتى اضطر الجيش النظامي المدافع الى التقهقر ، في حين أن الاخوان أخذوا يتقدمون قليلا قليلا ويحتلون الهضاب والتلول يخليها العدو المتقهقر الذى وقف عند أسوار الطائف يدافع باستبسال وحماسة واستماتة .

وسمع الملك الحسين بخيانة البدو وتراجع جيشه فأرسل ابنه عليا بجيش من الخيالة والهجانة ، وأمره أن يسلك طريق كرا ، وبعث جيشا آخر من طريق السيل ليلتقي طرفا الكماشة في الطائف ، ويستطيع الهاشميون تطويق أعدائهم .

ودوى أزيز الرصاص والقنابل في ضواحى المصطاف الوديع الهادىء ، وثار الفضاء فانتشر الذعر والهلع بين السكان المدنيين ففر من استطاع تاركا كل ما معه ناجيا بالروح ، وبقى من بقي يفتك فيه الخوف والقلق فتكا ، وخبأ الاغنياء الذهب والاحجار الكريمة وأغلقوا الابواب إغلاقا ، وحصنوها مــن الداخل ليستعصي فتحها اذا ما احتل الغزاة المدينة .

غير أن دخول الامير على الطائف ليلة الجمعة ٧ صفر هدأ القلوب بعض التهدئة ، الا أن مغادرته اياها فجرا ليعسكر في الهدى أيأسها وملاها رعبا وقلقا .

أما الجيش الذى غادر مكة وسلك طريق السيل فلم يصل بعد ، فتقهقر الجيش النظامي من أمكنته حتى دخل البلدة صباح الجمعة بعد أن كبد الاخوان خسائر فادحة ، وحوصر الطائف من ثلاث جهات ، ولم يستطع الاخوان احكام نطاق الحصار من الجهة الرابعة لوجود مدفعية قوية تذود من يأتيها منها ، بل ركزوا كل المدافع من ناحية الغرب ليكون

الجيش على اتصال بالهدى فمكة وليكون له منفذ واحد على الاقل ان أرادَ النجاة .

وتكاثت الاعراب الى جيش خالد عندما علموا بغزو الطائف طمعا في القتل والسلب والنهب ، والتحقوا به فتضخم حتّى امتلأت البطاح : بطاح الطائف وسهوله وضواحيه ، وروع البلد الجميل بالقذائف المتفجرة فتداعت البيوت القديمة ، وتطاير فوق جوه الحالم البديع الرصاص كشرر جهنم ، وعلا صراخ الاطفال وعويل النساء ، فهم — ان لم يشهدوا الحرب من قبل — سيشهدونها ، بل بدأوا يشهدون فصولها الاولى ، وأيد ما يرون ما سمعوا من قبل من أن الحرب عمياء جارمة جائرة تساوى برىء الذيل بالمجرم ، فيا ويل المدنيين منها ومن لظاها !.

انهم ينظرون من الثقوب فيرون الاخوان والاعراب يملأون البطاح ، ويطوفون بالسور والسيوف تتدلى كأنها تهتز من طرب بما تحتسى من دماء هي رحيقها الذى فنيت في طلابه ، وفي أيديهم البنادق يجثم الموت على أفواهها وكأنه من سغبه جاث على ركبه فاغر فاه ينتظر الطعام ! وما طعامه الا أجساد أبناء آدم الاشقياء ؟!.

قد تخلى عنهم النصير ولكن لم يتخل الله عنهم فهو ناصرهم ومنجدهم ، فهذا أمير الطائف الشريف شرف بن راجح ، وهذا وزير الحربية صبرى باشا ، وهؤلاء الجنود ، وهؤلاء الشرفاء والموظفون وأسرهم يغادرون الطائف قبيل مغرب يوم الجمعة تحت حماية المدفعية التى أخلت لهم السبيل وأبعدت عنهم الاعداء ويسلكون الطريق الى الهدى زاعمين أنهم يريدون الانضمام الى الامير هنالك وتعزيز مراكزهم الدفاعية .

ولكن لماذا اصطحبوا أسرهم ان كان القصد الدفاع وحده والانضمام الى جيش الهدى ؟!.

لقد أخلوا البلدة وتركوا الاهلين بها لانهم لم يريدوا تعريضها للدمار فبعدوا عنها حتى يكروا عليها وينقذوها من يد الغزاة ، ولكنهم جهلوا أو تجاهلوا أنهم عرضوا الناس للقتل والهلاك والمدينة للخراب والدمار .

خلت المدينة فلا تسمع الا همسا ، وتدفق الغزاة الى الداخل كما تدفق معهم الاعراب وهم يهتفون هتافات عالية قوية يشقها أزيز الرصاص المنطلق في الفضاء ، وذرعوا الشوارع والاسواق وقتلوا من وجدوه بها ، واحتلوا المراكز الحكومية والابراج والقلعة ونهبوا ما بها .

وكان بالبلدة كثير من قبائل الطويرق وعتيبة والبقوم والنمور المتخلفون عن الجيش الهاشمي انضموا الى المهاجمين المحتلين ، واختلط الحابل بالنابل والبر بالفاجر ، بل لا بر يردهم ، وانتهز الذؤبان الآدميون الضراة فقدان السلطة من البلدة وانتشار الاضطراب فيها فراحوا يقضون الليل في السلب والنهب والقتل ، فلا رادع من دين أو ضمير أو سلطان ، وهاجموا البيوت وحطموا الابواب ودخلوا على الابرياء ومزقوهم بالسيف وأطلقوا عليهم الرصاص ، واستلبوا كل ما وجدوا من غال ورخيص .

وقد وجد البدو ممن لهم ثارات عند الاهلين فرصة نادرة للانتقام فزحفوا الى بيوتهم واقتحموها عليهم وقتلوهم شر قتلة تشفيا منهم وانتقاما .

ودخل سلطان الدين — أى سلطان بن بجاد — البلدة وإخلاها من المدنيين وحشدهم كلهم في حدائق شبرا وقصرها العتيد ، وكان النساء سافرات لاول مرة في هذه البلاد وكن مع الرجال ، ومكثوا أياما ثلاثة أعطوا خلالها السمن والدقيق والوقود ، ولكنهم قضوها في هلع وجوع ، ونهب سلطان ومن معه كل ما في البلدة المنكوبة .

ولقد وصل الى ابن سعود وهو بالرياض خبر المذبحة في الطائف فبكى

واعترته الكآبة وغامت على وجهه سحابة من الحزن البالغ العميق ، وتمنى لو لم ينتصر سلطان بهذا الثمن ، وتمنى أنه حاضر ، ولكنه بعث رسوله الى سلطان وخالدا مهددا ، وطلب اليهما الكف عن القتال ، ولما قدم مكة عزى أولياء القتلى وأهليهم ورثى لهم وألف لجنة للتعويضات على منكوبي الطائف .

وأنا كمؤرخ أبرىء ابن سعود من مسئولية مذبحة الطائف ، فمن وصاياه ونصائحه لجنده ألا يتبعوا مدبرا ، وألا يجهزوا على جريح . وألا يهاجموا بيتا ، وألا يقتلوا شيخا ولا طفلا ، وألا يعترضوا امرأة ولو قاتلت ، وألا يؤذوا المدنيين من السكان .

وبريدة التي خانته وخرجت عليه مع أميرها أبي الخيل وكبدته الخسائر وأتعبته وأرهقته وأخلفت في الوعود ونكثت بالعهود ، ثم امتشقت الحسام في وجهه دخلها صديقه لا دخول المنتصر الغلاب الموتور بلد عدو خائن مقهور ، وعفا عن أهلها جميعا ووزع عليهم الكسى والزاد ، وبدل خوفهم أمنا وشقاءهم سعادة وجوعهم شبعا ، كما عفا عن أبي الخيل ومنحه حريته فسلك طريقه الى العراق .

بل ليس عفوه عن أهل بريدة الاول من نوعه والاخير ، بل هنالك حوادث كثيرة تثبت نبل ابن سعود ومروءته وزهده وتقواه وديانته ، فطالما ظفر بأعداء ألداء لو ظفروا به لقطعوه إربا إربا فصفح عنهم وأكرم مثواهم كآل رشيد وآل عائض وآل الادريسي وغيرهم ، وتاريخ ابن سعود شاهد عدل على صدق مانذهب اليه .

ولا يحمل التاريخ ابن سعود « مسئولية » المذبحة التي لا يرضى بها رجل أقل مزايا من ابن سعود ، فكيف بهذا الذى ضرب الامثلة الفاضلة في أكرم الصفات ، ولكن يحملها سلطان بن بجاد وخالد بن لؤي وبخاصة

وسلطان الذى صنع ما صنع وهو رأس البلاء في محنة الطائف وفاجعته ، حتى أن ابن سعود لم تطمئن عينه بالنظر الى هذا « السفاك » الاثيم الذى كان قائدا عاما فلم يراقب الله ولم يخشه ، ومنح البدو بسوء ادارته فرصة الاعمال الاجرامية والضراوة والوحشية ، وشريكه في تبعة مذبحة الطائف البشعة خالد بن لؤي أيضا ، وان كان المسئول الاول ابن بجاد .

بل طبعت نفس ابن بجاد الجارمة على الشر ، فقد خرج بعد سنوات من هذا الحادث على ولي نعمته ابن سعود ، فانتقم الله منه وقضى عليه على جماعته من أهل الغطغط في وقعة السبلة سنة ١٣٤٧ ه وأراح الله المسلمين من شره العقام .

معارك الهدى

عندما يغادر المرء الطائف الى وادى محرم يشهد طريقاً يأخذ فيه مصعداً بين جبال حتى يصل عقبة كأداء تسمى « النقب الاحمر » والنقب في اللغة الطريق في الجبل ، ويجتاز هذه العقبة راجلا حتى يصل الى يفوع[1] منتثرة ، ثم ترحب أمامه الارض حتى يجتاز بستاناً يسمى الآن[2] بستان المغربي ، واذا غادره استقبله جبل الهندي الشامخ في الفضاء ، وعلى مقربة منه جبل الكمل .

ولا بد لمن يريد الهدى أن يمر من جانبهما حتى يصل اليه ، وفيه بساتين تنتج خير الفواكه وأنضجها .

والهدى جنة بخضرتها وبمائها وبجوها الحالم البديع ، وعند نهايته يستقبل

---

(١) اليفوع : مفرده يفاع ، واليفاع : التل .

(٢) كان ذلك قبل ثلاثين سنة ، أما اليوم (في سنة ١٣٩٢ (١٩٧٢) فقد تغير ذلك كله. ، وصار الطريق سهلا ممهداً بين الطائف إلى الهدى حتى مكة المكرمة ، والفضل في ذلك لله ثم لفيصل بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية الذى شق هذا الطريق الجبلي وجعله سهلا .

عقبة أشد وعورة وكأدا من النقب الاحمر لا يجتازها المرء منحدرا الا بعد الكؤداء [1] ويقطعها الهابط في ساعة ، أما الصاعد ففي ساعتين ونصف ساعة ، وفي سنده (المكان المرتفع في أصل الجبل) موضع يسمى « الكر » وبه بيوت بدو ومقاه مبنية بالحجارة ، ثم ينحدر الى السفح فالحضيض ثم يقابله براح من الارض ، والهدى يعلو عن سطح البحر ١٨٠٠ قدم ، وأتينا بوصفه ليستطيع القارىء تصور المعركة التي كانت بها .

وأشرنا في الفصل السابق الى أن الامير عليا بن الحسين قد نزل بجيشه الذي قدم به من مكة في الهدى وانضم اليه وزير الحربية صبرى بجيشه البالغ عدده ستمئة جندي نظامي ، ومعهم الشريف شرف بن راجح والموظفون ، ولكنهم لم يعسكروا في الهدى بل بارحوه الى عرفات .

الا أن الحسين كان متتبعاً ما يجرى من الحوادث من وقعة الحوية حتى استسلام الطائف للاخوان ، وكان يدأب على جمع قوة تستطيع استرداده من أيدى الغزاة المعتدين ، وبذل الاموال وأخرج السلاح الباقى لديه ، فوفق الى جمع مئتين من أهل مكة المتحضرين وستمئة رجل من قبائل هذيل وبني سفيان وضمهم الى خمسمئة من جنود النظام وزودهم بالمدافع والاسلحة والذخائر وأمرهم أن يذهبوا الى ابنه علي بعرفات ، وبعث الى ابنه الامير علي أن يذهب بهذا الجيش وبمن معه ويسترد الطائف وألا ينثني أو يرجع بل ليحارب حتى الموت ، فالمسألة أما فناء وإما بقاء ، فالطائف مفتاح مكة ، ومكة مفتاح الحجاز كله ، فاذا استطاع

(١) الكؤدا : النفس الشديد عن تعب ، ولهذا قيل : عقبة كاداء لانها تحمل الانسان على الكؤداء ، وهي على وزن عظماء .

الاخوان التقدم عن الطائف فان الذماء المتردد في الجيش سيفنى ولا يغنى حينئذ الدفاع شيئا .

وأطاع علي الأمر فمشى بجيشه ونزل الهدى ، واحتل المراكز الحصينة بجبل كرا وبالهدى ، وبالنقب الاحمر ، وركز المدافع بقمم جبلي الهندي والكمل واليفوع ، ونزل قصرا بالهدى فيه جهاز تليفوني يصله بالكر وبأبيه في مكة .

وفي لحظات هجم ألفان من جيش الاخوان على مراكز الجيش الهاشمي ثم ارتدوا على أعقابهم ، حتى اذا انتصف الليل أعادوا الكرة وأطلقوا وابلا من الرصاص عليه وتقدموا وصعدوا النقب الاحمر كما تسلق كثير منهم الطرق الجبلية حتى كانوا على قمة النقب ، وكانت معركة دامية ثم فتر الاخوان عن القتال ، أو — على الاصح — أخذوا يستجمون الراحة لمواصلة الكفاح والحرب .

وبعد فترة هدوء لم تستغرق أكثر من ثلاثين دقيقة هجم سلطان بن بجاد بجيش الغطغط على فرسان قلب الجيش الهاشمي هجمة قوية لم يستطيعوا معه الثبات فتقهقروا ، الا أن بـدو هذيل وبني سفيـان ظنـوا أن الدبرة حلت بالهاشميين فولوا الادبار منهزمين لا يلوون على شيء ، فتبعهم من بقي من الجيش ما عدا جنود النظام فقد ثبتوا يصاولون ابن بجاد ورجاله ، ولولا عماية الليل لكان للمعركة شأن آخر ، ولكن الليل كان خير معوان للاخوان فتدسس كثير منهم الى الجيش الهاشمي وراح يطعنه ويلقي عليه الرصاص حتى تبلج نور الفجر ، فكان القتلى من الاخوان قليل ، أما أعداؤهم فقتلاهم كثير فتضعضعت روح الهاشميين المعنوية كما قويت روح أعدائهم ! .

وجمع سلطان جيشه وأخذ يهاجم الجيوش الهاشمية مهاجمة قاسية

وينقض على المنهزمين منها حتّى اضطر الامير علي الى الرجوع والانسحاب تحت ستار من القذائف حتّى انتهى الى شعفة (رأس) كرا صباح اليوم السادس والعشرين من صفر وثبت في الدفاع حتّى الساعة السادسة – أي من الصباح الى الظهر – ولكن الاخوان تكاثروا عليه فاجتازوا كرا ووصل الكر في الساعة الثامنة نهارا ، واتصل بأبيه تليفونيا وأخبره بالهزيمة وأن الجيش لا طاقة له الآن بالحرب والقتال ، وأن الاخوان في رعان كرا وهم متفوقون .

فغضب الحسين على ابنه وأمره أن يرجع ويدافع وقال له : مت في سبيل الوطن ، وحذره من الرجوع ، فأطاع الامر وانثنى بمن معه من الجيش ومشى في مقدمته يتسلق كرا حتّى قطع نصفه واذا رصاص الاخوان كالمطر ينهمر عليه ، فركز مدافعه الرشاشة في الحيود [1] ، وأخذ يدافع ويمهد للهجوم والارتقاء .

وتحمس الاخوان لاستبسال الجيش الهاشمي وكره فاندفعوا في كرا يريدون أن يصلوا الى الحيود التي يركز فيها مدافعه السريعة الرشاشة ، ولكن ابن بجاد لم يسمح لهم بذلك ، بل أمرهم بالدفاع عن شعفة كرا .

ومضى ابن بجاد الى الهدى يتفقد منازل المنهزمين فوجد بالقصر الذي كان فيه الامير علي قبل يوم التليفون فحطمه وهو لا يدرى عن حقيقته وعمله واستولى على كل ما به ، ولكنه لم يصنع بأهل الهدى ما صنع بالطائف لأن ابن سعود بعث اليه يؤنبه على ما حدث بالطائف ويأمره ألا يسيء الى أحد ولا يقاتل غير المحاربين والا فسيقتص منه ومـــن المعتدين .

---

(١) الحيود : الحرف الشاخص الناتيء في الجبل .

ثم قاد ابن بجاد المعركة وأخذ يلقى الرصاص على الجيش الهاشمي ؛ ولكنه لم يستطع أن يرده ويدحره ، كما أن الهاشميين لم يستطيعوا التقدم ، وهنا وصل الى علي رسول من ضابط الاتصال بالكر يخبره أن أسلاك التليفون بينه وبين الهدى قد قطعت .

واستولى الإخوان (السعوديون) على الهدى وعلى مرتفعاته ، وسيطروا على الطرق المنحدرة ، وكان الأمير علي وأفراد جيشه ومعداته الخفيفة في المنحدرات وفي السفوح تحت رحمة قذائف الإخوان .

والحق ، أن الأمير علي بن الحسين لم يترك شبراً من المواقع التي كانت تحت يده إلا بعد معارك يشيب من هولها الوليد ، ولقد كاد يؤسر في الهدى ، ولكنه استطاع أن يقهر أعداءه الابطال وينقذ نفسه ، وأصيب ببعض الطلقات في غير مقتل .

وعندما كان يتقهقر منحدراً من قمة الهدى الى أسفله كان يقف ومعه بضعة نفر من أهل مكة يردون بمدافعهم الرشاشة على أعدائهم ، وبينما علي يقاتل في شجاعة وبسالة زلقت قدمه على صخرة فتدحرج ، وأسرع المكيون الذين معه إليه فاذا هو يشكو رضوضاً ، ومع ذلك نهض وكأن شيئاً لم يحدث له ، واستمر في الدفاع مع المكيين حتى يعطى لمن بقي من جيشه الفرصة للتراجع والانسحاب .

ولما رأى الإخوان ثبات الأمير علي ومن معه وقفوا عن تتبعهم ، ولبثوا في قمة الجبل ومرتفعاته مستعدين لمن يريد الصعود إليهم .

ورجع الأمير علي إلى الكر وهو سفح الهدى ، وبات ليلته بالكر ، وفي ٢٧ صفر عاد بالجيش الى مكة لحمايتها من الإخوان .

قالوا : اعتزل

سافر الامير علي بن الحسين بعد معركة الهدى الى جدة وانتقل اليها أقطاب الحكومة الهاشمية وعلية الامة ، وبقي الحسين بمكة ثابت الجنان قوي الرجاء في قهر القوات السعودية ودحرها وردها على أعقابها مكلومة مدحورة ، وكان هذا الأمل الباسم يوسوس في قلبه فيقوى عزمـــه ، ويزيد في ضرام حماسته وحميته وشجاعته ، وكان يقظاً ، ولكنه لم يقدر قوة خصمه تمام التقدير ، بل كان يحسب أنه لا يعدو شيخ قبائل لا رئيس حكومة قوية يخشى بأسها ويذاد عن حماها ، بل غره من ابن سعود ما كان يكتب اليه قبل عشر سنين أو قبل أربع سنين بلهجة هينة فهم منها غير الواقع ، فهم من كتابته أن تواضعه جبن واحترامه اياه ضعف وأن طيبته غفلة ، وأن قدره اياه خوف ورهبة .

وهذه احدى خطيئاته التي لا تغفر ، فهو لو قدر ابن سعود حق القدر لما عجل بحربه بل لتأنى حتى يجمع قواه ويسيطر على الاسباب التي تؤدى الى غلبته وقهره ، ولكن طبيعته الحادة العنيفة الثائرة ما كانت لتعطيه فرصة للتفكير والتقدير ، فكان يريـــد قضاء كل شيء حينمـــا يصدر أمره ، والا فالسيف كفيل بذلك ، وهذا خطأ دفع ثمنه عرشه ،

فالقائد السياسي المحنك يعرف المقاتل ويجيد الحيلة ويستدرج الخصم ويحبب الناس فيه ثم يضرب العدو ويرثى لحاله ويبكى عليه ويسوغ عمله بالمنطق الخلاب ، فيظنه الناس شفيقاً رحيماً مسالماً في حين أن خصمه هو وحده الذى أدرك اللعبة ، غير أن الحسين فقد خلائق السياسي المتأنى الداهية في حربه مع ابن سعود ، مع أن الحسين كان موصوفاً بالدهاء والحذق والفطنة والذكاء والحيلة في مواقفه الماضية مع الانجليز والترك .

ولو لم يفقد تلك الخلائق لما خيل اليه أنه يستطيع دحر قوات خصمه الموجودة في الحجاز ، ولم يقدر قوى خصمه المادية والمعنوية ، بل استهان بها ، كما لم يأخذ في حسابه علاقاته التى ساءت مع بريطانيا وما بين فرنسا وابنيه فيصل وعبدالله من عداء يدخل فيه نفسه هو ، كما أنه لم يحسب حساب خصومه في العالم الاسلامي بسبب ثورته على دولة الخلافة الاسلامية ، وإن كانوا على غير حق في ذلك لأن ، الحسين لم يثر على الخلافة الاسلامية ، بل ثار على من اغتصبوا سلطتها ، كما لم يأخذ في حسابه أن ابن سعود قادر على أن يجمع من الهجر التي بناها للبدو تسعين ألفاً في أسبوع واحد ، عدا أهل العارض وهم كلهم تحت إمرته .

وبينما هو مستغرق في أمانيه وأحلامه يفكر في الوسيلة التي يدفع بها طغيان القوات السعودية اجتمع بجدة أقطاب حكومته وهم : الشيخ محمد الطويل والسيد محمد طاهر الدباغ والسيد الطيب الساسي والشيخ عبد الرءوف الصبان والشيخ سليمان قابل والشيخ محمد نصيف وغيرهم ، وأخذوا يفكرون فيما بينهم في الوسيلة التى يخلصون بها البلاد من الخراب والحرب .

وبعد أن تداولوا الفكرة وتكلم كل منهم بما عنّ له قرروا أن ينزل الملك الحسين عن عرشه ويتخلى عنه لابنه علي ، لأن ابن سعود يسوغ غزوه الحجاز بمعاملة الحسين العدائية له وللنجديين ومنْعه اياهم عن الحج ،

فهو لا يقبل الصلح معه ، ولعله اذا خلا الميدان منه رضي ابن سعود بالصلح .

ولأول مرة يجرؤ رعايا الحسين على عقد اجتماع كهـذا يتداول فيه المجتمعون بكل حرية وصراحة ما يجب عمله من أجل البلاد والامة حتى أنني كنت أشك في أن الهيئة استطاعت أن تصارح الحسين بأمر النزول فسألت السيد الدباغ عما اذا كان هذا النزول بطلب من الحسين وبتواطئه مع ابنه الامير علي مناورة منه لكسب الموقف ضد ابن سعود حتى اذا جلت قواته رجع الى الحكم مرة أخرى ، فأجابني بقوله : ان الحسين لم يدر باجتماعنا ولا بما قررنا من ناحية نزوله عن العرش ، بل فوجىء به ، وأيده في قوله الشيخ عبد الرءوف الصبان والسيد الطيب الساسي ، وقد سألت كلا منهم على انفراد .

واتفق أولئك المجتمعون مع الأمير علي على ما قرروا وبعثوا الى الحسين بعد صلاة ظهر اليوم الرابع من ربيع الاول سنة ١٣٤٣ ﻫ (١٣ اكتوبر سنة ١٩٢٤ م) البرقية التالية :

« صاحب الجلالة الملك المعظم بمكة

بما أن الشعب الحجازي بأجمعه الواقع الآن في الفوضى العامة بعد فناء الجيش المدافع وعجز الحكومة عن صون الارواح والاموال ؛ وبما أن الحرمين الشريفين خاصة وعموم البلاد مستهدفة لكارثة قريبة ساحقة ، وبما أن الحجاز بلد مقدس يعنى أمره جميع المسلمين ؛ لذلك قررت الامة نهائيا طلب تنازل الشريف حسين وتنصيب ابنه الشريف علي ملكاً على الحجاز فقط مقيداً بدستور ومجلسين وطنيين ... الخ » .

ووقع على البرقية مئة وأربعون من كبار الحجازيين وفيهم أولئك

المجتمعون كالدباغ وغيره ، وتسلموا الجواب بعد العصر وها هوذا نصه :

« ادارة برقيات الحكومة الهاشمية

« في ٤ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ ﻫ بواسطة قائمقام جدة

« الى الهيئة الموقرة

« مع الممنونية والشكر ، وهذا أساس رغبتنا التى أصرح بها منذ النهضة والى تاريخه ، وقد صرحت قبله ببضع دقائق أنى مستعد لذلك بكل ارتياح إذا عينتم غير علي ، وانى منتظر هذا بكل سرعة وارتياح » .

الحسين

وتسمت هذه الهيئة « الحزب الوطني الحجازي » وكان رئيسه الشيخ محمد الطويل ، وكاتم سره (سكرتيره) السيد محمد طاهر الدباغ . وأعضاؤه كثير ، وقد اجتمع الحزب أو كان مجتمعاً لم يغب عنه عضو من صباح هذا اليوم حتى اللحظة التى تسلموا فيها جواب الملك حسين وبحثوه ولم يرضهم ، ورأوا من خلاله أنه لا يريد أن ينزل عن عرشه بهذه السهولة لأنه لم يصعد اليه الا بتضحيات وتعب ، وليس من السهل أن ينزل عنه لبرقية تطير اليه من شبان متحمسين فليداورهم ، فلعل حماستهم تبرد ، فتظاهر بابداء الارتياح ، ولكن طلب اليهم تعيين غير ابنه علي ، وبهذا يستطيع أن يضمن لنفسه البقاء على العرش ، لأن الحزب لن يجد من يرضى بالعرش المحفوف بالمكاره والخطوب ، وليس هناك من هو أهل لتولى العرش غيره وغير ابنه علي .

الا أن أعضاء الحزب الوطني لم يرقهم جواب الحسين ، وكانوا يودون من صميم قلوبهم أن ينزل بسرعة ليتفرغوا لعمل جديد ينقذون به الموقف

الحاضر ، فقرروا ان يتصلوا به – أولا – بالتليفون ثم يطلبون اليه أن يوقع وثيقة النزول التي سيكتبونها متى وافق ورضي به .

وتناول الشيخ سليمان قابل (وكان رئيس بلدية جدة) التليفون وطلب الملك الحسين فأُعْطِيَ الطريق اليه :

– مولاي ، مولاي ؟ ! .

– ماذا تريد ؟

– الامة ...

– ماهـا ؟ .

– تريد منكم التنازل ! .

– لا تكلمنى أنت لأنك من رجال حكومتى ، وليكلمنى غيرك في هذا الامر .

فوضع السماعة يائساً ، غير أن الشيخ محمد أفندى نصيف من أعيان جدة دق الجرس ورفع السماعة وقال :

– مولاي ، مولاي ، مولاي

– من أنت ؟

– محمد نصيف .

– لا تكلمنى في موضوع التنازل لأنك أنت أيضاً من رجال حكومتى .

فجسأت يده ثم وضع السماعة ورجع الى مكانه ، وهدأ من بالمجلس لحظات كأنما على رؤوسهم الطير ، ثم بدأوا في الحديث متحمسين ، وطلبوا الى الطويل أن يتكلم لأنه رئيس الحزب ، فاعتذر اذ لا يطيق أن يكلم « سيدنا » في هذا الأمر ويفجعه في أعز أمانيه وهو صديقه ومليكه ، وطلب الى سكرتير الحزب (الدباغ) أن يكلمه ، وكان من رجال حكومة الحسين أيضاً ، فتناول السماعة وقال :

— مولاي ، ان لك عندنا لمقاما كريماً ، غير أن المركز الحرج الذى وصلت اليه البلاد يدعونى الى أن أبلغكم أن الامة قد قررت طلب تنازلكم لسمو الامير علي .

فقاطعه الحسين قائلا :

— أنا وابنى واحد ، واذا كنت قد صرت عندكم « بطال » (لفظة حجازية عامية بمعنى رديء) فلا بأس ، ولكن لا أفهم ما القصد من هذا ، لا يهمنى أمر الملك في أي شخص كان ، ولكني لا أتنازل لولدى علي أبدا ، لأنى ان كنت أنا « بطال » فولدي علي « بطال » .

— يا مولاي ، نحن لا ننسب الى جلالتكم شيئاً من ذلك ، وانما نريد أن نسلك سياسة غير التى سرتم عليها لعلنا نتمكن من تخليص البلاد من مأزقها الحرج ! والامة مجمعة على طلب ذلك من جلالتكم ، وانا لنرجو اجابة رغبتها ، اجابة رغبة الامة التى حرصتم على مصالحها دائماً .

فرد عليه الملك الحسين قائلا في لهجة غير لهجته الأولى :

— يا بني ، لكم أن تفعلوا ما تشاءون ، أما أنا فلا أتنازل لولدى علي أبداً ، عندكم الشريف علي أمير مكة السابق ، وأخى ناصر ، وعندكم

خديوي مصر عباس ، وعندكم « الاشراف » وهم كثير ، اختاروا أي واحد تشاءون وأنا مستعد بالتنازل له ، أما ولدى علي فلا يمكن لأنى أنا وهو شيء واحد ، خيره وشره عائدان لى .

فقال الدباغ متوسلا :

– مولاي ، إن الامة التي سهرتم على مصالحها وحرصتم على رضاها هي التى اختارت الامير عليا ، فنرجو من جلالتكم الموافقة ! .

فقاطعه الحسين :

– يا طاهر ، لا يمكن هذا ، انظروا غير ابنى وأنا مستعد .

فقال الدباغ : مولاي .

فقاطعه الحسين محتداً : أقول لا يمكن قطعياً .

فأجاب الدباغ : سأعلم الهيئة ثم نعلم جلالتكم .

أخفق هؤلاء في حديثهم مع الحسين ، وأخذوا يبحثون من جديد في الطريقة التي يستطيعون بها اقناعه حتى ينزل عن العرش تخليصاً للبلاد من هذه الكارثة كما يرون ، وأصروا على قرارهم ، غير أنهم رأوه مصرا على رأيه ما دام من يخلفه هو ابنه الامير علي ، فكتبوا اليه برقية أغفلوا فيها ذكر اسم من يخلفه ، وطلبوا اليه التنازل لتتمكن الامة من تشكيل حكومة « مؤقتة » وهذا نص البرقية :

« صاحب الجلالة الملك المعظم بمكة

الحالة حرجة جداً ، وليس الوقت وقت مفاوضات ، فاذا كنتم لا

تتنازلون للامير علي فنسترحم بلسان الانسانية أن تتنازلوا جلالتكم لتتمكن الامة من تشكيل حكومة مؤقتة حقناً لدماء المسلمين ، ويمكنها المخابرة مع من يرون طريقاً لنجاتهم ، وليعينوا من شاءوا ، واذا تأخرتم عن اجابة هذا فدماء المسلمين ملقاة على عاتقكم والرجاء نزولكم على رأي الأمة » .

فلم يجد بدأً من الخضوع وبعث اليهم البرقية الآتية :

« مكة في ٤ ربيع الاول ، الساعة الثالثة ليلا

لا بأس ، قد قبلنا التنازل بكل ارتياح ، اذ ليس لنا رغبة الا في سكينة البلاد وراحتها وسعادتها ، فالآن عينوا لنا مأمورين من هنا يستلمون البلاد بكل سرعة ، ونحن نتوجه في الحال ، اذا تأخرتم ووقع حادث فـأنتم المسئولون ، والاشراف عندكم كثيرون ، أرسلوا واحدا منهم أو من سواهم ، وعلاوة على هذا اذا قبل منكم علي الأمر عينوه رأساً » .

الامضاء (حسين)

وكتبوا الى علي وثيقة البيعة بالملك وهي :

« بناء على طلب الامة قد تنازل جلالة والدكم بموجب برقيته رقم ١٩ المؤرخة في ٤ ربيع الاول وقررت نهائياً البيعة لجلالتكم ملكاً دستورياً على الحجاز فقط ، وأن يكون للبلاد مجلس نيابي وطني ، وقانون أساسي تضعه جمعية تأسيسية كما هو جار في الامم المتمدنة ، وبما أن الوقت ضيق يضيق الآن دون تأسيس المجلس النيابي الوطني فقد قررت الامة أن تشكل هيئة مؤقتة لمراقبة أعمال الحكومة ، وانا نبايعكم على ذلك وعلى كتاب الله وسنة رسوله » .

وبايعه عن الامة كبارها وأغنياؤها ، وكان كثير منهم يبايعونه والدموع

تملأ أعينهم لهذه التجربة القاسية .

وقد أدى تنازل الحسين وتولية علي الى اضطراب عام في مكة وغيرها ، فالحسين كان مهيباً عند رجاله وأمته ، وكان منطقياً عنيداً قوياً طموحاً صلب القناة مستبداً ، لا يستطيع أحد أن يشاركه الامر ، أما علي فكان هيناً ليناً مسالماً ، وكانت صفات علي صفات زاهد ورع لا صفات حاكم يريد مجداً ويسوس جنداً ، وإن كان كبيراً في عقله وخلقه وعلمه وفضله فالبون بينه وبين أبيه شاسع ، فالحسين أقدر من علي وأزكن كثيراً ، فلما نزل الحسين وصعد علي اضطرب الناس واضطربت مكة وذهل الناس فما كانوا يصدقون أن الحسين يبارح مكة فرداً من أفراد الامة أو يعتزل الملك الذى سعى اليه سعياً ، وبذل من أجله كل جهد ، وساد التشاؤم كل بلدان الحجاز ، فمكة متشائمة الى حد بعيد .

ولقد أدى تنازل الحسين إلى المزيد من الفوضى والاضطراب ، ونهب لمسئولون ما كان في عهدتهم من أموال الامة ، ووجد العابثون فرصة للنهب والسلب .

وأرى أن الحزب الوطني كان مخطئاً أشد الخطأ في طلب نزول الحسين ، فها هوذا الاضطراب والقلق والمخاوف تستبد بالبلدان وبالعاصمة وبالناس وبالسبل .

ولقد غضب الحسين غضبة شديدة حينما انتهى أمر البلاد الى هذه « الفوضى » وكتب الى من طلبوا اليه التنازل برقية يقول لهم فيها :

« ان الفوضى التي ذكرتموها وقعت بداعى اشهاركم رغبة تنازلى ، وانى لا أقبل أية مسئولية تقع اذا لم تسرعوا اليوم في تعيين من يتولى الأمر لأتوجه في الحال الى الجهة التي يختارها البارى عن طريق جدة ، وهذا

ليس هرباً من أي شيء تتصورونه ، بل دفعاً للظنون والشبهات » .

فأجاب الحزب الوطني الحجازي بهذه البرقية :

« في ٥ ربيع الاول

صاحب الشرف الاسمى الشريف حسين المعظم .

جواب برقيتكم رقم ١٧ — بحمد الله ومساعى مولاي قد تمت البيعة لجلالة نجلكم المعظم ، وقد فاوض جلالته من يلزم في استلام البلاد وادارة شئونها ، فالمنتظر من مولاي مبارحتها بكل احترام تهدئة للاحوال » .

عن الرئيس
محمد طاهر الدباغ

ويجب أن نقول كلمة للتاريخ : هل أخطأ الحزب الوطني أو أصاب في طلب تنازل الحسين ؟ أما أنا فأرى أنه أخطأ في ذلك ، فقد أثر تنازله في نفسية الجيش الهاشمي فانتحر أقوى أمل يهجس في قلبه ، كما قضى على روحه المعنوية بسقوط الشرفاء ، فهم كانوا أعون بعملهم هذا لخصومهم لا لأنصارهم ، وقد خدم الحظ ابن سعود خدمة مرموقة ، فقد تنازل الحسين قبل أن يقوم ابن سعود من مقامه بالرياض تحت إجبار الحزب اياه ، وهذا نصر مؤزر يحرزه ولكن على يد خصومه ، فهم ينزلون خصمه العنيد القوي ليرفعوا بدله خصماً وديعاً مسالماً لا نفوذ له ولا ثقل في الميزان كأبيه ، ووضعوا في وجه ابن سعود القوي خصماً لا يستطيع أن يكون له ندا ، فابن سعود يستطيع أن يقضي عليه سريعاً بإرهاقه بالمفاجآت ويضنيه بالحصار ويجبره على النزول .

بل كان للحسين نفوذ وكلمة مسموعة عند الدول ، وكان له بين عظماء الانكليز أصدقاء ، فلو بقي في الملك واتصل بغير القناصل الموجودين كالمندوب السامى في مصر مثلا لاستطاع مساجلة الخصوم الانتصار ، ولكن علياً لا دالة له على دولة أو على أحد الا بأبيه ، كما أنه لا خصومة بينه وبين أحد الا بأبيه ، وهو في كلا الامرين غير مكين ، لا دالة له كما لا خصم له ، والمهم أن الدول كانت معترفة باستقلال الحسين وملكيته وحكومته في حين أنها لم تعترف حكومة من الحكومات بالملك علي ، بل إن كثيراً من المكيين لم يعترفوا بأن علياً ملكهم .

وقد ظن الحزب أن ابن سعود سوغ غزوه الحجاز بأن الحسين صد النجديين عن الحج ، والآن وقد شقوا الطريق اليه بالسيف فلا يقبل صلحاً معه ، فهو قد يقبل اذا كان حاكم الحجاز غيره ، فليطلبوا اليه النزول وليجبروه عليه ، حتى يتساهل ابن سعود ويقبل الصلح ، ويغادر مكة والحجاز فتخلص بلادهم لحاكمهم الجديد ، ولكن الحزب يخيل اليّ الآن أنه كان قصير النظر ، لأن ابن سعود قاتل الحسين والشرفاء حتى يخرجهم من مكة لئلا يكون فيها منهم من يعكر عليه الصفو ويعرقل سيره ، ولا شيء كمنع رعاياه عن الحج ، ورعاياه يطلبون اليه أن يفتح لهم طريقه فلا يستطيع ابن سعود لأنه يخفق في المفاوضة مع الحسين ومع أبنائه ، فيعرض سمعته – اذا لم يستطع أن يضمن لهم الحج – كبطل وشجاع وسلطان للخدش عند شعبه وبخاصة البدو الذين لا يدينون الا بالقوة المضطرمة .

وكأن الحزب تناسى أو تجاهل النزاع القديم بين الشرفاء وآل سعود منذ بدء الدعوة الوهابية حتى يومهم ذلك ، فالاسرتان في تنافس وخصومة وحرب ، وما تنطفىء نارها بل يشعلها الزمن ، وليس بمستطاع تسوية الخلاف بعد وصوله الى هذا الحد الا بالسيف بعد نفاد وسائل السلم ، ثم ما النفع الذى حصلت عليه بإكراه الحسين على النزول من العرش ؟ لا شيء

غير المزيد من الخسائر والهزائم ، ولكن شفيع الحزب في درء اللوم عنه انه اجتهد وأخطأ – في رأيي – لأن أفراده كانوا مخلصين للفكرة الوطنية ، وهداهم تفكيرهم في تلك الظروف القاهرة الى أن أسلم الطرق هو ابعاد الحسين عن الحجاز ليتم الوفاق مع الغزاة .

تنازل الحسين يوم ٤ ربيع الاول وطلب في الخامس منه أن يأتي من يقبض زمام الأمر في مكة ليتوجه الى حيث يختار الله له المقام ، وسافر علي الى مكة في ٦ ربيع الأول وبقي الحسين الى يوم ٩ ثم سافر الى جدة واعتزل الناس ، وفي يوم ١٦ ربيع الاول نزل الى البحر وودعه رئيس ديوانه السيد أحمد السقاف وصديقه الشيخ محمد الطويل ، فأقله يخته « الرقمتين » الى العقبة .

وقد سعى رشدى باشا لدى الملك فؤاد ولدى رئيس الوزارة المصرية سعد زغلول باشا بأن يسمحا لعاهل الحجاز السابق بأن يسكن مصر فأبيا خشية من حدوث ما لا تحمد عقباه .

وكان لكل منهما سبب ، ففؤاد كان يحلم بمجد الحسين ، بالخلافة التي بويع بها الحسين ، وأما سعد زغلول فكان ضد فكرة الخلافة الاسلامية ولا يريدها ، بل يحاربها ، وكان سعد « ملحداً » رقيق الدين ، ولهذا أبى أن يسمح للحسين بالإقامة في مصر ، لأن الحسين من أكبر الشخصيات الاسلامية ، بل كان في عصره أكبر شخصية اسلامية على الاطلاق ، وكان المتحدث الأوحد عن العرب .

على أي حال ، لقد نزل الحسين عن العرش ، وتسلمه منه ابنه الملك علي الذى كانت الظروف كلها ضده ، ومن كانوا معه من المسئولين الحجازيين لم يكونوا – ولن يكونوا – في مستوى خصمهم ابن سعود في قوة الشخصية وبعد النظر والدهاء والبراعة السياسية ما جعله المتفرد المسيطر .

ومن هذه السيطرة أن الحزب الوطني الحجازي كان واقعاً تحت سلطان شخصية ابن سعود القوية فأجبر الحسين العظيم القوي على النزول ليتسلم أعضاؤه الحكم وهم ليسوا أهلا له .

الإخوان بمكة

هرع الناس من الطائف إلى مكة ، وانتشرت قبلهم أخبار راعبة مقلقة مؤداها أن الاخوان أو المدينة [1] قساة غلاظ ، بل نشرت الحكومة الهاشمية في الجرائد بأحرف بارزة حوادث الطائف حتى خافت مكة كلها ، وزادها هلعا القادمون منه ، فقد كانوا يروون أخبارا غريبة مخيفة ، وبدت العاصمة المقدسة في مأتم حزن عميق تشترك فيه الامة كلها ، ففي كل حي بكاء وقراءة على أرواح الشهداء ، وفي كل دار استعداد للسفر ، فقد جلا عن مكة أهلها وبخاصة الاغنياء وأسرهم وأخذوا معهم أموالهم ، وكان أول الجالين المصطافون لانهم اعتقدوا أن الاخوان والبدو سيفعلون بمكة ما فعلوا بالطائف فهربوا إلى جدة ، وخلت مكة — حرسها الله — إلا من بعض الناس .

وكنا نحن أيضا من الجالين إلى جدة الا أبى رحمه الله فقد أقام بمكة لانها أقدس بقعة وآمنها على ظهر الارض ، وقد ودعنا ونحن راحلون

(١) المدينة (بضم الميم وفتح الدال مع التشديد وكسر الياء المشددة) : كان أهل مكة يطلقون على هؤلاء الغزاة لفظ الاخوان او المدينة .

إلى جدة بالرغم عنه فرارا بالروح والمال قائلا : انه سيعتكف في المسجد الحرام فان قتل فما يكره الموت في الرحاب الطاهرة يستقبل وجه ربه الكريم بالشهادة .

وكان خالى الذى تلظى بفاجعة الطائف هو الذي حملنا على الرحيل، فاكترينا حمرا ومشى الشبان ، أما نحن الاطفال فقد ركبنا من حسن حظنا ، ورحلنا في الصباح ، وكان طريق جدة كالمحشر ، أطفال ونساء ورجال وصبيان يحملون الطعام والنقود وما غلا ثمنا وخف وزناً ، وكلهم يغذ السير إلى جدة .

وصلنا الشميسى فسمعنا أن الاخوان دخلوا مكة — وكان ذلك في ٩ ربيع الاول سنة ١٣٤٢ — ونهبوها وها هم أولاء يتعقبون الفارين فشددنا الرحيل إلى بحرة فسمعنا الاشاعات بأن المدينة السعوديين نهبوا الشميسي وهم الينا ، فنهضنا إلى أم السلم ووجدنا جوها «مزدحما» بالاشاعات أيضا فلم ننزل بها وواصلنا السير حتى بلغنا جدة في منتصف الليل ، غير أن الاشاعات كالبرق في السرعة فقد سبقتنا اليها فسمعنا بفظائع الاخوان وقضينا أياما في قلق واضطراب حتى جاءنا كتاب من أبى يبشرنا بأن الاخوان لم يدخلوا مكة ، فرجعت أنا وأحد إخوتى إلى أبى لانه رغب أن نكون معه ، ووجدنا مكة كالمقبرة في الصمت الرهيب والسكون الشامل ، وألفينا الدكاكين مغلقة .

ولم تطمئن مكة المكرمة بعد معارك الطائف والهدى ، بل كانت قلقة تطحنها الآلام ! فهي تنتظر البلاء والفاجعة بين الفينة والفينة مستسلمة للقضاء والقدر ! .

ولكن الاخوان تلقوا أمرا من ابن سعود بألا يتقدموا لئلا يجدّ حادث كحادث الطائف يغير من مجرى الحرب فوقفوا عند حدود الطائف والهدى

أما اذا وجدوا الطريق مأمونة إلى مكة وألفوها مدينة مفتوحة فليدخلوها محرمين ، والا فليرجعوا عن حدود الحرم حتى يجيء هو نفسه .

ومضت أيام ومكة هادئة خائفة ، وازداد خوفها عندما تنازل الملك الحسين وبارحها إلى جدة ومنها إلى العقبة ، الا أن قدوم الملك علي اليها في يوم الاربعاء ٩ ربيع الاول هدأ مخاوفها الفاتكة قليلا ، واستعد للدفاع عن مكة ولبث بها أسبوعا ، ثم أتته الاخبار في يوم الثلاثاء ١٥ ربيع الاول (١٤ أكتوبر ١٩٢٤ م) بأن الاخوان قد وصلوا إلى الزيما وتبعد عن مكة ٤٤ كيلو مترا ، فرأى أن ما معه من الجيش — وهو لا يبلغ الخمسمئة — لا يستطيع حرب الاخوان ، وليس من الحزامة أن يقاتلهم وهو معتقد أن الهزيمة نصيبه اذا ما اشتبك بهم ، فرحل بأربعمئة من جيشه إلى جدة ليحارب منها حتى يخرجهم من الحجاز ، وترك بعض الجنود لحفظ الامن الداخلي ، غير أن من بقي بمكة من الاهلين صمموا على الدفاع ان صنع بهم ما صنع بأهل الطائف ، واستعد المتخلفون بمكة أن يدافعوا حتى الموت عن كل اصبع من بلد الله الحرام .

ومضى على مكة بعد مغادرة الملك علي يومان كانت خلالهما فريسة لقلق عاصف شديد ، ووجد الفرصة كل طامع ومجرم وأثيم ونهبوا بعض مراكز الحكومة ، وقام بدو مكة بالنهب والسلب ، ولكن لم يقربوا الاهلين بسوء ، بل كانوا ينهبون دور الحكومة ، وشاركهم بعض فقراء مكة العتاة وأخذوا نصيبهم من الغنائم ، كما أن بعض الموظفين الكبار نهبوا ما تحت أيديهم من أموال الدولة .

وفي ليلة السابع عشر من ربيع الاول (١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٤ م) بدت طلائع الاخوان ووصلت المعابدة — أول مكة للقادم من الطائف — وفي الصباح دخل ابن لؤي وابن بجاد ببقية الجيش مشاة وركبانا محرمين وطافوا وسعوا ثم ارتدوا ملابسهم وجاسوا خلال مكة وفي شوارعها الرئيسية

وتدفقوا إلى مراكز الحكومة يحتلونها ، ونزل القائدان قصر الشريف الحسين واستقبلا كبار أهل مكة وأخذا منهم الطاعة لابن سعود .

وكان بعض الاعراب من الغطغط في الاسواق يسألون أهل مكة : أين بيت «أبى خيشة» ؟ ولكن المكيين لا يعرفون أحدا يكنى هذه الكنية ، وأخيرا عرفوا أن هؤلاء الاجلاف سموا الحسين «أبا خيشة» ولكنهم أجلاف وكفى فكانوا يجيبون : لا نعرف ، واخيراً عرفوا هذه الكنية .

ونهبوا ما وجدوا في بيت الشريف الحسين من « علب المربيات » والساعات والمفروشات ، وكل غال ورخيص ، وباعوا بثمن بخس ، وقد رأى المكيون البدو يعرضون ما نهبوا للبيع فأضربوا عن شراء شيء منه ، ولكن رخص الثمن أغرى بعضهم – أخيرا – فالبدو يبيعون «العلبة» من عصير المانجه (الامبه) بهللة (وهي تساوي المليم) ويبيعون بهذا الثمن علبة الكريز والخوخ والاناناس ، كما يبيعون الساعة الجديدة بعشرة قروش ، ويبيعون البساط العجمي الكبير بعشرين ريالا وهكذا .

بل رأوا المرايا فظنوها لاول مرة ما يشبه البيت أو الغرفة بها أناس حينما رأوا صورهم بها فحطموها ثم ظنوها سحرا ، كما خيل اليهم أن في الساعة شيطانا يهمس وذلك حينما يسمعون دقاتها .

ولكنهم كانوا في مكة «منكمشين» لا يستطيعون أن يقتلوا أو ينهبوا كما فعلوا في الطائف ، لان أوامر ابن سعود قاسية إلى القائدين ، وهما بلغاها الجيش ونصحا بلزوم السكينة والهدوء ، فمن أذنب وأجرم فلا يلومن الا نفسه ، فخاف الاخوان لانهم عرفوا أن عين الاسد حمراء .

وقابل القائدين خالدا وسلطانا وفد من جدة قوامه عشرة أفراد منهم عبد الرءوف الصبان في ٢ ربيع الثاني للمفاوضة معهما في الصلح ، ولم يكونوا

مندوبين من قبل علي ، بل كان فيهم من اشتهر بمناوأته لآل الحسين ، وجاءوا تطوعا لانقاذ البلاد من كارثة تجر اليها جرا ، وأجيبوا من القائدين أن الصلح لا يمكن أن يكون الا بخلع الملك علي ، فغادر الوفد مكة مخفقا .

وقد أفاد القائدان من بعض رجال الوفد فوائد جمة . فقد وقفا على حالة علي وحكومته الجديدة وعلى الحياة في جدة ، وعرفا الموالين للحسين وأبنائه كما عرفا المناوئين .

وأسرع القائدان وبعثا إلى قناصل الدول الاجنبية بجدة خطابا يسألانهم عن موقفهم حيال الحرب الحجازية النجدية فأجابوهما بكتاب في ٦ ربيع الثاني هذا نصه :

«جدة في ٤ نوفمبر ١٩٢٤ م

إلى خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد

« بعد الاحترام ، وصلنا كتابكما ولا يخفاكما أن حكوماتنا ملتزمة الحياد التام في الحرب القائمة بين نجد والحجاز ، وعلى ذلك فنحن محايدون ، ولا يمكننا التدخل بأي وجه كان في هذا الخصام ، ولقد أخذنا علما بتصريحكما بأن ليس لكما نظر في رعايانا ، ونؤيد مضمون كتابنا الاول المختص بهم والسلام » .

ووقعه معتمد قنصل بريطانيا وقنصل ايطاليا ووكيل قنصل الجمهورية الفرنسية ونائب قنصل هولندا ووكيل قنصل ايران .

ولم يتقدم قائدا القوات السعودية عن مكة شبرا ، بل مكثا بمكة انتظارا لامر القائد الاعلى ابن سعود أو انتظارا لمجيئه .

ولم يكن في برنامج ابن سعود احتلال مكة حرسها الله ، بل لم يكن في ذهنه فكرة غزو الحجاز وانتزاع حكمه من الحسين ، بل كل ما كان مقررا أن يحتل الإخوان الوهابيون الطائف دون أن يتخذوا النهب والسلب وقتل المدنيين ، وعندئذ يساوم ابن سعود الحسين ، فاذا اتفق معه على اتخاذ سياسة طيبة مع نجد فإنه سيترك الطائف ويعود جيشه إلى موطنه، وربحه السلم بين الحجاز ونجد ، وحج النجديين ، وحسن العلاقات والجوار الذى يثمر التبادل التجاري والاقتصادي بين الشعبين والبلدين .

لم يكن في ذهن ابن سعود غزو الحجاز واحتلال مكة وتهديد الحسين في عرشه ، ولكن الله شاء ما لم يشأه ابن سعود ، فدخل جيش الإخوان مكة واحتلوها دون أن يعلم ابن سعود بذلك إلا بأخرة .

وما كان دخول مكة إلا بتصرف من خالد بن لؤي خارج عن أمر ابن سعود ، وكان غنمه من احتلال مكة عظيما ، فقد مهد له السبيل لاحتلال الحجاز كله وحكمه ، فقد كتب ابن لؤي رسالة صادرة من مكة إلى ابن سعود يخبره باحتلال مكة دون قتال ، وأن الحسين قد نزل عن العرش لابنه علي وغادر جدة ، وأن الأحوال ببلد الله الحرام هادئة .

ومع أن مكة استسلمت بدون قتال الا أنها كانت غارقة في الرعب ، ولم تكن مطمئنة آمنة على أهلها حتى شرف الله ابن سعود بدخول بلده الأمين .

حكومة مرتجلة

انتهت حكومة الملك حسين بنزوله ، وقرر الحزب الوطني الحجازي مبايعة ابنه الشريف علي بالملك ، واجتمع أعضاؤه وعلية الناس والخاصة في مبنى الحكومة بجدة صباح يوم ٥ ربيع الاول ١٣٤٣ استعدادا للبيعة ، كما احتشد أهل مكة وجدة وغيرهم من عامة الناس في الشوارع المحيطة بالمبنى الحكومي .

وعندما أقبل موكب الملك علي هتف الناس له بإخلاص حتى إذا كان على مقربة من المبنى استقبله أعضاء الحزب ، وبعد أن أخذ علي مكانه بايعوه بالملك ، ثم تدفقت الجموع عليه تبايعه وتعاهده على الموت دفاعا عن الوطن .

وكان الحسين في جدة ، وقد أعلم بالبيعة التى رضي عنها ، ثم أخبر بان الحزب الوطني الحجازي الحاكم ذكر في بيعته نصا يفيد أن الحكومة دستورية ، واشترط أن الملك سيكون ملكا دستوريا ، وأن الحكومة ستكون مثل حكومات العالم المتمدنه ، تتقيد بدستور وقانون ، وأن البلاد ستحكم من قبل وزارة تكون مسئولة أمام مجلس يسمى «المجلس الوطني»

الذى سيؤلف فيما بعد ، لأن ظروف الحرب تحول الآن دون تأليفه ، وسينتخب أعضاؤه من كل مدن الحجاز وبواديه وقراه بموجب قانـــون سيوضع فيما بعد .

علم الحسين بهذا فساءه أن يرى جهوده تنهار ، فهو مؤمن حـــق الايمان أن شريعة الاسلام ليست ناقصة حتى تكمل بالقوانين الوضعيـــة نستوردها من أعدائنا لنجعل لها الحكم ، واشتد سخطه من تجاهل الحزب شريعة الله ، فكتب بخط يده رسالة إلى قائمقام جدة يستنكر فيها منهج الحزب ، ويتهمه بعنف أنه آثر القانون على الشريعة الاسلامية السمحة السهلة الكاملة ، ودعا الحزب أن يعتصم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونصح الحزب والأمة بأن تجعل الحكم للكتاب والسنة الخ .

والحق ، أن الحزب لم يقصد إلى إيثار القانون على الشريعة ، بل أراد أن يجتذب نصرة الأحزاب بهذا المنهج «العصري» وان كان إيمانـــه بكمال الشريعة إيمان لا يتزعزع .

وكان بين يدي الحزب مشاكل معقدة وأعمال ضخمة لا تحصى ، ولم يكن لديه متسع من الوقت للتفصيلات والجزئيات ، فأسرع بتشكيل حكومة وطنية كان قوامها كما يأتي :

الشيخ عبدالله سراج	رئيسا لمجلس الوزراء
وتحسين باشا الفقير	وزيرا للحربية
والسيد محمد طاهر الدباغ	وزيرا للمالية
والدكتور خالد الخطيب	وزيرا للصحة
والشيخ محمد الطويل	وزيرا للرسوم

والشريف محسن بن منصور	وزيرا للداخلية
والشيخ فؤاد الخطيب	وزيرا للخارجية
والشيخ عبد القادر غزاوي	وزيرا للمواصلات

ولم تكن لهذه الحكومة المرتجلة ميزانية ، وليس لديها مال ولا جاه ولا نفوذ في غير جدة ، ولم يعترف بها أحد ، ولكن كان أهل الحجاز يؤملون أن تنجح في مهماتها العظيمة ، وأيدوها ، لأنهم كانوا متعلقين بشخصية الملك علي المحبوب منهم .

ولما كان السبب الذى دعا الحزب الوطني إلى طلب تنازل الحسين هو إخلاء الميدان العسكري والسياسي والحكومي منه على أمل أن يكون في ذلك تبدل الموقف وتغير الحال ، فقد ظن الحزب أن تنازل الحسين ومغادرته البلاد يجعلان الطريق سهلا إلى ابن سعود ، وحينئذ يمكن التفاهم معه ، فيأمر بجلاء قواته اللاتى احتلت مفاتيح الحجاز ومكة .

هكذا كان يفكر الحزب أو هذا ما انتهى اليه تفكيره ، ولكن الحزب – كما قلنا – كان خاطئا فيما ذهب اليه ومتعثرا في خطواته جميعها ، وكل هذا التغيير لم يحقق مطلبا واحدا من المطالب الكثيرة ، بل كان ما عمله الحزب هدما لآماله ودفعا بالحجاز كله إلى يد ابن سعود في زمن قصير وبأبخس ثمن .

ولم يكن المسيطرون على الحزب الا شبانا محرومين من الثقافة الواسعة ومن الخبرة السياسية والعسكرية ، وكانوا قصار النظر ولا يذكرون جميعا وبدون استثناء بجانب ابن سعود الذى يرجع عليهم في كل شيء .

ومن علامات قصر نظر الحزب أنه بعد تشكيل الوزارة كتب إلى ابن

سعود كتابا مطولا يخبره فيه بما تم من التغييرات والتحولات الجديدة في الحكم والسياسة للحكومة التي خلفت حكومة الحسين ، وبمنهج الحكم الجديد ، وكان تاريخ كتاب الحزب يوم ٥ ربيع الأول ١٣٤٣ وهو يوم البيعة وتشكيل الوزارة .

وكان الكتاب الذي أرسله الحزب إلى ابن سعود يزيد من ضعف الحزب وقوة ابن سعود ، بل يعطيه القوة التي لم تكن لديه ، فقد افتتح الكتاب بمناشدة الحزب لابن سعود الشهامة والمروءة والدين ، ويتوسل اليه أن يترك الحجاز لأبنائه يحكمونه ، فهم ليسوا بمسئولين عما وقع بين الحسين وبينه ، ووزْر الحسين لا يحمله أهل الحجاز الذين لا دخل لهم فيما صدر من الحسين ، لأنه كان متسلطا وكان حكمه حكما مطلقا أدى إلى سفك دماء المسلمين من الطرفين .

ثم قال الحزب في رسالته : « لما رأى أهل الحجاز مسلك الحسين هبوا وأنزلوه من العرش وبايعوا ابنه عليا ملكا دستوريا على الحجاز فقط ، وان الحكم المباشر لمجلس الوزراء الذى هو الحكومة ، وعلى أن ينزل الملك علي على رأي المسلمين ، وأن يوقف الجيوش عند آخر نقطة بلغتها ، وإرسال مندوبين للمفاوضة فيما يجب عمله نحو البلاد المقدسة » .

ورجا الحزب من ابن سعود أن يبدأ صفحة جديدة في تاريخ علاقة نجد بالحجاز الذى لا يعد مسئولا عن تصرفات الحسين بدليل أن الشعب أنزله عن عرشه ، لأنه كان سبب الخلاف بين الحجاز ونجد ، وسبب سفك الدماء من الطرفين ، وأما وقد ذهب الحسين فقد زالت أسباب الخلاف .

وناشد الحزب ابن سعود أن يقبل الصلح ، وبعد أن أرسل كتابه إليه عززه ببرقية تلقى منه جوابها في يوم ٢٦ ربيع الأول ١٣٤٣ وها هوذا نصها :

« وصل تلغرافكم العمومي ، أما رسالتكم الرسميه الخاصة فلم تصل ، لا يمكن نشر روح السلام في الجزيرة مطلقاً ما دام الحسين وأبناؤه يحكمون في الحجاز ، لا نقصد الطمع في امتلاك الحجاز والتسلط عليه ، ولهذا فهو يترك للعالم الاسلامي ، هذا ما نراه من البداية لتلك البلاد المقدسة ، واذا خرج الحسين وأبناؤه فأنتم آمنون في بلادكم ، ولقد أرسلنا تعليمات بذلك إلى رؤساء جيشنا » .

ولم يكن الملك علي راضيا عن هذا الاسلوب في التفاهم مع ابـــن سعود ، وكان مدركا أنه غير نافع ، ولكنه كان مجبرا ، فهو فرد ، والحزب جماعة ، كان الملك علي يرى أن يمضي إلى القبائل الحجازية ويجندها ، ولكنهم تغلبوا عليه وحملوه على إرسال برقية باسمه ، واعتقدوا أنها ستؤثر في ابن سعود ، وها هي ذي البرقية :

عظمة السلطان عبد العزيز بن سعود

من بعد السلام والاحترام : أعلم عظمتكم أن اصحاب الحجـــاز العربي المحب للسلام ودفع الشقاق بين العرب نظراً للثقة التامة على المبادىء الموافقة لمبادئه قد بدل شكل حكومته ، واقامني ملكاً عليها ، وبمـــا ان امانة الملك تودعت لشخصي فعليّ بعد الحسين إيفاء واجبات هذه الامانة بكل شرف ، فعليه وانقياداً لأوامر الخالق عز وجل ، وحباً باتحادنـــا ، وكراهية لسفك الدماء بين امة واحدة ، واستجابة لرأي العالم الأسلامي ، والمراجعات الواردة عليّ من الاقطار العربية قد قررت أن اتوسل بجميع ما يمكن لعقد صلح شريف يزيل جميع الموانع والمشاكل الموجودة بين الطرفين ، وللدخول في عهد جديد يؤمن مصلحة المسلمين عامة والعرب خاصة .

لذلك انسحبت من مكة بدون حرب لحفظ بيت الله الحرام من الخراب ولمنع تكرر فظائع الطائف ، ولانتظار مراجعتي الاولى لعظمتكم في جدة .

وبما ان الجواب لم يأت إليّ الآن ، ولم أجد أحداً يرأس جيشكم تمكن المفاوضات معه تربصت إلى أن أراجعكم ثانياً بالبرق ، وانشروا مراجعتي هذه أيضاً بين المسلمين .

وأبلغ عظمتكم أن البلاد قد اصبحت بحالة عسكرية تمكنها من أن تسترجع جميع ما اضاعت بالامس باذن الله ، فاذا ما وافقتم على هذا التكليف الاخير ارجو لحين المباشرة بالمفاوضة أن تبلغوا قائد جيشكم بمكة برفع ممنوعية اداء فريضة الدين من قبل الأئمة الثلاثة فوراً .

والآن خوفاً من مضايقة سكان بلد الله في المعيشة قد اذنت لمن يريد العودة إلى مكة من سكانها المهاجرين ، وسمحت بدوام سير القوافل رحمة بالفقراء والمساكين ، بانتظار جواب عظمتكم الاخير .

ولي الامل بأن تعاملونى على حسن نيتي ، والا فسترونني وشعبي متكلين على الله وقائمين بجميع ما يترتب اتيانه من واجب الاسلاف وحفظ الامانة لمقاومة تعرضات جيشكم وللدفاع عن البلاد وتخليصها ورد الاذى والتعديات عنها ، وتبعة اراقة دماء الابرياء ستقع على عاتق المتسبب ، وهو الفعال لما يريد» في ٢٨ ربيع الاول ١٣٤٣ أخوكم الملك علي

ولم يكن بين جدة والرياض خط تلغرافي ، بل لم تكن بالرياض محطة لاسلكية ، فكانت البرقية ترسل من جدة إلى البحرين ، ومنها تنقل إلى الرياض بوساطة الدواب إذ لم تكن المواصلات البرية بين نجد وغيرها إلا بها ، ولهذا تأخذ المواصلات زمنا أطول ، ورد ابن سعود على برقية الملك علي في يوم ٩ ربيع الثاني ١٣٤٣ بالبرقية التالية :

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل إلى الشريف علي بن الحسين .

« تعلمون أن الحرمين الشريفين ليسا ملكاً لأحد ، لكن الاشراف وعلى الاخص والدكم قد اعتبر الحجاز ملكاً خاصاً ، ولقد عانى المسلمون جميعاً واهل نجد الامرين من سوء معاملته .

نحن لا نريد سوى تحرير الحجاز للمسلمين ، وللعالم الاسلامي الكلمة الاخيرة في أمر الحجاز ومستقبله ، فان أردت السلامة فاترك الامر للمسلمين والله يسدد خطاك ، ويؤيد دينه ، ويعلي كلمته» .

وفي الوقت الذى كانت الاتصالات تجرى بين الحزب الوطني والملك علي وبين ابن سعود وزع منشور من ابن سعود في مكة وفي جدة أيضا، ولكن على نطاق محدود فيها ، وكان ابن سعود قد أعد المنشور حينما بلغه دخول الإخوان إلى الطائف ، وأمرهم ألا يتجاوزوه ، ولبثوا فيه أياما ثم علموا بخلو مكة من المسئولين فاتخذوا طريقهم اليه .

وورد رسول ابن سعود إلى الطائف وهو يحمل كتابه إلى أهل مكة وجدة يطمئنهم فلم يجد ابن لؤي به ، لأنه كان بمكة ، فأسلمه الكتاب ونفذ أمر مرجعه بأن وزعه على أهل مكة ، ثم دعا كبارهم ومشايخ الأحياء والعلماء والأئمة وقرأه عليهم .

وأرسلت نسخ منه إلى جدة ووزعت على نطاق محدود ، كما أرسلت نسخ إلى السفارات والقنصليات .

وها هوذا المنشور او الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٢ صفر سنة ١٣٤٣

من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل إلى كافة من يراه من

إخواننا أهالي مكة وجدة وتابعيهما من الاشراف والاعيان والمجاورين والسكان وفقنا الله وإياهم لما يحبه ويرضاه ، آمين

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد ، فالموجب لهذا الكتاب هو شفقتنا على المسلمين لصلاح أحوالهم في أمر دينهم ودنياهم . ولم نزل نكرر على الحسين بن علي النصائح ونحرص على ما يجمع شمل العرب لتكون كلمتهم واحدة ، لكن الطبع يغلب التطبع .

ولا نحتاج إلى تطويل الشرح بما انطوى عليه ، لأن أكبر شاهد على ذلك ما رأيتموه منه ، وشاهدتموه من أفعاله وأقواله في هذه البقعة المباركة التى هي مهابط الوحي مما ينكره عقل كل مسلم ، وعلاوة على ذلك ينكره كل من يحب المسلمين ولو لم يكن منهم ، فالرجل ترك مزايا الانصاف وهي ما انتسبت اليه من مزايا هذا البيت الكريم ، وأهمل حقوق هذه البقعة المباركة في عدم اتباعه طريقة السلف الصالح التى هي شرفه وشرف المسلمين خصوصاً وشرف العرب عموماً .

ولا شك ان من ترك ما كان عليه النبي الكريم عليه أفضل الصلاة واتم التسليم وخلفاؤه وأصحابه ، وهو يتسمى باسم الاسلام وخاصة اذا كان من أهل البيت الشريف ، وطمح إلى غيرها من الزخارف التى هي أكبر شؤم على الاسلام خصوصاً وعلى العرب عموماً ، فهو لا خير فيه .

فمنذ دخل الحجاز جعل أكبر همه الإيقاع بنجد والنجديين ، وقد تظاهر بذلك واضحاً منذ ان تفرد بالحكم وقبض على زمام الامور فيه ، وقد بلغ منه التهور أن منع أهل نجد قاطبة من حج بيت الله الحرام وهو أحد الاركان الخمسة .

هذا فضلا عما يأتيه هو وعماله من المظالم والمعاملات القاسية تجاه حجاج بيت الله الحرام الذين يأتونه من مشارق الارض ومغاربها .

ومن هذه المدة قد تركنا التدخل في أمور الحجاز لاجل احترام هذا البيت ، ورجاء السلم والأمان ، لكننا مع الأسف لم نحظ بذلك منه .

وفي هذه الايام الماضية في سفره إلى الأردن يانت نياته ومقاصده للمسلمين نحونا حينما طلب تجزئة بلادنا ، وتشتيت شملنا ، حتى لقد يئسنا من الوصول إلى حسن التفاهم بجمع كلمة العرب .

ولا والله ما نعلم له شيئا من النقمة علينا إلا كما قال الله تعالى : ﴿وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ ولكننا ولله الحمد لسنا متأسفين على شيء اذا سلم لنا شرفنا في أمر ديننا ودنيانا ، وليس لنا قصد في زخارف الحسين وأتباعه ، لا في ملك ولا خلافة ، ولكن غاية قصدنا وما ندعو اليه هو أن تكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر ، ويسلم شرف العرب ، فلذلك لحقتنا الغيرة الاسلامية والمحبة العربية ان نفدي بأموالنا وانفسنا ما يقوم به دين الله ، ويحمى به حرمه الشريف الذى أمر الله بتطهيره وتعظيمه واحترامه كما قال تعالى : ﴿واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً وطهرْ بيتيَ للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ .

وقد أرسلنا سرية من المسلمين لاحتلال الطائف لأجل القرب والتفاهم بيننا وبين اخواننا ، فأحببت ان أعرض عليكم ما عندى ، فإن اجبتمونا فنعم المطلوب ، وان ابيتم فهذا الذي يعذرنا عند الله وعند المسلمين ، وابرأ إلى الله ان اتجاوز شيئاً مما حرمته الشريعة خصوصاً في هذا الحرم الشريف الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم﴾ .

وحرمة هذا البيت معلومة عند المشركين الاولين كما قال الشاعر :

إن الفضول تعاقدوا وتعاهـــــدوا ألا يقرّ ببطن مكـــة ظـــالم

واما الامر الذى عندى لكم فهو انى أقول لكم : يا أهل مكـــة وأتباعها من الاشراف وأهل البلد عموماً والمجاورين والملتجئين من جميـــع الاقطار ، عهد الله وميثاقه ان نحافظ على اموالكم ودمائكم ، وأن تحترموا بحرمة هذا البيت كما حرمه الله عـــلى لسان خليله ابراهيم ومحمد عليهما أفضل الصلاة والتسليم ، والا نعاملكم بعمل تكرهونه ، وألا يمضى فيكم دقيق أو جليل الا بحكم الشرع لا في عاجل الامر ولا آجله ، وان نبذل جدنا وجهدنا فيما يؤمن هذا الحرم الشريف وسكانه وطرقه للوافدين اليه ، الذى جعله الله مثابة للناس وامناً ، وألا نولى عليكم من تكرهونه ، وألا نعاملكم بمعاملة الملك والجبروت ، بل نعاملكم بمعاملة النصح والسكينة والراحة ، وان يكون أمر هذين الحرمين الشريفين شورى بين المسلمين وألا يمضى فيهما امر يضر بهما أو بشرفهما أو بأهلهما الا ما توافق عليه المسلمون وامضتـــه الشريعة .

فهذا الكتاب شاهد لى وعلي عند الله ثم عند جميع المسلمين ، وعلى ما قلته اعلاه أيضاً عليّ عهد الله وميثاقه ، فهذا الذى يلزمنا ولا بد إن شاء الله أن نفعل دائماً ما يسر خواطركم أكثر مما ذكرنا .

نرجو الله أن يهدينا واياكم لما يحب ويرضى ، ويصلح بنا وبكـــم البلاد والعباد ، وان يجعلنا واياكم هادين مهديين ، وان يمنعنا واياكم من سوء الفتن ، وان ينصر دينه ، ويعلي كلمته ، وان يذل أعداء دينه .

ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

٢٢ صفر سنة ١٣٤٣ عبد العزيز السعود

وأثّر كتاب ابن سعود في أهل مكة تأثيراً حسناً ، فهم قد رأوا أن دخول الاخوان إلى مكة كان سلماً ، ولم يعبثوا فيها ، وكل ما أحدثوه أنهم وحدوا صلاة الجماعة ، فلم يعد أئمة المذاهب الأربعة يصلون بالناس في المسجد الحرام كما كانوا .

ولم يرض أهل مكة توحيد الإمام ، ولكنهم صمتوا ولم يعارضوا خوفاً من الإرهاب ومن أن يعاد تمثيل مأساة الطائف ، فانتظروا قدوم ابن سعود .

وأما حكومة الملك علي فقد رأت أن تتصل بالعالم الخارجي رجاء أن تجد العون الذى تنشده ، وقد خطت خطوتين في وقت واحد ، اتصلت بابن سعود ، واتصلت بالعالم الخارجي ليتوسط فيما شجر من خلاف بين نجد والحجاز ، فأبرق إلى جمعية الخلافة بالهند ، وغفلت حكومة جدة أن هذه لجمعية كانت خصماً للحسين وأبنائه ، فهي تود انهيارهم وبعدهم عن الحجاز .

وأبرقت حكومة جدة إلى المجلس الاسلامي الأعلى بفلسطين بمثل ما أبرقت به لجمعية الخلافة ، تخبرهما بما تمّ في الحجاز من الأحداث ، تخبرهما بتنازل الحسين وتولى الشريف علي مُلْك الحجاز ، ثم يشرح لهما الحالة التي وصلت إليها البلاد ، وأن الحجازيين بعثوا الى ابن سعود كتاباً رسمياً يعرضون فيه عليه الصلح ، ويحمّلونه تبعات ما يقع وما وقع من جيشه في الطائف من مذابح وكوارث اذا رفض الصلح ، ويطلبون إليه أن يرسل مندوباً لعقد الصلح ، ويرجو الحزب منهما التدخل لانهـــاء الحرب ، وإلا فتبعة ما يحدث على عاتق العالم الاسلامي ، لأنه لم يسع لتخليص الارض المقدسة وأهلها من الكروب ، ولم يمنع جيوش نجد من الزحف والتقدم .

---

(١) تنازل ، خطأ : صوابه : نزل ، ولكننا أبقينا الكلمة الغالطة لشهرتها .

فبعث شوكت علي رئيس جمعية الخلافة بالهند بجواب الى الحزب الوطني يفهم من برقيته التى بعثها الى ابن سعود وقد وصلته في ١٠ ربيع الاول وفحواها : « تلقت جمعية الخلافة في الهند برقية من جدة تفيد تنازل الملك حسين وتولية علي ابنه ، وإن الجمعية أجابت جدة بأن الحكم في ذلك يجب أن يكون لكافة المسلمين في المؤتمر العام ، وأن مسلمى الهند لا يقبلون بأي وجه من الوجوه تولية الحسين أو أحد أولاده ولا يرضون الا بتأسيس حكومة ديمقراطية يشترط فيها جمع المسلمين » الخ .

بل لم يكتف شوكت علي بهذا بل سعى جهده لحمل بريطانيا على عدم التدخل في مشكلة الحجاز ، ورفع في ٣٠ ربيع الاول خطاباً وتقريراً الى حكومة الهند يذكر فيهما أن جمعية الخلافة تضع ثقتها فيها لأنها في مركز يؤهلها لفهم مقاصد المسلمين في البلاد المقدسة أكثر من حكومة لندن ، لهذا يطلب اليها أن تمنعها من التدخل في مسألة الحجاز .

ثم أكد شوكت علي لابن سعود أن مسلمى الهند لا يريدون بقاء الحسين بالحجاز كما لا يريدون بقاء أبنائه به ، بل يريدون أن تكون حكومة الحجاز ديمقراطية تخضع لرأي العالم الاسلامي ، وان جمعية الخلافة لا تعترف بملكية علي .

الا أن المجلس الاسلامي الأعلى بفلسطين قبل الوساطة فكتب رئيسه الحاج أمين الحسيني الى ابن سعود يرجوه أن يقبل وساطة المسلمين فيسوى الخلاف الناجم بينه وبين الشرفاء ، فأجاب ابن سعود برقياً ، وهذا نص البرقية :

« أمين الحسيني رئيس المجلس الاسلامي الأعلى بالقدس

« يحزننا أن تكون وساطتكم في وقت متأخر ، فأنا منذ سبع سنوات

نتوسل بجميع الوسائل لاحلال الصلح والوفاق محل الجفاء والشقاق ، فلم تثمر مساعينا ، وكنا كلما لنّا للحسين نجافى ، فتصريحاته المتكررة في شرقي الاردن التى تبرهن عن نواياه الاكيدة في بلادنا ، ومنعه رعايانا ست سنين من أداء فريضة الحج ، وحركاته المستمرة في بلادنا من عسير وغيرها ، ومعاملته كافة حجاج بيت الله الحرام ، وعجزه عن تقرير الامن في الحجاز مما أجبرنا أن نتخذ التدابير الفعالة لتستقر الحالة في بلاد الحرمين ، وليأمن مستقبل بلادنا ، وانا نرغب في وجود ادارة في الحجاز تكفل حقوق جميع المسلمين بوجه المساواة ، وتضمن راحة الحجاج ، وتزيل عنهم المظالم كلها » الخ .

كما أن الملك علياً أبرق مرة أخرى الى ابن سعود عن طريق البحرين يقول له : ان رغبته في السلم يسود الجزيرة كلها ، وان أمنيتهتسوية الخلاف بين نجد والحجاز بمؤتمر ينتهي فيه ما بدىء به في مؤتمر الكويت، ويطلب اليه أن يلبي نداءه حقناً لدماء المسلمين وصوناً لأرواحهم ، واذا أراد ذلك فليأمر قواته المحتلة بالانسحاب الى الحدود النجدية .

فأجاب ابن سعود بأن الصلح مستحيل ما دام أبناء الحسين يتوارثون ملك الحجاز ، وبأن الحجاز للعالم الاسلامي فهو يقرر مصيره .

ولا يرضى علياً ولا رجال حكومته هذا الجواب الذى يفيد أن الصلح لا يتم الا اذا بارح علي الحجاز ، وهذا طلب غير مقبول عند قوم لم يملّكوه الا لبقاء الحجاز بعيداً عن سلطان ابن سعود ، وأخذوا يفكرون في الوسيلة التي تخلص البلاد من هذا الجيش الزاحف المحتل القابض على زمام مكة والطائف وما بينهما من قرى وبوادي .

وبينا هؤلاء غارقون في التفكير كان ناجى الاصيل في لندن يبذل كل جهوده لحمل الحكومة البريطانية على حماية الحجاز بما لها من نفوذ قوي

على ابن سعود ، ولكنها اعتذرت بأن المعاهدة التى قدمت من قبلها عدلها الحسين « تعديلات » لم توافقها ، والآن وقد تخلى عن الملك فلا يمكن أن يُفاوَض فيها .

ولكن ناجى الاصيل كان « ديبلوماسياً » خبيراً فأدار الدفة الى ناحية أخرى وطلب من بريطانيا المعاهدة الأولى التى كانت في صالح الحجاز ، وما دام الحسين قد اعتزل الملك وبارح البلاد فان الحجاز ما يزال مكانه ، وملكه الحاضر « علي » لم يشترك في التعديلات التى قام بها أبوه ، وهو موافق على تلك المعاهدة — قبل تعديل الحسين الذي لم يوافقها — وفي وسع بريطانيا الموافقة عليها لتعتبر نافذة ، ولكنها أجابت بأنها لا تستطيع عمل أي شيء مع حكومة علي قبل أن ينجلي الموقف الحاضر .

بل طلبت حكومة علي من بريطانيا أن تتدخل في الصلح بين عاهل نجد وعاهل الحجاز الجديد فأبت ، وتغيرت الوزارة البريطانية التي لم توافق على توقيع المعاهدة التى حاول معها ناجى الاصيل على توقيعها وقامت مكانها وزارة المحافظين برئاسة المستر بلدوين . فسئل عن موقف حكومته في النزاع القائم بين ابن سعود وعلي فأجاب في صراحة تامة : أن الحكومة البريطانية لا تنوى العدول عن التدخل في النزاع القائم من أجل الاراضى المقدسة الاسلامية ، وانها ستبقى على الحياد ، وليس في نيتها الوساطة بين المتنازعين بحال من الاحوال .

وأخفقت الحكومة الهاشمية المرتجلة من يومها الاول اخفاقا مرا ، فلم يصادفها الحظ السعيد في خطوة من خطواتها ولا في عمل من أعمالها ولا في مناورة من مناوراتها الكثيرة ، ولم يُجْدِها اجبار الحسين على التنازل ، بل أضرها تنازله ضرراً بليغاً ، فقد عجل بمصيرها المحتوم لها ، فها هي ذى عاجزة عن تكوين جيش قوي ، ولكن من حسن حظها — أو من سوء حظها لا أدرى ! — أتت اليهـا نجدات من الامير عبد الله حاكم

الأردن قوت عزيمتها وأحيت موات الأمل فيها ، فرأت أن تكتب الى ابن سعود غير الخطاب الاول تختمه بالتهديد والوعيد ، وتلوح له بالنار والحديد ، فلعله يستخذى ويقبل الصلح ان لم يذلل صعبه ما سبق من الاغراء واللين والكلام الطيب ، ووجه الكتاب باسم الملك علي وقد جاء فيــه :

« من علي بن الحسين الى صاحب العظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود

« أما بعد ، فاني لعلى يقين مــن أن التسافك في الجزيرة يقطع الارحام ، ويذهب بالأحلام ، ويغرى عدو العرب على الاستفادة من الخصام ، وأنت تعلم أنه عدو شديد عنيد لا يستنيم الى رعاية العهود ولا يطمئن الى السكينة ! فماذا أنت فاعل وقد بسطت لك الحالة كما هي من غير تشويه في حقيقتها أو لبس في مظاهرها ؟ .

ان أقصى رغبتي هي أن يسود السلام في الجزيرة ، وأن تعود السكينة ما بين نجد والحجاز ، وانى لباسط لك رأيى في السلم ، ومقترح عليك عقد مؤتمر لازالة بواعث الخلاف ، وينبغى أن تعلم عظمتك أن تدخل الاجانب بين الامم المسلمة ضار بنا وبمصلحة بلادنا ، وهذا التدخل لا يبعد أن يجر الى تشاحن عظيم ، وهذا أمر لا أرغب فيه ولا أوافقك عليه » .

ثم قال : « فما شأن الأعاجم في بلادنا ؟ وأنت تعلم أن لهم من مشاغلهم في بلادهم ما يضطرهم الى التنحى عن الاهتمام بمصير الحجاز ، فاذا هم جدوا في استقلال بلادهم كان ذلك أجدى عليهم من كل أمــــر » .

ثم قال : « وأقترح عليك عقد مؤتمر يحضره مندوبو الطرفين للصلح والرجوع الى اتمام المفاوضات التى دارت في مؤتمر الكويت » .

ثم طلب الى ابن سعود جلاء النجديين من الاراضي الحجازية المحتلة والا فسيستردها بالسيف ، ثم ختم الكتاب بهذا التهديد :

« فاذا لم يبلغك صوتى ويصلك نذيرى فانى مضطر الى الاصطلاء بنار الحرب بلا شفقة ولا رحمة ، وللتاريخ بعد ذلك حكمه الذى لا يرد في الباغي منا ، فاذا كنت باغياً فلا يذكرنى التاريخ بخير ، وان كنت أنت الباغى حقت عليك كلمة الله ، وليس الله بغافل عما يعمــل الظالمون » .

تلقى ابن سعود هذا الخطاب فابتسم وعرف منه أن ما به من اغراء أو تخويف ليس الا محاولة يائس استبد به القلق وانتحر في نفسه الرجاء وفر من قلبه الثبات ، وعرف أن ذلك «بداية النهاية» فما أراد أن يرد عليه رداً قاسياً ، بل كتب في ١٨ ربيع الثاني ١٣٤٣ إلى علي برقية صافية القول سهلة العبارة ، وهذه برقية ابن سعود :

« البحرين في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٤ م

الشريف علي ابن الشريف حسين .

انى أحترم شخصكم احتراماً عظيماً ، ولكن معاملة والدكم لأهل نجد وسائر المسلمين هي التى جعلتنا نقف هذا الموقف ، فاذا كنتم تحبون السلام وحقن الدماء أخلوا الحجاز ، وانتظروا حكم العالم الاسلامي ، فان اختاركم أو اختار غيركم فنحن نقبل حكمه بكل ارتياح ، أما اذا بقيتم على أرض الحجاز فان مسئولية ما يقع من الحوادث يقع على عاتق غيرنا » .

وكان ابن سعود جازماً بأن أجل حكومة علي قصير ، ولكنَ الملك علياً كان يأمل في البقاء بالحجاز ان سلما وان حرباً ، وقد مد له خيط الرجاء خطٌ الدفاع الذي أنشأه حول جدة على شكل هلال ينتهى طرفاه الى البحر وطوله ستة أميال ، ووجود فريق من المسلمين والمسيحيين أتوا جدة للوساطة بين العاهلين ، وكلهم ينتظر مجيء ابن سعود الى الحجاز لأن فيه مقطع القول ، وقد كان .

إني مسافر لرفع المظالم

"ابن سعود"

كانت أخبار الحملة النجدية تأتى ابن سعود كل يوم ليقف على أعمالها وحركاتها ، وقد وردته أنباء ضافية عن معركة «الحوية» وعن فاجعة الطائف وعن موقعة الهدى فتألم لفاجعة الطائف ألما شديدا ، وكتب إلى رؤساء جيشه ألا يتقدموا ، وأوصاهم بأن يتبعوا أمر الله فلا يبغوا ولا يظلموا .

وجمع كبار رجاله بالرياض وأخبرهم بالغزو ونتائجه وفتح الطائف وما حدث به ، وبأمره لسلطان بن بجاد وخالد بن لؤي ألا يتقدما الا بأمر يأتيهما منه ولا بأس من التقدم ان كانت الطريق مفتوحه إلى مكة بدون قتال ، وأخذ في التشاور والتفكير في الطريقة التي يخلصون بها الحجاز من الحسين .

طلب اليهم الرأي في دخول مكة ، فقال الاخوان الموجودون بمجلسه : للجيش أن يدخل مكة محرما منكس السلاح ، فان صده أحد عن البيت قاتله والا دخله آمنا .

غير أن مقطع القول في هذا الامر الديني العظيم عند العلماء ،

فأفتوا بأن دخول الحرم الشريف بقصد القتال حرام ، وأعجب ابن سعود بصراحة علمائه وتقواهم ، فأمر جيش خالد ألا يدخل مكة بقصد القتال فيها ، أما اذا وجدها خالية فلا بأس من دخولها ، فاذا ظهر له أن دخولها سيحدث قتالا فيها فليرجع .

وبينما هم كذلك ورد ابن سعود خبر دخول ابن لؤي بجيشه مكة بدون قتال ، فرأى أن الوقت قد حان لتحقيق أمانيه فصمم العزم على أن يبعث أحد ابنائه إلى مكة للاجتماع بوفود المسلمين والتشاور معهم في العمل النافع الذى يضمن لها سعادتها ويرد اليها مجدها المسلوب وعزتها الضائعة ، ثم رأى أن حرمة بيت الله تقضى عليه أن يذهب هو نفسه إلى مكة ليتولى شؤونها ويجتمع بأهلها وبالمسلمين لتقرير مصيرها ، وعزم على السفر ، وكتب إلى الامام يحيى عاهل اليمن جاء فيه : « أما بعد ، فقد استقبلت الطريق إلى مكة غير باغ ولا آثم ، فليتفضل الاخ العظيم بارسال من يمثله في مؤتمر مكة حبا بنشر السلام بين أمم الاسلام » وبعث هذه الكلمة نفسها إلى ملوك المسلمين وأمرائهم المستقلين .

ثم جمع من كان لديه من العلماء والامراء والقادة وألقى عليهم كلمة بليغة أبان لهم فيها مقصده من السفر إلى مكة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« إنى مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها ، بل لرفع المظالم والمغارم التي أرهقت كاهل عباد الله ، إنى مسافر إلى حرم الله لبسط أحكام الشريعة وتأييدها ، فلن يكون بعد اليوم سلطان الا للشرع ، ويجب أن تطأطىء جميع الرءوس له ، ان مكة للمسلمين كافة ، فيجب أن يكون أمر ادارتها وتنظيمها وفق رغبة العالم الاسلامي ، اننا سنجتمع بوفود العالم الاسلامي هناك ، واننا سنتبادل معهم الرأي في كل الوسائل التى تجعل بيت الله بعيدا عن الشهوات السياسية ، وتحفظ راحة قاصدى حرم الله ، ان الحجاز

سيكون مفتوحا لكل من يريد فعل الخير من الافراد والجماعات » .

وبهذا الخطاب الموجز البليغ يضع خطة الحكم في الحجاز حتى لا يستغل خصومه قدومه اليه ويؤلوه تأويلا سيئا ، وقطع به كل مظنة يروجها ذوو الهوى ، وقوبل خطابه هذا من الصحافة العربية بترحاب ورضا .

فجريدة البلاغ التي تصدر في الاسكندرية علقت على خطاب ابن سعود قائلة : « بهذا المنهج يذهب سلطان نجد إلى أم القرى مشهدا الله والناس على انه لا يتردد في تنفيذ ما صحت نيته على تنفيذه وما انتوى عمله ، فما أسمى الغاية التي ينشدها ! وما أحراه بتأييد العالم الاسلامي قاطبة له في تلك المهمة الشاقة التي عهدت الظروف اليه أداءها ، وإن لهجة السلطان لتذكرنا بلهجة السلف الصالح ، كما أن سيرته واستقامته وقوة ايمانه تبعث الاطمئنان والارتياح في نفوس المسلمين . فالرجل لا يسعى وراء الجاه والحطام الفانى ، وانما يريد جعل أم القرى كما كانت في العهد السالف منبع الحكمة وموطن الشريعة ، انه يريد تطهيرها من الارجاس والخبائث التي انتشرت فيها منذ ان انصرف أشرافها عن شئون الدين وأوغلوا في التعلق في الدنيا والتفانى في زخرفها وزينتها فلم يراعوا حرمة المكان ، ولم يبالوا سعدت البلاد أم شقيت ! ارتفعت كلمة الدين أم انحطت ما دام نصيبهم من الحطام الفانى مضمونا يستولون عليه لسد شهواتهم وقضاء لباناتهم ، وقد علمتنا الحوادث أن السلطان ابن سعود ما وعد الا وفى ، ولا صمم على شيء الا نفذه بقدر ما استطاع ، فاذا قال انه ذاهب إلى أم القرى بالمنهج الذى ذكرناه فاننا نثق بأقواله ونؤمن باخلاصه وصدق طويته » .

والآن وقد تهيأ للسفر واستقبل طريق مكة فقد وجب عليه أن يضبط شؤون بلاده لئلا ينتهز باغ فرصة غيابه عنها فيشغب عليه فيها ، فأمّر

خير رجاله وأعظمهم حنكة وشجاعة ، فجعل ابن عمه عبد الله بن جلوى على حدود العراق ليرد عاديته ان جاء منه شر ، وترك على حدود سورية ابن مساعد اليقظ البصير ليراقب أعمال الامير عبدالله بن الحسين ويمنع مساعداته التي يبذلها لاخيه علي ، وجعل ابنه سعودا على الرياض يدير شؤونها ، وأقام والده الإمام عبد الرحمن رئيسا للجميع يرجعون اليه في كل أمر ، ولا يقطعون شيئا بدون رأيه ، فهو المرجع الاعلى لهم جميعا .

وأدرك أن المسافات بينه وبين أمرائه في الشمـــال والجنوب والشرق شاسعة ، فاذا سافر إلى مكة ازداد بعدا عنهم ، فأمن البريد ورتب شؤونه ليكون واقفا على كل ما يجرى في طول البلاد وعرضها ، وأمر أن يوافى بالانباء كل يوم .

وكتب إلى عنيزة وبريدة أن يوافيه القادرون من أهلها في الطريق ، كما كتب إلى بعض أهل الهجر من الاخوان أن يلتقوه في الطريق أيضا ليسيروا مع ركبه إلى مكة .

وان موكبا عظيما كهذا يحتاج إلى تموين عظيم ودواب تحمل أثقاله وزاده ، وابن سعود خبير بتموين الجيوش ولا ينسى أتفه الاشياء الـــتي تلزمه ، فأمن الدواب والزاد والمؤن والذخائر ، وقسم الموكب أقساما ، كـــل قسم تقال له «خبرة» والخبرة في اصطلاح البدو في الحجاز ونجد جماعة مكونة من العشرة إلى المئتين عليها رئيس يدير شؤونها ، ولابن سعود خبرة وهي أكبر « الخبر » في هذا الموكب الرائع العظيم ، ويتلوها في الكبر « خبرة » اخيه محمد فأخيه عبدالله وهكذا ، ولكل خبرة رئيسها وطاهيهـــا وسقاتها ودوابها وخيامها وكل ما يلزم لها في الحل والترحال ، ورئيسها هو المسئول عن تموينها .

كما أنه رتب المنازل ورتب نزول « الخبر » فلا يتقدم في النزول من

كان حقه التأخير ، بل يعرف منزله بالنسبة لمنزل السلطان فلا تضل ولا تنسى ، وتركز كل « خبرة » علمها أمام خيمة الرئيس ، ولكل علم بطل يحمله ، وهو أول من يسير اذا استعد الموكب للسير ، وحامل رايه ابن سعود هو البطل المنصور عبد الرحمن بن مطرف الذى لم تنكسر رايته قط من يوم أن جاهد مع ابن سعود ، وهو أول من يركب ، فاذا ركب تبعه الموكب .

كما رتب الأدلاء الذين يعرفون مجاهل الصحراء ومواقع الماء ، ويعرفون الطرق السهلة القريبة وهم يكونون بجانب صاحب الراية ابن مطرف ليقودوا الموكب ، وهكذا رتب الرحلة ترتيبا دقيقا ، ووزع الاعمال توزيعا عادلا ، فأعطى كل واحد العمل الذي يتقنه ليؤديه على خير وجه .

في الطريق

رحلة عبد العزيز بن سعود بهذا الموكب العظيم الرائع ممتعة وان كانت لا تخلو من المشقة والتعب لطول الطريق ، وقد دونها الاستاذ يوسف ياسين — أحد مرافقيه فيها قبل عشرين سنة — (١) ووعد قراءه بأن يجمع ما كتبه عنهـا كمقالات في جريدة « أم القرى » اول صدورها ويخرج كتابا ، ولكن أعماله شغلته ، ولو وسعه اصدارها لاضاف الى مكتبة الرحلات العربية كتابا رائعاً جليلا ممتعا .

أمر ابن سعود حامل رايته ابن مطرف أن يسبقه ببضعة أيام الى ماء يسمى «الغزيز» ينتظر عليه من يرافقه في رحلته ، وفي صباح الاثنين ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٤٣ هـ (١١ نوفمبر ١٩٢٤) غادر الرياض بسيارته وصل الدرعية بعد ساعة ، وهي بلدة آل سعود القديمة . وقد خربهـا

(١) كان هذا عند كتابة هذا الفصل ، أما اليوم فقد مضى على ذلك أكثر من أربعين سنة ، وقد طلب إلي أن أتولى تحقيق رحلته السلطانية هذه فاعتذرت لانني مشغول بما لدي من دراسات وكتب ، وكان ذلك سنة ١٣٥٠هـ وأرجو أن يقوم ابنه أنس ياسين بنشر رحلة والده . هذه تعليقة كتبت سنة ١٣٨٤ في طبعة الكتاب الثانية ، وبعدها جمعته وزارة المعارف السعودية وطبعته .

الجيش المصري ، الا انها في واد خصيب كثير الماء والعشب تزينه النخيل وتنشق بينها مخرفة[1] نثر عليها الزهر وغطاها العشب والبرسيم ، وقد امتدت الى الدرعية يد العمران وأصبحت المدينة الجديدة تناوح القديمة المتهدمة .

وقد غادرها الى الجبيلة مارا بالملقى ، وفي السادسة والنصف بلغ الجبيلة وهي بلدة مسيلمة الكذاب ، وقد وقعت فيها الحرب الضروس بينه وبين سيف الله الغلاب خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وما يزال بهاقبور الشهداء من الصحابة الاجلاء رضوان الله عليم ، وأرضها خصبة بها النخيل والتمر والماء الحلو العذب ، أما السكان فقليل عددهم ، وكلهم من البدو .

وقد قال فيها السلطان وغادرها بعد صلاة العصر تاركاً بها سيارته التى لا تستطيع السير لوعورة الطريق والرمال متخذاً الجمل ، وقصد الى العيينة بلدة آل معمر الذين أيدوا شيخ الاسلام الامام محمد بن عبد الوهاب ودعوته ، ووضعوا أيديهم في أيدى آل سعود القدماء ، وانقلبت العيينة — الآن — طللا مستوحشاً لا ساكن فيه ، وما تزال آثار حضارتها وقصورها ودورها وبساتينها باقية تشهد بالماضي الزاهر لها ولحكامها آل معمر .

ولم يقم ابن سعود فيها ، بل عبرها وهو يشهد جلال الماضى وعبره ، وأغذ السير ، وأدركه الليل فبات في الطريق مع ركبه الذى يعد بالآلاف ، ليستأنف الرحلة صباحاً .

وها هوذا الموكب العظيم يجتاز وادي الحيسية قبيل الظهر إلى « الحسيان » فيقيم به للغداء .

ولم يُنزِل أحماله الثقيلة بالحسيان ، لأن إقامته لن تطول إلا للصلاة ثم

(١) المخرفة : الطريق بين صفين من النخل .

الغداء ، ثم يغادرها الى «الغزيز» حيث ينتظره الموكب العظيم بالمؤن والذخائر والاسلحة .

واختار « الغزيز » لأن به مراعي خصبة تجد فيها الدواب والانعام أعلافها ، وبه ماء غزيرا عذباً يكفيها ويكفى الآلاف .

وتفقد ابن سعود جيوشه وألويته التى اجتمعت بالغزيز ورتبها ، وسلم القادة والرؤساء خطة السير ، كما هيأ لمرافقيه من المستشارين والكتاب كل ما يحتاجون إليه .

وكان في موكبه بعض إخوته وأبنائه ، وبعض آل الشيخ ، وبعض العلماء والأدباء والشعراء والقصاصين ، وها هي ذي أسماء من كانوا معه من البارزين :

١ – الأمير محمد بن عبد الرحمن ، بطل فتح الرياض ، وقد ولد سنة ١٢٩٨ وتوفي سنة ١٣٦٢ هـ (١٨٨١ – ١٩٤٣ م) .

٢ – الأمير عبدالله بن عبد الرحمن (شهد معظم الغزوات مع أخيه الملك عبد العزيز) .

٣ – الأمير محمد بن عبد العزيز (حصل على يديه دخول المدينة المنورة ، وتسلمها في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٤٤)

٤ – الأمير خالد بن عبد العزيز (وليّ عهد المملكة العربية السعودية الآن ، والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء) .

٥ – ناصر بن سعود بن إبراهيم بن عبدالله بن فرحان بن سعود (توفي سنة ١٣٥٨ هـ) .

٦ — مساعد بن سويلم .

٧ — مشاري بن سعود بن جلوي بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود (توفي سنة ١٣٤٦ هـ)

٨ — الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ ، قاضي جيش الإمام عبد العزيز ، وإمامه في الصلاة ، وتولى فيما بعد رئاسة قضاةالمملكة سنة ١٣٤٦ إلى أن توفي بمكة المكرمة سنة ١٣٧٨ هـ .

٩ — الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، توفي سنة ١٣٦٦ هـ .

١٠ — محمد بن عبد العزيز بن عبد اللطيف آل الشيخ (كان يلقب بالصحابي لورعه) .

١١ — الشيخ عبدالله العُجَيْري . (تأتي كلمة عنه في هذا الفصل) .

١٢ — الشيخ حَمَد الخطيب (حمد بن محمد أبو عوف ، من أهل مدينة حائل ، تولى القضاء بمكة وتوفي فيها سنة ١٣٤٤ هـ) .

١٣ — الشاعر عبد الرحمن النفيسة ، ويلقب بالخطيب .

١٤ — الشاعر حسين النفيسة ، وهو شقيق عبد الرحمن السابق ذكره ، وله ديوان مطبوع بالهند .

١٥ — عبد الرحمن بن مشاري بن سويلم .

١٦ — فهد الرشيد ، من آل رشيد .

١٧ — سلطان الرشيد ، من آل رشيد .

١٨ ـ رشيد الرشيد ، من آل رشيد .

١٩ ـ إبراهيم السبْهان من آل سبهان ، أمير حائل السابق .

٢٠ ـ محمد بن عبد الكريم السبهان .

٢١ ـ فهد العبدالله السبهان .

٢٢ ـ الدكتور عبدالله الدملوجي .

٢٣ ـ يوسف ياسين ، وقد توفي سنة ١٣٨٠ هـ .

٢٤ ـ السيد حمزة غوث ، من أهل المدينة المنورة ومن آل البيت ، وسفير المملكة السعودية في إيران ، وتوفي منذ سنوات .

٢٥ ـ الدكتور محمود حمدى حمّودة .

٢٦ ـ محمد النحاس ، من رجال المالية والوطنية بسورية .

٢٧ ـ بَشِير الأمين ، من رجال المال .

٢٨ ـ جمال الغزي .

٢٩ ـ عبدالله بن سعد السدَيْري .

٣٠ ـ عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم ، تولى إمارة الطائف بعد دخول ابن سعود إلى مكة سنة ١٣٤٣ ، ثم نقل إلى المدينة المنورة وكيلا على إمارتها ، لأن أميرها الرسمي كان الامير محمد بن عبد العزيز ، وفي سنة ١٣٥٥ نقل إلى مجلس

الوكلاء عضوا فيه ، ثم مرض فسافر إلى القاهرة للعلاج ، وتوفي بها وذلك سنة ١٣٦٥ هـ .

٣١ ــ حافظ وهبه ، توفي سنة ١٣٨٧ هـ .

٣٢ ــ محمد بن حُوبان (من كتّاب الديوان) .

٣٣ ــ عمر بن ربيعان (أمير لواء هجرة الداهنة) على رأس جندها ، وهو الآن أمير نفي .

٣٤ ــ عبدالله بن زاحم ، قاضي هجرة الداهنة ، وهو عبدالله بن عبد الوهاب بن زاحم ، من أهل القصب (إحدى قرى الوشم) ينتسب إلى قبيلة البقوم المعروفة في تربة وحضن ، تفقه في أشَيْقِر والرياض ، وعُين قاضياً في الداهِنة ، ثم نقل بعد سنوات إلى قضاء الرياض ، فرئاسة قضاة المدينة ، وتوفي وهو في هذا المنصب سنة ١٣٧٤ هـ ، ودفن في البقيع .

٣٥ ــ الزغَيْبي ، أمير لواء هجرة دُخْنَة ، ومعه عدد من جنده .

٣٦ ــ زَبْن بن جُدَيْع ، أمير لواء هجرة الدُلَيْمية .

٣٧ ــ سعيد الذِكْري ، أمير لواء هجرة مِسْكة .

٣٨ ــ محمد بن معدل ، أمير لواء هجرة البدع .

٣٩ ــ تُركي الظيط ، أمير لواء هجرة نِفْي .

٤٠ ــ هندي الذُوَيْبي ، أمير لواء هجرة الشُبَيْكية .

٤١ ــ عجب بن حُفَيّظ ، أمير لواء شريفة .

٤٢ - الشيخ عبدالله السليمان ، رئيس ديوان ابن سعود ، ثم صار وزيراً للمالية حتى سنة ١٣٧٣ هـ .

وفي « الغزيز » تكامل موكب ابن سعود ، وفي العصر نهض باسم الله ، تتقدمه كوكبة من الفرسان تسبقه في السير للاستطلاع وتمهيد السبيل ، وبعد ساعة من مسيرها يسير الطهاة والخدم والعبيد ومن بيدهم التموين وأمر الخيام ليسبقوا الموكب الى المكان المعد للنزول لتهيئة كل ما يحتاج إليه الموكب في المنزل الجديد .

ثم امتطى ابن مطرف ناقته الفارعة وأمسك براية ابن سعود الخفاقة ، وعلى جانبيه دليلان ، وعلى بضعة أمتار منه حملة المشاعل لينيروا لـه الطريق في ظلمة الليل ، ويأتي السلطان بعده ، وهكذا يأخذ في الترتيب من الاعلى الى الادنى .

ومشى الموكب العظيم وسطاً لا رويدا ولا خببا الى روضة الشمس وليس بها ماء ولا شجر ، ولكنها رحيبة فنزل فيها ، ثم رحل منها الى « خشم مرات » وبات فيه ، وفي الصباح بعد تناول « الفطور » اتخذ سبيله الى « مرات » التي يظن أنها بلدة امرىء القيس كما ذكر يوسف ياسين [1] .

وقال فيها ياقوت : ان اسمها « مرأة » بلفظ المرأة من النساء ، وقد زارها ذو الرمة الشاعر العربي المشهور وخرج منها ثائراً ناقماً ساخطا على أهلها وقـال :

فلما وردنا « مرأة » اللؤم غلقت   دساكر لم تفتح لخير ظلالهـا

---

(١) نفى لنا الشاعر النجدي محمد بن بلهيد ان « مرات » هذه بلدة امرىء القيس الملك الضليل ، وانما هي بلدة رجل يسمى امرأ القيس ، وهو غير ذاك .

وقد سميت باسم «امرىءالقيس» قرية		كرام غوانيهـــا لئام رجالهـــا
يظـــل الكـــرام المرملون بجوها		سواء عليهم حملهـــا وحيالهـــا

وأقام بها الموكب يوما وليلة ثم غادرها الى المروت فرأس قنيفذة فنفود السر – وهذا منبسط من الرمل فسيح ولكنه لا يعوق سير الابل بأحمالها الثقيلة – ومنه الى خُفّ : وهو منخفض رحيب من الارض به آبار تنزله قبائل عتيبة نجد صيفاً ، وأقام به ابن سعود ، ونصب له سرادقه .

وبعد أن صلى العصر كان عنده في سرادقه الواسع الكبير كبار رجاله واخوته وأبناؤه فنهض عبدالرحمن النفيسة الشاعر ، واستأذن السلطان في القاء قصيدة نظمها فيه ، فقال له السلطان : انى أحب سماع الشعر الجيد ، ولكن نوعين منه لا أحبهما : الهجاء والمدح الزائد عن حده ، ثم أذن له ، فألقى قصيدة حماسية رائعة قوبلت بالاستحسان .

ثم أنشد العجيري قصائد لشعراء نجديين بعثوا بها الى ابن سعود ، وهي في مدحه والاهابة به أن يخلص الحرمين من الحسين ، وكان العجيري موفقاً في الالقاء ، والعجيري « مكتبة الموكب » فهو يحفظ كثيرا من الشعر والنوادر والقصص من الاغاني للاصفهاني ، والكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وديوان الحماسة لابي تمام ، وغير ذلك كثير ، ويحفظ شيئاً غير قليل من دواوين فحول الشعراء كامرىء القيس وطرفة بن العبد وعلقمة الفحل والنابغة وزهير بن أبي سلمى وعنترة وحسان رضي الله عنه وابن أبي ربيعة والعرجي وكثير عزة وجميل بثينة وجرير والفرزدق والاخطل وابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء والشريف الرضي وبشار ابن برد ، ويذكر تراجم حياتهم بالتفصيل ، حتى أن الاستاذ يوسف ياسين أعجب به أيما اعجاب وقال عنه :

« لقد أقام لنا الشيخ الدليل على أن ما رُوِيَ لنا من أخبار الرواة

الاولين وما كانوا يحفظونه من الشعر والنثر أمثال : حماد ، والاصمعي ، وأبي عبيد ، وغيرهم لم يكن خيالا شعريا ، وانما هي حقائق واقعة ، وان أمالى أبى على القالي وأضرابه لم تكن الا من قبيل ما يرويه لنا الشيخ في الطريق ، وخلاصة ما يقال في هذا النابغة الراوية أنه حجة المتقدمين للمتأخرين » .

والعجيري — على أنه راوية — أديب ذواقة يفطن الى الدقائق الفنية في الشعر العربي ، ويفهم دقائق اللغة والفوارق التى لا تستبين الا للراسخين فيها ، ويطنب في شرح ما يرويه ، ويستشهد بكثير من الشعر يؤيد به ما يذهب اليه ، ويعرف البلدان وتاريخها وما قيل فيها من شعر أو أشير اليها في بيت أو مثل .

وبات الموكب في منزله هذا ، ونهض قبل الفجر بساعتين وسار في واد يسمى « شعب خف » يفضى الى « القرنة » وحصاها مختلفة الالوان ما بين أسود وأبيض وأحمر ، وقد نزلها للغداء ثم غادرها الى الدوادمي وكان الليل حالكا ، وتقدمه حملة المؤن لم يرهم الموكب ، فأخرج أحد مماليك ابن سعود « صواريخ » أشعلها فطارت الى السماء وتبدد الظلام واهتدوا الى منزل الحملة ، وبات الموكب في الدوادمي ، ومشى صباحا فوصل «الشعرا» وهي مزارع وبساتين يزرع بها النخيل والذرة واليقطين ، فنزل بها .

وكان بالشعرا ملتقى الألوية الخمسة عشر ، حيث كانت في انتظار ابن سعود : خمس منها لاهل الحضر وهي ألوية : بريدة ، وعنيزة ، والبكيرية ، والخبراء ، والمذنب ، وعشر للهجر التى أسسها وهي : لواء دخنة ، والداهنة ، والدليمية ، ومسكة ، والبدع ، ونفيّ ، والشبيكية ، وضرية ، وشريفة ، ولواء عبد المحسن بن شمس ، لأن الشعرا مركز وسط بين الحجاز والقصيم .

ولما كانت الشعرا غزيرة المياه كثيرة الزروع فقد مكث فيها الموكب يومين يستمتع بهذا الهواء الطلق الجميل ، ثم غادرها تاركا عن يمينه جبال « ثهلان » المشهورة ويبعد عنها قليلا جبل دمخ وبقربها يذبل ، ودارة جلجل التي قال فيها الملك الضليل :

ألا رب يوم لى من البيض صالح   ولا سيما يومـــا بدارة جلجل

وقال محمد بن ادريس بن أبي حفصة : دمخ ثم العرج ثم يذبل ثم ثهلان ؛ كل هذه جبال بنجد ، وقال الفرزدق :

ان الذى سمك السماء بنى لنا   بيتا دعائمـــه أعز وأطول
بيتا زرارة محتب بفنـــائـــه   ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
فـــادفع بكفك ان أردت بناؤنا   ثهلان ذو الهضبات هل يتلحل

وقال جحدر اللص :

ذكرتُ هندا وما يغنى تذكرها   والقوم قد جاوزوا ثهلان والنيرا

والنير جبال بنجد ، وقد أنشد أبو هلال الاسدي :

أشـــاقتك الشمائل والجنوب   ومن علْوَ الرياح لهـــا هبوب
أتتك بنفحة مـــن شيح نجد   تضوع والعرار بهـــا مشوب
ومن بستـــان ابراهيم غنت   حمائم تحتهـــا فنن رطيب
وشمتُ البارقات فقلت : جيدت   جبال النير أو مطر القليب
فقلت لها : وقيت سهام رام   ورقط الريش مطعمها القلوب
كما هيجت ذا طرب ووجـــد   الى أوطـــانه فبكى الغريب

وقال أبو هلال : وبالنير قبر كليب بن وائل ، وهو قرب ضرية ،

وضرية حمى كليب الذي ضرب بمناعته المثل فقيل : أمنع من حمى كليب .

أما « دمخ » فقد قيل فيه :

فيا ليت شعري هل أسيرن مصعدا ودمخ لأعضاد المطي جنيب

وقال طهمان بن عمرو الدارمي :

كفى حَزناً أن تطاللت كي أرى ذرى قلتيْ دمخ كما تريـــان
كأنهما — والآل يجري عليهما من البعد — عينا برقع خلقان
ألا حبذا — والله لو تعلمانه — ظلالكمـــا أيهـــا العلمان
وماؤكما العذب الذي لو وردته وبي نافض الحمى اذا لشفاني
وانيّ والعبسي في أرض مذحج غريبان شتى الدار مختلفـــان
فمن يـــر ممسانا وملقى ركابنا من الناس يعلم أننا سَبُعان

وسار الى الجنوب حتى دخل « ريع الريان » المشهور بطيب هوائه وعذوبة مائه وكثرة أعشابه ، وقد سميت « الريان » محالُّ كثيرة ، وقال ياقوت : الريان جبل في ديارطي — وهي حائل اليوم — واسم قرية من قرى نسا (بلدة بخراسان) قرب سرخس ، واسم أطم من آطام المدينة ، واسم واد في ضرية من أرض كلاب ، أعلاه لبني الضباب ، وأسفله لبني جعفر ، وقال أبو زياد : الريان يقسم حمى ضرية من قبل مهب الجنوب ثم يذهب نحو مهب الشمال ، وقال في القاموس : الريان واد بحمى ضرية جبل بديار بني عامر ، ولعل الريان الذى مر به الموكب هو هذا .

وقد حفل الشعر العربي بذكر الريان وتمجيده والاشادة به والحنين اليه حتى قالت امرأة من العرب :

ألا ما لعيني لا ترى قلل الحمى ولا جبل الريان الا استهلّتِ

وقال جرير :

يا حبذا جبل الريان من جبل وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نفحـــات من يمـــانيـَة تأتيك من جبل الريان أحيانا

وقال الشريف الرضي :

أيا جبل الريان إن تعـْرُ منهم فانى سأكسوك الدموع الجواريا
ويا قرب ما أنكرتم العهد بيننا نسيتم وما استودعتم السر ناسيا
فيا ليتني لم أعلُ نشـْزا إليكم حراما ولم أهبط من الارض واديا

ولم يقف الموكب بالريان الا بمقدار أداء التحية والذكرى ، ثم مضى صُعداً حتى كان في وادى الرشا بين جبال ثهلان وجبال الحوار ، وهو أعالي نجد حتى ليبلغ ارتفاعه ١٤٠٠ قدم عن سطح البحر ، ولم يقف الموكب بالريان بل أغذ السير ليستمتع بأعالى نجد التى تغنى بطبيعتهـــا الشعراء وخلدها العشاق في شعرهم ، وقد ورد الحوّار في شعر كثير عزة :

ونحن منعنـــا في تهامة كلهـــا جنوب نقا الحوار فالدمث السهلا
بكل كميت مجفر الدف[1] سابح وكل مزاق وردة تعلك النكلا[2]

وهذا الشعر لا يدل على خوار نجد بل على خوار تهامة .

ومكث الموكب في هذه البقعة الساحرة السافرة عن حسنها وخلابتها ،

---

(١) مجفر الدف : قوى الجنب .
(٢) النكل : حديدة اللجام .

المنعشة بهوائها الرقراق المندى بشذا الزهر ، ثم مشى في أرض فسيحة تحيط بها الجبال كالاطار بشكل دائري تشقها الطريق شقاً . فيفيضون منها الى ارض مثل الارض التى سبقت حتى نزل بقعة قرب المصلوم لخصب أرضها وطيب هوائها وكثرة مراعيها وقال فيها ، وبارحه عصرا فوصل المصلوم بعد ساعتين ، وقد روى ياقوت وصاحب القاموس المصلوق بالقاف قائلا : المصلوق ؛ مياه بني عمرو بن كلاب ، ولعل التحريف في قلب القاف ميما كان بفعل الزمن كما قال يوسف ياسين ، وقال ابن هرمة :

لم ينس ركبك يوم زال مطيهم　　　من ذي الحليف فصبحوا مصلوقا

وصل الموكب في اليوم الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٣٤٣ « المصلوم » ونزل فيه وبات به ، وأدرك البريد الحجازي ابن سعود فيه ، ولما فضه وجد خطابا [١] من قناصل الدول الى قواد الجيش السعودي يذكرون فيه أن حكوماتهم واقفة على الحياد ازاء النزاع الحاضر في الحجاز ، فكتب اليهم الخطاب الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

السلطنة النجدية وملحقاتها

في ٢٤ ربيع الثاني ١٣٤٣ (٢٢ نوفمبر ١٩٢٤ م)

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود الى حضرات الكرام قناصل الدول العظام في جدة : معتمد الدولة البهية البريطانية ، وقنصل جنرال الدولة الايطالية ، ووكيل جنرال الجمهورية الفرنسية ، ونائب قنصل ملكة هولندا ، ووكيل قنصل شاه ايران المحترمين .

---

(١) خطاب القناصل إلى قواد الجيش السعودي مر ذكره ونشره في فصل سابق بعنوان «الإخوان بمكة».

« بعد اهداء ما يليق بجنابكم من الاحترام ، نحيط علمكم بأننـــا أحطنا علماً بكتابكم المؤرخ ٤ نوفمبر المرسل الى امراء جيشنا خالد بن منصور وسلطان بن بجاد بخصوص موقف حكوماتكم ازاء الحرب الواقعة بين نجد والحجاز ، كنت أود من صميم قلبي أن تحقن الدماء ، وتنفذ رغائب العالم الاسلامي الذى ذاق المتاعب في السنوات الثماني الاخيرة ، ولكن الشريف علي بن الحسين بموقفه في جدة لم يجعل لنا مجالا للوصول الى أغراضنا الشريفة ، ولذلك فاني حبا بسلامة رعاياكم ومحافظة على أرواحهم وأملاكهم وما قد يحدث لهم من الاضرار أحببنا أن نعرض عليكم ما يأتي :

١ ـ أن تخصصوا مكانا ملائما لرعاياكم في داخل جدة أو خارجها وتخبرونا بذلك المكان لنرسل اليهم من رجالنا من يقوم بحفظهم ورعايتهم .

٢ ـ اذا أحببتم أن ترسلوهم الى مكة ليكونوا في جوار حرم الله بعيدين عن غوائل الحرب وأخطارها فاننا نقبلهم على الرحب والسعة ، وننزلهم المنزلة اللائقة بهم ، واننا نرجوكم أن ترسلوا كتابنا طيه الى أهل جدة حتى يكونوا على بينة من أمرهم ، واننا لا نعد أنفسنا مسئولين عن شيء يقع بعد بياننا هذا .

وتقبلوا في الختام تحية خالصة مني .

وأما كتاب أهل جدة فهو :

« من عبد العزيز آل فيصل آل سعود الى أهل جدة كافة .

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ـ فلا بد أنه بلغكم أن أغلب العالم الاسلامي قد أبدى عدم رضاه عن حكم الحجاز بواسطة الحسين وأولاده ، وأنا ـ حبا بسيادة الاسلام وحقن الدماء ـ نعرض

عليكم أنكم في عهد الله وأمانه من أموالكم وأنفسكم اذا سلكتم مسلك أهل مكة .

وبالنظر الى وجود الامير علي بين أظهركم ، وخروجه على الرأي الاسلامي فانا نعرض عليكم الخروج من البلد الى مكان معين ، أو القدوم الى مكة سلامة لأرواحكم وأموالكم ، أو الضغط على الشريف علي واخراجه من بلادكم ، فان فعلتم غير ذلك بمساعدة المذكور أو بولائه فنحن معذورون أمام العالم الاسلامي ، وتبعة ما قد يقع من الحوادث تكون من المتسبب والسلام » .

ورأى ابن سعود أن يسبقه الى مكة وفد منه يعلم أهلها بقدومه ، ويعمل الترتيبات اللازمة لدخول السلطان والموكب ، وبعث خطابه الى القناصل وكتابه الى أهل جدة معه ، وقوام هذا الوفد ثلاثة هم : رئيس ديوان ابن سعود الشيخ عبدالله بن سليمان ، والدكتور عبدالله الدملوجي ، والشيخ حافظ وهبه .

وفي صباح يوم ٢٤ ربيع الثاني غادر الموكب المصلوم (أو المصلوق) وبات في موضع بين المصلوم وماء يسمى « الحنايج » وهي مياه ثلاثة ، وفي الصباح نزل الحنايج ، وبعد العصر نهض الموكب وسار موازيا جبال « المردمة » وفيها جبل أسود عظيم بهذا الاسم لبني مالك وبني ربيعة بن بكر بن كلاب ، ويقابله « سواج » وفيها جبلان آخران يسميان «الأخرجين» ونزل أطراف المردمة ليرتاح .

ثم غادرها الى شعب يسمى « سيل الحفق » فيه مراع ثم الى « سجا » المشهور بطير القطا والظباء ، وهو ماء لبني وبرة بن الاضبط بن كلاب ، وكان بقربه مأوى غيلان بن الرفيع — أحد اللصوص المشهورين — وقد ذكره في أبيات له اذ يقول :

الى الله أشكو محبسي في محيّس وقرب سجا – يا رب – حين أقيل
واني – اذا ما الليل أرخى ستوره بمنعرج الحل الخفي – دليل

وأفاض الموكب من سجا الى أرض فسيحة يرتد عن نهايتها الطرف حسيرا ، فهي آخذة في الانبساط ، واذ أوغل فيها بدت له يفوع كأنها أشباح تبدو تارة وتختفي تارة أخرى حتى وازى جبل « حبر » (بفتح الحاء وسكون الموحدة) ويروي للمرار الفقعسي :

ألا قاتل الله الاحاديث والمنى وطيرا جرت بين السعافات والحبر

وهناك جبل في بنى سليم اسمه « حبر » بكسر الحاء والباء وتشديد الراء ، ولابن مقبل :

سل الدار من جنبي حِبِرٍّ فواهب الى ما ترى هضب القليب المضيح

ثم أخذ في التصعيد حتى أشرف على واد ممرع فيه أشجار اثل سامقة، وفيه ماء الدفينة الذي عناه أنس بن عباس الرعلي بقوله :

أغـــرك مني ان رأيت فوارسي ثوى منهم أعلى الدفينة حاضر

وترك الدفينة خلفه مستقبلا حرارا تجهد منها الابل ، ثم انحدر منها الموكب وألقى عصا الترحال في « شعب العيينة » .

ثم اجتاز بعد مقيله مسرعاً حتى نزل أرضا اسمها « الحرة » وفيها آثار طريق أصلح بعض الاصلاح ، ويقال : ان السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد قامت بهذا الاصلاح الذى شمل طريق الحجاج من العراق الى الحجاز ، وفي الحرة صوى منصوبة تدل على الطريق السهل ، وأعلام تحذر المسافر أن يسلك طريقها لوعورتها وأخطارها ، ثم منها الى « الحفيرة » وفيها ماء غزير ومرعى خصيب ، ثم منها الى « البادية » وكلتاهما من الحرة .

ثم ودع الحرة واستقبل مع الشمس « مران » ووجد فيه أطلالا ، ولكن به أعشابا تكسو أرضه ، وتزينها أشجار كالنخيل يقال لها الدوم ، وماؤها عذب غزير ، وفي الشرق من مران سهل فسيح ، وفي الغرب سلسلة جبال عرفت بالكشب .

وقد تغنى الشعراء بمران كثيرا ، بل قيل : ان مران كانت قرية غناء كبيرة آهلة بالسكان كما وصفها ياقوت ، وفي مران قبر تميم بن ود وقبر عمرو بن عبيد ، وقد قال جرير يعرض بابن الرقاع :

وابن اللبون اذا ما لُزَّ في قرَن   لم يستطع صولة البزل القناعيس
انى اذا الشاعر المغرور جربنى   جار لقبر على مران مرموس

ويقصد جرير أنه اذا دفع ابن الرقاع غروره الى مغاضبته فسوف يدعه جارا لتميم بن ود الدفين بمران ، أي أن من يغضبه لن ينجو من قتله .

وقال الخليفة العباسي المنصور يرثى عمرو بن عبيد :

صلى الآله عليك من متوسد   قبرا مررتُ به على مران
قبرا تضمن مؤمنا متحنفا   صدق الآله ودان بالقرآن
لو أن هذا الدهر أبقى صالحا   أبقى لنا عمرا أبا عثمان

وقال ابن الاعرابي :

أيا نخلتيْ مران هل لى اليكما   على غفلات الكاشحين سبيل
أمنيكما نفسي اذا كنت خاليا   ونفعكما - الا العناء - قليل
ومالِيَ شيء منكما غير أننى   أحن الى ظليكما فأطيل

ثم وصل الموكب « ركبة » وهي أرض فسيحة لا صوى بها تهدى الى الطريق ، وبات فيها ونهض مع الصبح وقال في نهايتها ، وقام يقطع الليل

في نشيد ومراح وغناء وأدب يمتعه بها الشيخ العجيري الذى خفف عنه كثيراً من الجهد والاين ، واختار مكاناً طيباً قضى فيه ليلته .

ونهض الموكب نشيطا يستتع بالفجر الندي — فجر اليوم الخامس من جمادى الاولى سنة ١٣٤٣ — متجها الى الغرب حتى وصل العشيرة التى قال فيها عروة بن أذينة :

يا ذا العشيرة قد هجْتِ الغداة لنا شوقـا وذكرتنا أيامك الأوَلا
ما كان أحسن فيك العيش مؤتنفا غضا وأطيب في آصالك الأصُلا

وبالعشيرة آبار ماء عذب ، وتكثر فيها أشجار الطلح والشوك ، وهي ضخمة شاجنة [1] الفروع والاغصان ، وان لها لظلالا لا تمحى ولا تذوى ، بل إن ظلال بعض هذه الاشجار لضخامتها وتشابك أفنانهـا وكثرة أوراقها واخضرارها تُظل أكثر من ثلاثين ، وقد استظللت باحداها أنا ورفاقي — وكنا نبلغ العشرة — فكنا كأننا في غرفة تجللها الغصون والاوراق ، ولم أكن في الرحلة مع ابن سعود ، بل كانت رحلتي بعدرحلته هذه بأربعة عشر عاما .

ونصب بالعشيرة سرادق ابن سعود الرحيب ، واستقبل فيه الوافدين عليه ، وكان فيهم سلطان بن بجاد ، وكثير من عرب الحجاز وشرفائه أتوا اليه مسلمين طائعين مبايعين .

وأقام نهاره بالعشيرة ، وقضى ليلته فيها ، ونهض قبل الفجر بساعة ومشى الموكب آخذا في التصعيد حتى وصل « السيل الكبير » في السادس من جمادى الاولى سنة ١٣٤٣ ، وهو أعلى مكان في طريق الموكب العظيم ، ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٤٥٠٠ قدم ، ونزل به استعدادا لدخول مكة ، فالسيل يبعد عنها ٧٧ كيلو مترا .

---

(١) شاجنة : ملتفة .

أدخلوها بسلام

« يأيها الناسُ ، إن الله حرَّم مكةَ يومَ خلقَ السموات والارضَ ، فهيَ حرام منْ حرام منْ حرام إلى يوم القيامة ! لا يَحلُّ لامرْىء يؤمنُ بالله واليوم الآخر أنْ يَسفكَ فيها دما أو يَعضدَ شجرَا ، لم تَحْلُلْ لأحد كانَ قبْلى ، ولا تَحلّ لأحد يكونُ بعدى ، ولم تَحْلُلْ لى إلا هذه الساعةَ غضبًا على أهلها ، ثم رجعت كحُرمتها بالأمس ، فليُبْلغْ الشاهدُ منكم الغائبَ ! فمنْ قالَ لكُم : إن رسولَ الله قاتلَ فيها ؛ فقولوا : إن الله قدْ أحلّها لرسوله ولم يَحْلُلْها لكم » .

من خطبة الرسوم الكريم
في حجة الوداع

وصل ابن سعود بموكبه السيل في السادس من جمادى الاولى سنة ١٣٤٣ حتى اذا دخل العصر قام الى الصلاة ثم نزع ملابسه وارتدى احرامه استعدادا لدخول الحرم ، ثم صلى الموكب كله صلاة المغرب وكان

محرما ، ثم مشى على اسم الله يدوّي تكبيره وتهليله بين الجبال من الجانبين ، ووصل بعد سيره بثلاث ساعات قرب الزيمة ، وأناخ به وقضى الليل في التسبيح والعبادة ، وواصل في صباح اليوم السابع من جمادى الاولى المسير فدخل الزيمة — وهي قرية في الطريق بين مكة المكرمة والطائف ، بها زروع وبساتين وشجرة « مانجة » واحدة ، وتشتهر بموزها ذى الرائحة الزكية الساطعة ، وبها قصور خربة قال عنها ابن سعود : ان آباءه السابقين بنوها حينما حكموا الحجاز قبل قرن من الزمان ، ولم يقم بالزيمة بل تابع المسير ونزل بشعب قبل « الاميال » بساعتين ، والاميال : أعلام الحرم على بعد بضعة أميال من مكة .

يا له من مشهد رائع جميل ، رايات اسلامية كتب عليها : « لا إلٰه الا الله محمد رسول الله » تخفق في مسرى الهوى فتخفق لها الافئدة والارواح ، وخيام تملأ الوادي كله ، وأفراد الجيش يروحون ويغدون بين تكبير وتهليل في ملابس بيض ، وقلوبهم تطفر من السرور والفرح ، فهم على مقربة من بيت الله الحرام ، وسيطوفون به آمنين محبورين بعد أن صدهم الشريف سنوات .

ودوّى الوادى بهذا التهليل وجلجل في رحابه ، وما زالوا يرددون هذا النشيد بين الفينة والفينة في خشوع وتضرع حتى مضى من النهار ثلثاه ، فأمر السلطان بالسير فضج القوم بالتهليل ، ودفعت بعضهم الحماسة فركضوا مشاة وركبانا يستبقون إلى مكة ، فسرت العدوى منهم إلى الموكب كله فأوغف في السير كما أوغفت مطية ابن سعود — وكان موقعه في الوسط — فصاح فيهم أن يمشوا في هدوء وسكينة وتمهل ، فالحرم — ان شاء الله — داخلوه آمنين فلا حاجة إلى السرعة .

وعند أذان العشاء من ليلة الجمعة كان ابن سعود ومن معه في أول

مكة بين جبل حراء وجبل «ثقبة» فضجت حناجرهم بالتلبية ؛ بالنشيد القدسي : لبيك ، اللهم لبيك ، فجاوبتهم الجبال دويا له جلال وروعة وأناخوا في الابطح أعلى مكة وأولها للقادم من الطائف ونجد وعرفات ، ثم ركب ابن سعود وبعض حاشيته الخيول وساروا بها بين السرادقات في الابطح المزدانة بالانوار احتفالا بصقر العرب وابتهاجا بمقدمه الميمون .

ولما وصل المسعى ترجل ومشى في المشعر واستقبله أهل مكة بالتحية عندما اجتاز باب السلام ، ودخل البيت الحرام الذى جعله الله للناس مثابة وأمنا .

دخل خاشعا مفعما قلبه بالشكر لله الذى أدخله بلده المقدس مهبط الوحي مع رجاله بعد أن صُدّوا عنه سنين معدودات ، ولسانه لا يفتر عن الدعاء ، فطاف بالكعبة سبعة ثم صلى في مقام ابراهيم ، ثم خرج إلى الصفا والمروة يسعى ما بينهما حتى أدى نسكه على خير وجه ثم مضى إلى منزل «آل باناجه» الذي خصص لنزوله ، وحل إحرامه ، وقابل من جاء للسلام عليه .

قابله الناس فقابلهم كأنه أحدهم فأعاد إلى الاذهان ذكرى السلف الصالح ، وترك في نفوس الناس أثرا طيبا .

ولقد كان مشهدا رائعا وجميلا ، فقد بهر الناس منطقه وتواضعه وخلائقه وصفاته ، وقربه منهم ما فطر عليه من مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم .

وإذا كان سره ما لقي منهم من الحفاوة والتكريم فان سروره كان أعظم من إنعام الله عليه وعلى من معه بدخول حرمه آمنين غير خائفين ، وطائعين غير معتدين ، والحمدلله رب العالمين .

أنا منكم وأنتم مني

"ابن سعود"

دخل مكة ابن سعود ليلا وقابله بعض الوجهاء من الناس ، ومضى إلى جيشه وقضى ليلته في المكان المعد له ، وفي الصباح من يوم الجمعة الثامن من جمادى الاولى سنة ١٣٤٣ تدفق الاهلون من جميع طبقات الشعب يقصدون مكان الاستقبال يأخذون مقاعدهم في السرادقات الرحيبة المنصوبة لهم انتظارا للعاهل الجديد ، وكانوا في شوق لمشاهدته ، فقد سمعوا عنه كلاما كثيرا .

قيل ان مذهبه (الوهابية) يغاير الدين الاسلامي ، فهو غير « مسلم » بل قيل : انه يكره سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ولا يصلي عليه ولا يذكر اسمه ، وقيل : انه جبار سفاك عات لا يرحم ، بشع المنظر ، مخيف ، مقطب الوجه ، راعب النظرة ، وقيل : انه همجي « مدين »[1] لا يعرف الحضارة ، وكيف يعرفها وقد أمعن في الهمجية والوحشية .

---

(١) مدين (بضم الميم وتشديد الدال المفتوحة والياء المشددة المكسورة) : لقب يطلق على النجديين المتدينين والغطغط وكل أتباع ابن عبد الوهاب ازدراء لهم ، ولكن زال بعد بعد أن عرف أهل مكة والناس حقيقتهم .

وقيل عنه شيء كثير يتفق كله في تصويره على غير حقيقته ، فدفعهم حب الاستطلاع إلى رؤية هذا القادم الجديد ، وتطبيق ما سيشهدون على ما سمعوا وما نقل اليهم من الدعايات المكذوبة .

ورأى أهل مكة الاخوان قد ملأوا الابطح ينتظرون ابن سعود ، فخرج من مقره واستعرض فرقة الخيالة التى أخذت تركض في الطريق العام وعلى جانبيه تراص المتفرجون ، وتسابق الفرسان وأطلقوا الرصاص فرحا وسرورا ، وهتف كل خيّال : أنا أخو من أطاع الله ، أنا خيّال التوحيد ، لا إلـه الا الله ، محمد رسول الله .

واستمر الفرسان في رياضتهم الرائعة يذكرون الناس بالبطولة العربيـة الاولى وشجاعة ابطال الاسلام اللتين لم يشهدهما بنو العصر الحاضر ، وانتهوا من الاستعراض ، فمشى ابن سعود مشية المسلم الصحيح الصادق الايمان لا مشية المتسلط الجبار المتكبر ، ووصل أمام منزل الاخوان فتواثبوا اليه يحيونه تحية حارة ، وكان بعضهم لا يعرفه ، وأخذوا يمطرون خديه وجبينه وأنفه الاشم قبلات الود والولاء والطاعة ، وهو يستقبلهم ببشاشة وتهلـل وانطلاق ، بل كان هذا الجمع الحاشد يزحمه ويحيط به فلا يبدو عليه الاستياء ، لانه يعتقد صدق ولاء من يزحمونه ويتدافعون اليه بالمناكـب والايدى ، ويتسابقون ليجتلوا طلعته البارزة المشرقة ، ووقفوه عن السير حتى أنه لم يستطع قطع المسافة التى كانت بينه وبين السرادق المعد له لاستقبال أهل مكة الا في نصف ساعة ، في حين أنها تقطع في دقيقتين لـولا الزحام .

دخل على الاهلين فرحبوا به ، ومن لم يره بالامس رآه اليوم وحدق فيه ورنا اليه يفحصه .

يا له من رجل صالح ، إن وجهه الطلق الباسم ليدل على طيبتـه

واصالته وكرم نفسه فلحا الله من زعم أنه قطوب عبوس ، انه بين أيدينا باش مفتر الثغر ، وهذه كلماته بسيطة مؤثرة ، وهو وديع لطيف ، ليس بالمتجهم العبوس ولا القاسي الغليظ ولا المتكبر المختال المغرور ، انه بقية من السلف الصالح .

انه متحضر ، فهذي ثيابه بيض نظيفة ، وهذا صماده الابيض يمسكه على رأسه عقال ، وهذه عباءة جديدة فوق ثوبه ، كذب من زعم أن هذا الرجل همجي ، انه متحضر يحب البساطة لانها الدلالة على النفس الكريمة الاصيلة .

واستبق اليه الاهلون وأراد بعضهم تقبيل يده فقال في رفق وحياء وأدب : من عادة العرب المصافحة ، كذلك فعل الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ومع بعضهم بعضا ، أما تقبيل اليد فعادة نزحت مع الاجانب فدهش منه كثير من الحاضرين من العامة الذين أثرت فيهم الدعاية السيئة ، انه ذكر الرسول وصلى عليه وقال غير مرة : « سيدنا محمد » ، انه يحب الرسول ، وأعجبوا به لانه يشجعهم على العزة لا التكبر ، وترك الذلة ، ويريد منهم أن يكونوا عربا لهم خلائقهم التي فاخروا بها الامم ، بل يعلمهم الوطنية ، فما نزح مع الاجانب من عادات ممقوتة يجب أن يقاومه العرب ، وينصروا عاداتهم ، فهي أولى بالاتباع والسيطرة ، منعهم عن تقبيل اليد .

وأخذ الشيخ عبد القادر الشيبي أمين مفتاح بيت الله الحرام يعـرف السلطان بمن يسلم عليه من وجهاء أهل مكة حتى انتهى الحاضرون مـن السلام فوقف ابن سعود وألقى خطبة بليغة موجزة ذكر لهم فيها السبب الذى دعاه إلى القدوم إلى مكة وعن معتقد الوهابية ، وعما لقي الدعاة المخلصون للدين الصحيح من أذى ، ثم أبدى أساه وأسفه على حادث الطائف الذى حدث بالرغم عنه ، وواسى كل من فقد عزيزا هنالك وعزاه .

وبعد أن انتهى ابن سعود من خطبته طلب اليه عميد بني شيبة أن يعين وقتا يجتمع فيه بعلماء بلد الله فيحدثهم بما حدث الحاضرين به ، ليلتفوا به عن صدق وايمان ، ويعلموا أمره على حقيقته لا كما يشيع الخصوم ، فضرب لهم موعدا : الساعة الثامنة من يوم غد (السبت) ٩ جمادى الاولى سنة ١٣٤٣ هـ .

وهرع العلماء والمثقفون وعلية مكة إلى المكان الموعود بالاجتماع في دار الحكومة (الحميدية) وحضر السلطان ابن سعود فنهض الشيخ حافظ وهبه وارتجل الكلمة الآتية : « نكرر عليكم في هذا الموقف ما كنا ذكرناه لكم من قبل في اجتماع سابق وهو أن عظمة السلطان عبد العزيز بن سعود يرى أن هذه البقعة المباركة من أقدس بلاد الله [1] ، وأن قلوب مئات الملايين من المسلمين تهفو اليه ويحجونها ، فاذا كانت هذه البلاد التي هي مسطع النور ومهبط الوحي ومنشأ الهدى للناس أجمعين يرجع الامر فيها كما بدىء في أول مرة ، وتتطهر من البدع والضلالات فان مقامها سيزداد في قلوب المسلمين أضعافا مضاعفة ، وعلى العكس اذا بدلت معالم الدين فيها بدل ما في قلوب الناس عنها .

« انكم تعلمون أن أكثر البلاد الاسلامية قد كثرت فيها البدع ، والسبب في ذلك أن أكثر الامارات الاسلامية ظهرت فيها بدعة عامة وهي ما يسمونه بطلب الترقي المدني ، أما نحن فلا نريد هذا الارتقاء الذي يدعون اليه ، وانما ندعو ونريد الارتقاء الديني ، ونعتقد أنه لا يمكن ارجاع الرقي للمسلمين الا برجوعهم للسير على السنن الذي سنه لهم الله من قبل في كتابه وعلى لسان نبيه ، وهذا هو ما يريده عبد العزيز بن سعود ، وهذا هو الامر الاول .

« أما الامر الثاني فهو أن عبد العزيز يريد أن يرجع إلى هذه البلاد

عهد الشورى الذي نشأ فيها ، وهو لا يريد أن يستبد بكم ولا أن يجري في بلادكم الا ما يوافق شرع الله ، انه يريد أن يستفيد من تجارب المجربين ، وبابه مفتوح لسماع نصيحة كل ناصح ، وأكره الاخلاق اليه التملق ، وكل من أراد التقرب اليه بالتملق فهو يعكس الامر على نفسه .

« والامر الثالث هو أن الامام عبد العزيز — كما ستسمعون منه — لا يريد أن يكون هذا البيت ملكا لاحد بل مشاعا بين المسلمين ، ولكل شعب من الشعوب الاسلامية ولكل فرد من أفراد العالم الاسلامي حق فيه .

والامر الرابع هو أن التجارب السابقة دلت على أن الحسين وآله غير صالحين لادارة هذه البلاد ، ولذلك سنضحي نفوسنا وأموالنا في تطهير البلاد المقدسة » .

فقال الشيخ حبيب الله الشنقيطي : « قال الله تعالى : ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ وما دامت غاية السلطان عبد العزيز نصرة الاسلام فالله ينصره ويؤيده » .

ثم وقف السلطان عبد العزيز بوجهه الباسم وارتجل خطبة دينية أدبية اجتماعية سياسية افتتحها بقوله :

« ان الامور كلها بيد الله ، وان الله قد ضرب الامثال في القرآن ولم يترك شيئاً لتأديبنا الا ذكره في كتابه ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — الذى من أحبه فقد أحب الله ومن أطاعه فقد أطاع الله — يأخذ نفسه بآداب القرآن الذى نزل به أمين السماء جبريل على أمين الارض محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أظن رجلا عنده ذرة من عقل وعرف ما جاء في كتاب الله إلا قدر هذه الآداب حق قدرها ، ورأى الخير كل الخير في اتباع الهدي الحكيم ، وأنتم تعلمون أن نبينا محمدا عليه

الصلاة والسلام ما جاء الا ليدلنا على طريق الخير ، ويبين لنا السبل الاقوم » .

ثم قال : « ان أفضل البقاع بقاع يقام فيها شرع الله ، وأفضل الناس من اتبع أمر الله وعمل به ، فهل تعلمون قبيلة أفضل من قريش ؟ ولو لم يكونوا أفضل العرب لما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام منهم ، وهل في البلاد أفضل من مكة ؟ ولو لم تكن كذلك لما كان بيت الله فيها ، ولما نشأ الاسلام والرسول بها ، أو ليس كذلك ؟ ألم يقاتل من كان بمكة ؟ نعم ، كان هذا وذلك لان قريشا عصوا الله وأعرضوا عن الحق .

« ألم يشرف بلال الحبشي وسلمان الفارسي بالاسلام ؟ والاول عبد حبشي ، والآخر رجل فارسي ، ألم يذل أبو لهب بالكفر وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالشرف ليس بالحسب ولا بالنسب ، وانما هو بالعمل الصالح .

« ان هذا البيت هو شرف الاسلام الخالد ، وما عمل فيه من الاعمال الحميدة يضاعف الله أجره ، وما عمل فيه من السيئات يضاعف الله وزره ! ان لهذا البيت شرفه ومقامه منذ رفع سمكه بيد سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقد عظم العرب شأنه في جاهليتهم فتحالفوا وتعاقدوا ألا يقر ببطن مكة ظالم صيانة لهذا البيت أن يقع الظلم فيه .

ان الفضول تعاقدوا وتعاهدوا   ألا يقرّ ببطن مكة ظالم

أولئك كانوا على الشرك والضلالة ، أفيليق بنا ونحن مسلمون أن نقر فيه ظلما أو نتعدى فيه حدود الله ؟ !» .

ثم تكلم عن العقائد فقال :

«ان العقائد التي جاء بها الانبياء من قبل ذات أصل واحد ، وهو إخلاص العبادة لله وحده ، وينحصر في قول « لا إلٓه الا الله » فلفظ « الا الله» معناه اثبات العبادة لله وحده ، فاذا لم يكن كل عمل صالح مبنيا على هذا الاساس فهو باطل ، قال الله تعالى : ﴿ فمَن كانَ يرجو لقاءَ ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشركْ بعبادة ربه أحدا ﴾ فدلت هذه الآية الكريمة على أن النجاة لا يكفى لها العمل وحده ، بل لا بد من إخلاص العبادة والدعاء لله وحده» .

ثم قال : « والله ، وبالله ، وتالله ، وربِّ هذا البيت — والمقـدر كائن — لقد كان من أحب الامور إلي أن يقيم الحسين شرع الله في هذا البيت المبارك ولا يعمل لإبادتنا من الوجود فأفد عليه مع الوافـدين أقبِّل يده وأساعده على كل شيء يريده ، ولكن هكذا شاءت ارادة الله، ولو لم يلحق الامر الاديان والنفوس لما أقدمنا على ما أقدمنا عليه ، فقد قرر الحسين تقسيم بلادنا وتوزيعها ، وأصرَّ عليه وأخذ يعمل له ، وهذه جريدة القبلة أمامكم تعرفكم نياته نحونا ، فان كان الحسين أتى إلى هذه الديار مؤمّرا من قبل الترك وأقام فيها ثم خلع طاعتهم فنحن في ديارنا لم يؤمرِّنا غير سيوفنا واتباع ما أمر الله » .

ثم قال : « لا ينفعنا غير الاخلاص في كل شيء ، الاخلاص لله بالعبادة » .

ثم قال : « أنا بذمتكم وأنتم بذمتي ، أنا منكم وأنتم مني ! » .

ثم قال : « هذه عقيدتنا في الكتب التي بين أيديكم ، فان كان فيها ما يخالف كتاب الله فمردنا اليه ، اننا لم نطع ابن عبد الوهاب ولا غيره الا فيما أيدوه بقول من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أما أحكامنا فنسير فيها طبق اجتهاد الامام أحمد بن حنبل » .

ثم قال : « لقد أشاع الترك عنا كثيرا ، وقالوا في جملة ما كذبوه عنا : إننا لا نصلى على محمد ، واننا نعد الصلاة عليه شركا بالله ، نعوذ بالله من ذلك ، أليست الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ركنا من أركان الصلاة لا تتم إلا بها ؟ ويقولون : إننا ننكر شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، معاذ الله أن نقول هذا ، وانما نطلب من الله أن يُشفِّع فينا نبينا : ﴿مَنْ ذا الذي يشفعُ عنده إلا بإذنه﴾ بل ندعو الله أن يُشفِّع فينا الولد الصغير ونقول : « اللهم اجعله فرَطا لأبويه » ولا نطلب الشفاعة من الطفل ، وأما محبة الاولياء والصالحين فمن ذا الذى يبغضهم منا ؟ فاذا كان هذا مقبولاً عندكم فتعالوا نتبايع على كتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين من بعده » .

فأجاب الحاضرون : « كلنا نبايع ، كلنا نبايع » .

فقال ابن سعود : «قولوا لنا بصريح القول ما عندكم» .

فرد الحاضرون : « ماعندنا غير هذا » .

فقال ابن سعود : « أعيذكم بالله من التقية من التقية ، لا تكتمونا شيئا » .

وقال الشيخ الشنقيطي : « انا نريد أن نجتمع بعلماء نجد فنتباحث في الاصول والفروع ، ونقر ما نتفق عليه ان شاء الله » فأجابه ابن سعود : جميل .

واستأنف الشيخ الشنقيطى الكلام فقال : اذا أردنا المناظرة مع علماء نجد فيقتضى أن يعرف كل منا طبيعة الآخر حتى اذا أقيمت الحجة عليه أذعن بدون سخط ولا غضب .

فقال ابن سعود : ما دام المرجع كتاب الله فلا سخط ولا غضب .

وانفض الجمع لصلاة العصر على أن يجتمع نخبة من علماء مكة مع نخبة من علماء نجد للتعارف وللبحث ، وبينا ابن سعود يمشي إلى المسجد الحرام قال له الشنقيطي : كنا نحذر الناس من البدع في دروسنا ، ولكن الامر ليس بيدنا لنزجرهم عنها ، فأجابه : اننا خدم طلبة العلم ، وكل ما أفتونا به نفذناه على وجهه ، فهم المسئولون والمبينون ، ونحن المنفذون .

كان خطاب ابن سعود براعة استهلال في مطلع عهده الجديد بالحجاز ، فهو قد بين حقيقة الوهابية وأظهر علماء مكة على معتقداتهم في الاصول والفروع اجمالا ، ثم طلب منهم أن يكونوا أعوانه في الحق وأنصاره في العمل الصالح ، وسواعده في نشر الدين ، وأبان لهم ان المحبوب منهم من كان ذا عمل صالح ، أما من كان غير ذلك وله نسب رفيع فلن سمو به إلى مقام الصالح المصلح .

بل كان خطابا جامعا مانعا ، جامعا سياسة الدين والدنيا ، مانعـــا التأويل فيه لبساطته ووضوحه ، فهو لن يحكم الا بالشرع ، ولن يخرج عنه ، والامر في البلد الحرام شورى بين المسلمين لا استبداد ولا ظلم ، بل يجب أن يكون الحاكم والمحكوم شيئا واحدا ، مصلحة كل منهمـــا مصلحة الآخر ، واذا كان الامر كذلك وجب ان يمشيا معا ويخلصا في العمل طلبا لمرضاة الله ورسوله ، وحرصا على التقدم والنجاح .

بل أجمل منه هذا الخلق الكريم النبيل فيقول لاهل مكة : « أنـــا منكم وأنتم مني ، أنا في ذمتكم وأنتم في ذمتي» وهذا شاهد عظيم على اخلاصه لهذا الشعب الكريم .

ولم يكن ابن سعود مخادعا في كلامه يريد أن يخدر أعصاب هـــذ

الشعب القلق على مستقبله ، بل كان صادقا مؤمنا بما قال ، فان لم يعرفه الاهلون من قبل ، فليبدأوا في الاختبار منذ اليوم الذى ألقى عليهم هذا الخطاب التاريخي فلن يجدوه الا مثال الصدق والوفاء ، ولن يناقض مستقبله حاضره وماضيه المجيدين ، بل ليكونن مستقبله ان شاء الله خيرا منهما ، لان من وعد ومن خطب رجل نبيل له خلائقه الفاضلة ، ومن كانت فيه هذه الخلائق فلن يكون كذابا ولا غدارا ولا منافقا .

ولما قال ابن سعود : « أفد عليه (أي الحسين) مع الوافدين أقبِّل يده » عجب أهل مكة ، فلما انتهى من خطبته أخذوا يتحدثون معه وكأنه ليس السلطان المنتصر والحاكم بأمره ، بل كان بحق أخاهم لا يفضلهم في شيء ، وأهل مكة يمتازون على جميع الناس بأنهم يندمجون مع المتواضعين ولو كان من عامة الناس ، ويتكبرون على المتكبر ولو كان أكبر ملك في الدنيا ، فهم عندما سمعوا كلمته في الحسين وأنه كان يرجو أن يفد مع الوافدين إلى الحسين ويقبِّل يده أحبوه بعد البغض وأخلصوا له بعد الحقد ، فهم يحبون الحسين الذى كان يشعر شعور فقراء شعبه ، ويحيا من أجل سعادتهم . وأحب أهل مكة ابن سعود أكثر عندما لم يتعرض للحسين بسباب أو شتم ، ولم يستكبر عليه لغلبته إياه ، وقال : « ولكن ، هكذا شاءت ارادة الله » .

وعندما كانوا يتحدثون اليه ويتحدث اليهم كان يجلس بينهم وكأنه أحدهم ، هو وهم يجلسون على الأرض لافرق بينهم ، ولا تكلف في الحديث ، وعندما سأله السيد عبد الرحمن زواوي : أحقا كنت ترجو أن تقبل يد الحسين ؟ أجابه بقوله : والله ، وبالله ، وتالله ، كانت أمنيتى أن أحج ومعى النجديون وأنحني على يد الحسين وأقبلها ، فأجابه السيد الزواوى : صدقنا ، وإن لهجتك تدل على صدقك .

فقال ابن سعود : أقسم لكم برب هذا البيت ، إننى كتبت للحسين

رسائل كثيرة أقول له فيها : سيدنا وسيد الجميع ، والآن ، أقول لكم – واللهُ شهيد ومطلع على ما في نفسى – : إننى لا أضمر للحسين شرا، وإن مكانته لا يجهلها الافاسق ، وإني كنت أقول له في رسائلي وكتبي اليه : والدى ، وليس بين شخصه الكريم وشخصى عداء ، وإنما كان الخلاف بين سياسته وبين رأيى ، والآن ومن قبل لا شيء في نفسى عليه، ولكن هذه إراده الله ، وقد صدق الله إذ قال فى كتابه العزيز : ﴿ تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ .

وخرج الناس وهم مسحورون بشخصية ابن سعود ، ونزع من قلوب أهل مكة ببساطته وصدقه وأخلاقه الكريمة ولهجته المحببة الحقد الـذى توارثوه ، وأحبوه وأخذ بعضهم يتحدث إلى بعض في إخلاص وتأثر حسن عن ابن سعود .

أريد رجالاً

"ابن سعود"

لم يقدم ابن سعود إلى هذه البلاد الا تلبية لنداء الدين ، وكل ما صدر منه من قول أو عمل أو بيان أو بلاغ فهو دعوة إلى الدين الصحيح ، ودعوة للعود إلى الفطرة القويمة التى لا تفسدها الضلالات والبدع والخرافات والاوهام ، فقد ضمن لنا نحن المسلمين سعادة الدنيا والآخرة ، فما العمل الصالح الذى يرفع من شأنه القرآن والحديث ان لم يكن حشد الجهود والقوى لربح الحياة الدنيا في أفضل مثلها وأحسن صورها ، فمن كان يرقب الله في عمله فلن يشرك به ، ولن يضر أحدا ، ولن يكره أخاه في الوطن واللغة والدين ، وبذلك تتهذب الغرائز ، ويبح صوت الشهوات ، ويهتدى القلب إلى السبيل الاقوم ، ويصفو الروح من الوضر.

وقد أشار ابن سعود في خطبه وتصريحاته بمكة المكرمة — حرسها الله — إلى سياسته وغايته ومذهبه في الحياة بوضوح ، وصدق قوله فعله ، ومنذ أن عرف الحياة بمختلف صورها وألوانها ومذاقها وهو شديد في الله ، شديد التدين ، عميق الايمان ، لا يريد الا وجه الله ، ولا يخاف غيره ، ويتمنى من صميم قلبه أن تتحد كلمة العرب وتتساند قوى المسلمين ليستردوا مجدهم المضيع وسلطانهم المسلوب .

وقد وفقه الله وحالفه اليمن فما نقل خطاه الا لنصرة الدين واعلاء كلمة الله واحياء سنة سيد المرسلين فنصره الله وأعلى كلمته وأحيا على يديه ما مات من السنة ، ولم يبلغ ما بلغ الا بالنية الطيبة والعمل الصالح وتوحيد الرحمن واخلاص العبادة له ، فهو — وقد دخل مكة — لا يريد أن يجعل من الاحساء وعسير ونجد والحجاز ونجران الا قوة يذاد عن حماها ويخشى بأسها ، ولا يسعه تحقيق أمنيته الا بالتساند والاتحاد ، بل يجب قبل دعوة الجماهير اليهما أن يتحد قادة الرأي العام ألا وهم العلماء ليتبعهم الشعب ، اذ كيف تتحد أمتان تختلفان في اللهجة والعادة واتجاه التفكير ، وفي البيئة وفي مرافق الحياة الاخرى وفي النظرة اليها اذا لم يسبق ذلك كله تمهيد من العلماء يمحو ما وقر في النفوس والعقول .

هنا شعبان يجهل أحدهما الآخر أو يعرف بعضهما عن بعض ما روجت العداوة والبغضاء والدعاية السيئة ، وهو أمر لا يدعو الى التقارب والاتحاد بل يعمل على الابعاد والشقاق . ولقد أحسن الشيخ الشنقيطي حينما طلب الى ابن سعود أن يأذن باجتماع علماء نجد بعلماء مكة للبحث في الاصول والفروع حتى اذا اتفقوا على أن دين نجد هو دين الحجاز الذى هو دين محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام وأعلنوا ذلك تصافح الشعبان بحرارة وأخلصا الود واتحدا بحق ، ويمكن حينئذ أن تكون الوحدة عامة شاملة ، واذا تم الاتفاق في هذه الناحية سهل الاتفاق في نواحي الحياة الأخرى ، لأن الاختلاف في الدين ضلال ، والاختلاف في الوطنية ضعف وانهزام للمواطنين وانتصار للعدو ، ولئن أحسن الشيخ الشنقيطي بهذا الطلب فقد أحسن ابن سعود بالسرعة في القبول والاجابة .

ولقد اجتمع في الحادي عشر من جمادى الاولى سنة ١٣٤٣ علماء مكة في المسجد الحرام وهم : محمد حبيب الله الشنقيطي ، وعمر باجنيد ، ودرويش عجيمي ، ومحمد مرزوقي ، وأحمد النجار ، وجمال مالكي ،

وعباس مالكي ، وعبد الرحمن زواوي . بعلماء نجد وهم : عبدالله بن حسن ، وعبد الرحمن بن عبد اللطيف — وهما من آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب — وعبد الرحمن بن داود ، ومحمد بن عثمان الشاوي ، وعبدالله بن زاحم ، ومبارك بن باز ، وأظهر كل فريق للفريق الآخر عقائده ، وبعد بحث المسائل الأصولية والفرعية ودراستها اتفقوا على أن من أقر بالشهادتين وعمل بأركان الاسلام الخمسة فهو مسلم ، واذا أتى من الاقوال أو الاعمال ما يكفر فهو كافر يستتاب ثلاثا ، فان تاب والا قتل .

واتفقوا على أن من جعل بينه وبين الله وسطاء من خلقه يدعوهم ويرجوهم في جلب نفع أو دفع ضرر كافر حلال الدم والمال ، وان البناء على القبور واتخاذ السرج عليها واقامة الصلاة فيها بدعة محرمة في الشريعة ، وان من سأل الله بجاه أحد من خلقه فهو مبتدع مرتكب حراما .

وبذلك ظهر ان ما عند علماء نجد لا ينقضه ما عند علماء مكة والمسجد الحرام ، بل كلاهما شيء واحد ، واتفقت عقيدة الفريقين .

ونشر العلماء بيانا عن اجتماعهم واتفاقهم ليعلم الشعب أن ابن سعود ومن معه مسلمون مؤمنون موحدون ، عقيدته عقيدتهم ودينه دينهم ، وليعلم أهل نجد أن أهل الحجاز مثلهم في الدين والعقيدة ، وبذلك تمت الخطوة الأولى في سبيل اتحاد هذه الشعوب العربية ليكون نواة الوحدة العربية في المستقبل .

وخطا ابن سعود خطوة ثانية لتأييد ما اتفق عليه العلماء ليحمل الناس على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحافظة على الدين والابتعاد عن الشر لئلا يعرقل سير مشروعه الضخم سفيه أو جاهل أو متكبر ،

فالعلماء قد اتفقوا على أن العقيدة واحدة ، ومرد الجميع كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ، فوجب أن يعتمد قوة الحق وصولته ويدل الناس على السبيل القويم يجب عليه اتباعه ، ومن خرج — بعدئذ — عنه فعليه وزره ، ومن سار فيه فله الاجر والمثوبة ، وانتهت بقرار العلماء حجة من يعتذر .

والخطوة الثانية بيان رسمي أصدره ابن سعود الى أهل مكة وضواحيها من سكان الحجاز الحضر منهم والبدو وموجزه هو :

١ — لم نقدم من ديارنا اليكم الا انتصارا لدين الله التى انتهكت محارمه ، ودفعا للشرور التي كان يكيدها لنا ولديارنا من استبد فيكم بالأمر قبلنا .

٢ — سنجعل الأمر في هذه البلاد شورى بين المسلمين ، وقد أبرقنا لكافة المسلمين في سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر اسلامي عام يقرر شكل الحكومة الذى يرونه صالحا لأحكام الله في هذه البلاد المطهرة .

٣ — ان صدور التشريع والاحكام لا يكون الا من كتاب الله ومما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ما أقره علماء الاسلام عن طريق القياس أو أجمعوا عليه مما ليس في كتاب أو سنة .

٤ — كل من كان من العلماء في هذه الديار أو من موظفى الحرم الشريف أو المطوفين ذا راتب معين فهو له على ما كان عليه من قبل ، ان لم نزده فلا ننقصه شيئا الا رجلا أقام الناس عليه الحجة أنه لا يصلح لما هو قائم عليه فذلك ممنوع مما كان له من قبل ، وكذلك من كان له حق ثابت سابق في بيت مال المسلمين أعطيناه حقه ولم ننقص منه شيئا .

٥ ـ لا قوي عندى الا الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا ضعيف عندى الا الظالم حتى آخذ الحق منه ، وليس عندى في اقامة حدود الله هوادة ، ولا أقبل فيها شفاعة ، ولا تمييز ولا تفريق ، كلنا سواء ، ولا فضل الا بالتقوى .

وهذا البيان نصر لدين الله عز وجل وحماية له من المفسدين ، كما أن به ايذان كل أحد بواجبه .

وفوق هذا يعلن أن للسلطة قوتها ، فلن تحجم عن عقاب المجرم مهما كان قوياً لأنه ضعيف عندها حتى يؤخذ الحق منه ، ولن يضيع ضعيف لأنه قوي بالحق الذى له ، وهذا هو السلطان العادل الذى لا يصلح بغيره حكم ولا يستقيم بمن عداه منطق ولا يصلح بدونه حال .

بل كان هم ابن سعود أن يضمن لهذا البلد المقدس الراحة والعمل والأمن على تأمين معيشته وبخاصة في ظروف الحرب القاسية التى حرمته الارزاق والثمرات ، وكان مخلصا لجيران البلد الحرام وللحجاز ، فكان كثير التفكير في المشكلة الاقتصادية الناجمة عن الحرب .

وبينا هو يفكر في الوسيلة التي يستطيع بها تزويدهم أكثر مما زود رفع اليه أهل مكة خطابا في ٢٠ جمادى الاولى ١٣٤٣ يشرحون لـــه حال بلدهم ويقولون له : إن مكة مكتظة بالسكان وهي تحتاج الى تموين كثير ، ويرجون منه أن يعمل على انقاذها من الضيق والجوع والنقص ، وأصحبوا به خطابا آخر طلبوا اليه أن يرسله الى الملك علي بن الحسين وسنذكره بعد قليل .

كان ابن سعود بعيد النظر ملهما خبيرا بالحروب والسياسة والتطورات ، فعرف أنه اذا احتل مكة فسينتقل حاكمها الى جدة ويتحصن بها ،

ويقطع عن مكة والحجاز ما يرد اليها من الارزاق ، لأن جدة هي التى تستقبلها ثم تبعثها الى مكة لتوزعها على البلدان والقرى ، واذا حوصرت جدة انقطع ما يرد منها فعمد الى احتلال الليث والى احتلال رابغ لتأمين المواصلات البحرية ، وقد وفق في هذا العمل السديد ، واستطاع بذلك أن يخفف عن الاراضى المحتلة بعض ضيقها ويسد بعض حاجتها ، ولما قدم اليه كتاب أهل مكة أجابهم بما يأتي :

« يا اخواني جيران بيت الله الحرام

علمت ما أنتم فيه من ضيق من ناحية المعيشة ، واعلموا أن مـــا يؤلمكم يؤلمنى كثيرا ، وأنكم تعلمون أننى باذل جهودى كلها من أجل التموين ، ولقد رأيتم الارزاق التى ترد يوميا الى هنا والتى جعلتها لكم خاصة من الضيق ، وأحضرت لجنودى أرزاقهم من الخارج لئلا يكون تموينهم عبئا على هذا البلد الكريم ، وثقوا أنني لن أدخر وسعا في تأمين راحتكم وسلامتكم ، وأما جدة فليست — باذن الله — بالعاصية علينا ، ولكن حرصا على سلامتها وسلامة أهلها في دمائهم وأموالهم وقفنا عنها حتى يعن لنا رأي جديد في أمرها ، الا أن عليا وجماعته لم يؤثروا سلامة البلد ولا راحة بيت الله وجيرانه ، فهم ما يزالون في طغيانهم ، أما الكتاب الذى طلبتم منا ارساله اليه فاجابة لطلبكم سنرسله اليه ، وما أظنه يفيد شيئاً ، بل ربما فسروه تفسيرا سيئا ، وما أظن القوم يوفقون الى الرشاد ».

أما كتاب الاهلين الى الشريف علي فهذا نصه :

« الى صاحب السمو حضرة الامير علي وفقه الله

بعد السلام اللائق بالمقام ، لا يخفاكم أننا جيران بيت الله الحرام الذى قال الله في حقهم : ﴿ أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾

و ﴿أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا .﴾ فأين عملكم من توصية الله بنا ؟ وما السبب في اقدامكم على منع القوت عنا وايصال الاضرار الينا ؟ ألأن قوة نجد وجيوشها دخلت مكة ؟ لسنا نحن المسئولين عن ذلك بل أنتم المسئولون عنه عند الله وعند خلقه .

أولا — لأنكم لم تعملوا على اصلاح ذات بينكم ولا لازالة أسباب الخلاف بينكم وبين نجد وإمامها وغيرهم حتى يكون حرم الله آمنا .

ثانيا — عند دخول جيوش حكومة نجد الطائف طلبنا منكم تخليص « عائلاتنا » ومحارمنا وأموالنا من الطائف فأبيتم ذلك وأعطيتمونا العهدبالمحافظة ثم شردتم وتركتمونا ، فلا أنتم حافظتم علينا ولا سمحتم لنا بالخروج حتى كان ما كان ، ثم لما قدمتم مكة راجعناكم أنت ووالدك مرارا فوعدتمونا بالدفاع عنا برقابكم ثم شردتم وتركتمونا فوضى ، واننا نخشى عليكم عقوبة ما جرى على بيت الله الحرام من الخوف والهلع ، وبعد ذلك أعلنتم أنكم ما خرجتم من مكة الا حقنا للدماء ، فسموكم تورعتم عن قتل أهل نجد وأبحتم المصيبة لجيران بيت الله بمنعكم الارزاق عنهم وحجزكـــم معايشهم .

والآن نسأل سموكم ان كان جيران بيت الله مجرمين فانبئونا نستغفر الله ، وان كنا فقراء ضعفاء لاجئين الى بيته فما السبب في التضييق علينا في أرزاقنا وأنفسنا ؟ فان كنا مجرمين من جهة الحكومة النجديـــة فليس لنا يد في دخولهم ولا طاقة لنا على اخراجهم ، ولكننا نرجو الله ثم سموكم أن تفعلوا أحد أمرين : إما أن تقدموا بجيوشكم وتخرجوا الحكومة النجدية حتى تتفتح لنا طرق أرزاقنا ، وإما أن تتركونا وتتركوا جدة محل معايشنا » .

والكتاب مؤرخ في ١٨ جمادى الاولى ١٣٤٣ وموقع من الشيخ عبد

القادر الشيبي وبعض العلماء وبعض وجهاء مكة ، وقد أرسل اليه ولبثوا ينتظرون الجواب .

غير أن الملك عليا أجابهم جوابا حماسيا في المنشور الذى ألقاه على مكة بإحدى طائراته في ١٩ جمادى الاولى نقتطف منه ما يلى :

« لم نمنع الارزاق عنكم الا مكرهين ، فالقواعد الحربية تقتضى ذلك ، ولا قصد لنا الا احراج مراكز العدو وعدم تموين جيوشه ، ولئلا يغدر بكم العدو بوضع يده عليها ، ونحن على يقين أن كتابكم الذى وصلنا لم تحرروه الا مرغمين ، وعلمنا من مآله أن العدو لم يضطركم الى هذا الا لضعفه وعجزه ، وانى لم أترك مكة الا لأمرين : أولهما عدم القتال فيها حرمة لها ، والثانى حفظكم من مثل ما حصل في الطائف ، وانى عاهدت الله على الموت في سبيلكم وإنقاذكم بعون الله ، فاصبروا صبر الكرام ، وقريبا ان شاء الله يكون الاجتماع بكم في حرم الله على أسر حال » .

ثم يقول هذا المنشور الملكي : « إن كان هو (أي ابن سعود) وأذنابه يحترمون حرم الله وجيرانه ويعملون مثل عملى ويخرجون الى خارج الحرم فهناك تظهر حقائقهم ان شاء الله ، ويرون كيف يكون الذود عن الحياض والدفاع عن الحوزة ، وان لم يخرجوا ولبثوا في مكانهم جامدين فاننا سنوافيهم من بين أيديهم ومن خلفهم ومن فوقهم حتى تكون كلمة الله هي العليا » .

وأراد ان سعود أن يتفرغ لشؤون الحرب والسياسة والدفاع بعد أن ينهي « التشكيلات » التى يقتضيها نظام الحكم ، فأسرع الى عقداجتماع حضره أعيان مكة فخطبهم حطبة عظيمة قال لهم فيها : « إنه مهتم بأمرهم ومعنيّ بهم الى حد بعيد » ثم قال لهم :

« لا أريد أن أستأثر بالأمر في بلادكم دونكم ، وانما أريد مشورتكم في جميع الأمور ، ان العرب تقول : الرجال ثلاثة : رجل ، ونصف رجل ، ولا رجل ، فالرجل من كان عنده رأي ويستشير الناس في أموره ، ونصف الرجل : من ليس عنده رأي ويستشير الناس ، وليس برجل : من كان لا رأي له ولا يستشير الناس .

« ان أهل مكة أدرى بشعابها كما يقول المثل ، فأنتم أعلم ببلدكم من البعيدين عنه ، وما أرى لكم أحسن من أن تلقى مسئوليات الاعمال على عواتقكم .

« لا أريد أوهاما وانما أريد حقائق ، أريد رجالا يعملون بصدق وعلم واخلاص ، حتى اذا أشكل علي أمر رجعت اليهم في حله ، وعملت بمشورتهم وتكون ذمتي سالمة ، وتكون المسئولية عليهم .

أريد منهم أن يعملوا لما فيه المصلحة العامة ، وأريد الصراحة في القول والاخلاص في العمل ، لأن ثلاثة أكرههم ولا أقبلهم : رجل كذاب يكذب علي عن عمد ، ورجل ذو هوى ، ورجل متملق ، فهؤلاء أبغض الناس إلي » .

ثم طلب اليهم أن يجتمعوا لانتخاب من يمثلهم في مجلس الشورى الاهلي بسرعة ويرفعوا اليه نتائج الانتخاب ، وختم خطابه قائلا : « أيها الاخوان ، انني أرجوكم السرعة في العمل لأمتع نفسي برؤية هذه البلاد المطهرة تتمشى فيها الحياة الجديدة ! » .

وكان الاهلون عند حسن ظن ابن سعود فألفوا مجلسا أهليا للشورى برئاسة الشيخ عبد القادر الشيبي بعد « عملية » الانتخاب بنزاهة وأمانة ، فأقرهم على عملهم وأيد الرئيس ، وبذلك بدأت البلاد لأول مرة تعرف

حكم الشورى بعد أن انقطع عنها مئات السنين ، ولكن على يد الحاكم الصالح عاهل العرب ابن سعود ، وان خطابه الذى ذكرنا بعض فقراته يدل على ما في نفسه ، فهو حاكم مسلم متواضع لا حجاب بينه وبين الشعب وممثليه ، فلهم الحق في أن يطرقوا بابه أي وقت أرادوا ، ولا راد يردهم عنه الا أنفسهم ، بل شجعهم على أن يناقشوه وينصحوه ويروه الصواب إن أخطأ ، كما طلب اليهم أن يعينوه في أعماله ، فهو بدونهم لا يبرم أمــــرا ولا يحله .

ولما رأوا منه هذه السماحة وهذه الطيبة وهذه الخلائق التى يجب أن تكون في أمير المؤمنين زادوا في حبه وولائه واحترامه كما تضاعف اعجابهم بهذه الشخصية التى بدأت تتكشف لهم في كل يوم عن خلائق نبيلة تقربه منهم وصفات كريمة تأسر ألبابهم .

وشكا اليه الاهلون أن بعض الاخوان يقابلونهم بالشتم والضرب ، فطمأن خاطرهم ووعدهم النظر في شكواهم ، وطلب الاخوان وسألهم عن سبب الضرب والشتم فأجابوا : انهم لم يضربوا ولم يشتموا الا من يشرب الدخان ويترك الصلاة ، ولكنه وبخهم وأمرهم ألا يشتموا أو يضربــوا أحدا ، فالمعروف لا يدعى اليه بالمنكر ، وتوعد كل من يؤذى أهل مكة بالعقاب الشديد .

واجتمع ابن سعود برجال مجلس الشورى الاهلي وتشاور معهم في هذا الصدد واتفقوا على أن تقوم البلدية بتنبيه الناس عند كل وقت للصلاة ، وأصدر اليها الامر بذلك فسيرت مناديا ينادي في البلد :

« يا معشر المسلمين وسكان البلد الامين ، على كل واحد منكم اذا أذّن المؤذن أن يجيب داعي الله ويبادر الى الصلاة في الحرم مع أحد الائمة الاربعة ، ومن كان بعيداً عنه فليصل في أقرب مسجد منه ، وقد

جعلنا من رجال البلدية وغيرها من يناظر المتأخر في الصلاة لتقرير الجزاء الشرعي عليه » .

ثم ولي خالد بن لؤي شؤون الاخوان ، والشريف هزاعا العبدلي أمر بدو الحجاز ، وأقام حافظ رهبه محافظا على مكة يعينه بعض رفاقه ، ثم استبدل به أحد أهل مكة .

والتف المكيون بابن سعود ، وذكروا له قسوة ابن لؤي وابن بجاد فعزلهما عن حكم مكة ، وجعل ابن لؤي مسئولا عن الإخوان وحدهم ، ولا دخل له في شؤون مكة ، وشكوا لابن سعود أن ابن لؤي منع الائمة الأربعة من اقامة الصلاة بالمسجد الحرام ، وقصّرهم على إمام واحد هو الإمام الحنبلي ، فأمر بإعادة الأئمة الممنوعين ليصلوا بالناس ، وسير مناديه في الأسواق يعلن ذلك .

وهذا يدل على سماحة ابن سعود وكبر عقله ، فهو لم يرد أن يغير عادة تعودها الناس وهي وجود الأئمة الأربعة ، ولم يرد أن يعادي أهل مكة أو يعادوه ، فألغى أمر ابن لؤي .

وعاد الأئمة الأربعة : الحنفي ، والشافعي ، والمالكي ، والحنبلي ، ولا يفهمن أحد أن الأئمة الأربعة كانوا يقيمون صلواتهم بالمسجد الحرام في وقت واحد ، بل صلواتهم تقام على هذا النحو :

أول صلاة تقام للامام الحنفي ، ويصلي معه كل من بالمسجد الحرام من أتباع كل المذاهب ، فإذا انتهى الحنفي قام إمام الشافعية فيقتديه من لم يدركوا الصلاة مع الامام الحنفي ، ثم المالكي ، ثم الحنبلي .

وكان في تعدد الأئمة فسحة لمن لم يدركوا الجماعة السابقة ليدركوا الصلاة مع الجماعة اللاحقة .

وبتصرف ابن سعود الحسن توحدت صلاة الجماعة خلف إمام واحد ، فقد حضر ابنه فيصل بن عبد العزيز الى المسجد الحرام لاداء صلاة الفجر ، وحار في أمره مع أي إمام يصلي ، أينتظر الامام الحنبلي حتى يحين موعده فيقتديه أم يصلي خلف الإمام القائم ؟ وسأل أباه عبد العزيز ، فأمره أن يصلي خلف الامام القائم ، فان كان الحنفي صلى خلفه ، وإن كان الشافعي اقتداه ، فان كان المالكي صلى معه،وإن كان الحنبلي تأساه .

وكان فيصل بن عبد العزيز يحضر الى المسجد الحرام فجر كل يوم لاداء فريضة الصبح ، فأقيمت الصلاة خلف الامام الحنفي الذى كانت صلاته أول صلاة فجر تقام بالحرم فأدى الصلاة خلفه ، وبعد أيام حضر فيصل فلم يدرك الامام الحنفيّ ، وكانت الصلاة قائمة خلف الامام الشافعي فاقتداه فيصل ، وذات مرة لم يدرك الحنفي ولا الشافعي فصلى خلف المالكي .

ورأى أهل مكة فيصلا والنجديين يصلون خلف كل الأئمة ولم يتعصبوا لإمامهم الحنبلي ، فرضوا عن سماحتهم ، وأدركوا أن الوهابيين لا يتعصبون ، بل يصلون خلف أي إمام من الأئمة حضروا صلاته ، وعلى مرور الأيام أصبح الإمام الراتب واحدا ، يصلى خلفه كل من حضروا المسجد الحرام للصلاة .

ولعل قارئا يسأل : ولماذا قضي على تلك الفسحة ؟ فنجيبه بأن الفسحة اتسعت أكثر ، فبعد أن كانت تتراوح بين أربعة أئمة راتبين رسميين صارت بين أئمة أكثر عددا ، ولكن غير راتبين ولا رسميين ، فمن لم يدركوا صلاة الجماعة كونوا جماعة وصلى بهم أحدهم ، وتقام صلاة جماعة في غير مكان بالحرم الواسع .

ولولا زكانة ابن سعود لأدى منع الأئمة الأربعة إلى فتنة هو وأهل

مكة في غنى عنها ، وهو نفسه صلى خلف إمام الحنفية وإمام الشافعية وإمام المالكية مع أنه حنبلي .

وسماحته وبعده عن التعصب وزكانته اجتذبت اليه أهل مكةوجعلتهم يحبونه باخلاص ، ويسمعون له ويطيعون وهم سعداء بالسمع والطاعة له .

وأثمرتِ سماحته وعقله ومحبته الصادقة لأهل مكة وتنزهه عن التعصب أنهم هم الذين وحدوا الإمام .

ورأوا من « الاخوان » شدة تزرع الحقد والضغينة والكراهية في النفوس فشكوا ذلك الى ابن سعود ، وبينا هم جلوس عنده حضر ابن لؤي ورؤساء الاخوان ، وأمرهم ابن سعود أمرا حازما بأن يقلعوا عن الشدة ، وألا يؤذوا أهل مكة ولا المجاورين فيها ، وأن يتفاهموا مع الناس باللين والرحمة .

وعلم ابن سعود أن بعض الاخوان الذين ينهون الناس الى الصلاة ضربوا صاحب دكان ضربا مبرحا ، فأحضره وسأله ، فأجابه : أنه كان يتوضأ وانزلقت قدمه فتلوث ثوبه ، فأخذ يغسل أطرافه ، فشتمه أولئك الاخوان لأنه لم يسرع الى الحرم ، فذكر لهم أن ثوبه تلوثت أطرافه ، فضربوه بعصيهم .

وأحضر ابن سعود الضاربين فاعترفوا ، وزعموا أنه تشاغل بغسل ثوبه ، فسألهم : أفاتته الصلاة ؟ فأجابوا بالنفي ، فأمر المكي أن يقتص منهم ، فاعتذر ، فعلاهم ابن سعود بعصاه وضربهم ضربا مبرحا ، وعزلهم ، وأمر بأن يكون الأمر بالمعروف بوسائل المعروف ، وليس من حق أحد أن يضرب أحداً .

وبهذه الأخلاق الكريمة التى يتحلى ابن سعود بها حمل أهل مكة والمجاورين والناس على حبه والاخلاص له .

غصن الزيتون

وصل ابن سعود وهو بمكة خطاب من قناصل الدول جواباً على كتابه الذي بعثه اليهم من المصلوم في ظرف كبير ففضه وقرأ :

« من ممثلي الدول الموقعين أدناه الى حضرة صاحب العظمة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود سلطان نجد الاكرم .

بعد تقديم واجبات الاحترام ، قد وصلنا خطابكم المؤرخ ٢٤ ربيع الثانى نمرة ١١٤ وما ذكرتموه صار معلوماً لدينا ، أما بخصوص الاقتراحات المتعلقة بحفظ رعايانا وتأمينهم من خطر الحرب فنذكر عظمتكم بأن احترام رعايانا مبني على حقوق دولية متبعة في أيام الحرب ، فبناء عليه ندعوكم باسم حكوماتنا جميعها الى احترام أشخاص رعايانا مع أموالهم ، وإلا تكونوا مسئولين بجميع ما يقع عليهم في أي وقت وفي أي مكان كان ، أما بخصوص الكتاب المرسل باسم أهل جدة فنحن لا يمكننا تسليمه نظراً لقاعدة الحياد التى نتبعها والتي لا تسمح لنا بالتدخل في أي وجه كان ، فعليه نعيده اليكم ، وفي الختام تقبلوا فائق الاحترام » .

وكان مذيلا بأسماء قناصل خمس دول هن : بريطانيا وفرنسا وايران وايطاليا وهولندا .

تلاه فسر به ، لأن عدم تدخل هؤلاء في الحرب ينهيها بأسرع ما يمكن ، وقد صمم بعدئذ على مهاجمة جدة وعلى حصارها ، الا أن في الظرف الكبير الذي يحمل كتاب القناصل ظروفا صغيرة أخرى ، ففض الاول فاذا هو خطاب من صديقه المستر فلبي ، ومصدره جدة لا لندن أو غير جدة على الأقل ، فدهش أعظم الدهش .

ثم فض الثانى فاذا هو من صديقه الآخر أمين الريحاني ، فعجب من وجوده بجدة في هذا الوقت ، لأنه كان بالشام كما كان يعلم .

وفض الثالث ، فاذا هو من صديقه الحميم الزعيم العراقي السيد طالب النقيب ، فلم يتمالك نفسه من الدهشة والاستغراب لهذا الاتفاق النادر في القدوم وفي العمل وفي الغاية .

وأخذ يفكر تفكيرا جديا في الأمر ، كيف اجتمع هؤلاء في جدة في هذا الوقت العصيب ؟ ومن جاء بهم من أوطانم الى هنا للوساطة بينه وبين الشرفاء ؟ أداعى الاسلام ؟ فما شأن الريحاني وفلبي أداعى العروبة ؟ فما شأن فلبي والعروبة ؟ فبقي الزعيم طالب باشا النقيب ، وهو مسلم وزعيم عربي كبير وصديق ابن سعود ، ولكن ابن سعود حار في أمره : أليس بين السيد طالب النقيب والملك فيصل – شقيق الملك علي – خصومة على عرش العراق ؟ أليس صديقه ؟ بلى ، ولكن ما دافعه الى هذه الوساطة ؟ .

وكتب الى ثلاثة أصدقائه أجوبة على رسالاتهم ، وبعثها مع الرسول الذى حمل اليه الكتب ، فطار بها يطوى الطريق إلى جدة ، وما كاد

الرسول يرى حتى رقصت جدة فرحا ، فقد ظنت أن السلام قد أهلّت بشائره ، وزاد سرورهم حينما أبصروا في يده رزمة من الرسائل ، وكان أول من أبصره حارس الباب الشرقي لخط الدفاع ، فأخبر بالتلفون القائد العام قائلا : جاء الرسول ، أبشركم جاء الرسول ومعه كتب الى القناصل والى فلبي والريحاني والسيد طالب ، فأدار القائد العام الطريق الى القصر الملكي وكلم الشيخ عبدالله سراج رئيس الوزراء : جاء الرسول ، فاتصل رئيس الوزراء برسل السلام وقال لهم فرحا : أبشروا ، جاء الرسول .

فأسرعوا الى القصر وأدخلهم الحاجب على الملك علي فاستقبلهم استقبالا وديا ، وأسلم كلا منهم خطابه مغلقاً فقال الريحاني : الملك اليوم موزع بريد ! وكانت نكتة ضحك لها وابتسم الآخرون .

قرأ كل منهم خطابه في لهفة ظاهرة ، ثم قدمه للملك ، فلما تلاه أعاده اليه ، وتبادل كل منهم خطاب الآخر .

قال ابن سعود في خطابه الى « الصديق العزيز المستر فلبي » .

« اذا كنتم حضرتم لمقابلتنا ومباحثتنا في بعض الشؤون الخاصة بنا فعلى الرحب والسعة ، وسنسهل الطريق للاجتماع بكم خارج الحرم ، أما اذا كنتم تنوون التدخل في مسائل الحجاز فلا أرى في البحث فائدة ، وانه ليس من مصلحتي الخاصة ولا من مصلحتك يا صديقنا جعْلكم وسيطاً في هذه المسألة الاسلامية المحضة » .

ففلبي قد انتهى « دوره » فهو مسيحي والحجاز قطر اسلامي ، ومسألته اسلامية محض ، وليس من المصلحة أن يتدخل مسيحي في أقدس بقعة عند المسلمين ، بل هي لهم وحدهم .

وأما الكتاب الثانى فهو :

« حضرة الاخ المحترم السيد طالب النقيب :

« لقد ذكرتم أنكم تودون مقابلتنا فنحن نرحب بكم ، ولكن يجب أن نعرف هل المقابلة شخصية ودية أم هي للوساطة في مسألة الحجاز ؟ فاذا كان لغرض التوسط في هذه المسألة فانى لا أرى فائدة من ذلك ، واذا كان الشريف علي يود حقيقة حقن الدماء فعليه أن يتخلى عن جدة، أما اذا قبله العالم الاسلامي وانتخبه حاكما فمحله غير مجهول » .

انه لا يستطيع أن يرد على طالب بما رد على فلبي ، فطالب مسلم عربي كبير ذو مقام مرموق ، ولكنه على كل حال ليس « العـــالم الاسلامي » وأمر الحجاز لا يقرره فرد مهما كان ، بل يجب أن يتفق عليه المسلمون ، أما اذا أراد السيد الجليل مقابلة صديقه الحميم ابن سعود مقابلة ودية فالطريق مفتوح .

وقال في جوابه للاستاذ أمين الريحاني :

« ذكرتم أنكم موفدون من قبل جماعة في سوريا وأنكم تحملون كتابا منهم الينا ، أرحب في كل حال بصديقنا العزيز أمين الريحاني ، ولكن أحب أن ألفت نظركم الى أمر هام ، وهو اذا كان البحث يتناول المسألة الحجازية فلا أرى فيه فائدة ، لأن مشكل الحجاز يجب أن يحله المسلمون ، وترك الأمر لهوى أنفسنا ليس مما تجيزه المصلحة الاسلامية ولا العربية ، وفي كل حال انى أحب توضيح الأمر وجلاءه قبل المقابلة » .

والريحاني مسيحي كما هو معروف لدى الجميع ، ومسألة الحجاز اسلامية ، ولا تحل الا على يد المسلمين ، ولا يمكن أن تقبل وساطة فيها لمصلحة « فرد » ولكن رغب ابن سعود أن يوضح له حقيقة ما عنده قبل أن يغادر الحجاز ، وما الكتاب الذى يحمله من سوريا اليه ؟ وما وفادته ؟ .

فما زال للمقابلة بين ابن سعود والسيد طالب والريحاني مجال ، أما فلبي فلا ، ولهذا كتب فلبي رسالة وداع اليه ، أما الآخران فلم يصوح في يدهما غصن الزيتون بعدُ ، وما يزال فيه شيء من الرواء والنضرة ، فكتب السيد طالب الى ابن سعود يقول له : ان لديه أعمالا تضطره الى السفر الى مصر سريعاً ، فيرجوه أن يأذن بالمقابلة ، وكتب الريحاني يوضح له بعض ما رغب السلطان توضيحه ويقول له في آخره :

« ان لصديقى حسين العوينى التاجر السوري في جدة علاقات تجارية في مكة المكرمة ، وهو يحضر للتجارة وللزيارة فيتشرف بمقابلتكم اذا أذنتم ويحمل الى عظمتكم بعض خبرى ، انى أثق بحسين أفندى كل الثقة ، وفي اليسير الذى سينوب عنى به ما يغنى عن البيان ، فاذا أذنتم بقدومه مروا من يلاقيه الى منتصف الطريق ، ويصحبه محافظا الى مقامكم العالى » .

وبعث هؤلاء الثلاثة خطاباتهم في ١٢ جمادى الاولى ١٣٤٣ وانتظروا حتى اليوم العشرين ولم يعد اليهم جوابه ، فبعث اليهم الملك علي وقال لهم : دعوتكم لأبسط لكم ما جدّ في الحالة وأستشيركم ، قد جئتم أيها الافاضل الى جدة لخير الفريقين ، بل لخير العرب ، ويسوءنى والله ثم والله أن تمس كرامتكم من أجل أحد منا ، وأنا والله خجل ، قد مر الاسبوع ولم يجئكم الجواب من ابن سعود ، والرجل متحرك ، فهو الآن يفسد علينا القبائل ، ومنع رجاله عرباتنا عن ارسال الفحم كالعادة الى جدة ، ونحن هنا ماسكون أنفسنا ، فخطِ الدفاع يزداد كل يوم منعة ، وجنودنا مستعدون للحرب ، والطيارات كلها أصبحت صالحة للعمل ، لذلك قد قررنا أن نرسل غدا بلاغاً الى أهل مكة بالطائرة ، ثم نرسل سرب الطيارات لرمي القنابل في الابطح ، لعل ذلك يوصلنا الى نتيجة فاصلة ، وقد دعوتكم لاستشيركم في المسألة » .

فأبدى السيد طالب النقيب رأيه قائلا : أقنابلكم صالحة ؟ أأنتم متأكدون من انفجارها ، فاذا كانت قديمة ولا تنفجر فالضرر عـــائد عليكم حتماً ، لأن العدو لا يخشى بعدئذ طياراتكم ، يجب أن تجربوها قبل البدء في العمل فاذا كانت صالحة فالرأي لكم .

ورأى المستر فلبي التريث والاناة والانتظار حتى يجيء الجواب ، فلعل فيه فصل الخطاب ، وتأخير القيام بهذا العمل خير من العجلة فيـــه .

وكان رأي الريحاني كرأي فلبي الا أنه زاد : ان ضرب الابطح بالطيارات دعاية سيئة للحكومة الهاشمية ، فالناس في الخارج لا يعرفون حدود الحرم ، ويستطيع الخصوم استغلال هذا العمل في صالحهم فيعلنون في الصحف أن الطيارات الهاشمية ألقت على الحرم قنابلها بدون رحمة ، فيسخط العالم الاسلامي ويتذمر المسلمون .

واقتنع الملك علي بآراء هؤلاء المخلصين الناصحين ، ولكنه أصر على أن الطيارات كفيلة باخراج ابن سعود من الحجاز ، ولهذا فلن يتأخر عن استعمال هذا السلاح الجديد لحرب البدو ، فطلبوا اليه تأجيل العمل ثلاثة أيام فلعل الجواب يصل اليهم ، فقبل علي وختم السيد طالب الجلسة بقوله : « وفي خلالها جربوا القنابل » .

وفي اليوم الواحد والعشرين من جمادى الاولى ورد الرسول يحمل خطابات ابن سعود الى هؤلاء الثلاثة أيضا .

قال لفلبي : « في أمان الله ، والى اللقاء » فغادر جدة في يوم السبت غرة جمادى الآخرة ١٣٤٣ هـ (٢٤ يناير سنة ١٩٢٥ م) .

وقال في كتابه للسيد طالب النقيب : « ستصلكم أخبارنا الطيبة وأنتم

في مصر ان شاء الله » فلم يبق له أمل في البقاء ، فغادر جدة يوم الاربعاء جمادى الآخرة ١٣٤٣ (٢٨ يناير ١٩٢٥ م) .

أما الأستاذ أمين الريحاني فقد بقي لأن في كتاب السلطان ما يدعو الى بقائه ويقول له فيه :

« لقد سمحنا لصديقكم حسين العويني بالقدوم الينا ، فزودوه بما لديكم من الكتب والافكار والآراء ، واننا نرجو أن يحسن نقل أفكار صديقنا أمين الريحاني ، وانى أشكرك على تجشمك المشاق الجسيمة في خدمة العرب وسبيل قضيتهم » .

ولم يبقه ابن سعود لتتم الوساطة بين العاهلين على يديه ، فذلك لن يكون ، بل ليرى ما عنده من كتب وأفكار وآراء كما جاء في رسالته إليه ، وليس بقاؤه خطرا عليه لأنه صديق أمين ، فهو ان لم يعنه فلن يضره بشيء ، ولكن الريحاني — كما يظهر — كان متفائلا ، فكتب الى ابن سعود مذكرة ضمنها كل آرائه وملاحظاته ومعها كتاب من وجهاء مسلمى بيروت اليه ، وأصحبهما بخطاب استعطاف جاء فيه :

« اني مرسل مع العويني كتابا من وجهاء المسلمين في بيروت ، ومذكرة ضمنتها آرائي في الحالة الحاضرة ، فان كنت مصيبا فمولاي وصديقي عبد العزيز لا يتبع غير الصواب ، وان كنت مخطئا فحبي واخلاصي يشفعان بما قد نقصا في علمي ، أما اذا كان فيما قدمت مزيج من الخطأ والصواب ، فأنا أول من يرغب في التمخيص ، واني أقبل الحقيقة من السوقة فكيف لا أقبلها من الملوك ، علموني — يا طويل العمر — اذا كنت مخطئا ، واسمحوا لي اذا كنت مصيبا » .

ومضى العويني محرما على اسم الله في ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٣٤٣ ، ولما قطع ٣٥ كيلو مترا من جدة وانتهى الى قرية « بحرة » أوى الى قهوة خالية

مع رفاقه اللذين صحبوه ليقضوا الليل فيها ، غير أن الظلام كان يلف الكون لفا ، ولا يمكن أن يشعل المصباح لأن اطفاء الانوار أمر محتوم في الحرب ، فمد العويني يده عفوا فلمست سائلا حارا لزجا ، وأشعل عود ثقابه فرأى دما وعلى قيد خطوة منه جثة بدوي مقتول ، فنهض العويني ورفاقه وأغذوا السير حتى دخلوا مكة في اليوم الثاني ، وقابل العويني ابن سعود في الزاهر حيث نقل اليه مخيمه من حي المعابدة ، والزاهر من ضواحى مكة .

ثم رجع العويني الى جدة فوصلها في مساء اليوم الثامن والعشرين من جمادى الاولى وكان موفقاً في أداء الرسالة ، غير أن حوادث حدثت بعد وصول العويني ، منها : طيران إحدى الطائرات الهاشمية في سماء مكة وقيامها بجولة تفتيشية عكر الصفو وتقدم ابن سعود الى حداء (محط بين مكة وجدة تبعد عن مكة ٢٨ كيلو مترا) .

وأثار قدومه اليها شيئا في نفس الريحاني الذى كان يؤمل انهاء الحرب واتمام الصلح بكل ما يستطيع ، فكتب ابن سعود الخطاب الآتى :

« جدة ٧ جمادى الثانية ١٣٤٣ .

« مولاي العزيز المعظم السلطان عبد العزيز أطال الله بقاءه .

« أحييكم أشرف التحيات وأبثكم أحر الاشواق ، عسى أن تكونوا في أحسن حال ، منذ أسبوع بعثت الى عظمتكم كتابا أجيبكم فيه على كتابكم الكريم الذى أرسلتموه إليّ مع رسولى وصديقى العويني ، وانى أخشى أن يكون قد حدث حادث « للنجاب » فلم يصل كتابى أو لم يصل جوابكم الي ، لذلك أرسلت صفوة الجواب اليكم ، والتمس منكم أن تتفضلوا علي بالجواب ، لأن الامر يتعسر كلما تأخرنا في معالجته ، فعسى أن يعود إلي « النجاب » قريباً وهو يحمل الجواب الذى فيه الخبر

المسر جفظكم الله وأمد في أيامكم » .

وقد ألحق بالكتاب هذه الجملة : « الطيارة التي أشرفت على مكة يوم السبت الماضي تجاوزت الاوامر وعوقب الطيار بالحبس » كما ألحق به جملة أخرى هذا نصها : « مساء الجمعة ، علمت في هذه الساعة بأن رجالكم وصلوا الى « حداء » في صورة حربية فأخذني من ذلك العجب ، وعسى أن يكون الخبر كاذبا ، وفي كل حال أرجوكم سرعة الجواب ، واني لا أزال مرتابا بما سمعت لأني أعتبر وعدكم لي اعتباري أقدس الامور » .

وقد ألحق الريحاني بكتابه هذا قوله : « الحكومة والجند وأصحابي في قلق وارتياب مما شاع هذا المساء بخصوص تقدمكم الى جدة وهم يأبون التربص والامتناع عن الحركات العسكرية الحربية ، ولكني تمكنت من توقيفهم يومين آخرين أي الى مساء الأحد ، فأرجوكم إذن أن تخابروني حالما يصلكم كتابي هذا ليصلني الجواب مساء الاحد ، واذا كان النجاب لا يرجع في اليوم الثاني أرسلوا الجواب مع نجاب آخر من عندكم ، في كل حال أنتظر جوابكم مساء الاحد في ٩ الجاري فلا تخيبوا أملي » .

فأجابه ابن سعود بكتابه الآتي :

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى أمين الريحاني

« كتابك وصل ، وما عرضت كان معلوما ؛ من خصوص كتابك السابق وهذا مضمونه تراه طي الكتاب ، وأما كونه وصل اليكم أو لم يصل فلا بد أنك تحقق عن ذلك من أصدقائك الموجودين عندك ، وأما ما ذكرت في الملحق عن تحمس الجنود لما بلغهم منزلنا حداء واغارة بعض الرايات عليهم ، وانك طلبت منهم أن يتأخروا فلا نقول الا كما قال الله سبحانه : ﴿ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم

فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ونقول أيضا : يا مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين ، وأما رجاؤك أنهم يتأخرون فكما قال الشاعر :

اذا كنت لا تدرى فتلك مصيبة   وان كنت تدرى فالمصيبة أعظم

« ان كنت تعرف الحقيقة كما نظن أنك تعرفها عن القوم وعنـــا وتتجاهلها فتلك مصيبة ، وان كنت لا تعرف الحال ، وان القوم يتهكمون عليك فالمصيبة أعظم .

ولكنْ رجاؤك لتوقيفهم عن الزحف علينا فلا نرى لجنابك فيه فضلا ، وانما نرجوك أن ترخص لهم ، كما نرجوك أن تبلغ الامير أنه بلغنى أنه يستحرمنا حرمة الحرم وأننا اذا لم نخرج منه يقاتلنا فيه وليس بذلك حرج ، أما نحن فقد خرجنا ، فالرجاء فيه أن الكريم اذا قال وفى ، ونرجو من الله تعالى أن ينصر جند الرحمن على جند الشيطان ، والسلام على من اتبع الهدى » .

وتحرج الحال تحرجا شديدا ولم يبق أمل في السلام ولا في الصلح بتة ، فهذا غصن الزيتون قد صوح وأمسى هشيما ثم احترق فجأة في يدالاستاذ أمين الريحاني الذى غادر جدة في ٢٧ رجب ١٣٤٣ هـ (٣ فبراير ١٩٢٥ م) الى مصر خائب الأمل كاسفا حزينا ، لأن الله لم يصلح على يديه بين فريقين ود أن يكون بينهما الوئام والصلح بدلا عن الشقاق والخصام ، ولكن — وأسفاه — احترق غصن الزيتون !!.

إلى الحرب

أخفق الوسطاء للصلح بين السلطان عبد العزيز بن سعود والملك علي اخفاقا مرا ، فبارحوا مدينة جدة آسفين وهم يشهدون غصن الزيتون الذى كان في أياديهم رمزا للسلام والوئام يصوح سريعاً ويمسى هشيما ثم يحترق ثم يتطاير رماده ، فخافوا أن يصيبهم أو يصيب أعينهم فمضوا الى بلدانهم ليراقبوا الحالة عن بعد ، فلم يعد مقامهم مجديا ، والمسألة قد اتسعت وخرجت من النطاق المحدد .

وبقي علي وأعضاء حكومته بجدة محاصرين لا سبيل لهم الى الخروج عن خط الدفاع الذى أنشأوه خشية من الاخوان المتوحشين « الهمج » الضراة — كما كانوا يصفونهم — وبقوا في جدة يستعدون للمعارك القادمة التي تقصى الفاتح الجديد عن الحجاز وتلقيه بعيدا عنه .

أما الاخوان فقد احتلوا مكة ولم يتقدموا عنها خشية من ابن سعود ، واذ حضر لم يأمر جنده بالتقدم ، بل درس الحالة واتصل بالحجازيين في مكة المكرمة وفي غير مكة فوجدهم ملتفين حوله مطيعين أمره ، لأنهم وجدوا فيه حاكما يؤمن بالشورى ويرفع شعبه الى مقامه ليمشيا معا في طريق الحياة

وليبنيا صرح الحضارة بالمساندة والاتحاد ، ويقتسما المسئولية والعمل والتفكير .

ولم يقتف أثر الجيوش الهاشمية لا عجزا ولا خوفا ، بل وقف للبحث والتفكير في الخطة التي لا يأسف ان اتبعها بعد المشورة ، وأمضى الفترة بين التعبئة والاستعداد لمعارك جدة في « تشكيل » الادارات وتوزيع المسئوليات واختيار من يصلح للعمل .

وبينما كانت المفاوضات تدور بين جدة ومكة ، وكتب الريحاني تطوى الطريق الى ابن سعود وهو منتظر جوابه الاخير ، وجاء اليه بالموافقة بارسال صديقه العويني فسافر وكان ما ذكرنا في الفصل السابق الا أن طيارة من الطيارات الهاشمية حلقت في عصر اليوم الثامن والعشرين من جمادى الاولى ولم تعمل شيئا غير الاكتشاف ، وأخذت بعد ذلك تقوم باستكشاف الطريق الى بحرة ، وينتهى أمر الطيارات الى هنا لتستأنف بعد أيام رحلاتها الاستطلاعية ، وتبدأ محاولة الريحاني الاخيرة في سبيل الصلح فيبعث الى ابن سعود كتابا يجيبه عليه بالموافقة على مقابلته وفد السلام ، الا أن حادثا يلبد الجو بغيمة سوداء مظلمة كان له مفعوله السيء ، وذلك أن وزير الحربية تحسين باشا الفقير أمر احدى الطائرات بأن تقوم برحلات تفتيشية الى مكة المكرمة وتلقى على أهلها منشورا حربيا جاء فيه على لسان الملك علي ما ننقل منه بعضه :

« الى جيران بيت الله الحرام ، الى حماة الذمار وأباة الضيم ، يا ورثة المجد ، اعلموا اننا لم نبخل عليكم زهدا فيكم ولا رغبة عنكم ، وقد كنا نود أن نفدي البلدة المقدسة بأرواحنا ومهجنا ، ولكن خوفنا أن يقع بكم ما وقع بإخوانكم بالطائف من التعدى المريع ، ولنحافظ على البقية من وطنكم العزيز اضطررنا الى الانسحاب كما يقضى الفن الحربي ، والآن ، لقد جمعنا شعثنا وأقبل اخوانكم الينا من كل حدب وصوب حتى

أصبح لدينا والحمد لله من الرجال والعتاد ما يرد كيد العدو في نحره ، ولقد جهزنا جنودنا بكل الوسائل الفنية والمعدات الحربية وها نحن أولاء على أهبة الرحيل اليكم لتطهير بلادنا من المغتصب لها .

« ستبدأ طياراتنا بالتحليق في جوكم لتمطر العدو وابلا من القذائف النارية فلتكونوا على ما نعهد فيكم من الثبات والطمأنينة والشجاعة ورباطة الجأش ..

« اعملوا لتخليص وطنكم بكل ما أوتيتم ، فان في هذا عزكم وشرفكم ومجدكم ، فالوطن أغلى من كل شيء لديكم ! .

« اثبتوا — رعاكم الله — وتمسكوا بمبدئكم القويم وحقكم الصريح ! وافعلوا ما توحيه اليكم ضمائركم الطاهرة لا ما يمليه عليكم الأعداء !.

اثبتوا — رعاكم الله — فقد قربت ساعة الخلاص ودنت أيام السرور وحلت أوقات الانتقام من المعتدى ! فالثبات الثبات ! الحمية الحمية !» .

وكان عمل تحسين باشا مخالفاً لأوامر الملك علي ، فقد أمر ألا تطير طائرة واحدة في المهلة التى منحها ابن سعود للريحاني ، وأمر بحفظ المنشور الذى ذكرنا بعض فقراته ، الا أن وداعة الملك علي أدت أتبــاعه الى الاستخفاف بأمره والى عصيانه .

وكان هذا العمل الذى أتاه تحسين مثار سخط الاستاذ الريحاني فلم يطق السكوت عليه وكلم الملك عليا بصراحة فأجابه : بأنه يحسن الظن بكل أحد .

غير أن الاستاذ الريحاني أرى الملك عليا عاقبة الاستخفاف بأمره وما ينجم عنه في المستقبل ، وأثاره حتى وبخ الملك تحسينا على تصرفه السيء ،

وأمر الملك علي بحبس عبد الفتاح اللاذقي ضابط المراقبة عشرة أيام جزاء له على عصيانه .

ثم كانت مشادة عنيفة بين الاستاذ الريحاني وبين وزير الحربية تحسين باشا الفقير ووزير البحرية وعارف باشا الادلبي وبعض القواد، ونرى أن الريحاني كان محقا في ثورته وغضبه على هذين المغرورين الجاهلين بقوة ابن سعود ، والجاهلين بمصالح مليكهما ، وكانت نتيجة ذلك غضب ابن سعود .

نعم، غضب ابن سعود وجمع في ٤ جمادى الآخرة سنة **١٣٤٣** علماءه وقادته وأمراء جيشه وأخذ يبحث معهم في أمر الحرب ويشاورهم ويستعين بآرائهم وقال لهم : « انى ما زلت منذ نزلنا هذا المنزل يبلغنى عنكم الكثير من الاخبار بأنكم تلوموننى في اقامتى وعدم التجهيز على جدة ، وتعلمون أن أمرى ليس بجبانة ولا رأفة بالعدو ، ولكن الامر ما تعلمون ، فجدة بين صنفين من الناس : صنف رعايا للاجانب ، والباقى أغلبه من أهل مكة ، وفيها أموالهم وأمتعتهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فانى أرأف بكم ، ولا أحب أن يصيب المسلمين أي ضرر ، لذلك تروننى قد تأخرت ، وإن ابن آدم مسير لا مخير ، وقد أخبرتكم بالسبب الذى أخرنى الى هذا الحين فأشيروا علي بما ترون »

فقال سلطان بن بجاد : ان من الحزامة القرب من علي بن الحسين وحصره في جدة حتى يستسلم .

وقال خالد بن لؤي : انى كنت أتمنى قدومك لانهاء الحرب بسرعة ، ولكن قدومك أخر ذلك ، وأرجو أن تبين لنا — يا عبد العزيز — أهنالك دليل شرعي يمنع ملاقاة علي ؟ ان كان ليس لك قصد الا الشح بأرواحنا عن الموت فما من أحد يموت قبل أجله .

وأجمع الحضور على الذهاب الى الملك علي بن الحسين وحصار جدة، فوافق ابن سعود وقال لهم : ما دام الأمر كذلك فسيكون الزحف صباح يوم الخميس ٦ جمادى الاولى فاستعدوا .

وسافر الفريق من الجيش الاول ثم تبعته قوة من الفرسان وأمرت المدفعية بالمسير في طريق جدة هونا ، وألايضربوا ، وفي يوم السبت ٨ جمادى الآخرة بارحت القيادة العليا السعودية قواتٌ مسلحة ، واجتمعت كلها حتى أطراف جدة ، وقد صدر بلاغ القيادة العليا السعودية في يوم الاثنين ٤٣/٦/١٠ وفيه مـــا يأتي :

« هبت نهار السبت (٤٣/٦/٨) من مركز القيادة العليا سرايا من الجيش نحو جدة ، ولما وصلت قربها عسكرت فرقة الغطغط في الجناح الايمن ، وفرقة أهل دخنة في الجناح الايسر ، وأهل ساجر في ناحية قريبة من أهل دخنة ليكونوا ردءا لهم وعضدا ، وفي القلب لواء قحطان ، وتبع هؤلاء فرقة الخيالة ، وقد وصلت أوائل الجيش آخر الليل فاستولوا على روابي ومواقع تشرف على حصون العدو ومواقعه وتترسوا بها ثم اقتربوا من الاسلاك الشائكة حتى صاروا بالقرب منها ، ولما جاءت الساعة الرابعة من النهار خرج من البلد ابل وغنم سارت جهة البحر فأغار الاخوان عليها وأخذوها ، ثم أطلقوا النار على الحصون في أطراف المدينة ، ولكن لم يخرج الى العيان أحد من المقاتلة ، وعند ذلك أخذت المدافع توالى اطلاق النار عليهم بشدة من داخل البلدة ، ولكنها لم تصب من الاخوان الا واحدا بجراح خفيفة » .

وبعد يوم تقدم الاخوان الى منطقة جدة نفسها واحتلوا موقعين عسكريين أمام جدة وهما : « النزلة » و « الرويس » ثم احتلت سرية الخيالة قصر ابن منصور الذى يشرف منه على البلدة ، واحتلت سرية من المشاة موارد

الماء التى خارج السور وقاتلت من كان فيه من جنود الجيش الهاشمي ، وفر بعضهم وقتل من ثبت ، وهكذا لم يشتبك أحد الفريقين بالآخر في معركة حاسمة بل قنع كلاهما بالمناوشات ! .

وكان جنود الملك علي لا يتجاوزون الالفين ، وبلغ ما على خط الاستحكام وفي الثكنة العسكرية بجدة من المدافع اثنا عشر مدفعا صغيرا وكبيرا ، وعشرة مدافع رشاشة صالحة للعمل ، ثم وصل مدد من ينبع والعقبة الى الجيش الهاشمي قوامه مدافع صحراوية وجبلية واثنا عشر رشاشا ، واستورد الملك علي من المانيا عشر رشاشات قوية وألفا وخمسمائة بندقية مع حرابها ، فأصبح على خط الدفاع الهاشمي عشرون مدفعا كبيرا ، واثنان وثلاثون رشاشا .

أما القذائف فكان منها شيء لا بأس به ، كما كان لدى الملك علي قنابل كشافة تنير المكان الذى تنفجر فيه ، وكان لها خمس طيارات ايطالية لا تصلح غير واحدة منها للعمل ، وما بقي منها تالف لا يصلح لشيء ، ولكن كان لديها طائرات المانية من نوع جيد مزودة بمدافعها الرشاشة وقنابلها الخاصة المدمرة ، وتستطيع أن تطير بضع ساعات اذا أخذت كفايتها من الوقود ، ولكن اختلاف الطيارين عليها من كل جنس أتلفها .

ولكن أين الوقود الكافى للطائرات ؟ لم يكن لدى الجيش الهاشمي وقود الا اليسير ، وهو لا يدرى أيستعمله في الطائرات المحاربة أم طائرات الاستكشاف التى كان عنده منها عدد قليل ، وخمس منها من مخلفات الحرب العظمى الماضية ، ويحسن أن تحفظ في « متحف الآثار القديمة » ولكن أصلحت بتعب « وترقيع » وهي لا تصلح للعمل المستمر ، فكيف

تصلح لخوض المعارك ؟ غير أنها خاضت معارك الحرب فوق رمال جدة ، كما كانت لديه سيارات مدرعة وسيارتان مصفحتان قويتان جيء بهما من ألمانيا ، وهما مجهزتان بالمدافع الرشاشة ، وهناك أربع سيارات ضخمة للنقل .

أما قوات ابن سعود فهي في ازدياد كل يوم ، فبعد أن كانت القوات النجدية التى احتلت الطائف ثلاثة آلاف تضخمت حتى أصبحت خمسة آلاف ثم سبعة آلاف فعشرة فأربعين ألف مقاتل ، وكلهم أقوياء لا يعرفون الا الهجوم والموت ، وليس للحياة عندهم قيمة ، كما كان مع ابن سعود فريق من الضباط والمدفعية ، وبعد أن كانت الذخائر والمعدات الحربية قليلة زادت وأصبح لدى السعوديين من المدافع الرشاشة في ميدان جدة وحدها أكثر من خمسين غير المدافع الجبلية والصحراوية ، ومعها كميات وافرة من القنابل والرصاص ، وقد وجدوا معظم آلات الحرب في مخفر كلاخ والطائف والهدى وقلعة اجياد والثكنة ودار الحكومـــة بمكة .

فالتفوق في المال والسلاح والرجال ، والتفوق في ميدان القتال ، والتفوق في السياسة والدعاية كان من نصيب ابن سعود وحده ، وكان من معه من الرجال مخلصين ، أما الشريف علي فهو مفتقر الى السلاح ، والى المال ، والى الرجال ، والى كل شيء ، ففي رجاله خونة ، يبعث أحدهم لشراء طائرات بسبعة آلاف جنيه فيشترى له ثلاثا بألف وخمسمائة ويأكل الباقي وهكذا ، وفي رجاله مستبدون عصاة يعملون ما يريدون ، وهم تبع أهوائهم ، ويعملون ارضاء لغرورهم كتحسين باشا الفقير « حقاً » .

أما المال فكان الملك علي في حاجة اليه حتى باع أملاكه الخاصة

ورهن أطيانه التي بمصر ليعطي الجنود المرتزقة رواتبهم ، أما ابن سعود فلا يعطي جنوده رواتب لأنهم رجاله المقربون وعشيرته وشعبه ، وقد قال ذات مرة : انه يعطيهم في السلم ليكفوه مؤونتهم في الحرب ، فهو يؤمن لهم الطعام والشراب والسلاح ثم يلقي بهم أينما شاء وهم سامعون مطيعون .

وجنود ابن سعود يدافعون عن فكرة ركزت في أذهانهم وملأت قلوبهم ، وليس جنود الملك علي كهؤلاء ، بل ليس فيهم فرد واحد ممتلىء قلبه ايمانا بالفكرة كمن عند خصمه ، وأولئك غير مرتزقة ، وهؤلاء مرتزقة نفعيون ، بدون مبدأ ، والفريقان على طرفي نقيض ، أحدهما تثقل كفته فتثبت على الارض ، والآخر ترتفع كفته فيهوى من فيها عليها .

وكان جنود الملك علي ينقصون كل يوم بالحرب والمرض ، ويتعبون من القتال ومن النقص في الارزاق حتى الماء ، والقادة مختلفون ، وكل شيء عنده الى التلف والنقصان ، وخصمه ابن سعود ليس كذلك ، فهو يزداد كل يوم قوة على قوة ، ومنعة على منعة ، ووفرة على وفرة ، فالرجال كالرمال ، والذخائر كالسيول لا انقطاع لها ، وجنوده احتلوا مدنا وقرى وأراضي كثيرة ، وأخذوا يحاصرون من استعصى فتحه ، فالنصر لهم مهما دافع علي ومهما قاتل .

ولا أدل على الضعف البادي في حكومة الملك علي من تصريح الكولونيل ايفانوف الطيار الروسي في الجيش الهاشمي لجريدة « الاوقات » البغدادية حينما كان مارا ببغداد الى ايران للالتحاق بقوة طيرانها ، قال ايفانوف :

١ — لم تدفع لنا رواتبنا بانتظام .

٢ — الخطر المحدق بنا نحن الطيارين ، فقد كنا هدفا لقنابل العدو لأن المطار ضيق يقع في زاوية من أطراف جدة لا تبعد عن استحكامات العدو ومواقعه أكثر من ثلاثة أميال .

٣ — المرض ، فليس بجدة مستشفى منظم يلجأ اليه المريض ! .

٤ — ما كانت أعمالنا الحربية تثمر كثيرا في انتصارات الجيش الهاشمي ، لأن الطيارات ليست من الطراز الحربي الحديث ، وهي قديمة لا تصلح للحروب .

٥ — الطيارات بالية سوى طيارة انكليزية واحدة جيدة ، وقد أسقطها الوهابيون وهي تحلق عليهم في الطائف ، وقتلوا طيارها الروسي والملاحظ العربي ، والخطأ يرجع الى تحسين باشا وزير الحربية في حكومة علي الذى يثق كثيرا في فعل هذه الطيارات .

٦ — ان قيادة الجيش الهاشمي كانت تخبط خبط عشواء ، فهي تأمر الطيار أوامر غريبة مضحكة ، منها : الطيران في الصحراء لتعقيب ثلاثة أو أربعة ، وكان بسبب هذه الغارات التافهة انفجار قنبلة في الطيارة التى يقودها شيراكوف وزميلان من العرب (هما عمر شاكر وعبد الفتاح اللاذقي) وسقوطها في خطوط الوهابيين [١] .

٧ — ما يسمى « الدبابات » ليس الا سيارات حمل مكشوفة ، وهي ألمانية قديمة بقيت في ألمانيا منذ الحرب العظمى بلا عمل ، ودفع الملك علي ألفي جنيه ثمنا لها ، وهي لا تستطيع عون القوات المحاربة .

٨ — لا يتجاوز عدد الجنود النظامية الالف ، وثمة خمسمائة من البدو .

---

(١) طارت هذه الطائرة لضرب الاخوان في يوم السبت ١٣٤٣/٦/٢٣هـ (١٩٢٥/١/١م) وعندما وصلت الرغامة انفجرت قنبلة فيها واحترقت وسقطت عند الخطوط الوهابية .

٩ — أما معداتهم الحربية فهي أربعة عشر مدفعا من المدافع الرشاشة ، وثلاثة من البنادق السريعة وأربعون مدفعا صغيرا من مدافع الخنادق ، وأربعة أنوار كشافة .

١٠ — وكان الملك علي قد أرسل بعض رجال حكومته الى أوربا لشراء سلاح وذخيرة ، ولكن مع الاسف لم يكن عند حسن ظن الملك علي ولم يقم بالامانة ، لأن الآلات التى أحضرها لا يصلح معظمها للجيش فضلا عن الأثمان الباهظة .

١١ — ان ابن سعود قد ضرب بقنابله بعض الجهات على بعد ثلاثة أميال ، وفي جهات أخرى أربعة أميـــال وخمسة ، ويمكن أن يقال : إن الفضاء الذى ضرب فيه الجيش الهاشمي معسكراته واستحكاماته أضيق بكثير مما يجب في ميدان الحرب بحيث جعلت جدة في خطر على الدوام من قنابل العدو التى وصلت الى العمارات الواقعة في الساحل وبعمارات أخرى ، فقنابل العدو تصل الى جميع أركان المدينة ، فقد كنت وأنا في جدة أسمع على الدوام حوادث التخريب والاصابات من قنابل ابن سعود ، وقد أصيب معظم دور القناصل الاجنبية من مدافع العدو ، وقتل خلق كثير من أهالى جدة ، وأصابت قنابل الوهابيين المركز الحربي العام وفيه تحسين باشا (وزير الحربية) وكذلك أصابت مطار الطيارات فاضطررنا الى نقلها الى مكان آخر ، أما المناورات فكانت ضيقة جدا .

١٢ — ويبلغ عدد الجيش الوهابي نيفا وخمسة آلاف ، ولديهم من المدافع القوية البعيدة المرمى ما ليس مثله لدى الجيش الهاشمي ، إذ كثيرا ما كان يطلق الوهابيون مدافعهم على بعد خمسة أميال من جدة فكانت تصيب المطار والمدينة ، وكانت شديدة الفعل والتخريب ، وتعتبر وقفة الوهابيين وقفة القوي المتفوق ، لأنهم نقلوا معظم جيوشهم وجاءوا بها بالقرب من جدة ، ولا تبعد منها أكثر من خمسة أميال ، والجيش

الهاشمي لا يجرؤ على الهجوم مطلقا ، وقطعت الطريق عن جدة ، واستولى الوهابيون على القرى الخارجة عنها والتى لا تبعد عنها الا ميلين أو ثلاثة ، وقد يؤخذ دليلا على ضعف الجيش الهاشمي جعل استحكاماته وخطواته ضمن دائرة ضيقة خارج جدة حتى أصبحت المدينة معسكرا حربيا ما أسخط أهليها » انتهى كلام ايفانوف .

ولتوضيح حالة جيش الملك علي أكثر مما أوضحنا للقارىء ما كتبه مراسل جريدة « ديلي كرونيكل » في جدة تحت عنوان « طيارات بلا قنابل » و « دبابات تجرها الجمال » والعنوان وحده كاف للدلالة على السخرية والتهكم والازدراء ، وقد نقل مراسل الاهرام في لندن ما كتبته الديلي كرونيكل وبعثه برقيا الى جريدته فنشرته ، وهذا نصه :

« حبطت مساعى جميع الخطط التى وضعها الملك علي لاسترداد مكة بواسطة الطيارين والدبابات شر حبوط ، وقوة الحجاز الجوية فتتألف من ثلاثة طيارين وستة مهندسى طيران ، وجميعهم من الروس أنصار الملكية ، وانكليزي واحد ، وهو ليس بين الطيارين ، بل تنحصر مهمته في الحرص على بقاء الطيارات الثلاث التى استجلبت أخيرا في حالة حسنة ، وللحجاز ست طيارات أسقطت منها ثلاث ، وجميعها غير صالحة لعمل عسكري ، وقد بذلت جميع المساعى للحصول على قنابل جوية من انكلترا أو فرنسا وايطاليا ومصر فذهبت أدراج الرياح ، فالقوة الجوية — والحالة هذه — بدون ذخيرة ، على أن الحكومة الحجازية تسعى الآن لمشترى قنابل جوية بستة آلاف جنيه من برلين ، ولكنها لم تنجح ، أما فاجعة الدبابات فأدهى من فاجعة الطيارات التى لا قنابل لها ، وقد تعذر الحصول على دبابة أو سيارة مدرعة ، فأنشأ القائد العام تحسين باشا شبه سيارة مدرعة بمحرك قديم مصفحة « بالتنك » وجعل لها فوهات للمدافع الرشاشة ، ولكن لم توجد لها مدافع رشاشة ، وقد طافت

هذه السيارة في جدة ، ولكن الذين يسوقونها تركوها في منتصف المدينة لأنها لم تصلح للسير ، فجيء بجمل يجرها الى « كراج » السيارات ، ولا ينتظر أن تخرج منه ثانية .

هذا ما ذكره مراسل « ديلي كرونيكل » ، وهو يدل على مبلغ قوة حكومة جدة وعبقرية قوادها المحاربين .

والحق ، إن الملك عليا لم يبخل بشيء ، فضحى بكل ما يملك في سبيل النصر ، حتى حياته وقفها للتضحية ، ولكن كل الظروف والأحوال كانت ضده ، فما لديه من قوى الحرب لا تذكر بجانب قوى خصمه، ومع هذا بذل فوق طاقته وقدرته .

مصفحات دون كيشوت

لا جديد في الميادين ، فالهدوء يشمل ميدان جدة والمدينة المنورة وينبع ، والسعوديون محاصرون ، والهاشميون قابعون في هذه المدن لا يستطيعون الخروج ، وكانت المدينة غاصة بغير قواتها ومعداتها ، فما بها الا نفر لا يستطيع حمايتها ، ولكن تحميها حرمتها وقداستها ، فالمهاجمون المحاصرون يعرفون أن المدينة كمكة ، وأن حرمها كحرمها ، والدخول فيها عنوة يحدث قتالا ، والقتال فيه عصيان لأوامر الدين ، وهم لن يرتكبوا هذه الخطيئة العظمى ، بل يسوغون غزوتهم للحجاز بأنهم ما أرادوا الا المعروف والا تطهيره من البدع والخرافات التى سيطرت على العقول والقلوب ، فكيف لا يتبعون سبيل الرشد ؟ .

فاذا كانت حجتهم دينية خالصة فأحر بهم أن يقفوا عند لابتي المدينة حتى يستسلم من فيها ويصونوا الدماء بل يصونوا قبل الدماء مُهاجَر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومدفن جثمانه الطاهر الشريف ، فلينتظروا استسلام من فيها من الجنود ويدخلوها بسلام آمنين كما دخلوا مكة من قبل .

أما ينبع فيمنع عنها الحرص على دماء أهلها وأموالهم ، ولا يؤيد ابن سعود أن يتكرر ما يشبه حادث الطائف ، واذا وقف الامر على ينبع فسهل ميسور ، فلتكن عاصية حتى حين .

أما جدة فيمنع عنها صنفان من الناس — كما يقول ابن سعود — صنف تحت رعاية الحكومات الاجنبية ولرعاياها من موقفها الحيادي كرامة وحقوق يجب أن تصان ، وحصانة يجب ألا تهدر ، وهناك قوانين دولية لا تجيز للمحارب مس أمثال هؤلاء بسوء ، بل الفاتح مسئول عنهم ، فيجب أن يعنى بأمرهم ، والصنف الآخر أهلون — ومعظمهم من مكة — وهم مضطرون الى البقاء فيها ، لأن بيوتهم وأموالهم وتجارتهم بها ، وهم مدنيون ليسوا محاربين ، فلا يريد ابن سعود أن يرميهم بفتنة لا تصيبن الذين ظلموا منهم خاصة ، فلينتظر أيضا ، وليقنع بضرب الحصار عليهم حتى يجدّ من الحوادث ما يغير مجرى الحرب أو ينهيها .

ولكن الحرب في هذه الميادين ليست بذات بال ، وليس لها خطر ولا أثر قوي ، ولا تعدو تبادل القذائف والنيران ، ومضت الاسابيع وكل شيء هادىء في الميدان اذا استثنينا المناوشات الموضعية المحدودة لا تغير في الوضع العام شيئا .

وكان كل فريق يعمل لكسب المعركة الفاصلة ، أما فريق جدة وعلى رأسه وزير الحربية تحسين باشا ووزير البحرية عارف باشا الادلبي وغيرهما من قواد الجيش الهاشمي فقد سهروا ليالي وتعبوا أياما في وضع خطة تكون نتيجتها ابادة الجيش السعودي ، فلديهم الطائرات أو لديهم ما يسمى طائرات ! ولديهم ما يسمونه « دبابات » وهذه تدكهم دكا من الارض ، وتلك تحصدهم من فوق فلا فرار ولا نجاة ! فكلهم مقيد ما يستطيع براحا لأن الموت سينطلق مع قذائف الدبابات وقنابل الطائرات ورصاصها ، فيمسكهم فاذا هم موتى ممزقون ! .

وأظنهم نسوا حادث الطيار الروسي شيراكوف ورفيقيه عمر شاكر واللاذقي الذين ذهبوا ضحية غرور تحسين وسوء ادارته وجهله ، فقد كلفهم وزير الحربية القيام بضرب الاخوان وزودهم بقنابل ، فما كادت الطائرة تطير وتحلق في سماء الرغامة حتى انفجرت فيها القنبلة وأخذت تهوي من علو ألفي قدم والنار تشتعل فيها ، ولقي من بها حتفهم .

بل سبق للطائرة التي انتدبت لطرد قوات ابن سعود من الطائف مصيرا كهذا المصير ، ولكن لا بقنبلة انفجرت فيها بل سقطت الى الارض ، فأسرع اليها الاخوان وقتلوا من بها .

فكأن هذه الحوادث لم تعط قيادة حكومة الملك علي درسا مفيدا ، فأخذت تدبر خطة جديدة ، ولا يعيب حكومة أن تدبر خطة ، وانما العيب الاستمرار في خطة مجربة ظهر فسادها وكانت وبالا على أصحابها ثم ترسم ثانية وثالثة .

تلك حماقة من حماقات بعض العسكريين المغرورين يجب أن يحاسبهم التاريخ عليها ، لأنهم يزهقون بها الارواح ويرخصون ثمنها الغالى .

فالطائرات لم تجد حكومة الملك علي أي نفع ، بل كانت خسارة عليهم ، فهي — ان كانت صالحة للعمل — غير مزودة بما يجب أن تزود به طائرة محاربة ، ولكن عليا المسالم ليس بالمسئول ، بل المسئول من كان حوله أو من كان بيدهم ادارة دفة الحرب ! .

ولسنا بسبيل انتقاد هؤلاء القادة ومحاسبتهم وتعداد أخطائهم ، ويكفى ما قلنا ، فلنر ماذا فعلوا هذه الايام التى أثقلوا فيها كاهل علي — الطيب الوديع — بالنفقات والاختلاس ! .

دبروا خطة طربوا لها حينما انتهوا منها ، بل صفقوا لها وهللوا كثيرا ،

لأنها كانت نتيجة تفكير وبحث ودراسة دامت أكثر من شهرين . وتفاءلوا وأخذوا يهتفون للعبقرية المبتكرة والقيادة الحازمة ! .

الخطة : أن يهاجموا الجنود المحاصرين جدة شرقا وجنوبا ، وينقضوا على القلب ويقصوا [1] الجناحين وقصا ثم يسرعوا بهذه المصفحات الى الرغامة ويباغتوا بها المعسكر الذى بها ويمطروه القذائف المصمية المدمرة ويحدقوا به من كل جانب لئلا يفر أحد منه ثم يركضوا الى مكة لينقذوها ويطهروا رحابها من السعوديين الوهابيين ويتتبعوهم الى الطائف فيفتكوا بمن فيه منهم ولا يدعون الفرصة للهاربين ويشعلوا النار في أذيالهم حتى يصبحوا رمادا ، وكتب أحد هؤلاء القادة الى الاستاذ الريحاني : « وغدا ندعوك لزيارتنا في الطائف » .

فلننظر الآن إلى الخطة « الدونكيشوتية » على يد مديرى الحرب الخياليين ولنشهد عمل العبقرية الناضجة والكفاءة الحربية الفنية ! .

في فجر يوم السبت ١٨ شعبان ١٣٤٣ هـ (١٤ مارس ١٩٢٥ م) بدأ خط دفاع جدة يطلق النار من مدافعه الكبيرة والصغيرة والرشاشة كلها في لحظة واحدة على الاخوان ، ولم يقف عن الرمي الا بعد ساعة ، وبدت المصفحات غادية رائحة داخل خط الدفاع ، وكذلك قسم من المشاة والخيالة ، ودامت هذه الحركة ثلاث ساعات ، ثم خرجت خمس «مصفحات» من باب الكندرة اتجهت ثلاث منها إلى نزلة بنى مالك حيث يقبع في خنادقها الاخوان من أهل دخنة والشبيكية وهي بمثابة القلب ولكنها أقرب للجناح الايمن ، واتجهت اثنتان إلى الرويس وهو الجناح الايمن وبه جند الاخوان من دخنة والشبيكية أيضاً ، ثم خرج ألف وثمانمائة من جنود النظام والبدو وانقسموا إلى ثلاث فرق ، احداها اتجهت إلى الرويس،

---

(١) وقص الجناح : كسره .

والثانية يممت نزلة بني مالك ، والثالثة مشت بين الفرقتين لتكون قـــوة احتياطية ، وخلف هؤلاء سرية من الخيالة وقفت خارج الخط .

تقدم هؤلاء الجنود — ما عدا الخيالة — إلى الامام وأطلقوا في لحظة واحدة النيران .

أما الاخوان فلم يعملوا شيئاً وصمتوا في أماكنهم ما عدا القوة الاحتياطية من آل العارض والغطغط فقد تقدمت إلى الجنود الامامية من الاخـــوان المحتمية بالخنادق لتشغل العدو قليلا .

وانفصلت احدى السيارات الثلاث المتجهة إلى نزلة بني مالك ، واتجهت نحو قوة جدة الاحتياطية ، وأخذت تطلق مدافعها الرشاشة النيران وشاركتها بقية المدافع الهاشمية ، فقد جن جنونها وأخذت تمطر مواقع الاخــوان بالنار حتى اذا دنا الجيش الهاشمي منها هب السعوديون كالمردة العارمة وأخذوا يطلقون النار ويضربون ، واستقبل أهل كل ناحية من اتجهوا اليهم وتبادلوا اطلاق النار ، وانقضّت قوة الاحتياط السعودية على المهاجمين فجاءت المصفحات تمنعها غير أنها أخفقت بالرغم من محاولاتها ، وبعد نصف ساعة تراجع المهاجمون واختلط الحابل بالنابل ، والتحم الفريقان في قتال جد عنيف بالسيف والبنادق والمسدسات والحراب والرشاشات من اليفوع تلقى قذائفها على الجنود الفارين من جنود جدة فتحصدهم حصدا .

ودفعت ببعض الاخوان الحماسة والشجاعة فتعقب أحد مماليك الامير محمد بن عبد الرحمن شقيق سلطان نجد احدى المصفحات وأخذ يطاردها ، فكان منظرا يقول من شهده أنه كان عجيبا الى حد بعيد ، ولم يطـــق المملوك الشجاع هذه المطاردة ، وغضب لانه لم يستطيع إلى قهرها سبيلا فوثب وثبة كان فيها بسطح السيارة المصفحة وأطلق نار مسدسه على من بداخلها فلم يصابوا ، فأسرع اليه رفاقه من الاخوان حينما رأوه في سطحها

ينجدونه ، غير أن رصاصة أصابت المملوك فألقته من فوقها وهوى إلى الارض ، وأخذت المصفحة تتراجع وتحمى نفسها بالنار ، وأحاط الإخوان بأخرى وقتلوا من فيها وحطموا مقدمتها وتركوها في الميدان تنعى رجالهـــــا وتغيظ تحسين باشا الفقير (وزير الحربية) وعطلوا اثنتين عند الاســـلاك الشائكة ، أما الاثنتان الاخريان فقد تحطمت جوانبهما بعد صراع عنيف .

ودامت المعركة ساعتين وهي في عنفوانها وشدتها ثم فتر القتال ، ولكنه دام ساعتين أخريين ، ثم انهزم الجيش الهاشمي هزيمة منكرة تاركا في الميدان ثلاثمائة وعشرين قتيلا عدا خمسين جريحا اعترف بجراحهم بـــلاغ القيادة العليا الهاشمية ، أما الاخوان فقتلاهم خمسون وكذلك كان جرحاهم ، وهذا انتصار مبين .

أما خيالة الجيش الهاشمي فلم تشترك في القتال ، وحينما رأت الهزيمة عادت إلى داخل الخط بعد أن قتل بعض الفرسان والخيل .

وهكذا تتلاشى جهود بضعة أشهر من قادة ووزراء يظنون أنفسهـــم عباقرة في الفنون العسكرية والحربية في بضع ساعات أمام بدو جهلة لم يدربوا التدريب الفني الحربي ، ولكنهم يعرفون بالبديهة والغريزة الهجـــوم والدفاع والاقدام والاحجام وقهر العدو والبعد عن الموت كما تزودوا بكثير من التجارب والمرانة الحربية ، وفي بضع ساعات تحطمت عبقريات القادة والوزراء المساكين أمام هؤلاء البدو الشجعان ! .

لقد خسر الجيش الهاشمي معدات حربية وذخائر وجنودا بحماقة قواده الذين لا يعرفون أصول الفنون الحربية كما خسر الروح المعنوية خســـارة شنيعة لا تعوض .

هؤلاء وحدهم المسئولون عن هذا السفه ، فهم الذين غرروا بالملك علي

وأوحوا اليه أنهم مستطيعون قهر الجيوش السعودية وابادتها ، وأقروا عينه بخداعهم وزيفهم اذ زعموا له أنهم سيصومون رمضان في مكة (بالتأكيد) وتفاءلوا بالنصر المؤزر إلى حد بعيد ، حتى سول لهم غرورهم أن يدعوا الاستاذ الريحاني لزيارتهم — غدا — في الطائف ، وكان هذا الغد لناظره بعيدا في حين أنهم لا يستطيعون أن يخرجوا عن خطهم الدفاعي الا قليلا ثم يرجعون خاسرين منهزمين .

حقا إنها « دونكيشوتية » مضحكة ، فهم يظنون أنهم يقاتلون أطفالا لا رجالا أشداء محاربين ، إنهم يريدون أن يصوموا رمضان في مكة ! .

انها أحلام وهذيان ، وما كنت أظن أن الخيال يشط بقادة يزعمون أنهم حربيون إلى هذا الحد فيجمح بهم من حالق فيهوون محطومين مهشمين .

يريدون خوض البحر والموج يغمرهم في الساحل فيذودهم ويغرقهم ! يا له من خيال مريض وعقل مشلول ! .

وهكذا قامر هؤلاء القواد بآخر ما لديهم فخسروا ما لا يعوض أبدا ، فما أشبههم بدون كيشوت .

ويجب أن نذكر للتاريخ أن جنود الملك علي حاربوا في هذه المعركة حربا ضروسا بالغة العنف ، وثبتوا ايما ثبات حتى بلغ قتلاهم خمسمئة بطل ، ولو كانوا تحت إمرة قائد محنك حكيم لاستطاع بهؤلاء الابطال المغاوير أن يكسب المعركة ، ولكن لا راد لقضاء الله .

مفاوضات للصلح

انتصر ابن سعود – كما ذكرنا من قبل – في ميدان الحرب والقتال ، وفي مجال الدعاية وفي السياسة ، في حين أن خصمه أخفق فيها كلها وما زال يقاوم آملا في النصر ، ولكن دواعيه ليست عنده ، فالخسارة حلت به في المناجزة قولا وفعلا ، ولم تُجْدِ وساطة السيد طالب النقيب والمستر فلبي والريحاني ، واهم انتصار له تصريح الدول الاوربية أن موقفها حيال النزاع القائم حيادي محض .

واستطاع تثبيت قواعده في الاراضي المحتلة بجيوشه وأصبح له دوي في الممالك والامصار ، فخصومه يهاجمونه في الصحف والاذاعات ، وأنصاره يردون عليهم بقوة ، فاتجهت اليه الانظار ، ولكنه وفق بمهارته ولباقته توفيقا عظيما في اجتذاب رضا الناس ، وسالمته الحوادث وكانت من أنصاره ، بل كان كل حادث يقع عند الخصوم وعنده يصبح له لا عليه ، بل كان فتحه لمكة واستيلاؤه عليها من أهم الاسباب التي أدنت الناس منه وفتحت له سبيل الاتصال بأصحاب الرأي .

وزاده قوة على قوة انهيار ملك الحسين من قبل أن يقوم من مقامه

بالرياض ، ثم تراجع الجيوش الهاشمية عن ضعف وقلة إلى الوراء ، واصابتها بالهزائم في كل معركة أو مناوشة حتى أتى رمضان فوقف كلا الفريقين عن الصراع الا مناوشات موضعية لا قيمة لها ، وكل منهما يستعد للقاء الاخير المرتقب ! .

وفي أواسط رمضان بعث القناصل المسلمون في جدة وهم : عبـــد الكريم حكيموف (قنصل روسيا) وأحمد بك لارى (قنصل ايران) ورادين براويرا دنياتا (قنصل هولندا) كتابا إلى عظمة السلطان يستأذنونه في القدوم إلى مكة للاعتمار بمناسبة شهر رمضان المبارك ، واشترطوا على أنفسهم عدم التدخل في الشئون السياسية لان موقف دولهم الحيادي لا يبيح لهم ذلك ، فأذن لهم ، وقدموا إلى مقر ابن سعود ، وأراد أن يبعث معهم من يسهل لهم قضاء العمرة وعدم التدخل في الشئون السياسية .

غير أنهم كرهوا ذلك وقالوا للسلطان : انهم قناصل دول محايدة ، ولم يشترط إصحابهم ببعض حاشيتهم ، وهم بالطبع لا يسعهم التدخل في هذه المسائل ، فأجابهم : إنه لا يخاف بحول الله ولا يحذر مـــن شيء ، وأذن لهم بما رغبوا وإن لهم أن يتصلوا بمن شاءوا من الاهلين ويسألوهم عما يريدون ، وأن يتحدثوا بما يرون لانه معتقد أنهم هم — وغيرهم — لن يجدوا ما يخالف الحق والعدل والصواب .

وأدى القناصل مناسك العمرة ورجعوا إلى المقر العالى ودار بينه وبينهم حديث طويل ، هذا ملخصه :

القناصل : ان بعض الاصحاب طلبوا أن نبحث مع عظمتكم في شأن الصلح ، فما رأيكم ؟ .

السلطان : انى أعلم أنكم مندوبو دول محايدة لا تتدخلون في هذه الامور ، فكيف اليوم تتكلمون فيها ؟ ..

القناصل : اننا نتكلم مع عظمتكم في هذه المسألة بصفتنا الشخصية لا بلسان حكومتنا لاننا مسلمون ويهمنا الاصلاح والاتفاق بين المسلمين .

السلطان : إن القوم لم يدركوا حتى اليوم مرامنا ولا غايتنا ، ولا شك أنه لا يوجد شيء مستحيل .

القناصل : هل تأذنون بقدوم الشيخ فؤاد الخطيب وزير خارجيـــة الحجاز اليكم ؟ .

السلطان : من أراد القدوم الينا فأهلا وسهلا ، سواء كان الشيـخ فؤاد الخطيب أم غيره .

وانتهت وساطة القناصل ورجعوا إلى جدة وأخبروا الشيخ فؤاد الخطيب ، فبعث إلى ابن سعود بالكتاب التالى :

«حضرة صاحب العظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود أيده الله

«أرفع إلى مقامكم الاثيل أجزل الاحترام والتبجيل

«أما بعد ، فقد أنبأني بعض الاصحاب بما حقق الامل المعقــود بمقابلة عظمتكم السلطانية مساء الثلاثاء الواقع في ٢٧ رمضان المبارك أو في يوم آخر تسمحون به عظمتكم ، واني لارجو أن تأمروا من ينتظرني من رجالكم الكرام أثناء الطريق والتفضل بالجواب السامى ، وأدام الله عظمتكم بالخير بمنه تعالى وكرمه » .

جدة : يوم الاثنين ٢٦ رمضان ١٣٤٣

المخلص
فؤاد الخطيب (امضاء)

فأجابه ابن سعود قائلا في خطابه الذى بعثه إلى الشيخ فؤاد الخطيب في ٢٧ رمضان سنة ١٣٤٣ هـ :

«أهدى لحضرتكم أزكى التحيات ، وأخبركم بوصول كتابكم الكريم المؤرخ ٢٦ رمضان الذى ترغبون فيه أن نضرب لملاقاتكم موعدا بعد أن حقق أملكم بعض الاصحاب بالمقابلة ، فأجيب سعادتكم لما سافر من عندنا هؤلاء الاصحاب عقدت مجلسا مع المسلمين وشاورتهم في الامر فاذا هم يرجوننى التريث في الامر والتبصر فيه والنظر اليه من جميع جهاته في الحال وفي المستقبل ، وقد أدلوا بحججهم واذا هي صحيحة وجديرة بالاهتمام ، فلا يسعنا أن نكلفكم أو ندعوكم قبل أن نحيطكم علما بهذه الشروط كي تجاوبونا عليها بصراحة ليحصل لنا اطمئنان وثقة وهي :

«الاول : هل سعادتكم على استعداد للموافقة على ما نمليه عليكم من الشروط الضرورية ثقلت وطأته أو خفت ؟ .

«الثاني : ما جنس التعهدات والضمانات التى في استطاعتكم تقديمها لنا والتى في وسعها أن تكفل تطبيق هذه الشروط وتمضى بمفعولها في المستقبل ، ويجعلنا نثق بها ونطمئن بحرمتها ؟ .

أكون مسرورا اذا تفضلتم وأجبتمونا في بادىء الامر بما تقدرون عليه من الصراحة والوضوح على هاتين المسألتين اللتين هما في نظرنا المحور الاساسي الذى يدور عليه الامر ، ولسعادتكم خالص التحية وجزيل الاكرام » .

فبادر الشيخ فؤاد الخطيب إلى الجواب في ٢٨ رمضان ١٣٤٣ هـ ذاكرا للسلطان : انه يريد مقابلته للتعرف به ، ثم لتمهيد جو صالح تسود فيه الطمأنينة المنشودة لتكون محورا لما يحسن التفاهم فيه ويصون كرامة العرب .

فأجابه ابن سعود في الثامن والعشرين من شهر رمضان يقول له فيه : انه قد أذن له في القدوم اليه لظهور رغبته الاكيدة في المقابلة وظهور مقاصده الاخيرة ، ويسأله عن المحل الذى يجب أن يستقبله فيه رجاله السعوديون .

فبعث اليه في ٢٩ رمضان ١٣٤٣ هـ يقول له : انه سيخرج من النزلة اليمانية بعد ظهر اليوم في الساعة السابعة تماما ، ويرجو أن يقابله رجاله عند « قهوة القائم » وسيكون على دابة ومعه خادمان مستظلا بمظلة تكون معه كعلامة فارقة .

وانتظره رجال ابن سعود وصحبوه إلى مقره واجتمع به بضع مرات دار بينهما ما نلخصه :

الخطيب : قدمت اليكم للتعرف بكم ، ولإصلاح ذات البين .

ابن سعود : أما تعرفك بشخصى فالحمد لله ، وانى أحب كل عربي مخلص لدينه ووطنه ، وأما اصلاح ذات البين فانني أحب ذلك ، ولكن أين الطريق الذى يوصلنا اليه ؟ اننا لم نجدها لفقدان الامان في العاجل والآجل ! ومن تكون صداقتنا معه بعد الاصلاح ؟ .

الخطيب : بينكم وبين علي .

ابن سعود : أما يزال الحسين في العقبة يرتقب الفرصة للرجوع إلى ما كان عليه ؟ .

الخطيب : ما أظن ذلك ، وما ترك الحسين في العقبة الا ليعاون الحكومة ببعض المعاونات .

ابن سعود : كلا ، ان الحسين لم يقم في العقبة لهذا ، وانما ارتقابا للفرص ، أما المعاونات فليس منها شيء ، إذ لو كانت هناك مساعدات منه لما ظلم العباد وسلبت أموالهم ، وهذا ما فعل بأهل جدة .

الخطيب : الحكومة أدرى بأمور رعاياها .

ابن سعود : نعم ، أنت صادق ، ولكن الناس ينظرون إلى ماتفعله الحكومة برعاياها ، فان ساء فمعاملتها للأبعد أسوأ ، ثم أليس علي ولدا للحسين وأخا لعبد الله وفيصل ؟ .

الخطيب : نعم ، انه ولد الرجل وأخو الرجلين ، ولكنه غيرهم ، وان له لنية طيبة .

ابن سعود : لم أقل في الرجل شيئا ، وأبرأ إلى الله من أن أتكلم فيه بما لا أعلمه ، ولكن يكفى أنه ولد الرجل وأخو الرجلين ، ولست أمينا منه كما أنه ليس هناك من يضمن لى بعض ما أشترط .

الخطيب : الضامن هو أنت لانك أنت الغالب ، والعادة أن الغالب هو الضامن ..

ابن سعود : أيوجد من يضمن من نفسه لنفسه ؟ ! .

الخطيب : أطلب الضامن الذى تريد ونحن نقدمه اليك .

ابن سعود : لا أعلم ضامنا لـه سلطة يكفل ما أطلب وأثق به ، فالدول كلها على الحياد ، ولا نقبل تدخلها في الاماكن المقدسة ، وأمر العالم الاسلامي كما ترى .

الخطيب : إن ضمنت فأنت خير ضامن ، ونحن تحت سيطرتك ،

وان ابتغيت ضامنا غير ذلك فنحن نفكر فيه .

ابن سعود : انى أقول لك بصراحة : ان المسلمين من قومنا اجتمعوا وتفكروا في أمر دينهم ودنياهم فلم يجدوا للصلح مع الحسين وأولاده ما يرضيهم ، فأرجوك تركه ونسيانه ، فان كان هناك أمر غير ذلك فأنا مستعد له .

الخطيب : ما هو ذلك الامر ؟ .

ابن سعود : اذا كان علي يريد شيئا من أمور الدنيا فأنا أتعهد له به في العاجل أو الآجل ، ولكننى أريد أن أسألك سؤالا عن الامر الذى دعاك إلى رجوعك إلى جدة بعد ذهابك منها ، وما الذى دعا بعض السوريين والفلسطينيين إلى أن يأتوا إلى جده لقتالنا ؟ أقتالهم لنا قتال ديني أو حمية وطنية ؟ أم الحسين وأولاده قاموا بأمر منتظم يرون أننا أتينالتخريبه؟.

الخطيب : لا أعلم شيئا من ذلك الا أنهم يدعون أن الحجاز مستقل ويرجون له نفوذ ذلك .

ابن سعود : ايجوز للناس الدخول في أمر لم يعلموا حقيقته ، أيجوز لهم محاربة أحد قبل السعي في اصلاح ذات البين .

الخطيب : لا ، لا يجوز .

ابن سعود : ألم تعلموا حربنا مع الحسين قبل هذا الوقت بتسع سنوات؟ من ذا سعى بالاصلاح ؟ ومن الذى اجتهد ليعلم المخطىء من المصيب في دين أو دنيا ؟ ! .

الخطيب : ان بعض الاشخاص طلبوا ذلك من الحسين فوعدهم ، ولكنه لم يعمل شيئا .

ابن سعود : هل اطلعتم أو اطلع أحد على المعاهدة التى بين الحسين والحكومة الانكليزية ؟ .

الخطيب : (وهو وزير الخارجية) لا .

ابن سعود : ألم تكن وزيرا للخارجية ؟ وهل يخفى عليك شيء من ذلك ! ومن الذى يجيبنا بعدك عن هذا ؟ .

الخطيب : انني وزير خارجية للامضاء لا للفعل .

ابن سعود : ... ؟ ! .

الخطيب : وأغلب الاخبار لم أطلع عليها الا بالسماع من الناس ، ولقد أقمت سنوات في المدة الاخيرة أشتغل بالادب ، وهذه وظيفتى ! .

ابن سعود : نعم ، لدي شاهد على ما تقول ، لقد وجدنا في أوراق الديوان كتابا من بعض القناصل للحسين يقول له فيه : وصلنا كتاب باسم وزارة الخارجية ممضى باسم «فؤاد الخطيب» ولكن الامضاء ليس امضاء الشيخ فؤاد المعروف ، فما هي حقيقة الامر ؟ .

الخطيب : نعم ، لقد وقع مثل هذا .

ابن سعود : فاذا كانت الحجج هذه ، والدولة المنظمة هذه شئونها فلا شك أن هذا يدل على أن الامور كلها قائمة على الباطل والتمويه ، فكيف – يا شيخ فؤاد – تؤيد مثل هذه الحكومة ؟ .

الخطيب : لم أقل شيئا في الحكومة البائدة ، ولكنى أحدثكم من جهة الشريف علي .

ابن سعود : أما من جهة علي فقد أجبتك عنه بما يكفى عن الاعادة .

هذا بعض ما دار بين الشيخ فؤاد الخطيب وزير خارجية حكومة الملك علي وبين سلطان نجد ، وأتينا بمعظمه ليعرف القارىء شخصية ابن سعود وأدبه في المناظرة والنقد والرد ، وليعرف القارىء هذه الشخصية العظيمة التى تذوب أمامها حيل السياسة ، ويتلاشى أمامها منطقها الملتوى ، فهذا الشيخ فؤاد الخطيب لا يستطيع أن يكتم السخط أو يراوغ ، لان لشخصية ابن الصحراء سحرا لا يستطيع معه الخداع والمكر والغش .

بل دهشت لقوة منطقه فهو يقف وزير خارجية خصمه حيران ، ويحقق معه تحقيقا دقيقا كأنه قاض في محكمة جنايات لا حاكم يخاطب رجلا مسئولا في حكومته ، بل يسد عليه طرق الفرار بالمنطق السديـد والحجة الدامغة والشاهد العدل فيقف حيث هو موثوقا ! .

بل عرضت معظم ما دار ليعرف التاريخ حقيقة ما كان في ذلـك العصر ، ولأدل على شخصية ابن سعود وكفايته الذهنية وعبقريته السياسية ، فهذا الذى زعموا أنه بدوي جاهل يهاجم بالحجة ويستضيء بالشريعـة والفطرة ، وينتفع بالدنيا ويحيط بالسياسة ويدرك حقائقها ويسبر أغوارها بالفطرة والبديهة وسلامة القلب والمنطق وإلهام البصيرة ، وليرى القارىء أن حكومة جدة لم تفد شيئا من هذا الاجتماع الذى حرصت عليه ومهدت له كثيرا ، بل أفاد ابن سعود نفسه ، فقد أرى وزير خارجية خصمه أخطاء من يخدمهم ووضع يده عليها ليستوثق منه بالقناعة ، واختبر رجولته وفهمه ، ثم استطاع أن يؤثر فيه حتى يكون من دعاته .

وخرج فؤاد الخطيب وزير خارجية الملك حسين ثم وزير خارجية الملك علي من مقر ابن سعود وهو معجب به ، وتركت المقابلة في نفسه أطيب الاثر وأعمقه .

وفود وساعي

ذهب الحسين من العقبة الى قبرص وأصبح بعيدا عن بلاد العرب ، ويئس الملك علي فلم يعد لديه ذلك الامل الباسم ، وأمسى كالغريق لا يرى خيطا الا تعلق به فاذا هو واه ، وكان في غمرة من الغمرات التى تلتقي فيها المتناقضات والاضداد ، فهوة اليأس أمامه فاغرة فاها وظلمة القنوط مخيمة عليه ، فيرى بين الفينة والفينة خيطا من شعاع أو بريقاً لامعا فيفرح ، ثم ينطفيء مرة أخرى فيحزن ويكتئب .

وفي صفر سنة ١٣٤٤ هـ وسّط علي الدولة الانكليزية للصلح ، فقبلت حكومتها الوساطة اذا رضي بها الفريقان ، وعرضت وساطتها على ابن سعود ، فأجاب بأنه أعطى العالم الاسلامي عهداً بأن يكون الحجاز ومكة ملكا للمسلمين ، وبهذا انتهى دورها .

ووصل يوم الاثنين ٣ ربيع الاول ١٣٤٤ هـ (٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٥ م) وفد من ملك مصر قوامه فضيلة الشيخ الاكبر محمد مصطفى المراغي — وكان رئيس المحكمة العليا — وحضرة صاحب السعادة عبد الوهاب طلعت سكرتير جلالة الملك فؤاد وغرضه الوصول الى تسوية عادلة

بين الفريقين المتنازعين ، والصلح بينهما ، وكان معه خطاب رقيق من ملك مصر فؤاد الى ابن سعود .

هذه فرصة نادرة كان يتمناها ابن سعود ، فهو يحترم الملك فؤادا ويقدره كما يعجب بمصر ، ولا يستطيع أن يزورّ عنه مهما كانت الظروف والاحوال ، غير أن الوساطة في صلح بينه وبين الحسين أو أحد أبنائه أمر جد عسير ، فهو لم يحاربهم الا للدين ، ولن يقبل الا كلمة القرآن ، ولكن في عدم الرضا بوساطة مصر بعض الجفاء ، فحار في الامر ، كيف يقبل الوساطة وهذا شعبه وجنوده لم يحاربوا منذ تسع سنوات الا باسم الدين ؟ ولكنه وكل الامر الى أحد رجاله وهو الشيخ الشيخ حافظ وهبة يعالجه في رفق وأناة ارضاء للملك فؤاد .

فاتصل حافظ بالوفد المصري وأخبره عن وساطة بريطانيا قبل أيام ورفض السلطان ذلك ، وانه ليس من اللياقة قبول وساطة مصر الآن ، وأخذ يعدد مساوىء الحسين مع مصر ، ثم استطاع الشيخ حافظ بلباقته أن يحول مجرى البحث والمفاوضة الى طريق أسلم وأحسن وآمن ، ووجه النظر الى العناية بأمر البلاد المقدسة على أساس يضمن نجاح المشروعات التى تضمن ذلك .

وكان حافظ ينطلق في المحادثة مع وفد مصر من القاعدة التى وضعها له ابن سعود وهو : جعل الحجاز للحجازيين يختارون نوع الحكم الذى يرضيهم ، وللعالم الإسلامي حقوقه في البلاد المشرفة ، ثم العمل على الأخذ بناصر الحجاز ونشر العلم وتنمية تجارته واعادة مجده اليه .

وقابل ابن سعود الوفد وقال له : إنه يحب مصر ومليكها ، وبرهان منزلة الملك فؤاد عنده أنه يكل إليه أمر دعوة مندوبى المسلمين في مصر لينظروا في هذه الامور وما يقررونه يقوم بتنفيده .

وفرح الوفد كثيرا لهذه النتيجة التى انتهى اليها وعدها خيرا من المهمة

التى قدم من أجلها ، وسافر صباح الاثنين ١٠ ربيع الاول سنة ١٣٤٤ ﻫ (٢٨ سبتمبر ١٩٢٥ م) الى مصر شاكرا لطف ابن سعود وكرمه وحسن معاملته حاملا الى الملك فؤاد كتابا منه يتضمن ذلك .

ثم توسط في النزاع بين سلطان نجد والملك علي أحد أقطاب ملوك والمسلمين العرب ألا وهـــو إمام اليمن يحيى بن محمد حميد الدين ، فقد بعث في ٤ ربيع الآخر ١٣٤٤ ﻫ (٢١ أكتوبر ١٩٢٥ م) كتابا الى المتنازعين جاء فيه :

« قد علمت ما حل بالاماكن المقدسة من الكوارث من نتائج الحروب التى اشتعلت نارها بينكم ، ووصل الاستصراخ من الاهالى وعموم المسلمين لعموم ذوى العلاقة من المسلمين بالحرمين الشريفين ومشاعر الحج . فلا جرم اذا رأينا من الواجب علينا اجابة نداء المستصرخين بالتداخل في طلب انهاء الحرب بصلح يرضاه الله ورسوله ، وتقرُّ به عيون المسلمين ، وقد حملنا على ذلك ما نعتقده فيك من حسن الظن بنا والثقة بمساعينا ووضوح أنكم من أصدقائنا ، ولا ثمرة في اطالة البيان أن نصون مهبط الوحي وما في ذلك من تكرار الكوارث بلا انقطاع ، وابقاء الضرر بالبلاد والعباد حالا ومستقبلا ، وفي ذلك توكلت على الله وصممت على ارسال وفد مكلف بالاصلاح بينكم ، والثقة العظمى اذا وحد به العمل في أس طلبكم لمساعينا الخيرية بالقبول بوجودنا بصفة الحكم فيما بينكم واستردادكم السقطات في البادرات ، وقبولكم لما يقصر معاناة الاختلاف ، والى ما يحبه ويربح فضله الى ما فيه حفظ الكرامة ، وأفيدوا بالجواب المسر فنحن في انتظاره ، وفقنا الله جميعا » .

فأجاب الملك علي بالايجاب ، أما ابن سعود فرد عليه بأنه دعـــا المسلمين الى مؤتمر ، ويسره أن يشترك فيه ، ويرجوه أن يبعث مندوبيه ليحضروا معهم ، وكذلك انتهى دوره .

وفي يوم الاربعاء ٣ ربيع الآخر ١٣٤٤ هـ (٢١ أكتوبر ١٩٢٥ م) وصل وفد ايراني مؤلف من : عبد الغفار خان جلال السلطنة مفوض ايران في مصر ، وحبيب الله خان عين الملك قنصل حكومة ايران العام في سوريا ، ومحمد أفندى رضا (سكرتير الوفد) واجتمع بابن سعود في مقره ونزل ضيفا عليه ، ثم تابع رحلته الى مكة يصحبه الشيخ عبدالله الفضل — أحد رجال السلطان — للعناية به وتسهيل أمره ، فوصلها ليلة الخميس .

ودار البحث بعدئذ بين الوفد الايراني وابن سعود حول ما أشيع من ضرب القبة النبوية الشريفة بالقنابل ، وأخبره الوفد أنه جاء للتحقيق في ذلك فأذن له ، كما أخبر الوفد الايراني بالكتاب الذى حمله وفد مصر من ملكها ، وأن السلطان اختار جلالته لتوجيه الدعوة إلى العالم الاسلامي للاجتماع في مصر لتقرير ما يجب حيال مسألة الحجاز .

فامتعض جلال السلطنة وقال : ان مصر دولة غير مستقلة مـن كل وجه ، ولكن ابن سعود أقنعه بزعامة مصر ، ثم بعث معه كتابا الى رئيس حكومة ايران .

واتصل الوفد الايراني بكثير من الايرانيين الموجودين بمكة ووقفوا منهم على الفارق بين عهد ابن سعود وبين عهد الحسين ، فرجع مسرورا يحمل هذه البشرى ، أما « عين الملك » قنصل حكومة ايران العام بسوريا فقد سافر الى المدينة في يوم الاربعاء ١٧ ربيع الآخر (٤ نوفمبر ١٩٢٥ م) ليقوم بالتحقيق فيما أشيع من ضرب القبة النبوية بقنابل الوهابيين .

وفي الثاني والعشرين من ربيع الاول سنة ١٣٤٤ هـ (٩ أكتوبر سنة ١٩٢٥ م) قدم وفد انكليزي مؤلف من المندوب المفوض السر جلبرت كلايتون وفي معيته سكرتيره الخاص الشاب السوري جورج أنطونيوس المفتش الاول في ادارة معارف فلسطين وهو يجيد اللغتين العربيةوالانكليزية ،

وكاتب انكليزي للاختزال هو « المستر هارفى » أحد الموظفين بحكومة فلسطين ، وتوفيق بك السويدي ليستعين به كلايتون في الشئون الخاصة بالعراق ، غير أن السويدي تأخر بجدة انتظارا لدوره في المفاوضات .

وقد استقبل الوفد عن ابن سعود الشيخ حافظ وهبة عند النزلة اليمانية وأعد له سيارتين ، ووصل بحرة ظهرا حيث نصبت السرادقات له ، ومثل كلايتون بين يدي السلطان فحياه وهنأه وهنأ من معه بسلامة الوصول ، واجتمع الوفد بابن سعود في المساء فقال المندوب المفوض : انه يعلن أن الحكومة البريطانية لا تزال محافظة على حيادها التام في المسألة الحجازية النجدية ، وأنه لا يريد البحث في شأن من شؤون النزاع ، وكل ما يريد هو الاتفاق على المسائل المعلقة بين نجد وشرق الاردن وبين نجد والعراق .

ودام المؤتمر خمسة وعشرين يوما من ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٤٤ هـ الى ١٥ ربيع الآخر سنة ١٣٤٤ ودارت فيه مناقشات كثيرة في الموضوعات التى كانت مدار البحث ، وكان يدير المفاوضات عن نجد سلطانها نفسه ومعه مستشاراه يوسف ياسين وحافظ وهبه ، والوفد كله من الجهة الانكليزية حتى انتهى دور البحث في المسائل المتعلقة بين نجد وشرق الاردن .

وفي صباح يوم الثلاثاء ٢ ربيع الآخر سنة ١٣٤٤هـ (٢٠ أكتوبر ١٩٢٥ م) قدم توفيق بك السويدي المنتدب عن حكومة العراق ليستعين به المندوب المفوض في معلومات عن آراء حكومته ، وكان توفيق أثناء مناقشاته وأبحاثه — كما تشهد حكومة السلطان عبد العزيز — مثال الاعتدال والنزاهة .

وقد أسفرت نتيجة تلك الابحاث والمناقشات عن وضع اتفاقيتين : سميت الاولى : « اتفاقية بحرة » تضمنت المواد التى اتفق عليها وأمضيت في

المسائل العراقية النجدية ووقعت في مخيم بحرة في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٤٤ هـ (١ نوفمبر ١٩٢٥ م) وسميت الثانية : « اتفاقية حداء » وهي التى بين شرق الاردن ونجد ، ووقعت في ١٥ ربيع الآخر سنة ١٣٤٤ هـ (٢ نوفمبر ١٩٢٥ م) ولم يبحث في هذه المفاوضات مسألة الحجاز .

وانتهى هذا المؤتمر بفوز عظيم لابن سعود ، وفي صباح الثلاثاء ١٦ ربيع الآخر سنة ١٣٤٤ هـ (٤ نوفمبر ١٩٢٥ م) غادر بحرة رجال البعثة الانكليزية يرافقهم الاستاذ الشيخ يوسف ياسين والشيخ حافظ وهبه الى النزلة اليمانية لوداعهم .

وهكذا يفوز ابن سعود في كل مجال وفي كل ميدان ، ويضيق على خصمه الخناق حتى يضطره الى الاستسلام .

الى قبرص

تولى الملك علي الامر وهو مدبر مشرف على الهاوية ، ولو كان في مكانه أشجع الشجعان وأمهر السياسيين وأعظم الحكام عبقرية ودهاء وكفاية لما كانت له الا هذه السبيل التى سلكها علي بن الحسين ، فقد تضافرت الحوادث والزمن عليه فلم يستطع أن يعمل أكثر مما عمل لتبييض وجهه ، فقد دافع عن فكرته حتى النفس الاخير ، ولو كان خصمه غير ابن سعود لكان في انتصاره عليه وجه من الوجوه ، أما وخصمه ابن سعود الغلاب المظفر ، أما وعلي امام خصم عبقري موهوب كفء له خصائصه التى لم يوهبها فهو مهزوم مهما طالت أيامه في الحكم .

والعجيبة عندى أن يستطيع الملك علي أن يقف أكثر من سنة محاربا وخزينته لا تجود عليه بما يريد ، ورجاله — وليسوا كلهم — لم يكونوا أمناء مخلصين ، وجنوده — الا بعضهم — كانوا مرتزقة يحاربون لحطام دنيا يصيبونه ، ومعداته الحربية ضئيلة ، والحوادث تترى ولا تمهله .

وكل ما مر يوم زادت الكوارث عليه وضعفت موارده ، وأهم مورد كان له أبوه ، وهو قد أجبر على الرحيل من العقبة — من الاراضي

الحجازية – إلى قبرص : الجزيرة النائية الموحشة الهادئة ، فمن أين يستمر في الحرب ؟!.

بل لم يستطع علي أن يقاوم الا بضعة شهور بعد أن فارق أبـوه العقبة ، ولكي نوفي التاريخ حقه يجب أن نذكر قصة رحيله ، فهـي مأساة من المآسي التاريخية وعظة من العظات البالغة لا تنسى .

كان الحسين في العقبة يجند الجيوش لابنه الملك علي ، ويمنحهم المال والزاد ، ورأى ابن سعود أن وجوده قريبا منه خطر عليه ، أو بقاءه على الاقل في العقبة يضر به حربيا ، فبعث جيشا من حائل لمهاجمتها ، فرأت انكلترا أن تخرجه منها لئلا يمتد لهيب الحرب إلى العقبة ومعان .

وفي يوم الخميس ٥ ذى القعدة ١٤٤٣ هـ (٢٨ مايو ١٩٢٥ م) تلقى جلالة الملك الحسين بلاغا مصدره المدرعة «كورن فلاور» الراسية بالعقبـة وهذا موجزه :

«إلى جلالة الملك الحسين من وكيل خارجية بريطانيا العظمى

تبلغت حكومة جلالة ملك بريطانيا أن سلطان نجد هيأ قوة لمهاجمـة العقبة وذلك لان حكومة جلالتكم بها ، ولان حكومة الحجاز جعلت معان والعقبة بحالة عسكرية ضد ابن سعود فهي تدعوكم إلى مغادرة العقبة لكي لا تكونوا سببا لحصول مشاكل جديدة بين بريطانيا وسلطان نجد ، وتصر بالحاح على وجوب مغادرتكم العقبة ، إذ لا يمكنها أن تسمح لكم بالبقاء أكثر من ثلاثة أسابيع» .

وكان هذا الانذار شديد الوقع على نفس الحسين ، فثار ثوره المهزوم الذى لا مفر له منها ، فما معنى هذه الملاحقة أينما ذهب ؟ ابن سعود ... ابن سعود ... هذا كل ما في دنيا الحسين بن علي ، انه يلاحقه حتى أنه

يعكر عليه صفو وحدته في معتزله ! فيالعثار الحظ وخيبة الامل ! حتى بريطانيا الحليفة تحسب لابن سعود حسابا ، ومن أجله تطلب اليه أن يغادر أرضا حجازية ؟ فأجاب الحسين جوابا شديد اللهجة وهذا ملخصه :

« انى منذ ابتداء النهضة العربية حتى هذه الساعة وأنا مخلص في ولائى لحكومة جلالة ملك بريطانيا ثابت على مبدئى اعتمادا على شرفها وعهودها ومواثيقها الرسمية التى قطعتها على نفسها بشأن محافظتها على حقوق العرب وتأمين الوحدة العربية والتصديق على استقلال العرب ومنحها الحرية للشعب العربي الذى اشترك مع حليفته جنبا إلى جنب ، وسفك دماء زهرة الشبيبة من أبنائه ، وفادى بالنفس والنفيس في سبيل الحصول على تلك الحرية الشريفة .

« انى واقوامى العرب حريصون أشد الحرص على تنفيذ أحكام تلك العهود والمواثيق التى كانت أساس النهضة العربية ، وانى فاديت بكل شيء وتخليت عن الملك وغادرت وطنى حبا في السلم ، وحقن الدماء وأتيت العقبة لابرهن للعالم أجمع بألا مطمح لي سوى سعادة أقوامى وبلادى ، فلن أقف عن مساعدة الحكومة الحجازية بمالى الخاص الذى ادخرته لمستقبلى المجهول ، لان من لا خير فيه لوطنه لا يرجى منه خير لحلفائه وأصدقائه .

« ثبتُّ على مبدئى ، وأخلصت في عملى ، وقمت بواجبى ، فما علي من غيرى اذا لم يف بوعده ولم يقم بانجاز عهده ، ونفذ مطامعه بقوة مدرعاته ورؤوس حرابه ! .

« ... ولا أغادر العقبة الا اذا بلغت رفع الانتداب ، والا فلن أبرحها ولو أدى الامر إلى هلاكى ، واذا شاءت بريطانيا فلتبعث بى إلى عالم المريخ ... الخ » .

وقد حاول أصدقاؤه وابنه الامير عبدالله على أن يقبل الانذار البريطاني

ولكنه ظل حتى الدقيقة الاخيرة متمسكا برأيه يرفض التسليم ولا يرغب عن المقاومة ، فهمس في أذنه أحد رجال شرق الاردن انه يجدر به ألا يكون سببا في نكبة شرق الاردن كما كان سببا في نكبة الحجاز ، لان مقاومته ستؤدى إلى ذلك حتما ، فأذعن وترك أمره للقضاء والقدر .

وفي يوم الثلاثاء ٢٤ ذى القعدة سنة ١٣٤٣ هـ (١٦ يونيو ١٩٢٥ م) أبلغه قائد المدرعة البريطانية أن يستعد للسفر إلى الجهة التى اختيرت له في يوم غد ، وقال له مشافهة : انه اذا أبى وقاوم فسيتخذ تدابير أخرى ، فطلب الحسين أن يقيم في حيفا أو يافا ، فأبرق القائد إلى لندن ، فجاءه الجواب بالرفض ، وأبلغ أن عليه أن يسافر إلى قبرص .

فقال الحسين : انه مستعد للسفر إلى «المريخ» اذا أرادت بريطانيا ، وما دامت تريد إرساله إلى قبرص فهو لا يعارض ، لان المسألة مسألة قوة ، وانما طلب إمهاله يومين يعد فيهما عدة السفر ، فلم يمكنه القائد البريطاني وأجبره على السفر يوم الخميس ، فطلب أن يركب باخرته «الرقمتين» لتقله إلى الحجاز فأبى وقال : انه لا عدول عن السفر بالبارجة دلهى المخصصة لركوبه .

وفي الوقت المعين استقبل الحسين استقبالا رسميا حافلا ، وخصص لحاشيته جناح خاص أفرد لهم .

أما من معه في هذه الرحلة فهم : جلالة الملكة حرمه والاميرات بناته ، واللواء جميل باشا الراوي ، وسكرتيره الخاص ، وطاهيه وخدمه وحاشيته ومؤذنه ! .

ولم يرض أن يتناول ما تقدمه البارجة من الطعام ، بل كان لا يأكل الا مما يقدمه طاهيه .

وبالرغم من هذه النكبات المترادفة العنيفة لم يفقد الحسين العظيم رجولته وقوته وثباته ، بل كان مثال الصبر والجلد بعد الحالة النفسية التي مرت به قبل أيام ، ولفظة «المريخ» تكفي للدلالة على الهياج والسخط والتبرم بمن في العالم الارضي ، لانه فجع في أحلامه كلها وفقد حقوقه كرجل وحريته كانسان .

بل لعل هواء البحر الجميل وصفاء السماء وهدوء الكون والطمأنينة في هذا الخلق الكبير خففت من غلوائه وحنقه ومنحته لحظات قنع فيها قلبه وعقله بأنه مسير لا مخير ، واستسلم لقضاء الله وقدره ، وبدا كالطود الاشم قوي الارادة يردد قول الامام الشافعي رضي الله عنه :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها

ورست الباخرة على ميناء السويس يوم الجمعة وأبلغ قائدها الحسين أنه تلقى تلغرافا من دار المندوب السامي بأن مندوبه السيد عبد الملك الخطيب قادم لمقابلته ، فسر كثيرا ، وأخذ ينتظره من قبيل المغرب حتى الساعة السادسة — أي إلى منتصف الليل — ثم مضى إلى غرفة نومه وأوصى حاشيته باكرام الضيوف .

وفي الساعة السادسة والنصف ليلا وصل الشيخ عبد الملك الخطيب ، والامير حبيب لطف الله واسكندر بك طراد وعبد الحميد الخطيب ، فاستقبلهم رجال البارجة وحاشية الملك استقبالا طيبا وباتوا ليلتهم فيها .

وقبيل الفجر أقلعت البارجة إلى القنال ، ونهض الملك للصلاة فقيل له : ان زائريه في بهو البارجة . فلما دخل عليهم اغرورقت أعين بعضهم بالدموع فقال الملك وبدا في لحظته هذه كالبحر اتساعا وكالطود رسوخا : هذا مقدر ، لا تيأسوا ،

مشيناها خطى كتبت علينـــا ومن كتبت عليه خطى مشاهـــا

وبينما كانت البارجة تجتاز قنال السويس جلس الملك وزواره يتحدثون فقال الحسين : « اني معترف بأني كنت مخطئا أجهل حقيقة الاوربيين ، وأشهد الله أنى لم أفعل ما فعلت الا عن حسن نية ، وانني لم أطلب الخلافة بل إن أناسا خدعوني وحملوني على قبولها » .

وأدب الملك حسين لزائريه مأدبة مسائية حضرها قائد البارجة ، وألقى كلمة ضافية أشاد فيها بالحسين ، وذكر أن اسمه في فم كل بريطاني كرجل عظيم نهض بالعرب وكحليف لبريطانيا ، وانه كان يود له أن ينقله على غير هذه الصوره ، ولكن للسياسة ظروفا لن تلبث طويـــلا ، وسيتغير الحال قريبا ، ثم ختم القائد البريطاني خطبته بقوله : ان هذه البارجة قد استقلها الملك جورج الخامس حينما سافر إلى الهند ، وهي التى بشرفها الحسين الآن .

وقد سئل قائد البارجة عن المدينة التى ينزل فيها الملك السابق ، فأجاب بأنه لا يعلم عنها شيئا ، وسيتلقى الاوامر الخاصة بذلك حينما يصل إلى قبرص ، ولا يبعد أن تكون «يكى شهر» لان بها كثيرا من المسلمين .

وبهذا المشهد الاخير يسدل الستار على مأساة الحسين ، وينتهى دوره من مرسح السياسة العربية ليبدأ ابن سعود في تمثيل روايته ذات الفصول العظيمة.

وهكذا انتهت خاتمة الحسين ـــ رحمه الله ـــ بعد الكفاح والجهاد ! .

المدينة المنورة

امر ابن سعود جنده الذى يحاصر المدينة المنورة تحت قيادة صالح بن عدل ووكيله ابراهيم النشمي ألا يدخل المدينة المنورة ولو فتحت أبوابها الا بعد استئذان القيادة السعودية العليا ، فبقيت محاصرة من قبل الجيش السعودي ، ثم أمر ابن عدل أن يجعل الحناكية مركزه ، فانتقل اليها مع الجنود البدو ، ولبث النشمي مع جنوده الحضر ليؤكد لاهل المدينة طيب نيته وسلامة مقصده ، الا أن قلم الدعاية في حكومة جدة أطار إلى العالم الاسلامي أن المدينة المنورة - بلد خير الانام ومنزل الوحي والقرآن والهدى ومثوى جثمان النبي وكثير من صحبه الكرام - أمست في خطر محدق من الوهابيين المتوحشين الذين يستهدفون بمدافعهم بيت الرسول (ﷺ) ومسجده الشريف والقبة الخضراء وجيران الرسول الكريم .

وأذاعت هذا الخبر شركة روتر للانباء في العالم ، ونقلت عنها الصحف الفرنسية وأمهات الصحف العالمية ، كما أن جريدة المقطم نشرت برقية من قائد الحامية بالمدينة المنورة يستغيث بالعالم الإسلامي [زاعما أن بلد الرسول الكريم مستهدف للخطر الجسيم ، وأن الوهابيين أخذوا يطلقون عليه وعلى القبة الخضراء

رصاصهم بلا انقطاع ، ولم يبالوا حرمة المدينة ولا قداستها ولا من بها عليه الصلاة والسلام .

فقلق المسلمون لهذه الاخبار التى وجدت من يروجها في مصر والشام والعراق والهند وإفريقية وفي كل بلاد الاسلام ، فانتشرت بينهم ، وكان لروتر في ذلك فضل كبير ، وضج الزعماء لهذا العمل الشنيع ، ولم يطق الملك فؤاد ملك مصر السكوت عندما سمع بهذا الحادث الجلل الـــذى لا يستطيع أن يصبر عليه مسلم « عادي » فكيف بمسلم كبير بل بملك ، فأبرق إلى ابن سعود في ١١ صفر سنة ١٣٤٤ ﻫ (٣ أغسطس ١٩٢٥ م) هذه البرقية :

«عظمة السلطان عبد العزيز سلطان نجد .

«ان الحرب القائمة حول المدينة المنورة قد أقلقت خواطر المسلمين قاطبة لما عساه يحدث عن تأثيرها في الاماكن النبوية المقدسة التى نجلها جميعا ، ونحافظ على آثارها الكريمة ، ولا يخفى على عظمتكم ما لهذه الاماكن من الحرمة التى توجب أن تكون بعيدة عن كل أذى رغم ما يقتضيه أي نزاع أو خلاف ، ولكن ما نعتقده في شديد غيرتكم الدينية لما يطمئن قلوبنا والمسلمين على صيانة الحرم النبوي الشريف وآثار السلف الصالح بالمدينة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وتسلم الملك فؤاد في ١٣ صفر سنة ١٣٤٤ ﻫ (١ سبتمبر ١٩٢٥ م) برقية من الملك علي هذا نصها :

«صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر المعظم

«أهدى جلالتكم الملوكية أعظم الشكر على غيرتكم الاسلامية الجديرة بذاتكم العالية ومقامكم السامي فيما رغبتم فيه من تنزه البقاع المقدسة أن

تكون ساحة قتال ، ولا يستكثر ذلك من سليل محمد علي الكبير الذى سبقت له خدمة هذه الديار المباركة من قبل في مثل هذه الكارثة نفسها مادة ومعنى .

« ونبرأ إلى الله أن يكون أحد منا — نحن أبناء الحرمين الشريفين — أراد القتال أو أخـــذ على الاستمرار فيه ، سواء ذلك في مكة المكرمة أو المدينة المنورة ، ونسجل على المتسبب مسئولية ما تهدم فيها من الآثار وما لا يزال يصيبها من أذى كجعل القبة الخضراء النبوية هدفا للرصاص وسائر قبب وقبور آل البيت بالبقيع ، وتخريب مسجد سيدنا حمزة وهدم ضريحه الشريف طبقا للاساس الذى قام عليه المذهب الوهابي المعلوم .

وبهذه المناسبة نؤكد لجلالتكم أننا قائمون بالواجب الديني والوطني من بذل النفس والنفيس في صيانة ما تبقى من تلك الآثار وترميم ما خرب منها حتى يتم اخراج المعتدى بحول الله وقوته من الوطن المقدس كله ، ونثق أن العالم الاسلامي يشد أزرنا في ذلك وفي مقدمته جلالتكم بصفتكم أكبر ملوك المسلمين وأعزهم غيرة على الله والدين ، أدام الله جلالتكم مؤيدين بالتوفيق والنصر» .

فقلق الملك فؤاد قلقا عظيما من أن تكون هذه المشاعر الدينية المقدسة هدفا لهؤلاء الغزاة ، وانتظر جواب برقيته إلى سلطان نجد بفارغ صبر فتلقاه في ١٦ صفر ١٣٤٤ (٤ سبتمبر ١٩٢٥) وهو هذا :

« حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم الملك فؤاد دامت معاليه .

« انى أشكركم من صميم فؤادى على غيرتكم الدينية ، وانى أقدر ما شرحتموه في برقيتكم حق قدره ، إن حرم المدينة كحرم مكة نفديـــه بأرواحنا وكل ما نملك ، وان ديننا يحمينا عن الاتيان بأي حدث في المدينة

المنورة ، وسنحافظ على آثار السلف ، وكل ما هو في المدينة مما يهم كل مسلم المحافظة عليه .

« العدو يحاول أن يشوه وجهة جهادنا بما يفتريه من الكذب والبهتان ، ويحاول أن ينال بالبهتان ما عجز فيه بالسنان ، ولكن الحق أبلج ، والله مؤيد دينه ، وآخذ بناصر أهله ولو كره المبطلون .

هذا وأرجو أن تقبلوا تحياتي واحتراماتي » .

وعندما كان ابن سعود في بحرة قدم اليه أحد المدنيين واسمه « مصطفى عبد العال » برسالة من كبار أهل المدينة وحكومتها يعرضون فيها تسليم المدينة إلى السلطان بشرط أن يؤمن أهلها وموظفيها وكل من بها ويؤمن أموالهم ، وبألا يتسلمها الا أحد أفراد آل سعود ، فأجاب بالقبول وأمر ابنه محمدا وكان في الرابعة عشرة من عمره ، وغادر مكة اليها في ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٤٤ يرافقه بعض خاصة ابيه وكبار آل سعود ، ولكن الحامية ابت التسليم لأنها كانت تنتظر المدد من جدة في الايام القريبة ، فما كان من الامير محمد الصغير في سنه الكبير بعقله وشجاعته الا أن يشدد الحصار عليها ليضطر الحامية إلى التسليم .

وأهل هلال جمادى الاولى فلم يبق عند الحامية الا شيء يسير من الزاد فأبرقت في اليوم الخامس من هذا الشهر إلى الملك علي برقية تقول له فيها : « الذى يهمنا الأرزاق للجند ، وعدتمونا بارسال الدراهم المتيسرة بالطيارة ، إلى الآن ما رأينا اثراً لها ، دبروا وارسلوا لنا دراهم ولو ببيع احدى البواخر فترون منا ما يسركم » .

وارسلت في الثالث عشر من جمادى الاولى إلى الملك علي أيضا برقية هذا نصها : « انقضى الامر ولم يبق في اليد حيلة ، الجنود ما عندهم

أرزاق الا لثلاثة أيام ، اذا لم تصل الطيارة غدا الظهر سنفاوض العدو» .

فأجيب قائد الحامية ومن معه في اليوم نفسه بأن الطائرة ستأتيهم غدا، فأبرقوا إلى الملك علي في ١٤ جمادى الاولى سنة ١٣٤٤ بأن من الواجب مجيء الطائرة ففي ذلك فوق مهمتها الاساسية ارهاب للعدو وتقوية لمعنوية الجيش! فتلقت الحامية الجواب بأن ارسال الطائرة قبل عشرة أيام متعذر لعدم وجود البنزين .

ومرت الايام الثلاثة فنفدت مؤونة الحامية ومع ذلك صبر الجنود ثلاثة أيام أخرى ، ثم تلقى الملك علي برقية من الحامية ووكيل الامارة في ١٧ جمادى الاولى ١٣٤٤ وفيها : « نريد تأمين معيشة الجند ، منذ ثلاثة أيام حرم الطعام ، ان اليوم هو آخر عهدنا ، دبرونا اليوم إلى المساء والا نسلم عليكم » .

فأجابهم الملك علي يطلب اليهم الصبر ، ولكنهم إلى متى يصبرون ، ولم يجد قائد الحامية عبد المجيد ومدير الخط الحديدي « عزت » الا أن يفاوضا الاعداء ، فما في اليد حيلة وقد نفد الزاد ، فبعثاهما ورئيس ديوان الادارة عبد الله عمير صباح الجمعة ١٨ جمادى الاولى سنة ١٣٤٤ إلى الامير محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن كتابا يطلبون منه أن يجيبهم إلى مقابلة اثنين منهم ، فبعث اليهم بالموافقة وأرسل قسما من الخيالة لاستقبال من يأتيه ، ومثل عبد المجيد وعزت بين يدي الامير محمد فاحتفى بهما احتفاء كريما واستقبلهما استقبالا طيبا ، وفاوضاه في التسليم على شرط اعطاء الامان لجميع الجنود والضباط والاهلين واعلان عفو عام عن كل أحد بالمدينة ، وقبل الامير محمد بن عبد العزيز ما عرضاه عليه .

وفي صباح السبت ١٩ جمادى الاولى سنة ١٣٤٤ هـ (٥ ديسمبر ١٩٢٥) سلمت المدينة المنورة بعد حصار دام عشرة أشهر ، وفتحت أبوابها فدخل

الامير ناصر بن سعود والشيخ عبدالله الفضل بقسم من الجنود مع عزت وتسلموا قلعة سلع وما فيها من ذخائر وعتاد ، ووضعت فيها قوة عسكرية سعودية ، ثم تسلموا دور الحكومة والمراكز العسكرية والملكية .

وفي صباح الاحد دخلها الامير محمد ابن السلطان عبد العزيز بحاشيته وجنوده تخفق عليهم الرايات المظفرة ، وسار الامير حين دخوله المدينة إلى مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فصلى فيه ثم استقبل قبره الشريف فسلم عليه ثم على صاحبيه أبى بكر وعمر ، ثم غادر المسجد إلى أهل المدينة واستقبلهم ووزع على الفقراء ألف كيس من الارز وألفي كيس من الدقيق ، وهي التى بعثها معه أبوه لتوزيعها عليهم تخفيفا من الكرب الذى هم فيه .

وفي المساء اجتمع الامير محمد بأهل المدينة وبالضباط والجنود والموظفين في حكومة الملك علي ، وألقى عليهم خطبة رائعة مع حداثة سنه قوبلت بالارتياح.

قال لهم محمد بن عبد العزيز : « أيها الاخوة المؤمنون ، نحمد الله حمدا كثيرا على ما منّ علينا جميعا بجمع الشمل ، فنحن وأنتم إخوة ، ولكن الشيطان نزغ بيننا فعادى بعضنا بعضا ، واليوم يجمعنا الله عز وجل على المحبة والمودة .

« إخواني ، أنقل اليكم تحية والدى السلطان عبد العزيز ، وعندما أنعم الله عليه بدخول مكة نذر نفسه ليكون خادما لحرم الله ، واليوم أكرمه الله وأكرمنا جميعا بدخول المدينة المنورة فصار السلطان عبد العزيز خادما لحرم رسوله (صلى الله عليه وسلم) منذ اليوم ، وبذلك صار خادم الحرمين وسكانهما .

« وتعلمون أننا لم نكن مسئولين عما حل بكم أيها الاخوة من الضيق ،

ويعلم الله أن ما حل بكم كان يؤذى السلطان ، وقد بعث لكم هذه الأرزاق لتوزع على أهل المدينة المنورة ، وفي خلال بضعة أيام ستصل النجدة الثانية من الارزاق هدية لكم من السلطان .

والآن ، أعاهدكم عن السلطان أننا نحن وأنتم إخوة ، فليضع كل منا يده في يد أخيه لنبني بلدنا ، وأشكركم جميعا فردا فردا على حفاوتكم ، وجزاكم الله خيرا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الحج إلى بيت الله

دان الحجاز كله لابن سعود ، ولم يبق منه غير جدة والمدينة المنورة وينبع وبعض قرى في شمال الحجاز ، ودان ساحل البحر الاحمر بمدنه لابن سعود إلا ميناء ينبع وميناء الحجاز الأكبر « جدة » .

وجدة الميناء الذى ترسو عليه سفن الحجاج وبواخر البضائع ، وان وجوده بيد الملك علي بن الحسين يمنع ورود الحجاج الذين كانوا يبدأون في الورود من شهر رجب ، وها هوذا أخذ يمضى ولا خبر عن الحجاج ، وإن دولهم لا تستطيع أن تجازف بإرسالهم إلى الحجاز والحرب مشتعلة فيه .

وإذا كان ميناء جدة بيد الملك علي فان هناك ميناء رابغ بيد السلطان عبد العزيز بن سعود ، وفي وسعه أن يستقبل بواخر الحجاج .

واقترح الامير فيصل بن عبد العزيز أن يحل ميناء رابغ محل ميناء جدة ، ورابغ يقع في منتصف الطريق بين المدينتين المقدستين ، ولقي اقتراحه القبول ، فأعد فيصل نداء للعالم الاسلامي باسم والده ، وطبع منه بمطبعة الحكومة بمكة المكرمة مئات الألوف من النسخ وزعها على جميع أقطار العالم الاسلامي .

ولم يكتف فيصل بهذا بل اقترح على والده إرسال بعض المطوفين — وهؤلاء من أهل مكة — إلى أقطار المسلمين في آسيا وافريقيا ، يدعون للحج ، ويبشرون المسلمين بأن الطريق إليه مفتوح وآمن .

ووُكِل إلى الامير فيصل الاهتمام بأمر حج المسلمين ما دام هو صاحب الاقتراح ، وأصدر أمره بإعداد رابغ لاستقبال سفن الحجاج والبضائع ، ومهد الطريق بين المدينتين ، ووضع فيه مراكز لتقديم الخدمات لوفود بيت الله الحرام .

وكان طريق الحجاج بين مكة والمدينة ، وبين مكة وعرفات مخوفا ، فالبدو يقطعونه ، ويقتلون الحجاج ، وينهبون القوافل ، وكان العائدون من الحج إلى أوطانهم يعدون مولودين ، فما كان الحاج ينجو في الطريق من النهب إذا نجا من القتل .

وفي موسم حج سنة ١٣٤٢ تعرض الحجاج في الطريق ما بين مكة وجدة والمدينة لأعمال القتل والسرقة والنهب والسلب من قبل البدو الذين ينزلون على امتداد الطريق ، وكانوا يشكلون قوة حربية لم تستطع دولة الخلافة أن تقضي عليها ، وكذلك دولة الحسين ، وكان هؤلاء البدو يسيطرون على الطريق ، ويتحكمون في جميع القوافل التى تسلكه ، ويفرضون عليها الإتاوات يأخذونها قسرا تحت سمع الحكومات وبصرها دون أن تستطيع مقاومتهم ، وما أكثر ما نشب بينهم وبين قوافل أمراء الحجاج قتال رهيب يسفر عن قتلى من وفود بيت الله الحرام .

وقدوم الحجاج في ظروف الحرب محفوف بأشد الأخطار أكثر من أيام السلم ، وإذا كانوا في السلم معرضين للقتل والسلب والأذى فهم في ظروف الحرب أكثر تعرضا .

ولم يغب عن فيصل ذلك ، فأعدّ حملات قوية وجهها إلى طرق

الحجاج ليحميهم من البغاة المجرمين القتلة ويطهرها منهم ، وأنذرهم بالقتل ، وأقسم بربه أن كل من يتعرض حاجا ولو بأيسر ضروب الأذى فانه سيعرض نفسه لأشد العقاب ، أما اذا تجمهر البغاة فان القتل جزاؤهم العدل .

وظن البدو أن وعيد فيصل مثل وعيد الحكام السابقين فاستخفوا بإنذاره وتعرضوا لبعض رجال حملاته بالتحرش ثم القتال فاذا هم لا يجدون غير النار والحديد ، وقمعوهم قمعا ، فأدركوا أن الوعيد حق ، وتركوا الطريق لحماية السعوديين ، وصار آمنا .

وفي أول يوم من شهر شعبان سنة ١٣٤٣ هـ وزع النداء على أوسع نطاق في العالم الاسلامي كله ، وتعهدت فيه حكومة ابن سعود بحماية الحجاج ، وتحملت مسئولية ذلك أمام الرأي العام العالمي ، وقد نشرت نصه صحف بلدان المسلمين .

وأما المطوفون الذين سافروا إلى القارة الهندية وجاوا وافغانستان وايران وأقطار أفريقيا فقد حملوا معهم عشرات الآلاف من النسخ ، كما أرسلت بالبريد إلى الحجاج من قِبَل مطوفيهم .

وقام المطوفون بنشاط واسع ، فقد ألصق النداء على أبواب الفنادق في بلدان المسلمين وواجهات المحال التجارية وأبواب المساجد وجدرانها وفي الطرقات بمختلف اللغات ، وها هوذا نص النداء :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود إلى كافة اخواننا المسلمين في اقاصي الارض ودانيها :

نحمد اليكم الله الذى لا إلٓه إلا هو ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ونستفتح بالذى هو خير .

وبعد ؛ فقد من الله علينا ، وأمدنا بعنايته في دخول هذه البلاد المقدسة ، وأفضل علينا ومكننا من طرد الحسين وأولاده من هذه الديار المطهرة ، وبذلك زالت والحمد لله دولة الظلم والجبروت ، وحلت الشريعة السمحة محل الاغراض والاهواء ، وتوزع العدل بين الناس ، سواء فى ذلك الصغير والكبير ، والشريف والوضيع ، فساد النظام فى البلد المطهر وفى سائر انحاء البلاد ، وعمت السكينة والطمأنينة سائر الارجاء بصورة لم تعهد من قبل ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ وهذا مصداق لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي امر الله تبارك وتعالى » .

هذه هي الحقيقة الراهنة فى البلاد ، ولكن الحسين واولاده واشياعهم قعدوا فى الخارج يختلقون الاراجيف ويشيعون الاكاذيب عن الموقف الحربي فى الحجاز ، وعما يمكن ان يؤول اليه موسم الحج فى هذا العام تضليلا للأفكار وتشويها للحقائق .

ولما كان من أجلّ مقاصدنا خدمة الاسلام والعالم الاسلامي ، وهو المبدأ الذى اتخذناه عند الشروع فى هذه القضية العظيمة الشأن رأيت الواجب يدعونى لأبين للمسلمين عامة ما يأتي :

١ ــ ان جندنا قد حصر علي بن الحسين وجنده وقواه فى بلدة جدة التى أحاطها بالاسلاك والحصون ، وضيق عليه تضييقا عظيما ، وسنخرجه منها فى وقت قريب ان شاء الله .

٢ ــ اننا نرحب ونبتهج بقدوم وفود حجاج بيت الله الحرام من المسلمين كافة فى موسم هذه السنة ، ونتكفل بحول الله بتأمين راحتهم والمحافظة على جميع

حقوقهم ، وتسهيل امر سفرهم إلى مكة المكرمة من احد الموانىء التى ينزلون اليها وهي : رابغ أو الليث او القنفذة ، وقد أحكم فيها النظام ، واستتب الامن استتباباً تاماً منذ دخلتها جيوشنا ، وسنتخذ من التدابير فى هذه المراكز جميع الوسائل التى تكفل تأمين راحة الحجاج ان شاء الله تعالى .

٣ ـ أعلن إخواننا المسلمين كافة انه لم يبق أثر للمشاكل والعراقيل التى كان يضعها الحسين ضد المشاريع الخيرية أو الاقتصادية .

وان الحكومة المحلية مستعدة للقيام بجميع التسهيلات الممكنة لتنشيط من يريد القيام بهذه المشاريع الخيرية والاقتصادية .

هذا ما أردنا إعلانه للناس كافة ، ليحيط الجميع علماً به ، سائلاً الله ان يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه ، ويهدينا واياكم إلى سبيل الرشاد ، انه ولي التوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

وفرح المسلمون من هذا النداء ، وأقبلت بواخرهم إلى ميناء رابغ ، فاستقبلهم موظفو الحكومة السعودية بحفاوة وتكريم ، وكانت عشرات الألوف من الجمال تنتظرهم لتنقلهم إلى المدينة ثم إلى مكة المكرمة ، ووجدوا فى حلهم وترحالهم الأمن والعناية التامة .

وكان مئات منهم ممن سبق لهم الحج فى العهود الماضية ، وعجبوا مما شاهدوا ، فالأمن مستتب فى كل طريق سلكوه ، ولم يتعرض حاج لأي أذى أو تهديد ، وزاد عجبهم عندما علموا أن الحرب ما تزال قائمة بين الهاشميين والسعوديين ، ومع ذلك لم يشعروا بها .

وقاد ابن سعود نفسه وأبناؤه وإخوته الحجاج إلى عرفات ، ولم يتميز ابن سعود عن الحجاج فى شيء إلا فى احتمال تبعات راحتهم ، والتفرغ لخدمتهم .

وكان بين الحجاج علماء ورجال فكر ، فقابلوه فى « منى » ثم فى مكة المكرمة وتحدثوا إليه وتحدث إليهم ، فغادروا مجالسه المفتوحة وهم شديدو الحب والإعجاب بشخصيته الفذة ، ولم يجدوا شيئا مما سمعوا عنه مما نشرته الدعايات المضللة ، بل وجدوا النقيض ، وجدوا حاكما صالحا عادلا رشيدا متواضعا ، ومسلما حقا .

وعندما عرض عليهم معتقده وجدوه معتقدهم ، وعندما كان يذكر فى حديثه أو خطبه اسم الرسول الكريم مسبوقاً بكلمة «سيدنا» ومختوما بكلمة صلى الله عليه وسلم أو عليه صلوات الله وسلامه أدركوا ما قيل عنه إنما هو حديث مفترى .

لقد زعمت الدعايات أن ابن سعود وهابي خارج على الاسلام ، وأنه يبغض الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك لا يصلى عليه ، وها هم أولاء يرونه على غير الصورة المنقولة إليهم ، إنه مسلم مؤمن حق ، يحب رسول الله ويصلى عليه .

وعاد الحجاج إلى أوطانهم وهم يحملون أجمل الذكر ، ولولا أن مواطنيهم ثقون بكلامهم لما صدقوا ما يسمعون ، لقد سمعوا أن الطريق مأمون ، ولم يتعرض يحاج واحد لأذى ، وأن الصحراء آمن من المدن ، وان البدو الذين كانوا يفسدون فى الأرض ويتناولون حجاج بيت الله الحرام بالقتل والنهب ومختلف ضروب الأذى قد قطع ابن سعود دابرهم .

ولأول مرة بعد عشرات السنين يؤدى وفود بيت الله الحرام فريضة الحج آمنين مطمئنين ، ويعودون إلى أوطانهم سالمين غانمين معززين مكرمين بفضل الله عز وجل ثم بفضل ابن سعود .

علي يتنازل

أصبح ابن سعود سيد الموقف كله ، وبيده معظم الأراضى الحجازية ، ولم يبق بيد الملك علي غير جدة وبعض قرى يضاف إليها فى ينبع ، أما المدينة المنورة فقد سلمت ، وكل ما عدا جدة وينبع وبعض قراها بيد خصمه ، فالحرمان تحت يده ، والطائف والكثير من الموانىء مثل رابغ والليث والقنفذة في قبضته ، والذخائر كثيرة ، والجنود كذلك ، بل ما زالت الألوية تقدم من كل جهة كل يوم فيزداد عدد الجند ، والمؤونة تقطع السبل ليل نهار من نجد ؛ والاحساء ؛ وعسير ؛ وبوادى الحجاز إلى مكة والمدينة والطائف ، والمال ينفق — عند ابن سعود — بسخاء .

أما علي — فكما قلنا عنه غير مرة والحوادث شاهدة — فغير ذلك ، إدارة الحرب والكفاح عنده معطلة ، والناس حوله قليل ، والحوادث التى تجبره على الانهيـــار تتراكض إليه سراعا ، وأهل جدة سئموا الحرب والحصار والهلاك ، فالأغنياء منهم فى قلق ، لأن الحالة المشهودة تنذر بخطر وبيل ، والتجارة راكدة ، والأعمـــال واقفة ، وفوق هذا يخشون ثورة الفقراء الذين أمسوا جياعا لا يجدون لقمة العيش إلا بشق الأنفس .

أما الجند ففى حالة سيئة ، لا مال فيطمعون فيه ويحاربون من أجل الحصول

عليه ، ولا فكرة يخلصون لها فلا يبالون الموت والكدح الناصب ، ولم يبق دافـع يسوقهم إلى الجلاد والصبر ، فهم قد ملوا وسئموا وثاروا ، ورحل الغرباء إلى أوطانهم ، وبقي الموظفون المكدودون ينتظرون ساعة الخلاص .

والفرص تواتى ابن سعود ولا تلوح لعلي واحدة منها فينتهزها ، بل تفر الفرص عن طريقه حتى انهارت العزائم وانتحرت الآمال ، ولم يبق فى النجاح رجاء ، بل اليأس تمطى عليه وجثم ، واسودّ نهار الملك علي الوديع الطيب المسالم من العمل الشاق والتفكير المضنى والقلق المدمر ، وتكاثـّت عليه المصائب الحاطمة فلا الليل ليل ولا النهار نهار ، وأمسى وجهه الباسم المتألق كئيبا حزينا غامت عليه سحابة سوداء فتبدل ذلك الأشراق والحيوية والوداعة والمسرة مذ رانت عليها الويلات والمصائب والاحزان ، وضاقت به الدنيا من الهزائم والخيانات .

وأخذ يفكر في الوسيلة التى يخلص بها شعبه من الجوع ونفسه من الآلام ، وفى الطريق التى يسلكها ليفر من دنيا الواقع الكارب البغيض إلى دنيا وادعة لا يسمع فيها أزيز رصاص ولا قعقعة سلاح ولا لعلعة مدفع ، وبذلك يضع حدا للكوارث الحاطمة ، ولم يجد حلا الا البعد عن الملك والاخلاد إلى السكون ، فما فى النصر بعد ما صار من أمره وأمر دولته ما صار أمل يمد قلبه ، فالنجاة بالبقية من الحياة غنيمة يتمناها اليائس المخفق المهزوم .

وقد شعر ابن سعود بكل هذا ووصل اليه أن فريقا من رجال علي تآمروا على إحداث ما لا تحمد عقباه فى جدة ، بل وصلت اليه أنباء شتى تنذر بالويل والحرب للسكان المدنيين بها ، فجمع رجال جيشه وأخبرهم بأنه قرر الهجوم على جدة وفتحها عنوة مهما كلفه الامر لينقذها مما تستهدف له وهي غافلة ، فأمر يوم الثلاثاء ٢٩ جمادى الاولى ١٣٤٤ هـ القوة الكبيرة القادمة من نجد والاحساء أن تتحرك إلى الرغامة ، وأمر أخاه عبدالله بن عبد الرحمن وابنه فيصلا أن يكونا مستعدين للعمل ، ورتب الجنود وهيأ الاسباب .

أما علي فقد صمم على وضع حد لهذه الحرب التي أخفق فيها وأضنته وأضنت الشعب ، ومضى مساء يوم الثلاثاء ٢٩ جمادى الاولى إلى دار الاعتماد البريطانية يعرض على المعتمد أن يتوسط فى هذا الامر الخطير ، فقد سئم الحرب ورغب فى حقن الدماء وأخذ يتفاوض مع المعتمد وعرض جلالته عليه شروط التسليم ، فأبرق المعتمد إلى حكومته يستأذنها فى الوساطة فأذنت له .

وفى ظهر يوم الاربعاء ٣٠ جمادى الاولى ١٣٤٤ خرجت سيارتان من مكانين مختلفين : احداهما من جدة ، والاخرى من مكة لامرين مختلفين ، تلك تحمل علم السلام ، وهذه راية الحرب ، أما السيارة التي خرجت من مكة فهي سيارة ابن سعود الخاصة أقلته إلى جبهة الحرب ليقود المعارك بنفسه اذ قرر الهجوم على جدة يوم الجمعة ، وبينا هو فى الطريق عند بحرة رأى على بعد سيارة قادمة من جـدة تمشي الهوينا ويخفق عليها فى الهواء علم بريطانيا ، ومن الجانب الايسر للسيارة يد ممدودة تحمل علما صغيرا أبيض ، ووقفت كلتا السيارتين فنزل من إحداهما أحد موظفى دار الاعتماد البريطانية واتجه إلى السلطان وحياه ، وكان هذا الموظف هو « منشى إحسان الله » وقدم له كتابا هذا نصه :

حضرة صاحب العظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود سلطان نجد .

بعد الاحترام ، مراعاة للانسانية ولاجل تسهيل عودة السلام والرفاهية للحجاز أكون مسرورا اذا تفضلتم بالموافقة على مقابلتي بالرغامة غدا يوم الخميس قبل الظهر أو بعد ذلك بأسرع ما يمكن ، هذا وتفضلوا بقبول وافر التحية وعظيم الاحترام» .

نائب معتمد وقنصل بريطانيا العظمى
وكيل قنصل
جوردن

وأجابه السلطان عبد العزيز بما يأتي :

«الرغامة فى ٣٠ جمادى الاولى ١٣٤٤

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إلى سعادة المعتمد البريطاني المستر جوردن المفخم .

تحية وسلاما : أتشرف بأن أخبر سعادتكم بأنى تناولت كتابكم المؤرخ فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٢٥ وفهمت ما تضمنه ، حـالا حضرنا «العرضى» لمقابلـة سعادتكم فى المحل الذى يخبركم عنه المنشى احسان الله ، هذا وتقبلوا فائـق احتراماتى» .

(الختم السلطاني)
عبد العزيز السعود

وفى الساعة الرابعة صباحا (بالتوقيت العربي) من يوم الخميس غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٤٤ هـ وصل المعتمد البريطاني إلى مقر ابن سعود وقال له : إن الحكومة البريطانية لا تزال على موقفها الحيادي فى قضية الحجاز ، ولكن ؛ بالنظر لما عليه الموقف الحاضر فى جدة، ولمعرفتى بمحبتكم للسلم وراحة المسلمين وحقن دمائهم ودماء الأجانب تقدمت اليكم بناء على طلب الشريف علي وحكومته فى التسليم، وان توسطى فى تقديم هذه الشروط لغاية إنسانية بحته » .

فأجاب ابن سعود بأنه يحب السلام ، ويود ذلك الا أنه لا يستطيع القبول الا بعد أن يطلع على الشروط ، فإن كانت موافقة له رضي بها وأجرى ما يتفق عليه ، فأخرج المعتمد الشروط وعرضها على ابن سعود ، فوافق عليها بعد تعديل طفيف .

١ ـ بالنظر لتنازل الملك علي ومبارحته الحجاز وتسليمه بلدة جدة يضمن السلطان عبد العزيز لكل من الموظفين الملكيين والعسكريين والأشراف وأهالى جدة

عموماً والعرب السكان والقبائل وعائلاتهم سلامتهم الشخصية وسلامة أموالهم .

٢ – يتعهد الملك علي أن يسلم فى الحال جميع أسرى الحرب الموجودين لديه فى جدة .

٣ – يتعهد السلطان عبد العزيز بأن يمنح العفو العام لكل المذكورين اعلاه .

٤ – يجب على جميع الضباط والعساكر ان يسلموا فى الحال إلى السلطان عبد العزيز بجميع اسلحتهم من بنادق ورشاشات ومدافع وطيارات وخلافها وجميع المهمات الحربية .

٥ – يتعهد الملك علي وجميع الضباط والعساكر ألا يخربوا أو يتصرفوا فى أي شيء من المهمات والاسلحة الحربية .

٦ – يتعهد السلطان عبد العزيز بأن يرسل كافة الضباط والعساكر الذين يرغبون فى العودة إلى أوطانهم ، ويتعهد باعطائهم المصاريف اللازمة لسفرهم .

٧ – يتعهد السلطان عبد العزيز بأن يوزع بنسبة معتدلة على كافة الضباط والعساكر الموجودين فى جدة خمسة آلاف جنيه .

٨ – يتعهد السلطان عبد العزيز بأن يبقي جميع موظفى الحكومة الملكيين فى مراكزهم من الذين يجد فيهم الكفاءة فى تأدية واجباتهم .

٩ – يتعهد الملك عبد العزيز بأن يسمح للملك علي بأن يأخذ معه أمتعته الشخصية التى فى حوزته بما فى ذلك سيارته وسجاجيده وخيوله .

١٠ – يتعهد السلطان عبد العزيز بأن يبقي لعائلة الحسين جميع ممتلكاتهم الشخصية فى الحجاز بشرط أن تكون موروثة فعلاً ، ولا تشمل على الاملاك

الثابتة المحولة من الاوقاف بمعرفة الحسين إلى شخصه ، ولا على المباني التي يكون الحسين قد بناها في أثناء ملكه بالحجاز .

١١ ـ يتعهد الملك علي ان يبرح الحجاز قبل يوم الثلاثاء القادم مساء .

١٢ ـ جميع البواخر التي في ملك الحجاز وهي : الطويل ورشدى والرقمتين ورضوى تصير ملكاً للسلطان عبد العزيز ، ولكنه يصرح ان لزم الامر للباخـرة الرقمتين أن تستخدم في نقل الامتعة الشخصية للملك علي ثم تعود .

١٣ ـ يتعهد الملك علي ورجاله وسكان جدة بألا يخربوا أو يتصرفوا في أي شي من أملاك الحكومة مثل المنشآت والشبابيك وخلافها .

١٤ ـ يتعهد السلطان عبد العزيز ان يمنح جميع السكان والضباط والعساكر الموجودين في ينبع جميع الحقوق والامتيازات المذكورة بعاليه إلا ما يختص بتوزيع النقود .

١٥ ـ يتعهد السلطان عبد العزيز ان يمنح العفو للاشخاص المذكورة اسماؤهم ادناه ايضا ضمن العفو العام وهم : عبد الوهاب ومحسن وبكرى أبناء يحيي قزاز ، وعبد الحي بن عابد قزاز ، واحمد وصالح أبناء عبد الرحمن قزاز ، واسماعيل بن يحيي قزاز ، والشيخ محمد علي صالح بتاوى واخوته إبراهيم وعبد الرحمن بتاوى أبناء محمد علي صالح بتاوى وأبناؤهم وأبناء عمهم حسن وزين بتاوى ، وأبناء محمد نور ، والشيخ يوسف خشيرم ، والشيخ عباس ولد الشيخ يوسف خشيرم ، والشيخ ياسين بسيوني ، والسيد أحمد السقاف ، وعوائل وأموال جميع المذكورين آنفاً .

١٦ ـ اذا خالف الملك علي أو رجاله في حال من الاحوال أو قصر في تنفيذ أي مادة من المواد المذكورة بعاليه فان السلطان عبد العزيز لا يعتبر نفسه في تلك الحالة مسؤولاً عن تأدية ما عليه في هذه الاتفاقية .

١٧ - يتعهد الطرفان السلطان عبد العزيز والملك علي ان يكفا عن أية حركة عدائية أثناء هذه المفاوضات .

الخميس : فى أول جمادى الثانية سنة ١٣٤٤

١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥

وفى عصر يوم الخميس غرة جمادى الآخرة ١٣٤٤ أمضى السلطان ابن سعود هذه الاتفاقية ، وفى الساعة السادسة ليلا من هذا المساء وقع عليها الملك علي واعتبرت نافذة من ذلك الوقت .

وبذلك هدأ الحال ومضى يوم الجمعة والسبت والاحد فى هدوء واطمئنان ، وأخذ الجنود والضباط فيها يستعدون للتسليم ، وفى الساعة الرابعة من صباح الاحد ٤ جمادى الآخرة ١٣٤٤ أقل الشريف علي بن الحسين زورق بخاري إلى البارجة البريطانية (كورن فلاور) التى ستقله إلى عدن فالعراق ، ثم لحق به الشريف شاكر وكاتبه عبدالله رشيد وبعض خدمه ولبث بها حتى يحين موعد الرحيل .

وقبيل أن يغادر الشريف علي رصيف ميناء جدة بدقائق وزع منشورا على الشعب يذكر فيه اخلاصه وجهاده وحياته منذ قدم إلى هذه البلاد حتى اللحظة التى يغادرها فيها ويودعه وداعا حارا .

وفى مساء الاحد عاد المعتمد البريطاني إلى الرغامة وأخبر عظمة السلطان أن الشريف عليا قد أقام بالبارجة البريطانية وأنه قرر السفر إلى عدن ومنها إلى العراق .

وفى صباح الاثنين قدم إلى مقر ابن سعود المعتمد البريطاني ومعه رئيس الحكومة المؤقتة القائمقام الشيخ عبدالله زينل على رضا ورئيس القوة العسكرية الضابط صادق بك وقدمهما إلى السلطان عبد العزيز فكان مجلسه حافلا بالضيوف ورجال الخاصة .

وبعد أن استقر بهم المقام قال المعتمد البريطاني : ان المهمة الانسانية التي سعى لها وهي التوسط فى حقن الدماء قد انتهت ، وانه يقدم إلى السلطان بصورة رسمية رئيس الملكية ورئيس العسكرية ليكونا مسئولين أمامه ، فشكره ابن سعـــود وأثنى على عمله وجهوده فى سبيل السلام .

ثم رجع المعتمد البريطاني «جوردن» وبقي الرئيسان يتذاكران مع ابن سعود فى الترتيب الذى يرى من أجل ضبط ممتلكات الحكومة والاشياء التابعة لها .

ومضى يوم الاثنين فى استقبال الضيوف والمهنئين ووفود جدة القادمين لتهنئة السلطان وفيهم الشيخ محمد نصيف والشيخ قاسم زينل ورجال ديوان الملك علي وكبار موظفى حكومته .

وفى صباح يوم الثلاثاء ٦ جمادى الآخرة أمر ابن سعود الاساتذة يوسف ياسين وخالد بك الحكيم وحسن بك وفقى وعبد العزيز عتيقى بدخول جدة وتسلم المهمات الحربية والعسكرية ، وترتيب انفاذ الاتفاقية التى وضعت من أجل الجنود وضباطهم ، والنظر فى الحالة العامة ، فتوجهوا بسيارة السلطان ، ودخلوا جدة فى الساعة الثالثة والنصف ، وفى هذه الساعة كانت البارجة التى تقل الملك عليا تتهيأ للرحيل ، وقد ذهب لتوديعه قناصل الدول وبعض الوجهاء ، وفى الساعة الرابعة كانت البارجة تغادر مياه جدة .

وفى صباح يوم الاربعاء ٧ جمادى الآخرة غادر الامير عبدالله بن عبد الرحمن (شقيق السلطان) المقر العالى إلى الجبهة الحربية بوصفه قائدها للاستعداد عند الكندرة بقسم من جيشه وبالخيالة تمهيدا لاستقبال أخيه السلطان عند دخول جدة ، وكان قد أعد داخل الاسلاك الشائكة سرادق فخم كبير للاستقبال .

وفى الساعة الرابعة كانت سيارة ابن سعود قرب أسلاك جدة ، فنزل منها وامتطى جواده حتى اذا دنا من السرادق ترجل للمحتفين به ، وما كاد يقف عند

مدخل السرادق حتى رفرف العلم السعودي ، وبدأت المدافع باطلاق قذائفها — قذائف الفرح لا قذائف الموت — ايذانا بقدومه ، ولما اطمأن به المكان المعد له فى صدر السرادق قدم اليه «القائمقام» الشيخ عبدالله على رضا قناصل دول بريطانيا وروسيا ومصر وايران وايطاليا وفرنسا وهولندا ، كما قدم اليه مندوبى الشركات الاجنبية بجدة ، ثم تقدم قنصل ايطاليا السنيور فارس والقى كلمة التهنئة باللغة العربية التى يجيدها .

فأجاب ابن سعود بأنه لم يبطىء فى الاعمال الحربية الا انتظارا لهذه النتائج السلمية ، وانه يشكر سعادة المعتمد البريطاني ويعرب عن سروره لحضرات القناصل جميعا على الرغبة التى أيدوها بموقفهم الحيادي فى هذه الحرب التى انتهت بسلام ، ثم تكلم القائمقام وشكر قناصل الدول لمساعدتهم له .

ثم قدم السلطان أخاه عبدالله إلى القناصل واعتذر بأن ابنه فيصلا تأخر فى المقر لبعض تدابير عسكرية .

ثم انصرف الحاضرون واخلوا المكان للضباط العسكريين الذين قدموا للسلام عليه ، فنهض لهم واستقبلهم بلطف وبشاشة ، ثم تقدم علماء البلدة فقابلهم أجمل مقابلة ، ثم انتهى الحفل وبقي السلطان بالكندرة بقية يومه وأمضى ليلته فيها أيضا .

وفى صباح الخميس ٨ جمادى الآخرة ١٣٤٤ (٢٤ ديسمبر ١٩٢٥ م) دخل السلطان جدة ونزل فى بيت الشيخ محمد نصيف وتقدم اليه أهل جدة فرحين مستبشرين وهنأوه وتمنوا له طول العمر والسعادة والتأييد .

وبتنازل الملك علي وبانتهاء تسليم جدة انتهت الحرب فى الحجاز حيث سلمت ينبع وغيرها ، ورفرف السلم فى ربوع البلاد المقدسة .

ملك الحجاز

انتهت الحرب ولم يبق للحجازيين ما يشغلهم الا شكل «الحكومة» التى يراد تأسيسها، وكانوا يخشون أن يقرر المسلمون أن تحكم الحجاز جماعة تنتخب منهم، وفى هذا ضياع لسلطة الحجاز واستقلاله وحريته التى يسعون اليها ويعملون من أجلها ، فالبلاد لم تحكم حكما جمهوريا من أهلها فكيف تحكم جمهوريا من أجناس مختلفة لا تتفق معها في منازع التفكير وأمانى الامة .

قلق الحجازيون لهذا الامر وكلموا ابن سعود فكان يستمهلهم حتى سئموا وذهبوا اليه يطلبون أن ينجز وعده بعد انتهاء الحرب ، ويدع لهم الحرية فى تقرير مصيرهم واختيار حاكم لبلادهم يطمئنون اليه ، فلم يجد بدا من الاذن لهم فى العمل الذى يريدون ، وأطلق لهم حرية القول والفكر والعمل .

واجتمع أهل مكة المكرمة مرة أخرى بابن سعود ، وذكروا له أنهم سيجتمعون فيما بينهم لتقرير الحجاز ، واستوثقوا منه ، وقال لهم : أنتم أحرار فى اختيار الحاكم ونظام الحكم ، واننى راض بما يستقر عليه أمركم ، ولا تظنوا أننى أريد حكم الحجاز لنفسى ، وأعاهد الله ثم أعاهدكم على رضاي وقبولى بما تختارون ، ولو اخترتم أحدكم أو أي أحد سواكم لبايعته معكم ، هذه بلادكم وأنتم أحرار ، والله يوفقكم لما يحب ويرضى ، وكل ما أرجوه أن تختاروا من ترضون دينه وأمانته

وخلقه ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى كما جاء عن رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) .

وكان لهذا الموقف الذى وقفه ابن سعود من الحجازيين أثر طيب عميق فى نفوسهم ، وزاد ابن سعود مكانة على مكانته فتعلقوا به ، وأخـذوا يعملون بجد لتقرير المصير ،واتصل أهل مكة بجدة وطلبوا أن يسرع اليهم وفد منهم يمثلهم ، فانتدبوا محمد نصيف ومحمد على زينل وقاسم زينل وسليمان قابل وعبدالله رضا ، وبعد أن تحدثوا طويلا فيمن يحكمهم اتفقوا على اختيار ابن سعود نفسه ملكا عليهم ، لان هنالك براهين تبشر بالخير العميم للبلاد والعباد اذا تولى أمرهم هذا الرجل الكبير الذى اجتمعت له خلائق الملك العادل وصفات الامام الصالح الذى يريد لأمته كل خير ونعمة ، فمن أجدر منه بحكم الحجاز ؟

نعم ، لا يصلح لحكم الحجاز غير ابن سعود ، وهو خير من يحكمه ، فهو عربي مسلم ، عربي من بيت فضل وصلاح وعدل وسلطان وخلق وجاه ، ومسلم قوي الاسلام ، فهو بحق خير من «يرشح» لحكم البلاد المقدسة ، وليس فيه أي عيب يمس كرامته ودينه ووطنيته وعدالته .

وبعد أن انتهوا إلى ما انتهوا اليه قابله وفد من أهل مكة ، وذكروا له أنهم جاءوه ليستوثقوا منه قبل إعلان النتيجة التى انتهوا إليها ، وطلبوا منه بإلحاح أن يصدر بيانا رسميا يكون حجة له وعليه ، ووعدهم به .

وفى يوم الاربعاء ٢١ جمادى الآخرة ١٣٤٤ أصدر ابن سعود البيان التالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد؛ فقد بلغ القاصى والدانى ما كان من أمر الحسين وامرنا إلى أن اضطررنا لامتشاق الحسام دفاعاً عن أرواحنا وأوطاننا ، ودفاعاً عن حرمات الله ومحارمه ، ولقد

بذلت النفس والنفيس فى سبيل هذه الديار المقدسة إلى أن يسر الله الكريم بفضله فتحها واستتباب الامن فيها .

ولقد كانت عزيمتى منذ باشرت العمل فى هذه الديار ان انزل على حكم العالم الاسلامي وأهل الحجاز ركن منه فى مستقبل هذه الديار المقدسة ، ولقداذعت دعوة للمسلمين عامة غير مرة ادعوهم لعقد مؤتمر اسلامي يقرر فى مصير الحجاز ما يرى فيه المصلحة .

ثم عززت ذلك بدعوة عامة وخاصة ، فأرسلت كتاباً للحكومات والشعوب الاسلامية فى ١٠ ربيع الآخر سنة ١٣٤٤ ، وقد نشر ذلك الكتاب فى سائر صحف العالم ، ومضى عليه ما يزيد عن الشهرين لم اتلق على دعوتى جواباً من أحد ما عدا جمعية الخلافة فى الهند فانها – بارك الله فيها – عملت وتعمل كل ما فى وسعها لراحة الحجاز وهنائه .

ولما انتهى الامر فى الحجاز إلى هذه النتيجة التى نحمد الله عليها جاءنى أهله جماعات ووحدانا يطلبون منى أن امنحهم حريتهم التى وعدتهم بها فى تقرير مصيرهم ، فلم يسعنى أمام طلباتهم المتكررة إلا أن امنحهم هذه الحرية ليقرروا فى شأن بلادهم ما يشتهون بعد ما ظهر من العالم الاسلامي هذا الصد والإعراض عن مثل هذه القضية الهامة .

وفى مساء يوم الخميس ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٤ ﻫ قدم أهل الحجاز إلى ابن سعود هذه المبايعة :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده ، نبايعك يا عظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود على أن تكون ملكاً على الحجاز

على كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح والأئمة الاربعة رحمهم الله، وأن يكون الحجاز للحجازيين، وأن أهله هم الذين يقومون بادارة شؤونه، وأن تكون مكة المكرمة عاصمة الحجاز، والحجاز جميعه تحت رعاية الله ثم رعايتكم » .

وقد رفعوا مع وثيقة البيعة الكتاب الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

«حضرة صاحب العظمة السلطانية أيده الله

المعروض إلى عظمة السلطان الموفق المعان : أن قد اجتمع الداعون الموقعون أدناه من أهل الحل والعقد بمكة المكرمة وتذاكروا فى الامر وقابلوا بارتياح كل ما جرى بين عظمتكم وبين الهيئة المتمثلة فى مجلسكم العالى صباح أمس من خيرة الاهلين ، وبمناسبة اهتمامكم بذلك ومزيد بشرهم به سارعوا جميعا إلى تقرير عقد البيعة على المنوال المسطور أعلاه راجين أن ينزل ذلك من رغبات عظمتكم منزل القبول ، وأن تتفضلوا بتتويجه بالاشارة السلطانية ليكمل لهم مقصدهم الوحيد بحصول رضائكم العظيم ، مسترحمين الانعام عليهم بتعيين وقت عقد البيعة عند البيت المعظم ، والله يديم بالتوفيق دولتكم » .

فى ١٩ جمادى الآخرة ١٣٤٤ هـ

وهو موقع من نخبة الحجازيين فيهم أمين مفتاح بيت الله الشيخ عبد القادر شيبى ، والسيد صالح شطا ، والسيد عباس عبد العزيز مالكى ، والشيخ محمد على خوقير ، والشريف محمد شرف رضا .

فوقع ابن سعود على صورة البيعة بما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل إلى اخواننا الموقعين أسماءهم

سلام عليكم ، وبعد ، فقد أجبناكم إلى ما طلبتم ، ونسأله سبحانه وتعالى المعونة والتوفيق للجميع » . فى ٢٢ جمادى الآخرة ١٣٤٤ هـ .

الختم الملكى
(عبد العزيز السعود)

وبعد أن أدى الناس صلاة الجمعة يوم ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٤٤ هـ (٨يناير سنة ١٩٢٦ م) أسرعوا إلى باب الصفا من المسجد الحرام حيث تقام حفلة البيعة ، وأعد مجلس للسلطان ، وعلى مقربة منه منبر للخطيب .

وفى الساعة السابعة والنصف أقبل موكب ابن سعود فضج الحاضرون بالتكبير ، ثم أخذ مكانه فنادى أحدهم بصوت جهوري دوى فى الحرم: ﴿ان الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ وصعد الشيخ عبد الملك مرداد وألقى خطابا نوجزه فيما يلى :

« أحمد رب هذا البيت المعظم ، وأشكر الله على ما أنعم به وأكرم، منّ علينا بنعم لا تحصى ، ومنن لا تستقصى ، أبدل خوفنا بالامن ، أحمده حمد عبد يعرف مقدار نعمته ، وأشكره من تداركه بازالة نقمته .

أيها الاخوان ، قد أنعم الله علينا بالامن بعد الخوف ، وبالرخاء بعد الشدة ، وقد انقشعت عنا غمة الحرب والعناء ، وتوحدت الكلمة بحول الله وقوته ، وتفضل عظمة السلطان المحبوب بقبول البيعة المشروعة بعد طلبنا اياها منه » .

ثم أخذ يتلو البيعة وأخذت قلعة اجياد تطلق المدافع اعلانا لتلك البيعة، والناس

يزاحمون السلطان يبايعونه ، وأول من بايع الشرفاء ، فشيخ السادة ، فالوجهاء ، فالاعيان ، فالمجلس الاهلي ، فالمحكمة الشرعية ، فالائمة ، فالخطباء ، فالمجلس البلدي ، فأهل المدينة المنورة ، فأهل جدة ، فينبع ، فالطائف ، فعامة الناس .

ثم نهض السلطان بعد الطواف إلى دار الحكومة واستقبل الناس من جديد ، فنهض أحد أهالى جدة (حسن قابل) وألقى خطابا حماسيا استعرض فيه العهود الماضية ، ثم طلب إلى الشيخ عبدالله رضا (قائمقام جدة) أن يبايع عن أهل جدة فبايع ثم قال حسن قابل :

«لا بد للبلاد من ملك مستقل يكون قادرا على صيانة الحجاز من الداخل والخارج ، والذى يستطيع القيام بهذا الامر هو عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود » .

ثم توالى الخطباء ، وفى غمرة من غمرات الحماسة وثب الشيخ عبد الرحمن بشناق وصاح فى الحفل صيحة مدوية : « يا عبد العزيز ، ان الله ما أعطاك هذا العطاء الا لانك تسعى فى مرضاته » .

ثم وقف الشيخ عبد العزيز العتيقي ونصح الامة العربية وحثها على التمسك بالدين حتى تسترد ما كان لها من مجد ومن ذكر حسن .

ثم نهض ابن سعود نفسه وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أوصيكم بتقوى الله فى جميع اعمالكم ، التاجر فى تجارته ، والصانع فى صناعته ، والموظف فى وظيفته».

وقال : « أسمع خطباءكم يقولون : هذا امام عادل ، وهذا كذا ... وهذا كذا ... فكل رجل مهما بلغ من المنازل العليا اذا لم يخش الله ويطلب مرضاته فلا أثر له ولا لعلمه ، فمتى تركت الشهوات وهجرت المحرمات وعبدنا الله على بصيرة لاقينا الخير كله ، وهل جاء البلاء للناس الا من اتباع الشهوات : شهوات النفوس

التي فيها خراب الدين والدنيا ؟ لذلك أدعوكم إلى الدين واتباع آثار السلف الصالح واتخاذ الصراحة في القول والاخلاص في العمل ، وترك الرياء والملق .

« فمتى اتفق العلماء والامراء على أن يستر كل منهم على الآخر فيمنح الامير الرواتب ، والعلماء يدلسون ويتملقون ضاعت أمور الناس وفقدنا — والعياذ بالله — الآخرة والاولى .

« لم يفسد الممالك الا الملوك وأحفادهم وخدامهم والعلماء وأعوانهم ، وانني — والله — لاود ألا أكون منهم .

« ان التمدن الذي فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا فمرحبا به وأهلا ، وأمـــا التمدن الذي يؤذينا في ديننا وأعراضنا فوالله لن نرضخ له ولن نعمل به ولو قطعت منا الرقاب .

أيها الاخوان ، اني أحمد الله الذي جمع الشمل وأمن الاوطان ، وان لكم علي عهد الله وميثاقه أنني أنصح لكـــم كما أنصح لنفسي وأولادي ، وأحبكم في الله وأعاديكم فيه » .

ثم انتهت هذه الحفلة وانصرف الناس وركب ابن سعود سيارته إلى قصره بين هتاف الجماهير .

ودعى أعضاء المجلس الاهلي ووفد جدة وعلية أهل مكة في مساء يوم الجمعة — أي في الساعة الثانية والنصف من ليلة السبت — إلى مجلس ابن سعود الملكي وقال لهم :

« اننا اليوم في أوقات العمل وفي ساعات التأسيس ، ولا يستقيم الامر الا بالتدبير ، وأمامنا عدو وصديق ينظران الينا ، فاذا لم نضع لنا أساسا متينا ضاعت

مورنا ، وقد أعددت لكم موضوعات هامة للنظر فيها وتقريرها وأنتم أرباب الرأي والفكر فيها » .

ثم أمر ابن سعود مستشاره الدكتور عبدالله الدملوجي بتلاوة بيانه الملكي فقرأ :

« المطلوب أن يشكل من مندوبى مكة وجدة هيئة تسمى هيئة التأسيس ينضم اليها مندوبو باقى بلدان الحجاز ليبحثوا فى المسائل الآتية :

١ ــ وضع اسم لرئيس حكومة الحجاز .

٢ ــ وضع ترتيب لتحديد العلاقات بين نجد والحجاز .

٣ ــ تعيين شكل الحكومة ووضع أساسات لتشكيلاتها الداخلية والبحث فى الموقف الذى يجب أن يكون للحجاز من الوجهة الدولية .

٤ ــ تعيين شكل العلم والنقود » .

وبعد البحث والنقاش قرر الحاضرون أن يلقب رئيس حكومة الحجاز « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها » واقترح بعضهم زيادة بعض الالقاب ، فلم يرض ابن سعود ، ثم قرروا احالة الاشياء الاخرى إلى « الهيئة التأسيسية » ، وأصبح من ذلك الوقت لقب ابن سعود « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها » وأمر ابن سعود أن ينضم إلى الهيئة التأسيسية عن نجد الاستاذ يوسف ياسين والدكتور عبدالله الدملوجي والشيخ عبد العزيز العتيقي ، ثم انفض المجلس .

وفى صباح السبت اجتمع هؤلاء الثلاثة ومعهم ثلاثة وخمسون عضوا من بلدان الحجاز وتداولوا البحث، الا أنهم قرروا بالاجماع ــ قبل البدء فى الاعمال ــ اختزال هذا العدد الكبير عن طريق الاقتراع إلى ثمانية أفراد ليسهل العمل ، فقبلوا، وباجرائه فاز السيد صالح شطا و محمد نصيف وحسين باسلامه و محمد شلهوب وعلى كتبي

ومحمد المرزوقي ومحمد سعيد أبو الخير والشريف حسين عدنان .

ولما اطلع جلالة ملك الحجاز على النتيجة وافق وأمر أن يرأس « الهيئة » الشيخ عبد القادر شيبي ويضاف اليها الشيخ ماجد كردي وعبدالله زينل وعبدالله دهلوي وسليمان قابل والشريف حسين عدنان ليتم العقد ويستعان بقوم لهم ذكاؤهم وتجاربهم .

وان هؤلاء الرجال كانوا – وما يزال الاحياء منهم – نخبة صالحة تعمل للخير والحضارة ونشر الثقافة وتأييد كلمة الدين فى ظل الملك العادل العظيم(١) .

* * *

وهكذا تمت البيعة ، وحدد اسم الحاكم والحكومة ، وصدر من ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود بيان موجه منه إلى معتمدى الحكومات الإسلامية والعربية والأجنبية بجدة ، كما نشر فى الصحيفة السعودية الرسمية وفى صحف العالم .

وهذا نص البيان :

« بفضل الله وبنعمته قد أجمع أهل الحجاز وبايعونا بالملك على الحجاز على كتاب الله وسنة رسوله والخلفاء الراشدين من بعده، وتأسيس حكم شوري ، وقد استعنا الله وتوكلنا عليه وقبلنا هذه البيعة ، مستمدين التوفيق والمعونة من الله تعالى ، وقد أصبح لقبنا « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها » وسنقوم بتوطيد الأمن والراحة وتوفير الرخاء ، وسنعمل كل ما من شأنه أن يحقق رغائب العالم الاسلامي ، ويقر أعينهم فى إدارة هذه البلاد المقدسة . نسأله تعالى أن يعيننا على حمل أعباء هذا الأمر ، والله ولي التوفيق » .

---

(١) الآن ، وأنا أعيد طبع الكتاب – الطبعة الثالثة – في شهر شعبان سنة ١٣٩٢ هـ (سبتمبر ١٩٧٢) مات كل من ذكرت أسماؤهم ، ومات ابن سعود نفسه ، رحمهم الله رحمة واسعة .

حكم الحجاز والعالم الإسلامي ومؤتمره

لم يكن ابن سعود طامعا فى حكم الحجاز ، وانتزاعه من يد الملك الحسين ، وعندما احتل الاخوان الطائف لم يكن احتلاله مقررا أيضا ، بل كان المخطط أو القرار احتلال بعض القرى التى تقع فى حدود الحجاز ، ليستطيع إجبار الحسين على التفاوض .

ولكن ، يشاء الله ويدخل الاخوان الطائف ، ومع هذا لم يجدّ لدى ابن سعود جديد من المطامع أو الافكار فى احتلال الحجاز ، ولكن الملك الحسين نزل عن عرشه وابن سعود ما يزال بقصره فى الرياض ، والاخوان فى الطائف لم يتقدموا خطوة إلى مكة المكرمة .

ثم يغادر الحسين مكة إلى جدة ، ثم تخلو مكة من حاكم مسئول ، ويعلم قادة الإخوان بخلو مكة فيتخذون طريقهم إلى مكة ويدخلونها بدون قتال ، ولا يتجاوزونها .

ويضطر ابن سعود حينئذ إلى الشخوص إلى مكة لا ليحكم الحجاز ولا ليمحو حكم الاشراف منه ، بل أراد أن يضمن الأمن لنفسه وحكمه وشعبه ، وليضمن

حج النجديين إلى بيت الله الحرام ، وعودة العلاقات التجارية بين الحجاز ونجد ، وليس شيء غير ذلك ، ثم يعود إلى نجد .

ولما لم يكن له أي مطمع فى حكم الحجاز كانت تصريحاته وخطبه وبياناته أن تقرير مصير الحجاز موكول إلى أهله والعالم الاسلامي .

فابن سعود – قبل أن يغادر الرياض – قال فى خطبة خطبها قبيل أن يغادرها إلى الحجاز :

« إنى مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها ، بل لرفع المظالم والمغارم التى أرهقت كاهل عباد الله ، إنى مسافر إلى حرم الله لبسط أحكام الشريعة وتأييدها ، فلن يكون بعد اليوم سلطان إلا للشرع ، ويجب أن تطأطىء جميع الرءوس له ، إن مكة للمسلمين كافة ، فيجب أن يكون أمر إدارتها وتنظيمها وفق رغبة العالم الاسلامي ، اننا سنجتمع بوفود العالم الاسلامي هناك ، وإنا سنتبادل معهم الرأي فى كل الوسائل التى تجعل بيت الله بعيدا عن الشهوات السياسية الخ » .

وبعد دخوله إلى مكة المكرمة بأربعة أيام وجه ابن سعود إلى من فى مكة وضواحيها منشورا هذا نصه :

« لمن فى مكة وضواحيها من سكان الحجاز الحاضر منهم والباد .

« نحمد اليكم الله الذى لا إله إلا هو رب هذا البيت العتيق ، ونصلى ونسلم على خاتم أنبيائه محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛

« أما بعد ؛ فلم يُقْدِمْنا من ديارنا اليكم إلا انتصارا لدين الله الذى انتهكت محارمه ، ودفعا لشرور كان يكيدها لنا ولديارنا من استبد بالأمر فيكم قبلنا ، وقد شرحنا لكم غايتنا هذه من قبلُ ، وها نحن أولاء بعد أن بلغنا حرم الله نوضح لكم الخطة التى سنسير عليها فى هذه الديار المقدسة لتكون معلومة عند الجميع فنقول :

« ١ — سيكون أكبر همنا تطهير هذه البلاد المقدسة من الأعداء أنفسهم الذين مقتهم العالم الاسلامي فى مشارق الأرض ومغاربها لما اقترفوه من الآثام فى هذه الديار المباركة .

« ٢ — سنجعل الأمر فى هذه البلاد المقدسة بعد هذا شورى بين المسلمين ، وقد أبرقنا لكافة المسلمين فى سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر إسلامي عام يقرر شكل الحكومة التى يرونها صالحة لإنفاذ أحكام الله فى هذه البـــلاد المطهرة .

« ٣ — إن مصدر التشريع والأحكام لا يكون إلا من كتاب الله ، ومما جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، أو ما أقره علماء الإسلام بطريق القياس أو أجمعوا عليه مما ليس فى كتاب ولا سنة، فلا يحل بهذه الديار غير ما أحله الله، ولا يحرم فيها غير ما حرمه

« ٤ — ... ...

« ٥ — ... ...

والله على ما نقول وكيل وشهيد ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم » .

عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود

١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣

وفى أواخر جمادى الأولى وأوائل جمادى الآخرة سنة ١٣٤٣ (يناير سنة ١٩٢٥) وصل إلى جدة سنت جون فلبى وأمين الريحاني والسيد طالب النقيب للتوسط بين ابن سعود والملك علي واجراء صلح بينهما ، ولم يكن ثلاثتهم منتدبين مـــن

جمعية أو حزب أو جهة رسمية ، بل جاء كل منهم بمفرده يعرض وساطته ،وكلهم من أصدقاء ابن سعود .

وفلبي والريحاني مسيحيان والسيد النقيب مسلم ومن زعماء العراق ، وتسلم ابن سعود من كل منهم رسالة خاصة ، فكان جوابه لصديقه فلبي : « إذا كنتم تنوون التدخل فى مسائل الحجاز فلا أرى فى البحث فائدة ، وإنه ليس من مصلحتى الخاصة ولا من مصلحتكم يا صديقنا جعلكم وسيطا فى هذه المسألة الإسلامية المحضة » [1] .

وأجاب الريحاني برسالة جاء فيها : « إذا كان البحث يتناول المسألة الحجازية فلا أرى فيه فائدة ، لأن مشكل الحجاز يجب أن يحله المسلمون ، وترك الأمر لهوى أنفسنا ليس مما تجيزه المصلحة الاسلامية ولا العربية » .

فابن سعود فى هاتين الرسالتين يصرح بوضوح ان مسألة الحجاز إسلامية ، فالمسلمون هم المسئولون عن حلها ، وليس غيرهم .

وجواب ابن سعود للسيد طالب النقيب أشد صراحة ووضوحا وبيانا ، فهو يقول له ما نصه الحرفي :

« حضرة الأخ المحترم السيد طالب النقيب

« لقد ذكرتم أنكم تودون مقابلتنا ، فنحن نرحب بكم ، ولكن ؛ يجب أن نعرف هل المقابلة ودية أم هي للوساطة فى مسألة الحجاز ؟ فاذا كان لغرض التوسط فى هذه المسألة فإني لا أرى فائدة من ذلك ، وإذا كان الشريف علي يود حقيقة حقن الدماء فعليه أن يتخلى عن جدة ، أما إذا قبله العالم الإسلامي وانتخبه حاكما فمحله غير مجهول » .

وهذه الرسالة توضح بصراحة أن ابن سعود لم يكن طامعا فى حكم الحجاز ، ولم يكن راغبا فى انتزاع الحكم من يد الأشراف أو الحسين وآله ، وكل ما كان يريده أن يكون حكم الحجاز اسلاميا لا يعادى فئات من المسلمين لأسباب سياسية، فالحسين عادى النجديين ومنعهم من الحج برغم وساطات أفراد وزعماء وحكام ودول كبيرة مثل بريطانيا التى توسطت لدى الحسين بأن يسمح للنجديين بالحج .

وكان ابن سعود يرى رأيا اجتهد فيه ، وهو أن حاكم الحجاز يجب أن يكون منتخبا من العالم الاسلامي ، لأن مصالحه مرتبطة بالحجاز الذى يضم الحرمين الشريفين ومواضع كل مناسك الحج والزيارة ، فالعالم الاسلامي هو المسئول عن انتخاب هذا الحاكم .

واذا انتخب العالم الإسلامي الملك عليا ابن الشريف الملك الحسين حاكـــم الحجاز السابق فابن سعود راض بهذا الانتخاب ، لأن مكانة الشريف عـــلي بن الحسين غير مجهولة من أحد ، فهو من أكرم بيت وأشرفه ومن أطهر سلالـــة فى الوجود ، وهو ذو خلق عظيم ، وقلب طيب .

ولكن ، يجب أن يكون منتخبا من العالم الإسلامي .

هذا رأي ابن سعود المبني على اجتهاده ، ونحن لا نريد مناقشته فيه ، أهو مصيب فيه أم غير مصيب ، والامران سواء ، ولكن رأيه أن يكون حكم الحجاز برأي العالم الإسلامي ، وانتخاب حاكمه يجب أن يكون من العالم الإسلامي .

وقد تشبث ابن سعود برأيه هذا فى جميع مواقفه حتى انتهت الحرب بينه وبين الشريف علي بالنزول عن ملك الحجاز والتسليم لابن سعود ثم مبارحته الحجاز .

وفكرة جعل العالم الإسلامي مسئولا عن حكم الحجاز لم تسبق فتحه من قبل ابن سعود ، بل ولدت بعد دخول الاخوان مكة ، ولم تكن لديه ممانعة أو اعتراض على أن يكون حاكم الحجاز شريفا ولا أن يكون من آل الحسين خصمه، بل كان

راضيا بالشريف علي بن الحسين إذا كانت ولايته بانتخاب العالم الإسلامى .

وأول ما خطرت له فكرة مسئولية العالم الإسلامى عن حكم الحجاز وتقرير مصيره كانت بعد فتح مكة المكرمة حرسها الله من قبل « الاخوان » وقبل دخوله هو نفسه اليها فى ليلة الجمعة ٨ جمادى الأولى ١٣٤٣ هـ .

وأجوبته لفلبي والريحانى والسيد النقيب كانت بعد هذا التاريخ ببضعة أسابيع ، وهي تفصح عن رأيه الواضح فى حكم الحجاز .

ووسط الملك علي الحكومة البريطانية للصلح بينه وبين ابن سعود ، وقبلت الوساطة بشرط أن يرضى بها الفريقان ، وعرضت بريطانيا وساطتها على ابن سعود فى شهر صفر سنة ١٣٤٤ فأجابها ابن سعود بأنه أعطى العالم الإسلامي عهدا بأن يكون الحجاز ومكة ملكا للمسلمين .

وفى يوم الاثنين ٣ ربيع الاول ١٣٤٤ (٢١ سبتمبر ١٩٢٥) وصل إلى مكة المكرمة وفد ملك مصر الملك فؤاد ، وهو مكون من بضعة أعضاء ، ويرئس الوفد العلامة الكبير الشيخ محمد مصطفى المراغي – وكان حينئذ رئيس المحكمة العليا بمصر – وكان جواب ابن سعود له : ان العالم الإسلامي هو صاحب الحق فى تقرير مصير الحجاز مع أهله ، وقال للوفد : إنى أكل إلى جلالة الملك أمر دعوة مندوبى المسلمين فى مصر لينظروا فى مسألة الحجاز ، وما يقررونه أقوم بتنفيذه .

وجاء وفد إيرانى وقابل ابن سعود فى مكة يوم الاربعاء ٣ ربيع الثانى ١٣٤٤ (٢١ أكتوبر ١٩٢٥) وأخبره خبر وفد ملك مصر ، وذكر له أن مسألة الحجاز لا يقررها هو ولا غيره ، بل ذلك موكول إلى العالم الإسلامي ، وايران منه فى الطليعة .

وتسلم ابن سعود كتابا من الامام يحيى ملك اليمن ، وتاريخه الاربعاء ٣ ربيع

الآخر ١٣٤٤ يعرض وساطته للصلح بينه وبين الملك علي ، فأجابه ابن سعود بأن أمر الحجاز ليس فى يده ، ولكنه بيد العالم الإسلامي ، ويرجوه أن يرسل مندوبه إلى المؤتمر الذى سيقرر العالم الإسلامي موعده .

وحصل تطور فى مسألة الحجاز وحكمه لابن سعود ، فهو كان يرى أن العالم الإسلامي هو صاحب الأمر والنهى فى الحجاز ، وهو وحده صاحب الحق فى انتخاب حاكمه ، وهذا ما أفصح عنه ابن سعود فى رسالته إلى السيد طالب النقيب التى اثبتناها فى أول هذا الفصل ، فابن سعود يقول عن الملك علي : « إذا قبله العالم الإسلامي وانتخبه حاكما فمحله غير مجهول » .

وهذا التطور فى فكرته هذه حدث بسبب الحجازيين ، فقد رأوا أن فكرة ابن سعود تسلبهم حقهم فى تقرير مصيرهم ، وقابله علـيْة أهل مكة ومعهم اقتراح رآه أحدهم – وأنا أعرفه ولكنى لا أود الافصاح عنه ، لأن صاحبه آثر أن يكون أمره سرا – وعرضوه على ابن سعود ، وموجزه : أن حكم الحجاز يجب أن يقرره أهله وليس غيرهم ، وأما العالم الإسلامي فله حقوق يكفلها له الحجازيون الذين لا يرضون أن يكونوا هم وبلادهم تحت وصاية دولة أخرى أو هيئة اعتبارية من خارجهم .

وذكر له صاحب الاقتراح فى صراحة : أن العالم الإسلامي لا يملك أمر نفسه ، فالهند واندونوسيا اللتان تذهبان بأغلبية المسلمين مستعمرتان للانجليز والهولنديين ، فاذا كانتا لا تملكان حق حكم نفسيهما فكيف يكون مسلموها أوصياء على الحجاز وأهله ويُعطَوْن حق اختيار حاكم للحجاز ؟ .

ومصر مستعمرة انجليزية ، والعراق والاردن وسوريا والسودان تحت انتداب الاستعمار الغربى أو حكمه المباشر .

وإذا كانت هناك دول اسلامية مستقلة مثل افغانستان وايران واليمن فهي قلة

لا تمثل المسلمين جميعا ، ولا يجوز أن يكون أهلوها أوصياء على الحجاز وأهله .

وإذا أريد الحق فان الحجاز جدير بأن يكون هو صاحب الرأي فى العـــالم الإسلامي .

وقال أهل مكة لابن سعود : إنهم يعرفون أنه غير طامع فى حكم الحجاز ، فلماذا يدع أمره وتقرير مصيره إلى غير أهله وهم أصحاب الحق فى ذلك قبل غيرهم ودون سواهم ؟ .

واقتنع ابن سعود بالفكرة التي عرضها الحجازيون، واستصوبها وأيدها وباركها وحمل عنهم رأيهم .

ولم يؤيدهم ابن سعود لأنه كان يطمع بأن يكون هو حاكم الحجاز المختار من قبل الحجازيين ، بل أيدهم لأن ذلك حقهم الشرعي ، وليس بين ابن سعود والنجديين من جهة وبين الحجازيين من جهة أخرى أي خصام ، بل الخصومة بين آل سعود والأشراف ، إنها خصومة بين الأسرتين ، وقد سوّى ابن سعود حسابه مع آل الحسين وهو فى طريقه إلى التصفية والنهاية .

وليس من حق ابن سعود أن ينتزع من الحجازيين حق تقرير مصيرهم وهو المعروف بعدالته وانصافه ، وواقع تاريخ الامم والشعوب الحرة المستقلة يؤيـــد الحجازيين ومعهم فى مطلبهم العادل .

وكان اجتماع أهل مكة بابن سعود فى اليوم السابع أو الثامن من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٤ قبيل استسلام الملك علي وتسليم جدة بشهرين تقريبا ، وأثمر هذا الاجتماع تحولا فى فكرة ابن سعود ، فرأى أن يشرك العالم الإسلامي فى المسئولية على أن يكون حق الحجازيين معترفا به قبل أي مؤتمر يعقد باسم العالم الإسلامي .

وفى يوم ١٠ ربيع الآخر ١٣٤٤ وجه ابن سعود كتابا إلى حكام المسلمين

وملوكهم وزعمائهم وقادة الفكر الإسلامي ورؤساء الهيئات والجماعات الإسلامية والاحزاب ، ومن هؤلاء : ايران ، وافغانستان ، وإمام اليمن ، وجاوا ، والهند ، والأمراء والملوك فى شمال إفريقيا ، والمجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين ، وجمعية الخلافة فى الهند ، وإلى بعض أئمة المسلمين كالشيخ بدر الدين الحسيني بدمشق ، وإلى كثير غير هؤلاء .

وها هوذا نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود

إلى

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فانى أرجو لكم دوام الصحة والعافية ،وانى لسعيد أن امدّ يدى ليدكم ولكل يد عاملة لخير الاسلام والمسلمين ، وانى مملوء ثقة انه بتعاوننا على الخير سيكون المستقبل لجميع الشعوب الإسلامية .

إنى لستُ من المحبين للحرب وشرورها ، وليس لدي شيء احب من السلم والسكون والصفاء والهناء والتفرغ للاصلاح ، ولكن جيراننا الاشراف اجبرونى على امتشاق الحسام وخوض غمرات الحرب خمس عشرة سنة ، لا فى سبيل شيء سوى الطمع فى ما بأيدينا ، فقد صدونا عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعله الله للناس سواء العاكف فيه والباد .

وإنى والذى نفسى بيده ، لم ارد التسلط على الحجاز ولا تملكه ، وان الحجاز وديعة فى يدي إلى الوقت الذى يختار الحجازيون لبلادهم والياً منهم ليكون خاضعاً

للعالم الإسلامي تحت اشراف الأمم الإسلامية والشعوب التى ابدت غيرة تذكر فى هذا السبيل كأهل الهند وامثالهم .

وإن الخطة التى عاهدنا عليها العالم الإسلامي والتى لم نزل نحارب من اجلها مجملة فيما يلى :

١ ــ ان الحجاز للحجازيين من جهة الحكم ، وللعالم الإسلامي خاصة الحقوق التى لهم فى هذه البلاد .

٢ ــ سنجرى الاستفتاء التام لاختيار حاكم للحجاز تحت إشراف مندوبى العالم الإسلامي ، ويحدد الوقت اللازم لذلك فيما بعد ، وسنسلم الوديعة التى فى ايدينا لهذا الحاكم على الاسس الآتية :

١ ــ يجب أن يكون السلطان الاول والمرجع للناس كافة الشريعة الإسلامية المطهرة .

٢ ــ حكومة الحجاز يجب ان تكون مستقلة فى داخليتها ، ولكن لا يصح لها ان تعلن الحرب على احد ، ويجب ان يوضع لها النظام الذى يمكنها من ذلك .

٣ ــ لا تعقد حكومة الحجاز اتفاقات سياسية مع أي دولة كانت .

٤ ــ لا تعقد حكومة الحجاز اتفاقات اقتصادية مع أي دولة غير إسلامية .

٥ ــ تحديد الحدود الحجازية ووضع النظم المالية والقضائية والادارية للحجاز موكول للمندوبين المختارين من الأمم الاسلامية ، ويحدد عددهم باعتبار المركز الذى تشغله كل دولة فى العالم الإسلامي والعربي ، وسيضم لهؤلاء مندوبون من جمعية الخلافة وجماعة اهل المدينة وجمعية العلماء فى الهند ، ومندوبون من قبل

الجمعيات والهيئات الاسلامية التى تمثل المسلمين فى الديار التى ليست فيها حكومة اسلامية .

هذا ما رأيناه لهذه البلاد ، وما سنسير عليه فى المستقبل إن شاء الله تعالى ، ولى الأمل العظيم أن تسرعوا فى إرسال مندوبكم ، وإخبارنا عن الوقت المناسب لعقد هذا المؤتمر

هذا ما لزم بيانه ، والله الموفق .   فى ١١ ربيع الآخر سنة ١٣٤٤

وأراد ابن سعود من منشوره هذا أن يجعل الحجاز منطقة أمن إسلامية بعيدة عن شهوات السياسة والسياسيين والطامعين ، وليحميه من ذلك رأى أن يكون العالم الإسلامي مسئولا عن سياسة الحجاز الخارجية حتى لا يقع حاكم الحجاز فى « ورطات » تجعل البلاد المقدسة هدفا للسهام .

وأيا كان القصد فإن فكرة قيام العالم الإسلامي بانتخاب حاكم الحجاز قد انتهت باختيار أهل الحجاز حاكمهم الذى ارتضوه وأقاموه باختيارهم ملكا على بلادهم .

وإن العالم الإسلامي نفسه لم يجب ابن سعود عندما طلب إليه وكرر الطلب وألح فيه أن ينتخب للحجاز حاكما ، بل لم يتلق منه أي جواب ، وكان أهل الحجاز ينتظرون قدوم وفود العالم الإسلامي ليختاروا من شاءوا وينتخبوه حاكما على الحجاز ، فإذا ارتضاه الحجازيون فقد انتهى الامر والحمد لله ، وإلا فهم اصحاب الحق دون غيرهم فى اختيار حاكمهم .

ولم يكن ابن سعود طامعا — كما قلنا — فى حكم الحجاز ، ولم يكن ينتظر من الحجازيين أن يجمعوا على اختياره ، وكان يُظَنّ أنهم سيختارون أحدهم ثم يعرضون اسمه على ابن سعود ليؤيدهم فى اختياره .

ولكن الحجازيين لم يجدوا بينهم من ينعقد عليه الاجماع ليكون الحاكم ، وخافوا من انبعاث نار فتنة هوجاء إذا اختير أحدهم ، فاتجهوا إلى ابن سعود ، فهو الوحيد الذى ثبت لهم أنه أصلح المسلمين لحكم الحجاز سواء تمت المقارنة بينه وبين الملوك والزعماء والحكام المسلمين أم كانت بينه وبين قادة المسلمين بدون استثناء .

وعندما اختير ابن سعود ليكون حاكما وملكا على الحجاز كنت طفلا ، ثم عرفت الحجازيين ممن كانوا أهل الحل والعقد ، والآن ، وأنا قد تجاوزت الخمسين بسنوات أقارن بين أقطاب الحجازيين وكل ملوك المسلمين والعرب وحكامهم وزعمائهم وقادتهم فى ذلك الزمان فلا أجد منهم أحدا يرتفع إلى مستوى ابن سعود فى الخلائق والصفات والشروط التى يجب توافرها فى أمير للمؤمنين يحكم الحجاز ويكون الخادم المخلص الأمين للحرمين الشريفين .

وكان اختيار الحجازيين لابن سعود ملكا عليهم آية فى توفيق الله لهم ، فقد اختاروا إماما رشيدا صالحا عاقلا عالما نزيها عادلا ، إلا أن بعض الملوك والرؤساء والهيئات والجمعيات لم يرضهم هذا الاختيار ، فقد اعتقدوا أنه من حقهم الاختيار دون أهل الحجاز ، كما أن بعض الملوك كان يرشح نفسه للخلافة وحكم الحجاز كالملك فؤاد .

وبعد أن اختار أهل الحجاز حاكمهم — وهو ابن سعود — لم تعد الحاجة إلى مؤتمر إسلامي يُعقَد لاختيار الحاكم ، وقد احتجت هيئات إسلامية كما استنكر بعض الطامعين هذا الاختيار ، بل ثارت صحافة بعض البلدان على ابن سعود لمناداته بنفسه ملكا على الحجاز ، وفاتهم أن أهل الحجاز هم الذين انتخبوه واختاروه ونادوا به ملكا على بلادهم .

وكانت الصحافة المصرية أسبق الصحافات حملة وتجنيا ، وكان الملك فؤاد وراء هذه الحملة ، لأنه كان يطمع فى الخلافة بعد موتها فى تركيا ثم ذهابها مع الحسين كما كان يطمع أن يكون ملكا على الحجاز .

وكان من أثر سخط الملك فؤاد على ابن سعود أن حكومة مصر لم تعترف به ملكا على الحجاز مدة حكمه ، ولم يتم الاعتراف إلا بعد موته ، وذلك فى المعاهدة التى أبرمت بين المملكة السعودية ومصر فى ١٦ صفر ١٣٥٥ (٧ مايو ١٩٣٦) فى عهد وزارة علي ماهر باشا .

وزاد من سخط ملك مصر (الملك فؤاد) وحكوماتها المتعاقبة صرف حكومة الحجاز أو ابن سعود النظر عن مؤتمر إسلامي يقرر مصير الحجاز ونظام الحكم فيه ، كما أشعل هذا السخط ضراما أن الحكومة السعودية لم تشترك فى مؤتمر الخلافة المنعقد بمصر مع وعد ابن سعود بالاشتراك فيه ، وما على ابن سعود لوم فى عدم الاشتراك كما سنذكر .

ومسألة رغبة الملك فى الخلافة لم يعارضها ابن سعود ، بل ذكر للشيخ المراغي عندما رأس وفد مصر إلى ابن سعود أنه يسره أن يكون الملك فؤاد خليفة المسلمين ؛ واذا اجتمعت أحزاب مصر وقررت تنصيبه خليفة وأيد ذلك الإجراء العالمُ الإسلاميُّ فإنه فرد من أفراد المسلمين .

وأرضى هذا التصريح الملك فؤاد ، وفاتته مهارة ابن سعود السياسية ، فابن سعود كان على علم وثقة بأن سعد زغلول رئيس حزب الوفد لم يكن راغبا فى الخلافة لمصر ، كما أن العالم الإسلامي لن يرضى بفؤاد خليفة على المسلمين وهو واقع تحت سيطرة بريطانيا غير المسلمة ، وبلاده مصر واقعة تحت الاستعمار البريطاني ، فهو لا يملك فى بلده الحكم التام .

وكسب ابن سعود رضا الملك فؤاد بتصريحه ، ولكن هذا الرضا لم يدم ، فقد حل محله السخط لما ذكرنا من الأسباب .

وكان مقررا أن يشترك ابن سعود فى المؤتمر الإسلامي العام للخلافة حيث ينعقد بمصر ، وتلقى رسالة من رئيس المؤتمر بتاريخ رمضان ١٣٤٤ هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله محمد أبى الفضل شيخ الجامع الأزهر الشريف ، ورئيس المؤتمر الإسلامي العام للخلافة بمصر .

إلى حضرة صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها حفظه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد ؛ فإنى أحمد الله إلى جلالتكم ، وأضرع اليه أن يقيم بكم عماد الدين ، ويوحد بكم كلمة المسلمين ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد الذى أرسله الله بالحنيفية السمحة وعلى آله وصحبه الغر الميامين .

وأتشرف أن أعرض على مسامع جلالتكم الكريمة أن المجلس الإداري للمؤتمر الإسلامي العام للخلافة بمصر قرر في يوم الأربعاء ٢٠ رجب سنة ١٣٤٤ أن توجه الدعوة العامة والخاصة إلى الأمم الإسلامية ليحضر ممثلوها المؤتمر فى أولى ذى القعدة الحرام سنة ١٣٤٤ ، وقرر المجلس أيضا – كما كُتِب فى محضر الجلسة –: أن تخاطب فى ذلك ملوك المسلمين ، وسلاطينهم ، وأمراؤهم ، وشعوبهم ، وبقية شعوب المسلمين ، تعميما للدعوة الدينية ، حتى لا يكون بعض الشعوب فى ناحية وحكامها فى ناحية أخرى . وعملا بهذا القرار أرسلنا الدعوة إلى ملوك المسلمين وطوائفهم وشعوبهم ، وإلى سلاطين المسلمين وطوائفهم وشعوبهم ، وإلى أمراء المسلمين وطوائفهم وشعوبهم ، وإلى بقية الشعوب الإسلامية ، وتعميما للدعوة الدينية أيضا أرسلناها إلى جرائد العالم الإسلامي ، وابتغينا فيما عملنا وجه الله تعالى ، ونشر الدعوة على الطريقة المثلى ، ومن ثَمَّ يتبين لجلالتكم وجه إرسالنا الدعوة إلى بعض الأفراد الذين فى مملكتكم السعيدة ، فإذا كان فى هذه الاعتبارات ما لا يوافق رغبات جلالتكم ، فشفيعنا فى ذلك حسن النية ، ونبالة المقصد الديني ، ولا

نرغب إلا فى الاحتفاظ بخالص مودتكم ، والاعتضاد بجلالتكم ومكانتكم السامية فى المسلمين ، حتى يتم لهم التعاون على البر والتقوى ، والتناصر فى علاج الشئون الدينية العامة ؛ فإن يد الله على الجماعة .

هذا ، وقد سمحت مكارمكم السنية ــ كما فى خطابكم الملكي المؤرخ فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٤ ــ بأن نتشرف بإخبار جلالتكم عن ابتداء وصول الوفود الإسلامية إلى مصر ــ ليتحرك وفدكم الكريم إليها فى أقرب وقت .

ولى الشرف أن أنهي إلى جلالتكم أن مندوبى الأمم الإسلامية فى المؤتمر ، أخذوا يفدون إلى القاهرة فى شهر رمضان الحاضر .

ونسأل الله جل شأنه أن ينصر بكم الدين ، ويؤلف بين قلوب المسلمين ، حتى يقوموا بما فرض الله عليهم من خدمة الإسلام وإعلاء شأنه .

وإنى أنتهز فرصة التشرف بخطاب جلالتكم ، فأرفع إلى جلالتكم التهنئة بعيد الفطر المبارك أعاده الله على جلالتكم وعلى شعبكم العظيم وجميع المسلمين بالعز والهناء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولم تكن هذه الرسالة خاصة بابن سعود وحده ، فقد أرسلت هي نفسها بعد تغيير العنوان وتعديل يسير فيها إلى بعض الحجازيين ، ولم يكن ابن سعود على علم بذلك ، فاستقبل رسالة رئيس المؤتمر بترحاب ، وبينا يفكر فى اختيار من ينوب عنه جاءه الحجازيون ومعهم الرسائل المبعوثة اليهم يستطلعونه رأيه ، فطلب ــ هو ــ اليهم الرأي ، فأجابوه : أن واجب رئيس المؤتمر أن يخص برسالته المسئول الأول عن حكم الحجاز وحده دون أحد من أفراد شعبه ، لئلا يكون هناك تناقض بينهم وبين مندوبه إلى المؤتمر ، أما وأن هذا الخطأ قد وقع فإن من الرشاد إغفال الجواب .

وشاركهم ابن سعود الرأي ، لأنه كان الرأي الصواب .

وعقد المؤتمر الإسلامي (المصري) بالقاهرة بحضور مندوبين عن بعض البلدان العربية والإسلامية وعن بعض الهيئات والجمعيات ، وكان برنامج علماء مصر — الا القليل — الدعوة إلى تنصيب الملك فؤاد خليفة على المسلمين .

ويظهر أن المندوبين المصريين من علماء وغيرهم وعلى رأسهم رئيس المؤتمر الشيخ محمد أبو الفضل تجاهلوا كل التجاهل شروط من يرقى إلى منصب الخلافة الإسلامية ، وهم لا يجهلون — مع تجاهلهم — حقيقة الملك فؤاد ، فهو قد صعد إلى عرش مصر برأي الانجليز وجهدهم ومسعاهم ، وهو لا يملك الحكم كله على شعب مصر ، وهو ملك يملك ولا يحكم ، لأن رئيس الوزراء هو الذى يحكم ، وبعض رؤساء الوزارات مثل سعد زغلول كان على خلاف مع الملك فؤاد .

ثم إن الشيخ أبا الفضل العلامة الكبير ومعه العلماء المشتركون فى المؤتمر الذين يمثلون مصر يعلمون أن الملك فؤاد يجهل علوم الإسلام وشريعته ، وحكومته تحل ما حرم الله ، فدور البغاء مفتوحة برخصة منها ، كما أن الخمر التى حرمها الله تباع فى الأسواق علانية ، ويشربها الناس جهارا ، ولا تقام فى ظل حكومة ملك مصر الحدود ، ولا ينفذ فيها شرع الله سبحانه وتعالى ، ولا تملك مصر حكم نفسها ، فهي مستعمرة للانجليز ، وتحت حكمهم ، والملك فؤاد تارك صلاة .

كل هذا يعلمونه فكيف يعملون على المناداة به خليفة على المسلمين ؟ أليس الخليفة هو خليفة من خلفوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ بلى ، فكيف يعملون ما يبغض الله ، ويحلون ما حرمه ؟ .

وكان بعض علماء الاقطار الإسلامية قد ذكروا شروط الخليفة المسلم ، وسألوا : أتتوافر هذه الشروط فيمن يُرَشَّح للخلافة ؟ .

ولم يكن السؤال فى حاجة إلى جواب ، لأنه من الوضوح بحيث يستغنى عنه .

ولم يفت بعض السياسيين أن دولة الخلافة يجب أن يكون الحجاز بحرميه الشريفين فيها ، والحجاز حر مستقل لا يرضى أن تحكمه دولة يستعمرها غير المسلمين،ويجب أن يكونمن كان الحجاز بحرميه فى دولته هو الخليفة،ويجب على بلدان العالم الإسلامي بحكامها أن يدينوا بالولاء – ولو روحيا – لمن كان الحجاز وحرماه دولته .

كل هذا لم يغب عن حضور المؤتمر ، ولهذا أخفق ، وان كان قد اتخذ قرارات وتوصيات تقوم على الأمانى بصلاح شؤون المسلمين، ثم اختتم جلساته إلى وعد بأجل غير مسمى .

وخلاصة القول فى المؤتمر أنه لم ينجح – بتّة – فى الأمر الذى انعقد من أجله وهو خلافة الملك فؤاد .

وكان ابن سعود قد أعلن عن انعقاد مؤتمر إسلامي عام حدد له يوم ٢٠ ذى القعدة سنة ١٣٤٤ لعقد أولى جلساته ، وقد دعي إليه أكبر عدد من زعماء المسلمين وأئمتهم .

وقد وفد إلى مكة المكرمة من علماء المسلمين ممن وجهت اليهم الدعوة وممن لم توجه اليهم عدد كبير للحج وللاشتراك فى المؤتمر .

وترددت حكومة مصر ثم بعثت وفدا برئاسة الشيخ محمد الظواهري شيخ الجامع الأزهر ، كما اشتركت حكومة تركيا بوفد يمثلها ، وحضر المؤتمر وفد المجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين ، ووفد جمعية الخلافة الإسلامية بالهند ، ووفود تمثل ايران وافغانستان والهند واندنوسيا والعراق والشام وبعض بلدان المغرب ، وفيهم وفود رسمية وغير رسمية ، وحضرها علماء وأدباء وسياسيون بصفتهم الشخصية .

وعقد المؤتمر فى موعده المحدد له بمكة المكرمة فى مبنى يقع فى جياد ،وأعطي

الحضور الحرية التامة فى التفكير والقول ، وبحث ما يشاءون من الموضوعات على شرط ألا يبحث أمر تقرير مصير الحجاز ، لأن أهله قد قرروا مصيرهم ، وألا تبحث القضايا السياسية الدولية والخلافات الناشبة بين دول المسلمين وحكامها .

وافتتح المؤتمر بخطبة لابن سعود ألقاها أحد رجاله بالنيابة عنه ، وها هي ذى الخطبة :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمد الله الذى هدانا لهذا ،وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه ومن والاه .

أما بعد : فإنى أحييكم ، وأرحب بكم ، وأشكر لكم إجابتكم الدعوة إلى هذا المؤتمر .

أيها المسلمون الغُيُر ، لعل اجتماعكم هذا فى شكله وفى موضوعه أولُ اجتماع فى تاريخ الإسلام ، ونسأله تعالى أن يكون سنة حسنة تتكرر فى كل عام ، عملا بقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدوَانِ ﴾ وبإطلاق قوله عز وجل : ﴿ وَائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾

إنكم تعلمون أنه لم يكن فى العصور الماضية أدنى قيمة لما يسمى فى عرف هذا العصر بالرأي العام الإسلاميّ ، ولا بالرأي العام المحليّ بحيث يرجع إليه الحكام للتشاور فيما يجب من الإصلاح فى مهد الإسلام ، ومشرق نوره الذى عمّ الأنام ، وقد تولى أمر الحجاز دول كثيرة ، كان من خلفائها وسلاطينها من عُنُوا ضربا من العناية ببعض شئونه ، ومنهم من أراد أن يحسن فأساء بجهله ، ومنهم من لم يبال بأمره البتة ، فتركوا الأمراء المتولين لإدارته بالفعل ، يُلْحِدون فى الحرم ، ويفسدون فى الأرض ، ويظلمون السكان والحجاج ما شاءت لهم مطامعهم وأهواؤهم

وقد تفاقم البغي والعدوان بعد زوال سيادة الدول العثمانية عن هذه البــلاد ، وخلوص أمرها إلى الشريف حسين بن علي آخر أولئك الأمراء ، فاضطرب العالم الإسلامي كله من استبداده وظلمه ، ومن عجزه عن توطيد الأمن فى البلاد ، ومن جعلها تحت السيطرة الأجنبية غير الإسلامية ، كما هو منصوص فى مقررات نهضته الرسمية ، وفيما نشره فى جريدة القبلة . ولدينا مما ترك من أوراقه الخاصة بخطه ما هو أدل مما ذكر على جعل نفسه عاملا موظفا لبعض الدول الأجنبية .

وقد كنا معشرَ النجديين جيرانِ الحجاز عُرضة لبغيه وإيذائه لنا فى ديننـــا ودنيانا ، من رمي بالكفر ، ومنع من أداء فريضة الحج ، وإغراء لبعض رعايانا بالخروج علينا ، وغير ذلك مما لا محل لبسطه فى هذا الخطاب ؛ فلما بلغ السيل الزبى ، وثبت بالتشاور بين أهل الحل والعقد عندنا أنه يجب علينا شرعا إنقاذ مهد الإسلام من بغيه وظلمه عزمنا على ذلك وتوكلنا على الله فى تنفيذه ، وبذلنا أموالنا وأنفسنا في سبيله ، فأيدَنا الله بنصره ، وطهرنا البلاد المقدسة من بغيه وبغي ولـــده كما عاهدْنا الله وعدنا المسلمين .

وكان مما وعدْنا به وشرعنا فى تنفيذه الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي ؛ وقد بينا فى كتاب الدعوة إليه خطتنا ورأينا الشخصي فى حكومة الحجاز المستقبلة ، ومنه : الاستفتاء فى اختيار حاكم الحجاز بشروط ، منها (كما فى المادة الثانية) : أن حكومة الحجاز يجب أن تكون مستقلة فى داخليتها فقط ، والتصريح فى سائـــر الشروط أو الاسس بسلبها حق الاستقلال السياسي ، والاستقلال الاقتصادي ، والاستقلال الحربي ، وفحوى هذا أننا نحتفظ بهذا كله لنفسنا ، ويكون الاستقلال الإداري المذكور تحت إشراف العالم الإسلامي ليطمئن بصحة قولنا : إننا لا نقصد بإنقاذ الحجاز تملُّكَه والتسلط عليه بالمعنى الذى كان معهودا فيه .

وإنما لم أَعِد بمنحه الاستقلال المطلق لما أعلم وتعلمون من أنه ليس فيه قوة عسكرية خاضعة لهيئة شورى شعبية يمكن أن يحفظ بها الأمن العام ، وينفذ ما تصدره

الحكومة من الأحكام ، وتحول دون استبداد الأفراد ، واستعانتهم بالأجانب على حفظ سلطتهم في البلاد .

ولما انتهت حالة الحرب بإلقاء مقاليد البلاد إلينا رأى جمهور أهل البصيرة فيها أنه ليس من مصلحتهم انتظار عقد مؤتمر إسلامي للنظر في أمر حكومتهم على تلك الأسس الخمسة – المبينة في كتاب الدعوة إلى المؤتمر – لأنهم ليسوا على يقين من عقده ، ولا على ثقة من كون من عساهم يحضرونه أعلم بمصلحتهم من أنفسهم ، وأرسلوا إلينا وفدا كاشفَنا بأنهم يرون أن المصلحة المحتمة أن يحفظوا لبلادهم ما نالته من الاستقلال الدولي بشكل ملكي بأن يبايعونا ، فرددنا طلبهم ، واعتذرنا لهم ، ولكن شايعهم على ذلك أهل الحل والعقد من أهل نجد الذين هم العمدة في تطهير البلاد من الحكم السابق الجائر ، وهم العُدة لحفظ الأمن في البلاد الذي يتوقف عليه كل عمل وكل إصلاح فيها ، كما يتوقف عليه إقامة ركن الإسلام الذي لولاه لم يكن لأحد من المسلمين شأن يذكر فيها ، فاضطررت إلى قبول البَيعة ، ولم أر لي عنها أية مندوحة ، لأننا آل سعود لسنا ملوكا مستبدين ، ولا حكاما شخصيين ، بل نحن في بلادنا مقيدون بأحكام الشرع ، ورأى أهل الحل والعقد ولم تكن تلك الدعوة الشخصية إلى عقد المؤتمر بعذر شرعي يبيح لي مخالفتهم ، وإذا أنا خالفتهم بغير حجة شرعية يقبلونها فإنهم لا يطيعونني ، وفي ذلك من الفساد ما لا يخفى .

وقد بايعني جمهور الحضَر ، ورؤساء قبائل البادية ، وهؤلاء يعدُّون من أهل الحل والعقد ، لأن قبائلهم تتبعهم سلما وحربا .

على أنني رأيت أن قبول البيعة ، والعمل مع أهل البلاد بمقتضاها – لا بمقتضى الغلَب والقوة – لا يمنعني من الاستفادة من رأي أهل العلم والبصيرة من العالم الإسلامي ، لذلك وجهت الدعوة الثانية إلى عقد هذا المؤتمر ، وجعلت موضوعها أعم وأوسع من موضوع الدعوة السابقة .

أيها الإخوان ، إنكم تشاهدون بأعينكم ، وتسمعون بآذانكم ممن سبقكم إلى هذه الديار للحج والزيارة أن الأمن العام فى جميع بلاد الحجاز – حتى بين الحرمين الشريفين – بدرجة الكمال التى لم يُعرف مثلها ولا ما يقرب منها منذ قرون كثيرة ، بل لا يوجد ما يفوقها فى أرقى ممالك الدنيا نظاما وقوة ، ولله الفضل والمنة ، ففى بحبوحة هذا الأمن والحرية التى لا تتقيد إلا بأحكام الشرع أدعوكم إلى الائتمار والتشاور فى كل ما ترون من مصالح الحجاز الدينية والعمرانية ، والنظم التى يطمئن إليها العالم الإسلامي بإقامة شرع الله ، والتزام أحكامه وآداب دينه فى مهد الإسلام ومهبط الوحي ، وبتطهيره من البدع والخرافات والفواحش والمنكرات التى كانت فاشية فيه بدون نكير ، وباستقلاله المطلق ، وسلامته من كل نفوذ أجنبي .

أدعوكم إلى تدارك كل ما قصر فيه من قبلنا من المسلمين بتركهم وطن دينهم الذى بزغ منه نور الهد ى والعرفان فى ظلمات حالكة من الجهل وفساد الأخلاق والآداب ، أدعوكم إلى النظر فى كل وسيلة لجعل حرم الله وحرم رسوله أرقى معاهد العلوم علما وعرفانا ، وخير معاهد التربية تهذيبا وأدبا ، وأكمل بلاد الله صحة ونظافة ، وأولى البلاد الإسلامية بإحياء دعوة الإسلام .

كل شيء فى هذه البلاد يحتاج إلى الإصلاح ، وحكومته وأهله فى أشد الحاجة إلى مساعدة العالم الإسلامي لهما على هذا الإصلاح ، لأن فيه من يتعلم ما لا يتعلمون ، ويقدر على ما لا يتقدرون .

أيها المؤتمرون الكرام ، إنكم أحرار اليوم فى مؤتمركم هذا ، لا تقيدكم حكومة البلاد بشيء وراء ما يقيدكم به دينكم من التزام أحكامه إلا بشيء واحد سلبي ، وهو عدم الخوض فى السياسة الدولية ، وما بين بعض الشعوب الإسلامية وحكوماتها من خلاف ، فإن هذا من المصالح الموضعية الخاصة بتلك الشعوب .

إن المسلمين قد أهلكهم التفرق فى المذاهب والمشارب ، فائتمروا فى التأليف

منهم ، والتعاون على مصالحهم ومنافعهم العامة المشتركة ، وعدم جعل اختلاف المذاهب والأجناس سببا للعداوة بينهم : ﴿ واعتَصِموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفَرَّقوا واذكُروا نعمةَ الله عليكم إذْ كُنْتم أعداءً فألّفَ بيْن قلُوبِكُمْ فأصْبحتُمْ بنعمته إخواناً وكُنتمْ علىَ شفا حُفْرة من النّار فأنقذكُمْ منْها كذلك يُبيِّن الله لكم آياته لعلّكم تهتدُون ● ولتكُنْ منكم أمّةٌ يدعُون إلى الخير ويأمرُون بالمعروف وينهوْن عن المُنْكر وأولئك هم المفلحون ● ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلَفُوا من بعدِ ما جاءهُم البيِّنات وأولئك لَهم عذابٌ عظيم ﴾ .

وأسأل الله عزوجل أن يوفقني وإياكم لإقامة دينه الحق ، وخدمة حرمه وحرم رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، والتأليف بين جماعة المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

وأراد وفد مصر تعكير جو المؤتمر ، فأثاروا موضوعات خلافية في المذاهب الإسلامية وبخاصة المذهب الحنبلي الذى يعتنقه إمام الوهابية شيخ الإسلام العظيم محمد بن عبد الوهاب ، ولكن ممثلي الحكومة السعودية كانوا عقلاء ، فتركوا الوفد المصري يفرغ ما لديه ، وكان أشبه بالفرس الجموح من غير لجام ينتهى به عَدْوُه إلى اللغوب ، وهكذا كان ، وانتهى المؤتمر بقرارات وتوصيات تتصل بالأماني والآمال ، وأجل إلى العام القادم .

وفى سنة ١٣٤٥ حضر أكثر من حضروا مؤتمر السنة الماضية سنة ١٣٤٤ ولم يعقد قبل الحج ، لأن ابن سعود ورجال حكومته كانوا مشغولين بوفود بيت الله ، إذ بلغ عدد الحجاج أكثر من كل سنة مضت ، ومنذ تلك السنة حتى سنتنا هذه سنة ١٣٩٢ هـ لم يبلغ عددهم ما بلغه فى ذلك العام ، فقد كان عدد حجاج جاوا وحدهم أكثر من تسعين ألف حاج .

ولم يعقد المؤتمر الا فى غرة المحرم من سنة ١٣٤٦ بعد أن عاد منهم إلى أوطانهم خلال تلك الفترة حتى أول المحرم مئات الألوف برا وبحرا .

وكان يمثل المملكة السعودية الشيخ محمد كامل القصاب ، وكان حينئذ مدير

معارفها ، وأرسل اليه ابن سعود رسالة تحدد له غاية المؤتمر وموضوعات بحثه ، وها هي ذى الرسالة .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل إلى حضرة الفاضل الشيخ كامل القصاب ، سلمه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ؛ فانى بمناسبة اجتماعكم للبحث فى شأن المؤتمر أحب أن أطلعكم على ما لدينا من الرأي لتحيطوا به علماً ، ولتسيروا على هديه مع الجماعة فى اجتماعاتكم حتى لا نلتزم لاحد بشيء لا نحب ان نلتزم به.

إننى لا أسمح بعقد مؤتمر إسلامي فى هذه البلاد لجماعات غير مسؤولة ، وإنّ كل اجتماع لا تحضره الحكومات الإسلامية المستقلة لا يرجى منه فائدة ، والاساس ان تقبل جميع الشعوب والحكومات الإسلامية البرنامج الآتى :

١ ــ عدم التدخل فى الشؤون الداخلية للحجاز .

٢ ــ عدم الخوض فى الشؤون السياسية على الاطلاق .

٣ ــ النظر فقط فيما يفيد الحجاز ويحفظ حقوقه ، ويضمن راحة جميع الحجاج والوافدين .

وإنى لا أمنع جماعات الحجاج المسلمين من الاجتماع والتفكير فى شؤونهم وترقية الحجاز من الوجوه التى يرونها ، وتقديم ذلك للحكومة الحجازية كمناصحين لها ، ولكن اخبركم أن هذه الجماعة لا يصح لها أن تتكلم باسم العالم الإسلامي ، بل باسم من ينتدبها فقط .

وتقبلوا فائق احترامى — (الختم الملكي)

فى أول المحرم سنة ١٣٤٦ — عبد العزيز السعود

وعقد المؤتمر عديدا من الجلسات القصيرة ، ثم انفض دون أن يضع أي قرار ، وبختام جلساته لم يعد يعقد ، فقد تغيرت الاحوال والظروف ، ولم يعد هناك ما يدعو إلى تجديد عقده .

الجزء الخامس

- ابن سعود يحرر نفسه وبلاده
- ابن سعود ومصر والملك فؤاد
- ابن سعود والملك عبد الله
- ثورة الإخوان على ابن سعود
- فيصل الدويش
- وقعة السبلة
- بعد السبلة
- وراء الدويش
- في خباري وضحى
- ملكان يلتقيان
- ابن سعود والعراق
- جفاء يثمر قرباً
- توحيد المملكة
- ولاية العهد
- ابن رفادة
- الإدريسي يثور

ابن سعود يحرّر نفسه وبلاده

عندما انتهى حكم الحجاز كله إلى ابن سعود بعد نزول الملك علي بن الحسين عن العرش واتخذ طريقه بحرا إلى البلد الذى اختاره واجهت الحكومة السعودية مشاكل وقضايا جديدة ، فهناك السياسة الداخلية فى قطر متحضر ذى علاقات بالخارج ، وهناك السياسة الخارجية التى يجب أن تتخذ فيها الحيطة والحذر .

وكانت بريطانيا هي الدولة العظمى فى العالم التى خرجت من الحرب ظافرة وسيطرت على بلدان جديدة استعمرتها ، وما يزال اعداؤه من الهاشميين فى العراق وشرقي الاردن حكاما ذوى نفوذ ، وبلادهما تحت التاج البريطاني ، وإذا وقفت بريطانيا فى النزاع بين نجد والحجاز على الحياد لأنها لا ترغب فى السيطرة على الحجاز لأن بها الحرمين الشريفين المقدسين فانها لن تقف على الحياد فى نزاع ينشب بين نجد والعراق أو بين نجد والاردن ، لأنه نزاع بين بريطانيا ونجد .

وكان ابن سعود وابنه فيصل مدركين خطر معاهدة العقير المعقودة سنة ١٩١٥ التى تجعل نجدا وابن سعود تحت الحماية البريطانية ، وارادا فتح باب البحث والتفاوض مع بريطانيا ، فالحال فى سنة ١٩٢٧ غيرها فى سنة ١٩١٥ .

وكان من نصيب فيصل تولى الشؤون الخارجية قبل أن تكون لدى الحكومة

السعودية وزارة خارجية ، فاتصل بالانجليز وطلب اليهم فتح باب البحث من أجل معاهـــدة جديدة تحل محل معاهدة العقير التى لا يمكن أن تكون نافذة بعد أن أصبحت مملكة ابن سعود الجديدة أكبر ممالك ا لجزيرة العربية ، ولم تعد هناك أسباب تجعل لتلك المعاهدة أي قيمة غير قيمتها التاريخية .

ولكن الانجليز لم يستجيبوا للطلب السعودي ، بل آثروا التريث والأناة اللذين لم يكونا غير المطال والتسويف .

وبعد إلحاح من الحكومة السعودية لم تجد بريطانيا مفرا من إجابة الطلـــب السعودي ، وكان السير جلبرت كلايتون قد تسلم منصب المسئول عن السياسة العربية فوكل إليه إجراء المفاوضة مع تفويضه فى توقيع المعاهدة .

ووصل كلايتون إلى جدة وبدأ بحثه مع الأمير فيصل بن عبد العزيز نائب الملك فى الحجاز مندوبا مفوضا عن والده .

واظهرت هذه المفاوضة براعة فيصل وعبقريته السياسية ، فقد وفق للقضاء على معاهدة العقير التى وضعت ابن سعود تحت الحماية البريطانية ، وقيدت حريته فى الاتصال الخارجي ، وها هوذا نص المادة الثالثة والمادة الرابعة فى تلك المعاهدة المبرمة فى ٣ يناير سنة ١٩١٥ :

« ثالثا ــ يتعهد ابن سعود أن يمتنع عن كل مخابرة أو اتفاق أو معاهدة مـــع أية حكومة أو دولة أجنبية ، وعلاوة على ذلك فإنه يتعهد باعلام الحكومة البريطانية عن كل تعرض أو تجاوز يقع من قبل حكومة أخرى على الاراضى التى ذكرت آنفا .

رابعا ــ يتعهد ابن سعود ــ بصورة قطعية ــ ألا يتخلى ولا يبيع ولا يرهن ولا بصورة من الصور يقبل بترك قطعة أو التخلى عن الاراضى التى ذكرت آنفا ولا

يمنح امتيازا فى تلك الأراضى لدولة أجنبية أو لتبعية دولة أجنبية دون رضا الحكومة البريطانية ، وأنه يتبع نصائحها التى لا تضر بمصالحه » .

وقد وفق فيصل لمحو هذه المعاهدة وآثارها بمعاهدة جديدة عرفت بمعاهدة جدة ؛ حصلت بموجبها الحكومة السعودية على حقوقها كاملة ، وأصبحت لها السيادة التامة على أراضيها ، فهي حرة فى التخلى عما تشاء من أرضها ، بل حرة مثل حرية بريطانيا فى جزيرتها ، كما أن الحكومة السعودية حرة فى اتصالها بالعالم الخارجي كحرية بريطانيا .

وحرر فيصل بلاده بالمعاهدة الجديدة من كل القيود التى كبلتها بها الحكومة البريطانية ، وصارت حرة مستقلة لا دخل لدولة أو حكومة فى أي تصرف تتصرفه ، وقد اعترفت الحكومة البريطانية باستقلال « ممالك » ابن سعود استقلالا تاما مطلقا .

كما تضمنت المعاهدة الجديدة مادة خاصة تنص على أن المعاهدة المعقودة بين بريطانيا وابن سعود فى ديسمبر سنة ١٩١٥ « ملغاة ابتداء من تاريخ إبرام هذه المعاهدة » .

وكانت هذه المعاهدة فتحا جديدا لابن سعود ، فقد استرد حقوقه وبدأ يتمتع بها دون رقيب فى حدود مصالحه هو لا مصالح غيره .

وها هى ذى المعاهدة :

ان جلالة ملك بريطانيا وارلندا والممتلكات البريطانية وراء البحار وامبراطور الهند من جهة .

وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها من ناحية أخرى ، رغبة فى توطيد العلاقات الودية السائدة بينهما وتوثيقها وتأمين مصالحهما وتقويتها ، قد عزما على عقد معاهدة صداقة وحسن تفاهم ، لذلك اوفد صاحب الجلالة البريطانية حضرة

السر جلبرت كليتن مندوباً مفوضاً عنه ، وانتدب حضرة صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها صاحب السمو الملكى الامير فيصل بن عبد العزيز نجله ونائبه فى الحجاز مندوباً مفوضاً عنه .

بناء على ما تقدم وبعد الاطلاع على مستندات اعتمادهما والتثبت من صحتها قد اتفق سمو الامير فيصل بن عبد العزيز وحضرة السر جلبرت كليتن على المواد الآتية .

المادة الاولى – يعترف صاحب الجلالة البريطانية بالاستقلال التام المطلق لممالك حضرة صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها .

المادة الثانية – يسود السلم والصداقة بين صاحب الجلالة البريطانية وصاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ، ويتعهد كل من الفريقين ان يحافظ على حسن العلاقات مع الفريق الآخر ، وبأن يسعى بكل ما لديه من الوسائل لمنع استعمال بلاده قاعدة للأعمال غير المشروعة الموجهة ضد السلام والسكينة فى بلاد الفريق الآخر .

المادة الثالثة – يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بتسهيل اداء فريضة الحج لجميع الرعايا البريطانيين والاشخاص المتمتعين بالحماية البريطانية اسوة بسائر الحجاج ، ويعلن جلالة الملك بأن يكونوا امينين على اموالهم وأنفسهم فى اثناء اقامتهم فى الحجاز .

المادة الرابعة – يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بتسليم مخلفات من يتوفى فى البلاد التابعة لجلالته من الحجاج المذكورين آنفاً والذين ليس لهم فى بلاد جلالته اوصياء شرعيون إلى المعتمد البريطاني فى جدة أو من ينتدبه لذلك الغرض لايصالها لورثة الحاج المتوفى المستحقين بشرط ألا يكون تسليم تلك المخلفات إلى الممثل البريطاني إلا بعد ان تتم المعاملات بشأنها امام المحاكم

المختصة وتستوفى عليها الرسوم المقررة فى القوانين الحجازية النجدية .

المادة الخامسة — يعترف صاحب الجلالة البريطانية بالجنسية الحجازية والنجدية لجميع رعايا صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها عندما يوجدون فى بلاد صاحب الجلالة البريطانية أو البلاد المشمولة بحماية جلالته ، وكذلك يعترف صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بالجنسية البريطانية لجميع رعايا صاحب الجلالة البريطانية ولجميع الاشخاص المتمتعين بحماية جلالته عندما يوجدون فى بلاد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها على ان تراعى قواعد القانون الدولي المرعي بين الحكومات المستقلة .

المادة السادسة — يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بالمحافظة على علاقات حسن الجوار مع الكويت والبحرين ومشايخ قطر والساحل العماني الذين لهم معاهدات خاصة مع حكومة صاحب الجلالة البريطانية .

المادة السابعة — يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بأن يتعاون بكل ما لديه من الوسائل مع صاحب الجلالة البريطانية فى القضاء على الاتجار بالرقيق .

المادة الثامنة — على الفريقين المتعاقدين ابرام هذه المعاهدة وتبادل قرارات الابرام بأقرب وقت وتصير نافذة اعتباراً من تاريخ تبادل قرارات الابرام ، ويعمل بها مدة سبع سنوات ابتداء من ذلك التاريخ ، وان لم يعلن احد الفريقين المتعاقدين الفريق الآخر قبل انتهاء السنوات السبع بستة أشهر انه يريد ابطال المعاهدة تبقى نافذة ولا تعتبر باطلة إلا بعد مضي ستة أشهر من اليوم الذى يعلن فيه أحد الفريقين الفريق الآخر ابطالها .

المادة التاسعة — تعتبر المعاهدة المعقودة بين صاحب الجلالة البريطانية وصاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها فى ديسمبر ١٩١٥ يوم كان جلالته حاكماً

على نجد وما كان ملحقاً بها اذ ذاك ملغاة ابتداء من تاريخ ابرام هذه المعاهدة .

المادة العاشرة — دونت هذه المعاهدة باللغتين العربية والانكليزية ، وللنصين قيمة واحدة ، اما اذا وقع اختلاف فى تفسير قسم منها فيرجع إلى النص الانكليزي .

المادة الحادية عشرة — تعرف هذه المعاهدة جدة . وقعت هذه المعاهدة فى جدة يوم الجمعة ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٤٥ الموافق ٢٠ مايو سنة ١٩٢٧ .

* * *

ولهذه المعاهدة اربعة ملاحق : فقد تعهد الانكليز فى الاول باباحة تصدير الاسلحة والادوات الحربية إلى جزيرة العرب .

والثانى بشأن المحافظة على الحالة الراهنة فى الحدود بين الحجاز والاردن وفى منطقة معان والعقبة إلى أن تحين الظروف المناسبة لتسويتها تسوية نهائية .

والثالث بشأن عتق الرقيق .

والرابع بشأن مخلفات رعايا الدولتين .

ابن سعود ومصر والملك فؤاد

عندما دخل ابن سعود إلى مكة المكرمة وما تزال الحرب قائمة بينه وبين علي بن الحسين توسط الملك فؤاد لإصلاح ذات البين بين العاهلين العربيين ، وأرسل وفدا برئاسة العلامة الكبير الشيخ محمد مصطفى المراغي رئيس المحكمة العليا ، فاستقبلهم ابن سعود أحسن استقبال ، واصغى اليهم ، وسمع منهم ما لديهم ، فأجابهم بما أثلج صدورهم .

أجابهم بأن للملك فؤاد فى نفسه مكانة ، وفى قلبه مودة ، وذكر لهم أنه لا اعتراض لديه إذا بايعه المسلمون بالخلافة ، بل يؤيدهم فى ذلك إذا أجمعوا أمرهم عليه ، وسيكون أحدهم فى البيعة له .

وأما وساطة الملك فؤاد فيما شجر من خلاف وحرب بين ابن سعود وعلي بن الحسين فردُّ ابن سعود كان مقبولا لدى الوفد المصري ، فالانجليز قد توسطوا ، واعتذر لهم ، ولم يقبل وساطتهم ، وليس من السياسة قبول وساطة دولة بعد ذلك .

وكان الملك فؤاد راضيا عن ابن سعود ، أو على الأقل غير ساخط عليه ، بل سبق لابن سعود — قبل فتحه الحجاز — أن أرسل من الرياض تهنئة للملك فؤاد بمناسبة افتتاح أول برلمان مصري في يناير ١٩٢٤ (جمادى الاولى ١٣٤٢) .

وعندما أراد الدكتور عبد الهادى خليل طبيب التكية المصرية بمكة السفر إلى مصر لقضاء إجازته بها جاء يودع ابن سعود ، فحمله تحياته ومودته لملك مصر ، وذلك فى أوائل سنة ١٩٢٥ (١٣٤٣) وكان حينئذ لم يفتح جدة بعد ، وعاد طبيب التكية يحمل رد التحية من الملك فؤاد .

وعندما جاء الشيخ المراغي مع الوفد المرافق له عاد وهو يحمل من ابن سعود كتابا زاخرا بالعواطف الكريمة إلى الملك فؤاد .

وكل هذا برهان على حرص ابن سعود على مودة الملك فؤاد ورضاه ، وزاد من سروره أن ابن سعود وافق على تنصيبه خليفة المسلمين .

وعندما سافر الشيخ حافظ وهبه أحد مستشارى ابن سعود إلى مصر قبيل فتح جدة ليبحث مع الحكومة المصرية موضوع الحج المصري حمل رسالة رقيقة من ابن سعود إلى الملك فؤاد ، وتسنى لحافظ مقابلة فؤاد فى ١٩ ديسمبر ١٩٢٥ (الجمعة ٢ جمادى الآخرة ١٣٤٤) وسلمه كتاب ابن سعود ، ونقل إليه مشاعره الطيبة .

وسلمت جدة يوم السبت ٢٠ ديسمبر ١٩٢٥ (٣ جمادى الآخرة ١٣٤٤ ونشرت وكالات الانباء العالمية وصحف مصر خبر تسليم جدة ، ثم بعد أيام بايع الحجازيون ابن سعود وجعلوه ملكا عليهم .

وما كاد الملك فؤاد يطلع على هذه التطورات حتى غضب ، وفسر ذلك تفسيرا خاطئا ، إذ ظن أن ابن سعود غدر به ، فقد كان الملك فؤاد يمنى نفسه بخلافة المسلمين ، ومن ضروراتها أن يكون الحجاز تابعا للخلافة ، ومناداة ابن سعود بنفسه ملكا على الحجاز يسلخ الحرمين الشريفين من الخلافة ، وسلخه منها قضاء عليها .

ولما كان حافظ وهبه مندوب ابن سعود فى مصر فى تلك الأثناء وهو مصري الأصل ومعتز بمصريته فقد اتصل به المسئولون المصريون واستنكروا المناداة بابن سعود

ملكا على الحجاز ، وأيدهم حافظ وهبه بدليل برقية مفتوحة وجهها إلى ابن سعود ثم بكتاب ، وها هما ذان البرقية فالكتاب :

برقية حافظ وهبه

جلالة الملك ، جدة

أهنىء جلالتكم بمبايعة الشعب الحجازي لكم ، لقد سألني ملك مصر وغيره من رجال السياسة بعد ذيوع منشوركم عن تنظيم الحالة فى الحجاز على مسئوليتكم ، هل ألغيتم بتاتا فكرة المؤتمر أو لا تزالون على عهدكم الأول ؟ وما المسائل التى سيعهد إلى المؤتمر فى النظر فيها ، أرجو الجواب بالتفصيل تنويرا للأفكار . إنى مجتهد فى المحافظة على اكتساب الرأي العام المصري وحكومته . ننتظر الرد . مسافر بعد أسبوع .

١٠ يناير ١٩٢٦ حافظ

كتاب حافظ

من حافظ وهبه ، إلى صاحب الشوكة والعظمة ، الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل ، حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فأرجو لكم دوام التوفيق والنجاح وأفيدكم بأن روتر اليوم نشر تلغرافا بأنكم ناديتم بأنفسكم ملكا على الحجاز ، فإن كان هذا الامر صحيحا فقد غشكم من أشار عليكم بذلك ، لأن هذه المسألـــة أثارت الرأي العام فى الخارج ضدكم ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى إنه لا ينطبق مع العهود التى قطعتموها على أنفسكم أمام العالم الإسلامي وملوك المسلمين

فـــى تشكيل حكومة الحجاز ، ولو تريثتم قليلا لحين انعقاد المؤتمر الإسلامي ، وتقريره مصير البلاد لكان خيرا وأبقى ، والنتيجة كانت لكم على كل حال .

ويظهر أن هنالك أيديا أثيمة حسنت فى نظركم هذا الأمر حتى تقضي على فكرة المؤتمر الإسلامي ، وتقضي فى الوقت نفسه على سمعتكم فى الخارج .

لقد دهشت جدا من هذا الانقلاب ، ودهشت بالأكثر من عدم إخبـــارى بشيء مطلقا يتعلق بهذا الأمر مع وجودى فى مهمة رسمية وفى بلاد متمدينة يسأل الناس فيها عن كل شيء ، أفلا يصح أن أُخْبَر بمثل هذا الانقلاب العظيم ؟ .

هل يصح أن قنصل العجم فى جُدة يرسل إلى السفير هنا هذا الخبر وأنتم لا تخبرونى بشيء ؟ .

إن هذه المعاملة لا أرضاها لنفسى أبدا ، ولا أرضى أن تعاملوا بها أحدا .

وعلى كل حال فأنا متوجه إليكم فى تاريخ ٢١ فى الشهر الافرنجي ، وإذا وصلت أطلعكم على كل شيء ، وقد سحبنا لكم اليوم تلغرافا بذلك ، ومنتظـــر الجواب على ذلك تفصيلا ، لنحيط علما بأصل الموضوع .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته　　　　　　　　　　حافظ

وفى ٨ يناير ١٩٢٦ وصلت إلى حافظ وهبه البرقية الآتية :

الشيخ حافظ وهبة　　　　　　　　　　مصر ــ كونتننتال

مندوب ملك الحجاز وسلطان نجد

لقد أجمع الحجازيون وبايعوا جلالة الإمام ملكا على الحجاز ، وسلطانا على نجد وتوابعها على سنة الله ورسوله والخلفاء الراشدين بَيعة شرعية تحت الكعبة ،

وقد بلغنا ممثلي الحكومات بجدة رسميا ، وقبلنا تبريكهم . كافة البلاد بسرور وفرح عام. الوفود تتوارد من أقصى البلاد لتهنئة صاحب الجلالة الملك بمكة. التفصيل بالبريد

عبدالله الدملوجي
نائب صاحب الجلالة بجدة

يقول حافظ وهبه فى كتابه «خمسون عاماً فى جزيرة العرب» صفحة ١٣٣–١٣٤

« لقد كان لهذا الإعلان أثر غير حسن فى القصر الملكي بمصر ، وعدّوا هذا نقضا للعهد الذى تعهد به الملك عبد العزيز ، ولذلك شعرت بحرَج عظيم ، فأرسلت البرقية الآتية :

جلالة الملك . جُدّة .

أهنئ جلالتكم بمبايعة الشعب الحجازى لكم . لقد سألنى ملك مصر وغيره من رجال السياسة بعد ذيوع منشوركم ، عن تنظيم الحالة فى الحجاز على مسئوليتكم : هل ألغيتم بتاتا فكرة المؤتمر ، أو لا تزالون على عهدكم الأول ؟ وما المسائل التى سيعهد إلى المؤتمر فى النظر فيها ؟ أرجو الجواب بالتفصيل ، تنويرا للأفكار ، إنى مجتهد فى المحافظة على أكتساب الرأى العام المصرى وحكومته ، منتظر الرد ، مسافر بعد أسبوع .

حافظ   ١٠ يناير ١٩٢٦

وقد أتبعتُ البرقية السابقة الكتابَ الآتى ، وهو كما يرى القارىء الكريم لا يخلو من شدة أملتها علي حرارة الشباب ، ولكن الملك عبد العزيز قابل هذا الكتاب والبرقية السابقة بصدر واسع ، ولم يلق بالا لما فيها الشدة ، لانه كان يعلم تمام العلم عظيم إخلاصى له وحرصى العظيم على سمعته في الخارج» .

وأسلوب الكتاب غاية فى العنف ، ودل على أن حافظ وهبه جهل حق أهل الحجاز ، واتهامه الموجه إلى أقطابهم من أهل العقد والحل تطاول من

حافظ عليهم وعلى الحق وعلى ابن سعود نفسه ، وغضب الحجازيون حينما علموا بكتابه هذا ، وردوا عليه فى عنف أشد ، ولهم الحق .

وبلغ من سخط حافظ وانفعاله أنه لم يلقب ابن سعود بلقبه الرسمي « الملك » كأنه يشارك المصريين عدم الاعتراف ، وأغراه تسامح ابن سعود إلى اتخاذ ذلك الأسلوب العنيف فى رسالته ، وأعطى نفسه الحق فى محاسبته ومحاسبة الحجازيين فى استعمال حقهم الطبيعي والشرعي .

وعجيب من حافظ أن يسمي إعلان البيعة وإجراءاتها الشرعية انقلابا ، وما أشك ـ الآن وبعد أن عرفت حافظا وخبرته ـ أنه أراد أن يُري إخوانه المصريين مكانته وأنه فى مقام الموجه لابن سعود فكتب ذلك الكتاب .

ومن المؤسف أن مؤلّف حافظ وهبه المسمى « خمسون عاما فى جزيرة العرب» زاخر بالدعاوى العريضة ، فقد جعل من نفسه الرأس المدبر لكل حركات ابن سعود قبيل فتح الحجاز حتى انتهاء الفتح وما بعده بفترات ، والمخطط لكل برامجها والموجه لابن سعود .

وعلى أي حال عفا ابن سعود عن حافظ ، فقد تهالك على يديه تقبيلا ولثما ، وانتهى أمر كتابه الذى نشرناه للتاريخ ، وبلغ من سماحة ابن سعود أن أجابه ببرقية أراد منها أن يطّلع المصريون على حقيقة الأمر ، وها هو ذا جوابه البرقي :

مصر كونتننتال ـ حافظ وهبة :

ج ـ إعلان أهل الحجاز ملكيتنا على الحجاز صحيح ، وقد أمرنا عبدالله أفندى [1] ليبرق لكم من جدة بعض ما يلزم ، أما العهود المتكررة منا للعالم الإسلامي فلم نخالفها ، وقد دعونا العالم االإسلامي دعوات عامة ودعوات خاصة متكررة فلم يصلنا جواب من أحد فى تلبية دعوتنا ، ومع ذلك إننا على استعداد

(١) هو الدكتور عبد الله الدملوجي .

لقبول آراء العالم الإسلامي فى كل شأن له مساس براحة الحجاج والزوار ورفاهيتهم وإجراء أعمال الخير فى الحجاز .

أما السرعة فى أمر النداء بملكيتنا على الحجاز فكنت أود من صميم قلبي أن لو تأخر ذلك ، ولكن ألجأونا إلى ذلك مضطرين ، فإن أهل الحجاز قاموا قومة رجل واحد يلزموننا قبول البيعة ، فطلبنا منهم التريّث إلى أن يُجمِع المسلمون أمرهم ، فأجابونا : إنك أعطيتنا الحرية فى اختيار حكّم لنا ، وهذا حق لنا لا يشاركنا فيه أحد ، ونحن لا نبغى بك بديلا ، ومع ذلك توقفت قليلا عن الجواب ، فبلغ أهل نجد توقفى ، فقامت قيامتهم عليّ ، وأعلنونى أن حربهم فى الحجاز لم تكن إلا لحفظ استقلال الحجاز ، ومنع أي تدخل أجنبي فيه لتكون كلمة الله هي العليا ، وليعمل فى هذه الديار بشرع الله وسنة رسوله ، ولتأمين الطرق ، ومنع الإلحاد فى الحجاز ، وهذا ما وعدْتنا إياه ، وإن توقفك عن قبول البيعة تجعلنا نعتقد أنك لم تقاتل إلا لأغراض ، ولا تسعى لاستقلال الحجاز ، وإنك إذا لم تقبل البيعة فقد فعلت معصية ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

فإزاء هذا الموقف الحرج الذى يتوقف عليه أمن الحجاز الحاضر واستقرار الأمر فيه لم أجد بُدّا من تلبية الدعوة ، فقبلت البيعة متوكلا على الله ، وإننى لا أزال على عهدى من رعاية ما للمسلمين من الحقوق المشروعة فى هذه الديار المقدسة .

والله ولي التوفيق . ملك الحجاز وسلطان نجد

عبد العزيز السعود

ويقول حافظ وهبه فى صفحة ١٣٦ من كتابه « خمسون عاما فى جزيرة العرب » الطبعة الأولى :

« ولقد صارحنى الملك فؤاد فى زيارتى الأخيرة للوداع فى ١٨ يناير ١٩٢٦ بأن إعلان السلطان عبد العزيز نفسه ملكا على الحجاز يُعدّ نقضا لكتابه الـذى

أرسله الي مع الشيخ مصطفى المراغي ، ونقضا لكلامك الأول ، وإنى لا أحمّلك أنت أية مسئولية ، لأنك كنت بعيدا عن هذه الحركة » .

ولم يدفع حافظ نقد الملك فؤاد ، فابن سعود لم يعمل نقيض ما فى كتابه لفؤاد ، فهو لم يتعهد بأنه لن يقبل من أهل الحجاز قرارهم فى انتخاب حاكمهم .

وكان الحجازيون ساخطين على الشيخ حافظ وهبه ، فلما عاد من مصر إلى الحجاز ناقشوه ، وتولى مناقشته عنهم السيد صالح شطا ، وعنف فى الرد عليه ، وذكر له أن أهل الحجاز أحرار فى رأيهم وتصرفاتهم ، وليس للملك فؤاد سلطان أو دالة عليهم ، ولا يملك هو ولا ابن سعود تقرير مصيرهم ، وإذا كان ابن سعود الفاتح الغالب لم يجعل غلبته أداة تحكم وتسلط فكيف يعطى الملك فؤاد نفسه حق استنكار ما هو حق طبيعي وشرعي لهم ؟ .

وقال له صالح شطا : أتظن أنت أو الملك فؤاد أن ابن سعود نادى بنفسه ملكا على الحجاز ؟ لا ، إن الحجازيين هم الذين جعلوه ملكا على بلادهم .

واتهم السيد صالح شطا الشيخ حافظا بالولاء المزدوج ، وتخاصما حتى انتهى بهما خصامهما إلى ابن سعود نفسه فاعتذر عن حافظ ورجا اعتبار ما صدر منه كأن لم يكن .

ومنذ إعلان أهل الحجاز بيعتهم لابن سعود اشتد حقد الملك فؤاد عليه ،وتجهم له ، ثم وقعت أحداث زادت من ذلك الحقد ، ومن هذه الأحداث : تخلف ابن سعود عن تلبية دعوة رئيس المؤتمر الإسلامي الأعلى للخلافة الشيخ محمد أبىالفضل بعد أن وعده بحضوره بإرسال من يمثله ، فقد انعقد دون أن يحضره من يمثل الحجاز ، ولذلك أخفق المؤتمر الذى كان مقررا أن ينتهي إلى إعداد ما يحقق مطمع الملك فؤاد فى مبايعته بالخلافة .

وسرت عدوى حقد الملك فؤاد على ابن سعود منه إلى المصريين والحكومة

المصرية ، فجاء المحمل المصري بقيادة أمير الحج المصري محمود عزمى باشا وهو ممتلىء غيظا وحنقا وحقدا ، وكان مع المحمل المصري جند وحراس مسلحون بمدافع ورشاشات وكأنه حملة عسكرية لا محمل ينقل كسوة الكعبة المشرفة .

ورأى ابن سعود كل ذلك فغض النظر عنه ، لأنه لا يريد إثارة الفتنة ، وفى اليوم الثامن من شهر ذى الحجة سنة ١٣٤٤ اتخذ المحمل المصري طريقه إلى منى ثم المزدلفة ليصعد إلى عرفات فى هيئة لا تجيزها شريعة الإسلام دينيا ولا قوانين الدول سياسيا .

فالمحمل المصري تصحبه فرقة الموسيقى والخيالة والرشاشات والمدافع ، ويصحبه الجنود المدججون بالسلاح ، ومعهم طبول وزمور وألعاب نارية تطلق فى السماء .

وليس من العدل ولا من العرف الدولي أن تأتي فرقة عسكرية من أرضها إلى أرض أجنبية تستعرض قواها الحربية ، وتتطاول وتتكبر بالاستعراض على الدولة الأخرى التى تدخل أرضها سلما .

وتعظم المصيبة إذا كانت الفرقة العسكرية تدجّج نفسها بمختلف ضروب الأسلحة ثم تأتى للحج حيث لا رفث ولا فسوق ولا جدال .

وإذا كانت القوانين الدولية لا تبيح ذلك فان دين الإسلام يحرم أن تأتي فرقة عسكرية مسلحة بمدافعها ورشاشاتها ومصحوبة بفرقة موسيقية بين مئات الآلاف من الحجاج الآمنين المسالمين .

والمحمل المصري بتلك الهيئة بدعة منكرة يحاربها الإسلام ، والحج من اعظم شعائره وأجل فرائضه ، ولا يجوز بحال من الأحوال أن تكون مناسك الحج ميدانا للقتال والقتل ، ومباءة لبدع ومنكرات .

وأنكر علماء الحجاز ونجد على المحمل حالة البدع التي هو غارق فيها ، ولم

يكن فى إنكارها من العنف شيء ، بل كان الإنكار نصحا رفيقا وعظة هينة لينة ، ولكن المصريين استكبروا على نصح الناصحين ، وأحالوا مناسك الحج التى لا يمكن إلا أن تكون سلاما محضا وخالصا كل الخلوص حتى من الكلمة النابية أو النظر الشزر ميادين حرب وقتال ، فقد لعلعت المدافع وانطلقت قذائفها وقذائف الرشاشات على الحجاج الآمنين رجالا ونساء وأطفالا ، وسقط منهم قتلى .

كان آلاف من الجيش السعودي حاضرين لكنهم حجاج لا يحمل أحد منهم أي سلاح ، مطيعون أمر الله لا أمر ابن سعود بأن تؤدى فريضة الحج بدون أذى ولا رفث ولا فسوق ولا جدال .

حرم الله الرفث ومنه مخاطبة الرجل زوجته مخاطبة شهوة ، مع أن ذلك ليس بحرام إلا فى الحج والعمرة ، وحرم الفسق بجميع ضروبه لأنه خروج عن طاعة الله ، بل حرم الجدال الذى هو الحوار الجاف .

إذا كان مثل ذلك محرما فى الحج فعدوان الفرقة العسكرية المصاحبة للمحمل المصري على الحجاج الآمنين محرم أشد تحريم .

وقد غلب دويُّ القنابل وأزيز الرصاص تلبية الحجاج ، وصار طريقهم ميدان حرب وقتال وقتل من طرف واحد ، وأسرع الملك ببعث ابنه فيصل ليقف العدوان على الحجاج ، فمضى ومعه بعض رجاله بدون سلاح إلى أمير الحج المصري وقائد المعركة وعليهم ظلة من النار فوق رؤوسهم ، وبعد حديث طويل وقف إطلاق النار .

وغضب الحجاج ، وأراد بعض من اشتد بهم الغضب منهم إلى الفتك بالحجاج المصريين فتصدى لهم فيصل ونصح لهم بالتزام أمر الله الذى يحرم كل عدوان ، وساد السلم جو الحج والحجاج .

ومن الغريب والمؤسف أن يأتي الشيخ حافظ وهبه بعد أن مضى على هذا

الحادث ست و ثلاثون سنةمن يومه إلى يوم طبع كتابه « خمسون عاما » سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠ م) ليطعن المنكرين على البدع فيقول فى صفحة ١٤٥ :

« الاخوان عقولهم ضعيفة ، وهم يملأون الحرم وطرق مكة ، وهم ممتلئون حنقا على المحمل وأهل المحمل ، اذا صاح النفير قالوا : إن هذه دعوة الشيطان ، فهاجوا وماجوا ، وطلب منى أن أطلب من أمير الحج أن يقف صياح النفير لا اعتقادا من الملك أو من رجال حكومته بأن ذلك كان لدعوة الشيطان ، وإنما كان دفعا لإثارة فتنة جماعة الاخوان الجهلاء » .

والذين أنكروا على المحمل ما أنكروا لم يكونوا جهلاء الاخوان ، بل كانوا العلماء ، وفيهم علماء مكة والمدينة والحجاز ، فهم لا يقرون البدع التى تصحب المحمل ، فالنفير ليس لدعوة الشيطان ، ولكنه نداء لا يتفق مع نداء الرحمن ، ولا يجوز إفساد التلبية تنطلق من حناجر المؤمنين بصوت النفير المزعج فى ذلك الجو الروحاني .

وليس الاخوان وحدهم المنكرين على المحمل بدعه ، فالامام محمد عبده سبق هؤلاء بإنكاره وأفتى بأن المحمل نفسه بدعة ، وما زال كبار علماء الأزهر يحرمون تلك البدع ، وفى فتاوى الشيخ محمود شلتوت فتوى تحريمها .

وأشعلت فتنة المحمل مزيدا من حقد الملك فؤاد على ابن سعود ، واشتد عناده واصراره على عدم الاعتراف به ملكا على الحجاز ، وأضاف إلى ذلك حرمان الحرمين الشريفين من حقوقهما فى أوقافهما ، فمنع الكسوة المخصصة للكعبة المعظمة ، ومنع الصدقات عن فقراء الحرمين .

ولم تكن الكسوة المشرفةهبة من حكومة مصر ، بل ريع أوقاف وقفها واقفوها أصحابها من أغنياء المسلمين على الحرمين الشريفين ، فهو حقهما الذى لا يجوز

لأحد يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ان يعبث به أو يمنعه عن مستحقه حسب شرط الواقفين .

فقيمة الكسوة وأجور العمال وكل ما ينفق على المحمل من أوقاف الحرمين ، وكذلك صدقات فقرائهما .

وظنت الحكومة المصرية ان منع الكسوة يحرج ابن سعود أمام وفود بيت الله ، لأنها اعتقدت أن أحدا لا يستطيع صنعها ، وعندما يحين موعد تغييرها بأخرى جديدة يضطر ابن سعود إلى بقاء الكسوة القديمة ، كما اعتقدت أن حكومة ابن سعود لا تستطيع تأمين نفقات الكسوة .

إلا أن ابن سعود أسس مصنعاً كبيرا لصنع الكسوة في مكان قريب من الحرم ، وعلى أيدى عمال حجازيين ، ويشاء الله أن تكون الكسوة التى نسجت خيوطها وحزامها الذهبي أيد حجازية مكية خيرا من كسوة مصر بفضل الله وكرمه ، وجاء موعد الكسوة فاذا الكعبة تكسى كسوة رائعة جميلة فاخرة .

ومنذ ذلك الحين أخذت مكة — شرفها الله — تكسو الكعبة المعظمة حتى عادت مصر بعد سنوات معدودة تكسوها ، ثم عادت فقطعتها ، فاضطرت الحكومة السعودية أن تشيد مصنعا عظيما لصناعة ثوب الكعبة بمكة المكرمة .

وتوالت الحملات الصحفية والاثارة والانتقاص من مصر وابنُ سعود ملتزم جانب الأناة والصبر ، ومؤثر اللين على العنف ، والمودة على البغضاء ، وأخذ يغضى عن اساءات الملك فؤاد رجاء أن يهتدي .

وعقب فتح الحجاز أراد ابن سعود أن يفتح مع مصر عهدا جديدا في تاريخ العلاقات السياسية بين الحجاز ومصر فأنشأ بالقاهرة سنة ١٩٢٥ « وكالة » ترعى مصالح السعوديين بمصر ، ورجا أن تعترف الحكومة المصرية بها ، وتعاملها

معاملتها لسائر الوكالات السياسية التي تماثل الوكالة السعودية ، ولكن شيئا مما كان يرجوه ابن سعود لم يقع ، بل وقع نقيض رجائه .

وبلغ التجاهل والاستكبار بحكومة مصر أن لها بجدة « قنصلية » اعترف بها ابن سعود ، وعاملها بأزيد مما يعامل القنصليات الأخرى ، وكان يراها قنصلية مصر التي يحبها ويعتدها شقيقة لبلاده .

وبقيت أبواب القنصلية مفتوحة من سنة تأسيس الوكالة السعودية بمصر سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٢٩ وابن سعود يرجو خلالها معاملته بمثل ما عامل مصر التي تجاهلته كل التجاهل ، هي لا تعترف بابن سعود ولا بوكالته بالقاهرة ، وترى ذلك لا غبار عليه ومن حقها أن تعمله ؛ في حين أن مملكة الحجاز وسلطنة نجد وملحقاتها تعترف بمصر ومليكها وحكومتها وبقنصليتها بجدة .

وطال انتظار ابن سعود لاعتراف مصر بوكالته فيها ، ولكنها لم تعترف ، وتأكد له أن حكومة مصر مصرة على تجاهلها وموقفها العدائي ، وكلما فتح بابا للتفاهم والتقارب أغلقته بعنف في وجهه ، ودأبت صحافة مصر على مهاجمة ابن سعود والنجديين والتجني عليهم، وهنا رأى ابن سعود أن يقابل التجنيات والتحديات بعمل تجيزه القوانين والأعراف الدولية فأمر بإغلاق القنصلية الملكية المصرية بجدة ، فثارت مصر ، واحتج قنصلها احتجاجاً شديدا ، ومع ذلك لم يبد من ابن سعود ما يسيء ، وأغلقت القنصلية سنة ١٩٢٩ وعاد القنصل المصري ومن معه من الموظفين إلى بلادهم .

وأما استكبار مصر وتجاهلها وتجني صحافتها على ابن سعود ومملكته وعلى النجديين فلم يقابل ذلك كله إلا بالعفو ، وكان يبذل المساعي الكبيرة لـدى الحكومات المصرية المتعاقبة لتقبل إنشاء علاقات ودية حسنة دون أن يصل إلى ما يرجو .

بذل مساعيه لدى حكومة سعد زغلول ثم حكومة ثروت باشا ثم حكومة مصطفى النحاس باشا ولكنها لم تنجح ، بل كانت الحكومات المصرية تتعقب حكومة ابن سعود في تصرفاتها الداخلية وتنتقدها بغير حق .

ومن ذلك أن الحكومة السعودية أصدرت نظام الجنسية الحجازية في يوم ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٤٥ هـ (أغسطس ١٩٢٦) ونص النظام على أن يعتبر حجازيا كل من ولد في الحجاز ، وكل من كان يحمل التبعية العثمانية قبل الحرب العامة سواء أكان من أبناء الحجاز الأصليين أم كان من المقيمين من أبناء الاقطار الاسلامية والعربية ، كما نص على أن لكل مقيم بالحجاز بلغ سن الرشد وأقام ثلاث سنوات متوالية الحق في الحصول على الجنسية الحجازية .

وهذا حق من حقوق حكومة الحجاز ، ولا يمكن أن يعترض معترض على هذا الحق الذى يخوله إياه كل عرف وقانون وشرع ، ولكن حكومة مصر لم يرضها هذا الحق ، فاعترضت على حكومة الحجاز ، وطلبت منها تعديل النظام ، ولكن حكومة الحجاز لم ترد إلا بأدب ، إذ ذكرت أن النظام تدبير اقتضته المصلحة .

والقارىء مدرك أن تصرف حكومة مصر مجاوزة منها لحدها ، فاذا كان بالحجاز مصري – مثلا – تنطبق عليه شروط الحصول على الجنسية الحجازية وأبى فالنظام لا يجبره ، فهو حر أن يحصل عليها أو يدعها ، وحر في الإقامة بنظامها أو يغادر ويأخذ معه كل ما يملك وهو آمن .

وتوفي الملك فؤاد فى ٢٦ إبريل ١٩٣٦ (١٣٥٥ هـ) وحكومة مصر لم تعترف بابن سعود ملكا على الحجاز ، مع أن كل الدول الكبرى وفى طليعتها بريطانيا العظمى التى تستعمر مصر وتحتلها قد اعترفت به ملكا على الحجاز .

وبذلت حكومة ابن سعود محاولة جديدة ، فقد مات الملك فؤاد الذى كان

وراء عدم الاعتراف ، وخلفه ابنه الملك فاروق وكان قاصرا فتولى عنه مجلس وصاية وكل إلى على ماهر باشا تشكيل الوزارة التى كانت أول وزارة تتألف في عهد مجلس الوصاية .

وكان على ماهر يرى غير رأي فؤاد والحكومات السابقة ، فلما اتصلت به حكومة ابن سعود لبحث موضوع إنشاء علاقات دبلوماسية لم يجد ما يمنع ذلك ، فوافق ، وتمت معاهدة بين الحكومتين : السعودية والمصرية ، بدأ بها عهد جديد بين الدولتين ، وها هى ذى المعاهدة .

حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية

ومجلس وزراء المملكة المصرية متولياً حقوق جلالة ملك مصر الدستورية

نظرا لما لدى المملكتين العربية السعودية والمصرية مـــن خالص الرغبة فى توثيق عرى الصداقة بينهما قد اتفقا على عقد معاهدة تثبت فيها قواعد علاقاتهما الودية ، وعيّنا لهذا الغرض مندوبيهما المفوضين .

من لدن حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية حضرة صاحب السعادة فؤاد حمزة وكيل وزارة الخارجية .

ومن لدن مجلس وزراء المملكة المصرية حضرة صاحب الدولة علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية اللذين بعد ان تبادلا وثائق تفويضهما وتبينا صحتها ومطابقتها للاصول المرعية اتفقا على الأحكام الآتية :

المادة الاولى — تعترف الحكومة المصرية بأن المملكة العربية السعودية دولة حرة ذات سيادة مستقلة استقلالاً تاماً مطلقاً .

المادة الثانية — يكون بين المملكة المصرية والمملكة العربية السعودية وبين رعاياهما سلام دائم وصداقة خالصة .

ويتعهد كل من الفريقين المتعاقدين بأن يحافظ على حسن العلاقات مع الطرف الآخر ، وأن يسعى بكل ما لديه من الوسائل لمنع استعمال بلاده قاعدة للاعمال غير المشروعة الموجهة ضد السلم والسكينة فى بلاد الفريق الآخر .

المادة الثالثة ــ تنشأ بين المملكتين العربية السعودية والمصرية علاقات التمثيل السياسي والقنصلي ، ويعامل المثلون السياسيون والقنصليون الذين يعتمدهم احد الفريقين المتعاقدين أو يعينهم لدى الفريق الآخر وفقاً للاصول المرعية فى القانون الدولي العام على ان يكون ذلك على اساس التبادل .

المادة الرابعة ــ يتعهد صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية بتسهيل أداء فريضة الحج وإقامة الشعائر الدينية للمسلمين رعايا مصر ، ويعلن أنهم يتمتعون اثناء اقامتهم فى الحجاز بالامن على اموالهم وانفسهم وبالحرية الشخصية فى الحدود الشرعية ؛ وعلى العموم بالمعاملة والحقوق الممنوحة أو المعترف بها لأولى الامم بالتفضيل .

المادة الخامسة ــ عملاً بالتضامن والتعاون الاسلامي يوافق صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية على تمكين الحكومة المصرية اذا رأت من مصلحة الحجاج وزوّار المدينة التطوع لعمارة الحرمين الشريفين أو اصلاح المرافق المتصلة بهما من تلك العمارة ، كما يوافق على عمل كل التسهيلات اللازمة لقيام الحكومة المصرية بهما .

وتشمل المرافق المشار اليها تعبيد الطرق التى يسلكها الحجاج أو الزوار ، وإضاءة الحرمين وما حولهما ، وتوفير ماء الشرب وغير ذلك من الاعمال والمنشآت التى ترمى إلى توفير راحة الحجاج والزوار والمحافظة على صحتهم .

وتتفق الحكومتان مقدماً على التصميمات الخاصة بالاعمال المشار اليها .

المادة السادسة ــ يتعهد الطرفان المتعاقدان بأن يقوما فى أقرب فرصة ممكنة

بعد توقيع هذه المعاهدة بمفاوضات ودية لحل المسائل المعلقة بينهما ، ولعقد اتفاقات جمركية وبريدية وملاحية وغير ذلك من الشؤون التى تهم بلاديهما .

المادة السابعة — حررت هذه المعاهدة من اصلين باللغة العربية ، ويجرى ابرامها والتصديق عليها من الطرفين المتعاقدين فى أقرب وقت ممكن ، ولا تصبح نافذة إلا من تاريخ تبادل وثائق التصديق التى تكون فى القاهرة .

عمل بالقاهرة فى ١٦ صفر سنة ١٣٥٥ (٧ مايو سنة ١٩٣٦)

ومع أن حسن النية كان يسود العهد الجديد فى تاريخ العلاقات السعودية المصرية فإن المادة السادسة من المعاهدة بقيت بدون تنفيذ من الجانب المصري ، وجرت اتصالات بين الحكومتين تم على أساسها شخوص وكيل وزارة الخارجية السعودية الشيخ فؤاد حمزة إلى مصر فى أواخر شهر شعبان ١٣٥٥ (نوفمبر ١٩٣٦) لاستئناف البحث والتفاوض مع الحكومة المصرية التى كان رئيس وزرائها النحاس باشا .

وقدم فؤاد حمزة مذكرة إلى النحاس باشا ، هذا نصها :

« بمناسبة ما اعربتم عنه دولتكم من رغبة الحكومة المصرية فى الوقوف قبل دخول موسم الحج على مقدار الرسوم والعوائد والتكاليف التى تقرر على الحج في كل عام أتشرف بأن احيطكم علماً بأن السلطات المختصة فى حكومة المملكة العربية السعودية تضع تعريفة مفصلة للعوائد والرسوم والتكاليف المقررة وتعلنها قبل موسم الحج فى كل عام ، ويسر حكومة جلالة الملك أن تبلغها إلى الحكومة المصرية عقب صدورها لكي تعلنها فى الوقت المناسب على الراغبين فى الحج من رعاياها » .

القاهرة فى ٤ رمضان سنة ١٣٥٥ (٨ نوفمبر ١٩٣٦)

ونجحت المفاوضات بين الجانبين نجاحا رائعا تفصح عنه المذكرات الثلاث التى بعثها النحاس باشا إلى فؤاد حمزة التى تضمنت المسائل التى بحثت بينهما ، وها هي ذى المذكرات الثلاث :

١

مـــن أكبر دواعى السرور لدي أن أبلغ سعادتكم ان حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك مصر تعتزم استئناف ارسال الكسوة الخاصة بالكعبة المشرفة منذ الموسم القادم ، وسيقوم المحمل المرافق لهذه الكسوة من القاهرة فى الوقت الذى كان معتادا أن يقوم فيه ، وعند وصولهما إلى جدة يستقر المحمل فيهـــا وتوجه الكسوة إلى مكة حيث توضع على الكعبة بالاحتفال اللائق بكرامة المكان ومقام الجالس على عرش الحجاز .

وسيطرز على الكسوة اشارة إلى انها « أهديت إلى الكعبة المشرفة فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية ».

٢

« يسرنى أن أبلغ سعادتكم ان حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك مصر تعتزم اتخاذ التدابير اللازمة لاعادة صرف الصدقات لفقراء الحجاز ؛ ولاستئناف صرف فاضل غلة اوقاف الحرمين الشريفين والاراضى المقدسة ، وذلك ابتداء من موسم الحج القادم .

« وستعين الحكومة المصرية من يتولى الإشراف على صرف الصدقات التى ترسلها ، وهي تعتزم ان تنفق من الاموال التى كانت تخصصها للصدقات ومن فاضل غلات الاوقاف المذكورة فى حدود القواعد الشرعية لعمارة الحرمين الشريفين ، ولإصلاح المرافق المتصلة بهما .

وستبلغ الحكومة المصرية إلى الحكومة السعودية ما تضعه من البرامج لأعمال العمارة والاصلاح فى حينه تمهيداً لاتفاق الحكومتين على التصميمات الخاصة بتلك الاعمال » .

٣

« أتشرف أن اثبت فيما يلي القواعد التى اتفق عليها بشأن جنسية المصريين الذين كانوا مقيمين بأراضى الحكومة العربية السعودية فى وقت صدور نظام التابعية الحجازية وجنسية العرب السعوديين الذين كانوا مقيمين بأراضى المملكة المصرية فى وقت صدور قانون الجنسية المصرية وهي :

« يمنح لكل من الفريقين المتقدم ذكرهما مهلة قدرها ستة أشهر لاختيار الجنسية المصرية أو العربية السعودية ، ويجرى الاتفاق على الكشوف النهائية المتضمنة أسماء المصريين فى المملكة العربية السعودية والعرب السعوديين فى المملكة المصرية فى خلال الثلاثة الاشهر التالية للمهلة المشار اليها .

« ولن يترتب على اختيار أحد المقيمين فى بلد لجنسية البلد الآخر أي مساس بحقه فى البقاء أو الاستقرار فى ارض البلد الآخر حتى صدور قانون الجنسية الخاص بالبلد الذى يقيم فيه .

وغني عن البيان ان المصريين أو العرب السعوديين الذين هبطوا اراضي البلد الآخر منذ صدور قانون الجنسية الخاصة باقون على جنسيتهم الاصلية » .

وكما رد النحاس باشا على مذكرة فؤاد حمزة فيما يتصل برسوم الحج فقد تلقى منه جوابا على مذكراته الثلاثة بالموافقة على ما جاء فيها .

وتبادلت المملكتان ـ بعد ذلك ـ التمثيل السياسي بدرجة وزير مفوض ، وفتحت كل منهما مفوضية فى بلد الآخر .

والحق أن عهد الملك فاروق كان عهدا مباركا وسعيدا فى تاريخ العلاقت بين المملكة المصرية والمملكة السعودية ، وعمقت بين المملكتين والشعبين والملكين وشائج الود والقربى ، وزادت كل ذلك وثوقا زيارة الملكين بعضهما لبعض ، وارتقى التمثيل قبل الزيارة بزمن إلى درجة سفارة .

ابن سعود والملك عبدالله

لعل أشد أفراد الأسرة الهاشمية عداء لابن سعود هو الملك عبدالله بن الحسين ملك المملكة الاردنية الهاشمية، فقد كان أشد من أخويه الملك علي والملك فيصل، أما أخوه الاصغر الامير زيد فلم يكن بارزا، ولم يعرف له موقف عداء سافر، وان كان من الطبيعي أن يكو عدوا.

ولم يكف عبدالله عن معاداة ابن سعود إلا بعد أن تمت المقابلة بين الملكين، وبعدها غير عبدالله بن الحسين رأيه في ابن سعود.

وقد مر بالقارىء في الفصل الذى كتبناه بعنوان « ابن سعود والعروش الهاشمية » المعاهدة المبرمه بين ابن سعود وإمارة شرق الاردن، ولكنها لم تضمن حسن العلاقات بين الحكومتين، وكان الاردن هو الذى يقوم بتعكير الصفو وإحداث الفتن، لأن الشريف عبدالله لم يكن يطيق أن يرى ابن سعود وهو ساطع النجم لامع الاسم، وكان يحقد عليه حقداً شديدا بسبب إقصائه أباه ثم أخاه من عرش الحجاز واستيلائه عليه.

وبعد إبرام تلك المعاهدة قامت في وجه ابن سعود ثورة حامد بن رفادة،

وقيل : إن للملك عبدالله يدا فيها ، بل أيقنت الحكومة السعودية أن عبدالله وراء الحركة ومولها بالمال والسلاح ، ولعلها على حق ، فقد اشترك فيها بعض أبناء الحجاز الموالين له .

واحتجت الحكومة السعودية على الحكومة البريطانية ، وذكرت لها فى احتجاجها أنها لن تسكت على عمان اذا استمرت فى عدائها ، وستتخذ الحكومة السعودية ما تراه كفيلا بصيانة أمنها وحدودها وأفراد شعبها .

وأدركت الحكومة البريطانية التى كانت مسئولة عن سياسة الاردن الخارجية ان الانذار السعودي ليس كلاما يرسل ، بل إن وراءه الفعل والرد العملي ، فنصحت حاكم شرقي الاردن بأن من مصلحته التفاهم مع ابن سعود ، كما نصح له شقيقه الملك فيصل بما نصح له الانجليز .

ولم يجد عبدالله مفرا من المداراة على الاقل حتى تحين الفرصة التى يتمناها لمجابهة ابن سعود، ورضي بإنشاء علاقات مع حكومته، ففى يوم ٢٥ ذى القعدة سنة ١٣٥١ هـ (٢١ مارس ١٩٣٣) بعث الشيخ عبدالله سراج رئيس حكومة الأردن إلى المندوب السامى البريطاني بالقدس الذى كان مسئولاً عن سياسة الاردن الخارجية بمذكرة هذا نصها :

« يا ذا الفخامة

« لى الشرف أن أرجو فخامتكم إبلاغ حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة أنه حيث أن سيدى ومولاي صاحب السمو الملكى عبدالله بن الحسين أمير شرق الاردن وحكومته يرغبان فى تأسيس علاقات ودية متينة بين شرقي الأردن والمملكة العربية السعودية فقد قرر الاعتراف بصاحب الجلالة الملك عبد العزيز ابن سعود ملكا على المملكة العربية السعودية التى تشمل على الحجاز ونجد وملحقاتها.

جرت هذه المخابرة علما بأن مخابرة مماثلة ستقدم إلى حكومة صاحب الجلالة من قبل الحكومة العربية السعودية ، وان الاعتراف سيكون نافذ المفعول من التاريخ الذى تبلغ فيه حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة فى آن واحد كلتا الحكومتين ذات الشأن صورة مصدقة من المخابرة التى تلقتها من الحكومة الأخرى » .

ويظهر أن حديثا جرى بين الحكومتين الاردنية والسعودية سبق كتابة تلك المذكرة ، لأن وزير الخارجية السعودية بعث بكتاب يماثل كتاب رئيس وزراء الأردن إلى المعتمد البريطاني بجدة فى التاريخ نفسه .

وبعد أن تمت الاجراءات لتبادل الاعتراف ارسل الامير عبدالله برقية إلى ابن سعود هذا نصها :

« قد علمت مع السرور بانتهاء المخابرات الرسمية فى سبيل اعتراف متبادل بين جلالتكم وبينى وبين حكومتنا ، وإنى أغتنم هذه الفرصة فأقدم تحياتى لجلالتكم ، ولأعرب لكم عن أملى بأن هذه الخطوة ستعد اساسا للعلاقات الودية والتعاون بين بلادينا » .

وتلقى سموه جواب ابن سعود وكان لا يخرج عما جاء ببرقيته ، وكان هذا الاعتراف فاتحة خير فى علاقات العاهلين والبلدين ، ومن بواكير هذا الخير قدوم وفد أردني وصل إلى جدة فى يوم ٩ محرم سنة ١٣٥٢ (٥ مايو ١٩٣٣) لاجراء مفاوضات لعقد معاهدة سلام وصداقة ومعاهدة تحكيم وبروتوكول تسليم مجرمين ، واستمرت تسعة أيام فى جو يسوده الود والرغبة والتفاهم وانتهت فى يوم ١٨ محرم ١٣٥٢ هـ (١٤ مايو ١٩٣٣) باصدار البيان التالى :

« على إثر الاعتراف المتبادل بين جلالة الملك وسمو أمير شرق الاردن

وصل من شرق الاردن وفد للمفاوضة فى عقد معاهدة صداقة ومعاهدة تسليم المجرمين وبروتوكول تحكيم .

وقد دارت المفاوضات بين الوفد ومندوب حكومة جلالته فى جو سادته روح الصداقة والود ، وتم الاتفاق مبدئياً على عقد معاهدة صداقة وبروتوكول تحكيم ، وعلى تأجيل البحث فى عقد معاهدة تسليم المجرمين لصعوبة التوفيق بين وجهات النظر ، وقد تأجلت المفاوضات على أن تعقد دورتها الثانية فى القدس فى وقت قريب » .

وفى شهر ربيع الآخر ١٣٥٢ كان الوفد السعودي بالقدس حيث استأنف مفاوضاته مع الوفد الاردني ، ودارت فى مودة وصفاء ، وانتهيا فى يوم ٥ ربيع الآخر ١٣٥٢ (٧ / ٧ / ١٩٣٣) بعقد هذه المعاهدة :

المادة الاولى — يسود بين المملكة العربية السعودية وبين إمارة شرق الأردن سلم دائم وصداقة وطيدة لا يمكن الاخلال بهما ، ويتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يبذلا جهدهما للمحافظة عليهما ، وان يحلا بروح السلم والصداقة جميع المنازعات والاختلافات التى قد تنشأ بينهما .

المادة الثانية — يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يحافظ على حسن العلاقات مع الفريق الآخر ، وبأن يسعى بكل ما لديه من الوسائل لمنع استعمال بلاده قاعدة للأعمال غير القانونية ، أو الاستعداد لها بما فى ذلك الغزو مما يكون موجهاً ضد السلم والسكينة فى بلاد الفريق الآخر .

اذا ظهر لاحد الفريقين الساميين المتعاقدين أن الاجراءات التى اتخذها قد لا تكفى لمنع الاشخاص الذين يقومون بالحركات غير القانونية المشار اليها فى الفقرة الاولى من تنفيذها فى بلاد الفريق الآخر ، فعليه ان يخبر ذلك الفريق الآخر عنها وعن التدابير التى اتخذها للوقوف فى سبيل القيام بها .

المــادة الثالثة – يعين الفريقان الساميان المتعاقدان مأمورين مخصوصين فى المناطق المجاورة للحدود يكونون مسئولين عن تنظيم التعاون العام وعن القيــام بالتدابير الضرورية لتأمين تطبيق احكام هذه المعاهدة ، وعلى الحكومتين ان تخبر إحداهما الأخرى عن أسماء الاشخاص المعينين لاجل هذا الغرض .

ولهؤلاء المأمورين أو من ينوب عنهم حق المخابرة فيما بينهم لاجل التعاون ولحل المسائل التى تحدث من وقت إلى آخر على الحدود أو بين العشائر ، وعليهم ان يتبادلوا المعلومات فوراً عما يقع من حوادث فى جهة احدهم مما له علاقة بسلامة الأمن فى جهة الآخر .

المادة الرابعة – عندما يبلغ السلطات المختصة االمعينة فى المادة الثالثة أن فى أراضيها استعدادات يقوم بها شخص مسلح أو أشخاص مسلحون بقصد ارتكاب أعمال السلب أو النهب أو الغزو أو غيرها من الاعمال غير القانونية الاخرى التى من شأنها الاخلال بالسلم على الحدود بين البلادين يجب ان تنذر تلك السلطات إحداهما الاخرى .

فاذا اتضح ان الانذار المرسل إلى السلطة المختصة قد لا يصل فى وقت يمكنها من انذار الذين قد يتضررون من جرائم الهجوم فيجب علاوة على ذلك اعطاء الانذار إلى أقرب موظف ، وفى حالة عدم امكان الاتصال به فالى القبائل المهددة.

فى الحالات الاضطرارية العاجلة يمكن اعطاء الانذار بمعرفة أي مأمور يعمل بالنيابة عن السلطة المختصة التابعة للفريق الذى تجرى الاستعدادات فــى بلاده .

المادة الخامسة – اذا بلغ السلطة المختصة التابعة لاحد الفريقين الساميين المتعاقدين أو أي شخص يعمل بالنيابة عنها انه وقع ضمن اراضيه أي عمل من عمال السلب أو النهب أو الغزو أو غيرها من الاعمال غير القانونية التى من

شأنها الاخلال بالسلم على الحدود بين البلدين فله الحق فى ابلاغ السلطة المختصة التابعة للفريق الآخر عن ذلك ، وفى الحالات الاضطرارية المستعجلة له ان يبلغ أقرب مأمور تابع لذلك الفريق الآخر ، وعلى ذلك الشخص الذى يصله البلاغ ان يتخذ التدابير اللازمة لاجل إرجاع جميع المسلوبات والمنهوبات بأكملها فوراً مما يقبض عليه بحوزة المعتدين فيما اذا دخلوا الاراضى التى هو مستخدم فيها .

المادة السادسة — لأجل تنفيذ أحكام هذه المعاهدة والمحافظة على حسن الصلات بوجه عام على الحدود بين البلادين يجتمع المأمورون المعنيون بمقتضى احكام المادة الثالثة من هذه المعاهدة مرة فى كل ستة اشهر على الاقل وفى فترات أكثر عند الاقتضاء لتسوية المسائل التى تختص بمناطق الحدود والعشائر الضاربة فيها .

المادة السابعة — على المأمورين المخصوصين المعينين بمقتضى المادة الثالثة حينما ينظرون فى الامور الداخلة ضمن نطاق اختصاصهم بمقتضى العرف والعادة السائدين فى منطقة الحدود أن يراعوا القواعد العامة المبينة فى الملحق المربوط بهذه المعاهدة ، وعليهم أن يطبقوا تلك القواعد بقدر الامكان لمدة سنة واحدة من تاريخ وضع هذه المعاهدة موضع التنفيذ ، وبعد انتهاء هذه المدة يجوز للمأمورين المذكورين فى أي وقت ان يقدموا إلى الفريقين الساميين المتعاقدين أية اقتراحات لتعديل هذه القواعد ، وعلى الفريقين الساميين المتعاقدين حينما يتلقيان هذه الاقتراحات أن يتبادلا الآراء فيما اذا كان الامر يحتاج إلى تعديل ، وتظل القواعد سارية المفعول إلى أن يتفق الفريقان على وقف العمل بها أو على تعديلها .

المادة الثامنة — جميع القرارات التى تقرر بالاتفاق المشترك من قبل المأمورين المعينين بموجب المادة الثالثة فى المسائل التى تنشأ على الحدود أو فيما بين القبائل تدون خطياً ويوقع عليها كل من المأمورين وقت الاتفاق وتصبح نافذة المفعول ومعمولاً بها فى الحال .

اما الامور التى لا يتمكن المأمورون من الاتفاق عليها فتحال إلى حكومتي الفريقين الساميين المتعاقدين لاجل حلها بالاتفاق بينهما ، وجميع القرارات المتخذة بنتيجة هذا الاتفاق تنفذ من قبل السلطات المختصة لدى الفريقين الساميين المتعاقدين خلال ثلاثة أشهر من تاريخ اتخاذ القرار النهائي .

يبطل مفعول المادة السادسة من معاهدة جدة مدة سريان مفعول هذه المعاهدة.

المادة التاسعة ـ لقبائل الفريقين التى تنتجع عادة جهتي الحدود لأجل الرعي أو المسابلة حرية الانتقال من مكان إلى مكان فى البلادين إلا اذا وجدت إحدى الحكومتين ضرورة لتحديد حرية الانتقال هذه لأجل مصلحة النظام العام أو بسبب ضرورة اقتصادية .

ليس فى هذه المادة ما يؤثر على المحافظة على الحقوق الثابتة المنصوص عليها فى المادة الرابعة من معاهدة جدة ، وكذلك ليس فى هذه المادة ما يخل بالتمتع بالحقوق المقررة بموجب المادة الثالثة عشرة من معاهدة جدة بأي وجه من الوجوه ولأي سبب من الاسباب .

المادة العاشرة ـ لا يجوز لأحد الفريقين الساميين المتعاقدين أن يجبر رعايا الفريق الآخر على الالتحاق بأية قوات مسلحة تابعة له نظامية كانت أو غير نظامية .

ولا يجوز لأي فريق من الفريقين الساميين المتعاقدين ان يسمح لرعايا الفريق الآخر بالاستخدام فى قواته المسلحة اعتباراً من تاريخ وضع هذه المعاهدة موضع التنفيذ الا اذا استحصلوا قبل ذلك على تابعية الفريق الذى يريدون الاستخدام عنده وأعلنوا استعدادهم لترك تابعيتهم الاصلية ان كان هذا مشروطاً فى نظام تابعية بلادهم الاصلية ، مع العلم بأن حكومتهم الاصلية حرة حين دخولهم إلى اراضيها ان تتخذ ضدهم الاجراءات المنصوص عليها فى قوانينها .

إن أسماء الأشخاص الذين يتجنسون ويتجندون بعد وضع هذه المعاهـدة موضع التنفيذ تبلغ بالطرق السياسية إلى حكومة بلادهم الاصلية .

المادة الحادية عشرة – يتعهد كل من الفريقين الساميين ان يمنع ايا كان من مأموريه من اجتياز الحدود بين البلادين بدون اذن الفريق الآخر لاي سبب كان وبأية واسطة كانت مع استثناء اجتياز المأمورين والسعاة للحدود لاجل المحافظة على التعاون المنصوص عليه فى المواد الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة من من هذه المعاهدة .

المادة الثانية عشرة – مع مراعاة الاحكام الواردة فى معاهدة جدة فيمـا يتعلق بتنقلات العشائر والحجاج والتجار يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان تعهداً متقابلا عن الترخيص للاجانب المقيمين فى بلاديهما أو القادمين منها أو رعايا الفريقين المتعاقدين باجتياز حدود بلاد الفريق الآخر بقصد السياحة أو الاكتشاف أو الصيد أو أي قصد آخر بدون الحصول على اذن سابق من السلطات المختصة للفريق الذى يعنيه الامر وبتثبيط عزيمتهم عن ذلك ولا يكونان مسئولين عـن سلامة هؤلاء الاشخاص اذا كان دخولهم بدون اذن سابق .

المادة الثالثة عشرة – كل اختلاف قد يحصل بين الفريقين الساميين المتعاقدين فيما يتعلق بتفسير أوتنفيذ أحكام هذه المعاهدة أو أحكام غيرها من الاتفاقات التى تتناول العلاقات بين الفريقين يحال بالاتفاق بينهما إلى التحكيم الذى يجرى بموجب البروتوكول الملحق بهذه المعاهدة .

المادة الرابعة عشرة – حررت هذه المعاهدة من نسختين باللغة العربية ، وعلى الفريقين الساميين المتعاقدين ابرامها وتبادل قرارات الابرام بأقرب وقت ، وتصير نافذة اعتباراً من تاريخ تبادل قرارات الابرام ، ويعمل بها مدة خمس سنوات ابتداء من ذلك التاريخ ، وان لم يعلن أحد الفريقين الساميين المتعاقدين الفريق الآخر قبل انتهاء السنوات الخمس بستة أشهر انه يريد ابطال المعاهـدة

فتبقى نافذة ولا تعتبر باطلة الا بعد مضي ستة أشهر من اليوم الذى يعلن فيه احد الفريقين ابطالها للفريق الآخر .

برتوكول تحكيم

ووقع أيضاً فى اليوم نفسه على هذا البروتوكول :

عملاً بالمادة الثالثة من معاهدة الصداقة وحسن الجوار التى وقعنا عليها هذا اليوم بصفتنا مندوبين مفوضين عـــن جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية وسمو الأمير عبدالله بن الحسين أمير شرق الأردن ، وبناء على التفويض الممنوح لنا قد اتفقنا على انه اذا احيلت اي قضية إلى التحكيم بمقتضى المعاهدة المذكورة فيجرى التحكيم وفاقاً للمواد التالية :

المادة الاولى – يجرى التحكيم بواسطة محكّميْن اثنين ينتخب كل مـــن الفريقين الساميين المتعاقدين واحداً منهما برئاسة شخص ثالث يعين بالطرق المبينة فى المادة الثالثة من هذا البروتوكول .

المادة الثانية – اذا اتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على ان يحيلا إلى التحكيم أي خلاف كان وفقاً لاحكام المادة الثالثة عشرة من معاهدة الصداقة وحسن الجوار الموقع عليها فى هذا اليوم عليهما ان يعدا مذكرة مشتركة عن الامور المراد حلها بالتحكيم ، ثم يعين رئيس لهيئة التحكيم وفقاً للمادة الثالثة من هذا البروتوكول وتقدم اليه نسخة من المذكرة المشتركة عن الامور المراد حلها ، وعلى كل فريق ان يقدم له فى مدة لاتزيد عن الشهر من وقت تسميته مذكرة عن حججه لاثبات حقه ، ويحق لكل من الفريقين الساميين المتعاقدين ان يقدم للرئيس أية مذكرة اخرى فيما يختص بدعواه فى أي وقت كان فى مدة ثلاثة أشهر من تسميته ، -على كل فريق ان يقدم إلى الفريق الآخر كل المستندات التى يقدمها إلى الرئيس.

المادة الثالثة — يعين رئيس لجنة التحكيم بالاتفاق بين الفريقين خلال شهرين من تاريخ الاتفاق على إحالة القضية للتحكيم .

المادة الرابعة — على رئيس لجنة التحكيم ان يدعو اللجنة للاجتماع فى مكان ينتخبه بعد مشاورة الفريقين الساميين المتعاقدين ، وفى التاريخ الذى يعينه بعد مشاورة مماثلة بشرط ألا تقل المدة التى تنقضى بين تعيينه وبين ذلك التاريخ عن ثلاثة اشهر ، ولا تتجاوز ستة اشهر ، وتعطى لجنة التحكيم قرارها خلال ثلاثة أشهر من التاريخ المار ذكره .

المادة الخامسة — تكون لجنة التحكيم حرة فى اقرار الخطة التى تسير عليها ، ويتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يقدما لها التسهيلات وا لمساعدات الممكنة التى تطلبها للقيام بمهمتها .

المادة السادسة — لكل من الفريقين الساميين المتعاقدين أن يعين شخصاً أو أكثر لبسط وجهة نظره فى المسائل المختلف عليها أمام هيئة التحكيم .

المادة السابعة — يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان تعهداً قطعياً بقبول القرارات التى يصدرها المحكمون فى المسائل المحالة اليهم وتنفيذها ، وللمحكمين اذا اقتضى الامر أن يتخذوا قرارهم بالاكثرية .

المادة الثامنة — تدفع كل من الحكومتين رواتب ونفقات الحكم المعين من قبلها ونصف رواتب ونفقات الرئيس والكتاب وغيرهم ممن يحتاج ا لمحكمون إلى مساعداتهم .

المادة التاسعة — يصبح هذا البروتوكول نافذ المفعول اعتباراً من تاريخ تبادل النسختين المبرمتين من قبل الفريقين الساميين المتعاقدين ، ويبقى نافذ المفعول ببقاء معاهدة الصداقة وحسن الجوار المعقودة بينهما فى هذا التاريخ ، وعلى

الفريقين الساميين المتعاقدين ان يمددا مفعوله إلى ان يصدر الحكم فى أية قضية قد احيلت إلى التحكيم بموجبه قبل انتهاء مفعول تلك المعاهدة .

واثباتا لذلك قد وقعنا على هذا البروتوكول فى مدينة القدس فى اليـــوم الخامس من شهر ربيع الثانى لسنة ١٣٥٢ هجرية الموافق لليوم السابع والعشرين من شهر يوليو لسنة ١٩٣٣ ميلادية .

وأثمرت هذه المعاهدة صداقة وسلاما ، ولكن ما فى قلب الأمير عبدالله لم يزل ، وان كانت الظروف المحيطة به قد أجبرته على التمسك بما عاهدت عليه حكومته .

وسبب بقاء ما فى نفس عبدالله أنه لم يجتمع بالملك عبد العزيز أو أبنائه الكبار المسئولين معه فى الحكم ، ثم ان المفسدين كانوا يملأون قلبه الكبير الطيب بالحقد واشعاله وإلقاء المزيد من الحطب فيه ، حتى إذا جمع الله بينه وبينهم زال من قلبه الوغم والضغينة ، وأخـــذ يصرح فى مجالسه بحبه لابن سعود وإعجابـــه بشخصيته ، وقد دون ذلك فى مذكراته فى طبعته الأخيرة فى حياته ، وحذف منها ما كان قد كتبه ضد ابن سعود فى الطبعة الأولى .

وعندما زار النجل الأكبر لابن سعود الامير سعود بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية الأردن استقبله الشريف وبلده وشعبه استقبالا رائعا ، وفرح بزيارته ، وزال من قلب عبدالله كثير من البغضاء ، وكانت هذه الزيارة الأخوية الكريمة فى شهر أغسطس سنة ١٩٣٦ (جمادى الآخرة ١٣٥٥) .

إلا إن زيارة سعودية أخرى للأردن كان فيها الخير العظيم ، تلك زيارة الأمير فيصل بن عبد العزيز ،فقدكان فى لندن فى شهر ديسمبر١٩٤٦ وكان بها دولة سمير الرفاعي فى مهمة رسمية يمثل فيها الأمير عبدالله ، ودعا دولته الأمير فيصلا لزيارة الأردن، فقبلالدعوة على أن تكون بعد ان يستأذن والده، وعلىأن تكون الزيارة أخوية لا تبحث فيها مسائل السياسة ، فوافق الرفاعي ، ولم يكن

لدى الملك عبد العزيز ما يمنع من أن يلبي ابنه دعوة كريمة كهذه يرجو منها المزيد من الحب والاخلاص بين الأشقاء .

وما كاد الأمير عبدالله يتلقى موعد الزيارة حتى انعكست فرحته على بلده وشعبه ، فازدانت الشوارع ودور الحكومة والمؤسسات بالزينات والأعلام السعودية والأعلام الأردنية وهي تتعانق ، وما كاد فيصل يصل إلى الاردن حتى كان الأمير الداعي وأعضاء حكومته وعلية الأمة فى الاستقبال ، وما كادت السيارة التى تقل المضيف وضيفه تقطع شوارع عمان المزدحمة بسكانها الذين تجمعوا لتحية الضيف العظيم حتى كانوا يستقبلونه بالتصفيق والهتاف .

وفى مأدبة العشاء التى أقامها الأمير عبدالله لضيفه مساء وصوله وهويوم ٣١ ديسمبر ١٩٤٦ (سنة١٣٦٦هـ) لم يتمالك نفسه من فرحته بفيصل أن عبر عنها فى كلمة الترحيب التى ألقاها هو نفسه إذ قال :

« إننى مسرور جدا بهذه الزيارة التى كنت أتوق إليها للتعرف إلى الأمير العربي المسلم الذى كان موضع فخار العروبة ومحل إعجاب الغرب بصفاته الكريمة وعبقريته فى جميع رحلاته ومساعيه » الخ .

وتأثر الأمير فيصل بن عبد العزيز أجمل التاثر من لقاء الامير عبدالله ومن كرمه وحفاوته البالغة به وبخطبته التى أشاد فيها بعبقرية فيصل وجهوده من أجل مجد العرب وعزة الإسلام ، كما اثنى على ابيه العظيم عبد العزيز وولي عهده والأسرة السعودية .

ورد فيصل التحية بمثلها ، وشكر لمضيفه فضله وترحابه وحفاوته وحسن ظنه به؛ وأشاد بما يتحلى بهمضيفه من مكارم الاخلاق وغزارة العلم وعلو الهمة ورقة الشمائل ، ومن جملة ما قال فيصل فى خطبته :

« ولئن كان لى الفخر بأنى ولد الملك عبد العزيز فإن فخرى ليزداد بما

شملني به الأمير العظيم من عطف وبهذه الكلمات الطيبة وعبارات التكريم التى وجهها إلي » الخ .

وتركت زيارة فيصل فى نفس الأمير عبدالله أجمل الأثر ، ومحت منها كل ما كـان بها من بقايا بغضه ، وأعجب كل منهما بالآخر وحمل له أطيب الذكريات .

ويشاء الله بفضله وكرمه أن يزيل كل الآثار السيئة التى أرثّها الخلاف بين الأسرتين الكريمتين : الهاشمية والسعودية ، وتوارثه الخلف عن السلف ، فيقوم الملك عبدالله بن الحسين عميد البيت الهاشمي فى يوم السبت ٢٦ يونيو ١٩٤٨ بزيارة أخيه الملك عبد العزيز فى الرياض .

وكانت هذه الزيارة إبان حوادث فلسطين التى كان الملك عبدالله قائدا عاما للقوات العربية اسما لاحقيقة .

وكان على الملك عبدالله بهذه الصفة زيارة بعض البلدان العربية ومنها المملكة العربية السعودية التى استعدت استعدادا فخما ورائعا لاستقبال جلالته ، لتعبر له عن تقدير الملك عبد العزيز وأبنائه والأسرة السعودية والحكومة والشعب لشخصه وليقابلوا حفاوته وتكريمه لسعود وفيصل بأعظم مما قام به الملك عبدالله ، والبادى صاحب الفضل الأوفى .

وعندما هبطت طائرة الملك عبدالله فى مطار الرياض كان آل سعود به وعلى رأسهم عميدهم وعميد العرب عبد العزيز ، وما كادت الطائرة تقف حتى مضى إليها ابن سعود ، وما كاد باب الطائرة يفتح وتبدو طلعة عبدالله المشرقة حتى دوى المطار بالهتاف والتصفيق بحياة الضيف والمضيف ، وتعانق العاهلان واغرورقت اعينهما فرحا بهذا اللقاء التاريخي بين عميدي الأسرتين اللتين تعدان بحق أعظم أسرتين فى دنيا العروبة والإسلام .

وأمضى الملك عبدالله أربعة أيام بالرياض ضيفا على أخيه الصادق عبد العزيز كان خلالها موضع التكريم والحفاوة، وكان فرح كل منهما بأخيه فوق الوصف، وقد ترك كل منهما فى نفس الآخر من الحب الصادق والاخلاص الحق ما يتركه الشقيق البار فى نفس شقيقه البار .

وأثمر هذا اللقاء محو كل ما كان فى النفس من كره ، وزرْع الحب الخالص مكانه بحيث لا يمكن أن ينال منه أي خلاف فى الرأي ينشب بين الحكومتين ، وتعاهد العاهلان فيما بينهما على ذلك ، وقد برا بعهدهما كما سنذكر ؛ وختّم هذا اللقاء بهذا البيان الذى ينبىء عن ذلك كله :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين .

لقد كان الباعث على اجتماعنا رغبتنا الصادقة فى توثيق عرى الأخوة وتشييد بناء الصداقة والود بين شخصينا وشعبينا ، ما دام الشعب وما دام البيت إن شاء الله ، وملاحظاتنا الظروف الحاضرة وما تقتضيه من إخاء واتفاق ، واضعين نصب أعيننا مبدأين أساسيين :

اولهما — تقوى الله .

وثانيهما — التفانى فى حفظ البيضة والذب عن كيان العرب .

وقد وجدنا أن فى اجتماعنا هذا الخير والبركة ، وتحققنا من وجود اتفاق فى وجهات نظرنا إلى الشؤون الخاصة والعامة ، واتحاد تام للاهداف والمرامى الوطنية والقومية .

لذلك فاننا نعلن نحن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود وعبدالله ابن الحسين بن علي بأننا متفقون فى أفكارنا وآرائنا وأهدافنا فى هذا الباب ، وبأننا متفقون بصورة خاصة على تأييد الجامعة العربية فيما تقره أو تنفيه مما هو لا

يخل بميثاق الجامعة العربية وفي حدود مسؤولياتها وعلى الاخص فيما يتعلق بفلسطين التي نحن باذلون كل ما في وسعنا من جهود للوصول إلى ما يضمن للعرب استقلالهم التام وسلطانهم المطلق ونجاة فلسطين وانقاذها .

ونعلن ثقتنا التامة بالجامعة العربية ولجنتها السياسية وباعتقادنا انها ستقوم بتمحيص الموقف الحاضر حق التمحيص ، وتنصح بما تراه موافقاً لمصلحة العرب وضامناً لهم ، وان ثقتنا بالله العظيم كبيرة في ان النتائج ستكون موفقة ان شاء الله، لا سيما واننا على مثل اليقين بأن الجامعة العربية لا تستهدف إلا إقرار السلام الذي لا يمكن أن يتم إلا بحفظ حقوق العرب وصيانة استقلال بلادهم ، وأنها إذا اضطرت للدفاع فاننا ندافع عن مصالح العرب الأساسية وعن الشرف والحوزة والسلام .

وعندما أراد الملك مغادرة الرياض وكان في وداعه الملك عبد العزيز وأبناؤه وآل سعود وآلاف الناس من العامة والخاصة ورؤساء الجيش عانق العاهلان بعضهما بعضا، وطوق كل منهما الآخر بيديه ، فابتعد عنهما المودعون ، ولبثا هكذا حوالى عشر دقائق ، ثم ودع كل منهما أخاه وهو يبكي من الفراق .

وأود أن أفصح عن سر همس به عبدالله بن الحسين في أذن عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فقد أصبح من يعلم به في حل من الكتمان ، لأنه أصبح من حق التاريخ ، ولا يعلم به إلا أفراد من آل سعود كشفه لهم ليكونوا امناء على العهد بعد موته ، وقد حدثني به أحدهم ، وهو ـ والحمد لله ـ حي يرزق [1] .

أوصى الملك عبدالله أخاه الملك عبد العزيز على ابنه ووارث عرشه طلال بن عبدالله وعلى أسرته بخاصة والأسرة الهاشمية بعامة ، وقبل منه هذه الوصاية ، ووعده بأن يكون أمينا عليها ، ويضطلع بها بكل ما لديه من قدرة باذن الله .

ومع أن خلافا شديدا في وجهات النظر بين الحكومتين : السعودية والأردنية

---

(١) هو من أكبر آل سعود وأكابرهم خلقا وعلما وفضلا ٠

حدث فإن العهد بين العاهلين ظل قائما ، والود عامرا ، والاخلاص متبادلا ، فقد تبنت حكومة الاردن فكرة مشروع سورية الكبرى ، وعارضتها الحكومة السعودية فى شدة داخل الجامعة العربية وخارجها ، كما عارضت الحكومة السعودية ضم الجزء العربي من فلسطين إلى الأردن ، ولكن هذا الخلاف السياسي لم يؤثر — البتة — على الأخوة الصادقة بين العاهلين .

وعندما اغتيل الملك عبدالله يوم الجمعة ١٥شوال ١٣٧٠(٢١يوليو١٩٥١م) وهو يتهيأ لصلاة الجمعة بالمسجد الأقصى الشريف كان حزن الملك عبد العزيز شديد العمق ، وشعر بأنه فقد أخا شقيقا وفيا عظيما .

وهرع أحد الأشراف من بنى عمومة الملك عبدالله إلى الملك عبد العزيز وقال له : ابشر يا طويل العمر ، قد قتل الشريف عبدالله .

وكان هذا الشريف المبشّر يظن ان الملك عبدالعزيز لم يبلغه نعيُّ الملك عبدالله ، وظن أن النعي بشرى بالنسبة لعبد العزيز الذى ما كاد يسمع « بشرى» الشريف حتّى بلغ به الأذى مبلغه ، واشتد به الغضب الذى زاده إشعالا حزنه اللاهب على الفقيد الشهيد ، فانبرى للشريف الشامت يقرّعه — وكان ذلك بمجلس ابن سعود العام — وقال له :

« تبا لك ! أتبشرنى بقتل مسلم من أئمة المسلمين ؟ أهـذا فهمك للرحم والقربى ؟ أليس ابن عمك ؟ أتظن الموت مدعاة للشماتة ؟ لقد كنا ذات يوم خصوما ، ثم أنعم الله علينا فصرنا إخوانا ، لو أمكن فداء عبدالله لفديته بنفسى !.

لقد أكرمه الله بالشهادة ينالها فى أولى القبلتين وثالث الحرمين ! رحم الله عبدالله ! لقد كان صالحا ، وملكا عادلا ، اللهم اغفر له ، وأسكنه الجنة » الخ .

واغرورقت عيناه بالدمع ، وأخذ يتحدث عن الملك عبدالله حديثا لم يؤبنه

أحد بمثله ، ولا يعرف قدر العظيم إلا العظيم .

ومن اضطلاع ابن سعود بوصية أخيه وقف مع الملك طلال وأيده كل التأييد بكل ما لديه من نفوذ وقوة حتّى تربع على عرش أبيه الشهيد ، واعترافا من الملك طلال بهذا الجميل قام بزيارة الملك عبد العزيز فى الرياض يوم السبت ١٠ نوفمبر ١٩٥١ (٩ صفر سنة ١٣٧١) تصحبه زوجه الشريفة زين الشرف ورئيس حكومته توفيق أبو الهدى ، وازدانت لاستقباله مدن المملكة التى زارها ، وسرت من الملك عبد العزيز فرحته بلقاء الملك طلال إلى شعبه فاستقبله استقبالا رائعا منقطع النظير .

وبلغ من وفاء الملك طلال وعظمته أنه كان يصرح بفضل الملك عبد العزيز عليه ، وعندما قدم إلى مكة المكرمة التى ولد بها ما كان يقول عن الملك عبد العزيز الا « والدى الملك عبد العزيز » أو « الوالد » .

ثم ازداد بالملك طلال مرضه فأعفي من منصبه ، وتسلم ابنه الملك حسين سلطات العرش الاردني يوم ٣ مايو ١٩٥٣ (رمضان سنة ١٣٧٢) وكان الملك عبد العزيز يرقب أحداث الاردن ويحمى عرشه حتّى انتهى إلى صاحبه الشرعي الحسين ابن طلال ، فأسرع إلى إرسال وفد برئاسة ابنه الأمير طلال بن عبد العزيز ليبلغه تهنئته ووقوفه معه وتأييده له ، ولم يكتف بذلك ، بل أعقبه بارسال وفد آخر اعقب وفد طلال بحوالى شهر ، إذ بعث الملك عبد العزيز ابنه وولي عهده الأمير سعود إلى الملك الحسين ، فوصل إلى عمان يوم ٨ يونيو ١٩٥٣ وكان لهذه الزيارة أثر عظيم ، فقد نال الاردن منها التأييد المطلق ، وربح دعم اقتصاده إلى جانب الدعم السياسي .

وشعر الملك الحسين بحنو الأبوة من الملك عبد العزيز فطار إليه عقب زيارة الأمير سعود بشهر ووصل الرياض فى يوم ١٢ يوليو ١٩٥٣ وذلك ليشكر الملك عبد العزيز على ما أفضل به عليه من النصرة والدعم والتأييد ، وكان من نتائج

هذه الزيارة الكريمة أن الملك الحسين ضمن لبلاده الشقيقة مغانم كثيرة، منها: دعـــم اقتصادياته ، وتنمية تجارته ، وتحقيق مشروعاته التجارية والاقتصادية والعمرانية، كما وجد من الملك عبد العزيز الأبوة الرحيمة ، ومن أبنائه الأخوة الصادقة .

ومات عبد العزيز — رحمه الله وأسكنه الجنه — وورث أبناؤه شعوره نحو الأردن ، فما كاد الأمر يصل بفضل الله إلى فيصل بن عبد العزيز وصار ملك المملكة العربية السعودية حتى وفى بما تعهد به أبوه العظيم لجد الحسين العظيم فكان فيصل أخا للحسين بن طلال ، يضع كل منهما يده في يد الآخر لتزداد روابط المملكتين ، وتقــوى صلات الشعبين فى رعاية الأخوين الصالحين : فيصــل والحسين مد الله فى عمرهما ، ونفع بهما الإسلام والمسلمين .

ومن مسك ختام هذا الفصل ذكر رأي الملك عبدالله فى أخيه الملك عبـــد العزيز — رحمهما الله وغفر لهما وأسكنهما الجنة — ذلك الرأي الذى أضافه إلى مذكراته بعد تعديلها ، وها نحن أولاء ننقله مـــن مذكراته فى طبعتها الخامسة الصادرة سنة ١٩٧٠ من المطبعة الهاشمية [1] .

قال الملك عبدالله :

« بعد الهدنة الأولى بفلسطين سافرت إلى السعودية ، واجتمعت إلى جلالة الملك عبد العزيز ، فوقفت على آرائه ونياته الحسنة ، وكتبنا إلى الجامعة التى كانت فى حالة الاجتماع بمصر ما عنّ لنا ، ولما عدتُ إلى بغداد فوجئت بخبر نقض الهدنة من لسان دولة السيد مزاحم الباجه جى رئيس الوزارة العراقية ، ذلك النقض الذى كانت نتيجته ضياع اللد والرملة دون فائدة .

« وبالرغم عن كونى أحمل اسم القائد العام فلم يُنفّذ لى أيّ طلب مـــن

(١) صفحة ٢٧٤ — ٢٧٥ .

ناحية مصر أو من ناحية العراق فى تلك الموقعة ، ولكل عذره .

« ولا بد لى من التحدث عن شخصية الملك عبد العزيز فى أثناء زيـــارتى لجلالته ، فأنا أقر بأن جلالته من دهاة العرب فى العصر الحاضر ، حلو المعشر ، أصحل الصوت ، لطيف الكلمات والجمل ، وهو سعد النزيل ، ومكرم الضيف ، رزقه الله ما شاء من البنين والحفدة ، ومهد له كل ما أراد ، ولقد صادف قرمين من العرب ، كلا منهما أشجع من أسامة ، ولكنه عرف كيف يتقى بأسهما ، ثم يتخلص منهما .

وإنى أشعر الآن باحترام ٍ قلبي لجلالته ، إذ أنه عاملنى بما أحب من صراحة فى السياسة ، وتبيان للحقائق ، وعدم اعوجاج فيما رسم من خطط » .

ثورة الاخوان على ابن سعود

لم يكن كل من يعرفون بالإخوان ممن اعتنقوا دعوة شيخ الاسلام الإمام المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب ذوى فهم صحيح للاسلام الحق ، فأكثرهم كانوا جامدين يعيشون فيما يشبه الجب لا يبرحونه ، وبلغوا من الشدة والعنف والجهل أن حرموا ما أحل الله ، وأفتوا بغير ما أنزل ، وكفروا المسلمين ، وأعلنوا الحرب على كل ما أنتجته الحضارة ، وأنكروا على المصلحين صلاحهم.

وابن سعود وآل سعود هم الذين أيدوا شيخ الاسلام في دعوته ، ونشروها فى الجزيرة ، وفدوها بأرواحهم ، وتوارثوا ذلك حتى تسلم الحكم عبد العزيز ابن عبد الرحمن ، وصار إمام المسلمين.

وما ثم خلاف فى صلاح عبد العزيز وتدينه ، ولكنه غير أولئك الإخوان الجامدين الذين يحرمون ما أحل الله ، ويحلون ما حرم ، لأنه كان ذا عقل كبير يفهم الاسلام على حقيقته ، فلا يتجهم للعلم الحديث والحضارة الحديثة فيما ينفع الناس ، بل يأخذ منهما ما فيه الصلاح والخير والقوة .

وإذا كان الاخوان التابعين لفيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثلين يعيشون عيشة بدوية فظة غليظة فان ابن سعود لم يكن في ذلك مثلهم ،

بل كـــان على نقيضهم ، وأسس لهم « الهجر » لتكون أوطانهم التي يستقرون فيها ، فاذا استقروا تركوا حياة البادية الآبدة ، وعندما يتركونها يتركون النهب والسلب وقطع الطريق وقتل الآمنين .

ولا شك أن هؤلاء الإخوان قوة ضخمة جبارة يمكن أن تكون قوة خيرة اذا أحسنت تربيتها ، وزودت بالعلم والمعرفة ، ولكنهم بقوا على همجيتهم ، فكانوا نقمة على الدين والأمة وابن سعود .

واستطاع ابن سعود أن يجعل الاخوان الذين هم تحت إمرته المباشرة إخوانا صالحين صفت عقيدتهم ونفوسهم من الحقد على غيرهم من المسلمين ، وألفوا ما اخترعته الحضارة الحديثة من آلات وأدوات واستعملوها وانتفعوا بها ، وتخلوا عن جلافة البادية وغلظتها وتوحشها ، واندمجوا مع المتحضرين المتمدنين .

أما الاخوان الذين هم تحت إمرة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وابن حثلين وأشباههم الغلاظ الشداد أعداء الحضارة والمدنية فقد كانوا مثل رؤسائهم في الجلف والشدة والنقمة العارمة على المتمدنين والمدنية وكانوا جميعاً وحوشاً ضارية مفترسة .

وكان هؤلاء الاخوان ورؤساؤهم يعتقدون أنهم وحدهم المسلمون ومن عداهم كفار حلال الدم والمال ، فأطلقوا لغرائزهم المتوحشة العنان .

ونقموا من ابن سعود سياسته الحكيمة ، وما كان عداء زعماء الاخوان لابن سعود عداء من أجل الغيرة على الدين وإن زعموا ذلك ، بل الحقد والنقمة والعداوة والبغضاء صادرة من أطماعهم ، فهم عبيد دنيا وأسرى مظاهر ، ونفسوا على ابن سعود تفرده بالسلطة والحكم ، وكانوا طامعين في أن يكونوا شركاءه فيهما ، وأن يتولوا حكم المدن الحجازية الكبيرة ، فليس ابن سعود

بخير منهم ، بل يرون أنفسهم أعظم منه ، فبقبائلهم وبهم أقام صرح مملكته ، وتم بجهودهم فتح الحجاز ، وهم الذين فتحوه ودخلوا الطائف ومكة قبل أن يقوم من مقامه بالرياض ، وسلموه الأمر رجاء أن يشركهم فيه ، ولكن حرمهم ، فعدوا حرمانه إياهم سلبا لحقوقهم في الحكم والسلطان .

فسلطان بن بجاد زعيم قبائل عتيبة نجد والغطغط لقب نفسه بسلطان الدين ، وكان سفاحا قتّالا ، ويرى نفسه نداً لابن سعود إن لم ير نفسه أعظم منه ، بل كان يرى ذلك ، وعندما دخل الإخوان الطائف في ٧ صفر سنة **١٣٤٣** كان ابن بجاد أكبر القادة وأقواهم ، فقتل هو وجماعته الأبرياء من سكان الطائف والمصطافين من أهل مكة المكرمة ، ونهبوا الأموال ، وعندما جاء ابن سعود الى الحجاز وبخ ابن بجاد ولامه أعنف اللوم على قتل مئات الابرياء ممن لم يقاتلوا ويحملوا سلاحا ، فأسر ابن بجاد في نفسه بغض ابن سعود ، ولم يستطع أن يظهره لضعفه وعجزه .

وكان ابن بجاد يطمع في حكم الطائف ومكة ، ولكن ابن سعود لم يمكنه ، ولم يجعله بعد مذبحة الطائف قائدا عاما أو مسئولا أعلى ، بل جعله بمن معه تابعين ؛ فحقد على ابن سعود ، وأخذ يتحين الفرص .

وأما فيصل الدويش فهو ابن سلطان زعيم مطير ، والدويش نسبة الى الدوشان أحد بطون « علْوة » التي تفردت برئاسة قبائل مطير .

وقبائل مطير من أشد القبائل العربية ومن أكثرها عدداً ، ومنازلها تشغل مساحة كبيرة تمتد من شرق المدينة المنورة وأطرافها إلى غرب الأحساء حيث الصُمّان إلى السهول المعروفة بسهول « الدبدبة » حتى القصيم .

وتخضع قبائل مطير لرئيسها فيصل الدويش ، والهجر التى أسسها ابن سعود لقبائل مطير كانت فى مصلحة الدويش ، فهو حاكمها ورئيسها ، وتزود من

خزانة الدولة بالمال الكثير ، كما كانت له ولاولاده وزوجاته مخصصات ضخمة شهرية وسنوية ، كما كان لأتباعه من الرؤساء ولأفراد القبائل التابعة له رواتب شهرية .

واشترك الدويش في كثير من حروب ابن سعود ، كما كان مع الجيش السعودي الذي حاصر المدينة المنورة حتى استسلمت للأمير محمد بن عبد العزيز بن سعود ، وكان الدويش يطمع في ولاية المدينة والمناطق والقرى التابعة لها ، إذ كان يمنى نفسه بملك عريض ، فالمدينة قريبة من منازل مطير ، فاذا تولى حكمها استطاع أن يحكم إقليما شاسعا من المدينة إلى الإحساء .

ولو استطاع الدويش أن يحكم المدينة لكان أكبر خطر على الحجاز ونجد وكل مملكة ابن سعود ، ولهدد ابن سعود نفسه أكثر مما هدد .

وكان للدويش عند ابن سعود مكانة جعلته يلبي له كل مطالبه ، فهو — كما سيأتي — يأخذ من خزينة الدولة ما شاء ، وله عبيد وجوار وجيش ضخم مزود بالأسلحة .

ومع بداوته كان فيه ذكاء ومكر ، وكان من أشجع الشجعان ، إلا أن شجاعته كانت تهورا وجنونا ، فهو مثل سلطان بن بجاد في سفك الدماء لأهون الأسباب، ولا يطيب له الهدوء والاستقرار ، بل كان هجيراه القتل والحرب والنهب والسلب والخوض في الدماء .

ولم تكن قبائل مطير وعتيبة والغطغط وحدها التي تضمر الحقد على ابن سعود ، بل كانت هناك قبائل العجمان المشهورة بالشجاعة والقوة ، ولم تدن لابن سعود الا بعد حروب ضارية ، وما يزال البغض كامناً فيها .

وهناك عشائر وبطون وقبائل تذهب مذهب مطير وعتيبة والعجمان ،

ورؤساؤها لم يكونوا راضين عن ابن سعود ، وبخاصة بعد فتح الحجاز وحرمانهم من الغنائم التي كانوا يطمعون فيها .

وكانوا يجاهرون بانتقاد ابن سعود ، ولم يقابلهم بغير السماحة والأناة ، لأنه كان حريصاً على السلم ، والبعد عن الحرب التي تشغله عن بناء بلاده وعمران مملكته ، فكان يغضي ويتغابى .

وكان ابن بجاد أشد زعماء الاخوان هوسا ورعونة ، وكان مغرورا ، ولم يطب له أن يكون منزويا في هجرة الغطغط بعد أن حلم بمجد الحكم والسلطة ، ولكنه أدرك بغريزته أن ثورته على ابن سعود محكوم عليها بالإخفاق فأخلد إلى الولاء المصطنع .

وذات يوم زار الدويش سلطان بن بجاد في مقر إمارته بهجرة الغطغط ، وكان يحمل مشاعر الدويش وأفكاره ، وحالُه حاله ، وأظهر كل منهما للآخر ما في نفسه فإذا هما على قلب واحد ، وتذاكرا أمر ابن سعود وغبنه إياهما ، وتساهله في أمر الدين ، واتهماه بأبشع التهم ، وقررا الثورة ، ولكنهما أرادا جمع المزيد من الثائرين ، فبحثا عن الموتورين الحاقدين ، وذكرا ابن حثلين وغيره ، واتفقا على عقد مؤتمر سري يجمعهما هما وابن حثلين وغيره ، وقررا أن يكون المؤتمر في هجرة الأرطاوية مقر إمارة الدويش .

وانعقد المؤتمر الذي اجتمع فيه زعماء الموتورين ، ورؤساؤهم : فيصل الدويش ، وسلطان بن بجاد ، وضيدان بن حثلين ، وكان معهم في المؤتمر زعماء أقل منهم شأناً ، وقرروا الثورة على ابن سعود ، ولم يغب عنهم أن أتباعهم — وهم يقدرون بعشرات الألوف — يزدادون إخلاصا وسمعا وطاعة متى عرفوا أسباب الثورة ، فأعلنوها ، وكان أهم سبب : ترك ابن سعود الجهاد ، وقتال المشركين ، والمشركون — في نظرهم — من لم يكونوا من الإخوان.

وهناك أسباب أخرى ، ولكن الجهاد كان أعظمها ، فهم يريدون من ابن سعود أن يجعل سيفه دائم الإصلات على رقاب العباد ، ولكنه أغمده ، بل حوله إلى « محراث » يعمر الأرض .

ومفهوم الجهاد عند أولئك الموتورين نقيض مفهومه في الاسلام ، فرسوله صلى الله عليه وسلم لم يحارب من قال لا إلّه الا الله بحقها ، لم يحارب الا من استكبر على الدعوة الصحيحة وحاربها ولم يؤمن بها ، ولم يجعل الحرب ضربة لازب لا مفر منها ، بل جعلها نهاية العرض تسبقها الدعوة إلى دفع الجزية فيكون لدافعيها من غير المسلمين حق حمايتهم على المسلمين تلقاء دريهمات يدفعونها للمسلمين ، فيحمونهم هم وآلهم وأموالهم وعقائدهم وكل حقوقهم وممتلكاتهم ، فإن أبوا فالاسلام يتخذونه دينهم فيكون حق أدناهم مثل حق سيد المسلمين أبي بكر رضي الله عنه ، والا فالحرب الشريفة التي لايراد منها غير إعلاء كلمة الله .

أما القتال عصبية أو حمية أو لأي شيء غير اعلاء كلمة الله فذلك عدوان يحرمه الاسلام ولا يرضى به ، مهما كانت الدوافع والأسباب .

وقد قلنا في كتابنا « إنسانية الاسلام [1] » صفحة ٩٢ — ٩٣ :

« عن أبى موسى قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ما القتال في سبيل الله ؟ إن أحدنا يقاتل غضبا ، ويقاتل حمية ، فرفع إليه رأسه وقال — وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما فقال — : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل » .

« وما دام الجهاد ليس السبيل الوحيد لاعلاء كلمة الله فهو ضرورة يلجأ إليها المسلم عندما تنفد كل وسائل السلم ، ويجب أن تسبقه الدعوة إلى الخير

والبر والإحسان ، وكل من عمل صالحا قاهرا نوازع النفس وشهواتها الباطلة مجاهد في شرعة الاسلام .

« والجهاد : أن تجهد النفس للخير .

« فاذا كان الانسان المسلم يجاهد نفسه من أجل الخير فحري به أن يجاهد غيره أيضاً لهذا الخير نفسه .

على أن الإسلام جعل الجهاد الحربي العسكري في الحرب المقدسة الشريفة — لتكون كلمة الله وحدها العليا بشروط الحرب المقدسة المنصوص عليها — آخر الحلول الذى لا يختاره الاسلام ، بل يختاره الأعداء » .

هذا هو الجهاد فى الاسلام ، فهل كان الدويش وابن بجاد وابن حثلين يعرفون هذا الجهاد ؟ وهل كان قتالهم لغيرهم جهادا ؟ .

إنهم لم يقاتلوا الا مسلمين حقاً ، ليسوا مشركين ولا كافرين ولا مرتدين ، لم يقاتلوا الا مسلمين يقيمون كل أركانه حق الاقامة ، ويؤمنون بكل أركان الايمان حق الايمان ، ويفهمون دين الله خيرا من أولئك الجاهلين .

إنهم يباغتون المسلمين بالسيف يقتلونهم ، ثم ينثنون الى أموالهم ينهبونها ويزعمون أنها غنائم حلال لهم كدمائهم .

وهذا ليس من الجهاد في شيء ! .

وابن سعود لا يأذن لهم بقتال رعاياه من أجل مطامع دنيوية ، بل هو يقاتل كل من أراد رعاياه بأذى وسوء .

وأولئك المتمردون الموتورون يصبغون عدوانهم بصبغة الدين ليضللوا أتباعهم ،

ويحملوهم على قتال مسلمين طمعاً في الكسب الحرام بانتهاب أموالهم ، ومـا أتباعهم الا بدو جفاة غلاظ يعيشون على السلب والنهب والقتل وقطع الطريق ، فاذا سوغوا لهم العدوان وأفهموهم أنه الدين كانوا أشد اندفاعا الى العدوان المسلح وقتل المسلمين الآمنين الابرياء .

وأضافوا الى اتهامهم ابن سعود بترك الجهاد تهماً أخرى ، منها : أنه يأخذ المكس على ما يرد إلى مملكته،وما دعواهم أو تهمتهم هذه الا من جهلهم بنظام الاسلام في الخراج .

وعجيب من هؤلاء القوم أن يحلوا نهب المسلمين أموالهم مع قتلهم ثم يحرمون الخراج الذى يؤخذ للانفاق على مصالح المسلمين واعلاء كلمة الله ، وما يأخذه الحاكم في الاسلام من المسلمين ليس كله مكسا ، بل فيه الخراج المسموح بأخذه فى الاسلام ، أما المكس الذي حرمه الاسلام فهو أخذ شيء من مال المسلم بدون حق .

وكان الدويش وابن بجاد قد ذكرا لابن سعود ذات مرة اعتراضهما عليه أخذ المكوس ، وطلبا إليه منعها ، فشكر لهما ووعدهما بأنه لن يأخذها ، ومضى شهران ولم يعطياهما وجماعتهما رواتبهم المخصصة لهم من قبله ، فجاءا إليه ساخطين وقالا له : لماذا قطعت عنا رواتبنا؟ ألأننا نصحناك ومنعناك عن الحرام؟.

فأجابهما ابن سعود في لطف : إنكما محضتماني النصح،ومند نصحتمانى منعت وزير ماليتى أن يأخذ المكوس ، فجزاكما الله خيرا ، وأنتما تعلمان أننى أنا وآل سعود لا نملك تجارة ولا زراعة ، فمن أين أعطيكم رواتبكما ورواتب جماعتكما ؟ إننى منعت وزير ماليتى على مشهد منكما بألا يأخذ مكسا لأنه حرام ، ومنذ منعى أخذ المكوس نفد ما كان بخزانتى من مال ، وأكثر موارد بيت المال كان من التتن (الدخان) الذى يشربهالحجازيون، ولما كان التتن حراما كما أفتيتما ، وأخذ المكس على الحرام أشد تحريما فقد حلت الضائقة بى وبكم.

وبهت المجاهدان ومضيا وتشاورا فيما بينهما ثم عادا إلى ابن سعود وأباحا أخذ المكس على الدخان ، ورضيا بأخذ المال الحرام (المكس) المفروض على محرم قطعا عندهما وهو الدخان .

وكشف ابن سعود حقيقة المجاهدين: الدويش وابن بجاد ، وأعاد صرف مخصصاتهما ورواتبهما الضخمة مع رواتب أهلهما وأتباعهما .

كان هذا الحادث في سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧) وذلك بعد المؤتمر السري الذى جمع بين الدويش وابن بجاد وابن حثلين وغيرهم من الموتورين ، وانعقد المؤتمر في آخر سنة ١٣٤٤ .

وعلم ابن سعود بالمؤتمر أو بالمؤامرة ، ولم يأخذهم بها حتى لا يقال : إن ابن سعود يقتل أصحابه ، وحتى يستنفد كل وسائله السلمية في إعادة الموتورين المنحرفين إلى جادة الصواب والرشاد .

واتهموا ابن سعود – من جملة ما اتهموا – بأنه رضي باستعمال السحر والسحرة ، وأحل السحر واستخدمه، وما اعتقدوه سحر هو التلفون واللاسلكي والسيارة والطائرة ، ولم يفد فيهم الإقناع لأنه لم يكونوا يريدونه ، فقد صمموا العزم على الإنكار وتشويه سمعة ابن سعود ، وإثارة القبائل عليه ، ولذلك عموا وصموا عن الحق والواقع .

وزاد من هياجهم أن ابن سعود أرسل ابنه فيصلا الى لندن ، ولندن كافرة ، والانجليز كفار ، ولا تجوز زيارتهم والتودد إليهم ، بل تجب محاربتهم شرعا .

وبعد « قائمة » الاتهام المليئة بالتهم خلصوا الى أن ابن سعود ترك الشرع وواد من حاد الله ورسوله ، وحكم تارك الشرع ومحب أعداء الله معروف فى الاسلام .

وحاول ابن سعود أن يهديهم الى الصواب ، ولكنه لم يستطع ، بعث إليهم المشائخ والعلماء لاقناعهم فازدادوا عتوا ونفورا .

وتعاهد المؤتمرون أو المتآمرون على أن يكونوا قلباً واحداً ويداً واحدة ، وأن يبدأوا في نشر دعوتهم القائمة على الجهاد ، وأن يجمعوا الأنصار لمحاربة الكفر والكفرة .

ووقعت منهم وقائع دامية ، كما أن بعض ما حدث منهم ورط ابن سعود فى مشاكل سياسية مثل الهجوم المتكرر الذى شنه الدويش على مخافر الشرطة التى بنتها حكومة العراق على الحدود العراقية النجدية ، وقتل الشرطة والعمال العراقيين ، ونهب الأموال والمواشى .

ودفعتهم نشوة الانتصار على القرى الآمنة الصغيرة وامتلاكهم الأموال التى نهبوها إلى الاستكبار على ابن سعود الذى دعاهم الى الشخوص إليه في الرياض للتفاهم والمشورة فأبوا .

ولم يرد ابن سعود أن يتسرع ، فبذل جهوده الطيبة للاتصال بهم ، والتفاهم معهم ، وتعهد لهم بأن يقبل منهم النصح ، ويأخذ برأيهم إذا كان نافعا وسديدا ، وكان ابن سعود صادقا معهم ، ولا يضمر لهم شرا ، فقد كان يعزو خطأهم الى خطأ فى اجتهادهم وفهمهم ، ولم يغضب عليهم من جراء شتمهم إياه ونقدهم واتهامهم له ، فبينه وبين فيصل الدويش صداقة ، ولسلطان بن بجاد بعض المشاركة في حروب ابن سعود ، وابن حثلين وجماعته العجمان قوة ، وهو لا يريد أن يستبدل الصداقة بالعداوة ، ويجحد فضل ابن بجاد ، ويقضى على قواهما وقوى العجمان ، لأنه يريد أن يفيد منها في بناء الدولة الجديدة .

وتكرر من هؤلاء الموتورين العدوان ، بل زاد النقد والتطاول على سياسة الحكومة الرشيدة ، وحشدوا كل قواهم لحرب ابن سعود ، ومع كل هذا أبى

ابن سعود أن يتخذ معهم جانب العنف ، ولم يسمع لنصح مستشاريه بأن يضرب قوتهم قبل أن تستشري وتضخم ، لأنه أراد أن يمشي الى نهاية طريق السلم .

وظن الدويش وابن بجاد أن تواضع ابن سعود معهم ضعة ، وتسامحه جبن وهوان وخور ، وأن ميله الى السلم وبعده من الحرب ضعف منه ، وفهموا من ذلك أنه خائف منهم فتحدوه وأعلنوا التمرد والعصيان .

ولم يجد ابن سعود سبيلا غير الاستعداد للحرب التي أرادها الدويش وصحبه، ومع هذا الاستعداد الضخم آثر السلام فقدم علمه الأبيض على راية الحرب ، وبعث رسله من العلماء إليهم ، يُبصِّرونهم بالعواقب الوخيمة التي ستنجم عن الحرب .

ولكن الدويش وصحبه الحمقى كانوا يريدون من ابن سعود أن ينزل حكمهم ، وجعلوا من أنفسهم قضاة يحكمون عليه بهواهم ، فعرض عليهم أن ينزل هو وهم الى محكمة الشرع لتحكم فيما شجر بينهم من خلاف ، فأبوا واستكبروا .

وأخيراً ، عرض عليهم ابن سعود أن يحكم شرع الله فيهم جميعاً ، واستعد بأن يقبل حكمه فيه مهما كان قاسياً .

ولكن الدويش وصحبه رفضوا كل عروض ابن سعود السلمية ، ودفعوه دفعا إلى خوض غمار الحرب التي شنوها عليه وعلى حكومته وشعبه ، فخاضها دفاعا عن الحق وحماية لشرع الله وعباده المؤمنين .

ولقد أعذر فيهم ابن سعود أيما إعذار ، فلم يترك وسيلة سلم إلا اتخذها ، وصبر على تعنتهم وكبريائهم وغطرستهم وعنجهيتهم سنوات رجاء أن يثوبوا إلى الرشد ، ولكنهم أمعنوا في الغواية وتمادوا في الباطل .

وكتب ابن سعود كتباً إلى سفرائه وقناصله وممثليه في الأقطار الخارجية يخبرهم بحقيقة هؤلاء العصاة ليكونوا على علم بها عندما يسألون من الدوائر الرسمية ووكالات الأنباء والصحفيين ، لأن بعض ذوى الهوى نشروا في الصحف العربية والأجنبية معلومات غير صحيحة ، وهذه صورة ما كتب ابن سعود وفق الأصل :

عدد ٢٤٩٤ سنة ١٣٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل ، إلى جناب المكرم الأفخم ، ... ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد ، فنعرفكم أنه من مدة ثلاث سنين وبعض هؤلاء الإخوان وخاصة أهل الغطغط والدُّويش وقسم من الغُلاة الذين يتشددون بالدين ، ويصير معهم تعصبات وأمور مخالفة لأمر الشرع ، وقد كانوا مغرورين ، ومعهم بعض المهاجرين من البادية ، وهم يرون أن أمرهم حق لأجل محبتهم للدين .

ولكن والحمد لله انكشف الغطاء عن كثير من المسلمين ، ورأوا أن هذه الجماعة بين فرقتين : إحداهما تتعبد على جهل ، والأخرى لها بعض المقاصد السيئة كطمع وغيره ، وتجعل الدين لها حجة ، وبهذه الأيام بعد رجوعنا جمعت اهل نجد مع علمائهم وقرروا ما قد بلغكم

والقصد من ذلك الكشف عن الحقيقة لأغلب الناس ، وتبين أن هؤلاء الغُلاة ليسوا على حقّ .

ثم بعد ذلك أكثرنا لهم النصائح والدعوة لأجل براءة الذمة عند الله ، ثم النصح للرعية ، ولكن ، لم يُفِدْ ذلك ، فاجتمعوا هذه الأيام ، وأشاعوا عند أهل نجد أنهم غازون ، وأن قصدهم القصور وأهل القصور التي في حدود العراق ، يريدون بذلك خديعة أهل الحق ، وبعد ذلك تبين أمرهم أنه فاسد ، وأخذوا بعض الرعايا ، فلما تحقق ذلك عند المسلمين وثبوا وثبة رجل واحد ، جزعا من أمرهم ، واجتمعوا لوضع حد حازم لهذه الأمور ، فلما تكامل جمعهم ، دعوناهم لتحكيم الشريعة في جميع أفعالهم ، وأبوا عن ذلك .

ثم بعد ذلك أرسلنا لهم الشيخ عبدالله العنقري ، والشيخ أبا حبيب ، ودعواهم فلم يقبلوا ، فلما رأينا ما بهم من الفساد وعدم الامتثال للشريعة والولاية استعنا بالله عليهم ،وأمرنا المسلمين يمشون إليهم ، والحمد لله أخذهم الله وقتل منهم جملة ، والمسلمون من فضل الله لم يصابوا إلا بخسارة قليلة جداً تُعَد بالأصابع ، وبعد ذلك رجعوا وطلبوا العفو ، وتبين للقوم الذين معهم أنهم ضلوا الطريق ، وجميع من كان معهم وسلم من القتل عفونا عنه إلا الدَّويش وابن حُميد ما أعطيناهم الا بتحكيم الشريعة فيهم لأنهم أساس الفساد ، والدويش جريح ، الله أعلم أنه يموت أو يحيا ، وأيضا قبلوا تحكيم الشريعة فيهم لأجل أمرين : الأول الحمد لله تركهم الناس ، لأن منهم من قُتل ، ومنم من زَبَن المسلمين وعفونا عنه ؛ والثاني أنهم ليس لهم ملجأ .

والحقيقة أننا ما كنا نحب أن يصير بين المسلمين قتل رجل واحد ، ولكن امتثالا لأمر الله في قتال الباغين والسعي وراء راحة المسلمين أجبرنا على ذلك ، والعاقبة من فضل الله حميدة للإسلام والمسلمين .

والآن والحمد لله أهل نجد مسرورون ومرتاحون ، العارف منهم استراح ، وحصل له مقصوده ، والجاهل ذل وبطل مقصوده ، وبموجب ذلك أحببنا تعريفكم .

نحمد الله على نعمه ، ونرجو منه دوامها ومزيدها .

هذا ما لزم بيانه ، والله يحفظكم ، والسلام .
٢٢ شوال سنة ١٣٤٧ .

وبعث ابن سعود بمذكرة بشأن العصاة إلى الحكومة البريطانية هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

تعلم الحكومة البريطانية أننا سرنا من الحجاز هذه الأيام إلى نجد بعد أن تلقينا منها التأييدات الكاملة بتعهدها بمنع العصاة الذين تجمعوا بالقرب من حدود الكويت من الالتجاء إلى العراق أو الكويت ، أو الاتجار معهم ، وبمنع إيصال أي مساعدة لهم من أي جهة كانت من تلك الجهات ، وسرنا ونحن عازمون على المسير للعُصاة حيث كانوا لتأديبهم التأديب الذى يبطل أمرهم ، ولا يجعلهم تقوم لهم قائمة بعده بحول الله وقوته .

ولكن ؛ أخّرنا عن الإسراع في ذلك اشتداد الحر وتعذر سَوق الجند من داخلية نجد في هذا الفصل الشديد الذى تقل فيه المياه في الطرق ، وتجف المراعى التى ترعى فيها الإبل .

لهذا أخرنا المسير إلى العُصاة ، واكتفينا بتعزيز القوة المواجهة لهم بحيث أصبحت بحول الله قادرة على صد أي اعتداء يقع على أي جهة من الجهات فى أطراف الخليج ، وصادف في توقفنا هذا أن الدويش ومن معه حصل لهم بعض تشجيع من بعض الجهات التى سنورد تفاصيل أعمالها فيما يلى ، ففكر أن يقوم ببعض الغزوات ليبرهن للجهة التى أوعزت إليه بقيامه بأعماله ، فجعل هدفه أولا فريقاً من « السبعان » مقيما على ماء يسمى « القاعية » يبعد ست ساعات عن الأرطاوية ، وقد علم « السبعان » بعزمه فخرجوا إليه بإبلهم التى هي ضالته

التي ينشدها ليغزوه بها فيقدم لقتالهم ، وهم يريدون بذلك اصطياده لمنازلته ، ولم يتركوا على الماء غير نسائهم واطفالهم والعـَجـَزة منهم ، لأن هؤلاء لا مطمع لأحد في قتالهم ، ولكن الدُّوَيش خالفهم بطريقهم ، فلم يلتق الفريقان ، ووصل الدُّويش إلى الماء ، فوجده خالياً من القوة ، إلا من عدد قليل تمكن من التغلب عليهم ، وقتل الأطفال والنساء .

ولما علم « السبعان » بأمرهم رجعوا إلى الماء للقاء الدُّويش فوجدوه قد فر بمن معه ، وقفل راجعاً وقطع الدَّهناء .

وحدث بعد هذا أن أناساً من الذين كانوا مع الد ويش من الجماعة الذين كانوا مع ابن مشهور من عـُتيبة وغيرهم بعثوا إلى رفاقهم في نجد ليطلبوا لهم الأمان منا إذا رجعوا ، وكنا وعدناهم بالأمان لهم إذا قبلوا الرجوع ، نازلين على حكم الشرع ، فأظهر أولئك نقمتهم على الدُّوَيش وفِراقـَهم له ، وساروا قافلين إلى بلدهم ، فلم يمسَّهم أحد في رجوعهم بأذى .

ونظراً لما كان من تشويق مـَن بالعراق لهؤلاء كانوا يضمرون الشر ، ولما وصلوا إلى منازلهم أعلنوا بين بعض البدو أن الشريف فيصل في العراق مؤيد لهم ، وأنه أرسل أخاه الشريف عليـا ليهاجم الحجاز من جهـة شرق الأردن ، وأنه هو مستعد للسير على نجد من جهة العراق إذا رآهم قاموا علينا في داخلية بلادنا .

وكان مع العـُصاة هؤلاء بعض « العتبان » الذين كانوا يعيشون في كنف الملك فيصل في العراق كمحمد الخضري ، وعـُبيد بن فيصل بن حميد وغيرهم ، فسول الشيطان لقليلي العقول من « العتبان » حتى أطاعوا هؤلاء ، فكان من بعضهم أن امتنع عن تأدية الزكاة ، وكان من بعضهم أن نهب بضعة من الإبل لبعض المارة ، فأمرنا في الحال على القوة المستقرة في أماكنها أن يبادر كـل فريق من مكانه لقتال جميع من اشترك مع البغاة في الفعل أو الكلام أو الرأي أو

المساعدة ، وسيّرنا من عندنا قوة بإمارة ابن أخينا خالد بن محمد ، وقد قضى الله أمره في سائر البُغاة الذين حدثتهم أنفسهم بالشر، واستقر الأمر في داخل نجد على الوجه الأكمل بفضل الله وتوفيقه ، ولم يبق علينا إلا السير للبغاة في الشمال ، حيث نقوم بتأديبهم ، وإن شاء الله لا يمضى النصف من ربيع الثانى إلا وتكون القوة قد تهيأت للمسير .

وقد حدث شيء جديد نحب أن نعرف رأي الحكومة البريطانية فيه حتى لا يقع شيء من المشاكل فى المستقبل بسبب سوء تفاهم ، أو بأي سبب من الأسباب ، وقبل إيراد هذا الأمر نرى أنه من المفيد جداً أن نعرض على الحكومة البريطانية مُجمَلَ الحوادث التى وقعت مما يخالف تعهد الحكومة البريطانية ، ونعتقد اعتقادا جازما بأنها وقعت بغير رضائها .

وقبل سرد تلك الحوادث لا نجد بُدّاً من أن نذكر بالثناء والشكر الجهود الطيبة ضد العُصاة التى كانت من سائر الموظفين البريطانيين ، سواء المقيمون في العراق أو في الكويت ، فإنه لا يوجد لدينا أي ملاحظة نذكرها على موقفهم إزاءنا ، وعلى الأخص مجموع الأنباء التى وصلتنا عن المستر دكسن فى الكويت ، فإنها جميعها تدل على الحزم والعزم الذى واجه به الحوادث فى موقفه مما يدل على حرصه على تنفيذ سياسة حكومته في تلك الأطراف .

أما الأمور التى نريد أن نعرضها على أنظار الحكومة البريطانية فهي كما يلى :

١ — فى أواخر ذى الحجة وأوائل محرم أخذت مراكب العُجْمان وابن مشهور ومن معهم تقدم الكويت ، وتنزل ضيوفا على ابن صبَاح ، واشتروا جميع ما أدركوا من سلاح وفشك .

٢ — في ذلك التاريخ كتب ابن صبَاح لكبارهم أعطيات من العيش

والتمر ، وأعطاهم ما يقرب من ستة آلاف ريال .

وفى ذلك التاريخ أيضا اشترى ابن مشهور والعُجمان مقدار عشرين فرسا من الكويت ، منها عشرة أفراس اشتريت من صبَاح الناصر ، أمر عليها وبيعت لهم .

٤ — وفى أوائل المحرم (يونيو) قدمت مركوبة بإمارة سُحمان على ابن صبَاح وعدد رجالها ستون ، ونزلت بالعُديلية ، وخرج إليها عبدالله الجابر ، فأكرم وفادتهم ثم عادوا للوفرة .

٥ — وفى أواسط المحرم وصل عبد العزيز الدُّوَيش إلى « ملح » وأرسل ابن شيلان الذى معه إلى الكويت ، وقد أرسل ابن صبَاح لولد الدُّويش ألف ريال هدية .

٦ — وفى صفر رأى عبد الرحمن القصَيبي عندما كان في الكويت بعد العصر عند « هلال العطيري » هايف الفَقْم ، ومعلوم أن الفقْم هو الذى هاجم الكويت من مدة قريبة ، قبل وقعة السبلة أخذ من رعايا الكويت أسلابا ومغانم ، وهو الذى شكت الحكومة البريطانية منه أنه الذى سبب قتل موظف اللاسلكي في إحدى الطيارات البريطانية .

٧ — وفى أوائل ربيع الأول (أغسطس) أرسل الدُّويش بعد كونه على القاعية هلالا والشهيري إلى الكويت ليبشرا بما تم على يدي الدويش من الإفساد فى القاعية ، وهذان الاثنان من رجال ابن صبَاح كانا يرافقان الد ويش في مَغزاه .

٨ — وفى أوائل ربيع الأول أيضا أرسل سحمان إلى الكويت من يبشر بأنه أخذ أهل « ثلاثين » في حنيذ ، والحقيقة أنه هو الذى أُخِذَ علَى ذلك الماء .

٩ – وفى التاريخ نفسه أرسل أبو وُدّ بن بشير (يدعى فيلا) أنه أخذ إحدى عشرة سيارة فى الدّهناء وأحرقها ، وهؤلاء قد أنزلوا الكويت وكلّهم مكرمون .

١٠ – وفى (٥ المحرم ١٣٤٨ – ١٢ يوليو) سافر من بغداد إلى الكويت عُبيد بن فَيْصَل بن حميد ، مرسلا من قبل الملك فيصل ، وأفضى إليه بنتيجة مهمة ، وهو يحمل في عودته كتابا من العُصاة للملك فيصل .

١١ – وفى صفر (يوليو) عاد عُبيد بن فيصل بن حميد من بغداد مزودا من الملك فيصل ببعض مساعدات مالية ، فوصل الكويت ، واشترى منها أربعة من الإبل وخيمة للخروج بها مع الدهينة .

١٢ – وفى ٢٠ المحرم (٢٧ يونيو) سافر من بغداد بعد مقابلة الملك فيصل عليّ أبو شويربات ومحمد الحضري إلى الكويت لمقابلة الدويش وابن مشهور وابن حثلين .

١٣ – وفى ١٤ صفر (٢١ يوليو) رجع عليّ أبو شويربات إلى بغداد بكتب للملك فيصل ، وأخبر أنه وصل إلى الكويت ، وسار مع محمد الحضري إلى أن قابل الدُّويش ، ثم عاد الاثنان إلى الكويت ، فاشترى الحضري ذلولا ورجع فيها إلى الدويش ، وأما أبو شويربات فعاد إلى بغداد بالكتب التى يحملها للملك فيصل ليقدم له نتائج مساعيه .

١٤ – وفى آخر محرم سافر من بغداد إلى الكويت ، للاتصال بالعُصاة ، ومراسلتهم شُعيفان أبو شَجَرة ، ومترك بن حَجْنة ، وبُرهان الجَبَلي ، وعلي بن عبدالله ولد أبو شويربات ، وقد قابلوا الدويش وابن مشهور والدّهينة ، وهؤلاء لا يزالون يترددون بين بغداد والكويت ، والعُصاة على مَرأى ومشهد من الناس جميعاً .

١٥ ـ وفى (١٧ صفر ١٣٤٨ ـ ٢٤ يوليو) سافر من بغداد إلى الكويت راجحُ بن شاهين ومعه حمود الحَمَّاش أحد أقرباء عبدالله بن مسفر (مضايفى الملك فيصل) ومعهم ستة أفراس ، وقد أرسلوها للعصاة .

١٦ ـ قد علم عبد الرحمن القُصيبي عند مروره بالكوُيت من أوثق المصادر أنه وصل إلى « الزبير » ثمانية أفراس عن يد رجل تابع لعبدالله المسفر ، وفى النية إرسال هذه الأفراس إلى العُصاة ، وقد علم القُصَيبي من المصدر الموثوق أيضاً أنه سبق وأرسل من العراق غير هذه من قبل للعُصاة ، وعلم القُصيبي أيضاً من مصدر وثيق رسمي في الكويت أنه وصل إلى الكويت أبو شويربات وابن حميد مرسلان من قبل الملك فيصل ، ولكن « المستر دِ كسن » عمل ما فى إمكانه لمنع المذكورين من إنفاذ مطالبهم ورغائبهم .

١٧ ـ أن شخير بن طُوالة المقيم على سَفَوان على اتصال دائم بالعُصاة ، وهو يحمل أخبارهم إلى بلاط بغداد ، ويقوم بالحفارة بين الملك فيصل والعُصاة ، ويقدم فى الشهر مرتين أو ثلاثا على بغداد .

١٨ ـ إن الرسل المشجعة من الملك فيصل للدويش وابن مشهور والعجمان لم تنقطع ، وهم يخبرونهم أن الملك فيصل يقول بأن الحكومة البريطانية ستساعدهم متى وجدت منهم أعمالا حَرْبية فعالة ضد ابن سعود .

وهذا نموذج من الأعمال التى وقعت من الكويت ، ومن الملك فيصل عرضناه على أنظار الحكومة البريطانية لتتبين صحة شكوانا بالسابق من الأشراف ، ولن يمتنعوا عن العمل الذى يؤدى بالإضرار بنا ، ويؤدى لسوء العلاقات بيننا وبين البلاد المجاورة ، ويؤدى أيضا لتعكير العلاقات بيننا وبين الحكومة البريطانية ، وليس هذا الذى ذكرنا في الدرجة الأولى عندنا من الأهمية ، لأننا على يقين بحول الله وقوته أن هذه الدسائس لن تؤثر عَلَى موقفنا فى شيء ، والأشراف كانوا عاجزين عن مقاومتنا يوم كانوا فى حولهم

وطَوْلهم فى الحجاز ، فالذى نصَرَنا عليهم يوم بأسهم وقوتهم هو الكفيل لنا بالقضاء على دسائسهم التى لم يكن من نتائجها المؤسفة إلا أننا اضطررنا لإزهاق تلك النفوس التى أغوتها تلك الدسائس ، وسنُلحق بهم إن شاء الله تعالى من بقي من الذين أغواهم الشيطان والدساسون ، ومن غرتهم أنفسهم أيضا ، وهـذا لا يُهِمُّنا كثيرا ، والذى يهمنا هو علاقاتنا مع الحكومة البريطانية التى نحب أن نكون معها على تفاهم فى سائر الشئون حتى لا يقع بيننا وبينها أي تصادم فى الحاضر ولا فى المستقبل .

لذلك نحب بعد هذه المقدمة ، أن نبين الموقف الذى أشكل علينا ، والذى نحب أن نعرف رأي الحكومة البريطانية فيه . وذلك :

١ — فى أواسط صفر ١٣٤٨ قدم من العُجمان أهل مائة وخمسين بيتا ، ونزلوا في الشامية ، والفِنطاس ، وأبو حليفة ، والشُّعَيبة ، وعُرَيْفِجان .

٢ — القسم الأعظم من العُجمان نزلوا من الشامية إلى النُّقْرة ، إلى القصور .

٣ — آل سليمان من العُجمان نزلوا بقرين الصبّيحية .

٤ — فريق من آل سفران نزلوا على عُرَيفجان .

٥ — الرشايدة نزلوا على القرين .

٦ — وفى ٢٥ ربيع الأول نزل الدُّويش ومن معه من مطير من القرين إلى الصبيحية فى حدود الكويت .

فمن هذا يتبين للحكومة البريطانية ، أن التعهد الذي نِلناه من الحكومة البريطانية في منع التجاء العُصاة إلى أراضى الكويت لم تف به حكومة الكويت .

وهؤلاء هم العصاة قد حملوا أموالهم ونساءهم ومما يخافون عليه ووضعوه فى

مأمن من أراضي الكويت ، وخرج أهل السلاح والكفاح منهم لأراضي نجد ، ليعثوا فيها فسادا ، وكانت الحكومة البريطانية وعدت أنه فى حين التجائهم ستطردهم بالقوة ، وها هم جلسوا آمنين ، ونحن على أهبْة المسير إليهم ، ولا يهمنا أمر الكويت ولا من فيه ، وإنما المهم في نظرنا هو موقف الحكومة البريطانية ، إذا بقي هؤلاء فى أراضي الكويت وأردنا الهجوم عليهم فهل لدى الحكومة البريطانية مانع من هذا ؟ وإن كان عندها مانع فيه فما التدبير الذى تراه للإيقاع بهؤلاء الأشقياء الذين كانت أعمال شقاوتهم تصيب الكويت أكثر من إصابتها أي بلد آخر ، هذا أولا ، وثانيا — فإن التشجيع لا يزال يتوالى على الدُّويش ومن معه من ملك العراق ، وآخر اقتراح قُدِّم للثوار من الملك فيصل أن يسير الدُّويش بمن معه لدخول أراضى العراق ، والسير منها إلى أراضى سورية ، ونحن كنا أعددنا قوة للوقوف في وجه الدُّويش إذا أراد الفرار لسورية ، وجعلنا تلك القوة تحت إمارة أميرنا ابن مساعد ، وقد خيم بجنوده من مدة بعيدة على « أقبة » فما موقف الحكومة البريطانية إذا أراد هؤلاء الأشقياء أن يفروا إلى سورية عن طريق العراق ؟ .

وإننا نخشى جداً أن ينفُذ الوعد الذى تداوله العُصاة بينهم بأن حكومة العراق أو الملك فيصلا وعدهم أنهم إذا قصدوا ذلك فإنه يسحب القوة العراقية من طريقهم ليمروا ، ثم يُذاع أنهم مروا من الأراضى العراقية خِلسة ، بغير علم أحد بهم ، وترى الحكومة البريطانية أنه إذا وقع هذا يضر بمصالحنا ومصالح العراق معاً .

ومما يقوى هذه الشبهة ويؤيد هذا الاحتمال ما أخبرنا به المندوب السامى في العراق ، وما أخبرت الخارجية سعادة المعتمد في جُدّة عن سفر ابن مشهور إلى بغداد لتأمين هذه الغاية ، فهل ترى الحكومة البريطانية مانعاً من أن نرسل قوة تقف بالقرب من حدود العراق تترقب فرار هؤلاء الأشرار ؟ حتى إذا علمت بهم أوقعت بهم حيث يكونون ، ثم لو فرضنا أن تمكن هؤلاء من الفرار

والوصول إلى سورية ؛ فهل ترى الحكومة البريطانية مانعا من اجتيازنا الأراضى التى يجرى عليها النفوذ البريطاني لنصل إليهم ؟ .

إن هذه أمور محتملة الوقوع بعد مسيرنا إلى العصاة ، لأننا عازمون بحول الله وقوته على تعقبهم حيث يكونون حتى نأتي على آخرهم بحول الله وقوته ، فنحب أن نعرف آراء الحكومة البريطانية بصراحة ووضوح إزاء هذه الاحتمالات ؛ الواقع منها مثل الالتجاء الواقع فى حدود الكويت وما هو محتمل الوقوع كفرار الذين سيفرون إلى الأراضى السورية عن طريق العراق .

هذا ما ننتظر الجواب عنه من الحكومة البريطانية ، وقد كتبنا بمآل هذه الأنباء الحاصلة من الكويت والعراق للمندوب السامى فى العراق ولرئيس الخليج الفارسي لإحاطتهما علما بما يجرى لرغائب الحكومة البريطانية وتعهداتها .

تحريرا فى ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٣٤٨ — الختم الملكي

٢٦ سبتمبر ١٩٢٩ — **عبد العزيز السعود**

فيصل الدويش

لم يرض فيصل الدويش حضارة الحجاز وتمدن أهله ، وأسخطه ترحيب ابن سعود بالمخترعات الجديدة كالتلفون واللاسلكي ، وأغضبه امتداد العمران ، وأثارته المعاهدات مع الاوربيين وغير الاوربيين لأنهم كفار ، وكل معاهدة معهم موالاة يحرمها الدين ، بل ما كان فيصل ليرضى عن شيء مطبوع بطابع العصر الجديد ، حتى تبرم بابن سعود واجتواه وتنكر لمعروفه ظناً منه أنه يستطيع بعمله وثورته أن يضطر ابن سعود الى البقاء في البداوة الاولى .

وإن لنشأة الدويش دخلا كبيرا في ثوراته وتمرده وصلفه ، فهو ربيب البادية والصحراء يحب ما يحب البدو ، أما الاستقرار والهدوء فما كانا ليرضيا نزوات هذا الشيخ الثائر العنيد ، فاتخذ الاسباب والعلل الواهية لتسويغ نقده وتبرمه وخروجه ، زاعما أن ابن سعود خالف أمر الدين ، وزعم الدويش هذا الزعم الباطل ليسوغ لنفسه أعمال الاجرام والنهب والسلب والاعتداء على الآمنين .

واستطاع هذا الشيخ أن يجمع الى قبيلته (مطير) قبائل أخرى كالعجمان ، وأثار الاخوان فكريا وعقائديا ، فأعلن فيصل الدويش ومن تبعوه نقدهم للحالة

الحاضرة حتى اضطر ابن سعود الى مجاراتهم ، فمنع وضع اللاسلكى في الرياض ارضاء لهم وصونا للبلاد من أن تجتاحها ثورة عمياء داخلية ، ولكن الدويش لم يرض ولن يرضى ، وكان كل همه توريط ابن سعود فى مشاكل دولية ، فأمر الدويش بعض أتباعه وهاجموا في سنة ١٣٤٦ ﻫ مخفر « البصية » على الحدود العراقية النجدية ، وقتلوا بعض جنود الشرطة ، فما كان من السلطات البريطانية الا أن تنذر القبائل النازلة فى الحدود وتأمرها بالابتعاد عنها والذهاب الى نجد ، ثم تضربها بالطائرات وتهاجمها ثلاثة شهور .

بل يرى ابن بجاد والدويش وابن حثلين ومن معهم من أتباعهم أن المسلمين جميعاً خارجون على الاسلام الذى هو وقف عليهم وحدهم .

إن هؤلاء الحمقى الجهلة لا يرون مسلما إلا إذا دان لهم بالولاء والسمع والطاعة ، وما ثم مسلمون الا هم وحدهم ، ويضاف إلى غرورهم وصلفهم وجهلهم أنهم شديدو التوحش ، وما أرخص الدماء لديهم ! ويعتقدون أن قتلاهم في الجنة لأنهم وحدهم المسلمون ، وقتلى غيرهم في النار لأنهم غير مؤمنين ولا مسلمين .

ولم يكف ابن بجاد دماء الآلاف الذين قتلهم في فتنه ، ولم يكفه دماء الابرياء المدنيين فى الطائف ، بل تمادى فى غيه وباطله حتى استكبر على ابن سعود وتحداه واتهمه مع زميليه الطائشين الدويش وابن حثلين بالكفر ، بل بلغ بهم الجهل والصلف إلى أن يصفوا ابن سعود بأنه الطاغوت .

وازداد شر هذه الفئة الباغية ، فنهبوا أموال الناس وقتلوهم وآذوا غيرهم ، وتطاولوا بالسب والتجريح والقذف الشنيع على أئمة المسلمين وخاصتهم وعلمائهم ومفكريهم ، وعاثوا فى الأرض فساداً .

وما ثورتهم على ابن سعود من أجل الدين ، فهم من أجهل الجاهلين به ،

ولكنهم نفسوا عليه مجده وحب شعبه إياه ، وأرادوا أن ينتزعوا منه ما أعطاه الله من الخير فاتخذوا الفتنة والبهتان والعدوان والاتهام الكاذب، ومن باطلهم أن يرسلوا الى ابن سعود رسولا يدخل عليه بدون سلام .

ويعود هذا الرسول الأحمق الجاهل الى من أرسلوه لينقل اليهم ما رأى وما سمع .

وبينا ابن سعود فى مجلسه العام إذ دخل عليه رسول من سلطان بن بجاد يحمل إليه كتابا منه ، وبلغ من غرور الرسول وصلفه وجهله أنه دخل على إمام المسلمين وأمير المؤمنين ابن سعود دون أن يحييه بتحية الاسلام،لأن هذا الرسول ومرسله وجماعتهم يرون أن ابن سعود خارج على الاسلام ، ومبتدع في زعم هؤلاء « الإخوان » الجهلة المتطرفين .

وهذا ما دفع الرسول إلى ترك التحية الاسلامية ، وغضب ابن سعود لهذه الاهانة البالغة ، بل لهذه التهمة الفاجرة الباطلة ، فهو مسلم سلفي ، ومع هذا يعامله الرسول معاملة الكفار الذين لا يُحَيّوْن بتحية الاسلام ، وصاح ابن سعود غاضباً فى وجه الرسول : من أنت ؟ ألست ماجد بن خثيلة ؟ (وسرد عليه تاريخ حياته) أتدخل عليّ ولا تسلم ؟! اذهب من فورك إلى الذى أرسلك وأخبره أننا قادمون عليهم للهجوم غداً بإذن الله ! فاذا أرادوا أن يحقنوا دماءهم فليستسلموا بدون قيد ولا شرط ، والشريعة هي الحكم بيني وبينهم ، وهؤلاء العلماء حاضرون ، قم ، واذهب إلى رفيقك .

وفعل رسول سلطان بن بجاد يدل على مدى فهمهم للشريعة ، فاذا كان ابن سعود المعروف بأنه سلفي يعامل منهم معاملة المبتدعين الخارجين على الاسلام فأهل الحجاز وكل المسلمين سواء أكانوا من أتباع عبد العزيز من نجد والاحساء وغيرهما أم من غير أتباعه مارقون من الاسلام .

ثم رأت الحكومة البريطانية بعد مفاوضات مع ابن سعود أن توفد السير جلبرت كلايتون لحل المشاكل القائمة بين الطرفين ، وكانت هذه رغبة ابن سعود فوافق واستعد لذلك ، غير أنه رأى من الاصوب أن يهدىء ثورة الاخوان ويقفهم عند حدودهم ؛ لئلا يعملوا ما يعرقل سير المفاوضات فأفهمهم مقصده، وأنه عازم على الرحيل الى الحجاز لحل المسائل المعلقة حلا سلميا ، وشاركهم شعورهم وعواطفهم في استنكار بناء المخافر على الحدود ، ووعدهم بأنه متى عاد من الحجاز اجتمع بهم ليخبرهم بما يحدث ولتقرير ما يريدون بعدئذ .

وقدم ابن سعود الى الحجاز وفاوض الانكليز ، غير أن وجهة النظر النجدية لم تصادف قبولا من الحكومتين البريطانية والعراقية ، وأصرتا على بناء مخافر الحدود ، فرجع ابن سعود الى الرياض ودعا الى عقد مؤتمر عام لتداول الرأي .

وانعقد المؤتمر في أحد أروقة القصر الملكي وحضره ثمانمئة من الطبقات كلها ، ومثلت فيه الطوائف ولم يتخلف أحد ، فكان فيه العلماء والزعماء ورؤساء القبائل والامراء ، الا أن الدويش وسلطان بن بجاد تخلفا عمداً عـن المؤتمر ، لأنهما أعلنا الفتنة والعصيان .

وافتتح الملك ابن سعود بخطبة طويلة جاء فيها قوله :

« أيها الاخوان ، تعلمون عظم المنة التي من الله بها علينا بدين الاسلام ، اذ جمعنا به بعد الفرقة ، وأعزنا بعد الذلة ، واذكروا قوله تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ﴾ وان شفقتي عليكم وعلى ما من الله به علينا وخوفي من تحذيره سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

كل هذا دعاني لأن أجمعكم في هذا المكان لتذكروا ـ أولا ـ ما أنعم الله به علينا ، فنرى ما يجب عمله لشكران هذه النعمة ، وثانيا ـ لامر بدا في نفسي ، وهو أنني خشيت أن يكون في صدر أحد شيء يشكوه مني أو من

أحد نوابى وأمرائى بإساءة كانت عليه أو بمنعه حقاً من حقوقه ، فأردت أن أعرف ذلك منكم لأخرج أمام الله بمعذرة من ذلك ، وأكون قد أديت ما علي من واجب — وثالثا — لاسألكم عما في خواطركم وما لديكم من الآراء أو مما ترونه يصلحكم فى أمر دينكم ودنياكم .

« أيها الاخوان، ان القوة لله جميعا، وكلكم يذكر أننى يوم خرجت عليكم كنتم فرقا وأحزابا يقتل بعضكم بعضا ، وينهب بعضكم بعضا ، وجميع من ولاه الله أمركم من عربي أو أجنبي كانوا يدسون لكم الدسائس لتفريق كلمتكم واضعاف قوتكم لذهاب أمركم ، ويوم خرجت كنت محل الضعف وليس لى من عضد وساعد الا الله وحده ، ولا أملك من القوة الا أربعين رجلا تعلمونهم ، ولا أريد أن أقص عليكم ما من الله به علي من فتوح ، ولا بما فعلت من أعمال معكم كانت لخيركم، لأن تاريخ ذلك منقوش في صدر كل واحد منكم وأنتم تعلمون جميعاً ، وكما قيل : « السيرة تبين السريرة » .

« انى لم أجمعكم اليوم فى هذا المكان خوفا أو رهبا من أحد منكم ، فقد كنت وحدى من قبل وليس لى مساعد الا الله فما باليت الجموع ، والله هو الذى نصرنى ، وانما جمعتكم — كما قلت لكم — خوفا من ربى ومخافة من نفسى أن يصيبها زهو أو استكبار ، جمعتكم هنا فى هذا المكان لأمر واحد ، ولا أجيز لأحد أن يتكلم هنا فى غيره ، ذلك هو النظر فى أمر شخصى وحدى، فيجب أن تجتنبوا فى هذا المجلس الشذوذ عن هذا الموضوع ، أما الاشياء الخارجة عن هذا فسأعين لكم اجتماعات خاصة وعامة ننظر فيها .

« أريد منكم أن تنظروا — أولا — فيمن يتولى أمركم غيرى ، وهؤلاء أفراد الاسرة أمامكم فاختاروا واحدا منهم، ومن اتفقتم عليه فأنا أقره وأساعده ، وكونوا على يقين بأننى لم أقل هذا القول استخبارا ، لاننى ولله الحمد لا أرى لأحد منكم منة علي فى مقامى هذا ، بل المنة لله وحده ، ولست فى شيء من مواقف الضعف حتى أترك الامر لمنازع بقوة .

ولا يحملني على هذا القول الا أمران : الاول ؛ محبة راحتي في ديني ودنياي ، والثاني ؛ أني أعوذ بالله من أن أتولى قوما وهم لى كارهون ، فان أجبتموني الى هذا فذلك مطلبي ولكم أمان الله ، فان من يتكلم في هذا المؤتمر فهو آمن ولا أعاتبه لا آجلا ولا عاجلا ، فان قبلتم طلبي هذا فالحمد لله ، وان كنتم لا تزالون مصرين على ما كلمتموني به على إثر دعوتي لكم فاني أبرا الى الله أن أخالف أمر الشرع في اتباع ما تجمعون عليه مما يؤيد شرع الله » .

فصاح الحضور على نفس واحد : لا نريد بك بديلا ، لن نرضى بغيرك ، وصمت ابن سعود ، وأخذوا يهتفون : أنت إمامنا ، ولن نرضى بغيرك ، فاستمر فى الخطابة قائلا :

« فاذا لم يحصل ذلك منكم فابحثوا فى شخصي وأعمالى ، فمن كان له علي – أنا عبد العزيز – شكوى أو حق أو انتقاد فى أمر دين أو دنيا فليبينه ، ولكل من أراد الكلام عهد الله وميثاقه وأمانه ، إنه حر فى كل نقد يبينه ولا مسئولية عليه ، وانى لا أبيح لانسان من العلماء ولا من غيرهم أن يكتم شيئا من النقد فى صدره ، وكل من كان عنده شيء فليبينه ، ولكم علي أن كل نقد تذكرونه أسمعه ، فما كان واقعا أقررت به وبينت سببه وأحلت حكمه للشرع يحكم فيه ، وما كان غير بين وهو عندكم من قبيل الظنون فلكم علي عهد الله وميثاقه أنني أبينه ولا أكتم عليكم منه شيئا ، وأما الذى تظنونه مما لم يقع فأنا أنفيه لكم واحكم فى كل ما تقدم شرع الله ، فما أثبته أثبته ، وما نفاه نفيته .

« أنتم – أيها الاخوان – أبدوا ما بدا لكم وتكلموا بما سمعتموه وبما يقوله الناس من نقد ولي أمركم أو من نقد موظفيه المسئول عنهم ، وأنتم أيها العلماء اذكروا أن الله سيقفكم يوم العرض ، وستسألون عما سئلتم عنه اليوم وعما ائتمنكم عليه المسلمون ، فأبدوا الحق فى كل ما تسألون عنه ، ولا تبالوا بكبير ولا صغير ، وبينوا ما أوجب الله للرعية على الراعى ، وما أوجب للراعى على الرعية فى أمر الدين والدنيا وما تجب فيه طاعة ولي الامر وما تجب فيه معصيته ،

وإياكم وكتمان ما في صدوركم في أمر من الامور التي تسألون عنها ، ولكل من تكلم بالحق عهد الله وميثاقه انني لا أعاتبه ، بل أكون مسرورا منه ، واني أنفذ قوله الذي يجمع فيه العلماء ، والقول الذي يقع الخلاف بينكم فيه أيها العلماء فاني أعمل فيه عمل السلف الصالح ، أقبل ما كان أقرب الى الدليل من كتاب الله وسنة رسوله أو قول أحد العلماء الاعلام المعتمد عليهم عند أهل السنة والجماعة .

اياكم – أيها العلماء – أن تكتموا شيئاً من الحق تبتغون بذلك مرضاة وجهي ، فمن كتم أمرا يعتقد أنه يخالف الشرع فعليه من الله اللعنة ، أظهروا الحق وبينوه ، وتكلموا بما عندكم » .

فرد العلماء بأنهم يبرأون إلى الله من كتمان ما ظهر لهم من الحق ، ويعلنون أنهم ما نصحوه الا انتصح ، ولو رأوا في عمله ما يخالف الشرع لما سكتوا عنه ، ويعترفون أنهم ما رأوا منه الا الحرص على اقامة شعائر الدين واتباع ما أمر الله به ورسوله .

ثم نهض بعض الحضور وقال : لا نعرف ما ينتقد الا « الاتيال » (اللاسلكي) فيقال : انه سحر ، ولا يخفى حكم السحر والسحرة في الاسلام ، والثاني : القصور (المخافر) التي تبنيها حكومة العراق على الحدود ، وهذا ضرر على أرواحنا وأوطاننا .

فأجابه : ليقل العلماء رأي الاسلام في « الاتيال » ؟ فأفتى العلماء أنهم لم يجدوا في القرآن أو السنة أو قول أحد العلماء ولا من أخبار العارفين دليلا بتحريم الاتيال ، وان من يقول بالتحريم يفترى على الله الكذب ونبرأ إلى الله منه .

وأجابهم ابن سعود نفسه عن المخافر قائلا : ان القوم يدعون أنكم أنتم الذين بدأتموهم بالعدوان وذلك بقتل السرية التي أرسلها الدويش لأهل « بصية » ثم غزوات الدويش التي تبعتها في حين أني – أنا يابن سعود – ما قمت بذلك ،

وأنتم يا أهل نجد ما حميتم ذمة والى أمركم ، وأنهم يزعمون أن هذه القصور (المخافر) لم تبن الا مخافة من الخطر منكم .

فصاح الاخوان : اننا نبرأ من الدويش وقاطعناه هو ومن معه ، وإنا على استعداد لمهاجمته ومجازاته ، يا عبد العزيز اننا نبايعك على السمع والطاعة ، وأن نقاتل من تشاء عن يمينك وشمالك ولو دفعتنا إلى البحر لخضناه ، انا نبايعك على مقاتلة من ينازلك ومعاداة من عاداك ، ونقوم معك ما أقمت فينا الشريعة .

هذا ما حدث في مؤتمر ابن سعود الشعبي العام الذى حضره عشرات الالوف ، وما أظن أن ملكا واجه أفراد شعبه هذه المواجهة وأهاب بهم أن ينقدوه ، وعرض عليهم أعماله من يوم أن بدأ حتى اليوم الذى وقف فيه خطيبا ليحاسبوه على أخطائه ، ثم قال لهم في صراحة ووضوح : انه لا يريد أن يحكم قوما يكرهونه ، وأبدى استعداده لان يتخلى على الحكم لمن يختارون وسيبايع من يبايعون ، ولكن الحاضرين هتفوا من صميم قلوبهم انهم لن يرضوا به بديلا ، فهو — وحده — حاكمهم الذى يطيعون ، وملكهم الذى لن يفرطوا فيه ، وقاموا اليه وبايعوه من جديد على السمع والطاعة والسير وراءه خطوة خطوة .

واستطاع بعبقريته ومهارته وسياسته أن يجمع حوله الشعب كله على استهجان المتطرفين من أتباع فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وابن حثلين الذين تخلفوا عن هذا المؤتمر العام لمرض في أنفسهم ، وتطاولوا على ابن سعود نفسه ، وأعلنوا بين القبائل وفي البوادى أنهم قائمون بنشر الدين واقامة الشريعة التى هدمها ابن سعود بموالاته للكفار وشركته اياهم في الاعمال ، وظهر لهم أنه لم يكن الا طالب ملك ، ويجب عليهم أن يثوروا معهم عليه انتقاما للشريعة المضيعة .

ولم يكتف هؤلاء الثلاثة ومن التف بهم من المشائخ والرؤساء الجامدين الحاقدين بهذا التطاول المعيب ، بل أتبعوه بالاعتداء على حدود العراق والكويت، وبنهب القوافل السعودية أيضا ، وزاد شرهم وسخطهم المؤتمر العام المنعقد في الرياض الذى انتهى بالتفاف الشعب حول ابن سعود .

وقعة السبلة

لم يجد ابن سعود حلا للمشكلة الداخلية التى أوجدها الدويش وابن بجاد ومن معهما ، والتى أخذت تتطور وتنذر بالشر والويل الا النهوض في أقرب وقت لوضع حد لها ولمثيريها ، وعبأ جيوشه وقصد القصيم ونزل بريدة ليسير منها إلى العصاة المتمردين ، في حين أن زعماء الفتنة قد جمعوا جموعهم واستعدوا لخوض غمار الحرب ضد ابن سعود حتى يقهروه ، وأخذ كل من الفريقين يعمل من جانبه لليوم الموعود .

لبث ابن سعود في بريدة حتى نهاية عيد الفطر سنة ١٣٤٧ ﻫ لينظم الاستعراض العام الذي نوى أن يقوم به ليرهب العصاة الخارجين عليه ، ونزل ابنه الكبير سعود في « النبقية » ومعه ثمانية آلاف من الجيوش الحضرية وعشرون ألفا من البدو سكان الهجر انتظارا لأبيه الذى قدم اليه ، وقاد البطل الغلاب عبد العزيز نفسه الجيوش وعسكر بالزلفى في حين أن الدويش وابن بجاد عسكرا بالسبلة ، ويبعد كل من الموضعين عن الآخر ثلاث ساعات .

وما كان ابن سعود لينسى جميل أحد وماضيه ، بل ما زال يدخر في نفسه السمحة الطيبة ودا لفيصل وابن بجاد ، فبعث اليهما يطلب منهما أن ينزلا على

أمر الله والرسول فيما أتيا من الأعمال ، وأخذ الرسل يروحون ويغدون بين الطرفين فأخفق ابن سعود ، وغادر الزلفى إلى « السبلة » نفسها ونزل على مقربة من جموع العصاة التي تحصنت وراء جدار بنوه وكان عددهم أربعة آلاف ، وعدد جيش ابن سعود عشرة أمثال جيش العصاة اذ يبلغ أربعين ألفا .

عاد ماجد إلى ابن بجاد وأخبره بجواب ابن سعود الذى صمم على الحرب أو استسلام خصومه بدون قيد ولا شرط ، غير أن الدويش رأى من الخير أن يذهب هو نفسه إلى ابن سعود ليرى ما عنده ويختبر قوته ، وأخذ يتملق ابن سعود ومن معه ، وتظاهر بالرضا والغبطة ، ثم طلب اليه أن يعفو عنه وعمن معه عفوا عاما حتى رضي ابن سعود بأن يعفو عن دمائهم وعن أموالهم ، وأن يدع أعمالهم إلى الشرع يحكم فيها ، فشكره الدويش وأثنى عليه ، وطلب أن يبيت عنده ليبرهن على توبته واخلاصه وعدم مشاطرته سلطانا رأيه ، وعرف ابن سعود أن ذلك خدعة منه فقال له : « قم واذهب إلى قومك ، ونم عند أهلك ، وموعدكم شروق الشمس من غد ، فان كنت صادقا فتنحَّ عنهم ، وان لم تكن فسترى وخامة العاقبة ، والله ولي الصابرين » .

فغادر الدويش المعسكر واعدا بالجواب فجرا ، فما رآه قومه حتى استقبلوه وسألوه عما رأى ، فوقف أمام الجموع شامخا متغطرسا وقال في كبرياء :

« ماذا رأيت ؟ رأيت — يا قوم — حضريا (يقصد ابن سعود) ترتعد فرائصه من الخوف ، وكل من معه « طبابيخ » (أي طهاة) لا يعرفون الا النوم على « الدواشح » (المراتب) أبشروا يا إخوان بالغنائم ! بالكسب ! لقد وجدت لديهم حلالا كثيرا (أي أنعاما) ورأيت عندهم أموالا عظيمة ، فابشروا بالغنيمة التي لم تغنموها من قبل ، أبشروا بالكسب الذي لا تحلمون به ، غدا سنقهر هذا الطاغوت (أي ابن سعود) ونستولى على ماله » ! .

وانتظر ابن سعود جواب الدويش حتى الصباح ، حتى الشروق فلم يأته

جوابه ، بل رأى جموع المتمردين مستعدة للقتال ، فأمر جنوده بالاستعداد ووثب هو إلى فرسه وتقلد بندقيته وشد على وسطه حزامه وتمنطق بسيفه المشهور « رقبان » الذى مزق به كل خصومه ، وجمع جنوده ورتبهم ترتيبا ، فجعلهم صفا واحدا على مسافة طولها ثلاث ساعات ، وأما الخيالة فقد قسمهم قسمين : قسما جعله جناحا أيسر تحت قيادة أخيه محمد بن عبد الرحمن ، وقسما آخر جناحا أيمن وجعله تحت قيادة ابنه الأكبر « سعود » وأشار اليهما ألا يدخلا المعركة الا بأمر منه ، أما هو فقد وضع نفسه في القلب ، وحوله أبناؤه الصناديد المغاوير وأبناء اخوته والامراء من آل سعود والمماليك ، وكان ترتيب العصاة كذلك : خط طويل عليه جنودهم وجناحان للخيالة .

وفي الساعة الاولى من صباح يوم السبت ١٩ شوال سنة ١٣٤٧ (٣١ مارس ١٩٢٩) برز ابن سعود على « الصويتية » أحب أفراسه اليه يختال في السير بين الصفين ، ورقبان — صمصامة القرن الرابع عشر — يهتز في يده القوية فرحا بالدم الذى يرتوى به ، ثم تراجع بفرسه خطوات ثم تقدم ثم تأخر ثم صاح بها صيحة الحرب المدوية فاذا بالصويتية كالبرق وخلفها آل سعود الابطال على خيولهم العربية الكريمة يطيرون ، وهجم الجيش السعودي خلف القائد العام ، والتحمت المعركة ، ووصلت في الدقيقة العاشرة من مبدئها إلى أقصى شدتها وعنفها ، وثبت العصاة للوثبة الاولى ولم ينكسر صفهم المتماسك ، فازداد غضب الشجاع المعلم ابن سعود وصاح صيحة أخرى أشد دويا وهولا وأعظم رعبا من الاولى ، وجال في الميدان جولة الجبار ورقبان يطيح بالرءوس ويفلق الهام في يد الفارس المتضرم حماسة ، رقبان البتار تسيل منه الارواح ويقطر من حده الدم ، وبعد نصف ساعة انهزم العصاة وأبيد معظمهم ، وأراد الخيالة السعوديون أن يتبعوا الفارين وهم قليل فصدهم ابن سعود نفسه ، وأمرهم بتركهم ظنا منه أن هذه الضربة قاضية ، بل لان من شرعته في الحرب ألا يجهز على جريح وألا يتبع من ولوا الأدبار ، وفر فيمن فر فيصل الدويش وسلطان بن بجاد إلى الارطاوية ، وتبعد سبع ساعات عن مكان المعركة .

ولرقبان سيف ابن سعود تاريخ مجيد وذكر مرفوع وحوادث رائعة ، منها هذه الحادثة التي تدهش وتعتبر في حكم النوادر وهي كافية لتخليده !.

ضرب ابن سعود برقبان عنق أحد أعدائه فنفذ السيف في لمح البصر والرأس في مكانه ، فظن ابن سعود أن الضربة أخطأته ، فرفع السيف وقبل أن يهوي به انتفض القتيل وسقط الرأس الا أن الضربة الرادفة هوت – بعد سقوط الرأس – على جسمه فقدته نصفين وشطرت القلب شطرين ، والمدهش الغريب أن كلا شطري القلب كان مستمرا في ضرباته ثواني معدودات [١] .

بعد السبلة

انتهت معركة السبلة بانتصار ابن سعود على أولئك المارقين العاصين ، وألفى الفارون منهم — وهم رءوس الشر والفتنة — أنفسهم ألا مخرج لهم ولا ملجأ من ابن سعود الا اليه بعد الله ، فكتبوا اليه يطلبون الصفح والامان ، ويذكرونه بماضيهم الجميل ، ويرجونه ويتوسلون اليه أن يرضى عنهم ، فأجابهم بأنه يذكر فعالهم الطيبة من قبل ولا ينسى حاضرهم المثقل بالقبائح والمنكرات ، وذكر لهم أن العفو محمود عند القدرة ، وهو قادر الآن على أخذهم ، ولكنه يعفو عنهم ، ويكل أمر عملهم إلى الشرع الشريف .

غير أنهم خافوا على أنفسهم ، فبعث فيصل الدويش وابنه عبد العزيز في صباح الاحد ٢٠ شوال ١٣٤٧ إلى مقر ابن سعود بالسبلة نساءهما وأطفالهما يستشفعون لهما عنده ، فلما رآهم قادمين في بكاء وعويل رق قلبه ولم يتمالك نفسه من البكاء ، فأصدر أمره بالعفو عن الدويش وابنه عبد العزيز ، واشترط أن يسلم ابنه حالا ، وأن يبقى هو بالارطاوية حتى يشفى من جراحه ثم يسلم نفسه ، وألا تكون له علاقة — بعد الآن — بقبيلة مطير ، فرضي الدويش واستسلم ابنه عبد العزيز وسلم نفسه .

أما ابن بجاد فقد بعث إلى ابن سعود كتابا يستأذنه فيه بأن يسمح له بمقابلته وليصنع به ما يشاء ، فأجابه بأن الجنود حانقون عليه ومتبرمون به ، ويخشى ان قدم عليه أن يناله منهم مكروه ، فأمره بالمضي إلى « شقرا » أو إلى الرياض ويسلم نفسه لحاكمها إذا كان صادقا ، فذهب ابن بجاد إلى شقرا وسلم نفسه .

ثم أمر ابن سعود بسجن ابن بجاد لأنه كان خطرا على الامن العام ويخشى انتقاضه ، وطالما نكث بالعهود ومزق المواثيق ، ففي اطلاقه ومنحه الحرية تمهيد للعبث والفتنة من جديد ، فرأى أن يبقيه معتقلا اكتفاء لشره حتى يتوب .

ثم مضى ابن سعود إلى الحجاز وظن المفسدون في نجد أن الجو قد خلا لهم ، فما عليهم من بأس أن طاروا وحلقوا ونهشوا ، ومن أعظم افسادا من الدويش وابنه ؟ ومن أشد منهما جحودا للجميل ونكرانا للصفح ؟ .

عفا ابن سعود عن الدويش وولده عبد العزيز بعد السبلة بعد أن ألحا عليه وهما شر الجناة ، ولكنهما لم يستمرئا طعم العفو لأنهما فطرا على النهب والسلب والاعتداء ، فقد برىء فيصل الدويش من جراحه الخطرة التي كان يظن فيها حتفه واستعاد قوته ونشاطه ، كما استعاد ابنه الحرية واتصل بأبيه وغادرا الارطاوية وأقاما بين الكويت والاحساء ، وانضم اليهما العجمان بعد أن قتل رئيسهم « ضيدان » على يد فهد بن عبد الله بن جلوى وبعد أن قتلوه انتقاما لضيدان ، وأخذوا يشنون الغارة على الآمنين ويقتلونهم ويسلبون أموالهم وأنعامهم حتى أمسوا خطرا على الامن ، ولم يعد يكفي فيهم النصح والارشاد ولا الزجر والتهديد.

بل انقطع الطريق بين نجد والاحساء وبين نجد والحجاز ، حتى كادت المواصلات تنقطع بين مدن المملكة ، فعتيبة أخذت تغير على السفْر والقوافل ،

وتقتل الرجال والنساء والأطفال ، وثمة الدويش ومن معه ، وهذه ثورات تنذر بالويل والخراب ، فجرد ابن سعود حملة قوية من عتيبة الموالية له وضرب بها عتيبة المعادية الباغية ضربة أقعصتها ، وقوى الحاميات في نجد والاحساء والحجاز ، ثم طفق يفكر في الوسيلة التى تمكنه من الثائر العنيد الباغى فيصل الدويش الذى لا ينفع فيه قول طيب ولا عمل صالح ، ولا يعبأ بعهده ، بل يمزقه كلما وجد السبيل إلى تمزيقه ، فلم يجد الا القوة فهي وحدها كفيلة بأن تقضي على الفتن والشرور ، فجد في جمعها وتعبئتها .

أما فيصل الدويش فقد ظن أنه أصبح ذا شأن ، وأراد أن يكون كابن سعود أو أعظم منه وحسده ونفس عليه ملكه ، فسلك لأعماله وأمانيه مسالكا شائنا معيبا ، وبعث ابنه عبد العزيز مع قوة إلى « لينة » فلم يجدوا بها أحدا ، فغادروها إلى « الحزول » ووجدوا بها ابلا وأنعاما كثيرة فنهبوها ومضوا فرحين بغنائمهم التى ظفروا بها بدون قتال .

وسمع بعملهم عبد العزيز بن مساعد أمير حائل — وكان على ماء يسمى قبة — فلم يطق صبرا ونهض مجدا في السير مع جنوده البسلاء يتتبعون آثار الجناة الناهبين ، ولكنهم لم يجدوهم حتى وصلوا « البشوك » فاستراحوا قليلا ثم غادروه إلى « أم رضمة » وأقاموا بها ثلاثة أيام يستطلعون فيها أنباء الاشرار فلم يقفوا لهم على أثر ، فاضطروا إلى مبارحتها إلى « لينة » في يوم السبت ٤ ربيع الآخر سنة ١٣٤٨ هـ .

وبينا ابن مساعد سائر بجيوشه يقطع القفار أشرف على خرق رغيب يسمى « طيارات » فأبصر على البعد عبد العزيز بن فيصل الدويش ومن معه آيبين من الحزول بغنائمهم الكثيرة ، وكانت من المصادفات النادرة أن وجدوهم بدون

تعب ، واستقبلهم بالسيف وحمل عليهم حملة شديدة وطوقهم ودام القتال خمس ساعات ثم انتهت المعركة بقتل عبد العزيز بن فيصل الدويش وجماعة الثائر فرحان بن مشهور ، أما فرحان نفسه فقد كان غائبا — لحسن حظه — وسلم من القتل ، وفر من نجوا منهزمين ، الا أن الجنود والفرسان طوقوهم وقبضوا عليهم جميعا وكانوا مئتي رجل وقدموا إلى المحكمة العسكرية التى يرأسها ابن مساعد ، فحكم عليهم بالاعدام لأنهم بغاة جناة عاهدوا ثم نكثوا ثم عاهدوا ثم غدروا ثم عاهدوا ثم نقضوا وقتلوا الابرياء ، ولن ينفع فيهم العفو والصفح ، بل لا يمكن أن يشملهم ابن مساعد بالعفو ، ويجب أن يقتلوا قصاصا بمن قتلوا ، فأطار سيف الحق والعدالة مئتي رأس من رءوس البغاة ليشاركوا زملاءهم المصير الاليم .

غير أن اثنين من مطير استطاعا الفرار على فرسيهما من المعركة حينما رأيا رجحان كفة ابن مساعد وقتل ابن الدويش ومضيا إلى فيصل ونعيا اليه ولده فسقط مغشيا عليه ، وأيقن أنه مقضي عليه لا محالة ، فهذا ابنه يقتل على يد ابن مساعد ، وهؤلاء خير رجال مطير ذبحوا مع ابنه ولم ينج من كل من معه الا هذان الرجلان ، في حين أن وقعة السبلة أكلت أشجع شجعان قبيلته ، ولم يبق معه الآن الا النفايات فليجتهد في جمع الانصار وأخذ الثأر ، ودفع شر ابن سعود .

ولقد مر بالقارىء حوادث فيصل الدويش وفتنه ونكثه المتكرر بعهوده ، ومر به ما صدر منه من الأقوال والأفعال ما أضر بالاسلام والمسلمين وأخر الشعب السعودي عن التقدم ، وكبده خسائر فادحة في الأرواح والأموال ، وورط الحكومة في مشاكل كبيرة .

وقد أطمع الدويش حلم ابن سعود ، فغدر به ونكث كل عهوده ومواثيقه ؛

وانقلب لصا فتاكا قاطع طريق ، وأخل بالأمن وهدد الآمنين ، وأخذ يجمع أمثاله من العصاة واللصوص والنهابين ، وأنشأ منهم جيشا يريد أن ينتزع به من ابن سعود ملكه .

وعلم الشعب بأفاعيل الدويش فطلبوا إلى ابن سعود أن يضع حدا العصيان الدويش وفساده وشروره ، وأن ينتهي منه ليتفرغ لشؤون شعبه الذى ينتظر منه أن يتم ما بدأه من الأعمال والمشروعات الكبيرة ، فوعد ابن سعود شعبه خيرا .

وراء الدويش

صمم ابن سعود على أن يخرج بنفسه للقبض على الدويش مهما كلفه الامر ، ولن يعود بدونه ، فخرج بجيشه يطلبه ، وبينا كان في الطريق وصل اليه أن محسنا الفرم (من حرب) ومعه من عربان العراق ابن طوالة وابن سويط هجموا على الدويش لأنهم موتورون منه ونهبوا ما استطاعوا وأشعلوا النار في خيمة الدويش نفسه ثم غادروا وهم لا يعلمون بمسير ابن سعود .

وأمسى الادبار ملازما الدويش حتى ضاقت به الأرض على رحبها ، وتنكرت له المدن الكبيرة ثم القرى ، ثم أنكرته الصحراء ولم تسعه على رحبها ومجاهلها ، وصار طريدا في القفاف والفلوات والجبال ، فبعث إلى ابن سعود وفدا برئاسة « الحميدي بن مفلوح » ومعه كتاب منه في ٩ رجب سنة ١٣٤٨ هـ وموجزه أن خروجه كان مقدرا عليه ، ويرجوه أن يعفو عنه ، وألا يلجئه إلى الكفر باصراره على الانتقام منه ، وهو الضعيف العاجز ، فأجابه ابن سعود في ٢٨ رجب ١٣٤٨ هـ بكتاب هذا موجزه :

« لا شك أن الامور كلها بيد الله ، والايمان بالقدر واجب ، ولكن الحجة به باطلة ، وانك بعثت هذا الوفد وأنت مريد منه أربعة أمور .

« ١ – الالتجاء إلي بعد أن سد الله في وجهك الطريق ، وأراك عجزك ومقته اياك ، ولم تبق لك حيلة تستطيع أن تحتالها فلجأت إلي .

« ٢ – المكر ، فتقول للناس بعد ذلك اذا أردت أن تمكر بي مرة ثانية : انى أفعل ما أشتهى ثم أركب لابن سعود راعي ذلول يأتيني منه بما أشتهى ! .

« ٣ – تريد أن تكون صادقا عند من طلبتهم يد المساعدة فلم يمدوها اليك إذ قلت لهم : اذا لم تعطونى فسأمضى إلى ابن سعود وأصالحه ثم أغير عليكم وأفعل بكم ما أريد .

« ٤ – تريد بحياتك – يا فيصل الدويش – غيظ المسلمين الذين قتل بعضهم بعضا بسببك ان عفوت عنك ! .

« كنت أحب ألا يصلنى خطابك ووفدك لاضربك الضربة القاضية ، ولكن – وقد جاءنى – لا مانع أن أعطيك الامان لتقوم الحجة عليك ، أعطيك الامان ، فان قبلت سلمت منى ، وان رفضت أعان الله عليك .

وإن كان لديك بقية من الشر تستطيع أن تتمادى فيها فالله خير كاف ، والا فأقبل أنت ومن معك في وجهى ، وأمان الله على دمائكم » .

غير أن فيصلا الدويش كانت لديه « بقايا » من الشر لا بقية ، فبعث إلى ابن سعود رسالتين يظهر فيهما شكه بأمانه وعفوه وكلامه ، ويهدده بأن الطريق لم ينسد في وجهه كما يظن ، فالحكومات تخطب وده وترجوه أن يكون من رعاياها ، فهو مستطيع أن يلتجىء اليها ان أراد ، ولكنه لا يريد ، لأنه مسلم ، وتلك حكومات كفار ، وهذا نص رسالته للملك عبد العزيز بن سعود :

« من فيصل بن صلطان الدويش إلى جناب الإمام المكرم عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل سلمه الله تعالى . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على

الدوام . بعد ذلك خطك وصل وما عرّفت كان معلوم من جميع الأمور . ولكن حنّا اليا (إلى) ها الحين ما طاب خاطرنا منك والظن فيك يا بوتركي غير ما ذكرت لنا . وهذا واصلك صلطان بن مهيلب . ونبيك ان شاء الله تؤمنا أمان ما فيه تفتيش . وباقي الجواب من رأسه أبلغ . هذا ما لزم تعريفه مع إبلاغ السلام العيال والمشايخ . ومن هنانا الإخوان يسلمون والسلام . ٤ رجب ١٣٤٨ .

ومع الكتاب « ملحق » بخط الدويش ، وهذا نصه :

« بقي بالخاطر سلمك الله . تذكر في خطك أن الدروب مسددة علينا وأنه ما بقي لنا حيلة وأنا مضطرين اليك . حنّا سلمك الله بخلاف ذلك بحول الله وقوته ولولا غلاك ورفقتك كان كل أمر نبيه مدركينه . وكل يجذبنا وأي طريق نبيه نضربه ما لنا معارض . ولكن مثل ما قلت لك غلاك ورفقتك ولا ودّنا بمداخل الكفر . ويكون عندك معلوم ويتقرر في عقلك ولا تشكك أنى لولا بغضى للكفار ولا ودى أدخل حدر ولايتهم كان ما كرّيت لك جميع مركوب ولكن ما ودى في ذلك . وادرأني في ذلك صادق ومعنى خطك اللى جانى منك فيّ وفي أركايبي . وأنت تخبُرني مانى راعى مكر ولا تلواسات . اليوم أدخل على الله لا تحدنا على الكفر . وحسبنا الله ونعم الوكيل والله خير كافي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

والرسالة الثانية بتاريخ ٦ رجب ١٣٤٨ (٦ ديسمبر ١٩٢٩) ومما جاء فيها ما نصه :

« والله لو حنا مشتهين حجي غير حجي الاسلام ان كل باب مفتح لنا مثل ما انفتح لناس غيرنا من قومك خاصة . ولكن يا عبد العزيز اتق الله في المسلمين ولا تردهم للكفر بعد ما ذاقوا طعم الإسلام وحناني من الله ثم منك يا بو تركي انك تدفن ما فات بيننا وبين أهل نجد من الدماء والأموال ترى ما عندنا زايد ، الزايدة عندكم ، إلخ » .

وفي الوقت نفسه عثر في أوراق الدويش حينما غزاه عبد المحسن الفرم ونهب ما عنده على مسودات رسائل من ضمنها مسودة كتاب باسم الملك فيصل ملك العراق يقول له فيه : انه خرج على ابن سعود ــ كما يعلم ــ الا أن الطائرات التابعة لسلاح الطيران البريطاني في العراق طردته من الأراضي العراقية ، ويطلب من جلالته أن يكفيه شرها ليتفرغ لابن سعود أو فليأمره بما يريد .

وعثر على « مسودة » أخرى لكتاب باسم المستر جلوب المفتش الاداري للبادية الجنوبية في العراق المشهور عند العرب بأبى حنيك يقول له فيه : « انه يطلب أن يصير من رعيته وجنده ، وانه تحت أمره الآن » وتاريخ المسودتين ١٣ رجب سنة ١٣٤٨ هـ ، وها هوذا نصهما :

« من فيصل بن سلطان الدويش إلى جناب المكرم المحترم فيصل الشريف صلطان العرب سلمه الله تعالى . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وموجب الخط إبلاغ السلام والتحية والاحترام وبعد ذلك ألفوا علينا رجاجيلنا اللى جو منك في قرعة مديرس شمال الحفر ومن طرف العربان أسفلهم العجمان في مهزول وفوقيهم حنّا إلى ابرق الحباري وإلى عذيبة والرحيل ومن طرف حنّا في هالحدود ونجد فيها فرصة لحرب بن سعود ولكن حنا أوذونا سرقان الضفير رعية الحكومة بالسرق . واليوم بارك الله فيك تدرى أننا ما نقدر نضرّهم بسبب الحكومة وحنّا نبيك تكفينا عن الحكومة ورعاياها ولأجل نتفرغ لنجد وحربها وهم يسوقوننا في طيارات وتنابيل ويقولون ارجعوا لابن سعود والا اشملوا مع الحَجْرة . حدود ابن سعود الأرض ردية ولا ندرى وش مرامهم في ذلك . وأنت سنعنا إما خذ لنا أمان الحكومة وإلا سنعنا على سنع بيّن » .

وهذا نصّ الثانية :

« من فيصل بن صلطان الدويش إلى جناب عالي الجناب كبت قلاب . بعد التحية والاحترام سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . بعد ذلك تعلم ويتقرر

في فكرك ويكون عندك معلوم أنا أهل صدق ناخذه ونعطيه ولا نعرف الغدر والخيانة وتعلم مماشينا مع ابن سعود في السابق وأنه ما وصل هالمواصيل إلاّ بسببنا . ولما رأينا غدره وخيانته فينا خاصة ، وبالناس عامة فارقناه . واليوم أحببنا اننا نصير رعية لكم وموامير لكم ونصير حدر يديكم وجند لكم ولا نعصى أمركم وباقي الجواب من راس الطارش أبلغ . هذا ما لزم تعريف جنابكم الشريف ودمتم . حرر في ١٣ رجب ١٣٤٨ من عندنا علي ابن عشوان وجاسر بن لامي وفيصل بن شبلان وابن جربوع وعلي بو شويربات وصنيتان المريخي وابن حنايا يبلغون السلام » .

وأخذ فيصل الدويش يحتال لنفسه وينافق ويمكر حتى حاق به مكره ، وأراد أن يخدع ابن سعود الكريم ، فلم يوفقه الله ، بل أوغر بأعماله الخبيثة صدره عليه وأخذ يتتبع أثره .

وسمع ابن سعود أن الدويش في الاراضي العراقية فثار ثائره ، وبعث إلى المندوب السامي في العراق كتاب احتجاج عن طريق البحرين :

« سرنا لتأديب البغاة الذين قامت عليهم قيامة الحكومة البريطانية والعراقية والكويتية لأنهم قتلوا رعاياها وعاثوا في أراضيها فسادا ، ونراهم اليوم ينعمون فيها ويعتصمون بها ، فأين التعهدات التى تجهر بأنها لن تقبلهم ولن تجيرهم ؟ أين التعهدات بأنها ستطردهم ان دخلوا أرضا غير سعودية ؟ » .

وفي الخامس من شعبان ١٣٤٨ هـ وصل ابن سعود « شعيب الباطن » الواقع أمام « الحرجا » ونزل به بعسكره ، وهو يبعد عن ملتقى « شعيب العوجا » بالباطن حيث تلتقى الحدود بين العراق والكويت ونجد بسبعة كيلومترات ، وعلم أن المخفر المسمى « مخفر العبيد » الذى به الحرس العراقي على بعد ثلاثة كيلومترات عن نقطة التقاء الحدود ، وشاهد من شعيب الباطن الطائرات الانكليزية تطير فوق الحدود العراقية ورأى السيارات العسكرية التابعة لحكومة العراق على أرضها ،

فأمر جلالته يوسف ياسين أن يكشف له خبر السيارات ويستنشق خبر العصاة، فمضى الاستاذ بسيارة الملك حتى وصل مخفر العبيد ولقى به حسن بك على المدفعي مدير شرطة بادية الجنوب العراقية ، غير أن المدفعي ليس بيده الامر كله ، فنقل ما حدث به إلى بغداد .

وفي الساعة العاشرة — أي بعد العصر — أقبلت سيارة محروسة بسيارتين مدرعتين وبها الكابتن جلوب، وتحدث إلى مندوب ابن سعود طويلا وقال له : ان مع الدويش نساء وأطفالا ، لهذا لم تأذن الحكومة البريطانية بضربه ، ولقد طلب الرعوية العراقية فلم أقبل ، ثم طلبته فجاء إلي هو وابن حثلين وأنذرتهما بمغادرة حدود العراق في يومين والا فلن أزهد في ضربهما ، ويظهر أن الدويش علم بقدوم ابن سعود ففر لأنني تعقبته بالدبابات فألفيته قد تجاوز « الجهرة » ودخل الكويت ، ولا يمكنني أن أتعقبه فيها وأنا موظف عراقي .

وبذلك لم يبق في العراق من العصاة الا فرحان بن مشهور السجين هنالك ريثما تنتهي المفاوضات بشأنه، فبعث ابن سعود في ٥ شعبان سنة ١٣٤٨هـ برقية إلى المندوب السامي في العراق يقول له فيها : إن بريطانيا قد تعهدت بطرد العصاة من أراضي العراق والكويت وشرق الأردن ، وهاهم أولاء في الكويت ، فإما أن تطردهم الحكومة البريطانية ، وإما أن تسمح للسعوديين بمطاردتهم أينما ذهبوا ، أو تعلن حمايتها للعصاة .

وفي ٦ شعبان ورد اليه جواب المندوب السامي يخبره أن الحكومة البريطانية جادة في الترتيبات اللازمة لاخراج العصاة من حدود الكويت ، الا أن ابن سعود أراد الجواب القاطع في أمر العصاة ورحل في ٨ شعبان من « الرقعى » لعدم وجود الماء الكافي بها للجند الذى معه ، وبعث الشيخ يوسف ياسين إلى مخفر العبيد ليرى ما جد ، فمضى ووجد برقية من رئيس المعتمدين السياسيين في خليج فارس يطلب فيها باسم الحكومة البريطانية مقابلة ابن سعود لحل مشكلة العصاة الذين منع اخراجهم بالقوة وجود الأطفال والنساء معهم ، فوافق الملك

وأخبر رئيس المعتمدين بأن منزله اليوم دون « المسناة » وغدا في « جو الحوار » وبعد غد في « بنية عيفان » .

وكان ابن سعود في طريقه يؤدب كل من صادف من العصاة أو أتباعهم ، حتى اذا كان في اليوم العاشر من شعبان في « بنية عيفان » راكبا سيارته الخاصة ومعه الشيخ يوسف ياسين والشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ والدكتور مدحت شيخ الأرض وسائقها صديق الهندي أبصر سربا من الظباء يبلغ الخمسة ، فأمر السائق بأن يعدو بالسيارة خلفها ، وصاد أربعة منها وطار الخامس فطارت السيارة خلفها ، الا أن الظبي المذعور مال في عدوه إلى اليمين منحرفا عن طريق السيارة المطاردة فمالت هي أيضا ، فرأى ابن سعود جمعا كثيرا ، ولم يحقق النظر فيه لاشتغاله بالظبي الفار حتى أصابه وصاده ، ثم انثنى يرقب الجمع ، فظنه في بادىء الامر بعض جنده ، غير أنه التفت إلى جانب منه فرأى نساء وأطفالا وأغناما ما نفى ظنه ، لأنه ليس مع جنده نساء وأطفال .

ولم يكن معه غير رفاقه الذين هم بالسيارة وغير سائقها فارتد بها إلى الوراء قليلا فأبصر سيارة ابنه محمد قادمة اليه ، فأركب فيها أحد رجال مطير — قبيلة الدويش — ليكشف له الامر ، فان كان الجمع من الانصار فلا خوف على المطيري لأنه رسول ابن سعود ، وان كان من الاعداء العصاة فهو في مأمن من الاذى ، لأنه من جماعة الدويش ويستطيع خداعهم بأنه منهم .

راح المطيري واذا الجمع قبيلة الصقهان — أحد بطون العجمان — وكانت قد خرجت على ابن سعود ، فسألها رسوله فأجابته : أنها الصقهان وبعض مطير فروا من وجه ابن سعود ، فطمأنهم بأنه لا بأس عليهم وأخبرهم أنه يريد الصيد وتركهم وعاد إلى ابن سعود وأخبره .

وما كاد الأمير محمد بن عبد العزيز يسمع جواب الرسول حتى تحمس لقتالهم فمنعه أبوه ، ولكنه أصر وقاد رتلا من السيارات المسلحة وعليها بعض آل

سعود الشجعان وأسرع إلى الصقهان فقابلوه وتقاتلوا دقائق حتى أبيد المحاربون .

وكان ابن سعود في المعسكر يهيء المدد لنجدة ابنه ، ثم أسرع بسيارته إلى المعركة يشهد سيرها ، ولكنه وجد ابنه محمدا راجعا ومعه النساء والأطفال والغنائم ، وكان عمر محمد حينئذ ثمانية عشر عاما .

وفى المساء قدم اليه أحد رجاله وهو « تركي بن ماضى » من مخفر العبيد بكتاب ضمنه برقية من المندوب السامى ببغداد يخبر ابن سعود فيها بأن فيصلا الدويش ورفيقه نايفا بن حثلين وجاسرا بن لامى معتقلون فى باخرة بريطانية ، فبعث اليه ابن سعود فى يوم السبت ١١ شعبان سنة ١٣٤٨ هـ يطلب اليه تسليم المجرمين انفاذا لتعهد الحكومة البريطانية المتضمن أنها لا تؤوى أحدا منهم في أراضى العراق أو الكويت أو شرق الاردن .

وفى ١٣ شعبان تلقى ابن سعود خطابا من المعتمد السياسي الكولونيل ديكسون يخبره بأنه سيقدم اليه مندوبا عن الحكومة البريطانية لحل مشكلة العصاة .

وتلقى فى ١٧ شعبان كتابا من رئيس المعتمدين فى الخليج الفارسي فحواه أن الحكومة البريطانية كلفته بأن يرئس البعثة البريطانية القادمة لمفاوضته بشأن العصاة اللاجئين ، وطلب السماح بالقدوم مع البعثة بالطائرات .

فأجابه فى ١٨ شعبان بقبول انتدابه وقدومه ، وأخبره أن الاجتماع سيكون فى « خبارى وضحا » اذ قرر الرحيل اليها ، وهى تبعد عن بنية عيفان التى بها عشر ساعات .

في خباري وضحا

نزل ابن سعود بجيشه في خباري وضحا يوم الاثنين ٢٠ شعبان ١٣٤٨ هـ استعدادا للاجتماع بشأن العصاة اللاجئين ، وكان مطمئناً بأنه سيربح المعركة السياسية كما ربح المعارك الحربية ، لأنه يعرف أن انكلترا لن تتنكر له ولن تغدر به ولن تخلف وعدها معه ، ولأنه واثق أن حركات العصاة تهدد مصالح بريطانيا نفسها إذا لم تسلمهم .

وبعد الظهر حلقت في سماء خباري وضحا ست طائرات بريطانية ثم هبطت الى الارض وبرز منها رئيس المعتمدين السياسيين في الخليج الفارسي الكولونيل بيسكو والمعتمد السياسي في الكويت الكولونيل ديكسون ومعاون قائد الطيران البريطاني في العراق الكومندو برنت ، ومعهم بعض المترجمين والكتاب والخدم ، وكان في احدى الطائرات الشيخ حافظ وهبة ــ مندوب ابن سعود في الكويت ــ وقد صدر اليه الأمر بأن يرافق البعثة الانكليزية اليه .

وبعد أن استقر برجال البعثة المقام بدأت المفاوضات وكانوا يمثلون الحكومة البريطانية ، وكان الشيخ يوسف ياسين والشيخ حافظ وهبة عن الحكومة السعودية تحت اشراف الملك نفسه .

وامتدت المفاوضات من ٢٠ شعبان الى ٢٧ وانتهت بانتصار ابن سعود وتم الاتفاق على أن تحمل احدى الطائرات الانكليزية الدويش وابن لامي وابن حثلين في يوم غد (الثلاثاء ٢٨ شعبان) الى مقر ابن سعود ، وأن تسوق العجمان ومطيرا وأموالهم وأنعامهم بالدبابات والطائرات حتّى تدخلهم حدود نجد ، وبعث ابن سعود سرية قوية تحت قيادة الشيخ عبد الرحمن الطبيشي ليتسلم العجمان ومطير ، وقد قادهم الى مخيم الملك المنصور فأمنهم .

وفي الساعة الخامسة من يوم الثلاثاء ٢٨ شعبان ١٣٤٨ هـ (٢٨ يناير ١٩٣٠م) هبطت طائرة تقل الكولونيل ديكسون وقائد البارجة الحربية البريطانية ومعهما المجرمون الثلاثة — رءوس الشر والبلاء والفتنة — : الدويش وابن حثلين وابن لامي ، فاستقبلهم في المطار الشيخ حافظ وهبة باسم جلالة الملك ابن سعود ، وأقلتهم السيارات الى مقر جلالته فقدم اليه قائد البارجة ثم ديكسون بالنيابة عن حكومة بريطانيا وقال : انهما قدما لتسليم المجرمين اليه ، فسر الملك وشكرهما وشكر بريطانيا التي برهنت على وفائها معه وصداقتها له ومصافاته ودها ، ثم استأذن الكولونيل ديكسون ومن معه وخرجوا شاكرين فضل ابن سعود .

ويقول الاستاذ الشيخ حافظ وهبة في كتابه « جزيرة العرب في القرن العشرين » :

« لقد رأيت الدويش هـذا اليوم ورأيته مرارا يزور الملك في الرياض ، فما أعظم الفرق بين الحالتين ! كان الدويش حينما يقدم على الرياض يصحبه نحو ١٥٠ رجلا مسلحا ، يدخلها كقائد عظيم ، وكرجل عظيم له منزلة عظمى في نفوس أهل الرياض وعلمائها وملك نجد ، اذا جلس لا يجلس الا بجوار ابن سعود ، يعتبره الملك كصديق قديم ، وقائد من قواده العظام ، أما غطرسة الدويش وجفاؤه وترفعه عن السلام لأي مخلوق يضمه القصر — ما عدا العلماء طبعا — فحدث عنه ولا حرج .

« وكان كل من يعرف الدويش فى الجاهلية ويعرف أخلاقه الشخصية يجزم بأنه منافق فى دينه ، وأن ما يظهره من الشدة والغلو مصطنع ، أما اذا استأذن فى الرجوع الى الارطاوية فان القائمة التى اعتاد تقديمها للملك تبتدىء من حبال الآبار ومن نعاله الى السلاح والجواري وما بين ذلك من ملابس له ولاولاده وزوجاته والطيب والعود ، وكل قائد من قواد الاخوان يطلب هذه الطلبات ، ولكن قائمته تكون محلا للرفض أو التحوير ، أما قائمة الدويش فلا يدخلها أي تحوير أو تبديل ، واليوم يقف الدويش ذليلا أمام الملك ابن سعود وأمام قواد الجيش وكلهم دونه منزلته » اه .

جلس المجرمون الثلاثة ، بل جلس الدويش كاسفا مطرق الرأس مغمض العينين لا يكاد يرفع رأسه حياء وخجلا من ابن سعود الذى أكرمه وأنعم عليه فخانه فقال له ابن سعود :

ــ أما تخاف رب العزة ؟ ما الذى حملك على هذه المخازى ؟ .

فتلعثم الدويش ولم يدر ما يقول ، ولكنه استجمع قواه وبكى صاغرا مستغفرا وقال :

ــ لم يبق شيء من هذا الخزي لم أفعله ، وماذا تريد أعظم من هذا الخزي وهذا الجزاء أمام سائر أهل نجد ؟! .

ــ انك تعلم يا فيصل ما عملتُ من أجلك فى الماضى .

ــ نعم أعلم .

ــ ما قصرت فى شيء نحوكم .

ــ ما قصرت يا طويل العمر .

ــ لقد كنت ــ يا فيصل ــ فى حرب مع أهل نجد من أجلكم .

— صدقت يا أبا تركى [1] .

— أهذا جزائى منكم ؟!.

وأخذ الدويش يبكى كالنساء لاول مرة فى حياته ، واستمر ابن سعود يقول :

— هل كنتم تريدون الملك ؟ لقد كنتم كلكم ملوكا فى الجهات التى كنتم فيها ، من منكم له الفضل علي ؟.

— لا أحد .

— الفضل لله وحده .

— صدقت .

— من منكم لم آخذه بسيفى ؟ ليس منكم الا من قتلت له أباه أو أخاه ، ولم أخضعكم الا بالله ثم بالسيف .

وأخذ الدويش الجبار السفاك يئن كالثكلى فقال ابن سعود :

— قد كنت أنفذ رغائبكم ، فكنت أشقى وأتعب من أجلكم .

— نعم ... نعم .

— وأواصل الليل والنهار لراحتكم وسعادتكم ، ألا تخاف الله حينما تكتب لجلوب [2] أنك تريد الهجرة الى العراق ، وانك تحب أن تكون تابعا له ؟! أكنت تظن أنك ستكون فى منزلة أعلى من منزلتك التى كنت فيها ؟.

كان ابن سعود يتكلم والدويش يبكى ويئن ويرسل الآهات والزفرات وقلبه يتصدع من البكاء ما يحبس دمعه حابس وقال :

---

(١) ابو تركي : كنية من أحب الكنى الى الملك عبد العزيز ، وتركي بكر أولاده ، وقد توفي سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) ٠

(٢) جلوب : هو الكبتن جلوب المفتش الاداري لبادية العراق الجنوبية ٠ وقد مر ذكره ٠

— يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا ، وقد فعلت ما يبيض وجهك ، وقد قابلنا معروفك بالاساءة ! لقد فررنا من وجهك الى الكفار فحملونا اليك فى طيارة من طياراتهم ، ويكفى ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الاخوان بعد أن كنت عزيزا محترما ، قاتل الله الشيطان، لقد أغرانا وزين لنا سوء أعمالنا فأوصلنا الى ما صرنا فيه الآن .

وتكلم ابن لامى وابن حثلين وزعما أنهما يحبان ابن سعود أكثر مما يحبان نفسيهما ولكن الشيطان أغواهما ، ويستغفران عما سلف من جرائمهما الشنيعة ويتوبان الى الله توبة نصوحا .

وأخذ الثلاثة يبكون ويعولون ، فأمر بهم ابن سعود الى سرادق خاص لهم وأمر باكرامهم ، فخرجوا مطرقى الرءوس لا يرون الطريق والجند في جانبيه يلتهم العصاة ويكاد يثب عليهم لولا ابن سعود الذى أمر ألا يسيء أحد الى هؤلاء ، ولكن الجند لم يمد يده بل سدد اليهم اللعنات والسخرية والتهكم حتى وصلوا السرادق فانزووا ، وقام عليهم حرس قوي لئلا يفروا اذا ما وجدوا الفرصة ، وفى الثانى من شهر رمضان المبارك ١٣٤٨ ﻫ نقل المجرمون الثلاثة الى الرياض وزجوا فى السجن [1] .

أما ابن سعود فقد لبث مسرورا لهذه النتيجة ، وفرح لهذا الانتصار المبين حيث استطاع بقبضه على زعماء الشر والفتنةوالفساد وزجهم فى السجن أن يتفرغ للعمل من أجل سعادة الشعب وحضارة البلاد ، فلم يبق بعد أن فني الجامدون المتسلطون ما يصده عن الافادة بما فى العالم الجديد ، وقال لمن معه : سنحيا اليوم حياة طيبة ، وقد صدق ، فقد وثبت البلاد فى سبيل المدنية وثبات مأمونة الخطر ، وعم اللاسلكي المملكة كلها وربطت أقاصيها بأدانيها كماوجدت المخترعات طريقها الى الصحراء بله المدن .

ان اليوم الذى قضى فيه على الدويش وجماعته لهو يوم تاريخي مجيد ،

---

(١) السجن المعروف بالمصمك .

فقد كان خاتمة لعهد سيء وفاتحة لعهد جديد أشرقت فيه شمس الحرية ، وطالع الناس البشر والهناءة والحضارة ، لأن الدويش وعصبته وحدهم كانوا يجرون الامة الى الوراء ، ويحتقرون أهل الحضارة والمدنيـــة ، ويركبونهم بالازدراء والسخرية ، ويحاربونهم ويهينونهم ، والآن ، انهزمت البداوة والهمجية .

ملكان يلتقيان

عندما كان ابن سعود قرب الحدود العراقية رغبت حكومة بغداد أن تنتهز الفرصة فتعمل على توكيد الصلات بين نجد والعراق ، فوسطت المندوب السامى ؛ فكتب الى ابن سعود فى ٩ شعبان سنة ١٣٤٨ هـ يخبره عن رغبة الحكومة العراقية التى تؤيدها الحكومة البريطانية فى عقد مؤتمر يجمع بين عاهلي العراق والمملكة السعودية ورجال الحكومتين والمندوب السامى نفسه فى مكان محايد أو على الحدود ، ويخبره أن العراق مستعد لأن يكون عقد المؤتمر فى ٢٠ رمضان ١٣٤٨ هـ فوافق ابن سعود .

وفى ١٧ شعبان تلقى من المندوب السامى خطابا يخبره فيه بأنه يقترح أن يكون الاجتماع فى « الرخيمية » المنطقة المحايدة بين العراق ونجد ، فاعتذر ابن سعود ببعد المسافة بين المكان الذى هو فيه والمكان الذى اقترح فيه الاجتماع ، كما اعتذر بقلة الماء فى الطريق ، ورأى أن يكون الاجتماع فى « الوفرة » المنطقة المحايدة بين الكويت ونجد ، ومن السهل على الملك فيصل الوصول اليها بدون جَهْد ، لأنه سيستقل طائرة فى رحلته هذه ، فبعث الملك فيصل الى أخيه الملك عبد العزيز يدعوه أن يكون فى ضيافته بالرخيمية ، فاعتذر له بلطف بما اعتذربه من قبل .

وكان كلا الملكين الكريمين حريصاً على هذا الاجتماع الذى سيمحو مـــا بالقلوب من ذكرى الحوادث القديمة ، وعاملا على تسهيله بما فى المستطاع .

وفى ٢٥ شعبان ورد إلى ابن سعود كتاب من رئيس المعتمدين بالخليج الفارسي يقترح فيه أن يكون الاجتماع فى البحر على باخرة بريطانية خارج المياه النجدية والعراقية ، فأجاب الى ذلك لسهولة الطريق وقرب المسافة ، وتقرر أن يكون الاجتماع فى ٢٠ رمضان سنة ١٣٤٨ هـ وأخذ الملكان العظيمان والمندوب السامى يستعدون لليوم الموعود بفارغ صبر ، الا أن ابن سعود رأى أن الغرض المنشود من الاجتماع هو التواد والتآخى ، فغير بعيد اختلاف وجهات النظر فينجم عن ذلك ما يعكر الصفو الذى يعملون من أجله ، واقترح أن يعقد مؤتمر لتمهيد جو صالح للاجتماع وانهاء البحث فى المسائل المختلف فيها ، ويترك الفراغ لامضاء الملكين فقط .

وقبل اقتراح ابن سعود ، فانتخب العراق وفدا برئاسة ناجى بك آل شوكت وزير الداخلية ، وانتدب ابن سعود ثلاثة من رجاله وهم : يوسف ياسين وابراهيم بن معمر وحافظ وهبة للمفاوضة والبحث ، واجتمع المندوبون فى الكويت فى ١١ رمضان ، الا أن وفد العراق لم يفوض التفويض التام فى البت فى القضايا فلم يكن الحل مستطاعا ، فعاد الوفد النجدي فى ١٦ رمضان لمرافقة جلالة الملك ابن سعود وبقي ابن معمر فى الكويت للنظر في المتخلفين من أتباع العصاة وتقرير ما يجب بشأنهم .

وأمر ابن سعود بأن تقف الباخرة التى أعدتها بريطانيا لنقله الى مكان الاجتماع فى البحرين ليزودها وكلاؤه آل القصيبي بما تحتاج من فرش وأثاث وأمتعة ومأكل ومشرب .

وفى الساعة الرابعة من اليوم الحادى والعشرين من شهر رمضان المبارك ركب ابن سعود وحاشيته زورقا بخاريا من الجبيل الى رأس تنورة انتظارا

للباخرة ، وفى الساعة الثامنة قدمت الباخرة البريطانية « بتريك ستيوارت » وأقلت الملك ابن سعود بحاشيته ، واستقبل من قوادها وربابنتها استقبالا حماسيا رائعاً ، وأطلقت المدافع تحية للملك العظيم وسارت على اسم الله الى المكان المعد للاجتماع .

وكان من المقرر وصول باخرتي الملكين الى الموعد فى وقت واحد ، الا أن أمرا غير عادي أخر « بتريك ستيوارت » قليلا فوصلت فى فجر ٢٣ رمضان سنة ١٣٤٨ (٢٢ فبراير ١٩٣٠) وكانت الباخرة « نرجس » المقلة للملك فيصل ، و « لوبن » المقلة للمندوب السامى قد أخذتا مكانهما .

وتسلم ابن سعود فى الليل وهو بالباخرة برقية من المندوب السامى يدعوه فيها الى تناول طعام الغذاء على مائدته مع الملك فيصل بالباخرة « لوبن » فأبرق اليه بقبول الدعوة ، ودعاه الى مأدبة العشاء التى سيقيمها لعاهل العراق المعظم.

وفى الوقت المحدد للاجتماع ركب ابن سعود زورقه ومعه : يوسف ياسين ، وفؤاد حمزة ، وعبد العزيز القصيبي ، ومدحت شيخ الارض ، وعبد الرحمن الطبيشي ، وحافظ وهبة ، حتى اذا دنا الزورق من « لوبن » رفع عليها علم مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها ، وأطلقت منها المدافع تحية لعاهلها ،واستقبله على سلم الباخرة المندوب السامى وقائد الباخرة ومن معهما استقبالا حماسيا ، واذا ملك العراق مقبل بزورقه فرفع علم العراق العربي وأطلقت المدافع تحية لجلالته ، واستقبل استقبالا فخما ، وسعى كل من الملكين الى أخيه وتصافحا وتعانقا ثم تبادلا ألفاظ التحية والمودة ، وقدم الملك فيصل الى الملك عبد العزيز رجاله وهم : ناجى باشا السويدي (رئيس وزراء العراق) ومحمد رستم بك حيدر (رئيس ديوان جلالته) والكولونيل كورنواليس (مستشار وزير الداخلية) وتحسين بك قدرى (مرافق جلالته) فقدم الملك عبدالعزيز رجاله المار ذكرهم .

ثم دخل الملكان البهو المعد للجلوس ومعهما المندوب السامى ورجـــال الحاشيتين ، وتكلم الملك فيصل كلمة موجزة بليغة ثم شكر الحكومة البريطانية والمندوب السامى على السعي النبيل حتى كان هذا الاجتماع المبارك الذى يبشر بالتآخى بين الامم العربية ، ثم تكلم الملك عبد العزيز شاكرا الحكومة البريطانية والمندوب السامى وقال : « ان الواجب على العرب وأمرائهم أنيسعوا سعيا متواصلا للاتحاد والاتفاق » ثم تحدث المندوب السامى وأعرب عن سروره وسرور الحكومة البريطانية بعقد هذا الاجتماع المنتظر من ورائه كل خير للبلاد العربية .

ثم رأى الجميع اخلاء المكان للملكين ليبث كل منهما ذات نفسه لاخيه ليكون خير تمهيد للتآخي المنشود بين الامتين العظيمتين ، وأساسا متينا لما يبنى عليه من الاعمال الضخمة فى المستقبل ، ثم استدعيا السويدي وكورنواليس ورستم ، ويوسف وفؤادا وحافظا ، واستطاع الطرفان فى هذا الاجتماع بت بعض المسائل المعلقة وارجاء ما بقي الى مندوبى البلدين .

وتناول الملكان الأخوان الغداء على مائدة المندوب السامى فى باخرته وكان معهما بعض رجال الحاشيتين ، وفى المساء لبى الملك فيصل والمندوب السامى وكل من كان فى رفقتهما ورجال الصحافة العراقية وقائد الطيران البريطاني وكبار موظفى البواخر الثلاث دعوة الملك عبد العزيز .

وفى اليوم الثانى لبى جلالة الملك ابن السعود دعوة أخيه الملك الكريم فيصل للغداء وحضرها من حضر مأدبة العشاء ، وكانت الحفلة أنيقة جميلة ، وفى ختامها ودع الملكان بعضهما بعضا وداعا حـــارا وافترقا وفى نفس كل منهما شوق الى الآخر واكبار له واعجـــاب به ، وبقي وفد نجد ووفـــد العراق حتى صلاة العشاء يتناقشان فى المسائل الهامة ثم افترقا ، الا أن الوفد السعودي كان مسرورا بموقف رئيس وزراء العراق ناجى باشا السويدي ومعجبا بغيرته على مصالح العرب ولطفه !.

وفى ليلة الاثنين تناول المندوب السامى طعام العشاء لدى الملك ابن السعود وتحدثا طويلا .

وفى يوم الاثنين ٢٥ رمضان أقلعت « بتريك ستيوارت » بجلالة الملك الى مياه البحرين ليستقل الزورق الى العقير - الميناء السعودي - الا أن الرياح حالت دون ذلك ، فانتهز ابن السعود الفرصة ليؤدي واجبا بزيارة الشيخ عيسى بن خليفة حاكم البحرين ، اذ بين أمراء البحرين وآل سعود صلاة ودية كبيرة ينميها الفريقان باستمرار .

ومضى الملك عبد العزيز ومعه حرسه الى البحرين فاستقبلته جموع كثيرة من أهلها ، ولبست البحرين أبهى حللها استقبالا للملك العربي الكبير ، وسار الملك والجماهير تحييه وتهتف بحياته هتافا عاليا ، ولقي الشيخ عيسى فى قصره بالمنامة ، وكان موقفا من أجمل المواقف التى تكون بين والد وابنه ، ثم استأذنه الملك ومر فى طريقه « بالرفاع » من أعالى البحرين وتناول القهوة العربية بدار آل القصيبي تكريماً لهم ، ثم استقل الزوارق الى القصير مودعا من أمراء البحرين وشعبها النبيل خير وداع .

ابن سعود والعراق

الحق ، إن اجتماع الملكين : فيصل وابن سعود كان بداية عهد جديد فى تاريخ العلاقات بين السعوديين والهاشميين ، وفاتحة خير فى تاريخ العلاقات بين ابن سعود وآل الحسين ، وتمهيداً لإزالة كثير من الخصومات الناشبة بينهم وبينه .

وكان بعض زعماء العراق معجبين بشخصية ابن سعود مع الاحتفاظ بولائهم لمليكهم العظيم فيصل ، ولم يكن ساسة العراق مستعدين لأن يشعلوا نار الفتن بين العراق ونجد، فالعراق قد استقل حديثاً،ولم يكن استقلالا تاما، فهو خاضع لبريطانيا فى السياسة الخارجية ، وكان نفوذ بريطانيا واضحا فى الداخل، ولم يستوف الجيش العراقي قدرته حتى يستطيع مناجزة قوات ابن سعود ، ولا تستطيع الحكومة العراقية من الحرب ضد نجد ما دام الانجليز يسيطرون على سياستها ، كما لم يكن فى مصلحتهم وجود فتن مسلحة فى هذا الجزء من الجزيرة العربية ، ولهذا سعوا فى اجتماع عاهل نجد وعاهل العراق ، ونجح سعيهم .

وكان من الثمار الناضجة السريعة لاجتماع الملكين وصول مندوبيهما الذين اجتمعوا فى يوم ٢٤ و ٢٥ رمضان سنة ١٣٤٨ إلى اتفاق أفضى إلى

« اتفاقيات » بين البلدين ، وما كان نجاح مفاوضات المندوبين الا برغبة الملكين التي أدت الى هذا الاتفاق :

١ — عقد معاهدة حسن جوار بين العراق ونجد تنطوى على اعتراف كل حكومة بالأخرى ، وعلى تبادل التمثيل السياسي والقنصلي ، ومنع الغزو والتعدى بين عشائر الفريقين ، وتسليم المجرمين ، وتأليف لجان حدود قائمة لحل القضايا التى تقع على الحدود ، والتعهد بحسم كل ما يقع من الاختلافات فى تفسير المعاهدات والاتفاقات على أسس التحكيم طبقاً لأحكام البروتوكول الذى يلحق بالمعاهدة .

٢ — تعهد سلطان نجد بقبول طلبات المنهوبات من قبل الحكومة العراقية بشرط أن تكون مؤيدة بموافقة الملك فيصل ، فاذا لم تحصل التسوية المطلوبة خلال المدة المقتضية تؤجل الى ما بعد موسم الحج من السنة التى عقد فيها هذا المؤتمر فتجتمع المحكمة بعد الحج فى الكويت حسب معاهدة بحرة على أن تؤلف من خمسة أشخاص : عضوان عراقيان ، ومثلهما من نجد ، والخامس انكليزي .

٣ — تم الاتفاق على أن تحل قضية المخافر حلاً ودياً خلال ستة أشهر من تاريخ اجتماع المؤتمر ، وإلا أحيلت إلى هيئة التحكيم على أن تكون قراراتها نافذة ، ويشترك الفريقان فى اختيار أعضائها ورئيسها .

٤ — وافق الملك عبد العزيز على العفو عن ابن مشهور وأتباعه اللاجئين الى العراق بشرط أن تطلق الحكومة العراقية سراحهم .

* * *

وانبثق من هذا الاتفاق ايفاد ابن سعود وفداً إلى بغداد للبحث فى وضع صيغ المعاهدات التى تقرر إبرامها ، ونجح البحث وأثمر وضع صيغ المعاهدات ،

وجرى التوقيع عليها بالأحرف الأولى من قبل مندوبى الحكومتين : السعودية والعراقية تمهيداً لإحلالها محل التنفيذ فيما بعدُ .

وعندما كان الوفد السعودي ببغداد كان على رأس الحكومة العراقية توفيق السويدي ، وبعد توقيع المعاهدات بالأحرف الأولى استقال السويدي ليحل محله فى رئاسة الوزارة نورى السعيد الذى غادر بغداد الى مكة فى شهر ذى القعدة ١٣٤٩ (مارس ١٩٣١) .

وفى يوم ٢٠ ذى القعدة ١٣٤٩ ﻫ (٧ أبريل ١٩٣١ م) تم التوقيع على المعاهدات الآتية :

١ – معاهدة صداقة وحسن جوار

٢ – بروتوكول تحكيم

٣ – معاهدة تسليم المجرمين

وها هى ذى نصوصها :

معاهدة الصداقة وحسن الجوار

المادة الأولى – يسود بين المملكة العراقية والمملكة الحجازية النجدية وملحقاتها سلم دائم وصداقة وطيدة لا يمكن الإخلال بهما ، ويتعهد الفريقان الساميان بأن يبذلا جهدهما للمحافظة عليهما ، وأن يحلا بروح السلم والصداقة جميع المنازعات والاختلافات التى تنشأ بينهما .

المادة الثانية – تؤسس حالاً بين المملكتين علاقات التمثيل السياسي والقنصلي وفقاً للأصول المرعية فى الحقوق الدولية العامة .

المادة الثالثة – يتعهد كل من الفريقين بأن يحافظ على حسن العلاقات مع

الفريق الآخر ، وبأن يسعى بكل ما لديه من الوسائل لمنع استعمال بلاده قاعدة للأعمال غير القانونية أو الاستعداد لها بما فى ذلك الغزو مما تكون موجهة ضد السلم والسكينة فى بلاد الفريق الآخر .

المادة الرابعة — عندما يبلغ السلطات المختصة المعينة فى المادة الثامنة أن فى أراضيها استعدادات يقوم بها شخص مسلح أو أكثر بقصد ارتكاب أعمال السلب أو النهب أو الغزو أو غيرها من الأعمال غير القانونية الأخرى فى المنطقة المجاورة لحدود المملكتين يجب أن تنذر تلك السلطات إحداهما الأخرى أو موظفيها أو عشائرها بذلك بالمقابلة وبدون تأخير .

المادة الخامسة — اذا بلغ أحد الفريقين الساميين المتعاقدين وقوع عمل من الأعمال الواردة فى المادة الرابعة أعلاه ضمن أراضيه فله أن يبلغ الفريق الآخر ليتخذ التدابير المقتضية لمعاقبة المعتدين بعد رجوعهم الى بلاده اذا كانوا من رعاياه ، ولمنعهم من اجتياز الحدود اذا كانوا من رعايا الحكومة المخبرة أو من رعايا غيرها .

المادة السادسة — بصرف النظر عن الفقرة الاولى من المادة الثالثة من معاهدة بحرة فان لعشائر الفريقين ملء الحرية فى التنقل فى اراضى المملكتين بقصد الرعي أو المسابلة ، ويتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن لا يضع أقل عرقلة فى سبيل ذلك .

المادة السابعة — لا يجوز لأحد الفريقين أن يجبر رعايا الفريق الآخر عندما يكونون داخل أراضيه على الالتحاق بقوات نظامية كانت أو غير نظامية لتأديب عصيان وللاشتراك بحركات عسكرية .

المادة الثامنة — ان السلطات المختصة المنوط بها تنظيم التعاون التام ومسؤولية القيام بالتدابير المقتضية على الحدود لتطبيق أحكام هذه المعاهدة هي :

من الجانب العراقي : أكبر موظف إداري فى البادية أو من ينوب عنه .

من الجانب الحجازي النجدي : أكبر موظف إداري فى البادية أو مـــن ينوب عنه .

ولهؤلاء المأمورين فقط حق المخابرة فيما بينهم لأجل التعاون ولحل المسائل التى تحدث من وقت لآخر على الحدود وبين العشائر ، وعليهم أن يتبادلوا المعلومات فوراً عما يقع من حوادث فى جهة أحدهم بما له علاقة بسلامة الأمن فى جهة الآخر .

المادة التاسعة — لأجل تسهيل تنفيذ أحكام هذه المعاهدة والمحافظة على صلات حسن الجوار بوجه عام تشكل (لجنة حدود دائمة) قوامها أربعة من المأمورين يُختارون لهذا الغرض من وقت لآخر، النصف من قبل الحكومة العراقية والنصف الآخر من قبل الحكومة الحجازية النجدية ، وتجتمع هذه اللجنة مرة واحدة فى كل ستة أشهر ، وإذا اقتضت الحال فأكثر من ذلك .

المادة العاشرة — تجتمع اللجنة المار ذكرها فى المادة التاسعة للمرة الأولى فى المنطقة المحايدة ، وبعد ذلك بالتناوب فى العراق أو نجد أو فى المنطقة المحايدة فى محل يعين من قبلها قبل انتهاء كل اجتماع .

إن وظائف هذه اللجنة هي السعي لأن تحسم بطريقة ودية أية مسألة من المسائل المتعلقة بتطبيق أحكام هذه المعاهدة فيما يختص بالمرعى وتنقلات العشائر ومنازعاتها وتقدير الخسائر الطفيفة وغير ذلك مما يتعلق بمسائل الحدود تنفيذاً لأحكام هذه المعاهدة وتأمينا لمناسبات حسن الجوار مما لم يتم الاتفاق عليه بين مأمورى الحدود المحليين المختصين ، وكل قرار تتفق عليه اللجنة يجب تنفيذه فى خلال ثلاثة أشهر من قبل الحكومتين ؛ كل فيما يتعلق بها ، وعنـــد حصول الخلاف بين أعضاء اللجنة فى أمر من الأمور الداخلة فى اختصاصها

عليهم أن يودعوا ذلك الأمر إلى حكومتهم للبت فيه ما عدا المسائل الداخلة فى اختصاص المحكمة المنصوص عليها فى المادة الثانية من اتفاقية بحرة فإنها تحال على تلك المحكمة للنظر فيها وفق أحكام الاتفاقية المذكورة .

المادة الحادية عشرة — يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بتنفيذ كل حكم يصدر من المحكمة التى تؤلف وفق المادة الثانية من اتفاقية بحرة فى خلال مدة لا تتجاوز الستة الأشهر من تاريخ صدوره .

المادة الثانية عشرة — يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان تعهدا مقابلا بأن يمنعا الموظفين التابعين لهما من اجتياز الحدود والاختلاط بعشائر ورؤساء قبائل الفريق الآخر سواء أكانوا مشاة أو ركبانا أم فى السيارات ، أم فى الطيارات ، ولا تكون الحكومة التى يجتاز هؤلاء أراضيها مسؤولة عن سلامتهم إذا لم يكن اجتيازهم بإذنها مع استثناء اجتياز الموظفين للحدود تنفيذاً لأحكام المادة الرابعة من هذه المعاهدة .

المادةالثالثةعشرة— يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان تعهداً متقابلاً بأن يتخذا التدابير لمنع الأجانب المقيمين فى بلادهما أو القادمين منها أو رعايا الفريقين المتعاقدين من اجتياز حدود الفريق الآخر بقصد السياحة أو الاكتشاف أو الصيد أو أي قصد آخر بدون استحصال اذن سابق ، إما من القنصليات واما من السلطات المنصوص عليها فى المادة الثامنة التابعة لكل من الفريقين ، ولا تكون الحكومة التى يجتاز هؤلاء أراضيها مسؤولة عن سلامتهم إذا لم يكن اجتيازهم باذنها مع مراعاة الأحكام الواردة فى اتفاقية بحرة وغيرها من الاتفاقيات المنعقدة بين الفريقين فيما يتعلق بالعشائر وتنقلاتها .

المادة الرابعة عشرة — يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان رغبتهما فى الدخول بأقرب فرصة فى مفاوضات من أجل عقد اتفاقيات خاصة بالأمور الاقتصادية والقنصلية والإقامة والجنسية .

المادة الخامسة عشرة — كل اختلاف يحصل بين الفريقين الساميين المتعاقدين فيما يتعلق بنصوص هذه المعاهدة أو المعاهدات أو الاتفاقيات المنعقدة بين المملكتين قبل تاريخ هذه المعاهدة وكل اختلاف يحصل بعد تاريخها من جراء أحكام المعاهدات والاتفاقيات الجديدة المبرمة بينهما يجب أن تحال إلى التحكيم الذى يجرى بموجب البروتوكول المرفق بهذه المعاهدة .

المادة السادسة عشرة — حررت هذه المعاهدة من نسختين باللغة العربية ، وتصبح نافذة من تاريخ تبادل نسختيها المبرمتين من قبل الفريقين ، ويجرى التبادل فى المحل الذى يتفق عليه بينهما .

حررت فى مكة المكرمة فى ٢٠ ذى القعدة سنة **١٣٤٩** هجرية الموافق ٧ ابريل سنة **١٩٣١** ميلادية .

بروتوكول تحكيم

المادة الأولى — يجرى التحكيم بواسطة محكمين لا يتجاوز عددهم الستة ، يُنتخَبون بالتساوى من قبل الفريقين الساميين المتعاقدين برياسة شخص يتفق الفريقان المذكوران على انتخابه من وقت لآخر .

المادة الثانية — إذا رغب أحد الفريقين الساميين المتعاقدين فى أن يحيل الى التحكيم أية قضية من القضايا التى يجب احالتها وفق أحكام هذا البروتوكول عليه أن يعلن رغبته حينئذ الى الفريق الآخر مع بيان أسماء محكميه وعلى الفريق الثانى أن يبين للأول أسماء محكميه أيضاً على أن يتم الاجتماع خلال ستة أشهر من تاريخ اعلان رغبة الفريق الأول فى اجراء التحكيم .

المادة الثالثة — يجرى تعيين رئيس هيئة التحكيم بالاتفاق بين الفريقين فى خلال المدة المذكورة فى المادة الثانية من هذا البروتوكول .

المادة الرابعة – على كل من الفريقين الساميين المتعاقدين أن يرسل الى الفريق الآخر والى رئيس هيئة التحكيم مذكرة يوضح فيها قضيته والحجج التى يستند اليها ، وعلى الفريق المرسلة اليه المذكرة أن يجيب عليها بشرط أن يكون ذلك خلال الستة الأشهر المنصوص عليها فى المادة الثانية أعلاه .

المادة الخامسة – يجتمع المحكمون فى المحل الذى يتم الاتفاق عليه بين الحكومتين وعلى هيئة التحكيم أن تصدر قرارها خلال ثلاثة أشهر .

المادة السادسة – يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يقدما الى هيئة التحكيم جميع التسهيلات والمساعدات التى تطلبها للقيام بمهمتها .

المادة السابعة – لكل من الفريقين الساميين المتعاقدين أن يعين شخصاً أوأكثر لبسط نقطة وجهة نظره أمام هيئة التحكيم فى المسألة المختلف عليها .

المادة الثامنة – يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان تعهداً قطعياً بقبول وتنفيذ القرار الذى يصدره المحكمون فى المسألة المرفوعة اليهم ، وللمحكمين اذا اقتضى الامر أن يصدروا قرارهم بالاكثرية .

المادة التاسعة – تدفع كل من الحكومتين رواتب ونفقات المحكمين المعينين من قبلها ونصف رواتب ونفقات الرئيس وكتبة الاسرار وغيرهم ممن يحتاج المحكمون الى مساعدتهم .

المادة العاشرة – يصبح هذا البروتوكول نافذ المفعول اعتباراً من تاريخ تبادل النسخة المبرمة من قبل الطرفين .

معاهدة تسليم المجرمين

المادة الاولى – تتعهد حكومة الحجاز ونجد وملحقاتها بأن تسلم الى حكومة

العراق أيا كان من الرعايا العراقيين الذين يرتكبون داخل حدود العراق احدى الجرائم الواردة فى المادة الثالثة من هذه المعاهدة ويوجدون داخل حدود مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها .

المادة الثانية — تتعهد حكومة العراق بأن تسلم الى حكومة الحجاز ونجد وملحقاتها أيا كان من رعايا مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها الذين يرتكبون داخل حدود مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها احدى الجرائم الواردة فى المادة الثالثة من هذه المعاهدة ويوجدون داخل حدود مملكة العراق .

المادة الثالثة — لا يسمح بتسليم المجرمين السياسيين ، أما الجرائم التى يجب تسليم المجرمين فيها (ولا تعتبر من الجرائم السياسية) فهي قطع الطريق أو السرقة أوالسلب أو النهب أو القتل أو الجرح أوالغزو أوالتعدى الشديد سواء كان المجرم فرداً أم جماعة ، وسواء أكان الجرم موجهاً ضد فرد أو جماعة ، وكذلك لا يعتبر جرماً سياسياً كل قيام ضد شخص أحد صاحبي الجلالة أو ضد شخص أحد أفراد عائلتيهما .

المادة الرابعة — ان طلب تسليم المجرمين الذى تقدمه الحكومة العراقية يجب أنيقدم الى السلطة المختصةلحكومة الحجاز ونجد وملحقاتها، وأن يكون مشفوعاً بالاوراق التالية :

(أ) ورقة تحتوى على أوصاف المجرم وما يتيسر من المعلومات ، وذلك لأجل بيان هويته .

(ب) ورقة تحتوى على خلاصة موجزة عن الجرم الذى ارتكبهالمجرم .

(ج) صورة أي حكم سابق أصدرته محكمة على المجرم اذا كان ممن سبق أن حكم عليهم ، وتختم جميع الأوراق المار ذكرها بختم السلطة المختصة .

المادة الخامسة – ان طلب تسليم المجرمين الذى تقدمه حكومة الحجاز ونجد وملحقاتها يجب أن يقدم الى السلطة المختصة فى حكومة العراق ، وأن يكون مشفوعاً بالاوراق المذكورة فى المادة الرابعة وتختم جميع الأوراق المار ذكرها بختم السلطة المختصة .

المادة السادسة – لا يجوز بمقتضى هذه المعاهدة تسليم أي فرد بسبب أي جرم ارتكبه قبل تاريخ تنفيذها .

المادة السابعة – لا يحاكم أي مجرم يسلم وفقاً لهذه المعاهدة الا عن الجرم الذى طلب تسليمه من أجله ، أما الجرائم التى يكون قد ارتكبها قبل تاريخ تسليمه ولم يسبق طلب تسليمه من أجلها فلا يحاكم عنها الا بعد أن تكون قد أعطيت له فرصة كافية لمغادرة القطر فلم ينتهزها .

المادة الثامنة – حررت هذه المعاهدة من نسختين باللغة العربية ، وتصبح نافذة من تاريخ تبادل نسختها المبرمتين من قبل الفريقين ، ويجرى التبادل فى المحل الذى يتفق عليه بينهما ويعمل بها لمدة ثلاث سنوات ، واذا لم يعلن أحد الفريقين الآخر رغبته فى تبديلها أو تعديلها قبل انتهاء أجلها بثلاثة أشهر فتظل نافذة مدة ثلاث سنوات أخرى .

وتبودلت مراسلة بشأن جرائم البدو .

*

وتوفي الملك فيصل – رحمه الله – فى يوم السبت ١٨ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢ (٨ سبتمبر ١٩٣٣ م) وصلات الود وثيقة بين حكومة العراق والمملكة السعودية ، وفى عهد الملك غازى ازدادت الصلات وثوقا ، ورغبت حكومته وحكومة ابن سعود فى المزيد من الوشائج ، فبعث الملك عبد العزيز مندوبه الشيخ يوسف ياسين (سكرتير الملك الخاص ورئيس الشعبة السياسية

بديوانه) إلى بغداد ، ونجحت المفاوضات وانتهت بعقد معاهدة جديدة تم توقيعها عن الحكومة السعودية من يوسف ياسين وعن الحكومة العراقية من نورى السعيد ، وذلك فى العاشر من شهر المحرم سنة ١٣٥٥ (٢٠ يناير ١٩٣٦) ووضعت بها مادة تخول لحكومة اليمن بوصف كونها دولة مستقلة الانضمام إلى الحكومتين المستقلتين ، كما جعل الباب مفتوحاً لدخول أي حكومة عربية تستقل ، ولعل هذه المعاهدة كانت تمهيداً للجامعة العربية ، ولم تكن فى إبان هذه المعاهدة دول عربية مستقلة غير مملكة ابن سعود والعراق واليمن .

وها هوذا نص المعاهدة :

المادة الاولى —

(أ) يتعهد كل من الفريقين المتعاقدين الساميين تعهداً متقابلاً بأن لا يقوم بأي تفاهم أو اتفاق مع فريق ثالث على أي أمر يضر بمصلحة الفريق المتعاقد السامى الآخر أو بمملكته أو مصالحها أو يكون من شأنه تعريض سلامة مملكته أو مصالحها للأخطار أو الاضرار .

(ب) يتشاور الفريقان المتعاقدان الساميان فيما بينهما كلما اقتضى الامر لتنفيذ الاغراض التى رمت اليها مقدمة هذه المعاهدة .

المادة الثانية — يتعهد الفريقان المتعاقدان الساميان بأن يحسما جميع الاختلافات التى تقع بينهما بطرق المفاوضة الودية وبأن يرجعا فى حالة تعسر حل الخلاف بالطرق المذكورة الى الطرق التى ينص عليها فى بروتوكول يلحق بهذه المعاهدة ويتم الاتفاق عليه فى أقرب وقت من تاريخ ابرامها .

المادة الثالثة — إذا أدى أي نزاع بين أحد الفريقين المتعاقدين الساميين

ودولة ثالثة الى حالة يترتب عليها خطر يؤول الى الحرب يوحد الفريقان الساميان المتعاقدان حينئذ مساعيهما لتسوية ذلك النزاع بالوسائل السلمية وفقاً للتعهدات الدولية التى يمكن تطبيقها على تلك الحالة .

المادة الرابعة ـ

(أ) فى حالة وقوع اعتداء على أحد الفريقين المتعاقدين الساميين من جانب دولة ثالثة بالرغم من المساعى المبذولة وفق أحكام المادة الثالثة أعلاه وكذلك فى حالة وقوع اعتداء مفاجىء لا يتسع معه الوقت لتطبيق أحكام المادة الثالثة المذكورة على الفريقين المتعاقدين الساميين أن يتشاورا فى ماهية التدابير التى يراد القيام بها بقصد توحيد مساعيهما بالطرق المفيدة لرد الاعتداء المذكور .

(ب) ويعتبر من أعمال التعدى :

١ ـ اعلان الحرب .

٢ ـ استيلاء دولة ثالثة على أراضى أحد الفريقين المتعاقدين الساميين بقوة مسلحة ولو بدون اعلان الحرب .

٣ ـ هجوم دولة ثالثة بقواتها البرية أو البحرية أو الجوية على بلاد أحد الفريقين المتعاقدين الساميين أو بواخره أو طياراته ولو بدون اعلان حرب .

٤ ـ اعانة أو اسعاف المعتدى بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

(ج) ولا يعتبر من أعمال التعدى :

١ ـ الالتجاء الى الدفاع الشرعي ، أي مقاومة عمل من أعمال التعدى حسبما جرى تعريفه أعلاه .

٢ ـ القيام بتطبيق المادة ١٦ من ميثاق عصبة الامم .

٣ — الاعمال المتخذة بناء على قرار صادر من عصبة الامم أو مجلس عصبة الامم أو تطبيقاً للفقرة ٧ من المادة ١٥ من ميثاق عصبة الأمم على أن يكون العمل فى هذه الحالة الأخيرة موجهاً نحو الدولة البادئة بالهجوم .

٤ — قيام دولة أخرى هجم عليها أو خرقت حدودها من قبل أحد الفريقين المتعاقدين الساميين خلافاً لأحكام معاهدة نبذ الحرب الموقع عليها فى باريس فى ٢٧ اغسطس ١٩٢٨ والتى انضم اليها الفريقان المتعاقدان الساميان .

المادة الخامسة — فى حالة حدوث اضطراب او فتنة فى بلاد أحد الفريقين المتعاقدين الساميين يتعهد كل منهما تعهداً متقابلاً بما يلى :

١ — اتخاذ كل ما يمكن من التدابير :

(أ) لعدم تمكين المتمردين من الاستفادة من أراضيه ضد مصلحةالفريق المتعاقد السامى الآخر .

(ب) ولمنع رعاياهمن الاشتراكفىالاضطراب أوالفتنة أو مساعدة المتمردين أو تشجيعهم .

(ج) ولمنع ايصال أي نوع من المساعدات الى المتمردين من بلاده مباشرة أو بالواسطة .

٢ — عند التجاء المتمردين لأراضى أحد الفريقين المتعاقدين الساميين على الفريق المذكور أن يجردهم من السلاح ويبعدهم حالاً لمنطقة لا يمكنهم أن يأتوا منها بأي ضرر لبلاد الفريق الآخر حتى يبت فى مصيرهم بين الفريقين المتعاقدين الساميين .

٣ — اذا اقتضى الامر اتخاذ تدابير مشتركة لقمع الاضطراب أو الفتنة يتشاور الفريقان المتعاقدان الساميان فى طريقة التعاون الواجب اتباعها لهذا الغرض .

المادة السادسة — نظراً للأخوة الاسلامية والوحدة العربية التى تربط المملكة اليمانية بالفريقين المتعاقدين الساميين فانهما يسعيان لطلب انضمام حكومة اليمن الى هذه المعاهدة ، ويجوز لأية دولة عربية أخرى مستقلة أن تطلب الانضمام لهذه المعاهدة .

المادة السابعة — يتعاون الفريقان المتعاقدان الساميان على توحيد الثقافة الاسلامية العربية والاساليب العسكرية فى بلاديهما بتبادل بعثات علمية وعسكرية للاطلاع على الاساليب المتبعة فى المملكتين وتوحيد ما يمكن توحيده منها وللاستفادة من المعاهد العلمية والعسكرية والتدرب فيها ، اما عدد أفراد كل بعثة فيحدد بالمذاكرة بين الفريقين المتعاقدين الساميين من وقت لآخر .

المادة الثامنة — يجوز أن يقوم الممثلون الدبلوماسيون والقنصليون لكل من الفريقين المتعاقدين الساميين بتمثيل مصالح الفريق المتعاقد السامى الآخر عندما يطلب ذلك فى البلاد الأجنبية التى ليس فيها ممثلون لذلك الفريق ، وليس فى هذا ما يمس بأية صورة من الصور بحرية ذلك الفريق فى تعيين ممثلين مستقلين له إذا أراد ذلك .

المادة التاسعة — من المتفق عليه لدى الفريقين المتعاقدين الساميين انه ليس فى هذه المعاهدة ما يخل بحقوق وتعهدات الحكومة العراقية المنصوص عليها فى ميثاق عصبة الأمم ومعاهدة التحالف المنعقدة بين العراق وبريطانيا العظمى فى ٣٠ يونيو ١٩٣٠ كما أن الفريقين المتعاقدين الساميين متفقان على مراعاة الاحكام الواردة فى المادة السابعة عشرة من ميثاق عصبة الامم وملاحظة المبادىء التى انطوت عليها معاهدة نبذ الحرب الموقع عليها فى باريس ٢٧ اغسطس سنة ١٩٢٨ والتى انضم اليها الفريقان الساميان .

المادة العاشرة — إذا قام أحد الفريقين المتعاقدين الساميين باعتداء على دولة أخرى فللفريق المتعـاقد السامى الآخر انهـاء أحكام هـذه المعاهدة بدون سبق انذار ، عـلى أن هذا الانهاء لا يؤثر على الصداقة التى تربط المملكتين ولا يخل بالمعاهدات والاتفاقيات المذكورة فى المادة الحادية عشرة من هذه المعاهدة .

المادة الحادية عشرة — يبقى نافذاً كل ما لا يتعارض مـع أحكام هذه المعاهدة من أحكام المعاهدات والاتفاقيات الآتية المنعقدة بين المملكتين إلى أن تعدل أو تلغى بمعاهدة أخرى :

١ — معاهدة المحمرة المؤرخة فى ٧ رمضان المبارك سنة ١٩٤٠ هجرية الموافق ٥ مايو سنة ١٩٢٢ ميلادية .

٢ — بروتوكول العقير رقم (١) المؤرخ فى١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٤١ هجرية الموافق ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢ ميلادية .

٣ — بروتوكول العقير رقم (٢) المؤرخ فى ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٤١ هجرية الموافق ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢ ميلادية .

٤ — اتفاقية بحرة المؤرخة فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٣٤٤ هجرية الموافق ١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ ميلادية .

٥ — معاهدة الصداقة وحسن الجوار وبروتوكول التحكيم المؤرخين فى ٢٠ ذى القعدة سنة سنة ١٣٤٩ هجرية الموافق ٧ ابريل ١٩٣١ ميلادية .

٦ — معاهدة تسليم المجرمين المؤرخة فى ٢١ ذى القعدة سنة ١٣٤٩ هجرية الموافق ٨ ابريل سنة ١٩٣١ ميلادية .

المادة الثانية عشرة — يتعهد الفريقان المتعاقدان الساميان بأن يبدأ خلال سنة منذ تاريخ تنفيذ هذه المعاهدة بالمفاوضة لعقد اتفاقيات فى المواضيع الآتية :

١ – الإقامة وجوازات السفر والمرور .

٢ – الشؤون الاقتصادية والمالية والكمركية .

٣ – تنظيم طرق المواصلات والمراسلات .

المادة الثالثة عشرة – تعتبر هذه المعاهدة نافذة منذ تاريخ تبادل وثائق ابرامها .

المادة الرابعة عشرة – تبقى هـــذه المعاهدة مرعية لمدة عشر سنوات منذ تاريخ تنفيذها ، وتعتبر مجددة لمدة عشر سنوات أخرى إذا لم يخبر أحد الفريقين المتعاقدين الساميين الفريق المتعاقد السامي الآخر برغبته فى انهائها قبل سنة من تاريخ انتهاء أجلها .

كتب فى بغداد فى اليوم العاشر من شهر محرم الحرام العام الخامس والخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، الموافق لليوم الثانى من شهر ابريل العام السادس والثلاثين بعد التسع مئة والألف ميلادية .

التوقيع	التوقيع
يوسف ياسين	نورى السعيد

وأُعلِم الامام يحيى عاهل اليمن بهذه المعاهدة ، فتريث أكثر من سنة ، وبعد تفكير استغرق زمنا طويلا وافق على الدخول فيها ،وكتب موافقته فى مذكرته المنتهية بخاتمة مؤرخة فى ١٧ صفر ١٣٥٦ ثم حاشية تاريخها ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦ وها هى ذى نصوصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن ملك اليمن الامام يحيى بن محمد حميد الدين غفر الله لهم نصرح بعد

إنعام نظرنا فى معاهدة الأخوة العربية والتحالف المنعقدة بين صاحب الجلالة ملك العراق وصاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية الموقع عليها فى بغداد فى اليوم العاشر من شهر محرم الحرام من العام الخامس والخمسين بعد الثلاثمائة والالف هجرية ، وبناء على الروابط الإسلامية والوحدة القومية التى تربطنا بجلالتيهما ؛ وحيث أنا نشعر كما يشعر جلالتاهما بالحاجة الماسة للتعاون فيما بيننا وبينهما ، والتفاهم فى الشؤون التى تهم مصلحة مملكتيهما ومملكتنا ، وبغية المحافظة على سلامة بلادنا وبلاديهما قد انضممنا إلى معاهدة الأخوة العربية والتحالف الآنفة الذكر مع درج المواد التى اشتركنا ووافقنا عليها نصاً ومعنى وتخصيصاً وتماماً، والمواد المذكورة هي كما يلى :

المادة الاولى — يتعهد كل من الفرقاء السامين المتعاقدين تعهدا متقابلا بأن لا يقوم بأي تفاهم أو اتفاق مع فريق آخر على أي أمر ضد مصلحة أحد الفرقاء المتعاقدين السامين أو مملكته أو مصالحها اذا كان من شأنه تعريض سلامة مملكته أو مصالحها للأخطار أو الاضرار ، وسيتشاور الفرقاء السامون المتعاقدون فيما بينهم بكل ما اقتضى الحال لتنفيذ الاغراض المختصة بالروابط الاسلامية والقومية العربية التى رمت اليها مقدمة الحلف .

المادة الثانية — يتعهد الفرقاء السامون المتعاقدون بأن يحسموا ما عساه يحدث من الاختلافات التى تقع بينهم بطرق المفاوضة الودية وبأن يرجعوا فى حالة تعسر حل الخلاف بطرق المفاوضة الى طرق التحكيم التى تنص عليها المادة الثامنة من معاهدة الطائف المعقودة بين المملكة اليمانية وبين المملكة العربية السعودية فى ٦ صفر سنة ١٣٥٣ هـ .

المادة الثالثة — اذا أدى نزاع بين أحد الفرقاء السامين المتعاقدين ودولة أخرى الى حالة يترتب عليها خطر يؤول الى الحرب يوجه الفرقاء السامون المتعاقدون حينئذ مساعيهم لتسوية ذلك النزاع بالوسائل السلمية وبالمفاوضة الودية .

المادة الرابعة – فى حالة وقوع اعتداء على أحد الفرقاء السامين والمتعاقدين من جانب دولة أخرى بالرغم من المساعى المبذولة وفق أحكام المادة الثالثة المذكورة حينئذ يتحتم على الفرقاء السامين المتعاقدين أن يتشاوروا فى ماهية التدابير التى يجوز القيام بها بقصد توحيد مساعيهم بالطرق النافعة والمفيدة لرد الاعتداء المذكور، ويعتبر من أعمال التعدى .

١ – اعلان الحرب .

٢ – استيلاء دولة على إحدى دول الحلف بقوة مسلحة ولو بدون اعلان الحرب .

٣ – هجوم دولة بقواتها البرية أو البحرية أو الجوية على بلاد احدى دول الحلف أو بواخره أو طياراته ولو بدون إعلان الحرب .

٤ – اعانة أو اسعاف المعتدى بصورة مباشرة او غير مباشرة .

المادة الخامسة – فى حالة حدوث اختلاف أو اضطراب أو فتنة فى بلاد أحد الفرقاء السامين المتعاقدين يتعهد كل منهم تعهدا متقابلا بما يأتى :

١ – اتخاذ كل ما يمكن من التدابير :

أ – لعدم تمكين المتمردين من الاستفادة من اراضيه ضد مصلحة الفريقين المتعاقدين الساميين الآخرين .

ب – ولمنع رعاياهما من الاشتراك فى الاختلال والاضطراب أو الفتنة أو مساعدة المتمردين أو تشجيعهم .

ج – ولمنع إيصال أي نوع من المساعدات إلى المتمردين من بلاديهما مباشرة أو بالواسطة .

٢ – عند التجاء المتمردين لأراضى أحد الفرقاء المتعاقدين السامين على

الريفق المذكور أن يجردهم من السلاح ويبعدهم حالا لمنطقة لا يمكنهم أن يأتوا منها بأي ضرر لبلاد الفريق الآخر حتى يبت فى مصيرهم بين الفرقاء السامين المتعاقدين .

٣ — إذا اقتضى الأمر اتخاذ تدابير مشتركة لقمع الاختلال أو الاضطراب أو الفتنة يتشاور حينئذ الفرقاء السامون فى طريقة التعاون الموافق الواجب اتباعها لهذا الغرض .

المادة السادسة — يجوز أن يقوم الممثلون الدبلوماسيون والقنصليون لكل من الفرقاء المتعاقدين السامين بتمثيل مصالح الفريق الآخر عندما يرغب ويطلب ذلك فى البلاد الأجنبية التى ليس فيها ممثلون لذلك الفريق ، وليس فى هذا ما يمس بأي صورة من الصور بحرية ذلك الفريق فى تعيين ممثلين مستقلين له إذاأراد ذلك .

المادة السابعة — من المتفق عليه لدن الفرقاء المتعاقدين السامين أنه ليس فى هذا ما يمس أو يخل بحقوق وحرية وتعهدات حكومات الفرقاء السامين المتعاقدين مع الدول والحكومات الأخرى والهيئات الدولية وبعلاقاتهم معها .

المادة الثامنة — إذا قام أحد الفرقاء السامين المتعاقدين باعتداء منه على دولة أخرى فللفريقين السامين المتعاقدين الآخرين انهاء أحكام هذه المعاهدة معه بدون سبق إنذار على أن هذا الإنهاء لا يؤثر على الصداقة والمحبة التى تربط ممالك الفرقاء السامين ولا يخل بالمعاهدات الأخرى والاتفاقيات المعروفة المعقودة والجارية بينهم .

المادة التاسعة — إذا أراد وطلب أحد الفرقاء بعثة فنية من الفريقين الآخرين لتقويم ثقافة إسلامية عربية أو عسكرية أو أراد إرسال بعثة إلى مملكة الفريقين الآخرين للتدرب والتعليم بعد المراجعة فى هذا فله ذلك .

المادة العاشرة – يعتبر هذا الانضمام الى معاهدة هذا الحلف نافذاً من تاريخ إقراره من قبل حكومتي العراق والمملكة العربية السعودية ويبقى مرعياً إلى أن تنتهي السنوات العشر التي اعتبرت من تاريخ تنفيذ المعاهدة الآنفة الذكر من قبل الحكومتين المشار إليهما ، وتعتبر متجددة لمدة عشر سنوات أخرى إذا لم يخبر أحد الفرقاء السامين المتعاقدين الفريقين المتعاقدين الساميين الآخرين برغبته في إنهائها قبل سنة من تاريخ انتهاء أجلها .

خاتمة

هذه المواد العشر المصرح بها التي أمضيناها ووقعنا ختمنا عليها طبقاً للمقدمة المندرجة تقريراً لانضمامنا إلى معاهدة الأخوة العربية والتحالف وهي موافقة للمواد المندرجة فى المعاهدة المشار إليها الاصلية ما عدا بعض موادها التى لا تتعلق بشؤون مملكتنا الخاصة ، وهذا التحالف قابل لمن أراد الدخول فيه من الدول العربية المستقلة ، وبالله نستعين ، والله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين .

حرر بصنعاء فى السابع عشر من صفر الخير من سنة ست وخمسين بعد الثلثمائة والألف هجرية .

سيكون تقديم نسخة مختومة وممضاة طبق هذا التقرير إلى حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية لإلحاقها بنسخة معاهدة الحلف الاصلية الثانية الموجودة لدى جلالته .

حاشية

فبعد أن اطلعنا على هذه المواد السالفة الذكر وأنعمنا النظر فيها صدقناها وقبلناها وأقررناها جملة فى مجموعها ومفردة فى كل مادة وفقرة منها ، كما

أننا نصدقها ونبرمها ونتعهد ونعد وعداً ملوكياً صادقاً بأننا سنقوم بحول الله بما ورد فيها ونلاحظه بكمال الامانة والاخلاص ، ولن نسمح بمشيئة الله بالإخلال بها بأي وجه كان ما دمنا قادرين على ذلك ، وزيادة فى تثبيت صحة كل ما ذكر فيها أمرنا بوضع خاتمنا على هذه الوثيقة ووقعناها بيدنا والله خير الشاهدين .

حرر فى اليوم التاسع عشر من شهر جمادى الثانية العام السادس والخمسين بعد الثلاثمائة والالف هجرية الموافق لليوم السادس والعشرين من شهر أغسطس العام السابع والثلاثين بعد التسعمائة والالف ميلادية .

* * *

ومن تمام القول فى هذا الفصل نشر الرسائل الرسمية المتبادلة بين وزيري خارجية المملكة السعودية والعراق فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٥٦ (فبراير ١٩٣٨) وها هى ذى الرسائل :

بغداد — فى ٧ / ٢ / ١٩٣٨

صاحب السمو :

أتشرف بأن أخبر سموكم بأن حكومتى ترى الاستمرار على العمل ببروتوكول التحكيم الملحق بمعاهدة الصداقة وحسن الجوار المؤرخة فى ٢٠ ذى القعدة سنة ١٣٤٩ (٧ ابريل سنة ١٩٣١) عملاً بأحكام المادة ١٥ من المعاهدة المذكورة وذلك الى أن يتم تنفيذ البروتوكول المذكور فى المادة ٢ من معاهدة الاخوة العربية والتحالف المؤرخة فى ١٠ محرم الحرام سنة ١٣٥٥ و ٢ ابريل سنة ١٩٣٦ وأتشرف بأن أبدي أنه اذا شاطرنا حكومتكم هذا الرأي فان جواب سموكم بذلك الحال وهذا الكتاب سوف يؤلفان الاتفاق الرسمي فى هذا الخصوص من جانب الحكومتين .

وأنتهز هذه الفرصة لأعرب لسموكم عن فائق تقديرى واحترامى

وزير الخارجية
(التوقيع)
توفيق السويدي

وتلقى الجواب التالى

يا صاحب الفخامة :

أتشرف بأن أشير الى كتابكم المؤرخ فى ٧ / ٢ / ١٩٣٨ الذى ذكرتم فيه أن حكومتكم ترى الاستمرار على العمل ببروتوكول التحكيم الملحق لمعاهدة الصداقة وحسن الجوار المؤرخة فى ٢٠ ذى القعدة سنة ١٣٤٩ و ٧ ابريل سنة ١٩٣١ عملاً بأحكام المادة ١٥ من المادة المذكورة وذلك الى أن يتم عقد البروتوكول المذكور فى المادة ٢ من معاهدة الاخوة العربية والتحالف المؤرخة فى ١٠ محرم الحرام سنة ١٣٥٥ و ٢ ابريل سنة ١٩٣٦ ، وأتشرف بأن أبدي أن حكومتى تشاطر حكومتكم هذا الرأي ، وان كتاب فخامتكم المشار اليه وجوابى هذا عليه يؤلفان الاتفاق الرسمي بهذا الخصوص من جانب الحكومتين .

وتفضلوا بقبول فائق تقديرى واحترامى

(التوقيع)
فيصل
وزير الخارجية

بغداد فى ٧ / ٢ / ١٩٣٨

صاحب السمو

اشارة الى الحديث الذى جرى فى بغداد مع سعادة الشيخ يوسف ياسين

حول الحدود العراقية – العربية السعودية أود أن أوضح لسموكم أن المقامات العراقية ترى أن عملية تخطيط الحدود بين المملكتين تتطلب الاعمال التمهيدية الآتي ذكرها :

١ – اعداد سلسلة مساحة تثليثية لمنطقة الحدود ابتداء من التقاء وادى العوجة بالباطن حتى جبل غار بما فى ذلك المنطقة المحايدة .

٢ – القيام بمسح طوبوغرافي للمنطقة الكائنة بجوار كافة المواقع المعينة فى بروتوكول العقير رقم (١) ومما يجدر بالذكر أن هيئة مؤلفة من اربعة مساحين تعين كل مملكة اثنين منهم تستطيع القيام بهذه المهمة فى مدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر .

٣ – بعد الحصول على المعلومات والخرائط نتيجة المسح المتقدم الذكر تجرى المفاوضة ما بين الحكومتين للاتفاق على كيفية مرور خط الحدود من جوار الآبار والمواقع المعينة فى البروتوكول المذكور .

وبما أن خط الحدود مكون من خطوط مستقيمة تصل ما بين هذه المواقع والآبار فيصبح من السهل بعدئذ ركز الدعامات فى المحلات المناسبة على طول الخط من جانب هيئة مشتركة أخرى تقوم فى الوقت ذاته بمسح طوبوغرافي بسيط للمنطقة الممتدة خمس كيلو مترات على جانبي الخط وبالأعمال الأخرى التى تتطلبها عملية التخطيط .

ان الحكومة العراقية نظراً لما جاء فى بروتوكول العقير رقم (١) ترى تمهيداً للقيام بعملية تخطيط الحدود والاتفاق على عائدية الآبار المبحوث عنها المباشرة بالترتيبات الآنفة الذكر مشتركا فان لم يكن لدى المملكة العربية السعودية مساحون للاشتراك فى هذا العمل ففى امكان المساحين العراقيين القيام به فقط على أن تدفع المملكة العربية السعودية نصف النفقات .

انني يا صاحب السمو بانتظار رأي حكومتكم المحترمة حول ما بسطته أعلاه ليتسنى لنا اجراء ما يلزم للمباشرة فى العمل المطلوب .

وتفضلوا ...

وزير الخارجية
(التوقيع)
توفيق السويدي

وتلقى معاليه من وزير الخارجية السعودية هذا الرد :

جدة : غرة محرم سنة ١٣٥٧ الموافق ٣ مارس سنة ١٩٣٨

يا صاحب الفخامة

لقد تلقيت كتاب فخامتكم تاريخ ٧ فبراير سنة ١٩٣٨ الذى ذكرتم فيه رأي الحكومة العراقية فى كيفية تخطيط الحدود بين المملكة العربية السعودية وبين المملكة العراقية والتى كانت كنتيجة للأحاديث التى كانت مع الشيخ يوسف ياسين ببغداد ، ويسرنى أن أخبركم بأن حكومة جلالة الملك توافق على ما يأتى :

١ - تعيين هيئة من قبلها تشترك مع الهيئة العراقية لإعداد سلسلة مساحة تثليثية لمنطقة الحدود ابتداء من التقاء وادى العوجاء بالباطن الى جبل غار بما فى ذلك المنطقة المحايدة .

٢ - القيام بمسح طوبوغرافي للمنطقة الكائنة فى جوار كافة المواقع المعينة ببروتوكول العقير رقم (١) .

٣ - اجراء مسح طوبوغرافي بسيط للمنطقة الممتدة الى مسافة خمس

كيلو مترات على جانبي الخط فى نفس الوقت الذى يجرى تخطيطها فيه .

٤ ــ بعد تقديم هذه المعلومات والخرائط نتيجة المسح المتقدم الذكر تجرى المفاوضة بين الحكومتين على كيفية مرور خط الحدود فى الآبار والمواقع المعينة فى بروتوكول العقير رقم (١) المشار اليه

وتفضلوا ...

(التوقيع)
فيصل
وزير الخارجية

وبعد بضعة شهور من تبادل تلك الرسائل الرسمية جدّت أمور بين الحكومتين اقتضت البحث فجرى بين مندوب الحكومة السعودية الشيخ يوسف ياسين والحكومة العراقية ، وانتهت المفاوضات بمعاهدة واتفاقين ، وهذه نصوصها :

١

اتفاق خاص بالمنطقة المحايدة

المادة الاولى ــ لرعايا الفريقين المتعاقدين الساميين الحرية المطلقة فى الرعي وورود المياه متى شاءوا فى المنطقة المحايدة ، ويكونون مصانين من أي تعرض أو إجراء صادر من موظفى الفريق المتعاقد السامى الذين ليسوا من رعاياه .

المادة الثانية ــ لكل من الفريقين المتعاقدين الساميين استعمال سلطته الكاملة على رعاياه فى المنطقة المحايدة بواسطة موظفيه المختصين .

المادة الثالثة ــ تقوم السلطات المعينة فى المادة الثامنة من معاهدة الصداقة

وحسن الجوار الموقع عليها فى مكة المكرمة بتاريخ ٧ ابريل ١٩٣١ أو من تعينه هـذه السلطات بحسم الاختلافات التى تحدث ما بين الرعايا العراقيين ورعايا المملكة العربية السعودية أثناء وجودهم فى المنطقة المحايدة وفق الاصول المذكورة فى المعاهدة نفسها .

المادة الرابعة – تحسم الاختلافات التى تقع ما بين رعايا الفريقين المتعاقدين الساميين وبين رعايا دولة ثالثة أثناء وجودهم فى المنطقة المحايدة من قبل موظفى الفريق المتعاقد السامى الذى يكون أحد طرفي الخلاف من رعاياه ، على أنه فى حالة وجود علاقة لرعايا كلا الفريقين المتعاقدين بالخلاف فيجرى الحسم بالاشتراك ما بين السلطات المذكورة فى المادة الثالثة من هذا الاتفاق .

المادة الخامسة –

أ : فى حالة وقوع اضطرابات تؤدى الى الاخلال بأمن المنطقة المحايدة وانتظامها وتؤثر على مصالح الفريقين المتعاقدين الساميين أو رعاياهما الموجودين داخل المنطقة المذكورة أو خارجها تقوم قوات الفريقين المتعاقدين الساميين باتخاذ الاجراءات اللازمة لاعادة السكون إلى حالته الطبيعية فى المنطقة المذكورة.

ب – تجرى المداولات ما بين السلطات المعينة فى المادة الثالثة من هذا الاتفاق للاتفاق على الخطة الواجب اتباعها فى الاجراءات المشتركة المنصوص عليها فى الفقرة المتقدمة من هذه المادة .

ج – تقوم السلطات المذكورة بمعاقبة الاشخاص الذين هم من رعايا دولتها المتبوعة عند القاء القبض عليهم ضمن المنطقة المحايدة من قبل أي قوات الفريقين المتعاقدين الساميين أثناء التعقيبات المشتركة .

المادة السادسة – يضع كل من الفريقين المتعاقدين الساميين مخفراً متنقلاً

فى المنطقة المحايدة على الدوام فيما تقضى به مصلحة مملكتيهما طبقاً لأحكام هذا الاتفاق .

المادة السابعة – ليس فى هذا الاتفاق ما يعارض أحكام المعاهدات، والاتفاقيات المعقودة بين الفريقين المتعاقدين الساميين .

المادة الثامنة – يعتبر هذا الاتفاق نافذا منذ تاريخ تبادل وثائق ابرامه .

كتب فى بغداد فى اليوم التاسع عشر من شهر ربيع الاول من سنة سبع وخمسين بعد الثلثمائة والالف هجرية ، الموافق لليوم التاسع عشر من شهر مايو من سنة ثمان وثلاثين بعد التسعمائة والالف ميلادية .

(التوقيع)	(التوقيع)
يوسف ياسين	توفيق السويدي

٢

المادة الاولى – تعفى عشائر الفريقين المتعاقدين الساميين عند ارتيادهما المراعى الموجودة فى أراضى الفريق المتعاقد السامى الآخر أو استفادتها من مياهه من الرسوم الكمركية على حيواناتها وخيمها وأدواتها المضربية وأثاثها وأطعمتها وكل ما يخص استعمالها واستهلاكها الذاتي ، على أن يحتفظ كل فريق بحق فرض الرسم الكمركي على الحيوانات والمواد التى تجرى عليهـــا معاملات تجارية بعد دخولها أراضيه .

المادة الثانية – اذا تفشى مرض حيواني معد أو وباء سار أو غير ذلك فيحتفظ كل من الفريقين المتعاقدين الساميين بحق فرض التدابير البيطرية أو الصحية الضرورية وتطبيق الاوامر الصادرة بمنع الاستيراد والتصدير .

المادة الثالثة — يحتفظ كل من الفريقين المتعاقدين الساميين بحق تحديد عدد الاسلحة التى تحملها كل عشيرة ترغب في الدخول الى أراضيه .

المادة الرابعة — اذا رغب أحد الفريقين المتعاقدين الساميين فى استيفــاء الضرائب الحكومية من عشائره النازلة فى اراضى الفريق المتعاقد السامى الآخر فعلى السلطات المختصة المعينة فى المادة الثامنة من معاهدة الصداقة وحسن الجوار مخابرة بعضها البعض لتبليــغ العشائر المذكورة بتلك الرغبــة ، وأن تسعى بالوسائل الممكنة لحملها على تلبيتها ، ويجوز للفريق المتعاقد السامى الاول إرسال أحد موظفيه لاجراء التبليغ المطلوب ، وفى تلك الحالة يتحتم على ذلك الموظف أن يحضر لدى الموظف المختص لدى الفريق المتعاقد الثانى الذى عليه أن يرفقه بأحد موظفيه ليجرى التبليغ بحضوره .

المادة الخامسة — يعتبر هذا الاتفاق نافذاً من تاريخ تبادل وثائق ابرامه .

كتب فى بغداد فى اليوم التاسع عشر من شهر ربيع الاول من سنة سبع وخمسين بعد الثلثمائة والألف هجرية الموافق لليوم التاسع عشر من شهر مايومن سنة ثمان وثلاثين بعد التسعمائة والالف ميلادية .

جنسية العشائر

المادة الأولى — توافق الحكومة العراقية على اعتبار أفراد عشيرتي الدهامشة والظفير المقيمين فى المملكة العربية السعودية مكتسبين جنسية المملكة المذكورة إذا لم يعودوا إلى العراق خلال ستة أشهر من تبليغهم بأن بقاءهم فى المملكة العربية السعودية سوف يسقط عنهم الجنسية العراقية .

المادة الثانية — توافق حكومة المملكة العربية السعودية على اعتبار أفراد عشيرة شمر نجد المقيمين فى العراق مكتسبين الجنسية العراقية إذا لم يعودوا إلى المملكة العربية السعودية خلال ستة أشهر من تبليغهم بأن بقاءهم فى العراق سوف يسقط عنهم جنسية المملكة العربية السعودية .

المادة الثالثة — توافق الحكومتان : العراقية والمملكة العربية السعودية على ألا تستخدم على الحدود أي شخص من الأشخاص الذين تغيرت جنسيتهم ، بمقتضى المادتين : الأولى والثانية من هذه المعاهدة .

المادة الرابعة —

أ : تتعهد الحكومة العراقية بأن تلزم من يختار تابعيتها من عشيرة شمر نجد

بالإقامة وراء الفرات أو فى أمكنة تبعد عن الحدود بعد الفرات عنها ، وكذلك تتعهد المملكة العربية السعودية بأن تلزم من يختار تابعيتها من عشيرة الظفير بالإقامة وراء الدهناء أو فى أمكنة تبعد عن الحدود بعد الدهناء عنها ، وفى حالة الجدب فى تلك المناطق تتعهد الحكومة العراقية فيما يخص أفراد عشيرة شمر نجد ، وتتعهد الحكومة العربية السعودية فيما يخص أفراد عشيرة الظفير المبحوث عنهما اتخاذ التدابير اللازمة لمنعهم من الاقتراب من الحدود ، وجعلهم بمكان بعيد عنها بما يحول دون إمكانهم القيام بأعمال تخل بالأمن فيها .

ب : وتتعهد المملكة العربية السعودية فيما يخص أفراد عشيرة الدهامشة الذين يختارون تابعيتها بمنعهم من إحداث ما يخل بالأمن على الحدود .

المادة الخامسة — تعتبر هذه المعاهدة نافذة منذ تاريخ تبادل وثائق إبرامها .

كتبت فى بغداد فى اليوم الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول ، العام السابع والخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ؛ الموافق لليوم الرابع والعشرين من شهر مايو ؛ العام الثامن والثلاثين بعد التسعمائة والألف ميلادية .

* * *

جفاء يثمر قربا

مع ابرام المعاهدات بين ابن سعود والعراق ، ومع إخلاصهما ورغبتهما فى وثاقة صلات الأخوة بينهما كانت تجدُّ حالات غير مرضية تنتهى إلى سكوت كل منهما عن الآخر رجاء أن يقضي الزمن على الجفاء .

ولم يكن أحد من الجانبين يرغب فى غير التفاهم الودي والأخوة ، وكانت الحكمة والرشد والأناة تصبغ تصرف كل من الجانبين .

ولا شك أن ابن سعود من جهته والعراق من جهته حريصاً على المودة التى ولّدها اجتماع الملكين ، وكان حرصهما هذا يدفعهما إلى الأناة وعدم التسرع فيما يحدث من جفاء بسبب رعونة بعض القبائل أو بعض الساسة العراقيين .

وعندما قام الجنرال بكر صدقى بثورته سنة ١٩٣٦ التى ذهب ضحيتها الفريق جعفر باشا العسكري كان يسود بعض الجفاء علاقات العراق بابن سعود ، وأراد بكر صدقى أن يتقرب إلى ابن سعود للقضاء على ذلك الجفاء الذى لم يكن راضيا عنه ، فرأى بكر صدقى فى أن خير وسيلة للتقارب الذى ينشده دعوة ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير سعود لزيارة العراق ، ووجه

الدعــوة برضا عاهـــل العراق الملك غازى ، وقبلت الدعوة ، وزار الأمير سعود العراق فاحتفى به الملك غازى احتفاء منقطع النظير ، شاركه فيه الشعب والحكومة .

وشعر ابن سعود بارتياح وسرور من الدعوة ثم مما لقيه ابنه من الحفاوة والتكريم ، ورجا المزيد من حسن العلاقات ، وعمل لذلك .

ولم يكن ابن سعود طامعا فى حكم العراق ، ولم يمهد له قط ، بل نزه نفسه عن الطمع فيه ، وبذل جهده لينعم العراق بخيراته وحريته واستقلاله ، وبدت له فرص كان فى وسعه أن يفيد منها فى السيطرة على العراق ، أو إغراقه فى الفتن الداخلية على الأقل ، ولكنه أبى أن يفعل شيئاً من ذلك ، لأنه مطبوع على حب الخير والعمل الصالح والسلام .

وللبرهان على ذلك نذكر أن نورى السعيد كان ناقما على ثورة بكر صدقى ، وزاد من نقمته أن يذهب صديقه جعفر العسكري ضحيةالثورة التى قتلته ، وكان نورى يعتقد أن للملك غازى يدا فى تلك الثورة ، فآلى على نفسه أن يأخذ بثأر صديقه منهما ، وحسب أن ابن سعود سيستجيب له اذا استنصره للجفاء الذى ساد علاقاته بالعراق .

ونورى السعيد أحد كبار دهاقنة الساسة العرب ، ومن أكبر دهاتهم ، ولم يكن من السذاجة بحيث يستنصر ابن سعود ليكون عونه فى الانتقام من بكر صدقى والملك غازى ، بل دفعه دهاؤه إلى أن يثير غريزة الطمع فى ابن سعود — كما ظن — فكتب إليه يعرض عليه قيام اتحاد بين العراق ونجد، وأن يكون ابنه فيصل نائبه فى العراق ، واشترط استقلال العراق عن نجد فى الادارة ، وتعهد له بأن يعمل على تحقيق قيام هذا الاتحاد .

وكان نورى صادقا فى عرضه ومخلصا ، وكان من المعجبين بابن سعود ،

كما كان ابن سعود معجبا به ، ويعرف نفوذه ودهاءه ، ومع ذلك لم يجبه على عرضه ، بل أغفله وكأنه لم يتلق منه كتابا فى هذا الأمر الذى عرض عليه ، والاسباب واضحة ، فابن سعود غير طامع فى العراق ، لأنه قانع بمملكته التى لا تكفيها كل جهوده ، وضم العراق يكلفه ما لا قدرة له من الأموال والجهود ، وابن سعود يدرك ما وراء قبوله لفكرة الاتحاد بين نجد والعراق ، فالانجليز يسيطرون على العراق ، وهو لا يريد أن يدخل فى خلاف معهم يجر إليه جرا ، ولا مصلحة له فى حدوثه ، وبعد ذلك أو قبله لا يريد أن يكون أداة تهديد أو خطر على عرش العراق الهاشمي برغم الجفاء الذى أحدثه بعض حركات القبائل التى تهدد أمنه واستقراره .

وتوجس ابن سعود خيفة من قبائل شمر النازحة إلى العراق فى أواخر سنة ١٣٥٨ (١٩٣٩ — ١٩٤٠ م) وكان النازحون يقدرون بالآلاف ، وهم موتورون حاقدون على ابن سعود الذى قضى على سلطانهم بقضائه على حكم آل الرشيد فى حائل وجبل شمر ، والهاشميون لم ينسوا — بعدُ — ما صنع بعميدهم وقائد الثورة العربية الكبرى الملك الحسين بن علي ، وانتزاعه منه الحجاز ، وإقصائه كل آل الحسين منه .

ووجود قبائل شمر فى العراق خطر على ابن سعود ، لأن آل الحسين قد يستغلونهم فى إشعال نار ثورة لا تحمد عقباها .

لم يخف هذا على ابن سعود ، كما لم يخف على وزيره المفوض السيد حمزة غوث الذى كتب اليه بكل ذلك تفصيلا ، وأخذ يمهد لمفاوضات جديدة بين المملكتين ، وبينا كان السيد حمزة غوث يجرى اتصالاته بالمسئولين العراقيين وصل الشيخ حافظ وهبة فى شهر صفر ١٣٥٩ (مارس ١٩٤٠) لينضم إليه ، وحدث بينه وبين الوزير المفوض السعودي بعض الجفاء والخشونة ، فحافظ وهبة « أناني » يريد أن يستقل بالمفاوضة مع المسئولين العراقيين . ويستولي على

ما بذل السيد حمزة غوث وما انتهى اليه من نجاح .

وكان حمزة غوث يتكلم بصفة كونه سعوديا خالصا ، أما حافظ وهبة فكان يتكلم بصفة كونه مصريا يعمل فى بلاط ابن سعود ، ولم يكن السيد حمزة راضياً عن ازدواج حافظ [1] ، وهذا سبب الخلاف الأساسي الذى تفرعت منه ضروب أخر من الخلاف الذى حقد حافظ بسببه على السيد حمزة غوث .

وكان في هذه الاثناء نورى السعيد رئيسا للوزارة ، وكان يميل إلى المملكة السعودية ويحرص على زوال أسباب التوتر والجفاء بينها وبين العراق ، وبينما يتهيأ للسفر إلى المملكة العربية السعودية سقطت وزارته ، وتولى رشيد عالى الكيلاني الوزارة، ولم يرد أن يقطع على نورى السعيد طريقه ، فقد أيد سفره ، وأسندت إليه وزارة الخارجية .

وكان الوزير المفوض السعودي ببغداد السيد حمزة غوث يحرص على أن يكون في الوفد رشيد عالى نفسه ، وكان قد اقترحعايه ذلك قبل سقوط وزارة نورى السعيد ، وكان رشيد عالى حينئذ رئيسا للديوان الملكي ، وعرض اقتراحه على الوصي على عرش العراق الأمير عبد الآله فوافق ، لأن سموه كان على بعض الخلاف مع نورى السعيد الذى لم يرض بصحبة رشيد عالى. ولكنه قبل مغصوبا ، ولم يبد اعتراضا .

وسقطت وزارة نورى وخلفه على رئاستها رشيد عالى ، فلم يغير شيئا في برنامج سفر الوفد إلى الملك عبد العزيز الا في التخلف عنه ، لأن مسئوليته تمنعه

---

(١) يقول حافظ وهبه في كتابه « خمسون عاما في الجزيرة العربية » صفحة ٨٤ ـ ٨٥ ما نصه (والكلام موجه من حافظ للسير جلبرت كلايتون في مفاوضة بحرة) :

« أنا مصري كما تعلم ، وأنتم محتلون لبلادنا ، ومن واجب كل مصري التخلص من احتلالكم » .

ويقول : « أنا في مصر وطني قد أكون متطرفا أ معتدلا ، أما هنا فأنا أمين على ما يكله الي الملك عبد العزيز ، لا أنظر الا لمصلحته فقط ، وان مصلحته تقضي أن يكون صديقا لكم ، فأنتم محيطون به من كل جانب » .

عن الاشتراك في المفاوضة ، ورجا أن يتاح له في المستقبل شرف مقابلة ابن سعود ، ولكنه أعطى وزير خارجيته نورى السعيد تفويضا عاما ، ووكل إليه السلطة المطلقة في إزالة كل أسباب التوتر والخلاف والجفاء بين الملك عبد العزيز والعراق .

ووصل الوفد العراقي برئاسة نورى السعيد إلى « روضة التُّنَّهات» بنجد حيث كان ابن سعود ، واستقبل الأمير فيصل وزير خارجية المملكة العربية السعودية الوفد العراقي ، واحتفى به ابن سعود احتفاء عظيما .

ودارت المباحثات بينه وبين الأمير فيصل في جو ودي استغرق ثلاثة أيام ابتداء من يوم ٢٦ إلى يوم ٢٨ صفر سنة ١٣٥٩ (٤ ـ ٦ ابريل ١٩٤٠) ودون نتائج التفاوض محضر وقعاه وزيرا خارجية المملكتين ، ونشر من قبل الحكومتين بتاريخ ٥ ربيع الأول سنة ١٣٥٩ (١٣ ابريل ١٩٤٠) البيان الرسمي التالي :

في أثناء الزيارة التي قام بها الوفد العراقي برئاسة صاحب الفخامة السيد نورى السعيد وزير خارجية الحكومة العراقية بين ٢٦ ـ ٢٨ صفر ١٣٥٩ الموافق ٤ ـ ٦ ابريل ١٩٤٠ دارت بين الفريقين مباحثات متتابعة تتعلق برغبة حكومتيهما الصادقة في تعزيز وتوسيع الروابط الودية والأخوية الموجودة بفضل الله تعالى بين المملكتين الشقيقتين ، وتبودلت في أثناء تلك المباحثات وجهات النظر والآراء المتعلقة بسياسة الفريقين الخارجية ، وظهر على صورة جلية أن سياستهما مستمدة من روح الإخاء والتعاون والتفاهم المثبتة في معاهدة الأخوة والتحالف المنعقدة بينهما في ١٠ المحرم سنة ١٣٥٥ الموافق ٢ نيسان ١٩٣٦ ، ومن الرغبة في جمع شمل الأمة العربية ، وتوحيد كلمتها ، وحل القضايا المعلقة بين المملكتين بروح المودة والصداقة ، وتنظيم التعاون العام بين سلطاتهما المنصوص عليها في معاهدة الصداقة وحسن الجوار المنعقدة في ٢٠ ذى القعدة ١٣٤٩ الموافق ٧ نيسان ١٩٣١ .

وتأييدا لما تقدم ، وتحقيقا لتعزيز صلات المملكتين الودية ، وتوسيع نطاق بعاونهما في خدمة العرب فقد تم الاتفاق على حل قضايا عشائر الحدود المعلقة تينهما ، على الأسس التالية :

أولا :

(أ) يعين كل من الفريقين موظفى حدود في مناطق الحدود التى تكثر فيها الحوادث المخلة بالأمن ، والتى يُتفق عليها فيما بعد .

(ب) يُخوَّل موظفو الحدود المشار إليهم في الفقرة (أ) سلطة تامة في الأمور التالية :

١ — معالجة وحسم كافة القضايا المتعلقة بالأمن على حدود المملكتين ضمن منطقة عمقها ٣٠ كيلومترا على جانبي كل من خط الحدود .

٢ — اتخاذ التدابير المقتضية للحيلولة دون قيام أي شخص من رعايا الفريقين بأي عمل من شأنه أن يعكر صفو العلاقات بين المملكتين (ومن ضمن ذلك القيام بالدعاية ضد أحد الفريقين) .

٣ — معالجة قضايا الإبل المفقودة أو المسروقة على صورة سريعة ، ومنح كافة التسهيلات الممكنة للأشخاص المختصين الذين يبحثون عنها من رُعاة وقَصاصين وغيرهم ، سواء أكانت تلك الإبل عائدة للحكومة أم للأهالي .

٤ — التعاون على تبليغ رعايا الفريقين أوامر حكومتيهم .

ثانيا :

(أ) يبعد إلى الحدود النجدية ويمنع من الإقامة والرعي في الأراضى العراقية الواقعة على حدود المملكتين أفراد عشيرة شَمَّر نجد الذين نزحوا إلى العراق في

خلال الخمس السنوات الأخيرة ، ويستثنى من ذلك الأشخاص الذين توافق الحكومة العربية السعودية تحريريا على بقائهم في المنطقة المذكورة للرعي والامتيار .

ويمنع بعد هذا نزوح أفراد العشيرة المذكورة على صورة وقتية أو دائمة من نجد إلى هذه المنطقة إلا بموافقة الحكومة العربية السعودية على ذلك تحريريا .

(ب) يمنع أفراد عشيرة الظفير والدهامشة ممن يختارون تابعية المملكة العربية السعودية من الإقامة والرعي في المنطقة المذكورة إلا بموافقة الحكومة العراقية على ذلك تحريريا .

(التوقيع)	(التوقيع)
فيصل	نورى السعيد
وزير خارجية المملكة العربية السعودية	وزير خارجية المملكة العراقية

توحيد المملكة

الحجاز ونجد وملحقاتها أقطار عربية اسلامية ما في ذلك شك ، تجمع أهلها وحدة الدين ووحدة اللغة ووحدة الافكار وغير ذلك من « الوحدات » ولكن المبطلين يجدون السبيل للطعن من هذه التفرقة الاسمية ، فيهرفون بأن الحجاز غير نجد وغير الاحساء وعسير والربع الخالى ، وهو صحيح ، الا أن الدعوى بالعنصرية والقومية دعوى لعينة مكذوبة تقوم على الجاهلية التى قضى عليها الإسلام ، ولكنهم استطاعوا أن يجدوا في الاذهان معاني ملتوية باسم الحجاز لنصرة الحجاز بما يزعمون .

والحوادث المتتابعة التي قامت في أطراف البلاد نبهت الاذهان إلى أن هناك نقصا يجب تلافيه ، وأن هناك بابا للشر مفتوحا يجب تغليقه ، الا وهو عدم « توحيد » المملكة في اسمها ، فلا حجاز ولا نجد ولا ملحقات أمام أمة واحدة تتفق في العادات والتقاليد وفي الدين واللغة والوطن والمنازع والاهواء والاماني ، بل إلى متى يجابه أهلها الفتن لاسم يشعر بالتفريق فعزموا عزما صادقا على أن تكون الوحدة عامة شاملة في الاسم وفي كل شيء ، ونظروا إلى أن نظام الحكم في البلاد ملكي شرعي فاشتقوا لفظ « المملكة » من ذلك ، ثم رأوا أن هذه الامة عربية صحيحة لها تاريخها المجيد ولغتها الشريفة التى أنزل الله بها القرآن فوصفوها

بأنها « عربية » ثم رأوا أن من الواجب تخليد من كان السبب في نهوض هذه الامة ومن كان السبب في الدفاع عنها والسير بها في طريق التقدم بأن يشتقوا من اسمه نسبة تكون وصفا ثانيا للمملكة اشارة إلى العمل الضخم الذى قام به « ابن سعود » وحده ، فرأوا أن يصفوها بأنها « سعودية » فاجتمع لهم بعد ذلك اسم جميل ألا وهو « المملكة العربية السعودية » .

واجتمع أقطاب البلاد في مكة وقر رأيهم على ذلك رغبة في « الوحدة العربية » التى ينشدونها وأعلنوا في جميع بلدان المملكة مقصدهم النبيل ، فتسابق أهل كل بلد إلى الاجتماع وضم الصوت إلى صوت « مكة » حرسها الله ، وكتبوا إلى « ابن سعود » يخبرونه برغبة الامة التى فداها بروحه وماله وأبنائه وأعز الناس عليه ، فأرادت الآن أن تظهر أمام العالم بمظهر « الوحدة » الجميل ، فلا يكون للمسميات الجغرافية والحدود الاقليمية أثرها الذى لا يتفق مع الوحدة العربية المنشودة ، ولا يعبر عن الحقيقة ولا عن روابط أفراد الامة المتضامنين الملتفين حول زعيمهم الاكبر العظيم .

وطارت « البرقيات » من كبراء البلاد ومن أفراد الامة ومن البلدان والقرى ، ومن الحواضر والبوادى إلى الملك الكريم ، فأجابهم إلى ما طلبوا ، وأصدر مرسوما ملكيا تحت رقم ٢٧١٦ في ١٧ جمادى الاولى سنة ١٣٥١ (١٨ سبتمبر ١٩٣٢ م) أمر فيه بتحويل اسم المملكة القديم إلى هذا الاسم الجديد الرائع القوي « المملكة العربية السعودية » ابتداء من يوم الخميس ٢١ جمادى الاولى سنة ١٣٥١ هـ وها هو ذا نص المرسوم الملكي :

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الاعتماد على الله .

١ — بناء على ما رفع من البرقيات من كافة رعايانا في مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها .

٢ — ونزولا على رغبة الرأي العام في بلادنا .

٣ــ وحبا في توحيد أجزاء هذه المملكة العربية ، أمرنا بما هو آت :

ماددة أولى ــ يحول اسم « المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها » إلى اسم « المملكة العربية السعودية » ويصبح لقبنا بعد الآن « ملك المملكة العربية السعودية».

مادة ثانية ــ يجري مفعول هذا التحويل اعتبارا من تاريخ أعلانه .

مادة ثالثة ــ لا يكون لهذا التحويل أي تأثير على المعاهدات والاتفاقات والالتزامات الدولية التى تبقى على قيمتها ومفعولها ، وكذلك لا يكون له تأثير على قيمتها ومفعولها ، وكذلك لا يكون له تأثير على المقاولات والعقود الافرادية ، بل تظل نافذة .

مادة رابعة ــ سائر النظامات والتعليمات والأوامر السابقة والصادرة من قبلنا تظل نافذة المفعول بعد هذا التحويل .

مادة خامسة ــ تظل تشكيلات حكومتنا الحاضرة سواء في الحجاز ونجد وملحقاتها على حالها الحاضر مؤقتا إلى أن يتم رفع تشكيلات جديدة للمماكة كلها على أساس التوحيد الجديد .

مادة سادسة ــ على مجلس وكلائنا الحالي الشروع حالا في وضع نظام أساسي للمملكة ، ونظام لتوارث العرش ، ونظام تشكيلات الحكومة ، وعرضها علينا لاستصدار أوامرنا فيها .

مادة سابعة ــ لرئيس مجلس وكلائنا أن يضم أعضاء مجلس الوكلاء أي فرد أو أفراد من ذوى الرأي حين وضع الأنظمة السالفة الذكر للاستفادة من آرائهم والاستنارة بمعلوماتهم .

مادة ثامنة ــ اننا نختار يوم الخميس في ٢١ جمادى الاولى سنة ١٣٥١ هـ الموافق لليوم الاول من الميزان يوما لاعلان توحيد هذه المماكة العربية ، ونسأل الله التوفيق.

صدر في قصرنا في الرياض في هذا اليوم السابع عشر من شهر جمادى الاولى سنة ١٣٥١ هـ .

بأمر جلالته	(التوقيع)
نائب جلالته	عبد العزيز
(التوقيع)	
فيصل	

وما كاد هذا النبأ يصل إلى الامة حتى استعدت لاقامة مهرجانات استقبالا ليوم الخميس تعبر فيه عن سرورها بهذا اليوم التاريخي المجيد الذى نالت فيه رغبتها وظهرت بمظهر « الوحدة » أمام الامم الاخرى وخطب الخطباء وكتب الكاتبون ونظم الشعراء حتى انقلبت المملكة إلى « مهرجان » عظيم تضج رحابه بالهتاف والتكبير وتتزلزل الجبال من التصفيق حتى دميت الاكف .

وبدأ المهرجان الاعظم بمكة بكلمة فيصل الخالدة :

« لا أستطيع أن أعبر لكم عما يخالجنى من السرور في هذا اليوم الذى من الله به على هذه الامة العربية المسلمة بتوحيدها ضمن مملكة واحدة ، وان جلالة الملك يشكر لكم هذه الغيرة التى أبديتموها والاخلاص الذى أظهرتموه ، وقد أفضل جلالة مولاي نزولا على رأي الامة فأصد أمره الكريم بالموافقة على رغباتكم ».

فأطلقت المدافع ، واختالت كل بلدة في أجمل الحلى ابتهاجا بيوم الوحدة التاريخي ، وختمت الحفلات بخطاب الامير سعود أكبر أبناء الملك عبد العزيز وجاء فيه قوله :

« انا نحتفل اليوم في هذا البلد العربي (يقصد سموه الرياض حيث القى هذا الخطاب) اعلانا لفرح بلادنا وشعبنا باتحاد مملكتنا العربية واتحاد أجزائها ، وذلك تلبية لما كان يجيش في صدر كل عربي مخلص لهذه البلاد ، وقد وافق جلالة الملك أيده الله على هذا التوحيد ، واننا نعلن من هذه العاصمة العربية للملأ أن هذه

المملكة أصبحت بعد توحيدها « المملكة العربية السعودية » بدلا من مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها ايذانا بزوال الفوارق التى بين أجزاء هذه المملكة المتحدة » .

كان هذا التوحيد في الاسم مقترنا بالوحدة الطبيعية بين شعوب المملكة، فاذا اختلفت أسماء الأقطار والبلدان التى تضمها فإن وحدتها تامة وعامة في كل شيء ، فما ثم فوارق بينها في الدين واللغة والجنس والنظام والحكم والأمل والوسيلة والغاية ، ولا وجود لعصبية قبلية تفرق بين الناس ، فالجميع عرب مسلمون ، تجمعهم كلمة التوحيد .

والاسلام لا يفرق بين أهله ، فكلهم سواء في شرعته ، وإذا كان هناك تفاضل وامتياز وتفوق فليس مرد ذلك إلى العنصر والقوم والجنس ،وما كان الفرق في الاسلام مزية ترفع صاحبه أو تميزه على غيره ، والتفاضل لا يتم الا بقدر ما يقدم الانسان لمجتمعه أو للعالم من خدمات إنسانية ، ولهذا جاء في القرآن الكريم : ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وفي الحديث الشريف ما معناه : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » .

فالامتياز والفضل للاحسان والخير ، وقد رأينا إلى أي قمة صعد بلال العبد الحبشي في حين هبوط عم رسول الإسلام إلى أسفل الدركات ، وما كان بلال ليرتقي أعلى قمة في الاسلام الا بالتقوى ، فهي وحدها التى أصعدته حيث هبط صاحب العرق المُصَفّى إلى الجحيم .

وقبل أن يتم توحيد المملكة كانت العنصرية أو كان العرق وحده سبب الفضل ، وكان بين أبناء الأقطار قبل توحيدها تتعزى قبائل بعزاء الجاهلية ، ويدفعها هذا العزاء إلى التنافر والاختصام، وما أكثر ما كان يدفع البادية إلى القتال وامتشاق الحسام .

وبهذا التوحيد الذى تم لم يعد هناك من يقول : أنا نجدي ، أو حجازي ، أو عسيري ، أو قصيمي ، أو نجراني ، بل كل منهم يقول : أنا سعودي .

ولم يكن هذا التوحيد انبعاثا قوميا ولا عصبية من العصبيات ، فالذين صنعوه كانوا على فقه صحيح لنظرية الاسلام في الحكم والنظام والدولة ، ولهذا ابتعدوا عن العصبية والقومية ، بل قضوا عليهما .

ومنذ أربعين سنة تم هذا التوحيد ، ومرُّ هذه السنين زاده توكيدا ورسوخا ، لأنه لم يفرض لهوى أفراد أو أحزاب أو لتحقيق غايات شخصية يعملها من لا يؤمنون بالله ورسوله حق الايمان .

ولم يتم أي توحيد أو وحدة بين شعوب وأقطار أخرى، لأن من يتولون الحكم فيها ليسوا أهلا للحكم في بلاد مسلمة، ولم يكونوا أهلا لرعاية الأمانة وحفظها.

وعلى سبيل المثال : وحدة سورية ومصر ، فقد أوجدتها أطماع وغايات ومقاصد لا تتصل بمعاني الوحدة الصحيحة وأهدافها ، فانفصمت الوحدة شر انفصام ، وبعد أن كان بين القطرين وئام وحب حل محلهما البغض والخصام .

وهناك دولة اسلامية ولدت موحدة ، وظهرت إلى الوجود وحدة متكاملة ، وإذا الاهواء تشطرها شطرين، يعاني كل شطر أشد الآلام والخسائر، تلك الدولة : باكستان .

ورأينا ما حدث من الكوارث لبغض ما رأينا من الاتحاد مثل اتحاد العراق والأردن حيث قضي عليه ليحل محله الحقد والحرب .

وأما وحدة أقطار المملكة العربية السعودية فهي الوحدة الصحيحة التي يحرص أبناؤها عليها ، ولا يقبلون بديلا عنها ، وأثبتت الحوادث والسنوات حرصهم الشديد عليها ، وإن بقاء الوحدة أكثر من أربعين سنة مع المزيد من الوثاقة والرسوخ يثبت أنها الوحدة الطبيعية الأصيلة التي لم توجدها الأهواء السياسية أو الأطماع الشخصية ، بل أوجدها الاسلام الذي لا ينظر الا إلى الخير بضمنه لجميع الناس ، ويجمعهم في صف واحد ليكونوا كالبنيان المرصوص والجسد الواحد .

وهكذا كان توحيد المملكة العربية السعودية بمثابة الجسد الواحد ، ولذلك كان ناجحا كل النجاح بفضل الله عز وجل .

ولاية العهد

بعد أن أتم الشعب توحيد اسم مملكته وقضى على الفوارق الاقليمية والحدود الجغرافية المصطنعة رأى أن هناك أمرا جدّ عظيم يجب أن يتمه ليضمن في مستقبله الأمن والسلام وتثبيت قواعد الحكم الذى ارتضاه لنفسه ، فاجتمع أهل الحل والعقد وبحثوا فيمن يخلف الملك — بعد عمره الطويل إن شاء الله — وجردوا أنفسهم من الهوى ، لئلا يكون هناك مجال للعبث والفساد والتناحر من أجل العرش .

وخلصوا من بحثهم إلى اختيار الأمير سعود وليا للعهد لتوافر أسباب الولاية فيه ، فهو صاحب خلق ودين ، وملتقى لخير الخلائق العربية الأصيلة وأكرم الصفات النبيلة ، وثبتت عدالته ثبوتا شرعيا .

والملك عبد العزيز نفسه رشح ابنه سعود لولاية العهد لما يعرف فيه من الصلاح لهذا المنصب الرفيع ، ولكنه لم يفرضه على الأمة ، بل وكل إلى العلماء والسياسيين والمفكرين والرؤساء بحث ترشيحه والتحرى عن المرشّح ، وطلب إليهم أن يرقبوا الله عز وجل في القول والعمل .

ولا شك أن هناك عديدا من الأفراد في آل سعود يصلحون لولاية العهد وبخاصة بين أبناء عبد العزيز .

وترشيح الملك لابنه سعود قصر البحث عليه وحده دون غيره ، فان كان صالحا أيد ممثلو الأمة الترشيح وإلا كانت لهم الحرية في ترشيح غيره .

وقد رجع بعض العلماء إلى كتاب « الأحكام السلطانية » للامام أبي يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي المتوفى ببغداد سنة ٤٥٨ هـ فوجدوه قد ذكر عشرة شروط يجب أن تكون في الحاكم ، وهي :

أولا — حفظ الدين على الأصول التى أجمع عليها سلف الأمة .

ثانيا — تنفيذ الأحكام ، والفصل بالعدل .

ثالثا — حماية البيضة ، والذب عن الحوزة لينصرف الناس إلى أعمالهم آمنين .

رابعا — أقامة الحدود .

خامسا — الاستعداد التام للدفاع ، واليقظة للعدو .

سادسا — الجهاد في سبيل الله .

سابعا — جباية الفيء والصدقات حسب ما فرض الله وأوجبه الشرع نصا واجتهادا دون تعسف .

ثامنا — تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير إسراف ولا تقصير ، في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

تاسعا — استكفاء الأمناء ، وتقليد النصحاء فيما يفوضه إليهم من الاعمال ، ويكله إليهم من الأموال ، لتحفظ الأموال وتضبط الأعمال .

عاشرا — أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال ليهتم بسياسة الأمة ، وحراسة الملة ، ولا يُعوِّل على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة ، فقد

يخون الأمين ، ويغش الناصح ، وقد قال تعالى : ﴿ يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ﴾ فلم يقتصر سبحانه على التفويض دون المباشرة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

وهذه الشروط لم يخترعها الامام أبو يعلى ، بل أخذها من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لولاته ، وهو عهد أمر به الوحي المقدس الذى أريد منه أمن البشر ، وهذا العهد العظيم عهد به رسول الله لعامله على اليمن عمرو بن حزم ، وها هو ذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا بيان من الله ورسوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود ﴾ .

« عهد من النبي محمد رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن .

« أمره بتقوى الله في أمره كله ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

« وأمره ان يأخذ بالحق كما أمره الله .

« وأن يأمر الناس بالخير ويبشرهم به ، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه ، وينهى الناس ، فلا يمس القرآن انسان الا وهو طاهر .

« ويخبر الناس بالذى لهم والذى عليهم .

« ويلين للناس فى الحق ، ويشتد عليهم فى الظلم ، فان الله كره الظلم ونهى عنه فقال : ﴿ الا لعنة الله على الظالمين ﴾ .

« ويبشر الناس بالجنة وبعملها ، وينذر الناس النار وعملها .

« وينهى الناس ان يصلي أحد فى ثوب واحد صغير الا ان يكون ثوباً يثنى

طرفيه على عاتقيه ، وينهى ان يحتبي احد فى ثوب يفضى بفرجه إلى السماء .

« وينهى ان يعقص أحد شعر رأسه فى قفاه .

« وينهى اذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم إلى الله وحده لا شريك له ، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيف حتى يكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له .

« ويأمر الناس بإسباغ الوضوء ، وجوههم وايديهم إلى المرافق ، وارجلهم إلى الكعبين ، ويمسحون برؤوسهم كما امرهم الله .

« وأمر بالصلاة لوقتها ، واتمام الركوع والخشوع ، يغلس بالصبح ويهجر بالهاجرة حين تميل الشمس ، وصلاة العصر والشمس في الأرض ، والمغرب حين يقبل الليل ، ولا تؤخر حتى تبدو النجوم فى السماء ، والعشاء أول الليل .

« وأمر بالسعى إلى الجمعة اذا تنودي لها ، والغسل عند الرواح اليها .

« وأمره أن يأخذ من المغانم خُمس الله .

« وما كتب على المؤمنين فى الصدقة : من العقار عشُر ما سقت العين وسقت السماء ، وعلى ما سقى الغرب نصف العُشر .

« وفى كل عشر من الابل : شاتان ، وفى كل عشرين : أربع شياه .

« وفى كل أربعين من البقر : بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقر : تبيع جذع أو جذعة .

« وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها : شاة ، فانها فريضة الله التى افترض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيراً فهو خير له .

« وان من اسلم من يهودي أو نصرانى اسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الاسلام فانه من المؤمنين ، له مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على

نصرانيته أو يهوديته فانه لا يرد عنها ، وعلى كل حالم – ذكر أو انثى ، حر أو عبد – دينار واف ٍ، أو عرضة ثياباً .

« فمن أدى ذلك فان له ذمة الله وذمة رسوله .

ومن منع ذلك فانه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً » .

هذا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم حين ولاه اليمن ، وهو ليس خاصاً، بل حكمه عام، وكل وال ٍ على المسلمين مسئول عن هذا العهد .

وعلى أساس هذا العهد النبوي الشريف بحث أمر ولي العهد من قبل مجلس الشورى ومجلس الوكلاء ورئاسة القضاة بمكة المكرمة ، وانتهوا منه في يـوم الخميس ١٦ محرم سنة ١٣٥٢ (١١ مايو ١٩٣٣) ورفعوا إلى الملك عبد العزيز قرارهم التاريخي بمبايعة الأمير سعود بولاية العهد ، وتعليقها بأعناقهم أمام الله والناس والتاريخ ، وها هوذا نصه :

« لما كان حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سعود النجل الأكبر لحضرة صاحب الجلالة قد تحلى بكافة الأوصاف الشرعية الواجب توافرها فيمن يخلف ولي الأمر – مد الله في عمره – وقد اشتهرت عدالته وصفاته المختارة بين الجميع فإننا عملا بالمأثور من المبايعات نبايعه وليا لعهد المملكة العربية السعودية ، نبايعه على السمع والطاعة على كتاب الله وسنة رسوله ، ونسأل الله له الهداية والتوفيق ، ونضرع إليه تعالى أن يمد في عمره وعمر والده الملك العادل الموفق ، خلد الله ملكه ، وقد أخذنا صك البيعة على أنفسنا وعلقناها بأعناقنا ، ونشهد الله عـلى ذلك ، والله خير الشاهدين » .

ووقع على هذا القرار كل أعضاء مجلس الشورى ومجلس الوكلاء ورئاسة القضاة ورؤسائهم بالاجماع نيابة عن شعب المملكة العربية السعودية ، وما كان من الأمير سعود إلا أن أرسل اليهم البرقية التالية :

« إنى أتقدم إلى شعب مملكتنا العربية السعودية بالشكر له لإجماع كلمته على مبايعتى بولاية العهد ، وإنى أعاهد الله على أننى سأقوم بما أوجبه عليّ من العدل والنصح لهم ولولايتهم ظاهرا وباطنا » .

وهكذا تمت البيعة للأمير سعود بولاية العهد بإجماع الأمة ، ودخل فى البيعة كل أشقاء الملك وأبنائه وكل آل سعود .

وأقيمت الحفلات والمهرجانات فى كل مدن المملكة والبوادى والقرى إعلانا للبيعة ، وقد أطاروا برقيات التهنئة إلى الملك وإلى ولي عهده ، وابتهجت البلاد من جديد بهذا الحدث العظيم الذى ضمن النظام والهدوء والاستقرار والسلام في الحاضر والمستقبل من ناحية وراثة العرش ، وقطع كل ما يهدد أمن الدولة وسلامتها من الداخل .

وكان قرار البيعة أساسا يبنى عليه فى المستقبل « ولاية العهد » فلا يقع أي خلاف بسببها بين أبناء مؤسس الدولة السعودية الملك عبد العزيز ، فهم -والشعب أيضا - يعلمون أن ولاية العهد تنحصر فى ابناء عبد العزيز الأكبر فالأكبر إلا إذا نزل صاحب الحق عن حقه .

ومنذ ذلك التاريخ حتى كتابة هذه السطور [1] لم يقع خلاف فى ولاية العهد ، فبعد موت الملك عبد العزيز تولى سعود الملك دون أن يُنازَع ، وصار أخوه فيصل وليا للعهد حتى تولى الملك عن طريقين : ولاية العهد ، واختيار الأمة ؛ وصار الأمير خالد وليا للعهد بالإجماع بعد أن نزل أخوه الأمير محمد ابن عبد العزيز عن حقه لشقيقه خالد .

ولما أتمت مكة المكرمة - حرسها الله - وبقية المدن البيعة أرسل الملك فى يوم السبت ١٨ محرم سنة ١٣٥٢ لولي عهده هذه البرقية :

---

(١) كتبت هذه السطور في يوم الخميس ٦ شعبان سنة ١٣٩٢ (١٤ سبتمبر ١٩٧٢) .

« الرياض — الابن سعود

« لقد احطت علماً بما ذكرت ، اما من قِبَل ولاية العهد فأرجو من الله ان يوفقك للخير .

تفهم اننا نحن الناس جميعاً ما نعز احداً ولا نذل احداً ، وانما المعز والمذل هو الله سبحانه وتعالى ، ومن التجأ اليه نجا ، ومن اعتز بغيره — عياذاً بالله — وقع وهلك ، موقفك اليوم غير موقفك بالأمس ، ينبغي عليك ان تعقد نيتك على ثلاثة امور :

اولاً — نية صالحة وعزم على ان تكون حياتك وان يكون ديدنك اعلاء كلمة التوحيد ، ونصر دين الله ، وينبغي ان تتخذ لنفسك اوقاتا خاصة لعبادة الله والتضرع بين يديه فى اوقات فراغك ، تعبَّدْ الله فى الرخاء تجدْه فى الشدة ، وعليك بالحرص على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وان يكون ذلك كله على برهان وبصيرة فى الأمر ، وصدق فى العزيمة ، ولا يصلح مع الله سبحانه وتعالى الا الصدق ، وإلا العمل الخفي بين المرء وربه .

ثانياً — عليك ان تجدَّ وتجتهد فى النظر فى شؤون الذين سيوليك الله امرهم بالنصح سراً وعلانية ، والعدل فى الحب والبغض، وتحكيم هذه الشريعة فى الدقيق والجليل ، والقيام بخدمتها ظاهراً وباطناً ، وينبغي ألا تأخذك فى الله لومة لائم .

ثالثا — عليك ان تنظر فى أمور المسلمين عامة ، وفى امر اسرتك خاصة ، اجعل كبيرهم والداً ، ومتوسطهم اخاً ، وصغيرهم ولداً ، وهيء نفســك لارضائهم ، وامح زلتهم ، وأقِلْ عثرتهم ، واقض لوازمهم بقدر امكانك ، فاذا فهمت وصيتى هذه ولازمت الصدق والاخلاص فى العمل فابشر بالخير .

اوصيك بعلماء المسلمين خيراً ، احرص على توقيرهم ومجالستهم ، وأخذ

نصيحتهم ، واحرص على تعلم العلم ، لان الناس ليسوا بشيء إلا بالله ثم بالعلم ، ومعرفة هذه العقيدة ، احفظ الله يحفظك .

هذه مقدمة نصيحتى اليك ، والباقى يصلك ان شاء الله فى غير هذا .

سيبايعك الناس في الحجاز يوم الاثنين وسيقبل البيعة عنك أخوك فيصل ، وسيصل اليك هو وأفراد الاسرة لتبليغك بيعة أهل الحجاز وليبايعوك عن أنفسهم .

وأرجو من الله أن يوفقك للخير » .

وأجاب ولي العهد والده بالبرقية التالية لتكون شاهدا وحجة له وعليه اذا حدث منه ما يغاير عهده :

جلالة مولاي الملك المعظم ، أيده الله .

جواباً على برقية مولاي عدد ٢٧٥ المؤرخة في ١٨ منه فان جميع ما ذكره مولاي لخادمه هو عين الصواب ، وأنه لا قوام لديننا ودنيانا الا بالله ثم به ، من اتبعه نجا بنفسه ونجا من ولاه الله عليه ، وانى إن شاء الله سأجتهد واعتمد ما ذكره مولاي من النصائح الدينية والدنيوية ، وأرجو ان كان الله يعلم منى ذلك أن يوفقنى لرضاه ثم لرضاء جلالتكم ، وان يوفقنى لما فيه صلاح الاسلام والمسلمين وولايتهم ، وإن كان يعلم منى ضد ذلك فأسأله تعالى أن يكفي المسلمين شرى ، وأن يرد كيدى وكيد كل كائد للمسلمين إلى نحره ، وسأبذل الاجتهاد ان شاء الله في سبيل كلمة التوحيد ، والتمسك بأهداب الشريعة المحمدية ، والنصح للاسلام ظاهراً وباطناً ، والنصح لعامتهم ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، واقامة ذلك على كائن من كان ، أرجو الله أن يعيننا على ذلك ويمنحنا التوفيق والسؤدد .

ان النية التى ينطوى عليها خادمكم ان شاء الله هي :

أولاً — إعلاء شأن كلمة التوحيد ، وتأييد الشريعة الاسلامية ، والنصح لولاية المسلمين ، وانزال الناس منازلهم خصوصاً أسرتنا كبيرهم وصغيرهم كما تفضل به مولاي ، كبيرهم أب ، وأوسطهم أخ ، وصغيرهم ولد ، والعدل بين الرعية ، واني أعاهد الله على ذلك ، واني ما ألبس ثوب عافية دونها ، وسأكون ان شاء الله مقيلا لعثراتهم ، حليما على جاهلهم ، وهذا ان شاء الله هو العمدة في الدين والدنيا.

ثانياً — سأتخذ الصدق ان شاء الله ، والاخلاص والجد في العمل ، وسأوقر علماء المسلمين ، وأجالسهم ، وآخذ نصائحهم ، وسأحضهم على تعلم العلم وتعليم هذه العقيدة ، والتوفيق بيد الله .

ثالثاً — ان ما ذكره مولاي عن موقفي امس وموقفي اليوم ، وان الامر لا يصلح إلا بالعمل الصالح ، والخالص لوجه الله ، وعبادة الله وحده ، والتضرع اليه في الخلوات ، والالتجاء إليه وحده ، فهذا الذى فيه النجاة ، وهو الذى يرجى به التوفيق ان شاء الله ، لأنه كما ذكر مولاي من التجأ اليه نجا ، ومن اعتز بغيره وقع وهلك .

نرجو أن يمن الله علينا بالهداية ، وان يأخذ بناصيتنا ، ويستعملنا فيما يرضيه ، وبما يكون صلاح للدين ولولاية المسلمين .

واني لأعلم أن الله لم يظهركم إلا بسبب كلمة التوحيد والعقيدة الصالحة التي بين الانسان وربه ، أرجو أن يوفقنا الله لذلك ، وان شاء الله ان صلاحك سيصلحنا ، وان نيتك الطيبة ان شاء الله تعمنا ، والامور التي اوصيتني بها أضعها نصب عيني ، وسأبذل جهدى ان شاء الله بما يعود منه المصلحة لديننا ودنيانا ، والتوفيق بيد الله .

وأرجو من مولاي الدعاء لخادمه بالبيت الشريف ، وأرجو من الله أن يديم

لنا ولكافة المسلمين بقاءكم ، ولا يرينا فيكم ما نكره .

والله يا طويل العمر ، يوم قرأت برقيتكم ما قدرت على اتمامها لتردد عبرتى ، وضيق صدرى .

والله أسأل أن يطيل عمركم، ويجزيكم عن الاسلام والمسلمين أفضل الجزاء .

أوصيت فأبلغت ، وستظل وصيتك في قلبي راسخة ما حييت ان شاء الله ، أرجو أن يمد الله لنا في حياتك .

ذكر مولاي ان البيعة تكون يوم الاثنين في الحجاز ، وان الاخ فيصل والعائلة سيقدمون الينا بالبيعة حياهم الله ، والذى يراه مولاي هو المبارك ان شاء الله ، وانى أنتظر ما سيتفضل به علي مولاي بعد هذا ، وأرجو من الله ألا يخلينا منك ، وأن يمتعنا وجميع المسلمين بحياتك .

الابن سعود

وتمت البيعة في مكة بالمسجد الحرام بجوار الكعبة المشرفة ، حيث وفد إلى مكة أهل جدة والطائف وينبع ورابغ وكل المدن الحجازية وبوادى الحجاز وقراه، وتولى أخذ البيعة الأمير فيصل بالنيابة عن أخيه ، وكانت ضيغة البيعة هي الصيغة الشرعية التي تفتتح بجملة : نبايعك على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتحكيم الشريعة ، الخ .

ولما انتهت البيعة من مكة التى أخذها بالنيابة عنه أخوه فيصل توجه بوفد الحجاز إلى الرياض ، فأقيمت فيها يوم ٢٧ محرم ١٣٥٢ خفلة اعلان البيعة .

وفي الساعة الثانية عشرة من صباح هذا اليوم اجتمع في القصر الملكي الامراء وآل سعود والمشايخ والعلماء وأقطاب المملكة ، وتصدر هذا المحفل العظيم الامير محمد بن عبد الرحمن أخو الملك وبجانبه الأمير سعود بن عبد العزيز (ابن

عم الملك وزوج أخته) ثم أمراء آل سعود الأكبر فالأكبر ، ثم الامراء من آل الرشيد ، وجلس على اليسار المشائخ والعلماء ، ووفد مجلس الشورى ، وتليت برقية الملك وكتابه الملكي اللذان أرسلهما إلى ولي العهد مع وفد البيعة ، ثم وقف الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ ووعظ الناس ، وشكر الملك ، ونصح الامة باتباع الدين .

ثم وقف الامير محمد بن عبد الرحمن ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه ألقى كلمة بليغة أثنى فيها على أخيه الملك ، وامتدح فعاله في السابق واللاحق ، ودعا له بالتأييد والنصر وطول العمر ، ثم عدد خدماته ومآثره التي آخرها هذا العمل العظيم ، وهو اعلان البيعة بولاية العهد للأمير سعود ، ورجا أن يكون وراء ذلك الخير كل الخير لآل سعود وأهل نجد والمملكة العربية السعودية ، ثم صافح ولي العهد وبايعه بولاية العهد على كتاب الله وسنة رسوله وعلى السمع والطاعة وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه ، وأعطى على ذلك عهد الله وميثاقه ، وكان الامير محمد بن عبد الرحمن أول من تقدم بالبيعة ثم تبعه أخوته سعود وعبد الله وأحمد ومساعد وسعد ثم الامراء : فيصل ومحمد وخالد وآل الشيخ أجمع وآل الرشيد وفي مقدمتهم عبد الله بن متعب .

وبعد أن تمت المبايعة شكر ولي العهد أصحاب السمو الامراء وأعمامه واخوته وأبناء عمومته ، وخص أباه الملك بالدعاء وختم خطابه بقوله : « انى لا أدخر وسعا في خدمة هذه الامة العربية الاسلامية والسير بها في طريق الفلاح والرشاد على ما كان عليه السلف الصالح ، وانى أشكر الشعب الحجازي لما أبداه من الحب والاخلاص والثقة ، وأرجو الوفد أن يبلغ عنى شكرى » .

وأقيمت حفلات التكريم لصاحب السمو ولي العهد في الرياض ، كما أقيمت المهرجانات في المملكة كلها حضرا وبادية أشيد فيها بما لولي العهد المعظم من أياد عظمى على البلاد والشعب وعلى العروبة والاسلام ، ودُعِيَ له بالنصر والتمكين.

وبذلك قررت الامة مصيرها في المستقبل ، وضمنت السلام والطمأنينة ، ووضعت حدا لمشاكل كان يثيرها القعود عن اتمام البيعة بولاية العهد لهذا الامير العظيم .

ابن رفادة

كان حامد بن سالم بن رفادة من سكان الحجاز وقطن به إلى سنة ١٣٤٧ ﻫ ثم قام بفتنته في « الوجه » فضربته الحكومة السعودية ضربة فر على إثرها إلى الديار المصرية ، واتخذ له مسكنا بحي شبرا بالقاهرة ، وظل مقيما بها حتى غادرها للقيام بحركته في سنة ١٣٥١ ﻫ .

ولم يكن حامد قد نسي الضربة التي أقصته عن بلاده ، ولم يعد — كما كان — شيخا لقبيلة « بلى » فأضمر العداء لحكومة بلاده وأخذ يتصل بالبدو أملا في النهوض بثورة عليها طمعا في السيادة والانتقام ، وأطمعهم في الكسب حتى استطاع أن يجمع بضع مئات بمساعدة محمد بن عبد الرحيم ابن طقيقة ، وكان ابن رفادة يظن أنه متى قام بثورته ضد ابن سعود لبته قبائل الحجاز وثارت معه ، فمشى بمن معه من البدو إلى « النصب » بين السويس والطور وأبقاهم فيه ورجع القاهرة لتصفية أعماله بها .

وفي أوائل المحرم سنة ١٣٥١ ﻫ سار إلى النصب واجتمع برفاقه وسار منه إلى « الخضر » ثم إلى « درب الزلفة » ثم سلك الطريق الساحلي بين البحر والجبال حتى وصل « طابة » آخر نقطة في الحدود المصرية ، ورأى جنود المخفر المصريين الوثائق الرسمية التي استخرجها له ولرجاله أحد أعوانه بالسويس وهو محمد

رشيد فتوح الكبير ، ونزلوا قرب العقبة، ودخلها ابن رفادة وأبو طقيقة لقضاء بعض حاجاتهما ثم غادراها بمن معهما إلى « الشريح » ولبثوا بها أياما، وهي تبعد عن العقبة أربع ساعات .

وفي صباح اليوم الرابع عشر من المحرم ١٣٥١ أبلغت المفوضية البريطانية حكومة ابن سعود أن حامد بن رفادة الاعور خرج من أراضى سيناء ومر بشمال العقبة مع بدو يتراوح عددهم بين ٤٠٠ و ٤٥٠ ودخلوا الأراضى الحجازية .

وكانت الانباء قد وصلت الحكومة السعودية في شوال سنة ١٣٥٠ بأن بعض أعدائها يفكرون في القيام بفتنة في الشمال ، ولما أبلغتها الحكومة البريطانية بجدة تأكد لديها الخبر ، واهتمت للامر وسيرت قوة برية بالسيارات وقوة بحرية إلى بلدة ضبا ، كما أمرت قوى الهجر من شمر وعنيزة أن تسير إلى الشمال ، وبعث سرية من حائل لمرافقة هذه القوات إلى الحدود والانتظار هنالك حتى تتلقى أمرا من ابن سعود بالعمل .

ونشرت الصحف بلاغا من ابن رفادة زعم فيه أنه احتل « الحريبة » وحاصر « المويلح » وأسر ضباطا وجنودا من خفر السواحل ، وحاصر ضبا وسير قوة إلى « الوجه » وأخرى إلى « ينبع »وانتشرت هذه الاخبار المكذوبة في البلدان العربية وروجها ذوو الهوى في حين أن الحقيقة خلاف ذلك ، اذ ما زال ابن رفادة قابعا بالشريح قرب العقبة .

واهتمت بريطانيا بهذه الفتنة خشية أن تظن الحكومة السعودية أن لها يدا فيها فأعلنت أنها أغلقت في وجه الثوار أبواب الحدود ومنعت دخول الارزاق والأسلحة والمهمات الحربية اليهم عن طريق شرق الاردن إلى الحجاز ، وبعثت دوريات إلى وادي عربة لمراقبة الحدود ووقف كل من يشتبه فيه ، وأرسلت باخرة حربية إلى العقبة لمساعدة المندوب السامي بها حتى يستطيع التضييق على ابن رفادة وقطع يد من يريد عونه ، ونشر اللفتننت جنرال السير ارثر جرنيفيل لوب

المندوب السامي بشرق الاردن بلاغا رسميا يتضمن أنه منع كل المساعدات سواء من شرق الاردن أم من طريقها عمن يناوىء الحكومة الحجازية ، وأنه أمر القوات البريطانية باتخاذ جميع الاجراءات لمساعدة جيش ابن سعود ، كما نشر الامير عبد الله بن الحسين أمير شرق الاردن بلاغا قريبا من بلاغ المندوب السامي ، وزاد عليه بأنه منع كل شخص من الاقتراب من الحدود (وعين البلاغ أسماء الاماكن) وأنذر بأن من خاطر بنفسه فسيطلق عليه الحرس الاردني النار .

وكان ابن سعود يقظا لهذه الحركة ، ولكنه تأنى ليرى الحقيقة ، إذ خشي أن يكون لأحد من أهل الحجاز ومكة يد في تدبيره ، الا أن قبائل حرب وجهينة كتبت إلى ابن سعود ترجوه أن يأذن لها بأن يكون لها شرف القضاء على فتنة ابن رفادة وعصابته ، كما كتبت اليه قبيلة « بلى » التى يرأسها ابراهيم بن سليمان باشا ابن رفادة تستهجن حركة حامد بن رفادة الاعور الثائر المجنون ، وتتبرأ من عمله وتطلب أن تنتدب لقتاله ، كما أن الحجازيين أعلنوا التفافهم بابن سعود واخلاصهم له ما طمأنه فأخذ يدبر الامر في هدوء وسكينة .

وكان حريصا على ابادة ابن رفادة ومن معه ، فكتم أمور التجهيز وبعث الجيش من عديد من النقاط للاحداق بالمتمردين كيلا يفر أحد منهم ، وأراد أن يطمئنهم فأوعز إلى رجال من قبيلة جهينة وبلى أن يكتبوا إلى ابن رفادة بأنهم معه ، ويطلبوا اليه أن يتقدم اليهم استدراجا له ، فخدع ومشى من الشريح إلى الحقل فإلى البدع فالخريبة فشريم .

وأخذ ابن رفادة ينشر في الصحف أنه استطاع أن يضم القبائل الحجازية الساخطة على ابن سعود ، وأنه احتل البلدان الشمالية وأسر أمراءها السعوديين وقتل الجنود الوهابية ، وأنه سيد الموقف كله ، ونشر بلاغا آخر ببعض الجرائد السورية يقول فيه : ان السعوديين زعموا أنهم قتلوه وألقوا برأسه إلى أطفال ضبا في حين أنه حي يرزق ، وبلاغه شاهد على ذلك مما يكذب مزاعم السعوديين المفترين ! .

والواقع أن السعوديين لم يسبقوا الحوادث بالاخبار المتخيلة ، ولم يذكروا عن ابن رفادة شيئا مما زعم ، بل كل ما ذكروا أنه اجتاز الحدود إلى الأراضى الحجازية ، وأن قوات سعودية سارت اليه ، هذا ما ذكرته الحكومة السعودية ، ولكن ابن رفادة أراد التطبيل والتهويل ببلاغاته المكذوبة .

وبينا هو في شريم يحلم بالمجد والسيادة تكاملت القوات السعودية في « وادى تريم » ووصل إلى ابن سعود أن ابن رفادة يريد الفرار ، فأصدر أمره (برقيا) إلى قواده بأن يسرعوا في المسير خلفه ويطوقوه ، وألا يتركوا أحدا منهم يسلك طريق النجاة ، وأعلمهم بالخطة ليسيروا عليها ، فوزع القواد والجنود في الطريق المفضية إلى حقل والبدع والخريبة وشريم ليكمل التطويق كما أمر ابن سعود بذلك في خطته المرسومة ، وأخذت القوة الباقية تسرع خلف الهارب المجد وتتبعت آثاره فوجدته قد انتقل من وادى تريم ، وعرفت أنه سلك الطريق إلى جبل شار .

وأسرعت القوة السعودية خلفه وباتت الليل في الصحراء ، ومضى القائفون [1] يقصون الاثر فأخبروا أنه نازل بسفح جبل شار ، فنهضت القوة السعودية بالسيارات المسلحة والخيول إلى حيث ينزل .

وفي ظهر يوم السبت ٢٦ ربيع الاول سنة ١٣٥١ هـ أدركت هذه القوة ابن رفادة ومن معه يستعدون للرحيل ، فأحدقت بهم وهاجمتهم هجوما قاسيا عنيفا حتى المغرب ، وقتلت حامد بن سالم ابن رفادة الاعور وابنيه فالحا وحمادا وسليمان بن أحمد أبا طقيقة ، ومحمد بن عبد الرحيم أبا طقيقة ، والسيد مسعود الدباغ ، وأحد الشرفاء ، وانجلت المعركة عن ٣٥٠ قتيلا، فيهم الرؤساء الذين ذكرنا أسماءهم ، وأخذ رأس ابن رفادة إلى ضبا ، فلعب به الأطفال ، ثم علق في سوقها الكبيرة .

وكأن المسكين حينما نشر بلاغه لتكذيب الخبر الذى اختلقه من خياله

---

(١) القائف : متتبع الاسر .

اطلع على ما يصير اليه في المستقبل القريب فزعم من قبل أن يحدث له ما حدث ، ولكن من سخرية القدر تحقق ما كان ببلاغه المكذوب المنشور خيالا وزورا بعد أسابيع ، وصار ما تخيله أمرا مشهودا ، فقد لعب برأسه أطفال ضبا ثم علق في سوقها يشهد الناس مصرع الباغي المجنون ، وهذا من غرائب المصادفات ، فالقواد ما كانوا يعلمون ببلاغ ابن رفادة ، ولكنهم أخذوا رأسه وألقوه للاطفال ثم علقوه ، وطابق عملهم خيال ابن رفادة بحذافيره ! .

أما من فروا فقد تشتتوا في الطرق ، غير أن السعوديين الممسكين بالدروب ثقفوهم وقتلوهم ، ولم ينج فرد واحد منهم ولا ممن كان مع ابن رفادة ، بل قتل هو وكل من معه في الأراضي الحجازية ، وأخمدت أنفاس هذه الفتنة ولم يبق لها نصير بعد هذا المصير ! .

* * *

هذه هي صورة الثورة الظاهرة ، ولكن صورتها الخفية كانت غير ذلك ، فابن رفادة لم يكن رأس الثورة المفكر والمدبر ، ولم يكن الا أداة يحركها من كانوا وراءه يدفعونه ويوجهونه كما يريدون ، وهم كانوا مدبرى الثورة ومخططيها ، وهم الذين أنفقوا عليها وزودوها بالمال والسلاح .

وكان الأمير عبد الله بن الحسين أمير شرق الأردن قطب ثورة ابن رفادة وممولها ، فقد كان شديد الحقد على ابن سعود ، ولا يخفى عن أمره له ، بل يعلنه .

والمصافاة التى تمت بين الملك فيصل شقيق الأمير عبد الله بن الحسين والملك عبد العزيز زادت من حقد الأمير عبد الله على ابن سعود ، وكان يمنى نفسه باستعادة ملك الحجاز منه .

وكان بعض الحجازيين ممن كانوا في حكومة الملك الحسين ثم حكومة الملك

علي ناقمين على ابن سعود ، وقد نفوا أنفسهم من بلدهم الحجاز ، وعرفوا بأنهم من أنصار الهاشميين وأشد خصوم ابن سعود ، وكان الملك فيصل ملك العراق والأمير عبد الله بن الحسين ينفقان عليهم .

وكانت طبيعة الأمير عبد الله تأبى عليه إلا اعلان ما يبطن ، بل لم يكن يبطن غير ما يظهر ، فكان يعلن في مجالسه حقده على ابن سعود ، ويذكر لكل من يزورونه من عرب وغير عرب ومسلمين وغير مسلمين عداءه المشتعل لابن سعود .

ومن ذلك أن الاستاذ إحسان سامى مدرس اللغة العربية بجامعة عليكره لكنو في الهند كان في زيارة الأمير عبد الله في أواخر سنة ١٣٥٠ وذكر له أنه بسيحج عامئذ ، فطلب اليه أن يحمل منه رسالة إلى ابن سعود موجزها : أنه عدو ابن سعود الألد ، ولن يتركه ما دام حيا ، وانه يكرهه ويمقته ، وأنه سينتهز كل فرصة تسنح له لضرب ابن سعود .

وأبلغ الأستاذ إحسان سامى ابن سعود رسالة الأمير عبد الله ، فلم يغضب ، ولم يثر ، بل ذكر له في أدب أنه يحترم الأمير عبد الله ، وليس في قلبه أي كره لسموه ، وأنه يرجو له الخير والتوفيق دائما ، ولن يقابل سخطه عليه الا بالرضا عنه .

وقبيل القضاء على حركة ابن رفادة وثورته نشرت جريدة « المقطم » القاهرية في عددها الصادر بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٣٥١ تلك الرسالة التي رد عليها مسئول سعودي في جريدة « أم القرى » الجريدة الرسمية السعودية بعددها الصادر فى يوم ٢ ربيع الآخر سنة ١٣٥١ وذلك بعد مقتل ابن رفادة يوم ٢٦ ربيع الأول ١٣٥١ .

ومما جاء فى الرد السعودي (وهو بقلم يوسف ياسين) قوله :

« إذا كان الشريف عبد الله يرى نفسه العدو اللدود لابن سعود فإن ابن

سعود على عكس ذلك يرى الشريف عبد الله صديقه الحميم الودود ، لأن جميع الأعمال التى عملها الشريف عبد الله من أجل ابن سعود كان لها أحسن النتائج لتأييد ابن سعود ، وتقوية مركزه .

« فقد سبق أن جهز الشريف عبد الله شاكر بن زيد وحمود بن زيد بقوة لاحتلال الخرمة وتربة ، فكسرت تلك القوة ، وغنم ابن سعود ما معها حتى تقوّى بها على قتال يوم تربة المشهور .

« ولما انتهى الحسين وولده عبد الله من قتال الترك جمع كل ما غنمه من الترك والألمان وكل ما أهداه لهما الانجليز من مساعدة ، وسار به مع عشرين ألف مقاتل ليقدمهم هدية لابن سعود في تربة .

« وكان ابن سعود قد أرسل إليه يطلب التآخي والتصادق قبل المعركة فرفض سيادته ، وأبى إلا تقديم تلك الهدية بنفسه ، فصارت تلك المعركة الهائلة ، وفر سيادته ، وغنم ابن سعود تلك الذخائر والأموال والأسلحة ، وتقوّى بها حتى أنتجت تلك المساعى احتلال الحجاز .

« وآخر هدايا سيادته هي ابن رفادة وأوباشه الذين أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وإن ابن سعود يعترف بهذه الفضائل لسيادة عبد الله الشريف ، ويرجو من الله أن يكون ما يأتى به في المستقبل كما كان في الماضى ، وأن يديم بقاء سيادته لمثل هذه الهدايا والنتائج » .

وكل هذا يدل على أصالة البغض في نفس الامير الشريف عبد الله ضد ابن سعود ، وكان — حقا — ينتهز الفرص للإيقاع به والثورة عليه كما ذكر في رسالته لابن سعود التى حملها مدرس اللغة العربية بجامعة عليكره .

وكان السيد حسين الدباغ من أنصار الشريف عبد الله الثائر على ابن سعود ، وكان هناك غيره من الحجازيين ناقمين أشد النقمة على ابن سعود ، فأسس السيد حسين الدفاع حزبا أطلق عليه اسم « حزب الأحرار الحجازي » ومن أعضائه : السيد حسين الدباغ ، والسيد مسعود الدباغ ، والسيد علي الدباغ ، والعلامة الشيخ محمد أمين الشنقيطي ، والشريف شاكر بن زيد ، والشريف خالد من بني غالب ، والشيخ محمد الصادق ، والشيخ عبد الرءوف الصبان ، والسيد عبد الحميد الخطيب ، والشيخ الطيب الساسي ، والسيد محمد طاهر الدباغ ، وغيرهم .

وأسندت رئاسة الحزب للسيد محمد طاهر الدباغ لأنه كان سكرتير الحزب الوطني الحجازي الذي تألف بمكة إبان فتح الحجاز من قبل السعوديين ، وهو الذى تحدث إلى الملك الحسين في أمر نزوله عن العرش لابنه الشريف علي ، وكان أكبر الاعضاء سنا .

ولم يكن السيد طاهر الدباغ في الجزيرة العربية عند اختياره رئيسا لحزب الأحرار الحجازي ، بل كان في جاوا (أندنوسيا الآن) فأبرقوا إليه بالحضور ، فحضر إلى عدن واستقر به حيث وافاه السيد طاهر الدباغ ، وأسّس للحزب فرع في عدن ، وكان من أعضائه : الطيب الساسي ، وأحمد مجلد ، وعباس أبو النور ، وشقيقه أحمد أبو النور ، وعبد القادر باحميد ، ومحمد الفال وغيرهم .

وكان السيد حسين الدباغ المحرك الأعظم للحزب الذى أسسه ، وكان يحلم باستعادة عرش الحجاز من ابن سعود ، ويظهر أن الأوهام كانت تسيطر عليه ، فكان يظن أن الشعب الحجازي سينقلب على ابن سعود ، ولم يقدر هو ومن وراءه قوة ابن سعود وعبقريته الادارية والسياسية والحربية ، وجهلوا قدرته ودهاءه ، وظنوا في أنفسهم القدرة التى لا يملكونها ، فبنوا خططهم على الوهم .

وكثرت تحركات السيد حسين الدباغ ونشاطه ، فقد كان الزعيم المسئول عن الحركة وتفجير الثورة ، فقام بالسفر إل عدن ، وجزيرة قمران ، كما سافر إلى إلى اليمن وقابل الامام يحيي فلم يجد منه العون الذى رجاه ، ولكنه لقي من ولي عهده الأمير أحمد بن يحيي كل عون ، فقد أيد الثورة ضد ابن سعود ، ووعد بمسالمة الادارسة ومساعدتهم اذا ثاروا على ابن سعود .

ووفق السيد حسين الدباغ لما رجا من اليمن على يد الأمير أحمد ، كما وفق لاجتذاب بعض اليمنيين والانضمام إلى حركته .

وسافر السيد حسين الدباغ إلى عمان وقابل الأمير عبد الله الذى بارك خطاه ، وزوده ببعض المال من جيبه الخاص وبما تبرع به للحركة الخديوي عباس الذى كان منفيا في سويسرا .

والواقع ، أن جهودا ضخمة بذلت من أجل الثورة ، فقد سافر حامد باشا الوادى (ياور الأمير عبد الله) إلى لوزان ليتسلم من الخديوي عباس ما وعد من المال يدفعه للحركة ، ويشترى به أسلحة لها .

وسافر السيد حسين الدباغ إلى مصر حيث كان بها فرع الحزب الذى أسسه وانضم اليه الحجازيون الذين كانوا بالقاهرة وهم : عبد الرءوف الصبان ، وعبد الحميد الخطيب ، والسيد صالح الدباغ ، ومحمد عبد الله الصادق ، والسيد يوسف الزواوي ، وكانوا جميعا شعلة متقدة من الحماسة .

وكانت الحركة في حاجة إلى المزيد من المال ، ولم يكن لدى أحد من هؤلاء الاعضاء شيء من غير السيد عبد الحميد الخطيب الذى باع منزلين كان يملكهما في القاهرة ، ومول الحركة بثمنهما على أن يسترده بعد نجاحها ، وفي تلك الأثناء تسلموا خمسة وعشرين ألف جنيه ذهبا من الملك فيصل عاهل العراق .

وخيل لقائد الحركة السيد حسين الدباغ أن أوان الثورة قد حان ، ووجد في ابن رفادة طلبته ، فجعله مفجر الثورة التي خطط لها السيد الدباغ نفسه .

وكان المساعد الأول لحسين الدباغ شاب حجازي متحمس يدرس بالأزهر هو السيد يوسف ابن السيد علي الزواوي ، فوكل إليه ترحيل ابن رفادة من مصر إلى شمال الحجاز ، وغادر السيد الدباغ مصر إلى مصوع وبقي بها أياما ثم غادرها إلى عدن ، ومنها إلى لحج ، وكل هذه الرحلات من أجل إنجاح الثورة التي خطط لها .

وقبيل أن يغادر السيد حسين الدباغ القاهرة ترك بضعة عشر ألف جنيه تسلم لابن رفادة لاستمالة القبائل الحجازية واكتساب الأنصار وشراء المحاربين .

وأقام السيد حسين الدباغ في لحج لبعض أعمال تتعلق بالثورة المنتظرة تشتعل في شمال الحجاز يفجرها ابن رفادة ، وبالثورة المنتظرة في الجنوب يقوم بها الأدارسة ، وأعد السيد الدباغ من لحج « مذكرة » تفصح عن أعماله ونشاطه بعثها إلى الشريف شاكر بن زيد ، وهذا نصها :

« من لحج ، في **١٣ شوال ١٣٥٠ عدد ٩٦٤**

حضرة الشهم الغيور النبيل سمو الأمير شاكر بن زيد رئيس دائرة العشائر بشرق الأردن ، دام مجده

بعد التحية :

كتبت إليكم من مصر ، ثم وصلت « مُصوّع » فوجدت الأمر كما يجب ، وقد اعتمدنا « اللحَيَّة » مركزا للحركة ، ولا بد أنكم تعلمون قبائلها المتأججة الذين يزيد عددهم على ستة آلاف : ثلاثة آلاف مسلح ، وفخوذهم : « البقعة » و « المحنشة » و « الحزبة » وبين الشيخ للفخذ الثالث وبين رجال المع مصاهرة

وحلف ، وسيصل إلى مصوع لحمل التعليمات اللازمة ، والمقصود أن البوادر تدل على النجاح إن شاء الله .

وقد أرسلنا ثلاثة رسل مهمين جدا ، واحد لقبائل الساحل ، والثانى لقبائل الجنوب الحجازي ، والثالث لعسير ، وسيسافر إلى المسارحة والأدارسة أحد رجال الحزب المهمين ، وفيما تجدونه في كتاب سكرتير الهيئة لحزب الأحرار الحجازي بعمان التفاصيل اللازمة .

ونحن قد شرعنا في الأمر ، والنتيجة أكثر مما كنا نتصور ، ولكن الدفعة التى اتفقنا على تحويلها برقيا لم تصل .

وقد كتبنا إلى حامد باشا في لوزان والسكرتير لديكم برقية بالنتيجة التى رأيناها حسب الاصطلاح الذى اتفقنا عليه ، ومضت الأيام ولم نتناول شيئا ، ونحن مكتّفون متعطلون جدا ، أرجوكم أن تحذّروا حامد باشا من الاهمال ، وليتدرع بالحزم والهمة .

وأرجوكم ملاحظة الكتاب الأخير المرسل لكم من هنا وملاحظة تنفيذه بالدقة المتناهية إذا كنا نريد الانتظام في الأعمال ، وحركة الشمال يجب أن تكون بعد حركة الجنوب فورا ، فدبروها وهيئوها لنوفق في ذلك ، واذا ابتدأت تبرقون لنا بالعنوان المعروف (الشرّى) والامضاء (سعيد) .

هذا وقد اختار فرع الجنوب هناك أن نكتب إلى الشريف شرف ليحضر إلى « عدن » لحضور المؤتمر الوطني الخطير بلهجة سوف لا تدعه يتأخر ، وتجعله يسرع للحضور ، وأفهمناه بطريقة سرية التى يسافر باسمها ويصلنا ، وسنسحب يوم وصول الكتاب تحويلا له بخمسة عشر ألف أو عشرين ألف جنيه ، وعند وصوله نفهمه باللازم ، وندعوه لمرافقة الحركة .

هذا رأي فرع الحزب هنا ، وعلى كل سيصلنا أمر اللجنة المركزية باللازم

عن هذا الشأن ، الرجاء أن تقبلوا الأمر كما يتعلق بالجزم والنجاح والسرعة والكتمان اللازم .

التوقيع
محمد حسين الدباغ

وهذه الرسالة التى وقعت في يد ابن سعود أفصحت عن اشتراك الأمير عبد الله ابن الحسين في هذه المؤامرة التى أريد منها إشعال نار الفتنة في الجنوب — أولا — ثم في شمال الحجاز — ثانيا — .

ولكن الرسالة لم تقع مسودتها بيد ابن سعود الا بعد الثورة في الشمال والجنوب ، وهي لا تدع مجالا للشك في اشتراك الأمير عبد الله بن الحسين في المؤامرة وتمويلها .

ويشاء الله أن تسبق حركةُ الشمال حركةَ الجنوب فتقوم ثورة ابن رفادة التى تنتهى بقتله وقتل كل من معه على الصورة التى مر ذكرها في أول هذا الفصل ، وتبقى حركة الجنوب ليقوم الادريسي بثورته التى تلحق سابقتها في الاخفاق .

الإدريسي يثور

أول من عرف من الادارسة حكاما في هذه المنطقة من جنوب الحجاز وشمال اليمن هو السيد محمد بن علي بن إدريس ، وقد ولد في « صبيا » سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) وطلب العلم وأخلص في طلبه ، واستظهر القرآن الكريم كله ، وصار من نوابغ الشباب الصالحين العلماء ، وتطلع للحصول على المزيد من العلم والثقافة فسافر إلى مصر ، ودخل الجامع الأزهر ، وصار من أئمة العلم في الدين والعربية والاصول والتفسير والفقه والتاريخ .

وعاد إلى وطنه عالما داعية يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فالتف به العلماء وطلبة العلم والعامة وقدروه حق قدره ، وصار له نفوذ عظيم وشهرة واسعة انتهيا به إلى مبايعته إماما حاكما .

وقد أشرنا في فصل سابق من هذا الكتاب إلى المعاهدة التي تمت بينه وبين الانجليز في الحرب الكبرى الاولى ، وإلى أنه كان أول حاكم عربي يعلن الحرب على الترك .

وكانت علاقة السيد محمد الادريسي بابن سعود حسنة ، وكان يجله ويقدره ، ويسمع له ، فبعد أن استولى ابن سعود على عسير وقضى على حكم آل عائض علم ابن سعود ان بإمارة الادريسي بدعا ومنكرات يقضي شرع الله بإزالتها ، وبعث إليه وفدا سعوديا ينقل إليه رغبة ابن سعود في ازالة البدع .

وكان على قبر جد الادريسي قبة يتّردد عليها الناس للزيارة والتبرك ، وكانت تجرى بين يديها منكرات فأمر ابن سعود بهدمها وهدم كل القباب القائمة على القبور .

وكان نسوة البوادى يغشين الأسواق ، وفي ذلك من المفسدة ما يجب على المسلم إنكاره وتغييره .

وعرض الوفد على السيد الإدريسي ما يرغب فيه ابن سعود ، فرحب به ، ونفذ كل ما أمر به .

وكان الادريسي معجبا بابن سعود حتى أنه سمى ولدا له « عبد العزيز » تيمنا باسم ابن سعود وذلك سنة ١٣٣٨ بل دفعته ثقته به إلى أن يوصيه بأولاده وأسرته خيرا بعد مماته ، وقال له في رسالة منه اليه :

« إنى أجلت النظر في أنحاء أرجاء الجزيرة فلم أجد أهلا للثقة ورعاية عهود الإخاء سواكم ، واعلموا أن ابن آدم رهن المنون ، فاذا توفاني الله فأنتم المقلدين بالوصاية على عائلتى وأهل بيتى » .

وعندما حدث خلاف بين خلف السيد محمد الادريسي وابن سعود أشار إلى تلك الوصاية التى رعاها حق رعايتها .

وإذا كان السيد محمد الادريسي حريصا على صداقة ابن سعود ووفيا له فإن ابن سعود كان مثل الادريسي في الوفاء والحرص ، ولم يقع بينهما الا كل

ما يزيد صلاتهما توكيدا ، وربطت بينهما — رسميا — اتفاقية معقودة في ١٠ صفر سنة ١٣٣٩ .

وكان حلم ابن سعود يسع الخاطئين ، ولا يسخطه إلى حد الحقد مطامع الطامعين ، فالسيد محمد بن علي الادريسي طمع في حكم ما كان تحت يد آل عائض بعد انتقاله إلى يد ابن سعود ، ولم يرد تحقيق مطمعه بالثورة والسلاح ، لأنه يعلم أنه عاجز أمام ابن سعود ، فكتب اليه رسالة يرجوه فيها أن ينزل له عن إمارة آل عائض .

ومن العجيب أن يطلب الادريسي هذا الطلب مع علمه الواسع ودهائه وصحو ملكاته ومداركه ، ولكن الطمع أركبه هذا المركب الساذج ، فآل عائض الذين فقدوا إمارتهم كتبوا للادريسي يعتذرون عما كان بينهم وبينه من جفاء ، ويرجونه أن يبذل مساعيه لدى ابن سعود ليردهم إلى إمارتهم في عسير ، ويتعهدون للادريسي أن يكونوا تحت إمرته وحكمه ، فطمع في عسير ، وكتب إلى ابن سعود ، فاذا هو يتلقى منه هذه الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود إلى جناب الأجل الأمجد الأفخم حضرة الأخ السيد محمد بن علي الادريسي .

بعد ، أهدى مزيد السلام ورحمة الله وبركاته

قد وردنا كتابكم المؤرخ غرة الحجة عام ١٣٤٠ هـ فأخذناه بيد التكريم ، وتلوناه مسرورين بدوام صحتكم ، غير أنا فهمنا من فحواه ومنطوقه بعض الأماني الخيالية التى لا نؤملها من مثلكم ، كنزع أيدينا عن بعض أملاكنا التى ورثناها عن آبائنا ، ومؤكدة بالعقود والمواثيق المقررة بالأيمان والعهود مع جنابكم برابطة

الصداقة المبنية على تقوية هذه الكلمة المطهرة حسبما اعتقدناه في حسن نوايا كم ومحبتكم لذلك ودعواكم لقبوله كما تشهد به التحريرات الكائنة بأيدينا وأيديكم ، ولم يخطر ببالنا أن يتخيل عندكم عكس ذلك ، فضلا عن تصوره لا ظاهرا ولا باطنا .

اللهم الا قد كان استفزكم ما أحدثه هؤلاء الأشقياء من عسير ، ومحركيهم بقول أو فعل أو رضا ، كما لا نعده لدينا الا استحكام عقوبة عليهم ، وإظهار لما في بواطن كل منافق كما هي عادة الحوادث في كشفها الغطاء ، وترجمتها عما في قلب العدو أو الصديق كما قيل :

جزى الله النوائب كل خــير   وإن كانت تغصّصــني بريقى
وما شكرى لها حبــا ولكــن   عرفت بها عدوى من صديقى

ثم تعود الحال على ما كتبه الله من كونه مع جنده كما قال تعالى : ﴿وإنّ جندنا لهم الغالبون﴾ .

ولا شك أن جندهم القائمون بأمره ، ومع هذا الاحتمال يلزمنا شرعا صرفه إلى ما هو أحسن عملا بقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا تحمل كلمة تخرج من أخيك على سوء وأنت تجد لها محمل خير ومحبة » رجا بذلك المصلحة العامة .

ولم نشك أن الأمر سوء تفاهم فقط ، ليس لاختلاف فيه ، ولكن أخى ــ حفظك الله ــ الواجب على حضرتكم مراعاة الحقوق والثبات على الاتفاق والمعاهدة ، وعدم التغير في الأوقات الحرجة ، لأن الأحوال غير مأمونة ، ودائما الأسباب تظهر على غير ما يؤملوه الناس كما جرى بالأمس على أهالى عسير الطائفة الخارجة عن الطاعة صاروا سببا لهلاكهم ، وخرابا على محركيهم والمشوقين لهم لذلك .

فلأن أبين لحضرتكم أننا ما نأخذ الصاحب على أول زلة ، بل إن شاء الله مستقيمون على ما سبق بيننا وبينكم ، اللهم إلا أن يكون وضع على غير فكرنا أو عرض غير عرضنا فبينوا لنا ذلك، والخير في الواقع ، فإن كان الأمر باق على موجب رأينا فكن واثقا بالله أننا لا نجعل الأمر الفائت على البال ، بل أجريناه على مجرى حسن ، ورجونا أن الماضي معلم المستقبل ، فلا توهم ما أشرنا إليه من العبارات المؤدية بالعتاب زيادة ولا نقصان كما قيل ، ويبقى الود ما بقي العتاب .

ولا بد من مراجعة بينكم وبين الابن فيصل ، ونحن عرفناه بما فيه الكفاية ، هذا ما لزم تعريفه ، والسلام على الأولاد الكرام ، ومنا الأولاد يسلمون عليكم ، ودمتم محروسين ، في ٢٥ صفر ١٣٤١ (الختم)

عبد العزيز السعود

وانصرف السيد الادريسي عن مطامعه ، وبقي على اخلاصه ومودته ، حتى توفي في يوم السبت ٦ شعبان ١٣٤١ هـ وانتقل الأمر إلى ابنه السيد علي الادريسي ، ولم يحدث بينه وبين ابن سعود ما يعكر الصفو ، وانما حدث التعكير ابن من الادارسة أنفسهم ، ولكن على السيد علي الادريسي وليس على ابن سعود .

ولم يكن السيد علي مثل أبيه في الخلائق والصفات ، فقد كان شابا حدثا لا يحسن السياسة ، وكان ضعيفا فاتر العزم ، وطمع فيه الإمام يحيى عاهل اليمن فاحتل « الحديدة » ثم « ميدى » .

وشجع ضعف علي الادريسي السيد مصطفى الادريسي فنشبت حروب بينهما انتهت بهزيمة مصطفى .

واجتمع الادارسة برئاسة السيد الحسن بن علي الادريسي شقيق المؤسس السيد محمد بن علي الادريسي وعم الأمير السيد علي بن محمد بن علي الادريسي

وخلعوا السيد عليا ، وتولى الحسن الحكم ، فلجأ السيد علي الادريسي إلى ابن سعود وأقام في رعايته وكنفه معززا مكرما .

ولم يستطع السيد الحسن الإدريسي من الاحتفاظ بما تحت يده ، واستمرا الامام يحيى ملك اليمن في مطامعه ، فإذا كان قد انتزع الحديدة وميدى في عهد السيد علي فقد انتزع في عهد الحسن جبل « منبه » وخرج عن أيدى الادارسة نصف ما كان تحت أيديهم ، ولم تنته المطامع فيما بقي لديهم ، وهناك إيطاليا طامعة في بعض أراضى الادارسة لتكون لها مستعمرة تقابل مستعمرتها في الجانب الآخر من البحر الأحمر ، فيكون الطريق بينهما أشبه ببوغاز أو ممر مائي يقع بين أرضين تحت السيطرة الايطالية ليسع ايطاليا تهديد طريق بريطانيا من مصر إلى عدن فالهند اذا دعت الضرورة .

واضطر الحسن الادريسي صعفه إلى الاتفاق مع الانجليز فمنحهم امتيازا باستخراج الزيت من جزيرة « فرسان » بشروط مجحفة على البلاد ، وظن أن هذه الاتفاقية الجائرة ستحمى إمارته ، ولكن شيئا مما ظنه لم يقع .

وبينا السيد الادريسي في حيرته وقلقه واضطرابه قدم إليه السيد أحمد الشريف السنوسي زائرا ففرح بمقدمه ، وبثه حزنه وشكواه ، وعرض عليه واقعه ، واستشاره فيما يجب أن يعمل للتخلص مما هو فيه ، فأشار عليه بألا ملجأ له بعد الله الا ابن سعود ، ونصح له بأن يربط نفسه به في معاهدة صداقة وحماية ، فوكل إليه هذه المهمة ما دام صاحب الرأي ، فقبل وأدى المهمة على الوجه المنشود ، وأثمرت هذه المعاهدة التي سميت معاهدة مكة المكرمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده

بين ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها وبين الإمام السيد الحسن بن علي لادريسي .

« رغبة في توحيد الكلمة ، وحفظا لكيان البلاد العربية ، وتقوية للرابطة بين أمراء جزيرة العرب قد اتفق صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود وصاحب السيادة إمام عسير السيد الحسن بن علي الادريسي على عقد المعاهدة الآتية :

المادة الأولى — يعترف سيادة الامام الحسن بن علي الادريسي بأن الحدود القديمة الموضحة في اتفاقية ١٠ صفر عام ١٣٣٩ المنعقدة بين سلطان نجد وبين الامام السيد محمد بن علي الادريسي ، والتي كانت خاضعة للإدارسة في ذلك التاريخ هي تحت سيادة جلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بموجب هذه المعاهدة .

المادة الثانية — لا يجوز لامام عسير أن يدخل في مفاوضات سياسية مع أي حكومة ، وكذا لا يجوز أن يمنح أي امتياز اقتصادي إلا بعد الموافقة على ذلك من صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها .

المادة الثالثة — لا يجوز لإمام عسير إشهار الحرب وإبرام الصلح الا بموافقة صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها .

المادة الرابعة — لا يجوز لإمام عسير التنازل عن جزء من أراضي عسير المبينة في المادة الاولى .

المادة الخامسة — يعترف ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بحاكمية إمام عسير الحالي على الأراضي المبينة في المادة الأولى مدة حياته ومن بعده لمن يتفق عليه الادارسة وأهل الحل والعقد التابعين لإمامته .

المادة السادسة — يعترف ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بأن إدارة بلاد عسير الداخلية والنظر في شؤون عشائرها من نصب وعزل وغير ذلك من

الشؤون الداخلية من حقوق امام عسير على أن تكون الأحكام وفق الشرع والعدل كما هي في الحكومتين .

المادة السابعة — يتعهد ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بدفع كل تعدٍّ داخلي أو خارجي على أراضي عسير المبينة في المادة الأولى وذلك بالاتفاق بين الطرفين حسب مقتضيات الأحوال ودواعي المصلحة .

المادة الثامنة — يتعهد الطرفان بالمحافظة على هذه المعاهدة والقيام بواجبها .

المادة التاسعة — تكون هذه المعاهدة معمولا بها بعد التصديق عليها من الطرفين الساميين .

المادة العاشرة — دونت هذه المعاهدة باللغة العربية في صورتين ، تحفظ كل صورة لدى فريق من الحكومتين المتعاقدتين .

المادة الحادية عشرة — تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة مكة المكرمة .

وقعت هذه المعاهدة في تاريخ ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٤٥ ﻫ الموافق ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٦ م .

ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها	إمام عسير
(الختم)	(ختم)
عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود	الحسن بن علي الإدريسي

تم ذلك بحضور راقم هذه الأحرف

خادم الإسلام

(ختم)

أحمد الشريف السنوسي

وكان أول عمل لابن سعود مفاوضة بريطانيا في شأن الامتياز حتى استطاع الغاءه ، ثم بعث بعض رجاله يعينون الحسن في ادارة البلاد ، غير أنه شعر بالعجز وتأخرت البلاد وعصت الرعية حتى اضطر في ١٧ جمادى الاولى سنة ١٣٤٩ هـ إلى أن يقول لابن سعود في برقية بعثها اليه : « تقرر بموافقتنا ورضانا اسناد ادارة بلادنا وماليتنا إلى عهدة جلالتكم » وقبل ابن سعود التنازل بموجب الامر الملكي الصادر في ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٩ هـ .

وبذلك انتهى أمر الادريسي وحكومته ، ولكن ابن سعود لم ير اعتزاله الحكم متفقا مع كرامة الاسرة الادريسية فجعل له مقاما ممتازا في بلاده ، وجعل أمراءه السعوديين تحت سيادة الحسن صونا لكرامته واعلاء لشأنه ، وأخذ يعطيه سنويا ٢٠٠ ألف إلى ٢٥٠ ألف ريال كنفقات ادارة عسير .

واستقرت عسير بفضل الله ثم بفضل إدارة ابن سعود ونيته الحسنة ، ونعمت بعهد من الرخاء والاستقرار لم تره فيما مضى ، وامتلأت خزانة السيد الادريسي بالمال الذى اجتمع من هبات ابن سعود الخاصة له ومن رواتبه ومخصصاته الضخمة .

وبينا السيد الادريسي ينعم بالراحة والهدوء والاستقرار والنعم التى لا تحصى كانت دسائس خصوم ابن سعود تغمر عسير ، وقد ذكرنا في الفصل السابق المقصور على « ثورة ابن رفادة » تأسيس فروع « حزب الأحرار الحجازي » من قبل السيد حسين الدباغ الذى كان يعمل لحساب الأمير عبد الله بن الحسين حاكم شرق الأردن .

واستطاع السيد الدباغ بدهائه وشخصيته القوية الجذابة أن يؤثر في السيد الحسن الإدريسي ، ويدفعه إلى النقمة على ابن سعود ثم الثورة عليه ، واتفق معه على أن يقوم بالثورة في موعد يسبق ثورة الشمال التى أعد لها عدتها .

لم يرض السيد الحسن الادريسي ما نعم به هو وبلاده من استقرار وهدوء وسلم ورخاء فاغتر بدسائس أعداء ابن سعود الذين اتصلوا به ، وأخذ يعمل في الخفاء ليوم الثورة المنتظر ، واشترى الأسلحة سرا ، وقبل أن يستكمل عدته حدث في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٥١ نزاع داخلي بينه وبين فهد بن زعير أمير مقاطعة الإدريسي من قبل ابن سعود حمل الحسن إلى أن يرفع شكواه إلى الملك في أوائل شهر رجب سنة ١٣٥١ ، ولم ينتظر جواب الشكوى ، بل اعتقل ابن زعير ومن معه من رجال ابن سعود .

واعتقال أمير المقاطعة السعودي ورجاله يدل على أن الهيئة السعودية الحاكمة كانت من أفراد معدودين على رأسهم الأمير ابن زعير ، وقلة العدد تدل على أن ابن سعود جعل السيطرة والنفوذ للسيد الادريسي ، ولم تكن الهيئة السعودية إلا رمزا للسيادة السعودية ، ولم يرد ابن سعود تجريد السيد الادريسي من نفوذه مع نزوله عن الحكم نزولا تاما ، بل تركه له ، وضبط له الأمور وجعلها في يديه وحده ، وزوده بالمال والسلاح ، ليعطي الحكم حقه ، فأخذته العزة بالأثم وغدر ولي النعمة عليه .

وقبيل هذا الغدر وما سيتبعه علم ابن سعود في شهر شوال سنة ١٣٥٠ أن نشاطا واسع النطاق يقوم به أعداؤه في الشمال والجنوب ، وأن مدينة « صبيا » مركز هذا النشاط الذى قرر أصحابه القيام بثورتين فى وقت واحد أو متقارب متى استوفوا أسبابه ، وقرروا أن تقوم الثورة الأولى في الجنوب ، ثم تقوم الأخرى فى الشمال ، وكانوا يظنون أن الحجازيين سيثورون على ابن سعود عند قيام الثورتين فيسقطون حكمه في المنطقة الغربية كلها فلا يبقى بيده غير نجد والأحساء.

وكان السيد الادريسي على صلة وثيقة بأعضاء فرع حزب الأحرار الحجازي ، وكان مندوبوه يتصلون بهؤلاء الاعضاء فى صبيا .

وتعجل السيد الادريسي الأمور فأعان باعتقال ابن زعير ومن معه موقفه

العدائي السافر ضد ابن سعود ، ومع هذا أرسل إليه برقية في يوم ١٢ رجب سنة ١٣٥١ يؤكد له فيها ولاءه واخلاصه وطاعته ، ويلح عليه أن يوفد أميرا جديدا غير ابن زعير .

فأجابه ابن سعود بأنه أوفد هيئة للتحقيق تنظر في شكواه ومحاكمة ابن زعير ، وتحديد الادانة بعد الاستيثاق من الحجة ثم مجازاته ، فوافق الحسن وأبدى رضاه عن كل ما تقرره الهيئة .

وقبل أن نسير في البحث ننقل بعض أقوال ابن‌سعود نفسه فيما يتصل ببحثنا هذا حتى يقف القارىء على حقيقة الصلة بينه وبين الادارسة ، قال ابن سعود :

« جرت صداقة بيننا وبين محمد الادريسي ، وعندما مرض أوصاني بآله وأولاده ، ولما توفي تولى ابنه علي وكان الخلاف بينه وبين عمه الحسن فتولى الحسن وأصلحت بينهما ووضعت نظرى على الحسن بناء على طلبه وطلب أهل عسير ، وأبقيت عليا عندى .

« وبعد خمس سنوات تقريبا أرسل إلي الحسن يخبرني بعجزه عن ادارة البلاد وتأمينها ، وتنازل لى عن البلاد فقبلت ذلك منه ، ولكنى أبقيته على مقامه وامارته وتحملنا في سبيل وفائنا بعهد الادريسي مشاق ومصاعب كثيرة ، وخسرنا أموالا طائلة ، وكنت أنفق على تلك المقاطعة فوق وارداتها ٢٠٠ ألف إلى ٢٥٠ ألف ريال في السنة تقريبا ، وعاملنا الادريسي بكل معاملة حسنة ، ثم لم أشعر إلا ووصل إلي أن الادريسي هجم على رجالى الذين هم عنده في جيزان وحاصرها ، فأرسلت سرية قليلة تتألف من ٤٠٠ جندي في السيارات و ٢٠٠ في زورق من الزوارق البخارية ، وساروا لفك الحصار عن رجالى ، ولكن أثناء طريقهم إلى جيزان كان الادريسي تغلب على رجالنا فيها وأبرق لى يتملق بعد ذلك ، فأبرقت اليه أن كان صادقا في دعواه فيمكنه أن يراجع أمير السرية التى أرسلتها ، وأبرقت إلى أمير السرية المتقدم بألا يحدث حربا مع الادريسي .

ولكن أراد الله أن يبطل كيد الكائدين فحدثت تأثيرات جوية لم يتمكن اللاسلكي من أخذ برقيتنا فلم تصل الادريسي ، ولكن الادريسي كان عازما على الغدر فأرسل القوى لتخريب طريق السيارات ومقاومة السرية القادمة ، فلم يصل أمرنا للسرية بالتوقف وتقدمت فاحتلت جيزان » .

نعم ، كان اللاسلكي الذى حالت الاحوال الجوية — لحسن حظ ابن سعود — دون التقاط برقيته خير معين ، فهو قد أمر رئيس السرية بالوقوف وعدم التقدم والحرب ، ولو تسلم الأمر لما استطاع أن يعصي أمر مليكه ولوقف ، ولكان للادريسي فرصة يسعه فيها أن يبعثر نار الفتنة في كل مكان ؟ فيصعب الاخماد حينئذ .

وصنيع ابن سعود فريد لا مثال له في التاريخ الا قليلا ، فقد أخبر من عيونه الامناء أن مثيرى فتنة ابن رفادة كانوا على صلة تامة بالادريسي ، بل تردد عليه بعضهم ، وبالرغم من كل ذلك تغلبت على ابن سعود طيبته وسلامته فلم يرد أن يأذن الثائر الجديد بحرب ، وكل ما صنع لاستدراك ما قد يحدث هو أمره هيئة التحقيق والقوة التى تصحبها باتخاذ التدابير والاجراءات الضرورية اذا أخفقت المساعى السلمية .

ولما وصلت الهيئة إلى القحمة والشقيق أيقنت بعصيان الادريسي وخيانته وثورته ، وأيقنت أن تظاهره بالخضوع والولاء لابن سعود لم يكن الا خداعا وتخديرا للاعصاب واكتسابا للوقت وانتظارا للمساعدات الموعود بها ، الا أنه رأى أن أمره قد اكتشف بعد أن احتل جيزان فهرب منها إلى صبيا وأمر أتباعه بتخريب طريق السيارات ، الا أن القوة السعودية دخلت جيزان في ١٨ رجب سنة ١٣٥١ هـ ثم تجمعت القوات السعودية وزحفت إلى الامام حتى استولت على صبيا ففر إلى الجنوب .

وخشي ابن سعود أن يكون خلف الادريسي أحد من الملوك يعينه ويركزه

فاستعد للحرب ، ولكنه أذاع بأنه معط الامان للادريسي ومن معه من الثوار والقبائل اذا أخلدوا للسكينة ، وأمهلهم ستة أيام ، والا فليأذنوا بحرب لا قبل لهم بها ، وبعث قوة عظيمة مع عبد العزيز بن مساعد بن جلوى وجعله الحاكم العام على عسير والقائد الاعلى للجيوش السعودية في مقاطعة عسير ، وأخرى مع خالد ابن لؤى ، ولكنه توفي في الطريق بمرض ألم به فأسندت أعماله إلى ابنه الاكبر سعد بن خالد .

وأخذت القوات السعودية بقيادة سعد تطارد الادريسي فاحتلت المضايا وتعشر وأبا عريش ، ومضى الادريسي إلى قبيلة المسارحة وبنى شبيل ثم الفارضة فطورد فاعتصم بقرية أبى حجر — وتبعد عن أبى عريش ثماني ساعات — وعلمت القوات السعودية بوجود عبد الوهاب الادريسي — أحد الثائرين — في وادى المحصم فزحفت اليه في ١٥ رمضان سنة ١٣٥١ هـ وأحاطت برجاله وقوته وأبادتهم ما عدا ستة من الفرسان تمكنوا من الفرار إلى عين دابى في سفح جبال فيفا فتبعتهم ولكنهم نجوا .

وصدر الامر إلى ابن مساعد أن يتعقب العصاة ويخمد الثورة ، فغادر أبها تاركا فيها نائبا له ، وسمع أن قوة ادريسية في « بلحارث » أخذت تتضخم ، فبادرها وأبادها ، وأخذ ابن مساعد يطارد الادريسي ويضيق عليه الخناق ويبيد رجاله وقواته ويرهقه بالمفاجآت ويثخنه جراحا حتى كان على الحدود ، ولكن ابن مساعد لم يمهله لحظات وطارده فاجتازها إلى الأراضي اليمنية ومعه عبد الوهاب الادريسي وأتباعه وأهله ، فطلب ابن سعود من الامام يحيى تسليم الفارين اليه انفاذا للمعاهدة القاضية بذلك ، فرجاه أن يعفو عنهم وبخاصة عن الحسن ، فأجابه بأنه عفا عن كل من طلب الامام العفو عنهم اذا عادوا إلى البلاد في الوقت الحاضر .

وأبرق الامام إلى الملك يخبره بوصول الحسن الادريسي وأهل بيته وحاشيته إلى ميدى ، ويرجو أن يعلن امراءه السعوديين بأنه عفا عن هؤلاء الثوار عفو

عاما شاملا مطلقا عن كل ما حدث في هذه الفتنة الشيطانية سواء أكان بين الحكومة والادارسة أم بينهم وبين الرعية ، فأجاب ابن سعود بأن كل من التجأ اليه فله أمان الله على ماله ودمه ، وأنه قد عفا عنه عفوا شاملا مطلقا من جميع ما مضى وحدث في هذه الفتنة .

فشكره الامام وأجابه بأنه أمر عماله بارسال من كان عندهم من اللاجئين بسرعة ، وطرد كل من تأخر ، غير أنه يرجو أن يتكرم بكتابة عفوه الشامل عن الحسن ليزيد في اطمئنانه ، فأجابه ابن سعود وكتب اليه بأنه يمنح أمان الله وعهده للحسن ومن تبعه على دمه وماله وشرفه وأن كل ما فات لن يعاتب فيه وسيكون – أي الحسن – أخا عزيزا عليه ، الا أن الامام كتب إلى ابن سعود يرجوه أن يأذن للحسن بأن يكون حرا في اختيار محل الاقامة أنى شاء ، فلم يخيب ابن سعود رجاءه بعد أن تعهد الامام بحسن سلوك السيد الحسن ، وبأنه سيكون تحت عهدته ونظره .

ثم كتب الامام إلى ابن سعود يذكر له صلاته الودية مع أسرة الادريسي ويشرح له بؤسها وحاجتها ، ويرجوه أن يخصص مبلغاً يستعين به على أمور دنياه ، فقدر له ابن سعود مبلغ ٢٥٠٠ ريال في الشهر .

ثم كتب الامام أيضا إلى ابن سعود يخبره بأن السيد عبد الوهاب الادريسي سيعود اليه مع كل الفارين ، ولن يبقى مع السيد الحسن الا أسرته ، فأجابه ابن سعود بأنه ينظر إليه – أي إلى الامام – نظرته إلى أخ كريم ، فليعمل ما يريد.

الجزء السادس

- ابن سعود والإمام
- الاعتداء على ابن سعود
- في الحرب الكبرى الثانية
- اجتماع رضوى التاريخي
- الجامعة العربية
- مع روزفلت
- على ضفاف النيل
- مع تشرشل
- في ضيافة الفاروق
- ابن سعود وقضية فلسطين

ابن سعود والإمام

كان لدعوة الامام محمد بن عبد الوهاب التى حملها آل سعود ودافعوا عنها ونشروها في جزيرة العرب نفوذ في اليمن وأتباع ، واختلف على اليمن حكام لم تصل ببعضهم مناوأة الدعوة إلى تجريد السيف ، ولما آل الحكم إلى الامام يحيي حميد الدين كان شديد الهلع من شيوع نفوذ المذهب الوهابي الذى شمل الجزيرة بعد استيلاء ابن سعود على نجد شمالها وجنوبها ، وعلى الأحساء ، والحجاز ، وعسير ، ونجران .

ولم يفت الامام يحيي أن الحكم السعودي يقوم على المذهب الوهابي الذى يراه الإمام وكثير من الحكام والعلماء وأرباب المذاهب خطرا على أنفسهم ونفوذهم ، ويرونه مذهبا باطلا في عمومه ، فتقولوا عليه واتهموه بالخروج على الاسلام ، مع أنه في حقيقته الاسلام الحق المجرد من البدع والخرافات والوثنيات التى دخلته حتى أخفت جوهره النفيس .

والصراع في حقيقته بين الامام وابن سعود مذهبي وعقائدي وإن اتخذ الصبغة السياسية التى غلبت عليه ، فابن سعود قد انتشر نفوذه وسلطانه ، واتسعت رقعة ملكه ، وهذا الاتساع يهدد ممالك غيره من الحكام ، ومنهم يحيي حميد

الدين إمام اليمن ، فحري به أن يستعد للنفوذ السعودي الوهابي ، ويقضي عليه الاستعداد أن يوسع هو نفسه رقعة ملكه ، فانتهز فرصة ضعف الادارسة الحاكمين في عسير واختلافهم فيما بينهم فاقتطع مدنا وقرى وأجزاء من أراضيهم، ولم يشتبك مع ابن سعود في حرب أو خلاف يجر إلى حرب ، لأنه بطبيعته ميال إلى السلم ، ولأنه يتخذ الحرب بعد ختام السلم .

وحين أخذ الإمام يحتل الأراضي الإدريسية كان ابن سعود وصيا على الحكم الادريسي ، ثم كان صاحب الحق الأوحد ، لأن الحاكم الادريسي نزل له عن الحكم كله .

ومع هذا لم يتخذ ابن سعود الحرب وسيلة لحماية الأراضى الإدريسية التى أصبحت أراضى سعودية مثلها مثل أراضى نجد والاحساء والحجاز ، وآثر السلم رجاء أن تحل المفاوضات السلمية المشاكل التى أوجدها الإمام يحيي بأطماعه التوسعية .

ولا شك أن الحديدة واللحية وميدى وغيرها من المدن والقرى والأراضى التابعة لها هي من صميم اقليم الادريسي ، واحتلها الإمام بغير حق ، ولم يكتف بذلك بل استمر في انتزاع أراضى الادريسي الذى دخل في الحماية السعودية بموجب معاهدة مكة المكرمة التى انعقدت بين ابن سعود والحسن الادريسي في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٤٥ (٢١ اكتوبر سنة ١٩٢٦) .

ورأى ابن سعود أن الامام أسرف في انتزاع ما هو حق الادريسي فأعلمه بهذه المعاهدة ، وبعث إليه بصورة منها ، وطلب إليه الكف عن الزحف ، ورجا أن يرعاها ، لأن العدوان على أراضى عسير لم يعد عدوانا على الادريسي ، بل هو عدوان على ابن سعود .

وتجاهل الإمام المعاهدة ، ولم يرد على ابن سعود ، وان كان الخوف منه

منعه من الاستمرار في العدوان ، وتريث ليفكر فيما يجب أن يتخذ من خطط ، فهو غير راض عن دخول الإدريسي في الحماية السعودية ، وزاد من ضيق الإمام وسخطه أن الإدارة الإدريسية لم يصبح لها وجود بعد حلول الإدارة السعودية ، لأن الادريسي قد نزل عن السلطة لابن سعود نزولا تاما ، وانتقلت كل مقاليد السلطة والحكم والادارة إلى يد ابن سعود .

وسبب سخط الإمام أنه يعد كل ما كان في جنوب الحجاز أرضا يمنية هو صاحبها الشرعي الذى يجب ألا ينازع في حقه ، وهذا فهم خاطىء لا يعزب عن الإمام ، ولكن طمعه في التوسع يحمله عليه .

ومن المصطلحات والمفاهيم الشائعة أن شمال الحجاز يسمى شاما ، وجنوبه يسمى يمنا وهو من صميم أرض الحجاز ، وفي وسع الامام أن يعتبر كل ما كان جنوب مكة المكرمة حرسها الله يمنا ، وأهل مكة يؤيدونه ، لأنهم يذكرون ذلك فى حجج منازلهم وأراضيهم التى يملكونها .

وتشبث الامام بهذا المفهوم الخاطىء لا يدل على سذاجته ، فما كان قط ساذجا ، بل هو عالم وداهية ، إلا أن مطامعه تدفعه إلى التشبث بذلك المفهوم .

ولم يعد في طوقته أن ينفذ مطامعه في عسير التى دخلت في ممتلكات ابن سعود الا اذا أراد أن يقامر بمملكته المتوكلية ، وهو لا يجهل قوة ابن سعود التى يملك طاقة بشرية هائلة وقوة حربية ضارية لا يملكها حاكم عربي على الإطلاق .

ومع كل ذلك لم يرد ابن سعود أن يكون بينه وبين جاره الإمام يحيى خلاف قد يؤدى إلى عواقب وخيمة ، فأراد أن تربطهما الأخوة الصحيحة ، وكتب إليه يرجوه أن يوافق على ما فيه صلاحهما وصلاح مملكتيهما ، وبنى كتابه على المطالب الآتية :

أولا — تحديد الحدود .

ثانيا — إقامة علاقات سياسية .

ثالثا — عقد معاهدة صداقة وحسن جوار .

رابعا — عقد معاهدة دفاع مشترك .

وكل هذه المطالب عادلة ونافعة للجانبين ، وبخاصة المطلب الرابع ، لأن طماع بعض الدول الغربية في الجزيرة العربية واضحة ، وها هو ذا النفوذ الايطالي قد تسلل إلى اليمن ، وفي ذلك تهديد للحجاز ولأقطار جزيرة العرب ، والحق ، ألا يسمى تسللا ، لأن الإمام هو الذى جعل لإيطاليا هذا النفوذ .

ولم يشأ الامام أن يجبه ابن سعود ويرد عليه رغبته الطيبة ، ولديه من الوسائل ما يستطيع — كما ظن — أن يخدع بهاابن سعود ، وهو — حقا — يستطيع إلى خـدْعه سبيلا ، لأن ابن سعود كريم ، والكريم يخدع كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو حق كله ، ولكن الخداع منته إلى الفضوح .

وعلى أي حال قبل الامام يحيي أو تظاهر بالقبول دون أن يلزم به نفسه ، وان كان وعد وعدا لا يوفى ، فاضطر ابن سعود إلى أن يكتب إليه يعلمه أن وفدا يمثله سيزور صنعاء ، وفوجيء الامام بشخوص الوفد إليه ، ووصل صنعاء في يوم ٣ ذى الحجة سنة ١٣٤٦ وكان قوامه تركي بن ماضى ، وعبد الوهاب أبا ملحة ، وسعيد بن مشيط .

واستقبل الامام الوفد بجفاوة ، وألف وفدا يمثله للمفاوضة ، وبعد مباحثات لا جدوى منها أخفق الوفدان في الوصول إلى نتيجة مرضية ، لأن الوفد اليمني كان يتنكب كل السبل المفضية إلى الاتفاق والتفاهم ، فاذا قال الوفد السعودي : أبيض ؛ رد الوفد اليمني بقوله : أسود .

وتأكد الوفد السعودي من أن الإمام يحيى غير راغب في صلات المودة مع ابن سعود ، ولم يرد وفد اليمن بحث المطالب الأربعة ، فاضطر الوفد السعودي

إلى العودة إلى وطنه بعد أن اجتمع بوفد اليمن خمسة عشر اجتماعا لم تثمر غير الإخفاق الشنيع .

غير أن ابن سعود لم ييأس ، فهو حريص على رضا الإمام ولو كان على حساب حقه ونفسه ، فكتب إليه يرجوه أن يقبل عرضه الذى يراد منه الخير لهما ، ويبدى للامام استعداده لقبول ما يطلب ، ولكنه لم يجب .

وليس فى ابن سعود الغباوة وإن كان يتغابى ، وما به رغبة فى شر يصدر منه نحو أحد ، بل لا يتخذه وسيلة للحصول على غاية شريفة ، لأن الغاية الشريفة في مفهومه الاسلامي الصحيح يجب أن تكون الوسيلة إليها شريفة أيضاً، وهو حرب على الفكرة القائلة: إن الغاية تسوغ الوسيلة، ولا يرى الاستمرار في الخير ونشدانه ذلا أو انكسارا ، فبعث الى الامام وفدا جديدا وصل صنعاء فى أوائل شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٤٧ .

وفى الوقت الذى وصل وفد ابن سعود إلى صنعاء كان الإمام مشغولا بتدبير خطة تمكنه من احتلال بعض المواقع الهامة في عسير ، ورأى أن وجود وفد ابن سعود فى صنعاء لا يتفق مع خطته التى يخشى افتضاحها ، فاختار وفدا من بعض رجاله الأذكياء ليفاوضوا الوفد السعودي ، وبدا من أول اجتماع أن الطريق مغلق ، ولا أمل فى الوصول إلى نتيجة ، ولكن الإمام لا يريد أن ينقل الى ابن سعود من قبل وفده الا أمل ، فدفع الامام دهاؤه إلى أن يصحب وفد ابن سعود بوفد منه إلى مكة المكرمة حيث يجرى بها البحث والتفاوض .

وكان الامام حريصاً على أن يغادر الوفدان صنعاء إلى مكة في أسرع ما يمكن من الوقت ، لأن خطته قد نضجت ، وكثرة النضج تؤدى الى الفساد ، فغادر الوفدان صنعاء إلى مكة ، وبينا هما في البحث والتفاوض علم ابن سعود أن الجيش اليمني قد انتهى الى « جبل العرو » بتهامة من مملكة ابن سعود ، وأن اليمنيين قد أخذوا من السكان رهائن لاخضاعهم للحكومة اليمنية ، كما أن

اليمنيين اتصلوا برؤساء القبائل ليخلعوا بيعة ابن سعود ويدخلوا فى طاعة إمام اليمن ، وأعلم ابن سعود وفده بهذه الحوادث التى تعد عدوانا سافرا من اليمن على الحق السعودي ، وأرسل برقية الى الامام يحيي يستنكر فيها ما حدث بجبل العرو ومنطقته ، ويطلب إليه وضع حد سريع لهذه الأحداث التى قد ينجم عنها الضرر البالغ .

وسياسة الامام فى مثل هذه الظروف والأحداث تقوم على التسويف والمطال والمكر ، فأبرق إلى وفده بالتفاوض فى المشاكل الجديدة ، وهو وأعضاء وفده يفهمون خطة التفاوض ، فاجتمع الوفدان بمكة المكرمة فى يوم ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٠ وطال بينهما الأخذ والرد وانتهيا بهما إلى المزيد من الخلاف والاختلاف والتناقض ، وأعلم كل وفد مرجعه .

والامام يحيي يعرف أنه لن يغلب ابن سعود الا بسيف الحياء فأبرق إليه برقية رقيقة يكل إليه أن يحكم بما يرى فى جبال العرو ، ويذكر له فيها أنه راض بحكمه رضا تاماً مهما كان الحكم ، وإن حكمه حكم قاطع لا اعتراض له عليه ومقبول منه أتم القبول ، فأجابه ابن سعود ببرقية يعلن له فيها أنه نزل له عن كل حقه في جبل العرو وصار حقاً من حقوقه ، ويرجوه أن يأمر وفده بما يراه ضامنا للاتفاق .

وكسب الامام الجولة على ابن سعود ، وانتزع منه بسيف الحياء حقه ، وأمر وفده بالاتفاق ، إذ حقق مأمله .

وهذه الحادثة وحدها كافية فى الدلالة على نفسية ابن سعود وشخصيته وسياسته ، فهو لا يريد المشاكل والخلافات ، وكل هجيراه السلام والصفاء والمودة مع الجيران والأباعد الأقارب على السواء . وإذا كان قد نزل عن حقه وحق شعبه للامام رغبة فى حسن الجوار والمودة فانه أصحب نزوله بأمر

أصدره الى وفده بأن يتساهل مع وفد اليمن للوصول إلى اتفاق يحقق رغبته فى الخير ، والبعد عن الشر كله .

واجتمع الوفدان ، وطال الاجتماع ، وتعددت الجلسات وكثرت حتى انتهيا بعد زمن طويل إلى اتفاق تم بينهما فى ١٤ شعبان ١٣٥٠ .

وكان الوفد السعودي مؤلفا من عبدالله بن محمد بن معمر ، وفهد بن زعير ، وعبد الوهاب بن محمد أبى ملحة ، ومحمد بن دليم ، وحمد العبدلي ، ومحمد بن علي الحازمي ، والوفد اليمني مؤلفا من القاضى عبدالله بن أحمد العرشي ، وأبى طالب بن محمد محجب ، وسمار بن عبدالله بن علي مناع .

وتم توقيع الاتفاق من الجانبين فى يوم السبت ١٥ شعبان سنة ١٣٥٠ (٢٦ ديسمبر ١٩٣٢) وكان هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

حسب الاوامر الصادرة من سيادة الامام يحيي بن محمد حميد الدين وجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، قد اجتمعنا نحن من طرف الملكين لعقد اتفاقية بين الحكومتين بموجب المواد المبينة أدناه .

المادة الاولى — يكون على الدولتين المحافظة على الصداقة وحسن الجوار وتوثيق عرى المحبة وعدم ادخال الضرر ببلاد كل منهما على الآخر .

المادة الثانية — يكون على كل من الدولتين تسليم المجرمين السياسيين وغير السياسيين بعد هذه الاتفاقية كل حكومة عند كل حكومة له .

المادة الثالثة — يكون على كل من الدولتين معاملة رعايا الدولة الاخرى فى بلادها فى جميع الحقوق طبقاً للاحكام الشرعية .

المادة الرابعة — يكون على كل من الدولتين الضبط والتسليم لرعايا الدولة الاخرى فى كل الحقوق الشرعية . فما أشكل ولم ينهه الامراء والعمال فمرجعه الى الملك والامام .

المادة الخامسة — على كل من الدولتين عدم قبول من يفر عن طاعة دولته كبيراً أو صغيراً مستخدماً أو غير مستخدم وارجاعه الى دولته حالاً .

المادة السادسة — اذا حدث من أحد رعايا الحكومتين حدث فى بلادالاخرى فعلى المحدث أن يحاكم فى محاكم البلاد التى وقع فيها الحادث .

المادة السابعة — يمنع الامراء والعمال من التدخل فى الرعايا بما يحدث القلق ويوقع سوء التفاهم بين الدولتين .

المادة الثامنة — ان كل من يسكن من رعايا الطرفين فى بلاد الآخر بعد هذا الاتفاق وتطلبه حكومته فانه يساق الى حكومته حالاً .

هذا ما حصل عليه التراضى بين المندوبين من طرف سيادة الامام ومندوبى جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، على أن يكون العمل بهذه المواد الثمانى بعد موافقة ومصادقة الملكين المعظمين عليها .

وتحرر ما ذكر أعلاه من صورتين بيد كل فريق نسخة بتاريخ اليوم الخامس عشر من شهر شعبان سنة ١٣٥٠ .

وتسلم الإمام نسخة الاتفاق ، فأرسل إلى ابن سعود برقية يعلمه فيها بذلك ، وأنه موافق على كل ما جاء به ، ويقول له فى نهايتها : « أرجو من الأخ أن يعلمنى بموافقته لتبليغ الموظفين على أطراف الحدود بتنفيذه اعتبارامن وصول الخبر بالتصديق » .

وأجابه ابن سعود ببرقية فى يوم ١٥ رمضان ١٣٥٠ يذكر له فيها أنه

موافق على الاتفاق ومؤيده ، ويقول له : « إنه لدينا مرعي من قبل ومن بعد إن شاء الله لا نتزحزح عن ذلك ، وإنا بكل صورة تحت عقد الوفاق والاتحاد ، وقد كانت مراجعه بيننا وبين مندوبى حضرتكم الواصلين إلينا، وثمة متفرعات ملحوظة ، فإن تفضلتم بإرسال أولئك المندوبين مع توسيع خطتهم فلكم الفضل » .

وأخلص ابن سعود للامام ظاهرا وباطنا ، ولم يكن الامام كذلك ، بل كان يتربص بابن سعود الدوائر ، وكان فى بلاده نشاط معاد له ، ولئن لم يكن الامام ظاهر التأييد لهذا النشاط فإن أرضه كانت مباءته ، وكان ابنه أحمد يرعى الحركة المعادية ويتعهد بعض أسبابها الناجحة كما مر فى الفصل الذى سبق بعنوان « الادريسي يثور » وكان ابن سعود على علم بالنشاط المعادى .

وقد كشفت ثورة ابن رفادة فى الشمال عن حقائق لا يرقى إليها الشك فى اتخاذ الأراضى اليمنية مركزا لنشاط حزب الأحرار الحجازي الذى يموله الشريف عبدالله بن الحسين حاكم الأردن .

ولم يغب عن ابن سعود أن غلياناً فى الخفاء يقع فى منطقة الادارسة ، وسينفجر عن ثورة جامحة أشد من ثورة الشمال التى مثلها ابن رفادة ، وتأكد لديه أن قوى خفية تعمل من أجل تفجير هذه الثورة التى يتم الإعداد لها وتغذيتها عن طريق اليمن ، وإن أعداءه يختلفون إلى اليمن ويجعلونها معبراً إلى منطقة الادارسة التى قرر أن تنفجر الثورة منها ، ومن الموانىء اليمنية يتم نقل التموين والأسلحة والأموال .

وإذا كان حسن نية ابن سعود يحمله على ألا يشك فى الامام بعد أن أعطى موثقاً على نفسه فان من الثابت لديه اتخاذ الأراضى اليمنية مراكز للنشاط الذى يعاديه ، ورأى أن يكتب رسالة لأخيه الامام جاء فيها :

« ثم إنه لا بد قد بلغ سيادة الاخ ما كان من أمر تلك الفتنة الباغية التى أثارها أعداء الاسلام والعرب فى أطراف حدودنا الشمالية مما يوالى العقبة ، والتى لقبوها بحركة ابن رفاده ، ولم يكن لهم مقصد فى ذلك غير افساد الامن فى بلد الله الحرام ، وفتح السبيل الى غير المسلمين لنوال مآربهم واغراضهم من الاسلام والمسلمين .

« وقد أراد الله وأحاط جند المسلمين بأهل الفتنة الباغية حتى استأصلوهم عن آخرهم ، وطهروا البلاد من افسادهم فلله الحمد والمنة .

ولقد كان من محركى تلك الفتنة والعاملين فيها أفراد مجرمون بلغنا انهم وصلوا الى بلاد الأخ ، فأرجو قطعاً لدابر الافساد فى بلاد العرب وانفاذاً للعهد الذى كان بيننا وبين الأخ مؤخراً أن يأمر بالقاء القبض على الموجودين منهم فى بلاده » .

وأجابه الامام برسالة نفى فيها أن يكون أحد من محركى الفتنة فى اليمن ، وسكت ابن سعود وهو واثق أن منهم باليمن أفرادا ، واحتـــاط لنفسه منهم .

وبعد بضعة شهور من ثورة ابن رفادة ثار الادريسي على ابن سعود فى شهر رجب ١٣٥١ وانتهى أمره بالهرب إلى اليمن مستجيرا بالامام يحيى فأجاره وحماه كما أجار كل آل الإدريسي ومن فروا معهم .

ولا لوم على الامام فى إجارته ، ولكن وجود الأدارسة على مقربة مـــن بلادهم التى خضعت سلما وحربا لابن سعود خطر على الأمن ، وقد يستغلهم الإمام فى اشعال نار فتن جديدة ، وقد ثبت بالوثائق التى عثر عليها الجيش السعودي فى بعض أوراق الثائرين أن اليمن كانت مركزا لنشاطهم وتموينهم ، ورسالة السيد حسين الدباغ التى كتبها من«الحج»للشريف شاكر بن زيد رئيس

دائرة العشائر بشرق الأردن بتاريخ ١٣ شوال ١٣٥٠ تثبت اشتراك اليمن فى ثورة الادريسي [١] .

وقبيل هذه الثورة بأيام بعث ابن سعود رسولا خاصا منه الى الامام يحمل رسالة اليه ، ووصل صنعاء يوم ٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٥١ وفى الرسالة مقترحات اقترحها .

ولم يسرع الامام الى رد الجواب ، لأنه كان على علم بأن ثورة فى الجنوب ستشتعل ، ولعلها تنجح وتحرر كل بلاد عسير من ابن سعود ، وعندئذ لا تكون الحاجة إلى مقترحات ابن سعود ، وانتظر قيام الثورة ، وقامت فعلا ، ولكنها انتهت بالاخفاق الشنيع ، وازداد سلطان ابن سعود ثباتا وانتشارا ، وبعد اخفاقها بأسابيع أجاب الامام ابن سعود على مقترحاته التى أجملها ابن سعود فى هذه المواد :

١ — تثبيت الحدود بين البلدين بشكل واضح لا يحتمل الشك والتأويل .

٢ — الاتفاق على التساند والتعاضد فى سائر المواقف العدوانية التى تكون علينا وعليكم سواء من الداخل أو الخارج ، وذلك على شروط وأساسات بينة وفى حالات معينة .

٣ — تحديد موقف وصلات امراء حدودنا وحدودكم وصلاحيتهم فى المخابرات ومساعدة بعضهم بعضاً فى الامور التى هي من صلاحياتهم ويكون الرجوع الينا واليكم فيما فوق ذلك من الاعمال .

٤ — يسرى هذا التعاقد بيننا وبينكم ونتعهد عليه نحن واياكم على أنفسنا وأنفسكم ، وبلادنا وبلادكم ، وورثائنا وورثائكم ، ويصبح أمرنا واحدا

(١) راجع فصل « ثورة ابن رفادة » ٠

وكلمتنا واحدة وعائلتينا كأنهما عائلة واحدة » .

كان تاريخ هذه المقترحات يوم ٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٥١ ولكن الامام لم يجب عليها إلا فى ٧ رمضان سنة ١٣٥١ وذلك بعد أن قام الإدريسي بثورته التى انتهت بهزيمته وفراره إلى اليمن ، وانتصار ابن سعود ذلك الانتصار المبين ، فاضطر الامام الى الجواب ، وجاء فيه :

« ونحن نوافق على ما أوضحتموه من المواد الاربع مع الحاق ما يلزم ، انما الذى فى النفس هو مسألة الحدود فهي المفتقرة الى حسن النظر ، فالمرجو عطف النظر الى ذلك ، والتفضل بارسال من تثقون به » .

والحق ، أن الامام يحيى — غفر الله له — كان فى سياسته مع ابن سعود متلونا مخادعا مماطلا ، يعطيه فى الظاهر ما يرضيه من القول دون العمل ، ويضمر له السوء.

فهو يقبل أن يأتيه وفد ابن سعود للمفاوضة ، ولكنه يمكر به ، ويبدد له وقته ، ثم لا ينتهى إلى نتيجة ، وكان ابن سعود يتغابى ، ويرجو مخلصا أن تكون بينهما أخوة صادقة ، ولم يكن ابن سعود طامعاً فى اليمن أو فى جزء منها ، أما الامام فكان شديد الطمع كثير الحسد لابن سعود الذى آثر الحسنى والخير فى تعامله مع الإمام .

ولما تسلم ابن سعود جواب الامام ألف وفدا قوامه : الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية ، وتركي بن ماضى ، وخالد أبو الوليد القرقني ، ووصل صنعاء فى أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٢ .

وألف الامام يحيى وفده وكان مؤلفاً من القاضى عبدالله العمري ، وعبد الكريم المطهر .

وانعقدت الجلسة الأولى بين الوفدين فى صباح يوم ٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٢ وبدأت بكلمة من حمد السليمان رئيس الوفد السعودي حيا فيها الامام أولا — ثم وفده، ورجا أن يثمر اجتماعهما الخير للملكين وللبلدين والشعبين، ثم عرض للبحث مقترحات ابن سعود التى سبق له إرسالها إلى الامام يحيى الذى وافق فى جوابه لابن سعود على بحثها .

ولكن الوفد اليمني تجاهل تلك المقترحات ، وقال القاضى العمري الذى كان رئيس وفد اليمن : إن تحديد الحدود أهم شيء يجب أن ننظر فيه وننتهي منه ، وبعد ذلك ننظر فى بقية المسائل الأخرى .

وأجابه حمد السليمان إن تحديد الحدود يأتى بعد بحث مسائل يجب أن تسبقه فيكون النتيجة الطبيعية لمباحثاتهم .

وبعد جدل اشترك فيه أعضاء الوفدين دون نتيجة احتج الوفد السعودي بالاتفاقية المعقودة بين الحكومتين فى ١٥ شعبان ١٣٥٠ ولكن الوفد اليمني رد على حجة السعوديين بأن تلك الاتفاقية لم تصدق من الجانبين ، فهي اتفاقية لم تصل إلى مرتبة التنفيذ ليكون الاحتجاج بها سليما ، فرد الوفد السعودي أن الاتفاقية مصدقة بوساطة البرقيات المتبادلة بين الامام وابن سعود .

وتبين للسعوديين من بدء الاجتماع أن الوفد اليمني متعنت ، وليس مقصده التقارب والوفاق ، بل يريد ضياع الوقت وشغله بمطالب لا حق لهم فيها ، ولكنهم صبروا وهم يعلمون أنه لا جدوى من المفاوضات والمباحثات .

وفوجىء السعوديون بمطلب غاية فى الغرابة من الوفد اليمني ، فقد ألقى مسألة الاراضى التى كانت تشملها الامارة الادريسية لبحثها ، وطلب أن ترد إلى اليمن لأنها منها ، فالادارسة قد أقصوا عنها من قبل الجيش السعودي الذى احتلها بدون حق ، أما وأنه قد احتلها ولم يعد للأدارسة حكم قائم فان أراضيهم

جزء من اليمن ، وما دام الأمر كذلك فمن حق اليمن أن يعود اليه الجزء المقتطع منه ، والخاضع — الآن — للحكومة السعودية .

ورد السعوديون على الوفد اليمني بأن مجيئهم لم يكن لبحث هذه المسألة التى لا يمكن بحثها بأي حال من الأحوال ، فباب البحث فيها مغلق .

ودار نقاش تاريخي وجغرافي ، فلما أحرج الوفد اليمني طلب إنهاء هذا الاجتماع ليرجع الى الامام يحيي ، ويستطلعه رأيه وأمره ، وبعد ذلك سيعلم الوفد السعودي بموعد الاجتماع الجديد .

وبينا السعوديون ينتظرون موعد الاجتماع علموا أن السيد الحسن الادريسي المقيم فى « ذهب حجر » القريب من الحدود السعودية يقوم بنشاط يؤدى إلى الإخلال بالأمن ، فكتبوا مذكرة بذلك للوفد اليمني ، ورجوا نقله إلى مكان آخر فى وسط اليمن ، ليكون بعيداً عن الحدود السعودية .

وحدد موعد الاجتماع الثانى وحضره الجانبان ، فذكر السعوديون مسألة نجران بالاضافة الى مسألة إقامة السيد الحسن الادريسي ، وقال رئيس الوفد السعودي الشيخ حمد السليمان : إن القاضى عبدالله العمري أخبره قبل بدء المباحثات أن حكومة الإمام تقدمت إلى نجران وضبطت بعض المواقع فيها ، وجعلت بعض العلماء يعلمون الناس أمور دينهم ، ولما كانت نجران داخلة فى حدودنا فإننا نطلب أن تعلمونا عن مقاصدكم من هذا التقدم فى بلاد داخلة فى الحدود السعودية ، ونرجو أن يكون الجواب بالتفصيل .

وفى جلسة أخرى قرأ رئيس الوفد اليمني مذكرة مكتوبة بخط الامام نفسه جاء فيها : إنه مستغرب من دعوى الوفد السعودي بأن نجران داخلة فى حدود نجد ، وجاء فى المذكرة أن بلاد « يام » لا يصح إهمالها ، ولا يجوز ترك أهلها

في جهلهم ، وما الضرر الذى ينجم من تعليمهم واصلاحهم ؟ أليس دين الاسلام يأمر بإرشاد الناس وتعليمهم ؟ .

وأما عن إقامة السيد الحسن الإدريسي فقد جاء فى المذكرة : إن الملك عبد العزيز قد أعطاه الأمان واختيار مكان إقامته ، وما دام الملك قد منحه حرية الإقامة فلا وجه للاعتراض أو طلب تغيير مكان إقامته ، وبخاصة والإدريسي واقع تحت مراقبة حكومة اليمن .

وسأل الوفد السعودي : أتعتبر حكومة اليمن اتفاق ١٥ شعبان سنة ١٣٥٠ نافذاً أم غير نافذ ؟ فأجاب وفد اليمن : إننا لا نرى هذا الاتفاق معاهدة تلزمنا ، ونعمل بالاتفاق حسب المصلحة ، ونحن أحرار ، لنا أن نرفضه عند ما نشاء ، أو نقبله عندما نريد .

وهذا جواب يقطع الطريق على كل بحث ، لأنه يدل على صلف وتجاهل لحقوق الاتفاقات ، تلك الحقوق التى تفرض الاحترام والالتزام بكل التبعات التى تنص عليها على الجانبين ، أما أن يدعي أحدهما أنه حر فى الالتزام أو التحرر منه فذلك موقف يجبر الجانب الآخر على قطع المباحثات ، لأنها صارت غير مجدية ، فاضطر الوفد السعودي إلى إرسال مذكرة للوفد اليمني تذكر أنه لم يبق للوفد السعودى مجال للبحث بعدما وقع من الوفد اليمني ما وقع ، ويرجو السماح له بسرعة العودة إلى بلاده ، لأنه لا فائدة من الاقامة ، ولا سبيل لبحث المسائل التى جاء من أجلها بعد أن تكشفت له الأمور .

وأُعلِم الامام بمذكرة الوفد السعودي فاستنكر طلبه المغادرة ، وأجابه بأنه « لا بد من الاتفاق قبل السفر » فرد الوفد السعودي على الامام فى رسالة مطولة شكا فيها الأساليب التى اتخذت فى المباحثات ، وختم الرسالة بأن الوفد مستعد للبقاء بشرط إجراء المباحثات على الأسس التى تضمنتها مقترحات الملك عبد العزيز ، تلك المقترحات التى وافق عليها الامام نفسه ، وبشرط أن يتم ذلك

خلال أسبوع ، وإلا فلا مناص من السفر .

وانقطعت أخبار الوفد السعودي عن ابن سعود ، وقلق عليه ، فأرسل إليه برقية يسأله فيها عن سبب الانقطاع ، فأجابه بأنه لم يقطع أخباره عنه ، وأنه يوالى ارسال البرقيات إلى جلالته ، وذكر فى صراحة : ان القوم يؤخرونها كما يعتقد .

وغضب ابن سعود من معاملة وفده المعاملة الشاذة التى تأباها كل القوانين والأعراف ، وأرسل الى الامام برقية شديدة اللهجة فى ١٢ ربيع الآخر سنة ١٣٥٢ يبدى له فيها استغرابه من انقطاع أخبار وفده ، واستنكاره المعاملة السيئة التى يعامل بها ، وجاهره بسؤال خطير عن حقيقة مقاصده ، ويطلب إليه فى إصرار أن يجيبه عنها ، ثم يطلب إليه « استنقاذ الوفد الذى ليس لإهانته موجب ، وليس لانقطاع أخباره موجب أيضاً » .

وفى اليوم الذى تسلم الامام يحيى برقية الملك عبد العزيز تسلم مذكرة من الوفد السعودي تحوى شكواه من التأخير والتسويف ، واحتجاجه على ما يلقى من المعاملة الشاذة ، وختمها بقوله : إن الموقف جد خطير وأعظم مما تتصورونه ، وبأنه مصمم على العودة إلى وطنه ، ولا يرغب فى الإقامة .

ولا يعوز الإمام العذر ، فقد عزا تأخر برقيات الوفد السعودي إلى خلل باللاسلكي ، وذكر — أيضا — فى جوابه للملك بأنه أجاز للوفد أن يسافر .

وعاد الوفد السعودي وهو يحمل أسوأ المشاعر ، وغضب ابن سعود ، ولكنه كبح جماح غضبه ، واستعد لجميع الاحتمالات المنتظرة عسكرياوحربياً ، وأبرق للإمام بضرورة الإجابة على مقترحاته ، واستؤنفت المفاوضات بين الملكين عن طريق البرق ، ولكن موقف الإمام لم يتغير ، فهو يماطل ويناور ، وكلما ناشده ابن سعود السرعة طلب إليه الامام التأنى ، وذكر له الحكمة القائلة : فى العجلة الندامة ، وفى التأنى السلامة .

ولم تخف على ابن سعود مقاصد الامام ومناوراته ، فهو قد احتل جزءا من نجران ، وأخذ يبسط نفوذه الأدبي فى الاجزاء التى لم يستطع احتلالها ، مستغلا رضا ابن سعود بأن تكون نجران منطقة حياد بينهما ، وفوق هذا أخذ فى تقوية مراكزه ومخافره ، وتزويد الحدود بقوات عسكرية .

وتلقاء ذلك رأى ابن سعود أن يستعد لئلا يؤخذ على غرة ، فتسامحه أغرى به الامام ، فلا بد من الحيطة والحذر والاستعداد لما سيستجد من الاحـداث المرتقبة ، فأصدر أمره إلى قواته العسكرية بالتوجه إلى الحدود ، والمرابطة فيها ، وعين ابن شقيقه الأمير فيصل بن سعد قائداً عاماً لمنطقة الحدود .

والأمير فيصل بن سعد قائد ميمون النقيبة ، ومحارب شجاع ، وبطل مغوار ، وإلى جانب عبقريته الحربية والعسكرية يمتاز برجاحة العقل وسماحة النفس وحب السلم والأناة وعدم التسرع والحكمة وبعد النظر ، ولهذا اختاره ابن سعود للقيادة العامة لمنطقة معبأة للانفجار فى أي وقت ، وهو ضامن - باذن الله - أن فيصل بن سعد سيبذل كل جهوده ليحول دون ذلك الانفجار ، وأنه لن يبدأ بقتال الا بعد أن تنفد كل وسائل السلم ،وبعد أن يتكرر العدوان.

والامام يحيي يعرف من يكون فيصل بن سعد ، فلما علم بتوليه القيادة العامة أدرك ما وراء ذلك من عزم ابن سعود على الدفاع عن رعاياه وعن حقوقهم إلى الحد الذى يقف الإمام عند حده القوام ، فوضع فى وجه الحدود ذلك القائد العظيم ، فأسرع الإمام بالإبراق إلى ابن سعود فى يوم ٩ رجب سنة ١٣٥٢ يعلن له مودته ومحافظته على صداقته له ، ويستفهم منه عن سبب هذا الحشد مع حرصه على أخوته .

فرد عليه ابن سعود بحزم ، وذكر له فى برقيته أن الغاية من حشد القوات السعودية المحافظة على السكينة ، وطمأنة الرعايا بعد أن حدثت أمور تدعو إلى الريبة .

وطلب إليه في برقيته أن يجيبه بسرعة ووضوح في مطالبه الثلاثة العادلة ، وهـــي :

أولا — الاعتراف بالحدود وتثبيتها بمعاهدة .

ثانيا — تسليم الأدارسة .

ثالثا — حل مسألة نجران .

فاذا كان الامام راغبا في السلام فليبد رأيه بسرعة وبصراحة وإلا فان التسويف والمطال منتهيان الى التعقيد والمزيد من الخلاف ، فاذا رغب الامام في الاتفاق وتم بينه وبين ابن سعود فيما يتبادلان من برقيات فإن عقد الاجتماع من أجل وضع معاهدة في مكان يعين فيما بعد سيعقب الاتفاق المنشود .

هذا ما جاء في برقية ابن سعود للإمام الذى رأى فيها احمرار عيني ابن سعود فأجابه في ٢٦ رجب ١٣٥٢ بأنه سعيد بتسلم برقيته ، ومستعد لإرسال وفد من قبله للعمل من أجل تحقيق السلام وحسن الجوار والمودة ، ويرجو منه السماح له بإرسال وفده .

وضاق ابن سعود بهذا الاسلوب الذى يتخذه الإمام فرد عليه رداً حازماً بأن تبادل الوفود بينهما فقد جدواه ، فمنذ سنوات يتبادلان إرسال الوفود وما ثم أمل ، والأمر — الآن — متعلق بهما وحدهما ، ولا يمكن الوصول إلى حل الا بما يتفقان عليه ، وإن التطويل يزيد في تعقيد الأمور الذى لا تحمد لـــه عاقبة .

ثم طلب إليه أن يجيبه جوابا حاسما في البت في مقترحاته الثلاثة إن سلباً وإن إيجابا ، فلم يعد هناك مجال للتطويل ، وأنه ينتظر منه هذا الجواب الحاسم السريع .

وأجاب سريعاً بأنه يدع له الحكم فى مسألة نجران ، وطمع من ذلك أن ينزل له عن نجران كما نزل له عن جبل العرو ، ولكنه خيب له أمله هذا ورد عليه بأن تكون نجران بحدودها منطقة محايدة بين اليمن والمملكة السعودية ، لا يملكها أحد من الطرفين .

وبقيت مسألة الادارسة ، واستعد ابن سعود أن يعطيهم الامان ، وأن يرد إليهم كل أملاكهم الخاصة ، وأن يساعدهم ، فإذا لم يرغبوا فى العودةفعلى الامام أن ينقلهم إلى صنعاء ، ووافق الامام على نقلهم إلى صنعاء ، ولكنه ذكر في برقيته لابن سعود أن الأدارسة لا يطيقون برد صنعاء ، ويرجو أن يسمح لهم بالأقامة فى « زبيد » فوافق ابن سعود .

وأما تعيين الحدود فقد تغافل عنه الامام ، وإذا كان رضي ابن سعود بأنصاف الحلول فى مسألة نجران والأدارسة فسبب ذلك رغبته فى الصفاء والسلام ، ولكن الامام كان يخفى فى نفسه الوثوب إلى نجران بعد أن احتل منه جزءاً وضع فيه له جنودا ، كما أراد من جعل زبيد مقاما للادارسة أن يستغلهم ضد ابن سعود .

وفى يوم ١٣ رمضان ١٣٥٢ أرسل الامام الى ابن سعود برقية طلب فيها إليه أن يصدر أوامره الى قادة جيوشه بألا يتجازوا أماكنهم التى هم فيها الآن لئلا يحدث ما لا يمكن تلافيه فيخرج الأمر من أيديهما ، وذكر له أنه مستعد أن يرسل وفداً يمثله لإزالة أسباب الخلاف .

واشتد سخط ابن سعود على الامام الذى أرهق ابن‌سعود بما اتخذ من أساليب تنطوى على الغش والمكر والخداع والتطويل فأرسل‌اليه برقية شديدة اللهجة ، يبدى له فيها استغرابه من اغفاله الجواب الحاسم على مقترحاته الثلاثة الّتي هى مثار النزاع وبخاصة مسألة الحدود التى استغرق بحثها سنوات طويلة دون جدوى .

وقال له ابن سعود فى برقيته هذه فى ختامها :

« إن هنالك أموراً ثلاثة عرضناها عليكم مرارا ، ونكررها الآن ، وهي :

« أ ـ أن تحرروا الحدود بيننا وبينكم نهائياً وبتعهد مكتوب .

« ب ـ نجران ، وقد اقترحنا أن تكون منطقة حياد .

« ج ـ إعادة الأدارسة وفق المعاهدة المعقودة ، وإذا تعذر ذلك تنقلهم إلى صنعاء .

فهذه الأمور الثلاثة هي التى نطلبها ، والسلم والحرب متوقفان على كلمة تقولونها ، فإما نعم ، وإمّا لا » .

وتظاهر الامام بالموافقة ، واتفق مع الملك عبد العزيز على أن يجتمع مندوبوهما فى « أبها » لوقوعها فى موقع صالح للطرفين ، ولأن أدوات المواصلات البرية واللاسلكية متوافرة وسهلة ، ولأن بها الأمير سعود ولي عهد المملكة الذى لديه التفويض الكامل للحل والعقد ، ووافق الامام وبعث مندوبه عبدالله الوزير .

وفى يوم ٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٢ عقدت الجلسة الأولى بين الوفدين ، وتوالت الجلسات الى يوم ١٨ ذى القعدة ١٣٥٢ بدون أن يتم وصول الى نتيجة ، فقد تشبث الوفد اليمني بأن نجران ملك لليمن، لأن الملك عبد العزيز نزل عنه لليمن ، فى حين أن الوفد السعودي رأى رأي ابن سعود وهو أن تكون منطقة حياد .

وإخفاق هذا الاجتماع نذير بأشد الأخطار ، فإذا كان ولي عهد المملكة السعودية قد أخفق مع تسامحه إلى أبعد ما ينتهى إليه التسامح حتّى ليخيل إلى من كان قصير النظر أن ذلك التسامح ضعف ، وما كان ولي العهد الأمير سعود ضعيفاً ، وما

كان تسامحه ضعفاً وجبناً ، بل كان القوة كلها ، فهو له الحق كله ، وخصمه الذى ليس كفئا له يحتل أجزاء من مملكته ، ومع هذا يضبط نفسه ، ثم يضبط نفسه أكثر عندما يجد الخصوم يتطاولون بغير حق ، وقد صدق الرسول الكريم الذى قال : « ليس الشديد بالصُّرَعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » وقد ملك ولي العهد نفسه ولم يظهر عليه أي أثر للغضب .

وإذا أخفق مؤتمر أبها أو اجتماع أبها فمعناه أن اليمن لا تريد أن تتفق مع الحكومة السعودية ، وأن اليمن تريد الحرب التي تدفع اليها المملكة السعودية دفعاً ، فقد استمر الامام فى العدوان ولم يجابهه بمثله ، فقد تقدمت قوات يمنية إلى جبال جازان التى كانت من امارة الادريسي واحتلتها كما احتلت أجزاء أخرى وتجاوزتها إلى نجران، كما دخلت قوات يمنية بنى الى مالك والعبادل من صميم المملكة ، واحتلت أيضاً فيفا وغير وذلك وابن سعود لا يحرك ساكناً ، بل يريد التفاهم .

أما وأن الامام قد انتهى إلى ما انتهى إليه فان صبر ابن سعود قد نفد كله ، ولم يبق إلا الحرب ، وقبل أن يعلنها عليه بقي لديه عرض واحد وليس غير ، ذلك أنه أمهله أسبوعين ليخلي فيفا ونجران وبنى مالك والعبادل وغيرها من قواته ، فاذا انتهت المهلة فان الجيش السعودي سيتولى إخلاءها ، فلم يبال الإمام الانذار ، بل تجاهله ، وعزز قواته استعداداً للحرب ،

ووجد ابن سعود نفسه فيما يشبه المأزق أو فيما هو أشد منه ، فقد زُج به غصبا عنه فيما يكرهه كل الكره ، ووقع ما كان يستشهد به فى مثل هذه الظروف ، وهو هذا البيت :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر الا ركوبها

وأصدر أمره فى أوائل شهر ذى الحجة ١٣٥٤ لقواته بالسير الى الحدود

وتحرير كل الأراضى السعودية ، وكان ألمه شديدا وهو يصدر أمرا باعلان الحرب ، وكان أشد الما وهو يتلقى أخبار انتصار قواته ، وقد أبدى شعور الأسى والألم فى خطبته الرائعة التى ألقاها على وفود بيت الله الحرام فى الحفل الذى أقامه لهم فى اليوم الثامن من شهر ذى الحجة سنة ١٣٥٢ وقال :

« لنا عشرة أشهر ونحن ويحي نتجادل فلم يظهر من المسلمين من ملوكهم أو أمرائهم أو أحزابهم من يتقدم لاصلاح ذات البين أو يطلع على حقيقة ما بيننا » .

ثم قال : « لكن المسلمين والعرب لم يبالوا ذلك ، وانما أعمالهم كانت مقتصرة على الامانى » .

وهذا يدل على مبلغ الاسى الذى كان يساور ابن سعود من الحرب سواء انتصر أم لم ينتصر ، ولكن الامام هو الذى استفز ابن سعود ودفعه دفعاً إلى الحرب بعد أن صبر سنوات والامام يمكر به ويحتل أراضيه ، وبعد أن مضت عشرة الأشهر التى سبقت اعلان الحرب فى جدل عقيم ، ووفود تذهب وتجىء دون أي نفع .

أصدر ابن سعود أمره على قواته بالسير إلى الحدود وتحرير كل الاراضى والمواقع والمدن والقرى التى احتلها جيش الامام يحيى .

أمر ابن سعود ابنه الامير سعودا ولي العهد بالتقدم الى الحدود اليمنية لاستعادة البلدان التى احتلها الجيش اليمني ، والوقوف بعد ذلك انتظارا لأمره الأخير ، وأمر نائبه وابنه الثانى الأمير فيصلا بالسير مع الساحل حتّى يهبط عسيرا ويتجه منها إلى الحدود ، وأمر ابن أخيه فيصل بن سعد بالتقدم إلى باقم وأطرافها ، وابن أخيه خالد بن محمد بالتقدم الى نجران وصعدة ، ثم أرسل ابنه محمد بن عبد العزيز بقوة كبيرة ليكون سندا للامير سعود .

وكانت هذه الجيوش مزودة بالسلاح الكافى من بطاريات ومدافع جبلية

ومدافع ميدان ورشاشات وسيارات مصفحة .

وكان الامير سعود قائداً عاماً للجيوش السعودية التى سارت من نجد إلى عسير ، والأمير فيصل بن عبد العزيز قائداً عاما للقوات السعودية التى زحفت من الحجاز .

أما الامام يحيى فقد سبق ابن سعود فى تقوية مراكزه وحدوده ومخافره ، كما بعث قوة كبيرة إلى حرض مدداً لقلعتها بقيادة أحد أبطال اليمن وهو عبد الرحمن بن عباس — وهو من أقرباء الامام يحيى — فعلم حمد الشويعر أمير منطقة جازان الذى توجه بقواته نحو اليمن بالقوة المتجهة إلى حرض فتلقفها قبل أن تصل إليها ، وقضى عليها ، لأن الشويعر كان متجهاً إلى حرض لاحتلالها ، وقد جعل معسكره فى « الواصلى » ثم نقله إلى ناحية أبى عريش ، ثم رأى أن ينقله إلى « صامطة » وأقام بها ينتظر تموين جيشه ، فورده من البر والبحر ، وجاءته القبائل من « القحمة » وغيرها .

وكان الشويعر قد علم بأن قوات اليمن تتجمع فى مواقع معدودات للهجوم على القوات والأراضى السعودية التى هو مسئول عنها ، فاستعد وبنى بسرعة قلاعا وحصونا فى مختلف المدن والقرى ، ورمم ما كان من الحصون والقلاع القديمة ، وبعد أن تجمعت لديه القوات توجه بها إلى حرض المشهورة بقلعتها الحصينة ومواقعها المنيعة ، والتى تتجمع بها قوات ضخمة جبارة لليمن اختيروا من أبطالها الأسود الاشداء .

وصمم الشويعر على احتلال حرض وإبادة قوات الامام بها ، لأن حرض بقواتها الضاربة أحد الأعمدة أو الأركان الأربعة التى تقوم عليها قوات اليمن ، وقد قضى على المدد المرسل إلى حرض بقيادة عبد الرحمن بن عباس ، وعزلها بوساطة السرايا التى بعثها الشويعر ، وفى ليلة الثلاثاء ١٨ ذى الحجة سنة ١٣٥٢ قرر الهجوم .

واستعدت حرض للدفاع ، وهي نفسها تقع فى موقع جد حصين ، وبينها وبين من يريدونها واد وعر ، وقد أقام اليمنيون فى عدوته الشمالية خط الدفاع الأول ، ووضعوا فيه أضخم قواتهم ، وركزوا مدافعهم بعيدة المرمى على قمم الوادى ، وأقاموا خط الدفاع الثانى من ناحية الشمال الشرقي والجنوب ، ثم أقاموا خطا ثالثا يحمى قلعة حرض التى هي قاعدة الدفاع .

وكان قائد هذه المنطقة وحرض بما فيهما من القوات قائدا محنكا من أعظم قادة العرب وهو البطل « السياني » وجعل مركز قيادته الأولى فى خط الدفاع الأول كما جعل له مراكز أخر فى القلعة وخطوط الدفاع الأخر .

والواقع ، أن قوة الشويعر عظيمة وجبارة ، ولكنها مكشوفة بين يدي حرض إذا أراد الشويعر مهاجمتها ، ومن المقطوع به أن مهاجمتها تكلف ثمناً جد باهظ من الأرواح والمعدات ، والانتصار مشكوك فيه ، وان الهزيمة محققة ، فالسياني قائد صلب ، وثعلب الجبال والبرارى ، ويتقن الحرب الخاطفة ، ويرهق أعداءه بمباغتاته وضرباته التى لا يوجهها إلا إلى مقتل .

وحمد الشويعر كفء ولا شك ، ولكن قواته فى أرض مكشوفة ،وقوات عدوه السياني محصنة أقوى تحصين ، ولن يتراجع وقد صمم الشويعر على هدم هذا الركن اليمني القوي الجبار مهما كلفه ذلك ، ففى فجر يوم الثلاثاء ٢٨ ذى الحجة ١٣٥٢ كان الشويعر قد أعد نفسه وجنده لمهاجمة حرض وخطوط دفاعها وأجنحتها ، وبعد صلاة الفجر دوّى بصيحته التى رددت صداه الجبال : الله أكبر ، إياك نعبد وإياك نستعين ، وكان هذا الهتاف ايذاناً بالهجوم الذى لم يباغت به السيانى المستعد لكل الاحتمالات .

وبرزت المدفعية السعودية بهجومها ، وتمهيد السبيل للخيالة والمشاة ، وإذا خط الدفاع اليمني الأول يرد على النار بمثلها ، وتصاب المدفعية السعودية إصابات بالغة لم تفت فى عناد الشويعر ، بل مضى وهو على فرسه إلى قائد

المدفعية وأمره أن يضرب قلب الخطر الأول ، فاذا القذائف السعودية تصيب منه مقاتله فيسكت ، ثم ينثنى الشويعر إلى طرفي الخط الأول ويصيبهما بمدفعيته الثقيلة فى الصميم ، وينهار خط الدفاع الأول بعد معركة دامت ساعتين .

وتولى خط الدفاع اليمني الثانى والثالث الدفاع المستميت ، وبينا المدفعية السعودية مشغولة بضرب خطي الدفاع اليمنى وتلقى ضرباتهما العنيفة أمر الشويعر بعض سلاح الفرسان والمشاة ومعه الرشاشات لمهاجمة حرض من خلف خطي الدفاع ، وتمت حركة الالتفاف بنجاح ، وضعفت مقاومة خطي الدفاع الثانى والثالث ، ورأى السياني الانسحاب وقد تم بمهارة ، ولكن بعد أن فقدوا قتلى كثيرين ، وتركوا مدافعهم وأسلحتهم الثقيلة ودخلوا القلعة الحصينة .

واحتل حمد الشويعر كل حرض وضواحيها وخطوط دفاعها ، ولم يخسر السعوديون إلا بعض القتلى والجرحى ، وحوصرت القلعة حصارا شديدا ، وكان السيانى قد أعد فيها التموين الذى يكفيه شهورا ، كما كان قد أعد ما يحتاج إليه بناء ما يخرب من سور القلعة وجدارها .

وفى ليلة الاربعاء ٢٦ ذى الحجة ١٣٥٢ استطاع السياني ومن معه من مغادرة القلعة فى عماية الليل إلى الجبال ، وفى الصباح علم السعوديون بمغادرة اليمنيين وإخلاء القلعة فدخلوها .

وغادر الشويعر حرض بعد أن ترك بها حامية تضم مختلف أسلحته ، ومضى إلى القرية الكبيرة المسماة « مخازن » وتقع بين حرض وميدى ، حيث تكون مخازن ملتقى جيش حمد الشويعر والجيش الزاحف من الحجاز بقيادة الأمير فيصل بن عبد العزيز .

وكان القائد المظفر حمد الشويعر يتلقى تعليمات القائد العام الامير فيصل ابن عبد العزيز الذى أعد له خطة الهجوم مع التصرف بما تقتضيه ظروف الحرب

وعملياتها ، واحتل الشويعر المخازن وأخذ ينتظر بها مقدم الأمير فيصل الذى وصل جازان يوم الخميس ٢٧ ذى الحجة ١٣٥٢ وفى يوم الجمعة غادر جازان إلى قرية « الموسم » ومنها إلى المخازن التى تجمعت فيها القوات السعودية التى يقودها حمد الشويعر .

وما كاد فيصل يصل مع جيشه إلى المخازن حتى استقبلته القوات السعودية استقبالا حماسيا ، وتم استعراض كل القوات التى قامت بمناورة بالذخيرة الحية .

وميدى على مقربة من المخازن ، كما أن على مقربة منها تقع قرى أخرى ، وقد أصم آذان هذه المدن والقرى دوي القنابل والرصاص ووغى الجيش ، وغرقت فى رعب شديد ، وظنت أن القوات السعودية تقوم بهجمات عنيفة ، وكل مدينة أو قرية تظن أن ذلك الدوي الراعد إنما هو من أثر الهجوم الذى يقع على غيرها وتنتظر ما سيقع عليها بعدها .

وعلمت تلك المناطق اليمنية أن فيصل بن عبد العزيز وصل بجيشه ، وأنه القائد العام ، واليمن كلها تعرف من يكون فيصل ، انها تعرف أنه البطل الذى لا يقهر ، والقائد الذى لا يغلب ولا يهزم بإذن الله ، وان الحصون والقلاع المنيعة الشديدة الجبارة تتساقط بين يديه كأوراق الخريف ، وان اسمه يبعث الرعب فى أوقات الحروب فى قلوب أشجع الشجعان .

وقرر فيصل احتلال ميدى وكل القرى المنيعة التى تحيط بها أو تجاورها ، وكان أمير ميدى وقائد القوات اليمنية فيها أحد أعاظم أبطال اليمن المعدودين وهو « العرشي » وكان أعظم من السياني دهاء وحنكة ، وكان من القواد النوادر فى فن الحرب وإدارة المعارك .

وميدى بلدة محصنة طبيعيا ، وزاد من تحصينها يد الانسان الماهرة ، وبها

قلعتان كبيرتان ، وبهما أبراج تسيطر على كل الطرق المؤدية اليها ، وتستيطع أن تقطعها عندما تشاء ، ويزيد من مناعة ميدى أن أميرها وقائدها العرشي .

وإذا كانت ميدى والعرشي يستعصيان على من يريدهما فإنهما لن يستعصيا على فيصل الذى لا يقهر بإذن الله ، وفيصل لا تخفى عليه مناعة ميدى ولا بطولة العرشي ودهاؤه ومقدرته ، ووضع خطة محكمة بارعة لاحتلال ميدى وأسر العرشي الذى شعر بالكارثة لمجرد قدوم فيصل .

وكانت خطة فيصل ضرب استحكامات العدو التى تحمى ميدى ، وتلتف بها التفاف السوار بالمعصم ، وخصص كتيبة لذلك ، وقوة من المدفعية لضرب إحدى القلعتين ، وقوة أخرى لضرب القلعة التى تقع فى جنوب جزيرة «الدويمة» وقوة من الفرسان والمشاة تحيط بميدى من جميع جوانبها وأطرافها .

ونفذت الخطة ، وما شعر العرشي إلا والقلعة الواقعة فى جنوب الدويمة تنسف وتباد كل القوة التى بها ، وأشد ما أثر فى معنوية العرشي أن الفرسان والمشاة الذين قاموا بتطويق ميدى قاموا بعملهم نهارا على مرأى ومسمع منه ومن جيشه ومن السكان ، وكانوا يرونهم بوضوح ، فأمر العرشي بإطلاق القنابل عليهم . فلم تصب أحداً .

وقرر العرشي أن يقاوم ، وثبت للسعوديين الذين أصروا على احتلال ميدى ، وقطعوا أسلاك التلفون ، وعزلوا ميدى عزلا تاما عن اليمن فلا تتصل بها هاتفياً ، وضربت ميدى ، وأصيبت فى بعض مقاتلها ، وظن العرشي أن طبقة التجار والمثقفين قد خانوا واتصلوا بالسعوديين ، فزج بهم فى السجن .

واشتد الحصار والضرب ، ولم يعد فى وسعه المقاومة ، وفى الظلام من ليلة غرة المحرم سنة **١٣٥٣** هرب العرشي ومن بقوا فى القلعة من الجند الذين سلموا من القتل إلى « مرسى البغلة » فلم يجدوا به سفنا ، فقد غادرتها إلى الحديدة خوفاً

من السعوديين ، واتخذ العرشي ومن معه الطريق الساحلي ، فخرج السجناء من محبسهم ، وذهب أحدهم منتدبا من زملائه إلى الأمير فيصل ، وأخبره بفرار العرشي ، وبما كان منه نحوه ونحو غيره ، وذكر له أنه يخشى على المدينة والسكان من النهب والسلب والقتل ، فأرسل قوة إلى البلدة لحفظ الأمن ، ولم يقع بفضل الله ثم بفضل فيصل أي حادث .

ودخل السعوديون ميدى ، وغنموا منها أسلحة وذخائر حربية كثيرة ، كما وجدوا صناديق مختومة مليئة بالأسلحة ، وأمر فيصل بإعادة الحياة الطبيعية إلى المدينة ، وأمن السكان والموظفين .

وأرسل فيصل كتيبة من سلاح الفرسان تتبع آثار العرشي ومن معه والقبض عليهم أو قتلهم إذا لم يستسلموا ، وأرسل قبل ذلك فصيلة من الجند بالسيارات المصفحة لتحتل حصون قرية « حبل » التى تبعد عن البحر ثلاثة أميال ، وتصل القوتان فى وقت متقارب ، وإذ مضت كتيبة التتبع والمطاردة إلى مهمتها وأدركت العرشي كانت قوة السيارات المصفحة التى وكل إليها احتلال حصون قرية حبل قد وصلت ، واتحدت القوتان السعوديتان واشتبكتا فى معركة حامية مع العرشي وجنوده من الصباح إلى الظهر ، ووقع العرشي ومن سلم من جنوده فى الأسر ، ولقوا من التكريم والرعاية ما ألهج ألسنتهم بشكر فيصل .

وبعد أيام أرسِل العرشي ومن معه من الجنود اليمنيين إلى جازان ليقيموا بها أسرى حرب ، ولكنهم لم يكونوا معتقلين ، بل كانت لهم الحرية فى التردد على المسجد للصلاة ، وفى زيارة من يريدون ، وفى النزهة فى أطراف جازان ، وأمنت لهم الراحة التامة والتكريم ، ولبثوا فى الأسر حتى انتهت الحرب ، وعادوا إلى وطنهم بسلام وهم لا يفترون من الثناء على فيصل ومعاملته لخصومه وأسراه .

وأتت إلى فيصل قبائل وعشائر يمنية تبايعه ، كما فر الوالى اليمني لمدينة

« اللحية » كما فر غيره من الولاة اليمنيين قبل أن تصل إليهم قوات فيصل ، فخاف من الفوضى واختلال الأمن فى تلك المناطق فأرسل الشيخ عبد الله بن ختلان بقوة ليتسلم اللحية وما حولها ، كما بعث آخرين لمثل مهمة ابن ختلان ، وسقطت اللحية ، ووادى مور ، ومدينة الزهرة ، وبنى نشر ، والزيدية ، وبيت الفقيه ، وباجل ، وغيرها .

وأدى سقوط ميدى ووقوع العرشي فى الأسر إلى فرار الأمراء اليمنيين ، وترْك الأهلين بدون مسئول يرعاهم ويحميهم ، وكان أمير الحديـــدة الأمير سيف الاسلام عبدالله ابن الامام يحيى ، وخشى على نفسه من القتل أو الوقوع أسيرا فى يد فيصل فترك الحديدة إلى صنعاء ، ودخلها الجيش السعودي يوم السبت ٢١ محرم سنة ١٣٥٣ ودخلها فيصل فى اليوم الثانى والعشرين ، واتخذها مركزه ، وأقام فيها إدارات مختلفة لضبط أمور الحديدة وكل المناطق اليمنية التى دخلت فى حوزته ، فأقام فيها إدارة المالية ، والدفاع ، والبريد ، والامن العام ، والمعارف ، وأراد من ذلك أن يجعلها سعودية لها حق البلدان والمناطق السعودية .

وبعث الأمير فيصل ببرقية إلى وزير مالية المملكة الشيخ عبد الله السليمان ليحضر إلى الحديدة ويصطحب معه موظفين مدنيين ليتولوا العمل فى الإدارات التى أقامها ، ووصل ابن سليمان مع الموظفين على متن سفينة سعودية إلى الحديدة ، وقاموا بالادارة المدنية .

وسر اليمنيون بما لقوا من فيصل وأفراد قواته المسلحة والموظفين السعوديين مدنيين وعسكريين ، ونعموا بما لم يشهدوه فى ماضيهم ، ولأول مرة يجدون مدارس حديثة ومستوصفات طبية مزودة بأحسن الأدوية ، ويجدون الأمن والاستقرار فى ظل الادارة السعودية .

وتقدمت قوات فيصل فى الأراضى اليمنية فى مختلف الاتجاهات ، وكان

الرعب الذى انتشر فى اليمن من زحف فيصل السريع قد مهد لقواته أن تتقدم وتحتل .

وبينمـــا فيصل يقوم بهذا الزحف الموفـــق كان القوات السعودية التى يقودها ولي العهد الأمير سعود قد احتلت نجران ، وطهرتها من القوات اليمنية ، وأخذ ولي العهد فى زحفه متجهاً صوب اليمن ، وكان يصطحب معه الموظفين والعسكريين ليتولوا الادارة فى البلدان والمناطق اليمنية التى تسقط فى أيدى القوات السعودية .

ومن توفيق الله لولي العهد أنه استطاع أن يحرز النصر فى كل المعارك التى خاضها ، ولم تقع فى قواته خسارة فى الأرواح الا قليلا .

وتقدم الأمير خالد بن محمد – ابن شقيق الملك عبد العزيز – فى الجزء الجنوبي من نجران ، ثم إلى صعدة ، ثم والى تقدمه السريع .

وكان فى جانب آخر الأمير فيصل بن سعد – ابن شقيق الملك أيضا – يتقدم قواته نحو باقم والقرى المحيطة بها ، وقد أثار تقدمه الإعجاب والعجب ، فقد جاء فى بلاغ وزارة الخارجية السعودية الصادر فى يوم ٢٦ ذى الحجة ١٣٥٢ (٩ ابريل ١٩٣٤ أن الأمير فيصل بن سعد احتل عقبة « الشيطة » و قرية «تيناو» ومضيق باب الحديد الذى وصفه البلاغ الرسمى بأنه « أمنع مضيق طبيعي فى تلك الأنحاء » .

وإذا كان مضيق باب الحديد أمنع مضيق طبيعي فإن عقبة الشيطة أشد العقبات كؤودا فى تلك المنطقة الوعرة .

ورأى الامام يحيى أنه لا قبل له ولقواته بصد القوات الزاحفة إلى اليمن من جهات متعددة ، وكلها تتقدم تقدما سريعاً لا يقفه شيء ، وكل هذه القوات السعودية السريعة فى زحفها وتقدمها تتسابق للوصول إلى صنعاء ، وإنها ستدخلها قريباً ،

ولن تستطيع أن تنجو من الاحتلال بعد سقوط ميدى وغيرها ، فأبرق الامام يحيى فى يوم ٢٩ ذى الحجة سنة ١٣٥٢ (١٢ إبريل ١٩٣٤) إلى الملك ابن سعود يقول له : « يكفى ما قـــد كان ، ونعوذ بالله من شرور المتربصين بالاسلام الدوائر لتحقيق مطامعهم ، بلاد يام تحت حكمكم ، وقد أمرنا برفع جندنا من بلاد نجران ، وتفضلوا بطلب السيد عبدالله بن الوزير الى حضرتكم لاستكمال المعاهدة الأخوية عافاكم الله ، وقدكان سحب هذه البرقية بواسطة أسمرة لاختلاط طائر الهواء [1] لدينا ويجرى العمل على إصلاحه ، فتفضلوا بالجواب عن طريق أسمرة » .

وقد سبق للامام يحيى عندما أعلنت هذه الحرب أن أبرق إلى رؤساء الحكومات العربية وإلى علماء المسلمين وزعمائهم وإلى الملك فؤاد ملك مصر هذه البرقية :

« بعد انتهاء المراجعات بيننا وبين الملك عبد العزيز والوفاق على امهات المعاهدة كان منا ارسال المندوبين لعقد المعاهدة مضمرين كل صداقة وأخوة للمشار اليه ، مستبشرين بصلاح التأنى وحقن الدماء ، حريصين على جمع كلمة المسلمين غير مجوزين شقاقاً .

« وفى خلال هذا وحضرة المشار اليه يحشر الجيوش من كل جهة حتى اذا أتم استعداده أفاد الينا انه موجه جيوشه علينا فأجبناه بكل لطافة وصداقة ، وكنا أفدنا الى حضرتكم أنه سيكون اعتماد ارشادكم ثباتنا عند حد الدفاع ، فلم نشعر الا بالتجمع الفعلي بالجنود المجندة والعدوان على أطراف بلادنا ، ومع هذا فلا ندرى حتى الآن ما عليه مندوبونا فى ابها ، وقد رأينا من واجب الاخوة الدينية اعلامكم بالحقيقة » .

وكان الامام يعتقد أن الملك فؤادا سيجيبه ويقف معه لأنه موتور من ابن

---

(١) يسمى الامام يحيى آلة اللاسلكي طائر الهواء .

سعود ويحقد عليه ، ولكنه اعتذر له ، لأن ملك مصر مقيد ، كما لم يجد من أي ممن أبرق اليه المساعدة التي يريدها ، ورأى إلى جانب هذا الإخفاق الذى مني به من قبل من كان يرجو منهم النجدة الهزائم المنكرة التى منيت بها قواته المسلحة ، فما كان منه إلا أن يلجأ إلى ابن سعود نفسه ، وبعث إليه تلك البرقية التى تدل على ما أصاب الإمام من قلق على مملكته التى تتعرض لخطر الزوال كما زال عرش الملك الحسين بن علي من قبل .

وابن سعود لن تجوز عليه حيل الامام الآن ، فأبرق إليه قائلا : « إننى مستعد للعودة إلى مفاوضة ابن الوزير وقبول السلم بعد التحقق من انسحاب الجند من نجران ، ورد رهائن أهل جبالنا وقطع العلاقة بهم ، وإعادة الادارسة إلينا طبقاً لمعاهدة العرو، إذ تبين أنه لم يكن الغرض من إيوائهم إلا جعلهم آلة لتحريك الفتنة فى عسير تهامة ، فاذا نفذت هذه المطالب تأمل الحكومة بوقف كارثة الحرب » .

وأبرق الامام إلى ابن سعود فى ٤ محرم الحرام سنة ١٣٥٣ (١٨ ابريل ١٩٣٤) بموافقته على كل مطالبه ، ويرجوه وقف الزحف حتى يستطيع جنوده من إخلاء المواقع وتسليم الأدارسة .

فلم يوافق ابن سعود إلا بتنفيذ جميع المطالب ، فوافق الامام صراحة بدون التواء أو مواربة ، فأصدر ابن سعود أمره بوقف القتال ، وأن تبقى قواته فى المناطق التى تحتلها حتى يرى نتائج المفاوضات التى ستبدأ ، وكان هذا الأمر فى ١٣ محرم ١٣٥٣ (٢٧ ابريل ١٩٣٤) .

وبينا كانت البرقيات بين الامام وابن سعود كان وسطاء الصلح الذين أرسلهم المجلس الاسلامي الأعلى بفلسطين قد وصلوا إلى المملكة العربية السعودية

ونزلوا ضيوفاً على ابن سعود .

وهؤلاء الوسطاء هم : الحاج محمد أمين الحسيني ، والأمير شكيب أرسلان ، ومحمد على علوبة باشا ، وهاشم الأتاسي .

وقدومهم لم يؤثر فى الموقف فقد وصلوا بعد فوات الأوان ، كما لم يكن لهم أي أثر فى وقف الحرب وإعداد العدة للصلح ، وكل ما كان منهم أنهم سمعوا شكوى ابن سعود وحججه ضد الامام ، وأيقنوا أن الحق مع ابن سعود الذى أخبرهم بأنه تلقى برقية من الامام يحيى ، يعلن فيها قبوله شروطه أو مقترحاته .

وأمر ابن سعود بدعوة عبدالله الوزير – وكان بالطائف – فمثُل بين يدي ابن سعود فى يوم ١٤ محرم سنة ١٣٥٣ وأملى عليه الأسس التى تبنى عليها معاهدة الصلح .

وبدأت المفاوضات بين الوفد السعودي برئاسة الأمير خالد بن عبد العزيز والوفد اليمني برئاسة السيد عبدالله الوزير ، واشترك معهم وسطاء الصلح لوضع صيغة المعاهدة على الأسس التى أملاها ابن سعود على رئيس وفد اليمن ، وانتهوا إلى وضعها ووقع عليها الطرفان ، وصدقها ابن سعود ، ثم أرسلت الى الامام يحيى ، ووافق عليها ، فاعتمدت من الحكومتين ، وسميت « معاهدة الطائف » وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الجلالة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية من جهة ، وحضرة صاحب الجلالةالامام

يحيى بن محمد بن حميد ملك اليمن من جهة أخرى .

رغبة منهما فى انهاء حالة الحرب التى كانت قائمة لسوء الحظ فيما بينهما وبين حكومتيهما وشعبيهما ، ورغبة فى جمع كلمة الامة العربية الاسلامية ورفع شأنها وحفظ كرامتها واستقلالها .

ونظراً لضرورة تأسيس علاقات عهدية ثابتة بينهما وبين حكومتيهما وبلاديهما على أساس المنافع المشتركة والمصالح المتبادلة .

وحباً فى تثبيت الحدود بين بلاديهما وانشاء علاقات حسن الجوار وروابط الصداقة الاسلامية فيما بينهما وتقوية دعائم السلم والسكينة بين بلاديهما وشعبيهما .

ورغبة فى أن يكونا عضداً واحداً أمام الملمات المفاجئة ، وبنياناً متراصاً للمحافظة على سلامة الجزيرة العربية قررا عقد معاهدة صداقة اسلامية واخوة عربية فيما بينهما ، وانتدبا لهذا الغرض مندوبين مفوضين عنهما وهما : عن حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية حضرة صاحب السمو الملكي الامير خالد بن عبد العزيز نجل جلالته ونائب رئيس الوزراء ، وعن حضرة صاحب الجلالة ملك اليمن حضرة صاحب السيادة السيد عبدالله بن أحمد الوزير .

وقد منح جلالة الملكين لمندوبيهما الآنفي الذكر الصلاحية التامة والتفويض المطلق ، وبعد أن اطلع المندوبان المذكوران على أوراق التفويض التى بيد كل منهما فوجداها موافقة للأصول قررا باسم ملكيهما الاتفاق على المواد الآتية :

المادة الاولى ــ تنتهى حالة الحرب القائمة بين المملكة العربية السعودية ومملكة اليمن بمجرد التوقيع على هذه المعاهدة وتنشأ بين جلالة الملكين وبلاديهما

وشعبيهما حالة سلم دائم وصداقة وطيدة وأخوة اسلامية عربية دائمة ، لا يمكن الاخلال بها جميعها أو بعضها .

ويتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يحلا بروح الود والصداقة جميع المنازعات والاختلافات التي قد تقع بينهما ، وبأن تسود علاقتهما روح الاخاء الاسلامي العربي فى سائر المواقف والحالات ، ويشهدان الله على حسن نواياهما ورغبتهما الصادقة في الوفاق والاتفاق سراً وعلناً ، ويرجوان منه سبحانه وتعالى أن يوفقهما وخلفاءهما وورثاءهما وحكومتيهما الى السير على هذه الخطة القويمة التي فيها رضا الخالق وعز قومهما ودينهما .

المادة الثانية — يعترف كل من الفريقين الساميين المتعاقدين للآخر باستقلال كل من المملكتين استقلالاً تاماً مطلقاً وبملكيته عليها ، فيعترف حضرة صاحب الجلالة الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية لحضرة صاحب الجلالة الامام يحيى وخلفائه الشرعيين باستقلال مملكة اليمن استقلالاً تاماً مطلقاً وبالملكية على مملكة اليمن ، ويعترف حضرة صاحب الجلالة الامام يحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن، لحضرة صاحب الجلالة الامام عبد العزيز ولخلفائه الشرعيين باستقلال المملكة العربية السعودية استقلالا تاماً مطلقاً بالملكية على المملكة العربية السعودية ويسقط كل منهما أي حق يدعيه فى قسم أو أقسام فى بلاد الآخر خارج الحدود المبينة فى صلب هذه المعاهدة .

ان جلالة الامام عبد العزيز يتنازل بهذه المعاهدة عن أي حق يدعيه من ضمانة حماية أو احتلال أو غيرهما فى البلاد التي هي بموجب هذه المعاهدة تابعة لليمن من البلاد التي كانت بيد الادارسة وغيرها ، كما أن جلالة الامام يحيى ملك اليمن يتنازل بموجب هذه المعاهدة عن أي حق يدعيه باسم الوحدة اليمانية أو غيرها من البلاد التي هي بموجب هذه المعاهدة تابعة للمملكة العربية

السعودية من البلاد التى كانت بيد الادارسة أو آل عايض أو فى نجران وبلاد يـــــام .

المادة الثالثة — يتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على الطريقة التى تكون بها الصلات والمراجعات بما فيه حفظ مصالح الطرفين وبما لا ضرر فيه على ايهما ، على أن لا يكون ما يمنحه أحد الفريقين الساميين المتعاقدين للآخر أقل ما يمنحه لفريق ثالث ، ولا يوجب هذا على أي الفريقين أن يمنح الآخر أكثر مما يقابله بمثله .

المادة الرابعة — خط الحدود الذى يفصل بين بلاد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين موضح بالتفصيل الكافى فيما يلى ، ويعتبر هذا الخط حداً فاصلاً قطعياً بين البلاد التى تخضع لكل منهما :

يبدأ خط الحدود بين المملكتين اعتباراً من النقطة الفاصلة بين ميدى والموسم على ساحل البحر الأحمر الى جبال تهامة فى الجهة الشرقية ، ثم يرجع شمالاً الى أن ينتهي الى الحدود الغربية الشمالية التى بين بنى جماعة ومن يقابلهم من جهة الغرب والشمال ، ثم ينحرف الى جهة الشرق الى أن ينتهي الى ما بين حدود بقعة ووعار التابعتين لقبيلة وائلة وبين حدود يام ، ثم ينحرف الى أن يبلغ مضيق مروان وعقبة رفادة ثم ينحرف الى جهة الشرق حتى ينتهى من جهة الشرق الى أطراف الحدود بين من عدايام من همدان بن يزيد وائلي وغيره وبين يام .

فكل ما عن يمين الخط المذكور الصاعد من النقطة المذكورة التى على ساحل البحر الأحمر الى منتهى الحدود فى جميع جهات الجبال المذكورة فهو من المملكة اليمانية ، وكل ما هو عن يسار الخط المذكور فهو من المملكة العربية السعودية ، فما هو فى جهة اليمن المذكورة فهو ميدى وحرض وبعض قبيلة الحارث والمير وجبال الظاهر وشذا والضيعة وبعض العبادل وجميع بلاد وجبال رازح منبه مع عرو آل الشيخ وجميع بلاد وجبال بنى جماعة وسحار الشام بباد

وما يليها ومحل مريصعة من سحار الشام وعموم سحار ونقعة ووعار وعموم واثلة وكذا الفرع مع عقبة نهوقة من عدايام ووادعة ظهران من همدان بن زيد

هؤلاء المذكورون وبلادهم بحدودها المعلومة ، وكل ما هو بين الجهات المذكورة وما يليها مما لم يذكر اسمه مما كان مرتبطاً ارتباطاً فعلياً أو تحت ثبوت المملكة العربية السعودية قبل سنة ١٣٥٢ كل ذلك ، هو فى جهة يسار الخط المذكور فهو من المملكة العربية السعودية ، وما ذكر من يام ونجران والحضن وزور وأدعة وسائر من هو فى نجران من وائلة فهو بناء على ما كان من تحكيم جلالة الامام يحي لجلالة الملك عبد العزيز فى يام والحكم من جلالة الملك عبد العزيز بأن جميعها تتبع المملكة العربية السعودية ، وحيث أن الحضن وزور وأدعة ومن هو من وائلة فى نجران من وائلة ولم يكن دخولهم فى المملكة العربية السعودية الا لما ذكر فذلك لا يمنعهم ولا يمنع اخوانهم أهل وائلة من التمتع بالصلات والمواصلات والتعاون المعتاد والمتعارف به ، ثم يمتد هذا الخط من نهاية الحدود المذكورة آنفاً بين أطراف قبائل المملكة العربية السعودية وأطراف من عدايام من همدان بن زيد وسائر قبائل اليمن فالمملكة اليمانية كل الاطراف والبلاد اليمانية الى منتهى حدود اليمن من جميع الجهات .

وللمملكة العربية السعودية كل الاطراف والبلاد الى منتهى حدودها من جميع الجهات ، وكل ما ذكر فى هذه المادة من نقط شمال وجنوب وشرق وغرب فهو باعتبار كثرة اتجاه ميل خط الحدود فى اتجاه الجهات المذكورة ، وكثيراً ما يميل لتداخل ما الى كل من المملكتين .

أما تعيين وتثبيت الخط المذكور وتمييز القبائل وتحديد ديارها على اكمل الوجوه فيكون اجراؤه بواسطة هيئة مؤلفة من عدد متساو من الفريقين بصورة ودية أخوية بدون حيف بحسب العرف والعادة الثابتة عند القبائل .

المادة الخامسة ــ نظراً لرغبة كل من الفريقين الساميين المتعاقدين فى دوام

السلم والطمأنينة والسكون وعدم ايجاد أي شيء يشوش الافكار بين المملكتين فانهما يتعهدان تعهداً متقابلاً بعدم احداث أي بناء محصن فى مسافة خمسة كيلومترات فى كل جانب من جانبي الحدود فى كل المواقع والجهات على طول خط الحدود .

المادة السادسة — يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يسحب جنده فوراً عن البلاد التى أصبحت بموجب هذه المعاهدة تابعة للفريق الآخر مع صون الاهلين والجند من كل ضرر .

المادة السابعة — يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يمنع كل منهما أهالى مملكته من كل ضرر وعدوان على أهالى المملكة الأخرى فى كل جهة وطريق ، وبأن يمنع الغزو بين أهل البوادى من الطرفين ، ويرد كل ما يثبت أخذه بالتحقيق الشرعي من بعد ابرام هذه المعاهدة وضمان ما تلف وبما يلزم بالشرع فيما وقع من جناية أو قتل أو جرح بالعقوبة الحاسمة على من ثبت منهم العدوان، ويظل العمل بهذه المادة سارياً إلى أن يوضع بين الفريقين اتفاق آخر لكيفية التحقيق ، وتقدير الضرر والخسائر .

المادة الثامنة — يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين تعهداً متقابلاً بأن يمتنعا عن اللجوء للقوة لحل المشكلات بينهما ، وبأن يعملا جهدهما لحل ما يمكن أن ينشأ بينهما من الاختلاف سواء كان سببه ومنشؤه هذه المعاهدة او تفسير كل أو بعض موادها أم كان ناشئاً عن أي سبب آخر بالمراجعات الودية ، وفى حالة عدم إمكان التوفيق بهذه الطريقة يتعهد كل منهما بأن يلجأ الى التحكيم الذى توضع شروطه وكيفية طلبه وحصوله فى ملحق مرفق بهذه المعاهدة ، ولهذا الملحق نفس القوة والنفوذ اللذين لهذه المعاهدة ، ويحسب جزءاً منها وبعضاً متمماً للكل فيها.

المادة التاسعة — يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يمنع بكل ما

لديه من الوسائل المادية والمعنوية استعمال بلاده قاعدة ومركزاً لأي عمل عدواني أو شروع فيه ، أو استعداد له ضد بلاد الفريق الآخر ، كما أنه يتعهد باتخاذ التدابير الآتية بمجرد وصول طلب خطي من حكومة الفريق الآخر وهي :

١ – إن كان الساعى فى عمل الفساد من رعايا الحكومة المطلوب منها اتخاذ التدابير فبعد التحقيق الشرعي وثبوت ذلك يؤدب فوراً من قبل حكومته بالأدب الرادع الذى يقضى على فعله ويمنع وقوع أمثاله .

٢ – وان كان الساعى فى عمل الفساد من رعايا الحكومة الطالبة اتخاذ التدابير فانه يلقى القبض عليه فوراً من قبل الحكومة المطلوب منها ويسلم الى حكومته الطالبة ، وليس للحكومة المطلوب منها التسليم عذر عن انفاذ الطلب ، وعليها اتخاذ كافة الاجراءات لمنع فرار الشخص المطلوب أو تمكينه من الهرب ، وفى الاحوال التى يتمكن فيها الشخص المطلوب من الفرار فان الحكومة التى فر من أراضيها تتعهد بعدم السماح له بالعودة الى أراضيها مرة أخرى ، وان تمكن من العودة اليها يلقى القبض عليه ويسلم إلى حكومته .

٣ – وان كان الساعى فى عمل الفساد من رعايا حكومة ثالثة فان الحكومة المطلوب منها والتى يوجد الشخص على أراضيها تقوم فوراً وبمجرد تلقيها الطلب من الحكومة الاخرى بطرده من بلادها وعده شخصاً غير مرغوب فيه ويمنع من العودة إليها فى المستقبل .

المادة العاشرة – يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بعدم قبول من يفر من طاعة دولته كبيراً كان أم صغيراً ، موظفاً كان أم غير موظف ، فرداً كان أم جماعة ، ويتخذ كل من الفريقين الساميين المتعاقدين كافة التدابير الفعالة من إدارية وعسكرية وغيرها لمنع دخول هؤلاء الفارين الى حدود بلاده ، فإن تمكن أحدهم أو كلهم من اجتياز خط الحدود بالدخول فى أراضيه فيكون

عليه واجب نزع السلاح من الملتجىء وإلقاء القبض عليه وتسليمه الى حكومة بلاده الفار منها ، وفي حالة عدم امكان القبض عليه تتخذ كافة الوسائل لطرده من البلاد التي لجأ اليها الى بلاد الحكومة التي يتبعها .

المادة الحادية عشرة — يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بمنع الامراء والعمال والموظفين التابعين له من المداخلة بأي وجه كان مع رعايا الفريق الآخر بالذات أو بالواسطة ، ويتعهد باتخاذ كامل التدابير التي تمنع حدوث القلق أو توقع سوء التفاهم بسبب الاعمال المذكورة .

المادة الثانية عشرة — يعترف كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن أهل كل جهة من الجهات الصائرة الى الفريق الآخر بموجب هذه المعاهدة رعية لذلك الفريق الآخر ، ويتعهد كل منهما بعدم قبول أي شخص أو أشخاص من رعايا الفريق الآخر رعية له الا بموافقة ذلك الفريق ، وبأن تكون معاملة رعايا كل من الفريقين في بلاد الفريق الآخر طبقاً للأحكام الشرعية المحلية .

المادة الثالثة عشرة — يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بإعلان العفو الشامل الكامل عن سائر الاجرام والاعمال العدائية التي يكون قد ارتكبها فرد أو أفراد من رعايا الفريق الآخر المقيمين في بلاده ، أي في بلاد الفريق الذي صدر منه العفو ، كما أنه يتعهد بإصدار عفو عام شامل كامل عن أفراد رعاياه الذين لجأوا أو انحازوا بأي شكل من الاشكال وانضموا الى الفريق الآخر عن كل جناية ومال أخذوه منذ لجأوا الى الفريق الآخر الى عودتهم كائناً ما كان أو بالغاً ما بلغ ، وبعدم السماح بإجراء أي نوع من الايذاء أو التعقيب أو التضييق بسبب ذلك الالتجاء أو الانحياز أو الشكل الذي انضموا بموجبه ، واذا حصل ريب عند أحد الفريقين بوقوع شيء مخالف لهذا العهد كان لمن حصل عنده الريب أو الشك من الفريقين مراجعة الفريق الآخر لأجل اجتماع المندوبين الموقعين على هذه المعاهدة ، وأن تعذر على أحدهما الحضور فينيب عنه آخر له كامل الصلاحية والاطلاع على تلك النواحي ممن له كامل الرغبة

والعناية بصلاح ذات البين والوفاء بحقوق الطرفين بالحضور لتحقيق الامر حتى لا يحصل أى حيف أو نزاع ، وما يقرره المندوبان يكون نافذاً .

المادة الرابعة عشرة — يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين برد وتسليم أملاك رعاياه الذين يعفى عنهم اليهم ، أو الى ورثتهم عند رجوعهم الى وطنهم خاضعين لأحكام مملكتهم ، وكذلك يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بعدم حجز أي شيء من الحقوق أو الاملاك التى تكون رعايا الفريق الآخر فى بلاده ولا يعرقل استثمارها او اي نوع من انواع التصرفات الشرعية فيها .

المادة الخامسة عشرة — يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بعدم المداخلة مع فريق ثالث سواء كان فرداً أم جماعة أم هيئة أم حكومة ، أو الاتفاق معه على أي أمر يخل بمصلحة الفريق الآخر أو يضر بمصلحة بلاده أو يكون من ورائه إحداث المشكلات والصعوبات له أو يعرض منافعها أو مصالحها وكيانها للاخطار .

المادة السادسة عشرة — يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان اللذان تجمعهما روابط الأخوة الاسلامية والعنصرية العربية أن امتهما أمة واحدة ، وانهما لا يريدان شراً بأحد ، وانهما يعملان جهدهما لأجل ترقية شؤون أمتيهما فى ظل الطمأنينة والسكون ، وانهما يبذلان وسعهما فى سائر المواقف لما فيه الخير لبلاديهما وأمتهما غير قاصدين بهذا أي عدوان على أية أمة أخرى .

المادة السابعة عشرة — فى حالة حصول اعتداء خارجي على بلاد أحد الفريقين الساميين المتعاقدين يتحتم على الفريق الآخر أن ينفذ التعهدات الآتية :

١ — الوقوف على الحياد التام سراً وعلناً .

٢ — المعاونة الأدبية والمعنوية الممكنة .

٣ — الشروع فى المذاكرة مع الفريق الآخر لمعرفة أنجح الطرق لضمان

سلامة بلاد ذلك الفريق الآخر ومنع الضرر عنها والوقوف فى موقف لا يمكن تأويله بأنه تعضيد للمعتدى الخارجي .

المادة الثامنة عشرة – فى حالة حصول فتن أو اعتداءات داخلية فى بلاد أحد الفريقين الساميين المتعاقدين يتعهد كل منهما تعهداً متقابلاً بما يأتى :

١ – اتخاذ التدابير الفعالة اللازمة لعدم تمكين المعتدين أو الثائرين من الاستفادة من اراضيه .

٢ – منع التجاء اللاجئين الى بلاده وتسليمهم أو طردهم اذا لجأوا اليها كما هو موضح فى المادة التاسعة والعاشرة .

٣ – منع رعاياه من الاشتراك مع المعتدين أو الثائرين وعدم تشجيعهم أو تموينهم .

٤ – منع الامدادات والأرزاق والمؤن والذخائر عن المعتدين أو الثائرين .

المادة التاسعة عشرة – يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان رغبتهما فى عمل كل ممكن لتسهيل المواصلات البريدية والبرقية وزيادة الاتصال بين بلاديهما وتسهيل تبادل السلع والحاصلات الزراعية والتجارية بينهما ، وفى اجراء مفاوضات تفصيلية من أجل عقد اتفاق جمركي يصون مصالح بلاديهما الاقتصادية بتوحيد الرسوم الجمركية فى عموم البلادين أو بنظام خاص بصورة كافلة لمصالح الطرفين ، وليس فى هذه المادة ما يقيد حرية أحد الفريقين الساميين المتعاقدين فى أي شيء حتى يتم عقد الاتفاق المشار اليه .

المادة العشرون – يعلن كل من الفريقين الساميين المتعاقدين استعداده لأن يأذن لممثليه ومندوبيه فى الخارج إن وجدوا بالنيابة عن الفريق الآخر متى أراد الفريق الآخر ذلك فى أي شيء وفى أي وقت ، ومن المفهوم أنه حينما يوجد فى ذلك العمل شخص من كل الفريقين فى مكان واحد فانهما يتراجعان فيما بينهما لتوحيد خطتهما للعمل العائد لمصلحة البلادين التى هي واحدة. والمفهوم أن

هذه المادة لا تقيد حرية أحد الجانبين بأي صورة كانت فى أي حق له ، كما انه لا يمكن أن تفسر بحجز حرية أحدهما أو اضطراره لسلوك هذه الطريقة .

المادة الحادية والعشرون – يلغى ما تضمنته الاتفاقية الموقع عليها فى ١٥ شعبان سنة ١٣٥٠ هـ على كل حال اعتباراً من تاريخ ابرام هذه المعاهدة .

المادة الثانية والعشرون – تبرم هذه المعاهدة وتصدق من قبل صاحبي الجلالة الملكين فى أقرب مدة ممكنة نظراً لمصلحة الطرفين فى ذلك ، وتصبح نافذة المفعول من تاريخ تبادل وثائق ابرامها مع استثناء ما نص عليه فى المادة الاولى بإنهاء حالة الحرب بمجرد التوقيع ، وتظل سارية المفعول مدة عشرين سنة قمرية تامة ، ويمكن تجديدها أو تعديلها خلال الستة الأشهر الاولى التى تسبق تاريخ انتهاء مفعولها ، فان لم تجدد أو تعدل فى ذلك التاريخ تظل سارية المفعول الى ما بعد ستة أشهر من اعلان أحد الفريقين المتعاقدين للفريق الآخر رغبته فى التعديل .

المادة الثالثة والعشرون – تسمى هذه المعاهدة بمعاهدة الطائف ، وقد حررت من نسختين باللغة العربية الشريفة ، بيد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين نسخة ، واشهاداً بالواقع وضع كل من المندوبين المفوضين توقيعه .

وكتب فى مدينة جدة فى اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف (١٣٥٣) .

(التوقيع)	(التوقيع)
عبدالله بن أحمد الوزير	خالد بن عبد العزيز السعود

وألحق بالمعاهدة « عهد تحكيم » وثلاث رسائل لكل من الجانبين ، ولها جميعاً قوة المعاهدة ، وها هوذا عهد التحكيم مع الرسائل :

بسم الله الرحمن الرحيم

عهد التحكيم

بين مملكة اليمن وبين المملكة العربية السعودية

بما أن حضرة صاحبي الجلالة الإمامين الملك يحيى ملك اليمن والملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية قد اتفقا بموجب المادة الثامنة من معاهدة الصلح والصداقة وحسن التفاهم المسماة بمعاهدة الطائف والموقع عليها فى السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف على أن يحيلا إلى التحكيم أي نزاع أو اختلاف ينشأ عن العلاقات بينهما وبين حكومتيهاوبلاديهما متى عجزت سائر المراجعات الودية عن حل فإن الفريقين الساميين المتعاقدين يتعهدان بإجراء التحكيم على الصور المبينة فى المواد الآتية :

المادة الأولى : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يقبل إحالة القضية المتنازع عليها على التحكيم خلال شهر واحد من تاريخ استلام طلب إجراء التحكيم مع الفريق الآخر إليه .

المادة الثانية : يجرى التحكيم من قبل هيئة مؤلفة من عدد متساو من المحكمين ينتخب كل فريق نصفهم ، ومن حكم وازع ينتخب باتفاق الفريقين الساميين المتعاقدين ، وإن لم يتفقا على ذلك يرشح كل منهما شخصاً فإن قبل أحد الفريقين المرشح الذى يقدمه الفريق الآخر فيصبح وازعاً ، وإن لم يكن الاتفاق على ذلك تجرى القرعة على أيهما يكون وازعاً ، مع العلم بأن القرعة لا تجرى إلا على الأشخاص المقبولين من الطرفين ، فمن وقعت القرعة عليه أصبح رئيساً لهيئة التحكيم ووازعاً للفصل فى القضية ، وإن لم يحصل الاتفاق على الأشخاص المقبولين من الطرفين تجرى المراجعات فيما بعد إلى أن يحصل الاتفاق على ذلك .

المادة الثالثة : يجب أن يتم اختيار هيئة التحكيم ورئيسها خلال شهر واحدمن

انقضاء الشهر المعين لإجابة الفريق المطلوب منه الموافقة على التحكيم لقبوله لطلب الفريق الآخر ، وتجتمع هيئة المحكمين فى المكان الذى يتم الاتفاق عليه فى مدة لا تزيد عن شهر واحد بعد انقضاء الشهرين المعينين فى أول المادة ، وعلى هيئة المحكمين أن تعطى حكمها خلال مدة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تزيد عن شهر واحد من بعد انقضاء المدة التى عينت للاجتماع كما هو مبين أعلاه ، ويُعطَى حكم هيئة التحكيم بالأكثرية ، ويكون الحكم ملزما للفريقين ، ويصبح تنفيذه واجباً بمجرد صدوره وتبليغه ، ولكل من الفريقين الساميين المتعاقدين أن يعين الشخص أو الأشخاص الذين يريدهم للدفاع عن وجهة نظره أمام هيئة التحكيم وتقديم البيانات والحجج اللازمة لذلك .

المادة الرابعة : أجور محكمى كل فريق عليه ، وأجور رئيس هيئة التحكيم مناصفة بينهما ، وكذلك الحكم فى نفقات المحاكمة الأخرى .

المادة الخامسة : يعتبر هذا العهد جزءاً متمماً لمعاهدة الطائف الموقع عليها فى هذا اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف ، ويظل سارى المفعول مدة سريان المعاهدة المذكورة ، وقد حرر هذا من نسختين باللغة العربية يكون بيد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين نسخة ، وقرارا بذلك جرى توقيعه فى اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف .

التوقيع	التوقيع
عبدالله بن أحمد الوزير	خالد بن عبد العزيز السعود

— ١ —

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر فى ٦ صفر سنة ١٣٥٣ هـ .

من خالد بن عبد العزيز السعود إلى حضرة الأخ صاحب السيادة السيد عبدالله

ابن أحمد الوزير المندوب المفوض من قبل جلالة الإمام يحيى حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله — أما بعد ، فإنه بمناسبة توقيع معاهدة الطائف بيننا وبينكم نيابة عن جلالتي ملكي المملكة العربية السعودية والمملكة اليمانية أحب أن أثبت لكم فى كتابى هذا أنه لا يمكن اعتبار تلك المعاهدة وقبول إنفاذ مقتضاها إلا فى اثبات ما يأتى :

١ — أن يجرى تسليم الأدارسة وإخلاء جبالنا فى تهامة واطلاق رهائن أهلها حالا .

٢ — أن يظل مضمون هذه المعاهدة مكتوماً ولا ينشره أحد الفريقين ولاسيما ما يتعلق منها بمسألة الحدود لما يحدث ذلك من التشويش فى تهامة خاصة وأن انسحاب جند جلالة الملك عبد العزيز يكون بكامل الصيانة والشرف من ابتداء انسحابه إلى آخره وكل حادث عدواني عليه فى خلال تلك المدة يكون مضموناً من قبل جلالة الإمام يحيى ، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام :

— ٢ —

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر فى ٦ صفر سنة ١٣٥٣ .

من عبدالله الوزير إلى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير خالد المفوض من قبل جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله تعالى .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فقد تلقيت كتاب سموكم تاريخ ٦ صفر سنة ١٣٥٣ وقد أحطت علماً بما اشترطتموه سموكم لإنفاذ معاهدة الطائف التى عقدت بين الفريقين من تسليم الأدارسة وإخلاء الجبال التى كانت محتلة من قبل جنود جلالة الإمام يحيى من بلاد جلالة الملك عبد

العزيز وإطلاق رهائن أهلها ، وأن تظل هذه المعاهدة مكتومة وعلى الأخص مسألة الحدود إلى أن يتم ترتيب الاتفــاق الذى اتفقنــا عليه لانفاذه ، وإن انسحاب جند جلالة الملك عبد العزيز يكون بكامل الصيانة والشرف بدون حادث من ابتــداء انسحابه إلى آخره ، وأن كل عدوان عليه فى خلال تلك المدة يكون مضموناً من قبل جلالة الإمام يحيى لقد أحطت علماً بذلك ويسرنى أن أعلن سموكم بقبولنا وموافقتنا لاشتراطكم وأنه سيكون مرعياً من جهتنا . وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

(التوقيع)
عبدالله الوزير

ـ ٣ ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تحريراً فى ٦ صفر سنة ١٣٥٣ .

من عبدالله الوزير إلى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير خالد المفوض من قبل جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد: فأتشرف بأن أثبت هنا إلحاقا بمعاهدة الطائف الموقع عليها من سموكم نيابة عن جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله والموقعة من قبلى نيابة عن جلالة الملك الإمام يحيى وأتعهد باسم جلالة الإمام يحيى بما هو آت :

١ ـ يتسلم الأدارسة لجلالة الملك عبد العزيز ، وقد عملت الترتيبات اللازمة لتسليم السيد الحسن والسيد عبد العزيز بن محمد الادريسي ، وسيسلمون حالا لرجال سمو الأمير فيصل فى تهامة ، أما السيد عبد الوهاب الادريسي فنظراً لأنه لا يزال إلى الآن فى بلاد العبادل فقد اتخذت الوسائل والوسائط لاستدعائه من

تلك الأنحاء لتسليمه فإن لم يطع الأمر فأتعهد باسم جلالة الإمام يحيى بشأنه بما يأتي :

(أ) أن تمتنع حكومة الإمام يحيى عن كل مساعدة مادية أو معنوية له وأن تمنع عنه من بلادها أي معاضدة أو معاونة .

(ب) إذا أرادت حكومة جلالة الملك عبد العزيز القبض عليه فى الأراضى التى هو فيها فإن حكومة الإمام يحيى ستعمل من جهتها سائر أنواع التضييقات العسكرية التي تستطيعها لمنع فراره إلى أراضيها ، وتتعهد أن تلقي القبض عليه وعلى كل شخص اشترك معه فى حركته فى أي جهة وقبيل من قبائل المملكة العربية السعودية وأن تسلمهم لحكومة جلالة الملك عبد العزيز بغير شرط ولا قيد إذا دخلوا إلى جهات المملكة اليمانية ، وأن تمنع فراره أو فرار أي شخص من الذين اشتركوا معه فى عمله إلى الخارج إذا دخلوا إلى أراضى المملكة اليمانية .

٢ — أما من كان له تعلق بالأدارسة وحركتهم من الاشراف أو غيرهم فإذا أرادوا اللحاق بالادريسي فلهم الأمان من قبل حكومة جلالة الملك عبد العزيز والصيانة والاحترام والإكرام اللائق بحقهم، وإذا لم يشاءوا ذلك فإنهم يخرجون من بلاد جلالة الإمام يحي ، ولا يسمح لهم بالبقاء فيها ، وإذا عادوا إليها مرة أخرى فيطردون حالا ، وينذرون بأنهم اذا عادوا إلينا يسلمون إلى حكومة جلالة الملك عبد العزيز ، فان عادوا بعد طردهم فأتعهد باسم جلالة الامام يحيى بتسليمهم إلى حكومة جلالة الملك عبد العزيز بغير قيد ولا شرط ، فأرجو أن تعتبروا هذا سموكم عهداً وثيقاً له منزلة المعاهدة المعقودة بيننا وبين سموكم بهذا اليوم ، وعلى هذا عهد الله وميثاقه ، وأرجو أن يكون هذا طبقاً للاتفاق الشفوي الذى اتفقنا عليه فى هذا الشأن .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

(التوقيع)

عبدالله بن أحمد الوزير

— ٥ —

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر في ٦ صفر سنة ١٣٥٣ .

من خالد بن عبد العزيز إلى حضرة صاحب السيادة الأخ السيد عبدالله بن أحمد الوزير المندوب المفوض من قبل جلالة الملك الإمام يحيى — حفظه الله تعالى .

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد ؛ فأتشرف بأن أعلمكم باستلامى كتاب سيادتكم بتاريخ اليوم بشأن ما تعهدتم به باسم جلالة الامام يحيى بشأن الادارسة وأتباعهم ، وأنا على ثقة بأن ما تعهدتم به سيكون تنفيذه بمقتضى الأمانة والوفاء المأمول فى جلالة الامام يحيى ، ونتمنى أن يكون تنفيذ ذلك بأسرع مدة ممكنة .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

التوقيع

خالد بن عبد العزيز السعود

— ٥ —

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر في ٦ صفر سنة ١٣٥٣

من خالد بن عبد العزيز إلى حضرة المكرم السيد عبدالله الوزير حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فبمناسبة توقيع معاهدة الطائف بين مملكتنا ومملكة اليمن اثبت هنا ما اتفقنا عليه بشأن تنقلات المتنقلين من رعايا

المملكة العربية السعودية ورعايا المملكة اليمانية فى البلدين أن التنقل فى الوقت الحاضر يظل على ما كان عليه فى السابق إلى أن يوضع بين البلادين اتفاق خاص بشأن الطريقة التى ترى الحكومتان متفقتان اتخاذها من أجل تنظيم الانتقال سواء للحج أو التجارة أو غيرها من الأغراض والمنافع ، فأرجو أن أنال جوابكم بالموافقة على ما اتفقنا عليه بهذا الشأن .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام . التوقيع

خالد بن عبد العزيز السعود

— ٦ —

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر ٦ صفر سنة ١٣٥٣ .

من عبدالله الوزير إلى صاحب السمو الملكي الأمير خالد المفوض من قبل جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد : فقد تلقيت كتاب سموكم بتاريخ ٦ صفر بشأن تنقلات رعايا الفريقين بين البلدين، واننى على اتفاق مع سموكم فى أن يكون الانتقال فى الوقت الحاضر طبقاً للطريقة التى كان السير عليها من قبل إلى أن يوضع اتفاق خاص بشأن تنظيم الانتقال فى المستقبل وأن ذلك سيكون مرعياً من جانب حكومتنا كما هو مرعي من جانب حكومتكم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام . (التوقيع)

عبدالله بن أحمد الوزير

وبعد أن اطلع الامام يحيى على المعاهدة وعهد التحكيم والكتب المتبادلة كتب بخطه ما يلي :

« فبعد أن أطلعنا على هذه المعاهدة السالفة الذكر وعلى عهد التحكيم والكتب

التي الحقت بها وأمعنا النظر فيها صدقناها وقبلناها وأقررناها جملة فى مجموعها ومفردة فى كل مادة وفقرة منها، كما أننا نصدقها ونبرمها ونتعهد ونعد وعداً ملوكياً صادقاً بأننا سنقوم بحول الله بما ورد فيها، ونلاحظه بكمال الأمانة والاخلاص، وبأننا لن نسمح بمشيئة الله بالإخلال بها بأي وجه كان طالما نحن قادرون علـى ذلك وزيادة فى تثبيت صحة كل ما ذكر فيها أمرنا بوضع خاتمنا على هذه الوثيقة ووقعناها بيدنا والله خير الشاهدين.

حرر فى اليوم السابع من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف، وهذه أول اتفاقية ومعاهدة بيننا وبين حضرة أخينا جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن.

كتب هذا أمير المؤمنين يحيى بن محمد حميد الدين سامحهما الله تعالى.

وفى يوم ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ تسلم الأمير فيصل بن عبد العزيز من الحكومة اليمنية السيد الحسن الادريسي والسيد عبد العزيز الادريسي ومعهما أسرهما وحاشيتهما البالغ عددهم ثلاثمئة نفس، وكان تسلمه إياهم فى الحديدة، واستقبلهم استقبال الإخوة الكرام البررة، ومنحهم الحرية، ووضع فى خدمتهم خير رجاله، وكرمهم تكريما ما جعل السيد الحسن يتأثر تأثراً عظيما، ويرفع يديه بالدعاء للملك عبد العزيز وابنه فيصل، ثم يكتب هذه البرقية للملك، وهذا نصها:

«جلالة الملك عبد العزيز أيده الله

شملنا إحسان واعتناء نجلكم الموفق فى الحل والترحال إلى أن وصلنا الحديدة فى يومنا هذا فى الساعة العاشرة، فنشكركم على حلمكم وحسن مكارمكم، والسلام عليكم».

فى ١٤ ربيع الأول ١٣٥٣ هـ

فأجابه الملك عبد العزيز على برقيته ببرقية تفصح عن عظمته ومبلغ ما يتحلى به من مكارم الأخلاق النادرة التي لا نجدها إلا في نوادر عظماء الانسانيين الذين يعيشون في صميم المثل العليا ، وهذا جواب ابن سعود :

« الأخ الحسن الادريسي

« الحمد لله على وصولكم بالسلامة ، تفهم – بارك الله فيك – أن هذه الأمور التي جرت هي بتقدير الباري ثم أسباب اعتدائكم ، وإلا فنحن إن شاء الله كما تعلمون معكم عاجلا وآجلا ، والأمور التي فاتت لا شك انها قضاء وقدر ، وأنتم كونوا مطمئني الخاطر على أننا لا نتغير عليكم ، وأنتم إن شاء الله لا ترون الا ما يسركم في جميع الحالات ، حالكم حالنا ، والله يوفقكم »

١٥ ربيع الأول ١٣٥٣

وبعد ايام تسلم الأمير فيصل في الحديدة السيد عبد الوهاب الادريسي الذي كان من أشد الثائرين لددا في الخصومة ، وكان صعب المراس ، وحارب ابن سعود حربا ضارية ، ولكن عظمة ابن سعود وانسانيته العظمى وخلائقه المثلى جعلته يعفو عن السيد عبد الوهاب الادريسي – كما عفا عن كل أعدائه الأشداء عندما ظفر بهم – ويسعه حلمه وكرمه .

وعندما وصل السيد عبد الوهاب واستقبله الأمير فيصل استقبال أخ كريم لم يتمالك نفسه من الهتاف باسم عبد العزيز والدعاء له من صميم قلبه ، ثم الشكر للأمير فيصل الذي كانت مقابلته الكريمة له بردا وسلاما هبطا عليه ، وبعث السيد عبد الوهاب إلى الملك عبد العزيز البرقية التالية :

« جلالة الملك الوالد عبد العزيز أيده الله

وصلنا الحديدة بالسلامة ، وقد رأينا من سمو نجلكم المعظم فيصل كل

إكرام ، وقابلنا أحسن مقابلة ، نسأله تعالى أن ينصركم على أعدائكم ، ويديم لنا عطفكم وشفقتكم الأبوية ، ونؤمل من مراحمكم أن تصفحوا عنا ما مضى ، لا زلتم موفقين .

ولدكم
عبد الوهاب الادريسي

وجاءه جواب الملك عبد العزيز فى هذه البرقية

« الحمد لله على وصولكم بالسلامة ، من قبَل إكرام الابن فيصل لكم ، فهذا شيء واجب وحق لكم ، وتذكرون أننا نعفو عنكم عما فات ، بارك الله فيكم ، ما فعلتم معنا شيئا ، إنما فعلكم فى أنفسكم ، والحقيقة أننا نأسف على ما حصل ، وأنتم ليثبت لديكم ثلاثة أمور :

أولا — أننا نشفق على كل عربي .

ثانيا — إن الصداقة التى بيننا وبين والدكم محمد بن إدريس لا ننساها ولو لم يبق منكم غير امرأة واحدة .

ثالثا — لو أنكم فاعلون جميع الأفعال وتأتون إلى محلنا ومقامنا فاننا ننسى ما فعلتم ، ولا ترون منا إلا الإكرام عاجلا وآجلا »

عبد العزيز

وقد لقيت السيد عبد الوهاب الادريسي وغيره من الادارسة غير مـــرة فوجدتهم مخلصين لابن سعود ، ويكثرون الشكر له والثناء عليه .

وبعودة الادارسة إلى ابن سعود انتهت الحرب اليمنية السعودية بالصفاء والمودة بين اليمن والمملكة العربية السعودية .

ولا شك أن هذه المعاهدة قد أعادت الصفاء بين الشعبين : السعودي واليمني وأوجدت بين العاهلين والمملكتين صلات ودية وروابط أخوية محت ما كان بفضل الله ثم بفضل الملكين .

واذا كان قد تم هذا — والحمد لله — فإن هناك حوادث وقعت ، يجب ألا يغفلها التاريخ ، لأنها حوادث بالغة الخطر لو لم يدفعها الله عز وجل عن الجزيرة العربية لتغير وجه تاريخها ، والفضل لله ثم لحنكة فيصل السياسية وحكمته وعبقريته.

ففي يوم الجمعة ٢٠ محرم سنة ١٣٥٣ ظهرت قطع من الأسطول البحري الإيطالي وقطع من الاسطول البحري البريطاني قرب ميناء الحديدة ، وفي يوم السبت ٢١ محرم دخلته القوات السعودية ؛ وفي يوم الأحد ٢١ محرم دخل الأمير فيصل الحديدة التي استقبله سكانها بحماسة وحفاوة .

وفي هذه الأثناء رست قطع البحرية الايطالية على الميناء ، وأخذ الجنود الايطاليون ينزلون إلى البحر ، فوقفت القوات السعودية في وجوههم ، ومنعوهم من النزول ، ولم يستعملوا إلا الحسنى في التفاهم ، وأرسل الأمير فيصل إلى القائد الايطالي رسولا يرجوه أن يمنع نزول جنوده إلى البحر ، لأن الحرص على السلام والمودة يحمله على هذا الرجاء الذي يعتقد أن القائد نفسه يرجوه ، ثم بعد ذلك مستعد للتفاهم .

وأثرت رسالة فيصل في القائد الايطالي وعاد جنوده إلى السفينة الحربية ريثما يتم التفاهم مع القائد الأعلى للقوات السعودية الذي تعهد بضمانة سلامة كل رعايا الدول الأجنبية وأمنهم وعصمة أرواحهم وأهليهم وممتلكاتهم .

وهذه الحرب لم تكن لترضي الايطاليين الذين رأوا قوات ابن سعود تكتسح القوات اليمنية وتحتل أراضي الامام يحيى بسرعة ، ولم يكن عدم رضاهم بسبب الانسانية وحب السلام ، بل لأن الامام يحيى صديقهم الحميم ، وهم طامعون

فى استعمار اليمن ، فاذا سبقهم ابن سعود إلى احتلالها فحلمهم لن يتحقق .

والانجليز يخشون دخول الايطاليين جزيرة العرب وبخاصة اليمن التى تستطيع قطع طريق الهند على بريطانيا .

وإيطاليا فى ذلك العهد برزت فى صف الدول الكبرى على يد موسولينى الذى كان يهدد الانجليز ويوجه اليهم سهام نقده العنيف ، وكان طامعا فى انشاء امبراطورية تمتلك فى افريقية وآسيا مستعمرات كما تملك بريطانيا .

وقد احتاط ابن سعود لتدخل الأجانب ، وقبيل احتلال الحديدة وجهت وزارة الخارجية السعودية إلى ممثلى الدول الأجنبية فى جدة مذكرة هذا نصها :

« اتشرف بابلاغكم ان قوات الامام يحيى انسحبت من تهامة وتركت البلاد تحتلها قوات جلالة الملك ، وكانت النتيجة ان جنود الملك احتلت ميدى فى ١٢ محرم (٢٦ ابريل) واللحية فى ١٧ منه ، وتلقت الاوامر بالتقدم لاستلام الحديدة وفهم ان القوات اليمنية انسحبت منها .

« وبناء على هذا فقد اصبحت حكومة الملك مسؤولة عن ادارة البلاد التى تم احتلالها ، وبالطبع فقد اخذت على عهدتها فى الوقت المناسب أمر البلاد التى تم احتلالها حديثاً .

« واحب ان أؤكد لكم ان مهمة حكومة الملك ستكون قائمة على توزيع العدل ، وتأمين الخائف ، وحفظ حق الضعيف ، كما انها تحرص كل الحرص على سلامة النزلاء الاجانب الموجودين فى البلاد المحتلة ، ولا تفرق بينهم فى المعاملة ، وستبذل جهدها لتأمين وتقديم التسهيلات والمساعدات اللازمة لهم .

ان القوات التى يقودها الأمير فيصل تقدمت من اللحية إلى الحديدة للقبض على ناصية الحال واقرار السكينة والامان ، وينتظر ان يكون وصولها وقيامها بالواجب فى أقرب فرصة » .

ثم أصدرت وزارة الخارجية السعودية هذا البلاغ :

« دخل الأمير فيصل الحديدة صباح الاحد ٦ مايو وتولى مقاليدها ، اليوم سافرت الباخرة « الحق » تقل البعثة المكلفة بتنظيم الادارة المالية فى الحديدة برئاسة وزير المالية ومعه موظفون اداريون وماليون وقوة من الشرطة » .

وجرت اتصالات بين القائد الايطالي والأمير فيصل انتهت بسلام إلى بقاء الجنود الايطاليين فى بارجتيهم الحربيتين ريثما تنجلى الأمور ، ويستطيعون أن يعدوا أنفسهم ضيوف السعوديين ، ولن يجدوا غير التكريم والحفاوة .

واستطاع فيصل بحكمته أن يكبح جماح الايطاليين ، ويمنعهم من النزول دون أن يثيرهم حتى يبتعدوا عن الحديدة .

ثم لما انتهت الحرب وتخلت القوات السعودية عن الأراضى اليمنية التى احتلتها لم تعد الحاجة إلى مراقبة الحالة من قبل الايطاليين والانجليز ، وانصرفوا عن العرب ليعملوا فيما بينهم على إيجاد مناطق نفوذ لهم فى البحر .

والحرب بين ابن سعود والامام يحيي لم تكن كما ينبئ عنها مظهرها ، فهي لم تكن حربا بين عاهلين وحسب ، بل كانت حربا بين الدعوة الاسلامية التى يمثلها ابن سعود وبين الاستعمار الذى استخدم الامام يحيى ، ولم يفطن السياسيون والزعماء العرب لهذه الحقيقة ، وغفلوا عن مطامع موسولينى فى اليمن ، وقد مهد لذلك بمعاهدة صداقة بين اليمن وايطاليا ليفتح باب اليمن أمام الايطاليين ، وتمت المعاهدة فى سنة ١٩٢٦ (١٣٤٥) .

واستطاعت ايطاليا أن تجتذب اليمن اليها ، فقد أغرقتها بالأعطيات والهدايا والمساعدات التى كان لها الفضل فى إبرام تلك المعاهدة الايطالية اليمنية ، ودخل اليمن عدد من الايطاليين .

وفى الوقت الذى كانت الحرب مشتعلة بين ابن سعود والامام يحيي كانت

مطامع موسوليني ظاهرة للعالم ، فهو مصمم على انشاء امبراطورية أو إعــادة امبراطورية روما القديمة ، ويقتضي ذلك منه استعمار بلدان فى آسيا وافريقيا ، وها هي ذى اليمن تدخل معه فى معاهدة تخول لايطاليا بعض النفوذ الذى يمكن أن ينقلب استعمارا ، ووجود علاقة طيبة وشيجة بين اليمن وايطاليا يسمح له باستعمار الحبشة الذى أعد له خطته ، وينتظر أوانه .

وقد تمت معاهدة الصلح بين ابن سعود واليمن فى شهر صفر سنة ١٣٥٣ ونشبت الحرب بين ايطاليا والحبشة فى أواخر شهر رجب سنة ١٣٥٤(٣ اكتوبر ١٩٣٥) وانتصر موسوليني واحتل الحبشة كلها ، وخرج عاهلها هيلا سلاسى طريدا .

وزادت مطامع موسوليني فى اليمن والبحر الاحمر ، وكانت المملكــة السعودية يقظة لمطامعه ، ولهذا كانت ترقب صلاته باليمن ، لأن الحرب التى كانت بينها وبين ابن سعود التى انتهت بتلك المعاهدة لم ترض الايطاليين ودول الاستعمار الغربي ، فقد كان انتصار ابن سعود نصرا للاسلام ، وهذا أمر يبعث على القلق بالنسبة لخصومه .

والامام ليس من الغباء إلى حد ألا يفطن لما يريد الاستعمار بالإسلام ، بل يعرف ذلك ، ولكنه هو — أيضا — خصم الوهابية ويتمنى موتها ، ولست بهذا أذهب إلى أن الإمام يحيى كان ضد الإسلام ، بل هو أحد أئمته ، إلا أنه يرى الوهابية خارجة على الاسلام ، فهو لهذا على غير وفاق معها ، وإذا كنت لا أذهب إلى أن الامام ضد الاسلام فانني أقرر — هنا — أنه كان على خطإ شنيع فى اعتقاده أن الوهابية خارجة على الإسلام .

والشيء الذى غفل عنه الإمام وأمثاله من الحكام أن الوهابية فى حقيقتها يقظة الإسلام فى القرنين الماضيين ، ولم تقم حركة فى العالم خلالهما تعتبر حركة الإسلام الكبرى القوية إلا حركة الإمام محمد بن عبد الوهاب التى كانت نذيرا

للاستعمار والحكام الغافلين المبتدعين من العرب والمسلمين .

ومن الغريب أن تتفق الحكومات المسلمة مع الاستعمار فى محاربة الحركة الوهابية أو لا غرابة ، فهذه اليقظة خطر على الحكومات المسلمة خطرها على الاستعمار ، وهذا سبب محاربتها فى موطنها الأول وفى كل مكان .

فاذا حورب ابن سعود من قبل من حاربوه فانما كانت كل تلك الحروب دينية ، فابن سعود نفسه وهابي ، وهو زعيم الوهابية ، والمسئول الأول عنها؛ لأنه إمامها الاعظم .

حاربه ابن صباح ، وابن الرشيد ، والحسين ، وأخيرا الإمام يحيى ، حاربوه جميعا وهم يرون أنهم يحاربون الوهابية فى شخصه ، وأما حرب الإمام إياه فقد اشترك فيها الاستعمار .

وقد أشرت إلى ذلك فى بحث لى نشر بجريدة « البلاد » السعودية العدد ٨٣٣ الصادر فى يوم الجمعة ٤ شعبان سنة ١٣٩١ (٢٤ سبتمبر ١٩٧١) وهذه فقرات منه :

« ما كانت مغامرة عبد العزيز بروحه وارواح رجاله من أجل السلطة وحدها ، لأن مغامرة كهذه من قبل عبد العزيز لن تكون كفاءها سلطة وحسب .

« وما كان عبد العزيز ليثور على حكام بلاده لو كانوا حاكمين بالقرآن ، وما غامر اسلافه لولا الايمان بضرورة الجهاد من أجل سيادة القرآن .

« والدولة السعودية منذ نشأتها الاولى قبل قرنين حتى هذا التاريخ الذى تكتب فيه هذه الكلمات وليد الدعوة الاسلامية التى قام بها المصلح العظيم الامام محمد ابن عبد الوهاب ، بل لا يمكن الفصل بين الدولة والدعوة ، فهما كيان موحد .

« ونجحت الدعوة الدينية لانها قامت على اساس الاسلام الصحيح الذى

يقوم على الروح والجسد ، والدين والدنيا والدولة .

« وهذه الحركة التى انبعثت في نجد فى وقت غرق فيه العالم الاسلامي والعربي فى الخرافات والبدع والوثنيات كانت الحركة الاولى فى العصور الاخيرة ، كما كانت الحركة التى غذت الحركات التى عاصرتها أو تلتها .

« واخافت الحركة الاستعمار كما اخافت العناصر غير المؤمنة المحيطة بالخلافة ، وتضافرت مخاوفهم ومخاوف العلماء المرتزقين المستفيدين من جهل العامة على محاربة الدعوة فى كل الميادين .

« وفى الوقت الذى قام عبد العزيز بحركته كان الاستعمار الغربي يسيطر على العالم الاسلامي والعربي سيطرة مباشرة أو بوساطة نفوذه وقواه ومؤامراته ومكائده ، ويضاف إلى ذلك أن العالم العربي والاسلامي قد انتهى إلى حال من الضعف والضعة والتخلف والتأخر والجهل لا توصف .

« والحكام العرب كانوا ضعافا ، فبعضهم واقع تحت نفوذ الاستعمار المباشر ، وبعضهم تحت النفوذ غير المباشر ، وبعضهم كان مواليا تابعا لدولة الخلافة التى اضعفتها مؤامرات الاستعمار والحروب مع روسيا القيصرية .

« وخلا العالم الإسلامي والعربي من زعيم يجدد شباب الاسلام ويقود حركته ، وبينا الأمر كذلك ينهض عبد العزيز ليحيي دولة الاسلام التى اوجدتها دعوة شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب .

« وعبقرية عبد العزيز السياسية والادارية وذكاؤه والمعيته جعلته يخفى القوة التى ستكون خطرا على الاستعمار لئلا يقضى عليها فى مبدأ أمرها ، فلم يجعل لنفسه لقب الملك ، بل قنع بأن يكون لقبه متواضعا .

«وعندما نشبت الحرب الكبرى سنة ١٣٣٢(ﻫ ١٩١٤ م) دعا ابن سعود إلى أن

يتحد حكام العرب ، وكتب اليهم ، وممن اتصل بهم من هؤلاء الحكام : الحسين ابن علي ، والامام يحيى ، والصباح ، والرشيد ، وكانت الدعوة إلى اتخاذ خطة موحدة فى هذه الحرب والافادة منها ، والعمل من اجل الاسلام الذى يـراد اضعافه واضعاف المسلمين .

« ومع أن رسائل ابن سعود فى هذه الفترة التى تبدأ من سنة ١٣٣٢ هـ إلى سنة ١٣٣٦ هـ كان يمضيها تحت هذه الالقاب « خادم الدولة والملة والوطن أمير نجد وشيخ عشائرها » فإنه كان مدركا ان الخلافة تتعرض لمحنة قاسية قد تودى بها ، فدول الغرب التى اجتمعت على حرب المانيا وحليفتها دولة الخلافة ستعمل على تقويض الخلافة ليتسنى لها اغتصاب الاقطار التى تتكون منها .

« ولكن رسائله لم تجد جوابا ، وكان كل حاكم يعمل وفق مصلحتـه الشخصية ، فاضطر ابن سعود إلى العناية بما تحت يده .

« واذا كان كل حاكم يعمل لمصلحته ويهتدى برأيه فان ابن سعود كان يهتدى بالقرآن يأتمر بأمره وينتهي بنهيه ، وكانت امنيته وغايته نجاح حركة الإسلام التى قامت على يد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب .

« ودعوة الشيخ لم تكن مقصورة على بلد أو قبيلة ، بل هي دعوة عامة ، لأنها دعوة الاسلام التى تنتظم الانسانية وبخاصة اقطار الاسلام أولا .

« فلما اصطدمت الدعوة بخصومها من الدول والجماعات والمذاهب عنف الصراع حتى زالت الدولة السعودية غير مرة .

« ورأى عبد العزيز ما تتعرض الدعوة له فى مواطنها الاصلية فنهـض لحمايتها ، واضطر إلى انتزاع السلطة من أيدى مغتصبيها الذين آذوا معتنقى الدعوة ليضمن لهم الامن .

« وباسم الدعوة ظهر ابن سعود ، ومن أجل الدفاع عنها وتثبيت قواعدها كانت الحروب التى خاضها ، واستطاع ان يجنب الدعوة خطر الاصطدام المسلح مع خصومها من الدول الاستعمارية الكبيرة .

« ومن اشد الاخطار التى واجهها ابن سعود حركة موسوليني التى أراد منها مزاحمة الاستعمار الفرنسي والبريطاني فى الشرق العربي ، ومشاركة هاتين الدولتين الاستعماريتين فى الغنائم ، فأراد الدخول فى الجزيرة عن طريق اليمن ، ليحارب الدعوة الوهابية التى يحمل رايتها ابن سعود بدعوة الاسلام التى ندب موسوليني نفسه لحمل رايتها ، مع أنه من أكبر ملاحدة الارض ، ولكن الحكم والطمع فى اغتصاب الاقطار الاسلامية جعله يدعى حماية الاسلام .

« وفطن ابن سعود لحركة موسوليني فقاومها ، واستعد للحرب ، وساءت العلاقات بين اليمن وابن سعود ، وجاءت قطع بحرية من الاسطول الحربي الايطالي إلى الحديدة وسواحل اليمن .

« وكان الملك فيصل حينئذ نائب الملك فى الحجاز ، وكان عليما بنيات موسوليني ومطامعه ، وكان فيصل وزيرا للخارجية الى كونه نائب الملك ، واحاط أباه علما بمطامع الدوتشي .

« ولم يفطن زعماء العرب وحكامهم وقادة الفكر فيهم إلى ما وراء هذه الحرب ، ولم يفطنوا إلى ان الاستعمار نسج خيوط مؤامرته ليضرب الدعوة الاسلامية التى يقود ابن سعود حركتها .

« يقول الكاتب الجزائري الاستاذ مالك بن نبي فى كتابه « وجهة العالم الاسلامي » صفحة ١١٢ الطبعة الثانية ، بيروت ، سنة ١٩٧٠ م .

« ولكن احكامنا بكل اسف لا تكشف فى الغالب الا عن تحديد عاطفي لموقفنا ، فنحن لا نحكم وانما نأسى ، نحن نكره ونحب ، ولا شيء غير هذا .

« ولقد اصيب بهذا الخلل كبار مفكرينا الذين نيطت بهم مهمة الاصلاح ،

فها هو ذا المغفور له الشيخ عبد الحميد بن باديس – وقد شهد النزاع يحتدم بين ابن سعود والإمام يحيي – ينشر مقالا عام ١٩٣٤ يأسي فيه على « إراقة دماء المسلمين » ويعنف فيه الرجلين دون تفرقة ، كأنما الشيخ لم يتبين عظم النزاع الذى تقف فيه القوى الروحية والمادية فى النهضة الاسلامية متجسدة فى الفكرة الوهابية فى وجه قوى الانحطاط والتدهور ممثلة فى الإمام يحيي ، تؤيده – كأنما بمحض الصدفة – قوى الاستعمار .

« ولقد أغفل هذا الحكم الجانب الناطق من الموقف ، وهو سرعة المناورة التى قام بها الجيش السعودي الفنّي فاحبط الخطة الاستعمارية بالاستيلاء على « الحديدة » خلال اربع وعشرين ساعة ، كما اسقط من حسابه موقف موسولينى الذى كان يطمع فى احتلال اليمن « لحماية الاسلام » .

« وقد صدق المفكر الجزائري فيما ذهب اليه ، فابن باديس لم يفطن لحقيقة الحرب بين ابن سعود والإمام يحيي ،فاستنكرها ولام الجانبين على سفك الدماء البريئة ، ومثله موقف غيره من المفكرين الذين لم يفطنوا إلى ما وراء الاحداث ، وفاتهم إدراك الأصابع الخفية التى تحرك تلك الاحداث الخطيرة ، ولو ادركوا الحقيقة لايدوا ابن سعود الذى يقود فى يقظة ومهارة القوى الروحية والمادية فى النهضة الاسلامية متجسدة فى الفكرة الوهابية فى وجه قوى الانحطاط والتدهور المؤيدة من قوى الاستعمار كما ذكر المفكر الجزائري .

وجابه مؤسس هذه الدولة الملك عبد العزيز قوى جبارة تريد حطم الدعوة وحمى الدولة حكومة وشعبا ، ولكنه حماها بفضل الله ومكّن لها ان تنتشر فى العالم العربي والاسلامي لتمهد السبيل لقيام تضامن اسلامي ينتهى بالكتلة الإسلامية التى تقف فى وجه الكتلتين : الغربية والشرقية » .

وعلى أي حال انتصر الاسلام الذى حارب من أجله ابن سعود ، وقد ايقظت الحرب الامام يحيي ، فقد فطّنه ابن سعود لمطامع موسولينى ، وحذره منه ومن الاستعمار الغربي ، وكلاهما يريدان باليمن شرا وقاه الله منه بالحرب الكبرى الثانية التى انتهت بزوال النفوذ الايطالي ثم بزوال النفوذ البريطاني .

الاعتداء على ابن سعود

في الصباح من هذا اليوم الجمعة العاشر من شهر ذى الحجة سنة ١٣٥٣ ﻫ والشمس لم تشرق بعد من مخبئها كانت مكة هادئة صامتة، فكل من بها قد اندفعوا الى عرفات للحج ، وانتقل التهليل والتكبير والصخب والضجيج الى عرفات ، ثم أفاض كل ذلك مع الناس منها الى «منى» منزل كل حاج من مكة وغير مكة ، فاكتظت بيوتها وجبالها وطرقاتهـا وأزقتها بالناس من كل جنس ولون ، فلا يجد المرء مغرز ابرة بين هذه الجموع التى لا عد لها وقد تركوا عرفات وأفاضوا منها إلى « المُزْدَلِفة » ثم إلى « منى » لا فرق بين الناس فى شيء ، كلهم سواسية ، الملك كغيره .

وابن سعود ليس كالملوك الآخرين ، بل هو مسلم مؤمن متواضع لا يحب التعاظم والصلف ، يضاف الى ذلك توكله الصادق على الله ، لا يدرع بحرس ولا يعتصم ببروج ، بل يرى كأي من الناس يروح ويغدو : لبيك ، اللهم لبيك .

وقبيل الساعة الواحدة بدقائق من صباح يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٥٣ ﻫ غادر الملك « منى » وتركها يصخب انسانها وحيوانها وسياراتها

وأغذ السير الى مكة ليؤدي فروض ربه ويصلي صلاة عيد الاضحى المبارك ، ويطوف طواف الافاضة فى بساطته المشهورة وتواضعه المعروف .

وبينا هو في طوافه وعلى يساره البيت الحرام — كما يجب — وخلفه ابنه البطل الغالب سعود ، وعن يمينه رجاله وحاشيته ورجال الشرطة يطوفون كابن سعود والحرم مملوء بالناس انتظارا لصلاة العيد ، وتجتمع أصوات الداعين وتكبير المكبرين وتهليل المهللين فيسمع لها دوي تردد صداه جبال مكة ، وكل ماض الى ربه يعبده كما يشاء له عقله وقلبه وذوقه ووجدانه .

وأتم ابن سعود شوطه الرابع واستلم الحجر الاسود ، ثم مشى خطوات أربع فكان عند باب الكعبة آمنا مطمئنا يدعو الله خالصا مخلصا ، فاذا رجل يخرج من الفجوة الشامية لحجر اسماعيل عليه السلام منتضيا خنجرا وهو يصيح صيحات منكرة غير بينة الالفاظ وجهت اليه الانظار ، واندفع كالسهم نحو العاهل المحبوب فرده الشرطي الشجاع « أحمد بن موسى العسيري » الا أن الشقي المجرم الأثيم عاجله بطعنة كان فيها حتفه ، فوقع على صحن المطاف يتضرج دمه على أقدس بقعة في الارض ، فتصدى له شرطي آخر اسمه « مجدوع ابن شبّاب » وأمسك بالمجرم ، ولكنه عاجله بطعنة طرحته عند رفيقه .

وقف ابن سعود عن اتمام الطواف ليشهد ما وقع ويستقبل ما سيقع من قضاء الله وقدره ، واستعد للدفاع بيديه اذ ليس معه سلاح ، فأشهر مماليكه بنادقهم فمنعهم وأمرهم ألا يضربوا أحدا الا اذا رأوا منه شرا ، الا أن المجرم تقدم فى حين أن زميلا له تقدم على مقربة منه حيث خرج من الفجوة الاخرى للحجر واتجه الى ولي العهد الامير سعود ، حتى اذا كان على قيد خطوات منه التقط سعود المجرم الاول فألقاه بعيدا لئلا يعتدي على أبيه الملك المفدى ، فعاجل عبدالله البرقاوي حارس الملك الخاص المجرم الاول بطلقة أردته لفوره ، وكفى الله المؤمنين شره ، وفي تلك اللحظة باغت المجرم الثانى الامير سعودا حينما التقط

رفيقه الباغي وألقاه ، ورفع خنجره ليطعنه به ، وفى اللحظة التى هوى بالخنجر على كتفه ولامس الاحرام يضطبع به التقطه الحارس الخاص لسموه واسمه « خيرالله » برصاصة طرحته صريعا يتشحط في دمه الخبيث ، ولم يصب الامير الا بخدش يسير فى أسفل كتفه الأيسر .

وخرج المجرم الثالث من الحجر مع المجرم الثانى واتجه من ناحية الركن اليماني الى الحجر الاسود ، ولكنه أبصر ما حل برفيقيه اللعينـــين فأطلق ساقيه للريح يسابقها فرارا فأدركه رصاص جنود الشرطة ورصاص حاشية الملك والامير فسقط على الارض ونفسه يتردد ، فقبضت عليه الشرطة ولم يستطع الكلام ، الا أن المحققين استطاعوا بعد جهد أن ينتزعوا من فمه اسمه وهـــو « علي » .

وقد قال ابن سعود لمهنئيه : « ان الذين أقدموا على هذا العمل قوم ليس فيهم دين يمنعهم ، وأنا شخص لا يهمني الا اقامة كلمة التوحيد ، والمحافظة على ما بيدي ، والحافظ هو الله عز وجل ، ولما وقع ما وقع وقدر الله من فضله وعنايته النجاة لم يكن همى غير المحافظة على الحجاج ومنع تسرب أخبار الحادث الى خارج الحرم ، فأمرت بإغلاق أبواب الحرم ومنع سفك الدماء فيه ، وأتممت الطواف وخرجنا عائدين الى منى » .

وتولى مدير الامن العام التحقيق لمعرفة شخصيات الجناة الثلاثة والاسباب الدافعة لهم الى ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء فى أقدس بقعة وأشرف مكان وأكرم يـــوم .

وما كاد الشعب السعودي يعلم أن الجناة من الزيديين اليمنيين حتى جن جنونه وثار كالليث الغضوب مريدا الفتك بكل يمني انتقاما لمليكه الذى يفديه بالروح ، فأمر الملك بألا يعتدى على الحجاج اليمنيين ، بل أنذر كل من يعتدى عليهم بالعقاب الشديد ، فكف الناس عن الاذى والانتقام احتراما لمليكه واطاعة

لأمره ، الا أن السخط بلغ منهم مبلغا لا حد له ، وثار الحجاج المصريون وهتفوا بحياة الملك والامير وتنادوا بالانتقام من اليمن ، لأن الجناة الزيديين ارتكبوا أشنع الجرائم في أقدس المواضع على الاطلاق ، ولم يبالوا حرمة الدين ، ولا الشهر الحرام ، ولا المكان الحرام ، ولا اليوم الحرام ، وأرادوا الاعتداء على « ابن سعود » الملك العربي المسلم الرحيم الذى أعاد الى أذهانهم سيرة السلف الصالح ، وعلى ولي العهد الوديع المحبوب ، وشاركهم شعورهم كل الحجاج ، الا أن الملك شكرهم على شعورهم النبيل وقال لهم :

« انا نشكر الله سبحانه وتعالى على ما أولانا من نعمائه ، ثم نشكر وفود بيت الله الحرام والشعب الكريم على هذه العواطف النبيلة التي تجلت بمناسبة الحادث .

« ان الله قد جعل هذا البيت آمنا للناس ، والحجاج هم ضيوف الله واخواننا ، فمن واجبنا أن نعنى براحتهم ليتمكنوا من أداء مناسكهم ، وقد من الله علينا بأن ساد الهدوء في جميع أنحاء المملكة ، وقد لعب الشيطان في رءوس بعض الناس فحاولوا تعكير صفو الامن وتعطيل شعائر الله في بيت الله ، ولكن الله عز وجل الحافظ لدينه قد رد كيدهم في نحرهم ، فأبطل دسائسهم ووقى المسلمين فتنتهم ، وسيلقى المجرمون جزاء ما صنعت أيديهم .

الناس يبلوننا والله يعيننا عليهم ، أنا لا يهمنى شخصى ، ولا أسرتى ، ولا أولادى ، أنا لا يهمنى الا نصرة الدين الحنيف » .

وبينا الحجاج يروحون ويغدون وأفراد الشعب يترددون على الملك وولي عهده مهنئين بسلامتهما والبرقيات تتطاير اليهما من كل بلاد العالم ، من الملوك ورؤساء الوزارات والوزراء والزعماء والاقطاب كان مدير الامن العام يعمل في صمت وسكون ، وأخذ يحقق ويتحرى حتى انتهى الى أن ثلاثة من الزيديين كانوا يقيمون عند امرأة بجبل أبى قبيس ، وكانوا بعيدين عن جماعتهم ، فهاجم

دار المرأة ، وسئلت عن نزلائها فقالت : انهم متغيبون من يوم الوقفة ولم يحضروا بعد ، وفتشت غرفتهم فوجد بها ثلاثة جوازات سفر صادرة من الحكومة اليمنية باسم ثلاثة أفراد ؛ هم :

١ — النقيب علي بن حزام الحاضري ، مستخدم فى الجيش اليمني المتوكلي ، ورقم جوازه (٩٨) وتاريخه ١ شوال سنة ١٣٥٣ هـ وهو صادر من مأمور الجوازات بصنعاء ، ومصدق من عامل صنعاء .

٢ — صالح بن علي بن حزام الحاضري (شقيق الاول) ورقم جوازه (٣٤) وتاريخه ١ شوال سنة ١٣٥٣ هـ ومهنته مزارع ، والجواز صادر من مأمور الجوازات بصنعاء ، ومصدق من عاملها .

٣ — مسعد بن علي بن حجير ، من بلدة حجر باليمن ، ورقم جوازه (٦٣) وتاريخه ٥ ذى القعدة سنة ١٣٥٣ هـ وهو صادر من أمير الحج اليمني محمد غمضان ، وصاحبه عسكرى فى الجيش اليمني المتوكلي .

وعرضت على المرأة جثث القتلى ، فعرفت صالحا بوجهه ، وعرفت ملابس الآخرين لتغير منظر وجهيهما ، وذكرت أن اخت مطوفى الشافعية أسكنتهم عندها ، وأيدت قول تلك المرأة .

وحقق مدير الامن العام مع شيخ اليمنيين بجدة ، فاعترف بأنه أعطى ورقة التصريح بالسفر باسم مبخوت ، وذلك بوساطة أخيه علي بن مبخوت الفران بجدة .

وبالتحقيق مع هذا وعرض جثث القتلى وصورهم الفوتوغرافية عليه عرف ثلاثتهم ، وذكر : أن أحدهم أخوه واسمه مبخوت بن مبخوت الحاضري ، وأن الآخرين هما : صالح بن علي الحاضري وعلي بن علي الحاضري ، وهما شقيقان .

وأدلى الفران قائلا : إنه اجتمع بأخيه فى جدة ، وبات عنده ثم توجه معه الى مكة وباتا مع الجانيين الآخرين فى جبل أبى قبيس .

وقال الفران أيضا : إنه تركهم وصعد الى عرفات ، ولم يجتمع بهم الا صباح يوم العيد فى المطاف ، ولكنه مضى وحده الى مقام ابراهيم فى حين أن الجناة دخلوا حجر اسماعيل ، ولم يعلم السبب الذى حدا به الى ترك جوازه مع المجرمين .

* * *

وأقام الشعب حفلة عظمى للملك والامير لنجاتهما من هؤلاء البغاة الادنياء ، وتبارى الخطباء والشعراء فى القاء الخطب والقصائد ، وكان من أجمل ما قيل وأنشد قصيدة الشاعر الاستاذ خير الدين الزركلي ، ومطلعها :

ليست خناجر فى أيدى الاولى اجترموا ... لكن مفاتيح غمدان لها استلموا

ومنها :

ضل الجناة سبيل النيل من ملك ... لولاه ، ما صين بيت الله والحرمُ
عبد العزيز الامام الحق تكلؤه ... عين من الله ، لا جند ، ولاحشمُ
البغي والكيد مدا حوله شركا ... فكان فى شرك الجانين حتفهمُ
سلت يد الغدر نصلا دون طعنته ... جبريل يرغى ، وميكائيل يحتدمُ
وقى سعود فتى الفتيان خير أب ... فردها طعنة نجلاء تخترمُ
وقال : بابنك ان كان الفداء فدى ... هذى يدى وزنادى العزم لا الضرمُ
تناول الفاتك الجياش يرفعه ... كالصخر بالزبد الهدار يصطدمُ
لولا الاناة ولولا الحلم لانعقدت ... سحابة النقع ، وانهلت دما ديَمُ

وقال الملك الصالح التقي الورع الزاهد للصحفيين حينما سألوه عما اذا كان جلالة الامام يحيى مدبرا الحادث الاليم :

« انى لا أعتقد أن يقدم (أي الامام يحيى) على مثل هذا العمل ، والرجل ذو دين ، والصلات بيننا وبينه على أحسن ما يرام .

« والله ، ان هذا الحادث الذى وقع فى الحرم وقر فى نفسى وأنا فى عرفات ، وكأنى أشعر به ، ولكن قلت فى نفسى : ان الله سيكفينى هذا الشر ، وكنت أحدث نفسى : كيف يمكن القبض على الجانى اذا تغلغل بين الناس .

وبعد أن نزلت من عرفات كان الله قد أنسانى ذلك الذى وقر فى نفسى ، ونحن مالنا فى شيء من أعمالنا الا الاعتماد على الله » .

وأبرق الامام يحيى مستنكرا هذا الحادث ساخطا على مرتكبيه ، مستنزلا اللعنة على الباغين الملحدين بظلم فى الحرم الشريف ، وأقسم الامام بالله أنه من حين بلغ بالحادث من جلالته لم يستقر له قرار ، وتبرأ منه تبرأ الذئب من دم ابن يعقوب — على حد تعبير الامام — وأن قلبه يتقطع أسى وكمدا ، وعينه أذرفت الادمع أسفا ، ويرجو أخاه الملك المحروس من الله أن يزيل عنه حزنه بسبب هذا الحادث الفظيع .

وأبرق الامام الى السيد عبدالله بن أحمد الوزير الذى كان بمكة حاجا يأمره بأن يضع نفسه تحت تصرف أخيه الملك ابن سعود ، ويمتثل أوامره ويجد في البحث حتى يصل الى الحقيقة ، كما أن الشيخ محمد راغب وزير خارجية اليمن بعث ببرقية الى خارجية المملكة السعودية يقسم فيها بالله ثلاثا بالبراءة التامة من الحادث والجهل به ، ويناشد الحكومة السعودية أن تحقق وتخبر حكومة اليمن بنتيجة التحقيق لتطمئن .

وأنا كمؤرخ أبرىء الامام يحيى من أن يكون لديه خبر عن هذا الحادث فضلا عن تدبيره ، وأوقن أن رجلا مثل الامام له خلائقه الفاضلة النبيلة لن ينزل

الى هذه الدركات ، وأكرم من أن يغدر ، بل أوقن أن غلف القلوب المطبوعين على الضراوة والشر يبرأون الى الله من ارتكاب مثل هذا العمل ، فكيف بالامام وهو من نعلم دينه وأمانته ، بل أبرىء أبناء الامام أيضا ، لانني أعتقد أنهم لن يقدموا على عمل مرذول كهذا وهم ذوو دين وايمان ، وقد أقسم لى الامير سيف الاسلام عبدالله أن اباه الامام يحيي وانه هو نفسه واخوته يبرأون الى الله من هـــذا الحادث الذى لا يقدم عليه الا من فقد انسانيته ، وأكـــد لى سموه أن والده الامام لم يتمالك نفسه من الحزن والبكاء حينما سمع بهذا الحادث الشنيع .

ولكن هذا أمر الله وقدره لا راد له ، والحمد لله الذى أنجى عبديـــه الصالحين ، وأذاق المجرمين جزاء الدنيا مدخرا لهم فى الآخرة أشد العذاب .

في الحرب الكبرى الثانية

لم يمتحن العالم فى عمره الطويل كما امتحن فى هذه السنوات ، حيث ابتلي بمحنة مستشرية نهمة تجتاحه اجتياحا ،وألقي في جحيم ما يطاق حره ،فالشعوب كلها — غنيها وفقيرها قويها وضعيفها عالمها وجاهلها — مرزوءة منكوبـــة تستعبدها الويلات وتحطمها الآلام ويستبد بها القلق ، فما تكاد تفيق من غشية كاربة تطأ بأقدامها الجبارة الانسانية التى تشكو وتتألم وتبكى الا الى غشيةأخرى أشد وأقسى !. .

أرجع بنظرى الى الماضى البعيد قبل آلاف السنين فاذا بى أشهد هابيل يعدو على أخيه قابيل ويرديه ، فينسكب دمه على الارض التى لم تألف من قبل شرب الدماء فتضطرب الآمال ، وتخمد المسرة ، وينتحب المرح ، وتستشرى الخصومة فاذا الدنيا تستقبل عهدا جديدا كابيا مؤلما ، تستقبل الشقاء العابس ، وتستدبر السذاجة المموقة والبراءة الاصيلة والحنان واللطف والسراوة والبشاشة !.

يا ليتها كانت القاضية ! لو كانت لاستراحت الانسانية مرة واحدة ، ولكنها لم تكن فكانت النكبات الرادفة يصارعها وتصرعها تارة وتنجو منها تارة أخرى ، وأخذ أبناء آدم الاشقياء يحلمون بالمدن الفاضلة ويطيرون مع الخيال

ويتخيلون النعيم ويبنون الفراديس ويشيدون الطوبيات فاذا هي هشيم تذروه الرياح ، حتى كانت الحرب الكبرى الماضية فصدم العالم صدمة عنيفة وفجع فى أمانيه وأحلامه ، وما كادت تضع الحرب أوزارها حتى كثرت المذاهب .

غير أن الصلح لم يكن كاملا مستوفى الجوانب فعجز عن ضمان الطمأنينة والراحة والسلام للعالم ، ولم تتهذب فى النفوس غرائز الفتك والضراوة فانبعثت الحرب من جديد تتقد نيرانها الحامية وتقرعه قوارعها فيذهل ويدهش ويستيقظ على صرخات الحرب ، ويفكر ساسته وقادته وأدباؤه وأصحاب الرأي فى مصيره فى حاضره ، وفى مصيره بعد الحرب ، ويعملون على تهدئة النفوس جهد المستطاع ، وينصحون للناس بالصبر على المكاره والخطوب والسغب ، والصبر على الجلاد حتى تهدأ سورة الحرب ويسود العالم السلام المنشود .

ولم تكن مصائب الحرب وويلاتها وكوارثها وقفا على شعب دون شعب ، ولم يتلظ بنارها المتحاربون ، بل حل بغير الجارم العذاب .

تلظى العالم كله وفجع فى الامانى والاحلام ، ولكن بعض الشعوب — وتعد على الاصابع — استطاع أن يقف موقف الحيدة عاطفا على الديمقراطية عطفا أدبيا لأنها لا تحارب الحرية ، ويضمن بذلك الموقف لنفسه السلامة ، ويكون بمنجاة عن الخطر المجنون الزاحف .

ولعل البلاد السعودية هي البلاد الوحيدة فى العالم القديم استطاعت أن تضمن لنفسها العافية والراحة والطمأنينة والامن فى وقت تركض فى الدنيا المحن والخطوب والفتن والشرور ، وهذا بفضل الله عز وجل ثم بفضل ابن سعود الذى هيأه الله فى هذا الوقت الكارب لينقذ البلاد المقدسة مما تستهدف له لولاه ، ولا شك عندى أن ابن سعود موفق مجدود وفقه الله حتى جنب بلاده الحرب وأهوالها ، ووقف بأمته هذا الموقف النبيل ، فأمن لها السبل ، وضمن لهـــا الارزاق ، وحنا عليها حنو الاب الرحيم على الولد البار .

ولا شك عندى أن ابن سعود إمام صالح بطبعه ودينه ونشأته ، فهو عربي مسلم حر ، ولم يثر على الحكام الا دفاعا عن الحرية : حرية العبادة الصالحة التى لا تستعبدها الخرافات ولا تسيطر عليها البدع ، حرية الفكر ليجهر كل بما عنده من آراء وأفكار تعين البلاد والامة على التقدم ولا تضر أحدا ، حرية العمل الصالح ليسعى كل فرد فى سبيل النفع العام ، وهو انساني عن طبع وفهم وعقيدة ، ويحب الديمقراطية لأنه يحب الحرية والعدل والمساواة ، ويكره الدكتاتورية لأنه يكره العبودية والعنف والشدة والظلم ، وروح أعماله وخلائقه وأقواله روح انسانية تعيش من الانسانية في الصميم ، وهذا الكتاب كله دليل بين عليها .

وما دام ابن سعود انساني المعتقد والمبدأ والنزعة والعمل والقول فمن الطبيعي أن يميل الى جانب الديمقراطية التى تحارب الشر والعدوان ، الديمقراطية التى تجمعه بها أواصر شتى لا تنفصم عراها ، لأن الصداقة بينه وبين بريطانيا ليست حديثة عهد ، ولكن لها عمرا طويلا .

وما زالت بريطانيا — كما كانت قبل الحرب العظمى الثانية والاولى أيضا — تحرص على صداقة ابن سعود وتحمل له اكبارا وتقديرا واحتراما ، وتصفيه الولاء والمحبة ، لأنها وجدته ذلك الزعيم الجدير بزعامة الامة العربية ، وابن سعود من جهته يقدر بريطانيا ويذكر جميلها ويدل فى المناسبات على أنه لا يغدر بالعدو فكيف بالصديق .

ولهذا وقف ابن سعود فى هذه الحرب على الحياد وعطف على الديمقراطية وعلى بريطانيا عطفا مشهودا ، وعندما امتحنت فى صميم بلادها أسرع بتعزيتها وتخفيف بلواها وبالنصح لها بالصبر والاهابة بها أن تقف وقفتها المعروفة أمام العدوان والظلم ، فلن ينهزم — يوما — من كان يريد للعالم الخير والانسانية والسعادة ، بل النصر حليفه ولو طال المدى .

ولا أدل على وفاء ابن سعود الصادق لبريطانيا من قوله : « اننا لنذكر مع الشكر للحكومة البريطانية ما بذلته من المساعدات ، ولولا الله ثم مساعدة الحكومة البريطانية بالمؤن والارزاق لما أمكن أن يجد المسلمون هذا الرخاء فى هذا الوادى غير ذى الزرع ، ولو قارنا حال هذه البلاد في الحرب الحاضرة وحالها فى الحرب العالمية الماضية لوجدنا الفرق الكبير ، وهذا كله من فضل الله ثم بفضل المساعدات التى قدمتها لنا الحكومة الصديقة البريطانية ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله»[1] .

بل بينه وبين بريطانيا معاهدات صداقة لا يمكن أن يستدبر بعض ما فيها أو يتنكر لها عند المحن والشدائد ، فهو لهذا ظل وفيا لها فى رخائها وشدتها ، ولم يبال الدعاية ولم يحتفل بكلمات الاغراء ، أما علاقته بأمريكا الديمقراطية فهي علاقة صديق بصديق ، فهو اذ رأى أنها خطبت وده واستمنحت لبعض شركاتها امتيازا شريفا فى أرضه وحافظت على العهود والمواثيق وتقربت منه طلبا لمودته الغالية استقبلها بترحاب وبسط لها جناحه ، وأخذت الصداقة تنمو كل يوم ، لأن كلا الفريقين ينميها بالاخلاص والمزاورة وتبادل النفع والتجارة .

وجاء كثير من أقطاب بريطانيا الى بلاد ابن سعود وزاروه فى دياره فأعجبوا به أيما اعجاب وصادقوه ، فقد زاره اللورد أثلون — خال ملك الانكليز — وزوجته اليس فى سنة ١٣٥٧ (١٩٣٧) فذهبا يبشران بعظمة ابن الصحراء وعبقريته وكرمه ونبله وأصالة طبعه ومتانة أخلاقه وصدق زعامته ومواهبه ، والكتب المؤلفة عنه باللغة الانكليزية كثيرة تدل على حفاوة البريطانيين بهذا الملك العظيم الذى يشترك فى تقديره المسلم وغير المسلم ، والعربي وغير العربي ، والشرقي وغير الشرقي ، لأن له صفات انسانية عامة يشترك فى تقديرها والاشادة بها « الانسان » أيا كان جنسه أو دينه ، لأنها صفات انسانية كريمة .

---

(١) من خطبة القاها الملك عبد العزيز على وفود بيت الله الحرام في المأدبة التي أقامها لهم بعد مغرب يوم الاثنين ٦ ذي الحجة سنة ١٣٦١ (١٤ ديسمبر ١٩٤٥) وقد حضرها المئات من كبار الحجاج .

ثم جاء كثير من الامريكيين والاوربيين وغيرهم الى المملكة السعودية وقابلوا ابن سعود فى الرياض وغير الرياض فأعجبوا بشخصيته اعجابا لا حد له ، أعجبهم منه هذا القوام الفارع والبناء الوثيق والسموق والحيوية ، كما اعجبهم منه نبوغه وعبقريته وعظمته وخلائقه التى لا يوهبها الا الزعماء الذين يخلقون لتغيير مجرى الحياة وصنع التاريخ ونقل الامم من حال الى حال .

وقد حرص الحلفاء على أن يبرهنوا لابن سعود على اخلاصهم له وحبهم اياه وتقديرهم له فبعثوا اليه رجالهم يحملون رسالات الصداقة والود والهدايا ، فبعث ابنيه العظيمين فيصلا وخالدا فى شوال سنة ١٣٦٢ هـ (أكتوبر ١٩٤٣ م) الى أمريكا وبريطانيا لزيارة رئيسيهما الكبيرين : روزفلت وتشرشل ، وأهداهما سيفين من أجمل السيوف العربية المرصعة بالأحجار الكريمة رمزا على البطولة فى الدفاع عن قضية الحرية والعدالة والمساواة .

واستقبل الاميران الجليلان من الرئيسين الديمقراطيين استقبالا عظيما فخما ، وتسابق شعباهما الى اظهار ما يكنان لابيهما الديمقراطي العتيد من المودة والاجلال والتقدير .

وانى أفهم جيدا أن اصلاح العالم لن يكون على يد القوة الغاشمة ، بل أعرف حق المعرفة أن مصير الانسانية اذا تسلطت عليها الدكتاتورية العاتية الخراب والدمار ، أما اذا سادت الحرية الصحيحة فمصيرها العمران والفلاح والعدل والخير .

فلهذا نقف نحن العرب فى صف الديمقراطية مع مليكنا العادل ونتمنى لها النصر ، لأن الامم الديمقراطية وعلى رأسها بريطانيا وامريكا صديقات العرب ،

ونرجوألا تنسى بعد ساعة المحنة وزوال الشدة من والوها وقدروها وأباحوا لها من أنفسهم مكانا ممهدا .

وجملة القول أن ابن سعود فى هذه الحرب الضروس ليس مناوئـــا للديمقراطية ، بل هو عاطف عليها ، قادر لها جهودها ،متمن لها النجاح ، لأن رابطتها بأممها رابطة صداقة ومودة .

أما علاقته بجيرانه العرب فعلاقة حب تزيد وثوقا على مر الايام ، والسلام يخيم على جميع البلدان العربية ، وليس الحال فى هذه الحرب كالحال فى الحرب الماضية ، فملوك العرب وأمراؤهم متضامنون متصادقون ، وقد قربت حوادث الحرب بينهم فقاموا ينادون بالوحدة العربية التى ندعو الله بإخلاص أن يوفق الزعماء الى هذا العمل الذى يعتبر حدثا جديدا له أثره الطيب عند العرب والمسلمين .

* * *

كتب هذا الفصل سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٥ م) ووقف العرب والمسلمون فى كل مكان مع الحلفاء ، ونصروهم بأوطانهم وكل مقدراتهم وأرواحهم ، وخرج الحلفاء منتصرين من الحرب ، وغدروا بالعرب والمسلمين ، كما غدروا بهم فى الحرب الكبرى الأولى .

خرج العرب والمسلمون من الحرب وقد أُعدّت لهم مخططات الغدر ، ووضعوا لكل التحركات العربية والاسلامية ما يقضى عليها ، فأعطوا الفرصة لليهودية العالمية والصهيونية ، بل هم أوجدوا لهما القوة التى ضربوا بها العرب ، واقتطعوا جزءا جد خطير من وطنهم الغالى ومكنوا اليهودية منه ، وأعانوهم

بالمال الذى لا يعد ، وبالسلاح الذى لا يوصف تدميره ، وبالرجال ، وبالنفوذ ، حتى أصبحت لليهود دولة تستطيع أن تهدد كل دول العرب مجتمعة .

ومنذ قيام دولة اليهود فى فلسطين والتأخر فى كل شىء نصيب العرب ، فبسبب وجودها تفتتت المجتمعات العربية ، وفسدت أخلاقها وعقولهـــا وضمائرها ، واشتغل الحكام والشعوب عن التقدم والإصلاح بحاضرهم الفاسد المضطرب ، وتفرقت كلمتهم وصفوفهم ، وانهارت لديهم القيم الأخلاقية والإنسانية .

وكذلك الأمر بالنسبة للمسلمين من غير العرب ، فأقطارهم مستقلة ، ولكن الانجليز والامريكيين — وأقصد الدولة — ومن يأتمرون بأمرهم من الدول الخاضعة لنفوذهم وللنفوذ الصهيوني أخضعوا حكومات المسلمين لنفوذهم ، وجعلوهم تحت أمرهم ، ووضعوا للمسلمين وحكوماتهم مخططات تنسف كل حركة يراد منها إعادة شباب الاسلام إليه ، وتهدم كل بناء إذا رأوا أنه يطاول ما يبنون ، وتمتص كل ثرواتهم الطبيعية .

وكل من هم غير مسلمين وغير عرب لا يرضون عنهم ، وليس هذا العداء محصورا فى السياسة ، بل نجده فى الانسانية أيضا ، وعلى سبيل المثال : لم يقدر لعربي أو مسلم أن ينال جائزة نوبل فى أي موضوع من موضوعاتها .

ومع كل ذلك ما يزال العرب والمسلمون يجرون وراء أعدائهم من الشرق الغرب ، يطلبون إليهم المودة فاذا هم أسرى أولئك الاعداء وأتباعهم المسخرون لخدمتهم .

ومن مخططات الاستعمار نسف قوى العروبة والاسلام ، ومن براعتها أن العرب والمسلمين لا يقاتلون عدوا من غيرهم ، بل يقاتل بعضهم بعضا ، وما

أعظم شجاعتهم وقوتهم وبطولتهم فى ضرب بعضهم بعضا .

وحل مشاكلهم سهل ويسير وبديهي ، ألا وهو اجتماع الكلمة بعد الايمان بالله حق الايمان ، وعندما يؤمنون بالله يستطيعون أن يكونوا قوة ثالثة تكبح جماح القوتين : الشرقية والغربية .

والشيء الذى يؤلم الصالحين المصلحين أن الحروب تمر والعرب والمسلمون هم الخاسرون ، ثم تمر السنوات وخسارتهم تزداد .

اجتماع رضوى التاريخي

بين مصر والحجاز صلات وشيجة منذ فجر التاريخ الاسلامي وقبله ، وما زالت تتوشج على مرور الاجيال حتى وحدت بينهما الحوادث في هذه الايام من جديد ، فاجتمع عاهل مصر الملك فاروق بعاهل المملكة السعودية في سفح رضوى اجتماعا لا ينساه التاريخ الاسلامي والعربي .

وتقدير ابن سعود لمصر وعاهلها يرجع الى عشرين سنة مضت حينما بعث الملك فؤد وفدا مؤلفا من فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي وسعادة عبد الوهاب بك طلعت للوساطة في النزاع الذى كان قائما بين الملك علي وابن سعود في سنة ١٣٤٣ هـ .

ثم مرت الايام والصلات تزداد بين الشعبين : المصري والسعودي ، وكل منهما يقويها وينميها جهد المستطاع ، ولم يدخر أحدهما وسعا في إظهار ما يكن للآخر من ود صادق ، حتى أن ابن سعود قال في مجلسه الحافل بوفود بيت الله الحرام في أوائل هذه الحرب للاستاذ الكبير محمد لطفى جمعة مـــا معناه : حينما زحف المحور بقواته المدرعة الميكانيكية وانتهى الى العلمين وضرب مصر بالطائرات كان كأنما ضرب بلاده .

وقد أراد الله للعرب والمسلمين خيرا فقدر أن يجتمع الملك فاروق بالملك عبد العزيز فى الاراضى الحجازية المقدسة للتعارف ، ولوضع الاساس للوحدة العربية المنشودة .

سرى خبر مغادرة الفاروق مصر الى الحجاز فانتظر الناس بلهفة وشوق قدوم جلالته ، وكان الملك عبد العزيز أكثر شوقا الى الاجتماع ، فرحل الى سفح رضوى – الجبل المشهور – يعد العدة لاستقبال ضيفه العظيم ، فنصبت السرادقات الرحيبة الفخمة والخيام الكبيرة المزخرفة على صفين متقابلين : أحد الصفين معد للضيف ، والآخر للملك عبد العزيز .

وفى الساعة الخامسة من يوم الاربعاء ١٠ صفر سنة ١٣٦٤ هـ (٢٤ يناير ١٩٤٥ م) ظهر « فخر البحار » اليخت المقل للفاروق متجها الى ميناء ينبع ومعه الطوافة (فوزية) فاستقبله الملك عبد العزيز وفى معيته اخوته الامراء : عبدالله ومساعد وسعد أبناء عبد الرحمن وأصحاب السمو الامراء أبناؤه : فيصل (نائب جلالته) ومحمد (أمير المدينة) ومنصور (وزير الدفاع) وسعد وفهد وبندر وغيرهم ، وسمو الامير عبدالله الفيصل (وكيل نائب جلالة الملك ومعاونه) والشيخ يوسف ياسين والشيخ حافظ وهبه استقبالا وديا منقطع النظير ، وتعانق الملكان عناقا أخويا ، فى حين أن « فخر البحار » أطلق إحدى وعشرين طلقة كتحية أجيب عليها بمائة طلقة وطلقة من الميناء السعودي .

وملأ المستقبلون سيف البحر والسهل احتفاء بجلالة الضيف الذى امتطى مـــع أخيه الملك عبد العزيز سيارته المتهادية بين صفوف الجند المتراصة لاداء التحية حتى وصل الى السرادق الفخم المعد لجلالة ملك مصر ، وبعد أن تبادل العاهلان عبارات الترحيب والحب والولاء ووجهاهما ينضحان بالبشر والسرور والبشاشة ، وتناولا القهوة العربية وكؤوس المرطبات غادر الملك عبد العزيز سرادق أخيه الملك فاروق بعد أن دعاه الى تناول الغداء معه .

وقد رافق جلالة الفاروق فى رحلته من بلاده العزيزة : مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية ، والفريق محمد حيدر باشا ياور جلالته ووكيل وزارة الشؤون الاجتماعية لمصلحة السجون المصرية ، والاستاذ عبد الرحمن بك عزام وزير الشؤون العربية بوزارة الخارجية المصرية ، وعبد العزيز بدر بك الامين الثاني ، وأحمد يوسف بك ، والقائمقام محمد حلمى بك ، وكريم بك ثابت الصحفي المعروف .

وفى الساعة السابعة كان الضيف الكريم المحبوب فى سرادق الملك عبد العزيز ، وأخذ صدره ، وبين أيديهم أصحاب السمو الامراء الكرام ورجال الحاشيتين ، ثم تناولوا العشاء على مائدة صقر الجزيرة واستمتعوا بسمر عطره الملكان الكريمان .

وفى يوم الخميس الحادى عشر من صفر تناول جلالة الملك عبد العزيز الغداء على مائدة جلالة الملك فاروق ، ثم تناولا القهوة فى سرادق الاستقبال ولبثا فيه ساعة ثم ودع الملكان بعضهما بعضا ، وغادر الفاروق المعظم المخيم الملكي الى المدينة المنورة للزيارة ، ورافقه أصحاب السمو الامراء : فيصل (نائب الملك) ومحمد (أمير المدينة) وسعد وفهد وعبدالله أبناء جلالة الملك ، والشيخ يوسف ياسين .

وبات جلالة الفاروق ومن معه من الامراء فى « الخيف » بين ينبع والمدينة ، وفى الصباح غادر الموكب اليها فوصلها ضحى ، واستقبل الملك فاروق استقبالا حماسيا رائعا ، واحتفى به أهل بلد الرسول صلى الله عليه وسلم ورجال الحكومة احتفاء جد عظيم ، وأدى فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الجمعة ، وسلم عليه وعلى صاحبيه ، ثم زار المآثر التاريخية وقضى بها ليلة السبت .

وفى الصباح غادر المدينة مودعا وداعا حارا الى المخيم الملكي حيث وصله عصرا ، ثم تبادلا الملكان الزيارة وتناول جلالة الملك عبد العزيز العشاء على مائدة

أخيه الضيف المعظم ومعه أصحاب السمو الامراء من آل سعود ورجـــال الحاشيتين ، ثم تناول جلالة الفاروق القهوة بسرادق أخيه الملك عبد العزيز ، ولبثا معا الى منتصف الليل ، وكانت هذه الليالى كما يصفها البلاغ الرسمى السعودي : « من أروع الليالى وأجملها فى تاريخ الامة العربية » .

وفى صباح يوم الاحد ١٤ صفر تلاقى العاهلان بسرادق جلالة الفاروق ، وكان يوما مشهودا ، اذ خرج الناس والجنود الى الميدان العام يتطلعون اليهما ، فقدم عاهل المملكة السعودية الى جلالة الضيف سيفا عربيا وخنجرا مرصعين بالجواهر والأحجار الكريمة تخليدا لذكرى هذا الاجتماع الفريد ، فى حين أن الفاروق — أيده الله — قدم الى أخيه ابن سعود قلادة محمد علي الكبير رمزا على الصداقة المتينة التى ربطت بين الاسرتين المالكتين برباط الود الوثيق .

ثم تبودل العلمان المصري والسعودي باحتفال عسكري رائع اشترك فيه جيش البحرية المصرية والجيش السعودي فكان — كما يقول البلاغ السعودي — رمزا للصداقة والمودة بين المملكتين الفتيتين ، ثم أقيمت مناورة هجومية من قبل الجيش العربي السعودي اشترك فيها الامراء السعوديون وهزجوا بنشيد حماسي حيوا به عاهل مصر العظيم ، وكان للمناورة أحسن الاثر والواقع فى نفوس الملكين والحضور .

وانتهى هذا الاحتفال الرائع الجميل فى الساعة السادسة والنصف ، ثم شرف جلالة الملك فاروق السرادق حيث كان فيه حضرات أصحاب السمو الامراء ، فتحدث اليهم معجبا بالعرض العربي والتقطت لهم الصور تخليدا لهذا الاجتماع .

وفى الساعة الرابعة والنصف تناول جلالة الملك فاروق الغداء على مائدة الملك عبد العزيز ، وقد شاركهما الامراء ورجال الحاشيتين ، ثم نهض جلالة الضيف الكريم ومعه أخوه جلالة عاهل المملكة السعودية وكل من معهما الى

سرادق الاستقبال فالى الميناء حيث تودع الملكان وتعانقا وابتهلا الى الله أن يقدر لهما اجتماعات كثيرة ، وأكد كل منهما للآخر حرصه على الوفاء وعلى الصداقة والمحبة والولاء بينهما وبين بلديهما الشقيقين .

ورافق جلالة الملك فاروق من الميناء الى اليخت الملكي أصحاب السمو : الامير عبدالله بن عبد الرحمن ، والامير فيصل ، والامير محمد ، والامير منصور ، والشيخ يوسف ياسين ، والشيخ حافظ وهبه ، وودعوه على ظهر اليخت الذى غادر الميناء فى الساعة العاشرة والنصف من يوم الاحد ١٣ صفر سنة ١٣٦٤ (٢٧ يناير ١٩٤٥) راجعا الى مصر محروسا بعناية الله .

وان الامة العربية والامم الاسلامية لتعلق على هذا الاجتماع التاريخي العظيم خير الآمال ، وتتمنى أن يكون فاتحة عهد جديد فى تاريخ الشرق ، فلعل الله يحقق لها الآمال . ؟

الجامعة العربية

قال الله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ وهذه شهادة لم تظفر بها أمة من أمم الرسل الماضين، وإنما ظفرت بها أمة النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي شهادة حق ، فقد أثبتت هذه الامة الكريمة صلاحها للحكم والسيادة منذ أجيال مضت ، ونجد مصداق ذلك فى تواريخ الخلفاء الراشدين والصحابة عليهم رضوان الله ، بل ليملكنا الدهش والاعجاب من هؤلاء الابطال الذين كانوا أقل منا مالا وأردأ طعاما وأخشن ملبسا يملكون الدنيا تملك راشد صالح ، ويزول دهشنا متى علمنا أنهم كانوا أقوى منا ايمانا بربهم وأعظم ثقة بأنفسهم وبقدرتهم حتى أطاع لهم كل صعب ، وزفوا للامم كلها بشائر الطمأنينة والسعادة والهدوء ، ونعم العالم فترة بالراحة والهناءة على أيديهم ، وأقاموا صروح المدنية الاسلامية : مدنية القرآن ، فانتعشت الآمال ، وشعر الناس ببشر وأمن وسلامة تتدفق من شريعة النبي الامي المحبوب ! .

بدو أشبه ما يكونون بالحضر — وهم أبعد ما يكونون عن قيود الحاضرة وتكاليفها وسخفها — يخرجون من بطاح مكة مغلوبين على أمرهم ثم يسودون الورى سيادة عادلة لا قهر فيها ولا ظلم ولا استبداد ، ويصافحهم أصحاب

الديانات المختلفة والمذاهب الكثيرة فرحين مستبشرين لأنهم وجدوا في عهدهم العدل والمساواة والحرية ، وفى جوارهم الامن والغنى والوفرة والرخاء والسلام.

أولئك العرب - أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام - نمط خاص في صانعي التاريخ وبناة الحضارات وقادة الشعوب لا مثيل لهم لا من قبل ولا من بعد ، بل يخيل الي أن لهم قوالب خاصة صُبَّت فيها آدميتهم النبيلة وعظمتهم الحق ونفوسهم السمحة وعقولهم الراجحة وخلائقهم المثلى ثم انعدمت تلك القوالب فلم يعد يخلق مثلهم .

بل ذلك صحيح ، فما رأينا في التاريخ القديم والحديث مثل أبي بكر ولا مثل عمر ولا مثل عثمان ولا مثل علي ولا مثل خالد بن الوليد ، وما سمعنا بمن يشبه عبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة والمغيرة ومعاذا وسعد بن ابى وقاص وغيرهم من هذا الحشد العظيم الذى فاجأ العالم بمدنية لم يبن مثلها من يوم أن خلق الكون ، وبخلائق انسانية بلغت أعلى مراتب الفضيلة والنبل .

ولا نقصد بالمدنية الا مدنية القرآن ، مدنية الروح والقلب والوجدان والفكر ، لا حضارة المادة والآلات التى أضحت أوثانا يعبدها بناتها من دون الله ، ويكفى للتدليل على أن حضارة العرب التى أقامها القرآن أسمى كثيرا من الحضارة الجديدة ما نشهد فى الدنيا من مصائب وكروب وويلات تفجع فى كل حين الانسانية فى أحلى الامانى وأجمل الاحلام .

مهد القرآن للحضارة الانسانية أقامها فى سنوات فعاش الناس فى خير وبشر وبشاشة ، ولكن الحضارة الحديثة باعدت بين الانسان وربه ، كما باعدت بينه وبين الفضيلة والسماحة والمسرات ، وقضت على البشاشة والمتع ، بل باعدت بين القلوب الانسانية بعضها عن بعض .

غير أن هذه الامة التى شهد لها الله بأنها خير الامم ، والتى أقامت حضارة

القرآن على أساس متين لم يحرص الخلف على ما كان عليه السلف الصالح ، ونسي واجبه واستدبر حقائق الدين ومبادىء محمد — صلى الله عليه وسلم — وتنكر للمثل العليا وغير ما بنفسه فغير الله ما به ، وذهب ريحه لولا هذا القرآن الذى يجمع الشتات ويُهتدَى به فى الظلمات .

وفقدت الامة الاسلامية سيادتها لأن من كان يتولى أمرها من الخلفاء والامراء لم يتق الله ولم يعتصم بحبله فضعفت بعد قوة ، وتفرقت بعد اجتماع ، وملك الله أمرها من لا يخافه ولا يرحمها حتى اسودت الدنيا أمامها ، وحكمها من كان بالأمس مستعبدا لها .

أما العروبة فقد قضى عليها الترك الاتحاديون وغير هم فى حماها ، ولولا القرآن الكريم الذى يحفظ لغتها والتراث الصالح العظيم لامست أثرا بعد عين ، الا أن الحرب العظمى أيقظت فكرة الوحدة العربية ، واستيقظ العرب على صوتها الصارخ وانتبهوا الى مصالحهم ، وكان ابن سعود أسبق حكام العرب — بعد تلك القرون التى قضى فيها على العروبة ولغتها — الى تلك الفكرة النبيلة .

نعم كان ابن سعود أسبق من الحسين فى فكرة الجامعة العربية ، فقد كتب اليه فى سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) والى غيره من الحكام والامراء كالامام يحيى وابن الصباح وابن الرشيد يرجوهم أن يتحدوا فى هذا الوقت الكارب ، ولكنهم أعرضوا عنه وعن فكرته .

هو أسبق — على هذا — من الحسين بفكرة الوحدة أو الجامعة العربية ، غير أن الحسين كان أظهر من ابن سعود وأبعد صوتا وأبرز شخصية فحالفه الانكليز وانضم اليهم وقام بنهضته الكبرى بعد عرض ابن سعود ، وكان ما يعرفه الناس .

ولم يكن ابن سعود ممن يريد نفعا خاصا لنفسه أو لقومه بل كان هجّيراه

النفع العام للعرب والمسلمين ، فلهذا اكتأب حينما أبصر الامراء لا يستجيبون لدعوته ، وأخذ يعمل وحده فى هدوء وصمت لتحقيق حلمه ، وأنقذ نجدا من المهالك والجمود ، ثم حرر الاحساء ، ثم فتح عسيرا وبث فيها الحضارة والامن ، ثم دخل الحجاز ونهض به هذه النهضة المباركة ، وأخذ يثب بمملكته الكبيرة وثبات مأمونة الاخطار انتزعت الاعجاب من كل بلاد العالم .

وعمله هذا تحقيق لفكرته الاولى : فكرة الوحدة العربية ، فبعد أن كان فى عسير وتهامة آل عائض والادريسي ، وكان فى الاحساء الترك والعجمان ، وفى الحجاز الحسين ثم ابنه علي ، وفى شمال نجد آل الرشيد ، وفى نجران القبائل ، وفى الربع الخالى بنو مرة وغيرهم ، وفى هذه الأقطار قبائل مستقلة ، كل قبيلة تحكم نفسها أصبح اليوم من يتكلم عن كل هذه البلدان رجل واحد هو ابن سعود ، وبعد أن كانت هذه الاقطار متفرقات لها حكومات خاصة ونظم خاصة صارت « وحدة » أو جامعة لا تنفصم عراها ولا يتزلزل بنيانها لأنه قائم على أساس متين وضعه أعظم عربي وأكبر مسلم معاصر ألا وهـــو ابن سعود .

فان كان لأحد فضل فى جامعة الدول العربية — الآن — بعد الله فذلك الفضل لابن سعود ، وان كان يقاسمه اخوته ملوك العرب وأمراؤهم وحكامهم وأدباؤهم وشعراؤهم ومفكروهم هذا الفضل ، ولكن الفكرة فى الاساس فكرة ابن سعود التى مر عليها أكثر من ثلاثين عاما ، والعمل الجدي عمله ، وبغير ابن سعود لا يمكن أن يقام بناء جامعة الامم العربية بحال ، وبغير الحجاز ونجد ومكة والمدينة والحرمين لا تكون عروبة ولا إسلام .

وليس فى هذا نسيان فضل سواه ، فلمصر فضل فى جمع الامم العربية فى أرضها الزاهرة وحرصها على أن يتم المشروع فى أسرع وقت ممكن استغلالا للظروف الحاضرة لمصلحة العرب .

وانا لنشكر الله الذى أتاح للامم العربية ملوكا وأمراء ورؤساء شعروا بالنقص فبادروا الى الكمال ، وعملوا للصالح العام غير ناظرين الى ما يقام من عراقيل فى سبيل مطلبهم النبيل ومشروعهم العظيم ، ونشكره على نعمه التى لا تحصى اذ منّ الله على العرب بتوحيد الكلمة واقامة البنيان والاعتصام بحبل الله رغبة فى الله ثم رغبة فى النهوض بالعرب ، ولعل الله الذى لا يضيع عمل عامل أن يعيد للعرب مجدهم المضيع وللمسلمين عزتهم السليبة على أيدى رؤساء الجامعة العربية حتى نكون الآن ــ كما كان أسلافنا الماضون ــ خير أمة أخرجت للناس .

وقد اشتركت فى الجامعة العربية الدول المستقلة وهي : مصر ، والمملكة العربية السعودية ، والعراق ، والجمهورية السورية ، وشرق الاردن ، ولبنان ، واليمن .

وقد ذكر فى ميثاقها أن القصد من الجامعة ليس الا « تثبيتا للعلاقات الوثيقة والروابط العديدة التى تربط بين الدول وسيادتها ، وتوجيها لجهودها الى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة ، وصلاح أحوالها ، وتأمين مستقبلها ، وتحقيق أمانيها وآمالها ، واستجابة للرأي العربي العام فى جميع الأقطار العربية » واتفقت دول الجامعة بالاجماع على ذلك وعلى اباحة الدخول لكل دولة عربية مستقلة .

وهناك مقاصد أخرى من الجامعة هى : توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها ، وتنسيق خططها السياسية تحقيقا للتعاون بينها ، وصيانة لاستقلالهاوسيادتها ، والنظر بصفة عامة فى شؤون البلاد العربية ومصالحها ، وأهم هذه الشؤون هــــي :

أ ــ الشؤون الاقتصادية والمادية ، ويدخل فى ذلك التبادل التجاري والجمارك والعملة وأمور الزراعة والصناعة .

ب – شؤون المواصلات ، ويدخل فى ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد .

ج – شؤون الثقافة .

د – الشؤون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الاحكام وتسليم المجرمين .

هـ – الشؤون الاجتماعية .

و – الشؤون الصحية .

ويتألف هذا الميثاق العظيم من عشرين مادة ، ذكرنا اثنتين منها فيما سبق ، وأهم هذه المواد : عدم الالتجاء الى القوة لفض المنازعات بين دولتين وأكثر من دول الجامعة ، فاذا نشب بينها خلاف لا يتعلق باستقلال الدولة وسيادتها أو سلامة أراضيها ولجأ المتنازعون الى المجلس لفض هذا الخلاف كان قراره عندئذ نافذا وملزما .

أما اذا اعتدت دولة على أخرى من أعضاء الجامعة أو خيف وقوع ذلك فللدولة المعتدى عليها أو المهددة بالاعتداء أن تطلب دعوة المجلس للانعقاد فورا ، ويقرر المجلس التدابير اللازمة لدفع الاعتداء ، ويصدر القرار بالاجماع ، فاذا كان الاعتداء من احدى دول الجامعة فلا يدخل فى حساب الاجماع رأي الدولة المعتدية ، وما يقرره المجلس بالاجماع يكون ملزما لجميع الدول المشتركة فى الجامعة ، وما يقرره بالاكثرية يكون ملزما لمن يقبله .

ومن المواد التى لها قيمتها ولها شأنها احترام كل دولة من الدول المشتركة فى الجامعة نظام الحكم القائم فى دول الجامعة الاخرى ، وتعتبره حقاً من حقوق تلك الدول ، وتتعهد بألا تقوم بعمل يرمى إلى تغيير ذلك النظام فيها .

ولمجلس الجامعة اعتبار الدولة التى لا تقوم بواجبات هذا الميثاق منفصلة عن الجامعة ، ويجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة تعديل هذا الميثاق .

وقد حرر الميثاق باللغة العربية فى الثامن من ربيع الآخر سنة ١٣٦٤ هـ (٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ م) .

كما أن الجامعة لم تنس مسألة فلسطين فأثبتت ملحقا خاصا بالميثاق تضمّن مـــــا يأتى :

« منذ نهاية الحرب العظمى الماضية سقطت عن البلاد العربية المنسلخة من الدول العثمانية ومنها فلسطين ولاية تلك الدولة ، وأصبحت مستقلة بنفسها غير تابعة لأي دولة أخرى ، وأعلنت معاهدة لوزان أن أمرها لاصحاب الشأن فيها ، واذا لم تكن قد مكنت من تولى أمورها فان ميثاق العصبة فى سنة ١٩١٩ م لم يقرر النظام الذى وضعه لها الا على أساس الاعتراف باستقلالها ، فوجودهـــا واستقلالها الدوليان من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه ، كما أنه لا شك فى استقلال البلاد العربية الأخرى ، واذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة فلا يسوغ أن يكون ذلك دون اشتراكها في أعمال مجلس العصبة .

ولذلك ترى الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية أنه نظرا لظروف فلسطين الخاصة والى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلى من يتولى مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربي من فلسطين للاشتراك فى أعماله » .

ولم تهمل الجامعة التعاون مع البلاد العربية التى لم تشترك بمجلسها فقررت فى ملحق خاص ما يأتى :

« نظرا لأن الدول المشتركة بالجامعة ستباشر فى مجلسها وفى لجانها شؤونا يعود خيرها وأثرها على العالم العربي كله ، ولأن أمانى البلاد العربية غير المشتركة

فى المجلس ينبغى له أن يرعاها وأن يعمل على تحقيقها فان الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية يعنيها بوجه خاص أن توصي مجلس الجامعة عند النظر فى اشتراك تلك البلاد فى اللجان المشار اليها فى الميثاق بأن يذهب في التعاون معها الى أبعد مدى مستطاع ، وفيما عدا ذلك لا يدخر جهدا لتعرُّف حاجاتها وتفهُّم أمانيها وآمالها ، وبأن يعمل بعد ذلك على صلاح أحوالها وتأمين مستقبلها بكل ما تهيئه الوسائل من أسباب » .

وقد احتفل يوم الخميس — ربيع الأول سنة ١٣٦٤ ﻫ بقصر الزعفران بالقاهرة احتفالا رائعا بتوقيع ميثاق الجامعة حضره رجال من أبرز عظماء الامة العربية وكبار ساستها ومفكريها يتقدمهم مندوبو دول الجامعة ، وألقى كل مندوب كلمة تناسب المقام .

وأقيمت لأعضاء وفود البلاد العربية مأدبة عشاء فخمة بقصر عابدين ، وكما أقيمت بعد ذلك حفلة سمر جليلة فى القصر حضرها وفود دول الميثاق البارزون من رجال مصر ومن البلدان الشقيقة .

وان الميثاق يعتبر الخطوة الاولى للعمل من الامم العربية المستقلة ، فهو من هذه الناحية شيء حسن له قيمته ، وهو وان كان فى دور النشوء الأن الامل فى بلوغه الدرجة العليا كبير فى المستقبل .

وقد برزت فكرة الجامعة بروزا ظاهرا منظورا بصورتها الجميلة ، وستأخذ فى الاشراق والوضوح أكثر كلما تقدمت بها الايام .

غير أن دعم استقلال الدول العربية وترقيتها أدبيا وثقافيا وسياسيا واجتماعيا وبناء صرح الامن والسلام والتعاون بعضها مع بعض ومع شعوب العالم كان أعظم ما يرمى اليه الميثاق ، وهو ما كان يتمناه العرب لأنفسهم منذ سنوات وأجيال ، وتحقق فى هذه الايام بفضل من الله .

كما أن الميثاق جعل الباب مفتوحا للدول العربية الاخرى كدول شمال افريقيا العربية اذا ما كتب لها الاستقلال ، وهذا مما يدل على أن الجامعة ستأخذ فى النمو والتضخم حتى تكون جامعة عربية كاملة .

ولم يهمل الميثاق مسألة فلسطين من ناحية الاستقلال فقد اعترف باستقلال فلسطين من الناحية الشرعية ككل البلدان العربية التى انسلخت من الامبراطورية العثمانية بعد الحرب العظمى الماضية ، وترك قضيتها العادلة بدون أن يشير اليها لئلا يزحم أعمال اليوم ما كان من أعمال الغد المأمول .

وان الجامعة العربية ستبلغ ما تريد وستتضخم حينما ينضم اليها كل دولة عربية وتصبح عضوا بها ، ولا يمكن أن تكون عضوا بها حتى تتمتع بالاستقلال ، وهذا ولا شك حفز للامم العربية غير المستقلة حتى تسعى لأخذ الاستقلال ، واغراء لها بالعمل من أجله حتى تستطيع أن تكون فى مصاف دول الميثاق .

والميثاق فى جملته رباط وثيق لأمم العروبة ، وبشرى صادقة تزف الى أبناء العربية ، وبراعة استهلال للقضية العربية التى كسبها ذووها فهو جدير بالتقدير والاكبار والاعجاب والتأييد .

* * *

مع روزفلت

ركب ابن سعود البحر لاول مرة فى ٢١ رمضان ١٣٤٨ ﻫ لمقابلة الملك فيصل ملك العراق رحمه الله ، وما أكثر ما طلب اليه أن يقوم برحلات فاعتذر ، لان فيها مشقة وتكليفا لا يطيقهما من تعود البساطة والفطرة ، غير أنه احتمل بعض المشاق فى هذه السنة وركب البحر للمرة الثانية للاجتماع بقطبي الديمقراطية وبغيرهما من الملوك والرؤساء ، ولو لم تكن هناك مباحثات خطيرة ، ولو لم يكن لكل هؤلاء منزلة سامية فى نفس ابن سعود لما قام بهذه الرحلة من الرياض – وهى تبعد عن مكة ألف كيلومتر – إلى الفيوم التى تبعد أكثر من ألفي ميل من مكة ، ولما حرص على الاجتماع بركوب البحر وقطع مئات الاميال بـــرا وبحرا .

انه حرص على الاجتماع بقطبي الديمقراطية ليعرفهما حقيقة العرب والمسلمين ، اذ ليس هناك من هو أحق بتمثيل العرب من ابن سعود .

وقد وضع الرئيس روزفلت مدمرة أمريكية لتقل الملك عبد العزيز ، فأمر بأن تزود بكل ما يحتاج اليه ملك فى رحلة خطيرة كهذه الرحلة ، واصطحب معه طاهيه وساقيه وخدمه كما اصطحب معه حرسه الخاص .

وبعد أن زودت المدمرة بكل ما تحتاج اليه أقلّت جلالته وما يعلم أحـد بمقصده غير ابنيه سعود وفيصل ، حتى أن حاشيته ما كانت لتعلم شيئا عـن الرحلة ولا عن الاتجاه ولا عن القصد حتى اختفت اليابسة عن الانظـار ، هنالك علم رجال الحاشية فدهشوا كثيرا ، وكان عدد من معه ثمانية وأربعين منهم شقيقه الأمير عبدالله وابناه الامير محمد (أمير المدينة) والامير منصور (وزير الدفاع) والشيخ عبدالله السليمان (وزير المالية) والشيخ يوسف ياسين (نائب وزير الخارجية) والاستاذ عبدالله بلخير (مترجم جلالته) والشيخ حافظ وهبه (وزير المملكة المفوض في لندن) وبعض أركان حربه ، كما كان معـه بعض الفنيين من رجال المواصلات اللاسلكية مهمتهم الاتصال بمكة المكرمة كل نصف ساعة خلال الرحلة كلها .

وكان يرافق جلالته الكولونيل وليم ادى وزير الولايات المتحدة المفوض بالمملكة السعودية ، وقد تولى الترجمة الرسمية في الاجتماع الذى عقد بـين الملك والرئيس روزفلت.

وأقلت الملك المدمرة ، وأعد له فيها جناح خاص كبير مزود بكل وسائل الراحة ، غير أنه آثر أن يقيم على ظهر المدمرة استمتاعا بمنظر البحر الجميـل وهوائه النقي ، فنصبت له عند برج المدفعية الامامي خيمة كبيرة مزينة بالنقوش والزخارف .

ودعا الملك الكريم في مساء اليوم الاول جميع ضباط المدمرة وبحارتهـا لتناول العشاء معه ، وقد صفت الموائد على الطراز العربي ومدت عليها صحاف الاطعمة العربية اللذيذة ، ولعل هؤلاء الامريكيين يجلسون لتناول الطعام هـذه الجلسة العربية لاول مرة ، ولكنهم ارتاحوا اليها وسروا بالمائدة العربية .

وفى اليوم الثانى شاهد جلالته قوة المدمرة الهجومية عندما أطلقت مدافعها المضادة للطائرات ، وقذفت قنابل الاعماق الخاصة بمقاومة الغواصات ، وكان

منظرا عجبا حيث تذوب كل آلات الفتك والتدمير فى هذا الخضم كالفقاعة السابحة يبتلعها فى لمح البصر .

وأعجب العرب السعوديون بالبحارة الامريكيين وهم فى ملابسهم الزرق البحرية كما أعجب أبناء الدنيا الجديدة بالعرب وهم يرفلون فى ثيابهم الفضفاضة وعباءاتهم المذهبة يروحون ويغدون فى خفة ونشاط ويتهادون مبتهجين ، ودارت الاحاديث بينهم وقضوا فى البحر ما قضوا من ساعات مسرورين من هـذه الفرصة التى أتاحت لهم هذا الاجتماع .

وفى صباح الخميس ٢ ربيع الاول سنة ١٣٦٤ ﻫ (١٥ فبراير ١٩٤٥ م) كانت المدمرة فى البحيرات المرة حيث ينتظر الرئيس روزفلت فى الطـرادة الامريكية « كونيرى » استقبالا لضيفه العظيم ، وكان الرئيس على سطح الطرادة يرقب المدمرة حينما تهادت بالملك العظيم ، فتبادل بحارة السفينتين التحيات والنداءات البحرية بالبوق ، وأخذت المدمرة مرساها تجاه كونيرى ومد بينهما جسر عبره الملك فاستقبله البحارة وكبار الضباط ورؤساء أركان الحرب المرافقين للرئيس استقبالا حماسيا رائعا ، ثم سعى إلى جلالته الرئيس وصافحه وحيـاه واحتفى به احتفاء جد عظيم ، وتبادلا عبارات التحية والمودة .

وأعجب روزفلت بابن سعود اعجاباً لا حد له ، فلقد ملأته شخصية الزعيم العربي الاكبر ، وقد طابق ما سمع عنه ما رأى الآن ، بل ما رآه كان أعظـم بكثير مما سمع ، وقال له : كنت أود أن أجتمع بك قبل هذا .

ثم تناول الملك والرئيس الغداء ، وبعد الفراغ منه بدآ حديثهما الخطير فى جو يسوده الود والتقدير والاعجاب ، واستعرضا فيه ما بين المملكة السعوديـة والولايات المتحدة من روابط كثيرة يحرص عليها الطرفان ويبذلان الجهد فى سبيل المصالح المشتركة بينهما وتنمية الصلات الودية ، وقال روزفلت : يجب أن يتاح لرؤساء العالم فرصة تبادل الآراء لكي يزداد تفاهمهم وتقدير كل منهم

لمشاكل الآخر وبحث المشاكل المشتركة بين دولهم .

ثم تناول الملك والرئيس شؤونا أخرى اقليمية وعالمية ، وكان جلالة الملك أيده الله كثير الاهتمام بقضية فلسطين ، وأبان للرئيس وجهة نظره ، كما دلل على عدالتها وصحتها ما أقنعه فوعد بأن ينظر فى ذلك .

ثم تناولا بالبحث شؤونا عربية هامة ، وكان الملك المعظم صريحا كعادته فى مخاطبة الرئيس ، ومن الكلمات الخالدة التى قالها : « لا أريد كتابات ! بل أريد أن تُعطَى الكلمة من عبد العزيز لروزفلت ، ومن روزفلت لعبد العزيز » وهذا حق ، فكلمة من عبد العزيز فوق الكتابات والمعاهدات لانه رجل شريف .

ثم أبدى الرئيس روزفلت لجلالة الملك عبد العزيز رغبة فى تقديم طائرة أمريكية هدية تذكارية لهذا الاجتماع التاريخي ، وقبل جلالته الهدية [1] .

---

(١) في يوم السبت ٢ جمادي الاول ١٣٦٤ هـ (١٤ ابريل ١٩٤٥ م) وصلت مطار جدة الطائرة الامريكية التي أهداها الرئيس الى جلالته ، واشترك في تقديمها الى وكيل نائب جلالة الملك في الحجاز (الامير منصور) كل من : الكولونيل ماكين والكولونيل هويت والكولونيل اولدريش واللفتنانت كولونيل كد ، وفي الساعة التاسعة والنصف من يوم السبت تقدم الكولونيل وليم ادى وزير أمريكا المفوض بجدة وقدم الطائرة وهي من طراز دوجلاس مجهزة بمقاعد وثيرة وبأحدث الوسائل الفنية وقال : « ان قوات الطيران في جيش الولايات المتحدة قد أعدت هذه الطائرة الامريكية للخدمة في بلادكم العظيمة التي أتشرف بتقديمها لسموكم بوصفكم نائبا لجلالة الملك » .

فأجابه الامير منصور بخطاب موجزه : « أتقبل باسم جلالة والدي الملك عبد العزيز هذه الهدية الثمينة التاريخية المهداة من الراحل العظيم الرئيس فرنكلين روزفلت ، تلك الهدية التي ترمز في نظرنا لامرين عظيمين ، الاول : ذكرى الاجتماع التاريخي ، والثاني : رمز الصداقة بين المملكة السعودية والولايات المتحدة ، وقد أصبح لهذه الطائرة مكانة خاصة سيحتفظ بها كذكرى خالدة في هذه البلاد للزعيم الذي كان زعيما انسانيا عالميا كما كان زعيما بحق للولايات المتحدة » .

وكان تسليم الطائرة بعد موت روزفلت .

على ضفاف النيل

سلك جلالة ملك المملكة العربية السعودية الطريق برا إلى الفيوم حيث نزل بفندقها الشهير « أوبرج دولاك » القائم على بحيرة قارون ، المعد لنزوله وأحيط بقوة بريطانية تحرسه ليل نهار ، وأبعد عنه كل أحد ، ومنع رجاله من الاقامة فيه الا المدير فقد أبقي للاستعانة به عند الضرورة ، وقالت الصحف : ان الناس كانوا يروحون ويغدون من بعد دهشين لا يعلمون ما سيجرى من مباحثات خطيرة فى سبيل العروبة وفى سبيل الاسلام على مقربة منهم فى هذا المكان .

وقد زود الفندق بكل ما يلزم للملك العظيم ولمرافقيه من رجال الحاشية ، كما أعد نظام واسع للاتصال البرقي حتى يتسنى لجلالته أن يتصل بمملكته المترامية الاطراف ، فكان يستقبل كل يوم عديدا من المرات « التقارير » ويصدر الأوامر إلى رجال دولته كما لو كان فى مكة أو الرياض ، لانه حريص أعظم الحرص على أن يدير مملكته بنفسه ويحيط بكل ما يجرى فيها من دقيق الأمور وجليلها .

وما كاد جلالته يشرف الاوبرج حتى أسرع اليه الملك فاروق ومعه الرئيس شكرى القوتلي ، وذلك بعد عصر يوم الجمعة ٣ ربيع الاول سنة ١٣٦٤ م (١٦ فبراير سنة ١٩٥٤ م) .

ووصل الملك والرئيس فاستقبلهما ابن سعود استقبالا أخويا رائعا ، وقضوا بضع ساعات تناولوا فيها بحث الشؤون العربية الهامة .

وقد طاب الحديث بين هؤلاء الاقطاب الثلاثة حتى أن فخامة الرئيس شكرى كان قد أقام مأدبة عشاء فخمة وحفلة ساهرة لجلالة الفاروق بدار المفوضية السورية مساء الجمعة ، ولكن تأخر شكرى والمحتفل به عن الموعد يدل على خطورة « الموضوعات » التى تناولوها ، وما شغلهما عنه الا انهماكهما فى الحديث الذى سيغير مجرى الحياة العربية .

ثم غادر الملك والرئيس الاوبرج مودعين من الصقر الغلاب خير وداع ، وهم مستبشرون من هذا الاجتماع ، ومن هذا التضامن ، كما أن العرب والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها تفاءلوا باجتماع أقطاب العروبة والإسلام وعلقوا عليه آمالا كبارا ، لان من اجتمعوا رؤساء حكومات لها شأنها فى السياسة العربية ، فهم مصيبون فى تعليق تلك الآمال العظيمة بهؤلاء الاقطاب العظماء .

مع تشرشل

فى صباح يوم السبت ٤ ربيع الاول سنة ١٣٦٤ هـ (١٧ فبراير ١٩٤٥ م) ركب السيارة المستر ونستون تشرشل رئيس الوزارة البريطانية (وكان مرتديا بدلة الكولونيل الاول بفرقة الهوسار الرابعة) يصحبه المستر أنطونى ايدن وزير الخارجية البريطانية واللورد موران طبيب رئيس الوزارة البريطانية الخاص، وهيئة مكتبه التى رافقته فى مؤتمر يالطا، ووجهتهم «الفيوم».

حتى إذا وصلوا الاوبرج استقبلهم جلالة الملك عبد العزيز بن سعود وشقيقه الامير عبدالله وابناه الاميران: محمد (أمير المدينة) ومنصور (وزير الدفاع) والشيخ عبدالله السليمان (وزير المالية) والشيخ يوسف ياسين (السكرتير الخاص لجلالة الملك ونائب وزير الخارجية) والشيخ حافظ وهبة (الوزير المفوض للمملكة السعودية بلندن) استقبالا رائعا، وتبادلوا عبارات التحية والولاء وقد كان الملك عبد العزيز مرتديا فى هذه المقابلة ثيابه العربية عليها دثاره الرسمي الاحمر الموشح بالذهب، ويشع على رأسه عقال مقصب جميل.

تبادل الفريقان التحية، وأعجب تشرشل ومن معه بالملك العربي المسلم الكبير اعجابا عظيما.

ودار بينهم حديث ودي ، ثم اختلى الملك ورئيس وزراء بريطانيا وتولى الاستاذ بلخير الترجمة بينهما ، ومكثا أكثر من ساعة يتباحثان فى مسائل شتى أهمها ما يتعلق بالعرب ومستقبلهم ، ثم غادرا الاجتماع وكل منهما مسرور من هذه المقابلة والمحادثة اللتين انتهتا بنجاح .

وبينا كانا فى المحادثة مدت أخونة الغداء فى ردهة الفندق المستطيلة المكسوة باللونين : الازرق والاحمر ، المشرفة على بحيرة قارون الهادئة الصافية ، ولما خرجا تصدرا المائدة وكان معهما فيها من الجانب البريطاني : ايدن وموران والمستر جوردن الوزير البريطاني المفوض السابق فى جدة والجنرال السير برنار باجيت القائد العام لقوات الشرق الاوسط والسير ادوارد جريج الوزير البريطاني المقيم فى الشرق الاوسط واللورد كليرن السفير البريطاني بالقاهرة ، والسير والترسمارت المستشار الشرقي بالسفارة البريطانية بالقاهرة والسير الكسندر كادوجان وكيل وزارة الخارجية ومارشال الطيران مدهيرست قائد القوات الجوية فى الشرق الاوسط والمستر جرافتى سمث الوزير الانكليزي المفوض فى جدة والمستر لسلى روان السكرتير الخاص لرئيس الوزراء والسير وليم كروفت سكرتير مكتب وزير الدولة والبريجادير كلايتون والماجور راندولف تشرشل ابن رئيس الوزراء .

أما من الجانب العربى فأصحاب السمو الامراء السعوديون وحاشية جلالته .

وقد طبعت « قوائم الطعام » باللغتين العربية والفرنسية على بطاقات مفضضة كتبت عليها أسماء الاطعمة المقدمة لهم .

وبعد تناول الغداء خرج جلالته ووزراؤه إلى الشرفة حيث التقطت لهم صور للذكرى .

ثم اجتمع الملك وتشرشل والوزراء والحاشية من الجانبين فى البناء الرئيسي

للاوبرج وتبادلوا الهدايا التذكارية تخليدا لهذا اليوم التاريخي العظيم .

وأهدى جلالة الملك المستر تشرشل سيفا عربيا وخنجرا فاخرين مطعمين بالذهب مرصعين بالاحجار الكريمة منقوشين بنقوش فنية جميلة ، كما أهدى جلالته المستر ايدن سيفا كالسيف المهدى إلى تشرشل ، كما قدم إلى تشرشل ملابس عربية ممتازة وعباءة جد ثمينة فى حقيبة من الجلد ، وقدم إلى صحبه مجموعات كبيرة من الملابس العربية الفخمة .

وأعجب تشرشل وزملاؤه بهذه الهدايا الغالية الثمينة حتى قال تشرشل للعاهل العربي الكبير : « انى سأعتز بها دائما لا لقيمتها الفنية البديعة فحسب بل لانها تذكار سعيد لهذا الاجتماع » فرد عليه ردا لطيفا .

ثم نهض تشرشل ليحضر هديته ومر فى طريقه باللورد تشارلز موران وقال له : « يا لها من حيوية عجيبة — يا تشارلز — فى رجل شارف السبعين » يقصد بكلامه الملك عبد العزيز ، فأجابه موران : ما أراك دون ذلك ! .

وأقبل تشرشل ومعه صندوق من العطر الشذي الفذ المستحضر من أحسن الخلاصات العطرية المركزة من العنبر والياسمين والمسك ، وبكل صندوق ست زجاجات ملأى بهذه العطور ، وقدم الصندوقين هدية إلى الملك ابن سعود بكلمة رقيقة فتقبلها منه شاكرا .

وختمت الجلسة التاريخية بين قطب العرب وحامى الاسلام وبين قطب الديمقراطية بالود والصفاء والبشاشة التى بدأت بها ، وودع تشرشل وصحبه وداعا حارا .

فى ضيافة الفاروق

لايستطيع القلم مهما كان بليغا أن يصف زينة مصر وابتهاجها واستعدادها لاستقبال ضيفها العظيم صقر الجزيرة ، بل لقد كتب أبلغ الكتاب ووصفوا هذه الزينة التى تبرجت بها مصر فلم يستطيعوا أن يبلغوا فى وصفهم شيئا من عظمتها التى لم تشهد مصر مثلها فى تاريخها بالرغم من استقبالها ملوكا كثيرين .

أينما تلق بصرك تجد جمالا وسحرا وفتنة وبهجة ومراحا تتفجر بلا انقطاع ، لا فرق بين صغير ولا كبير ، ولم تقف البهجة عند حد ، فكل شيء فى مصر — قبيل دخول ابن سعود — متوثب متهيء للقاء أكرم ضيف ، فهنا أقواس النصر تنصب ، وهنا آلاف الاعلام السعودية تخفق وهنا « الزينات » تسعى إلى الشوارع والبيوت والمحال التجارية سعيا استعدادا لاستقبال حامى العروبة ومنقذ الدين ، وبدت القاهرة كأنها فى عرس لا يشهد التاريخ مثله ، وقد أضفى عليه الفاروق من روحه الكريمة وشبابه المتضرم فكانت فى خير زينة وأبهى منظر .

* * *

وفى الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعين من يوم الخميس ٦ صفر ١٣٦٥ ﻫ (١٠ يناير ١٩٤٦) رسا اليخت الملكي « المحروسة » مقلا عاهل العرب

الاكبر عبد العزيز بن سعود ، فصعد اليه الملك فاروق العظيم ومعه أصحاب المقام الرفيع والدولة والسعادة رئيس الديوان الملكي ورئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باشا والوزير المفوض للمملكة العربية السعودية بالقاهرة وكبار موظفي المفوضية السعودية وحيوا صقر الجزيرة تحية حارة ، وتعانق الملكان ثم قصدا سرادق الاحتفال يحف بهما الوزراء والعظماء ورجال الحاشيتين .

وفى الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق أطلقت قلعة السويس احدى وعشرين طلقة ايذانا بتحرك القطار الملكي الذى أخذ يتهادى فى سيره بين صفوف من الجماعات لا عداد لها تحيي الملكين وهما يردان التحية ، والهتافات تدوى فى كل مكان ، وكانت الجماهير على الطريق بين السويس والقاهرة تحيي ضيف مصر العظيم ، والفرسان يسابقون القطار حتّى وصل بعد الظهر محطة القاهرة حيث كانت مصر كلها تحتفي بالضيف العظيم ، فشرفات البيوت ملأى بالرجال والنساء والاطفال ، والشوارع مزدحمة بالناس ، والهتاف الصارخ الجهير يتصاعد إلى السماء ، ومشى الموكب الملكي من المحطة إلى قصر عابدين العامر ومصر كلها أهلوها وضيوفها تهتف حتى بحت الاصوات وتصفق حتّى دميت الاكف .

والحق أننا لا نستطيع أن نصف هذا الاستقبال العظيم ، وخير ما يقرب إلى الذهن هذا الاحتفال الرائع قول ابن سعود نفسه حينما شرفنا به فى قصره بمكة عقب رجوعه إلى عاصمة ملكه : « لا يستطيع أحد أن يصعد إلى السماء ، ولكن المصريين لم يتركوا شيئا فى الارض الا عملوه » وهذا صحيح ، فما كان فى الارض من زينة وبهجة وحفاوة فقد صنعه المصريون .

ولبث الملك أكثر من أسبوع فى ضيافة مصر مسرورا سعيدا بهذه الاخوة التى يباركها الله ويوثقها الدين وتعززها العروبة ويقويها الشعبان ، وقد سمعت الملك عبد العزيز وهو يشيد بمصر وبالحفاوة البالغة التى لقيها منها شعبا وحكومة .

وقد زار صقر الجزيرة المؤسسات العلمية والصناعية والمستشفيات ، فزار جامعة فؤاد الاول والبرلمان والجامع الازهر والجامعة العربية وسلاح المدفعية الملكي وحديقة الحيوان والقناطر الخيرية والمحلة الكبرى واصلاحية الاحداث ، وزار الاسكندرية ، كما أن جلالته استعرض الجيش المصري الباسل وأبـدى اعجابه بكل ما رأى وسمع .

واجتماع مصر والبلاد المقدسة قوة ضخمة لبنى العروبة والاسلام ، وله أثره القوي فى نهضتهم وتوحيد كلمتهم والسير بهم إلى الامام تحت قيادة ملوكهم وزعمائهم ، وهو فى الوقت نفسه تقوية للجامعة العربية .

وقد غادر جلالة الملك ابن سعود القاهرة فى يوم الثلاثاء ١٩ صفر ١٣٦٥ هـ (٢٢ يناير ١٩٤٦ م) قاصدا بلاده المتعطشة اليه ، بلاده التى أخذت تستعـد لاستقبال هذا الملك المحبوب شاكرة مصر المضياف ، متمنية لها الخير .

ابن سعود وقضية فلسطين

أستطيع أن أقول في ثقة واطمئنان : أن اهتمام ابن سعود بقضية فلسطين هو نوع يغاير اهتمام كل المسئولين العرب الألى في مستواه ، فليس اهتمامه من قبل أداء الواجب ؛ وليس غير ، وليس من قبل الدعاية التي يقصد منها كسب الانصار ، وليس رغبة في « الاستهلاك المحلي » أو التضليل والخداع .

وليس من خلائق ابن سعود الغش ، وما عرف عنه قط التلون والتدليس ، فهو واضح العقيدة ، وواضح الطريق ، وصريح في أدب ، وقوي كل القوة مع الزكانة والأناة والحكمة والرأي الصواب .

وكل حكام العرب المسئولون في طبقة ابن سعود لم يكونوا في صلاحه وتدينه وصراحته وقوته وخلائقه العربية والاسلامية والانسانية ، وكان فيهم « ممثلون » على المسرح السياسي والوطني ، وكان فيهم تجار وطنية ، ولهذا كانت قضية فلسطين « دراما » أو تجارة .

أما ابن سعود فكانت لديه قضية فلسطين قضية نفسية وعقائدية وعربية وانسانية ، فهي منه بمثابة النفس ، والانسان يتنفس ولا يقول للناس بلسان حاله : تعالوا ، وانظروا ، فأنا أتنفس ، وكذلك كانت القضية بالنسبة له .

وابن سعود يجامل الانكليز كثيرا ، ولكنه لا يذل لهم ولا لمخلوق على وجه الأرض ، والمجاملة من كمال الانسان ومن الصفات الجليلة ، لأنها إبداء جانب الجمال ، وهو غير الكذب والنفاق ، يجامل الانجليز لأنهم هم أنفسهم يحترمونه ويجلونه ، وعندما تصل الامور إلى الكرامة فكل قوى الأرض لا تستطيع إذلالها أو التعرض لها ، والبراهين على ذلك ساطعة ، والأمثلة كثيرة ، ومنها — على سبيل المثال — قضية لجوء رشيد عالى الكيلاني اليه سنة ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م) واصرار الانجليز الذين خرجوا من الحرب منتصرين على ألمانيا على تسليمه اليهم بدون قيد ولا شرط ، فوقف ذلك الموقف الصلب الذى تحطم عليه عنادهم وإصرارهم .

إنه قال للانجليز : « والله ، ثم والله ، ثم والله ، إن رشيد عالى سيظل عندى آمنا مطمئنا ما بقيت وما بقي أحد من آل سعود حيا ، ووالله ، ثم والله . لو جاء الانجليز بأساطيلهم وصفوا بوارجهم من لندن إلى جدة فلن يأخذوه ما دمت حيا » .

وهذا موقف لن يقفه أحد إلا نادرا جد نادر ، فما ابن سعود وقوته بجانب بريطانيا العظمى؟ واذا كانت كل أموالها وأموال العالم لا تكون ثمناً لعقيدته فإن كل قوات بريطانيا لا تستطيع إذلال كرامة ابن سعود ما دام حيا ، واذا مات دون كرامته فما بعد الموت لجرح بميت إيلام .

وقضية فلسطين أكبر من الافراد وأعظم من الشعوب لأنها قضية تقوم على العقيدة والوطنية والعربية والإنسانية ، فاذا كانت قضية فرد يتصدى لها ابن سعود ذلك التصدى فإن قضية فلسطين عنده فوق كل قضاياه المصيرية ، فوق قضايا بلاده وأمته ، ولهذا كان موقفه فيها موقفا فاذّا لم يقفه أحد فى تاريخ قضية فلسطين الحديثة ، ولكن ، لا رأي لمن يطاع .

ففلسطين ليست تحت حكمه ، وشعبها ليس تحت أمره ، فحكمه غير

مقبول ، وأمره غير نافذ ، ومن هنا أصاب القضية الفلسطينية ما أصابها .

وأول رأي رآه فيها أن تكون وقفا على الفلسطينيين وحدهم ، وعلى العرب جميعاحكومات وشعوبا أن تمدهم بالمال والسلاح والرجال والرأي ، وأن يكون الرجال متطوعين ، لئلا تقع الحكومات تحت سطوة المسئولية عندما يتحدون ويشتركون رسميا فى القتال .

وأول رأي رآه أن يكون الدفاع صادرا من الايمان الحق ، وأن يكـون الدفاع عن القضية والصراع من أجلها جهادا وليس قتالا ، لأن ابن سعود يفرق بين القتال والجهاد ، فالقتال يكون اعتداء على حق طمعا فى استلابه واغتصابه ، ويكون دفاعا عن الحق ، أما الجهاد فحق كله ، والقتال سجال ، يوم لك ، ويوم عليك ، أما الجهاد فلا هزيمة فيه ، لان كلمة الفصل له .

وقال ابن سعود لزعماء فلسطين : آمنوا بالله ورسله وباليوم الآخر ثم جاهدوا ، فان النصر ثمرة الجهاد الصادق .

ولكن السبل تشعبت بقادة فلسطين منذ كانت لها قضية ، ولم يكن حكام العرب مستقلين بأقطارهم فلم يكن لهم جيش حر يسير بأمر الحاكم المقيد ، ولم يكن هناك الايمان الذى يفهمه ابن سعود ، مما أدى إلى الكوارث التى أخذ بعضها برقاب بعض حتى كانت الكارثة التى انتهت بقيام الكيان الاسرائيلي فى أرض فلسطين العربية المحض .

ففى مارس سنة ١٩٤٨ علم ابن سعود بما يدور فى أروقة الأمم المتحدة ، وكان معروفا للعرب وحكامهم أن الادارة البريطانية ستترك فلسطين للعـرب واليهود ، وما تركتها إلا بعد أن أضعفت القوة العربية إضعافا شديدا ، وقوت اليهود وساعدتهم فى ايجاد قوة مسلحة .

وبمجرد مغادرة الانجليز أعلن اليهود دولة اسرائيل ، وطلبوا إلى دول العالم

أن تعترف بها ، فاعترفت بها الولايات المتحدة الاميركية يوم إعلانها عن نفسها ، واعترف الاتحاد السوفياتي وأعلنت اعترافها بعد امريكا بسويعات ، والفارق بين الاعترافين أن اعتراف الولايات المتحدة الامريكية لم يكن الا اعترافا بالامر الواقع ، وهو اعتراف لا يقضي بتبادل التمثيل الدبلوماسي ، أما اعتراف السوفييت فتام يقضي بتبادل التمثيل السياسي .

وقبيل خروج الانجليز بزمن رأى ابن سعود أن يجمع الفلسطينيون أمرهم ، ويقيموا الكيان الفلسطيني ، وبمجرد خروج الانجليز يعلنون دولتهم ، ويطلبون إلى العالم الاعتراف بها ، وبذلك يكون لهم حق الدولة القائمة ، وقدم رأيه لزعماء فلسطين الذين كانوا مشغولين بآراء وأفكار وامور غير التى كان يهتم بها ابن سعود .

وقد ذكرت فى كتابى « صقر الجزيرة » فى مقدمة طبعته الثانية الصادرة سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) ما نصه :

« وقضية فلسطين لم يكن هو محاميها الوحيد ، ولم يكن مسيطرا عليها ومسئولا عنها مثل سيطرته على بلاده فلم تنجح ، لأن العرب لم يأخذوا برأيه فيها ، ولو أخذوا لما كان هناك كيان اسرائيلي قائم .

« رأى عبد العزيز الذى عرف عنه وسمعناه منه غير مرة : أن ينفرد أهل فلسطين بالدفاع عنها ، وألا يشترك العرب رسميا فى الحرب ، بل تقوم الدول العربية بمساعدة أهل فلسطين بالسلاح والمال والرجال متطوعين .

« بل كان له رأي عظيم فى الكيان الفلسطيني سمعته منه وحدثت به الحاج أمين الحسيني فى لقاء لى معه فأيده وأعجب به ، ولكن بعد فوات الفرصة والاوان .

« رأيُ عبد العزيز أن تقوم حكومة فلسطينية بمجرد ترك الانجليز للسلطة فى الوقت الذى حددوه ، وكان يعلم حق العلم ان اسرائيل أعدت العدة لتسلم

السلطة من الانجليز ، وانهم سيعلنون حكومتهم للحظة التى يترك افى الانجليز فيها السلطة ، ويطلبون إلى الدول الاعتراف بها ، ورأى عبد العزيز أن يعلن الفلسطينيون حكومة فلسطين ويطلبوا إلى الدول الاعتراف بها ، وتنهض هي تجاه اسرائيل ، ويكون الصراع بينهما ، وسينتهى بكسب العرب .

« ولكن لم يؤخذ برأيه فى المسألة الاولى وفى الثانية ، لم يترك أهل فلسطين يدافعون عن بلادهم ، ولم يُعلن قيام حكومة فلسطين ، بل أخرج أهلها ليحل مكانهم غيرهم فى الدفاع ، وفرق بين الانسان يدافع عن نفسه وبين آخر يأتيه من بعيد للدفاع عن غيره .

« بل انتهى الامر إلى أن العرب أنفسهم قضوا على كيان فلسطين ، فبعد اعلان الهدنة بين اسرائيل والعرب كانت الحكومة السعودية معترفة بفلسطين ، حتى أن ادارة الجوازات كانت تكتب اسم « فلسطين » فى حقل الاقطار بالجواز السعودي ، وعندى جواز مجدد برقم ٦٩٢ فى ٢٠ / ٧ / ١٩٤٩ م [١] من السفارة السعودية بالقاهرة كتب اسم « فلسطين » فى حقل الاقطار .

وأردت زيارة القدس فغادرت دمشق اليه ، ولكن السلطات الاردنية فى « الرمثا » منعت دخولى ، لأنه لا وجود لفلسطين ، ولم يكن بحقل الاقطار اسم الاردن ، فعدت إلى دمشق وأضفته وسمح لى بالدخول .

« ولا وجود لكيان فلسطين ، وكان عبد العزيز وحده هو الذى يعترف به ، فكانت ادارة الجوازات تكتب اسم فلسطين فى حقل الاقطار .

« واليوم يعودون إلى بعض رأى عبد العزيز الذى أثبتت الحوادث أنه كان الرأي الصواب ، وكان أبعد من كل الحكام نظرا وأصفى فكرا وأعرف بما يجب أن يكون ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع .

---

(١) يوافق ٢٤ رمضان سنة ١٣٦٨ هـ .

« ولو أخذ برأيه لما احتاج الامر إلى ما يحتاج اليه اليوم من البذل ومن التضحيات والتبعات والخسائر الفادحة .

« وضاعت فلسطين من أيدى أهلها ، لأن الرأي الذى رآه عبد العزيز لم يصادف هوى عند من كان بيدهم أمر قيادة فلسطين من حكام العرب وزعماء فلسطين .

والمتتبع لتاريخ العرب منذ سنة ١٣١٩ هـ حتى اليوم يدرك ان ما صنعه عبد العزيز وحده للعرب هو مفخرتهم وزينة تاريخهم » .

ولعل أول موقف رسمي يقفه ابن سعود من القضية الفلسطينية كان سنة ١٣٤٥ (١٩٢٦) وذلك بعد أن أصبح ملك الحجاز وصار أكبر حاكم فى جزيرة العرب على الاطلاق ، ولكنه كان مرتبطا بمعاهدة مع الانجليز سنة ١٣٣٤هـ (١٩١٥ م) تجعله واقعا تحت نفوذهم ، والآن ، وقد تغير أمره فمن الفرض عليه أن يحرر نفسه وبلاده من ربقتها ، وطلب إلى الانجليز إبرام معاهدة جديدة تلغى تلك المعاهدة الجائرة .

واستجاب الانجليز لطلب ابن سعود ، وكانوا ينتظرون هذه الفرصة ليملوا ما يريدون ، فوعد بلفور قد عرف ، واتخذت السياسة البريطانية أحابيلها وأساليبها المختلفة لانجاز ذلك الوعد الذى عملت له ما فى وسعها ليتم الإنجاز .

ورأت الحكومة البريطانية أن ابن سعود يحكم أكبر رقعة من جزيرة العرب ، وصار أعظم حاكم وأقوى ملك عربي فيها ، فإذا ضمنته وربطته بمعاهدة يعترف فيها بالوجود الخاص لها فى فلسطين فقد ضمنت الهدوء والاستقرار فيها ، واعتراف ابن سعود بالوجود الخاص يعطيها قوة يسعها بها أن تضعف قوى المعارضة العربية .

وجاء المفاوضون البريطانيون إلى مملكة ابن سعود لعقد المعاهدة الجديدة ،

واتخذوا أسلوبا لبقا ظنوه جائزا على ابن سعود ، وصاغوا « مادة » من مــواد المعاهدة يعترف فيها ابن سعود بوجود بريطانيا الخاص أو المركز الخاص لبريطانيا فى فلسطين .

وأدرك ابن سعود مقصد المفاوضين البريطانيين ، فأبى أن يُساوَم عــلى الحقوق ، وإذا كان البريطانيون قد انتزعوا منه حقا من حقوق بلاده فى معاهدة سنة١٩١٥ لسبب من الأسباب فان من الحق إعادة ما انتزع من الحق إلى صاحبه ، وأما فلسطين فالشيء الذى يقبله فيها أن يكون الحق لصاحبه أيا كان ، فاذا كان مطلب بريطانيا من الوجود أو المركز الخاص لها بفلسطين حقا فهو يعترف به ، أما وذلك ليس حقا فمن المحال أن يعترف به ، ثم أن فلسطين خاصة بأهلها الشرعيين ، واذا طلب إليه أمر يتصل بها فالشيء الوحيد الذى يعمله هو تأكيد الحق لهم لا العمل على نزعه منهم .

ودار نقاش بين المفاوض البريطاني وابن سعود أكثر من هذا ، وظهر أن علم ابن سعود بالحق التاريخي والحق الواقعي أصح من علم المفاوض البريطاني ، فالفلسطينيون لم يتركوا قط فلسطين خلال عشرات القرون ، وبرغم ما مر بهم من غزو الغزاة والحروب فانهم لم يفارقوا أرضهم حتى اليوم ، أما اليهود فقد كانوا غرباء ، ثم تشتتوا فى أقطار الأرض ، ورحل الآلاف منهم بطوعهم واختيارهم وحريتهم دون أن يطردهم أحد ، فلو كانت فلسطين وطنهم حقا لثبتوا به مثلما ثبت الفلسطينيون ، وهذا الثبات هو الحق الواقعي ، أما الحــق التاريخى فإن الاسم المطلق على تلك الرقعة من الأرض يثبت أنها للفلسطينيين وحدهم ، أليس اسمها فلسطين ؟ بلى ، فهى للفلسطينيين .

وأسقط فى يد المفاوض البريطاني ، وتمت المعاهدة بين بريطانيا وابن سعود دون أن تكون فيها مادة أو فقرة عن ذلك الشيء الذى أرادته ، وسميت المعاهدة معاهدة جدة ، ولكن ، لم يتم ذلك إلا بعد جهد جهيد ، فقد قطعت المفاوضات ثم استأنفت ، وانتصر ابن سعود .

وبعد المعاهدة كان ابن سعود يتتبع أحداث فلسطين ، وبلغه أن اليهود ألقوا قنابل على المصلين بالمسجد الأقصى وهم يؤدون فريضة الجمعة فى شهر جمادى الأولى سنة ١٣٤٨ (اكتوبر ١٩٢٩) وقتل عدد من المصلين .

وغضب ابن سعود لهذا العدوان الآثم على بيت من بيوت الله وعلى أبرياء كانوا يؤدون الفريضة ، وارسل إلى ملك بريطانيا كتابا يستنكر فيه هذا الحادث الأليم ، ويعرب له عن الأثر السيء الذى تركه فى نفسه ونفس شعبه ، ويناشده المحافظة على الدين ، وحماية المصلين ، ومعاقبة الآثمين ، والحيلولة دون تكرار هذا الحادث ، وأجابه ملك بريطانيا فى ١٠ ديسمبر ١٩٢٩ (السبت ٨ رجب ١٣٤٨ هـ) جوابا يؤكد له فيه اهتمام حكومته للأمر ، وينفى له وقوع الاعتداء على المسجد الأقصى والمصلين فيه .

وأرسل ابن سعود للجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني بالقاهرة وللمجلس الإسلامي الاعلى فى فلسطين برقية هذا نصها .

« بلغنا الآن ما كان من اعتداء نفر من اليهود فى المسجد الأقصى على المسلمين فى يوم جمعتهم ، وقتل عدد منهم ، وقد كانت هذه الفاجعة مدعاة للألم العظيم والكدر الشديد فى قلوبنا ، وأنا وسائر من فى الجزيرة من العرب والمسلمين لنشارك سكان المسجد الأقصى ومن حوله فيما أصابهم من هذا العمل المنكر الذى وقع عليهم فى صلاتهم بالمسجد الأقصى ، وإننا لواثقون بأن الحكومة البريطانية بما نعهده من تقاليدها ستعامل بأقصى أنواع الشدة أولئك الأثمة ، لاسيما أولئك الذين اقترفوا ذلك الإثم المبين ، وإنا فى هذا الموقف الذى امتلأت فيه النفوس ألما وكدرا نقدم للعرب والمسلمين عامة تعزيتنا بمن فقد فى ذلك المسجد الحرام من المصلين » .

وعلى مر الأيام والشهور والسنوات كان ابن سعود مع حوادث فلسطين ،

يتابعها باهتمام ويبذل جهوده الخاصة وجهود حكومته وشعبه في سبيل تأييد قضيتها ، ويقف معها بكل ما يملك .

وخير ما يعبر عن عمله الدائب من أجل قضية فلسطين أن تنشر بعض مكاتبات ابن سعود ومفاوضاته ورسائله الرسمية منذ تطور القضية حتى انتقل إلى رحمة الله ، والشيء الذى يجب أن يذكر فى تاريخ ابن سعود أنه نقل قضية فلسطين من نطاقها المحلي والعربي إلى النطاق الاسلامي ثم إلى النطاق العالمي .

وخطب ابن سعود التى كان يلقيها فى كل موسم حج على وفود بيت الله الحرام وفيهم مئات المفكرين والكتاب والزعماء والرؤساء زاخرة بذكر فلسطين ، ولم يقتصر فى توجيه كلامه على هؤلاء الخاصة ، بل كان يشرك العامة فى تبصيرهم بهذه القضية حتى يكونوا على علم بها .

وكان تحيز بريطانيا لليهود واضحا ضد العرب ، وكانت تضرب العرب فى الصميم وتمكن اليهود ، وتسهل لهم الهجرة حتى يتملكوا ، ونقلت إليهم ملكية الأراضى الحكومية والعامة ، وكانت الصهيونية تسوق تلال الاموال لتمهد قيام دولة اسرائيل .

ولا شك أن الحكومة البريطانية نفسها كانت واقعة تحت النفوذ الصهيوني ، وتشرشل – حينما كان رئيسا للحكومة – كان يصف نفسه بأنه صهيوني ، وإذا كان بين الوزراء الانجليز من يتصف بالانصاف مثل اللورد لويد أو يتصف بالشجاعة مثل اللورد موين فقد ناوأهما تشرشل ، وكف أيديهما عن قضية فلسطين .

وإذا كان هناك أفراد من المسئولين البريطانيين معروفين بالانسانية وساءهم ظلم العرب فإن الحكومة البريطانية لم تكن راغبة فى الانصاف ، بل كان كل عزمها أن تعمل على تحقيق وعد بلفور مع التمكين لليهودية والصهيونية أن تمهد اليوم الموعود لاقامة دولة اسرائيل .

ولم تتسلم الحكومة البريطانية إدارة فلسطين ، وتساعد على استعمار سوريا من قبل فرنسا ، وتبسطْ نفوذها على الاردن حتّى يكون مكفوف اليد إلالتضرب العرب وتمكن اليهود ، وبفضل جهودها قامت دولة اسرائيل .

وعندما اندلعت نيران الثورة الفلسطينية سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) اتخذت بريطانيا أعنف ما يتخذ لقمع الثورات ، واشترك معها اليهود لتكون الضربة الموجهة الى الثورة وإلى الفلسطينيين عامة بالغة الضراوة والعنف .

ولما كانت الحكومة البريطانية مصممة على التمكين لليهود بكل وسائلها ، وضرب الثورة والفلسطينيين بكل قوتها فقد نقلت فى سنة ١٩٣٦ قوات كبيرة وضخمة من مصر ومالطة ، وأعطي أفرادها وأفراد الحامية البريطانية سلطات واسعة للضرب والتنكيل ، وأخذت الإدارة البريطانية تعتقل السكان دون تفريق ، وتعرضت للأسر والطلاب ، وأقامت محاكم عسكرية لمحاكمة العرب الابرياء ، وأعفت اليهود من دخولها ، لأنهم محميون منها ، وأخذت هذه المحاكم تصدر الأحكام جزافا ضد العرب ، وقاسية وجائرة وشديدة البطش .

ومع كل ما اتخذت بريطانيا من الظلم والإرهاب والجبروت لم تستطع أن تقتل فى نفس الشعب الفلسطيني روح الحمية والوطنية والاستعداد للتضحية ، بل ازدادت الثورة ضراما ، وسخت فى البذل والتضحية .

ورأى ابن سعود أن يمد يده إليها ، فأصدر أمره فى ١٥ ربيع الأول سنة ١٣٥٥ (٥ يونيو ١٩٣٦) برقيا على وزارتي خارجيته وماليته بإرسال مساعدة عاجلة إلى منكوبى فلسطين ، وأن تكون المساعدات من الأرزاق والمؤن والنقد ، وأمر فى ٢٥ ربيع الأول ١٩٥٥ (١٥ يونيو ١٩٣٦) بتحويل العون المادي إلى المنكوبين أيضاً ، وكانت مساعداته تصل اليهم دراكا ، ولم تنقطع حتّى اليوم .

واستنجد زعماء فلسطين بابن سعود ، وطلبوا إليه مساعدته وبذل جهوده فى نصرتهم ، ورفع الظلم عنهم ، وذكر الحاج محمد أمين الحسيني فى رسالة

منه إليه أن الإنجليز يحمون اليهود وينصرونهم ويساعدونهم ، وان هؤلاء اليهود سيكونون أكبر خطر على العرب والمسلمين اذا لم يُقْضَ على حركتهم ، وإذا لم يقف العرب وحكامهم من الآن فان اليهودية ستحقق حلمها فى تأسيس الدولة اليهودية ، وعندئذ لن يستطيع العرب مقاومتهم ، لأن العالم سينصر باطلهم على حق العرب .

وتدخل ابن سعود رسميا ، فأبرق إلى المفوضية العربية السعودية بلندن فى صفر ١٣٥٥ ﻫ (أواخر ابريل ١٩٣٦) ليتصل بالحكومة البريطانية ، وينقل إليها تأثره البالغ مما يقع بفلسطين من الاحداث الخطيرة ضد الحق العربي الواضح ، وطلب منها الاسراع بتدارك الموقف مما يضمن للعرب حقوقهم .

فأجابته الحكومة البريطانية فى ٣ يوليو ١٩٣٦ (١٤ ربيع الآخر ١٣٥٥) بأنها توافق على توسط ملوك العرب ، وأن يقوم جلالته بالاتصال بالعراق واليمن والأردن لنصح الفلسطينيين حتى يخلدوا إلى الهدوء .

فرأى ابن سعود أن يطلب الى الانجليز بعض المطالب ، فأبرق إلى المفوضية السعودية فى يوم ١٩ ربيع الآخر ١٣٥٥ ﻫ (٨ يوليو ١٩٣٦) لتبلغ الحكومة البريطانية أنه يرى اطلاق سراح المعتقلين والمحكوم عليهم ، ووقف الهجرة تمهيداً للوساطة .

وأبرق الى ملك العراق وإمام اليمن وأمير شرقي الأردن مقترحاً توحيد الجهود والكلمة فى الاتصال بالحكومة البريطانية بشأن ما يحدث بفلسطين ضد العرب ، ووقف الصدام المسلح بينهما ، والعمل — وهم متحدون — على إيجاد حل لذلك الصدام .

واتفق الملوك الأربعة على أن وساطتهم بىن الحكومة البريطانية وأهل فلسطين يجب أن يسبقها ما يثبت لهم أن هذه الوساطة مثمرة ، وما يبعث فيهم الأمل

الطمأنينة والثقة فرأوا — ما سبق لابن سعود أن رآه وطلبه — أن يصدر عفو عام وعن المعتقلين والمحكوم عليهـــم ، ووقف الهجرة ، وبعد ذلك يتصلون بالفلسطينيين .

ووافق الانجليز على مطالب الملوك الأربعة ، وأما الهجرة فلم توافق الحكومة البريطانية على وقفها ، بل وافقوا — بعد إلحاح الملوك والأخذ والرد — على تخفيض الهجرة الرسمية ، فقد وافقت على تخفيضها من ٤٥٠٠ إلى ١٨٥٠ مهاجر يهودي ، وإن كان باب الهجرة غير الرسمية مفتوحاً يدخل منه آلاف اليهود القادمين الى فلسطين .

وفي شهر إبريل ١٩٣٦ كان عدد من دخلوا فلسطين بقانون الهجرة الرسمية ٤٥٠٠ فلما توسط الملوك الأربعة هبط عددهم الى ١٨٥٠ .

ولم تكن ثورة فلسطين العربية على اليهود ، بل كانت على الحكم البريطاني ، وأعلنت كل فلسطين العصيان السلمي المدني والاضراب العام الشامل ، ولم يشهد العالم العربي قط مثل هذه الثورة السلمية إلى يومنا هذا ، ولم ينثن عزم الفلسطينيين ، وما كان الانجليز يظنون أن الفلسطينيين يستطيعون الصبر على الاضراب مدة طويلة ، ولكنهم صبروا واستمروا ، ومضى الأسبوع يتبعه آخر حتى بلغ خمسة وعشرين أسبوعاً تعطلت فيه الأعمال والمصالح والادارة البريطانية .

وأرسل ابن سعود برقية إلى أهل فلسطين بوساطة اللجنة العربية العليا في يوم ٢٢ رجب ١٣٥٥ (٨ اكتوبر ١٩٣٦) هذا نصها :

« لقد تألمنا كثيرا للحالة السائدة في فلسطين ، ونحن بالاتفاق مع اخواننا ملوك العرب والامير عبدالله ندعوكم للاخلاد إلى السكينة وحقن الدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المخلصة بتحقيق العدالة ،

وثقوا بأننا سنواصل السعي فى سبيل مساعدتكم » .

واستجاب أهل فلسطين لرغبة ابن سعود واخوته ملوك العرب الثلاثة ، فأنهوا إضرابهم العام وعصيانهم السلمي ، وعادوا إلى أعمالهم ، وأجابوا الملوك بانهم امتثلوا لما رغبوا فيه ، فبعث ابن سعود برقية بتاريخ ٢٨ رجب ١٣٥٥ (١٤ اكتوبر ١٩٣٦) إلى اللجنة العربية ، وهذا نصها :

« سرنا إخلاد إخواننا عرب فلسطين ، للسكينة وإقبالهم على مزاولة أعمالهم حقنا للدماء وحبا للإصلاح ، فنشكر لهم هذه العاطفة والشعور نحونا ، ولما أبدوا من حب السلام واظهار نواياهم الحسنة ، وفى الطريقة التى نتمنى أن تكون موصلة إلى الغاية المنشودة ، أما من جهتنا فكونوا واثقين من أننا لم ولن نقصر فى السعي لمعاونة إخواننا فى هذا السبيل ، وندعو الله أن يوفق الجميع لما فيه الخير والصلاح »

وتلقاء إخلاد الفلسطينيين إلى السلم وانهاء الاضراب قررت الحكومة البريطانية إيفاد لجنة ماكية بريطانية — وقد عرفت فيما بعد بلجنة اللورد بيل الذى رأسها — لدرس المشكلة من جميع جوانبها ، ووضع المقترحات التى تكفل حقوق العرب كما زعموا .

وفى ١٥ نوفمبر ١٩٣٦ (غرة رمضان ١٣٥٥) وصلت اللجنة وقامت باتصالات واسعة بالموظفين البريطانيين وباليهود ، ولم تستطع الاتصال بالعرب ، لأنهم قاطعوا اللجنة ووقفوا منها موقفا سلبيا ، ثم استجابوا لنصح ملوك العرب واتصلوا باللجنة الملكية ، وفى يوم ٨ يوليو ١٩٣٧ (٢٨ ربيع الآخر ١٣٥٦) نشر تقرير اللجنة الذى ذهب إلى تقسيم فلسطين على النحو التالى :

القسم الأول — يضم الاماكن المقدسة ، ويبقى تحت الانتداب البريطاني .

والقسم الثانى – وهو يخص اليهود ، ويباح له انشـاء دولة يهودية تحت الانتداب البريطاني .

والقسم الثالث – ويبقى لعرب فلسطين .

وعملت خرائط للتقسيم توضح منطقة كل قسم وحدوده .

وما كاد التقرير ينشر حتى ضج العالم العربي بالسخط والاستنكار ، وتبعه العالم الإسلامي ، وأما أهل فلسطين فقد رأوا فى التقسيم كارثة لن يرضوا بأن تنزل عليهم ، وسيدفعونها بكل ما وهب لهم الله من قدرة وقوة .

ولما كان ملوك العرب وعلى رأسهم الملك عبد العزيز بن سعود هم الذين قاموا بالوساطة ، وطلبوا إلى الفلسطينيين إنهاء الاضراب فهم مسئولون أدبيا عن الغدر البريطاني ، فأبرقوا إلى الملوك الوسطاء ، فرد ابن سعود على اللجنـة العربية العليا بفلسطين ببرقية ختمها بقوله :

« وإن قضية عرب فلسطين كانت ولا تزال موضع اهتمامنا الشديد ، وتعلمون اننا ما ادخرنا ولا ندخر وسعا فى سبيل حلها بطريقة تحقق العدل والانصاف إن شاء الله » .

وطبيعي ألا يرضى ابن سعود بمشروع التقسيم ، وطبيعي أن يؤيد أهـل فلسطين فى رفضه ، واليهود أنفسهم رفضوه أيضا ، لأنه لم يحقق كل آمالهم ، ووجهت اعتراضات كثيرة إلى تقرير لجنة اللورد بيل ، فرأت الحكومةالبريطانية تأليف لجنة أخرى تكون أكثر ارضاء لها ولليهود وان لم تذكر ذلك فى سبب التأليف .

وتألفت اللجنة ووضعت قرارا جديدا أوصى برفض التقسيم الذى قررته لجنة اللورد بيل ، وحوى مشروعات جديدة لم ترض عنها الحكومة البريطانية ،

ونشر قرار هذه اللجنه بتاريخ ٨ اكتوبر ١٩٣٨ (١٣ شعبان ١٣٥٧) .

ورأت الحكومة البريطانية عقد مؤتمر فى لندن تحت اشرافها ومشاركتها يضم العرب واليهود ، واشتركت فيه مصر والمملكة العربية السعودية والعراق واليمن والاردن وزعماء فلسطين .

ويظهر من كل هذه اللجان والمؤتمرات أن الحكومة البريطانية تريد من ذلك أن «تميع» القضية الفلسطينية ، وكان فى حسابها أن تحكم على العرب وتدينهم ، وألا تنصفهم ، وأن تخذلهم ، ولم يفت زعماء فلسطين هذا الميل المكشوف من بريطانيا إلى اليهود ، كما لم يفتهم أنها لن تنصفهم ولو نزلوا عن كل فلسطين ، لأن المطامع الصهيونية أكبر من أن تقتنع بفلسطين كلها .

ولم يكن عبد العزيز بن سعود يرضى بالاعتراف بقيام دولة يهودية فى أرض عربية ، ولما كنا نكتب هذا الفصل فى تبيان موقفه من القضية الفلسطينية فاننا نشير إلى أن وفدا قوامه : الاساتذة كامل القصاب ، وعونى عبد الهادى ، وعزة دروزة ، ومعين الماضى مبعوثا من اللجنة العربية العليا بفلسطين إلى ابن سعود ، ووصل إلى الرياض فى ١٥ شوال ١٣٥٥ (٢٩ ديسمبر ١٩٣٧) وقابل ابن سعود وعرض عليه ما جدّ بالقضية وما يطلبه اليه أهل فلسطين ، وبعد أن بحث معهم اسلمهم كتابا منه إلى اللجنة العربية ، وهذا نصه :

« وبعد ، فقد وصل إلينا وفد اللجنة العربية العليا ، وعرض علينا الموقف الحاضر فى فلسطين والأسباب التى حملت لجنتكم على مقاطعة اللجنة الملكية .

« وبعد استماعنا لكل ما أبداه الوفد الكريم من مبررات لموقف لجنتكم ؛ وبالنظر لما لنا من الثقة بحسن نية الحكومة البريطانية فى إنصاف العرب فقد رأينا أن المصلحة تقضى بالاتصال باللجنة الملكية والإدلاء إليها بمطالبكم العادلة ، لأن ذلك أضمن لحقوقكم وأدعى لمساعدة أصدقائكم فى حسن الدفاع عنكم ، وقد أبدينا للوفد الكريم ما لدينا من الآراء فى ذلك .

ونحب أن تكونوا على ثقة بأننا لا نألوا جهداً في سبيل مساعدتكم لإصلاح الحال بقدر إمكاننا ، وإنا لنرجو من الله أن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير للإسلام والعرب . »   ١٨ شوال سنة ١٣٥٥ (١ كانون الثانى ١٩٣٧)

وتسلمت اللجنة العربية العليا كتابا من الملك غازى ملك العرب يتفق مضمونه مع كتاب ابن سعود ، فأصدرت بيانا فى ٦ يناير (كانون الثانى) ١٩٣٧ (٢٣ شوال ١٣٥٥ هـ) جاء فيه :

« إن اللجنة استمعت إلى بيانات الوفد الذى عاد من رحلته ، واطلعت على كتابي صاحبي الجلالة ملك المملكة العربية السعودية وملك العراق فلم يسعها إلا أن تستجيب للطلب السامى فقررت الاتصال باللجنة الملكية ، وبسط القضية العربية لها » .

وبلغ من اهتمام ابن سعود بالقضية الفلسطينية أن ما بقي من سنة ١٣٥٥ وكل شهور سنة ١٣٥٦ أنفقهما فى نشاط واسع على الصعيد الشعبي والدولي ، فقد أمر الأمير فيصل بن عبد العزيز نائب الملك بالحجاز بتأليف لجنة فى كل مدينة وقرية ومقاطعة سعودية تسمى لجنة فلسطين ، مهمتها العمل على إسماع العالم العربي والاسلامي والعالم أجمع صوت الشعب السعودي ، وإمداد الحركة الوطنية الفلسطينية بكل المعونة التى يقدمها الشعب السعودي ليشترك مع حكومته فى مساندة الحركة .

وفى خلال سنتي ١٣٥٥ و ١٣٥٦ أرسل ابن سعود مذكرات ورسائل إلى بريطانيا ، كما تعددت اجتماعاته بالمسئولين البريطانيين رجاء أن يصل مع الحكومة البريطانية إلى حل لمشكلة فلسطين ، ومن هذه الاتصالات مذكرتان تكشفان عن بعض نشاطه الدءوب ، ففى ١٩ ذى القعدة سنة ١٣٥٥ (٣١ يناير ١٩٣٧) بعث مذكرة عن طريق وزارة الخارجية السعودية إلى الحكومةالبريطانية بوساطة مفوضيتها في جدة ، وهذا نصها :

« لسنا فى حاجة إلى أن نؤكد للحكومة البريطانية صداقتنا وسعينا فى تقوية هذه الصداقة ، وان السياسة التقليدية التى سرنا عليها هي التى حملتنا على تبادل الرأي مع بريطانيا الصديقة فى كل ما له صلة بالصالح العربي .

« إن كل ما نسعى إليه من قديم هو أن يسود السلام ، وتزداد الطمأنينة ، ويقوى التعاون بين العرب جميعاً وبين الحكومة البريطانية التى أثبتت الحوادث صداقتها للشعب العربي وسعيها للأخذ بناصره ، والشعب العربي لم يشذ عن هذه القاعدة إلا فى فلسطين ، لا لأن بريطانيا لها رأي آخر فى الشعب العربي ، بل لشذوذ فى وضع فلسطين بسبب تكاثر العناصر الغريبة من اليهود وطغيانها على سكان البلاد العرب الأصليين .

« إن هناك قلقاً من تكاثر اليهود فى فلسطين ؛ لا فى فلسطين وحدها بل فى سائر البلاد العربية والإسلامية ، ولقد عانينا الشيء الكثير فى الضغط على رعايانا كيلا يظهر منهم أي أمر يزيد تعقيد المشكلة ، وكثير مما عملناه لم نخبر الحكومة البريطانية به ، لعلمنا أن ذلك شيء تقضى به الصداقة .

« ولقد وردت إلينا كتب كثيرة تزيد فى مخاوف المسلمين ، وهي أن اليهود ينوون احتلال المدينة وخيبر وهدم قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ونحن وإن كنا نشكّ فى صحة هذه النيات إلا أن ذلك يدل على مبلغ الدعايات التى يقوم بها أعداء بريطانيا ، ونشاطهم فى كل مكان .

« وقد منعنا عقد المؤتمر الإسلامي فى مكة خشية من أن تثار هذه القضية الخطيرة التى سيكون لها أسوأ الأثر فى نفوس المسلمين والعرب على الأخص .

« إن قلق العرب والمسلمين أساسه هو تصريحات اليهود المتكررة من أن غرضهم هو إنشاء مملكة يهودية فى فلسطين ، وسيل الهجرة فى السنوات الأخيرة جعل العرب والمسلمين يقلقون على مستقبل فلسطين كبلد عربي له قداسته

الدينية ، فقد كان اليهود أقلية ضئيلة ، ثم صاروا اليوم الثلث تقريباً . وإذا ظل باب الهجرة مفتوحاً فإنه ستصبح الأكثرية فى فلسطين لليهود ، وتتحقق المخاوف التى تساور العرب فى طردهم من بلادهم .

« إن بريطانيا العظمى تعلم أن بعض البلاد الأوربية التى تفوق فلسطين فى سعة الأرض والتقدم الاجتماعي والاقتصادي قد ضاقت ذرعاً باليهود ، فهل يلام أهل فلسطين ومجاوروهم من العرب إذا رأوا سيل اليهود يطغى على سكان البلاد ويهدد مستقبلهم ؟.

« لا نرى من العدل أن نلوم بريطانيا على تصريحات صدرت من زعماء اليهود ، وبريطانيا قد برهنت في موقفها من العراق على ما هو معهود فيها من حب العدل والإنصاف وما تنويه من الصداقة نحو الشعب العربي ، ولكن القلاقل والفتن المتكررة فى فلسطين وما ساور الشعب من المخاوف هو الذى جعلنا كأحد أصدقاء بريطانيا القدماء نلفت نظرها إلى هذا الأمر .

« وقبل بسط توصياتنا نريد أن نحيط الحكومة البريطانية علماً بأنه ما دفعنا إلى التدخل فى قضية فلسطين إلا صداقتنا لها ، وحرصنا على إيجاد جو من السلام والتعاون بين العرب جميعاً وبين الحكومة البريطانية .

« إن حوادث الزمان ليس فى مقدور أحد أن يمنعها ، وأعداء بريطانيا ناشطون فى كل الأقطار العربية ، وإننا لا نريد إذا ما حدث حادث فى أوربا إلا أن تعتمد بريطانيا على العرب جميعاً ، وتأمن جانب أهل فلسطين على الأخص ، وإلا فإن اليهود أنفسهم فى خطر من جراء الدعايات التى يبثونها هم وأعداء بريطانيا ، ونخشى أن تتجدد القلاقل والفتن مرة أخرى ، فالأعداء الذين لا يخفى أمرهم على بريطانيا ينفثون سمومهم فى فلسطين وغيرها من الأقطار الإسلامية والعربية .

« وإننا نُجمل فيما يلي الاقتراحات والتوصيات التي وعدنا بتقديمها ،والتي وعدت الحكومة البريطانية بالنظر إليها بعين الاعتبار :

« أولا — نقترح على الحكومة البريطانية إعلان عفو عام عن سائر الجرائم التي ارتكبت أثناء الإضراب والاضطرابات ، وإطلاق سراح المسجونين ،وهذا ليس بكثير على حلم الحكومة البريطانية وسعة صدرها ، لأن ذلك يساعد على إيجاد جوّ جديد من الثقة والطمأنينة يساعد على حل جميع المشاكل .

« ثانيا — مسألة الهجرة اليهودية : إن هذه المسألة هي في الدرجة الأولى لدى أهل فلسطين ، بل لدى سائر العالم العربي والعالم الإسلامي ، وهي في الدرجة الأولى لدى كل من ينظر للقضايا القومية بعين العدل والإنصاف ، فإن مكاثرة شعب آمن في وطنه وبلاده بشعب غريب أجنبي له مطامع قومية في وطنه مما لا يستطيع شعب في العالم ولا حكومة من حكومات الأرض قبوله راضية به ، ولم يسبق له مثيل في تاريخ الشعوب والأمم .

« واليهود كما ذكرنا قد ملأوا الدنيا بدعاياتهم وغاياتهم، وأن مقصدهم تشكيل حكومة يهودية في فلسطين ، ويضمرون مطامع وراء هذه تشغل بال العالم العربي والإسلامي في كل بلد وقطر .

« وحيث أن العدد الذى في فلسطين من اليهود قد أصبح عدداً وافراً ، ولا بد قد تُحقق اللجنة الملكية هذا الأمر ، فإذا رأت الحكومة البريطانية أن تعلن إيقاف هجرة اليهود فإن كل سماح بهجرة جديدة سيجدد المخاوف ويقضى على للطمأنينة التي سعينا لتثبيتها في قلوب من يثق بنا وبنصائحنا من عدل الحكومة البريطانية .

« وقد تحققنا هذه المخاوف بصورة أكيدة مما وصلنا من الرسائل ومن المعلومات التي وصلت إلينا من الذين درسوا القضية في فلسطين بكل إنصاف

واعتدال ، وإن رأت الحكومة البريطانية أن توقف الهجرة مدة عشر سنوات على الأقل إلى أن ترى الموقف فى المستقبل فلعل هذا يكون أقرب إلى حل المشكلة من الجهات الأخرى .

« ثالثا — إن مسألة بيع الأراضى نقترح فيها أن تسن الحكومة نظاماً لحماية الملكية الصغيرة كما فعل فى مصر حتى تصون أملاك الضعفاء الجهلاء من الضياع .

« رابعا — أما المسألة الرابعة والتى هي فى نظر أهل فلسطين مهمة ، وهي شكل الحكومة فنرى أن تحلّ الحكومة البريطانية هذه القضية بينها وبين أهل فلسطين ، ونحن من جهتنا سنوصى أهل فلسطين بقدر إمكاننا واقتدارنا بالتزام السكون التام والتفاهم مع الحكومة البريطانية على هذا الأساس الذى نعتقد أنه وإن كان يهمهم فهو فى الدرجة الثانية من الأهمية بنسبة الهجرة اليهودية .

هذا ولنا الأمل العظيم فى صديقتنا بريطانيا صديقة العرب جميعاً أن تكون عند حسن ظن العرب بها فتحقق ما يتطلبه العدل لأهل فلسطين ، وتزيل ما ساور نفوسهم من الخوف على مستقبل بلادهم ومستقبلهم » .

وأما المذكرة الثانية فتاريخها شهر رجب ١٣٥٦ (سبتمبر ١٩٣٧) وقد أرسلها ابن سعود عن طريق وزارة خارجيته إلى الحكومة البريطانية عن طريق مفوضيتها بجدة ، وهذا نصها :

« ١ — لسنا فى حاجة لأن نؤكد للحكومة البريطانية الصديقة رغبتنا الشديدة فى أن نسير فى السياسة العامة التى لها علاقة بمصالحنا المشتركة على خطة موحدة متفق عليها فيما بيننا ، وقد كانت هذه خطتنا التى سرنا وما نزال نسير عليها ، بالرغم من أن الحكومة البريطانية كانت تقف فى أكثر الأحيان موقفاً سلبياً من حيث عدم رغبتها فى التقيد بسياسة معينة ثابتة يسار عليها فى المستقبل ، غير أن

الظروف الحاضرة الناشئة عن القلق الدولي والمخاوف من المستقبل المجهول تضطرنا إلى مفاتحة صديقتنا بكل صراحة فى موضوع من المواضيع الخطيرة سبق لنا معالجته معا بروح الاعتدال والمودة والصداقة .

٢ – إن الموضوع الخطير المشار إليه هو موضوع فلسطين ، وما يمكن أن يجر إليه من التطورات ذات الخطر الأكيد فى مستقبل الشرق الأدنى والبلاد العربية ، وقد تحققت للحكومة البريطانية من دون شك رغبتنا الأكيدة فى المساعدة على معالجة هذه القضية بروح النصفة والاعتدال حين اشتداد الاضطرابات بفلسطين فى العام الماضى ، وحين تحقيقات اللجنة الملكية ، وبعد ذلك إلى الآن وبنفس تلك الروح قد أبلغنا السر « ريدر بولارد » دهشتنا من تقرير اللجنة الملكية ، واعتبارنا له ضربة مؤلمة تصيبنا نحن خاصة ، فضلاً عن إصابتها لأمانى العرب والمسلمين فى الصميم ، وقد أبلغناه ذلك قبل أن يُنشر التقرير ويعلم الأثر البليغ الذى أحدثه بين العرب فى فلسطين وسائر البلاد العربية ، فلما رأينا صدى الرأي العام فى فلسطين والبلاد العربية وبالأخصّ فى بلادنا لم نجد بدأً من لفت نظر الحكومة البريطانية الصديقة إلى الأخطار التى تنجم عن الخطأ فى معالجتها ، وإلى الظروف المحيطة بها أو التى يمكن أن تؤثر فيها ، وبالتالى فى علاقاتنا ، بل علاقات العرب إجمالاً ببريطانيا .

٣ – لا يخفى أن هناك أسباباً جوهرية جداً تحملنا على الاهتمام بقضية فلسطين واستعمال كل ما فى وسعنا من قوة لكي نوضح للحكومة البريطانية ما عندنا ، ونلحّ عليها لإيجاد حل عادل دائم لها . وتلك الأسباب هي :

أولاً – إن وعود بريطانيا للعرب بالاستقلال أُعطيت فى الأساس باسم الحجاز الذى هو الآن قسم مهمّ من مملكتنا .

ثانياً – إن عدم حل قضية فلسطين على وجه مقبول قد يؤدى إلى إيجاد هوة سحيقة وبرزخ لا يمكن اجتيازه بين العرب وبريطانيا ، ولسنا فى حاجة إلى

التوسع فى ذكر الأخطار التى تنجم عن ذلك مما نسعى جهدنا لعدم حصوله ولتجنب وقوعه.

ثالثاً — إن قضية فلسطين قضية عربية إسلامية ، ولا يمكن لأيّ بلاد عربية أو إسلامية أو لأيّ حاكم عربي مسلم أن يغفلها أو يهملها من دون أن يعرض نفسه للانتقاد والتخطئة.

رابعاً — وأخيراً ؛ المسؤولية الأدبية العظمى التى أخذناها على عاتقنا بموافقة صديقتنا بريطانيا حينما أصدرنا بالاشتراك مع ملوك العرب وأمرائهم البيانين اللذين كان لهما الأثر الفعال والمباشر فى وقف الاضطرابات وتعاون العرب مع اللجنة الملكية.

٤ — إننا بالرغم مما مرّ ، وبالرغم من التشاور الواقع بين الحكومات العربية لتوحيد خطة العمل فى معالجة قضية فلسطين لم نشأ أن نزيد فى الصعوبات الكثيرة التى تواجهها الحكومة البريطانية بالاحتجاج على تقرير التقسيم أو بإعلان استهجاننا له وعدم موافقتنا عليه ، وإنما اكتفينا بإبداء ملاحظاتنا وبيان رأينا لها رأساً وفيما بيننا لوثوقنا أنها تتلقى ما نوضحه لها بكل صراحة وإخلاص ، وتعتبره دليلاً قوياً على وجود رغبة صادقة من جانبنا فى اتباع خطة مشتركة من شأنها مواجهة الصعوبات وحلها على الوجه الموافق ، غير أن مضيّ الحكومة البريطانية فى خطتها وبرغم ما ظهر لها من هياج الرأي العام وظهور بوادر الخطر فى هذه القضية يجعلنا نتقدم ببياننا هذا ، راجين منها أن تحمله على محمل الإخلاص للمصلحة المشتركة ، والرغبة فى زيادة توثيق التعاون بيننا ، وتوحيد خطتنا نحو هدف واحد هو تأمين السلم وإقراره بشكل دائم فى هذا القسم من العالم.

٥ — إننا نرى بوادر الخطر ظاهرة فى التحفز والاستعداد فى فلسطين وشرقيّ الأردنّ نفسها وفى البلاد العربية المجاورة ، وقد تحقق لدينا أن العرب

يعتبرون هذه القضية قضية موت أو حياة، ونخشى أن ينقلب هذا النزاع –وليس من المستبعد أن ينقلب – إلى نزاع عنصري بين العرب وبريطانيا ، وهذا أمر يجب أن نبذل جهدنا للحيلولة دونه ، ولكن قوة الرأي العام ودافع الشعور يجعل الوقوف في سبيله –فضلاً عن عدم مساعدته– أمراً في حكم المستحيل، وهذه إحدى المشكلات التي علينا أن نواجهها إذا جدّ الجد .

٦ – فإذا أمعنت الحكومة البريطانية في كل ما ذكرناه نعتقد أنها ستعمل جهدها على تغيير قرارها بإجراء التقسيم ، لأننا نعتقد أن الحكومة البريطانية قد برّت بوعدها بالنسبة لليهود ، بينما أن في التقسيم إجحافاً كبيراً بحقوق العرب لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ ما أُطلق عليه « تبادل السكان » من المنطقة اليهودية إلى المنطقة العربية إنما هو في الحقيقة إجلاء للعرب لم يجر له مثيل من قبل ، لأن المنطقة العربية ليس بها من اليهود عدد يذكر ، ووعد بلفور في أساسه لم ينصّ على إجلاء العرب من بلادهم ، بل بالعكس أوصى بعدم الإجحاف بحقوقهم . وسيكون من دواعي سرورنا أن نقترح عليها حلاً عادلاً يرضى به جميع من يهمهم الأمر ، ويحل القضية حلا نهائيا دائميا ، على الأسس الآتية :

أولاً – تأسيس حكومة دستورية في فلسطين يشترك بها سكان فلسطين الحاليون بنسبة عددهم في الوقت الحاضر على أسس يتفق عليها ، وتوضع ضمانات كافية لحماية الأماكن المقدسة ، والوصول إليها للجميع ، وكفالة حقوق الأقليات ، وتوزيع العدالة ، وضمان مصالح بريطانيا العظمى .

ثانياً – تحديد الهجرة اليهودية بنسبة ثابتة هي النسبة الحالية بين سكان فلسطين بحيث لا تجوز زيادتها عن ذلك مهما تقلّبت الأحوال .

ثالثاً – وضع تدابير معينة لانتقال الأراضي بشكل يضمن عدم تجريد العرب من أراضيهم .

٧ — إننا نأمل أن تلاقي ملاحظاتنا هذه قبولاً عند الحكومة البريطانية الصديقة ، ونرجو أن توافينا بآرائها فى ذلك قبل استفحال الخطر ، وستجد منا دواماً ذلك الصديق الذى يهمه إدامة حسن التفاهم وتثبيت الصداقة بين العرب وبريطانيا ، مستعداً لبذل ما فى وسعه لإيجاد أحسن الفرص والظروف لتفاهم دائمي وصداقة وطيدة » .

* * *

وكان ابن سعود ينتهز كل فرصة تسنح له للدفاع عن فلسطين ، والعمل على نصر قضيتها ، ففى مساء يوم السبت ١٣ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ (١٦ يناير ١٩٣٨) اجتمع اللورد بلهـافين وستنتون بالملك عبد العزيز فى « الشميسى[١] » وكان يصحبه الوزير المفوض البريطاني بجدة السير ريدر بولارد ، وقد دعاهما للعشاء ، وبعد تناوله اختلى ابن سعود بريدر بولارد ، وتحدث له عن قضية فلسطين فى صراحة ووضوح ، وذكر له صداقته لبريطانيا ، وأن هذه الصداقة قد تفسر من العرب — وبخاصة أهل فلسطين ، تفسيرا لا يتناسب مع كرامته ، وان من مصلحة الطرفين ومصلحة الجميع أن تتفهم بريطانيا الوضع الصحيح تمنطقة العربية وقضية فلسطين . ثم تناول الملك خطة الحكومة البريطانية فى للقسيم فلسطين ، وإقطاع اليهود جزءا منها ، ثم قال :

« لا شك ، أن بريطانيا قوية وقادرة على أن ترغم الناس بالعنف والقوة على الاذعان لرغبتها ، ولكن هل يأمن عاقل للحوادث المقبلة وما يمكن أن يسنح من فرص ؟ كلا ، لا شك أن قوة بريطانيا إذا استُعملت تمكّن أياً كان من القيام بأعباء الحكم ولو كان امرأة ! ولكن ، هل من المصلحة أن تنصب

---

(١) الشميسي : محط بين مكة المكرمة حرسها الله وبين جدة ، وتبعد عن مكة تسعة عشر كيلومترا .

بريطانيا أشخاصاً على عروش وتنشىء حكومات لا تستطيع أن تقف بنفسها أو أن تؤمّن حياتها إلا بمعونة الانكليز؟ وما فائدة الانكليز من هؤلاء الأشخاص وتلك الأشكال ؟.

« إن مشروع تقسيم فلسطين يحسب بحق نكبة عظيمة على العرب والمسلمين ، ولكنه نكبة مهددة لبريطانيا أيضاً ، فلا تغتر الحكومة الانكليزية ولا تَسِر على ضلال فإنه لا يوجد مسلم أو عربي يستطيع أن يُقنع عرب فلسطين — فضلاً عن العرب في سائر الأقطار — بالقبول بهذا ، ولو ادعى أيّ زعيم أو ملك أن فى استطاعته ذلك فإن ادعاءه كاذب .

« وأضرب لكم المثل بنفسي ، فأنا مهما كان لى نفوذ قوي ، ومهما بلغت صداقتى للإنجليز فإنى —إذا جدّ الجد— لا أستطيع مقاومة تيار عواطف المسلمين والعرب القوية ، ولا أقدر أن أقف مع الانجليز فى ذلك .

« أما اليهود — فلو تركوا هم العرب — فإن أمرهم يسهل ، ولكن المشكل هو أن العرب يشتبكون مع الإنكليز من أجل اليهود ، وهؤلاء بقوتهم وما لهم لا يؤمن لهم ، فإذا أسسوا دولة كانوا بأنفسهم خطراً على الانكليز ، وبما لهم من قوة ومداخلة يمكنهم أن يتفقوا فى أية ساعة متى تقوّوا مع أعداء بريطانيا ، وقد يأتى وقت يجازف فيه العرب ويخاطرون ، فإما أن يقتلوا اليهود فى غفلة من الانكليز ، وإما أن يُضطر الانكليز للقضاء عليهم . وفى هذا من الضرر ما فيه على موقف بريطانيا فى المستقبل .

« إننى مؤمن بوجوب صداقة العرب للبريطانيين ، ولكن من يستطيع أن يضمن استمرار هذه الصداقة مع بقاء هذا الجرح الدامى فى جسم العرب ما دام الإنكليز يجلبون أعداء العرب والمسلمين ليحلّوهم فى بلادهم ؟ .

« قد يقال : إن العداوة بين المسلمين والنصارى كانت موجودة وما تزال ،

ولكن حكم القرآن فى النصارى هو خلاف حكمه فى اليهود ، فعداوة النصارى سياسية ، وعداوة اليهود ضرورة دينية يجب على كل مسلم أن يؤمن بها ويعمل بمقتضاها .

ولذلك فإن مشروع التقسيم يجب أن يصرف النظر عنه بتاتاً ؛ وأن يسار على خطة أخرى على أساس حفظ حقوق اليهود الموجودين بفلسطين ، وضمان مصالح بريطانيا ، والاعتراف بحقوق العرب » .

وبدا على وجه بولارد التأثر الحسن من أقوال ابن سعود ، وتفهمها واقتنع بوجهة نظره ، ووعده بنقل كل ما سمع منه واستوعبه الى الحكومة البريطانية ، وعندما يتلقى جوابها يحمله إليه وهو سعيد مسرور .

* * *

وكانت قضية فلسطين شغل ابن سعود الشاغل ، فلما كان بالقرعاء وصلته أنباء مقلقة عن فلسطين ، فأرسل فى ٣ صفر سنة ١٣٥٧ هـ (٥ ابريل ١٩٣٨) إلى ابنه فيصل بمكة المكرمة برقية مصحوبة بمذكرة مرسلة إلى الحكومة البريطانية ، ويأمره أن يبعثها الى الوزير المفوض البريطاني بجدة ليرسلها إلى حكومته ، كما أمره أن يكتب منه كتابا إلى الوزير يخبره فيه بأنه مأمور من الملك بأن يرسل المذكرة إلى الحكومة البريطانية ، وها هي ذى المذكرة — وهي بتاريخ ٣ صفر سنة ١٣٥٧ — :

« سبق لجلالة الملك أن أوضح للحكومة البريطانية فى عدة مناسبات باسم الصداقة التى بينه وبين الحكومة البريطانية ما يرى ويشعر به بشأن قضية فلسطين ، ورغم كل ما أوضحه لا يزال يرى أن الحالة فى فلسطين تتحرج من سيء إلى أسوأ ، ومن جهة ثانية ما زال يرى إصرار الحكومة البريطانية على خطتها فى إنشاء دولة لليهود فى فلسطين ، وبإيجاد حالة قد تجعل اليهود أكثرية فيها ، إن

جلالة الملك – رغم كل ما يراه من هذه المؤثرات – لا يزال يشعر بأن الشعب البريطاني والحكومة البريطانية نظراً لما هو معروف فيهما من حب الإنصاف والعدل لم ييأس اليأس كله من أن تعود الحكومة البريطانية للتفكير في موقفها بتغيير السياسة التي انتهجتها في هذا البلد العربي الإسلامي المقدس الذي لم يَجْنِ أي جناية ضد بريطانيا .

« لقد كان جلالة الملك – ولا يزال – هدفاً للتأثرات النفسية ، وهدفاً لانتقاد العرب والمسلمين من أجل صمته في قضية فلسطين ، وهو يشعر بأن روح الصداقة الموجودة بينه وبين الحكومة البريطانية تجعله يصبر على تحمل تلك الانتقادات نظراً لما يراه من اقتضاء الصداقة ومن اقتضاء المصلحة في سيره على خطة الكتمان وعدم الإعلان عما بينه وبين بريطانيا بشأن قضية فلسطين ، ولكن لا تزال هناك حركات قد تكون بنية حسنة وقد تكون غير ذلك بإحراج مركز جلالته أمام العالم الإسلامي والعالم العربي في هذه القضية .

« إن جلالة الملك يحب بهذه المناسبة ، أن يناشد الحكومة البريطانية باسم الصداقة التي تربطها بالعرب ، وأن يناشدها باسم العدل والإنصاف الذي عرف به الشعب البريطاني أن تعطف النظر على قضية فلسطين بعين العدل والإنصاف ، وأن تضع نفسها موضع هؤلاء الضعفاء الذين يُراد تمزيق شملهم ، وتقسيم بلادهم ، وإحلال شعب أجنبي عنهم بالرغم منهم ، ليذلهم بأنفسهم ويهدد البلاد المجاورة لهم ، كما يهدد السلام في هذا الشرق العربي .

« وإن جلالته يبدي مرة أخرى أن الحل الذي يراد به تقسيم فلسطين وتقطيع أوصال أهلها لن يحل مشكلة اليهود العالمية ، لأن فلسطين لن تستوعب اليهود المشتتين في العالم ، وان فلسطين ستكون بؤرة للقلاقل والفتن بما يتولد عن ذلك من خصومات بين العرب وبريطانيا لا تنتهي إلى الأبد [1] .

---

(١) هذا الذي حذر منه ابن سعود منذ أربع وثلاثين سنة قد وقع ، وليس بغريب ، فقد كان – رحمه الله – ملهما ثاقب النظر ٠

« إن حل قضية فلسطين العادل لا يكون إلا بمثل ما حُلت به قضية العراق وسورية وعلى شكل يضمن أموراً ثلاثة :

(الأول) المحافظة على المصالح البريطانية .

(الثانى) المحافظة على صيانة الأماكن المقدسة .

(الثالث) المحافظة على حقوق اليهود الموجودين فى الوقت الحاضر ومعاملتهم كأقلية فى البلاد .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن حالة العنف والشدة التى يعامل بها أهالى فلسطين فى الوقت الحاضر وهم ضعفاء يستنكرها الشعور والحسّ ؛ فإن جلالة الملك يلفت نظر بريطانيا لاستعمال الحلم والحكمة فيما هو واقع ، ويأمل أن يكون لندائه هذا الأثر الحسن لدى الحكومة التى يثق جلالته بأنها تتقبل نصيحته بكل إخلاص وصداقة ومودة » .

وتسلمت وزارة الخارجية السعودية فى جدة مذكرة سرية من المفوضيـــة البريطانية بجدة فى يوم الخميس ١ يونيو ١٩٣٨ (١٢ ربيع الآخر سنة ١٣٥٧ هذا نصها :

« كان قد تشرف وزير صاحب الجلالة البريطانية بأن عرّف الحكومـــة السعودية فى مخابرة بتاريخ ٢٨ ابريل [١] عن بلاغات مؤداها : أن أسلحة وذخيرة كانت على وشك التهريب من الجوف إلى فلسطين ، ويرجو الآن أن يبدي أن بلاغات أخرى قد وصلت إلى علم حكومة فلسطين من مصادر شتّى بسورية والعراق تقول : إن الثوار بفلسطين كانوا منذ عهد قريب يركنون بوثوق إلى وصول مساعدة عملية من جلالة الملك عبد العزيز بكيفيات عديدة بما فى ذلك

---

(١) سنة ١٩٣٨ .

المساعدة المالية ، ومشترى الأسلحة والذخيرة من أوروبا برسم الإرسال إلى الحكومة العربية السعودية اسماً ، ولكنها لاستعمال الثوار الفلسطينيين حقيقة .

ولا يسع حكومة صاحب الجلالة البريطانية أن تتجاهل هذه البلاغات المتكررة ، وهي على أية حال مضطرة بالنسبة لصداقتها أن تحيط علم جلالة الملك بها فى حالة ما إذا كان هؤلاء الأشخاص الذين لهم مآرب خفية ممن سبق أن أشار إليهم جلالته يسعون وراء الحط من كرامته أو توريطه فى المسألة على غير علم منه » .

وكان لهذه المذكرة وقع غير حسن فى نفس الملك عبد العزيز ، وأجاب عليها ببيان مسهب ، وكان جلالته بالرياض ، وبعث به فى يوم ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٥٧ (٢٠ يونيو ١٩٣٨) إلى وكيل الخارجية (الشيخ إبراهيم بن معمر) وأمره أن يسلمه يده إلى يد الوزير المفوض البريطاني بجدة السير ريدر بولارد ، ويطلب اليه إرساله إلى حكومته ، وهذا هو البيان :

« اطلعنا على المذكرة التى سلمها السر ريدر بولارد لوكيل خارجيتنا بالنيابة بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٣٥٧ الموافق ٢٨ ابريل [١] عن الأخبار التى ذكرت الحكومة البريطانية أنها وصلتها من سورية والعراق عن مساعدات قيل : إنها وعد بها الثوار فى فلسطين ، كما اطلعنا على اتهامات أخرى وجهت لبعض رجالنا ، بعد أنباء أعلمتنا الحكومة البريطانية أنها وصلتها عن نقل أسلحة للثوار من حقل والجوف .

« إننا نشكر للحكومة البريطانية إخبارها لنا بكل ما يصلها عنا وعلى الأخص فى مثل هذه الظروف والأحوال المقلقة فى فلسطين التى تفضى بطبيعتها لكثير من القيل والقال مما يصدق منه ويكذب مما يشيعه أرباب الأهواء والأغراض

---

(١) سنة ١٩٣٨

وأهل المصالح ، ونعتبر هذه المصارحة من الحكومة البريطانية وسيلة لفتح الباب لندلي لها بكل ما لدينا في هذه القضية من الأمور التي لم يكن هناك داع لإبدائها لولا هذه المناسبة .

« ونحن على يقين أن الصراحة في جميع ما أخبرتنا به الحكومة البريطانية سواء في المراسلات أو المحادثات التي جرت وتجرى بيننا وبينها نعتقد أنهـا أعظم وأحسن وسيلة لتأييد الصداقة بيننا وبينها ، وهي التي درجنا عليها منـذ نشأتنا السياسية إلى اليوم .

« وتذكر الحكومة البريطانية أنه في الأعمال السابقة التي وقعت في بلادنا ، ولم تكن موجهة لطرف من أطرافنا ، بل كانت موجهة لشخصنا مباشرة ولأساس ملكنا كنا نخبر الحكومة البريطانية بما يصلنا عنها من أخبار وأقوال ، سواء أيام حركات الدويش واجتماعاته ببعض الموظفين البريطانيين ، سواء يوم خروج ابن رفادة من العقبة في رابعة النهار بين سمع الموظفين هناك وبصرهم ، وقد كان أفضل شيء لمداواة مثل تلك الوقائع هو المصارحة والإخبار بما يصل لتجري معالجته .

« وإننا حينما اطلعنا على مثل تلك الاتهامات التي نسبت إلينا لم يكن لها في نفسنا تأثير ذو أهمية ، لأن الذي يعلم البراءة من نفسه لا يتشوش ذهنه حينما يسمع اتهامات تلقى حوله .

« أما الحقيقة الواقعة فإن أهل فلسطين — بعد أن رأوا من الحكومة البريطانية إصرارها على تقسيم بلادهم ، ثم ما آلت إليه الحالة من جراء الإجراءات الأخيرة — اعتقدوا أن الحكومة البريطانية تريد إفناءهم عن آخرهم ، لتُحِلّ اليهود محلهم في بلادهم ، وهم بعد هذا الاعتقاد لم يتركوا باباً للمقاومة إلا طرقوه ، ولا سبيلاً لنيل المساعدات إلا سلكوه ، وفي جملة الذين توخوا أن يلقوا منهم

مساعدات بالمال والسلاح والقوة نحن بصورة شخصية ، كما توخوا ذلك من من أهل بلادنا .

« لقد سبق أن أخبرنا الحكومة البريطانية بالتأثير الحاصل فى نفوس أهل بلادنا ، وأن أثر ذلك فى نفوس النساء والأطفال إن لم يكن بأكثر مما هو فى نفوس الرجال المدركين للخطر الحاضر والمستقبل على العرب كافة من اليهود ، فهو مثله على الأقل .

« وإذا قلت لكم : إنه يوجد فى جسمى ذرة لا تدعونى لقتال اليهود فإنى غير صادق ، ولو أن المقصود اليهود وحدهم فإنى أفضّل أن تفنى الأموال والأولاد والذراري ولا يتأسس ملك لليهود فى فلسطين .

« ولكن القائم فى القضية هو الحكومة البريطانية وليس اليهود وحدهم ، وبيننا وبينها عهود صداقة مكتوبة ، وعهود مصالح متبادلة .

« وفى اعتقادنا اليقيني أن أفضل ما للعرب لمصالحهم الحاضرة والمستقبلة أن يكونوا مع بريطانيا أصدقاء على الدوام ، ولو أطاعونى أهل فلسطين لاتّخذوا المطالبة بالطرق السلمية الوسيلة الوحيدة لمطالبهم مع بريطانيا .

« ونحب أن تتأكد الحكومة البريطانية أن محاولات وجهوداً كثيرة بُذلت لدينا لنوال مساعدات من أجل الثورة فى فلسطين ، ولكن لا يمكن إن شاء الله أن نعمل عملاً يخل بالتعهدات التى بيننا وبين بريطانيا ، ولو عرضنا مثل هذه المساعدات على العقل لأدرك أنه من المستحيل على مثلنا – بعد الذى خبرناه من أمور الدهر – أن يُقدم على مثل ما يقال ، فإن فلسطين ليست أمام اليهود ، وإنما هي أمام بريطانيا ، وفلسطين بالنسبة لبريطانيا ليست إلا جزءاً قليلاً لا قِبَل لها بشيء من قوات بريطانيا ، ولو فرضنا أن قوات العرب الذين حولهم اجتمعت معهم على قتال بريطانيا ، فهل يمكن لهذا المجموع كله أن يغلب

بريطانيا ؟ فإذا كان هذا هو الواقع ، فهل يمكن أن يخطر لنا على بال أن نمدّ أهل فلسطين بشيء من السلاح لا يغني عنهم فتيلاً ، ونوقعهم فى مشكلات مع بريطانيا تكون سبباً لذهابهم ؟ .

« وأما أقوال الناس فنحن ما يمكن أن نؤخذ بما يتقوله المتقولون ، وهم إما عدوّ يحب الإيقاع بيننا وبين بريطانيا ، وإما صاحب هوى أو غرض ، وإما من أهل فلسطين الذين يريدون تقوية معنويات الثوار بقولهم : إن ابن سعـود سيساعدنا أو يعطينا ، إلى غير ذلك من الأقوال ، فمطلوب أن يعرض ما يقال على العقل ؛ ويدقق فى تاريخ علاقاتنا مع بريطانيا وآرائنا السياسية فيما نعتقد أنه المصلحة للعرب من صداقتها .

وليت الحكومة البريطانية اطلعت على ما يشاع عنا مقابل هذه الإشاعات ، فلقد فسّر كثير من العرب سكوتنا فى قضية فلسطين أنه تواطؤ منا مع بريطانيا مقابل مصالح خاصة ضمنتها لنا لقبولنا فى التقسيم ، فهذه التهم وُجهت لنا سراً وجهاراً ، حتى من أشد الناس وثوقاً بغيرتنا الإسلامية العربية ، لقد قالوا ذلك حينما رأوا ذلك السكوت منا فى الوقت الذى يجدون فيه الآخرين معالنين بما يجول ويتردد فى النفوس الإسلامية العربية عن قضية فلسطين .

« ومن أجل ذلك نحن نلخّص لها الموقف هنا بجلاء لتكون بريطانيا على يقين من حقيقة ما يقال :

١ ــ إن أهل فلسطين وكثيراً من العرب موقنون الآن بأن الحكومة البريطانية مصممة على تقسيمهم ، وأنهم إن لم يرضوا بهذا التقسيم فستمحوهم عن بكرة أبيهم وتزيلهم من الوجود ، وتحل اليهود محلهم .

٢ ــ إن هذه العقيدة شملت أهل فلسطين ، واستيقنها غيرهم من العرب والمسلمين .

٣ – لقد وردت لنا رسائل عديدة من بعض الحكومات العربية ومن كثير من الجمعيات يستحثوننا لطلب المساعدة والنجدة .

٤ – إن أهل فلسطين يسعون بشتى الوسائل لإدراك أقصى ما يمكنهم من الذخيرة والقوة لمواصلة القتال من أي جهة كانت ، لأن الذى يشعر أنه هالك لا يبالى بسلوك أي طريق قد يكون له أمل فيه .

٥ – إن الشعور العامّ فى بلادنا متأثر من قضية فلسطين إلى أبعد مدى ، ولولا خوفه من شخصى لأتى بأعمال تزيد الموقف حراجة .

٦ – أما نحن فإنا لا نزال ولن نزال على عهدنا الذى تعاهدنا مع بريطانيا عليه ، ولا نزال نعتقد أنه لا بد لبريطانيا أن تنظر بعين الإنصاف للعرب ، وأنّه خير للعرب أن يكونوا على اتفاق مع بريطانيا فى سائر الأوقات .

٧ – عملنا التحقيق الدقيق فيما ذكرته الحكومة البريطانية عن تهريب سلاح من « حقل » فلم نعثر على أثر لذلك ، وظهر أن ما قيل لم يقع ، وحققنا فى جهات « الجوف » بعد إخبار الحكومة البريطانية لنا فارتبنا بشخصين كانا قدما للتجارة فأخرجناهما .

٨ – حققنا فيما نسبته الحكومة البريطانية من تصريحات ليوسف ياسين ، فتحقق لدينا تحققاً يقيناً لا شبهة فيه أن يوسف لم يتلفظ بمثل ما نُقل عنه للحكومة البريطانية .

٩ – إن خطتنا التى نسير عليها فى قضية فلسطين هي أن نصارح الحكومة البريطانية بنصائحنا وآرائنا فيها مصارحة الصديق لصديقه .

« أما اعتقادنا فإن تأسيس دولة لليهود فى فلسطين هو مناف لمصالح العرب ، ومهدد بمحو العرب ، ليس فى فلسطين وحدها ، بل فى سائر البلاد

العربية ، كما نعتقد أن ذلك ضد مصلحة بريطانيا ، وإننا من أجل ذلك نواصل نصائحنا ورجاءنا للحكومة البريطانية لتعدل عن هذه الخطة ، كما نواصل نصائحنا الخاصة لأهل فلسطين بأن يتخذوا طريق التفاهم مع بريطانيا من أجل ذلك لأنه أسلم الطرق للوصول للمقصود .

ونحب أن تكون بريطانيا على يقين من أننا ما زلنا ولن نزال أصدقاءها ، ولم ينقطع أملنا فى إنصافها » .

(الختم الملكي)
عبد العزيز السعود

وعندما صدر قرار لجنة اللورد بيل بالتقسيم أصدرت الحكومة الامركية بيانا أيدت فيه قرار التقسيم، فارسل الملك عبد العزيز رسالة إلى الرئيس روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية ، وهذا نصها :

« فى ٧ شوال ١٣٥٧ (٢٩ نوفمبر ١٩٣٨)»

« يا صاحب الفخامة

« لقد اطلعنا على ما أذيع عن موقف حكومة الولايات المتحدة الأميركية في مناصرة اليهود بفلسطين ، وبالنظر لما لنا من الثقة فى محبتكم للعدل والإنصاف وفى تمسك الأمة الأميركية الحرة بأعرق التقاليد الديموقراطية المؤسسة على تأييد الحق والعدل ونصرة الأمم المغلوبة ؛ ونظراً للصلات الودية التى بين مملكتنا وحكومة الولايات المتحدة فقد أردنا أن نلفت نظر فخامتكم إلى قضية العرب فى فلسطين وبيان حقهم المشروع فيها ، ولنا ملء الثقة أن بياننا هذا يوضح لكم وللشعب الأميركي ، قضية العرب العادلة في تلك البلاد المقدسة .

« لقد ظهر لنا من البيان الذى نشر عن موقف أميركا أن قضية فلسطين قد

نُظر إليها من وجهة نظر واحدة ، هي وجهة نظر اليهود والصهيونية ، وأهملت وجهات نظر العرب ، وقد رأينا من آثار الدعايات اليهودية الواسعة النطاق أن الشعب الأميركي الديموقراطي قد ضلل تضليلا عظيما أدى إلى اعتبار مناصرة اليهود على سحق العرب في فلسطين عملاً إنسانياً ، في حين أن مثل ذلك ظلم فادح وُجه إلى شعب آمن مستوطن في بلاده كان ولا يزال يثق بعدالة الرأي العام الديموقراطي في العالم عامة وفي أميركا خاصة ، وإنا على ثقة بأنه إذا اتضح لفخامتكم وللشعب الأميركي حق العرب في فلسطين فإنكم ستقومون بنصرته حق القيام .

« إن الحجة التي يستند إليها اليهود في ادعاءاتهم بفلسطين هي أنهم استوطنوها حقبةمن الزمن القديم ، وأنهم مشتتون في بلاد العالم ، وأنهم يريدون إيجاد مجتمع لهم يعيشون فيه أحراراً في فلسطين ، ويستندون في عملهم إلى وعد تلقوه من الحكومة البريطانية سُمي بوعد بلفور .

« أما دعوى اليهود التاريخية فإنه لا يوجد ما يبررها ، في حين أن فلسطين كانت ولا تزال مشغولة بالعرب في جميع أدوار التاريخ المتقدمة ، وكان السلطان فيها لهم ، وإذا استثنينا الفترة التي أقامها اليهود فيها ، والمدة الثانية التي سيطرت فيها الإمبراطورية الرومانية عليها ، فإن سلطان العرب كان منذ الزمن الأقدم على فلسطين إلى زماننا هذا .

« وقد كان العرب في سائر أدوار حياتهم محافظين على الأماكن المقدسة ، معظمين لمقامها ، محترمين لقدسيتها ، قائمين بشؤونها بكل أمانة وإخلاص ، ولما امتد الحكم العثماني على فلسطين ، كان النفوذ العربي هو المسيطر ، ولم يكن العرب يشعرون بأن الترك دولة مستعمرة لبلادهم . وذلك :

١ — لوحدة الجامعة الدينية .

٢ — لشعور العرب أنهم شركاء الترك في الحكم .

٣ ــ لكون الإدارة المحلية للحكم بيد أبناء البلاد أنفسهم .

« فمما ذُكر يرى أن دعوى اليهود بحقهم فى فلسطين ــ استناداً إلى التاريخ ــ لا حقيقة لها ، فإن كان اليهود قد استوطنوا فلسطين مدة معينة بصورة استيلاء فإن العرب قد استوطنوها مدة أطول بكثير من ذلك ، ولا يمكن أن يُعتبر احتلال أمة لبلد من البلدان حقاً طبيعياً يبرر مطالبتها به ، ولو اعتبر هذا المبدأ فى العصر الحاضر لحق لكل أمة أن تطالب بالبلدان التى سبق لها إشغالها بالقوة حقبة من الزمن ، وتسبب عن ذلك تغيير خريطة العالم بشكل من أعجب الأشكال مما لا يتلاءم مع العدل ولا مع الحق والإنصاف .

« أما دعوى اليهود التى يستثيرون بها عطف العالم أنهم مشتتون فى البلدان ومضطهدون فيها ، وأنهم يريدون إيجاد مكان يأوون إليه ليأمنوا على أنفسهم من العدوان الذى يقع عليهم فى كثير من الممالك فالمهمّ فى هذه القضية هو التفريق بين القضية اليهودية العالمية أو اللاسامية وبين قضية الصهيونية السياسية .

فإن كل المقصود هو العطف على اليهود المشتتين فإن فلسطين الضيقة قد استوعبت منهم الآن مقداراً عظيماً لا يوجد ما يماثله فى أي بلد من بلدان العالم وذلك بالنسبة لضيق أرض فلسطين ، وبالنسبة لأراضى العالم التى يقيم اليهود فيها ، وليس فى استطاعة رقعة ضيقة كفلسطين أن تتسع لجميع يهود العالم ، حتى لو فرض أنها أُخليت من سكانها العرب كما قال المستر ماكولم ماكدونالد فى خطاب ألقاه فى مجلس النواب البريطاني مؤخراً ، فإذا قبل مبدأ بقاء اليهود الموجودين فى فلسطين فى الوقت الحاضر فتكون هذه البلاد الصغيرة قد قامت بأعظم قسط إنساني لم يقم بمثله غيرها ، ويرى فخامة الرئيس أنه ليس من العدل أن تسد حكومات العالم ــ وفى جملتها الولايات المتحدة ــ أبوابها بوجه مهاجرى اليهود وتكلف فلسطين البلد العربي الصغير لتحملهم .

« وأما إذا نظرنا إلى القضية من وجهة الصهيونية السياسية فإن هذه الوجهة

تمثل ناحية ظالمة غاشمة ، سداها القضاء على شعب آمن مطمئن وطرده من بلاده بشتى الوسائل ؛ ولحمتها النهم السياسي والطمع الشخصي لبعض أفراد الصهيونية.

« وأما استناد اليهود إلى تصريح بلفور فإن التصريح بحد ذاته جاء جورا وظلما على بلاد آمنة مطمئنة ، وقد أعطي من قبل حكومة لم تكن تملك يوم إعطائه حق فرضه على فلسطين ، كما أن عرب فلسطين لم يؤخذ رأيهم فيه ، ولا في نظام الانتداب الذى فرض عليهم ، كما صرح بذلك ملكولم ماكدونالد وزير المستعمرات البريطانية أيضاً ، وذلك برغم الوعود التي بذلها الحلفاء – وبينهم أميركا – لهم بحق تقرير المصير ، ومن المهم أن نذكر أن وعد بلفور كان مسبوقاً بوعد آخر من الحكومة البريطانية بمعرفة الحلفاء بحق العرب فى فلسطين وفى غيرها من بلاد العرب .

« ومن هذا يتبين لفخامتكم أن حجة اليهود التاريخية باطلة ، ولا يمكن اعتبارها ، وحجتهم من الوجهة الإنسانية قد قامت فيها فلسطين بما لم يقم به بلد آخر ، ووعد بلفور الذى يستندون إليه مخالف للحق والعدل ، ومخالف لمبدأ تقرير المصير ، والمطامع الصهيونية تجعل العرب فى جميع الأقطار يوجسون منها خيفة وتدعوهم لمقاومتها .

أما حقوق العرب فى فلسطين فإنها لا تقبل المجادلة ، لأن فلسطين بلادهم منذ أقدم الأزمنة ، وهم لم يخرجوا منها ، كما أن غيرهم لم يخرجهم منها ، وقد كانت من الأماكن التى ازدهرت فيها المدنية العربية ازدهاراً يدعو إلى الإعجاب ، ولذلك فهي عربية عرفاً ولساناً وموقعاً وثقافة ، وليس فى ذلك أي شبهة أو غموض ، وتاريخ العرب فى تلك البلاد مملوء بأحكام العدل والأعمال النافعة .

« ولما جاءت الحرب العامة انضم العرب إلى صف الحلفاء أملاً فى الحصول على استقلالهم ، وقد كانوا على ثقة تامة من أنهم سينالونه بعد الحرب العامة للأسباب الآتية :

١ — لأنهم اشتركوا بالفعل فى الحرب ، وضحوا فيها بأموالهم وأنفسهم .

٢ — لأنهم وُعدوا بذلك من قبل الحكومة البريطانية فى المراسلات التى دارت بين ممثلها السر هنرى مكماهون وبين الشريف حسين .

٣ — لأن سلفكم العظيم الرئيس ولسون قرر دخول الولايات المتحدة الأميركية فى الحرب إلى جانب الحلفاء نصرةً للمبادىء الإنسانية السامية التى كان من أهمها حق تقرير المصير .

٤ — لأن الحلفاء صرحوا فى نوفمبر سنة ١٩١٨ عقب احتلالهم البلاد أنهم دخلوها لتحريرها وإعطاء أهلها حريتهم واستقلالهم .

« وإذا رجعتم فخامتكم إلى التقرير الذى قدمته لجنة التحقيق التى أرسلها سلفكم الرئيس ولسون عام ١٩١٩ إلى الشرق الأدنى علمتم المطالب التى طلبها العرب فى فلسطين وفى سورية حينما سُئلوا عن المصير الذى يطلبونه لأنفسهم .

« ولكن العرب — لسوء الحظ — وجدوا أنفسهم بعد الحرب أنهم قد خُذلوا وأن الأمانى التى وُعدوا بها لم تحقق ، وقد جزئت بلادهم ، وقسمت تقسيماً جائراً ، وأوجدت لهذه الأقسام حدود مصطنعة لا تبررها عوامل جغرافية ، ولا جنسية ، ولا دينية ، وعلاوة على ذلك وجدوا أنفسهم أمام خطر أعظم ، هو خطر غزو الصهيونية لهم واستملاكها لبقعة من أهم بقاعهم .

« لقد احتجّ العرب بشدة عندما علموا بتصريح بلفور ، واحتجوا على نظام الانتداب ، وأعلنوا رفضهم له وعدم قبولهم به منذ اليوم الأول ، وقد كان تدفق مهاجرى اليهود من الآفاق المختلفة إلى فلسطين مدعاة لتخوف العرب على مصيرهم وعلى حياتهم ، فحدثت فى فلسطين ثورات وفتن متعددة سنة ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٩ وكان أهم تلك الثورات ثورة عام ١٩٣٦ التى لا تزال نارها مستعرة حتى هذه الساعة .

إن عرب فلسطين — يا فخامة الرئيس — ومن ورائهم سائر العرب وسائر العالم الإسلامي يطالبون بحقهم ويدافعون عن بلادهم ضد دخلاء عنهم وعنها ، ومن المستحيل إقرار السلام فى فلسطين إذا لم ينل العرب حقوقهم ويتأكدوا أن بلادهم لن تُعطَى إلى شعب غريب أفاق تختلف مبادئه وأغراضه وأخلاقه عنهم كل الاختلاف ، ولذلك فإننا نهيب بفخامتكم ، ونناشدكم باسم العدل والحرية ونصرة الشعوب الضعيفة التى اشتهرت بها الأمة الأميركية النبيلة أن تتكرموا بالنظر فى قضية عرب فلسطين ، وأن تكونوا نصراء للآمن المطمئن الهادىء المعتدى عليه من قِبَل تلك الجماعات المشردة من سائر أنحاء العالم ، لأنه ليس من العدل أن يُطرد اليهود من جميع أنحاء العالم المتمدن ، وأن تتحمل فلسطين الضعيفة المغلوبة على أمرها هذا الشعب برمته .

ولا نشك فى أن المبادىء السامية التى يتحلى بها الشعب الأميركي ستجعله يذعن للحق ويقدم لنصرة العدل والإنصاف » .

حُرِّر فى قصرنا بالرياض ، فى اليوم السابع من شهر شوال سنة سبع وخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، الموافق تسعة وعشرين نوفمبر سنة ثمان وثلاثين بعد التسعماية والألف ميلادية .

* * *

واهتمت الصحافة العالمية والعربية برسالة ابن سعود إلى روزفلت اهتماما عظيما ، ونشرتها كاملة ، وعلقت عليها ، وتصدى لها اليهود بالرد ، وتناولها جهابذة علماء اليهود بالنقد ، وكتبوا الفصول الطويلة يثبتون فيها حقهم التاريخي فى فلسطين بحجج لاتثبت أمام المنطق والحق والعدل والعقل ، ولم يسخط الصهيونيون على حاكم عربي سخطهم على ابن سعود ، فقد كان — دون منازع — حامل راية فلسطين فى العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وجعل قضيتها قضية حياته بل أكثر .

وإن مذكرة ابن سعود التي بعثها للحكومة البريطانية فى ٢٠ يونيو ١٩٣٨ والتي سبق نشرها قبل هذه الرسالة تحوى صراحة قوله : « اذا قلت لكم : إنه يوجد فى جسمى ذرة لا تدعونى لقتال اليهود فإنى غير صادق ، ولو أن المقصود اليهود وحدهم فإنى أفضل أن تفنى الأموال والأولاد والذراري ولا يتأسس ملك لليهود فى فلسطين » .

وهذه الكلمة الموجزة تدل على عظم قضية فلسطين ، فهي أكبر من الأموال والأولاد ، بل هي أعظم لأنها أكبر من الذراري التى يدخل فيها النساء ، فالقضية هى الحياة كلها بما تحوى ومن تحوى .

وتلقى ابن سعود جواب روزفلت ، وهو هذا :

البيت الابيض

واشنجتون : ٩ يناير ١٩٣٩ يوافق ١٦ ذى القعدة ١٣٥٧ .

حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن سعود ملك المملكة العربيـــة السعودية .

يا صاحب الجلالة :

لقد سرنى كثيراً استلامى كتاب جلالتكم المؤرخ فى ٢٩ نوفمبر ١٩٣٨ الذى سلمه القائم بأعمال المفوضية العربية السعودية بالقاهرة فى ٦ ديسمبر إلى القائم بأعمال المفوضية الأمريكية هناك بخصوص مسألة العرب فى فلسطين .

ولا يخفى على جلالتكم أن الحالة فى فلسطين استرعت طويلا اهتمـــام الشعب الأميركي ، ولذلك فإنى قد طالعت كتاب جلالتكم الذى كرستموه لهذا الموضوع باهتمام خاص .

إن اهتمام الشعب الأميركي بفلسطين يرتكز على عدة اعتبارات ، منها ما هو ذو صبغة روحية ، ومنها ما هو ناشيء عن الحقوق التي نالتها الولايات المتحدة في فلسطين من الاتفاقية الأميركية البريطانية الخاصة بالانتداب في فلسطين ، المؤرخة في ٣ ديسمبر ١٩٢٤ .

وقد تبين موقف الولايات المتحدة بشأن فلسطين في « بيان عام » أصدرته وزارة الخارجية في ١٤ اكتوبر ١٩٣٨ ويسرني أن أبعث لجلالتكم بصورة منه . ويمكنني أن أضيف إلى ذلك أن هذه الحكومة لم تتخذ مطلقاً أي موقف مخالف لما تمسكت به منذ البداية في هذا الموضوع .

صديقك الحميم

(التوقيع)

فرانكلين روزفلت

وهذا هو البيان الامريكي الذى أشار اليه الرئيس روزفلت :

وزارة الخارجية

للصحافة

١٤ اكتوبر ١٩٣٨ (رقم ٤٩٩)

قد تسلمت الحكومة في خلال الأيام القليلة الأخيرة عدداً كبيراً من الرسائل البرقية والخطابات صادرة من أفراد وهيئات في الولايات المتحدة بشأن الحالة في فلسطين ، وتشير إشارة خاصة لما يشاع من احتمال تطبيق الحكومة البريطانية لسياسة جديدة إزاء هذه البلاد ، وواضح أنه من المتعذر الإجابة على حدة على الرسائل العديدة التي وصلتنا ، ولهذا فهذا البيان صادر بديلا عن الردود الفردية .

وكما هو معروف حق المعرفة فالشعب الأميركي قد اهتم اهتماماً وثيقاً عدة سنين برقي الوطن القومي اليهودي فى فلسطين ، وكل رئيس – ابتداءً من الرئيس ولسون – قد عبّر عن اهتمامه الخاص فى مناسبة واحدة أو مناسبات عدة بفكرة وطن قومي . وأبدى سروره بالتقدم الذى وصل إليه إنشاء هذا الوطن ، وفوق ذلك فقد عبر عن عطف الأميركيين على الوطن اليهودي فى فلسطين ، وبالقرار المشترك الذى اتخذه المجلس النيابي الأميركي [1] والذى أمضاه الرئيس فى ٢١ سبتمبر ١٩٣٢ مسجّلاً خطة الولايات المتحدة الودية نحو هذا الوطن القومي .

وقد أبدت لجنة الشؤون الخارجية فى هذا المجلس عند تقديم القرار رأيها ، أي أنه يعبر عن اهتمامنا الأدبي وخطتنا الودية نحو إنشاء وطن قومي للشعب فى فلسطين ، وهو لا يربطنا بأي ارتباط خارجي أو يزجّ بنا فى أيّ اشتباك .

وإنه فى ضوء هذا الاهتمام قد راقبت الحكومة الأميركية وشعبها بأشد العطف تدرج الوطن القومي فى فلسطين ، وهو مشروع لعب فيه الذهب ورأس المال الأميركي دوراً رئيسياً .

وفى مناسبات عدة قد عرضت هذه الحكومة آراءها بخصوص حقوق الولايات المتحدة ومواطنيها فى فلسطين على أنظار الحكومة البريطانية ، وإذا رجعنا قليلاً إلى عام ١٩٣٧ فقد تبودلت رسائل رسمية ، والفقرة الآتية الغنية عن كل بيان مقتبسة من المذكرة النهائية المؤرخة ٤ أغسطس ١٩٣٧ التى بعث بها سفير أميركا فى لندن لوزارة الخارجية البريطانية . وهي :

« إزاء التعبير عن ارتياحنا وتقديرنا للتوكيدات المقدمة من حكومة صاحب الجلالة عن رغبتها فى إحاطة حكومة الولايات المتحدة إحاطة تامة بأية مقترحات

---

(١) الكونجرس .

قد تعرضها على مجلس عصبة الأمم لتعديل الانتداب فى فلسطين ، فإنى مكلف بالرجاء لتقديم هذه المقترحات لحكومتى قبل وقت كاف يسمح لها بتوجيه أية ملاحظات قد ترغب فى إبدائها إن كان هناك محل للملاحظة بخصوص حفظ الحقوق الأميركية فى فلسطين » .

ولذلك فمن المأمول أن تتاح الفرصة لهذه الحكومة لتقديم آرائها للحكومة البريطانية بخصوص أي تغييرات تمسّ الحقوق الأميركية مما قد يقترح فى الانتداب على فلسطين ، وهذه الحقوق التى حددتها اتفاقية الانتداب بين أميركا وبريطانيا أو معاهدة ٣ ديسمبر ١٩٢٤ تشمل معاهدة عدم التمييز فى مسائل التجارة ، وعدم المساس بالحقوق الملكية الأميركية المكتسبة ، والترخيص للرعايا الأميركيين بإنشاء وإدارة المعاهد التعليمية والخيرية والدينية فى فلسطين ، والضمانات الخاصة بالنظام القضائي ، وعلى العموم المعاملة على قدم المساواة مع كافة الرعايا الأجانب

وحقوق الولايات المتحدة بخصوص أي تغييرات تطرأ على الانتداب فى فلسطين مبينة فى المادة (٧) من المعاهدة السالفة الذكر ، وهاك نصها :

« لا يمسّ أي شيء تشمله الاتفاقية الحاضرة من جراء أي تعديل قد يطرأ على شروط الانتداب كما هو مبين من قبل إلا إذا وافقت على هذا التعديل الولايات المتحدة » .

وهذه المادة فى مجموعها مشابهة لما يماثلها من المواد الموجودة فى ثمانية اتفاقات أخرى عقدتها الحكومة بخصوص الأقاليم تحت الانتداب ، وهى : سورية ، ولبنان ، والجزر الألمانية سابقاً فى شمال المحيط الهادي ، والكمرون الفرنسية ، وتوجولند الفرنسية ، وشرقي إفريقيا البلجيكي ، والكمرون البريطاني ، وشرق إفريقيا البريطاني ، وتوجولند البريطانية ، ولا تخوّل أية مادة من هذه الموادّ حكومة الولايات المتحدة أن تمنع تعديل أية مادة من مواد إحدى هذه الانتدابات ، إلاّ أنه بمقتضاها تستطيع هذه الحكومة أن ترفض الاعتراف

بمشروعية تطبيق أيّ تعديل يطرأ على الانتدابات فيما يختص بتطبيقه على المصالح الأميركية ، إلا إذا كان هذا التطبيق قد وافقت عليه حكومة الولايات المتحدة .

وترى هذه الوزارة (وزارة الخارجية) أن لجنة تقسيم فلسطين التى عينت من بضعة شهور خلت لتشير على الحكومة فيما تراه بخصوص التقسيم أنها ستقدم تقريرها للحكومة البريطانية فى نهاية هذا الشهر ، وأن هذه الحكومة لن تصل إلى قرار ما فى هذا الموضوع إلا بعد إتاحة الفرصة لها لبحث هذا التقرير .

وإجابة على سؤال قدم فى مجلس العموم فى ٦ اكتوبر ١٩٣٨ نقل الينا أن المستر ماكدونلد وزير المستعمرات البريطاني قد صرّح بأن مجلس العموم قد لا يكون فى مركز يخوله التصديق على أيّ قرار يكون قد اتخذ فعلا ووضع موضع التنفيذ أو رفضه ، ولكن تتاح للمجلس الفرصة فى بحث أية سياسة قبل التصديق عليها ووضعها موضع التنفيذ من قبل الحكومة البريطانية .

وبالطبع ، ستستمر وزارة الخارجية الأميركية فى متابعة الحالة عن كثب ، وستتخذ كل الخطوات الضرورية لحماية الحقوق والمصالح الأميركية فـــى المسطين » .

وهذا البيان الامريكي يوضح وضوحاً تاما موقف الحكومة الامريكية من قضية فلسطين ، فهي حامية اليهود ، وراعية مصالحهم ، ومنفذة خططهم فى انشاء وطن قومي لهم فى فلسطين .

ولهجة البيان توحى بأن الحكومة الامريكية مصممة على نشوء هذا الوطن ، وسياستها فى الشرق العربي قائمة على العمل الجاد على إنشاء هذا الوطن وقيامه .

وما دمنا قد بدأنا فى بيان اتصالات ابن سعود برئيس الولايات المتحـــدة الامريكية فان من تمام البحث أن نستوفي هذه الاتصالات الرسمية ثم نعود إلى اتصالات ابن سعود بالحكومة البريطانية لنتم القول فيها .

وبعث ابن سعود كتابا إلى الرئيس روزفلت فى ٢٥ ربيع الآخر ١٣٦٢ (٣٠ إبريل ١٩٤٣) هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ملك المملكة العربية السعودية إلى فخامة الرئيس فرانكلين روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأميركية .

يا صاحب الفخامة .

فى هذا المعترك العالمي العظيم الذى قامت فيه الأمم تهدر دماءها ، وتبذل ثرواتها دفاعاً عن حرياتها واستقلالها ؛ فى هذا المعترك الذى أعلنت فيه المبادىء السامية التى يكافح عنها الحلفاء فى ميثاق الاطلانطيك .

فى هذا الصراع الذى أهاب فيه زعماء كل بلد بشعوبهم وبحلفائهم وأصدقائهم أن يكونوا عوناً لهم فى النزاع الحياتي راعني وراع المسلمين والعرب ما شاع من انتهاز فئة من اليهود الصهيونيين هذه الأزمة الخانقة وقيامهم بدعاية واسعة النطاق أرادوا بها السعي لتضليل الرأي العام الأميركي من جهة ، والضغط على دول الحلفاء فى موقفهم الحرج من جهة ثانية ليحملوا بذلك دول الحلفاء على الخروج على مبادىء الحق والعدل والإنصاف التى أعلنوها وقاتلوا من أجلها ؛ وهي حريات الشعوب واستقلالها ، يريدون بعملهم هذا أن يحملوا الحلفاء على مساعدتهم فى القضاء على الشعب العربي الآمن المطمئن فى فلسطين من آلاف السنين يريدون إخراج هذا الشعب الكريم من موطنه ، وأن يحل اليهود المشردون من كل الآفاق فى هذا الموطن الإسلامي العربي المقدس ، وأيّ ظلم فادح فاضح — لا قدّر الله — أن يكون من نتائج هذا الصراع العالمي أن يأتي الحلفاء فى آخره ليكللوا ظفرهم المقبل بهذا الجور من إخراج الشعب العربي من موطنه فى

فلسطين ، وأن ينزلوا مكانه شذاذ آفاق من اليهود لا تربطهم بهذا الموطن أية رابطة غير دعوى خيالية لا أصل لها فى نظر الحق والعدل إلا ما يحيكونه بوجوه مملوءة بالخداع والغش ، منتهزين بذلك هذه الفرصة الحرجة للحلفاء ، ومنتهزين فرصة جهل الشعب الأميركي بحقيقة قضية العرب عامة ، وقضيتهم فى فلسطين خاصة .

لقد سبق أن كتبت لفخامتكم بتاريخ ٧ شوال ١٣٥٧ الموافق (١٩ نوفمبر ١٩٣٨ كتاباً أوضحت فيه حقيقة الأمر بين العرب واليهود فى فلسطين ، ولا بدّ أن فخامتكم إذا رجعتم إلى ذلك الكتاب ستجدون فيه أنه لا يوجد أيّ حق لليهود فى مطالبتهم بفلسطين ، وأن كل ما يطلبونه فيها ليس إلا اعتـــداء وعدواناً لم يسجل التاريخ له مثيلا فى تاريخ البشرية ، ففلسطين عربية منـــذ التاريخ الأقدم ، وموقعها فى وسط البلاد العربية ، ولم يسكنها اليهود إلا حقبة من الزمن كان أكثر مدة تاريخهم فيها مملوءاً بالمجازر والمآسى ، ثم أُجلوا عنها ، وجلوا منها منذ حقب من الزمن ، هؤلاء القوم يراد اليوم أن يعيدوا سيرتهم الأولى فيُعتدى بذلك على الآمنين المطمئنين .

تكاد السماوات يتفطرن وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّاً من كل ما يدعيه اليهود فى فلسطين ديناً ودنيا .

وكنت بعد كتابى المشار إليه لفخامتكم أعتقد — ولا أزال أعتقد — أن حق العرب فى فلسطين أصبح واضحاً لدى فخامتكم ، لأنى لم ألاحظ فى جوابكم لى بتاريخ ٩ يناير ١٩٣٩ أن فخامتكم لاحظتم أية ملاحظة على الحقائق التى ذكرتها فى ذلك الكتاب .

وكنت أرغب ألاّ أشغل فخامتكم ورجال دولتكم فى هذا الظرف العصيب بهذه القضية ، ولكن ما تواترت به الأنباء عن عدم تورع هذه الفئة من الصهيونيين فى إثارة هذه القضية الظالمة الخاطئة هو الذى جعلنى أذكّر فخامتكم بحقوق

المسلمين والعرب فى ذلك البلد المقدس لتعملوا على منع هذا الظلم ، وليكون بياننا لفخامتكم مساعداً على إيضاح حق العرب فى فلسطين للشعب الأميركي بأسره ، ليعلم الشعب الاميركي – الذى يراد تضليله من طرف الصهيونية اليهودية بما لها من وسائل الدعاية الواسعة – الحقيقة الواقعة ، فيعمل فى نصرة العرب المظلومين ، ويكلل جهاده الحاضر بإقامة قسطاس الحق والعدل فى سائر المواطن من العالم .

إننا لو تركنا جانباً العداوة الدينية القائمة بين المسلمين واليهود من أول نشأة الإسلام بأسباب ما كاده اليهود للإسلام والمسلمين ونبيّهم من أول يوم ؛ لو تركنا ذلك جانباً ونظرنا إلى قضية اليهود من الوجهة الإنسانية البحتة لوجدنا الأمر كما ذكرته لفخامتكم فى كتابى السابق من أن فلسطين – باعتراف سائر من عرف فلسطين من أبناء البشر – لا تستطيع أن تحل قضية اليهود العالمية .

ولو فرضنا أن أحكام الظلم طُبقت على فلسطين بكل معانيها ، بمعنى أنه لو فرضنا أن قتل أبناء فلسطين العرب عن بكرة أبيهم رجالا ونساء وأطفالا ، وأُخذت أراضيهم ، وسلمت كلها لليهود ؛ فإن ذلك لا يمكن أن يحل المشكلة اليهودية ، ولا يمكن أن يؤمن أرضا كافية يسكنها اليهود ، فلماذا يراد القيام بهذا الظلم الفرد الفذ فى تاريخ البشرية بدون وصول إلى نتيجة ترضى الساعين في هذا القتل أنفسهم ونعني بهم اليهود ؟ .

لقد ذكرت لفخامتكم فى كتابى السابق أنه إذا نظر إلى الموضوع من وجهته الإنسانية فإن فلسطين البلد الصغير قد زُجّ فيها من اليهود إلى ما قبل الحرب العالمية الحاضرة ما يقرب من أربعمئة ألف ، فصارت نسبتهم فيها بعدما كانت فى آخر الحرب العالمية الماضية سبعة فى المئة ، وهذه الزيادة لا تزال مستمرة ولا ندرى إلى أيّ حد ستنتهى ؟ وأصبح ما يملكونه إلى ما قبل الحرب العامة الحاضرة مليوناً وثلاثمئة واثنين وثلاثين دونماً من أصل سبعة ملايين دونم ، وهو كل ما هو قابل للزراعة فى فلسطين جميعها .

إننا لا نريد محو اليهود ، ولا نطالب بذلك ، ولكننا نطالب بألا يُمحى العرب من أرض فلسطين من أجل إسكان اليهود فيها .

إن أرض العالم لن تضيق على اليهود ، فإذا تحمل كل بلد من بلدان الحلفاء الآن فى الوقت الحاضر عُشر ما تحملته فلسطين أمكن حل قضية اليهود ، وأمكن حل قضية إسكانهم ، وكل ما نرجوه فى هذا الموقف الحاضر هو مساعدةفخامتكم لإيقاف سيل هذه الهجرة إيقافاً تاماً بإيجاد أماكن لليهود فى غير فلسطين يأوون إليها ؛ ومنع بيع الأراضى لليهود فى فلسطين منعاً باتاً ، ثم ينظر فيما بعد بين العرب والحلفاء لتأمين حياة من يمكن أن تتحمله فلسطين من اليهود المقيمين فيها الآن .

إنى أكتب هذا الرجاء لفخامتكم وأنا على يقين بأنكم ستتقبلون هذا الرجاء من صديق يشعر بتقديركم للصداقة ، كما يشعر بتقديركم للحق والعدل والإنصاف ، وكما أشعر بأن الشعب الأميركي من أقصى أمانيه أن يخرج من هذا المعترك ظافراً بنصر المبادىء التى يحارب من أجلها ، وهي حرية الشعوب وإعطاء كل شعب حقه ، لأنه — لا سمح الله — لو أعطي اليهود بغيتهم فى فلسطين لظلت فلسطين مقراً لفتن دائمة كما حصل فى الماضي تسبّب المتاعب للحلفاء عامة ولحكومة بريطانيا الصديقة خاصة ، واليهود بما أُوتوا من قوة فى المال والعلم قادرون على إيقاع الشقاق بين العرب والحلفاء فى كل وقت ، كما كانوا سبباً لكثير من المشاكل التى وقعت من قبل .

وكل ما نحرص عليه هو أن يسود العدل والحق سائر الحلول التى ستُحل بها قضايا الشعوب والأمم بعد هذه الحرب ، وأن تكون علاقات العرب على الدوام مع الحلفاء على أحسن حال وأقواه وأمتنه .

وفى الختام أرجو أن تتقبلوا فائق تحياتي .

حُرر فى مخيمنا بروضة خريم فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ربيع

الثانى سنة اثنتين وستين بعد الثلاثمائة والألف ، الموافق لليوم الثلاثين من شهر ابريل سنة ثلاث وأربعين بعد التسعمائة والألف ميلادية .

(التوقيع)
عبد العزيز

وتلقى ابن سعود جواب كتابه من روزفلت ، وتاريخه ١٥ يوليو ١٩٤٣ (١٩ رجب ١٣٦٢) وهذا نصه :

حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية — الرياض —

أيها الصديق العظيم

قد تلقيت رسالة جلالتكم المؤرخة فى ٣٠ ابريل ١٩٤٣ المتعلقة بالشؤون التى تمس فلسطين . وإنى أقدر روح الصداقة التى أبديتموها فى إعرابكم لى عن هذه الآراء ، ولقد أحطت علماً بكل دقة بالتصريحات الواردة فى هذه الرسالة ، كما أنى أحطت علماً بما جاء فى كتاب جلالتكم المؤرخ فى ١٩ نوفمبر ١٩٣٨ والرسالة الشفوية التى بلّغ بها المستر كيرك الوزير الأميركي فى نهاية زيارته الأخيرة إلى الرياض ، ولا شك أن جلالتكم قد تلقيتم رسالتى التى بلّغها المستر موس لحضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ، وكما ذكرت فى تلك الرسالة يظهر لى من المرغوب فيه للغاية أن العرب واليهود ممن تهمهم المسألة يتفاهمون تفاهماً ودياً فيما يتعلق بفلسطين ، وذلك بمساعيهم الخاصة قبل انتهاء الحرب ، ويسرنى أن تتاح لى هذه الفرصة لاكرر تأكيدى بأن رأي حكومة الولايات المتحدة هو أنه فى كل حال يجب ألا يتخذ أي قرار يغير وضعية فلسطين الأساسية من دون التشاور الكامل مع كلا العرب واليهود .

وفى الختام أكرر التعبير عن خير التمنيات لدوام صحة جلالتكم والرفاه لشعبكم .

صديقكم المخلص
(التوقيع)
فرنكلين د . روزفلت

ورأى الرئيس روزفلت أن يعزز مكاتباته برسول يمثل شخصه لدى ابن سعود ، فاختار اللفتننت كولونل هارولد هوسكنز الذى وصل إلى الرياض فى شهر رجب ١٣٦٢ (يوليو ١٩٤٣) ويحمل كتابا من روزفلت موجها إلى ابن سعود ، وهذا نص ترجمته العربية :

واشنطن — البيت الأبيض .

٧ يوليو ١٩٤٣

جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ملك المملكة العربية السعودية

صديقى العزيز العظيم

لقد كلفت اللفتننت كولونيل هارولد هوسكنز بجيش الولايات المتحدة واضعاً فيه ثقتى الكاملة أن يطلب مقابلة جلالتكم ليبحث باسمى بعض المسائل الخاصة ذات المصلحة المشتركة .

وإنى أنتهز هذه الفرصة لأعبر لجلالتكم عن أحسن تمنياتى بالصحة الطيبة لشخصكم والسعادة والرخاء لشعبكم الكريم .

صديقك المخلص
فرانكلن. د . روزفلت

ورحب ابن سعود بالممثل الشخصي للرئيس الامريكي ، وبعد ذلك ترك له الحديث لينقل إليه آراء الرئيس ، فقال هوسكنز :

« تعلمون جلالتكم أن الرئيس روزفلت تلقى كتبكم حول قضية فلسطين وسبق أن قدم إلى جلالتكم شكره على ما تفضلتم به من إبلاغه رأيكم ورأي العرب عامة فى هذه المشكلة ، وهي كما تقدرون جلالتكم مشكلة متعقدة ، وقد زادت أهميتها فى الأشهر الأخيرة عند الرئيس وعند المستر هل وزير الخارجية ، والمستر ولز نائب وزير الخارجية ، فازداد اهتمامهم بها .

« ولا يخفى على جلالتكم أنه قد أصبح من سياسة حكومة أميركا المقررة — وفيما أعتقد من سياسة حكومة بريطانيا أيضاً — أن تؤجل بقدر الإمكان إلى ما بعد انهزام المحور الأبحاث فى المشاكل الإقليمية ومشاكل الحدود الكثيرة الكائنة فى مختلف أنحاء العالم ، لأن غايتنا الأولى التى نحن فى أشد الحاجة إلى إدراكها هي النصر على أعدائنا .

« غير أنه فى الوقت ذاته سيكون المستر تشرشل والرئيس روزفلت مقصرين فى واجباتهما لو أهملا أية وسيلة يمكن أن تؤدي حتى قبل انتهاء الحرب إلى حل قضية فلسطين حلا وديا سلميا على شرط أن يكون الوصول إلى هذا الحل بطريق الاتفاق والتراضى بين الجهات المختصة المهمة .

« لقد فهم الرئيس روزفلت من كتب جلالتكم اهتمامكم الخاص بمشكلة فلسطين ، ومع أنه يقدر تلك الكتب الثمينة حق قدرها إنما يعتقد أنه لا يمكن دراسة هذه القضية ولا البحث عن الوسائل لحلها من دون أن يطلع على آراء جلالتكم اطلاعا واسعا شاملا يزيد عما يمكن تدوينه فى الكتب الرسمية ، لأن قضية دقيقة وصعبة مثل قضية فلسطين لا يتضح كل ما تنطوى عليه إلا فى المحادثات الطويلة ، ولهذا السبب أرسلنى الرئيس روزفلت لأتشرف بمواجهة جلالتكم ، وآخذ رأيكم مباشرة ، ثم عند ما أعود إلى واشنطن أستطيع أن أبلغ

الرئيس رأساً وشخصياً ما تبدونه جلالتكم .

« وقد أمرنى الرئيس بصفة خاصة أن ألتمس من جلالتكم الإجابة على السؤال الآتى :

« هل ترون جلالتكم أنه مما يُرغب فيه ومما يفيد فى الوقت الحاضر أن تستقبلوا هنا فى الرياض أو فى أي مكان آخر الدكتور حاييم وايزمن زعيم الصهيونيين لكي تتحدثوا معه وتبحثوا معاً عن حل لمشكلة فلسطين يرضى به كل من العرب واليهود ؟ .

« هذا هو سؤال الرئيس روزفلت ، ولكن إذا استصعبتم هذا الأمر ورأيتم أنه لا يمكن اجتماعكم بالدكتور وايزمن فيسأل الرئيس : هل ترون جلالتكم أنه مما يرغب فيه ومما يفيد فى الوقت الحاضر أن يُعقد اجتماع بين شخص تعيّنونه لينوب عن جلالتكم وبين الدكتور وايزمن أو شخص آخر معيّن من قبل الوكالة اليهودية ، ويكون هذا الاجتماع إذا وافقتم عليه فى مكان غير الرياض .

« وبهذه المناسبة يمكننى أن أحيط جلالتكم علماً بأن الرئيس روزفلت قد أخبر المستر تشرشل والمستر إيدن برغبته فى إرسالى إلى الرياض لمقابلة جلالتكم فى هذا الشأن فعبّرا عن موافقتهما على ذلك .

« وأكون شاكرا لجلالتكم إذا تفضلتم بالنظر فى هذا السؤال ، وتكرمتم بعد التفكير فيه بإخبارى عما إذا رأيتم أن اجتماعاً يعقد بين جلالتكم والدكتور وايزمن يكون من المرغوب فيه ومن المفيد .

وقد أُمرت بعد أن أتشرف بتلقى إجابة جلالتكم أن أعود إلى واشنطن وأبلغ الرئيس روزفلت شخصياً بقراركم » .

وأجاب ابن سعود بما نصه :

« أبلغتموني سعادتكم تفضّل فخامة الرئيس روزفلت بسؤاله عن رأينا ورأي العرب فى مشكلة فلسطين التى زادت أهميتها فى الأشهر الأخيرة .

« ونحن إذ نشكر لفخامته هذا الاعتناء المهم ، وإيفاده مندوباً لبقاً مثل سعادتكم للاستفسار عن رأينا فى قضية فلسطين ؛ نذكر لفخامته أن رأينا فى هذه القضية لم يتغيّر ، وقد ذكرناه لفخامته بكل وضوح فى كتابينا اللذين أرسلناهما إلى فخامته بتاريخ ١٩ نوفمبر (١٩٣٨) وتاريخ ٣٠ ابريل ١٩٤٣ وكل ما نريد فى الأمر هو ألا يهضم حق العرب الصريح الذى هو مثل الشمس بمغالطات تاريخية ونظريات اجتماعية واقتصادية من قبل اليهود الصهيونيين .

« ثم إننا نؤيد كل ما أتينا به فى كتابينا المشار إليهما ، ونرجو كذلك ألا تقترن أعمال من يريد العدل ونصرة الإنسانية — التى لا نشك بأن اميركا لم تدخل هذه الحرب الضروس إلا لتأييدها — بعمل غير إنساني يقضى على حقوق العرب فى فلسطين لعدم الوقوف على الحقيقة ، فتكون بذلك مأساة وضربة للعرب لم يأت التاريخ بمثلها .

« ونحن إذ تسرنا الوعود الكريمة بالنظر فى هذه القضية بوجه الحق والإنصاف بعد اندحار المحور يمكننا أن نرجو من فخامته تطبيق أحكام الكتاب الأبيض على الأقل فى مدة هذه الحرب ، لأن فى عدم تطبيق أحكامه وعدم وقف الهجرة التى تجاوزت الحدّ المعين خرقا كبيرا لحرمة العهود والمواثيق ، وإن ذلك فى صالح اليهود على طول الخط ، وضد العرب بصورة لا تقبل الشكّ والتأويل .

« أما دخولى فى مذاكرات لحلّ قضية فلسطين بصورة عملية غير إبداء الرأي والنصائح فذلك غير ممكن ، ولا أستطيع أن أعمل أي عمل إلا بعد استطلاع أفكار ذوى العلاقة الذين فى أيديهم الحل والعقد فى هذه القضية ،

وبذلك يمكن توجيه الآراء لحل المشكلات على ضوء هذه الأفكار ، فإذا رأى فخامته أن نقوم بمراجعة العرب للاستفسار عن آرائهم فنحن نقوم بذلك إن شاء الله .

« وأما ما ذكر فخامته من جهة مقابلتي للدكتور حاييم وايزمن فأحب أن يعلم فخامة الرئيس بأننا نقابل كل من يأتي إلينا من جميع الأديان بكل ترحاب مع القيام بالواجب لهم حسبما يقتضيه مقامهم من الإكرام .

« أما اليهود بصورة خاصة فلا يخفى على الرئيس ما بيننا وبينهم من عداوة سابقة ولاحقة ، وهي معلومة ومذكورة فى كتبنا التى بين أيدينا ، ومتأصلة من أول الزمان ، فمن هذا يظهر جلياً أننا لا نأمن غدر اليهود ، ولا يمكننا البحث معهم أو الوثوق بوعودهم ، أولاً : لأننا نعرف نواياهم نحو العرب والمسلمين ، وثانياً : لأننا لم نتصل بالعرب لنعرف رأيهم ، وكما ذكرنا فيما تقدم إذا رغب فخامته أن نقوم باستمزاجهم واستطلاع رأيهم فنحن نقوم بتحقيق تلك الرغبة حينئذ .

« أما الشخص الذى هو الدكتور وايزمن فهذا الشخص بيني وبينه عداوة خاصة ، وذلك لما قام به نحو شخصي من جرأة مجرمة بتوجيهه إليّ من دون جميع العرب والإسلام تكليفاً دنيئاً لأكون خائناً لديني وبلادى ، الأمر الذى يزيد البغض له ولمن ينتسب إليه ، وهذا التكليف قد حدث فى أول سنة من هذه الحرب ، إذ أرسل إليّ شخصاً أوربياً معروفاً يكلفني أن أترك مسألة فلسطين وتأييد حقوق العرب والمسلمين فيها ، ويسلّم إليّ عشرين مليون جنيه مقابل ذلك ، وأن يكون هذا المبلغ مكفولاً من طرف فخامة الرئيس روزفلت نفسه ، فهل من جرأة أو دناءة أكبر من هذه ؟ وهل من جريمة أكبر من هذه الجريمة يتجرأ عليها هذا الشخص بمثل هذا التكليف ، ويجعل فخامة الرئيس كفيلاً لمثل هذا العمل الوضيع .

إني لا أشك بأن فخامة الرئيس روزفلت لايقبل هذا ، لا فى حقى ولا فى حقه ، فهذه من جملة الأسباب التى أريد أن تعرضوها على فخامة الرئيس حتى يرى إلى أيّ حدّ يتجرأ اليهود للوصول إلى غاياتهم الباطلة ، وينظر برأيه السديد فى هذه الأعمال التى يغنى بيانها عن وصفها » .

وبعد انتهاء الاجتماع بين ابن سعود والممثل الشخصي للرئيس أسلمه جواب رسالته إليه ، وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ملك المملكة العربية السعودية

إلى صاحب الفخامة الرئيس فرانكلن روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأميركية

يا صاحب الفخامة

« تلقيت ببالغ السرور كتاب فخامتكم الصادر عن البيت الأبيض بتاريخ ٧ يوليو ١٩٤٣ الذى حمله إليّ مندوب فخامتكم اللفتننت كولونيل هارولد هوسكنز ، وقد كان من دواعى اغتباطى أنى اجتمعت بالمندوب المشار إليه ، وأطلعنى على آراء فخامتكم الخاصة ببعض الشؤون والمسائل ذات المصلحة المشتركة ؛ وبحثت معه فى هذه المواضيع على ضوء المصالح المذكورة ، وهو سينقل بدوره ولاشك لفخامتكم آرائى وأفكارى .

« هذا وقد تلقيت بالحبور تحيات فخامتكم التى حملها إليّ المندوب المشار إليه ، والذى قام بما عهد إليه من المهمة بما تقتضيه فطنته ولباقته اللامعة ، وإنى اغتنم فرصة عودته إلى الولايات المتحدة فأبعث لفخامتكم بشكرى الخالص على

نبل غايتكم بانتداب سعادته مما دلّ على متانة الصداقة التى تربط بلادينا ، كما أبعث بتحياتى الخالصة وتحيات حكومتى وشعبى وتمنياتنا الطيبة لفخامتكم وللشعب الأميركي الكريم .

صديقكم
(التوقيع)
عبد العزيز

ولم يقف ابن سعود جهوده لدى الرئيس الامريكي ، ففى نهاية الحرب الكبرى الثانية كتب إليه رسالة مطولة هذا نصها [١] :

بسم الله الرحمن الرحيم

الرقم : ٢٦ / ٤ / ١ / ٤٥

التاريخ : ٢٦ ربيع الأول ١٣٦٤

١٠ مارس ١٩٤٥

من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود
ملك المملكة العربية السعودية

إلى حضرة صاحب الفخامة المستر روزفلت

رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأفخم

يا صاحب الفخامة

إنها لفرصة سعيدة أنتهزها لأشارككم السرور بانتصار المبادىء التى أعلنت

(١) هذه الرسالة نفسها بعثها ابن سعود الى ونستون تشرشل بالتاريخ نفسه ، وباسمه .

الحرب من أجل نصرتها ، ولأذكر الشخصيات العظيمة التي بيدها — بعد الله — تصريف مقاليد نظام العالم بحق صريح دائم منذ عرف التاريخ ، ويراد — الآن — القضاء على هذا الحق بظلم لم يسجل له التاريخ مثيلا ولا نظيرا .

ذلك هو حق العرب في فلسطين الذى يريد دعاة اليهودية الصهيونية غمطه وإزالته بشتى وسائلهم التي اخترعوها وبيتوها وعملوا لها في شتى أنحاء العالم من الدعايات الكاذبة ، وعملوا في فلسطين من المظالم ، وأعدوا للعدوان على العرب ما أعدوا مما علم بعضه الناسُ ، وبقي الكثير منه تحت طي الخفاء ، وهم يعدون العدة لخلق شكل نازي فاشستي بين سمع الديموقراطية وبصرها في وسط بلاد العرب ، بل في قلب بلاد العرب ، وفي قلب الشرق الذى أخلص العمل لقضية الحلفاء في هذه الظروف الحرجة .

وإن حق الحياة لكل شعب في موطنه الذى يعيش فيه حق طبيعي ضمنته الحقوق الطبيعية ، وأقرته مبادىء الإنسانية التي أعلنها الحلفاء في ميثاق الإطلنطى وفي مناسبات متعددة ، والحق الطبيعي للعرب في فلسطين لا يحتاج إلى بينات ، فقد ذكرتُ غير مرة لفخامة الرئيس روزفلت ، وللحكومة البريطانية في عدة مناسبات أن العرب هم سكان فلسطين منذ أقدم عصور التاريخ ، وكانوا سادتها والأكثرية الساحقة فيها في كل العصور ، وإننا نشير إشارة موجزة إلى هذا التاريخ القديم والحديث لفلسطين حتى اليوم لنبين أن دعوى الصهيونية في فلسطين لا تقوم على أساس تاريخي صحيح .

يبتدىء تاريخ فلسطين المعروف من سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، وأول من توطن فيها الكنعانيون ، وهم قبيلة عربية نزحت من جزيرة العرب ، وكانت مساكنهم الأولى في منخفضات الأرض ، ولذلك سموا كنعانيين .

وفي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد هاجر من العراق (أور الكلدانيين) بقيادة

النبيّ إبراهيم فريق من اليهود ، وأقاموا فى فلسطين ، ثم هاجروا إلى مصر بسبب المجاعات حيث استعبدهم الفراعنة .

وقد ظل اليهود مشردين فيها إلى أن أنقذهم النبيّ موسى من غربتهم ، وعاد بهم إلى أرض كنعان عن طريق الجنوب الشرقي فى زمن رمسيس الثانى سنة ١٢٥٠ أو ابنه منفتاح سنة ١٢٢٥ قبل الميلاد .

وإذا سلمنا بنص التوراة نجد أن قائد اليهود الذى فتح فلسطين كان يشوع ابن نون ، وهو الذى عبر بجيشه واحتل مدينة أريحا من الكنعانيين بقسوة شديدة ووحشية يدل عليها قوله لجيشه : « حرّقوا كل ما فى المدينة ، واقتلوا كل رجل وامرأة ، وكل طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم بحد السيف ، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها » . (يشوع ٦ : ٢١ — ٢٢) وقد انقسم بعد ذلك إلى مملكتين : مملكة إسرائيل ، وقصبتها السامرة (نابلس) وقد دامت ٢٥٠ سنة ، ثم سقطت فى يد شلمناصّر ملك آشور سنة ٧٢٢ قبل الميلاد ، وسَبَى شعبها إلى مملكته .

ثم مملكة يهوذا ، وقصبتها : أورشليم (القدس) وقد دامت ١٣٠ سنة بعد انقراض مملكة إسرائيل ، ثم أبيدت على يد نبوخذ نصّر ملك بابل الذى أحرق المدينة والهيكل بالنار ، وسبى الشعب إلى بابل سنة ٥٨٠ قبل الميلاد .

ودام السبي البابلي مدة ٧٠ سنة ، ثم رجع اليهود إلى فلسطين بأمر قورش ملك الفرس .

ثم تلا ذلك الفتح اليوناني بقيادة إسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، ودام حكمه فى فلسطين مدة ٢٧٢ سنة ، وجاء بعده الفتح الروماني سنة ٦٣ قبل الميلاد بقيادة بومبى ، ودام حكم الرومان فى فلسطين مدة ٧٠٠ سنة ، وفى سنة ميلادية احتل العرب فلسطين ، ودام حكمهم فيها مدة ٨٨٠ سنة متواصلة ،

وكانت وصية الخليفة الفاتح : « لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تَغُلّوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا تعقِروا نخلا أو تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا ، وسوف تمرون بأناس قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » وقد ذكر هذا ابن الاثير المؤرخ المشهور .

ثم انتقل الحكم فى فلسطين إلى الأتراك سنة ١٥١٧ ميلادية فى زمن السلطان سليم الأول ، وظلت فلسطين فى حوزتهم مدة ٤٠٠ سنة ، وكان العرب سكانها ، وكانوا شركاء مع الأتراك فى حكمها وإدارتها . وفى سنة ١٩١٨ احتلها البريطانيون ، ولا يزالون فيها إلى الآن .

ذلك تاريخ فلسطين العربية ، يدل على أن العرب أول سكانها ، سكنوها منذ ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة قبل الميلاد ، واستمر سكناهم فيها بعد الميلاد إلى اليوم ، وحكموها وحدهم ومع الأتراك ألفا وثلثمائة سنة تقريباً ، أما اليهود فلم تتجاوز مدة حكمهم المتقطع فيها ٣٨٠ سنة ، وكلها إقامات متفرقة مشوشة ، منذ سنة ٣٣٢ قبل الميلاد لم يكن لليهود فى فلسطين أي وجود أو حكم إلى أن دخلت القوات البريطانية فلسطين سنة ١٩١٨ .

ومعنى ذلك أن اليهود منذ ألفين ومئتي سنة لم يكن لهم فى فلسطين عدد ولا نفوذ .

ولما دخل البريطانيون إلى فلسطين لم يكن عدد اليهود فيها يزيد على ثمانين ألفا ، كانوا يعيشون فى رغد وهناء ورخاء مع سكان البلاد الأصليين من العرب ، ولذلك فاليهود لم يكونوا إلا دخلاء على فلسطين فى حقبة من الزمن ، ثم أُخرْجوا منها منذ أكثر من ألفي سنة .

أما الحقوق الثابتة للعرب فى فلسطين فتستند :

١ – على حق الاستيطان الذى استمرت مدته منذ سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، ولم يخرجوا منها فى يوم من الأيام .

٢ – وعلى الحق الطبيعي فى الحياة .

٣ – ولوجود بلادهم المقدسة فيها .

٤ – ليس العرب دخلاء على فلسطين ، ولايراد جلب أحد منهم من أطراف المعمورة لإسكانه فيها .

أما اليهود فإن دعواهم التاريخية إنما هي مغالطة ، ثم إن حكمهم القصير فى فترات متقطعة – كما ذكرنا – لا يعطيهم أي حق فى ادعائهم أنهم أصحاب البلاد ، لأن احتلال بلد ما ثم الخروج منه لا يخوّل أي شعب ادعاء ملكية تلك البلاد ، والمطالبة بذلك ، وتاريخ العالم مملوء بمثل هذه الأمثال .

إن حل قضية اليهود المضطهدين فى العالم يختلف عن قضية الصهيونية الجائرة ، فإن إيجاد أماكن لليهود المشتتين يمكن أن يتعاون عليه جميع العالم ، وفلسطين قد تحملت قسطاً فوق طاقتها ، وأما نقل هؤلاء المشتتين ووضعهم فى بلاد آهلة بسكانها والقضاء على أهلها الأصليين فأمر لا مثيل له فى التاريخ البشري .

وإنا نوضح بصراحة أن مساعدة الصهيونية فى فلسطين لا يعنى خطرا يهدد فلسطين وحدها ، بل إنه خطر يهدد سائر البلاد العربية ، وقد أقام الصهيونيون الحجة الناصعة على ما ينوونه فى فلسطين ، وفى سائر البلاد المجاورة ، فقاموا بتشكيلات عسكرية سرية خطيرة ، ومن الخطأ أن يقال : إن هذا عمل شرذمة متطرفة منهم ، وإن ذلك قوبل باستنكار من جمعياتهم وهيئاتهم .

وإنا نقول : إن أعمال الصهيونيين فى فلسطين وفى خارجها صادرة عن برنامج متفق عليه ومرضيّ عنه من سائر اليهودية الصهيونية ، وقد بدأ هؤلاء

أعمالهم المنكرة بالإساءة للحكومة التى أحسنت إليهم وآوتهم ، وهي الحكومة البريطانية ، فأعلنت جمعياتهم الحرب على بريطانيا ، وأسست لذلك تشكيلات عسكرية خطيرة تملك فى فلسطين فى الوقت الحاضر كل ما تحتاج إليه من الأسلحة والمعدات الحربية ، ثم قام أفرادها بشتى الاعتداءات ، وكان من أفظعها الاعتداء على الرجل الفذ الذى كان ممتلئا بالحب والخير لصالح المجتمع ، وكان من أشد من يعطف على اليهودية المضطهدة ، وهو اللورد مُوين ، ومما يدل على أن فعلتهم المنكرة كانت مؤيدة من جميع اليهود المظاهر والمساعى التى قام بها رجال الصهيونية فى كل مكان فى طلب تخفيف العقوبة عن المجرمين ليجرئوا غيرهم على أمثالها .

فهذه أفعالهم مع الحكومة التى أحسنت إليهم كل الإحسان ، فكيف يكون الحال لو مُكِّنوا من أغراضهم ، وأصبحت فلسطين بلدا خالصا لهم ، يفعلون فيه وفى جوارها ما يريدون ؟ .

ولو ترك الأمر بين العرب وبين هؤلاء المعتدين فربما هان ، ولكنهم محميون من قبل الحكومة البريطانية صديقة العرب ، فاليهودية الصهيونية لم تراع حرمة هذه الحماية ، بل قامت بتدبير حبائل الشر ، وبدأتها ببريطانيا ، وأنذرت العرب بعد بريطانيا بمثلها وأشد منها ، فإذا كانت الحكومات المتحالفة التى تشعر العرب بصداقتها تريد أن تشعل نار الحرب والدماء بين العرب واليهود فإن تأييد الصهيونية سيوصل إلى هذه النتائج .

وإن أخشى ما تخشاه البلاد العربية من الصهيونية هو :

١ — انهم سيقومون بسلسلة من المذابح بينهم وبين العرب .

٢ — ستكون اليهودية الصهيونية من أكبر العوامل فى إفساد ما بين العرب والحلفاء ، وأقرب دليل على ذلك قضية اليهوديين فى مقتل اللورد مُوين فى

مصر ، فقد قدر اليهود أن يخفوا فاعلى الجريمة ، فيقع الخلاف بين الحكومة البريطانية ومصر .

٣ — إن مطامع اليهود ليست فى فلسطين وحدها ، فإن ما أعدوه من العدة يدل على أنهم ينوون العدوان على ما جاورها من البلدان العربية .

٤ — لو تصورنا استقلال اليهود فى مكان ما فى فلسطين فما الذى يمنعهم من الاتفاق مع أي جهة قد تكون معادية للحلفاء ومعادية للعرب ، وهم قدبدأوا بعدوانهم على بريطانيا وهم تحت حمايتها ورحمتها .

لا شك أن هذه أمور ينبغى أخذها بعين الاعتبار فى إقرار السلام فى العالم عندما يُنظر فى قضية فلسطين ، ففضلا عن أن حشد اليهود فى فلسطين لا يستند إلى حجة تاريخية ، ولا حق طبيعي ، وأنه ظلم مطلق ؛ فهو فى نفس الوقت يشكل خطرا على السلم وعلى العرب ، وعلى الشرق الا وسط .

وصفوة القول : إن تكوين دولة يهودية بفلسطين سيكون ضربة قاضيةلكيان العرب ، ومهددا للسلم باستمرار ، لأنه لا بد أن يسود الاضطراب بين اليهود والعرب ، فإذا نفد صبر العرب يوما من الأيام ويئسوا من مستقبلهمفإنهم يضطرون للدفاع عن أنفسهم وعن أجيالهم المقبلة إزاء هذا العدوان ، وهذا بلا شك لم يخطر على بال الحلفاء ، العاملين على سيادة السلم واحترام الحقوق ، ولا نشك أنهم لا يرضون هذه الحالة المقلقة المهددة لسلام الشرق الأوسط .

ما كنت أريد فى هذا المعترك العظيم أن أشغل فخامتكم ورجال حكومتكم العاملين فى هذه الحرب العظمى بهذا الموضوع ، وكنت أفضل — وأنا واثق من إنصاف العرب من قبل دول الحلفاء — أن يستمر سكوت العرب إلى نهاية الحرب ، لولا ما نراه من قيام هذه الفئة الصهيونية اليهودية بكل عمل مثير مزعج ، غير مقدرين الظروف الحربية ومشاغل الحلفاء حق قدرها ، عاملين

للتأثير على الحلفاء بكل أنواع الضغط ليحملوهم على اتخاذ خطة ضد العرب تختلف عما أعلنه الحلفاء من مبادىء الحق والعدل .

لذلك أردت بيان حق العرب فى فلسطين على حقيقته ، لدحض الحجج الواهية التى تدعيها هذه الشرذمة من اليهودية الصهيونية دفعاً لعدوانهم ، وبيانا للحقائق ، حتى يكون الحلفاء على علم كامل بحق العرب فى بلادهم وبلاد آبائهم وأجدادهم ، فلا يسمح لليهود أن ينتهزوا فرصة سكوت العرب ورغبتهم فى عدم التشويش على الحلفاء فى الظروف الحاضرة ، فيأخذوا من الحلفاء ما لا حق لهم فيه .

وكل ما نرجوه هو أن يكون الحلفاء على علم بحق العرب ليمنع ذلك تقدم اليهود فى أي أمر جديد يعتبر خطرا على العرب وعلى مستقبلهم فى سائر أوطانهم ، ويكون العرب مطمئنين من العدل والإنصاف فى أوطانهم .

وتفضلوا بقبول فائق احتراماتى .

عبد العزيز السعود
(الختم الملكي)

وتلقى ابن سعود جواب رسالته هذه من روزفلت وهذا نصها :

البيت الأبيض — واشنطن

٥ إبريل ١٩٤٥

صديقي الطيب العظيم

لقد تسلمت رسالة جلالتكم التى بعثتم بها إليّ بتاريخ ١٠ مارس ١٩٤٥

والتى أشرتم فيها إلى قضية فلسطين ، وإلى المصالح الدائمة للعرب فى استمرار كل ما يؤثر فى رقيّ وتحسين تلك البلاد .

إننى مغتبط أن جلالتكم انتهزتم هذه الفرصة للفت انتباهى لآرائكم فى هذه القضية ، وقد أعطيت أدق الانتباه للبيانات التى أدرجتموها فى كتابكم . وانى أيضا لمفعم الخاطر بالمحادثات التى لا تنسى والتى جرت بيننا منذ أمد غير بعيد ، والتى فى أثنائها تهيأت لى الفرصة لأدرك أي أثر حيّ لآراء جلالتكم فى هذه القضية .

وتذكرون جلالتكم أننى فى مناسبات سابقة أبلغتكم موقف الحكومة الأمريكية تجاه فلسطين ، وأوضحت رغبتنا بألا يتخذ قرار فيما يختص بالوضع الأساسي فى تلك البلاد بدون استشارة تامة مع كل من العرب واليهود ، ولا شك أن جلالتكم تذكرون أيضا إننى فى خلال محادثاتنا الأخيرة أكدت لكم أنى لن أتخذ أي عمل — بصفتى رئيسا للسلطة التنفيذية لهذه الحكومة — يتضح أنه عدائي للشعب العربيّ .

وإنه لمما يسرنى أن أجدد لجلالتكم التأكيدات التى سبق أن تلقيتموها جلالتكم بشأن موقف حكومتى وموقفى كرئيس للسلطة التنفيذية فيما يتعلق بقضية فلسطين ، فى هذا الخصوص ، وأن أؤكد لكم أن سياسة هذه الحكومة فى هذا الأمر لن تتغير .

وأود فى هذه الفرصة أن أبعث إليكم بأحسن تمنياتى بدوام صحة جلالتكم ورفاهية شعبكم

صديقكم الحميم

(التوقيع)

فرنكلين . د . روزفلت

إلى حضرة صاحب الجلالة ، عبد العزيز بن الرحمن آل فيصل آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية . الرياض

* * *

واذا كان لنا تعليق على رسالة ابن سعود فإنه أوجز ما يقال : إنه كان ملهما تقشع عن بصيرته حجاب المستقبل فذكر ما وقع بعد أن قال ما قال بسنوات كثيرة ، فقد قال : ان اليهود سيقومون بسلسلة من المذابح ، وهذا قد وقع ، وذكر ابن سعود أن ما قد أعده اليهود يدل على أنهم ينوون العدوان على البلدان العربية المجاورة .

قال ابن سعود ذلك قبل أن يتأسس لليهود دولة ببضع سنوات ، ولما أقيمت الدولة أخذ ما ذكره ابن سعود قبل وقوعه يقع تباعا حتى كانت كارثة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ التى انتهت باحتلال اليهود أراضي عربية من سوريا ومن مصر ومن الأردن .

ولم تقف جهود ابن سعود على المكاتبات بينه وبين حكام امريكا وبريطانيا ، بل تجاوزها إلى الصلات والمقابلات الشخصية ، فعندما قابل ابن سعود روزفلت كان أكبر اهتمامه وقفا على قضية فلسطين ، وبحثت معه بحثا مجردا عن الهوى ، واستطاع أن يقنع روزفلت بحق العرب وعدالة القضية .

وقد مر بالقارىء اسم « هوبكنز » الممثل الشخصي للرئيس روزفلت الذى بعثه إلى ابن سعود ، وهوبكنز صديق روزفلت ، وكان فى صحبته إلى مؤتمر يالطة الذى جمع بين روزفلت وتشرشل وستالين قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وقد دون هوبكنز فى « مذكراته » المطبوعة اجتماع ابن سعودوروزفلت وما جرى بينهما من أحاديث ، لأنه كان فى صحبة الرئيس الامريكى ، وعلم بكل ما دار بين الزعيمين الكبيرين ودونه ، وما جاء فى « مذكراته » لا يخرج عما جاء فى المحاضر الرسمية التى تحتفظ وزارة الخارجية السعودية بنسخة منها ، وهذا ما ذكره هوبكنز :

« لقد كتب شيء كثير عن المظهر العامّ لاجتماعات الرئيس بالثلاثة : الملك عبد العزيز ، والملك فاروق ، وملك الحبشة . ولكن الأمر الجدير حقيقة بالاهتمام من تلك الاجتماعات أو المؤتمرات هو المناقشة التى دارت بين الرئيس وابن سعود بشأن فلسطين ، فلقد كانت قصيرة وحاسمة .

« وانى على يقين من أن الرئيس لم يكن يتوقع أن يرى فى ابن سعود الذى طلب مقابلته ما رآه فيه ، فهو رجل ذو مهابة خارقة ، وقوة عظيمة ، ولد جندياً وقضى حياته كلها فى خوض المعارك التى تلذّ له ولكل أتباعه الكارهين لليهود ، وهو عربي من أوله إلى آخره ، وفى كل وقت .

« وعندما طلب الرئيس من ابن سعود السماح بدخول عدد آخر من اليهود إلى فلسطين مبيّناً له أن عددهم ضئيل بالنسبة إلى مجموع سكان الأقطار العربية صُدم صدمة عنيفة بإجابة ابن سعود له ، وعلا وجهه العبوس قائلاً : لا ، ثم أبان أنه بنى رفضه على أساس الحقيقة التالية : وهي أن اليهود لم ينجحوا فى العمل على ازدهار المنطقة التى يسكنونها إلاّ بفضل رؤوس الأموال الأميركية والإنكليزية التى تدفقت عليهم بملايين الدولارات ، وقال : لو أن هذه الملايين أعطيت للعرب لأمكنهم أن يعملوا مثل عملهم .

« وذكر عبد العزيز لروزفلت : أن هناك جيشاً إسرائيلياً فى فلسطين كامل التسليح يريدون به فيما يعتقد محاربة العرب لا محاربة الألمان .

« وأوضح ببساطة أن العالم العربي لن يسمح لليهود بأيّ توسّع آخر فى فلسطين للتوطن فى المستقبل .

« وأكد بوضوح أن العرب سيحملون السلاح قبل أن يوافقوا على هذا الأمر ، وأن دينه يوجب عليه العمل معهم فى فلسطين وحولها .

« ويظهر أن الرئيس لم يفهم كل الفهم ما كان يقوله ابن سعود ، فقد أعاد

عليه السؤال مرّتين أو ثلاث مرات ، وكان ابن سعود فى كل مرة أشدّ تصميماً مما قبلها فى إجابته .

ولا شك فى أن ابن سعود ترك أثراً كبيراً فى نفس الرئيس بأن العرب ينوون العمل لا مجرّد القول » .

وردد هوبكنز قوله : « إن الرئيس قد تأثر جد التأثر بما قاله ابن سعود » وقال : « لا يمكننى أن أستسيغ تصريح الرئيس فى مؤتمر صحفي عقب ذلك بأن ما عرفه من ابن سعود عن فلسطين فى خمس دقائق أكثر مما عرفه فى حياته كلهـــا » .

وبعد عودة الرئيس روزفلت إلى واشنطن صرح فى « الكونجرس » يوم أول مارس ١٩٤٥ بقوله :

« فى طريق عودتى من بلاد القرم اتخذت التدابير لأقوم بمقابلة شخصية للملك فاروق ملك مصر ، وهيلاسلاسى امبراطور أثيوبيا ، والملك ابن سعود ملك المملكة العربية السعودية ، وقد تناول حديثنا من المسائل ما يتصل بالمصلحة المشتركة . وسيكونون ذوى نفع مشترك ، لأنهم منحونى كما منحوا كثيراً منا فرصة مقابلتهم والتحدث إليهم وجهاً لوجه ، ومبادلتهم الرأي فى أحاديث خاصة بدلا من الوسائل الرسمية .

فقد وعيت — مثلا — عن مسألة الجزيرة العربية تلك المشكلة بحذافيرها : مشكلة المسلمين ومشكلة اليهود ، وعيت عنها فى حديث دام خمس دقائق مع ابن سعود أكثر مما كنت أستطيع معرفته بتبادل ثلاثين أو أربعين رسالة » .

وقد جاء فى كتاب « خمسون عاما فى الجزيرة العربية » للشيخ حافظ وهبة (صفحة ٦٨) قوله : « وفيما يلى نص ما دار بينهما » ثم ذكر الحديث الذى

جاء بنصه الاستاذ خير الدين الزركلي في كتاب « شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز » (صفحة ١١٦٥ — ١١٦٦) ذكر أنه رأى في إضبارة بوزارة الخارجية بجدة في موضوع المقابلة ما نصه حرفيا ، وكلا المؤلفين تيسر لهما الاطلاع على المكاتبات والوثائق الرسمية بوزارة الخارجية بحكم عملهما فيها ، ونحن ننقل عنهما وعن غيرهما ما جاء في هذا الفصل من المكاتبات والتصريحات والوثائق مما يتعلق بقضية فلسطين ، وها هو ذا ما جاء في هذين المرجعين :

« سأل فخامة الرئيس روزفلت جلالة الملك عن نصيحته فيما يراه بخصوص قضية هجرة اليهود الذين أُجلوا من أوطانهم في أوربا ، فردّ جلالته على فخامته بقوله : من رأيي أن يعود اليهود المقصَوْن عن بلادهم ليعيشوا في البلدان التي أخرجوا منها ، أما اليهود الذين دمرت أوطانهم تدميراً تاماً ، والذين لا تواتيهم الفرص لأن يعودوا للعيش في أحضانها فيجب أن يعطَوْا أماكن يعيشون بها في أراضي دول المحور التي اضطهدتهم .

« وقد لاحظ فخامة الرئيس أن بولندا يمكن أن تعتبر مثالاً في هذا الصدد ، إذ يبدو أن الألمان قتلوا من سكانها ثلاثة ملايين يهودي بولندي ، وهذا معناه وجوب إيجاد أماكن لكثير من هؤلاء اليهود الذين أصبحوا بلا مأوى .

« وحينئذ عبر جلالة الملك عن وضع العرب وحقوقهم الشرعية في بلدانهم ، ثم صرح بأن العرب واليهود لا يمكن أن يتعاون بعضهم مع بعض لا في فلسطين ولا في أي بلد آخر ، واسترعى جلالته الانتباه إلى تهديد حياة العرب ، وتفاقم الأزمة الناجمة عن استمرار الهجرة اليهودية ، وشراء اليهود الأراضي العربية ، وزاد على ما تقدم أن العرب يختارون الموت على أن يسلموا بلادهم لليهود ، وأن أمل العرب مبني على كلمة الشرف التي قالها الحلفاء ، وعلى الحقيقة المشهورة لدى الجميع من حب الولايات المتحدة الأميركية للعدل ، وعلى ما أناط العرب من الرجاء والأمل في الولايات المتحدة الأميركية لمعونتهم ومساعدتهم .

« وقد ردّ فخامة الرئيس على ذلك بأنه يودّ أن يؤكد لجلالته أنه لن يعمل أيّ شيء يساعد به اليهود ضد العرب ، وأنه لن يعمل أية حركة عدائية نحو العرب ، وذكر لجلالة الملك أنه من المستحيل أن يمنع الكلام أو إبداء الآراء فى البرلمان الأميركي أو فى الصحافة الأميركية فيما يتعلق بأيّ موضوع ، وأن تأكيداته تعتبر سياسته المقبلة نفسها كسلطة تنفيذية لحكومة الولايات المتحدة الأميركية .

« وقد شكر جلالة الملك الرئيس على هذه التأكيدات ، وذكر لفخامته المشروع الرامى الى إرسال وفد عربي إلى كل من أميركا وبريطانيا لتوضيح قضية العرب بفلسطين ، فقال فخامته : إنه يرى أنها فكرة جيدة جداً ، لأنه يعتقد أن كثيراً من الناس فى أميركا وانكلترا يجهلون ذلك ، فقال جلالة الملك : إن إرسال وفد عربي لتنوير الرأي العام عن قضية العرب فى أميركا وانكلترا فكرة صائبة ومفيدة ، ولكن الأهمّ من كل ذلك عنده هو ما صرّح به فخامته الآن لجلالته فيما يتعلق بسياسته الطيبة تجاه العرب .

« وتكلم الرئيس عن حبه الشديد للزراعة ، وأنه نفسه كان مزارعاً ، ولاحظ الحاجة إلى إيجاد المياه الكافية لزيادة الأراضى التى يمكن زراعتها وريهابالآلات لتقوم بريّ البلاد ، وعبر عن رغبته الخاصة فى الريّ وتشجير الأرض ، وقوة المياه التى يؤمل أن تنتشر بعد الحرب فى كثير من البلدان ومن بينها بلاد العرب الذين يحبهم ، وشكر جلالة الملك فخامته على تشجيعه الخاص للزراعة ولكنه قال : إنه شخصياً لا يرى الارتباط بشيء بشأن الزراعة إذا كانت النتيجة ستكون بتغلب اليهود فى بلاد العرب .

(٢ ربيع الأول ١٣٦٤ (١٥ فبراير ١٩٤٥)

وهناك تفصيل أدق لما دار بين ابن سعود وروزفلت دونه الكولونيل وليم إدى الذى كان حينئذ الوزير المفوض الامريكي بجدة فى كتيب نشره وطبعه ،

ولا أستطيع أن أشير إلى طبعته وسنة صدوره ، لأنه بخزانة كتبي بمكة المكرمة حرسها الله ، وأنا أكتب هذا الفصل وأنا بلبنان ، وقد نشر موجزه فى بعض الصحف وبعض الكتب ، وأنا أنقل عنهما ما يخص المقابلة بين الزعيمين .

لما كان ابن سعود ضيف روزفلت الذى طلب المقابلة فقد أمسك عن تحديد الموضوعات التى يراد بحثها ، بل ترك ذلك للرئيس الامريكي .

وبعد حديث فى الحرب ونتائجها ذكر روزفلت لابن سعود : أن فى باله أمرا عظيما يشغله ، ويرغب فى استشارته ويطمع أن يكون له عونا فى حله ، وهذا الأمر هو قضية إنقاذ بقايا اليهود فيأوربا ، وإعادة توطينهم بعد أن عانوا من العذاب على يد النازيين الذين اضطهدوهم وشردوهم وخربوا ديارهم وقتلوهم بالجملة » وأنه (أى روزفلت) يشعر بمسئولية شخصية حيالهم ، وأنه مصمم على أن يبذل العون لحل مشكلتهم . وسأل روزفلت الملك السعودي رأيه فى ذلك .

وأجابه ابن سعود جوابا موجزا وسريعا إذ قال له : هذا حسن ، أعطوا اليهود وأحفادهم أحسن بيوت الألمان وأراضيهم ، أليس الألمان هم الذين اضطهدوا اليهود — كما تذكرون — اذن ، هم الذين يُغَرَّمون .

فرد عليه روزفلت : إن للناجين من اليهود رغبة عاطفية فى سكنى فلسطين ، وأنهم يخشون — عن حق — الاقامة فى المانيا خوفاً من تكرار العذاب الذى أصابهم .

فقال ابن سعود : إننى أعرف أن لليهود أسبابا تمنعهم من الثقة بالألمان ، إلا أنه يعرف حق المعرفة أن الحلفاء سيقضون القضاء التام على قوة النازيين إلى الأبد ، وسيكون نصرهم عزيزا بحيث يبسط الحماية على ضحايا النازية ، وإذا كان الحلفاء لا ينوون أن يشرفوا بحزم على سياسة ألمانيا فى

المستقبل فلماذا يخوضون مثل هذه الحرب ذات الثمن الفادح ؟ إنى – شخصياً – لا أتصور عدوى فى مركز يسمح له بأن يرد الضربة بعد هزيمته ، ولا أستطيع أن أترك له قائمة تقوم ! .

ولم ينل الرئيس روزفلت مطلبه ومتمناه من ابن سعود فعاد إلى مطلبه نفسه بأسلوب آخر وقال : إنى أعتمد على الكرم العربي ، وعلى الملك عبد العزيز فى حل المشكلة الصهيونية ، فأجابه ابن سعود قائلا : دع العدو الظالم يدفع الثمن ، وعلى هذا الأساس نحن العرب نخوض الحرب ، فالمجرم هو الذى يجب أن يؤدى الغرامة وليس المتفرج البريء ؟ .

ثم قال ابن سعود فى أسلوب الاستفهام : أي شر ألحقه العرب بيهود أوربا ؟ إنهم المسيحيون الألمان الذين سلبوهم أموالهم وأرواحهم ، اذن ، فليدفع الألمان الثمن ! .

وعاد الرئيس الامريكي إلى الموضوع ليشكو من أن العاهل السعودي لم يمده بعونه لحل هذه المشكلة .

ويقول وليم إدى : يبدو أن صبر العاهل السعودي قد نفد بعض الشيء فقال بشيء من الحدة : إنه كبدوي غير متعلم لا يفهم مقصد الرئيس من عدم إلزام الألمان بالتعويض على اليهود ! .

وأنهى العاهل السعودي حديثه قائلا : إن من تقاليد العرب توزيع الضحايا الناجين من المعركة على العشائر المنتصرة وفقاً لعدد كل عشيرة ، وبمقدار ما سمحت به من ماء وطعام فى تموين المحاربين ، وقال : إن فى المعسكر الحليف خمسين بلدا أصغرها وأفقرها فلسطين التى عهد إليها بأكثر مما تطيق من اللاجئين الأوربيين .

ويذكر وليم إدى أن الرئيس روزفلت أكد لابن سعود أنه – بصفة كونه

رئيساً للولايات المتحدة ــ لن يفعل شيئاً من شأنه أن يكون عدائيا للعرب ، وإن حكومة الولايات المتحدة لن تغير من سياستها الأساسية حيال فلسطين دون مشاورات سابقة وكاملة مع كل من العرب واليهود .

* * *

ونغمة اضطهاد اليهود التى يرددها المسئولون الأمريكيون والبريطانيون والصحافة البريطانية والأمريكية تدل على سوء نياتهم جميعاً ، فمنهم من يعرف أن الاضطهاد كما تصوره الصهيونية غير واقع ، ولكنهم يؤيدون الصهيونيين الظلمة بكل ما يملكون ، وبخاصة ونستون تشرشل ، وأما روزفلت فيبدو لى من محادثته مع الملك عبد العزيز أنه طيب القلب سليم النية ، وقد خدعته الدعاية الصهيونية فاعتقد أن اليهود مضطهدون ، وغفل عن الاسراف فى المبالغة ،وعن أسباب الاضطهاد .

واليهود لم يكونوا مضطهدين ابتداء ، بل هم الذين يدفعون الناس دفعاً شديداً إلى أن يقفوا منهم موقف العداء بأعمالهم الهدامة ، ولكن مهارةالصهيونية أثبتت فى أذهان كثير من السياسيين أن اليهود مضطهدون .

وعندما ذكر روزفلت للملك عبد العزيز اضطهاد اليهود لم يجابهه بالرد الذى يفحم ، لأنه ضيف لا يريد أن يسىء إلى مضيفه ، فوافقه ــ جدلا ــ وذكر له أن حق المضطَهَد على مضطَهِده وظالمه ، لا على الأبرياء ، وإذا كان الألمان اضطهدوا اليهود وسلبوا لهم أموالهم وأخرجوهم فعلى اليهود أن يرجعوا على الألمان وحدهم .

ومن الظلم الذى لم يقع فى تاريخ البشر حتى اليوم أن يكون العرب محل النقمة والظلم والاستئصال والضراوة والفتك من قبل اليهود والغرب ، مع أن العرب كانوا الوحيدين فى جميع فترات التاريخ الذين أحسنوا إلى اليهود ،

وفى الوقت الذى كان المسيحيون يضطهدون واليهود اليهود يجدون فى ظل ظل السيادة الاسلامية الحرية التامة والأمن الكامل والعدل والرحمة والانصاف، ولكنهم يهود وحسب .

وقد بلغت الدعاية الصهيونية من المهارة أن المسئولين الألمان بعد عهد هتلر اعتقدوا أن ألمانيا الهتلرية اضطهدت اليهود حقيقة ، فهم يكفِّرون عن جرائمها ضد اليهود بتعويضهم بالمال والسلاح وكل أنواع المعونات .

وقد فندت فرية « اضطهاد اليهود » عندما كنت فى ألمانيا ، وأرى أن أعيد نشر ما قلت فى التفنيد من كتابى « اليهودية والصهيونية » الذى صدر منذ شهور ، وها هوذا النص :

« فى صباح يوم الأحد ٢٩ شعبان ١٣٨٩ (٩ نوفمبر ١٩٦٩) كان فى البرنامج الذى أعدته الاذاعة الالمانية لى مقابلة مسؤول فى وزارة الاعلام الالمانية فى برلين .

« وكان مرافقى الاستاذ مروان الشوربجي — وهو سوري من دمشق ومن كبار موظفى الاذاعة الالمانية بالقسم العربي ، والمعلق السياسي بها — وهو الذى يقوم لى بالترجمة ، وهو ذو خلائق فاضلة .

« بدأت زيارتى إياه بمكتبه فى الساعة العاشرة صباحاً ، ودامت المقابلة ثلاث ساعات شغلها الحديث فى الشيوعية والصهيونية واليهود ودولة اسرائيل وقضية فلسطين .

« ولم يكن المسئول الالماني متعصباً لليهود ، بل أستطيع أن أقول : انه كان صديقاً للعرب .

« وقال المسئول الالماني : الواقع أن قضية الأسلحة التى قدمتها ألمانيـــــا

لاسرائيل لم تكن فى صالح الشعب الالماني ، ولم يكن المسؤولون الالمان — غير المستشار السابق ووزير الدفاع الالماني — على علم بها،وإن البرلمان الالماني استنكر صفقة الأسلحة التى تمت بين إسرائيل ومستشار ألمانيا السابق ووزير خارجيته .

« ثم قال : إن الشعب الالماني لا يخلو من شذوذ ، ومن هذا الشذوذ أنه لا يعرف الوسط ، فهتلر اضطهد اليهود وقتلهم بالجملة ، وهذا اندفاع شاذ ، واضطر الشعب الألماني الى دفع التعويضات ، لأن هتلر قتل اليهود ، وصادر أملاكهم وأموالهم ، وشعر الشعب الألماني بالإثم الفظيع ،وأراد أن يكفّر عن خطيئته فدفع لليهود تلك التعويضات الضخمة ، ومن بينها الأسلحة .

« فأجبته : لنفرض أن هتلر اضطهد اليهود ، وقتلهم بالجملة ، وشعر الشعب الألماني بالإثم ، وصمم على التكفير ، واستعد بدفع التعويضات عن أرواح اليهود وأموالهم وأملاكهم المصادرة ، أترى أن هتلر صادر لهم أسلحة ومعدات حربية ؟ إن تكفيرهم عن إثم مفتعل بإثم أشد وأفظع يحتاج الى تكفير ! إنكم شعرتم بالإثم لأن هتلر قتل آلاف اليهود ، وأنتم أبحتم لليهود أن يقتلوا آلاف الأبرياء المدنيين الذين لم يؤذوا أحداً بالأسلحة التى دفعتموها لهم .

« وإذا كان هتلر قتل آلاف اليهود ، أفترى هؤلاء اليهود كانوا أبرياء .

« إنى لا أُدافع عن هتلر ، فهو ليس أهلاً لأن أُدافع عنه ، ولكنى أجعل التاريخ هو الذى يذكر لك الحقائق ، فاليهود فى المانيا لم يكونوا يوما بارين بوطنهم الألماني ، بل كانوا مع أعدائه دائماً ، وهم سبب هزيمته فى حربين كبريين .

« وما يزال اليهود حتى اليوم يعادون المانيا الغربية ، وإذا كانوا يتظاهرون لها بترك العداء السافر فسببه حاجتهم إلى أموال المانيا وأسلحتها ومساعداتها .

« واليهود دائماً يبالغون ، فإذا طلبت إليه حقاً من حقوقك وكان غير راغب

فى الوفاء به هاج وماج ، وصاح : قف ، هنا لا سامية ، هنا حرب لليهود .

« وأنتم باعترافك تبالغون ، وتسرفون ، والاسراف فى الشعور بالإثم المكذوب دفعكم إلى تضخيم التعويضات ، وإلى دفع الأسلحة والمعدات الحربية لليهود .

« إنكم تزعمون أنكم أصدقاء العرب ، أما العرب فقد كانوا وما يزالون أصدقاءكم ، ووقفوا معكم فى الحربين ، وكانوا معكم دائماً ، وانهزمت دولة المسلمين وخلافتهم حتى أُزيلت الخلافة من الوجود وكسرت شوكة المسلمين في الأرض بسبب وقوفنا معكم .

« واليهود وقفوا ضد الشعب الالماني ، وكانوا من أسباب هزيمته النكراء فى حربين كبريين وقبلهما ، وعد إلى تاريخ ألمانيا فستجد أن اليهود الالمان كانوا ضد ألمانيا فى كل فترات تاريخها .

« ومع ذلك جحدتم فضل العرب والمسلمين ، وهم أصدقاء لكم ، وأيدتم اليهود وقدمتم لهم الأسلحة التى قتلوا بها أصدقاءكم العرب والمسلمين ، قتلوا بها الأطفال والرضع والنساء والعجزة ، أيدتم اليهود وهم أعدى أعدائكم .

« ثم ان اليهود لم يضطهدهم هتلر إلى الحد الذى بالغ اليهود فى تصويره ،ولم يذكر عنه أنه قتل أطفال اليهود ، ولكن أسلحتكم التى أعطيتموها اليهود قتلت مئات الأطفال العرب .

« ثم زعم المسؤول الألماني بوزارة الاعلام أن اليهود قد اضطهدوا على مر التاريخ ، وان آلاف اليهود هاجروا من المانيا بسبب الاضطهاد الهتلري كما هاجروا من غير المانيا ، وفلسطين وطن اليهود الأصلي ، فإذا هاجروا إلى فلسطين فقد عادوا إلى وطنهم القومي ، ولكننا لا نوافق على إخراج العرب من ديارهم فى فلسطين ، ويجب أن يعيش العرب واليهود فى فلسطين بسلام .

« فقلت له : إننى أتحدث إليك حديثاً تدعمه الحقائق ، أما أنت فتحدثنى حديثاً بعيداً عن الحق ، فاليهود لم يضطهدهم أحد فى التاريخ كله ، بل هم الذين نكبوا الشعوب التى عاشوا فى أوطانها ، ووسعتهم بفضلها وخيراتها .

« وأما أن فلسطين وطن قومي أصيل لليهود فذلك زعم مردود ، فاسم فلسطين يثبت أنها ليست لليهود ، ولم تكن مدينة القدس موضعاً دينياً لهم .

« فإبراهيم عليه الصلاة والسلام الذى يدعى نسبته إليهم ، وهو أبو كل رسلهم لم تكن فلسطين وطناً لهم ، فهو نفسه عليه الصلاة والسلام قد هاجر من العراق إلى فلسطين ، وسكن مع أهلها الأصلاء ، ولم يملك فيها شبراً من الأرض ، ولما توفيت زوجه سارة لم يكن يملك قبراً يدفنها فيه ، فاشترى من عفرون الحثي فى جبل صهيون مكاناً دفن به زوجته ، وارجع إلى سفر التكوين تجد ذلك .

« والتوراة نفسها تثبت أن فلسطين أرض الكنعانيين ، وليست لليهود ، بل اليهود يعترفون انهم هاجروا إليها وشاركوا أهلها السكن ، وكان اليهود عشائر غير متحضرة ، وكانوا منحطين عقلياً وثقافياً ، ولم تكن لهم مملكة ولا دولة ، بل كان لكل عشيرة شيخ يسمى قاضياً ، ومشهور فى التاريخ أن عصر القضاة هو أول عصورهم فى فلسطين .

« وهاجر يعقوب وأولاده الى مصر حيث وجدوا الأمن والرخاء ، وعاشوا تحت حكم الفراعنة ، ولسوء نيات اليهود وفساد أخلاقهم اضطهدهم الفراعنة ، فقرروا الهجرة ، ولم تكن فلسطين مقصدهم لأنها وطن قومي ، أو مكان ديني لهم ، فهاجروا مع موسى عليه الصلاة والسلام الى الشرق من مصر ، ولكنهم لم يدخلوا أرض فلسطين إلا بعد أربعين سنة ، وبعد موت موسى .

« ولم تكن لليهود دولة إلا لفترة قصيرة من سنة ١٠٢٠ قبل الميلاد الى سنة

٩٢٣ قبل الميلاد ، وهي الفترة التي حكم فيها أول ملوكهم شاوول ثم داود وسليمان ، وبعد وفاة سليمان انقسمت المملكة قسمين : مملكة اسرائيل ، ومملكة يهوذا ، ولم تكن المملكة الموحدة إلا فى جزء صغير من فلسطين ، وأما المملكتان فكانتا صغيرتين ، وانتهى حكم الدولتين فى فترتين ، فمملكة اسرائيل وعاصمتها السامرة انتهت فى أوائل القرن الثامن قبل الميلاد ، ومملكة يهوذا انتهت فى أواخر القرن السادس للميلاد .

« ثم يجب أن نلاحظ أن اليهود قد نفوا وهاجروا من فلسطين بأعداد كبيرة ، ومن بقي منهم فى فلسطين كانوا فى أحط الدركات .

« فأرض فلسطين ليست وطناً قومياً لهم ، وهيكل سليمان لم يكن مقدساً لدى اليهود جميعاً ، فقد هدمه أحد ملوك اليهود كما تذكر أسفارهم المقدسة .

« لا حق لليهود فى فلسطين ، لا من ناحية الدنيا ولا من ناحية الدين .

« وأما خرافة اضطهاد اليهود فيجب فهمها على حقها ، وعلى سبيل المثال : من الذى اضطهد اليهود فى مصر فى عهد موسى ؟ وما أسبابه ؟ إن الشعب المصري لم يضطهدهم ، بل كانوا على وفاق معه ، بدليل نجده فى سفر الخروج أحد أسفار التوراة ، فهو يذكر أن بنى اسرائيل استعاروا من المصريين مصوغات ذهبية وفضية وملابس وهربوا بها ، ولو كان المصريون أعداء اليهود لما أعاروهم نفائسهم .

« وما يدعيه اليهود من اضطهاد الشعوب إياهم كذب ، فهم الذين يضطهدون الجوييم ، والجوييم غير اليهود ، يتاجر اليهود فى كل بلد أكرمهم أهله بأرزاقه ويحتكرونها ، ويسلبون الناس أموالهم وأملاكهم ومزارعهم بوساطة القروض الربوية ، ويعزلون أنفسهم فى كل بلد عن أهله ، فلا يؤاكلونهم ، ولا يشاركونهم فى ضرائهم ، بل ضراؤهم ناجمة من اليهود .

« إن اليهود حتى اليوم هم الذين يضطهدون الشعوب الأخرى ، ولا تدل الهجرة اليهودية الى فلسطين على اضطهاد الناس إياهم ، بل سياسة زعمائهم ورغبتهم فى حشد اليهود بفلسطين هى التى دعتهم الى تهجيرهم .

« ونكتفى بألمانيا مثالاً نسوقه ، فالمعروف المستقر فى أذهان الناس أن الهتلريين اضطهدوا اليهود فاضطروا الى الهجرة فرارا من اضطهاد النازيين ، ولكن الواقع غير ذلك ، فقد كان للوكالة الصهيونية مكتب رسمي فى برلين ، يرعى شؤون يهود ألمانيا ، وله فروع فى مدنها ، وعلاقته بالجستابو علاقة وثيقة ، وأنت تعرف — ولا شك — شارع « ماين شستراس » فى برلين ، ففى هذا الشارع يقع المكتب اليهودي الصهيوني ، وكان يحتل العمارة رقم ١٠ قبل هدم برلين ، وفى أيام هتلر .

« وكان مدير هذا المكتب يهودياً صهيونياً مشهوراً فى أوروبا يدعى جلعاد.

« وكان هذا المكتب يقوم بترحيل اليهود الألمان الى أوروبا وأمريكا وفلسطين .

« وكان اليهود المهاجرون ذوى صحة حسنة ، ويخرجون ومعهم أموال طائلة ينقلونها معهم الى البلدان التى يهاجرون اليها .

« أفيتفق هذا مع الاضطهاد ؟ .

« إن المضطَهَد لا يكون موفور الصحة ، حراً فى نقل أمواله .

« فرد المسؤول الألماني قائلاً : إننى أسمع هذه الحقائق لأول مرة ،وسأرجع الى المصادر التى ذكرتها ، وإلى الوثائق الرسمية والكتب التى ذكرت هجرات اليهود لأتزود منها بمعلومات أكثر ، وأعدك أننى سأرفع الى المسؤولين الكبار كل ما ذكرت .

* * *

« ومضت ثلاث ساعات فى الحديث بينى وبين المسؤول الألماني وقلت له : إننى لم أذكر لك كل ما أعلم مما يتصل باليهود والصهيونية ، وما ذكرته إنْ هو إلا عناوين ومن الذاكرة ، ولم أكن مستعداً للبحث العلمي الشامل فى موضوع اليهود ، ومع ذلك ففيما ذكرت بعض الغناء لمن يريد أن ينصف العرب والمسلمين وشعب فلسطين .

« وقلت له فى ختام الحديث : إنكم تزعمون أن النازيين صادروا أملاك اليهود وأموالهم فى ألمانيا ، لنفترض صحة هذا الزعم ، ولنفترض أن لهم الحق فى التعويض ، وأنا أوافق جدلاً على أن ذلك حق ، فأنتم أعطيتم دولة إسرائيل الأموال بدلاً من أموالهم وأملاكهم ، أفترى أن النازيين صادروا من اليهود أسلحة ومعدات حربية حتى تعطونهم إياها ؟ .

« ثم إنك تعترف بأن الشعب الألماني والحكومة لم يكونا على علم بصفقة الأسلحة التى تمت بين إسرائيل ومستشاركم السابق ووزير دفاعه ،ولم يوافق الشعب والحكومة عندما علما بهذه الصفقة ، وهذا يدل على أن العملية مريبة وغير شرعية ، وإلا لما استنكرتم .

« فوافق المسؤول الألماني على كل ما قلت ، ورجا أن تكون العلاقات بين ألمانيا والعرب حسنة فى الحاضر والمستقبل .

والحق أن الشعب الألماني المعروف بالشجاعة والكرم يكره اليهود لما طبعوا عليه من اللؤم والخسة وكراهيتهم لكل شعوب العالم » .

فاضطهاد اليهود فرية وليست حقيقة ، ولكن السياسة الاميريكية واقعة تحت تأثير الصهيونية التى لها نفوذ يجبر كل من يرشح نفسه للرئاسة والرئيس الذى يرغب فى إعادة ترشيحه يستجديان اليهود أصواتهم فيتحكمون فيهما ، وينتزعون منهما الوعد بتأييدهم ، ولا يكتفون بالتأييد ، بل ينتزعون منهما

الوعد بمعاداة العرب ، فاذا الرئيس المنتخب أو المعاد انتخابه ينقلب صهيونيا ، وهذا ما رأيناه فى ترومان وفى جونسون وفى نيكسون — الرئيس الحالي — وسنراه فيمن يخلفه ، ولن يخرج أحد من رؤساء الولايات المتحدة عن قبضة الصهيونية ، فهذا ماكجوفرن منافس نيكسون على منصب الرئاسة يعلن فى خطابه أنه مع اسرائيل ضد العرب ليعطيه يهود الولايات المتحدة أصواتهم فيفوز بمنصب الرئاسة .

* * *

ونعود إلى ما بعد الحرب الكبرى الثانية ، إلى سنة ١٩٤٦ لنرى موقف ترومان رئيس الولايات المتحدة الذى خلف الرئيس روزفلت ، فاذا هو يسفر عن عداء أصيل وحقد بشع على العرب ، فيؤيد الصهيونية أيما تأييد ، ويخضع لها خضوعاً تاماً ، ويبدأ عهده بكتاب يرسله الى رئيس الحكومة البريطانية يؤيد فيه تقرير اللجنة الانجليزية الأمريكية ، ويدعو إلى تنفيذه ، ولا يكتفى بذلك بل علمن صهيونيته .

وموقفه ينقض موقف سلفه الرئيس روزفلت الذى وعد ابن سعود وعودا ياعترف بها الامريكيون أنفسهم ، فيتصدى له ابن سعود ويعارض قرار اللجنة وكل من أيدوه، فتضطر لجنة التحقيق الانجليزية الامريكية إلى زيارته بالرياض — وهي مؤلفة من السير جون سنجلتون رئيسا ومن كل من الميجر مانتجهام بولر والمستر باكستون عضوا وقابلوا ابن سعود فى ١٦ ربيع الآخر ١٣٦٥ (٩ مارس ١٩٤٦) وبدأ رئيس اللجنة الحديث قائلا :

« إن اللجنة — كما يعلم جلالة الملك — قد أوفدتها الحكومتان البريطانية والأميركية رغبة فى الوصول إلى حل مرض لمشكلة فلسطين الحاضرة ، وبعد انتهائها من زيارة مختلف البلدان العربية وغيرها ستقدم ما يتجمع لديها من معلومات وتقارير إلى الحكومتين البريطانية والأميركية ، وتنحصر مهمتها فى

معرفة ما لدى الجميع لتقدم تقريرها إلى الحكومتين المذكورتين ، وليس لها أن تتعدى ذلك ، كما أنه ليس من اختصاصها أن تؤيد فريقاً دون آخر ، أو أن تفصل فى القضية بحكم فى مصلحة قوم دون آخرين .

وقال : « إنهم يشكرون الملك عبد العزيز على قبوله لهم ليسمعوا آراء جلالته الشخصية فى الموضوع » .

فأجابهم : إن أمر فلسطين يشغل باله ويهمه ، لأنه عربي ومسلم ، والعربي للعربي ، والمسلم أخو المسلم ، وهو والعرب أصدقاء للحلفاء ، فمن مصلحة العرب مسلمين ومسيحيين دوام الصداقة والاتفاق مع الحلفاء ، وإن هذه الصداقة وهذا الاتفاق من مصلحة الحلفاء أيضا ، وذكر أنه نصح العرب والمسلمين وبخاصة مسلمى الهند بأن يكونوا على اتفاق مع بريطانيا ، لأن فى ذلك مصلحة لهـــم .

وتابع حديثه قائلاً : « إن قضية الصهيونية فى فلسطين تهم المسلمين والعرب بصورة عامة وتهمنى بصورة خاصة ، وإن العداوة التى بين اليهود والمسلمين ليست وليدة عهد جديد ، وإنما هي نتيجة عداء تاريخي قديم يرجع إلى آلاف السنين ، وقد ذكرها الله فى كتابه حيث قال : ﴿ لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ وإن ما جاء فى هذه الآية الكريمة هو عماد سياستنا وسياسة المسلمين الدينية .

وأما الذى يهمنى بصورة خاصة فى هذه القضية زيادة عما يهم غيرى من المسلمين والعرب فهو أننى من العرب وللعرب ، والمسلمون يعرفون ديانتى وتمسكى بأحكام الإسلام ، وما أقوله عنهم يقبلونه منى لحسن ظنهم بى ولما يعرفونه من صدق نيتى وتمسكى بعقيدتى » .

ثم قال : « اليهود أعداؤنا فى كل مكان ، وهم فى كل بقعة يأتون إليها يفسدون ويعملون ضد مصلحتنا ، وإنى لعلى يقين — أولاً — من أن اليهود الصهيونيين لا يدخرون وسعاً فى إحداث الاختلافات بين العرب وصديقتيهم بريطانيا وأميركا ، وهذا يتجنبه العرب ولا يريدونه — وثانياً — إن هجرة اليهود — إذا استمرت على ما هي عليه وتوسعت أملاكهم فى فلسطين — فسيكونون خطرا على العرب كافة ، لأن لديهم جميع الوسائل لإمدادهم بالأسلحة والنقود وغيرها ، وسيستعملون هذا ضد العرب ، وفيه — فى نفس الوقت — إشكال على البريطانيين ، والدليل على هذا ما رأته اللجنة عند زيارتها لفلسطين ، هل رأت اللجنة حال العرب وحال اليهود ؟ هل رأت اليهود فى ترفهم ومساكنهم وسلاحهم وأموالهم وقوتهم ، ورأت العرب أصحاب البلاد الشرعيين وما هم عليه من الفقر والعوز ؟ ألم يصرح اليهود للجنة بأنهم أصحاب زراعـــات وأملاك ؟ وأنهم يعملون ويصلحون على نقيض ما يفعله هؤلاء الأشقياء ؟ويعنون بذلك العرب ، إذا أرادت اللجنة أن تسأل عن أسباب ذلك فإنى أخبرها بالأسباب التى أوصلت الفريقين إلى ما هم فيه » .

فرجا رئيس اللجنة من الملك أن يذكر الأسباب ، وما يراه لمعالجة الحالة فى فلسطين .

فأجاب الملك عبد العزيز : الأسباب تتلخص فى جملة واحدة ، هي أن العرب نهضوا للدفاع عن بلادهم والمطالبة بحقوقهم واستعادة ما سلب منهم » ثم شرح هذه الجملة بقوله :

« كيف يتسنى للعرب أن يباروا اليهود وهم ما بين مصلوب على أعواد المشانق وسجين وشريد ومغرّب ؟ كيف يتسنى لهم أن يتقدموا وهذه العقبات أمامهم ؟ بينما اليهود تسهل لهم جميع الوسائل ، وكلما تكلم العرب مطالبين بحقوقهم لم يجدوا من يعينهم على أمرهم أو يسمع شكواهم .

أما اليهود فإنهم – على مرأى ومسمع منكم أيها الإنكليز – يقتلون عساكركم وكبراءكم ، ويحاربونكم بشتى الأشكال ، وأنتم لا تجيبونهم إلا بإطلاق الرصاص فى الهواء كأن لم يكن بينكم وبينهم حساب » .

وهنا علق رئيس اللجنة قائلا : إن الانكليز متساهلون كثيراً ، وهذا ما يجعل الناس يطمعون فيهم .

فرد الملك : « ليس الخبر كالعيان ، إن التساهل فى بعض الأحوال يجعل الخطر أعظم والبلبلة أعم ، وأضرب لكم مثلاً بإنسان تُحلّق فوق رأسه الطائرات ويده مغلولة وخالية من السلاح وإنسان آخر عنده سلاح ويده مطلقة ، فهل يتساوى الشخصان ؟ تلك هي حال العرب واليهود فى فلسطين » .

وأيد الملك قوله بالأدلة التى تثبت العدوان المتكرر المتجدد الذى لا ينتهى من قبل اليهود ، وأنه لا حدّ لاعتداءاتهم ، وأشار من بين إشاراته إلى اغتيال اللورد موين ،وأيده رئيس اللجنة وزميلاه وبخاصة فى مقتل اللورد موين الذى وصفه الرئيس بقوله : إن موته خسارة فادحة على العالم ، لأنه كان صديق العالم كله ، وتابع الملك حديثه قائلاً :

« إننى منذ أن أوجدنى الله وصرت أسعى لاستعادة ملك آبائى وأجدادى ما عرفت من الدول غير بريطانيا – وكانت صديقتى – ورأيت منها ما سرنى ، ورأت منى ما سرها ، ولما نشبت الحرب أيدت سياستها وسياسة حلفائها وثوقاً منى بأن ذلك فى مصلحتى ومصلحة العرب جميعاً .

« لهذا السبب كانت الحكومة البريطانية – ولا تزال – ترغب إليّ أن أسعى للتوفيق بينها وبين العرب منذ أيام الحرب وبعد انتهائها اتقاءً لحدوث المشاكل بينها وبينهم ، وكنت أعمل ما فى وسعى مع إخوانى العرب ، وأنصحهم بألا يجعلوا سبيلاً لحدوث اختلاف بينهم وبين بريطانيا ، لأن أعداء

الحلفاء هم أعداء العرب ، ويجب علينا الصبر والتروى ، وذلك لاعتقادى بأنه من مصلحة العرب .

« ولقد بلغ منى الأمر أن تكلمت أمام جمع من المسلمين فى مكة المكرمة ونصحتهم بأن يكونوا إلى جانب بريطانيا وحلفائها ، لأنها صديقتهم ، وتدافع فى حربها عن حقوقهم ومصالحهم ، وألا يدعوها فى حرج من أمرها .

« وتكلمت بهذا فى وقت كان يجب فيه عليّ أن أكتفي بالدعوة إلى كلمة الله ، والتمسك بكتابه وبشريعة نبيّه ، والناس جميعاً يعلمون أن برنامجى الذى تسير عليه حكومتى هو برنامج ديني خالص ، لا مطمع لى فى مال أو زيادة ملك ، أنا وحكومتى ندعو إلى عبادة الله ، والمسلمون عالمون بالأمن والسكينة والراحة فى مملكتنا ، وكل هذا من فضل الله ثم ببركة الدين .

« وعلى أثر ذلك تلقى علماؤنا كتباً من العلماء فى بلاد المسلمين تنتقد موقفى ، ففاتحونى فيما جاءهم ، وأبدوا لى أنهم لا يتعرضون للمسائل السياسية ، ولكنهم يعجبون من معاضدتى لبريطانيا فى الوقت الذى تُؤوى فيه اليهود ، وتوليهم على فلسطين ، فأوضحت لهم الأخطار التى تستهدف لها أوطاننا إذا انتصر أعداء بريطانيا عليها ، فقالوا : هل تضمن أن بريطانيا — إذا انتصرت — لا تؤيد اليهود ولا تُؤويهم فى بلادنا ؟ وأنها تعامل العرب فى فلسطين بالعدل ؟ فأجبتهم : إنى لا أضمن لكم أن تفعل بريطانيا هذا أو ذاك ، ولكن ما أعرفه عن بريطانيا ووعودها التى قطعتها على نفسها أنها — إذا لم يقم العرب بأعمال ضدها — ستعاملهم بالإنصاف .

« وأذكر لكم أمراً واقعاً ، وهو أن الوزير البريطاني المفوض بجدة زارنى بعد انتهاء الحرب بمدة وجيزة ، وقال لى : إن حكومتى ترى أن حركات اليهود الحاضرة ربما تكون من حظ العرب ، لأنه كلما ازدادت حركاتهم كلما انكشفت نياتهم ، ورجانى أن أبذل جهدى لدى العرب لالتزام الهدوء ،

وأقنعنى بأن هذا هو خير لمصلحتهم ، فلم أدخر وسعاً فى هذا السبيل إلى أن وصلنا للموقف الذى نحن فيه .

« لقد وقعت الآن فى مشكل خطير أمام شعبى وجماعتى ، وأمام العرب والمسلمين . فإذا كانت بريطانيا تريد أن تعدل عن الحقّ الواضح ، وأن تذهب وعودها أدراج الرياح فليس أمامى إلا أن أقول للمسلمين : دونكم ونفسى ، اقتلونى ، أو أنزلونى عن الملك ، لأنى مستحق لذلك ، وأنا الذى جنيت عليكم وثبطت عزمكم .

« هذه هى حقيقة موقفى شرحتها لكم بوضوح .

« وتسألون عن رأيى فى بقاء اليهود فى فلسطين ، وأنا أقول لكم : نحن ما تعدينا على اليهود ، ولم نأخذ أملاكهم وبلادهم ، وإنما أخذنا فلسطين من الرومان ، والعرب حكام فيها منذ ألف وثلاثمئة سنة وأكثر ، لا نعرف اليهود ولا هم يعرفوننا ، والبلاد بلادنا بحق الفتح ، ونحن الذين فرحنا بنصر الحلفاء نحب أن نتمتع بلذة النصر ، فهل يراد أن يتمتع غيرنا ببلادنا نتيجة لهذا النصر ؟ اليهود قوّتهم بالدينار ، ونحن حجتنا فى فلسطين حجة شرعية ، بلادنا أخذناها من الرومان بالسيف ، قاتلنا دونها وملكناها بعد أن سفكت دماؤنا فكيف يأتيها تاجر ويأخذها بالفلوس ؟ ليس هذا من الإنصاف فى شىء .

« ولى كلمة أخرى أريد أن أقولها لكم ، يزعم اليهود أن من المستحيل على العرب أن يحاربوا من أجل فلسطين ، وأنا أقول : إن الحرب لو كانت بين العرب واليهود لما تأخر العرب دقيقة واحدة عن خوضها ؛ ولكن دفاع بريطانيا عن اليهود يجعل الحرب بين العرب وبريطانيا ، والعرب لايحبون محاربة بريطانيا ، وأعتقد أن حكومة بريطانيا رشيدة عاقلة ، تدرك حقائق الأمور ، وتعلم أنه ليس من مصلحتها محاربة العرب أيضاً ، كما أنه ليس من مصلحتهـــا أن توجد أعداء من جميع المسلمين والمسيحيين يضمرون لها الشر فى قلوبهم . والدنيا

ليست على حال واحدة ، فقد يأتي يوم تقوى فيه شوكة اليهود فيكونون أول من يحاربونها مع أعدائها كما يحاربونها اليوم .

لماذا تعمل بريطانيا – بمساعدتها للصهيونية – على تأليف مجموعة ضدها من كل مسلم يوحّد الله فى الشرق والغرب ؟ ليس هذا من مصلحتها » .

وهنا قال رئيس اللجنة : إن بريطانيا دخلت حربين فى ربع قرن لأجل السلام والحرية ، وبريطانيا يهمها كثيراً ألا تضيع صداقة العرب فى الوقت الذى تدعو فيه إلى سلم عالمي ، فردّ عليه الملك قائلاً :

« نحن يهمنا وجود السلام العالمي ، ونريد أن نعيش فى هذا العالم بسلام ، بسلام ، ولكن ما دام اليهود يؤتى بهم لبلادنا ، وعددهم يزيد فى فلسطين يوماً بعد يوم فمن المستحيل أن يستريح لنا بال أو يصلح لنا حال ، وقد كنت ذكرت للرئيس روزفلت – عندما اجتمعت به فى العام الفائت – مطامع اليهود ومقاصدهم ، وأشار لى فى أثناء حديثه إلى أنه يرغب بتزويدنا بمكائن وآلات زراعية حتى تنتج بلادنا ثمراتها ، فأجبته : ما دام اليهود فى بلادنا فلا نريد زراعة ، ونفضل الموت على الزراعة » .

« وأنا أسألكم عن رأيكم أنتم ، وأرضاكم حكماً ، هل ترضون بأن يتعدى أحد من العرب على امرأة إنكليزية أو أميركية ويهينها ؟ إن اليهود يأتون إلى بلاد العرب ويأخذون أملاكهم ويطردونهم ويؤذونهم ، فأي عقل أو دين أو سياسة تحمل العرب على قبول مثل هذا ؟.

« أنا لا أريد أن أجرح عواطفكم ، والذى يحملنى على هذا القول هو صداقتى لكم ، وإن من حق الصديق على صديقه أن يصارحه بالواقع .

هذا ما عندى ، وإن أردتم أن تستوضحوا عن شيء فأنا مستعد لإجابتكم ،

وهذا كلامى الشخصي ، وستقدّم إليكم مذكرة خاصة توضح آرائي » .

وكانت لدى رئيس اللجنة أسئلة ، فلما انتهى ابن سعود من حديثه الجامع الشامل ألقى عليه سؤاله الأول وهو إذا كان فى حديثه مع المستر تشرشل والرئيس روزفلت قد تطرق إلى هذه القضية ، فقال :

« تحدثت مع الرئيس روزفلت حديثاً طويلا فى قضية فلسطين : سُجلت بمحضر خاص ، وقد كان من الذين حضروا حديثى مع الرئيس روزفلت الوزير الاميركي المفوض فى جدة [1] ، وقد أطلعت المستر تشرشل على حديثى مع روزفلت ، وعلى الوعد الذى وعدنى به ، فوعد المستر تشرشل بأن يقوم بالواجب من قبله فى مساعدة العرب ، وعدم الإجحاف بحقوقهم ، ولقد كان الرئيس روزفلت يسعى لإيجاد مكان لإيواء اليهود ، وكان مقتنعاً بأن فلسطين لا تصلح أن تكون مأوى لهم ، وأن فى بلدان أوربا متسعاً لهم ، إذ تمكنهم الإقامة فى الأماكن التى خلت بما أبيد من اليهود بسبب الحرب ، ولقد كان عجيباً ما روى عن الرئيس ترومان إذ قيل : إنه طلب إيواء مئة ألف يهودي فى فلسطين ، بينما لم يسمح بإيواء أكثر من تسعة وثلاثين ألف يهودي فى الولايات المتحدة كما بلغنا » .

وألقى عليه رئيس اللجنة سؤاله الثانى قائلا : أيوافق جلالتكم على هجرة عدد من الأطفال والعجزة واليتامى اليهود الاوربيين إلى فلسطين على أن يكفلهم يهود فلسطين ، فأجاب :

« العرب متفقون على رفض الهجرة ، والطفل اليوم سيكون رجلا بعد بضع سنوات ، فأنا لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال بالقبول » .

ثم استأذن رئيس اللجنة فى سؤال قد يكون فيه بعض الإزعاج . فأبدى الملك

---

(١) الكولونيل ادى

سروره لسماع أي سؤال ، وأنه صريح ويحب الصراحة ، فأشار الرئيس إلى قرار اللجنة البريطانية بتقسيم فلسطين إلى قسمين .

وقال رئيس اللجنة : أرجو أن يسمح لى جلالتكم بسؤال قد يكون فيه بعض الازعاج وهو : ما رأيكم فى قرار اللجنة البريطانية بتقسيم فلسطين إلى قسمين فأجابه :

« أنا واحد من العرب ، ورأيى هو ما يجمع عليه العرب ، وقد أجمعوا على رفض التقسيم فأنا أرفضه لأنى واحد منهم ، وليس لى رأي خاص يخالف ما أجمعوا عليه » .

وسأل رئيس اللجنة : أيمانع جلالتكم فى مواصلة الهجرة اليهودية بمعدل ١٥٠٠ يهودي فى الشهر ، فأجابه : « الموت خير لنا من الهجرة ! وكل جهادنا لنحول دون هجرة اليهود إلى فلسطين ، وامتلاك أراضيها » .

وسأل رئيس اللجنة : فى بدء حديثكم أشرتم إلى العداوة الدينية بين العرب واليهود ، فهل تستمر هذه العداوة بين العرب واليهود إذا امتنعت الهجرة ؟ فأجابه :

« إذا أرادت بريطانيا أن تحافظ على صلاتها الحسنة مع العرب فلتوقف الهجرة فى الحال ، ولتمنع بيع الأراضى ، لأن هذين الأمرين هما أساس المشكلات ومنبع الاضطرابات ، وتعقد مؤتمراً من رؤساء العرب والبريطانيين والأميركيين يتفق على الطريقة التى تؤمن الراحة والطمأنينة فى فلسطين ، ويُزال ما هنالك من خلاف ويحل السلام ، فإذا منعت الهجرة منعاً باتاً وأوقف بيع الأراضى أمكن الوصول إلى حل جميع المشاكل المعترضة » .

وانتهت أسئلة الرئيس ، وبدا لعضو اللجنة الميجر باننجهام بولر أن يسأل

الملك : هل الحديث الذى دار بينكم وبين الرئيس روزفلت وأفضلتم بذكره هو كل ما دار بينكما ؟ فأجابه الملك : إننى طلبت من الرئيس روزفلت أن أتحدث معه كرجل مسلم عربي اسمه عبد العزيز يتكلم مع رجل هو رئيس الولايات المتحدة اسمه روزفلت ، فقبل الحديث معى بهذا الاعتبار ، فقلت له : لماذا تعين على هجرة اليهود إلى فلسطين وتمكنهم من الاستيلاء عليها بغير حق ؟ فأجابنى بصراحة وحزم : إننى لم آمر بهجرة اليهود إلى فلسطين ، ولم أقم بأي ضغط من أجلها ، ولا يمكن أن أعمل أي عمل ضد العرب فى فلسطين ، ولن أعمل فى المستقبل ، وقد أكد لى حديثه هذا بصفته المستر روزفلت وبصفته رئيس الهيئة التنفيذية للولايات المتحدة » .

وبجواب ابن سعود الأخير انتهى الحديث ، وشكره رئيس اللجنة وعضواها على تزويده اياهم بمعلومات يفخرون بالحصول عليها لصدورها من أكبر رجل فى العالم العربي .

وإذا كان الحديث الذى وصفه ابن سعود بأنه شخصي فقد بقيت المذكرة التى أشار اليها فى حديثه ، ووعدهم بتقديمها إليهم ، وهي توضح آراءه ، وقد بر بوعده ، وقدمت اليهم ، وهذا نصها :

« ١ — إن كل ما لديّ من معلومات وآراء فى قضية فلسطين أبديته للحكومة البريطانية فى مذكرات وأحاديث متعددة ، كما أبديته للحكومة الأميركية برسائل ثلاث بعثتها لصديقى الراحل العظيم المستر روزفلت وأوضحت له فى اجتماعى به فى مياه الإسماعيلية حقيقة ما عندى وما عند العرب والمسلمين فى هذه القضية ، فما كان منها عندكم فأنتم مطلعون عليه ، وما ليس عندكم فهو موجود فى ديوانى يمكنكم الاطلاع عليه .

« ٢ — بشأن الموقف الحاضر فى فلسطين قدمتُ لكم جامعة الدول العربية

الآراء التى تعبر عن رأي حكومتى وآراء سائر الحكومات العربية ، وقد أيد ذلك سائر مندوبى دول الجامعة .

« ٣ — إن الذى يدعو للحيرة فى الموقف هو الاعتداء المجسم الصريح على حقوق العرب فى بلادهم فلسطين ، تلك الحقوق الطبيعية التى جاءت بريطانيا ومن ورائها اليوم أميركا لتأييد العدوان الصهيوني عليها برغم كل الوعود الصريحة التى قُطعت فى شتى المناسبات .

« أ » : أنظروا تصريح الحكومة البريطانية فى يونيو ١٩١٨ للسبعة من العرب فى القاهرة الذى عرف بتصريح السبعة .

« ب » : والتصريح البريطاني الفرنسي الصادر بتاريخ ٧ نوفمبر ١٩١٨ ففيهما الوعود القاطعة للعرب .

« ج » : وانظروا الفقرة الأخيرة من كتاب الرئيس روزفلت بتاريخ ١٥ ابريل ١٩٤٥ حيث يقول لى : « وجلالتكم تذكرون أيضاً بدون شك أنى أثناء محادثاتنا الأخيرة أكدت لكم أنى لن أقوم بأي عمل بصفتى رئيساً للسلطة التنفيذية فى هذه الحكومة يمكن أن تضر العرب » وهذه كلها صدرت بعد وعد بلفور ، فضلاً عن الوعود التى كانت للعرب قبله .

« ٤ — علمت أن الصهيونيين أطلعوكم على بعض المزارع والمصانع التى أوجدوها فى فلسطين ليلفتوا أنظاركم إلى مقدار ما يمكن أن يخدموا به البلاد ، وبينوا لكم أنهم عمروا البلاد التى عجز العرب عن إعمارها .

« فهؤلاء الصهيونيون أخذوا تأييدا من بريطانيا وأميركا بشكل لم يسبق له مثيل إزاء أية أمة أخرى ، فتحت لهم الحكومة البريطانية سائر الطرق حتى يتمكنوا من تطبيق برنامجهم ، فجمعوا لذلك الأموال الطائلة من البلاد التى فيها ، واشتروا الأرض التى تساوى خمسة بخمسين ، وأخذوا ينفقون عليها

بغير حساب من منابع خاصة لأغراضهم الخاصة ، وهي احتلال فلسطين وإخراج أهلها منها ، فشرّدوا العرب وطردوهم بقوة الحكومة ، إذ كل قرية يشترونها يُخرجون أهلها العرب ، ثم يمحون آثار القرية ويغيرون اسمها ومعالمها ، وبذلك شُغل الأهلون بفقرهم وبدفاعهم عن أنفسهم ، والنظر فى حالتهم عن أيّ عمران .

« لقد ملأت الحكومة البريطانية السجون والمعتقلات بالعرب ، ونصبت لهم المشانق ، وبلغ بها من الشدة أن دلالة الكلاب على بيت من بيوت العرب كافية لإدانة العربي ، وكل ذلك وهم صامدون صابرون لنيل حقوقهم الطبيعية ، والصهيونيون يقومون بأعمال الإرهاب ، بل من الأعمال الحربية ضد القوات البريطانية ، ولم نسمع أن أحدا قد أُعدم ، بل علمنا أن القوات البريطانية عندما توجه لها أعمال الاعتداء من الصهيونيين تقابلها بإطلاق الرصاص فى الهواء ، والعرب ليسوا أقل من غيرهم فى الأعمال الزراعية ، فقد مررتم بالقطر المصري ، ووجدتم تقدمه الزراعي ، كذلك فى سورية والعراق ، وهذه بوادر التقدم فى أراضينا الزراعية .

« أما أن يُغدق المال بغير حساب على الصهيونيين ، ويُغفر لهم جميع إجرامهم ، ثم يعامل العرب فى فلسطين بأقسى أنواع المعاملات إلى الآن ، ويقال : إن الصهيونيين أهل تعمير والعرب متأخرون ، فهذا منطق معكوس ولا يقوله إلا من يريد إقامة حجة لإنفاذ الظلم .

« ٥ — وإذا كان منطق الأشياء يطبق على العموم ولا يكال الكيل بمكيالين والوزن بميزانين فالحق والإنصاف واضحان لذى عينين ، نرى رئيس الولايات المتحدة المستر ترومان يعلن — والكل يعلم ما هو تأثير المستر ترومان رئيس الولايات المتحدة فى هذا الصراع التاريخي — ويطلب دخول مئة ألف يهودي إلى فلسطين الضيقة باسم الإنسانية والرحمة على حساب العرب الضعفاء ، نقول : يطلب دخولهم إلى تلك البلاد التى سيكون لكل أربعة وأربعين نسمة

فيها ميل مربع واحد ، بينما نفس المستر ترومان فى الوقت ذاته لا يقبل فى بلاد أمير كا الواسعة الغنية إلا بدخول تسعة وثلاثين ألف نسمة ، بحيث يكون للرجل النازح إليها خمسة وتسعون ميلاً مربعاً .

« إن القيام بعمل كهذا ، والمناداة به من طرف أنصار الحق والقائمين على الظلم والاعتساف لمن دواعى الأسف الشديد . وإنها لمغالطة أمام الحق والإنصاف نترك لضمير الإنسانية والتاريخ القول الفصل فيها .

« ولا يمكننا أن نسكت — ونحن فى معرض القول — عن الأراضى الواسعة الخالية فى هذه الكرة الأرضية مثل أستراليا ونيوزيلندا والأمير كتين وغيرها من المستعمرات والممتلكات التى يمكنها أن تؤوى وتسع أضعاف أضعاف يهود العالم ، ولكن ؛ لكون مالكى هذه الأراضى أقوياء ويسندهم حق القوة لا يكلفون أن يؤوهم ولا يلامون — إذا كلفوا — على رفضهم لمثل هذا الطلب الإنساني .

٦ — أنا صديق لبريطانيا ، وصديق لأميركا ، وسياستى قائمة على تحسين سياستى مع هاتين الدولتين ، بل مع سائر دول العالم ، وقائمة على تحسين السياسة بين العرب وهاتين الدولتين أيضاً ، ولا أريد أن تضطرنى الأيام بالرغم منا وبغير إرادتنا إلى أن نتعادى مع بريطانيا وأمير كا لدفع هذا الضرر المميت لنا جميعاً .

« وأحب أن تكونوا على يقين بأنه إذا استمرت هذه السياسة فى استمرار الهجرة وبيع الأراضى ومنع العرب من حقوقهم الطبيعية التى وعدوا بالمحافظة عليها فإن الحكومتين البريطانية والأمير كية لا تستهدفان لنقمة العرب وحدهم بل إنهما ستستهدفان لنقمة كل من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله من عرب ، وعجم ، وهند ، وسند ، وصين ، وكل مسلم على وجه الكرة الأرضية فى مشرق والأرض ومغربها وشمالها وجنوبها . وهذا لا مصلحة لأحد منه ؛ وفيه

الضرر كل الضرر على المسلمين والعرب وعلى بريطانيا وأميركا .

والصهيونيون لا تهمهم مصلحة بريطانيا ولا أميركا ولا العرب، ولا يهمهم إلا مصلحة أنفسهم ، ولو تقوّى اليهود فى هذا المكان الدقيق ، وصارت لهم دولة — لا سمح الله — فمن السهل عليهم أن يكونوا فى جانب أية قوة تعادى بريطانيا واميركا ، لأن الذين يقاتلون البريطانيين الذين أحسنوا إليهم وآووهم ويقومون فى وجوههم أيام الحرب من السهل أن يقوموا عليهم فى أحرج من هذه الأوقات » .

* * *

وإذا كان الغدر بالعرب مبينا فلا جدوى من استطلاع الرأي العربي ، وحق العرب واضح فى فلسطين ، وغير مجهول من أولئك الذين يريدون أن ينتزعوه منهم لا يبالون الحق والعدل والإنصاف والسمعة ، بل هم أصدروا الحكم على العرب ثم أخذوا يعملون على تلفيق الأدلة الزائفة لإثبات الحكم وصبغه بصبغة العدل ، فلجنة التحقيق البريطانية لم تكلف نفسها المجيء إلى ابن سعود من أجل العدل وإعادة الحق لأصحابه ، بل جاءت مؤملة أن يكون ابن سعود عوناً لها ، وأن يكون متساهلا ، وكانت تعتقد أنها تستطيع إقناعه بمنطقها الخالب الخداع ، وجهلت أن ابن سعود وضعه الله فى مكان المواجهة ضد الظلم الحائق بفلسطين والعرب والمسلمين ومقدساتهم .

وأعتقد أن اللجنة قد ضربت فى مأملها فى مقتاه ، فحق ابن سعود قد أزهق باطلها ، ومنطقه الصواب أذل منطقها ، فغادرته مخفقة ، لأنها لم تستطع خدعه أو استمالته ، بل قهرها منطقه الغلاب ، ولكن الشيء الذى كان مقررا أن يكون قد أوصت به ألا وهو التمكين للصهيونية فى فلسطين العربية المسلمة ، والإجحاف الشنيع بحق العرب الثابت .

ولم يكن ابن سعود غافلا عما سيكون ، ولم يغب عنه أن توصيات اللجنة الامريكية البريطانية ستكون مجحفة أيما إجحاف بحق العرب ، وأن خاتمة « المسرحية » ستنتهي بفاجعة كبرى بالنسبة للعرب ، وسيضطرون الى ردها ما استطاعوا .

ولكن الشيء الذى يجب أن ندركه أن ابن سعود لم يكن بيده وحده مقاليد العمل من أجل إنقاذ فلسطين ، بل كان كأي أحد من حكام العرب ، ولو كان وحده لتغير مجرى تاريخ فلسطين ، وسيأتى ما يدل على أن ضياع فلسطين كان من عدم وجود القيادة فى يد ابن سعود ، ومن عدم تمكينه من تنفيذ خطته فى محاربة اليهود عندما أعلنت قيام دولة إسرائيل .

وتلقى ابن سعود من الحكومة الأمريكية مذكرة مصحوبة بتقرير اللجنة الامريكية البريطانية بشأن قضية فلسطين ، وبعد أن درسه كتب الى هارى ترومان رئيس الولايات المتحدة كتابا هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الرياض

٢٣ جمادى الآخرة ١٣٦٥

٢٤ مايو ١٩٤٦

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية

إلى صاحب الفخامة الرئيس هارى ترومان ، رئيس الولايات الاميركية المتحدة .

يا صاحب الفخامة

تلقت حكومتنا منذ أيام قليلة مذكرة من الحكومة الأميركية مرفقاً بهاتقرير « اللجنة البريطانية ـ الأميركية » بشأن قضية فلسطين ، وقد أجابت حكومتنا باستلامها المذكرة ، وأبدت مطالعاتها بصورة عامة ، ووعدت بإعطاء الجواب المفصل خلال المدة المقترحة بعد الاجتماع الذى يعقد فى مصر من ملوك وأمراء ورؤساء الدول العربية ، واجتماع مجلس جامعة الدول العربية ، وليس موضوع هذه المذكرة هو الذى قصدنا أن نتكلم عنه إلى فخامتكم ، وإنما قصدنا أن نوجه إليكم خطابنا هذا على أثر ما سمعناه عن تصريح وزير خارجيتكم بشأن القواعد السياسية التى ما زالت حكومتكم الموقرة تستلهمها فى موضوع تقرير لجنة فلسطين .

نحب أن نؤكد لكم ـ يا صاحب الفخامة ـ أن البلاد العربية والإسلامية تعلق أكبر الآمال على الحكومة الأميركية بصفتها مشعل الحرية ، والمناضلة عن الحق والعدل فى جميع أنحاء العالم من دون تفريق بين العناصر والألوان والمذاهب ، ونحن نعلم أن من بين الدوافع الرئيسية التى تحملها على مناصرة قضية الصهيونيين إنما هو الدافع الناشىء عن اعتهادها أنها تخذم قضية العدالة والحق والإنسانية .

ولكننا ـ يا صاحب الفخامة ـ نربأ بالحرية الأميركية بأن تعالج الظلم بارتكاب ظلم أفدح منه ، وأن تسعى لإغاثة شعب بائس على حساب بؤس شعب آخر ، وأن تطالب بحرية شعب مضطهد مشتت بينما أن ذلك يؤدى إلى استعباد شعب آخر واضطهاده .

إننا لا نخاطبكم باسم المصلحة أو العاطفة فحسب ، وإنما نخاطبكم بصفتنا أصدقاء نعمل معاً على ما فيه خير بلادينا وشعبينا خاصة والعالم عامة ، ونناشدكم باسم الإنصاف والعدل من حيث هما إنصاف وعدل .

إن قضية إيجاد ملجأ لضحايا الظلم النازي والفاشيستي لقضية إنسانية تحتمها مبادىء العدل والإنصاف والحرية ، ولكن فلسطين لا يمكن أن تحل قضية هؤلاء اليهود الذين انتهى الآن وقت اضطهادهم بزوال قوات الظلم والطغيان ، وقد أوضحت اللجنة المشتركة هذا الأمر فى توصيتها الأولى ، والصهيونيون يتخذون أمر هؤلاء اللاجئين وسيلة لنوال أغراضهم السياسية فى فلسطين ، وإننا نربأ بالحكومة التى يترأسها فخامتكم أن تكون مؤيدة لهذا العمل الذى ينظر إليه كل عربي بأنه ظلم فادح لا مثيل له فى التاريخ .

وأصبح العرب يا صاحب الفخامة ينظرون إلى قضية فلسطين كأنها قضية حياة أو موت ، وهي إن لم تعالج بالحكمة وعلى أساس احترام حقوق العرب فإنها قد تجر إلى متاعب ومشكلات لا يعلم نتائجها إلا الله ، والمهم أن يطمئن العرب إلى أن الأسس التى أعلنتها الحكومة البريطانية عام ١٩٣٩ لن تتغير ، وأن العرب ليأملون أن يجدوا فى فخامتكم وفى الحكومة الأميركية والشعب الأميركي نصراء لقضيتهم العادلة ، مدافعين عن حقوقهم الطبيعية وحرياتهم الأصيلة التى حاربت بلادكم مرتين من أجل نصرتها ، وإن ايجاد ملجأ لضحايا الاضطهاد والظلم أمر ضروري ، ولكنه يجب أن يكون منفصلا عن قضية الصهيونية السياسية وعن مطامعها ومبادئها العرقية المستمدة من التعاليم النازية والفاشستية .

هذا هو الذى نرجوه ونؤمله من فخامتكم ، وهو الأمر الذى حملنا على الكتابة إليكم فى هذا الوقت الذى تدرسون فيه الحلول المختلفة لقضية فلسطين .

وتفضلوا بقبول تحياتنا » .

(الختم الملكي)
عبد العزيز السعود

وأجاب الرئيس الأمريكي على كتاب ابن سعود بهذا الجواب :

البيت الأبيض : واشنطن

٨ يوليو ١٩٤٦ [١]

حضرة صاحب الجلالة عبد العزيز بن سعود ، ملك المملكة العربية السعودية

يا صاحب الجلالة

إنه لمن دواعى سرورى العظيم تسلّم خطاب جلالتكم المؤرخ ٢٤ مايو ١٩٤٦ المحتوى على آرائكم الأولية عن تقرير اللجنة الإنكليزية الأميركية للبحث فى موضوع فلسطين ، ذلك الخطاب الذى أحضره لى فى نفس يوم وصوله إلى واشنطن صديقى العزيز الوزير لدى بلاط جلالتكم الكولونيل وليم إدى .

إنى أود أن أؤكد لجلالتكم أنه سيكون مساعدا حقيقيا لى أن أستفيد منآ اء جلالتكم السديدة فى هذا الموضوع الصعب .

وإنى لمغتبط جداً لعلاقات الصداقة الأكيدة التى توطدت بين حكومتينا وبين الأميركيين والعرب السعوديين على وجه العموم ، ومع أن الموضوعات التى هي موضوع البحث بيننا ليست خالية من الصعوبات إلا أننى على ثقة كبيرة من أن علاقاتنا هذه ستبقى على أساس من الصداقة المتينة فى المستقبل .

ولقد سررت جداً من إدراك جلالتكم للأسباب الإنسانية التى أوجبت على هذه الحكومة التدخل فى مشكلة فلسطين ، وإن المصالح الأميركية فى هذا الموضوع يرجع عهدها إلى زمن طويل ، وقد أثارها وأوجب التعجيل بها حاجة

---

(١) يوافق ٨ شعبان ١٣٦٥ هـ

أولئك الضحايا للاضطهاد ، وبالنظر لإدراكي أهمية وجهة نظر العرب أجمعين وصلتهم بفلسطين فقد رحبت بفكرة زيارة لجنة فرعية للرياض من لجنة التحقيق الإنكليزية الأميركية .

إن تقرير اللجنة أوضح الإشكال في حالة فلسطين ، وإن توصياتها التي وضعت بعد دراسة وعناية طويلة أعتقد أنكم توافقون معي على أنها تتطلب عناية من الجميع .

واني أعتقد مخلصاً أن السماح لمئة ألف يهودي بدخول فلسطين لن يُعدّ تعدياً على حقوق العرب وامتيازاتهم الآن في فلسطين ، ولا يؤدي إلى تبديل في الوضع الحالي ، وإني لمقتنع بأن فلسطين يمكنها أن تستوعب المئة ألف ساكن إضافي بأحوالها الاقتصادية الموجودة بها من دون أن يؤثر في بقية السكان الحاليين .

وإني قد عينت ثلاثة أعضاء من وزارتي لضمان النظر بدقة في هذا التقرير من ناحيتنا ، وإشعاري بما يرون فيه ، وسيتصلون في مباحثاتهم بالحكومة الإنكليزية .

وإني لأرجو أن توضح الحالة بطريق الاستشارة مع العرب واليهود ، وأن يبقى الاتصال وثيقاً بيننا وبين كل الجهات المهتمة بهذه الأمور .

مع أعز تمنياتي باستمرار صحة وسعادة جلالتكم ورخاء شعبكم لي الشرف أن أبقى صديقكم المخلص لكم » .

هاري . اس . ترومان

ورد ابن سعود على ترومان بالكتاب التالي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الرياض

فى ١٨ ذى القعدة ١٣٦٥

١٥ اكتوبر ١٩٤٦

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود

إلى حضرة صاحب الفخامة مستر هارى ترومان رئيس الولايات المتحدة

يا صاحب الفخامة

إن الصداقة التى تربط بلادى ببلاد الولايات المتحدة ، والصداقة التى بينى وبين الرئيس الراحل روزفلت ، والصداقة التى تجددت بينى وبين فخامتكم تجعلنى شديد الحرص فى المحافظة على هذه الصداقة وتغذيتها ، والعمل على تقويتها بكل الوسائل الممكنة ، ولذلك تجدوننى فخامتكم ألحّ وأكرِّر فى كل كل مناسبة أشعر فيها بما يخل بصداقة الولايات المتحدة مع بلادى ومع سائر البلاد العربية لكي أزيل ما يمكن أن يعكر هذا الصفاء .

ولقد كتبت للراحل العظيم ولفخامتكم عن حقيقة الموقف فى فلسطين ، والحق الطبيعي للعرب فيها ، وأن ذلك يرجع إلى آلاف السنين ، وأن اليهود ليسوا إلا فرقة ظالمة باغية معتدية ، اعتدت فى أول الأمر باسم الإنسانية ، ثم أخذت تظهر عدوانها الصريح بالقوة والجبروت والطغيان مما ليس بخاف على فخامتكم وعلى شعب الولايات المتحدة .

أضف إلى ذلك أطماعهم التى يبيّتونها ليس لفلسطين وحدها ، بل لسائر البلاد العربية المجاورة ، ومنها أماكن فى بلادنا المقدسة .

ولقد دهشت للإذاعات الأخيرة التى نسبت تصريحاً لفخامتكم بدعوى تأييد اليهود فى فلسطين ، وتأييد هجرتهم إليها بما يؤثر فى الوضع الحاضر خلافاً للتعهدات السابقة.

ولقد زاد فى دهشتى أن التصريح الذى نسب أخيراً إلى فخامتكم يتناقض مع البيان الذى طلبت مفوضية الولايات المتحدة الأميركية فى جدة من وزارة خارجيتها أن ينشر فى جريدة « أم القرى » باسم بيان أدلى به البيت الأبيض بتاريخ ١٦ أغسطس ١٩٤٦ وذلك البيان صريح فى أن حكومة الولايات المتحدة لم تتقيد بأية فكرة من جانبها لحل مشكلة فلسطين ، وأظهرتم أملكم بحلها بواسطة المحادثات بين الحكومة البريطانية ووزراء خارجية الدول العربية ، وبين الحكومة البريطانية والفريق الثالث ، وأظهرتم فخامتكم رغبتكم فى اتخاذ تسهيلات فى الولايات المتحدة لإيواء المشردين وفى جملتهم اليهود ، ولذلك كانت دهشتى عظيمة حين اطلاعى على البيان الأخير الذى نسب لفخامتكم مما جعلنى أشك فى صحة نسبته إليكم ، لأنه يتناقض مع وعود حكومة الولايات المتحدة والتصريح الذى صدر فى ١٦ أغسطس ١٩٤٦ من البيت الأبيض ، وإنى لعلى يقين من أن شعب الولايات المتحدة الذى بذل دمه وماله فى مقاومة العدوان الغاشم لا يمكن أن يسمح بهذا العدوان الصهيوني على بلد عربي صديق لم يقترف ذنباً غير إيمانه بمبادىء العدل والإنصاف التى قاتلت من أجلها الأمم المتحدة ، وكان من أركانها بلاد الولايات المتحدة ، وكان لفخامتكم بعد سلفكم العظيم المجهود العظيم فى هذا السبيل .

ورغبة منى فى المحافظة على صداقة العرب والشرق مع الولايات المتحدة أوضحت لفخامتكم بهذا البيان الظلم الذى يمكن أن يحيق بالعرب إذا بذلت مساعدات لهذا العدوان الصهيوني ، ويقينى أن فخامتكم ومن ورائكم شعب الولايات المتحدة لا يمكن أن يقبل بأن يدعو للحق والعدل والإنصاف ، ويحارب من أجل ذلك ليقره فى سائر أنحاء العالم ، ثم يمنع هذا الحق والعدل عن العرب فى بلادهم فلسطين التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم منذ العصور القديمة ، واقبلوا فائق تحياتى .

(التوقيع)
عبد العزيز آل سعود

ورد ترومان على ابن سعود بهذا الكتاب :

البيت الأبيض ـ واشنطن

٢٥ اكتوبر ١٩٤٦ [١]

حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، ملك المملكة العربية السعودية .

يا صاحب الجلالة

تسلمت الآن الكتاب الخاص بفلسطين الذى تفضلتم جلالتكم بإرساله إليّ بواسطة المفوضية العربية السعودية بتاريخ ١٥ اكتوبر ١٩٤٦ ، وقد اهتممت للآراء التى احتواها ذلك الكتاب ، وإنى أقدر حق التقدير الصراحة التى أعربتم عنها فى كتابكم ، وإن صراحتكم لتتفق تمام الاتفاق مع العلاقات الطيبة التى لها زمن طويل بين بلادينا ، وتتفق أيضاً مع الصداقة الشخصية التى بين جلالتكم وبين المرحوم سلفى ، تلك الصداقة التى آمل أن تبقى وتزداد قوة ، وإن العلاقات الطيبة بين بلدينا ، وموقف جلالتكم الودي ليشجعنى على أن ألفت نظـر جلالتكم إلى بعض الاعتبارات التى حدت بحكومتى لاتخاذ الوجهة التى اتخذتها بالنسبة لفلسطين واليهود المشردين فى أوربا .

وإنى لمتأكد من أن جلالتكم ستوافقون على أن حالة بقايا ضحايا الاضطهاد النازي فى أوربا تخلق مسألة عويصة لا يمكن أن يتجاهلها أناس لديهم شيء من الإنسانية ، وهذه المسألة مسألة عالمية ، ويلوح لى أن علينا جميعا مسؤولية عامة لإيجاد حلّ يسمح لهؤلاء التعساء الذين يجب أن يتركوا أوربا لإيجاد وطن جديد حيث يستطيعون المعيشة فى سلام وطمأنينة ، وبين هؤلاء الذين بقوا على قيد

---

(١) يوافق ٢٨ ذى القعدة ١٣٦٥ .

الحياة مشتتين فى أوربا يوجد عدد من اليهود الذين يرثى لحالهم ، فإنهم يمثلون بقايا ملايين قرر النازيون استئصالهم ، وكثير من هؤلاء الأشخاص يتطلعون إلى فلسطين ويعتبرونها جنة ، حيث يأملون أن يجدوا ملجأ بين أبناء ملتهم ، فيستأنفوا حياة هادئة نافعة ، ويساعدون على استثمار الوطن اليهودي القومي .

وإن الحكومة والأمة الأميركية قد أيدوا منذ البداية مشروع الوطن القومي اليهودي فى فلسطين ، وذلك عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى التى كان من نتائجها تحرير مساحات واسعة فى الشرق الأدنى ، ومن ضمنها فلسطين ، وتأسيس عدة حكومات مستقلة أصبحت اليوم أعضاء فى منظمة الأمم المتحدة .

والولايات المتحدة التى بذلت دماءها ومواردها فى سبيل كسب الحرب لا يمكن أن تخلي نفسها من المسؤولية تجاه بعض الولايات التى تحررت ، ولا مصير الأهالى الذين أصبحوا أحرارا فى ذلك الوقت ، وقد رسمت لنفسها طريقا ما زالت تسلكه إلى الآن ، وهو أن هؤلاء الأهالى يجب أن يهيأوا لأن تكون لهم حكومة ذاتية ، وأن يؤسس وطن قومي لليهود فى فلسطين .

وإنى لسعيد بأن أقول : إن أغلب الأهالى المحررين أصبحوا الآن مواطنين فى ممالك مستقلة ، وعلى كل حال فإن الوطن القومي اليهودي لم يستكمل صفته بعد ، وإنه لطبيعي — بناءً على ذلك — أن حكومتى تؤيد فى هذا الوقت إدخال عدد كبير من اليهود الذين ليس لهم مأوى فى أوربا إلى فلسطين ، لا ليجدوا مأوى فيها فحسب ، بل ليساهموا بنشاطهم وذكائهم فى بناء الوطن القومي اليهودي ، وتمشيًا مع السياسة التقليدية لهذه الحكومة فإنى بدأت منذ أكثر من عام أتبادل الرسائل مع رئيس وزراء بريطانيا العظمى ، محاولا أن أعمل على التعجيل بحل سريع لقضية اليهود الباقين فى المعتقلات ، وذلك لنقل عدد كبير منهم إلى فلسطين ، وكان اعتقادى الذى ما زلت أتمسك به — والذى يشاركنى فيه عدد كبير من أهالى هذه البلاد — ألا شيء يخفف من آلام هؤلاء اليهود أكثر

من التصريح العاجل بإدخال مئة ألف على الأقل إلى فلسطين ، ولم يكن من المستطاع الوصول إلى قرار بالنسبة لهذا الاقتراح ، ولكن حكومتى لا تزال تؤمل مواصلة السير على النهج الذى بينته لرئيس الوزراء ، وفى الوقت نفسه لا بد بالطبع من بذل جهود أخرى لفتح أبواب بلاد أخرى – بما فيها الولايات المتحدة – لهؤلاء التعساء الذين يواجهون الشتاء للسنة الثانية بدون مأوى منذ وقوف رحى القتال ، وأنا من جانبي قد أعلنت بأنى مستعد لأن أطلب من الكونجرس – الذى لا بد من موافقته حسب قانوننا الدستوري – إصدار تشريع خاص يسمح لهذه البلاد بقبول عدد من هؤلاء الأشخاص زيادة عما يسمح به قانون الهجرة .

وزيادة على ذلك فإن حكومتى كانت مهتمة مع بعض الحكومات الأخرى لإمكان تأسيس مستعمرات فى بلاد مختلفة خارج أوربا لهؤلاء المشردين المضطرين للهجرة من أوربا ، وبهذه المناسبة كان مما أثلج صدورنا أننا لاحظنا أن كثيرا من زعماء العرب أظهروا رغبة بلادهم بأن يساهموا فى هذا المشروع الإنساني بقبول عدد معين من هؤلاء الأشخاص فى بلادهم .

وإنى أعتقد مخلصاً أنه من الممكن الوصول إلى حل مُرْض لمسألة استيطان هؤلاء اللاجئين على النحو الذى ذكرته آنفاً .

وفيما يختص باحتمال استعمال اليهود القوة والعنف ضد جيرانهم العرب حسب ما جاء فى كتابكم فإنه يمكننى أن أؤكد لكم أن هذه الحكومة تقف ضد كل اعتداء من أي نوع من استعمال الإرهاب لأسباب سياسية ، وفوق هذا يمكننى أن أضيف بأننى مقتنع أن زعماء اليهود المسؤولين لا يفكرون فى اتباع سياسة العدوان على الممالك العربية المجاورة لفلسطين .

ولا يمكننى أن أتفق مع جلالتكم بأن تصريحى فى ٤ اكتوبر غير متفق بأي حال مع تصريحى الذى نشر فى ١٦ اغسطس ، وفى التصريح الأخير كان الأمل

أن نتيجة المحادثات المقترحة بين الحكومة البريطانية وممثلي اليهود والعرب تؤدى إلى حل معتدل لمسألة فلسطين ، وتتخذ الخطوات مباشرة لتخفيف حالة اليهود في اوربا ، ومن المؤسف أن هذه الآمال لم تتحقق .

وإن المحادثات فيما بين الحكومة البريطانية والممثلين العرب قد أرجئت – كما فهمت – حتى ديسمبر من دون ايجاد حل لموضوع فلسطين ، ومن دون اتخاذ أية إجراءات لتلطيف حالة اليهود المشردين في أوربا .

وفي هذه الحالة يظهر أن من الواجب عليّ أن أقرر بقدر ما يمكن من الصراحة الاستعجال في الأمر وإبداء نظرياتي ، وكلاهما للتوجيه لإيجاد حل يتوصل إليه على أساس معقول مع رغبة طيبة في أمر الإجراءات الحالية التي لا بد من اتخاذها .

هذا هو ما أدليت به في بياني بتاريخ ٤ أكتوبر ، ولم أستطع أن أفهم لماذا يشعر جلالتكم بأن هذا البيان قد كان مخالفاً للوعود السابقة والبيانات التي أدلت بها هذه الحكومة ؟ .

وسيكون من المستحسن أن يُتذكر بأن هذه الحكومة – عندما أوضحت موقفها في الماضي عن موضوع فلسطين – قد أعطت تأكيداتها بأنها لن تقوم بأي عمل يبرهن على عداء للعرب ، كما أنه – بحسب نظرها – لن يكون هناك أي قرار فيما يتعلق بالحالة الأساسية لفلسطين من دون سابق استشارة مع العرب اليهود ، وإني لا أعتبر بأنه حتى لقبول عدد معلوم من اليهود المشردين في فلسطين أو أن بياناتي فيما يختص بحل موضوع فلسطين هما بأيّ حال يمثّلان وعملا عدائياً للعرب ، لقد كان – ولا يزال – شعوري نحو العرب عندما أدليت بهذه البيانات شعور صداقة تامة .

وإني آسف لأي نوع من النزاع فيما بين العرب واليهود،وإني لمقتنع بأن

كلا الشعبين — لو اقتربا لحل مشاكلهما بروح الوفاق والاعتدال — يمكنهما حل المشكلات بطريقة تكون لهما فيها الفائدة الدائمة .

وإني بالإضافة إلى ذلك لا أشعر بأن بياناتي تمثل — بأية طريقة كانت — إخفاق هذه الحكومة في الوقوف دون تأكيداتها ، إذ أنه — بحسب نظرها — سوف لا يُتخذ أي قرار فيما يختص بالوضعية الأساسية في فلسطين من دون استشارة العرب واليهود .

ولا يغرب عن البال مقدار الأهمية العظمى التي لبلادكم وبلادي في حل المشاكل المتعددة التي أوضحتها فيما تقدم ، وإني انتهز هذه الفرصة لأعرب عن عظيم أملي في أن جلالتكم الذي يتمتع بشهرة ذائعة في العالم الغربي سيستعمل نفوذه ليساعد على إيجاد حل عادل دائم في المستقبل العاجل ، وإني مستعد لأن أبذل كل ما يمكن للمساعدة في الموضوع ، ويمكنني أن أؤكد لجلالتكم بأن حكومة الولايات المتحدة وشعبها سيكونان مهتمين لمصالح العرب وسعادتهم ، مقدرين بذلك قيمة صداقتهم التاريخية .

وأنتهز الفرصة لأرفع لجلالتكم تحياتي الشخصية الحارة وأطيب تمنياتي لدوام صحتكم ولرفاه جلالتكم وسعادة شعبكم .

المخلص

هاري . اس . ترومان

ورد ابن سعود على ترومان بالكتاب التالي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الرياض

فى ٧ ذى القعدة ١٣٦٥

٢ نوفمبر ١٩٤٦

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود

إلى حضرة صاحب الفخامة المستر هارى ترومان رئيس الولايات المتحدة

يا صاحب الفخامة

لقد تلقيت بتقدير فائق رسالة فخامتكم التى بعثتموها إليّ بواسطة مفوضية الولايات المتحدة الأميركية بتاريخ ٢٥ أكتوبر ١٩٤٦ ، وإنى أقدر صداقة فخامتكم وشعب الولايات المتحدة لى شخصياً ولبلادى ولسائر البلاد العربية .

وتقديراً للغيرة الإنسانية التى أظهرتموها فإننى لم أعترض على أية مساعدة إنسانية تسدونها فخامتكم أو تسديها الولايات المتحدة للمشردين من اليهود إذا كانت تلك المساعدة الإنسانية لا يراد منها القضاء على شعب آمن فى موطنه ، ولكن اليهود الصهيونيين جعلوا من هذه الدعوة الإنسانية منفذاً لأغراضهم الخاصة فى الاعتداء على فلسطين للتغلب فيها بأكثريتهم ، وصيرورتها يهودية ، ليؤسسوا لهم دولة فيها ، ويطردوا سكانها العرب ، ويجعلوا منها قاعدة للتعدى على البلدان العربية المجاورة ، وتنفيذ برنامجهم الجائر .

إن مبادىء الإنسانية ومبادىء الديموقراطية التى قامت عليها دعائم الحياة فى الولايات المتحدة تتنافى مع إكراه شعب آمن فى وطنه بإدخال عناصر أجنبية

عنه لتتغلب عليه وتخرجه من بلاده ، مستعملة فى ذلك تضليل الرأي العالمي باسم الرحمة بالإنسانية ، ووضعوا من وراء ذلك الحديد والنار .

ولقد قامت الحرب العالمية الماضية ولم يكن فى فلسطين من اليهود أكثر من خمسين ألف يهودي ، وقام العرب مع بريطانيا وحليفتها الولايات المتحدة وحلفائهما فقاتلوا فى سبيل قضية الحلفاء انتصاراً لحقوقهم ، وانتصاراً للمبادىء التى أعلنها الرئيس ولسن ، ومن جملتها : تقرير المصير ، فما كان من نتيجة ذلك إلا أن أعلنت الحكومة البريطانية وعد بلفور ، وأخذت تدخل اليهود إلى فلسطين بالقوة والجبروت خلافاً للمبادىء الديموقراطية ، وخلافاً لأي مبدأ إنساني ، وقد قام العرب باحتجاجات وثورات للدفاع عن حقوقهم ، ولكنهم كانوا يجابهون بأقصى ما يمكن من الشدة والقسوة حتى أجبروا على غير ما يريدون .

ولما قامت الحرب العامة الأخيرة وتألبت القوات على بريطانيا من كل جهة ، وثبتت بريطانيا وحدها ، وأظهرت من الثبات والجلد ما حاز إعجاب العالم ، وأدى ثباتها إلى انتشال العالم من الخطر المحدق به ، فى تلك الأيام الحالكة المظلمة قام أعداؤها يبذلون الوعود للعرب بالقضاء على الصهيونية ، وكنت فى ذلك الوقت أقدر حراجة الموقف حق قدرها ، فوقفت حينئذ بجانب بريطانيا ، ونصحت العرب أجمعين بوجوب الإخلاد إلى السكينة ، وأكدت للعرب أن بريطانيا وحلفاءها لن يخالفوا المبادىء الإنسانية الديموقراطية التى دخلوا الحرب لنصرتها ، فقبل العرب نصائحي ، وساعدوا بريطانيا وحلفاءها بكل ما يستطيعون حتى خرج الحلفاء من الحرب ظافرين .

والآن ، يراد باسم الإنسانية أن تكره الأكثرية العربية فى فلسطين على إدخال شعب بغيض لهم ليصبح أكثرية ، ويصبح الأكثرون الأقلين ، وأعتقد أن فخامتكم توافقون معى على أنه لا يوجد شعب فى العالم يمكن أن يقبل بأن يدخل عليه فى بلاده شعب أجنبي عنه حتى تكون له الأكثرية ، ويتحكم فيها

بما يشاء ، وهذه الولايات المتحدة لم تسمح حتى الآن بإدخال العدد المقترح إدخاله لفلسطين لكي يدخل بلاد الولايات المتحدة ، لأن ذلك يختلف مع نظمها الموضوعة لحمايتها وحماية مصالحها .

ذكرتم فخامتكم فى كتابكم أنه يمكنكم أن تؤكدوا أن حكومة الولايات المتحدة تقف ضد كل اعتداء أو أيّ نوع من أسباب الإرهاب لأسباب سياسية إذا نفذ اقتراحكم بشأن اليهود ، وذكرتم أنكم مقتنعون بأن زعماء اليهـود المسؤولين لا يفكرون فى اتباع سياسة العدوان على الممالك العربية المجاورة لفلسطين ، وبهذه المناسبة أحب أن أُذكر فخامتكم بأن الحكومة البريطانية هي التى أعطت وعد بلفور ، وهي التى نقلت المهاجرين اليهود إلى فلسطين تحت حماية حرابها ، وهي التى آوتهم وآوت زعماءهم ولا تزال توليهم من شفقتها ورحمتها بهم ؛ ورغم ذلك فإن الجيش البريطاني يكتوى بنار اليهود الصهيونية كل صباح ومساء ، ولم يتمكن هؤلاء الزعماء أن يمنعوا العدوان من أنفسهـم عمن آواهم ونصرهم ، فإذا كان اليهود — وهم فى حالتهم الحاضرة — لم تتمكن الحكومة البريطانية المحسنة إليهم من منع شرورهم وهي التى تملك من وسائل القوة ما لا يملكه العرب ، فكيف يستطيع العرب ان يأمنوا من اليهود فى الحال والاستقبال ؟ أعتقد بأن فخامتكم توافقون معى — بعد استعراض هذا الموقف — على أن العرب الذين هم اليوم أكثرية فى بلادهم لا يمكنهم أن يطمئنوا لدخول اليهود بينهم ، ولا يمكنهم أن يطمئنوا لمستقبل البلاد المجاورة لهم .

وذكرتم فخامتكم أنكم لا تستطيعون أن تفهموا لماذا شعرت بأن بيانكم الأخير كان مخالفاً للوعود السابقة والبيانات التى أدلت بها حكومة الولايـات المتحدة ، وذكرتم فخامتكم أن التأكيدات التى بذلت لى بألا تقوم الولايات المتحدة بأي عمل يبرهن على أنه عداء للعرب ، وأنه لا يمكن أن يتخذ أيّ قرار يغير الحالة الأساسية لفلسطين بدون استشارة الفريقين .

وإنى على يقين بأن فخامتكم لا تقصدون نقض عهد قطعتموه ، ولا

تريدون اعتداء على العرب ، ومن أجل ذلك أستميح فخامتكم أن أبدي بصراحة أن التغيير الأساسي لفلسطين يكون بأن تصبح الأكثرية العربية أقلية ، وهذا هو الركن الأساسي ، والمبادىء الديموقراطية تقضى بأنه متى وجدت أكثريــة فى بلد فالحكومة تكون للأكثرية لا للأقلية، فإذا فقد العرب نسبتهم العددية الحاضرة فقدوا كل ميزات الحكم فى بلادهم ، وأيّ تغيير أساسي أعظم من هــذا التغيير ؟ وهل يرضى شعب الولايات المتحدة أن يُدخل فى بلاده عددا أجنبيا يتغلب عليه بأكثريته ؟ وهل يمكن ان يعتبر مثل هذا عملا إنسانيا ديموقراطيا ؟ .

وإنى على يقين بأن فخامتكم لا تقصدون معاداة العرب ، بل تتمنون الخير لهم ، وأعتقد بأن شعب الولايات المتحدة لا يمكن أن يرضى بمخالفة المبــادىء الإنسانية والديموقراطية ، وقد أوضحت هذا لفخامتكم اعتماداً على الصراحة التى اعتدتها ، والتى أعتقد أن فخامتكم وشعب الولايات المتحدة يرغبان فيها ، وإنى على استعداد لبذل كل ما من شأنه أن يزيل سوء التفاهم ، وأن يجلــو الحقائق ويوضحها لتأمين الحق والعدالة ولتوطيد الصداقة بينى وبين فخامتكم وبين شعب الولايات المتحدة .

وأحب أن تثقوا فخامتكم بأن رغبتى فى الدفاع عن العرب ومصالحهم لا تقلّ عن رغبتى فى الدفاع عن سمعة الولايات المتحدة فى البلاد الإسلاميــة والعربية وفى العالم أجمع ، ولذلك تجدوننى حريصاً كل الحرص على أن أواصل مساعيّ لإقناع فخامتكم وشعب الولايات المتحدة بالحقوق الإنسانية والديموقراطية التى تستهدفها الأمم المتحدة ويستهدفها فخامتكم وشعب الولايات المتحدة .

ولذلك أتوقع أن تعيدوا فخامتكم النظر فى هذا الموقف لإيجاد حل عادل لهؤلاء المشردين يحفظ لهم حياتهم فى البلاد الواسعة بدون اعتداء على شعب آمن مطمئن فى بلاده .

وتقبلوا تحياتنا

(الختم الملكي)
عبد العزيز السعود

وهذا كان جواب ترومان لابن سعود :

البيت الأبيض — واشنطن

فى ١٣ يناير ١٩٤٧ (١)

حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية — الرياض

يا صاحب الجلالة

آسف جداً لتأخير الإجابة على كتاب جلالتكم الخاص بفلسطين ، والمرسل إلي فى ٢ نوفمبر ١٩٤٦ بواسطة المفوضية العربية السعودية فى واشنطن ، وإن التأخير هو نتيجة لرغبتى فى أن تُدرس النقاط التى أبداها جلالتكم فى الكتاب بعناية تامة .

وإنى مقدر جداً لأسلوب الصراحة وللصراحة التى أبديتموها فى إجابتكم على رسالتى المؤرخة فى ٢٨ أكتوبر ١٩٤٦ وإنى لمقتنع بأن هذه الإجابة هي من إلهام اهتمامكم ، لا برفاهية السكان العرب بفلسطين فحسب ، ولكنها رغبتكم الخاصة أيضاً فى تقوية أواصر الصداقة بين الولايات المتحدة والبلاد العربية السعودية ، وفى أن تتبع الولايات المتحدة فى موضوع فلسطين سياسة ترفع من سمعتها فى العالمين العربي والإسلامي .

أما من جهتى فإنى أحب أن أؤكد مرة ثانية رغبتى فى أن تستمر وتنمو قوية تلك الصداقة التى بين الولايات المتحدة والبلاد العربية السعودية ، والتى تقدرها هذه البلاد حق قدرها ، وأملى الخالص هو أن يستمر نمو الصداقة

---

(١) يوافق ٢٠ صفر سنة ١٣٦٦ هـ.

والتعاون بين الولايات المتحدة والعالم العربي ، بل وكل العالم الإسلامي ؛ إذ أنه أصبح من المفهوم بصفة عامة بين الأميركيين والعرب والمسلمين بأنهم يكافحون من أجل هدف عامّ وهو عالم السلام والرفاه المشيد على مبادىء العدل والإنصاف.

ومما لا شك فيه أن مشكلة فلسطين هي أصعب مشكلة يواجهها العالم في الوقت الحاضر ، وترغب الولايات المتحدة بأن تحل هذه المشكلة بالطريقة التى يتحقق لدى العالم منها أنها عادلة ومنصفة ، وكما قد ذكرت لكم في رسالتي بتاريخ ٢٥ أكتوبر أن الولايات المتحدة والقوات الأخرى الظافرة فى الحرب العالمية الأولى قد تحملت مسؤولية معينة بشأن مستقبل فلسطين ، وقد أخذت موقفها بعد انتهاء تلك الحرب بأنه يجب أن تكون فلسطين موضعا للوطن القومي اليهودي ، وقد كان فى هذه البلاد شعور قوي بأن الشعب اليهودي الذى قدم للعالم خدمات شهيرة له الحق فى وطن قومي خاص ، ولقد ظهر أنه من المناسب أن يكون تأسيس هذا الوطن القومي فى أرض كانت فى نظر اليهود وطنهم الروحي منذ آلاف السنين .

ولتأييد إنشاء وطن قومي يهودي فى فلسطين لم يكن لدى الولايات المتحدة فى الماضى – وليس لها الآن – فكرة فى مباشرة سياسة ستكون مجحفة بمصالح السكان الوطنيين بفلسطين ، وترغب حكومة وشعب هذه البلاد الصيانة التامة لحقوق العرب واليهود من سكان فلسطين ، وأن يحيا العرب واليهود فى فلسطين حياة يسر مجردة من أي نوع من العسف السياسي أو الاقتصادي .

وإننا سنعارض بشدة أيّ حل لمشكلة فلسطين يسمح بتمييز لأغلبية السكان ضد الأقلية من الوجهة الدينية والجنسية أو أي بواعث أخرى ، واعتقادنا بأن تحل هذه المشكلة بطريقة تعطى الجماعات المختلفة فى الجنسية والدين الفرص والحريات المماثلة بصرف النظر عن أن يكون لأية جماعة أغلبية عددية فى أيّ وقت كان .

زد على ذلك أنى مقتنع بأن الجماعات اليهودية ورؤساءها المهتمين بإنشاء

الوطن القومي اليهودي فى فلسطين ليس لهم مأرب لا فى الوقت الحاضر ولا فيما بعد فى إقصاء السكان الوطنيين بتلك البلاد أو فى استعمال فلسطين كقاعدة للعدوان ضد الحكومات العربية المجاورة ، ولا يوجد هناك شعب تألم خـــلال السنوات القريبة من العدوان وعدم التسامح أكثر من اليهود ، ولا يوجد شعب يقف وهو فى حاجة إلى عطف العالم وتأييده فى الوقت الحاضر أكثر من اليهود .

ولذا فإن ما لا يدركه العقل أن تفكر الجماعات اليهودية ورؤساؤهـــــا المسؤولون فى العمل على عدم التسامح ، والعدوان ضد العرب فى فلسطين أو فى أيّ مكان آخر ، إذ أن من المؤكد أن مثل هذا العمل سيثير الرأي العام ويستفز سخط العالم ، كما أنى مقتنع أيضاً بأن الأعمال الإرهابية التى تقوم بها فى فلسطين بعض الجماعات اليهودية غير المسؤولة لا تدل قطعاً على مزاج اليهود بوجه عام فى العالم كله ، أو هي رمز للتلهف اليهودي فيما يختص بفلسطين ، وفى الواقع أن القسم الأعظم من اليهود الذين يقدرون بأن الالتجاء إلى الارهاب يضفى على مشكلة فلسطين من الصعوبات ما يحول دون حلها غير راضين عنه .

وإننى أنتهز هذه المناسبة — مرة ثانية — لأوضح لكم بأنى لا أعتبر تلك البيانات المتعددة التى صرحت بها — بما فيها البيانات التى حرصت فيها على أن يسمح على الأقل لـ ١٠٠٠٠٠ من اليهود اللاجئين من أوربا بالدخول إلى فلسطين مناقضة للبيانات أو التأكيدات السابقة التى قطعتها حكومة الولايات المتحدة على نفسها ، ولقد أوضحت هذه الحكومة مراراً بأن وجهة نظرها هي أنه لن يكون هناك تغيير فى الوضع الأساسي بفلسطين من دون استشارة العرب واليهــود كليهما ، ولقد حدث فعلا السنة الماضية إجراء عدة مشاورات مع العرب واليهود ، ولكن لسوء الحظ لم تفض هذه المشاورات إلى حل متفق عليه للمشكلة الفلسطينية ، وإنما أكدت ضرورة الإسراع فى معالجة هذه المشكلة ولزوم إيجاد حل لها من دون تأخير أطول مما سبق .

وإنى واثق من أن جلالتكم توافقون معى على أنه إلى أن يتوصل إلى قرارات

بشأن مستقبل فلسطين فإن الالتباسات (عدم التثبت) التى هي فى الوقت الحاضر – على الأقل – مسؤولة إلى حد ما عن الأحوال غير المستتبة فى تلك البلاد ستستمر فى بثّ تأثير مزعج فى فلسطين والمناطق المجاورة .

وإنى أُحب أن أكرر تقديرى للصراحة التى أبديتموها فى كتابكم المؤرخ فى ٢ نوفمبر ١٩٤٦ تلك الصراحة التى تدل دلالة واضحة لا على صداقتكم فحسب ، بل وصداقة الشعب العربي السعودي مع الولايات المتحدة ، ويمكننى أن أؤكد لكم بأن شعب الولايات المتحدة يرغب فى أن يحافظ ويسعى لتقوية شعورنا بالصداقة نحو جلالتكم والشعب العربي السعودي وحكام البلاد العربية وشعوبها جمعاء .

المخلص لكم

هارى . اس . ترومان

* * *

وأخذت الحوادث تتطور فى فلسطين ،واجتمعت كلمة الصهيونية والرأسمالية والشيوعية على قيام دولة إسرائيل ، وأُعِدّت العدة لذلك ارتقابا لليوم المرتقب الذى ينشب فيه القتال بين العرب واليهود .

وصمم ابن سعود أن يخوض المعركة بنفسه ، ويتولى قيادة جيشه ، وأن يكون فى طليعة قواته كما كان يفعل فى حروبه .

وجيش البدو فى مملكة ابن سعود يعد بمئات الألوف ، ولا يكلف جمعه واعداده وتهيئته زمنا طويلا ، فيكفى أن يرسل رسلا وكتبا إلى شيوخ القبائل فيجتمع المقاتلون فى أقرب وقت وأقصره .

وأصدر ابن سعود أمره على أولئك الشيوخ بتجنيد المقاتلين الراغبين فى

الجهاد ، وجعل « الجوف » مكانا لاجتماع الجيوش السعودية من كل المملكة ، وفى خلال بضعة أسابيع اجتمع فى الجوف عشرات الألوف من القادرين الشجعان المتلهفين إلى قتال اليهود .

وبينا المتطوعون يفدون إلى الجوف كانت الادارة البريطانية بفلسطين تتهيأ لمغادرتها ، وترك اليهود والعرب يحلون مشاكلهم بأنفسهم ، وقرر ملوك العرب ورؤساؤهم خوض غمار الحرب ، وأخذت كل حكومة من الحكومات العربية تستعد ليوم المعركة فى فلسطين ،

أما ابن سعود فقد استطاع بكلمة منه أن يحشد فى الجوف أكثر من مئتي الف مقاتل يريدون الموت فى فلسطين وصمموا على أن يموتوا ، وأعدت العدة لسفرهم .

وقبيل نشوب القتال بين العرب واليهود طلب السفير البريطاني بجدة مقابلة القائم بشؤون وزارة الخارجية السعودية (وكان حينئذ الاستاذ خير الدين الزركلي) وقابله بعد الثلث الأول من الليل ، فأبلغه السفير البريطاني أنه تلقى رسالة شفوية من المملكة الاردنية الهاشمية تتضمن أنها أخذت علما بنبأ الحشود المتجمعة على الحدود الأردنية ، فاذا كان القصد من زحفها إلى فلسطين عن طريق بلاده فسوف يترك قتال اليهود وينثنى إلى تلك القوات (السعودية) لمقاتلتها .

ونشبت الحرب بين اليهود والعرب فى شهر مايو (أيار) ١٩٤٨ (رجب ١٣٦٧ هـ) ولم يستطع ابن سعود أن يقود جيشه الذى أعده لدخول فلسطين ، لأن بين البلاد السعودية وفلسطين تقع المملكة الأردنية الهاشمية التى هددت بالحرب ضد تلك القوات ، واكتفى بارسال قوة نظامية لا تعدو بضعة آلاف عن طريق مصر .

وانهزم العرب وانتصرت اسرائيل ، وذهبت فلسطين شذر مذر ، وقضى

العرب أنفسهم على الكيان الفلسطيني ، فقد انتزعت كل من سوريا ومصر والأردن بعض اجزائها ، وبقي القسم الأكبر تحت الاحتلال الاسرائيلي .

ولو أن ابن سعود وقواته دخلوا فلسطين لما قامت دولة إسرائيل ، ولما امّحت فلسطين من الوجود السياسي والدولي ، فقد تجمع أكثر من مئتي ألف محارب هم أشجع العرب طرا ، ولملأوا رحاب فلسطين ، واشتروا الجنة بأرواحهم ، ولأنقذوا فلسطين .

ولكن ، هكذا شاء الله ، ولا راد لمشيئته ، فقد ذهبت جهود ابن سعود هدرا ، أهدرها بعض قومه العرب .

والجيل العربي الجديد لا يعلم عن هذه الجهود التى بذلها ابن سعود فى سبيل فلسطين وانقاذها من اليهود ، وذكرتها ليعلم أن هذا المسلم العربي الأكبر هو وحده الذى بذل أكثر من كل الحكام العرب مجتمعين ، ولم يجبن أمام الدول الكبرى فصارحها بموقفه الذى لا يحيد عنه ألا وهو الموت دون فلسطين ، وبعزمه الذى لا ينثنى على أن يحارب اليهود فى فلسطين ، ففى رسائل ابن سعود المتعددة إلى روزفلت وترومان وتشرشل ومذكراته لحكومات هؤلاء الرؤساء وللجان الدولية الانذار بأنه لن يتأخر عن محاربة اليهود ، وانه قد صمم على فناء الأموال والأولاد والذراري — على حسب تعبير ابن سعود فى تلك الرسائل والمذكرات — ولا تقوم دولة اسرائيل .

ولكن ، ...

ومات ابن سعود وفلسطين كلها قد استولى عليها اليهود بالسلاح كما استولوا على أراض عربية من مصر وسوريا والأردن فى حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .

رحم الله ابن سعود ، وأجزل له المثوبة تلقاء ما بذل من جهود فى سبيل العرب والمسلمين .

الجزء السابع

- الكيلاني في حمى ابن سعود
- شخصية الصقر
- مفتاح شخصية الصقر
- عبقرية الصقر
- عبقرية الصقر السياسية
- شجاعة الصقر
- ابن سعود والإنسان
- مجلس ابن سعود
- حياة الصقر اليومية
- الخاتمة
- كتب المؤلف

الكيلاني في حمى ابن سعود

ولد رشيد عالى الكيلاني ببغداد سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩٢ م) وتلقى بها دراسته ، وأول دخوله الحياة العامة كان اشتغاله بالمحاماة ، ثم صار مدرساً بكلية الحقوق العراقية ، ثم وزيرا للعدل فى سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) ثم اشترك فى سنة ١٣٤٧ (١٩٢٨) مع ياسين الهاشمي فى تأليف الحزب الوطني ، وصار عضوا فى البرلمان العراقي سنة ١٣٤٩ (١٩٣٠) وتولى رئاسة الوزارة فى العراق غير مرة .

وأما الثورة التى تنسب الى رشيد عالى فحقيقتها أن أربعة من الضباط برتبة عقيد هم مفجروها الحقيقيون ، وهم : صلاح الدين الصباغ ، وفهمى سعيد ، وكامل شبيب ، ومحمد سلمان الجنابي ، وكل من الثلاثة الأول قائد فرقة ، أما الجنابي فقائد القوة الجوية العراقية .

وكان قيام الثورة فى سنة ١٩٤١ (١٣٦٠ هـ) والانجليز مهزومون فى الحرب ، والالمان منتصرون فى جميع الميادين ، وقيام ثورة فى العراق مما يزيد فى هزيمة الانجليز ويضاعف متاعبهم ومهامهم ، ويشغلهم عن الاستعداد التام لمواجهة قوات هتلر .

ولم يكن الضباط الأربعة مستعدين للثورة ولم يخططوا لها ، بل ارتجلوها ارتجالا ، وأثبتوا أنهم يجهلون السياسة والحرب ، وعندما بدأوا بإعداد العدة لإعلان الثورة اتصلوا ببعض السياسيين ، فوجدوا من بعضهم النصح الرشيد ، ومن بعضهم التحريض ،ولما اتصلوا برئيس الوزراء في ذلك الوقت جعفر باشا العسكري قدم لهم استقالته ، ثم اجتمع الضباط الأربعة بجعفر العسكري ووزرائه وتحدث اليهم أحد أعضاء الوزارة وهو توفيق السويدي ، ونصح للضباط الأربعة وأفهمهم عواقب حركتهم الوخيمة على الجيش والحكومة والشعب ، وتظاهر رئيس الحركة العقيد صلاح الدين الصباغ بالفهم وقبول النصح ، ووعد بأن يعود هو وزملاؤه إلى ثكناتهم العسكرية .

ولكنهم كانوا يبطنون غير ما تظاهروا به ، ونقلوا الى رشيد عالى الكيلاني ويونس السبعاوي وعلي محمود الشيخ علي نصح الناصحين لهم ، فأفهموهم أن عودتهم إلى ثكناتهم ستعرضهم للمحاكمة والهوان ، وحرضوهم على الاستمرار في الحركة ، وأخذوا يشعلون الفتنة ويزيدون ضرامها .

ونجحت الحركة في الإطاحة بالحكومة العراقية ، وتوارى عن الأنظار الوصي على عرش العراق الأمير عبد الآله الذى فر الى البصرة وأقام بإحدى السفن الحربية البريطانية ، وتسلمت الحكم حكومة سميت حكومة الدفاع الوطني برئاسة رشيد عالى الكيلاني الذى نسبت إليه الثورة .

ولم يرد الانجليز أن يضيفوا إلى متاعبهم ومشاغلهم متاعب جديدة في العراق بعد هزائمهم الشنيعة في أوربا وفي البحار ،وأرادوا أن يقابلوا الثورة العراقية في منتصف الطريق ، وآثروا مسالمتها رجاء أن يتفادوا الاصطدام مع الجيش العراقي ، فاعترفوا بالحكومة الجديدة برئاسة رشيد عالى ، وكاد الاتفاق يتم بينه وبين السفير البريطاني السير كنهان كرنواليس بعد التقارب والتفاهم فيما بينهما .

إلا أن قادة الجيش الضباط الأربعة وبعض السياسيين والضباط الآخرين

لم يرضهم ذلك التقارب بين الحكومة العراقية التى أوجدتها الثورة وبين السفير البريطاني ، ولم يوافقوا على أي تفاهم يتم بين الثورة وبريطانيا ، وأفهموا رشيد عالى بأن التفاهم مع الانجليز غير وارد فى برنامج الثورة ، ولهذا فلن يكون هناك تفاهم مع الانجليز ، ولم يكن لدى رشيد عالى — إزاء إصرار قادة الجيش — إلا السير مع الثورة ، وأفهم رشيد عالى السفير البريطاني بأن التفاهم مع الانجليز غير ممكن .

وبينا الثورة فى أيامها الأولى كانت القوات الهندية تنزل البصرة ، وزاد ذلك فى هياج الثورة حتى انتهى الأمر الى الصدام المسلح بين البريطانيين والجيش العراقي .

ويذكر توفيق السويدي فى مذكراته (ص ٣٦٤ وما بعدها) أن رشيد عالى الكيلاني زاره بمنزله مستشيرا وراغبا فى عونه الحكومة ، ولم يكن السويدي راضيا عن الثورة لأنها لن تثمر غير المزيد من الفوضى والاضطراب والخسائر الفادحة على القوات المسلحة والشعب كله ، ولن تنجح الثورة ولن تعود على الحكومة والشعب بالنفع مهما كانت نيات الثائرين حسنة .

وبعد حديث طويل دار بين السويدي والكيلاني بدا من رشيد عالى ما يفهم منه أنه متورط مع العسكريين الثائرين ، وكان يود الخلاص ، ولكن لا سبيل إليه ، ولو أراده لتعرض لنقمة العسكريين ولقضوا عليه شر قضاء ، فهو مجبر على أن يكون معهم ، فنصح له السويدي بالهرب إلى إيران ، وهذا فى وسعه عن طريق « خانقين » وصادف النصح هوى فى نفس رشيد عالى ، ولكن الظروف لم تسمح له بتحقيق ما نصح له به السويدي .

وفى صباح يوم الجمعة ٤ ربيع الآخر سنة ١٣٦٠ (١ مايو ١٩٤١) وزع منشور موقع من السفير البريطاني كرنواليس قد أعدته السفارة البريطانية ببغداد

مساء الخميس ٣ ربيع الآخر ١٣٦٠ يهاجم فيه السفير البريطاني حكومة رشيدعالى الكيلاني بقسوة .

وما كان السفير البريطاني ليوزع منشوره إلا بعد أن وجد تصميم الجيش العراقي على القتال ، وعزم حكومة الكيلاني على العداء السافر ، ولم يُجْدِ السفير البريطاني أمله فى التقارب والتفاهم ، وذهبت مساعيه من أجل التصافى هباء فأصدر ذلك المنشور .

وقبيل توزيع المنشور من قبل السفير البريطاني ببضعة أيام قام الجيش العراقي بتحركات لم تخف عليه، وتحركت قوات عراقية مسلحة نحو « الحبانية » .

وفي يوم السبت ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٦٠ (٧ مايو ١٩٤١) قام سلاح الطيران العراقي بغارات ناجحة على قاعدة الحبانية البريطانية نجم عنها وقوع خسائر جسيمة وأضرار جدّ فادحة على البريطانيين .

واشتعلت نيران الحرب بين الجنود البريطانيين بمختلف الأسلحة والجيش العراقي دون أن يكون هناك تكافؤ بين القوتين ؛ فالقوة العراقية بيد ضباط وقادة محرومين من الذكاء والخبرة ومن إدارة الحرب ، حتى أن تموين القوات العراقية المحاربة كان مختلا ، فبعض القوات التى كانت تحارب عن بعد خمسين كيلومترا من بغداد انقطع عنها الخبز .

وكل تحركات الجيش غير موفقة ، وكانت الحكومة العراقية مضطربة ، فالثورة التى قام بها أولئك الضباط الأربعة كانت أكبر منهم ، وأما الشعب العراقي فكان الضحية ، فقد انتشرت فى صفوفه الفوضى ، ووقع النهب والسلب ، وعمت المجاعة ، وانتقل الأمر كله بأيدى غير الراشدين ، ومن كان ذا رشد من أعضاء الحكومة فقد أضاعه ما ساد البلاد من القلق والفوضى والاضطراب .

وفي يوم الخميس الذى قامت القوات الجوية العراقية بضرب قاعدة الحبانية سافر ناجى السويدي — شقيق توفيق السويدي — إلى الملك عبد العزيز بن سعود يعرض عليه وجهة نظر حكومة العراق الجديدة والثورة ، وكان منتدبا منهما ، وقبيل سفره مضى إلى أخيه توفيق السويدي يودعه ويستشيره ، فذكر له أن هذه فرصة أتاحها الله له ليتبعد عن العراق فى هذا الوقت العصيب ، ونصح له بالبقاء فى كنف ابن سعود حتى تنتهي كارثة العراق ثم يعود ، فوعده خيرا .

وسافر السويدي الى الملك ابن سعود وقابله وأدى مهمته ، ووجد منه الاعتراض التام على الثورة التى عرضت العراق لفواجع وكوارث ، وذكر له أن الثورة فاشلة ، وقامت بدون هدف واضح ، ولم يفت ابن سعود أن الثورة تفصح عن وجود أيدى المحور فى تدبير نسج خيوطها ، وذكر ابن سعود أنه لا يؤيد الثورة ولا يرضى عنها فى هذا الوقت .

وسأله ابن سعود قائلا : لماذا قامت الثورة ؟ وما غايتها ؟ وما أهدافها ؟ أوليست مجازفة خطيرة بل مغامرة بمقدرات العراق الذى هو فى حاجة للبناء لا للهدم ؟ وما المقصد من الثورة ؟ ألإخراج الانجليز من العراق ؟ أفى وسع الجيش العراقي أن يخرج الانجليز وقواتهم متمكنة من العراق وقطع أسطولهم فى مياه البصرة ؟ وهل يرضى الانجليز بمغادرة العراق وتركه ليحل محله نفوذ المحور ؟! إنكم اخترتم أسوأ وقت لثورتكم التى بدأت خطواتها الأولى المتعثرة تنذر بكارثة محققة ، وعلى أي حال لا أملك الا أن أدعو لحكومة العراق بأن يلهمها الله عز وجل الرشد والصواب ، وللشعب العراقي أن يحفظه الله وينعم عليه بالخير العميم .

وعاد ناجى السويدي من سفارته إلى بغداد يوم السبت ١٢ ربيع الآخر سنة ١٣٦٠ (١٤ مايو ١٩٤١) لينقل الى رشيد عالى والضباط وأعضاء الحكومة آراء ابن سعود ، فاذا ما ذكره ظهرت بوادره ، فقد بدأت الثورة تخفق ، وأدرك الثائرون أنهم مهزومون ، وأخذوا يفقدون رشدهم .

وفى يوم السبت ٣٠ مايو ١٩٤١ (٢٨ ربيع الثانى ١٣٦٠) كانت الثورة الكيلانية قد أسلمت الروح وخمدت أنفاسها ، وهرب قادة الثورة والضباط الأربعة إلى جهات مجهولة ثم ظهروا فى افريقيا فى بعض المستعمرات البريطانية، وأما رشيد عالى الكيلاني فقد فر إلى إيران .

وكانت إيران محايدة ، ولكن حيادها لم يكن تاما – كما يظهر – اذ كان للمحور فى ربوعها نشاط واسع النطاق مما دعا الحلفاء إلى احتلالها ، فاضطر رشيد عالى إلى الهرب منها إلى المحور ، وظهر فى ألمانيا فى السنة التى قام بثورته فيها وهي سنة ١٩٤١ .

وبقي رشيد عالى بألمانيا حتى سنة ١٩٤٥ (١٣٦٤هـ) حيث انتهى أمرهما بالهزيمة الماحقة ، واستسلمت للحلفاء بدون قيد ولا شرط ، واضطر رشيد عالى إلى الاختفاء ؛ فقد كان محكوما عليه بالموت ، واعتبره الانجليز مجرم حرب ، ثم اندس بين عشرات القوافل البشرية من شيوخ وشباب ونساء وأطفال وفيهم كثير من العرب الذين غادروا ألمانيا ، واتجهت تلك القوافل إلى سويسرا التى أغلقت حدودها فى وجوههم ، فاضطروا إلى العودة إلى ألمانيا .

أما رشيد عالى فلم يعد مع العائدين إلى ألمانيا المهزومة ، بل اتخذ طريقه إلى فرنسا متنكرا متخفيا ، لأن الانجليز كانوا حريصين على القبض عليه باعتباره مجرم حرب محكوما عليه بالإعدام ، ووصل إلى باريس ، ووفق إلى مقابلة بعض السوريين الذين استقبلوه بحفاوة ، ووضعوا أنفسهم وأموالهم تحت تصرفه ، وساعدوه بكل جهودهم فى تنكيره وإخفائه حتى يتيسر له الهرب إلى مأمن .

ومع أن عيون البحث عنه يقظة فقد أغفلها الله عنه ، ولا يعزو رشيد عالى تلك الغفلة إلى مهارته فى التنكر والاختفاء ، وإنما يعزوها إلى الله سبحانه وتعالى، ثم إلى دعائه الذى لم ينقطع ، والى المصحف الشريف الذى يحمله ولا يفارقه ،

ثم إلى إخلاص أولئك السوريين النبلاء الذين لم يبالوا ما يتعرضون له إذا افتضح أمرهم .

واستطاعوا أن يجدوا مخرجا لرشيد عالى ، فقد كانت باخرة فرنسية تغادر مرسيليا إلى بيروت ، ووفقهم الله لإركابه فيها دون أن يفتضح ، وما كادت الباخرة تترك مرسيايا حتى تنفس الصعداء ، وانزوى فى مستودع الفحم محتملا الحر الشديد حتى ساءت صحته وتورمت قدماه .

ورست الباخرة فى ميناء بيروت ، فضرب الجنود البريطانيون نطاقا حولها ، وصعد ضباط إنجليز للتفتيش والمراقبة ، وكان رشيد عالى طَلِبَتَهُم ، وكان على سلم الباخرة من الصفين وفى أعلاه وأسفله ضباط من الانجليز .

وغير بعيد أن يصل إلى علمهم أن رشيد عالى فى هذه الباخرة أو البواخر المغادرة فرنسا إلى بيروت وبعض الموانىء العربية فاتخذوا الاستعداد والحيطة للتفتيش والقبض عليه ، وكانت لبنان تحت إدارة العسكرية البريطانية .

ولولا لطف الله لوقع رشيد عالى فى يد الانجليز ، ولكن الله هيأ له قبيل نزوله بدقائق فتاة فرنسية كانت متزوجة من سوري ، وكانت تجيد الرسم ، فما كان منها إلا أن أخذت « البطاقة » الشخصية لأحد السوريين من ركاب الباخرة ؛ وأضافت إليها اسما مستعارا أسمته به ، واستعملت ريشتها الصناع لإظهار بعض المعالم وإخفاء بعضها ، وصحبته معها ، وأبرزت البطاقة وأشارت اليه فى حين كان رشيد عالى ينزل السلم فى تؤدة وهو يقرأ فى سره بعض الآيات والأوراد ، واجتاز السلم حتى وصل إلى أرض الميناء بسلام .

وكان الله رحيماً به ، فسوء صحته وتورم قدميه من أثر حبس نفسه فى مستودع الفحم قد زاد فى إخفاء شخصيته وملامح وجهه ، وغادر الميناء إلى أول سيارة أجرة ، وألقى بنفسه فى مقعدها الخلفي وقال للسائق : إلى دمشق ،

وكان الوقت فجراً ، وما يزال من الظلام بقية ، فطار السائق بسيارته ، وغفلت عنه عيون رجال الحدود فيما بين بيروت ودمشق حتى دخل دمشق والشمس بدأت تشرق ، ونزل فى أحد الفنادق المتواضعة ، ودخل غرفته ، وأول ما صنع – كما قال رشيد عالى نفسه لبعض السعوديين فيما بعد – أن توضأ وصلى ركعتين شكراً لله سبحانه وتعالى ، وشعر بشيء غير يسير من الثقة والأمن والاطمئنان .

وبعد أن صلى العشاء ورأى الظلام يغشى المدينة غادر غرفته ، واتصل بأصدقائه السوريين وفيهم بعض من كانوا معه فى الباخرة وفى باريس ، فحضروا إليه ، وزاد أمنه بهم ، وفى اليوم الثانى انتقل الى دار أعدها له أولئك السوريون الكرام .

ولم يكن فى حساب رشيد عالى وفكره غير مملكة ابن سعود ، فهي آمن بلد بالنسبة له ، وأقرب مكان يرحل إليه ، وذكر لأصدقائه السوريين ما فى نفسه ، فأيدوه ، وأخذوا يهيئون له أسباب السفر .

وبعد بضعة أيام انتهوا من مهمتهم ، فقد استخرجوا له تذكرة سفر وبطاقة شخصية تثبت أنه « سوري » وأنه تاجر أغنام من دير الزور ، وان اسمه « أحمد عبد القادر » ووجهته المملكة العربية السعودية ، وكان تجار المواشى السوريون يقصدون نجدا للتجارة ، ولم يكن فيما يتصل برشيد عالى ما يثير الشبهة فيه أو فى عمله الجديد .

وأعد السوريون سيارة للسفر ، ورافقه فى الرحلة ثلاثة : أحدهم « ميكانيكي » ليقوم بإصلاح السيارة إذا أصابها خلل فى الطريق الرملي الصحراوي الصعب ، والاثنان الآخران سوريان أيضا ، وكانا مع رشيد فى ألمانيا ثم باريس ثم مرسيليا ، وصحباه بالباخرة حتى بيروت .

ورشيد عالى يستحق منهم كل هذه التضحيات ، فقد كان لهذين السوريين فى دار الغربة خير والد وصديق ، وكانا فى رعايته مثل غيرهما من شباب العرب فى ألمانيا .

وذات صباح غادروا بسيارتهم دمشق بعد صلاة الفجر إلى الأردن ، واجتازوا الحدود بسلام إلى عمان ، وواصلوا سفرهم إلى معان ، ومنها الى الحدود ما بين المملكة السعودية والأردن ، واعترضهم بعض حرس الحدود الاردنيين ، ورأوا أن يعيدهم إلى عمان للتحقيق معهم ، فأظهروا ما بأيديهم من وثائق السفر الصحيحة وما عليها من توثيق الحدود الأردنية لها بختمهم إياها ، وعرضوا أمرهم ووثائقهم على « الضابط » ففحصها ووجدها مستوفية الإجراءات الرسمية ، وتأكد من صحة الوثائق التى يحملونها ، وأنها رسمية ، ومـا ثم ما يريب ، فأذن لهم بمواصلة السفر إلى الحـدود السعودية ، وشعروا جميعاً وبخاصة رشيد عالى بالبرد والسلام والطمأنينة والأمن والراحة النفسية تنزل إلى قلوبهم ، حتى إذا استقبلهم رجال الحدود السعودية شعروا بالأمن كله ، فقد بلغوا مأمنهم بفضل الله وكرمه .

ومنذ الاعداد لهذه الرحلة وقبلها كانت الصحافة العالمية والاذاعات ووكالات الانباء تتحدث عن رشيد عالى ، وكانت السلطات الانجليزية والفرنسية تبحث عنه ، وكان رجال الحدود السعوديون يعرفون أن رشيد عالى مجرم حرب محكومٌ عليه بالاعدام ، ومطلوب القبض عليه .

واستقبلهم قائد حرس الحدود السعودي استقبالاً كريما ، ورحب بهم أيما ترحيب ، وهم لا يعرفون الا أنهم يستقبلون « أحمد عبد القادر » تاجر الغنم السوري من دير الزور ورفاقه ، واختفت ملامح رشيد عالى حتى ظهر وكأنه — حقيقة — تاجر غنم ، فما كان مظهره إلا إياه ، فهو يلبس ثياب تجار الغنم ، وعلى رأسه صماد وعقال .

وأنزلهم القائد السعودي بخيمته ضيوفا عليه ، وعلم منهم أنهم يقصدون نجدا ، ووثائق السفر تثبت القصد ، وذكر لهم أنه سيستأذن لهم الرياض ، فاذا سمح لهم بالدخول اتخذوا طريقهم إلى نجد ، وإلا عادوا من حيث أقبلوا ، وأن الجواب لا يستغرق غير ٤٨ ساعة يقضونها ضيوفا عليه .

ويقول رشيد عالي لبعض أصدقائه السعوديين : لم يكن شغلي غير الابتهال إلى الله أن يجعلني بين يدي الملك عبد العزيز ، فقد كنت موقنا أنني سأجد في رحابه وحماه الأمن كله والخير كله .

وشغل نفسه بالدعاء وقراءة الأوراد وتلاوة القرآن الكريم ، وبينا كان يتلو هذه الآية الكريمة : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ دخل عليه وعلى رفاقه قائد منطقة الحدود وقال لهم : الآن ، جاء الجواب بالسماح لكم بالدخول ، فسجد رشيد عالي شكرا لربه الكريم .

ولما غادرهم القائد قال رشيد : يا إخوان ، هذه الآية بشرى ، لقد وقانا الله سيئات ما مكر الانجليز وخصومي في العراق ، سيحميني ابن سعود بإذن الله ، وسينصره الله نصرا عزيزا .

وأعدوا سيارتهم لمتابعة الرحلة إلى نجد ، وودعهم القائد وجنوده وهم لا يعلمون حقيقة من ودعوه ورفاقه ، بل كان القائد في سمره معهم يسألهم عن رشيد عالي الكيلاني ، وعن مكانه ، وعن نشاط الانجليز في البحث عنه ، فكانوا يجيبون بأنهم لا يعلمون .

ووصلوا بسلامة الله الى الرياض قبل أذان الفجر ، ورأوا حركة غير عادية فيها ، وكان للسوريين الذين صحباه أصدقاء سوريون بالرياض ، فبعثهما اليهم استجلاء للحقيقة ، فعادا إليه وأخبراه أن الملك عبد العزيز سيغادر الرياض إلى مكة المكرمة حرسها الله بعد أن يصلي الفجر في مسجده ، فأسرعوا بسيارتهم

إليه ، وأدوا ركعتي سنة الصبح ، وأخذ رشيد عالى يدعو الله ، وإذا ابن سعود يقبل إلى مكانه من المسجد ، وصلى ركعتي السنة ، وأخذ فى تسبيحه انتظارا للفريضة ، وأقيمت الصلاة فصلى الناس ، وبعد أن انتهوا من صلاتهم مضى رشيد عالى إلى الملك عبد العزيز وسلم عليه وصافحه ، وجلس بجانبه ، وابتعد الناس عنهما بإشارة الملك ، وهنا قال رشيد للملك بصوت خفيض : أنا — يا طويل العمر — رشيد عالى الكيلاني .

وهنا انطلقت من الملك كلمات سمعها القريبون منهما : أعوذ بالله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ! ! .

وتابع رشيد كلامه فقال : بفضل الله وكرمه وصلت إلى سوريا متنكراً لم يعرفنى أحد ، ثم أوصلنى الله اليكم وأنا متخفٍّ متنكر دون أن يعرفنى أحد ، وما جئت إليك إلا وأنا لاجىء بحماك ، ومستجير بك ، فإذا قبلت لجوئى وأجرتنى فالله يجزيك عنى خير الجزاء ، وإذا كانت مصلحة بلادك تقضى بمغادرتها فأنا عائد من طريقى الذى جاء بى إلى رحابك ، وبالكتمان نفسه ، لئلا أسبب لك ما لا أريد من المشاكل ، وأرض الله واسعة ، وسيجعل الله بعد عسر يسرا .

ونادى الملك ولي عهده وكان معه بالمسجد ، فلما أبصر الغريب فى حديث مع أبيه ابتعد ينتظره ؛ وأقبل إليه فقال له : ابق هذا الرجل عندك حتى أعود .

وسافر الملك عبد العزيز إلى الحجاز ، وأخذ يفكر فى أمر رشيد عالى ، وهو لا يريد أن يثير أحدا ، ويحرص على علاقاته السياسية والأخوية ويعمل على أن تكون حسنة ، ويعظم حرصه فى أن تكون علاقته بالعراق جد حسنة ، وما يود أن تسوء بينه وبينه بسبب رشيد ، ولا يمكن أن يسلم ضيفه الذى لجأ إليه واستجار به إلى حبل المشنقة ، ويسير عليه أن يفديه هو وأولاده وكل آل سعود .

وإذا كانت المعاهدات بين العراق وبينه لا تنص على تسليم من يسمون المجرمين السياسيين فان القوانين الدولية لا تلزم بذلك ، ثم إن العرف بين العرب فى مثل هذا الحادث الخطير يقضى بإكرام الضيف وحماية المستجير .

ولكن ابن سعود يود أن تكون للعراق فى شخص الوصي على عرشه يد عليه بالعفو عن رشيد عالى ، وتزيد هذه اليد الكريمة فى مضاعفة الحب بينهما بل بين الأسرتين : الهاشمية والسعودية ، فكتب إلى حكام الأقطار العربية يستعينهم أن يساعدوه فى إيجاد هذه اليد البيضاء للوصي على عرش العراق .

ومن بين الملوك والرؤساء الذين كتب لهم ابن سعود الملك فاروق ، وقد روى الأستاذ خير الدين الزركلي فى [1] كتابه « شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز » ٣و٤ : ١٢١٣ — ١٢١٥ أنه تلقى برقية بالشفرة الخاصة التى بينه وبين الديوان الملكي ، هذا حلها كما ذكره :

« أوصل الرسالة الآتية إلى الملك فاروق بأسرع ما يمكن ، وبدون أن يطلع أحد على ذلك » .

وأما الرسالة فهذا نصها :

« حضرة صاحب الجلالة الأخ العزيز الملك فاروق ، حفظه الله

« أخي ، إنى على يقين بأن الذى يزعجنى يزعج جلالتكم ، وتأتى الأمور بالحوادث بغير اختيار ولا رغبة .

« فقد حدث عند خروج أخيكم من بلدكم الرياض أن وفد إلينا وفد ادعوا

---

(١) كان حينئذ وزيرا مفوضا وممثلا للمملكة العربية السعودية في الجامعة العربية مع الشيخ يوسف ياسين ، وينوب عنه في التمثيل لدى الجامعة اذا غاب .

انهم سوريون، فلما وصلوا إلينا ظهر أن أحد رجال الوفد رشيد عالى الكيلاني، وتعلمون جلالتكم أننا لم نكن مؤيدين له ، بل كارهين لما كان منه فى وقته ، ولكن ؛ بما أن الرجل حل وسط المحارم والعيلات التى هي محاركم وبلادكم فما وسع أخاكم إلا أن يسعى فيما يؤمنه كما تقضى به الشمائل الدينية والشيم العربية .

« وفى الحال أبرقنا لسمو الأمير عبد الإله ، ورجوناه العفو عنه .

« فأرجو من جلالة الأخ العزيز أن يساعد أخاه فى هذه المهمة فيتفضل بالكتابة لسمو الأمير عبد الإله للعفو عنه حتّى يلتجيء إليه ، ويعيش تحت ظله .

« وإن رأى جلالتكم أن تكون الكتابة لعبد الإله بأنه بلغكم التجاء رشيد عالى إلى أخيكم ، ولذلك تطلبون استصدار العفو عنه بالأسلوب الذى أنتم أعلم به .

« وأرجو من جلالة الأخ أن يبقي هذا الموضوع فى دائرة السرية والكتمان حتى لا تتداوله الألسن بالنشر والتعليق ، لأن ذلك أرجى فى النجاح .

حفظكم الله وأبقاكم .

« عبد العزيز »

وتاريخ تسلم خير الدين الزركلي هذه البرقية ٢٦ شوال سنة ١٣٦٤ (٢ أكتوبر ١٩٤٥) ومصدرها الطائف حيث كان الملك عبد العزيز .

وقابل خير الدين الملك فاروقا فى الغردقة يوم الجمعة ٢٩ شوال ١٣٦٥ (٥ أكتوبر ١٩٤٥) على ظهر اليخت الملكي « المحروسة » .

ووجهت رسائل إلى الملوك والرؤساء العرب مماثلة لرسالة الملك فاروق ،

ولكنها لم تؤد إلى نتيجة مرجوّة ، وقد تلقى الاستاذ خير الدين رسالة من الديوان الملكي بالرياض ـ بعد أسبوع من مقابلته الملك فاروقا ـ جاء فيه :

« كنا ننتظر أن نجد من فاروق تحمسا أكثر مما أظهره ، وقد أجابنا الوصي عبد الإله على طلب العفو بجواب قانوني ، ونحن لا يمكن أن يتغير موقفنا ، لأن تسليم الرجل إلى المشنقة فيه عار الأبد ، وسنستنفد سائر الوسائل السياسية والعاطفية والعربية » .

وكان قرار ابن سعود الذى اتخذه ولن يحيد عنه هو حماية رشيد عالى الكيلاني ، والعزم المصمم الذى لا يحول عنه بإذن الله هو ألا يسلمه ما دام حيا ، وما دام في الأرض واحد من آل سعود ، ولكنه لم يتخذ قرار الحرب ، لأنه يريد السلام والمودة ، وكان قد عاد إلى الرياض من الحجاز ، وأرسل إلى ابنه الامير فيصل ونائبه أن يحضر إليه ـ فورا ـ ويصطحب معه الممثل البريطاني بالمملكة ، وحضرا اليه ، وعندما أخذا مكانهما قال عبد العزيز للممثل البريطاني : لقد وصل إلى الرياض رشيد عالى الكيلاني ، وقد التجأ إلي واستجار بى ، وهو عندى الآن وضيفى ، وفى جوارى وحماي ، وأرجو أن تأخذ الحكومة البريطانية علماً بذلك.

ولم يتمالك ممثل بريطانيا نفسه فوقف على قدميه وقال بلهجة شديدة : هذا مجرم حرب ولا يمكن قبول لجوئه ، ولا بد من تسليمه فورا للحكومـــــة البريطانية .

وتمالك الملك هدوءه وقال له : قلت لك : إن الرجل ضيفى ، وان التقاليد العربية لا تجيز تسليم الضيف بأي شكل ، وفى أي حال ، وفى أي ظرف ، ولما كنت لا أريد أن أسلم ضيفى الذى جاءنى من غير دعوة منى له فإن تسليمه ـ لا قدر الله ـ عار الأبد الذى لا يمحى ، ولن أسلمه ، لئلا يكون اسمى مضغة فى أفواه العرب أبد الدهر ، ولا أقبل أن يقال : إن ابن سعود سلم ضيفه ، لذلك يجب عليك أن تبلغ حكومتك ما قلته لك .

ولم يتمالك الممثل البريطاني أعصابه ، ولعله كان يجهل تقاليد العرب ، ولا

يعلم حقيقة ابن سعود ، وقال : هذا مستحيل ، إن انجلترا لا يمكن أن تقبل ، ولا بد من أخذه بأي حال .

فرد عليه ابن سعود : إن رشيد عالى سيظل عندى آمنا مطمئنا ما بقيت وما بقي أحد من آل سعود حياً ، ووالله ، ثم والله ، لو جاء الانجليز بأساطيلهم وصفوا بوارجهم من لندن إلى جدة فلن يأخذوه ما دمت حيا .

فقال الانجليزي : هذا لن يكون .

فقاطعه ابن سعود قائلا : اسمع ، لا تطل الكلام ، إن عليك إبلاغ حكومتك بما قلته لك ، وهنا تنتهي مهمتك ! والآن ، انتهى الاجتماع .

وغادر الانجليزي مجلس ابن سعود ، وصحبه الأمير فيصل، وعادا إلى جدة ، وأبلغ الانجليزي حكومته بموقف ابن سعود ، فأمرته بمتابعة جهوده رجاء أن ينثني عزمه ، فتردد الإنجليزي على الأمير فيصل رجاء إقناع أبيه بتسليم رشيد عالى فلم يجد لديه ما يرجو ، وأخيراً أفهمه فيصل تقاليد العرب فى مثل حادث رشيد عالى وقال له : إن الباب مغلق ، ولن يسلم رشيد عالى الكيلاني .

وأدرك الانجليز أنه لا سبيل إلى أخذ رشيد عالى ، ورأوا اخفاق مساعيهم ، وأرادوا أن يتفادوا هذا الإخفاق فأعلنوا أن رشيد عالى ليس مجرم حرب بالنسبة لهم ، لأن حكماً كهذا لم يصدر من محاكمهم ، فهم لا شأن لهم به ، وإن الحكم صادر عليه من محاكم العراق ، فحكومة العراق هي وحدها صاحبة الشأن ، فعليها أن تطالب بتسليمه إذا شاءت .

ولما أُبلـغ ابن سعود بوجهة نظر البريطانيين الجديدة حمد الله وفرح كثيراً وقال : الحمد لله ، والله ، لو جاءنى إلى منزلى هذا عبد الإله نفسه لما سلمته رشيد عالى ، وإذا بلغ بى الأمر مع الانجليز ما بلغ ولم أبال فى سبيل كرامتى وسمعتى فهل أسلم رشيد عالى للعراق ، والله ، ثم والله ، ثم والله ، لن يكون ذلك.

وانتصرت كرامة ابن سعود ، وسما رأسه حتى السماء ، وذهب موقفه

النبيل فى عصره مثلا يضرب فى إكرام الضيف وحماية اللاجىء المستجير به ولو أن الدنيا حاربته .

وبقي رشيد عال الكيلاني فى حمى ابن سعود معززا مكرما مرفوع الرأس، وقد وهب له قصرا عظيماً أنزله فيه ، وأعطاه فى بلاده أعلى مكانة وأعظم قدر ، وجعله مستشارا له ، وقدر له راتبا ضخما ، ومنحه خدما وحشما، وعاش فى مستوى أعلى مما يعيشه من هو أكبر منه فى العراق .

بقي فى رحاب ابن سعود من سنة ١٣٦٤ (١٩٤٥) إلى سنة ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤م) حيث غادرالرياض إلىالقاهرة بعد وفاة حاميه الأعظم ابن سعود.

وتوفي ابن سعود فى يوم الجمعة ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٧٢ (١٢ نوفمبر سنة ١٩٥٣ م) بالطائف ، ونقل جثمانه إلى الرياض ، وحضر رشيد عالى إلى المطار ، ثم مشى فى جنازته حتى ووري التراب فى قبر عادي ، وكان رشيد عالى غارقا فى ذهول وأسى ، ولم يبك رشيد عالى الكيلاني أحداً قط كما بكى يوم علم بنبأ وفاته ويوم دفنه ، وقال على قبره : اليوم ندفن أعظم الصفات الكريمة وأنبل الخلائق العربية وأكرم الشمائل الاسلامية ، اليوم ندفن أعظم رجل إنساني أنجبه هذا العصر ، ثم انهار رشيد عالى فحملوه إلى قصره .

وبقي فى القاهرة أربع سنوات وهو يعيش على فضل ابن سعود وبره ، حتى أنه كان يقول : إننى أحيا أنا وأهلى وضيوفى على إحسان ابن سعود الذى يسعنى فضله حيا وميتا ، رحمه الله .

ولما قامت ثورة عبد الكريم قاسم ظن رشيد عالى أن الاستقرار عاد إلى العراق فعاد إليه من القاهرة ، واستقبل بترحاب ، ثم حوكم وسجن ، وقضى ثلاث سنوات فى السجن ، ثم غادر بغداد إلى بيروت سنة ١٣٨٥ هـ (١٣٦٥ م) حيث توفى بها .

رحم الله ابن سعود ورشيد عالى الكيلاني .

شخصية الصقر

ما الشخصية ؟

هي مجموعة الخلائق والصفات التي تميز فردا عن فرد ، أو هي « العلامة الفارقة » بين انسان وآخر ، سواء أكانت في الخلقة أم الخلق ، والشخصية تتربى وتنمو حيث تكون الحرية سلطانة آمرة لا مذلولة مأمورة ، وتنعدم أو تتضاءل حيثما يبسط الاستعباد ظله الثقيل ، لأن الملكات والمواهب والتنويع والابتكار تنعدم ما دام الاستعباد مسيطرا ، ويصبح الناس نسخا مكرورة متشابهة لا ينماز أحد عن أحد بالمنازع والاهواء والصفات الا فيما لا يجدى الاختلاف فيه ، ولكن متى كانت الحرية هي الآمرة الناهية ، ومتى كانت ملكا مشاعا بين الافراد والجماعات لا يحتكرها حاكم أو حزب مستبد غشوم تنشأ الشخصيات أو ينشأ أناس مختلفون في المشارب والاحساس والتعبير والتفكير ، لكل فرد منهم نظرة خاصة الى الحياة والاحياء ، واحساس خاص بالمنظور والمشموم والملموس وبغير هؤلاء جميعاً ، وطريقة خاصة في الحديث والافصاح عما يحس ويرى لأنه انسان حي له ارادته الخاصة وخلقته الخاصة وطبيعته الخاصة .

انه يختلف عن صديقه وتربه وأخيه وأمه وأبيه خلْقيا فيجب أن يختلف عنهم خُلُقيا ، والا اذا تساوى الاناسي في الخلقة والخلق وانعدمت الفوارق

والاختلاف فيما بينهم فما حاجة الدنيا الى صور مكرورة متعددة لا تتفاوت فى شيء ، وما قيمة المجموع البشري اذا كان كله أو بعضه على غرار واحد كالدنانير المطبوعة ، هذا مثل ذلك فى الحجم والشكل والزنة والثقل والدرجة والقيمة لا يفرق أحدها عن الآخر فى شيء .

لم يخلق الناس متحدين فى الخلقة والخلق ، فهنالك الاختلاف بين الالوان اوالاجسام والاشكال ، والاختلاف فى الجلوس والحديث والمشي والاكل والشرب ، وهنالك التباين فى الصفات والميول ليكون كل انسان جزءا مكملا للآخر لا مثالا مكررا أو كلمة مرادفة .

ونقصد من هذه التوطئة أن نقول : ان الشخصية هي مميزات الانسان الخاصة وعلامته الفارقة عن غيره ، فهل كان ابن سعود شخصية ممتازة بينة ولمعالم واضحة السمات لا تنمحى فى الشخصيات الأخرى ، وانما تظهر بسماتها الخاصة وطابعها الخاص وما ركب فيها من غرائز وميول لا تفنى فى غيرها ، بصفات تميزها عن شخصيات الآخرين ممن هم فى طبقته ومواهبه وخلائقه وعظمته ؟ أم كانت كالشخصيات الكثيرة التى تتولى الملك والامارة لا تمتاز عن غيرها فى شيء كثير .

أما أنا فأستطيع أن أقول جاهرا فى القول : ان ابن سعود من أولئك الزعماء الابطال الذين يصنعون التاريخ صنعا ، وتقف شخصياتهم لا تطغى عليها البيئة ولا تدغمها فى غيرها ، وانما تحتفظ بكيانها المستقل لأن لها خصائص وعلامات تنجيها من الفناء فى الشخصيات الأخرى ، فما هي هذه الخصائص التى تفرد بها عن غيره وكانت علامته الفارقة ؟! وما المفتاح الذى يفتح به باب هذه‌الشخصية ليسهل الدخول منه إلى بواطنها وفحص ما بها ، ومشاهدة ما فيها من مرام وخوالج وحالات ورغبات ؟ .

أما المفتاح فله فصل مستقل يعقب هذا الفصل ، أما الخصائص التى تميز

شخصية ابن سعود عن غيرها ، وتسمها بسمات خاصة فهي كثيرة ، ولكن مردها جميعا الى ما نذكر ، اذ يمكن أن تكون مجملة فيه ، واذا فصل بعضه عن بعض افترق بعضه عن بعض ليجتمع فى العنوان .

وأول ما يحسن الكلام عليه الصفات الخِلْقية لنتدرج من السهل الى الصعب أو من المحسوس الى المعنوي حيث يرحب المجال ويبعد الافــق ويتسع الطريق .

ولد ابن سعود من أبوين كريمين : أما والده فهو عبد الرحمن أحد أئمة نجد وأبطالها المعلمين ، عربي ما فى ذلك شك ، ثم يزيد بنفاسة أسرته وسمو أخلاقها ورجاحة حلومها وسماحة نفوسها رجالا ونساء ، وهم أول من نشروا الدين فى نجد بعد أن قضى عليه تفرق المسلمين واشتغال حكامهم بالدنياوانقيادهم للملذات وارباء احساسهم بالترف والمتاع ، واستطاع آل‌سعود أن يغيروا مجرى حياة وعادات أمة وتاريخ شعب بل شعوب ، وأعادوا للاسلام عزته وهيبته بعد أن فقدهما قرونا ، ولولا من قام فى وجوههم وصدهم عن العمل لكان للاسلام والعروبة شأن آخر غير هذا الشأن اليوم ، ولكن لا أسف على ما فات فما هو بنافع الا اذا اعتبر به .

وتاريخ عبد الرحمن وجهاده معلومان من هذا الكتاب ، فقد كان أعظم رجل يحب الحرية ويقدسها ويفهم معناها فى نجد ، وأظهر ثائر على الظلم والضلال ، وكان صلب القناة شديد الوطأة على الظالمين الذين اغتالوا حقوق شعبه واضطهدوه واغتصبوا الحكم الشرعي اغتصابا ، وحولوه من الحكم الاسلامي العادل إلى حكم عشائري غشوم باطل .

ولما رأى المقام فى نجد تحت حكم الطغاة عسيرا سافر الى الكويت ومعه أسرته وابنه عبد العزيز يتعلم من أبيه القائد الحكيم المحنك وسائل القتال والدفاع وأساليب السياسة وفن الحكم، ويتمرن على الاعمال الشاقة العسيرة التى لا غنى

عنها لمن يقوم أو يريد أن يقوم بعمل عظيم كالعمل الذى باغت به العالم .

ولكل من والديه أثر فى تكوين شخصية عبد العزيز ، فقد ورث عن أبيه العلم والمعرفة ومتانة الخلق والحزم وسعة الحيلة والبصر بقيادة الافراد والجماعات والجيوش ، والعلم بالتعبئة والدعاية والخطط الحربية والفنون العسكرية والرجولة والبطولة والشجاعة والجرأة والكرم ، كما ورث عن أخواله الرصانة والهدوء والرحمة وحب الخير ، وورث عن آبائه وأجداده خير الخلال ، وأما سيئات البيئة فقد كان عنها بنجوة لأن فى خلقه ونفسه مناعة قوية تصد كل دخيل ممقوت ، فلم يتدسس الى طباعه الاصيلة ما يفسدها من الصفات المزدراة ، واستطاع أن يطبع كل صفة من الصفات الموروثة بطابعه الخاص حتى أصبحت موسومة بسمته لا يخطئها الناظر ولا تغيب عنه ولو لم يُدل على صاحبهــا بالعنوان ، لأنها هي نفسها تشير اليه وتهتف باسمه .

فكما كان فى صفاته علما فردا ـ كما سيأتى ـ كان فى بنيانه الوثيق المكين علما فردا : فهو أروع ، طويل القامة ، ضخم الجثة ، سامق البنيان مكينه ، مرفوع الذرى ، يفرع الناس بطوله المبين الذى يبلغ ست أقدام وأربع بوصات ، فهو من أولئك العرب الممتازين بقوة التركيب ومتانة البناء وطول القامة وضخامة الجسم ، وله رأس كبير يناسب هذا البناء الشامخ ، وجبين متسع ساطع ، وحاجبان أسودان يفصل بينهما بلج واضح ، تحتهما عينان صافيتان متألقتان دعجاوان تشعان بالنور اذا كان راضيا ، وتتقدان اذا كان غاضبا فلا يطيق أحد النظر اليهما رهبة وهلعاً كأنما ترسلان الصوارد المؤللة ، أشم الانف تحتهما شارب يغطى وفضته ، شتيت الثغر مفتره ، متهلل الوجه حسنه ، تزينه لحية خفيفة ، عريض المنكبين ، بعيد ما بين الجنبين ، شثل الكفين ، جايل المشاش ، كثير التطيب ، نظيف الملابس ، يميل الى البساطة فى كل حياته ، كثير الصمت ، فاذا تكلم أطنب ودل على عقل كبير راجح وعلم جليل صالح .

واذا وقف المرءبين يديه شعر بضآلته تجاه جسمه الصلب الوثيق الفارع ، واذا نظر

الى وجهه ذادته هيبة غير راعبة عن التحديق فيه فيختلس النظر اليه يتملى محياه الباسم وطلعته القوية البارزة ، وتفيض مهابته على مجلسه فلا يطيق أحد الكلام الا اذا مد له حبل تواضعه وسماحته ، بل أن بعض من يحضرون للسلام عليه يفاجأون بمهابته فما يستطيعون النطق بحرف فيبسم لهم ويهدىء منهم ويستدرجهم الى البوح بما فى أنفسهم ويدنو اليهم ويسألهم عن حالهم حتى يتكلموا ويشعروا كأنهم بمحضر صديق أو أب حميم ، ويفارقونه وما يزال فى أنفسهم رنين صوته العذب وذكريات عن تواضعه وسماحة نفسه ورجاحة عقله وصفاء قلبه وحسن نيته وطيب سريرته ، ولا يستطيع كثير ممن يقابلونه من مغالبة شعورهم الطافح وكتمانه فيهتفون باسمه ويتمنون أن يكون مليكهم – اذا كانوا من غير رعاياه – ويمطرون يده قبل الحب والاعجاب وهو يمانع ، لأنه لا يود من أحد تقبيل يده ، ويخرجون وهم شديدو الاعجاب بما رأوا ومما سمعوا عن هذا العاهل العظيم ، ويزيد اعجابهم به وتقديرهم اياه وايمانهم بعظمته الحقة وزعامته الصادقة تواضعه وتمسكه بالدين وحكمه بالعدل وصفاته الكريمة وخلائقه المحمودة ، كأنما يذكرهم بعهد السلف الصالح الذى كان يرى الرعية بضعة منه يكلأ جانبها ويرعى حماها ويذود عنها ويرأف بها كما يرأف الاب بابنه والقائد بجنوده البسلاء الذين يحبونه ولا يضنون بالأرواح فداء له .

فالتواضع أول ما يلمس من يقابله ويتحدث اليه من خلائقه الكثيرة ، وتواضع ابن سعود خليقة أصيلة لم تفقده اياها السلطة ولا بعد الصوت ولا شهادة العظماء بعبقريته وعظمته ، ولم يخرجه عن التواضع والبساطة هذا الملك الذى يمد احدى ذراعيه على البحر الاحمر والأخرى على الخليج الفارسي فيضم ما بينهما ، ولم يخرجه عنهما الغنى والوفرة والقوة ، فولي الأمر المسلم الصحيح لا تغره الدنيا وزخارفها ، ولا تغره القوة وسلطانها ولا الشجاعة ، لأنه ان لم يخش أحدا من بنى الانسان فثم خالق الانسان يجب أن يخشاه ، وكيف ينسى رجل كابن سعود ربه فيتكبر على خلقه ؟ وكيف يتمرد على الوراثة وكان آل

سعود مثال التواضع ؟ فهو أجدر آل سعود بذلك شكرا لله وتألفا لعباده وتأسيا لسلفه المرموق ! .

والرحمة فيه خليقة أصيلة مكينة ـ أيضا ـ جهيرة الصوت قوية الاداء واضحة ، مشهودة ، وليس عرامه أو صرامته في ميادين القتال والصراع بنافية خليقة الرحمة ، لأن الضرورة ـ هنا ـ تحتم عليه العرام والشدة والصرامة ، فإذا ما زالت الضرورة زالت الصرامة وكل مواليدها ، لأن ما بني على العارض زال بزواله ،فهي سحابة صيف ، بل لم ينس في موطن الحرب معاني الرحمة ومشاهدها ، فكان يأسى أشد الاسى على القتلى من خصومه ويقف واجما تصطرع في نفسه الخوالج والآلام ، لأنه يرى أناسا استلبت أرواحهم الحرب ومزقت أجسامهم البواتر ، لأن من قدموهم الى المجزرة لم يريدوا التقارب والتفاهم ، وانتضوا السيف للحكم فانتضاه ابن سعود دفاعا لا اعتداء وبغيا ، فالتبعة على من أتى بهم الى الحرب وزجهم في حُطَمتها المتقدة .

وقف أمام قتلى تربة ـ وعددهم خمسة آلاف رجل ـ من جنود خصمه الحسين فما أطاق منظرهم وقد جيَّفت أجسادهم ودبت فوقها الدود وعبثت بها الرياح ، ما أطاق أن يرأرىء بباصرته فأطرق محزونا يثب الدمع الى عينيه بالرغم من جلده .

هذا موقف خليق بسروره ،لا لأنه يرى أعداءه قتلى مطروحين فوق الثرى فحسب ، بل لأن ذلك يدل على النصر المؤزر الذى يبذل له روحه ويقامر من أجله بأعز ما لديه : بحياته ! .

موقف خليق بأن يبعث السرور الى نفس الرحيم لأنه هزم من يريدون قتله وسبقهم بسلب أرواحهم ، ولكنه ليس الأمر كذلك عند ابن سعو ، فقد قال والدمع يتحدر على وجنتيه : « ما كان أحرى بأخي الحسين ألا يلقي بهؤلاء البؤساء الى هذا المصير الاليم ويكون سبب هلاكهم ، ولا حول ولا قوة الا

بالله العلي العظيم » وهذه الكلمة وحدها تكفى للدلالة على خليقة الرحمة فيه ؛ فهو يحزن على أعدائه لانهم من بنى الانسان ، ويتألم أشد التألم ممن قذفهم الى المجزرة ليلقوا حتوفهم .

والذى يدل على خليقة الرحمة فيه أنه لا يحب أن يبدأ أحدا بحرب أو يعتدي على من يناله بما يكره ، لأنه يعرف عاقبة الالتجاء الى السيف ، فهو — ما دام كذلك — لن يحمل السيف وهو قادر على المسالمة والصبر ، نعم ، هو يصبر على المعتدى حتى يذهب ريحه مع الزمن ، واذا كان القتال معه ضربة لازب لا محيص عنها فلا مفر منه لأنه مضطر اليه ، ولا حرج على المضطر فى شريعة من الشرائع ولا قانون من القوانين .

وما رأينا أن ابن سعود وثب الى السيف وهزه فى وجه خصومه ، بل بادءوه بالضغينة والعداء فسالمهم ، ولكنهم حاربوه وتكاتوا عليه فلم يسرع الى الشر يركبه ولا الى الضغينة يهتدى بها والانتقام والتشفى ، لأن خليقة الرحمة فيه يقظة لا تنام وهادية لا تضل عن سبيلها السوي ، فهي أجدر بأن تمسك به وتمنعه ما دام فى الامر مجال للمسالمة ، فاذا ذابت كل الوسائل ولم تفد فلا بأس من انتضاء الحسام لهذه الضرورة التى تمر فلا عرام ولا قتال ولا حسام !.

وليس العرام والصرامة والقسوة بخلائق أصيلة قوية الاساس فى نفس الصقر كخليقة الرحمة وان كانت من لوازم القائد المسئول لإخماد ثورة أو مقاتلة خصم عنيد أو ضمان طاعة .

وما رأينا القسوة تستبد بابن سعود وتملك عليه وقته فلا تدع للهوادة واللين مكانا مرموقا ، كما أن الجد والعبوس لم يمسكا بتلابيب خلائقه الرحيمة ، فقد كان يحب المزاح العملي والنكتة والفكاهة واللهو والضحك استعانة بها على استجمام القوى والراحة ، وتخففا من الاعباء الجسام فى لحظات الفراغ استعدادا لاتمام العمل العظيم الذى بدأه ولم ينته منه ، لأن الكمال محرم على الآدميين فى هذه

الدنيا الفانية ، فمن اللهو المحبب اليه ركوب الخيل ، حتى ليعدها من أصدقائه المقربين ، فهو يقتني أجمل الخيول وأكرمها وأنجبها ، ويعرف أنسابها ، ويسميها أسماء محبوبة اليه كمنيفة – مثلا – والمنيفة : المرأة التامة الطول والحسن ، وله عناية بالصيد ، ويلهو بالخلو الى أهله وخاصته فيمازحهم حتى ليضحك ويضحكون .

وخلائقه الاصيلة ليست وقفا على الرحمة والقسوة ، فهناك الدهاء وقوة النفس والحلم والعفو عند المقدرة والصراحة والمنطق السليم الذى لا التواء فيه ولا مغالطة ، والزهد والتقوى والصلاح الى غيرها من الصفات التى لا تجتمع فى الزعماء الا نادرا ، وهي صفات يجب أن تكون فى القائد العظيم المسؤول وبخاصة فى إمام المسلمين .

فالدهاء من أدواته اللازمة التى لا غنى عنها لقائد عنها ، والدهاء – فى منطق النبيل – لا يستدعى المكر والخديعة والغدر ، لأنه ليس دهاء الضعيف المترصد ، ولكنه دهاء القوي الغلاب المؤمن ، فهو عنده حذق وفطنة ومهارة للوصول الى مرامه دون أن يساء الى أحد الا بقدر ما لا يتم العمل المنشود الا به ، وهو عند الضعيف مكر وغدر وخسة وخديعة واقتناص للفرص واستدراج مسف لينتقم ويدرك طلابه عن هذا السبيل المعوج الممقوت الذى لا سبيل سواه يسلكه لضعفه ، فالدهاء عند النبيل الغلاب فضيلة ، ولكن هذه الفضيلة تستحيل عند الضعيف رذيلة .

فابن سعود كان أدهى من مبارك شيخ الكويت لأنه غلبه ، والفرق بين الدهاءين فى هذين الرجلين كالفرق بينهما فى الشخصية ، فابن سعود نبيل كريم فى كل مراحله وأطواره ، ولكن مباركا تولى الامارة على جثتي أخويه وشتت أبناءهما ، وهذا يدل على نفسيته ويغنينا عن التصريح والافاضة ، وكان مبارك يكيد ويغدر ، وابن سعود مطلع على مقاصده وصابر صبر الكريم الذى يعرف

أن دهاء خصمه مفضوح بعض جوانبه ، وما استتر عنه لن يضيره ، ومن دهاء ابن سعود أنه لم يرد أن يفضح مباركا فمد له حبل الخديعة ليوثقه به غيره ، ويكون فضوحه على يد سواه ويقع فى الهوة بغتة يعض بنان الندم ويطلب المغفرة والعفو .

ويلتقى الدهاء بالفضيلة فى « شخص » القوي ، وابن سعود قوي ما فى ذلك شك ، قويّ النفس فلا تهن عزيمته ، قوي القلب فلا يخشى غير الله ، قوي الصوت فلا يخفته ، قوي الكلام فيصرح بما هو مخبوء تحت لسانه لأنه لا يضمر شرا يجب ستره ، قوي المنطق لأنه على حق ، فلهذا هو جهير الرأي حر الفكر صادق العزم ، لا يكذب لأن باطن الكريم وظاهره سيان ، فاما صديق فيصفيه مودته ويطلعه على أغوار نفسه واما عدو فلا خشية منه ان أظهره ، فليس بها غير الصلاح والرغبة فى الحق والاستزادة من الخير وحب الناس جميعاً ، وليس هذا بضار أحدا سواء أكان مواليا أم كان معاديا .

وما أظن قائدا مسؤولا عن شعب حي له تاريخ مجيد يكون ضعيفا ، فالقائد لن يرتقي عرش القيادة ويمسك بدفتها الا وهو قوي تجتمع فيه خلال القوة كلها ، بل الغالب فى قواد الامم وفى زعمائها الافذاذ أن تكون لهم أجسام تنبت نباتا حسنا ، فارعة نامية مكينة ، وابن سعود غير محروم من هذا — كما ذكرنا — فله جسم تام النمو قوي مكين .

وصفاته الخُلُقية تنبض بالقوة والدلالة على مظاهرها ، فهو قوي النفس لأن النفس بغير قوة لا يمكن أن تضمن الغلبة والفوز والبروز والتفوق ، ومتى كانت قوية استطاعت أن تمد كل من يتصل بها بالحيوية والنماء ، فما سمعنا أن ضعيف النفس استطاع أن يتزعم ، لأن الزعامة لا يرود صعبها لغير الاقوياء من الرجال ، وقوة نفسه يغلب بها كل ما من شأنه أن يغريه بما لا يحسن فى منطق الفضيلة والعدل ، فهو زاهد فى ملاذ الدنيا لأنه قوي الارادة صبور على الخشونة

اكتفاء بالنعيم الموعود وأسوة بالنبي الذى راودته الجبال بأن تكون له ذهبـا فأبى ..

ولولا قوة النفس لدخلت زخارف الحياة ومحبة ملذاتها والفتنة بمغرياتها الى نفسه من الباب الذى يفر منه الزهد والتقوى والصلاح ، لأنها لا تساكن خصومها ولا تصرف عن الحكم الى ما ينصرف له من كانت بيدهم أعنة السلطة والثروة كمبارك مثلا ، ولكن ابن سعود عاش أيامه عيشة متاحة لأفراد الشعب بفارق يسير غير مذكور ، ويفضله من أبناء أمته كثير .

فلو حرم قوة النفس لما أطاق التماس الحكم غلابا ولما زهد فى فتون الدنيا ، ولولاها لما احترمته رعيته وهابته ، فهو — كقائد وزعيم وملك — مسؤول عن الرعية ، والرعية تنظر الى أعماله ، فاذا ما ألفتها حسنة مرضية حنت رأسها اجلالا ووهبت قلبها فداء وامتلأ وجودها حبـا ، وليست قوة النفس وحدها كافية للقائد العظيم لأنها وان كانت ينبوعا فياضا لكثير من المعانى والصفات الا أنها فى حاجة الى ما يكملها من قوة القلب والنهى ، فقد تنحرف بالنفس القوية الطرق وتند بها المقاصد فتحيد عن الطريق المستقيم وتصير كالسيل مندفعا يكتسح ما أمامه ، ولكن ضابطها قوة القلب والحجى فهو اللجام الذى يكبح الجماح خشية من وثبة مجنونة ، ولا يكون القلب قويا الا فى الشجاع الذى لا يعرف الخوف والجبن ، وقوة الحجى تكون فى المفكر لتضبط القوى كلها لئلا تتدفق فتقود صاحبها الى مهاوى التوى .

وقد يكون المرء قوي النفس والقلب والحجى ، ولكنه لا يكون قوي المنطق والاداء والكلام ، وقد يكون العكس ، ولكن ابن سعود جمع هذه القوى فى نفسه ، فهو كقائد يلزم أن يكون جهير الصوت خطيبا يسعه أن يؤثر فى جنوده كلامه، قوي المنطق فتملك أسماع رجاله حججه فيقتنعون بما يقول، ويمشون الى تحقيق الغرض الذى يريده قائدهم ، ويكشف لهم عما فى نفسه

ليكونوا على علم بما يريد جملـــة ولا بأس أن تكتم عنهم « التفاصيل » فالجندي لا يهمه ذلك بقدر ما يهمه « الاجمال » ليكون على بصيرة وعلم ، فهو مضطر بخليقته أن يعلن أتباعه بنياته لأنه صريح جهير لا ينافق ، وما حاجته الى النفاق وقد أيقن من اخلاصهم والتفافهم حوله ؟ وما حاجة القوي القاهر الى النفاق والرياء والكذب ؟ كل هؤلاء من طبيعة الضعفاء ، فالضعيف أو الجبان ينافق ويرائى ويكذب اما خوفا واما مداراة ، والقوي لا يصنع ذلك لأن له شفيعا من قوته أو قواه ، وما حاجته اليها وهو يعرف أن الصدق فى القول والصراحة ليسا بعائدين عليه بسوء ، لأنه آمن من ثورة أتباعه ، بل لو ثار بعضهم فهو أقوى منهم وأشجع ، كما ظهر ذلك فى الحرب التى شنها عليه فيصل الدويش وابن بجاد وابن حثلين الذين كانوا معه ثم انشقوا عنه .

ويكره من كل امرىء من أتباعه وغير أتباعه النفاق والرياء والفرية ، ولا يقبلها منهم ولا يصمت لأن فى ذلك ما يشبه النفاق الذى لا يرضى به قائد مسلم ، وملك مؤمن ، فهو يسكت — ان سكت — ترفعا ، ويصرح استجابة لنفسه القوية وضميره اليقظ لئلا يكون موزورا أمام الحق ، فالرياء عيب وكذلك السكوت عليه ، فلا مناص من القول للمرائى أنه كذلك ليتجنب الرياء ، وما أكثر ما يسخط ممن يبالغون فى مدحه واطرائه وممن يهتفون باسمه ويزعمون أنهم يفدونه بأرواحهم ومهجهم لأنه يعلم أنهم غير صادقين ، فان كانوا صادقين فما تفيد الدعوى العريضة ، لأن الابن أو الاخ أو الصديق ومن فى حكمهم لا يزعمون أنهم يحبونه ويفدونه ويدافعون عنه ، بل هو أبعد ما يكون عن التصريح بذلك ، ولو صرح الابن لابيه مثلا بأنه يحبه ويفديه لاستسخف ، فالابن مُفَدٍّ أباه بماله ونفسه ومهجته عندما يظلم الامر ويشتد الكرب ، فكلا الوالد والولد غني عن التصريح فى أمر هو من البديهيات .

ولا يحب ابن سعود من أحد أن يعدد مآثره بين يديه يحاول خداعه بكلمات الاطراء والاعجاب والهتاف باسمه والجهر بأنه يفديه لأن بين القلبين المتعاطفين

صلة قوية ، فاذا أحس أحدهما بشيء أحس به الآخر ، فما مال قلب بالاخلاص وصدق الى قلب تمايل نفاقا .

وما أكثر ما رد خطباء أخذوا يطرونه ويسبون أولياء الامور فى العهد السابق ، لأنه علم بفراسته وبصيرته الملهمة وذكائه أنهم كاذبون سبابون ، والمسلم المؤمن لا يكون سبابا شتاما ، وأن هؤلاء الخطباء أنفسهم وقفوا أمام أولياء الامور فى العهود الغابرة خاشعين هاتفين مادحين ، فلما ذهب ريحهم تبدلت ألسنتهم ، لأن من مضى لا يمكن أن ينفع ، وانما الامل فى الحي ، ثم ماذا يجدى نبش قبور من ماتوا والتشهير بمساوئهم ؟

يكره النفاق والكذب والرياء لأنها ليست من خلائقه ، وليست من خلائق المسلم الحق والمؤمن الصدوق ، ولأنه قوي وعزيز ومؤمن ، ولأنه واثق من اخلاص أتباعه ، وأتباعه واثقون منه كأنهم جميعا أبناء أسرة واحدة ، وليست الاسرة فى حاجة الى النفاق والمداهنة للقربى واكتساب المودة والرحمة .

وليس عميد الاسرة فى حاجة الى الزهو والخيلاء ليظهر على أفرادها بهما ، وليس فى حاجة الى التواضع المصطنع المعيب ، فهو وهم أسرة واحدة ، ما يحزن أحداً منهم يحزن الجميع ، وما يسر أحداً يسر الجميع ، ثم ان القائد المسؤول لن يفيده التطاول والكبرياء على جنوده المضمون اكبارهم واعجابهم به وطاعتهم اياه مذ رأوا رحمته بهم ودءوبه من أجلهم وراحة بلادهم .

ولا بأس من ذلك فى مجال الحرب ارهابا للعدو ، وليس بالعيب الشائن لانه فى هذا المجال مباح لا لوم ولا حرام .

والقوي الغلاب يُدل بشجاعته ويزهى بها على عدوه لانه لا يريد أن يقوي قلب خصمه باظهار التواضع له والدعة ، فالحرب ليس من أدواتها الهدوء والوقار والتواضع ، وانما كل أدواتها الغلبة والوغى والصياح والضجيج والهتاف والكبرياء

والتعاظم والتطبيل والضرب والقتل وغير ذلك مما فيه معنى الحركة والقوة والحيوية، فالتواضع يغرى العدو بعدوه، والزهو يطأطىء من الخصم ويفت فى عضده.

وابن سعود - كما ذكرنا فى أول هذا الفصل - ضخم الجثة طويل القامة يسمو على الناس بقوامه الفارع الذى يبذهم به، ومن الطبيعي أن صاحب هذا الجسم النامى الحي لا يرضيه فى ميدان القتال الهدوء والهرب والتوارى والتواضع لان ذلك يطمع خصمه فيه، وطمع الخصم فى خصمه يقوى قلبه ويقضى على خوفه، أفتراه يعينه فى الحرب فيتواضع ؟ أما هنا فلا.

ثم ليست الكبرياء فى الحرب بخليقة عارضة أو عادة تتيقظ بالمناسبة بل هي غريزة من الغرائز، فكل امرىء يفتخر بنفسه ويُدِل بقوته ليرهب خصمه فى موطن الصراع والخصومة، وليس هذا فى عالم الانسان فحسب بل فى عالم الحيوان أيضاً، اذ لا يخرج عنه مما دعانا إلى القول بأنه غريزة من الغرائز، فالديكة حينما تصطرع تنفش الريش وترفع الرأس وتثب وثبة الزهو والخيلاء، أو ليس ابن آدم أحرى منها بذلك لارهاب الخصم وتخويفه.

فابن سعود حينما حارب ابن الرشيد وحارب العجمان كان بالنسبة إلى رجاله متواضعا جد التواضع يعمل عملهم ويعينهم، ولكنه كان بين يدي أعدائه مدلا بشجاعته ذا خيلاء وفخر يريهم أنه لن يخاف جموعهم ،لان نفسه القوية فى جيش قوي غلاب.

والشجاعة فى ابن سعود ليست مكتسبة كلها ولا موروثة كلها، بل هي وليدة الكسب والوراثة، فأجداده مشهورون بالبطولة والشجاعة والاقدام على الموت، وأمهاته عربيات صحيحات النسب، فيهن الصراحة التى لا تعيب، والانوثة التى يفىء إلى ظلها الرجل، وهن يتحملن مع الرجال المصاعب ويقاسمنهم لذائذ الحياة ومرائرها، ففى الرجال شيء من النساء وفيهن منهم، فهو وارث هذه التركة العظيمة الموفورة، وهو نفسه قد جابه الحرب وما يشبه

الحرب من يوم أن ولد ، فلما بلغ السابعة ــ وكان يبدو فوقها لانه كان نابت العظم سريع النمو ــ شارك أباه ورجال أبيه الكر والفر ومعيشة الصحراء ، وتَبلّغ بالتمرة وقنع بالغُجْمة من الماء من حفرة ملأها المطر ، وصارع وصرع ، وركب الخيل وأطلق الرصاص ، وفاق الرماة والفرسان حتى صار أفرس رجل فى جزيرة العرب ، وصار من أعظم من يصيبون الهدف ولا يخطئونه ، فما أطلق رصاصة قط الا أصابت هدفا في حرب أو سلم ، ففى السلم يخرج إلى الصيد فلا يمكن أن تطيش له رصاصة أو لا يصاب له هدف ، ويقول المتصلون به : انهم رأوا الظباء التى يصطادها فألفوها كلها مصابة من ناحية واحدة .

وقوته الجسمية عظيمة طافحة ، يقال : انه اتكأ على باب سيارة جديدة فخلعه ، وأن الجواد الكريم الصبور ينوء بحمله .

ويروى أنه كان راكبا جمله في بعض غزواته فلكزه بعصاه فجرى ــ وكان فى العشرين ــ ووقع ابن سعود من ظهره على الارض من الزحام لانه كان مريضا فوطئته جمال رجاله ، ولكنه استطاع أن يركب ويحارب فى اليوم الثانى عدوا جبارا يفوقه أضعافا فى الرجال والعتاد ، فلو كان غير هذا الجسم تطؤه الجمال لما استطاع النهوض بله الصراع والقتال .

ونحن الذين رأينا ابن سعود وما زلنا نراه ونتحدث اليه نحس بين يديه برهبة وهيبة لا رهبة الطاغية الجبار ولكن هيبة الشجاع ، هيبة الاب الذى اجتمعت له خلال الابوة والسيادة والقيادة ، فهو ينزل عن قسط عظيم منها لمحدثه كائنا من كان ــ وبخاصة للمظلوم ــ ليشعر بأنه على مقربة منه فليقل ما يريد ، وقد تخف وطأة الهيبة والقوة بالالفة .

واجتمع لابن سعود خير الخلال العربية ، فهو جواد سمح لين العريكة سريع النجدة والنخوة طيب القلب مرهف الحس زاهد زهد الغني المتاح له الغنى والوفرة والنعمة لا زهد المحروم ، شجاع جرىء على الباطل فيدحره ، جرىء

على الشر فيهزمه ، جرىء على المنكر فيغيره ، جرىء على الدنيا وزخارفها ؛ يباليها ولا يتهالك عليها ، فلا ينقض ما أبرم ، ولا يتردد اذا عزم ، ولايتجمجم اذا أقدم ، يمتاز بالبساطة لان الاسلام يأمر بها ، ولان العربي من طبعه ألا يطيق أعباء التكاليف وقيودها التى ما نزل الله بها من سلطان ، ساذج لا غطرسة فيه ولا ادعاء .

هو جواد سمح لا قيمة للمال عنده لانه زاهد لا يعبد الا الله ولا يضن الا بالدين والشرف ، أما المال فلا ، لانه حطام دنيا ، والحطام فان والروح بـاق خالد ، وقد نصحه أصدقاؤه بالكف عن البذل والسخاء والكرم الذى لم يسمع بمثله الا قليلا فقـال لهم : « ما أغنت قارون خزائنه » والمال عنده — كالعلم — يربو بالانفاق، وأي إرباء خير من أن يمحو به عن المحتاجين آلامهم ويأسو كلومهم ويرضي خليقة الجود فيه .

والاغنياء ان ضنوا بالمال فهو قد جعل السخاء والبذل والعطاء خزنة ماله ، وما رد أحدا أو استرد من أحد شيئا أعطاه ، حتى أنه ليصطحب معه فى سيارته الخاصة بِدَرا من الريالات يوزعها على الفقراء فى طريقه صباحا حين يمضى إلى مقر عمله الرسمي ، ومساء حين يخرج إلى متنزهه ، وأعطى ذات مرة فقيرا صرة فأخبره السائق أنها صرة « الجنيهات » الذهبية لا الريالات الفضية وبهـا ثلاثمئة جنيه ذهبي ، فنادى السائل فأقبل اليه خائفا ظنا منه أنه سيستردها ، فقال له ابن سعود : « أردت أن أهبك ريالات ، وما نويت الا هذا ! ولكن الله هو الذى وهب لك هذا الذهب حيث أخطأت فأعطيتك صرة الذهب ، وبها (٣٠٠) جنيه ذهبي ، انها ليست هبتى ، ولكنها هبة الله وحده عز وجل، اشتر بها نخيلا ، واعمل ولا تكسل ! » .

وما يزال السائل موجودا ، ولكنه أصبح بفضل الله غنيا صاحب نخـل وزرع ! وأقاصيص كرم ابن سعود وحوادث جوده كثيرة ، بل له كل يوم حوادث تستحق أن تدون لانها من النوادر .

ولابن سعود مضيفان : أحدهما للبدو ، ويقدم فيه الارز المسلوق باللحم والسمن، ويقدم فيه التمر طيلة النهار وشطرا من الليل، والآخر للحضر والأجانب، وهو يعطى كل انسان على قدره ، ويعطى فيه الطعام مطبوخا لمن أراد ، وغيره لمن لم يرده مطبوخا ، ولا يخلو كلاهما من الضيوف ، حتى أن الحطب الذى يلزم للمضيفين تنقله سيارات كبيرة كل يوم .

فالكرم عند ابن سعود خليقة اصيلة ، وما أظن أحدا من رعيته لم ينله منه شيء ، فهو مسرف فيه يعطى عطاء من لا يخاف حاجة أو فاقة ، ولو كان فى عصرنا من يولع بتدوين حوادث الكرم وجمعها كما كان فى العصور السابقة لخفيت أسماء أجواد كثير من أجواد العرب ، ولزاحم الملوك كهارون والمأمون وسيف الدولة وغيرهم ، ولظهر ابن سعود لامعا متلألئا .

وهو يعطى كل قاصد غنيا كان أو فقيرا ، محتجا بأن الغني الذى قصده فقير نفس ان لم يكن فقير جيب ويد ، فليعطه ما دام كذلك ، وأما الفقير فيعطيه لانه محتاج .

وحينما نشبت هذه الحرب وقلّت واردات البلاد من الازواد والارزاق خاف على رعيته من التجار الجشعين ، فرتب لكل فرد منهم — ما عد الموظف والغني — خبزة يتناولها كل صباح ، وذلك من حسابه الخاص ، كما افتتح مراكز تموين حكومية ، ولم يمنع التجار من زيادة الأثمان ، بل تركهم أحرارا يعملون ما يشاءون ، فمن باع منهم بالثمن الذى يبيع به مركز التموين باع والا وقفت حركة البيع والشراء عنده ، لان الناس لن يتركوا الرخيص إلى الغالى ، فالتجار مضطرون إلى البيع أو إلى اغلاق متاجرهم إن ارادوا ، ويباح لكل امرىء أن يشتري ما يريد بدون تحديد الكمية حتى أصبح الخزن عبثا لا فائدة منه ، فما يراد معروض فى السوق فى كل وقت .

وهذا العمل العظيم يضاف إلى « قائمة » كرمه وجوده ، فكأن المال لا قيمة

له عنده اذا لم ينفقه ، بل هو يعطي عطاء من لا يخاف فاقة .

وليس معنى هذا أنه يجهل قيمة « المال » فى الدنيا ، بل هو من أشد الناس فهما لقيمته وفرحا به ، ولكن ليس فرح البخيل الكز ، وكْده أن يجمع المال وكفى ، بل فرح الكريم الذى وجد ما ينفق .

وهذه قصة حدثنيها أحد مرافقيه حين غزا الاحساء تدلنا على هذا الفرح ، قال : دخل ابن سعود الاحساء فاتحا منقذا ، فوجد بماليتها مبلغا عظيما من المال فابتهج كأنما أوتي خزائن فورد ، وهي فرحة تغاير فرحة ذوى الكزازة والطمع ، هي فرحة الكريم ، فرحة القائد المسئول الذى نهض لتأسيس دولة واحتاج إلى شيء من المال يتألف به الرجال ، وهو فى حاجة الى المال لأنه فى حاجة الى الرجال ، فكيف لا يفرح بالمال هذا الفرح العظيم ، انه لم يفرح للمال نفسه ، ولكن ، لما يحقق من أعمال لا تتم الا به .

فرح بهذا المال الذى لقيه فى « الوقت المناسب » فكان فرحه دليلا على أنه يعرف قيمة المال ، ولكن لا يطمع فيه لذاته ، بل وقفه للاصلاح والعمران ونفقات الجيش وتنمية أواصر المحبة بينه وبين من فتح بلادهم .

فهو اذ ينفق الاموال الكثيرة فى وجوه البر والاحسان والخير انما ينفقها لوجه الله ، فان كانت الاموال لله فقد أنفقها فى سبيله ، وان كانت له فقد تصدق بها ، وان كانت لعباد الله فقد رد اليهم حقوقهم ، وماذا يجدى كنزه وماذا يفيد خزنه ؟ لا شيء غير الأثم والعذاب ، فان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فكأنهم يكنزونها ليدفعوها ثمنا لدخول جهنم يشترون بها العذاب ، وعلى قول ابن سعود : ما أغنت قارون خزائنه !.

والنخوة والنجدة تدخلان فى كرمه ، فالقاصد محتاج مستجير يجب أن يلبى طلبه ، وينجده لانه فى حاجة الى معونته كما ينجد المستغيث ولو كان هو نفسه فى ضيق وحاجة .

وبلغ ابن سعود في النخوة والنجدة ما لم يبلغه إلا نوادر الكرماء ذوو الأريحية والسخاء ، وقد أجار المستجيرين وهو مدرك لما يتعرض له ، فقد لجأ إليه واستجار به رشيد عالى الكيلاني الذى حارب حكومته وحكومة بريطانيا فى الحرب الكبرى الثانية ، وكان معدودا« مجرم حرب » ومحكوماً عليه بالإعدام ، فقبل لجوءه ، وحاولت بريطانيا أن تتسلم منه رشيد عالى ، فأبى وقال للانجليز : لو صففتم بوارجكم من لندن إلى جدة لما سلمتكم ضيفى ، ولن يُسَلّم رشيد عالى الكيلاني ما دام على وجه الأرض واحد من آل سعود .

وحمى ابن سعود ضيفه ، وأكرم مثواه ، وعاش فى كنفه معززا مكرما مرفوع الرأس مقربا منه حتّى جعله مستشارا خاصاً من مستشاريه ، وفى الفصل الذى كتبناه عن قصة رشيد عالى مفصح لنخوة ابن سعود النادرة التى رضي بسببها أن يضحي بعرشه ونفسه وكل آل سعود رجالا ونساء ليحميَ من استجار به .

هذه صفات شتى لكل منها اسم خاص، ومدلول خاص، ولكن الملتقى واحد بعد هذا المطاف وقبل هذا المطاف ، فبعضها يتصل ببعض ، بسبب أو بأسباب ، وتفترق عنها بها أيضا لتلتقي من جديد .

ومن الغريب أن صفة من هذه الصفات لم تطغ على غيرها ، فما كرم ابن سعود وعطاؤه وسخاؤه بمغط حلمه وعفوه ، لأن لكل صفة « كونا » خاصا ، فالكرم والعطاء والسخاء تلتقى الحلم والعفو أعظم التقاء ، لأن من الجود أن تقضي حاجة محتاج وتلبي نداء قاصد ، وما العفو الا هبة روح ، وقد يكون غير روح ، وطلقاء ابن سعود غير واحد ، فاذا قلت : عشرات كنت جد صنين ، واذا قلت : مئات حمت حول الصواب ! .

فهنا أناس ائتمروا به وافتضح أمرهم فسجنهم ، وأشير عليه بالقتل ، ولكنه عفا عنهم وتركهم ، ووهب لهم أرواحهم ، وهنا قوم ملأوا عليه الدنيا

صراخا وعويلا ، وشتموه ونالوه بالأذى ، ونبزوه بأسوأ الألقاب ، ولكنه وهب لهم ألسنتهم ودماءهم حينما ظفر بهم ، وهنا قوم أثاروا عليه الناس فأمسك بهم وصفح عنهم وأكرمهم ، وما زال كذلك مع خصومه حتى أطمع كل خارج عليه فى بره فجاءه مستغفرا نادما فعفا عنه وحماه ووضعه فى مكان لائق به ، ولم يحاسبه بماضيه ، لأنه لا يحمل دخلا ولا بغضا لمن تاب وأصلح ، يريد أن يغلب العدو ويقاتله كارها ، ولكن لا يحمل فى قلبه حقدا ، فما نفعه منه ؟ فاذا كان لا يحمله للعدو فأحْرِ به ألا يطيف بقلبه لصديق أو تائب أو معتذر .

والزعيم لا يحقد ، لأن لخصمه مندوحة فى خصومته ، فهو لا يضمر له الحقد ، واذا مد اليه يد السلم والطاعة والمحبة فهو أسرع ما يكون الى مصافحتها وأبعد ما يكون عن الكبرياء والمخيلة .

وان كل صفة من صفاته بارزة قوية الصوت مسموعة الكلمة لا تخفت إحداها الاخرى، لان لكل منها وجودا خاصا مستقلا لا يمكن أن يطغى عليه وجــود صفة أخرى ، فما قسوته التى دللنا على أنها ليست خليقة مكينة فيه ، ولا يحتاج اليها الا كحاجة الطبيب إلى السم للعلاج ، فهو يقسو فى غير الحرب على أفراد من رعاياه ممن يقترف ذنبا ، إما اخمادا لفتنة ، وإما تأمينا لسبيل ، وإما تأديبا لعاص ، وإما اقتصاصا من باغ ، وليست هذه بقسوة منه ، انما هي قسوة الشريعة التى ينفذ أحكامها وليُّ الأمر ، فهي قسوة الحق على الباطل ، فاذا اعدم الحاكم قاتلا أو قطع سارقا أو جلد سكران فما هو بقاس متبع سبيل الغي ، وانما هو رحيم متبع طريق الرشاد ، فلا بأس من القسوة والصرامة بالبعض رحمــة بالكل ، ولا بأس من قطع البعض لاصلاح الكل ، فالرحمة هنا — كما وكيف— أعظم من القسوة ، لان هذه بفرد وتلك لامة ، والفرق عظيم بين ما هو لواحد وبين ما هو لمئة أو ألف أو أكثر ، لا تناقض القسوةُ الرحمة هنا ، بل تلتقيها فى النقطة التى يُظَن أنها تفترق عنها .

فما العدل الا مزيج من الرحمة والقسوة ، أو على وجه آخر العدل ذو طرفين هما الرحمة والقسوة ، فمن لم يقس على الجناة بالزجر والتأديب والعقوبة لا يعرف الرحمة بالابرياء والمساكين ، فالشر يمتد ويعدى الاصحاء السالمين ، فان لم يعمل على ازالته أو الحد من صولته استشرى وتفاقم ، ولا يمكن صرع الشر الا بالقوة ، فالشوكة لا تخرجها الا شوكة ، والقسوة فى سبيل العدل رحمة .

ونتدرج من هذا أيضا إلى القول بأن قسوة ابن سعود لم تخنق الرحمة قط ، لانه لا يقسو اشباعا لشهوة من الشهوات ، وانما يقسو ليقهر البغي والباطل فيمن يتخذها مركبا إلى غرض من الاغراض .

والعدل عند ابن سعود أساس ملكه ، وليس العدل وحده ، فكم من ملك عادل تقوض ملكه لانه ضعيف ، وكم من ملك عادل قوي لم يدم له الملك لانه غير متزن الحجى ، وكم من ملك اجتمع له العدل والقوة والعقل لم يحبه شعبه لانه كز ، وكم من ملك اجتمع له العدل والقوة والعقل والجود وأخفق فى ملكه لانه لم يكن عالما أو ذا بصيرة مثل ابن الرشيد ، وقد يضاف إلى ما مضى العلم والبصيرة ولكنه عجز عن السير بالامة سيرا حسنا لانه يحب اللهو والمجون أو يستبد به « القصر » أو يجهل أساليب السياسة ، فالملك أساسه العدل ، ولا يكفي أن يكون وحده أساسا يبنى عليه ، لان العدل لا يضمنه ضعيف أو جاهل أو كز أو مأفون .

نريد من هذا أن نقول : ان ابن سعود عادل بطبيعته لانه يكره الظلم أن يحيق به ، بل كانت ثورته لمحو الظلم وتحرير الافراد والجماعات من نير العبودية والاضطهاد ، ولم يكن فى تصريحه مخادعا يخدر الاعصاب لاستمالة الناس حتى إذا ملكهم ظلم وبغى ، لانه لو أراد ذلك لتنكب سبيله القويم بعد قبضه على أعنة الملك ، ولكنه لم يرد إلى الخداع ، ودليلنا سيره على منهاجه البين ، فكان أشد ما يكون كراهية للظلم ، لانه يعرف أن الله حرمه ، فكيف يترك كلام الله ويستدبر سنة رسوله ليتبع هواه وهو ذلك الذى لم يرقص قلبه

لدنيا يصيبها ، ولم يهتف لسانه لمال ينتفع به انتفاعا خاصا ، ولم يستدبر الدين قط بل كان همه الاكبر رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما رضاهما الا اتباع « الشريعة » اتباعا خالصا ، والشريعة الاسلامية تندد بالظلم وتنذر الظالم بجهنم وتعزى المظلوم وتواسيه بكلمات تطفىء حرارة الظلم والمقت فتقول له فى لطف : ليس بين الله وبين دعاء المظلوم حجاب .

فعدل ابن سعود غير خاف على أحد، بل ضرب المثل به كما ضربت الامثال بصفاته الاخرى ، وماذا نقول عن عدله أكثر من أنه تفقد بعد صلاة الجمعة ابنا له فلم يجده فى المسجد ولقيه فى البيت وسأله عن سبب تركه الصلاة فأجاب : أنه تأخر عن غير قصد فجاء ولم يدركها فرجع ، فأمر بسجنه وسجن خدمه جزاء تخلفهم عن الجمعة وتركهم المبادرة اليها .

وهذا تأديب لا يزهد فيه « الوالد » ولكن ابن سعود خرج عن « الابوة » هنا إلى « الحكومة » فالاب يعطف على ابنه ويرحمه ويشفق به ويقبل عذره ، والحكومة لا ابن لها تعطف عليه ، فالمذنب يجازى ، ولا فرق عند الحق بين الصغير والكبير ، وابن سعود منفذ أمر الشرع ، فهل يطيق ان يسجن كل تارك صلاة جمعة ويفلت ابنه لعذر مقبول ؟ كلا ، لذلك عاقب ابنه ، فقد أمر بزجه فى السجن العام الذى يزج فيه كل مذنب ، ولبث فيه ثلاثة أيام ، وهي مدة أطول من المدة التى يستحقها تارك الجمعة بدون قصد .

وليس هذا بالحادث الجلل من حوادث العدل ، ولكنه دلالة عليه ، ويزيد الدلالة رسوخا وتمكينا أن بدويا سعى اليه يشكو ابنا له بأنه ضربه ، فأحضر ابناءه ليبين ضاربه ، فدل عليه وسأله ابن سعود وهو غاضب من ظلم اباه : أضربته ؟ فصمت الابن ولم يرد جوابا ، لانه عرف أن انكاره واعترافه سيان ، وليس أحدهما بمنجيه عن العقاب ، فان انكاره غير مجد لانه لا يعقل فى منطق ابن سعود ان يكذب احد الرعاع على ابنه ، فالبدوي محق فى شكواه ، صادق فى دعواه ، ولو انكر لزاد الانكار في غضب ابن سعود اشتعالا ، واعترافه يزيد الجزاء ، فالصمت خير .

ونظر ابن سعود إلى المعتدى عليه وسأله :

ـ يا ولد ، بمَ ضربك ؟ .

ـ بعصا ، يا طويل العمر .

ـ قم واضربه ، اقتص منه ، قم .

ـ لا أستطيع .

ـ قم ـ هداك الله ـ قم يا رجل ،لا تخف ! ان العدل سوّى بينك وبينه ،بل أنت أعظم منه ،لان الحق لك ، وهو أصغر منك لان الحق عليه ، اضربه ،قم... .

ـ معذرة ، يا طويل العمر ، يكفيني هذا منك ، فقد محا عدلك ذنب ابنك ، وما عملت خير جزاء ، واني « متنازل » عن حقي تنازلا تاما .

والى هنا ينتهي الامر ، فقد نزل صاحب الحق ، وكاد الابن ينجو من العقاب ، ونظر ابن سعود إلى من بالمجلس نظرة ارتاعوا لها ثم صاح بابنه : تظلمه ! ؟ أتظن أن انتسابك الي يمحو عنك العقاب أو يخول لك الاعتداء ؟ قد بقي الحق العام ، ونهض اليه وضربه ضربا مبرحا ، وأمر به إلى القلعة يسجن فيها على انفراد ، ومكث بها مدة ثم أطلقه برجاء ولي عهده .

وقعت مئات من أمثال هذين الحادثين ورويت وتناقلتها الالسن ، وهي أدل على عدله ، لانه لم يبعد أبناءه عن العقاب إن اذنبوا ، بل كان عقابهم أشد واقسى من أبناء الشعب ، فالمحسن من ابنائه له مكانه المرموق ، والمسيء منهم أقل ممن أساء اليه ، لان الحق له عليه .

اذا الفضل لم يمنعك عن شكر ناقص على هبة ، فالفضل فيمن له الشكر

فشخصية ابن سعود ملتقى خير الخلال العربية ، ونصيبه منها أوفر نصيب ، فكما رزق هذا الجسم الفارع السامق يظهر به على كل رجل كريم الصفات حميد المزايا فهو بين قومه العلم الفرد ، وبهذا استطاع أن يركز زعامته وملكه تركيزا قويا على صفاته الحميدة ، وخلائقه الفاضلة الاصيلة

مفتاح شخصية الصقر

قد سردنا أعظم مميزات هذه الشخصية الفذة وتناولنا صفاته الكبرى بالتحليل والدرس ، ويبقى بعد ذلك مفتاحها الذى صنع لها ، لنستطيع فتح مغلقها ، وأما أنا فأرى مفتاحها هو « سجية القائد المطبوع » فى صحتها وعنفوانها وقوتها ، وهى وحدها ملتقى كل صفات ابن سعود التى تكمن وراء تلك السجية العظمى ، وما أرى هنالك ارهاقا للذهن فى جمع شتاتها وردها إلى الصفة البارزة المكينـــة ألا وهي : سجية القائد المطبوع ، تلقى اليه شعوب يدير شؤونها ويتولى أمرها

فهو فى هذا الحال شفيق رحيم حنان يقظ ، وإلى جانب هذا حازم شديد ، لانه بغير ذلك لا يستطيع أن يقود من وكل اليا أمرهم قيادة حسنة ، شفيق حتى يتألف من كانوا معه ويضمن حبهم وطاعتهم ، فهو يسأل عن غائبهم ، ويعود مرضاهم ، ويأسو كلومهم ، ويؤدب مسيئهم ، ويكرم محسنهم فيرفعه ويميزه عن غيره بألقاب هي أوسمته الخاصة .

وأوسمته هى القاب شرف يمنحها الرجال العاملين المخلصين ، وهي ليست سهلة يظفر بها كل أحد ، فهنا الزمن والاختبار حتى يرضى ابن سعود ويشعر بأنه بقي بعد رضاه تكريمه بوسام فيمنحه اياه كما يمنح القائد العام جنوده البسلاء

أو الذين أفادوا الامة فائدة عظمى « وساما » يرفعه إلى درجات الابطال .

فهو فى هذا مصداق لما ذهبنا اليه من أن مفتاح شخصيته « سجية القائد المطبوع » الذى يود تثبيت مفاخر جنوده وتشجيعهم والاهابة بغيرهم أن يعملوا أعمالهم الصالحة حتّى يستحقوا التمجيد والتكريم والرفعة بما ينالون من « أوسمة » تشهد لهم بخدماتهم التى لا تنسى .

وأما من أخطأ ففيه أقوال : فإما أن يكون خطؤه غير مغفور ، كأن يستوجب حدا شرعيا فلا كلام فيه ولا شفاعة ، لانه لا شفاعة فى حدود الله ، وان كان الخطأ غير ديني ففيه نظر ، فإما أن يكون له ماض مجيد واقترف ذنبا لا يترتب عليه العبث بالامن فله من ماضيه خير شفيع ، ويكفى فى زجره أو تأديبه كلمة أو ازورار من القائد ، وإما ان كان ممن لا سابقة له فى عمل مجيد بارز فالتعزيز منوط برأيه ، فقد يكفى التأديب باللفظ القاسى أو النظرة الراعبة أو الحبس لايام معدودات أو لشهور أو لاكثر من شهور أو بالجلد ، فمرد العقاب إلى القائد واجتهاده ورأيه يعاقب على قدر الذنب .

والقائد بيده السلطة ، فهو حاكم بأمر الله ثم بأمره ان كان قائدا مسئولا كابن سعود مقيدا بالشريعة والدين ، وما دام كذلك فيجب ان يكون ذا صرامة تخيف الساطى المعتدى ، وترجع الحق من السالب إلى المسلوب منه ، وأن يكون ذا نخوة يستجيب لنداء الحق والعدالة ، وذا شجاعة يُدِل بها على الخصوم ويستجمع بها قوى الانصار خشية من تضعضع الروح المعنوية ، وذا عدل حتى لا يطغى كبير على صغير ويعتدي قوي على ضعيف ، ويستبد غني بفقير ، وذا كرم ينفق من المال ما يقوم بأود الصديق ، ويتألف قلب من كان به مرض ، ويدفع به عدوان آثم ، ويعمر البلاد ، ويقوى الثغور ، ويعد ما استطاع من قوة يرهب به عدو الله وعدوه ، وذا صرامه حتى يكون مرهوبا فلا يتجاوز أحد حده ، ومن تجاوز فى غفلة عنه وضبط فثم شرع الله أو العرف أو القائد يؤدب

المسيء بما يراه ، وأن يكون محبا للنظام فلا يدع للاضطراب والقلق مجالا يرقصان فيه ، متواضعا سمحا لا يستكبر أو يشتد حتى يلتف به من حولـــه ، مؤمنا بفكرته حتى لا تخونه العزيمة وتفر عنه القوة عند النضال ، فاذا آمن آمن معه الاتباع والاحلاف بفكرته ودافعوا عنها ، حازما قويا ليضمن احـــترام مرءوسيه وطاعتهم ، عارفا بادارة دفة الحرب وأساليب القتال ، كثير اليقظة والحذر والحيطة والمراقبة الدقيقة والاحاطة بالفنون الحربية والاسلحة المستعملة واستحداث الخطط والقيام على تنفيذها والاعتماد على النفس والثقة بالله ،والإفادة من كل ما عند الاعداء .

ونصيب ابن سعود من كل هذا نصيب موفور ترجح كفة الآخـــرين المعاصرين له ممن يعيشون ويحكمون حكمه وتضمهم بيئة وبلاد كبيئة بلاده ، فلم يجتمع لاحد من حكام العرب وقوادهم وزعمائهم ما اجتمع لابن سعود من الصفات الفاضلة والحنكة والدربة والخلائق التى جعلته أهلا للقيادة الحكيمـــة المظفرة ، فهو بحق القائد العربي الاول والزعيم العربي الأكبر الذى دان له كل جبار عنيد رغبة ورهبة كما دان له كل مسالم رفيق ، وأعجب به العدو والصديق ، وقدره القريب والبعيد ، لان النواحي المحبوبة المعجبة نواح « انسانية » فهو جدير باعجاب كل انسان ، وليس الإعجاب بها مقصورا على أتباعه أو أهل لغتـــه و دينه ، بل يتجاوزهم إلى بنى الإنسان من كل لغة ودين وجنس ، لأنها صفات إنسانية .

ومن يوم أن عرف الحياة وفهم ما عليه اضطلع بالاعباء الجسام اضطلاعا لم يتضعضع من ثقلها ، فما زالت قواه وهو فى العشرين حينما قاد رجاله الأربعين لاحتلال الرياض إلى أن نيف على الستين فى عنفوانها اولا الهدوء الذى يضبط الاجتراء ، ولولا هذه التجارب التى تمده بها السنون كلما مرت به حتى تمكنت كلمته تمكينا قويا راسخا فى طول البلاد وعرضها ، وأصبح فى واعيته حشد

كبير من التجارب النافعة لقيادة الامم والشعوب ، ولقيادة السلم والحرب على السواء .

وكأن العناية الآلهية لحظته وهو فى العشرين حتى ودع دور الشباب المتوثب القوي واستقبل الرجولة المكتهلة الناضجة ، فكان وهو فى شبيبته محاربا وقائدا ، محوطا بالخصوم الاقوياء والقروم الفاتكين ، فلم يجد فراغا تستيقظ فيه غرائزه وتتنزى شهواته ، ولم يجد من الترف والراحة والوفرة ما يحبب اليه حياة اللهو والدعة والخلاعة ، فكأن العناية لحظته من كل جانب فلم يمش إلى حرام ، ولم تطرف عينه على امرأة أجنبية ، وبالجملة فانه كان فى نجوة عن العبث والفساد ، ومرد ذلك إلى ما طبع عليه وورثه بعد عناية الله سبحانه وتعالى .

كان شابا قليل التجارب قوي العزيمة صلب القناة مشبوب العاطفة غير مبال بالاهوال والمخاطر ، فقاتل وحارب وعرض نفسه للموت كثيرا حتى ودع دور الشباب مع الفتن والحروب ، وما أشرف على الخمسين الا وهو مزود بشيء كثير من العظات والتجارب التى اختزنها فى الثلاثين سنة الماضية ، ونضج رأيه وزادت حنكته ودربته ، وأصبح التهور مقودا للرأي الحكيم المتزن ، والقوة مسخرة للفكر السليم يستخدمها فى الخير ، والاقدام والاندفاع للحكمة والصبر ، وجمع شتيت صفاته التى نضجت نضجا طيبا وبلغت القمة من التهذيب والاتزان والسموق ووجهها جميعا إلى خدمة القضية العربية ورفعة الاسلام وأمن السبيل وترقية الوطن ، وجمعها شعوره بالمسئولية الكبرى عن العروبة والاسلام تحت امرته ووجهها توجيها حسنا ، فالقوة العظيمة لم تندفع إلى الحرب والعدوان ، وانما سارت به إلى العمل على استعادة مجد البلاد وتشييد صرح الحرية وحماية الحدود من البغاة ، وتطهير الداخل من الجناة ، ولم يشتغل لسانه بالشتم والسباب ، بل أصبح لسانه الذلق من لوازم الحكومة للفصل فى الاحكام والدلالة على الخير والنصح بالعمل الصالح والدعاوة لهذه الامة التى قال عنها رب العزة : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

وليس ما ذكرنا أهم وسائل القائد وصفاته ، ففى زمننا هذا — على الاخص يجب أن يكون الزعيم القائد بليغ القول فصيح العبارة ، ولا نعنى من هذا أن يكون أديبا يزوق الكلام ويفتن فى التعبير ، بل نعنى ببليغ القول فصيح العبارة أنه يستطيع اقناع سامعيه وأتباعه بما ينقله اليهم من أفكار ، وبما يظهرهم على ما فى نفسه ليكونوا على علم بالفكرة التى تدور بذهنه وبالخاطرة التى تضطرب فى نفسه ، ولا يكفى ان ينقل شعوره وأفكاره نقلا مبتورا ، فقد يكون صوته غير معينه على ذلك كأن يكون قسطه من الجهارة والحيوية ضئيلا ، أو تتعثر الكلمات والاحرف فى لسانه فلا يستطيع أن يمتلك ألباب سامعيه .

غير أن ابن سعود توفرت له كل صفات القائد الزعيم ، فهو خطيب بيّن الكلمة واضح اللفظ حسن التعبير قوي الصوت ، ويزيد على ذلك معرفته بعض وسائل علم النفس بالبديهة والالهام لا بالدراسة والتحصيل ، فهو لا يكلم العقل الا عندما يدرك بفراسته وذكائه وحذقه أنه مسيغ ما يقول وقابله بدون جدال ، ولا يكلم القلب الا عندما ينصت له القلب ، ويعرف أنه مستطيع أن يضرب على « وتره الحساس » وفى الغالب يجب على القائد أن يكلل جنوده بأسهل العبارات وآنس الكلمات وأعظمها تأثيرا فى نفوسهم ، ولا يمكن ضمان ذلك الا إذا خاطب الغريزة باللغة التى ألفتها الغريزة ، فهي حية نشيطة فى كل انسان، وقسط هذا كقسط ذلك ولا خشية من التفاوت اليسير ان كان هناك تفاوت ، ولكن الذكاء غير ذلك ، فالقائد يجب أن ينبه الغريزة ثم يلقى ما يريد حتى يكون لكلامه أثر قوي كما يجب عليه أن يوقظ الشعور والوجدان .

وللخطابة والبلاغة منزلة سامية قديما وحديثا، وما زال القواد الذين أطاعتهم ملكة التعبير يرهفون الاحساس ويوقظون الهمم ويلهبون الحماسة ويغيرون مجرى الحوادث ، ويقللون من أثر الهزائم ، ويدفعون الشعوب إلى الامام ، ولا أدل على ذلك من هذا العصر الحديث الذى أثرى بالزعماء والقواد والخطباء ، وأظن أن هذا غير كاف أيضا للقائد ، فيجب أن يقترن مع ذلك الصدق والامانة

والوفاء ، فالقائد الذى يكذب ويخون فى قوله وفعله تقل هيبته من نفوس أتباعه ويغرى به عدوه ، وابن سعود خطيب بليغ يضاف إلى ذلك أنه صادق وفي أمين ، فما قال الا صدق، وما وعد الا وفّى، وما ائتمن على شيء الا كان مثال الامين الفذ ، وبهذه الخلائق المكينة استطاع أن يضمن لنفسه الولاء والفداء من رعيته ، والاعجاب من غير رعيته ، وما الجدوى من قائد لا يصدق ولا يؤمن ولا يفى ، بل لا يمكن أن يرتقي قمة القيادة بحق الا من كان ملتقى لاكرم الخلائق وأحسن الصفات وأفضل المزايا .

ومن طبيعة القائد المسئول سرعة البت فى القضايا والمشاكل ، ولا يطيق البطء الا فيما لا تجدى السرعة فيه ، أو فيما تخرجه السرعة عن الصواب والحق فيضيع عليه ما يقصد، فهناك التمهل الذى لا غنى عنه، ولكنه ليس تمهل العاجز ، وانما هو أناة الفكر الحاذق طلابا للعدل والصواب .

وطالما ركدت قضايا لدى الحكام ونامت نومة أهل الكهف فلم يجد أصحابها غير اللجوء إلى ابن سعود الذى بت فيها بتا سريعا يرضى به الدين ويرضى به العقل ويرضى به من طلبوا حكمه ، ولم تخرجه السرعة عن طريق الحق والصواب والعدل .

ويجب أن يطاع القائد فيما يأمر ، بل الطاعة العمياء للقائد أمر لا محيص عنه ، فاذا صدر أمر من عبد العزيز وجب أن يطاع وينفذ فى أسرع وقت ، وليس معنى هذا أنه مستبد ، فقد يأمر الامر ويراجع فيه ويحاج ، فان كان الحق معه وأيده العلماء والمشيرون فلا نقض لما أبرم ، والا فما أسهل ما ينقض ، لانه ناشد حق وليس بمستبد يركب العناد والدعوى العريضة .

واذا رجع القارىء إلى الفصل الذى كتبناه عن شخصية ابن سعود وهذا الفصل الذى وضعنا فيه مفتاحها بين يديه استطاع أن يرد كل خليقة من الخلائق، وكل صفة من الصفات إلى « سجية القائد المطبوع » فى سهولة ويسر ، ولن يعوزه الدليل ما استعان بمنطقه وزكانته وملكاته .

عبقرية الصّقر

في اللغة العربية – وفى كل لغات العالم أيضا – كلمات رمز تحتوى صورا وأشكالا ومعاني ثرة لا ينضب ينبوعها الفياض ، منها : الحب والجمال والشعر والادب والفلسفة والفن والحق والخير والفضيلة والعبقرية وغير ذلك .

ولعل التعسف الذى يركب متنه العلماء متّى أرادوا حل رموز هذه الكلمات واختلافهم فى التفسير والشرح والمذهب والتعليل دليل على عظمتها واستغلاقها كأنها قصور سحرية تعجب وترهب وتفسح للخيال المجال فيتصورها مليئة بالاعاجيب زاخرة بالتهاويل ، فاذا فكت طلاسمها تلاشى ذلك السحر العبقري الذى كان يشدَهُ العقل ويترك الذهن سابحا فى خيال طريف ما ينتهى من رحلة الا ليبدأ فى رحلات ممتعة رجاء أن يدرك بعض عظمتها وكنهها .

فتعريف تلك الكلمات الرمز بعديد من الكلمات صعب ، ومن يحاول ذلك فانما يحاول أمرا فوق طاقته وجهده ، لان العقل الذى يريد فك طلاسمها يتعثر فى خطاه على سبيل انتثر فيه الشوك فما يستطيع أن يمشي أو يقف ، فأهون الامرين أصعبهما وأقساهما .

ما العقل ؟ انه زيادة طارئة كما يقول عمانويل كانت ، واننا فى مثل هذا

المجال نهتف مع الاستاذ ابراهيم هاشم الفلالي فى رباعياته المسماة « صبابة الكأس » : « فخل العقل معتقلا » ! .

ويجمل بالعقل أن يعترف فلا يهتك بمخالبه الاستار الشفافة ذوات الالوان المختلفة الجميلة الساحرة ، وليرض بقسمته من هذا الجلال والروعة فذلك خير له من الانطلاق فى متيهات لا يسعه أن يحور إلى المنطقة التى بدأ منها رحلته بعد أن ضل السبيل ! فلا الصوى مشهودة تنير له الطريق ، ولا الرجعى مكفولة له ، وان وسعه الرجوع فانما يرجع فى حال من اللغوب والاين .

وأنا لا أستطيع أن اعرف العبقرية ولا أحب أن أحصر معناها فى جملة أو ألف جملة أو أكثر من ذلك ، فهي كالشمس أنأى ما تكون بجرمها وأدنى ما تكون بنورها الوهاج ، فلنقنع منها بهذا الضياء وما له من فضل على الحياة والاحياء ، ولنترك جرمها حتى تنزل الينا فندركها أو نعرج اليها فتتجرد لنا عن الاوهام المضفاة عليها وتبدو لنا على حقيقتها المفطورة عليها ، وليس معنى هذا أننا لا نحب دراسة الشمس فلكيا وعلميا ، وانما الذى لا نحبه هو التشدق بأن العلماء قد وصلوا إلى حقيقة الشمس وعرفوا مجاهيلها ومساتيرها وكل ما خفي منها عنا ، ولهذا لا نريد أن نسأل : ما العبقرية ؟ وما كنهها ؟ ولكن نشير اليها كما يشير أحدنا إلى القمر ويستمتع بنوره الفضي وما يضفى على الدنيا من نور وسحر وجمال .

ونقصد من هذه المقدمة أن نقول : ان العبقرية لفظ سحري خلاب لا سبيل إلى تفسيره والوصول إلى حقيقته بالتعريف الضيق المحدود ، وفهمه على أساس أن هذا التعريف هو التعريف العام الشامل ، لان العبقرية كالحياة فى رحابتها وعمقها وسموقها ، بل أعظم من هذه الحياة الدارجة ، لان العبقرية حياة رفيعة سامية ، فهي فى القمة ،ولا قدرة لكاتب أن يحيط بما فيها من حقائق وأسرار وهو فى السفح القصي ، وانما ندرك بعض خصائصها وصفاتها وآثارها ممن أسعدهم الحظ فكانوا عباقرة أفذاذا .

ان هذا الفريق من خلق الله يمتاز بالشذوذ فى حياته وآرائه ومذاهبه ، ويبدو للناس أنه شاذ ، لانه يقطن ذروة الحياة العليا حيث تنزوى له الدنيا بمن فيهـا فيضعها فى كفه كالدرهم بين أنامل الصيرفي ينتقده وتتكشف له المساتير المخبوءة ويلقى عليها نظرته العابرة ، فاذا هو قد أدركها ادراكا قويا ، ويسبر الاغوار النائية التى يحجم عنهـا غيره ويسترسل إلى مـا يبعد عن الاذهان فيجعله بيّن الحدود ظاهر المعالم فتصفق له الاكف حتى تدمى ، وتضج له الحناجر حتى تبح ، لانه استطاع أن يرينا ما ليس فى استطاعتنا أن نراه الا بدليل نستسيغه ، وهنالك نقف مشدوهين حيارى من هذا النضج الذى لا يظفر به الا أفـراد معدودون من أبناء الحياة تتكشف لهم عن كنوزها وذخائرها فيأخذون منهـا وينفحوننا بها راضين مطمئنين أريحيين ، فنهتف لهذا الصنيع هتافا عاليا لانـه فوق مستوى الناس .

مثل هذه الوثبة محفوفة بالمكاره والصعاب ، ودون هذه الاعماق ما يذود عنها ، ودون جهاده لتغيير العادات والنظم السائدة والتعاريف الشائعة أفكار وآراء وقلوب وقوى عمي مستبسلة ! لأن الجديد يسخر ويلذع ويتهكم ويصول ولا قدرة للنفوس على احتمال السخرية ، ولا صبر لها على من يركبها بالدعابة المرة والتهكم اللاذع ، فتثور بالعبقري لانه لمس مقدساتها وموروثاتها وعاداتها وأخلاقها بالتمزيق والتجريح وقلب كيانها علوا وسفلا ، ولها الحق فى ذلك ، فقد رميت بشيء جديد لا عهد لها به من قبل ، لا عهد لها بهذا التدفق لا تقف فى وجهه السدود والحواجز ، ويتخطاها إلى ما وراءها فى شموخ وكبرياء ليهبط دنيا تزخر بالمعانى فيأخذ منها ويجود على الاحياء بخير ما تهب الدنيا ، لا يخاف فاقة ولا افتقارا ولا خسارة ، لان فى نفسه عالما حيا يموج بالوفرة والنشاط والحيوية والقوة ، عالما ممتلئا « بالمصانع » عالما لا تغيض ينابيعه ، لان ما يهـب العبقري ليس الا فيضا يزيد على كفايته وحاجته ، ولكنه يكفى كثيرا .

والتدفق والتجديد والابداع والطفوح طبيعة العبقري وخلائقه ، ولا يظفر

بهذه الخصائص أحد غيره ، فهو على هذا مصاب بتضخم فى العقل ، ووفرة فى الاحساس ، وطفح فى الذكاء ، وارباء فى الفكر ، وجبروت فى الذهن ، ولدى غيره ما لا يفيض عن الكفاية ان لم يقل عنها ، والزيادة الطاغية فى العقل والاحساس والذكاء والفكر والذهن اخلال بالتوافق والتوازن ، وهذا ما دعا بعض العلماء كلومبروزو العالم الايطالي الشهير إلى التصريح بأن هنالك آصرة نسب وواشجة رحم قوية بين العبقرية والجنون ، فكما أن العبقري فى مبـدأ أمره شاذ منكور ، كذلك المجنون شاذ مهجور ، والطغيان من شأنه ألا تستقيم معه ابرة الميزان فلا تتساوى الكفتان .

والحد الفاصل بين العبقرية والجنون أدق من أن يدرك ، فأيسر ميل إلى أحد الجانبين يحيل المرء إما عبقريا تحتفل به الدنيا أو مجنونا يجر إلى المستشفى ، ولكن ابن سعود ارتقى إلى الذروة العليا حيث أطل على الدنيا من علوائه فاحتفلت به الايام تلو الايام ، وستحتفل به العصور ، وأخذ يساير الحياة والانسانية ومشى معهما ، فان سارتا صُعُدا لم يك من المتخلفين ، وان تقهقرتا ألفيته فى الرعيل الاول من المتقدمين ! .

وهذا ولا شك عندنا مرده إلى نفسه المستوفزة الموهوبة الممتازة بالوفـرة والتدفق والتجديد والحيوية ، فهو فى كل مراحل حياته لم يكن الا قوي الحس صادق الشعور أريحي النفس غني الرجاء كل طلابه المثل الاعلى ، يطلب ويرجو ويعمل لعله يبلغ مأمله ، ولا شك أن ابن سعود قد بلغ مرتبة عليا من مراتب التفكير والفهم ، فهو قبل كل شيء لم يدرس كغيره من الناس — ولا نقول العباقرة — دراسة منظمة ، لان العبقري دائم الوثاب كثير التنقل دائب الحركة ناقم على الجمود والتمهل ، فلم يستطع أن يكمل دراسته فى « الكتاتيب » وعلى يد « المشائخ » وأن يساير الطلبة العاديين فى التلقى والتحصيل ، لان له قلبا كبيرا وعقلا ضخما لا يروى التياحهما قطرات يسكبها المدرسون ، وهجرهم إلى عالم الحرية والانطلاق يقرأ ما يشاء وينتقى ما يعجبه ، وتتلمذ على الحياة نفسها

فهي « المعلم الاكبر » ويدرك بالنظرة العابرة الخاطفة ما يدركه غيره بالدراسة والعكوف والكدح الناصب ، لان للعبقري « ابن سعود » ادراكا قويا يلتهم المدركات الحسية وغير الحسية ادراكا سريعا ، وأولئك ليسوا الا عاديين لا يسعهم أن يجروا مع هذا العدّاء المجلى أو يلحقوا غباره ، فكيف التوفيق بينه وبينهم ؟ .

وفى هذا دلالة على أن العبقرية لا تبعد عن الغريزة والبصيرة والبديهة ، فكما أن المرء حينما يرفع يده باللقمة لا تضل السبيل إلى فمه ولو كان فى ظلام حالك فكذلك العبقري لا يحتاج لفهم المعارف الانسانية إلى تحصيل كتحصيل غيره ، لان له عقلا وقلبا منهومين يلتهمان المعارف الانسانية بسرعة ، وغير العبقري يولد للتعلم وللاخذ وللتلقى ، أما العبقري فهو مولود لأن يزود الإنسانية بعطاء جديد متدفق ، ولأن يعلّم ويعطي .

فما حاجة ابن سعود إلى الدراسة التى تكدح الاذهان فى استيعابها وفهمها وهو الموهوب ذهنا حيا واعيا ، وفكرا قويا ناضجا ؟ وما حاجته إلى الاستعارة والاخذ وهو الذى وهب الثراء والحيوية والغزارة ليعطي الناس فى سخاء وأريحية.

يجلس — مثلا — الاديب إلى ابن سعود فيحار فى أمره ، أعلى مقربة من ملك عظيم أم يحادث أديبا مطبوعا ؟ وأما فى علوم الدين فقد بلغ فيها مبلغا يغبط عليه من الكبار من العلماء ، وأما فى السياسة والاجتماع ومعرفة الجماهير واتجاهاتها فهو جد خبير لا يفوته من كل ذلك الركز والمخبوء فيه ! .

ولعبقرية ابن سعود شقان : شق نما بالتلقى والتحصيل والمرانة ، وهذا من طبيعته التدقيق والتنظيم والتجربة والاجادة تدرجا ، وأما الشق الثانى فهو القوة الفياضة المتسربة فى الملكات والقريحة والشعور ، ومن طبيعته الابتكار والانشاء .

ففن الحكم قد أجاده بالمرانة كما أجاد الخطط العسكرية وأساليب القتال

بالخبرة والتجربة ، وسار فى تحضير مملكته ببطء لئلا يفاجىء المحافظين بالجديد الغريب ، غير أنه أجاد فى ذلك اجادة عظمى ، وأما عبقريته المبتكرة فهى التى عملت عملها فى ربط « المعلومات » وجعلت منها « كليات » وهي التى عملت على فهم أساليب السياسة وتلونها وخداع الساسة وأكاذيب الماكرين وقـراءة أفكارهم ونفوسهم والاهتداء إلى معرفة الصواب والحق والفضيلة بالـذوق والوجدان والإلهام .

وان عبقرية ابن سعود تشبه انبثاق النور فى الليلة الطخياء ، فهي مشهودة كما يشاهد النور الوهاج .

وان منطقه نسيج العبقرية أو الهامها الصادق ، فهي تواتيه بالحجج المرتجلة دامغة تسكت المعترضين والمجادلين سكوت القناعة بالحجة لا سكوت الخوف من القوة .

لقد أنكر عليه بعض المحافظين استماعه للراديو واستعانته باللاسلكـي والتلفون لانهم ظنوا أن بها شياطين تنقل الحديث ، فسألهم : هل الشيطان يطيق كلام الله ويقرؤه ، فأجابوا بالنفي ، قال : اسمعوا ، فاذا الراديو يذاع منـه القرآن الكريم بصوت عذب رخيم تعد حروفه ، وأمر أحد أتباعه بأن يسمـع المعترضين فى التلفون بعض آي الذكر الحكيم ، فدهشوا ، وأيقنوا أنه لا شيطان ولا سحر ، ولكن ذلك سر العلم و « محصول » الدأب على الاستنباط ونتائج القرائح العبقرية .

وليست أساليب القتال التى حذقها ابن سعود تحدرت اليه كلها عن طريق التلقين من أبيه أو تجاربه ، بل هناك « إلهام » أو ما يشبه الالهام ، فقد غزا الرياض للمرة الثانية واحتلها وصمم على البقاء بها ، وعزم على ألا يغادرها مهما صنع ابن الرشيد ، غير أنه فكر فى قوة خصمه ، فأعلن للملأ أنه اختصم مع أبيه عبد الرحمن وغادر الرياض إلى جهة « غير معلومة » متظاهرا بالنقمة والسخط ،

فوصل النبأ إلى ابن الرشيد فأسرع بجيشه يريد الرياض ليستغل الخصومة بين الوالد وابنه ويضربهما مفترقين فبدأ ليبدأ بالاب ليتفرغ بعده للابن الذى غادرها غاضبا ، فالرياض ضعيفة لا تطيق قوته وبأسه ، ونزل « بنبان » على مسير بضع ساعات ليرتب أموره ففاجأه ابن سعود من خلفه وضربه ضربة أبعدته عن عاصمة نجد أياما بل أبعدته عنها إلى آخر حياته فلم يستطع دخولها لا حربا ولا سلما بعد أن قُتِل عجلان عامل ابن الرشيد على الرياض .

فهو لم يكن عازما على هذه الخطة ولكنها انبثقت فى ذهنه ، فأطاع الحافز الخفي وعمل ذلك وكتب له النصر ، وليس النصر – هنا – بالمصادفة ، بل ألهم الفكرة ثم تولاها بدرس الخطط وتحليلها ثم أخذ فى تنفيذها حينما عرف أنها خطة ناجحة ، فجعل فى المدينة مع أبيه قوات للدفاع وخرج عنها ببقيتها يوهم ابن الرشيد ويرصده حتى تسنت لابن سعود غلبته وقهره .

ولا يظنن أحد أننا نعنى بتقسيم عبقرية ابن سعود إلى شقين أن كلا منهما يعمل عمله مستقلا عن الآخر ، بل هما يعملان معا ، فواعيته تختزن المعلومات والتجارب وتمده عند الحاجة بها ، فيخترع الخطط وينفذ ما يريد ، لانه يعزم على العمل بعد استحداث الخطط وبحثها ونقدها ثم يتوكل على الله .

وقد يعمل العباقرة عملا أو يقولون قولا ويسألون : كيف عملت ؟ وكيف قلت هذا ؟ يجيبون بأن هذا « حديث قلب » أو « الهام » أو « حافز خفي » وليس هذا الا عندما يعوزهم المنطق والدليل حينما يبحثون ويدرسون فيصلون إلى القمة ولا يجدون الدليل الذى يقنعهم فيقولون : هذا « الهام » وما أكثر ما يعمل العمل فاذا هو مصيب فيه ، أو يرسل الكلمة على سجيته فاذا هي كلمة حق لا غبار عليها ، فاذا سئل قال مغتبطا : هذا فضل من الله .

وايمانه بالله ايمانا قويا واعتقاده فى نصره حملاه على الصراحة والشجاعة

والعمل ، وما هو بحاجة إلى الكذب والجبن والخنوع ، وهو ذلك الذى يتولاه الله بفضله وتحرسه عنايته ورعايته ؟ .

وما نقول فى رجل لا يملك الا ما يقوته ، فى رجل مطارد من جيوش الاعداء تتبع آثاره فى كل مكان ثم يبسط سلطانه على أقاليم واسعة فى سنوات معدودات ؟ وما نقول فى رجل لم يتعلم الا للعاشرة من عمره ثم شارك أسرته النفي والتغريب والتشرد حتى اذا استقر به المقام لم يتجه إلى الدراسة والتحصيل لانه لم يكن له وقت ينفقه فيهما ، بل ما كانت نفسه لتسيغ هذا البطء والجمود والسخف ، ثم نراه يدهش كبار المفكرين والعلماء والساسة والعظماء والامراء والملوك بعلمه الواسع الناضج واطلاعه العظيم ؟ ماذا يقال فى رجل هذا شأنه غير أنه « عبقري » يعرف بالبداهة سبل الاقناع والقول وصوغ الحجة فى لباقة وذكاء .

وقد امتاز ابن سعود بالنضج الباكر ، فبز الصبية ببنيانه الوثيق ، وكان يبدو دائما فى سن أكبر بكثير مما هو فيه ، فهو كبيرهم فى اللعب ، وهو أسبقهم فى المدرسة ، بل كان يبدو أكبر عقلا وأوسع ادراكا من بعض طلبة العلم الذين نالوا قسطا وافرا من العلوم والمعارف ، وكان منطقه خلابا وحجته قوية يقهر بها أعظم الرجال ، وكان إلى جانب حيائه كثير الاجتراء على من يتجاوز حدود الله ، قوي الوطأة بحجته على مخالفيه فى الرأي .

وأي انسان فى العاشرة من عمره يطيق الحرب والنزال ؛ ولكن ابن سعود أطاقهما ، وتقاذفته الفيافى والصحارى ولفحته ذكاء ، وحرمه الزمن الغادر من النعيم فنشأ من صغره نشأة الرجل الكبير يمارس الخشونة وأعمال المشقة والكدح وحمل السلاح فى حين أن أترابه ما زالوا يمرحون فى مدارج الطفولة اللاهية .

بل غزا فى أعقاب الثامنة عشر من عمره حكومة نجد القوية ، ثم خرج من

عاصمتها ليعود اليها فى العشرين ويجعلها عاصمة السعوديين ، ويرد اليها عزتها السليبة وسيادتها المضيعة .

بل كان إلى جانب منطقه القوي بارعا في الدعاية حتى أقنع معه فى الغزوة الاولى عظماء القبائل وأغراهم حديثه بأن يكونوا معه وهم كارهوه ، فعقلهم معه وقلبهم ليس معه ، حتى استمالهم قليلا قليلا فكانوا أنصاره قلبا وعقــلا ، ولما احتل الرياض للمرة الثانية وأراد اقتفاء آثار عدوه أراد أن يستميل قومـــا فكان يخلو بكل منهم ويكلمه فيسبيه منطقه ، فلا يستطيع كتمان اعجابه بابن سعود فيقول له : « قد أبلشتنى ! ! » أي حيرتنى بعامية نجد ، وهي كلمة تقال للتعظيم والاعجاب بقوة الرجل الذى يستطيع أن يلعب بالعقول ، وتقال — أيضا — عندما يصاب الرجل بسبب رجل آخر .

والفتى الذى يستطيع أن يجالس مباركا الصباح وعبد الرحمن بن فيصل بن سعود وأعظم المفكرين من رجال القبائل ويظهر عليهم بعقله لهو جبار ذهن ، لهو عبقري موهوب .

وقلنا : إن العبقري مصاب بتضخم فى العقل ، وما سبق دليل عليه ، وقلنا : إنه شاذ ، وشذوذه آت عن تمرده على التقاليد والعادات التى أفسدتها البيئـــة والشعوذة والبدع والجهل ، والناس لا يطيقون من يريد تغيير عاداتهم .

والعبقري يريد ذلك لانه يرجو لهم حياة أقرب إلى الكمال ، وأولئــك معذورون ، لان تغيير العادة فجيعة لا تطاق ، فليس البكاء على عزيز مفقود — مثلا — الا لانه غيّر عادة فلا يُرى بعد أن كانت العيون تبصره ولا يسمع حديثه بعد أن كان مسموعا وغير ذلك .

لهذا يتهم العبقري بالشذوذ وما هو بشاذ عند من يفهمونه حق الفهم ، ولكنه مجدد ، والتجديد لا يطيقه الا الاقوياء ، وليس الناس بالنسبة إلى العباقرة بأقوياء ،

واذا احتاج الباحثون إلى دليل لاثبات عبقريات العباقرة فليس ابن سعود بمحتاج اليه ، لان كل صفاته التى سردنا فى الفصول السابقة ، ولان ترجمة حياته التى دوناها فى هذا الكتاب شواهد بينة على هذه العبقرية التى إن أخطأ الناس العبقريات فهم لن يخطئوا عبقرية ابن سعود بحال من الاحوال .

ولقد أعجبتنى كلمة للكاتب العبقري الكبير الاستاذ العقاد عن ابن سعود أصاب فيها وأذكرها بمعناها قال : ان ابن سعود من أولئك الزعماء الذين يراهم المتفرسون المتوسمون فلا يحارون فى أسباب زعامتهم وعظمتهم ، ولا يجدون أنفسهم مضطرين أن يسألوا : لماذا كان هؤلاء زعماء ؟ لان الايمان باستحقاق هؤلاء لمنزلة الزعامة فى أقوامهم أسهل كثيرا من الشك فى ذلك الاستحقاق .

والرجل الذى يجمع أكبر ما يجتمع فى قومه من الصفات فيفهم الناس أنه أكبر أبناء جنسه لانه أكبر رجل فى طبائع أمته هو بلا شك عبقري ، وإلا ما استطاع أن يكون « النموذج » الصالح العظيم المكبّر لامة لها فضائلها وحسناتها وتاريخها وقوميتها ومآثرها الخالدة وماضيها المجيد .

فابن سعود عبقري ، وسمة العبقرية لن تخطئها فيه عين مهما بعدت عنه .

عبقرية الصقر السياسية

من أظهر ما يكون من خلائق ابن سعود عبقريته السياسية ، فهي كفاء عبقريته الادارية والحربية ، فكما دان له النصر فى ميدان الصراع والقتال دان له النصر فى ميادين السياسة والدبلوماسية .

وكانت هذه السنوات التى تزيد على الثلاثين تقدم البراهين على هذه العبقرية الناضجة البكر التى لا يوهبها الا من بلغ مرتبة عالية من مراتب الذهن والنضج ، والا من عرف أساليب الساسة ومقررى مصائر الشعوب بالتلقى والتجربة والمقارنة وبالحس والبداهة .

ويزيد فضل ابن سعود ويظهر عبقريته اظهارا بينا أنه لم يدرس الحقوق فى الجامعات ولم ينل اجازة فى القانون ، بل نبت بالصحراء فاذا هو يبز أصحاب الحقوق والقانون ، ويدهش الساسة والمفكرين بأعماله وأقواله التى أعجبت أكبر الساسة فى العالم .

ولقد جالس أعظم دهاة الانكليز وجبابرة السياسة فصاولهم حتى انتصر عليهم بالمنطق الواضح والحجة الدامغة والمطلب الحق ، وانتزع اعجابهم وتقديرهم وأخذ منهم الحق كاملا . جالس السير برسى كوكس – وهو من أدهى دهاة

انكلترا وكبار ساستها - ففرض عليه احترامه وتقديره ، وباحثه مباحثة الند للند في الدهاء والسياسة والمعرفة ، ثم اجتمع بمندوبي بريطانيا القادمين للبحث في مسألة الدويش فاستطاع إلى اقناعهم حتى تسلم منهم الدويش وصحبه في خباري وضْحا ، وبذلك انتصر على خصومه في ميدان السياسة كما ظفر بهم في ميدان القتال .

وأعظم من ذلك الخطة التي اتبعها بعد غزو الحجاز ، فأخرج الحسين وآله في مهارة فائقة ولباقة وسياسة جهلها من درسوا القانون والفقه والسياسة وأحاط بها علما من نبت في الصحراء ما دل به على عظمة هذه العبقرية البكر ، أخرج الحسين وآله بحرب ، ولكن من دون أن تشغب عليه الدول التي لها رعايا كثير في الحجاز .

والدولة المحاربة تحرص على أن تستميل أكبر عدد ممكن من الدول إلى جانبها لتستعين بها في مصالحها الذاتية ، بل تعتبر الدولة التي تستطيع اقناع الدول الاخرى بسلامة نيتها ووجاهة قضيتها وحسن مقصدها ، واستمالة ما يمكن منها دولة سياسية لها مكانها المرموق بين الدول ، فبريطانيا - مثلا - قد استطاعت في هذه الحرب بعبقريتها السياسية - بعد الهزائم - أن تقيم الدنيا وتقعدها على ألمانيا ، واستمالت إلى جانبها الدنيا بأجمعها ، وما تسنى لها هذا الا بعد أن بددت تلولا من المال والورق وما لا يقدر من القوى والجهود والسلاح والرجال .

فاذا عدت بريطانيا عبقرية في السياسة لذلك فان ابن سعود عبقري مثلها ، وبريطانيا - بعد - هي الدولة التي لا تغرب الشمس عن أملاكها ، ولها مالية ضخمة لا تعد ويتعب في احصائها صيرفي روضت أعداده ، وفيها الابطال في كل الميادين ، فلا عجب من انتصارها وعبقريتها السياسية ، بل العجب من انتصار ابن سعود في الحجاز وقد كان فقيرا إلى المال والسلاح والدعاية ، ولكنه بالرغم من كل ذلك استطاع أن يقف كل الدول وفيها حلفاء الحسين نفسه ،

ويقف البلدان التي يتولى شؤونها إخوة ملك الحجاز (علي) وقفة المكتوف فلا يسعها عونه وهي تشهد سقوطه شيئا فشيئا .

ومنطقه السياسي واضح لا غموض فيه ، مستقيم لا التواء به ، تام لا فضول فيه ، ولا يخشى في الحق لومة لائم ، لأنه صريح نبيل ، فقد كتب للانكليز حينما التجأ اليهم الدويش كتابة شديدة ، وأوثقهم بالحجة فلم يجدوا مفرا من التسليم والاذعان .

وكان ابن سعود قد أوثِق في مؤتمر القطيف بالمعاهدة الانكليزية السعودية الجائرة ، وما كان هذا ليحدث لو كان مستشاروه يقظين عالمين ، غير أن ما أخطأ فيه مندوبه في ذلك المؤتمر صححه هو نفسه في معاهدة جدة ، وانتزع حقه انتزاعا ، واعترفت بريطانيا العظمى بسيادته وسلطنته في نجد واستقلال مملكته استقلالا تاما .

وهذا ولا شك انتصار مبين في ميدان السياسة ، فخصومه من رجال حكومة الحسين وعلي قد انتقدوا ابن سعود ونددوا به وزعموا أنه غير مستقل لانه وضع بلاده بموجب تلك المعاهدة تحت حماية الانكليز فكيف يستطيع – وهو كذلك – حكم الحجاز ؟!.

ولم يجد بدا من قهر خصومه في ميدان السياسة في حين انهماكه في الحرب ضد الحسين ثم علي ، فاتفق مع الانكليز وأصبح موفور الكرامة ، مستقلة بلاده بمعاهدة « بحرة » الناسخة لما قبلها من معاهدات .

ومن دهائه السياسي أنه استطاع أن يمشي إلى مقاصده السياسية مشيا متزنا ، فوسعه أن يسالم جيرانه ويفرض على الدول الاوربية الكبيرة احترامه وتقديره ، وما زال كذلك حتى نشبت الحرب الحاضرة فأعلن موقفه الحيادي عاطفا على الديمقراطية ، ثم اجتمع بروزفلت وتشرشل وايدن واستطاع أن يتفاهم معهم مفاهمة الند للند .

ولم تكتب بينه وبين أولئك معاهدات ، وكل ما حدث أن طلب من روزفلت أن يعطي عبد العزيز كلمه الشرف ويأخذ من عبد العزيز هذه الكلمة نفسها ، وهو قانع — بعدُ — بذلك ، لان عظيما كروزفلت لن يغدر به بعد ما يكون بينهما عهد وميثاق دونا فى القلوب .

وخير دليل لاثبات عبقرية ابن سعود السياسية توفيقه فى ايجاد علاقات جديدة بينه وبين الدول ، وحرصه على تنمية أواصر المودة والاخاء بينه وبين من تجمعه بهم العهود السابقة ، واستطاعته على أن يحل المفاهمة والمسالمة والصفاء مع خصومه آل الحسين وغيرهم محل التباغض والجفاء ، وعدم تورطه فى مشاكل سياسية ، وتجنبه كل ما من شأنه تعكير الصلات ، وسعيه على اطفاء الفتن بالحكمة والروية والاناة .

ولسنا فى حاجة إلى اثبات عبقرية ابن سعود السياسية بالقول بعد أن أثبته بالعمل ، ويكفى أن نعلم أن مملكة ابن سعود لم تخسر معركة أو قضية سياسية واحدة ، بل ربحت كل المعارك والقضايا السياسية ربحا وفيرا ما دعا أقطاب الانكليز ككلايتون إلى الاعجاب بابن سعود وتقديره تقديرا لا مزيد عليه ، ومرد ذلك إلى أن ابن سعود نفسه كان يقبض على زمام السياسة الخارجية .

أظهر ابن سعود اعجابه بالانكليز وسعة ملكهم أمام جلبرت كلايتون فى اجتماعهما فى « بحرة » سنة ١٣٤٣ هـ فأجابه قائلا :

ان ما ذكرت صحيح ، ولكن هذا الملك الواسع لم يؤسس الا فى مئات السنين ، ولكن ألا يصح لنا نحن الانكليز أن نعجب بك ، فانك فى ثلاثين سنة قد أسست ملكا واسعا ، واذا اطّرد لك هذا الفتح وهذا التقدم فأظن أنه فى نصف المدة التى أسسنا فيها ملكنا تؤسس أنت امبراطورية مثل (أو أكبر) من امبراطوريتنا ، وهـذا ليس ببعيد اذا ساعدتكم تصرفات الزمن وأخذتم بسنن

التقدم ، فان أسلافكم العرب قد شيدوا امبراطورية عظيمة فى مدة قصيرة جدا لم يعرف التاريخ مثلها » .

وهذه شهادة حق لا غبار عليها من رجل يعرف ما يقول ، فهي — كما تظهر عظمة ابن سعود وطموحه وسعيه الدائم فى سبيل نفع العروبة والاسلام — تظهر عبقريته السياسية ، فكلايتون اذ شهد له بأنه يستحق الاعجاب أكثر من الانكليز كان شاهد عدل ، فابن سعود وحده مشيد هذا الملك فى سنوات معدودات فى حين أن انكلترا كلها بما فيها من أبطال وقواد وزعماء شادت ملكها العظيم ، ولكن ليس فى سنوات بل فى أجيال .

وما أدرى ماذا كان كلايتون قائلا لو صادف ابن سعود اليوم بعد هـذه الوثبة العظيمة !؟ بل أدرى ! كان يزيد اعجابه بهذه الشخصية الفذة زيادة لا فضول فيها .

ان ابن سعود جدير بالاعجاب من كل عربي ومن كل مسلم ومن كـل انسان ، لانه صانع تاريخ إنساني حافل بجلائل الاعمال .

وكل ما نريد ونتمنى نحن السعوديين أن يطيل الله عمر عاهلنا ليتحقق مـا قال كلايتون ، وما ذلك على الله بعزيز .

شجاعة الصقر

ان تركيب جسم ابن سعود يدلنا على عظم قوته ، فهو بادن ذو بنيان وثيق كأنه طود أشم مرفوع الذرى بعيد القمة مرهوب النظرة ، وكان إلى قوتـــه الجسمية العظيمة شجاعا بالغ الشجاعة لم ير له نظير فيها ، فغزواته التى غزاها دليل قوي عليها ، بل ليس فى نجد والاحساء على سعة مساحتهما أرض لم يقاتل عليها ، ويكفى أن نعلم أنه أسس ملكه وحده وليس معه من صحابه غير أربعين رجلا ، وبهؤلاء غزا حكومة ابن رشيد حتى قهره ! .

وكان عدد رجاله فى أكثر حروبه أقل من رجال خصومه ، وعدتهم أعظم من عدته وسلاحه ، فابن الرشيد تمده الدولة التركية بالمدافع والرشاشات والقنابل والمال وكل أنواع الاسلحة ، وابن سعود فقير إلى كل ذلك ، ولكنه غني القلب شجاع مقدام ، حتى أن أباه عبد الرحمن أشفق عليه من مهاجمة الرياض ، لان ما معه من الرجال والمال والعتاد لا يضمن له النصر ، بل الموت محقق له ولرجاله ، غير أن شجاعة عبد العزيز وصلابته وثقته بنفسه بعد الله حمله على الغزو ، فان انتصر فذلك فضل الله آتاه ، والا كان فداء لوطنه ، وهو في كلا الامرين مشكور السعي ، مرموق الاثر ، خالد الذكر .

ومن الثابت أن عبد العزيز بن متعب الرشيد كان الشجاع المعلم الذى تنفست

عنه الجزيرة فى القرن الرابع عشر ، ويعترف له أبطال نجد بالشجاعة الفائقة والصلابة القوية والقوة الطاغية ، وأنه كان شديد العرام تذيب نظرته الشجعان ، غير أن ابن سعود هو الذى هزمه وقتله فى روضة مهنا ، فالشجاع لا يغلبه الا شجاع ، وقديما قيل : « لايفل الحديد الا الحديد » .

ولكن الفارق عظيم بين شجاعة ابن متعب العمياء التى قهرت الصناديد بطغيانها وشموسها وشجاعة ابن سعود المبصرة ، وهو كالفارق بين شخصية الرجلين ، فخلائقهما – بعضها – تتفق فى العنوان ثم تفترق عند التحليل والشرح والدراسة والنتائج ، فالاول شجاع طاغية جبار فيه عتو وجور وحب للدماء ، ولا يبالى المبادىء ، والانتقام عنده خليقة أصيلة جهيرة الصوت ، أما ابن سعود فشجاع حكيم ، وقوي شديد القوة ، ولكنه يفضل خصمه بخلائق انسانية عليا ، فهو « آفق »[1] كثير العفو والصفح والسماح ، وديع رحيم الا فى المواطن التى لا يعالج الامر فيها الا بالقسوة فهو يقسو للضرورة ، وما أسعد الخصم الذى يظفر به ، لانه يعيش فى ظله عيشة راضية مطمئنة .

قلنا : انه بلغ فى القوة الجسمية مبلغا جد عظيم ، وهذا صحيح ، فقد اتكأ مرة على باب سيارة جديدة فخلعه ، وقفز على ظهر فرس له فكسره ، وله حوادث شبيهة بهذين الحادثين وكلها تنطق بأنه وهب قوة جسمية بالغة ، أما فى الحرب فقوته تزداد أضعافا ، فهي فى السلم كالنهر الهادىء ، ولكنها فى الحرب بركان ثائر غضوب ، فطالما يقابل عديدا من الفرسان الاشداء فى ميادين النزال وهو وحده ويحيطون به وكلهم شجاع قوي ، ولكنه يقاتلهم أشد قتال ويمزق شملهم ويضطرهم إلى الفرار ، أما العنيد فله السيف يعربد فى هامته ، بل ينتزع الفارس من فرسه ويلقيه بعيدا ، ويركل فرسه فاذا هو لقى على الاديم .

وكل ذلك دليل قوته البالغة التى لا نشهدها فى كل جيل الا قليلا ، فان كان

«١» الذى بلغ النهاية فى الكرم

خمارويه يصارع الاسد ويدل عليه بقوته ، وان كان بدر بن عمار — كما يقول صاحبنا أبو الطيب المتنبي — يكرم سيفه عن الليث ويجعل له سوطه ويمدحه بهذا البيت القوي :

أمعفر الليث الهزبر بسوطـــــه
لمـــن ادخرت الصارم المصقـــــولا

فان ابن سعود صارع من هو أقوى من الليث ، وهو — بعد — يفضلهما فى قوة الجسم وشجاعة القلب وثبات الجنان وعبقرية الرأي ونضجه ، فمـــن ذا يستطيع أن يقابل جيشا من الفرسان الفاتكين غير ابن سعود فى زماننا هذا وجها لوجه ، حتّى أن اسمه صار أعظم من الجيش ! من ذا يسمع به ويجرؤ على نزاله ؟ ومن ذا يعرفه فيجرؤ على مبارزته ؟ ! بل ما أكثر ما يخرج للجيش المعادى وحده قبل رجاله ويبدأ المعركة وينازل الابطال حتّى يثخنهم جراحا .

وجسم ابن سعود مليء بجراح كان بعضها خطرا ولكن الله شفاه منه ، وبعض اصاباته من السيف والرمح وبعضها من الرصاص وبعضها من شظايا القنابل ، وهي أعظم « شهادة » موثوق بها فى عالم الحرب والكفاح تدل على الشجاعـــة والبطولة والاقدام .

وشجاعة ابن سعود محاطة بأسيجة شتّى من الرأي والعدل والصفح والرحمة والفضيلة والخير ، فهو لم يحارب أحدا وجد السبيل إلى مسالمته ، فالحرب ضرورة من الضرورات لا مفر منها ، وهو مضطر اليها إما دفعا لعدوان أو جلبا لنفـــع عام ، أو إجابة لدعوة صديق يطلب اليه أن ينجده وينقذه من كارثة يشرف عليها ، واذا لم يكن بد من هذه الضرورة فلا لؤم فيها ولا شطط بل القصـــد والاعتدال .

والمرأة والطفل والشيخ الفاني بنجوة عن الاعتداء ، والجريح مرحوم لانه

يعتبر فى حكم من ألقى السلاح ، وتجب العناية به اذا أسر ، ويجب ألا يجهز على جريح ، وألا تنتهك حرمته ، والمدينة المفتوحة بل المدينة المحاربة المغلوبةمستقبلة منه كرما وصفحا، هذا عند ابن سعود لان الضغن والحقد والمقت والبغضاء لا تجد مكانا ممهودا فى قلبه الكبير .

والانتقام رذيلة بل شر الرذائل ، فهو لا ينتقم ، لان الانتقام يناقض عنده شرف الشجاعة والبطولة ، فالعجمان قتلوا أخاه سعدا ، وسعد عزيز على عبد العزيز ، فلما تمكن منهم لم يقتص لاخيه ، لان الحرب عمياء وما يسيل فيها من دم فهو أشبه بالدم المهدور ، وقتلوه وهم أعداء ، فكيف يقتص منهم وهم اليوم أصدقاء أو على الأقل من رعاياه ؟ ولم يصبحوا رعاياه الا بعد حرب ضروس.

وخلائقه فى الحرب خلائق انسانية لا توجد الا فى أفراد قلائل فى التاريخ كله ، فطالما قبض على نساء كن محاربات أو فى حكم المحاربين فلم ينتقم منهن ، بل عني بهن ، ولم يمد اليهن الا يد الرحمة والعون ، فقد جرد حملة بقيادة فهد بن عبدالله بن جلوي لقتال ضيدان وجماعة العجمان ، ورغب ضيدان فى السلم على كره من أتباعه وفاوض فهدا فأتى اليه فأمسك فهد به خشية من أن يكون قدومه تجسسا لا رغبة في السلام، بل أمسك ليبلو حقيقته، غير أن امرأته وهي من العجمان أثارت النخوة في اتباع رئيسهم فهجموا وهي معهم ، وفتكوا بفهد وكثير ممن معه ، ثم ظفر بها وبهم ابن سعود فلم يقربها أو يقربهم بسوء .

هذه هي الشجاعة التى يقف التاريخ اجلالا لها ، فمن ذا يترك قاتل إخوته أو أقربائه يروحون ويغدون الا اذا كان فى أخلاق عبد العزيز النبيلة ؟ بل من ذا يستطيع أن يستقبلهم ببشاشة وعطف ومودة الا اذا كان له قلب كقلب ابن سعود لا يوسوس فيه الضغن والذحول .

فابن سعود فى شجاعته ليس بالمتهور ، بل الحكمة والدهاء والرزانة والرأي

أولى أدواته الحربية ، فهو شجاع غلاب ، ولكنه حكيم داهية يزن الامور وزنا دقيقا ، وبذلك استطاع أن يقهر خصومه واحدا واحدا حتى صفا له جو الجزيرة وأصبح الحاكم الأكبر العظيم

حشد له ابن الرشيد جيشا قويا وأعانه الترك بالاسلحة والمعدات والمال والرجال ، ولكن ابن سعود قهرهم وغنم كل ما معهم فى البكيرية حتى كانت غنائمه من الجمال تبلغ عشرة آلاف جمل ، عدا المال الطائل ، والمتاع الذى لا يحصى ! ولا بد من أن نقول : ان شجاعة ابن سعود قرينة بالزهد والقناعة والنبل ، فهو لم يطمع فى الغنيمة ولم يأخذ منها غير السلاح ، والسلاح للوطن ، وفرق كل ما كسب على رجاله ما أدهش البدو منهم وهم الذين لا يعرفون الذهب والوفرة ، فخالوا أنفسهم أغنياء ، وعرفوا أن ابن سعود ليس كالامراء الآخرين يستبد بشجاعته ومروءته وشرفه المال .

وان شجاعة ابن سعود من أندر الشجاعات لأنها قرينة بأفضل الخلائق والصفات ، فالمال لم يطمع فيه مع أنه فى حاجة اليه لتجنيد الجيوش ، ولكنه لم يدخره بل فرقه لئلا يجد خصومه منفذا الى النيل منه بدون حق ، بل زعم ابن الرشيد أن ابن سعود شاب طائش نهاب يريد أن يجمع الدراهم لأمه ! وهو كذب صراح ، فليس من خلقه الاكتناز والكزازة والطمع ، بل هو يريد أن يجمع لامته — لا لأمه — أمجادها ومفاخرها وينقذها من الشرور والويلات والحرب ، وحسب أمه هذا الفخار الذى لا يُقوَّم بمال ، حسبها أن تقر عيناها بابنها البطل العظيم منقذ العروبة والاسلام ، وحسبها هذا الفخر الذى لا يدانيه فخر .

ومن أسيجة شجاعته : الايمان بالله ، والثقة بنفسه ، فهو مؤمن بالله وراثة واكتسابا ، فقد رأى من شواهد قدرة الله ما ضاعف ايمانه وأرسخه فى قلبه ، فلا يخرج الى حرب الا بعد أن يبتهل الى الله ويطلب النصر ، لأنه ما خرج باغيا ولا ظالما ، وانما خرج مجاهدا ينصر الحق ، ولا ينتهى من معركة الا فزع الى

ربه يشكره حتّى لتخضل لحيته الخفيفة من الدموع شكرانا لله .

حدثنى ابن عقيل أحد شيوخ نجد أنه كان مع ابن سعود فى غزوة من الغزوات ، وما كاد ينتهى من المعركة منتصرا حتّى دخل حجرة أعدت له وأخذ يصلى وغرق فى صلاته ، فأسرع اليه رجاله يدعونه ليبايعه كبار أهل المدينة المغلوبة فألفوه غارقا فى سبحاته .

بل زاد شجاعته قوة وضراما ايمانه الراسخ ، فهو يؤمن أن الله خالقه وهو مميته ، وله أجل لا يسبقه مهما تكاثّ عليه الاعداء ، ولا يتأخر عنه مهما توارى من ميادين الموت ، وما دام كذلك فما يؤخره عن القتال والجهاد والعمر بيد الله ، والموت بمشيئته النافذة لا بمشيئة الخصوم .

وما دام شجاعا بلغ فى الشجاعة القمة التى تتقطع دونها أعناق الجبابرة الابطال فهو يثق بنفسه ثقة كبيرة ، بل شعر وهو فى مدارج صباه أنه شجاع مرهوب ، وانه « انسان » ذو ثقل ورجحان فى ميزان الفضائل والأخلاق الكريمة فى السلم والحرب على السواء ، فله حماه الذى يفاء الى ظله ويركن الى جواره فى جميع مراحل حياته ، ففى طفولته كان أعظم الاطفال ، وأعظم الشباب حينما كان شابا ، وأعظم الرجال حينما اكتهل ، وأعظم الملوك حينما ملك ، ولولا ثقته بنفسه لما استعجل النهوض بعدد لا يضمن الغلبة الا على عدد مثله ، فكيف به يجابه حكومة لها مال ودولة ورجال ، ولكن ثقته بنفسه حملته وهو فى عنفوان الشباب — فى العشرين من العمر — أن يهاجم حكومة ذات سلطان وأيد هي حكومة ابن الرشيد ويمحوها من الوجود ، فعمله هذا يكاد يظن خيالا لولا أنه مشهود على مرأى من الناس ومسمع ، فمن ذا يصدق أن انسانا فى العشرين يهاجم ويحارب بأربعين رجلا فيؤسس دولة يرهب جانبها ويخشى بأسها ويحترم جنابها اذا لم يكن ابن سعود موجودا ؟!.

بل كان من شجاعته ألا يضع على نفسه حارسا ، فيمشى كما يمشى كل

أحد ، ويستقبل كل أحد ببساطته ، ويطوف مع الطائفين بالبيت كأنه فرد عادي لا ملك خطير اذ لا يفضل غيره فى مظهر ، ولو وضع لنفسه حارسا أو حراسا مسلحين لكان له العذر كل العذر ، ولما انقص شجاعته ، فقد اغتيل جده عبد العزيز بن سعود سنة ١٢١٨ هـ على يد شيعي نقم عليه هجومه على كربلاء فطعنه بخنجره وهو يصلي فى المسجد . نعم ، لم يكن يعنى بالحرس ولم يضعهم على نفسه يحفظونها الا بعد حادثة « الزيود » وظن أن هناك مؤامرة خطيرة فوقف عن الطواف يفحص الناس وقد سابقوا الريح ما عدا ابن سعود وخدمه ثبتوا للدفاع عنه حتى اليقين ، ومشى ابن سعود الى الاروقة باحثا منقبا ثم رجع وأكمل أشواطه ثم خرج الى السعي وكأنه لم يكن شيء .

فهذا الموقف أظهر لشجاعة ابن سعود من المواقف الأخرى ، فلو لم يكن شجاعا بالغ الشجاعة لما استطاع أن يثبت ، لأنه موقف يورث الارتباك والقلق فى أشد الناس أيدا وصلابة ، ولم يختف أو يتنكر لئلا يعرف بجسمه الوثيق الفارع ، فهنا مؤامرة خطيرة — ولا شك — وهنا مكيدة وغدر وسفالات تدبر فى الخفاء ، وليست حربا تشاهد بالعيان أو يأخذ فيها الانسان الحيطة والحذر ، فالمرء لا يخشى الحرب التى تعلن عليه ولكن يخشى المؤامرة ، ففى الاولى يعرف العدو ويباح القتال وتستحل الخديعة ، ولكن فى الثانية جبن وخسة وغدر وخيانة وسقوط خلقي وسفالة وكل خلق مرذول مقيت ، ولكن عند ابن سعود سيان ، فهو صافى القلب والنية ، وهو مؤمن ، والآن بين يدي الله طائف مبتهل ، ثم شجاع قاهر جريء ، فما تجدى المؤامرة والله يحفظه ؟ وما تجدى أصحابها الانذال الجبناء وهم سيواجهون فى نهاية المطاف من تواروا عنه خوفا وجبنا !.

وهل مثل عبد العزيز يجبن فى هذا الموقف ويرتبك ؟ كلا ، إنه واجه المؤامرة ومضى هو نفسه يبحث ، أين الاعداء ؟ أين المقاتلون ؟ أين المنتهكون

لحرمات الله الملحدون فى المسجد الحرام ؟ أين الانذال الجبناء ؟ ها هم أولاء ثلاثة ، ولكنهم لقوا الحتوف فى لمح البصر .

بل كان بالرغم من شجاعته كثير الاناة حتى قال له خالد بن لؤي وسلطان ابن بجاد فى الاجتماع العام الذى عقده للتشاور فى مسألة جدة التى كان يحاصرها الجيش السعودي : ما هذه الجبانة ؟ فأجاب ابن سعود : الرأي ، الرأي ، الاناة ، الانـــاة .

وقد أخطأ خالد وسلطان فليس ما بعبد العزيز جبانة ، ولكنه الشجاعة المبصرة ، وإن الاناة والتبصر والرأي والحكمة من الشجاعة ، فلولا تلك لما عدت الشجاعة الا تهورا وجنونا ، فكما يفيد السيف فى المعركة يفيد الرأي السديد فى كسبها اذا أعان الله ، فليست الاناة جبنا فى منطق الشجاع النبيل العبقري الحكيم ، فالاناة أناة ، والجبن جبن ، ولا تطغى المدلولات بعضها على بعض ، لأن لكل لفظ مدلولا خاصا ، فالاناة فضيلة فلا يمكن أن تسمى جبنا ، فهي أناة فى حقيقتها ولفظها ومعناها ، وهي من لوازم الشجاع وعدته ، والجبن رذيلة فلا يمكن أن يلبس الثوب الجميل « الاناة » فهو جبن فى حقيقته ولفظه ومعناه .

ومقطع القول أن ابن سعود بلغ فى الشجاعة مبلغاً قل أن بلغه معاصر له ، وقد عرفها الناس حتى من كان بعيدا عنه بأعماله وسيرته معرفة تثبت ويقين ، وليس هنالك مجال للشك فيها بعد جهاده العظيم الرائع ، وبعد هذه « الشهادات » الموثوقة المطبوعة فى جسمه ! ومن يشك فى شجاعة بطل هتفت بها الدنيا وصفق لها الشرق والغرب .

ولم تكثر من الشواهد لأن هذا الكتاب شاهد على شجاعته ، **وما** حاجتنا إلى الشواهد والشهداء فى قضية ثابتة ، وإن القضية لا تحتاج إلى بينات تثبتها إلا كان هناك من ينكرها ، وقضية شجاعة ابن سعود يعترف بها خصومه الاقوياء قبل أنصاره الأوفياء .

ابن سعود الإنسان

ويجب أن نكتب عن ابن سعود كأنسان يتصباه الجمال ، ويفتنه الحسن سواء أكان فى مشاهد الكون الرائعة الجميلة أم فى طلعة الربيع الخالب أم فى المرأة الحسناء أم فى الكلمة الغراء .

فهو من أشد الناس تذوقا للجمال ، فطالما يخرج الى الرياض المخضرضرة المعشوشبة بأهله وخلانه يستمتع بها ويستغرق فى الرؤى الحالمة حينما تطوف به فى حنان ورفق ، وله فى روضة الخفس وغيرها من الرياض جولات انسان منهوم الحس يجب أن يتخفف عن الاعباء ليعود الى حملها وهو مستجم القوى ، مرتاح البال ، ناشط العقل ، ويخرج فى بُكرة الصباح يتملى جمال الاعشاب التى تزين الارض ، ويرنو الى الزهور المتفتحة ويستمتع بالندى الرفاف كأنه لؤلؤ صاف براق ، ويستقبل ذكاء حينما تطل من خلف الروابى والجبال حيية خفرة بلهفة وشوق ، فيمرح ويركض من البشر والمسرة ، وينطلق خلف الظباء الشاردة يلهو بصيدها وشيها وتوزيعها على رجاله .

وما دام كل عمل أباحه الشرع للمسلم وكان فيه مسلاة له فهو لا يزهد فيه ، لأنه ليس بمتزمت يصطنع الوقار ، ولا بخامد الاحساس لا يستجيب للحسن

والمشاهد والمتع ، ولا بمغلاق القلب لا يتفتح للحياة ، ولا بمتشائم كئيب غضوب لا يبتسم لها وللاحياء ، إنه يحيا فى صميم الانسانية ، والقلب النابض بالحياة يستمد بهجته ومتعته وسعادته من الحب الصحيح ومن تذوق الجمال والافتتان بالحرية والانطلاق وارسال النفس على سجيتها لتصفو من الاكدار .

فابن سعود قد أحب والديه حبا جما لا مزيد عليه ، يذكرهما فيهمى دمعه لأنهشعر بالرغم من أسرته الكبيرة وبالرغم من ملكه كأنه يتيم «كبير» فقدكان يرجع الى أبيه حينما يكربه الواقع وتدْلهِمّ عليه الاحداث يشكو اليه بثه وحزنه ويستطلعه رأيه ، ويرى السعادة فى ظله الوريف ، ولما انتقل والده الى رحمة الله شعر بفراغ جد كبير فى نفسه لا يمكن أن يملأه الا هذان الابوان الكريمان ، وأحس وحشة كالحة مرهوبة لا يطيقها، فهو — مهما وجد من العطف والبر — لن يجد بر الوالدين اللذين تركاه وسلكا سبيلهما الى الله ، وماذا بقي بعد ذلك غير الذكرى ؟ .

إنه لم ينسهما ، بل لن ينساهما ، فكان — وما زال — يزور قبريهما زيارة شرعية ، ويستنزل عليهما الرحمة ويدعو لهما رجاء أن يسكنهما فسيح جنانه ، ويسكب عليهما صيب رضوانه .

وليس هذا شأنه مع والديه ، بل يزاور أقرباءه ويمضى صباحا ومساء الى زيارة أخته الكبيرة ويتلطف اليها ويشعرها بمكانتها عنده لأنها أكبر منه ، ويقبل رجاءها بل أمرها ، ويتحدث اليها فى « التلفون » كما يتحدث الى أبنائه يسألهم عن حالهم ، ويداعب أبناءه الصغار وطالما يحيطون به ، ويتواثبون عليه ، وهو يضم هذا ثم يتركه ليستقبل غيره ، ويضحك من سذاجتهم ووثابهم ويبتسم لهم ، ويبكى اذا مرض أحدهم ويشعر بألم ممض فكأنه المريض ، ويزور بناته المتزوجات ويجلس اليهن ويهديهن التحف والحلى ويفرحهن بالعطايا ليراهن مسرورات محبورات ، بـل هو كثير البر بالأطفال ، والحوادث التى تدل

على هذا كثيرة ، فقد كنت بالمويه ـ أحد المنازل فى الطريق بين نجد والحجاز ـ واذا بدوي من سكان هذا المنزل الموحش يحدثني أن ابن سعود كان جالسا حيث أجلس ، وأقبل عليه طفل من أطفال البادية فوقف له وابتسم فى وجهه وقربه منه وأجلسه فى حجره وأخذ يداعبه حتى اطمأن وأمسك الطفل بلحيته يعبث بها وابن سعود باسم حتى أطلقها الطفل من نفسه ، فأراد رجاله زجر الطفل العابث فزجرهم ، وصلاته بالأطفال صلة أب بابن ، وكأن بينه وبينهم نسبا ، وبره ليس وقفاً على أولاده ، بل لكل طفل نصيب موفور منه ، وكل هذا يدل دلالة صادقة على عمران قلب ابن سعود بالحب الانساني فى أرقى درجاته ، بالحب الذى لا زيف فيه ولا اصطناع .

أما اخوته فالعلاقة بهم كأوثق ما تكون العلاقات بين الاخوة ، فهو يستشيرهم دائما ، ويتواضع لهم ويشعرهم بحبه واخلاصه ، وان الملك لن يخرج به عن حده القوام ، ولن ينسى أخوتهم وما كان منهم من عمل لتثبيت قواعده وتمكين أساسه .

واذا ذكرنا أن خليقة الرحمة فى ابن سعود خليقة أصيلة مكينة عرفنا مقدار حبه لأهله وأسرته ، فاذا كان رفقه وحنانه بالاجنبي البعيد عظيمين فهما بالاقربين أعظم ، فهو ما شتم أخا من إخوته ولا ابنا من أبنائه ، وان كان يؤدب المسيء أو المذنب بالكلمة الخشنة والنظرة الراعبة .

فاذا اتسع قلب انسان كبير لحب الاهل والاسرة والاتباع فهو لن يضيق عن حب الناس جميعا ، وقد وهب ابن سعود قلبا كبيرا يسع حب الابناء حفظاً للنوع ، ويسع حب الاخوة والازواج والاهل لأنهم عدته وعيبته ، ويكفى أن يعلم أن الله قال لموسى عليه السلام يقوى عزمه : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ وقد شد عضده بأخويه : محمد وسعد رحمهما الله فى تأسيس الملك حتى مات سعد بيد العجمان فبكاه بكاء حارا ، ثم مات محمد فبرحت به الفجيعة حتى نسي طعامه وشرابه ، كما شد عضده بإخوته الآخرين : سعود وعبدالله

وأحمد ومساعد وسعد ، ويسع حب الاتباع لأن الله ولاه أمرهم ، فيجب أن يحيطهم بعطفه ورعايته حتى يكونوا له بمثابة الاهل ! هو مسئول منهم وهم مسئولون عنه ، وقد قال ذات مرة فى احدى خطبه السنوية لأهل مكة : « أنا مسئول عنكم وأنتم مسئولون عنى » .

ونحن لا نشك فى اتساع قلب ابن سعود للحب الصحيح الصادق الذى لا زيف فيه اتساعا عظيما ، فحب الجمال فى المخلوقات ومشاهد الكون والعطف والرحمة والشفقة والإحسان والاعجاب بالروائع والفنون والشعر والادب والاحساس الرفيع بكل هذا وبغيره وباستشعار لذة العفو عن العدو والكرم والسخاء والشجاعة والنخوة من دأب الانسان الذى استوفى نصيبه من الانسانية وبلغ منها مرتبة عالية،وابن سعود قد استوفى «حصته» من الانسانية فأخذ منها أكرم خلائقها وأجمل معانيها وأفضل مثلها حتى بلغ القمة التى لا يصل اليها إلا انسان كملت أخلاقه واستقامت طباعه وسما ذوقه وصفا قلبه .

وإن قلب ابن سعود دنيا رحيبة يعيش فيها خير معانى الرحمة والحب والعطف وتنمو فيها نموا حسنا ، فهو ما ينفك يحب ذلك الحب الصادق ، يحب المرأة كأم وزوج وأخت وبنت ومِلْك يمين حبا غير محدود ، فهو يذكر أمه — كما ذكرنا — بحنين ولا ينسى الدعاء لها ، والزوج عنده أثيرة محبوبة لأنها شريكته فى الحياة حتى زوجاته اللاتى طلقهن — وهن كثيرات — لم يتخل عنهن ، بل ما زال يذكرهن بخيرهن ويحبوهن وده وحباءه ، وأما من كانت فى عصمته ففى نعمة من الله وفضل ، فمن كابن سعود فى المعاملة الزوجية ؟ واذا ماتت احدى زوجاته لم تتمالك نفسه من الاسى والبكاء ، فهو مثال الزوج الصالح الذى يرأف بالمرأة ويقدرها حق القدر ويعرف مكانتها خير معرفة .

ولو كانت الرحمة والمحبة ليستا بخليقتين أصيلتين فى هذا « الانسان » لما

بكى ملك يمينه ان مات ! فهو ما يزال يذكر مماليكه ذكرا حسنا ، كما لا يزال يذكر بعض جواريه — وزوجاته — بخير .

ويغرى ابن سعود كل نسائه وبناته بفعل الخير وينصحهن بالاحسان توكيدا منه وتذكيرا لأن نساء الشعب المحتاجات لا يرجعن — فى الغالب — الا اليهن .

وقد قص على صديق مكي يجاور سكنه فى مكة مسكن أخت ابن سعود أنها حينما قضت حجها وأرادت الرجوع الى الرياض أمرت لوالدة هذا الصديق ولنساء أخريات بكثير من النقود والكسى والامتعة .

وابن سعود أعظم هؤلاء جميعاً فى الضيافة والكرم ، مولع بالاحسان والبر ، ومآثره كثيرة ، وكلها تسمو به الى القمة من الانسانية الرفيعة .

ان قلب ابن سعود متّسَع عظيم للرحمة الانسانية فى أسمى صورها ، وكانت خليقة الرحمة والحنان وحب « الغير » تصل بينه وبين كل أحد المودة والعطف ، فاذا كان هذا شأنه مع غير ذوى قرباه فهؤلاء أوفر نصيبا من غيرهم بالرحمة والحب طبعا ، حتى أن من خرجوا منهم عليه وظفر بهم لم يسىء اليهم بل خيرهم فى المقام عنده والعيش كما يعيش أو الذهاب الى البلدان التى يريدون ليشعرهم بالحرية ، فاختار بعضهم البقاء واختار بعضهم الرحيل فكان لكل ما أراد .

فعلاقته بأهله وذوى قرباه علاقة أب رحيم بأسرة كريمة ، وعلاقته بغيرهم علاقة وال عطوف غيور ينظر الى شعبه كأنه بضعة منه يرعى حماها ويذود عنها ويعنى بها ، وعلاقته بنسائه علاقة زوج كريم صالح ، فكلهن يحظين منه بعطف جد عظيم حتى المطلقات منهن ، فمن أرادت الزواج سمح لها ووظف لها مرتبا شهريا علاوة على ما يمنحه اياها حين مغادرتها دار « زوجيتها » الاولى الى بيت

أبيها أو الى بيت زوجها الجديد ، ومن أرادت البقاء تحت ظله حبا فيه ووفاء له فلا بأس من ذلك ينفق عليها وهي حرة فى أعمالها ورغباتها ، وبعضهن يؤثرن العزوبة اذ يجدن غضاضة فى الزواج برجل هو بلا شك أقل كفاءة من زوجهن السابق .

وليس في المملكة السعودية قبيلة حرمت من عطف ابن سعود ورحمه ، فقد أصهر الى القبائل ، وليس معنى هذا أن بيته يتسع لأكثر من أربع حرائر ، فاذا عزم على الزواج طلق واحدة منهن ليدخل بالجديدة ، وهكذا دواليك .

وليس هذا الزواج الا وصل ما انقطع بينه وبين قبيلة ، أو تألف جماعة ، أو تشريف عدو كفء يستميله حتى يذكر صلة الرحم ويدع الخصومة والحقد — كما صنع مع آل الرشيد — أو جبرا لخاطر ، أو لمصلحة عامة ، فليس فى زواجه زواج لغير نفع شامل .

ويضاف الى هذه الاسباب سبب آخر قوي ، فان ابن سعود كامل الرجولة مكين البناء راسخه ، فارع الجسم وثيقه ، والعربي بطبيعته يحب التكاثر بالاولاد ليكونوا عدته وأعوانه ، ومن أولى من ابن سعود بالتكاثر رغبة فى زيادة قوته وارهاب عدوه ؟ .

والرسول صلى الله عليه وسلم يحض على الزواج والتكاثر لأنه مباه به الامم يوم القيامة ، فمن أجدر من ابن سعود باتباع أمر الرسول الكريم ؟ فليكثر من النسل حتى يباهي به نبينا المحبوب عليه صلاة الله وسلامه الامم حينما تجتمع يوم القيامة فى مكان واحد .

ولا يظن أحدا أن هذا الزواج يشغله عن عمل من أعمال الدولة ، فهو أشد ما يكون حرصا على أدائه ، فاذا ضمن عمل الدولة وأداه على خير وجه وضمن راحة الشعب لم تشغله المرأة عن مثله العليا فقد اجتمع له كمالان : كمال الرجولة

الذى لا يوهبه الا رجال معدودون فى كل عصر ، وكمال العمل الذى يؤديه ، فهو فى القمة لا فى السفح ، لأن لكل عمل حده ووقته ، ولن يطغى شيء على شيء ، وبهذا يدل على انسانيته أكثر مما دل على المتاع واللذة الحسيين ، فهو لا يلهو بالمرأة جسدا ولا يلتذ بها كامرأة ذات جسد فحسب ، بـــل يقتنيها كفكرة أيضا ، فطلابه منها « الانثى » لا جسمها وحده ، طلابه نفسها التى تعاطفه وتساجله الشعور والعاطفة حيث يستطيع أن يملأ خياله وقلبه منها استعدادا للعمل العظيم الضخم الذى يحمل أعباءه ولا ينوء به ، وكلما شعر بالتعب أباح لنفسه المتعة الفنية المباحة التى ألهمته البصيرة المتفتحة أن يتزود منها ، وأباح لنفسه تلبية نداء الغريزة حفظا للنوع ، ففى المتعة بالمرأة تلتقى الفكرة الفنية اللذة الحسية ، فيحوى راغبها الحياتين طرا كما يقول العقاد :

ضلّ مـــن يفصل المتاعين جهلا   واهتدى من حوى المتاعين[1] طرا

وهو بعد هذا رجل له مباهجه لانه انسان له قلب واحساس وعين ، فهل تغمض عينه عن التمتع بمشاهد الكون الرائع ومطارف الحسن ومواكب الفتنة ؟ وهل يجمد احساسه أمام الجمال ؟ وهل يغلق قلبه فلا يدخله البشر والمسرة ، وهو منهوم الحس منطلق الخيال صاحى الذهن سليم التفكير صحيح الملكات حسن الذوق قوي الذكاء عظيم النشاط موفور الحيوية ؟ .

كلا ، فليقف أمام الوردة الناضرة — كأنه شاعر ، بل هو شاعر حقاً — يتأمل صنع الله الذى أبدع كل شيء ، انها وردة جميلة تفتحت عن بذرة صغيرة لا جمال فيها ! يا لها من مخلوقة عجيبة ! كيف دبت الحياة فيها ومشت الحركة اليها وطالع النماء البذرة الجامدة حتّى انفجرت عن وردة تبتسم فى خفر ؟ من ذا يستطيع أن يخلق وردة يهبها الحياة والحركة والنماء والعطر الفواح غير الله ؟ .

فابن سعود يستمتع بها ما شاء له حسه ، وهو يرى فيها دليلا على قوة

الخالق ما شاء له عقله وقلبه ، فيعترف لله بالوحدانية والتفرد لا شريك له ولا معين .

وطالما تسلل الى حديقته العامرة والصباح يغشى الكون بنوره الهادىء ، ويملأ رئتيه بنسيم الصبا : صبا نجد ، ويستمتع برؤية النخل الشامخ فى الفضاء وأغصانه مبسوطة كالاكف تستقبل رحمة الله ، ويتملى الزهرة المتفتحة عن كمها ترنو اليه فى صمت وهدوء ، ويجلس على العشب الاخضر ، يرأىء قطرات الندى تلمع كاللؤلؤ فوق الازهار والاوراق .

يا له من شاعر مطبوع مفتون بطلعة الاشجار والفراش والازهار ، مستغرق فى تأملاته ممتط مركب خياله يسبح به هونا .

انه شاعر مطبوع حقاً يحس احساس الشعراء وينظم الشعر ولكنه يغاير طريقة الشعراء ، لأنه ينظم الشعر البدوي الشبيه بالزجل ، وشعره مستقيم الوزن سليم العبارة رشيق الاسلوب قوي الاداء ، ولكنه مقل فيه كل الاقلال ، وهذا القليل يدل على وجود الموهبة الفنية الأصيلة فيه .

ويستمتع بجمال الكون فى كل حالاته، ومن أجمل المناظر عنده المطر وهو يهطل ،واندفاق السيل وهو يهدر ، حتى انه لينزل فى السيل يخوضه عاري القدمين ، وما أعظم فرحه بالسحب لأن فى ذلك بشرى بالخصب والنماء والخير تضاف الى لذته بالمشهد الجميل حتى اذا انقشعت السحب انتقل الى متعة جديدة ألا المتعة بطلعة الزواهر تتلألأ فى السماء أو بطلعة القمر يملأ البطاح نوره الوضاء ، فيستغرق فى تفكيره وتأملاته يسبح الله قلبه ووجدانه وذوقه ، ويزداد ايمانه بخالق الارض والسماء .

فابن سعود متفتح القلب سليم الحس غير مدخول الشعور ، لهذا يحب الخروج الى الحدائق أو الصحراء ، والرياضة بالصيد ، والاستمتاع بالملذات البريئة .

وانسان هذا شأنه يفتتن بالجمال فى الوجوه الباسمة ، ويشغف بالحسن فى السماء حيث تتألق الانجم ويبزغ البدر ، وحيث تبدو الغزالة فى الصباح من خلف الروابى ، ويغرم بمشاهد الكون الفاتنة لهو انسان كبير الجنان يتسع قلبه لكل المعانى الانسانية الفاضلة وخلائقها الاصيلة .

وقد منحه الله للتخفيف عن آلامه الضخام وأعبائه الجسام نعمة الفكاهة والمرح والضحك ليروح عن نفسه ، لأنه انسان محتاج الى هذه النعمة التى لا يحرمها الا الوحوش الاوابد ، فهو يلتذ الفكاهة والنكات والقصص ، ويغرق فى الضحك اذا ما استهوته فكاهة رائعة .

وهذه النعمة التى وهبها ابن سعود وفاضت عليه بغزارة تجعله فى صميم الانسانية لأنها طابعها الذى يميزها عن «الحيوانية» تمييزا صحيحا بين الحدود واضح المعالم !.

وليست لذاته وقفاً على هؤلاء فحسب ، بل هنالك لذاته الكبرى التي يستشعرها حينما يعفو عن عدو ويحلم على صديق اقترف ذنبا ، وليس بالقليل عدد من عفا عنهم وهو قادر عليهم ، ولا غرابة أن يعفو ملك عظيم عن أعدائه ، بل الغريب في الامر حقاً أن يبادلهم حبا بحب وإخاء بإخاء ، حتى ليعود أشد الناس خصومة له أشدهم مودة كأنه ولي حميم .

ومرد ذلك الى حلم ابن سعود ونبله وكرم صفحه ، فهؤلاء كانوا أعداء الداء ، والعدو يباح له أن يهاجم عدوه بالسيف والقلم واللسان فى كل ميدان ، فاذا ما امحت الخصومة امحى معه كل أثر من آثارها عند النبيل العظيم ، فلا يحاسبه ما دام أنه كان مخلصا لمبدئه ، وأما وقد انتهى أمر خصومته فهو آمن معصوم الدم والمال ، أهل للعفو والتكريم .

وبهذا استطاع أن يملك قلوب الناس صغارا وكبارا ، ويجعل من قلوب

أعدائه وأهليهم وأنصارهم حزاما يشد وسطه، ودرعاً له يتلقى نبال العدى عنه ، وعلى سبيل المثال كان عميد البيت الهاشمي الملك عبدالله بن الحسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية أعدى أعداء ابن سعود ، وكان من المعتقد أن حقده عليه لن يزول أبدا ، وعندما أراد الله وزار الملك عبدالله الملك ابن سعود في الرياض سحرته إنسانية ابن سعود فتبدل حقده عليه وعداؤه له مودة وأخوة وإعجابا .

أما أصدقاؤه فهم على أنواع : منهم الذى يبادلهم حبا بحب واخلاصا بإخلاص ، ويضمر لهم كل خير لأنهم كانوا معه فى الوقت الذى لم يجد نصيرا يهتف باسمه ويصفق لعمله ويعجب ببطولته ويقدر فيه روح الشجاعة والوثاب والاقدام ، وهؤلاء هم « الرعيل الاول » ذوو قرباه وأصحابه المقربون ورفاقه المرموقون ، فان هفا أحد منهم فمغفورة هفوته لأن له سابقة لا يمكن أن يرحضها أي ذنب – بشرط ألا يكون معتديا حدود الله – فمثل هذا مدخر له الخير والبر ، وليس من النبل أن يتنكر له ولماضيه المشرق المنير ، وهناك أصدقاء يحبهم ويكرمهم ويحبوهم بره وتقديرهم لأنهم يساجلونه هذا الشعور ، ولأنهم أخلصوا له فى العمل وناصروه بما يستطيعون كضبط أمور الدولة وعونه فى الادارات وانشائها وتأمين الموظفين لها واختيار الصالحين منهم ومراقبة الاعمال وسيرها .

ويحب ابن سعود هؤلاء الاصدقاء الذين صدقوه الحب فصدقهم حبه ، يعود مرضاهم ويبكى موتاهم ويذكرهم بصالح أعمالهم ويكرمهم ويقيل عثرتهم ، بل يذكر جميل كل منهم ولا ينساه ، وكأنما صنعه معه قبل لحظات ، بل لم ينس صنيع أحد مهما كانت منزلته .

وان ابن سعود من أعظم الرجال الذين يصنعون التاريخ بعبقريتهم وبصفاتهم الانسانية الخالدة لأن نصيبه من « بركة » الانسانية عظيم ، بل نصيبه منها من أعظم الانصبة وأوفاها ، فهو يلتذ بالعفو عند القدرة وبالسماحة والكرم والحلم أكثر مما يلتذ بالمال والجاه ، ويلاحظ عليه حضور مجلسه عندما يدخل عليه عدو

لدود منح عفوه وصفحه تهللا وفرحا وبهجة قل أن يشهدوها فيه الا فى مثل هذه الاحوال .

بل لم نجد عدوا ظفر به ابن سعود وانتقم منه مهما كان ذنبه ، فهؤلاء آل الرشيد الذين لو ظفروا به لما تركوه ينجو بنفسه بل لـلَـحـّبوه بسيوفهم ومزقوه إرْبا إرْبا ينتصر عليهم ويظفر بهم بعد قتال عنيف وبعد تضحيات جمة فلا يعمل معهم ما يعمله العدو الظافر القوي بالعدو المقهور المغلوب ، بل يقربهم من نفسه ويهبهم حبه ورضاه واحسانه بعد أن يجعلهم طلقاء ، ولا يكفيه هذا بل يتزوج منهم ليكون بينه وبينهم صلة رحم ، بل ليكونوا أهله وأسرته .

هذا هو ابن سعود الإنسان العظيم ، وهذا بعض صفاته من النواحى الانسانية يضاف الى صفاته المسرودة فى شخصيته ومفتاح شخصيته وعبقريته ، وكلها تدل على عظمة هذا « الانسان » الفاضل واصالة هذا الذى أهلته صفاته لأن يكون من الانسانية فى صميمها ، هذا الذى ابتسمت عنه الانسانية ، أو هذا الذى هيأته القدرة الآلهية ليفتتح للعروبة والاسلام عهدا جديدا ، هو عهد الانسانية والخير والسلام .

مجلس ابن سعود

ينشدقون بالديمقراطية ويزعمون أن فى الانظمة الديمقراطية يحكم الشعب ، وما نحب أن نناقش ذلك ، وإن كان من الحق أن الانسان فى الأنظمةالديمقراطية يتمتع بحريته وكرامته المضيعتين فى أنظمة الحكم الشيوعي والدكتاتوري .

وإذا كانت الديمقراطية مزايا فإن أحسنها فى الاسلام ، ونحن نقول فى ثقة : إن لدينا الديمقراطية فى أحسن صورها وأزيد ، ونقول : إن ابن سعود نموذج صالح مُتَخَيَّر للحاكم المسلم ، وعندما يكون الحاكم مسلماً حقاً تكون الديمقراطية الصحيحة السليمة المبرأة من العيوب من صفاته .

وابن سعود هذا الحاكم ، ومن هنا كان مجلسه آية فى مجالس الملوك والحكام ، فهو — أولا — مجلس عام مفتوح الأبواب لكل قاصد مهما كان جنسه ، وليس عليه حجّاب يحجبون أو يأذنون ، وخصص فى صباح كل كل يوم خميس مجلساً خاصاً بالعلماء إكراما للعلم وقدرا منه لأهله ، ويباح لكل إنسان أن يحضره .

وهو — ثانيا — مجلس للسلام عليه والزيارة والشكوى والدعوى ونقل

الأخبار ، و — ثالثا — مجالس علم وأدب وشعر ونقد أدبي وخطابة وفقه وعربية وسياسة واجتماع ، ومجلس قضاء ومحاكمة ، ولا يباح فيه الاغتياب والنميمة والكذب ، لأنه مجلس الدين والأخلاق .

وقد حضرت هذا المجلس العام ، كما حضرت مجلسه الآخر الذى خصص ليتعلم هو ، وموعده بعد صلاة المغرب ، وهو مباح لكل راغب فى حضوره ، ولا يرد عنه أي قاصد ، ويقع المجلس فى بهو رحيب — ومجلسه العام الآخر مثله — وفى وسطه كرسي ومنضدة بقرب أحد الأعمدة عليها بعض المجلدات الضخمة ، وفى الدقيقة المحددة يأخذ عالم مكانه من ذلك الكرسي وظفه الملك ليقرأ ، فيبدأ بكتاب الله عز وجل ، ويتناول أحد تلك المجلدات فاذا هو تفسيره ، ثم يقف القارىء ، ويتحدث الملك أو أي أحد يريد ، ويدهشك من ابن سعود قوة وعيه وإدراكه وحسن ذوقه للتفسير ، ثم ينتقل منه القارىء إلى مجلد آخر فاذا هو فى الحديث النبوي الشريف ، ثم ينتقل إلى التاريخ ، ثم إلى الأدب والشعر ، ثم يختم المجلس بدعاء موجز يتلوه القارىء .

واذا لم يتيسر لابن سعود الدراسة فى مراحلها المعروفة فليس معنى ذلك أنه قليل المحصول من العلوم والآداب والفنون والمعارف الانسانية ، بل لديه منه ذخيرة وافية نمتها عبقريته ؛ ومع أنه ملك كثير التكاليف والتبعات فدائم القراءة أو الاستماع ، ويتصف بذاكرة قوية وحافظة قل أن تنسى .

ولهذا كان من المثقفين ، وأثر ثقافته لا يخطئه من يعرفه أو يحضر مجالسه ، فهو يصغى للشعر قديمه وحديثه ، ويفطن لما دقّ من المعانى ، ويطرب للشعر الرائع ، ويحفظ من الشواهد الشعرية طائفة لا بأس بها .

وشاعره الاستاذ أحمد ابراهيم الغزاوي زاخر شعره بالكلمات اللغوية التى لا يفهم معانيها إلا من كانوا فى طبقته من العلم باللغة ، ومع ذلك يفهم ابن سعود معاني تلك الكلمات الصعبة فهما صحيحا .

ومن هنا كانت مجالسه مجالس علم ، ويفيد حضورها كثيرا ، ولا تغلق أبوابها فى حضره وسفره ، فاذا كان فى سفر صحبه قارئه وبعض العلماءوالفقهاء والقضاة والأدباء والشعراء .

ولابن سعود مقدرة عظيمة فى التحدث إلى الناس حسب مواهبهم وعقلياتهم ومستوياتهم الاجتماعية ؛ ووهب له الله منطقا غلابا ، يستدنى البعيد ، ويقهر الخصوم بالحجة ، ولا يؤذيه النقاش بل يطلبه ، وقد ينفعل فى مناقشة من المناقشات ، ولكنه لا يؤذى من يناقشه ، فهو آمن فى حماه .

ويصدر فى نقاشه عن البساطة ،ويكره التعقيد ، ولا يجد عضاضة فى السؤال عما لا يعرف .

وأسرد فى هذا الفصل بعض ذكرياتى الشخصية ، وبعض ما قرأت وسمعت مما له دلالات نفسية وفكرية ، ومما يصور بعض ملامح هذه الشخصية العظيمة الضخمة الكبيرة .

وليست ضخامة شخصية ابن سعود قائمة على القوة البدنية الخارقة التى وُهبها ، ولا الغنى والثروة ، ولا العلم الواسع والثقافة العالية ، ولا جبروت المنطق ، بل قائمة على البساطة والفطرة السليمتين ، وعندما تكون الفطرة سليمة وصافية سلامتها فى عبد العزيز وصفاءها فإن صاحبها يلتقى مع كبار المصلحين والعباقرة المفكرين فى السياسة والاجتماع .

كنت فى سنة ١٣٥٩ هـ (١٩٣٩ م) بمجلسه العامر بمكة المكرمة حرسها الله فى أيام الحج ، وقد جئت للسلام عليه ، وكان فى مجلسه كثير من أقطاب العرب والمسلمين ، وسأل سؤال من يريد أن يتعلم وقال : يا إخوان ، أريد أن أفهم ما الشيوعية ؟ .

فتحدث سوزي وأطال وأمل ، ولم يكن على علم بها كما فهمت من

حديثه ، ولكنه أراد الظهور أمام الملك فتعالم ، فقات : يا طويل العمر ، إن الشيوعية أخطر مذهب وألأمه ظهر فى هذه الأرض ، فهو ينكر وجود الله ؛ ويجحد رسالات الرسل جميعاً ، وبنوا مذهبهم على زعمهم أن لا إله الا المادة ، وينكرون كل الغيبيات ، ويمنعون أن يتملك الانسان ، كل شيء فى المجتمع ملك الدولة ، وللشيوعيين فلسفة معقدة فى « العائلة » وفى الدين وفى الأخلاق ، وطبقوا مذهبهم بالقوة والبطش والإرهاب ، وهم يشترطون فى الاصلاح الذى ينشدونه على العنف والثورة ، وصاحب المذهب الأساسي هو كارل ماركس من يهود المانيا ، وسيرته تدل على لؤمه وخسته وغدره وحقارته .

فسر عبد العزيز لسببين : الأول ، لأنى لخصت له المذهب فى عمومياته فى جمل مختصرة ، والثانى ، لأنه يتلقى الجواب من سعودي .

وذات مرة حضرت مجلسه العام فى موسم الحج بمكة وكان فيه علية أفراد الأمة ، فسأل ابن سعوداً عن حوال الشعب ، فذكروا له أنه فى سعادة لا حد لها ، وأحوال الناس جميعاً حسنة .

أما أنا فقد قلت بصراحة الشباب المتحمس : الحق ، إن الناس فى تعب ، والأسعار مرتفعة ، وقليل من الناس فى رخاء ويسر ، أما الأكثر ففى شدة وعسر .

فتخطفتنى الانظار الغاضبة الا نظر ابن سعود وقال لى : بارك الله فيك ، أشهد إنك لصادق .

وفى تلك الأيام لم يكن الملك عبد العزيز يعرفنى .

وعندما ألّفت كتابى « صقر الجزيرة » بعثت إليه أصوله فى أجزاء ثلاثة ، وأحاله الى الشعبة السياسية لتبدي رأيها فيه ، فحذفت منه فصلا تحت عنوان « بطلان يصطرعان » و « شطبت » فقرات في فصول أخرى ، فوافقتُ

على بعض ما رأت الشعبة، ولم أوافقها على حذف هذا الفصل وعلى بعض مارأت ، ولكن رئيس الشعبة السياسية الشيخ يوسف ياسين – رحمه الله – أصر على رأيه ، وأصررت على رأيي .

ورأيت الشيخ فؤاد حمزة بمكة المكرمة فى بيت الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية ، فذكرت موقف الشعبة من كتابى ، ورغبتى فى عرض الأمر على الملك نفسه ، فرحب ، ومضيت الى قصر الملك ومعى الكتاب ، وكان بمجلسه الشيخ فؤاد حمزة ، وقلت لجلالته : يا طويل العمر ، إن الشعبة السياسية حذفت من كتابى فصلا أراه من أهم فصوله ، وهو الفصل المكتوب عن عبد العزيز بن متعب بن رشيد .

فأمر جلالته بحضور رشدى ملحس – لأن الشيخ يوسف ياسين لم يكن بالديوان – فسأله فأجاب : ان المؤلف قد مدح ابن متعب مدحا لا حدّ له ، وذكر عنه أنه أشجع العرب بدون استثناء ، ولهذا رأت الشعبة حذف هذا الفصل كله .

فقلت : نعم ، قلت هذا وهو حق ، فابن متعب بلغ فى شجاعته حـدا لم يبلغه غيره فى جزيرة العرب ، فاذا جاء ابن سعود وقهر أشجع شجعان العرب فإنه يكون أعظم منه .

وأمر جلالته رشدى ملحس أن يقرأ الفصل حتّى انتهى منه وأجازه كله ، وهنا قلت : إن حذف هذا الفصل حذف لفترة من تاريخ جلالته ، ثم عرضت عليه ما خالفت فيه الشعبة وقرىء عليه فأمر بإثباته .

وكان موقف فؤاد حمزة كريما ، فقد أثنى على الكتاب ثناء عظيما وكثيرا.

ثم عرضت على جلالته آخذ رأيه فى حديثه بلغته العامية الذى روى فيه للاستاذ الشيخ فؤاد حمزة فتحه للرياض ، فقرىء عليه ما كتبته بأسلوبى ،

فقال جلالته : دع كلامى فلا ضرورة له بعد أن نقلته بأسلوبك العربي الجميل.

وهذه الحادثة على بساطتها تصور جانباً عظيماً من جوانب هذه الشخصية النادرة فى تاريخنا المعاصر .

وإذا كنا نحن السعوديين لا ندهش من هذه البساطة فان غيرنا يدهشون كثيرا ، فأكبر رأس فى البلاد سهل المقابلة ، يستطيع أي انسان أن ينالها فى يسر ، وليست مقصورة على السعوديين وحدهم ، بل يستطيع غيرهـــم أن ينالوها .

ثم إن أي انسان يستطيع أن يُحكّمه فيجد ما يرجو ، فالخلاف الذى نشب بينى وبين الشعبة لا يمكن لأي قضاء أن ينصفنى غير قضاء ابن سعود ، ولما عرضت عليه شكواي لم يمهلنى ، بل أحضر الشعبة وجمع بيننا ، وبعد أن سمع منى ومنها واستوثق من الحجة قضى بالحق لى وحكم على الشعبة وأنا آمن من أن تضمر لى الانتقام .

وشيء آخر يجب ألا أنساه ، فالملك عبد العزيز قد أثنى على كثير من خلائق خصمه ابن متعب الرشيد ، ومنها : الشجاعة والنبل والكرم والسخـــاء والأريحية .

وقد مر فى هذا الكتاب ذكر حادثة تدل على صحو ملكات ابن سعود وثقوب نظره مع البعد الذى يخترق حجابه ،وعلى عبقريته فى وزن الأحداث وكشف مستقبل الأيام ، فقد كنت بمجلسه بالرياض إبان الحرب الثانية، وكان غاصا بعلية الساسة والمفكرين والعلماء ، وجرى الحديث فى الحرب ، فقال فى ثقـــة واطمئنان : إن الحلفاء سينتصرون فى الحرب .

ورددنا عليه جميعا : أينتصرون ؟ وقلناها ونحن نستنكر ، ثم أردفنا

بقولنا : هذا رومل على أبواب الاسكندرية ، والألمان منتصرون فى جميع الميادين ، فى البر ، وفى البحر ، وفى الجو .

فقال عبد العزيز بالثقة نفسها : ولو ! .

وكلمة « ولو » هذه لا تكفى ، فنحن الذين زعمنا أن الألمان منتصرون وسينتصرون وسيسودون العالم لسنا فى حاجة إلى دليل ، لأن الألمان كانوا منتصرين حقاً ، ولا بد لكلمة « ولو » هذه من برهان على الأقل .

وليس ابن سعود ممن يلقون القول على عواهنه ، ولن يرسله إلا بعد تثبت واقتناع ، فكلمة « ولو » ليست قذيفة طائشة ، ولكنها منطلقة من عقل واع وفراسة قوية وبصيرة ملهمة وفهم للنتائج التى قد لا تدل مقدماتها عليها ، وقدم الدليل ، وقال :

« إن الحلفاء سينتصرون ، وستكون نهاية الحرب نصراً لهم وهزيمة لهتلر والمحور ، ودليلى : أن الحلفاء دخلوا الحرب وهم غير مستعدين لها ، دخلوها صغارا ضعافا كالوليد ، ودخلها الألمان وهم أقوياء كبار ، وسنة الحياة أن يكبر الصغير ويقوى الضعيف ، الوليد يدخل معركة الحياة صغيرا ضعيفا فيكبر ويقوى ، أما الكبير القوي فإنه يأخذ فى الضعف على مر السنين ، ومن هذا المثل أدركت أن الحلفـــاء سيكسبون الحرب ، وأما الألمان ومن معهـم فسيخسرونها » .

ولم يكتف بهذا الدليل الطبيعي فعززه ببراهين أخرى مثل اتساع ميادين الحرب وتعددها ، وصعوبة تأمين المواصلات وتموين جيوش المحور ، وأن طول زمن الحرب يرهقه ويضعفه ، وأما الحلفاء فمواصلاتهم سهلة ، وتموين جيوشهم سهل ، فأنى كان ميدان حرب فللحلفاء قواعد ومراكز تموين ، والبحار لهم إلخ .

وكنا جميعا غير متفقين مع الملك عبد العزيز فى رأيه وفى استنتاجه ، وبعد تسعة شهور من هذا المجلس كتب اندريه موروا الفرنسي – الذى يوصف بأنه يعلم عن السياسة البريطانية أكثر من السياسيين البريطانيين أنفسهم – بحثا ترجمه الاستاذ أحمد الصاوى محمد ، وظهر له فى كتاب طبع أيام الحرب ، ذكر فيه رأي موروا ، وهو لا يبعد عن رأي ابن سعود، بل هو رأيه سبقه به ، ولا علم لموروا به ؛ وتنتهى الحرب ويصدق رأي ابن سعود .

وكما قلت فى المقدمة :

« والعجيب أن يلتقي رأي عبد العزيز واندريه موروا ، أو هكذا يبدو للنظرة الأولى ، ولكن ، لا عجب ! فكلاهما عبقري خبير فى السياسة ، ولا بدع أن يلتقي عبقريان .

إنما العجيب حقاً فى الأمر أن رجل الصحراء الذى شغلته الحروب والفتن وتأسيس الملك وتصريف أمور الدولة عن التعمق فى العلوم والتزود منها يلتقى مع رجل يعتبر من أكبر القراء والمفكرين فى العالم » .

ومجلس ابن سعود حافل دائماً ، مجلس علم وأدب وشعر وسياسة وثقافة وقضاء وحكم ، وتثور فيه مناقشات قد تحتدم وتطول ، وقد يكون ابن سعود فى الطرف الآخر من المناقشة ، ولكنه لا يثور على من يناقشه أو يؤذيه ، ولو كان المناقش جاهلا ، فهو يملك الحجة فى الاقتناع .

وذُكِر لى حادث وجدته بآخرة فى كتاب « الملك العادل» تأليف السيد عبد الحميد الخطيب ، ومضمونه أن جدلا عنيفا دار بين ابن سعود والسيد خالد الحكيم – أحد كبار السوريين المشتغلين بالقضية العربية وممن يعملون للملك عبد العزيز – وكان السيد عبد الحميد الخطيب حاضرا هذا المجلس ، والرواية روايته ، وعنها أنقل .

عنف الجدل بين ابن سعود والحكيم حتى قال الملك : إذن ، أنا لا أفهم ،

فرد خالد الحكيم : إنكم تفهمون . ولكني أنا — أيضا — أفهم ، فرأى الملك أن يكتفي بهذا الحد الذى انتهى إليه ، فنهض دون أن يبدو ما يكرهه الحكيم ، وكل ما صنع الملك أنه غادر المجلس فى صمت .

وظن الحاضرون أن الملك غاضب ، وأشفقوا أن ينجم عن غضبه ما لا تحمد عقباه بالنسبة للحكيم ، وظن السيد الخطيب ومن حضروا أن الملك سيقصيه عن القصر ، ولشد ما كانت دهشتهم بالغة أنهم رأوا الاستاذ الحكيم فى الليلة التالية يأخذ مكانه ، والملك يحادثه وكأن لم تكن المناقشة بينهما فى الليلة السابقة حامية الوطيس ، ويقول عبد الحميد الخطيب : « وكأنما الملك شعر بما فى نفسي فقال فى نهاية الجلسة : الحمد لله يا عبد الحميد ، إننا قمنا اليوم فى تفاهم مع خالد ، ونحن يوما نختلف ، ويوما نتفق ، والأيام كفيلة بإظهار المخطىء من المصيب » .

وخطب أحد رجال ابن سعود البارزين لديه ابنة حجازي من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذر له فى أدب ، فغضب وأخذ يكيد له ، فخشي السيد الحجازي من رجل ابن سعود أن يزج به فى مكروه ، فرحل من من مكة الى الرياض وقابل ابن سعود وقص عليه قصته، وطلب اليه أن ينصفه ويحميه ، فوعده خيراً ، وطلب اليه أن يحضر من الغد مجلسه العام ، فحضر ، وكان خاطب ابنته بين الحاضرين ويأخذ مكانه قريباً من كرسي الملك .

وجرى الحديث فى الخيول الأصائل ، وكان ذلك الرجل ممن يحسنون معرفة الخيل وأنسابها ، فأمر عبد العزيز « سائس » خيوله أن يدع الحصان الفلاني يتصل بالفرس الفلانية لتحمل منــه ، ولم يكن الحصان كفؤا لتلك الفرس ،فهو ليس فى أصالتها .

وما كاد ذلك الرجل يسمع بالأمر يصدره ابن سعود حتى نهض غاضبا وعــارض أمره ؛ ورد على الملك فى عنف اذ أمر أمرا كهذا ، وكيف يأمر

بأن يتصل حصان ليس فى مرتبة الفرس الأصيلة نسبا وإن كان هو نفسه أصيلا .

وهنا انبرى الملك له ورد عليه : إذا كنت تغضب ولا ترضى بأن يكون تزاوج فى عالم الحيوان بين غير الاكفاء فكيف تطلب هذا الزواج فى عالم الانسان ؟! .

وأدرك الرجل خطأه ، وفهم مقصد الملك ، وعرف أنه ليس كفؤا للسيدة الأصيلة وان كان هو أصيلا ، ولكن أصالته لا ترتفع إلى أصالة بيت النبوة ، واعتذر للسيد فيما بينه وبينه ، ولئن لم يجمع بينهما الصهر فقد جمعت بينهما الصداقة فيما بعد ، والفضل لله ثم لابن سعود الذى أكرم السيد وأعاده الى مكة معززا مكرما ، وأهدى إليه بدرة من الذهب .

وبينا هو فى مجلسه ذات مرة دخلت بدوية لسنة تشكو المحكمة ، وذكرت أن رجلا كان بأعلى النخلة ، وكان زوجها بأسفلها ، فسقط الأعلى على الأسفل فقضى عليه ، وقدمت للمحكمة تطلب القصاص من ذلك الذى سقط على زوجها وقتله! ولكن المحكمة لم تحكم لها كما تريد ، وهي تطلب من الملك أن يصدر حكمه على قاتل زوجها بالقتل ، وهذا حقها كما تعتقد .

وأحضر الملك القاضي بمحضر المرأة ، ولم يستطع القاضى إقناع المرأة التى أبت كل شيء إلا القصاص ، بل عجز كل العجز .

وهنا تصدى الملك للقاضي وللزوجة وقال : حكمتُ بأن يقتل قاتل زوجها ، وسكت قليلا ، وتهلل وجه المرأة وأعلنت سرورها ، إلا أن الملك عاد الى الكلام وقال للمرأة : تذهبين الآن إلى حيث كان الحادث ، وتصعدين إلى النخلة ، ويقف الرجل تحتها وتسقطين عليه كما سقط على زوجك فيموت كما مات زوجك ! .

وبهتت المرأة وقالت : سأموت أنا من السقطة .

واقتنعت بأن الذى سقط على زوجها لا يعد مجرما قاتلا يقع تحت سيف القصاص ، وثابتْ الى رشدها ، ودفع لها الملك الدية من جيبه ، فانصرفت داعية شاكرة .

ولا يخلو مجلس ابن سعود من النوادر والفكاهات ، وهو يطرب للنكتة ، ويضحك من الفكاهة ، وكان الشيخ عبد الرحمن السبيعي – أحد أغنياء نجد ووجهائها – بمجلسه ، وحضر النقاش الحاد الناشب بين الملك وخالد الحكيم ، فقال السبيعي – ولم يكن الحكيم حاضرا – : هذا ليس خالد الحكيم بل خالد الحكي ! فضحك الملك ، ولكنه طلب الى السبيعي ألا يجبه الحكيم مراعاة لشعوره ومكانته منه .

وكان بعض مشائخ نجد العلماء يعتقد أن فى «التلفون» شياطين تنقل المكالمات ، ولم يقنع بأقوال الخبراء ، لأن عقله لم يكن يدرك هذه الاشياء العلمية ، ولم يكن على استعداد لقبول البراهين العقلية ، وأنكر على الملك نفسه أن يرضى باستعمال التلفون واللاسلكي ، فرأى أن يقنع هؤلاء العلماء بما تقبله عقولهم ومداركهم ، فسألهم : أيقرأ الشيطان القرآن ؟ فأجابوا : لا .

فرفع الملك السماعة وتحدث الى عامل التلفون وأمره أن يقرأ بعض آي الذكر الحكيم ، فقرأ ، وأعطى السماعة أول شيخ ليسمع ، ثم تناولها غيره حتى سمعوا جميعاً ، واقتنعوا أنه لا شيطان بعد أن سمعوا التلفون يقرأ القرآن .

وهذه الحوادث – إذا دلّت على عبقرية ابن سعود وصحو ملكاته وقوة حجته – تدل على عظم الجهد والتبعات التى كانت على عاتقه ، فهو فى أول حكمه الحجاز قد أدخل إلى دولته وسائل الحضارة الحديثة ، فاتخذ التلفون واللاسلكي والسيارة والكهرباء لإضاءة المسجد الحرام ، فثار المشائخ

الا قليلا منهم ، وثار زعماء القبائل حتى أدى الأمر ببعضهم الى اعلان الحرب على ابن سعود .

وكل مجالس ابن سعود العامة والخاصة والرسمية وغير الرسمية مجالس علم وأدب وثقافة ودين ، ولا يرضى أن يكون فيها الا الحسن والخير ، ولا يقبل من أقرب المقربين أن يذكر فى مجلسه ما لا يليق ولا يحسن

وعندما قتل الملك عبدالله بن الحسين فى المسجد الأقصى علم بالنبأ فاستبد به الحزن ، وكان يترحم عليه ، ولا يذكره إلا بخير ، وخرج إلى مجلسه العام بعد الحادثة ، وأقبل عليه شريف من الأشراف ، وكان المجلس حافلا ، فقال الشريف : ابشر يا طويل العمر ، فقد قتل الشريف عبدالله بن الحسين ! فما كان من الملك إلا أن اشتد غضبه مع ما فيه من الحزن الأليم لهذه الفاجعة ورد على الشريف الشامت الذى أراد التقرب الى الملك بنقل النعي بقتل خصمه إليه وقال له :

« تباً لك ! أتبشرنى بقتل مسلم من أئمة المسلمين ؟ أهذا فهمك للرحم والقربى ؟ أليس ابن عمك ؟ أتظن الموت مدعاة للشماتة ؟ لقد كنا ذات يوم خصوما ، ثم أنعم الله علينا فصرنا إخوانا ! لو أمكن فداء عبد الله لفديته بنفسى ! لقد أكرمه الله بالشهادة ينالها فى أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ! رحم الله عبد الله ، لقد كان صالحا ، وملكا عادلا ، اللهم اغفر له واسكنه الجنة الخ » .

واغرورقت عيناه بالدمع ، ثم أخذ يتحدث عن الملك عبدالله حديثا لم يؤبنه أحد بمثله ، ولا يعرف قدر العظيم إلا العظيم .

واغتاب بمجلسه أحد حضوره إنسانا يكرهه ابن سعود ، فجبه المغتاب وقال له : لا تحضر مجلسنا إلا وأنت مغسول الفم نظيفه ! .

وحضر إلى مجلسه ذات مرة عالم من علماء مكة حرسها الله فصافحه مع المسلـمين ، ثم أخذ مكانه بعيداً عنه ، وبدا عليه بعض الارتباك لاحظه الملك ولم يدر سببه ، ثم نهض العالم الى الملك يريد أن يحدثه ، فاستقبله بترحاب ، وأجلسه بجانبه ، ولكنه لم يستطع أن يتحدث إليه ، وسأله الملك فأجابه : لا شيء ، وسلم على الملك مودعا وغادر مجلسه .

وأدرك الملك الملهم أن الرجل فى حاجة ، ومنعه الحياء من ذكرها ، فأمر أحد رجاله أن يزور العالم فى بيته ويسلمه مع تحيات الملك « صرة » من الجنيهات الذهبية .

وكانت فراسة الملك فى موضعها ، فقد كان فى ضائقة أراد من الملك تفريجها ، ومنعه الحياء فخرج كاسفا .

ويعرض عليه فى المجلس العام قضايا ومعاملات وأحكام رسمية للتصديق عليها ، وذات مرة قدمت له أوراق قضية حكم فيها قاضى الشرع بإعدام قاتل ، وأريد من الملك التصديق عليها للتنفيذ ، فقرأ الحكم وأنكره ، فالمحكوم عليه قاتل حقاً ، ولكنه غير مجرم ، وما دام غير مجرم فلا يحكم عليه بالقتل .

والحادثة : أن جنديا تفقد زوجته ففقدها ، وأخذ يبحث عنها حتى عثر عليها بسكن جندي آخر ، فداهمه فإذا الزوجة لديه ، فأطلق عليهما الرصاص وقتلهما ، وسلم نفسه ، ودُفع به الى المحكمة الشرعية ، فسألته فاعترف بالقتل ، وحكم القاضي عليه بالقصاص ، فلم يستنكر ، ولم يعترض ، وتقبله فخورا بأن ثار لشرفه الجريح ، وانتقم من طاعنيه .

فلما عُرِضت الأوراق على ابن سعود وقرأها تجهم وجهه ، وصاح فيمن جاءه بها يريد منه التصديق على الحكم والأمر بتنفيذه ؛ ما هذا الحكم ؟ وأمر

بإحضار القاضي ، فحضر بعد دقائق ، وأخذ يحاكمه في المجلس العام ، وخطّأه في حكمه ، وأراه خطأه ، ولامه على تسرعه وغفلته عن دوافع القتل وأسبابه ، وقال ابن سعود بصوته الجهوري في تأثر بالغ : روى الامام البخاري في صحيحه أن سعد بن عبادة قال : يا رسول الله ، لو وجدت مع أهلي رجلا لم أمسّه حتى آتي بأربعة شهداء ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم » قال : كلا ، والذي بعثك بالحق ، إن كنت لأعاجله بالسيف قبل ذلك ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا إلى ما يقول سيدكم ، إنه لغيور ، وأنا أغير منه ، والله أغير مني » .

وكان العلامة الجليل الشيخ محمد بن مانع مدير المعارف حاضرا ، فأمره الملك أن يصحب القاضي إلى المحكمة ويحضر السجين ويطلقه بعد مكافأته .

وأحضِر السجين وقال له القاضي : لقد عفا الملك عنك وأمر بأن تُعطى كسوة ومنحة وأن تُكْرَم ! .

فانبرى الشيخ ابن مانع للقاضي ورد عليه : إن الملك لم يعفُ عنه ، بل حكم في أمره بشرع الله الذي كان أعلم به منكم ، وقد حماه من جهلكم بالشرع ، وأنقذه من حكمكم العسوف ! .

وصدق ابن مانع ؛ فابن سعود أعلم بالقضاء الحق من القضاة ، وهذه الحادثة وأمثالها تدل على علم ابن سعود وفقهه ، وقد أعجب العلماء والفقهاء الذين حضروا هذا المجلس بفقه ابن سعود ، وكان اعجابهم أكثر بفطنته وذكائه الخارق وعبقريته الفقهية .

وحضر إلى مجلسه بدوي وقال له : يا عبد العزيز ، أنصفني من ابن لـك ضربني ، فسأله عن اسمه فلم يعرف ، وسأله عن عمره بالتقريب ، فذكر له ، فأمر باحضار ابنائه في تلك السن أو ما حولها ، فحضروا ، وهمس بعض

الحاضرين فى أذنه لئلا يفصح عن ضاربه ، فتردد ، ولكن ابن سعود شجعه فأشار إلى ضاربه ، فعزله عن إخوانه ، وناول البدوي عصا ليقتص من ابنه ، فقال البدوي : حسبي هذا ، وعفوت عنه ، فنهض الملك إلى ابنه واقتص منه ، ولم يتركه إلا بعد أن أمسك البدوي بيد الملك .

هذا مجلس ابن سعود ، وهو حافل كما يرى القارىء بكل صنوف الخير والفضل ، وليس فيه من مجلس الملك إلا الوقار والهيبة ، ويفضله بأنه مجلس لا يرد فيه غير الحق والعدل والإحسان والعلم والأدب ، ويزينه تواضع الملك العظيم الذى يرفع به العامة ويدنيهم من قمته الشامخة ، ليشعروا بحق أن الاسلام سَوَّى بين الملك والسوقة ، ثم لا فضل بينه وبينهم إلا بالتقوى ، وهو — إن شاء الله — من المتقين .

حياة الصقر اليومية

يوم ابن سعود يوم حافل مزدحم بالاعمال ، فهو بانى دولة كبيرة ، وموحد شعوب ، وصانع تاريخ ، وهذا يدفعه إلى أن يطلع على كل صغيرة وكبيرة مما يجرى فى دولته التى أمّن سبلها ونشر فيها الامن والطمأنينة والاستقرار .

وابن سعود من الزعماء الذين لا يستطيعون غير العمل الناصب الذى يشغل كل اوقاتهم .

ولعل برنامج حياته اليومي يوضح للقارىء هذه الزحمة الزاحمة من العمل لا يترك له فراغا .

وابن سعود من القلائل الذين نظموا أوقاتهم حتى ايستطاع ضبط الساعات على أعماله المنظمة الدقيقة .

ومع ان ابن سعود معروف بالعدل الا أنه مجحف مع نفسه اجحافا شديدا ، يأخذ نفسه بالشدة والقسوة تصلان إلى حد الظلم ، ولكن مع نفسه ، وهو يرى هذا الظلم عدلا ، لانه خلق لغيره ، خلق ليخدم أفراد أمته .

إن يومه موزع توزيعا فيه اجحاف على مطالب الجسد والروح بالنسبة للانسان ، ولكنه مضطر اليه ، ملتذ به ، عمل متواصل ليل نهار ، وسهر على مصالح الامة ، وحرص على أداء عمل كل يوم فيه ، لأن لغد أعمالـه الكثيرة الكبيرة .

فهو ينهض فى الثلث الاخير من الليل والكون مستغرق فى نوم هانىء لذيذ لا يشق هدوءه صوت أو همس غير ابتهال هذا المتهجد يتدوى فى حجراته كلام الله جل شأنه ، ثم يمزق نشيجه سجو الليل حتى يغيب فى سبحاته ثم ينتبه إلى أهله يوقظهم حتى يستعدوا للصلاة ثم يرجع إلى تسابيحه وأوراده :

لا إله الاالله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، بيده الملك ! وهو على كل شيء قدير ، اللهم أجرنى من النار ، ربى اغفر لى ولوالدي وللمسلمين.

فاذا تعالى صوت المؤذن [1] : « الله أكبر » تابعه فى خشوع ، واذا انتهى انفتل إلى المسجد يؤدى صلاة الفجر لا يتخلف عن الجماعة مهما كان عذره ، فاذا غشي الارض نور الله الجميل فزع إلى القرآن يطمئن به قلبه ويستقبل به طلائع النهار قبل أن تشرق ذكاء ، ثم تعرض عليه الاعمال التى يجب أن يبت فيها سريعا فيأمر فيها أمره ، ثم يضطجع قليلا ويأخذ بعض الراحة حتى اذا بزغت الشمس نهض إلى « خمامه » ثم يقبل على الافطار وهو لا يعدو القهوة العربية والعسل ولبن الابل و « الكعك » أما الشاي فلا يكثر منه .

ثم يمضى إلى مجلس الحكم الخاص فيدرس الاوراق المقدمة اليه ، وتكتب لبعضها خلاصات ترفع اليه ، ويوقع ما يراد منه التوقيع كقوائم الاعطيات التى يمنحها زواره كل يوم ، ويقرأ البرقيات الخاصة فيجيب عليها ، كما يتلو بعناية البرقيات التى ترده من كل أمراء المدن والقرى حاملة اليه الانباء والحوادث ،

---

(١) له مؤذنان هما : سعد المشعان ، وعيد السعد .

فلا تفوته من امر الدولة صغيرة ولا كبيرة الا أحاط بها علما ، ثم يأذن للناس بمقابلته فيدخل الخواص والممتازون من رجال الشعب والبدو ، ثم يأذن لعامـة الشعب فيتزاحم الناس عليه وهو قائم يصافح كلا منهم باسما ، ويجلس أكثر من ساعة ينصت إلى شكوى المشتكي ودعوى المدعي ، ويفصل في الخصومات كما يسمع نصح الناصح ، وارشاد المرشد ، ووعظ الواعظ ، ويسأل عـن أحوالهم ، ويسأل زواره الغرباء عن ولاتهم وعن أعمالهم .

وقد حضرت مجلسه هذا كثيرا بالرياض وبمكة فأدهشتني هذه الديمقراطية في صورتها المثلى التي تعب مصلحو الغرب في البحث عنها ولم يجدوها ، وأغفلنا نحن الذين رأيناها في بلاط ابن سعود فلم نذكرها ولم نشد بها كأننا نعيش في حواشي الحياة ونقضي العمر في كهوفها المظلمة ، وكأن التطورات العالمية لا تؤثر في مجرى حياتنا ، حتى اضطررنا الغرب أن يتبجح بفضائل مسروقة من الشرق ومن المسلمين ومن العرب على الاخص ، ثم يزعم في وقاحة انه صاحبها الاصيل ، ويتطاول على الشرق ويتهمه بالنقائص والعيوب .

واني استطيع أن أقول : ان الديمقراطية التي نشهدها في ابن سعود بلغت الاوج الرفيع ، ولا يمكن أن توجد في أي بلد غير بلده ، فمن ذا يستطيع من عامة الشعب أن يمضي إلى مليكه كل يوم يستجلي طلعته ويسعد بالحديث معه أو يسمو بالسلام عليه في غير بلاد ابن سعود ؟ .

كم بريطانيا صافح مليكه وكلمه ؟ وكم امريكيا وسعه أن يقابل روزفلت ويتحدث اليه ؟ ! أليست بريطانيا وأمريكا أعظم أمم الارض الديمقراطية اليوم ، ولكنهما مع ذلك لن تستطيعا أن تزعما أنهما تعرفان عاهليهما معرفة شخصية ، ولا يقابلهما غير الوزراء والاصدقاء وكبار رجال الدولة ، أما الشعب فهو محروم من استجلاء طلعة حاكمه والجلوس اليه والحديث معه .

ولكن الشعب السعودي فخور بأنه يستطيع في أي يوم مقابلة مليكه وأمرائه

ان أراد ، فأين ديمقراطية الغرب من هذه الديمقراطية العجيبة التي لن يظفر بها الغرب مهما حاول أساطينه المصلحون .

يجلس ابن سعود فى مجلسه العام فيتوافد الناس عليه مسلمين ، بعضهم يقبل يده وبعضهم يقبل جبينه الساطع ، وهو واقف متهلل الوجه باسم الثغر يرد التحية بأحسن منها ، وما يكاد يأخذ مقعده حتى ينهض لاستقبال زائر جديد وهكذا ، ولو كان هذا يوما واحدا لهان ، ولكن العمر كله يقضى كل يوم منه فى هذا العمل المرهق ، ولكن تعبه متروك جانبا ما دام قد ارضى الشعب الذى يفديه .

واذا انتهى من مجلسه العام نهض إلى غدائه وليس فيه ما يدل على الترف والبذخ ، فهو فى غدائه متواضع لا يعدو الارز واللحم المسلوقين بسمن ، وحساء الخضراوات ، والفواكه ، والشواء ، واللحم المقلي .

ويجلس كعادة العرب على الارض مع رجاله وضيوفه ان كانوا من العرب أو من رعاياه ، أما اذا كان معه « اجانب » فهناك المطعم الفخم الذى يشبه افخم المطاعم فى دور أعظم الملوك المتمدنين ، وألوان شتى من ألذ الاطعمة وأمرئها ، وله طاه يفتن فى الالوان ، وقد بلغ فى فن الطهي مبلغا لا يدانيه الا الفنانون العالميون فى الطبخ ، فهو يجيد الطهي الحجازي والتركي والهندي والفارسي والمصري والشامي والعراقي والافرنجي ، ولا يقف عند حد الاجادة ، بل يتجاوزها إلى الفن والابتكار ، واسم هذا الطاهى العبقري الفنان « حسن عشى » وما أكثر ما يبتكر فنونا مدهشة فيحير الألباب بمبتكراته ، أما اللذة والرائحة والجمال فى طهيه فشيء لامثيل له ، وله تلاميذ كثيرون فيهم أبناؤه .

ويتناول ابن سعود غداءه قبل الظهر بسويعة ، ويقضى الفترة التى بينهما فى ضجعة هينة ثم يستيقظ منها للصلاة مع الجماعة أيضا ، ويستغرق فى أدعيته المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يمضى إلى مجلسه الخاص أيضا ليستقبل ماجد من الاعمال فيدرسه ويصدر أمره حتى يدخل وقت العصر فيصليه جماعة ، ويخلو

بعد ذلك إلى أفراد أسرته الرجال وفيهم ابناؤه واخوته وأبناء اخوته وذوو قرباه، فيقضون ساعة فى الحديث والاستمتاع بالمؤانسة ، وينصت ابن سعود إلى مطالبهم ثم يتناول العشاء معهم ويدعو غيرهم وهو لا يعدو الالوان التى تقدم اليه فى الغداء تضاف اليها الحلوى التى يحبها .

ثم يرتدى ملابسه وهو فيها متواضع أيضا ، فليس فيها ما يدل على الترف والابهة ، فهي فى الصيف نسيج القطن أو الكتان الابيض ، أما فى الشتاء فيزيد عليه ملابس الصوف اتقاء لبرده .

ان ابن سعود بسيط فى ملابسه ، وله ذوق حسن فى اختيارها ، فالثوب طويل الاكمام فضفاض يسترسل إلى كعبيه ، وهو أبيض نظيف دائما ، عليه عباءة خفيفة النسج صيفا غليظة شتاء ، ويغطى رأسه بصماد من الخيط أو شال من الصوف فى البرد ، ويتختم بخاتم فضي عليه اسمه « عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود » .

وكل ملابسه تبدو عليها سمة التواضع والزهد ، فليس فيها الحرير ولا الذهب ، ولا يفضل رعاياه فيها ، بل من رعاياه من يبزه فى فخامة الملبس واناقة المظهر .

ويركب سيارته الكبيرة فى المقعد الخلفي ومعه بعض صحابته، ويخرج بهم إلى الحدائق أو الصحراء يستمتع بالجو الطلق والهواء العليل ، ويقضى فى متنزهاته من بعد العصر حتى المغرب فيصليه جماعة ثم يقرأ دعواته ويفتتحها دائما بقوله : « رب أجرنى من النار » ! ثم يعود إلى رياضته ويضاحك من معه ويمازحهم ويرسلون أنفسهم على سجيتها ، فليس بينهم فى هذا الوقت من يتكلفون له ، ويبدون فيها كأنهم رفاق عاديون ليس بينهم ملك خطير .

واذا ما استجم القوى وشعر بالراحة رجع إلى القصر استعدادا لصلاة العشاء،

ثم يجلس بعدها فى بهو قصره الكبير المنار بثريات الكهرباء يستقبل العلماء والكتاب والشعراء وموظفى الدولة وكل فرد يريد مقابلته فى هذه الساعة فيأخذون مقاعدهم ، ويرى عند اسطوانة من الاسطوانات كرسي بجانبه مكتب عليه أسفار ضخمة .

أما الكرسي فيحتله رجل [1] عليه سيماء الوقار والعلم ، ويتناول كتاب التفسير ويقرأ منه ويعقب عليه ابن سعود بآرائه ويطلعهم على ما فهمه ، وتدهش الحضور عبقريته فى الفهم والاستنباط ، ثم يترك التفسير إلى الحديث ويقرأ ما تيسر منه ، ويقف القارىء بين كل حديث وحديث يعطى الفرصة للسامعين ، ثم يتناول كتاب التاريخ ، ثم ينتقل إلى الادب العربي ويتلو النوادر والحكايات والقصص ، وما قيل فيها من الشعر والامثال ، ثم يختم جلسته العلمية بدعاء يسير يتلوه القارىء نفسه ، فيودعه الحاضرون ، ثم تعرض عليه الاخبار العالمية وبعض شؤون مملكته ، ثم يمضى إلى مخدعه وقد مضى من الليل ثلثه ليستيقظ فى الثلث الاخير يفتتح حياته اليومية بالقرآن والعبادة رجاء أن يوفقه الله لصالح الاعمال.

ولا يغير ابن سعود عادته هذه الا نادرا ، فهي فى الحضر وفى السفر ، حتى أنه حينما غزا الحجاز ولم تكن لديه سيارات كان هو ورجاله يركبون الجمال ، فينادى راويته الكبير « العجيري » فيقبل على جمله يحاذى ابن سعود — والجيش سائر — فيقرأ العجيري ما تيسر من القرآن والحديث ، ثم يأخذ فى القصص وتلاوة الشعر العربي القديم فى الفخر والحماسة ، كل هذا من ذاكرته ، وقد كان الشيخ العجيري من أعاجيب الدنيا فى الحفظ .

فعادته ثابتة فى السلم والحرب وان تناول بعضها التغيير اليسير فى أيام الحرب ، فلا ينام فيها الا غرارا ، فمن عادته اليقظة حتى تتم عظائم أموره .

فحياته الخاصة أو اليومية تعطى القارىء فكرة واضحة عما ذكرنا فى الفصول السابقة التى عرضنا فيها نواحيه الشخصية والانسانية ، وتقرب اليه صورة هذا الصقر الغلاب الذى حاولنا بصدق واخلاص أن نصوره على حقيقته فى هذا الكتاب .

---

(١) هو العالم الفاضل الشيخ عبد الرحمن القويز .

ابن سعود يلقى ربه

منذ أواخر شهر المحرم سنة ١٣٧٣ لزم عاهل العرب الأكبر ابن سعــود فراشه ، فقد كان المرض الذى أصابه أكبر من احتماله ، واذا عجز جسمه عن النهوض فان عقله الكبير ما زال صحيحا سليما ، فكان يصرف شؤون مملكته بالحكمة التى عرفت عنه ، ولكنه فى أواخر شهر صفر ١٣٧٣ اشتدت وطأة الضعف والمرض والشيخوخة على جسده ، وسرى الأثر إلى صحوه ، فتسلم عنه المهام أبناؤه : سعود وفيصل ومحمد وخالد وفهد وسلطان وغيرهم .

وفى الساعة الرابعة والنصف من صباح يوم الاثنين من شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٣ ﻫ (٩ نوفمبر ١٩٥٣ م) انتقل الملك الصالح الرشيد عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود إلى رحمة الله .

وكانت وفاته — رحمه الله — بالطائف ، ونقل إلى الرياض حيث دفن بها فى قبر لا يميزه عن قبور العامة شيء ، ولم يعدّ له ضريح كما يعد لأمثاله العظماء الذين يصنعون التاريخ ويغيرون مجرى الحياة ، فالاسلام يمنع ذلك ، وما كان ابن سعود ليرضى أن يميز بعد موته بقبر فخم ضخم ، فقد كان فى حياته متواضعا

بعيدا عن المظاهر ، شديد الاعتصام بدينه ، وإن دينه الحق يحرم تلك الأضرحة المشيدة العظيمة ، ويحرم البناء على القبور .

وحرص أبناؤه أن يُدْفَن كأي مسلم من العامة ، لأن ابن سعود نفسه فى حياته كان يهدم الأضرحة والقباب عليها ، ويطفىء السرج التى تنيرها ، لأن الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله فهو لن يرضى بان يبنى له قبر خاص به ، وأبناؤه يعرفون ذلك ، فدفنوه فى قبر من قبور المسلمين العامة ، وقد بلغ الأمر بقبره أنه اليوم غير معروف من أكثر أبنائه وإخوته ومن الناس .

وإذا كان ابن سعود قد مات فإنه لم يدفن معه تاريخه وعمله ، فهما باقيان بإذن الله ما بقي التاريخ النظيف .

وإذا ووري جثمانه فان أعماله الشاهقة لن تتوارى ، ولا يمكن أن تنال منها الأيدى أو تخطئها العين مهما ابتعدت عنه ، فقد بلغت أعماله من الإشراق والشهوق والشهرة ما لا يمكن للنسيان أن يبسط عليه ظله فيخفيه ، لأن تلك الأعمال تزداد على مر الأيام نفاسة وتجديدا وحياة .

فهذه المملكة الواسعة الضخمة تدين له وحده بعد الله بالحياة والبقاء ، فقد تسلمها ضعيفة فقيرة مفككة جاهلة يضرب أهلها بعضهم بعضا ، والأمن مختل ، والعدل فقير ، فاذا هو يلم شعثها ، ويجمع مفرقها ، ويوحد كلمتها ، ويجعل من تلك الاجزاء المبعثرة بناء شامخا يصارع الزمن فلا يصرعه .

وقد تعرضت مملكته لأخطار وقوى هدامة ، فوقف دونها يحميها ، ويدفع عنها الكوارث ، ويجنبها الويلات فى السلم والحرب ، ولو أن مملكة أعظم من مملكته قوة ومالا وسلطانا وعلما وثراء فى كل شيء تعرضت لما تعرضت له مملكته لاعتراها الخلل .

وما سلمت مملكته إلا بفضل الله ثم بفضل ابن سعود ، فهو رجل خير

وصلاح كله ، وقد جعل قواعد مملكته الخير والصلاح فسلمت من الكوارث والويلات ، وخرجت من كل ما تعرضت له أعظم مما كانت .

وعلى سبيل المثال جاءت الحرب الثانية ، وموقع بلاده ذو أهمية فى الحرب العالمية ، وكانت البلدان والأقطار المجاورة من عربية أو غير عربية قد احتلها الحلفاء لتضمن نجاح مهامها العسكرية ، فقد احتل الحلفاء ايران الدولة المستقلة ، وكان تحت سيطرة الحلفاء المباشرة كل دول العرب والمسلمين دون استثناء غير دولة ابن سعود .

وما كان ذلك لقوة دولته العسكرية ، فإيران كانت أقوى وأعظم ، ولكن الشيء الذى لم يكن لدى إيران وكل دول العالم العربي والاسلامي ما وهب الله لابن سعود من العبقرية والحنكة والرأي الصائب والحكمة والتدين والصلاح وقوة الشخصية والهيبة ما جنّب بلاده أن تقع تحت سيطرة الحلفاء فى الحرب .

وعندما قابل روزفلت ابن سعود كان يُظَن أن فى برنامج المقابلة أن يطلب روزفلت إلى ابن سعود أن يضع بلاده تحت احتلال الحلفاء كما كان بالنسبة لدول العالم العربي والاسلامي ، وقد أثير بحث ذلك ، إلا أن ابن سعود استطاع اقناع روزفلت بأن تظل بلاده حرة مستقلة بعيدة عن الاحتلال بسبب ظروف الحرب ، لأن بلاده لم تقع قط تحت الاستعمار أو الاحتلال الأجنبي ، وكل الذى يضمنه للحلفاء أن بلاده لن تكون مجالاً لنشاط المحور .

ووافق روزفلت ، لأن قوة شخصية ابن سعود أثرت فيه تأثيرا حسنا ، وبفضل الله ثم بفضل ابن سعود سلمت بلاده من الاحتلال الذى وقع على العالم العربي والاسلامي .

وهذا الكتاب يفصح عن شخصية ابن سعود وأعماله وتاريخه وسيرته ونظام حكمه ومواهبه وخلائقه ، ومع أن الكتاب ضخم رحب فإنه ليس أضخم

من شخصية ابن سعود ، وليس أرحب منها ، فاذا رأى القارىء أنني قلت فيه كثيرا من الحق فانني أقول : إن هناك مزيدا من القول الطيب يمكن أن يقال في ابن سعود ، وان المؤرخين والباحثين والمفكرين سيجدون مجالا رغيبا لموضوعات جديدة ولتفصيلات واسعة لما قيل موجزا .

وإن لديّ من مجال القول كثيرا ، ولكنني أوجزت مع ما يبدو من السعة ، غير أنني لم أغفله لأنه غير جدير بالذكر ، بل آثرت أن أترك لغيري مجالا ، ثم إنني ادخرت للطبعات القادمة ما يسعني أن أضيفه إليها بإذن الله .

ولعلي أضيف إلى كتابي هذا من الفصول الجديدة ما يجعله موسوعة في ابن سعود ، إذا مد الله في العمر .

وإذا كان العالم العربي قد فقد أكبر عربي على الاطلاق في هذا العصر ، وفقد العالم الاسلامي كله أصلح أمير للمؤمنين وخليفة للمسلمين ، وفقدت الانسانية رجلا عاش في الصميم منها فان الفجيعة فيه — ولا شك — لجدُّ كبيرة .

ولكن الله سبحانه وتعالى قد أعد للعالم العربي والاسلامي وللانسانية من يملأ ذلك الفراغ ، ويكون امتداداً لحياة ابن سعود ألا وهو ابنه العبقري العظيم فيصل .

ولا شك أن عظمة شخصية ابن سعود فاذّة ونادرة في التاريخ ، ولا يمكن تكرارها بكل مزاياها وفضائلها وخصائصها وسماتها ، لأنها من الشخصيات التاريخية النادرة على مر العصور .

إلا أن خليفته ابنه فيصلا ورث أباه تلك المزايا والفضائل والخصائص والسمات ، وأضاف إلى هذا الميراث الضخم التليد طارفا يساويه عمقا وضخامة واتساعا وارتفاعا .

وما يرجح فيه الابن على أبيه من تمام عظمة السلف ، فقد أكمل الرسالة وأتم البناء ، وتم على يد فيصل ما كان يتمنى أبوه أن يتم ، ألا وهو التضامن الاسلامي الذى حمل فيصل راية الدعوة اليه والعمل لتحقيقه ليكون تمهيداللوحدة فى المستقبل البعيد أو القريب .

والصلابة التى امتاز بها الملك فيصل هي فى حقيقتها بذرة من ابيه ، وكان من الجائز ألا تثمر ، ولكن الله أراد بالعرب والمسلمين خيرا فعمقت جذورها ثم ظهرت فكانت شجرة ضخمة ممتدة الغصون التى تحمل الزهر والثمر .

وتعرضت صلابة فيصل لقذائف كالجبال تريد أن تقضي عليها ، فاتفقت كلمة الشيوعية والرأسمالية والصهيونية وكل قوى الهدم والتخريب فى العالم لضرب صلابة فيصل وتفتيتها وذرّها فى الهواء ، ونهض حكام من المسلمين والعرب لحطمها ، ولكن الله جعل كل قذائف الجبال هي التى تتحطم على متن تلك الصلابة الصماء .

وواجه فيصل من المشاكل ما لا حصر له ، وكانت من التعقيد بحيث يتعسر الحل ، ومن الضخامة بحيث يتضاءل تلقاء ها كل جهد ، ولو كان غير فيصل يحكم المملكة العربية السعودية لتفككت أجزاؤها ، ولكنه واجه المشاكل والقذائف الحاطمة بصلابته الصماء وحكمته الحكيمة وعقله وعبقريته التى وفقته لأن يجعل القوى المعادية مطية إلى تحقيق آرابه وآماله فازدادت مملكته متانة وقوة وصلابة بإذن الله وفضله وكرمه .

وهذه القوى المعادية الجبارة التى استهدفت الملك فيصلا فقاومها وقهرها مواهبه وصلابته كانت أكبر من القوى التى واجهها أبوه صقر الجزيرة الغلاب الذى كانت مشاكله محصورة فى جزيرة العرب ، أما القوى التى واجهت فيصلا فقد كانت أكبر وأضخم وأعظم مكرا ودهاء وحيلة ، وأشد ضراوة وفتكا ، تلك قوى الاستعمار والشيوعية والصهيونية ، تضاف اليها قوى حكام عرب ومسلمين ،

ولكن الله كان مع فيصل فانتصر عليها ، وأصبحت حكومته أو بلاده من أعظم البلدان فى العالم ثراء وأمنا ، وشق لها طريقها لتأخذ من العلم والأدب والثقافة والحضارة والمدنية ما هي بحاجة إليه .

فابن سعود العظيم الكبير حي بابنه فيصل ، وتتجدد ذكراه دائما فى أعمال ابنه العبقري الفذ فيصل الذى حمى ميراث أبيه من الضياع ، ونمّاه وضخمه حتّى جعل المملكة التى أسسها أبوه أعظم مما كانت فى عهده وحياته ، وذلك ما كان يتمناه ابن سعود نفسه .

وإذا كنا ندعوا الله سبحانه وتعالى مخلصين أن يرزق عبد العزيز غفرانه ورحمته ورضوانه فاننا نبتهل إلى الله عز وجل أن يحفظ للاسلام والمسلمين والعروبة والعرب وللانسانية فيصل بن عبد العزيز حتّى يتم الله على يديه كمال نجاح دعوته إلى التضامن الاسلامي ، هذه الدعوة المباركة التى يرجى منها جمع كلمة المسلمين ووحدتهم حتى يكونوا الامة التى وصفها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز بقوله الكريم: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

الخاتمة

كنت عازما على أن أعيد طبع « صقر الجزيرة » حسب نصه فى الطبعة الثانية المنقحة ، إلا أن وجود الشيء الكثير فى ذاكرتى عن ابن سعود مما لم يرد له ذكر فى الكتاب جعلنى أوثر أن أضيف ما أستطيع إضافته إلى هذه الطبعة ، فإذا الذى أريد إضافته أكثر مما فى الكتاب كله ، ولو أن مراجعى وأوراقى تحت يدى هنا فى لبنان لظهر الكتاب فى عشرة أجزاء ضخمة ، ولكن مراجعى وأوراقى بمكة المكرمة حرسها الله ، فاضطررت إلى الايجاز ، ومع ذلك صدر الكتاب فى ضِعْف حجمه الأول أو أكثر قليلا .

ولم يكن رأيي وحدى إعادة الطبع مع التنقيح والإضافة ، بل شاركنى الرأي وزيرُ الإعلام الأستاذ ابراهيم العنقري .

وقد أجهدنى – هنا فى لبنان – البحث عن المراجع ، فلم أجد مما أرجو إلا القليل ، فادخرت ما بقي من العلم إلى الطبعة الآتية إن شاء الله .

وكنت قد جعلت رحلتى هذه للعلاج والراحة والاستجمام ، ولكن رغبتى فى طبع صقر الجزيرة واضافة ما يمكننى أن أضيفه إلى هذه الطبعة جعلتا رحلتى

ــ هذه ــ رحلة عمل متواصل ليل نهار ، يستغرق منى كل يوم أربع عشرة ساعة .

ولعلى فى الطبعة القادمة أجعل « صقر الجزيرة » موسوعة تاريخية عن ابن سعود ، مع أن كتابى فى طبعته هذه يكاد يكون موسوعة بإذن الله ، فهو أكبر ما ألّف عنه على الاطلاق حتى اليوم .

وأرهقنى التصحيح كل الإرهاق ، ولم أجد من أستعينه فيه وأرضى عنه غير زوجى « أم همام » فقد كانت عونى كله فى إعداد الفصول ، ومراجعتها ، وفى التصحيح الدقيق ، وفى الإخراج ، وفى إعداد الصور .

وكنت عازما على تأليف فهرس للكتاب ألحقه به يتناول الأعلام والمواضع والأمكنة والحروب والقبائل والشعر والأمثال والمعاهدات والملاحق والبروتوكولات والمراجع ، ولكن افتقارى إلى الزمن حال دون تحقيق هذا العزم .

وقد حوى الكتاب صوراً تاريخية بعضها نادر ، وبعضها ينشر لأول مرة ، وأرجو فى الطبعة المقبلة ــ إن شاء الله ــ أن أزودها بصور أخرى غير المنشورة فى هذه الطبعة .

ومن الفصول الهامة : « ابن سعود وقضية فلسطين » فالجيل الجديد يجهل كل الجهل جهود ابن سعود التى لا تُحدُّ فى قضية فلسطين ، فهو لا يعلم أن ابن سعود كان أكبر من حمل راية الدفاع عنها ، وخرج بها من حدودها المحلية إلى نطاق العالم الإسلامي ثم النطاق العالمي ، وجعل القضية إنسانية .

ومع أن فصل « ابن سعود وقضية فلسطين » أكبر فصول الكتاب فإن هناك معلومات كثيرة أرجأت ذكرها لافتقارى إلى الوقت ، ولعلى أعود إلى كتابته من جديد لأخرج كتابا خاصا بهذا الموضوع العظيم ، ولعل وزارة الخارجية

السعودية تزودني بالوثائق المتعلقة بهذه القضية ليكون الموضوع أتم ، والكتاب أكمل باذن الله سبحانه وتعالى .

وقد دهش كثير من المشتغلين بقضية فلسطين فى أيامنا هذه من أبناء فلسطين ومن غيرهم من عظَم جهود ابن سعود التى لا يعلمونها ، ومن موقفه الصلب تجاه أكبر حكام الأرض ودولها وهم حكام الولايات المتحدة وبريطانيا ، وذلك عندما اطلعوا على هذا الفصل من الكتاب .

وإن طبعه وانصرافى اليه كل الانصراف حالا بينى وبين طبع بضعة كتب كنت قد عزمت على طبعها ، وهن : « عقيدة الاسلام » وهو جزء من كتابى الضخم المسمى « الديانات والعقائد فى مختلف العصور » وكتابى « العقاد » وكتاب يحوى مجموعة من القصص الموضوعة والمترجمة .

وليس بكثير على « صقر الجزيرة » هذا الجهد وهذه التضحية ، فهو أهل لهما ولأكثر مما بذلت ، وكنت أود أن أشارك فى ذكرى « اليوم الوطني » للمملكة العربية السعودية بكتابى هذا ، فأُصدِرَه فى يوم الذكرى ، ولكن كثرة موضوعاته التى كنت أكتبها ، وتناول فصوله السابقة بإعادة النظر فيها وتنقيحها وإضافة الجديد إليها أخرا صدوره فى يوم الذكرى ، وما أنا بنادم على ذلك ، فصدور الكتاب تاما فى أي وقت مشاركة عظيمة فى الاحتفال بالذكرى المجيدة لليوم الوطني وبأكثر منه ، لانه تجديد لذكرى البطل العظيم نفسه .

ولقد اقترح عليّ بعض الإخوان أن اختصر الكتاب وأوجزه فى جزء واحد للقارىء المتعجل الذى لا يملك من الوقت ما ينفقه فى قراءة الكتاب بأجزائه المعدودات ، وهو اقتراح حق ، وأرجو أن يتحقق قريبا بمشيئة الله .

وأبتهل إلى الله عز وجل أن يبارك لنا فى خليفة ابن سعود ابنه العظيم الصالح فيصل ملك المملكة العربية السعودية ، وأن يمدّ فى عمره ، ويكون له عونا

حتّى يتمّ الله على يديه تحقيق ما بدأ من الحق والخير ، وإكمال بناء صرحِ الاسلام الذى بدأه مع أبيه فى حياته ، ثم من بعده اذ ظهر بدعوته العظيمة الخَيِّرة ، ألا وهي الدعوة المباركة إلى التضامن الاسلامي الذى بدأ يعطى ثمره ، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحب ويرضى .

أحمد عبد الغفور عطار

لبنان ـ عاليه
الجمعة : ٢٨ شعبان ١٣٩٢ هـ
٦ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٢ م

كتب للمؤلف

١ ـ الكتب التي نفدت

١ ـ كتابى ، طبع بمطبعة ام القرى بمكة المكرمة سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٤ م)

٢ ـ
١ ـ محمد بن عبد الوهاب ، مصر ، الطبعة الأولى ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م)
٢ ـ محمد بن عبد الوهاب ، مصر الطبعة الثانية ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦م)
٣ ـ محمد بن عبد الوهاب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م)

٣ ـ
١ ـ محمد بن عبد الوهاب (كتاب جديد غير السابق) بيروت ، الطبعة الأولى : ٣ ذى الحجة ١٣٩١ (٨ يناير ١٩٧٢)
٢ ـ محمد بن عبد الوهاب ، بيروت ، الطبعة الثانية ٢٠ ذى الحجة ١٣٩١ (٤ فبراير ١٩٧٢)
٣ ـ محمد بن عبد الوهاب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٠ محرم ١٣٩٢ (٢٤ فبرايـــر ١٩٧٢)

٤ ـ الهوى والشباب (ديوان شعر) مصر ، ١٣٦٥ (١٩٤٦)

٥ ـ الخرج والشرائع ، مصر ، ١٣٦٥ (١٩٤٦)

١ – صقر الجزيرة ٣ أجزاء ، مصر ، ١٣٦٦ (١٩٤٦)
٦ – ٢ – صقر الجزيرة ٣ أجزاء ، جدة ، ١٣٨٥ (١٩٦٥)
٣ – صقر الجزيرة ٣ أجزاء في مجلد واحد ، جدة ، ١٣٨٥ (١٩٦٥)

٧ – أريد أن أرى الله (قصص) مصر ، ١٣٦٦ (١٩٤٧)

٨ – المقالات ، مصر ، ١٣٦٦ (١٩٤٧)

٩ – الهجرة (مسرحية) مصر ١٣٦٦ (١٩٤٧)

١٠ – البيان (نقد أدبي) مصر ١٣٦٩ (١٩٤٩)

١١ الزنابق الحمر (مسرحية الطاغور) مصر ، ١٣٧١ (١٩٥٢)

١٢ – المقدمة (دراسة لمعجم صحاح الجوهري) مصر ، ١٣٧٢ (١٩٥٢)

١٣ – قطرة من يراع ، مصر ، ١٣٧٥ (١٩٥٥)

١٤ – الصحاح ومدارس المعجمات العربية ، مصر ، الطبعة الأولى : ١٣٧٥ (١٩٥٦)

١٥ – مقصورة ابن دريد (بحث تاريخي أدبي مقارن) مصر ، ١٣٧٦ (١٩٥٦)

١٦ – الاسلام والشيوعية ، الطبعة الاولى ، مصر ، ١٣٧٦ (١٩٥٦)

١٧ – حرب الاكاذيب ، مصر ، ١٣٧٧ (١٩٥٧)

١٨ – الفصحى والعامية ، مصر ، ١٣٧٧ (١٩٥٧)

١٩ – عشرون يوما في الصين الوطنية ، طبع بالصين ، ١٣٨٣ (١٩٦٣)

٢٠ ــ الشريعة لا القانون ، جدة ، ١٣٨٤ (١٩٦٤)

٢١ ــ الاسلام طريقنا إلى الحياة ، جدة ، ١٣٨٤ (١٩٦٤)

٢٢ ــ المفتش (مسرحية لجوجول) دمشق، ١٣٨٥ (١٩٦٥)

٢٣ ــ إنسانية الإسلام . بيروت ، ١٣٨٦ (١٩٦٦)

٢٤ ــ الاسلام خاتم الاديان ، بيروت ، ١٣٨٦ (١٩٦٦)

ب ــ الكتب المحققة التى نفدت

٢٥ ــ تهذيب الصحاح ، للزنجاني (بالاشتراك مع الاستاذ عبد السلام هارون) مصر ، ١٣٧٢ (١٩٥٢)

٢٦ ــ مقدمة تهذيب اللغة ، للأزهري ، مصر ، ١٣٧٦ (١٩٥٦)

٢٧ ــ ليس في كلام العرب ، لابن خالويه ، مصر ، ١٣٧٦ (١٩٥٦)

٢٨ ــ آداب المتعلمين ورسائل أخرى في التربية الإسلامية، لابن خلدون وغيره، مصر ، الطبعة الأولى ١٣٧٦ (١٩٥٧)

٢٩ ــ الصحاح ، للجوهري ، ٧ أجزاء ، منها جزء المقدمة ، مصر ، ١٣٧٧ (١٩٥٧)

ج ــ الكتب التى منها نسخ بالمكتبات

١ ــ آراء في اللغة ، جدة ، ١٣٨٤ (١٩٦٤)

٢ ـ كلام في الادب ، جدة ، ١٣٨٤ (١٩٦٤)

٣ ـ الزحف على لغة القرآن ، بيروت ، ١٣٨٥ (١٩٦٦)

٤ ـ الصحاح ومدارس المعجمات العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٨٦ (١٩٦٦)

٥ ـ آداب المتعلمين ورسائل أخرى في التربية الإسلامية ، لابن خلدون وغيره ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٨٦ (١٩٦٦)

٦ ـ الاسلام والشيوعية ، الطبعة الثانية (طبعة منقحة ومزيد عليها فصول جديدة) بيروت ، ١٣٩١ (١٩٧٢)

٧ ـ اليهودية والصهيونية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٣٩١ (١٩٧٢)

٨ ـ محمد بن عبد الوهاب ، الطبعة الرابعة ، بيروت ٥ رجب ١٣٩٢ (١٤ أغسطس ١٩٧٢)

٩ ـ صقر الجزيرة ، الطبعة الثالثة (طبعة منقحة ومزيد على الطبعات السابقة أكثر من الحجم السابق) ٧ أجزاء ، بيروت ١٥ شعبان ١٣٩٢ (٢٣سبتمبر ١٩٧٢)

د ـ كتب تحت الطبع

١ ـ المكتبات .

٢ ـ أتفى العربية بحاجة الانسان في العصر الحديث ؟

٣ ـ مئة كلمة

٤ ــ المسيحية والمسيح
٥ ــ الديانة اليهودية (ديانة موسى)
٦ ــ ديانات الهند
٧ ــ ديانات مصر
٨ ــ ديانات فارس
٩ــ ديانات الصين واليابان
١٠ ــ ديانات التوحيد
١١ ــ ديانات الشرق الاوسط
١٢ ــ ديانات إفريقية
١٣ ــ لا أومن بالاشتراكية لأنى أومن بالإسلام
١٤ ــ مع الكتب والمؤلفين
١٥ ــ الأسرة
١٦ ــ نقد كتاب « كشف الظنون »
١٧ ــ مذكرات لارا
١٨ ــ قال بيدبا
١٩ ــ خمس دقائق قبل الفطور
٢٠ ــ وراء القضبان
٢١ ــ ورود من كلام
٢٢ ــ العقاد
٢٣ ــ مسلمة في سيبريا
٢٤ ــ مع الملوك والرؤساء
٢٥ ــ الأدب الضاحك
٢٦ ــ الرحلات

هـ – كتب محققة للطبع

٢٧ – شرح مقصورة ابن دريد ، لابن هشام اللخمي

٢٨ – الأرمنة ، لقطرب

٢٩ – ما اتفق لفظه واختلف معناه ، لأبى العميثل

٣٠ – كشف الظنون ، لحاجى خليفة

٣١ – مجموعة المعانى (مختارات شعرية) طبعة الجوائب

الفهرس العام

محمد بن عبد الوهاب

آل سعود

فهرس الجزء الثاني

فهرس الجزء الثالث

فهرس الجزء الرابع

فهرس الجزء الخامس

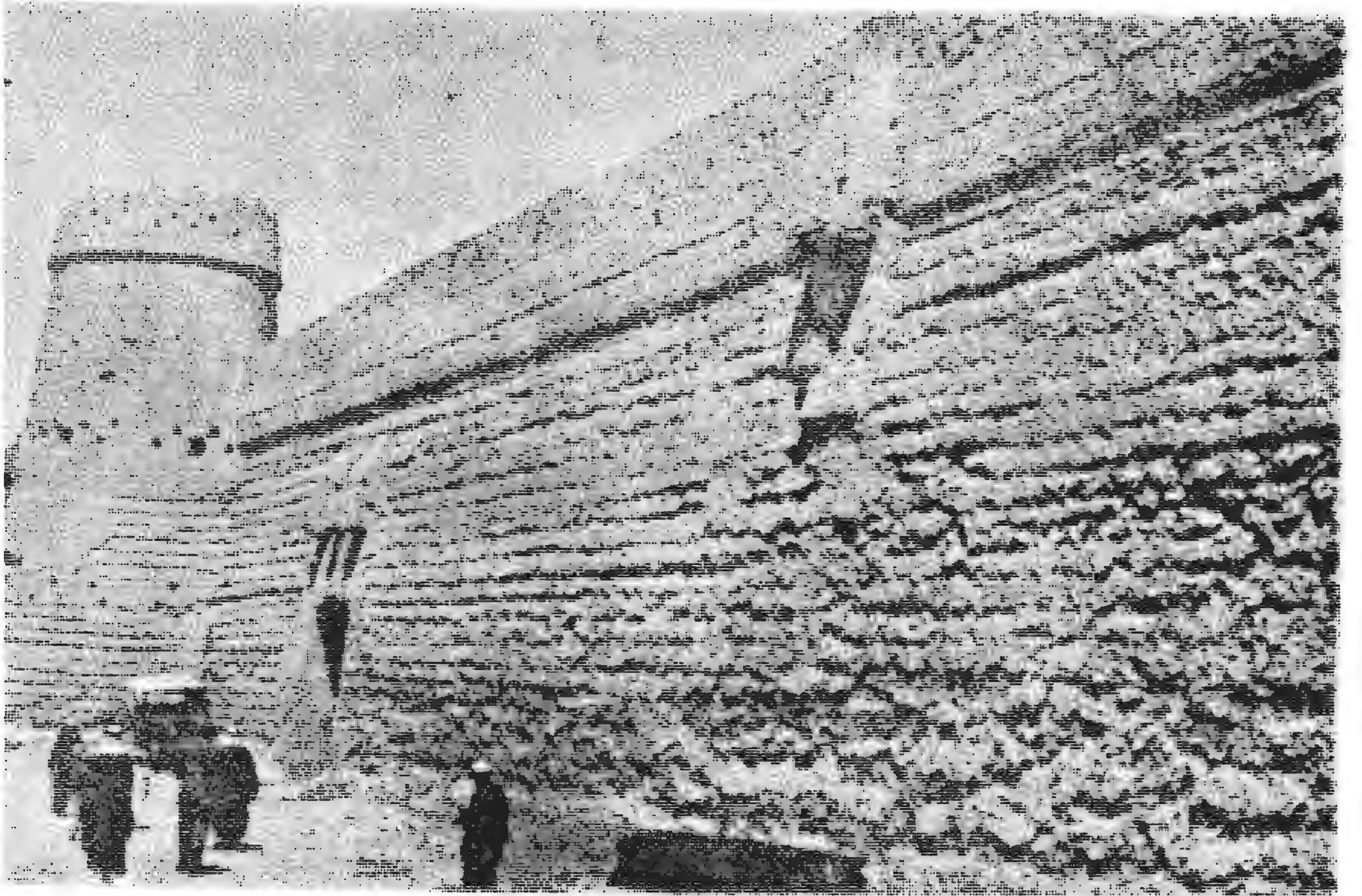
فهرس الجزء السادس

فهرس الجزء السابع

ملحق الصور



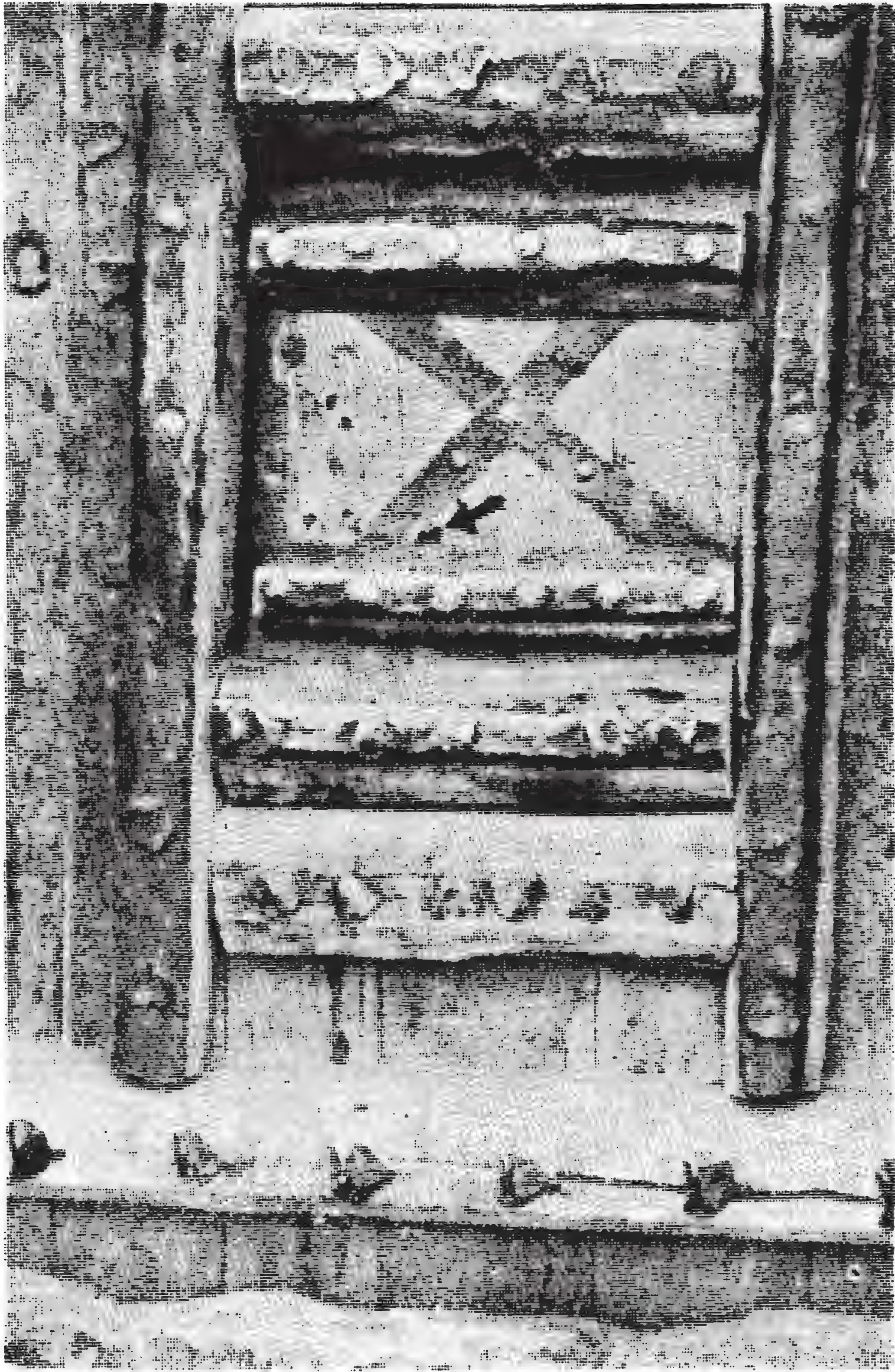
مخبأ الثلاثة والثلاثين من الأبطال الذين رافقوا ابن سعود في فتح الرياض ،
تمثل الصورة مزرعة بها بعض النواعير حيث اختفوا بها انتظاراً لأمر ابن سعود وقد ظهر بعضهم



المَصْمَك : الحصن الذى كانت تحتمى به حامية ابن الرشيد، وهو الذى اقتحمه ابن سعود واحتله بما يشبه ا



البطل الجريء عبد الله بن جلوى الذى اقتحم حصن آل الرشيد بالرياض ونفذ مع ابن سعود من الخوخة إلى داخله وقتلا عجلان عامل ابن الرشيد على الرياض



هذا باب الحصن المسمى « المصمك » وهو باب ضخم وكبير لا يفتح إلا للجمال عندما تدخلها والخيول والحمر والبغال، أما الرجال فيدخلون إلى الحصن ويخرجون منه من نافذة صغيرة محكمة الإغلاق، وعليها في الصورة خشبتان ضخمتان متقاطعتان تكونان علامة × والسهم يشير إلى الموضع الذي اغترزت فيه حربة عبد الله بن جلوى ، ولما أراد انتزاعها انكسرت ذبابتها ، وما تزال في موضعها ، وآخر مرة رأيتها في سنة ١٣٧٠ هـ



مبارك الصباح وعلى يمينه عبد العزيز بن سعود



حاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح



أعظم فارس مغوار أنجبته جزيرة العرب في هذا العصر
عبد العزيز بن متعب الرشيد الذي قتـل فى حربه مع ابن
سعود في معركة روضة مهنا الضارية



الكابتن شكسبير الذي صحب جيش ابن سعود في المعركة مع ابن رشيد ، وقد قتل شكسبير برصاصة طائشة



الحسين بن علي عندما قدم من تركيا إلى الحجاز اميراً
على مكة المكرمة



الشريف عبد الله بن الحسين



مفجّر الثورة العربية الكبرى الملك الحسين بن على



الشريف الملك علي بن الحسين ملك الحجــاز الذي نزل عن عرشه للملك عبد العزيز بن سعود



اللورد كتشنر



السير هنرى مكماهون



جمال باشا والى سورية مع إحدى أديبات تركيا



أنور باشا



فخري باشا والى المدينة المنورة



فيصل بن عبد العزيز عندما كان في الاحساء سنة ١٣٤٢
وكان في الثامنة عشرة ، ومنها أرسل رده على الحسين إلى
جريدة الأهرام التي نشرته في تلك السنة



الملك الحسين بن على ملك الحجاز بعد نزوله لابنه الملك
علي ، ثم نفيه من قبل الحكومة البريطانية إلى قبرص



الملك علي بن الحسين ملك الحجـاز الذي نزل عن ملكه للملك عبد العزيز
بن سعود وغادر جدة في صباح يوم الأحد ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤ على
ظهر البارجة البريطانية « كورن فلاور » حيث أقلته إلى العراق



أول صورة أخذت للملك عبد العزيز ساعة دخوله إلى جدة مع قائم مقامها الحاج عبد الله علي رضا الذي سلمه جدة وذلك في يوم الأربعاء ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٤٤



الأمير عبد الله بن عبد الرحمن (شقيق الملك عبد العزيز) وكان أحد القادة الكبار فى الحرب ، وقد أبلى بلاءاً عظيماً في حصار جـــدة حتى استسلمت حكومة الملك علي لابن سعود ، والأمير عبد الله بن عبد الرحمن من الأبطال المغاوير ، وهو إلى جانب ذلك من العلماء الأعلام ، فكان بذلك من النوادر ، لأنه جمع بين السيف والقلم



الامير محمد بن عبد العزيز السعود الذى اشترك فى الحرب بين والده والهاشميين ، وكان إذ ذاك فى الرابعة عشرة ، ومع حداثة سنه كان من المحاربين الابطال ، وهو الذي سلمت له المدينة المنورة صباح يوم الاحـــد ٢٠ جمادى الاولى سنة ١٣٤٤ هـ



الأمير مساعد بن عبد الرحمن (شقيق ابن سعود) وهـــو من الأمراء العلماء الأدباء ، ولا يبالى فى الحق أحداً ، وهو — الآن وزير المالية السعودية



الكولونيل هملتن على اليسار مع ابن جمعية رئيس تشريفات البدو لدى الملك ابن سعود



السيد طالب النقيب
احد وسطاء الصلح



عبد العزيز بن سعود بعد إحدى المعـارك ، وكاد ينتهى عصر الفروسية والفرسان
لولا أن الملك فيصل بن عبد العزيز جدده وجعل أخاه عبدالله بن عبد العزيز
رئيس نادى الفروسية



الملك عبد العزيز وقد أهدى صورته للمؤلف بعد أن وقع عليها بيده
والجملة التي بخطه: « الواثق بالردود » ثم توقيعه وهو «عبد العزيز السعود »
وتاريخ الإهداء ١٣٦٥/١/٣٠هـ



الملك عبدالله بن الحسين مؤسس المملكة الأردنية الهاشمية



الملك طلال بن عبد الله ملك المملكة الأردنية الهاشمية



الملك الحسين بن طلال ملك المملكة الأردنية الهاشمية وعميد البيت الهاشمي



فيصل الدويش علـى إحدى البوارج
البريطانية في الخليج الفارسي قبيـل
تسليمه لابن سعود



ابن سعود وعلى يمينه الكولونيل بيكو رئيس الوفد البريطاني وعن يساره قائد الطيران
البريطاني في العراق عندما حضروا إلى خبارى وضحا لتسليم فيصل الدويش



الملك فيصل ملك العراق

ابن سعود وفيصل ملك
العراق عـلى ظهر البارجة
البريطانية ستيوارت







ابن سعود وفيصل ملك
العراق عـلى ظهر البارجة
ستيوارت بالخليج الفارسي





صورة الملك سعود بن عبد العزيز مهداة منه للمؤلف عندما بويع
بولاية الملك



السيد محمد علي الإدريسي حاكم عسير ومؤسس الدولة
الإدريسية



السيد مصطفى الإدريسي



الإمام يحيى عاهل اليمن



الحاج محمد أمين الحسيني أحد زعماء العرب البارزين ، وقد توسط في الصلح
بين الإمام يحيى والملك عبد العزيز



الملك عبد العزيز ، وصورته مهداة من جلالته إلى المؤلف في ٣٠ من محرم سنة ١٣٦٥ وكتب بخطه وتوقيعه عليها : الواثق بالودود عبد العزيز السعود



الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية
وقائد حركة الإسلام والعروبة في هذا العصر



الأمير فهد بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية ،
أحد أركان الدولة السعودية الحاضرة ، ومن كبار السياسيين



الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران ، أحـد أركان الدولة السعودية الحاضرة ، ومع انه عسكري فهو سياسي محنك



الأمير خالد بن عبد العزيز ولي العهد والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء



الأمير فواز بن عبد العزيز المستشار الخاص للملك الحكيم فيصل



الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير الرياض



الأمير عبد الله بن عبد العزيز رئيس الحرس وهـــو من الأبطال الفرسان والمثقفين الكبار



الأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة ويمتاز بالتعقل والاناة والعدل



الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز أمير منطقة المدينة المنورة ، أحد الشعراء
المطبوعين ومن المثقفين



الأمير خالد السديري أمير نجران ، وأحد كبار المثقفين والمطلعين على التاريخ ، وشغل مناصب رفيعة في الدولة حتى انتهى إلى منصب أمير نجران في فترة من أشد الفترات خطراً



الأستاذ إبراهيم العنقري وزير الاعلام السعودي ، ومع أن مدة وزارته لا تزيد عن سنتين فقد نهض بالاعلام السعودي ، وكانت له آراء سديدة في نهضة الاعلام العربي عامة ، وقد أُخِذَ بها من قبل وزارات أعلام بعض الدول العربية